سلاسل الذهب



علي الجارم

الأعمال النثرية الكاملة

دار الشروق

علي الجارم

الأعمال النثرية الكاملة

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

© دار الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

سلاسل الذهب



علي الجارم

الأعمال النثرية الكاملة

دار الشروق

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارىء الكريم

لقد عرفتم المرحوم علي الجارم شاعراً كبيراً وديوانه الشعري الكامل طبع في «دار الشروق» للطباعة والنشر عام ١٩٨٦ وعرفتموه لغوّياً متمكناً حفظ القرآن كله في طفولته ثم التحق بالأزهر الشريف طالباً مجتهداً لأعلام الأساتذة في هذه الفترة (١٨٩٦ ـ ١٩٠٤م). ثم التحق بمدرسة «دار العلوم» لكي يتفوق فيها ويبعث في بعثة دراسية عام ١٩٠٨م إلى جامعات انجلترا لأربع سنوات ثم يعود مفتشاً للغة العربية بوزارة المعارف ثم كبيراً لمفتشيها ثم يُختار عضواً بمجمع اللغة العربية عام ١٩٣٢ منذ بدء انشائه وانتشرت كتبه في النحو والبلاغة في جميع البلاد الناطقة بالعربية هدياً وإرشاداً للمتعلمين. ثم عرفتموه ناثراً قصّاصاً عندما كتب رواياته الأدبية، هذه الروايات التاريخية التي كتبها بأسلوب شاعر فجاءت نموذجاً للأدب الرفيع واللغة الأصيلة التي عُرف بها الجارم من خلال كل انتاجه. استمع إلى ما قاله المرحوم الأستاذ أحمد العوامري عضو مجمع اللغة العربية في رثائه للجارم الذي كتبه في مارس ١٩٤٩: «ثم يخرج علينا في الأعوام الستة الأخيرة ـ وهو أحوج ما يكون إلى الراحة والجمام ـ بثماني روايات هي من مفاخر ما كُتب في القصص التاريخي بالعربية. ولقد قصد في كل رواية إلى قطعة بارزة من التاريخ العربي أو المصري فدرسها وبلغ إلى أعماقها وتغلغل في طبائع أشخاصها وبيئاتهم، حتى إذا اكتملت من نفسه هذه العناصر واستقام له سننها، عمد لها فحاكها من غير تكلّف ولا معاناة في لفظ مترقرق وسرد محكم وتصوير بارع. والعجب من الجارم الذي لا عهد لنا به من قبل قصّاصاً كيف استوت له هذه الملكة في كهولته، وكيف حذق أن ينسج من خيوط التاريخ الجافة هذا النسيج البديع؟».

كما نقرأ للمرحوم الأستاذ الدكتور عباس حسن في كتابه «المتنبي وشوقي» في أولى طبعاته عام ١٩٥١ قوله في صفحة ٣٨٢ ما نصّه: بقي من خصائص شوقي التي امتاز بها على المتنبي النثر الرائع حقاً فله في هذا الميدان كتاب سمّاه «أسواق الذهب». وما أحسبني مغالياً إذا قلت إن النثر الأدبي البليغ والنثر العلمي المتأدب الرفيع لأديبنا المرحوم الأستاذ علي الجارم ليمتاز به الجارم على المتنبي وشوقي وسائر شعراء العرب قديماً وحديثاً كما تنطق بذلك كتاباته النثرية الصادرة عن موهبة فنيّة أصيلة جعلت منها جميعها سلاسل الذهب لا مجرّد «أسواق الذهب».

ولقد آثرت أن أقدّم هذا القصص التاريخي كاملاً وفي مجلد واحد حتى يأخذ مكانه في المكتبة العربية بجانب ديوان شعره دلالة على عظمة هذا الأديب الكبير وعلى بلاغة أسلوبه العربي الرصين. وسبحان الموفّق.

يناير ١٩٨٨

دكتور أحمد علي الجارم



فارس بني حمدان

سبتمبر ١٩٤٥

سرى موكب الدنيا يشيد بذكره ... وينقل للأسماع روعة شعره
حسام بكف الدهر قد سل حقبة ... وأغمده ريب المنون بقبره

بدر الدين علي الجارم

١

ـ بالله عليك لا تطيلي يا ليلى، فإنّ مما يُثير شجون النفس، ويَزيد فى ألم الحزين، أن يُدفع إلى العزاء والصبر؛ بكلمات خاوية متخاذلة حفظها الناس لينثروها فى كل مأتم. إنّ كل كلمة من هذه يا ليلى شعلةٌ تؤجّج وَجْدى، وتضطرم فى فؤادى. إنّ الحزن حرَمٌ قُدْسيّ يجب أن تخشع أمامه الرؤوس بالصمت والإطراق.

ـ ولكنك يا سيدتي «سَخينة» تكادين تقتلين نفسك حرَضاً[١]، وتعصفين بها همّاً. فقد مرّت أيام سبعة منذ دهَمنا الخبر المشؤوم لم يَرْقَأ لك فيها دمع، ولم تهدأ نفس، ولم يطمئن بك فراش. إنّ لنا في الله ثقةً يا سيدتي. وماذا نصنع وقد مزج الله بالحياة معنى الموت، وبالموت معنى الحياة؟ نحن يا سيدتي في زمن مضطرب لا يركدُ عَجاجه[٢]، ولا تسكُن سيوفه فى أغمادها، بعد أن انحلّت أواصر بني العبّاس، وأصبحت دولتهم أشلاءً[٣] ممزّقة، يفترسها كل مفترِس، ويُغير عليها كلُّ واثب. ففى كل أرض حرب مشتعلةُ الأوار[٤]، وفى كل دار أنين وبكاء، ولن نملك نحن النساءَ إلا أن نردّد قول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

ولـولا كثـرةُ البـاكين حولي ... علـى قتلاهـمُ لقتلـتُ نفسى
ومـا يبـكون مثـلَ أخـى ولكن ... أعـزّى النفسَ عنـه بالتأسّى[٥]

---

(١) الحرض: الحزن القاتل والهم الشديد.
(٢) العجاج: الغبار والدخان.
(٣) الأشلاء: جمع الشلو (بكسر فسكون) وهو العضو، وأشلاء الإنسان: أعضاؤه بعد البلى والتفرق.
(٤) الأوار: لهب النار وحرها.
(٥) التأسي: مصدر تأسى، أى تعزى وتصبر.

ـ وهذا أعجب ما قيل في العزاء. إنّ الحزين الذي يتسلّى عن مصائبه بمصائب غيره لمأفون[1] الرأي سقيم العاطفة. والنفس التى تهدأ للكوارث تحُلّ بسواها، وتستريح في نكبتها لأصوات النادبات وعويل الباكيات ثم تنسى النار التى تلتهم دارها لأن لهيبها اندلع فى كل دار، لنفس شرِّيرة حَقُود. .

ـ ليس الأمر كما تظنين يا سيدتي. وإنما هى طبيعة بنى الإنسان تعبِّر عنها الشاعرة، فالحزين يتأسّى بالحزين، والغريب يُسْعِدُه الغريب. وقد طُبعت النفس على أن تستهين بمصابها عند نزول المصائب العظام والفوادح الجِسام، وقد يقيس المرء مصيبته بمصيبة غيره فيحْمد الله على السرّاء والضرّاء. .

ـ هذا كلام بعيد عن الإقناع يا ليلى، لأننى أبكى زوجاً كان قليل الأنداد[2] فى الأحياء، فأصبح قليل الأنداد فى الأموات، فليس إلى التعزّى فيه من سبيل. فعلى أبى العَلاء فلْيجزَع الصبر، وعلى سعيد فلتبك البواكى. ثم أطرقت إطراقة طويلة، وأخذت تهزّ رأسها فى وجوم.

كانت سخينة فى نحو الخامسة والثلاثين، صبيحة الوجه، جميلة الطلعة، فارعة الطول، ممتلئة الجسم. امتزج فى تكوينها الدم العربى بالسُّلالة الرومية، فجاءت صورة بارعة للملاحة العربية، والجمال الإغريقى معاً. وكانت تجلس فى ذلك اليوم، وهو الحادى والعشرون من رجب سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة، فى إحدى حُجُرات قصرها الذى امتاز بين قصور مَنْبِج (إحدى مدن الشام) بضخامة بنيانه، وارتفاع شُرُفاته، وروعة زخارفه. وكان يقوم فوق أكمة بالشمال الغربيّ من المدينة، بالقرب من «عين المسرج» بين الخمائل الزُّهْر[3]، والحدائق الفيح[4]، يحيط بكل ذلك سور ضخم سامق بُنى بالحجر الصلْد، وربض فى كل ركن من أركانه حِصْن منيع الذُّرا، يكاد يَجْبَهُ[5] الدهر، ويتحدّى نوازل الأيام. أمّا القصر فكان آية من آيات الفن الإغريقى فى اتساع حجراته وأبهائه، وعظم أعمدته التى نُحتت من الرُّخام الأبيض الناصع اللمّاع، وفخامة أثاثه، وجمال سقوفه وما زُيِّنت به من النقوش والصور، التى تعاون المال والفن الرفيع على أن تكون شَرَكاً للعيون، وفتنة للعقول. وكان القصر يموج بمن به من الجوارى،

---

(١) مأفون الرأى: ضعيف الرأى فاسده.

(٢) الأنداد: الأقران والنظراء.

(٣) الزهر: جمع الزهراء، وهى ذات الحسن والرونق والبهاء والإشراق.

(٤) الفيح: جمع فيحاء، أي واسعة.

(٥) يجبه الدهر: المراد يقهره ويذله، من جبهه، أى ضربه على جبهته.

يذهبن في أنحائه هنا وهناك، وقد غشّت وجوههن سحابةٌ من الحزن الصامت المكبوت[1].

كان هذا القصر لأبى العلاء سعيد الحمدانى عظيم أسرة بنى حمدان وشاعرها وفارسها المُعْلم، الذى هابته القبائل النازلة بالشام والموصل، واستجدت عونَه الدولة العباسية وهى تترنّح[2] للسقوط، واتخذت من شجاعته درعاً تقيها صولاتِ الأمراء الطامحين.

رفعت سخينة رأسها بعد طول الإطراق، ونظرت فى وجه وصيفتها ليلى نظرةَ الذاهل المأخوذ وقالت:

- إنّ ابنى حسيناً يصل من الموصل اليوم. فلعلنا نقف منه على جليّة الأمر فى مقتل أبيه.

- إنه لن يُعَوِّق يا سيدتى، لأنه أرقُّ قلباً من أن يتركنا طويلاً بين حُرْقة الحزن ومرارة الانتظار.

ثم أخذْنا فى الحديث فى مآثر سعيد وجوده وشجاعته، وذكرت ليلى مواقعه اللامعة ونصره المؤزّر[3] الحاسم على بنى كلاب وبنى النضير، وما كانت إلا ساعة حتى سُمِعت جلبة وضَوْضاء، ثم فتحت أبواب القصر، ودخل الحسين بن سعيد يمتطى جواداً أشهب[4]، كاد يُضنيه طول السفر وبعد الشُّقة[5] لولا كرم عربىّ فيه إنِف أن ينال منه التعب أو يمسَّه اللغوب[6].

وكان الحسين شاباً فارهاً[7] طويل نجاد السيف، وسيم الوجه، قوّى البناء، لم يجاوز العشرين، فوثب من فرسه ناشطاً إلى القصر، وأسرع إلى أمه يقبّل يديها ورأسها فى حنان امتزج فيه البر بالحب، والشغف بالإشفاق، وكان حزين النفس مُثْقَل الكاهل بالهموم، ولكنه حينما رأى وجه أمه، ولمح ما ارتسم فيه من سطور الحزن الأليم، والهَلَع القاتل، أسرع فبسط قليلاً من أسارير وجهه، ومحا من عينيه دمعتين تحيَّرتا فيهما بين الانهمال والجمود، ثم جلس إلى جانبها وأخذ يُدلِّلها - كما يُدلِّل الطفل الجازع - بعبارات أرقُّ من الدموع. وانطلق يقول فى صوت

---

(١) المكبوت: المكظوم، المكتوم.
(٢) تترنح: تتمايل.
(٣) المؤزر: القوى الحاسم.
(٤) أشهب: من الشهبة، وهى البياض الغالب على السواد.
(٥) الشقة: الطريق، والمسافة، والسفر البعيد.
(٦) اللغوب: التعب والإعياء.
(٧) الفاره: المليح الحسن الوجه، والنشيط الخفيف.

صادق النبرات لم يذهب الحزن برنينه، ولم تهزّه عواصف الشجون:

ـ لقد كان السفر شاقاً يا أماه، وكانت الطرق وَعْرة طويلة على الرغم من أننا كنا نطوى المراحل كما يَطْوِى البرقُ معصيراتِ الغمام[1]. وقد وثب علينا فى الطريق جمّاعة من بنى تميم أطمعتهم فينا قلة العدد وكثرة الغنيمة، فما كان إلا أن جرّدتُ سيفى، ودعوت أصحابى إلى الوثوب، حتى فرّوا كما يفرُّ الأمن من قلوب الجبناء.

ـ أنت يا ولدى ابن أبيك حقاً. ولكنّ هذه الشجاعة يا حسين هى التى أيتمت أبناء بنى حمدان، وأيَّمت[2] نساءهم. أنظر اليوم ماذا سيكون من شأن أخيك الحارث أبى فِراس، وقد تركه أبوه فى غضَارة[3] الطفولة، يتعثر فى سنواته السبع.

ـ إن اليُتم فى سبيل الشرف عزّة وكرامة. إنّ أبطال بنى حمدان يموتون ليحيا أبناؤهم، وإنّ ذلك المجد الباذخ، وتلك الصولة العاتية التى ملأت العراق والشام رعباً، لم تكن إلا صدىً لقبور الشهداء من بنى حمدان، الذين سقطوا فى الميدان بعد أن تحطّمت سيوفهم فى سبيل الشرف والبطولة. إننى يا أماه سأحيا بأبى، وسيحيا فىّ أبى، ولن يقول الناس إنّ ابن سعيد مات أبوه فبَخَعه[4] الحزن، وجلس فى إحدى زوايا قصره يبكى كما تبكى الإماء[5]. لا. لا. إن مجد بنى حمدان باقٍ على الدهر، وهو سرٌ قدسيٌ يحفظه الأجداد للآباء ويصونه الآباء للأبناء. أما أبو فراس... ثم أطرق قليلاً ورفع رأسه وقال:

فلن أعلم ولن تعلمى ما سيكون من أمر هذا الطفل اليتيم. ولكنى لا أستطيع أن أشك فى صدق ظنونى فيه. وإذا دلّ الفِرِند[6] على كرم السيف، ونمّ الغصن على طيب مَنْبِتِه، فإن مخايل أبى فراس تنبئنى بأنه سيكون بطلاً، وأنه سيترك فى الدنيا دوياً. إن هذا الطفل أعجوبة الأعاجيب! إنه وهو فى السابعة يبهَرُك برأى أصيل، وعزم صليب، وقلب لم يعرف الرعب، ولم ينل منه الفزع، إنك ترين في عينيه نبل محتِده[7]، وقوة نفسه، وكرم خيمه[8]. وإن فى ابتسامته الهادئة المشرقة أشعةً من الآمال الجسام، التى تسخر من الدهر، وتطمح إلى عظائم الأمور. هذا

---

(١) معصرات الغمام: السحب الماطرة.

(٢) أيمت نساءهم: جعلتهم أيامى، جمع أيِّم (كسكرى) وهى المرأة التى مات عنها زوجها.

(٣) غضارة الطفولة: رقتها ولينها.

(٤) بخعه الحزن: أهلكه أو نهكه وأضناه.

(٥) الإماء: جمع الأمة، وهى الخادمة والمملوكة.

(٦) فرند السيف: جوهره ووشيه.

(٧) المحتد: الأصل.

(٨) الخيم: الطبيعة والسجية.

الطفل الصغير يا أمى عصارة المجد الحمدانيّ، وملتقَى عناصر قوّته. فسالت الدموع من عينى سخينة وقالت:

ـ صدقت يا حسين. لقد رأيته أمس من نافذة حجرتي، وهو يقود جيشاً من أترابه[1] أبناء حرّاس الحصون، وقد حمل بيمينه غصناً كان يسمّيه الصارمَ البتّار، وثب به فى خفة النّمِر على من زعمهم أعداءه، فبدّد شملهم جميعاً، ثم صعد إلىّ فى صَلَف الشجاع المنتصر يحدّثنى بأخبار الموقعة، وما ظفِر به من أسرى وغنائم، ولكنه أجّج نار أشجاني حينما سألنى عن أبيه، فلماّ قلت له: إنه ذهب إلى بغداد ليحارب أعداء الخليفة، أمال رأسه في شمم واعتداد وقال: لِمَ لمْ يأخذنى معه؟ إنني أحبُّ الحرب وأهوى النضال، وإن هذه الحرب الصوريّة بين هؤلاء الصبية لا تشْفى من نفسى غليلاً. وحينما أبصر دمعتين تطفران من عَينيّ قال: أنت لا تحبين الحرب لأنك لم تتذوقى نشوة الانتصار! فأسرعت وقلت: إن الناس يموتون فى الحرب يا بُنىّ. فأخذه الضحك طويلاً ثم قال: الموتُ خيرٌ من حياة كحياة جاريتى هيلانة التى دخلت حجرتَها نحلةٌ بالأمس فطارت نفسها هلعاً، وملأت جوانب القصر صياحاً وضجيجاً.

ـ إنه كما قلتُ لك أعجوبة الأعاجيب، وصورة صادقة من أبيه، وإنّ أمًّا تسعدَ بمثله، وترقب ما ينتظره من مراتب العظمة وبعد المنزلة، جديرةٌ بألا يجد الحزن إلى قلبها سبيلاً. إن أبى لم يمت يا أمى، وإنما تجدد شبابه فىّ وفى أخى أبى فراس. ثم طفق ينشد من قصيدة بشامة النهشلىّ:

إنّا ـ بنى نهشل ـ لا ندّعى لأبٍ ... عنه، ولا هو بالأبناء يَشرينا[2]
إن تُبتدرْ غايةٌ يوماً لمكرُمةٍ ... تلقَ السوابقَ منا والمصَلّينا[3]
وليس يهلكُ منّا سيّدٌ أبداً ... إلا افتلينا غلاماً ناشئاً فينا
إنا لمن معشر أفنى أوائلهم ... قيلُ الكُماة: ألا أين المحامونا؟[4]
إذا الكماةُ تنحَّوْا أن يُصيبهم ... حدُّ الظُّبات، وصلناها بأيدينا[5]

(١) أتراب المرء: لداته، ومن كانوا فى مثل سنه، المفرد ترب (بكسر فسكون).

(٢) ادعى المرء إلى غير أبيه: انتسب. ويشرينا: يبيعنا.

(٣) ابتدر القوم غاية: تسابقوا إليها. والسوابق: جمع السابق وهو أول خيل الحلبة، ويقال له أيضاً المجلى، ويريد بالسوابق: السباقين منهم إلى المكرمات. وصلى الفرس: تلا السابق وتبعه ووصل إلى الغاية فى أثره، فهو المصلى. ويريد أنهم يستأثرون بالمكرمات كلها، فمنهم السابقون، ومنهم المصلون.

(٤) الكماة: جمع الكمى، وهو الشجاع المدجج بالسلاح. والمحامون: المدافعون.

(٥) الظبات: جمع ظبة، وهى حد السيف والسنان ونحوهما.

لقد مات أبي ميتة الكريم الشجاع، كان يجود بنفسه وسيفُه في يمينه يضرب به ذاتَ اليمين وذات الشمال.

ـ قل لى كيف مات بحقك؟ فزفر زفرة طويلة، وأطرق إطراقةَ المفكر الحائر كأنه يريد أن يجمع شوارد نفسه، أو أن يتخلّص من الظنون التى كانت تُغاديه وتُراوحه منذ شهد المعركة، وقال:

ـ ـ تعرفين يا أماه ما كان بين أبي والخليفة الراضى العباسيّ من أواصر المودّة، وتعلمين خبر تلك الرسالة التى أرسلها إليه الخليفة منذ ستة أشهر، يستدعيه إليه، ويتعجّل رحيله، ويشير فيها فى خفاء وإبهام إلى أنه فى حاجة إلى عونه، والاستظهار به[1] على أعدائه من الترك والعرب. وقد كان أبى إلى إجابة الخليفة أسرعَ من رجع الصدى كما تعلمين. فرحلنا إلى بغداد فى قلّة من عبيدنا ورجالنا، فلما وصلنا إلى دار الخلافة لقىَ أبى من الخليفة من صنوف الإكرام، وحسن الوِفادة، وتقريب المنزلة، ما ملأ قلوب الحاشية حقداً وضغناً. وفى ذات ليلة همس أبى فى أذنى بأن الخليفة ولاه إمارة الموْصِل وطلب منه السفر إليها بعد يومين.

ـ يولّيه إمارة الموصل وهى فى يد ابن أخيه ناصر الدولة! هذه مكيدة خسيسة من هذا الخليفة الضعيف الماكر، يريد بها أن يُوقع العداوة والبغضاء بين رجال هذه الأسرة الباسلة، التى أقضّت مضجعه، وأخذت تبتر أوصال مملكته فى العراق والشام، فلم يجد هذا الخبيث من وسيلة إلا أن يُغرى أبناء العمومة بعضَهم ببعض، وأن يحاربهم بسلاحهم، ويطعنهم برماحهم، فإذا انتصر أحدهم على أخيه هلّل له وكبّر، ونثر فوقه أزهار المديح والثناء، وهو يرى فى دخيلة نفسه أنه قد استراح من فريق عظيم منهم، وأنّ الفرصة ستواتيه للقضاء على الفريق الآخر. هكذا أصبح دأبُ هؤلاء الخلفاء منذ دالت دولتهم[2]، وأصبحت نهباً مُقسّماً بين الأمم، فإنهم حين فقدوا سلاح القوة، برعوا فى الكيد والحيلة. والضعيفُ دائماً يستعير لنفسه قوةً من نصْب الأشراك، ودس الحبائل.

ـ هذا ما استطعت أن أبوح ببعضه لأبى، لأنك تعرفين ما كان له من الهيبة وعُنْف الشكيمة[3] التى تعقل اللسان دون مخالفته، فما كان منه إلا أن قال فى استنكار وغضب: ماذا

---

(١) الاستظهار: الاستعانة.

(٢) دالت الدولة: انقلبت وأدبرت.

(٣) الشكيمة: الطبع.

تريد يا فتى؟ أتريد أن تقول إن الخليفة لا يملك عزل أمير وتوليةَ أمير؟ أتريد أن تقول إنه أصبح من الضعف والخورَ بحيث لا تتجاوز أوامره جدران قصره؟ نحن يا بُنيّ خدّام الخليفة، وعُدَّته في الشدائد، وقد بقيت الخلافة في أبنائها إلى اليوم بأسنّة بني حمدان وسيوفهم. إن ابن أخي ناصر الدولة لا يملك إلا أن يطاطىء رأسه لحكم الخليفة.

- فهل طأطأ رأسه حقًّا؟

- لا أدري. وقد ساورتني في هذا الشأن شكوك مبرِّحة اضطرب لها ميزان عقلي، وكادت تقضي عليّ. فتنهدت سخينة ولمع في عينيها لهيب الغضب وقالت: امض في حديثك يا بُنيّ.

- أتظنين أن لابن عمي يداً في مَقْتَل أبي؟

- امض في حديثك يا حسين. قاتل الله المناصب، وقاتل الله الجشع، وقاتل الله الحرص الذي أذلّ أعناق الرجال؛ إن إدراك المسألة سهل هيّن، ما كان ينبغي أن يخفَى على أبيك. ذلك أن الراضي جشعٌ ماكر، وقد حرمه ناصر الدولة خيرات الموصل وذخائره واستأثر بها دونه، ولم يبعث إليه منها شيئاً. وكانت جبايتها أيامَ المأمون آلافَ الآلاف من الذهب والفضة، فأراد الخليفة أن يجعل من أبيك شبكة لاصطياد هذه الأموال على أن يُلْهِيهَ بقليل منها، وأحسّ ناصر الدولة بأن الغنيمة ستطير من يديه؛ فثارت نفسه، وصمم على الاحتفاظ بها ولو قتلَ في سبيل ذلك أعز الناس لديه. وأكبرُ ظني أن عيونه وجواسيسه بدار الخلافة طيّروا إليه الخبر فأخذ له الأهبة، وأعدّ له العُدّة. امض في حديثك يا حسين.

- غادرنا بغداد في خمسين رجلاً...

- في خمسين رجلاً؟ يا له من جيش لُهام(١)!

- نحن لم نذهب لحرب، ولم نتحفزْ لقتال، ولكنا ما كدنا نصل إلى مشارف الموصل حتى خرج علينا كمين في غَبَش الظلام عدّته نحو خمسمائة فارس، فأحاط برجالنا من كل جانب، وجال أبي بفرسه ليخترق ثغرة في صفوفهم، ولكنهم تواثبوا عليه وخزاً بالرماح، وضرباً بالسيوف، وهو ينثر رؤوسهم بسيفه كما ينثر الزراع الحَبّ، ويكرُّ هنا وها هنا كما يكرّ النمر اليائس حتى تمزّقت درعه، وصبغتها الدماء. وقد عمدْتُ إلى قائد عصابتهم فرميته بسهم فسقط تحت سنابك الخيل، وأسرعت إلى أبي وقد أثقلته جراحه فحملته إلى المؤخرة، ولم تمض لحظات حتى لحق بآبائه الشهداء.

---

(١) جيش لهام: كثير عظيم.

فبكت سخينة طويلاً ثم رفعت رأسها وقالت: وبعد موته رحل هذا الجيش المغير، ولم يستأصل بقيتكم؟

- نعم.

- وهل بعد هذا تبقى عندك خَلْجة[1] شك في أن المكيدة أعدّت لأبيك، وأن الذي أعدّها هو الذي يخشى من مزاحمة أبيك؟

- إن لأبي أعداءً كثيرين يا أمي، وإن شجاعته لم تترك قبيلة إلا ولها عنده ثور.

- ظنُّ كما تشاء يا حسين. أين دفنتموه؟

- دفناه فوق هَضْبة شرقيّ مدينة الموصل تحت شجرة زيتون.

وبينما هما في الحديث إذا صياح وَجَلَبَةٌ في بَهْو الدار، وخادمةُ أبي فراس «هيلانة» تهرول وهي تلهث وتتمتم بكلمات ارتطمت فيها العربية بالرومية، وأبو فراس يعدو أمامها راكباً رمحاً انتزعه من حائط كان معلقاً به واتخذ منه جواداً كريماً حتى دخل الحجرة التي بها أمه وأخوه، وهو يصيح:

- هذه الجارية البلهاء تستنكر على مثلي أن يمتطي جواداً. لقد كان أبي يُحب هذه اللُّعبة ويعِدُني بحصان حينما أبلغ التاسعة، أين أبي يا حسين؟

- أبوك في مكان عال تتلاقى فيه الرياح، وتجوده أخلاف[2] الغمام.

- ولِمَ لَمْ يعدْ معك؟

- إنه لو استطاع أن يعود لعاد، ولكنّ الحرب أبت إلا أن تقتضيه دَيْنَ الشرف والبطولة.

- وما دَيْنُ الشرف والبطولة؟

- الموت! فهزّ الطفل رأسه وهو يغمغم:

- الموت، الموت! الموت دين الشرف والبطولة! ثم حملق في وجه أخيه وقال:

- والثأر أيضاً يا حسين دَينُ الشرف والبطولة؛ إنه ماحي العار، ومخمد النار! ثم انطلق يعدو بجواده في أنحاء القصر لم تَدمع له عين، ولم يُبح صدره بزفرة أنين.

---

(1) خلجة: اسم مرة من خلج بمعنى تحرك واضطرب والمراد بخلجة الشك: أقله وأيسره.

(2) تجوده أخلاف الغمام: تسقيه السحب الماطرة، على تشبيهها بالناقة. وأخلافها: حلمات ضرعها، المفرد خلف (بكسر فسكون).

٢

تابع الفَلك دورته، وتعاقبت سنواتُه، والأمير الصغير فى كلّ يوم تتفتح مواهبه، وتتجلّى مخايله، كالزهرة تُحسّ بأنفاس الربيع فتتخايل فوق غصنها، وكالنجم يمتدّ به الليل فيزيد تألُّقاً وسطوعاً. وليس من شك فى أن الطفل صورة من الوراثة والبيئة، فإذا اجتمع فى ناشىء كرم المَنْبِتْ، وسلامة الطبع، وصحة الجسم، وحسن الإشراف، كان مثلاً عالياً للإنسانية الكاملة. وأميرنا أبو فراس قد فاز بكل هؤلاء؛ فكان جديراً أن تُعقد به الآمال، وأن تترقَّبَه مناصب الرياسة، وتتهيّأ له صدور المحافل.

نشأ في كنَف أخيه الحسين، وفى رعاية أم رؤوم[1] تظلُّه بجناحها، وتغذوه بحنانها. وكان الحسين يثير فى نفسه الاعتزاز بقومه وبتاريخه المجيد، ويحفزه إلى العظمة والسيطرة والبطولة. ولم تقصِّر حاضنته عائشة النزارية فى الرمى نحو هذه الغاية، فإنها رأت جذوة فى نفسه فطفقت تنفخ فيها حتى تركتها شُعْلة متأججة، تقذف بالشرر. وكثيراً ما كانت تجلس إلى جانب سريره عندما يأوى إلى فراشه، وتقصّ عليه سيرَ أجداده، ومآثر آبائه، بأسلوب يهزُّ العاطفة، ويثير الوجدان. فهى إذا تحدّثت عن حمدان جَدِّ هذه الأسرة، أخذت تجلو من أخبار شجاعته ومروءته صوراً امتزجت فيها الحقيقة بالخيال، وتذكر كيف أنه أبى أن يخضع للمعتضد العباسىّ، وأن يُلقى إليه بالقياد، فاقتطع من أملاك الدولة العباسية إمارة «ماردين» ونادى بنفسه عليها ملكاً مستبداً ولم يبال ما كان للمعتضد فى ذلك الحين من دولة وصولة. ثم تصف ما كان بعد ذلك من غضب المعتضد وحَنَقه على هذا العربىّ الثائر، وكيف أنه بعث إليه بجيش جرّار، ولكنّ هذا

---

(١) رؤوم: ذات عطف وحنان.

الجيش ما كاد يلتقي برجال حمدان حتى مني بالهزيمة والخذلان، وعاد الخليفة بفلوله[1] مدحوراً، ونارُ الغضب تأكل صدره، فلم تهدأ له ثائرة حتى رماه بجيش آخر لا يعرف أولُه أين آخره، ولكنّ حمدان كان إلى شجاعته وتحدّيه الموت ذكيًّا واسع الحيلة، يُقدم ـ كما يقول عنترة ـ إذا كان الإقدام عزماً، ويُحجمُ إذا كان الإحجام حزماً، فلما رأى أنه في قلة من رجاله، وأن في المناجزة[2] إلقاء بيده إلى التهلُكة، اتخذ الليل مركباً، وسرى في ستار من ظلمائه كما يسري طيف الخيال، لا تناله الأكفُ، ولا تُبصره العيون، وتراجع تراجع الليث ليثب، وطلبه الخليفة في كل مكان، وبثّ وراءه العيون، وأخذ عليه الطرق والمناهل[3]، ولكنه كان شُعاعاً لا تُمسكه يد قابض، وسرًّا لا تدركه العقول. وكان أهونَ على الخليفة أن يصيد العنقاء، أو يقتنص نجوم السماء، من أن يحاول أن يمسه بضرر، أو يقف له على أثر. اختفى حمدان، ولكنّ ذكاءه ونفاذ بصيرته لم يختفيا، فأوعز إلى ابنه الحسين أن يصانع الخليفة حتى ينال بالحيلة ما رأت القوة أن تتركه إلى حين، وقد كان رأيه صواباً، فنال الحسين الحُظوة عند المعتضد فأغضى عن ثورة حمدان، وأعاد إلى قومه ما كان لهم من نفوذ وسلطان.

تقصُّ هذا القصص وأمثاله، والطفل ذاهل مأخوذ حيناً، وواثب من سريره أحياناً، وكلما حاولت الانتهاء طلب إليها المزيد. وكأنه كان يستمدّ من أرواح أسلافه قوّة، ويستلهم من سيرتهم عزيمة، ويتخذ من تاريخهم غذاء لكبريائه.

وفي ليلة ألحّ عليها أن تحدّثه عن أبيه، فنظرت إليه وأطالت النظر، وقالت: أما أبوك فكان سيد بني حمدان وأصدقهم رأياً، وأثبتهم قلباً، وأطهرهم نفساً. ولقد كان إذا ركب بين الفُرسان فرَعهم طولاً، وبذّهم جُرْأة وإقداماً، وكان إذا عُدّ الأجواد أبسطَهم كفًّا، وأرحبهم فِناء، وأسبقهم نازعة إلى المعروف. أذكر ليلة حينما قدم من حلب من قتال بني تميم...

ـ ومن بنو تميم هؤلاء؟

ـ قبيلة قوية الشكيمة، صعبة منال الزمام، لا تلين أعناقها لحاكم، تحدّت جيوش الخليفة المقتدر بالله العباسيّ، فعاثت في أعمال حلب، فاستنجد الخليفة بأبيك وأخيه الحسين، فبرزا إليها في جيش خضَمّ[4]، ونشب بين الفريقين قتال مرّ المذاق. وحين قدم أبوك من هذه الحرب،

---

(1) فلول الجيش: بقاياه المنهزمة.

(2) المناجزة: المبارزة والقتال.

(3) المناهل: الموارد والمشارب.

(4) جيش خضم: كثير جرار.

ذهب على الفور إلى حجرة أمك حزيناً مهموماً، فظننا أولَ الأمر أنّ الهزيمة لحقت بجيشه. وأخذت أمك بما وهب الله لها من لباقة ومعرفة بفنون الكلام، تُرَفِّه عنه، وتلوِّح من بعيد بأن هزيمة الشجعان خير من انتصار الجبناء، وأنّ النصر كالمرأة الفروك[1] تجفو الرجل أحياناً ليتشبث بها، ويزيد بها حبًّا وجنوناً. فالتفت إليها أبوكِ وَغَبَرَةُ الحزن لم تفارق وجهه وقال: ماذا تقولين يا سخينة؟! لقد انتصرنا على بنى تميم وطاردناهم إلى مضاربهم. وهنا قفز الطفل من سريره صائحاً:

ـ حيّاكَ الله يا أبى، وسَقْياً لجدّتك الطاهر، لقد خفتُ يا عائشة أن يكون قد هزُم أو أن يكون . . .

ففهمت عائشة ما تلجلج فى صدره، وقالت فى غضب:

ـ إن أباك لا يعرف الفِرار، ولو عرفه لكان بيننا الآن يملأ جوانب القصر حياة وقوّة، ويُشيع فيه البهجة والسرور. إنه لم يفرّ فى آخرة مواقعه أمام خمسمائة فارس من العتاة الأشدّاء، فقاتلهم حتى ضاق مجال فرسه، وحتى تحطّم حُسامه، فمات كريماً شهيداً. ثم عادت إلى حديثها الأول فقالت: وحينما علمتْ أمك بانتصاره قهقهت فى سخرية مصنوعة، وقالت: ومـاذا إذاً يُحـزنُ فارسنا المغوار، ويشوّه من وجهه الوسيم، بعد أن شتّت الجموع، وعاد بالأسلاب والغنائم؟ فاتجه إليها الأمير سعيد وقال: الذى يحزننى أننى بعد أن ركد غبار المعركة، سألت عن تمّام القُضاعيّ وفقد كنت شهدته يجول فى ميدان القتال ويصول، ويقذف بنفسه بين الكتائب كأنه أخذ على الموت عهداً، فعلمت أنه قُتل، فحزنت أشدَّ الحزن وأمضّه. ولم أحزن لأن رجلاً قُتل، فإنّ فى موت الشجاع فى الحوْمة[2] شرفاً لا يدرك معناه الجبان، ولكنى أعلم أنّ له زوجاً وأمًّا عجوزاً وبُنيّات أضعف من الثُّمام[3]، وأوهن من أضغاث الأحلام، كبراهن فى نحو الخامسةَ عشرةَ. لذلك أسرعت عند بلوغى منبج إلى داره. وحينما قابلت أمه أخذتُ فى مواساتها فلم تزد على أن تقول: إن ابنى اشترى الجنة بحياته ففاز بالثمن الربيح. ولما حاولت أن أقذف بين يديها كيساً به مائتا دينار، شخصت عيناها واربدّ وجهها فى غضب، وصاحت فى وجهي قائلة: رُحماكَ بنا أيها الأمير! إننا لا نبيع رجالنا بالمال، وخير لنا أن نموت جوعاً من أن نجمع بين موت تمّام

---

(١) الفروك: المرأة تظهر لزوجها البغض والكراهية.

(٢) الحومة: ميدان القتال.

(٣) الثمام: نبت ضعيف لا يطول.

ومَعَرّةِ الأبد! خذ مالك أيها الأمير، فإن فُتات الخبز فى ظل العزة والكرامة خير من موائد الملوك، فبُهِتُّ وأطرقتُ حزيناً، وخرجتُ من الدار حائراً مبهوتاً، ثم اتجه إلى أمك وقال: ألا نستطيع أن نعمل شيئاً لهذه الأسرة يا سخينة؟ إنّ لكِ طرائق فى التفكير ورثتها عن أجدادك الروم لم تدع أمامك باباً من الرأى مغلقاً. فأسرعت أمك وقالت: هوِّن عليك أبا العلاء، فإن الأمر جدُّ يسير، إننا نستطيع أن نزوّج كبرى بناته بأحد حرّاس القصر، وأن نُمهرها بمائتي دينار، ولن تجد العجوز غضاضة فى الأمر ولا حرَجاً، بل تسرُّ لأن الأمير شرّفها بالإصهار إلى أحد حرّاسه. حينئذ تلألأ وجه أبيك بشراً وصاح: مرْحى بابنة أفلاطون مرحَى! لقد علمتُ أنك لا يُعْوزُك الرأى الأصيل، والحيلة البارعة.

ـ وهل تمّ هذا الزواج؟

ـ تمّ بعد شهر من قدوم أبيك، وتزوج عمار الحارس بصبيحة القضاعية، وأصغرُ أبنائها اليوم هو أسامة خادمك، الذي تلعب معه في حدائق القصر.

هكذا كان يُغذّى الطفل بأحاديث البطولة، وهكذا كانت تُثار حَمِيَّته إلى ترسُّم خُطوات آبائه العظام. وقد وجدتْ هذه الأحاديث من نفس الطفل أرضاً خصبة ومَنبتاً طيباً فزادها خياله ضخامة وعِظماً، وكانت شغلَ نهاره ومسرحَ أحلامه، فطالما استبطأ الزمنَ الذى حال دونه أن يجرِّد سيفاً أو يشهَدَ فى قَتام[1] الخيل واشتباك الرماح مشهداً.

ولما بلغ الرابعة عشرة وأجاد القراءة والكتابة، قسمت أمه وقته بين مجلسين: مجلس بين الأدباء والشعراء وعلماء الدين واللغة والتاريخ، ومجلس فوق صَهَوات الخيل وبين خيرة المدرِّبين على الفروسية وأساليب الضرب والطعان. وكان من أبرز الشعراء المنقطعين لتعليمه أبو الحسن المعروف بالناشيء الأصغر، فقد أملى عليه شعره، وقرأ معه كثيراً من دواوين القدماء والمحدثين، وأخذ يوجهه إلى طرائق النقد، ويبصره بمواطن السحر والجمال فى جيِّد المنثور والمنظوم. وكان أبو فراس يؤثر شعرَ عنترة فى الجاهليين، وشعر الفرزدق والكُمَيْت فى الأمويين، ويروِّح عن نفسه بشعر كبار الشعراء العباسيين كبشار وأبى نُواس والحسين بن الضحاك.

والحق أن نفسه كانت مختلفة النزعة، فبينما هي جِدٌّ وصرامة وتوثّب إلى معالى الأمور، إذا هى حنّانة إلى اللهو العفيف، توّاقة إلى التمتع بنعيم الحياة واجتلاء أسرار الجمال. والجمالُ

---

(١) القتام: غبار الحرب.

مظهر من مظاهر هذا الكون تدركه النفس الشّفافة وتهفو إليه، وترى فيه مُتعة وغِذاء، والنفوسُ تصدأ كما يصدأ الحديد ولا يجلوها إلا فترات من السرور الذى لا يخدش الفضيلة ولا يمس الكرامة.

كان الناشىء الأصغر يقرأ معه يوماً بائية الكميت فى مدح بنى هاشم، فلما قضيا فى درسها طويلاً التفت إليه وقال: أقلتَ شيئاً من الشعر جديداً؟

ـ لقد جال بالأمس فى نفسى شعر أحسست به كأنه همسة الوحى فأسرعت إلى القلم لكتابته. فنشط الناشىء وقال: هاتِ أبا فراس. فأنشد:

تطالبنى البيضُ الصوارم والقنا بما وعدت جدىّ فىّ المخايلُ[1]
فمثلى من نال المعالى بسيفه وربّتما غالته عنها الغوائل
وما كل طلّاب من الناس بالغٌ ولا كل سيّار إلى المجد واصل

فصاح الشيخ وقال: إيه يا بن حمدان! هذا هو الشعر الذى عجزت عنه شياطين الشعراء! زدني بالله يا بن سعيد زدنى فقال:

خيلى وإن قلّتْ كثيرٌ نفْعُها بين الصوارمِ والقنا الرّعافِ[2]
ومكارمى عددُ النجوم ومنزلى مأوى الكرام ومنزلُ الأضياف
لا أقتنى لصروف دهري عُدّة حتى كأن خطوبَها أحلافى
شيمٌ عُرِفتُ بها غلاماً يافعاً ولقد عَرَفتُ بمثلها أسلافى

فطرب الناشىء وقال:

حقًّا إن منبج لم تنجب بعد أبي عبادة البُحْترى مثلك. اصدَح يا بُنىّ كما تشاء وغرّد، وعلّم طيور الشام تلك الألحان القوية المملوءة بذكريات المجد والبطولة، فإن الناس حيث شعراؤهم. فلقد سئمنا تلك الأشعار الرخوة الخائرة، التى قتلت فى نفوس العرب النخوة والشهامة، وصدفتهم عن التطلع إلى المجد والغَلَب، فعاشوا فى بُلَهْنِية[3] النعيم، واستناموا إلى الراحة بين ظل الأشجار، وخرير الأنهار، وبين قَيْنة[4] وكأس، وعبث ومجون. وهذا العبث إلى ما مُنِىَ به

(١) يراد بالمخايل: أمارات النجابة.
(٢) الرعاف: الذى يقطر منه الدم.
(٣) بلهنية العيش: رخاؤه ورغده.
(٤) القينة: الأمة، أو الأمة المغنية.

العرب مع الاعتماد على الغرباء، وإلقاء شئون الدولة إليهم، هو الذى قضى على الدولة العباسية، وأتى على بنيانها من القواعد، بعد أن ملكت أطراف الأرض، وتحدّث الدنيا بالعلم وقوّة السلطان أيامَ الرشيد والمأمون. لقد رمحتنا[1] الدنيا بعد أن كنا نقتعد منها صهوة العزّ والصولة. هذا خليفتنا العباسىّ الذى بايعه الديلم بعد أن خلعوا أخاه وسمَلوا[2] عينيه، يجلس اليوم على عرشه كما يجلس القرد الخائف المذعور تذهب عيناه يميناً وشمالاً حيث اتجهت عصا صاحبه، وقد علمت أن هذا البائس المنكود أمر أن تنقش على النقود أسماء ثلاثة من أمراء الديلم بعد أن أصبح بينهم لعبة تشدُّها ثلاثة خيوط!

وإذا اتجهنا إلى ناحية الروم، رأينا أنهم لم ينسوا ثأرهم عند العرب الذين ثلوا عروشهم، وبددوا ملكهم، فأخذوا فى مدَى هذه القرون يُعدُّون العدة، وينفثون فى رجالهم روح الحقد على المسلمين، ويلوّحون لهم بأمل برّاق، ويمنونهم الأمانىّ، ويصوِّرون لهم ذلك اليوم الموعود الذى تعود فيه مملكة الروم التى اغتصبها المسلمون إلى حوزتهم. وها هم أولاء اليوم رابضون بالقرب من طَرَسوس يتحينون الفرصة للوثوب، ويغتبطون بما أصاب دولة الإسلام من تمزّق، وبما شجر بين أمرائها من حقد وعداء وانقسام.

وهنا قال أبو فراس فى صوت تكاد تخنقهُ العبرة: إن الأمم تموت حينما تنسى أخلاقها، وتغفلُ عن تاريخها. ولن تعود دولة العرب إلا إذا عاد أهلها إلى أخلاق العرب!

بهذا وأمثاله كان يُنشأ أبو فراس فى دراسة الأدب والتاريخ. وقد دفعته هذه الدروس إلى الاستزادة والتوسع والانصباب على العلم حيثما وجده فكان يخلو بنفسه ساعات فى خزانة الكتب بالقصر ينتقل بين كتبها كما تنتقل النحلة من زهرة إلى زهرة لتجنى العسل طيّباً شهيًّا.

أما تدريبه على الفروسية وأساليب القتال، فكان يقوم به واصلُ بن عبدالله أعظم المدرِّبين مهارة، وأبرعهم ضرباً بسيف أو طعناً برمح أو إصابة بسهم، ولم يكن يجد فى تدريب الفتى الناشىء عَنَتاً أو مشقة، وكأنما كان يعلِّم السمك أن يسبَح فى الماء، والطير أن يحلق فى السماء، فإن أثر الوراثة فى أبى فراس كان عميقاً بعيد الغوْر، فلم يمض شهر حتى حذقَ فنون الحرب، وركوب الخيل، وأخذ يفاخر أنداده ويصاولهم، ولم يُعْقَد رِهان إلا كان فيه المجلّى السّباق. وكم أغراه التمكن من فنون الفروسية بكثير من التهور والمجازفة، فكان يركض فرسه ويُلهبه

(١) رمحه: ضربه بالرمح، ورمحته الدابة: رفسته.

(٢) سمل عينه: فقأها وأتلفها.

بالسوط ليثب به فوق مسيل ماء يبلغ عرضه عَشْرَ أذرع، دون أن يبتلّ حافر فرسه، وكان يقيم سداً مرتفعاً من جذوع الأشجار، ثم يهمز جواده فيثب فوقه كأنما يطير في الهواء. وقد أفزعت هذه الأفانين واصلا، وخاف عليه مغبَّتها، فأفضى إلى أمه بمخاوفه، ولكن أمه لم تلبث حين سمعت حديثه أن هزّت كتفيها فى قلة اكتراث، ونظرت فى وجه واصل بعد أن أطبقت عينها اليسرى فى غرور وكبرياء، وقالت: ما عليك من هذا يا بن عبدالله. إنّ بنى حمدان يجب أن يعملوا ما لا يستطيع عمله الناس. وإلا فلمن أعدّت خطيراتُ الأمور؟

٣

شغلت الشام وبخاصة مدينة حلب فى هذه الأيام بالحديث عن نجلاءَ الخالدية، وسرَتْ شهرتها بالجمال البارع من فم إلى فم، وتناقل الناس فى إعجاب وإكبار ما ازدانت به من خُلُق ودين ولطف وأدب وخفة رُوح وعلو نسب. وكانت نجلاء حقًّا كما يصفون وفوق الذى يصفون، فقد وهب الله لها وجهاً واضح الجبين، رائع القَسمَات(١)، به عينان يتألق فيهما الطهر ويُشعّ منهما النبل وكرم المحتد، ومنحها نفساً أصفى من قطرات الغمام، وأقرب إلى نفوس الملائكة الأطهار. نشأت فى بيت علم وأدب ينتمى إلى أسرة رفيعة المجد باذخة الشرف، وقد بلغ فى هذا الحين أخواها محمد وسعيد الخالديان منزلة أثيرة عند سيف الدولة بن حمدان أمير حلب، وكانا يُشرفان على خزائن الكتب فى قصره. فنمت نجلاء فى هذا البيت الكريم، وتعهدها أخواها بالتعليم والتهذيب حتى برعت فى فنون الأدب، وقالت الشعر الجيد الرصين. وكانت دارها مثابة الأدباء والشعراء والعلماء يغشونها لينعموا بطرائف الأحاديث والأخبار، وروائع الشعر والأدب، ولينالوا من كرم نجلاء وحسن ضيافتها ما يعزّ على موائد الملوك.

وكثيراً ما أشاد بمديحها الشعراء، وكثيراً ما غنى المغنون بحسنها فرددت آفاق حلب هذا الغناء عذباً مشجياً. وكثيراً ما كانت نجلاء تسمع هذا الغناء فتبتسم وتهز كتفيها فى أنفة وشىء غير قليل من الخجل.

شغل الناس بنجلاء، وتسابق فتيان الأسر الكريمة إليها يستجدون نظرة رضا، ويتمنى كل

---

(١) قسمات الوجه: محاسنه.

شاب منهم لو أسعده الحظ بأن يكون لها بعلا، باذلاً فى سبيل ذلك كل ما فى يديه من مجد وشهرة ومال، ولكن هذه الزهرة الناضرة النقية لم تقابل هذه النَّحْل المزدحمة حول رحيقها[1] المختوم إلا بإبتسامة الزهر لأشعة الصباح. فقد علّمها أدبها ونبل أخلاقها أن تعطف على الناس جميعاً فى وداعة وصيانة، وأن تسطع عليهم جميعاً كما تسطع الشمس، لا يختص بشعاعها قصر أمير، ولا يحرم ضياءها كوخ بائس فقير. فما يكاد يظن شاب أنه فاز منها بلمحة رضا حتى يدعمَه اليقين بأن ما كان يظنه قبولاً لخطبته لم يكن إلا لطفاً فى الرد وأدباً فى الإباء.

وكان أشدَّ الفتيان حرصاً على خطبتها، وتشبثاً بالرغبة فى تزوّجها قَرْعَوَيْه غلام سيف الدولة وقائد إحدى كتائبه.

كان شابًا جميل الطلعة، مديد الطول، تيَّاهاً شديد الغرور بنفسه والزهو بها، يجمع إلى ذكائه طبيعة النَّمِر فى الفتك، وغريزة الثعلب فى الدهاء والحيلة. عرض هذا القائد على نجلاء كل شىء ليكون لها زوجاً فلم يظفر بشىء، وكثيراً ما منَّاها الأمانىَّ، وهمس فى أذنها بما ينتظرها من جاه وثروة وبعد مكانة، ولكن فتاتنا كانت تقابل كل هذا بابتسامة مهذّبة لطيفة تمتزج فيها الدهشة بالحياء، وتقول: ما أجمل هذا! حقًّا إنه بديع، ثم تنطلق إلى حديث آخر فى لباقة وأدب، حتى إذا طال الكلام انفلتت منه كما ينفلت الطائر قبل أن تعلق به حبالة الصائد.

وهكذا مضت الأيام وقرعويه يزيد إلحاحاً، وهى تزيد عنه بعداً وانصرافاً.

وكانت فاطمة أخت نجلاء تسكن بمنبج، حيث يقيم زوجها الحسين الجوهرى أكبر تجار الجواهر بالمدينة. فقَدِمتْ نجلاء من حلب لزيارة أختها مع خادمتها سلمى العراقية، وهى امرأة فى الستين من عمرها لئيمة الطبع، لها دهاء وفضلة من ذكاء، صرفتهما فى الحيل والخبث واقتناص المنافع. ولم تقصد نجلاء من هذه الزيارة إلا أن تروِّحَ عن نفسها قليلاً من صخب حلب وازدحامها، وقد راقها ما رأت فى منبج من حسن منظر، وطيب هواء، فأطالت مدة إقامتها.

وفى ذلك الحين كانت شجاعة أبى فراس وصباحة وجهه، وكرم خلاله قد سارت مسير المثل فى المدينة، ووصلت أخبارها إلى كل بيت، وتطلّع كل عظيم إلى أن ينال شرف مصاهرته. أما الأمهات فقد رفعن رؤوسهن، ومددن عيونهن، وأرهفن آذانهن لكل ما يصل إليهن من أخبار بطل منبج وفارسها الباسل. وأعدّت كل أم ابنتها لهذا الشرف، وأخذت تمهد لها إليه

---

(١) الرحيق: الخمر.

السبيل. والأم حينما تلد بنتاً لا تفكر في شيء إلا في زواجها، وحينما تهزّ مهدها - وهي تتفرس في وجهها، وتدّعي أن كل هفوة للجمال فيه إنما هي حسن من نوع غريب لا عهد للناس به - لا يخطر ببالها إلا إحصاء أبناء المدينة ممن هم في طبقتها واحداً واحداً، وتخيُّر أكرمهم محتداً، وأعظمهم ثروة وأملحهم وجهاً، حتى إذا استَقرّ بها الاختيار أخذت في العمل، والاستنجاد بخير الوسائل، فتوددت إلى أمه، ودفعت زوجها من حيث لا يدري إلى مجاملة أبيه ومصادقته، فإذا مات الغلام انصرفت إلى غلام آخر يليه في المرتبة، وأعادت القصة بذاتها، لا تخرم[1] منها حرفاً.

هكذا كانت حال الآباء والأمهات بمدينة منبج حين شبّ أبو فراس عن الطوق، وحين أصبح شابًّا جميلاً في نحو الثامنة عشرة، تتيه به العروبة، وتشتاق إليه ميادين القتال. فلم يكن عجباً بعد هذا أن تكثر زيارة الأمهات لقصر سخينة، وأن يرسلن عليها سيلاً جارفاً من الملق كاد يجترفها. فما فعلت شيئاً إلا كان حسناً جميلاً، ولا قالت قولاً إلا وهو حكمة سلمان، وفصاحة سحبان. وكلما مرّ ذكر ابنها في غضون الحديث عرّضاً نثرن عليه الثناء، وغمرنه بصنوف المديح والإطراء. وسخينة تسمع وتفهم، لأنها أم تعرف ما تتمناه الأمهات لبناتهن من الخير والسعادة.

زارها في أحد الأيام بعض كرائم السيدات، وكان بينهن نائلة زوج والي المدينة من قِبَل سيف الدولة، ومعها ابنتها عزّة، فلما استقر بهن المُقام أخذت نائلة تملأ البهو حديثاً في جمال القصر، وحسن تنسيقه، ثم تُتبع ذلك بالإشادة بمجد بني حمدان، ثم تنتقل إلى ما تتحلى به سخينة من صفات الشرف والكرامة وأصالة الرأي، ثم تثب بعد كل هذا إلى أن الولد صورة من الأم، وأن كل عرق ينتمي إلى أصله، وأن سيرة أبي فراس أصبحت مثلاً عالياً للفتيان. ثم تتابع الحديث وتقول: إن ابني لا يملُّ الكلام في بطولة أبي فراس حتى لقد قلت له بالأمس: خير لك يا بنيّ أن تؤلف كتاباً في أخبار صديقك. فصاح ضاحكاً وقال: وبم أسمي الكتاب يا أمي؟ قلت: سمه: «روض الآس في أخبار أبي فراس». فابتسمت سخينة وقالت:

- خير له أن يسميه: «ظبية الكناس[2] في بطولة أبي فراس» فضحك السيدات جميعهن، وما كدن يخضن في حديث آخر حتى دخلت هيلانة تعلن قدوم السيدة فاطمة الخالدية وأختها نجلاء، فقمن لتحيتها، وقالت فاطمة في دُعابة:

---

(١) لا تخرم منها حرفاً: لا تبدل فيها، ولا تنقص، وهو مستعار من خرمه أي ثلمه وثقبه.
(٢) الكناس: بيت الظبي.

ـ لقد هز زتن أركان البهو قهقهة ففيم كان ضحككن؟

فحاولت نائلة بعد أن بهرها جمال نجلاء أن تغضى عن السؤال، وأن تصرف الحديث إلى غير وجهه، ولكن سخينة أسرعت فقالت:

ـ كنا نختار اسم كتاب يؤلَّف فى سيرة ابنى فماذا تقترحين؟

ـ أقترح أن يسمى: «تعطير الأنفاس بسيرة أبى فراس» فظهر الغيظ على وجه نائلة وقالت:

ـ كيف حال ابنك الصغير يا فاطمة؟ لقد سمعتُ أنه كان مريضاً.

ـ إنه الآن بخير. مسح الله عنا وعنك السوء.

ثم تجاذبن أطراف القول فى فنون شتى، وسخينة لا ترفع عينيها من وجه نجلاء، فقد أعجبها جمالها وأدبها وحسن حديثها. حتى إذا مرّ وقت غيرُ قليل، ودّع الزائرات سخينة وانصرفن.

وحينما انفردت نجلاء بأختها فى الطريق قالت:

ـ لقد سمعت كثيراً عن أبى فراس، وسمعت كثيراً من شعره الذى يتناقله الناس، وهو يُعدُّ فى الطبقة الأولى قوّة وروعة وبعد خيال.

ـ إنه شاب لم تر له منبج مِثْلاً فى أدبه وسجاحة خلقه وبطولته.

ـ لقد أكثر الناس من المبالغة فى وصف شجاعته حتى أحببت أن أراه.

ـ لا تُعْقَدُ فى منبج يا نجلاء مجالس للشعر والأدب كما هى الحال فى حلب، ولكنك تستطيعين أن تَرَيْه كل أصيل ممتطياً جواده مع فريق من خُلانه فى بعض مروج المدينة.

ـ يكفى أن أراه فى شعره كما أرى كل شاعر، فإن الشعر صورة صادقة لصاحبه، ومرآة صافية لخوالج نفسه.

ـ ليس دائماً يا نجلاء، فإن لأبى نواس شعراً فى الزهد، وللحطيئة شعراً فى الحثّ على مكارم الأخلاق.

كان أبو فراس حقيقاً بكل هذه الضجة، فقد زادته الرجولة وسَامة وقسامة، فكان مشرق الوجه، نافذ نظرات العيون، متين الجسم، قوى العضل، تتأجج فيه نيران الشباب، وتفور فى نفسه نزعات عاتية من الطموح إلى المجد والوثوب إلى مراتب العظمة. وكان صورة صادقة

للبطولة فى القرن الرابع الهجرى، شديدَ الثقة بنفسه، قليل الاكتراث بالنوازل والخطوب، يعيش عيشة الأمراء المترفين في ثروة وجاه ورفاغة[1] من العيش ويتسلىّ بقرض الشعر وركوب الخيل والمصارعة والصيد. والتف حوله كثير من أبناء القواد وكبار الأسر، فكانوا يقضون أكثر وقتهم فى ترف ولهو وتناشد للأشعار، بين مروج منبج الخضر، وأرباضها[2] الضاحكة، وبساتينها الناضرة، وكان يحلو لهم عند الأصيل أن يجلسوا إلى جسر أحد النهيرات التى يفيض ماؤها فى الشتاء ويجفُّ عند الصيف، والتى يقول فيها أبو فراس:

قف بالمنازل والملا عب، لا أراها الله مَحْلا[3]!
أوطِنْتُها زمنَ الصبا وجعلتُ منبج لى محلا
حيث التفتُّ رأيتَ ما ءً سائحاً، ورأيتَ ظلا
والماءُ يفصل بين زهـ ـر الروض فى الشَّطين فصلا
كبساط وَشْى جرّدت أيدى القُيون عليه نصْلا[4]

وفى ذات مساء اقترح أبو فراس على أصحابه أن يخرجوا للصيد «بعين باصر» وهى على مسافة فرسخين من حلب، فخرجوا قبل تبلُّج الصباح، ومعهم الصقور والبزاة وكلاب الصيد والخدم والعبيد، وقضَوْا سبع ليال بين صيد وقصف، وقام الطهاة بشى الظباء وطبخها بين ضحك الضاحكين، وعبث العابثين، وتناشد الأشعار، وتبادل النوادر، وأخذوا يتخطّفون اللحم، ويعدو بعضهم وراء بعض فى هزل يشبه الجد. وفى الحق إنهم كانوا صورة لمرح الشباب وريْعانه ولهوه ونشوته، وكانوا يمثلون الفراغ والجدة[5] وراحة البال والبراءة من كل ما يكدر الحياة. وبعد أن نالوا من الصيد واللهو ما يشتهون، عادوا إلى المدينة، فبلغوها وقد مال ميزان النهار. وكان أبو فراس يتقدم الجمع فوق جواد عربىّ كريم، وبينما كان يمرّ ببعض الدروب إذ جمح به الفرس فُجاءة لسبب غاب عنه، فحاول أن يكبح جماحه، ولكنه كان قد لعق لجامه، وخرج عن إرادة فارسه. وفى ذلك الحين كانت امرأة عجوز تمشى إلى جانب جدار فزحمها

---

(١) رفاغة العيش: رغده وسعته وطيبه.

(٢) أرباض المدينة: ما حولها من بيوت ومساكن، المفرد ربض.

(٣) المحل: الجدب وانقطاع المطر.

(٤) القيون: جمع قين، وهو صانع السيوف ونحوها. والنصل: حديدة الرمح ونحوه، وربما سمى السيف نصلا.

(٥) الجدة: الثروة والمال.

الفرس بكفله فسقطت على الأرض، وتواثب الناس من كل مكان على الفرس، وتعلق كثير منها برقبته ومَعْرفته حتى استطاعوا صدّه. واتجه أبو فراس نحو العجوز، وتقدم خدمه وعبيده فحملوها فى مِحفَّة[1] بعد أن سألوها عن دارها، فعلموا أنها تسكن فى دار الحسين الجوهرى. وسار خلفهم أبو فراس حتى وصل إلى دار فخمة البناء، رحبة الفناء، فحطّ العبيد المحفة، وتقدم الحسين الجوهري فحيا الأمير، وسأله مذعوراً عن الخبر، فأخبره بالحادثة. وقد تبين الأسف فى وجه أبى فراس، وحَتّمَ أن يَستدعى لها طبيباً. وأن يمنحها من المال ما يخفف آلامها، فأبى الحسين فى أدب واستعطاف وقال: إنها ضيفتي يا مولاي، وخادم نجلاء أخت زوجى، ولا أحب أن يقول الناس: إن الجوهرى تخلّى عن واجبه. ولكن أبا فراس صمم فلم يكن من طاعته بدّ. فاستدعى الطبيب، ودخل معه الحسين وأبو فراس إلى حجرة المريضة، فجسّ أطرافها، وأطال البحث، وبعد لأى رفع رأسه فى صلف وقال: لا بأس. ثم التفت إلى أبى فراس وقال: ليس بها شيء إلا شدخاً فى عظم ساقها اليمنى، وهو غير ذى خطر، ولا يحتاج إلا إلى رباط متين يحول بين الساق والحركة، ثم إلى الراحة الكاملة فأحضرت الأربطة، وربط الطبيب الساق إلى ما فوق الركبة ربطاً وثيقاً، وأمر ألا تتناول من الطعام إلا ما كان خفيفاً سهل الهضم. ثم اتجه إلى سلمى وكان خشناً لا يحسن تصريف الكلام وقال:

ـ وأنت أيتها العجوز المتشبثة بالحياة، والتى لها قدم فى كل مكان، ماذا كنت تعملين فى وقت الظهيرة التى تذيب دماغ الضبّ؟ لعلك كنت تبحثين عن زوج مثلى؟!

فأخفت سلمى غضبها، وأرادت أن تثأر لنفسها فقالت فى صوت خافت:

ـ لولا أنى لا أحب الأطباء لتزوجت واحداً منهم.

ـ ولم لا تحبين الأطباء؟!

ـ لأنى أبغض طبهم، وإلا فقل لى بحق أبيك متى حال الطب دون الموت؟ ومتى أطال الطب أمد الحياة؟ إن الحيوان يَمرض فيشفى بغير طبيب، وإن كثيراً مِّن صنوفه تُعَمَّر فوق عمر الإنسان أضعافاً دون حاجة إلى طبيب. إن الله يا سيدى الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، خلق فى طبيعة الإنسان وطبيعة كلّ حيّ طبيباً من غرائزه، فهو إذا أحس المرض انصرف إلى الراحة، وابتعد عن الطعام، وحمى نفسه من البرد. وقد توحى له الفطرة بتناول غذاء هو دواؤه

---

(١) المحفة: مركب للنساء كالهودج، وسرير يحمل عليه المسافر.

وفيه شفاؤه. إن هرّتى هذه تعرف متى تمرَض، وتعرف كيف تشفى، ولو كنت دعوت لها بطبيب فى إحدى مَرَضاتها لكانت اليوم فى الدار الآخرة تصلى نار الجحيم لكثرة ما قتلت من الفيران، وما اختطفت من طعام الجيران. إن الأمراض أيها الطبيب البارع قسمان: أمراض طارئة سهلة الزوال، وأمراض معضلة قاتلة، وهما لا يحتاجان إلى طبيب. لأن القسم الأول يزول بقليل من الحماية والعناية، والثانى لا تنفع فيه رُقْية الراقى. وأنكى من كل هذا أن إنساناً لو مرض ودعا فى كل يوم طبيباً - وهبه دعا عشرة منهم - لاختلف تقدير كل واحد للداء، واختلف وصفهم للدواء، وإذا كان الحق لا يتعدد فأحدهم بالبديهة هو الصادق أو هم جميعاً كاذبون. ولن تسأل طبيباً عن شيء ويقول لك إنى لا أعرفه، ولن تعرض نفسك على طبيب حتى يهول لك فى الأمر، ويُنذرَك بأكبر المصائب، ويكدِّرَ عليك صفوة الحياة، ويُخيِّل إليك أنك تسير إلى القبر عدواً. وقد اعتاد بعض الأطباء حينما يموت المريض أن يلقوا التبعة كلها على أهله، ولهم فى ذلك أساليب بارعة، كأن يسألوهم مثلاً: هل سقيتموه؟ فإن قالوا: نعم، قالوا: يا للداهية! لقد قضيتم عليه، إن الماء هو الذي قتله! وإن قالوا: لا، قالوا: يا للجهل ويا للغباء، إن أقل الناس معرفة يدرك أن الظمأ يقتل المريض لا محالة! فأسرع أبو فراس وقال:

- أنت مخطئة يا خالتي، إن للطب شأناً فى استئصال الأمراض أو تخفيف شدّتها، أما أن المرء يعالج نفسه بفطرته فصحيح، ولكن هذا العلاج قد يطول فتطول به آلام المريض. إن الطب لا يمنع الموت، ولكنه قد ينقذ من الموت.

- لك رأيك يا بنى، ولكنى إن أنكرت الطب فلن أنكر فضل الجرّاحين، فإن نتائج أعمالهم ظاهرة بينة. وهنا قال الطبيب:

- وما رأيك أيتها الفيلسوفة العجوز فى جابرى العظام؟

- يجب على جابر العظام ألا يَشْدَخ النفوس، ويكسر الخواطر.

فضحك الحسين الجوهرى وقال: إن سلمى أيها الطبيب لا تحب أن يدعوها إنسان بالعجوز.

وانصرف الطبيب، وتبعه أبو فراس بعد أن وضع تحت وسادة سلمى كيساً به عشرون ديناراً، وعند انصرافه لمح ستاراً ينفرج عن وجه لم تشرق الشمس على أجمل منه، ولم تتفتح أزهار البساتين عن أنضر منه، ولم تفاخر لآلىء البحار بأكثر منه صفاء وتألقاً. وجه خلقه الله من

أشعة الجنة: فيه الجمال، وفيه النبل، وفيه الشرف. رأى أبو فراس هذا الوجه فاضطرب قلبه، ولم يحاول أن يطيل النظر هيبة وإجلالاً، فقد ذهل عن نفسه، وأحسَّ على الرغم من ذهوله أن هذا الوجه كان يُرسل ابتسامة مشرقة طاهرة كزهرة الربيع، بعثت في نفسه الأمل، كأنها اللوح السابح يراه الغريق من بعيد، وقد اصطلحت عليه الأمواج، وجاءه الموج من كل مكان، فيُهْرَع إليه، ويتشبث به، ويرى فيه بارقاً من النجاة.

خرج أبو فراس من الدار، وأخذ سَمْته إلى قصره كالمأخوذ، وقد سمع نفسه وهو يردِّد:

تبسَّمَ إذ تبسَّم عن أقاحي وأسفر حين أسفر عن صباح

٤

قضى أبو فراس ليلته مضطرباً أرقاً، وكان دقيق الحسّ، بعيد مرمى الخيال، فأخذ يصوّر له الوهم صوراً لهذا الوجه الباسم الوضّاح، ويذهب به فى طرق كثيرة الشُّعَب، بعيدة المسالك: فمرة يرى نفسه وهو أمام هذه الفتاة يمدّ يده لخطبتها وهى عنه معرضة عزوف[1]، لا تجيب بكلمة، حتى إذا برمت به تمشّت نافرة فى خفر وحياء، كأن أمراً منه لا يَعنيها، وكأن حديثه الطويل لم يوجّهْ إليها. ومرة يلقاها لا تزال باسمة، فما يكاد ينبس بكلمة حتى تبادله الحديث فى وداعة ورفق وأدب. ثم يعود إليه عقله فيجلس جلسة المفكر الرزين، ويسائل نفسه هامساً: من هى؟ ومن تكون؟ إن كانت زوج الحسين الجوهرى، فلا برحت دونى عليها ستورا ومتى استساغ كرم محتدى أن ينال بالنظر زوجاً كيفما بلغ بها الجمال؟ إن كانت إياها فيا لَكَمَدى، ويا لحَسرتى!

حقًّا لقد قضيت، وماتت آمالى، وذهب شبابى الذى كنت أعدّه لعظائم الأمور بَدَداً. ويَحكَ لك يا أبا فراس، وقاتل الله تلك الساعة المشئومة! وقاتل الله تلك العجوز الورهاء[2] التى جرّتك إلى حتفك، وقضت بالفناء على صباك، وأمانىّ صباك! ألم أعزم منذ شهر على الذّهاب إلى حلب والإقامة فى كنف سيف الدولة ابن عمى وزوج أختى، لأحمل عنه نصيباً من أعبائه، ولأجرِّد سيفى لنصرته فى غزواته لعصاة العرب والروم؟ إنّنى لو فعلت لعشت حياتى خالياً هانئاً سعيداً. ولكن أهى حقًّا زوج الحسين الجوهرى؟ لقد سمعته يقول: إن سلمى خادم أخت زوجه، فلعل

(١) عزوف: صفة من عزفت نفسه عن الشيء، إذا زهدت فيه. وانصرفت عنه، وملته.

(٢) ورهاء: حمقاء، ناقصة العقل.

ذلك الوجه يكون وجه تلك الأخت، فإن الله أرحم بي من أن يصرعني هذا المصرع، ويقضي على أملي هذا القضاء، وهو يعلم أن تلك النظرة العابرة الغافلة لم ترسلها عيني ولها رغبة في الإثم، أو قصد إلى المنكر، وإنما هي رمية لم أشدّ لها وتراً، ولم أصوّب فيها إلى هدف.

سبحانك اللهم يا رب؛ آمنت بقضائك؛ وآمنت بقدرك؛ ولكن لنا نفوساً ضعيفة لا تحتمل هذا القضاء، ولا تستطيع الفرار من ذلك القدر. ثم رفع رأسه كما يرتفع رأس الغريق وقد غمره الماء، وهو يقول: ولكنها ليست زوج الحسين، وإنما هي أختها. إنها ابتسمت لي ابتسامة كلها نقاء وطهر. ثم وثب من الفرح صائحاً: حقًّا إنها ليست زوج الحسين، وحقًّا إنها أختها، فما أعظم سروري! وما أعظم هنائي وسعادتي! الآن أستطيع أن أرغب، وأستطيع أن أرجو، وأستطيع أن أكون رجلاً له في الحياة آمال. ولكن ما اسمها؟ لقد سمعت الحسين يذكره، إنه اسم حلو كصاحبته. لعله: هيفاء؟ لا. غيداء؟ إنه ينتهي بألف ممدودة. ها. لقد وجدته: نجلاء. نجلاء. إن اسمها نجلاء. ما أجمل الاسم؛ وما أجمل المسمّى؛ حقًّا إنها نجلاء.

هكذا كان يقضي أبو فراس ليله في خيال وتفكير، فلما طرقه النعاس دَنِفاً[1] مكدوداً في الهزيع الأخير من الليل، لم ترحمه الأحلام. فقد رأى فيما يرى النائم أنه في غابة شجراء[2] كثيرة الشوك والقتاد، أدمى المشي فيها قدميه وأجهده، ورأى عن بعد شجرة سامقة، حاول الوصول إليها، فلما قرب منها رأى بها كثيراً من الأزهار، فمالت نفسه إلى اقتطاف أجمل زهراتها، فتسلق الشجرة وكانت صعبة المرتقى، ونظر في الأزهار فإذا هي وجوه رائعة الحسن، يجري فيها ماء النضارة والشباب، ولكنه لم يجد فيها وجهاً يشبه وجه نجلاء، فاستمر في الصعود والتسلق، فإذا وجه يشرق عليه من عَذَبة[3] غصن بعيد المنال، فتأمل وحدّق فإذا هو وجه نجلاء فطارت نفسه إليه شوقاً، ووثب إلى الغصن؛ ولكن الغصن هوى بجسمه، وجعل يذهب ويجيء به في الهواء، وهو قابض عليه لا يُفلته، والزهرة تنظر إليه وتبتسم، حتى إذا استنجد بقوته، مدّ إلى الزهرة يداً فاقتطفها، وهي تقهقه بصوت عال أيقظه من رقاده، فنظر، فإذا سيف الفجر يلمع في الأفق، وإذا الديكة تصيح مستبشرة ببزوغ الصباح، فنهض من فراشه، وقد أعادت الرؤيا إلى نفسه شيئاً من الأمل، ورأى أن حُسن الطالع قد هيأ له من حادثة العجوز وسيلة لزيارتها والاطمئنان على

---

(١) الدنف: المريض.

(٢) شجراء: ملتفة الشجر.

(٣) عذبة الغصن: طرفه.

حالها، وأن هذه الزيارات قد تمهّد له السبيل إلى رؤية نجلاء، والتعرف إلى أهلها ثم خِطبتها منهم. وذهب أبو فراس إلى دار الحسين الجوهري فقابله أحد الخدم لدى الباب، وأخبره أن سلمى بالطبقة الأولى من الدار، ثم سار أمامه ليصل به إليها.

فلما دخل الحجرة حيّاها وجلس إلى جانب سريرها، وأخذ يسأل عن حالها، ويسرّي عنها، ويتألم لما أصابها، وكانت قد استردت صحتها فأخذت تهوّن عليه الأمر وتحدثه بكثير من أخبار حلب، وبينما هما يتجاذبان القول إذا نجلاء تدخل فجاة، ولم يكن يخطر ببالها أن إنساناً غريباً يزور سلمى في هذا الصباح الباكر. دخلت وهي تصيح: كيف حالك اليوم يا سلمى؟ فلما لمحت أبا فراس ذهِلت، ووقفت مكانها لا تريم، كأن المفاجأة عقدت رجليها إلى الأرض، حتى إذا أفاقت من هجمة الدهشة دارت نحو الباب في ذعر تتلمس الفرار، ولكن سلمى صاحت بها:

ـ على رسلك يا سيدتي، إنه الأمير أبو فراس ابن عم أميرنا سيف الدولة، وهو شاعر عبقري الخيال، وطالما حدثك عنه الناشىء الأصغر أستاذه ومعلمه، وطالما ألححتِ عليه أن يكتب لك أشعاره، وأنت يا سيدتي أديبة شاعرة تجالسين كبار الشعراء والأدباء، وقد كانت فضليات النساء في الصدر الأول لا يَرَيْنَ من حرج في حضور مجالس العلم والأدب، وكان منهن المحدِّثات والفقيهات والأديبات والشاعرات. فالتفتت نجلاء في تردد وقالت في صوت خافت يتعثر بالحياء:

ـ الأمير أبو فراس الشاعر؟ وكان أبو فراس واقفاً فتقدم نحوها في تردّد وخشية وقال:

ـ نعم يا سيدتي أنا أبو فراس الشاعر، وقد آن لي الآن أن أزهّى بشعري وأعتزّ به، لأنه نال استحسان خير الأديبات الشاعرات. فخطت نحوه نجلاء في خجل وأدب وقالت:

ـ سألتك بالله يا سيدي أن تجلس فإني كنت في شوْق إلى سماع شعرك وقد يطول بنا الحديث. أترى بأساً من أن أكون راويتك؟

ـ إن شعري يشرفُ يا سيدتي بأن تكوني له راوية. فقالت:

ـ لقد كنت راويتك قبل أن نلتقي. ثم تمكنت في جلستها وقالت في وقار: حدثنا أبو الحُصَين الرّقيّ، عن جعفر بن ورقاء، عن أبي فراس بن سعيد أنه قال:

إنّا إذا اشتدّ الزما نُ، وجار خطب وادلهمّ

الفيتَ حولَ بيوتنا عُدد الشجاعة والكرمْ
للقا العدا بيضُ السيو ف، وللندى حُمر النَّعَم[1]
هذا وهذا دأبُنا يودَى دمٌ، ويراق دم[2]

وقال:

لقد علمتْ سَراةُ الحيّ أنا لنا الجبلُ الممنع جانباه
يفيء الراغبون إلى ذَراه ويأوي الخائفون إلى حماه

وحدِّثتُ عنه أنه يقول:

إذا خُلِقَ الأنام لحثِّ كأسٍ ومزمار وطُنبور وعود
فلم يُخلق بنو حمدان إلا لمجد أو لبأس أو لجود

ويقول:

علونا جَيْشنا بأشدَّ منه وأثبتَ عند مشتجر الرماح
بجيش جاش بالفرسان حتى ظننتُ البرَّ بحراً من سلاح
وألسنة من العذَبات حمرٍ تخاطبنا بأفواه الرياح[3]
وأروعَ جيشه ليلٌ بهيم وغرّتُه عمودٌ للصباح
صفوح عند قدرته كريم قليل الصفح ما بين الصفاح[4]
وكان ثباتُه للقلب قلباً وهيبتُه جناحاً للجناح

ثم ابتسمت وقالت:

ـ أهذه الرواية صحيحة؟ فقال أبو فراس:

ـ الرواية صحيحة، غير أن حسن إلقائك يا سيدتي زاد في شعري كثيراً لم يكن فيه. هل تروين أبياتاً أخرى؟

---

(1) حمر النعم: أجود الإبل وأثمنها.
(2) الدأب: الشأن والعادة. يودى دم: يسيل في الحروب. يراق دم: ينهمر عند ذبح الإبل.
(3) العذبات: المراد الرايات.
(4) صفحة الشيء: جانبه، وجمعها صفاح، ويراد بالصفاح السيوف.

ـ فأعادت جلسة الوقار وقالت: حدثنا أبو زهير بن حمدان، عن الناشىء الأصغر، عن أبى فراس أنه قال:

يا ليلــة لســتُ أنســى طيبهــا أبداً   كأنّ كلّ سرور حاضــرٌ فيها
باتــت وبــتُّ وبــات الــزِّق ثالثنا   حتــى الصبــاح تسقّينــى وأسقيها
كأن سودَ عنــاقيد بلمّتها   أهــدت سلافتُهــا خمــراً إلــى فيها

ثم قالت وهى تبتسم:

ـ أحقيقة كانت هذه الليلة أم خيالاً؟

ـ كانت خيال شاعر يا سيدتى، والشعراء يتبعهم الغـاوون، ألـم ترى أنهـم فى كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون؟

ـ هذه حيلة يا سيدى يلجأ إليها كل شاعر.

ـ إنني يا سيدتى لم أجد فى ماضي أيامى من تصلح لأن تكون شريكة حياتى، وما زلتُ عصفوراً حائراً يسبح فى الجوّ باحثاً عن إلف.

وفى هذه اللحظة صاحت سلمى الماكرة صيحة ارتجت لها أرجاء الحجرة، وأخذت تشكو آلام ساقها فى تصنّع متقن، وأنات تتقطّع لها نياط القلوب. ففزعت نجلاء، وأخذ أبـو فراس يُهدّىء من نفس العجوز فى حنان ورفق، ويدعوها إلى الصبر والجلد، وهى تتململ وتكتـم أنفاسها بوسادتها، ولم تسكُن إلا بعد أن كادت تنفد الحيل فى إعادتها إلى الهدوء، وعند ذلك همّ أبو فراس بالانصراف بعد أن ودّع نجلاء وحيّا العجوز.

وتوالت زيارات أبى فراس، وتوالت المقابلات، وزال شىء من الكلفة بين الصديقين. وبينما كان فى ذات يوم يزور سلمى إذ قابلته نجلاء مستبشرة وهى تقول:

ـ لقد أوشكت سلمى أن تُشفى. فاطرق فى خجل وقال:

ـ ليتنى أشفى كما شُفيت! فذُعرت نجلاء وقالت في صوت رقيق:

ـ أأنت مريض حقًّا يا سيدى؟

ـ نعم مريض يا فتاتى، ولكنّ مرضى لا يعرفه الأطباء، إنه المرض الذى أصيب به قبلى قيس بن الملُّوح وجميل بن مَعْمَرْ.

فابتسمت نجلاء وقالت:

- أظنك تمزح يا سيدى.

- لست أمزح يا نجلاء، إنه الحب الطاهر الشريف.

- أرجو أن توفق إلى لقاء من تحب.

- إنه أمامي وفى يدى لو كتبت لى السعادة وباركتنى ملائكة السماء. فاحمرّ وجه نجلاء من الخجل، وأطرقت فى صمت وحيرة، وأسرع أبو فراس يقول:

- سيدتى! إن رجائى أن تومئى إيماءة تدل على القبول، كل ما أطلبه يا سيدتى أن أنال الرضا بأن أكون لك بعلاً. فابتسمت نجلاء ابتسامة واهنة فهم منها أبو فراس رضاها فصاح:

- أنت يا سيدتي حياتى، وريحانة روحى، ومطمح آمالى، إننى سأكون أسعد زوج طلعت عليه الشمس.

وبعد أن تنقلا فى ضروب شتى من الأحاديث، ودّعها وانصرف، وهو يظن أنه ملك الخافقين، وسما فوق مناط الفرقدين.

وذهبت نجلاء إلى أختها فحدثتها بخطبة أبى فراس، وأخذت تطريه وتُشيد بصفاته ورفيع أدبه، وكلما بلغت الغاية فى المديح عادت أدراجها لتبتدىء من جديد، وفاطمة منصتة جذلة لسرور أختها. وبعد أن استمعت طويلاً رفعت رأسها وقالت:

- وهل تقدم لخِطبتك أحد فى حلب يا نجلاء؟

- كثير يا أختى، ولكنى استطعت أن أدفعهم عنى جميعاً، إلا فتى يسمونه قرعويه، وهو فارسى المنبت، له بحلب أعظم نفوذ وأكبر صولة، لأنه غلام سيف الدولة الأثير عنده، وهو من كبار قواده، ولا يعوزه شىء مما يزدان به الرجال من بسطة فى الجسم ووسامة فى الوجه وشجاعة فى الميدان، ولكنه يطوى بين جوانحه نفساً تتوق إلى الشرّ، ويُخفى وراء بسماته كل معانى الختل والخديعة. هذا الفتى لا يَملّ من الإلحاح فى خطبتى ولا يسأم من طول المطل والتسويف، فهو غريم مثابر مصمم، يظن أن الحب ميدان قتال يجب أن يكسب فيه المعركة، وألا يتحدث الناس بفراره منه كيفما بلغ به اليأس. وقد كنت أستطيع أن أغلق بابى دونه، أو أزيد فى التنكر له، لولا شدةُ اتصاله بسيف الدولة وخوفى من مكره ومحاله[1]. والحق أن أكبر ما دفعنى إلى زيارة منبج إنما هو لأراك ولأن أفرّ منه.

---

(١) المحال: المقدرة والدهاء، من الحول والحيلة.

وقطع الحديث عليهما دخول حسين الجوهري، الذي لم يلبث بعد الغداء وبعد أن استمع إلى زوجته طويلاً، أن خرج مسرعاً لدعوة أبي فراس إلى الطعام في الغد، تقديراً لتفضله بزيارة داره.

وهكذا صح تدبير فاطمة، وهكذا توالت الأيام، وتوالت معها زيارات أبي فراس لنجلاء، وهما في كل زيارة يتحدثان عما ينتظرهما من هناءة في ظل زواج سعيد.

وفي ذات يوم دعا حسين الجوهري أبا فراس للصيد في ضيعة له بأحد أرباض المدينة، وكانت سبقتهما إليها نجلاء وفاطمة وطائفة من العبيد والخدم فقضى أبو فراس أياماً هنيئة في اللهو والصيد والتمتع بنشوة الحب إلى جانب نجلاء دون رقيب أو حسيب. وبينما هما في صبيحة يوم يركضان جواديهما خلف غزال، إذ لمحت نجلاء شبح فارس عن بعد يظهر ثم يختفي خلف الآكام في هيئة المريب المتجسس، فتركت مطاردة الغزال، وأرخت العنان لفرسها فانطلق كأنه لمحة البرق، ودارت بجوادها حتى لا يظن الفارس أنها تقصده، حتى إذا صارت على كثب منه، وأبصرت صفحة وجهه، انقبض صدرها، ولمع الغيظ في عينيها، وتمتمت بكلمات كلها سخط على النذالة والأنذال. ثم عادت أدراجها فلحقت بأبي فراس والغضب لا يزال يضطرم في وجهها. فدَهشَ وأخذ يسأل عن سبب انصرافها عنه وعما يبدو في وجهها من غيظ وألم، فسكتت برهة، ثم رفعت وجهها إليه قائلة:

- إن الله خلق فريقاً من الناس يوم خلق الأفاعي. وإن بعض الناس لا يُستطاع الفرار من كيدهم وخبثهم ولو سكنا فوق متن الهواء، وعشنا في قرارة الماء. وهم كالموت يدركوننا أينما كنا ولو كنا في بروج مشيدة.

- ما هذا التهويل يا سيدتي؟

- قد يكون تهويلاً، ولكني لا أحب الدناءة، ولا أتحمل الأدنياء.

- لقد أفزعتني يا نجلاء، فبالله عليك إلا ما صرّحت!

- رأيت فارساً عن بعد يظهر ويختفي، فعدوت بجوادي من ورائه حتى أقرب منه بحيث لا يراني، فلما دنوت منه عرفت أنه فهدٌ غلام قرعويه...

- قرعويه غلام سيف الدولة وقائد جيوشه؟ وما شأن هذا في أن تنالك هذه الثورة من الغضب التي كادت تكدر صفاء هذا الوجه اللؤلؤي؟

ـ لن أكتمك شيئاً يا سيدى. إن قرعويه هذا يطاردنى فى حلب، ويلح فى خطبتى، وكأنه لم يرد أن يتركنى أياماً أتمتع فيها بلذة نسيانه، فأرسل غلامه ليتجسس علىّ، ويكدر صفو حياتى بذكره.

ـ وهل قرعويه هذا من النفوذ والصولة بحيث ترهبينه وتلجئين إلى مصانعته؟

ـ له من المكانة عند سيف الدولة فوق ما يتخيل المتخيلون. ثم هو ماكر ختّال، يلبَس لمصارعة الأسود إهاب الثعلب.

ـ هوّنى عليك يا سيدتى، فإن فى سيف حبيبك مصرع الأسود والثعالب، ثم أخذ يفاكهها ويهوّن عليها الأمر حتى ضحكت، وحملت الريح رنين ضحكها عذباً حلو النغم فامتزج بتغريد الطيور.

ولما قرب أبو فراس من الخيام لمح أسامة خادمه وهو ينزل عن فرسه، فأسرع إليه وسأله عن سبب قدومه، فأخبره بأن رسالة عاجلة جاءت من سيف الدولة لدعوته إلى حلب دون أن يعوّق. وهنا التفت أبو فراس إلى نجلاء حزيناً كاسفاً، والدمع يكاد يثب من عينيه وقال:

ـ هكذا الدنيا لا يتم بها سرور. فأجابته مسرعة:

ـ لا. لا. إن الدنيا كلها سرور، سر إلى ابن عمك غداً وستراني قريباً فى حلب. إن الفرقدين لا يفترقان.

٥

عندما تبلّج صباح اليوم الخامس من شهر رجب سنة ست وثلاثين وثلثمائة، كان أبو فراس قد أعدّ عدّته للسفر، فشُدّت الحمول على الإبل، وكان يحمل متاعه أربعون بعيراً، سار خلفها الرجال بين فارس وراجل، وقبل أن يمتطى جواده وقف ليودّع أمه فأخذت تقبّله فى جبينه مرّات، وتشدّ ذراعيه القويتين إليها كالمباهية المفاخرة، وتقول: سر أبا فراس وأتمم صحيفة المجد التى وقف الموت بأبيك دون إتمامها، سر يا بنىّ فإنما وُلدْت لصَهوات[1] الجياد، ومصارعة الأهوال. سر ودعني هنا أهنأ بأخبار انتصارك وفوزك. وبعد أن نثرت عليه دعواتها سار أبو فراس ووراءه العبيد والخدم، وقد تجنب الطريق إلى حلب ليمرّ بمنزل له فى قلبه أكبر منزلة، حتى إذا حاذى دار نجلاء نظر فإذا نافذة تُفتح، وإذا وجه مشرق وضّاح يحييه بابتسامة كابتسامة الربيع، كانت زاده فى سفره الطويل.

وكانت الطريق إلى حلب ملتوية بين ارتفاع وانحدار، تزينها المروج المخضر وأشجار الزيتون والفاكهة المنتشرة بين السهول والهضاب، وكان الوقت ربيعاً، والنسيم رقيقاً، فأطلق لفرسه العنان، وهو ينشد الشعر، ويتغنى بزوجه الجميلة، ويبنى الآمال الكبار على اتصاله بسيف الدولة. وحين أدركه الليل أوى إلى فُنْدُق فنال من طعامه وشرابه، ثم استراح به إلى الفجر، وواصل السير فى طليعة النهار، حتى بلغ حلب فى وقت العشاء الآخرة، فحطّ رحاله فى دار ابن عمه أبى زُهَيْرٍ الحمدانى، وكانت بالقرب من «ساحة الناعورة» ليستقبل سيف الدولة فى

---

(١) الصهوات: جمع صهوة، وهى مقعد الفارس من الفرس.

الصباح. وكانت مدينة حلب من أعظم مدن الشام في ذلك الحين، وكانت تلي دمشق في المنزلة، تقع على نهر قُويق، ويحيط بها سور عظيم سامق بني بالحجر الأبيض الضخم، به ستة أبواب، وإلى جانب السور قلعتها الحصينة التي تُطِلّ على المدينة شامخة متحدية، تَرْبِض أمامها كما يَرْبِض الأسد أمام العرين، وإلى الغرب منها جبل الجَوْشَن، والمدينة فسيحة الطرق، فخمة القصور ذات الطابع البيزنطيّ، كثيرة المساجد والفنادق والمتاجر والحدائق والبساتين، وفي وسطها دار عَلْوة التي يقول فيها البحتري:

تناءت دار علوة بعد قرب ... فهل ركبٌ يبلِّغها السلاما؟
وجدَّدَ طيفُها عتبا علينا ... فما يعتادنا إلا لماما[1]
ورُبَّتَ ليلة قد بتّ أسقَى ... بعينيها وكفِّيها المداما

واشتهر أهل حلب بالثراء والظَّرف والأدب، وازدحم بها السكان من عرب وترك وأرمن وروم، وكثر بها الجنود المرابطون للقتال.

وزاد ازدهارها في عهد سيف الدولة، فقد دخلها فاتحاً في سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة بعد أن انتزعها من أيدي الإخشيد، وكان سيف الدولة بطلاً شجاعاً بعيد مدى الغايات، أديباً شاعراً جواداً، جعل حاضرة ملكه مثابة[2] للعلماء والشعراء والأدباء الذين هرعوا إليه من أقطار الأرض، بعد تفكك الدولة العباسية، فأغدق عليهم، وقيَّدهم بإحسانه «ومن وجد الإحسان قيداً تقيَّداً» فعاشوا من نعمه في ظل ظليل. وكان من أشهر من اتصل به المتنبي والصنوبري والنامي وكشاجم وابن نُباتة السعدي وابن خالويه وابن جنِّي والفارابي.

استيقظ أبو فراس في الصباح، واستعدّ للقاء سيف الدولة، فركب جواده قاصداً أرض الحلْبة، وهي في سفح جبل الجوشن. فوصل بعد قليل إلى القصر وكان رفيع البناء، بلغ الغاية في الفخامة والاتساع، يقع على ضفة نهر قويق. وقد بذل فيه المهندسون والبناءون والمصورون كل ما في مُكنة البشر من إبداع، وزينت أبوابه وحيطانه وسقوفه بالنقوش البارعة، والتهاويل الرائعة واتسعت به الغرف والأبهاء، وكان بقاعته الكبرى وهي قاعة السفراء خمس قباب يحملها اثنتان وأربعون ومائة سارية من الرخام الأبيض الناصع المحلّى بالذهب، وبها مئات من النوافذ الزجاجية البديعة الألوان أما الأثاث والرياش فقوق ما يصف الشعر ويرسمُ الخيال. وقد أحاطت

---

(١) يعتادنا لماما: يزورنا زيارات قصيرة قليلة متباعدة.
(٢) المثابة: مجتمع الناس.

بالقصر الحدائق والبحيرات التى كان يجرى إليها المـاء من تمـاثيل سمـك ضخـم صنـع من الذهب، ورُكِّبتْ له عيون من ثمين الجوهر.

وصل أبو فراس إلى مدخل القصر فبهره ما رأى من مظاهر العزّ والسلطان، وأقبل عليه كبير القصر يحيّيه عن سيده، ويهنّئه بسلامة الوصول، فدُهش لكثرة العبيد والمماليك الروم الذين انتشروا فى أنحاء القصر يروحون ويجيئون فى حركة دائبة، وهاله ما رأى من كثرة القواد والجنود والزُّوّار وأصحاب الحاجات. ثم استؤذن له فدخل على سيف الدولة فوقف له واعتنقه، وأقبل عليه يرحِّب به ويسأله عن منبج وأهلها. وكان سيف الدولة جسيماً قسيماً عربىّ الملامح واسع العينين، له نظرات يلمح فيها الذكاء، ويتجلّى الطموح، وبوجنته اليسرى أثر لضربة سيف لم يذهب بوسامته. وقد أعجب بما رأى فى أبى فراس من البطولة وعلوّ النفس. وبينما هما يتبادلان الحديث إذ دخل قرعويه، فقال سيف الدولة:

ـ هذا قرعويه يا بن عمى قائد جيوشى الذي أعددته للعظائـم. فتقـدم نحـوه أبـو فراس بالتحية، وقد علم من قبل بأمره من نجلاء، فرأى رجلاً بسّاماً وضىء الوجه، يدل مظهره على صفاء النية وطهارة النفس، ولكن فراسة أبى فراس كانت جديرة بأن تخترق الحجب، وأن تنفذ من طبقات الرياء إلى ما وراءها من خبث وخديعة، غير أنه رأى من الكياسة وحسن الرأى أن يجْزِى على ابتسام بابتسام، وأن يخدع الرجل الذى يحاول خداعه، فمـدّ إليه يده فى حفـاوة كريمة، وأخذ يُطريه ويذكر ما وصل إليه بمنبج من أخبار شجاعته ونبله وإخلاصـه فى خدمـة الأمير. ثم ابتسم فى وجهه وقال:

ـ وطالما تمنيت يا سيدى أن أسعد بلقائك، فلما شملنى ابن عمى بفضله كان تحقيق هذه الأمنيَّة من أعظم مننه. ثم شدّ على يديه قائلاً: أريد يا قرعويه أن نكون صديقين مخلصين، فهل تحب أن تكون لفارس من فرسان بنى حمدان صديقاً مخلصاً؟

ـ أحب؟! هذا شرف أتيه به على الدنيا، وسنجتمع يا سيدى فى حرب وفى سلم، وستجد منى فيهما الأخ الوفىّ والصاحب الأمين.

وبعد انصرافه اتجه سيف الدولة إلى ابن عمه مفكراً، وقد طافت غمامة من الحزن فوق وجهه الوسيم وقال:

ـ لقد دعوتك يا بن عمى فى وقت أحسّ فيه أن قوائم عرشى تهتزّ من تحتى لما يعصف بها

من خطوب، وما يحيط بها من كوارث، فقد أخذت قبائل العرب المعادية تتنمّر حول حدود الدولة، وتتحيّن فرصةً للوثوب، فإن لها عند بني حمدان ترات قديمة لا يمحوها كر السنين. والعربي ينسى كل شيء إلا دين الشرف، ويجفّ عنده كل شيء إلا الدماء. فلا بدّ لنا من يقظة الذئب، ووثبة النمر، وفتكة الأسد، حتى نستأصل هذا الصَّلَف من رؤوسهم. ثم هناك دولة الروم، وهي ألدّ أعداء الإسلام من ناحيتين: ناحية الدين، وناحية السياسة والملك، فإنها لا تنسى ذلك الملك الضخم الذي دكّ الإسلامُ حصونه، وثلّ عروشه، ومزقه إرْباً إرباً، بعد أن كانت أقوى ممالك الأرض وأعظمها عُدّة وعديداً، وأبعدها ملكاً وإطرافاً. لن تنسى مملكة الروم ما نكبها به الإسلام، وما أصابها من سيوف المسلمين ورماحهم، حتى أصبحت دويلة لا شأن لها ولا خطر، ولا تحكُم إلا على القسطنطينية وبعض البُلدان حولها. وقد أيقظتها هذه النكبة فأخذت تُعدُّ العُدّة بالليل والنهار، لتسترد ما فاتها من مجد، وتمحو ما نزل بها من هزيمة. وقد اتّفق لما يريده الله لي من خير أو شر، أن تُتمَّ استعدادها في هذه الأيام، وأن يختارني القَدَر للدفاع عن ممالك الإسلام والذود عن حياضه. وزاد في جسامة الأمر وهوله أنّ ملكهم «نيقفور فوكاس» رجل من أكبر الدهاة، وقائد من أعظم القواد، وسيكون الصراع بيننا عنيفاً، وستكون الحرب بيننا محتدمة الأوار، وسيرى الناس وسيشهد التاريخ أن الفتى العربي استطاع بسيفه ورمحه وقلّة عديدة أن يهزم دبابات الروم، وأن يبدّد جيشهم اللُّهام، وأن يُطفئ نارهم اليونانية، التي يرسلونها على الجيوش كأنها قطعٌ من الجحيم، لا تَذَر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. لهذا يا بن عمي دعوتك لتكون عضدي وساعدي، ولينال سيفك من النصر ما هو جدير بآل حمدان.

ـ لقد دعوتَ يا بن العم مجيباً، واخترت أمضى سيوفك حدًّا، وأصلبها مكْسِراً، ولم يخلق الله بني حمدان إلا لبذل الرغائب ودفع النوازل، وإن هذا الملك الذي بنيناه بسيوفنا سنصونه بسيوفنا وأرواحنا، لقد كنتُ أتحرّق شوقاً إلى خوض المعامع، وآسفُ لسيفي وهو يكاد يصدأ في غمده، فإذا دعوتني اليوم إلى نصرتك ونصرة البيت الحمداني الكريم، فإنّما تدعو إلى الماء هيْمان، وإلى الطعام سغْبان. إنّ السيف الذي يسعد بالحرب إلى جانب سيف الدولة لسيّد السيوف!

ـ رعاك الله أبا فراس، وجعل مقدمك علينا يُمْناً وبركة، لقد منحتك ولاية منبج، وأعددت لك كل ما تحتاج إليه من سلاح وعُدّة، وجعلتك قائداً كبيراً بين قواد جيوشي، فاستعدّ فقد تتمتع بلقاء الروم قريباً. ثم إني وهبت لك قصراً بالقرب من «برج أبي الحارث» وأمرت أن يُبْذل كلّ

جهد في فرشه وتأثيثه، وأن يكون به من الجواري والخدم ما يليق بمثلك. اصعد الآن إلى أختك أسماء فإنها في شوق إليك.

خرج أبو فراس، فكان أول من التقى به محمد الخالدي، وكانت رسائل أخته فاطمة قد زوّدته بكل ما كان بين أبي فراس ونجلاء، فخطا نحوه قائلاً:

ـ أنا محمد الخالدي يا سيدي أمين خزائن الكتب بالقصر، أريد أن أشرُف بلقاء البطل الشاعر، وأحب أن يَعُدَّني من أوفى أصدقائه. ثم مدّ إليه يده في شوق وقال: سمعنا شعرك يا سيدي ـ قبل أن نراك ـ في سجع الحمائم؛ وشربناه في كؤوس المُدام، وشممناه في أكمام الزهر. فشدّ أبو فراس على يديه، ثم مد ذراعيه لعناقه، وهو الحبيب أخو الحبيبة، وقال:

ـ ما أسعدني برؤيتك، ثم ما أسعدني أن تكون لي أخاً حميماً. أما الشعر الرائع الذي تتحدث عنه فلن يصل إلى مدَى شعر الخالديِّين. هل انتهى العراك المحتدم بينكما وبين السريّ الرفاء؟

ـ لا يا سيدي، إنه لن ينتهي، وهذا الرجل عجيب أمره، فقد أخذ يذيع في كل مكان أننا نسرق شعره وندعيه لأنفسنا، ويعلم الله أن شعره أهون من أن يدّعيه غلام ناشىء. ثم إن اللئيم أراد أن يؤكّد هذه الدعوى فذهب إلى أحد الورّاقين بحلب واتفق معه على أن يكتب له نُسَخاً من ديواننا فكتبها ودسّ في غضونها كثيراً من شعره، ثم صاح بين الأدباء: لقد وجدت الدليل! اذهبوا إلى محمود الورّاق تجدوا أن ديوان الخالديين به كثير من شعري! وهنا أقبل عليهما قرعويه وهو لا يزال بشًّا يكاد يسيل رقّة وظَرْفاً، وبعد أن حياه الخالدي انطلق يقول:

ـ هل يقبل سيدي أبو فراس وسيدي قرعويه أن يُشرِّفا بيتي الليلة بعد الغروب، ليبعثا فيه أمن البهجة والسرور؟ إن فعلاً كان ذلك مِنّة منهما وتكريماً. فقبلا الدعوة، وغادرهما أبو ليصعد لزيارة أخته.

ذلك الحين كان فارس يقفز من صَهوة فرسه عند باب القصر، ويُسرع وعليه وَعْثاء[1]
رعويه، فلما مثل أمامه اتجه إليه قرعويه وقال:

لينا يا فهد، فما وراءك؟

وتعبه.

ـ مكثت يا سيدي أياماً أرقب نجلاء حتى تحققتُ أنها تكثر من لقاء أبى فراس، فقد شهدتهما معاً فى أحد أرباض منبج، وكانا قد خرجا للصيد. أما سبب إبطائى فلأنى انتظرت حتى سافر أبو فراس وسافرت نجلاء بعده بساعة أو ساعتين.

ـ هذه الخبيثة التى طالما ما طلتْنى، وكلما ظننت أنى تملكتها فرّت من يدى كما يفرّ الماء من خلال الأصابع! أما مولانا أبو فراس فلى معه شأن أى شأن!! ثم فكر طويلاً وقال:

ـ إنه سيتعشى الليلة فى دار الخالديين، وسوف يخرج فى أخريات الليل مع غلامه، فهل تستطيع أن تجمع له عصابة تهجُم عليه فى الطريق وتقتله؟

ـ إنى أعرف أشرار بنى كعب، فكم يكفى لقتله؟ ثلاثة؟

ـ لا. فإنه فارس شديد المراس[1]، وفى رأيى أنه يَقْهَر ما دُون العشرة.

ـ سأجمع له اثنى عشر فارساً، وسنكْمن له فى الطريق، أين يسكن؟

ـ فى قصر سيف الدولة أمام برج أبى الحارث.

ـ حسن يا سيدى. لن يضايقك بعد اليوم.

كان لقاء أبى فراس لأخته صورة صادقة من الحب والحنان، فقد كانت أسماء شديدة الشوق إليه، وهى التى دفعت سيف الدولة إلى دعوته، وهيأت له المنزلة عنده، وبعد أن سألته عن أمها قامت إلى خزانة لها وأخرجتْ علبة من الذهب، وقالت:

ـ أتعرف ما فى هذه العلبة؟

ـ كيف أعرفه يا أختى؟

ـ إنى وجدتها فى خزانة أبيك بعد موته، وقد كتب عليها بخطه «هدية إلى ولدى أبى فراس» فحفظتها لك طول هذه المدة. ففتحها أبو فراس فرأى فيها لؤلؤة ثمينة بقدر البندقة لُفَّت فى ورقة، فوضعها فى جيبه ووعد أسماء بأن يحتفظ بها، ثم سأل: ومن أين جاءت هذه اللؤلؤة لأبى؟

ـ أهداها إليه قائد عظيم من قواد الروم، وطلب منه أن يحتفظ بها، ولعلّ لهذا الهدية معنى لا نعرفه.

ـ قد يكون.

---

(١) شديد المراس: شديد البأس والقوة.

وفي هذه الأثناء دخلتْ رملة أخت سيف الدولة فوقف أبو فراس يحيّيها في أدب ومجاملة. وكانت رملة في الرابعة والعشرين من عمرها أميل إلى القصر منها إلى الطول، ليس في وجهها من آثار الجمال إلا شمم في أنفها، وبريق شديد في عينيها، وقد انصرف عنها الخطّاب إما لمنزلة أخيها ـ وقد يكون بُعْدُ المنزلة أحياناً من أسباب العُنوس[1] والبوار ـ وإما لأن القدر قسا عليها فلم يرض أن يعطيها الجاه والجمال معاً، فانصرف الأمراء عنها، حتى كاد يذوّي شبابها، ويَذْبُل عودها، وتقع في تلك الوحدة الموحشة التي ترى فيها الفتاة أنها في سنّ الأم وليست أمًّا، وفي عداد الفتيات وليست في سن الفتيات.

نظرت رملة إلى أبي فراس فرأت فيه الأمير المرح الوثاب، والفارس المقدام، فجالت بنفسها خواطر ووثبت آمال: هذا هو الرجل الذي يجب أن تتزوج به، إنه الرجل الكامل الذي تحنّ إليه، إنه قريبها وصنيعة أخيها، فلم لا يخطُبها منه؟ ولكن ربما كان يَهُوله عظمُ مكانها، وبُعدُ شرفها. وتجتهد رملة في أن تجذب إليها انتباهه. ولكنّ أبا فراس كان صخرة لا تحسّ، ورجلاً بغير قلب. وكيف وقد أعطى قلبه كله لنجلاء؟ وادّخر جميع نظراته لنجلاء؟ لقد كان يحادثها في رفق وأدب، وينصت إلى حديثها إنصات الخاشع المطرِق، ولكن نظرة منه واحدة لم تنم عن ميل أو تدلّ على رغبة في إطالة الحديث.

وحينما همّ بالانصراف لم تر فيه رملة إلا مُهْراً جموحاً. وعند أذان المغرب ركب أبو فراس جواده وخلْفه مملوكه سهم الذي أهداه إليه سيف الدولة، وذهب إلى دار الخالديين، ووثبت نجلاء للقائه فرحة بسّامة، تحييه وترحّب به، ثم انطلق بهما الحديث إلى شُعب شتى، فتذكر هدية أبيه فأخرج العلبة من جيبه وقال:

ـ هذه يا نجلاء أغلى هدية عندي، أقدمها لأغلى فتاة عندي، فتناولتها نجلاء وقالت:

ـ ما أجمل هذه العلبة! أنظر، إن عليها نقوشاً رومية؛ ثم فتحتها فبهرتها اللؤلؤة بصفائها وعظم حجمها، وقالت دَهشة:

ـ ما رأيت لؤلؤة مثلها. من أين لك هذه اليتيمةُ العصماء[2]؟

---

(1) العنوس: مصدر عنست الجارية (من باب دخل) أي طال مكثها في منزل أهلها بعد إدراكها ولم تتزوج.

(2) العصماء: النادرة.

ـ هدية من أبى، ولو عرف أننى سأحلى بها أجمل نحر فى الدنيا لأهدى إلىّ كل ما فى خليج عُمان من لآلىء.

ـ وما هذه الورقة التى لُفّت بها؟ إنى أرى عليها كتابة بالرومية فما معناها يا تُرى؟

ـ لا أدرى، غير أن اللؤلؤة كانت هدية من قائد عظيم من قواد الروم. وهنا أسرعت نجلاء فوضعتها في خزانة حليها ثمّ قالت:

ـ متى تُذيع بين الناس خبر خِطْبتنا؟

ـ لكل شىء أوان يا سيدتى، ومن الخير أن تبعثى إلىّ بدعوة كلما دعوت الأدباء والشعراء للحديث والسمر.

ـ حسناً يا سيدى سأرسل إليك سلمى العراقية وأرجو أن أراك بين الحين والحين، فإن فى حضورك مجالسى شرفاً وسعادة.

وفى ذلك الحين قدم الخالديان ومعهما قرعويه، ومدت المائدة وعليها أشهى الألوان، وكان قرعويه مرحاً ضحوكاً كثير المزاح والدُّعابة، وبعد الطعام أعدّت أكواب الشراب، وأخذ القوم فى السمر، وغنّت نشوة الدمشقية من شعر أبى فراس قوله:

أســاء فزادتــه الإســاءة حُظْوة ... حبيب علــى ما كان منــه حبيب
يَعُــدّ علــىّ الــواشيان ذنوبَه ... ومــن أين للوجــه الجميل ذنوب؟

وقوله:

قــد كان بدرُ السمــاء حسناً ... والنــاس فى حبــه سواءُ
فــزاده ربــه جمالا ... تمّ به الحســن والبهاء
لا تعجبــوا، ربنــا قديرٌ ... يزيد فى الخلــق ما يشاء

فماج القوم من الطرب وخرجوا عن وقارهم.

وتحيّن قرعويه فرصةً فاستأذن من صاحبى الدار فى الخروج، وبعد أن انتصف الليل قام أبو فراس بعد أن شكر الخالديين، وامتطى جواده وخلفه سهم، وكان الظلام حالكاً، وقد خلت الطرق من السابلة، وبينما هما يمران بميدان أمام باب اليهود، إذ خرجت عليهما ثُلّة من الفُرسان كانت تختبىء فى أحد الدروب، فوثبت على أبى فراس فطارت النشوة من رأسه، وعاوده عزمه

ورأيه، فدار حولهم حتى حاذى جانبهم، فأرادوا أن يتجهوا نحوه بخيولهم، فاضطربت الخيل واصطكّ بعضها ببعض، واهتبل أبو فراس هذه السانحة فأغمد حسامه في فرسين فسقطا على الأرض، ثم تراجع قليلاً، فأراد الفُرسان أن يتبعوه فارتطمت الخيل بالفرسين الساقطين، فانقضّ عليهم كما ينقضّ النمر، وأعمل فيهم سيفه ضرباً وتقتيلاً، وفي هذه اللحظة هجم عليه زعيمهم وكان ضخم الجثة، وكأنه قطعة الجبل، فضرب بسيفه سيف أبي فراس فأطاره من يده، فوثب أبو فراس من سرجه إلى صهوة جواد هذا الفارس الشعشاع، حتى إذا كان منه وجهاً لوجه، مد ذراعه الحديدية إلى عنقه فعصره بيسراه. واختطف بيمناه سيفه من يده. وضربه ضربة أطاحت رأسه. فسقط مجدّلاً. وحينما رأى من بقي من العصابة ما حلّ بزعيمهم طاروا من الذُّعْر، وهم لا يكادون يصدّقون أنهم أحياء، وعاد أبو فراس إلى جواده فامتطاه كأن لم يحصل شيء، وكأن هدوء الليل لم يزعجه صليل سيف، ولا وثبة جواد، وجال بخاطره وهو في طريقه إلى داره أن يترنم بقوله:

إذا كان منا واحدٌ في قبيلة ... علاها، وإن ضاق الخِناق حَماها
وما اشتوَرَتْ إلا وأصبح شيخها ... ولا احْتَربَتْ إلا وكان فتاها[1]

(١) اشتور القوم: شاور بعضهم بعضاً. واحتربوا: تحاربوا.

٦

عاش أبو فراس بحلب فى ظل الرَّفه والنعيم، واختلط بفُرسانها وشعرائها، فكان النجم المتلألىء بين الفريقين، والمفرد العَلَم فى الحلْبَتين، ولقى فى كنَف سيف الدولة من بُعد المكانة ورفاغة[1] العيش، ونفوذ الكلمة، ما تطيب به نفس الكريم. وكانت سلمى العراقية تحمل إليه رسائل الدعوة من نجلاء بين فترات قصيرة لا تتعدّى اليومين، فعاش فى ظلَّين من النعيم والجاه سعيداً جذلان هانئاً. وفى ذات يوم عزم على أن يبتاع سيفاً ليعتاض به عن السيف الذي فقده ليلة محاولة اغتياله. فأرشده خادمه سهم إلى صانع السيوف «لوسيان» وهو روميٌّ أسره العرب منذ عشرين سنة، استطاع بعد أن مرّ خمس منها أن يَفْدىَ نفسه. وقد طابت له الإقامة فى حلب، وكان له من دماثة خُلُقه، وبراعته فى فنِّه، ما حبَّبه إلى كبار الأسر وعظماء القواد بالمدينة، فراجت صناعته ونمتْ ثروته، وكان مع تمسكه بدينه يرى أن الأديان كلها وسيلة للحياة الفاضلة، ووازع للناس عن ارتكاب الآثام، وحَوْط من أن يعبَث بعضهم بحقوق بعض، فلم يكن عنده ذَرَّة من التعصب، ولم يكن ينظر إلى مخالفه فى الدين نظرة الحقد والضغينة، وكان يقول: إن الأديان سبب العداوة والبغضاء حاربتْ أول أغراضها، وانحرفتْ عن أجلّ غاياتها. لذلك كان شديد التمسك بآداب الإسلام والمسيحية، حريصاً على تبجيل رجالهما، يقبّل يد القسيس كما يقبل يد إمام المسجد. ولم يرْزَق من النسل إلا بنتاً هى «صوفيا» الجميلة التى كانت بِدْعاً فى الحسن، وتمثالاً إغريقيًّا حيًّا يتألَّق فيه بريق الشباب. ولكنها أحاطت جمالها بسياج من الرزانة والفضيلة، زاد عنه غِربان الشرّ. علَّمها أبوها العربية، وأدّبها فأحسن تأديبها، فاتصلتْ ببنات

---

(١) رفاغة العيش: اتساعه ولينه وهناءته.

الأسر الشريفة بالمدينة، وأصبحتْ بينهم مضرب المثل فى الجمال والذوق المرهَف والخلُق الكريم. وكانت كثيراً ما تلازم أباها فى مصنعه، وتعينه فى شئون عمله.

ركِب أبو فراس جواده، ووصل إلى مصنع لوسيان فعرض عليه كثيراً من السيوف فأباها، وطلب إليه أن يصنع له سيفاً وصفه له. وبينما هو فى الحديث إذ لمح صوفيا فبهره ما رأى فيها من حسنٍ هادىء، فابتسم نحوها وقال يخاطب أباها:

ـ وما لهذه الفتاة ومصانعَ السيوف والرماح؟ إن لها من نظراتها سيوفاً تتحدّى صَمصامة عمرو، ومن قدها رمحاً يسخر من رماح سَمْهر. ثم تقدّم نحوها قائلاً: سعد صباحك يا فتاتى. فحيَّته صوفيا فى أدب مرتجل. ثم أخذت تحدثُه فى لطف وثقة جعلاه ينظر إليها كما ينظر إلى صورة فى محراب، وملأ قلبه إجلالاً لفضيلة الحسن وحسن الفضيلة. ولما أعجبه انطلاق لسانها وبراعة عبارتها سأل داهشاً:

ـ أدرستِ العربية؟

ـ إنى أقرؤها وأكتب بها كما لو كانت لغة أهلى ووطنى.

ـ أنت خير منى يا صوفيا، فإننى لا أعرف إلا لغة واحدة، ولكنها سيدة اللغات، فهى لغة الشعر والأدب والعلم، لم تترك خَلجة لنفس، أو لمحة لعقل، إلا ترجمت عنها بأوضح بيان.

ـ ولغتى لا تقلّ عن العربية سُطوعاً وصدق أداء، فهى لغة الشعراء والفلاسفة.

ـ ولكنى أظنها صعبة على من رامها.

ـ وأى شىء دعاك إلى هذا الظن وأنت لم تحاول تعلمها؟ إن اختلاط المسلمين بالروم يوجب ـ فيما أظن ـ على رجال الإسلام أن يلموا بلغة جيرانهم.

ـ لو تلقيتُها عنك لاتقنتها فى أيام، ولكن من لى بهذا؟

ـ إن الأمر هين، فلن يكون شىء أحبَّ إلى نفسى من أن أكون أستاذة أبى فراس البطل.

ـ هاتى يدك. اتفقنا. سأكون من غد تلميذك المثابر. ولكن احذرى فقد يغضبك تبلّد ذهنى، فلا تجدين لضربى إلا سيفاً أو رمحاً. فابتسمتْ فى لطف وقالت:

ـ اطمئن يا سيدى فإن أى سيف لن يجرؤ على أن يمتد إلى سيف أرهف منه حداً، وأصدق فِرندا. وعندئذ ودّعها أبو فراس وحيًّا لوسيان وانصرف.

وبعد أيام دخل فهد غرفة قرعويه فرآه، وهو يكاد يتميَّز من الغيظ، لا يستقرّ فى مكان من

القلق، فلما نظر إليه سيده صاح به قائلاً:

ـ أتعرف أنني أرسلت إلى نجلاء منذ ثلاثة أيام أستأذن لزيارتها فأبت واعتذرت بالمرض، مع أنى أعرف وجواسيسى يعرفون أن أبا فراس يزورها فى كل يوم أو يومين؟ إن هذا الرجل شغلها عنى، قد كانت قبل أن تعرفه أميل إلى القرب منها إلى النفور. ويل لهذا الرجل منى، إن إنساناً واحداً لم يستطع قبل اليوم الوقوف فى طريقى، ولو كان هذا الإنسان سيف الدولة نفسه، فما لى أجبن أمام هذا الفتى الغِرّ؟ وما لحيلى تضيق بالفتك به أو صدّ غوائله عنى؟ جرّدْنا له اثنى عشر فارساً من صعاليك بنى كعب لقتله غيلة فهزمهم منفرداً، وقتل زعيمهم بسيفه، أجنىٌّ هو من جنود سليمان؟ أم خيال طائف لا يمسه سيف ولا يجرحه سنان؟ إننى إن أبعدته عن نجلاء خلصَتْ لى وحدى، ونسيتْ حبها له فى ظلال ثروتى ونعمتى. هل عندك من حيلة؟

ـ نحن يا سيدى الأيدى الباطشة، وأنت العقل المفكر.

ـ اسمع يا فهد. لقد علمت أنه لا يزورها إلا إذا دعته برسالة تبعث بها مع سلمى العجوز. وهذه العجوز صورة من إبليس على الأرض فى الخداع والخيانة والفساد. وهى إذا أسمعناها رنين الذهب طار عقلها، وباعت أمانتها ووفاءها بيع الخسار، فإذا استطعنا أن نجتذبها إلينا، وأن نطلب إليها ألا توصل الرسائل إلى أبى فراس امتنع عن الذهاب إلى نجلاء وقلق، وأسرع فكتب إليها رسالة يسألها عن سبب هجرها، وأغلب الظن أن يبعث بهذه الرسالة مع خادمه سهم، وسهم صنيعتنا، وكثيراً ما استخدمناه فى بثّ الدسائس لأعدائنا، فإذا أخذ من سيده أية رسالة أوصيناه أن يسلمها للعجوز، وبهذه الطريقة لا تصل رسائل نجلاء إلى أبى فراس، ولا تصل رسائله إليها، فإذا امتدّ الزمن ازدادت القطيعة، وأساء كلٌ الظن بصاحبه، وأدركته العزّة فنفر نفور الإباء. وهنا أظهر لنجلاء بمظهر الصديق الوفىّ الساخط على أمثاله من الأدنياء. ما رأيك فى هذه الحيلة؟

ـ الحيلة محكمة الأطراف، ولكنى أضيف إليها حاشية تزيد فى إحكامها وإتقانها. لقد تابعت أبا فراس منذ أيام فرأيت أنه يزور مصنع لوسيان الرومىّ كل صباح، ليتلقى درساً فى الرومية على ابنته صوفيا، وسأوحى إلى سلمى العراقية أن تتحدث إلى نجلاء بأن الناس يهمسون بافتتان أبى فراس بصوفيا، حتى إذا رأت من سيدتها شكّاً فيما تقول عرضت عليها الرسائل التى سلّمها إليها سهم، وزعمت لها أنها صادرة من أبى فراس إلى صوفيا، حينذاك يغلى صدرها بالغيرة، ويدركها ما يدرك النساء من السخط على من ينبذ ودّهن، ويجرح كبرياءهن.

ـ مرحَى مرحَى يا فهد! لو أنصفوك لسموك ثعلباً! اذهب وافعل ما شئت فإنك بوسائل

الخداع جِدّ عليم.

وتَحَيَّن فهد الفرص للقاء العجوز، حتى عثر بها مرة فى سوق النسّاجين، وهى تحمل تختاً من الثياب، فحيّاها قائلاً:

ـ سعد صباحك يا أم. فقبّضَتْ من عينيها، وكانت قصيرة النظر، حتى إذا عرفته ضحكت فى سخرية ولؤم، ثم قالت فى دُعابة لاذعة:

ـ لقد كان صباحاً سعيداً قبل أن أكون أمًّا للفهد.

ـ إن الفهدَ نمر صغير.

ـ والبرغوث فيل صغير.

ـ لقد نهينا فى مأثور الخبر عن سبّ البرغوث، لأنه أيقظ نبيًّا للصلاة.

ـ لو نُسج غطاء أمك من البراغيث ما استيقظت لعبادة.

ـ إن أمى لم تحمل فى شبابها ما حملتِ من مآثم وأوزار.

ـ لو لم يكن إلا أنها حملتك لكفى.

ـ حملتنى لأحمل على عجائز السوء.

ـ ولتفرّ من الحرب.

ـ لو كان للحرب مثل نابيك وخرطومك وعينيك النضّاختين[1]، لفرّ منها أشجع الشجعان.

ـ إن أمك والله أحق منى، فلمَ لا تشير على سيف الدولة بأن يجرّد منها جيشاً يطهر به البلاد من غزوات الروم؟

ـ إن الروم تغير على التخوم والدروب، وأنت تغيرين على ما فى الجيوب.

ـ لو وجدتُ فى جيبك مالاً لعلمتُ أنك سرقت ثوب غيرك.

ـ إن فى جيبى مائتى دينار.

ـ إن ربع دينار منها يكفى لقطع يدك.

ـ ولو أعطيتك المائتين لقطعت بها لسانك. فكفى عن هذا السباب.

ـ إن عرضك يُغرى اللسان بالقذف، ولو حاولتَ إسكاته بكنوز قارون.

ـ وعرْضُك لا يباع بدرهم.

اختين: الدامعتين من رمد أو نحوه، من قولهم: عين نضاخة، أى فوارة غزيرة الماء.

ـ لأن الكلاب تَلِغ فيه. ثم ضحكت ضحكة الظافر المنتصر، وربَّتت كتفه وقالت:

ـ من أين لك هذا المال يا جُرَذ؟

ـ من قرعويه.

ـ هنيئاً لك بسيدك!

ـ وهنيئاً لك بسيدى!

ـ أنا!

ـ نعم أنت، فالمال لك! وأنا الناقة التى تحمل الماء وهى عطشَى.

ـ متى بدأ سيدك يتصدق على العجائز؟

ـ حينما علم أن في أيديهن مفاتيح الجنة.

ـ إن جنتى أغلى من أن تفتح بمائتى دينار.

ـ هذه خطوة تليها خطوات، ونفحة تتبعها نفحات. وثمن أول طرقة على ذلكَ الباب القدسيِّ الطاهر.

ـ اكشف اللثام عن القول ودعنى من الكُنَى.

ـ تعلمين ميل سيدى المبرّح إلى نجلاء. وتعلمين أنها تقابل فُتُونه بالصدّ، ولن يغيب عنك أنها بعد صداقتها لأبى فراس زاد إعراضها وجفاؤها لسيدى.

ـ أعلم هذا، وأعلم إلى جانبه أنى لو كنت فى شباب سيدتى وجمالها، ما عملتُ غير ما عملتْ. إن أبا فراس لو عَلِمتْ به الحور لفرّتْ من الجنة للقائه. وأين منه سيدك يا لُكَع[1]؟

ـ ذلك المتكبر الصَّلِف؟!

ـ هو متكبر صلف علىّ وعليك يا غبىّ، أما فى مجالس الحسان فحنان وسحر ورقة، وعلى أية حال ماذا تريد منى؟

ـ أريد أن تقطعى الصلة بينه وبين نجلاء.

ـ وكيف؟

ـ لا توصلى رسائلها إليه، وسنُغْرِى خادمه سهماً بألا يوصل رسائله إليها.

ـ هذا حسن، ثم؟

---

(١) اللكع: اللئيم.

ـ ثم تشتد الجفوة بينهما، ويظن كلاهما بالآخر الظنون.

ـ معقول. ثم؟

ـ ثم تنفثين سمومك، وتهونين أمره على نجلاء، وتدّعين أنه مُدلَّـه بحب صوفيا بنت لوسيان، وتطلعينها على رسائله التى سيوصلها إليك سهم، زاعمة أنه بعث بها إلى صوفيا، وأنك حصلت عليها من خادمها. فاتكأت العجوز بذراعها على كتفه. وغاصت في تأملات عميقة، ثم رفعت رأسها وقالت وهى ذاهلة:

ـ كنت أظن أن بحلب مصنعاً واحداً للدسائس هو رأسى، ولكننى الآن أطرق إجلالاً لمصنع جديد فى رأس جديد. ثم عاد إليها جشعها فقالت:

ـ إن المكيدة قطعة فنية رائعة، ولكن الثمن لتنفيذها لا يزال قليلاً.

ـ إن سيدى لا يفكر فى الثمن كيفما عظُم، فهو يضع فى يدك كل أسبوع مائتى دينار. أتقبلين؟

ـ قبلت. فأسرعت يد فهد إلى جيبه فنفحها بالمال.

وكان الاتفاق مع سهم سهلاً، ومرت الأيام، واستمرت نجلاء تبعث برسائلها مع العجوز، والعجوز تصونها فى حرز حريز. وقلق أبو فراس، فدعا بسهم وزوّده برسالة إلى نجلاء كتب فيها:

إليكَ أشكو منك يا ظالمى إذ ليس فى العالم عونٌ عليك
أعانك الله بخير أعِن من ليس يشكو منك إلاّ إليك

وذهب سهم، وأعطى العجوز الرسالة، وزوّق لسيده كلاماً أخبره فيه أنها تلقت الرسالة متضجرة، حتى إذا قرأتها التفتتْ إليه وقالت: قل لسيدك: إنى قرأت الرسالة. وغضب أبو فراس وزمجر وتطاير الشرر من عينيه، ومد يده إلى قرطاس كتب فيه:

وكنّى الرسولُ عن الجواب تظرّفاً وإذا كنى فلقد علمنا ما عنَى
قل يا رسول ولا تَحاشَ فإنه لا بدّ منه أساء بى أم أحسنا
الذنبُ لى فيما جناه لأننى مكنته من مهجتى فتمكنا

ثم دفع به إلى سهم وصاح فى وجهه قائلاً: يجب أن تعود منها برسالة. ثم جلس ينتظر قلقاً

مضطرباً، يُقَلِّب في صفحات فكره فلا يرى أنه ارتكب إثماً، أو اجترم جرماً. ويعود سهم وقد ارتسم الحزن على وجهه، وصفِرت يداه من أية رسالة ويقول في تلعثم وخوف: لقد نهرتني هذه المرَّة يا سيدي.

ـ نهرتك؟ هكذا هنّ بنات حواء! وقديماً قالوا:

«وليس لمخضوب البنان يمين» ثم انكبّ على رَق[1] كتب فيه:

الآن حين عرفتُ رشـ ـدي واغتديت على حذَرْ
عنَّفت نفسي فانتهت وزجرت قلبي فازدجر
هيهات؛ لستُ أبا فرا س إن وفيت لمن غدر!

وكانت الدموع تتناثر من عينيه وهو يكتب، ثم أشاح بوجهه ومدّ يده إلى سهم بالرسالة وهو يقول: خذ هذه وألقها أمامها وأسرع دون أن تنتظر جواباً.

ولم تكن نجلاء خيراً من أبي فراس حالاً فقد روّعها جفاؤه، فكانت تذهب وتجيء في دارها في ذهول ووجوم. وكانت لا تزال تسأل العجوز وتلُحّ علَّها تجد في حديثها الجاف المحرق واحة تلجأ إلى ظلها مما هي فيه من عذاب مقعد مقيم، حتى إذا نفِد صبرها اتجهت إلى العجوز في هيئة المستعطف الآمل وهي تقول:

ـ هل من سبيل إلى معرفة ما أصابه يا سلمى؟

ـ خففي عنك يا سيدتي، فإن من أهان نفسه هان.

ـ إنني لم أهِنْ نفسي أيتها العجوز، إن حبنا سماويّ قدسيّ جفا هذه الأرض المظلمة الدنسة وطار مع الملائكة في أفق كله طُهْر ونور، إنني لا أحب إلا النفس الكريمة والخلق النبيل. أرأيتِ ما فعلتُ بقرعويه ذلك الغِرّ الأبله، الذي ظن أنه يستطيع أن يغزوني بجاهه وسلطانه وثروته؟ فابتسمت العجوز ابتسامة الاستخفاف وقالت:

ـ عجيب شأن هذا الحب؟ إنه لا يعطي إلا من لا يسأله. إن قرعويه فتى تود كل فتيات المدينة لو ينلْن منه كلمة رضا أو ابتسامة حنان! وأين منه هذا الطائر القلق الذي يغرّد كل لحظة فوق فَنن، ويسكن كل ليلة في عش جديد؟

---

(1) الرق: الصحيفة البيضاء.

ـ اسكتى أيتها العجوز الماكرة. إن أبا فراس لا يسكن كل ليلة فى عش جديد. إن له من نبله وخلقه ما يرفعه إلى منازل الأبرار، وإنى أخشى أن يكون فى الأمر دسيسة قذرة. ومن يدرينى أنه يشكو الآن مما أشكو، ويبكى كما أبكى؟

ـ أخشى أن تكونى صادقة، ولكنه لا يشكو لبعدك، ولا يبكى لفراقك. فظهر الذعر فى وجه نجلاء وصاحت:

ـ ما هذه الألغاز يا أخت إبليس؟ أتكتمين شيئاً عنى؟

ـ إن أخى إبليس أوحى إلىّ ألا أثق بالرجال. وعلمنى فى شبابى أن ألعب بهم. وألا أدع واحداً منهم يلعب بى.

ـ أفصحى بالله عليك يا سلمى!

ـ إن الإشارة تغنى عن الكلام، ومن العبث أن يقذف المرء بالحجارة زجاجاً محطَّماً.

ـ قولى يا سلمى فإن صاحبة الزجاج المحطم تريد أن تعرف مكان الخطر.

ـ كانوا يهمسون باسم صوفيا، ثم تحققتُ صدق ظنونهم.

ـ صوفيا؟ صديقتى صوفيا بنت لوسيان؟ لالا يا سلمى. قولى كلاماً آخر، إنه إن سقط من عرش كرامته، فإن مثلها لن يُقدم على حب يستحيل أن ينتهى بشرف الزواج. إنها على شممها وعلوّ نفسها لا تنسى أنها بنت أسير رومىّ، وأنها لن تستطيع أن تتصل بملوك العرب.

ـ إنه يذهب إلى دارها كل مساء، وقد بدأ الأمر بأنه يريد أن يتعلم اللغة الرومية.

ـ أنت كاذبة. إن حبيبى لن ينحدر إلى هذه الوهدة.

ـ وماذا تقولين فى رسائل أرسلها إليها واستطاع خادمها أن يسرقها لى من خزائنها؟

ـ أين الرسائل؟ وهنا مدّت العجوز يدها إلى جيبها، وأخرجت الرسائل التى سلمها إليها سهم، فاختطفتها نجلاء فى غضب يشبه الجنون، وقرأت فإذا استعطاف وشكوى وحنين، وإذا الخط خط حبيبها، وإذا كلمة «يا صوفيا» كتبت فى صدر كل رسالة، وكانت قد زوّرت تزويراً متقناً لم تدركه. وهنا أخذت تئن كما يئن الجريح أقْصَدَتْه[1] السهام، حتى إذا قضت إرْبتها من البكاء رفعت رأسها فى شمم وكبرياء وقالت: إن أحداً لن يعبث بقلبى ولو كان أبا فراس. وسيرى

---

(١) أقصده: طعنه فلم يخطئه.

الناس جميعاً أن بنت الخالدىّ ستستمد من الهزيمة قوة الانتصار، قومى يا سلمى فلن ترينى باكية بعد اليوم.

أما أبو فراس فكثرت وساوسه، واختلط عليه الأمر، ولزم داره، وبينما هو يناجى شجونه الضائعة، ويسخط على الدنيا وما فيها من خداع ورياء وخَتْل، إذا رسول سيفة الدولة يدخل وبيده رسالة من سيده يخبره فيها باقتراب الروم من مَرْعش، ويهوّل له فى الأمر، وينبئه بأن الفرصة الآن سانحة للإغارة على حصن برْزويه واستنقاذه من أيديهم. ما كاد يتم قراءة الرسالة حتى امتطى جواده وانطلق إلى قصر الحلْبة وهو يسابق الريح، وقد شعر فى نفسه بشىء من السرور لهذه الدعوة إلى القتال الذى قد ينسيه لواعج الحب، أو يريحه منها إلى الأبد.

٧

وصل أبو فراس إلى ميدان القصر فى اليوم الثالث من شهر جمادى الأخرة سنة سبع وثلاثين وثلثمائة، فرأى زحاماً تكاد تلتصق فيه الأجسام، وقد اضطربت آذان الأفق بصهيل الخيل وعجيج الرجال، ورأى جيشاً لهاماً لا يبلغ الطرف مدَى حدّه، كأنه البحر المائج، وقد لمعت سيوفه، وأشرعت رماحه، واشتاقت فيه النفوس إلى لقاء الموت، ولمح من بعيد سيف الدولة فوق جواده الأشهب، وقد ابتسمت أساريره، وملأه الزهو برجاله وعتاده، فانطلق نحوه حتى إذا بلغه نزل عن فرسه وحيّاه تحية الملوك وقال: «إنا معك يا بن العم إلى آخر الأرض، وقد عبّأنا لك النصر فيى أغماد سيوفنا، وبذلنا أرواحنا فى سبيل عزّتك وعزّة الإسلام، ولن نرجع حتى نعلّم الدُّمُستق كيف يكون القتال، وحتى نأبى أن نتعلم منه كيف يكون الفرار. سرْ يا بن العم فإن جيشك غيل[1] متحرك به أسود طال بها الطوى، وحرّقها الظمأ إلى دماء الأعداء».

وهنا صاح الفرسان فى حماسة. حيّا الله أبا فراس؛ إن جيشاً يقوده سيف الدولة ويصول فيه أبو فراس لن يُغْلب أبداً. وبعد قليل انطلق الجيش كأنه الطوْد الشامخ يتعثر بالآكام، حتى إذا بلغ حصن برزويه وثب أبو فراس فى طليعة الفرسان وسيفه فى يده كأنه الشعلة المتوقّدة، واحتدمت الحرب، وحميَ وطيسها[2]، وتنادَى الشجعان، واختلطت الأصوات، وعلا الصهيل والصليل، وطال الصراع ساعات، حتى إذا بلغت القلوب الحناجر، صاح الصائحون: إلى الجنة؛ إلى الجنة أيها الشهداء؛ لقد فُتِّحت اليوم أبوابها، إن الحور العين ينظرن إليكم من خلال

---

(١) الغيل: الأجمة والشجر الكثير الملتف وموضع الأسد.

(٢) الوطيس: التنور، وحمى وطيس الحرب: اشتدت وتأججت نيرانها.

السحب، فأروهن أنكم أشوق منهن إلى اللقاء. النصرَ، النصرَ! لن يخفق للروم علَم بعد اليوم!

وأخذ أبو فراس سَمْته[1] نحو الحصن وخلْفه ضراغم العرب، وتكاثر عليه الروم فكان يُطيح رؤوسهم كما يحصِدُ الزارع سنابل القمح، وما زال يصعد والفرسان خلفه، حتى وصل بفرسه إلى قمة الحصن، فخلع رايته وقذف بها فى التراب، ثم صاح: الله أكبر! الله أكبر! فردّد الجيش صيحته، وتواثب المسلمون على الحصن حتى أجْلَوْا الروم عنه، فانطلقوا خلف قائدهم فى سرعة الريح يلتمسون الفرار، وعاد سيف الدولة إلى أنطاكية، ووراء جيشه جيش ثان من الأسرى والغنائم.

وما كاد سيف الدولة يستقرّ فى ضيافة قريبه أبى العشائر والى أنطاكية، حتى تقدّم إليه الوالى وهو يأخذ بذراع رجل فى هيئة الفارس، تجاوز الثلاثين، طويل القامة، خفيف الجسم، رقيق الشفتين، أصْيد[2] العنق، فى ملامحه كبرياء الواثق بنفسه، المعتدّ بها، وفى صدره المرتفع ما يدل على ما يجيش به من آمال جسام، تقدم أبو العشائر إلى سيف الدولة وهو يقول: هذا يا مولاى أحمد بن الحسين المتنبى الشاعر. وهو نادرة الفَلك، وفخر عُطارد، يُريد أن يُشيد بمحامد مولاى، وأن يسجّل غزواته فى جبين الدهور بشعره الخالد، فاشمأزّ أبو فراس قليلاً لطول المديح وكثرة الإطراء، وعَجِب أن يُوصَف أمامه شاعر هذا الوصف، وزاد عَجَبُه حينما رأى سيف الدولة يحتفى به ويجلسه إلى جانبه، وحينئذ علم أن زامر الحىّ لا يُطْرِب، وأن النبىَّ لا يكرم بين قومه. ووقف المتنبى وأنشد قصيدة ميمية وصف فيها انتصار سيف الدولة واستيلاءه على حصن برزويه، منها:

لقد ملّ ضوءُ الصبح مما تُغيرُه	وملّ سوادُ الليل مما تُزَاحمه[3]
وملّ القنا مما يدُقُّ صدورَه	وملّ حديد الهند مما تُلاطِمه[4]
لقد سلّ سيفَ الدولة المجدُ مُعْلماً	فلا المجد مخفيه، ولا الضرب ثالمه[5]
على عاتق المَلك الأغرّ نجادُه	وفى يد جبّار السموات قائمهُ[6]

(١) السمت: الطريق.
(٢) أصيد العنق: مائل العنق من الزهو والكبر.
(٣) مما تغيره: مما تغير فيه.
(٤) القنا: الرماح. وحديد الهند: السيوف الهندية.
(٥) أعلمه: أظهره وميزه. وثلمه: فله وكسر مضار به.
(٦) العاتق: ما بين المنكب والعنق. ونجاد السيف: حمائله. وقائم السيف: مقبضه.

تحاربه الأعداءُ وهى عبيده وتدّخر الأموالَ وهى غنائمه
ويستكبرون الدهرَ والدهرُ دونه ويستعظمون الموتَ والموتُ خادمه

وكان سيف الدولة يتمايل من الطرب، وأعجَبَ بعضُ الشعر أبا فراس ورأى فيه تجديداً، ولكنه لم يكن يحب من الشاعر ذلك الزهو الذى لا يطاق وبخاصّة حينما قال:

عجبتُ له لما رأيتُ صفاتِه بلا واصف، والشعرُ تَهْذِى طماطمه(١)

عند ذلك علم أبو فراس أن حرباً أدبية بجانب حرب الروم ستنشب نيرانها بحلب، وأن شعراء الشام وهم خير شعراء العرب لن يلقوا أقلامهم أمام هذا الشاعر المتحدى، وأنه وقد أعدّه الله ليثلّ عرش الروم بسيفه لن يصعب عليه أن ينزل هذا المغرور إلى حيث يجب أن يكون. ثم سار أبو العشائر بالمتنبى حتى بلغ أبا فراس وقال: هذا ابن عمى أبو فراس فارس بنى حمدان وشاعرهم.

ـ سمعت يا سيدى شعره من قبل فأكبرت فنه وأدبه. ما أحسن الملك والأدب يجتمعان! وددْت لو بعتُ نصف شعرى بولاية فى أقصى الأرض. فقال أبو فراس:

ـ الشاعر له فى دنيا شعره ما هو خير من الولايات والمناصب لو استطاع أن يرفع شعره عن شهوات النفوس. لقد أحسنت أبا الطيب فى قَصيدتك بعض الإحسان لولا أنك أثرتَ عليك حفيظة الشعراء. مالك ولهم يا صاحبي؟ إن نوال ابن عمى بحر فياض لا ينقص منه تزاحم الواردين.

ـ إنها الصنعة يا سيدى، وإن للمدح أساليب هذا أحدها، وأنتم لمكانتكم من الملك لا تحاولون هذه المذاهب.

ـ صدقت. وشعراؤنا ـ وليس لهم ظل من ملك ـ لا يحاولونها أيضاً. انظر، إن ابن عمى يدعوك لتذهب إليه.

وأقام سيف الدولة بأنطاكيا أياماً، ثم ارتحل إلى حلب، وكان أبو فراس يظن أن الحرب وأهوالها تنسيه حبه لنجلاء، فإذا خيالها يعرض له فى كل مُعترَك، وإذا صورتها تبرزُ له حزينة باكية بين مُشْتَجِر الرماح. جرَّب السلوّ بالوَحدة فزادتْ فى أشجانه وبالامتزاج بالناس فكانت كل

---

(١) هذى (كرمى): تكلم بغير معقول. والطماطم: جمع طمطم، وهو الذى لا يفصح ولا يبين.

كلمة منهم تذكره بها، وتُشعل فؤاده شوقاً إليها. وجرّبه بالراح فطفا وجهها الفاتن فوق كل كاس، وظهر لؤلؤ ثغرها في كل حبب[1]. وجرّبه بالشعر فكانت كل قافية تشير إليها، وكان كل بيت يفتح أبوابه لينبعث منه نور جبينها الوضاح. ثم جرّبه بالنوم فكانت أطيافها تنتابه[2] في أشكال وصور تثير كامن الآلام، وتنكأ[3] هادىء الجروح.

وصل أبو فراس إلى حلب وقضى ليلة بين همّ ويأس، حتى إذا بدا حاجب الشمس قام من فراشه مضنى متعباً حزيناً، وطفق يحدّث نفسه هامساً: إنها وشاية. إنها نميمة كاشح[4]. إن نجلاء أنبل وأكرم عرْقاً من أن تهجُرني من غير ذنب. إن صداقتي لها أوغرتْ عليّ صدوراً مُلئت باللؤم، وطباعاً خبيثة تعرف كيف تحسن الكيد: فمرة تجتمع شرذمة من شذّاذ العرب لقتلي عند خروجي من دارها، ومرة يدخلون عليها بهذه الدسيسة الماكرة التي فرقت بيني وبينها. أين السبيل؟ وكيف أصل إليها بعد أن ظهر أن كل الناس يأتمرون بي؟ صوفيا؟ إني سمعتها تذكر نجلاء، وتثني على نجلاء. أتستطيع أن تعمل لي شيئاً؟ ولم لا؟ إنها فتاة كريمة الخلق، رقيقة العاطفة. ولم لا أجرِّب؟ يا أسامة أعدّ جوادي.

وركب أبو فراس حتى وصل إلى مصنع لوسيان فلاقته صوفيا في طلاقة وبشر، وأكثرت من الترحيب به، ثم قالت تداعبه:

ـ أظنك نسيت جميع دروسي.

ـ لقد شغلني عنها درس لا أستطيع فهمه.

ـ لن يصعب شيء على ذهنك الوقاد.

ـ ربما استطعت أن أفهم كل شيء، ولكني أقرّ لكِ صادقاً أنني عجزت عن فهم النساء.

فضحكت صوفيا، وقالت:

ـ ويحي على فارس الطعان، ومبيد الأقران، وفاتح العواصم والثغور، كيف تعجز عن فهم امرأة؟

ـ نعم يا صوفيا. إن أمري عجب، فهل لديك من معونة؟

---

(١) حبب الشراب: نفاخاته وفقاقيعه التي تعلوه.

(٢) تنتابه: تزوره مرة بعد أخرى.

(٣) نكأ الجرح. قشره وأدماه.

(٤) كاشح: عدو مبغض.

وقص عليها أبو فراس أمره من بُداءته إلى نهايته، حتى إذا أتمّ قصته قامت وشرعت تلتفّ بلفاعها، وهى تقول: سأكون رسولك إليها الساعة. انتظرنى هنا. ثم انفلتت كأنها هبّة النسيم، وبقى أبو فراس بين أمل يائس، ويأس آمل.

بلغت صوفيا دار نجلاء، فدخلتْ حتى وصلتْ إلى البهو الكبير ورأتها سلمى العجوز فجنّ جنونُها. ورأت أن جريمتها أوشكتْ أن تنكشف، فأخذت تبحث فى زوايا رأسها الأشيب عن حيلة تدرأ عنها الخطر. فحيَّت صوفيا فى شوق وترحيب، ثم قالت: أخشى يا بنيتى ألا تستطيع سيدتى نجلاء لقاءك اليوم، لأنها تؤثر أن تبقى فى سريرها. فأدركت صوفيا أن العجوز ـ على الرغم من ريائها الظاهر ـ لم ترتح للقائها، ورأت أنها تكثر من الابتسام ومن بلع ريقها، وتحاول خفض صوتها، فعلمت أن وراء الأمر سرًّا، وأن هذا السر قد تكون له صلة بما جاءت من أجله، فرفعتْ صوتها وقالت:

ـ ما أجمل هذا البهو يا سلمى! وما أعظم هذه الأعمدة! ثم رفعت طبقة صوتها وهى تقول: وهذه النقوش! هذه النقوش! ما أبدعها وما أروع ألوانها! فذُعِرت العجوز وقالت: خفّضى من صوتك يا بنيتى. فزادت الشبهة فى نفس صوفيا، وأخذت تصيح كالمجنونة: انظرى، انظرى يا أمى إلى السقف! انظري! انظري! بالله عليك انظري! هذه صورة نَسْر جارح تفرُّ أمامه الطيور فى ذُعر ووَهَل[1]. وهذه صورة نمر يطارد غزالاً. مسكين مسكين هذا الغزال!

وبينما هى فى صياحها إذ فتح باب البهو وبرزَت منه نجلاء. فلما رأت صوفيا بُهِتَتْ وبان الغضب فى عَينيها، ووقفتْ فى مكانها لا تريم[2]، وعادت إليها ذكريات صديقها، وآثارآلامها. إنْ غاصبة هذا الصديق تزور بيتها، وتقف أمامها باسمة كأنها لم تَهْدِم حياتها، ولم تضرِّج يديها بدماء قلبها. فقرُبتْ منها وقالت وصدرها يرتفع وينخفض كأنه كير حدَّاد:

ـ ما كنت أظن أن أراك فى منزلى بعد أن أغلقتِ بيديك بابه دونك.

ـ أنا أغلقت بابه دونى يا نجلاء؟ ولمه؟

ـ هذا سرىّ وسرّك.

ـ وقد يكون سرّ سلمى فقد هالتها زيارتى فى هذا الصباح.

ـ إن لها كثيراً من العذر.

---

(١) الوهل: الفزع والخوف الشديد.

(٢) لا تريم: لا تتحول، ولا تفارق مكانها.

ـ ماذا أسمع يا رب؟ لقد جئت شفيعة فأصبحت فى حاجة إلى شفيع.

ـ جئت شفيعة؟

ـ نعم.

ـ لمن؟

ـ لصديق عزيز. فتهانفت[1] نجلاء وقالت:

ـ تتشفعين لصديق عزيز لتسلُبيه مرة أخرى!

ـ ما هذا يا إلهى؟ حبيبتى نجلاء! ماذا بك؟

ـ أنت بى، وأنت دائي، وأنت بلائى.

ـ نجلاء؟ أين ذُهِبَ بعقلك؟ بالله عليك قولى ماذا جنيت؟

ـ خبِّرينى أولاً لمن تتشفعين؟

ـ لمولاى أبى فراس. فوثبت نجلاء وقالت فى دهشة المحموم:

ـ لأبي فراس؟!!

ـ نعم لأبى فراس. ماذا فعل أبو فراس حتى هجرته وكدرت عليه صفو حياته، وهو أطهر الشباب قلباً وأكرمهم نفساً، وأعلاهم نسباً؟ ماذا جنى حتى بدلّت بنهاره ظلاماً، وبريحان حياته شوكاً وقتاداً؟

ـ ألا تغارين عليه يا صوفيا؟ فحملقت صوفيا وقالت:

ـ أغار عليه؟ إنه حبيب إلى كل قلب، ولكنه لا يبعثر حبه على الحسان. إننى أحبه كما أحب القمر الزاهى فى ليالى الربيع، دون أن تحدثنى نفسى بالصعود إليه. إن من الخبل أن تتعلق رومية بعروش الملوك.

ـ إذاً ما هذه الرسائل التى كان يبعث بها إليك؟ فقهقهت صوفيا وقالت: مسكينة يا نجلاء! لقد وقعت فى دسيسة أشرار أشقياء. أين هذه الرسائل؟ فقامت نجلاء وأخرجت الرسائل من خزانتها. فلما نظرت إليها صوفيا، وكانت نافذة الذكاء، صاحت: أنظرى، إنها مزوَّرة، إنها بخطه إلا تلك الكلمة التى صُدِّرت بها كل رسالة. تأملى يا حبيبتى فى كلمة «يا صوفيا» أهى من نوع خطه؟ فنظرت نجلاء طويلاً، ثم رفعتْ رأسها كما يرفع الغريق رأسه من اللجّة وصاحت: لا يا صوفيا إنها ليست خطه. إنها مزوّرة. فقد كنا فريسة مكيدة خبيثة. ثم قذفت بنفسها على

(١) تهانفت: ضحكت باستهزاء، أو تعجبت..

صوفيا تعانقها وتقبلها فى شبه جنون، وهى تغمغم: ويل لى من غباوتى! لقد كدتُ أضيِّع صديقى، وأفقد حياتى وسعادتى. مسكين أيها الصديق! ماذا ظننتَ بى؟ وبم حكمت علىّ؟ ثم التفتت فلم تجد العجوز فصاحت: أدركوا العجوز! أدركوا العجوز! فهُرع الخدم وأسرعوا للبحث عنها فى كل مكان من الدار، فلم يعثروا لها على أثر. فاتجهتْ إلى صوفيا وقالت: هذه العجوز هى رأس الشر، وأم الكبائر. أين أبو فراس الآن؟ اذهبى يا حبيبتى إليه وقصّى عليه ما رأيت وسمعت، وتلطفى به، واطلبى إليه أن يقابلنى بعد ساعة بقصر أخته أسماء، لنحل معاً هذا اللغز المعقَّد.

وعادت صوفيا إلى أبى فراس فرأته يذرع الغرفة جيئة وذُهوباً فى قلق ووجُوم، فلما وقعت عليها عينه صاح: ما وراءك؟ فلم تجبه وقالت: اجْلس هنا يا فارسى، وبالله عليك لا تُحَمْلق عينيك هكذا فإنك تخيفنى. اهدأ يا سيدى اهدأ، فإن حديثى سيطول، ثم ما هذا العُبوس؟ وما ذلك الحزن الذى كاد يعصف بك؟ وفى تلك اللحظة أخذ كلبها يتواثب حولها فمالت إليه تداعبه وتدلله، وتحمله بين ذراعيها، وتخاطبه بعبارات ملؤها الحب والحنان، فضاق أبو فراس ذرعاً واشتدتْ وساوسه، وقال:

ـ قوليها كلمةً واحدة يا صوفيا، ففى اليأس راحة المحبين. فأغرقت فى الضحك وقالت:

ـ أىّ يأس يا صديقى؟ إنها مكيدة محبوكة الأطراف نسجتها يد العجوز سلمى مع أيد أخرى، أترك لك ولنجلاء البحث عنها.

ـ مكيدة؟ ونجلاء لا تزال على صداقتى؟

ـ نعم. ثم أخذت تقصّ عليه القصة فى تفصيل وإسهاب، وهو مطرق واجم، يتأوّه حيناً، ويثب من الغضب أحياناً، فلما نفضتْ إليه كل ما عندها قال: خادمى سهم خائن، والعجوز خائنة، وأنت مسكينة مظلومة. ويل لسهم! ويل لسهم! ولكن هناك أيدياً أثيمة أخرى هى التي كانت تدفع هذين الخائنين. الحمد لله والشكر لك يا صوفيا، ما أعْجَبَ تصاريف القدر! إنهم لو لم يلخلوك فى هذه الدسيسة ما استطعنا لها كشفاً! أنا اليوم أسعد خلق الله. اليوم عاد إلىّ شبابى، وانبعثتْ آمالى. ثم أخذ يقبِّل صوفيا فى جبينها، ودموعه تغسل مكان كل قُبلة، وهو يقول: أتقولين إنها ستقابلنى بعد ساعة عند أختى؟ وما كادت تجيب حتى وثب إلى جواده والشوق يكاد يطير به، فما رأى الناس أشد مرحاً من فرس وفارس!

وصل إلى قصر أسماء فعانقها طويلاً، لأن شوقه الثائر الزخّار كان يتطلب منفذاً، ولو أنه

رأى فى السُّلّم عبدها جوهراً لأغرقه عناقاً وتقبيلاً، وجاذبته أخته كثيراً من الأحاديث، وسمعتْ رملة بقدومه، فأسرعتْ نحوه فى شغف سافر فردّ تحيتها فى أدب هادىء رزين. وبينما هى تحادثه إذا جوهر يعلن قدوم نجلاء. فالتفتت أسماء إلى أخيها وقالت: إن نجلاء فتاة أديبة لا تحتجب عن الرجال، وأظنك حضرت مجالسها التي تجمع رجال الشعر والأدب. أتعرفها؟ فقال: نعم. وهنا أمرت جوهراً أن يدعوها إلى المجلس. فدخلت نجلاء فعانقت أسماء ورملة وألقت ابتسامة خفيفة نحو أبى فراس، ومدّت إليه يدها فى إجلال وقالت:

ـ سمعت قصيدتك يا سيدى فى موقعة حصن برزويه، وسمعت قصيدة الشاعر الجديد الذي يدعونه بالمتنبى، وعجبت أشدّ العجب أن يحتاج مولاى سيف الدولة إلى شاعر جديد، وفى الدولة مثلك ومثل النامى والناشىء وكُشاجم وغيرهم من الشعراء المجيدين.

ـ إن كل شاعر فى المملكة يا سيدتى سيف للمملكة ودرْع لها. وما أحوج الممالك الناشئة إلى كثرة السيوف والدروع، فقالت نجلاء: إن قصيدة المتنبى كلها عيوب، فمطلع القصيدة طلسم مُغلق لا يفهم، وأبياتها مفكّكة الأواصر ليس فيها شىء من إشراق الديباجة أو الفلسفة البارعة. وحينما همّ أبو فراس بإجابتها وكانت أخته قد عرفت من منظره وحركاته ما تنطوى عليه نفسه صاحت: إننى لا أحب الجدال فى الشعر والأدب، فهلا ذهبتما إلى الحديقة فإنها أوسع من أن تضيق بالحديث فى الشعر وفنونه. قومى يا نجلاء. فذهبا إلى الحديقة وأخذا يتحدثان فى المكيدة وما لقيا من جرّائها، ثم سأل أبو فراس:

ـ من الذى حاك خيوط هذه المكيدة يا نجلاء؟

ـ قرعويه.

ـ هذا عجيب!

ـ ليس بعجيب يا سيدى، فإنه يريد أن يفرق بيننا بكل ما يستطيع من وسائل. وأذكر أن العجوز سلمى فى أثناء احتجابك عنى كانت تكثر من الغضّ منك، ومن الثناء عليه، وتُلِحّ علىّ فى وصل حبال صداقتى به، ثم إنى أعتقد جازمة أن العصابة التى حاولت قتلك ليلة خروجك من دارى لم تكن إلا بتدبيره وإيعازه.

ـ اللئيم الفاجر! سأذبحه بسكين جزّار، لأنه أحقر من أن يُقتل بسيف.

ـ لا يا سيدي. إن حب سيف الدولة لهذا الخبيث فوق كل حب، وهو لا يتوانى عن محقْ كل من يعرض له بسوء ولو كان ابن عمه. فدعْنا بالله نعش فى سعادة ونعيم. ودعنا نسخر من

مكايد أعدائنا بعد أن نتحصّن بالحذر منهم. لا بد أن تحضر الليلة للعشاء فإني سأدعو بعض الأدباء ورجال القصر وبينهم قرعويه، لأمتع نفسى بتعذيبه والتشفى منه. وقد أرسلتُ إلى نشوة المغنية وإلى الراقصة «صبح» لتكون ليلتنا ليلة سرور وبهجة، ننسّى بها ما مرّ بنا من ليالٍ سود، وأيام نحسات. وبينما كانا فى الحديقة كانت رملة تطل عليهما من ثقوب نافذة مقفلة، فلما رأتهما عادت إلى غرفة نومها متعثرة فى كل خطوة، ثم ألقت بنفسها على سريرها، وهى تئن أنين اللبؤة المكلومة. وجاءت خادمها الأمينة «مارينا» فسألتها فى ذعر عن سبب بكائها فلم تجبها، وتكرر السؤال، وزاد الإصرار على الكتمان، حتى إذا هدأت نفسها قليلاً قالت: دعينى يا مارينا دعينى. فإننى أحترق كما تحترق الشمعة دون أن يرثى أحد لحالى. إننى لست أخت ملك. إننى أبأس فتاة فى حلب. ولكن الخادم أخذت تسكّن من ثورتها. وتلحّ عليها فى أن تكشف لها خبيئة أمرها، وبعد لأى مالت رملة إلى أذنها وهمست بكلمات يقطعها النشيج[1] والزفير، وحينما أتمّت حديثها هزّت مارينا رأسها وقالت: إن الأمر جدّ خطير، ولكن دعينى يا سيدتى أدبّر، وأرجو أن تزول من طريقك العقبات، وأن يتمّ الأمر كما تحبين.

(١) نشج الباكى نشيجاً: غص بالبكاء من غير انتحاب.

٨

خرجت سلمى العجوز هائمة حيرى تعَض بنانها غيظاً وحَنَقاً، ولم يكن غضبها لأن صلتها انقطعت بقوم عاشت فى كنفهم عيشة الرَّغد والنعيم، ولا لأن أواصر رحمة وحنان تشبه أواصر الأمومة كانت بينها وبين نجلاء قد تفككت، ولكنها غضبت واشتد غضبها لأنها لم تُحكم المكيدة، ولم تأخذ حَيْطتها لكل طارىء. وحزنت للفنّ أكثر من حزنها على نفسها، وخشيتْ أن يكون لعلوّ السن يد فى اضطراب تفكيرها، وأنها كلما تقدمتْ بها السنون فقدت هذه المواهب الغالية شيئاً فشيئاً، حتى تصل إلى الخَرف[1]، ورأت رجليها تسوقانها إلى بيت قرعويه، فلما مَثَلت أمامه ـ وكان فهد واقفاً إلى جانبه ـ عرف بذكائه أن فى الأمر شيئاً فقال:

ـ أهلا بسلمى. هل طار العصفور من القفص؟

ـ طار يا سيدى لأن القفص كانت به فجوة تسع النسر. والذنب ذنب صانع القفص. وقد جاء إليك اليوم حزيناً معتذراً.

ـ هوِّنى عليك يا سلمى فمثلك من يستطيع صنع قفص جديد لا تنفذ منه الذبابة. والخيبة أول مراتب الفوز. ماذا حصل؟

فقصّت عليه العجوز فى خجل واستخذاء جملة الأمر، فلما انتهت من الكلام رفع رأسه فى عبوس وصلابة، والتفت إلى فهد وقال: ما كان ينبغى لنا أن ندخل صوفيا فى

---

(١) الخرف: فساد العقل من الكبر، وبابه طرب.

الأمر، فإنها فجوة القفص الواسعة التى فرَّ منها العصفور، ولكن . . لا بأس عليك يا سلمى، أقيمى بدارنا فإننا دائماً إليك فى حاجة. وفي هذه اللحظة دخل خادم ومعه بطاقة فناولها لقرعويه فقرأها عابساً مرة وباسماً أخرى، وقال: هذه رُقعة من محمد الخالدى يدعونى للعشاء عنده الليلة، ولعله يحتفل لعودة الصفاء بين الصديقين! ثم التفت إلى فهد وقال: قل لحامل الرسالة إننى سأجيب الدعوة.

وكانت ليلة مشرقة حقًّا، ضاحكة حقًّا. نُبذَت فيها الكلفة، وأرسلت النفوس على سجيتها، وأعد فيها كل ما يُبهج ويَسرّ، وكانت نجلاء فى رَوْعة جمالها، وحسن زينتها ولطف حديثها، شَرَكَ القلوب، وملتقى العيون. أما أبو فراس فقد استخفَّه الطرب، فطار مع اللذات حيث طارت، وقذف بثوب الوقار من النافذة، وكانت نجلاء تكثر من تحية قرعويه، ومن الإقبال عليه كأنه لم يكن منه ما كان، وكأنْ لم يُخْشَ منه ما يكون. والنساء النساء لا يَلَذّ لهن تسميم أعدائهن إلا فى كوب عسل! وقامت صبح فأتقنت الرقص، وأجادت الحركات.

وكانت دقات صنوجها فنًّا من الفن، وطرَباً من الطرب. وغنَّت نشوة من قول أبى فراس:

ولما ثار سيفُ الدين ثُرْنا ... كما هيَّجت آساداً غضابا
أسنَّته إذا لاقى طعانا ... صوارمُه إذا لاقى ضِرابا
دعانا والأسنة مُشْرَعاتٌ ... فكنا عند دعوته الجوابا
وكنا كالسهام إذا أصابت ... مراميها فراميها أصابا

ثم غنت من قوله:

ألزمنى ذنباً بلا ذنب ... ولجّ فى الهجران والعَتْب
أحاول الصبر على هجره ... والصبرُ محظور على الصَّبّ
وأكتم الوَجْد وقد أصبحتْ ... عيناى عينيه على قلبى
وكنت ذا صبر وذا سلوة ... فاستُشْهِدا فى طاعة الحبّ

فاهتزّ القوم من الطرب وعلتْ صيحاتهم، وما فَجَعَهم إلا شعاع من الشمس يسطع على الحيطان، فقاموا، ودعت نجلاء أبا فراس فهمس فى أذنها: متى تصلنى منك رسالة يا

نجلاء فضحكت وقالت: لقد أذعتُ سرّ خطبتنا فليس علينا بعد اليوم من حَرَج ، فاحضر متى شئت وكيف شئت .

وفي صبيحة يوم دخلت مارينا غرفة نوم رملة ورفعت الستور فرأتها في سريرها عابسة ، وقد دلت أساريرها أنها لم تنم ليلتها ، فقالت لها مارينا :

ـ لقد عرفتُ كل شيء من سهم .

ـ ومَن سهْم هذا؟

ـ خادم القصر الذي وهبه سيدي سيف الدولة لأبي فراس .

ـ وما شأنه؟

ـ لقد فرّ المسكين من سيده بعد أن انكشفت الدسيسة التي اشترك فيها هو وسلمى العجوز وفهد خادم قرعويه ، وكان الغرض من هذه الدسيسة التفريق بين أبي فراس ونجلاء ، فإنه قد جنّ بحبها جنوناً . فتنهدت رملة وقالت :

ـ علمت ذلك حينما أطللت عليهما من نافذة القصر .

ـ لقد لبثت طول الليل أفكر في وسيلة لإبعاد نجلاء عنه وتيئيسه من الحصول عليها ، ثم في اجتذابه إلى القصر، والاستعانة بنفوذ مولاي سيف الدولة من حيث لا يشعر، حتى يأتي خاضعاً يستجدي رضاك .

ـ وهل اهتديت إلى شيء؟

ـ أظن . أتعرفين غالباً التميميّ؟

ـ هو من كبار الجنود في جيش أخي . فضحكت مارينا وقالت :

ـ وهو حبيبي المفتون بي ، والذي إذا أمرته أن يتسلق إلى الشمس فكر في طريقة للوصول إليها .

ـ وماذا تريدين منه أن يفعل؟

ـ آه . هنا يقف السرّ فلا يتقدم خطوة واحدة ، فثقي بي يا سيدتي ولا تتعبي رأسك بالدسائس ، فإنها شائكة معقّدَة .

وبعد أيام زارها غالب في هدْأة من الليل ، فانفردت به في حجرة بحديقة القصر، وطال بينهما الحديث والجدل ، وخرج غالب بعد ساعتين وجبينه يتصبب عرقاً ، وهو يهمس

في أذنها: إنها مسألة شديدة الخطر يا حبيبتى، وأخشى أن يُقضى علينا جميعاً إذا كشف أمرها.

- كن رجلاً، واعلم أن حبى وزواجى بك فى كِفّة، وقضاء هذا الأمر على ما أريد فى كفة، فاختر أية الكفتين شئت.

- اخترت الكفة التى فيها حبك، ولو سقطت بى إلى الجحيم، وسأعمل بكل ما أمرت ودبّرتِ.

وبعد هذه الليلة بسبعة أيام أو ثمانية، ركب أبو فراس للقاء نجلاء فى دارها فرأى الدار فى اضطراب مائج، وأقبل عليه محمد الخالدىّ باكياً، يضرب بكف على كف، ويقول فقدنا نجلاء! فقدنا نجلاء! لقد ماتت، لقد ماتت! ولكن أين جثتها؟ لقد بحثنا فى كل ركن، وفى كل درب، وفى كل زقاق من المدينة وأرباضها، فلم نجد لها أثراً. خرجت هذا الصباح لزيارة إحدى صويحباتها فلم تصل إلى دارها، وكأنما غاصت بها الأرض، أو تخطفتها السماء. فذهل أبو فراس وكأن عاصفة جرفت به الأرض، فلَوى عنان فرسه كالذاهل المجنون، ينظر فى وجه كل شخص ويبحث فى كل زاوية، ويمر على كل بيت يظن أنها طرقته، حتى إذا يئس فى أخريات الليل ذهب إلى داره شبحاً محطماً، ولم يبق فيه من الحياة إلا زفرات وانات ودموع.

ومرت الأيام تتلو الأيام ولا يُعْلم لنجلاء مكان، واهتم سيف الدولة ورجال دولته بالبحث عنها فلم يفلحوا، وكاد مرور الزمن، وتراكم اليأس على اليأس يمحو ذكراها من نفوس الناس إلا من نفس واحدة حزينة: هى نفس أبى فراس. واتهم قرعويه أبا فراس بأنه اختطف نجلاء، واتهمه أبو فراس بأنه اختطفها، ولكن التهم لم تتجاوز شبهات لا تقف على رجلين. فذهب إليه أبو فراس مرة بعد أن طغت عليه وساوسه، فلما تقابلا جعل كل منهما ينظر إلى صاحبه نظرة الثعلب إلى الثعلب وقال أبو فراس:

- وهكذا يا صاحبى عجز رجالك عن معرفة مكان نجلاء!

- يظهر أن من دبّر اختطافها كان فى ذكائك وحصافتك فلم يترك وراءه أثراً يدلّ عليه.

- لا بد أن تكون له سابقة فى الدسائس. ودُرْبة فى نصْب الحبائل.

ـ على أننى لا أستبعد مطلقاً أن تكون فى حلب، وأن تكون فى دار رجل عظيم مثلك.

ـ وقد يكون مختطفها رجلاً غيوراً، فاختطفها ليروضها على حبه، ويكرهها عليه إكراهاً.

ـ إنى لا أجد من يستطيع ردّها سواك يا سيدى أبا فراس إن كانت لا تزال بين الأحياء.

ـ وعليك أن تبحث أنت أيضاً فربما لا تكون بعيدة عنك سأتركك الآن يا صاحبى وأرجو أن يهديك الله إلى مكانها.

أما رملة فاستبشرت باختفاء نجلاء، ولوّحت إلى أسماء من بعيد بأمنيتها، وعملت أسماء على استهواء أخيها بالثناء على رملة والإشادة بما يحيط بها من ملك وجاه عريض، ولكن أبا فراس كان عزوفاً يسمع ويغضى، ويساق فيأبى المسير. ولكن ماذا جرى لنجلاء حقًّا؟

خرجت فى الصباح لزيارة صديقة، فتقدم إليها بالقرب من دارها ثلاثة رجال فى زىّ الحمالين، ومعهم محفّة[1]، فتقدم منها أحدهم فى أدب وإجلال قائلاً: أتأمر سيدتى أن نحملها فى محفتنا إلى ما تريد، فإننا لم نشتغل بدرهم طول نهار أمس؟ فعطفت نجلاء عليهم، وركبت المحفة، وأخبرتهم بمقصدها، فانطلقوا بها يسابقون الريح، حتى إذا بلغوا مكاناً خلا من الناس، أسرع أحدهم فكمّ فمها، وقيد يديها ورجليها فى سرعة البرق، ثم أمر صاحبيه أن يسرعا، واستمر ثلاثتهم يعدون حتى جاوزوا أرباض المدينة، وأدركهم الليل فلم يستريحوا. ولما ظهرت تباشير الصباح غيَّروا أزياءهم، ولبسوا لباس الجنود، ووقفوا عند قلعة رومانية قديمة، تسمى: «برج الروم» كانت سجناً سياسيًّا لأعداء سيف الدولة، وقابل كبيرهم صاحب السجن وقال له:

ـ لقد أحضرنا إليك اليوم فتاة هى أشد خطراً على الدولة من الروم، وهى جاسوسة ماهرة، تستعين بجمالها على استهواء الرجال واستخراج أسرارهم من مكامنها، ثم الإفضاء بها إلى الروم. وقد حيَّرتْ مولاى سيف الدولة، وأقضتْ مضجعه، وكان كلما

---

(١) المحفة: مركب للنساء كالهودج، والسرير يحمل عليه المسافر.

طاردها، أو حاول القبض عليها فرّت من بين أصابعه كأنها طيف خيال، واللذى نخشاه أن تستبيكَ هذه المرأة بجمالها، أو تستهويك بفنونها، فاحذر يا خالد! فإنّ رقبتك لن تكفى سيف الدولة فى الانتقام منك. وقد تقول لك إنها بنت فلان العظيم، أو أخت فلان الكبير، أو إن زمرة من الأشقياء اختطفتها، أو إن أبا فراس أو غير أبى فراس سيبحث عنها، ويعاقب كل من له يد فى اختطافها وسجنها. قد تقول لك كلاماً كثيراً وهَذراً كثيراً، فلا تتزعزع واثبُت، واعلم أنك أمام أخبث امرأة فى هذا الوجود، أفهمت؟

- فهمت وسأضعها فى غرفة منفردة، وأصمُّ أذنى عن سماع حديثها وتوسلاتها.
- احذر يا خالد واثبت، فإنها ساحرة فاتنة.
- لم يُبق منى الهَرم شيئاً يستجيب للسحر والفتنة.

ثم انطلقوا راجعين فى أزياء الجنود وما بلغوا حلب حتى قابلوا غالباً التميمى، فمنح كل واحد منهم ثلثمائة دينار.

انفردت نجلاء بحجرتها، وحينما دخل عليها خالد الشماخ يحمل بعض الطعام سألته:

- أين أنا؟ فضحك ساخراً وقال:
- فى جنة عالية، قطوفها دانية، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية.
- أأنت زعيم عصابة اللصوص الذين اختطفونى.
- حقًّا لقد سرقوا كنزاً من كنوز الدولة ثميناً.
- أتعرف من أنا؟
- أعرف أنك هنا وهذا يكفينى.
- أنا نجلاء بنت الخالدىّ، أخت محمد وسعيد كاتبى سيف الدولة وشاعريه.
- يظهر أن فى المسألة شعراً وخيالاً.
- أنا صديقة الحارث أبى فراس قائد جيوش سيف الدولة.
- وقد عرفتِ منه كل أسرار الجيش.
- أين يُذهب بك يا شيخ؟ انظر إلىّ.
- أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق!
- إن سيف الدولة يبحث عنى، ولو عرف أنى فى حوزتك لقتلك.

ـ أعرف أنه كان يبحث عنك كثيراً.

ـ بالله لا تراوغني، واستمع لحديثي بعقل وروية. لقد اختطفني لصوص أدنياء، وأدخلوا عليك الغفلة في أمري، فأسرع واذهب بي إلى حلب لتنل أعظم جائزة. وضاق صدر خالد، ونظر إليها مغضَباً وقال:

ـ اسمعي يا فتاة، إنني رجل من صخر لا يؤثر فيه مال، ولا يستهويه جمال، وقد خلقني الله آلة جامدة تعمل ما طُلِبَ إليها عمله، فلا تتعبي نفسك في الباطل، ودعي مكرك ومَحالك[1] وادعاءك أنك بنت فلان، أو أخت فلان، وسيصل إليك الطعام مع أحد جنودي، لأنني عزمت على ألا أراك مرة أخرى. ثم انصرف مقطباً، واستسلمت نجلاء لأحزانها بعد أن يئست من وسائل النجاة، وتوالت الأيام والليالي وهي لا تجد إلى الأمل منفذاً.

وكان أبو فراس قد برّح به الحزن لا يجد بعض الراحة إلا عند زيارة صوفيا، التي كانت كثيرة العطف عليه، شديدة الألم لما حلّ به، وبينما هو في قصره ذات صباح إذا خادمه يعلمه بقدوم صوفيا، فدهش لأن صوفيا كانت شديدة التحرج، مبالغة في التصون. فأسرع يحيّيها ويرحّب بها، ولكنه لحظ في وجهها آثار الاضطراب فأدنى منها كرسيًّا فجلست، وهي تلهث متعبة مكدودة، ثم همست في أذنه تقول:

ـ علمت السرّ. فوثب أبو فراس صائحاً:

ـ أي سرّ يا صوفيا؟

ـ سرّ الجريمة، سرّ اختطاف نجلاء، فانكبّ على يديها يقبلهما وهو يقول:

ـ أنت مَلَك كريم يا صوفيا، أنت ملك كريم. بحقك أسرعي ونبئيني: ألا تزال بين الأحياء؟

ـ إني كنت واثقة بكرم الله ولطفه في قضائه.

ـ قولي يا صوفيا قولي.

ـ في هذا الصباح حضر جندي إلى مصنع أبي ليشتري سيفاً، فعرض عليه سيفاً رخيص الثمن، فأبى في كِبْر واعتزاز، وأصرّ على أن يشتري سيفاً بثلاثين ديناراً، فعجبتُ

---

(١) المحال: المكر والحذق، من الحول والحيلة.

للأمر وأردتُ أن أعرف خبيئة هذا الجندى البائس، فقلت له: إن هذا السيف غال على مثلك، إنه لا يشتريه إلا كبار القواد. وتماديتُ فى السخرية منه، والازدراء عليه، فاشتدّ غضبه وقال: أتظنين «بشراً الخزامى» فقيراً يا فتاة؟ ثم مدّ يده إلى جيبه فأخرج منه ما يزيد على مائة دينار، فتأجج فيّ الميل إلى معرفة مصدر هذا المال. وحينئذ عدْتُ إلى غريزة النساء، فضحكت ثم قلت: حقًّا إن هذا السيف الجميل لا يحمله إلا الفارس الجميل! فتيقظ غروره، وظن أن المال اجتذبنى إليه، فقرُب منى، وهَمس فى أذنى بكلمات الحب الوضيع، فلم أغضب، وأشرت إليه أن يتبعنى. ودَهِش أبى وبُهر، ولكنى غمزتُ له بعينى فسكت وأطرق. وذهبنا إلى الغرفة لنتحدث فقال: إنى أضع كل مالى تحت قدميك، فأظهرتُ الفرح وقلتُ: هذا مال كثير، من أين أتيت به؟ فسكت مطرقاً، فقلت له: لا بد أن تخبرنى يا حبيبى. إننا سنكون زوجين، فكيف تُخفى عنى سريرة نفسك؟ ألا تعلم أننى سأعترف لك قبل زواجنا بكل شىء؟ سأقول لك إنى كنت أحب ابن عمى، وسأقول لك إن هذا العقد الذى أزين به جيدى لم أشتره ولكنى سرقته فى ليلة عرسٍ لأحد الأمراء، وسأقول لك كثيراً وكثيراً. واعلم أنى رومية أبيح لزوجى أن يكون لصًّا، وأبيح له أن يكون قاتلاً، ولكنى لا أبيح له أن يكذب علىّ، فإن طمعتَ فى زواجى فاكشف لى عمًّا فى نفسك كأنى أقرؤه فى كتاب. قل يا بشر من أين هذه الدنانير؟ فقال: هذا المال له قصّة يا حبيبتى. فقلت لا بدّ أن تكون قصّة بطولة وإقدام. فتردَّد طويلاً ثم زفر وقال: طلب إلينا غالب التميمى يوماً أن نخطف فتاة من بنات أثرياء المدينة، فاختطفناها، وأعطى كلّ واحد منا ثلاثمائة دينار. فصحت: مَرْحَى بزوجى البطل! ورميتُ نفسى عليه أملأ وجهه تقبيلاً، ثمّ قلتُ وقلبى يرتجف: وأين وضعتم الفتاة؟ فقال: وضعناها فى برج الروم. فقلت فى شماتة: لا بدّ أن تكون ماتت وذهبت إلى الجحيم. ثم سألتُه: من كان معك؟ فقال: جنديان هما: حسّان بن على، وعقيل الحارث.

ـ وأين الرجل؟

ـ مصفد بالقيود فى المصنع، فقد دعوت أبى وصنّاع المصنع فتكاثروا عليه وأحكموا وثاقه. فوثب أبو فراس وحمل صوفيا بين ذراعيه، وقد ذهب بعقله الفرح، وأخذ يدللها كما يدلل الطفل ويقول: أنت الرحمة فى جسم، والحنان فى شخص! هذه هي المرة الثانية يا صوفيا، التي تنقذين فيها حياتى وحياة نجلاء. ثم خرج مسرعاً من الدار.

أسرع أبو فراس إلى سيف الدولة، وأخبره بكل ما سمعه، وأرسلت الجنود فقبضوا

على بشر الخزاميّ وحسان بن على وعقيل الحارث . أما غالب التميمى فلم يقفوا له على أثر، لأن مارينا أسرعت إلى داره فأخبرته بظهور الجريمة ، وحثته على الهرب .

٩

طار أبو فراس إلى «برج الروم» على جواده، كأنه القدر المحتوم، ووراءه خادمه أسامة، وبعد ساعة لمح على الأرض أثر جواد يسلك الطريق نفسها، فثارت شبهاته وظنّ الظنون، وخاف أن يكون أعداؤه قد سبقوه إلى نجلاء لنقلها إلى مكان آخر، فركز جواده مستحثًا فانطلق ينهب الأرض كأنه البرق الخاطف، أو الخيال الطائف، وبعد ساعتين ظهر شبح فارس، ترفعه النجود، وتخفضه الوهاد، فصاح بجواده وزجره زجر المتيئس، وألهب جنبيه بالسوط، حتى إذا دنا منه وأحس الفارس قربه حاول الفرار فكبا به فرسه، فقبض عليه أبو فراس وتأمل وجهه فإذا هو فهد خادم قرعويه، فسأله عن طيّته، فتلعثم وتردّد ثم قال بعد أن بلع ريقه مرتين:

- أظن أننى لم أكن أسيراً فارًا، وأعتقد أن لأى إنسان الحق فى أن يذهب فى أرض الله متى شاء وحيث شاء دون أن يُرهَق بسؤال.

- صحيح، إلا إذا حامت الشبهة حول شخص يريد الفساد فى الأرض.

- وأى فساد يخشى من فارس يمتطى جواده ليسافر من بلد إلى بلد آخر؟

- الفساد فى الغرض لا فى السفر، وفى النية لا فى الوسيلة، فإلى أى بلد أنت ذاهب؟

- إلى «بالس».

فالتفت أبو فراس إلى أسامة وقال: فتشه يا أسامة. ففتشه فلم يجد معه شيئاً، ثم أعاد

التفتيش فلم يعثر على شيء، وهنا أخذ فهد يسخر منه فى شماتة لاذعة، فغضب أسامة ولطمه على وجهه فطارت عمامته عن رأسه، فأسرع فهد فى ذعر واهتمام إلى التقاط العمامة، ولحظ أبو فراس اهتمامه فصاح: هات العمامة يا أسامة. فلما ناوله إياها دقق البحث فيها ففطن إلى أن أحد جوانب القلنسوة أغلظ من باقيها، ففكّ خياطته فإذا ورقة بين الظهارة والبطانة كتب فيها: «من قرعويه قائد جيوش الأمير سيف الدولة، إلى خالد الشمّاخ، إذا بلغتك رسالتى هذه، فأطلق السجينة نجلاء الخالدية، وأبعث بها مع رسولنا فهد».

فلما قرأ أبو فراس الرقعة احتدم وجهه بالغضب، وأمر أسامة أن يقيّد رجلى فهد، ويُردفه وراء فرسه، بعد أن يربطه بالحبال إلى السرج. فأحكم أسامة وَثاقه، وكان فى أشد الحنق عليه والبغض له. وبعد أن ركبا خطر لأسامة وهما يعدوان فوق قمة أكمة، أن يقطع الحبال التى تربط الأسير بالفرس، ليستريح منه، ولتستريح الأرض من شره، فأخرج سكينة. فى خفية وسرعة، وقطع الحبال، ورمى السكين فسقط المسكين يتدهدهُ من صخرة إلى صخرة، حتى وصل إلى الهاوية مهشّماً، فالتفت أبو فراس مذعوراً غاضباً. وصاح: ويل لك يا أسامة، أأنت فعلت هذا؟

- لا يا سيدي، إن الشرير هو الذى قتل نفسه، ويظهر أنه قطع الحبال بشيء كان معه، وقد أخطأت إذ لم أقيد يديه أيضاً.

أرجو أن تكون صادقاً... أسرع فقد خفّ فرسك.

وبعد ساعات وصلا إلى «برج الروم»، فترجّل أبو فراس ووثب إلى داخل البرج قَلِقاً يساوره اليأس والأمل، فلقيه خالد الشماخ، ومال ليقبّل يده، ولكنه جذبها منه وقال: أين سجينتك نجلاء؟ فأجاب مضطرباً: فى الطبقة الثانية يا سيدى. فانطلق أبو فراس كما ينطلق السهم حتى بلغ غرفتها فأطلّ فإذا كومة من الثياب ملقاة على الأرض، لا تهزّها حركة. فتأمل فإذا فتاة ساجدة وقد طال سجودها، فهتف وهو يرتعد: نجلاء! نجلاء! فرفعت رأسها فأضاء الغرفة نور وجهها الوضاح، ونظرت فإذا أبو فراس: فوثبت من صلاتها فى شبه جنون، وهى تضحك وتبكى وتصيح. ثم ألقت بنفسها عليه والدموع تمتزج بالدموع، وبعد لأى قال أبو فراس وهو يلهث: كيف اختطفوك يا نجلاء؟ لقد اختطفوا روحى وعقلى وقلبى.

ـ إننى لم أجزع لاختطافى كما جزعت للبعد عنك، فلو أنهم كانوا اختطفوك معى لعشنا هنا عيشة هنيئة. فضحك أبو فراس وهو يقول:

ـ إننى لا يختطفنى إلا جيش جرّار أيتها البلهاء. أرأيت كيف يعمل أعداؤنا على تفريقنا؟ أرأيت كيف ينصبون لنا الحبائل؟ فمالت إليه وهى تقول:

ـ من صاحب هذه المكيدة الجديدة؟ أتظنه قرعويه؟

ـ أنا فى حيرة. إن الذى نفذها جندى يُدعى غالباً التميمىّ، ولكنى لا أعلم لمن كان يعمل. وقد أدركنا فى الطريق فهداً خادم قرعويه ففتشناه فوجدنا معه رقعة من سيده يأمر فيها السجان بإطلاقك. فهل يدل هذا على أنه واضع المكيدة؟

ـ لا. لو كان صاحب المكيدة ما مدّ فيها إصبعه هكذا علانية، وإنما أراد بالإسراع إلى تخليصى أن ينال عندى حُظْوة ومنزلة. قل لى. متى نستريح يا صاحبى من هذه الدسائس؟

ـ حينما نتزوج.
ـ ومتى نتزوج؟
ـ حينما لا تبقى قدم رومية فوق أرض عربية.

فتنهدت نجلاء وقالت:
ـ لقد أبعدت كثيراً يا سيدى.
ـ لم أبعد، وإن سيفى ليحدثنى بأن نصر الله قريب.

وهنا دخل خالد الشماخ حزيناً ذليلاً، بعد أن علم كيف خدعه اللصوص، وضحكوا من ذقنه، فصاح به أبو فراس:

ـ لا تثريب عليك يا صاحبي، فقد خدع الأشرار قبلك من كان يظن أنه أذكى منك.

ـ لقد دخلوا علىّ يا مولاى فى ثياب الجنود فما شككت فى صدق قولهم.

ـ لقد كانوا جنوداً حقًّا، وإنى أعلم أن إخلاصك للدولة، وجمودك فى أداء الخدمة حالا بينك وبين الشك والتردد. وهنا قالت نجلاء:

ـ لقد كان خالد فيما وراء قيامه بواجبه كريماً شريفاً.

وبعد أن استراح أبو فراس قليلاً، ركب جواده، وأركب نجلاء فرس فهد، وانطلقا يسابقان الريح حتى طلعا على حلب عند طلوع الشمس. وسرت البشرى فى المدينة بعودة نجلاء. وأقبل العظماء والأدباء لتهنئتها، وتوافد على دارها كرائم النساء يعلنّ السرور، ويتوقعن أن يسمعن حديثاً عجباً عن اختطافها العجيب. ووصل الخبر إلى رملة فزاد حزنها، وتأججت فى قلبها نار الغيرة من جديد، وكاد يمسها ما يشبه الجنون.

وكان قرعويه بين القادمين لتهنئة نجلاء، فلما وصل إلى باب الدار تقدّم أسامة الخبيث نحوه وقد أراد التشفى منه فقال فى أدب وإجلال: لقد عثرنا على فرس لمولاى فى الطريق يرعى العشب وليس معه فارس، رأينا بجانبه هذه القلنسوة. ومدّ بها يده نحو قرعويه، فظهر منها الجانب الذي نُقِضَتْ خياطته، فنظر إليها قرعويه والحقد والغضب يأكلان قلبه وقال وهو يبتسم ابتسامة الأسد: لعل حادثاً وقع للفارس يا أسامة، سننظر فى كل هذا فيما بعد.

ولاقت نجلاء قرعويه بترحيب، ورآها أبو فراس فحاكاها فى ريائها وهو يغمغم[1] بقول أبى تمام:

النــار تأكل بعضها إن لم تجـد ما تأكله

وصفا العيش لأبى فراس ونجلاء، ومرّت شهور وشهور وهما فى ظلال النعيم يعبثان كما يعبث الطفلان المدلّلان، فلم يكن يفرّق بينهما إلا غزوات الروم. فقد غزاهم سيف الدولة فى سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، وكان يقود أعظمَ كتائبه فارسه الْمُعَلم أبو فراس، فأوقع بالروم فى «سَروج» ثم عرّج عل «مرعش» فأعاد بناء قلعتها وشتّت جموع الروم، وأسر أبطالهم.

وما كادت تطلّ سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة، حتى اتجه سيف الدولة بجيشه الزاخر، وأبو فراس فى طليعته، نحو «مَلطيّة» فهزم الرّوم شرّ هزيمة، ووقع فى أسره قسطنطين فوكاس ابن ملك الروم. وفى هذه الموقعة يقول أبو فراس:

وَولى على الرسم الدُّمُسْتُقُ هارباً   وفى وجهه عذرٌ من السيف عاذرُ[2]

(١) غمغم الكلام: لم يبينه.
(٢) الدمستق: لقب كان لقائد جيش الروم.

فــدَى نفســه بابــن عليه كنفسه ‏ وللشــدة الصمّـاء تُفْنَــى الذخائر[1]

ولم تمض على هذه الغزوة إلا سنة حتى انقض جيش سيف الدولة على جيش الروم عند حصن «الحَدَث». وكان الروم فى نحو خمسين ألفاً. فهزمهم وأسـر صهـر الملك وحفيده وكثيراً من القواد، وأبلى أبو فراس فى هذه الموقعة خير البلاء. حين يقول:

حَسْبِـى بهـا يوم الأحيدب وقعة ‏ على مثلها فى العز تُثْنَى الخناصرُ[2]

عدلنا بهـا فى قسمـة المـوت بينهم ‏ وللسيف حكمٌ فى الكتيبـة جائر

فلــم يبــق إلا صهـرهُ وابـن بنته ‏ وثــوّر بالبــاقين من هو ثائر

وكان يعود بعد كل غزوة وأعلام النصر تخفق فوق رأسه لينعّم بالحياة هنيئة رغيدة إلى جانب من يحب، وكانت نجلاء تلوّح بزواجهما بين الصَّبْوة[3] والحياء، فلا تجد منه إلا إشارة لطيفة تدعوها إلى الصبر والانتظار.

وفى آخر سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، عزم سيف الدولة على ضرب الروم فى بلادهم، فعقد الراية لأبى فراس على القسم الأعظم من جيشه، وسار الجيش، ودمر كثيراً من الحصون، وأملى قائد الروم لسيف الدولة وخدعه، حتى انتهى جيشه إلى «خِرْشِنَة» فدهمه عندها بجمع لا يحصى، فحاول التقهقر ولكنه رأى أن الروم سدوا عليه الطـرق والمضايق. وكان قرعويه بجانب أبى فراس، وكان الخبيث يعرف منفـذاً واحـداً أغفلـه الروم، فرأى الفرصة وقد سنحت للقضاء على أبى فراس، فأرشده إلى منفذ آخر يسمـى «مغارة الكحل» فانطلق أبو فراس نحوه بجواده فسقط عليه الـروم من كل جانـب، فلـم يستطع عن نفسه دفعاً، فاقتادوه أسيراً، وفرّ قرعويه مع سيف الدولة فى ثلاثمائة غلام، بعد أن فقد رجاله وسلاحه، وكانت هزيمة منكرة.

اقتاد الأعداء أبا فراس إلى قلعة «خرشنة»، فسار بينهم فوق جواده مرتفع الرأس، ثابت القلب، يتحدّى الكوارث، ويسخر من طوارق الأيام، وكانت القلعة رومانية البناء ضخمة حصينة شاهقة، تشرف من أكمة على نهر الفرات. فأدخلوه بهـا والسـرور يمـلأ جوانحهم، والزهو ينفخ خياشيمهم، لأنهم ظفروا بصقر العرب وفارسهم المغوار الذى

---

(1) الشدة الصماء: الخطب الفادح، والداهية النكراء، والنازلة الثقيلة.

(2) أمر تعقد عليه الخناصر، أو تثنى عليه الخناصر، أى يهتم. ويعتد به.

(3) الصبوة: الحنين والشوق.

طالما شتت جموعهم وفزّع قلوب شجعانهم. ودخل أبو فراس حجرته المظلمة الضيقة المنافذ وهو يقول:

إن زرتُ خرشنة أسيراً ... فلكم حللتُ بها مُغيرا
من كان مثلي لم يبت ... إلا أميراً أو أسيرا
ليست تحُلّ سَراتُنا ... إلا الصدور أو القبورا

وبقي في الأسر أكثر من شهر، وهو في كل يوم يفكر في الفرار فلا يجد إليه من سبيل. وكان يخرج في أصيل كل يوم ممتطياً جواده ليدور به في فناء القلعة، وليطلّ على الفرات، فكان إذا أطلّ عليه رأى بينه وبين القلعة ما يزيد على خمسمائة ذراع، فيحار بصره ويدركه اليأس. ولكن طائفاً من خيال نجلاء كان يبدد هذا اليأس، ويسخر من هذا الارتفاع الشاهق، ويزعم أن للحب أجنحة يطير بها العشاق إلى من يحبون، كان طيف نجلاء لا يفارقه في صحوه ومنامه، وكان اسمها لا يفترُ عنه لسانه، وكانت ذكراها لا ترحل عن فكره ولا تَريم. رآها مرة في نومها وهي باكية غاضبة، فلما حاول الدنّو منها نفرت منه، وقالت: إن الذي لا يستطيع ان يقرُب مني في اليقظة، ليس أهلاً لأن يقرب مني في المنام، فهب من نومه جزعاً حزيناً، وخرج إلى فناء القلعة فامتطى جواده، وصمم على الفرار، ولو لقي في سبيله الموت. فوقف بفرسه على صخرة ونظر تحته فرأى الفرات من بعد سحيق وهو يمور ويزمجر كأنه الأسد ينتظر فريسته. فنزل وعصب عيني الفرس، ثم امتطاه وجمع قوّته، واستحثّ عزيمته، واستنجد بكل ما في نفسه من أمل، ونخس الجواد، وصاح به صيحة يعرفها، فوثب كأنه النسر المنقضّ، وبقي في الهواء زمناً، وأبو فراس فوقه، وقد طوّق عنقه بذراعيه كأنه الحرباء فوق فرع شجرة في يوم عاصف، حتى سقط في النهر فمات الفرس من شدة الصدمة، وأفاق أبو فراس من ذهوله، فرأى الموج يتواثب حوله ثائراً صاخباً، فاسترد عقله وعزيمته، وأخذ يسبح كما يسبح الحوت المذعور، وحراس القلعة ينظرون إليه من أعلاها مشدوهين مأخوذين، وقد قيَّدت الحيرة أرجلهم، وطوّحت المفاجأة بصوابهم، فلما بلغ الشاطىء انطلق يعدو كالظليم. ويشاء القدر أن يمرّ به في هذه اللحظة فارس من الروم، يمشي الهُوينى، فيثب عليه أبو فراس كالذئب الجائع فيسقطه عن جواده، ثم يعلوه ويندفع به نحو حلب، وقلبه يكاد يطير من بين جنبيه، واستمر يُغِذُّ[1] السير حتى بلغ

(١) أغذ السير: أسرع.

المدينة، فهبّت لاستقباله والإشادة ببطولته. وكان ذكره حديث المجامع، ووصف فراره ملء الأفواه والمسامع. وسعى إلى داره سيف الدولة فى جمع من رجاله وبينهم قرعويه، فمد إليه سيف الدولة ذراعيه ضاحكاً باكياً، مثنياً على بطل العرب وصاعقة الروم.

وذهب أبو فراس للقاء نجلاء. وهنا نضع القلم عاجزين. فقد يُفسد الكلامُ وصفَ ما لا يستطيعه الكلامُ. ومال أبو فراس على أذن نجلاء هامساً: الآن نستطيع الزواج يا حياتى، فإنى أخشى ألا تطول حياتى. ففزعت نجلاء لهذا التطيُّر، وعنَّفته فى دُعابة ودلال، غير أنه لم تمض إلا أيام حتى أقيمت معالم الأفراح، وتزوج زين الأمراء بأجمل بنات حواء.

١٠

حزن قرعويه وسُقِط فى يده وخاب أمله، وعاش أبو فراس مع زوجه نجلاء فى أمن وسعادة، يرف فوقهما جناح الحب الهنيء! وكانت صوفيا تكثر الزيارة لهما، وتشاركهما فى كثير من صنوف البهجة والسرور. وأقبلت أمه من منبج بعد طول الفرقة لتنعَم بقرب ابنها البطل. وبعد سنة وضعت نجلاء طفلة بارعة الحسن، سمتها «فوزاً» لأنها كانت تشعر حقًّا بحلاوة الفوز بحبيبها، بعد أن وقفت الحوائل طويلاً بينهما.

وفى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، زحف الروم إلى مدينة حلب نفسها. فاشتد الذعر والقلق، وقام أبو فراس يدعو إلى الغزو والجهاد ويصيح:

كيف يُرْجَى الصلاح من أمر قوم ... ضيَّعوا الحق فيه أيَّ ضياع؟
فمطاعُ المقال غيرُ سديد ... وسديدُ المقال غيرُ مطاع

ونهض مع سيف الدولة على رأس جيش قليل العدد لا يزيد على أربعة آلاف، وكان جيش الروم يبلغ الثمانين ألفاً مجهزاً بالعُدد الحربية، وآلات التدمير، والنار اليونانية، والدبابات الهائلة. والتقى الجيشان بالقرب من منبج. ووثب أبو فراس على أعدائه لا يهاب الموت، ولا يرهب العدد العديد. وما زال يضرب باليمين وبالشمال طول يومه، حتى تحطم سيفه، وتمزَّقت درعه، ولما نفدت طاقته، وأصابه سهم فى فخذه كاد يستنزف دمه، تكاثر عليه الروم فقبضوا عليه، بعد أن أعياهم قتاله. ونجا سيف الدولة بنفسه إلى بالس. وهى مدينة بين حلب والرَّقَّة على ضِفة الفرات.

وقع أبو فراس فى الأسر، وخاف الروم أن يفرّ من أيديهم هذه المرّة، فنقلوه إلى القسطنطينية. ووصلت الأخبار إلى حلب فحزن الناس، وأقاموا بكل بيت مأتماً. وكانت ثلاثة رؤوس تجتمع فى كل ليلة مطرقة حزينة سامدة[1]، تطيل الإطراق ثم ترتفع وقد شخصَتْ عيونها إلى السماء، وانطلقت ألسنتها بالدعاء والتوسل، هذه هى: رؤوس نجلاء وسخينة وصوفيا.

وابتهج قرعويه لأسر عدوه، وعمل على أن يفسد بينه وبين سيف الدولة، وما زال بالرجل حتى أحفظه على ابن عمه، بعد أن كان له محبًا وبه كلفاً.

ودخل أبو فراس السجن بالقسطنطينية. وكان حصناً رحيباً يشرف على البوسفور. ولم يكن يشغل باله إلا نجلاء وابنته فوز. وأساء إليه الروم أول الأمر، وخشنُوا فى معاملته، فكان لا يسعده فى وَحدته إلا الشعر يرسله مع أنات الحنين. وكان يبعث إلى ابن عمه سيف الدولة بطويل القصائد يستحثه على افتدائه، ويصف إليه سوء حاله.. وهى تلك القصائد الرائعة، التى فاز بها الأدب العربى فى هذه الحقبة. فطالما صاح بابن عمه فى ظُلمة الليل البهيم وهو يقول:

دعوتك للجَفْن القريح المسهَّد ... لدىّ وللنوم القليل المشرَّدِ
وما ذاك بخلا بالحياة وإنها ... لأول مبذول لأول مُجْتدى
وما زلّ عنى أن شخصاً معرَّضا ... لنبل العدا إن لم يُصَبْ فكأن قد
ولكننى أختار موت بنى أبى ... على صهوات الخيل غيرَ مُوَسَّد
نضَوْتُ على الأيام ثوبَ جَلادتى ... ولكننى لم أنضُ ثوب التجلُّد
فمن حسن صبر بالسلامة واعدى ... ومن رَيْب دهر بالردى متوعِّدى
فمثُلك من يُدْعى لكل عظيمة ... ومثلى من يُفدَى بكل مُسَوَّد
تشبَّثْ بها أكرومةً قبل فوتها ... وقم فى خلاصى صادق الوعد واقعد
فإن تفتدونى تفتدُوا شرف العلا ... وأسرعَ عوّاد إليها معوَّد
يُطاعِن عن أعراضكم بلسانه ... ويضرب عنكم بالحسام المهند
متى تخلف الأيامُ مثلى لكم فتىً ... طويل نِجاد السيف رَحبَ المقلّد

(١) سامدة: كالغافلة الساهية من الحزن والتفكير.

ولا وأبى ما ساعدان كساعد ‏ ولا وأبى ما سيّدان كسيِّد
وإنك للمولى الذى بك أقتدى ‏ وإنك للنجم الذى بك أهتدى
وأنت الذى بلَّغتنى كل رتبة ‏ مشيتُ إليها فوق أعناق حُسَّدى

وقد يغلبه اليأس فيصيح:

هل تعطفان على العليل؟ ‏ لا بالأسير ولا القتيل
باتت تقلّبه الأكفّ ‏ سحابةَ الليل الطويل
فقد الضيوفُ مكانه ‏ وبكاه أبناء السبيل
وتعطلت سُمْر الرما ‏ ح، وأغمدت بيض النّصول
يا فارجَ الكرب العظيـ ‏ ـم، وكاشف الخطب الجليل!
كن يا قوى لذا الضعيـ ‏ ـف، ويا عزيز لذا الذليل
قرّبه من سيف الهدى ‏ فى ظل دولته الظليل
لم أرو منه ولا شفيـ ‏ ـتُ بطول خدمته غليلى
ولئن حننتُ إلى ذَرا ‏ ه لقد حننت إلى وَصول
لا بالقطوب ولا الغضو ‏ ب ولا الكذوب ولا الملول
يا عُدتى فى النائبا ‏ ت وظُلنى عند المقيل!
أين المحبة والذما ‏ مُ وما عددت من الجميل؟

وطالما ثارت نفسه على الناس فغمغم يقول:

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه؟ ‏ ومن أين للحر الكريم صحابُ؟
وقد صار هذا الناس إلا أقلَّهم ‏ ذئاباً على أجسادهن ثياب
تغابيت عن قوم فظنوا غباوتى ‏ بمفرِقِ أغبانا حصىً وتراب
ولو عرفونى بعض مَعرفتى بهم ‏ إذاً علموا إنى شهدت وغابوا
إلى الله أشكو أننا بمنازل ‏ تحكَّمُ فى آسادهن كلاب
تمرّ الليالى ليس للنفع موضع ‏ لدىّ، ولا للمعتفين جناب

وكثيراً ما استطال مدة أسره دون مُنقذ أو مُعين فهتف:

أقمت بأرض الروم عامين لا أرى ‏ من الناس محزوناً ولا متصنِّعا

إذا خفتُ من أخوالى الروم خُطَّة … تخوفت من أعمامى العرب أربعا
وإن أوجعتنى من أعاديَّ شيمة … لقيت من الأحباب أدهى وأوجَعا
ولو قد رجوت الله لا شىء غيره … رجعت إلى أعلى وأمَّلت أوسعا
لقد قنِعوا بعدى من القطر بالندى … ومن لم يجد إلا القنوعَ تقنَّعا
وما مرَّ إنسان فأخلف مثلَه … ولكن يزجِّى الناس أمراً موقَّعا
تنكَّر سيف الدين لما عتبته … وعرَّض بى تحت الكلام وقرَّعا
فقولا له من صادق الود إننى … جعلتك مما رابنى الدهر مفزَعا
ولو أننى أكننته فى جوانحى … لأورق ما بين الضلوع وفرَّعا
فلا تغترر بالناس ما كلُّ من ترى … أخوك إذا أوضعت فى الأمر أوضعا
فلله إحسانٌ علىَّ ونعمة … ولله صنع قد كفانى التصنُّعا
أرانى طرق المكرمات كما رأى … عليًّا وأسمانى على كل من سعى
فإن يك بطءٌ مرة فلطالما … تعجل بى نحو الجميل فأسرعا
وإن يَجْفُ فى بعض الأمور فإننى … لأشكره النعمى التى كان أودعا
وإن يستجد الناس بعدى فلم يزل … بذاك البديل المستجد ممتعا

وقد يطالعه خيال نجلاء فينشد:

إذا الليل أضوانى بسطت يد الهوى … وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر
تكاد تضىء النار بين جوانحى … إذا هى أذكتها الصبابة والفكر

ويحن إلى أمه فيقول:

لولا العجوز بمنبج … ما خفت أسباب المنيةْ
ولكان لى عما سألـ … ـتُ من الفدى نفس أبيةْ
لكن أردت مرادَها … ولو انجذبت إلى الدنيه
أمست بمنبج حرَّة … بالحزن من بعدى حريه
لا زال يطرُق منبجاً … فى كل غادية تحيه
فيها التقى والدين مجـ … ـموعان فى نفس زكيه
يا أمتا لا تحزنى … وثقى بفضل الله فيِّه
يا أمتا لا تيأسى … لله ألطاف خفيه

أوصيك بالصبر الجميل فإنه خير الوصيه

وحينما نفد صبره، وضاق صدره بالأسر، حاول الفرار ذات ليلة وكاد يُفْلِت، لولا أن هبت فجأة عاصفة هوجاء، أيقظت الحراس النائمين. وشاع خبر محاولته الهرب فى المدينة، وتحدث الروم من جديد بشجاعة الفارس العربى وجرأته، وأخبر ملك الروم زوجه «تيوفانو» بالحادثة، وأفاض فى إطراء أبى فراس ووصف وسامته وشجاعته، وأنه مثال رائع للبطولة العربية. فتشوقت إلى رؤيته. وكانت تيوفانو آية من آيات الجمال الإغريقى: تزوجت أول أمرها برومانوس ملك الروم، وكان فتى جميل الطلعة نضير الشباب، ولكنها لم تنعم بحبه طويلاً حتى طواه الموت. وجلس بعده نيقفور على سرير الملك، واستهواه جمالها، فما زال يتقرب إليها ويتوسل ويستعطف، حتى تزوجته على كره منها.

وما تبلج الصباح حتى خرجت تيوفانو إلى السجن، لتشاهد ذلك الفتى العربى، الذى أثار الناس حوله ضجة من المديح، وكادوا يلحقونه بآلهتهم القدماء. وما كادت تقف أمام أبى فراس حتى رأت تمثالاً أبدع الخالق القدير تنسيقه للقوة والبطولة، ورأت الشهامة العربية والشمم القرشىّ فى وجه لم تستطع الوقائع والأهوال واشتباك السيوف أن تمسّ شيئاً من وسامته، فخطر بنفسها خاطر يشبه الجنون: لم لا يكون هذا الفارس الجميل قائداً من قواد الروم؟ ولم تُحْرَمُ القسطنطينية هذه الدرع الحصينة التى هى أصلب من أسوارها، وأقوى من قلاعها؟ إنه إذا انضم إلى جيش الروم قهر الدنيا وأعاد إلى القسطنطينية المجد القديم. لقد وقع هذا الصقر فى أيدينا فلم لا نتخذ منه قوة إلى قوتنا، وبازياً لصيد أعدائنا؟ خطر بنفسها هذا الخاطر فمالت نحو الأسير وقالت:

ـ ما حالك اليوم يا بطل الصحراء؟ وكان أبو فراس تعلّم من صوفيا ما يستطيع به أن يفهم الرومية وأن يتحدث بها فى شىء من اليسر فابتسم وقال:

ـ حال الأسير العانى يا درّة البحار.

ـ هل فارقت فى حلب حبيباً؟ فزفر أبو فراس وقال:

ـ فارقتها ولم يفارقنى خيالها.

ـ إن فى فتيات الروم من الحسن ما يزهد فيك كل ذات جمال، وقد جئت أيها الفارس لأفتح أمامك باب الأمل، ولأبدّد عنك خواطر اليأس، ولأنقلك من هذه الحجرة المظلمة إلى أعظم قصر بالمدينة.

ـ كيف يا سيدتى؟

ـ إن الأمر بيدك وهو عليك جدّ يسير.

ـ لا أفهم ما ترمين إليه.

ـ سنخلص لك الودّ ونغمرك بمحبتنا ونعمنا إذا رضيت بالحياة معنا وجرّدت حسامك فى صفوف جيوشنا.

ـ أنا يا سيدتى؟

ـ نعم سيجعلك نيقفور قائد جيوش الروم، وستكون مرتبتك تالية لمرتبته. فضحك أبو فراس وقال:

ـ يا سيدتى إن العرب لا يبيعون أنفسهم لأعدائهم ولو لاقوا ما هو شرّ من الحِمام. إننا يا سيدتى أبناء الصحراء نبتت أخلاقنا من صخورها، واتقدت قلوبنا من قيظها وهجيرها. نحن لا نحنّ إلى النعيم إلا فى ظلّ الشرف والكرامة والذود عن الحَوْزَة والدفاع عن العقيدة والوطن. لا يا سيدتى إنى أجد فى الأسر لذة ونعيماً كلما ذكرت أننى لم أصل إلى السجن إلا بعد أن سقطت فى ميدان الشرف والجهاد.

ـ عجيب أمرك أيها الفتى، تقبل الدنيا عليك بحذافيرها فتركُلها بقدمك لوهم كاذب وكبرياء معتوهة؟!

ـ إنها العقيدة الراسخة يا سيدتى والخلق العربىّ الذى ارتضعناه من أثداء أمهاتنا.

ـ تصوّر أنك ستكون القائد الأعظم لجيوش الروم، وتصوّر أنى سأزوجك إحدى وصيفاتي وهى أجمل امرأة فتحت عليها عين إنسان.

ـ لو كنت جنديًا فى جيش العرب ما قبلت أن أكون ملكاً لكم. أما الزواج يا سيدتى فإنى متزوج بمن لا أبيعها بالجنة وملائكتها الأطهار.

ـ إنك ستظل فى الأسر ذليلاً إلى أن تموت دون أن تجرّد سيفاً لنصرة العرب ودون أن ترى لزوجك ظلاً.

ـ السجن أحبّ إلىّ مما يدعوننى إليه. فظهر الغضب على وجه تيوفانو وغادرت السجن وهى تغمغم بكلمات لم يفهمها. ولم تزره فى السجن بعد ذلك، ولكنه لحظ بعد

زيارتها تضييقاً من الحراس وعنتاً. واستمر فى السجن أكثر من ثلاث سنين دون أن تُقدَّم فدية لإطلاقه.

وقضت نجلاء طوال هذه المدة فى هم مُقعد مُقيم، لا تجد إلى تخليص زوجها سبيلاً، حتى إذا اشتدّ بها الوجد، فتحت خِزانتها لتمتع عينيها برؤية أول هدية أهداها إليها، فأخرجت العلبة الذهبية، وكشفت غطاءها، وأبرزت اللؤلؤة الفريدة ملفوفة بورقتها كما أخذتها من أبى فراس، وجلست تنظر إليها فى ألم وحسرة، وقد طافت بها طيوف الماضى البعيد. وبينما هى كذلك إذ دخلت صوفيا، فأرتها اللؤلؤة، وأخبرتها بخبرها وبأن قائداً من قواد الروم أهداها إلى الأمير سعيد أبى زوجها، وأن سعيداً أهداها قبل موته إلى ابنه أبى فراس.

فعجبت صوفيا من عظمها وصفائها، ثم التفتت فإذا ورقة على بساط الغرفة يعبث بها النسيم، فمدت إليها يدها وبسطتها، فإذا عليها كتابة بالرومية، فلما شرعت تقرؤها بدت على وجهها علامات الدهش، ثم صاحت: نجا أبو فراس! نجا أبو فراس! فهزت نجلاء كتفيها فى خشونة وصاحت: كيف؟ كيف؟ بالله قولى كيف؟

ـ اسمعى يا حبيبتى ترجمة ما فى هذه الورقة التى بقيت فى خزانتك أكثر من ثلاث سنوات، وزوجك يلاقى ذل الأسر وعذاب الهُون، والتى قذفت بها فوق بساط الغرفة تذهب بها الرياح كلّ مذهب.

ـ ماذا فيها يا صوفيا؟

ـ فيها ما يأتى: «أنا واسيلوس الأول رأس الأسرة المقدونية وملك الروم، أقرر بخطى أننى بينما كنت فى «قيصرية» وقعت أسيراً فى يد أمير من أمراء العرب اسمه أبو العلاء سعيد الحمدانى. فأكرمنى غاية الإكرام، وفك أسرى، فلم أجد وسيلة لشكره إلا أن أهديه علبة من الذهب بها لؤلؤة نفيسة، ليس لها مثيل فى الدنيا إلا لؤلؤة محفوظة بقصرنا بالقسطنطينية، وإنى آمر كل رومى أن يكرم كل من يحمل هذه الورقة، ويحمل معها اللؤلؤة، وأن يجيب مطالبه».

وما كادت تتم صوفيا قراءة الرسالة حتى رقصت نجلاء من الفرح، وأقبلت على صوفيا تقبّلها، وتجتذب شعرها، والدموع تنهمر من عينيها انهماراً. فلما أفاقت من النوبة،

التفتت إليها وقالت: يا صوفيا! أنت نجم أبى فراس الصاعد، وملّكه الحارس، هذه هى المرة الثالثة التى تنقذينه فيها. وهنا دخلت سخينة فأخبرناها الخبر. فكادت تجن من الفرح. ثم قامت نجلاء إلى خزانة أبى فراس وأخرجت منها ثلاثة أثواب، وأمرت خادمها أن تأتيها بخيط وإبر. فدهشت صوفيا وقالت:

ـ ماذا تريدين أن تصنعى؟

ـ أريد أن أقصرُ هذه الثياب حتى تلائم قدّى لأرتديها وأذهب إلى القسطنطينية لإنقاذ زوجى.

ـ وحدك؟!

ـ نعم وحدى، ولن يذهب أحد معى. إنه كان يستهين بالموت فى حبى، فلم أهاب الموت فى حبه؟ هلم هلّم، قصًرا الثياب فإن الانتظار يكاد يقتلنى. وبعد أن تمّ تقصير الثياب قصّت نجلاء شعرها، ولبست أحد الأثواب، ووضعت الثوبين الآخرين مع عشرة أكياس من الدنانير فى علبة، وتمنطقت بحزام به حنجران، وتقلدت أحد سيوف زوجها، وأمرت أسامة أن يعد لها أسبق جواد فى الإصطبل، ثم ودّعت سخينة وصوفيا، وانطلقت فوق الجواد كأنها البرق الخاطف.

ولو حاولنا وصف الطريق، وما لقيته نجلاء من الجهد والنصب، ومن عصابات اللصوص بين عرب وروم، لامتدت القصة وطال حبل الكلام، ويكفينا أن نقول: إنها بلغت القسطنطينية بعد عشرين يوماً قضتها بين الخوف ولقاء الموت، وبين اليأس والأمل. فأخذت سمتها نحو قصر الملك، فقابلها الحرّاس لدى الباب، وصاح بها زعيمهم وكان له إلمامة بالعربية: من أنت أيها الفتى؟

ـ رسول من قبل سيف الدولة برسالة إلى الملك.

ـ لعله يطلب الهدنة بعد أن دّمّرنا عليه حلب.

ـ إنكم دمٌرتم بنيانها، ولم تدمروا قلوب رجالها. فظهر الغضب على وجه الزعيم وقال: عجيب شأن هؤلاء العرب فإن اليأس لا يعرف إلى قلوبهم طريقاً.

ـ إن العرب يحاربونكم بإيمانهم، وأنتم تحاربونهم بدباباتكم ونيرانكم اليونانية.

ـ كفى أيها الفتى الشجاع، تسلّب من سلاحك وادخل.

فنزعت نجلاء سلاحها، ودخلت القصر مع المترجم، حتى وصلت إلى بهو العرش، فرأت نيقفور فوكاس جالساً على سريره وحوله الوزراء والقواد، فأدت تحية الملوك، وقدمت إليه الورقة، فقرأها والدهشة تبدو على وجهه. ثم صاح بالمترجم: سل الفتى أين اللؤلؤة؟ فمدت نجلاء يدها بالعلبة، فأخرجت منها اللؤلؤة فقال: حقًّا إنها أخت لؤلؤة القصر. ثم اتجه إلى المترجم وهو يقول: هذه الرسالة من مؤسس دولتنا واسيلوس، وأمره حكم واجب الطاعة، ويظهر أن الأمير العربى الذى أحسن به، ووهب له حياته، كان بطلاً كريماً، فسل الفتى أيها المترجم عما يشاء. فلما ترجم الكلام لنجلاء قالت:

- أطلب إطلاق رجل فى أسر الملك، هو أبو فراس الحمدانى!

- لقد طلبت عظيماً يا فتى. إن أبا فراس وحده جيش لُهَام، ولم يهدأ للروم روع إلا بعد أن ظفروا به. اطلب ما تشاء يا فتى غير هذا.

- لن أطلب سواه.

ففكّر نيقفور مليّاً ثم قال لقواده اذهبوا معه، وأطلقوا سراح أبى فراس. فخرجت نجلاء وهى لا تكاد تصدّق ما سَمعت، حتّى إذا وصلت مع القوّاد إلى السجن واتّجهوا نحو غرفة أبى فراس سبقتهم إليها، فلما رآها صاح: نجلاء؟! نجلاء حبيبتى؟! وانكبّ عليها كالمجنون يقبّلها ويبكى، وقد طوقته بذراعيها، وهى تهتف: وجدت حبيبى، وجدت حبيبى! ودخل القوّاد فعجبوا مما رأوا، وزاد فى دهشتهم أنّ الفتى العربى انقلب فتاة رائعة فاتنة، وبعد لأى هدأ الفتى، وهدأت الفتاة، وأخبرته نجلاء بقصتها، وبأمر الملك بإطلاقه. فحملها بين ذراعيه كما يحمل البازى العصفور، وخرج من السجن والقوّاد أمامه، وإذا هم لدى الباب رأوا تيوفانو واقفة وهى تبكى، وحينما لمحت أبا فراس مدّت إليه يدها فى حزن وأسى، وهى تتمتم: سُحْقاً للروم لقد سلّمت سلاحها لأعدائها!

واشترى أبو فراس جواداً، وانطلق مع نجلاء نحو حلب، حتى إذا بلغاها هبّت المدينة للقائهما، وأصبحت قصة نجلاء حديث كل دار، وأنشودة كل شاعر، ولقى أبو فراس أمه فأبكاهما اللقاء، ولقى صوفيا فعانقها طويلاً، وكان شكره لها أطول من عناقه، وملأ السرور كل قلب إلا قلب رجل واحد، هو قرعويه.

١١

ومرت سنة مات فيها سيف الدولة ، فترك موته فى كل نفس لوعة . وولى الملك بعده ابنه أبو المعالى سعد الدولة . وكان فى الخامسة عشرة من عمره ضعيفاً بأعباء الملك كاهله ، فتحكم فيه قرعويه . وكاد يقوم بشؤون الملك دونه ، وملأ صدره حقداً على خاله أبى فراس فبرم أبو فراس بدسائس قرعويه ، وأحزنه أن يصبح ابن أخته لعبة فى أيدى الطامعين فى الملك المتوثّبين عليه . فخرج على سعد الدولة فى ربيع الآخر سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ، وضم إليه بعض الجنود ، وسار بهم نحو «حمص» يريد الاستيلاء عليها . وكانت نجلاء وابنته فوز وأمه معه فى هذه الغزوة . وما كاد يعلم قرعويه بنيته حتى أغرى سعد الدولة بإرسال جيش عظيم لمحاربته ، وحينما التقى الفريقان بالقرب من ضيعة تسمى «صدد» استهوى قرعويه جنود أبى فراس بالمال . فانصرفوا عنه ، ودهمه بجيش كثير العُدة والعدد .

وحارب أبو فراس حرب المستميت ، ولكن السهام انصبت عليه من كل ناحية ، وانتاشته السيوف من كل مكان ، فسقط عن جواده مثخناً بالجراح ، فتركه أعداؤه ، وهو يجود بأنفاس قصار ، وانطلقت إليه نجلاء وأمه وابنته حزينات نائحات ، وحملت نجلاء رأسه فوضعته فوق ركبتها فى رفق وحنان ، وأخذت تناديه وتناجيه بعبارات تقطع القلب ، وتذيب الصخر . وقامت أمه حوله تلطم عينيها حتى أذهبت بصرهما ، وطال بكاء فوز وجزعها ، وامتد نشيجها ، ففتح أبو فراس عينيه وهو يحْتَضَر ، والموت يزاحم أنفاسه ، ونظر إلى نجلاء ، ثم إلى أمه ثم إلى بنته وقال في صوت متقطِّع :

أبنيّتــى لا تجزعى كلُّ الأنــام إلــى ذهاب
نوحــى علــىّ بحسرة من خلف سـترك والحجاب
قولــى إذا ناديتنى وعييتُ عن ردّ الجواب
زينُ الشبــاب أبو فرا س لم يُمَتَّــع بالشباب!



الشاعر الطموح

فبراير ١٩٤٧

وقيعة

فارس فارع القد، وسيم الطلعة، تكشف أسارير وجهه عن نبل عريق، وشرف رفيع، وتنطق ملامحه ونظرات عينيه بشجاعة تفرَق منها الشجعان، وبطولة يعزّ مثلها على الأبطال. وكان يتقلّد سيفاً حُلي غمده بالذهب، وزُيّن بنفيس الجوهر، ويتنكّب رمحاً تقبّل أشعة الشمس سنانه فترسل بريقاً وهّاجاً يكاد يُحسِر العيون. وقد امتطى جواداً كريماً راح يهملج في بخترة وزهو، كأنه كان يعتز بكرم سُلالته، أو يتيه بشرف منبت فارسه الشعّشاع.

سار الجواد بين الوخد والخبب في طريق مدينة حلب، في يوم صائف من سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، فانفرجت السابلة عن طريقه كما تنفرج أمواج البحر أمام سفينة تداعب شراعها الرياح، وأخذ الناس يتهامسون في إجلال وخشية: هذا أبو فراس! هذا ابن عم الأمير! هذا بطل حصن برزويه! هذا فارس الدولة وشاعرها المغرّد! وكان بين القوم رجل قوي الأسر مفتول العضل، ظهرت في وجهه سطور كتبتها السيوف، ونقّطتها النبال، فدلت على أن عمّاراً القضاعيّ جندي قديم مغامر، عرك الوقائع وعركته، وخاض غِمارها فغمرته. قال عمّار لمن بجانبه في صوت خافت:

ـ لقد شهدتُ خمس وقائع مع هذا البطل، رأيت فيها من إقدامه وجرأته، وصدق درايته بالحروب، ما يكاد يذهل المجاهد عن كوارث الحروب. فأجابه صاحبه:

ـ لقد كنت إذاً مشاهداً لا محارباً. فابتسم عمّار ابتسامة مبهمة فيها ازدراء، وفيها رفق القويّ بالضعيف، وفيها اعتزاز الشجاع بمكانته. ثم قال:

ـ كنت مشاهداً حقاً ولكن لا كما تشاهد اليوم أبا فراس، وهو يتمـايل فوق جواده اللعوب في دروب حلب، وقد نصبت السِلم على المدينة رواقها، وأصبح أهلها لا يخافون إلا من سهام عيون الحسان! دعك يا صاحبي من ذكر الحرب والمحاربين فتلك دماء طهّر اللّه منها سيوف الجبناء.

ـ أتعدّ كلّ من لم يشهد الحرب جباناً؟

ـ إن اقتراب الروم من أطراف مملكتنا، وضغنهم القديم الموروث على المسلمين وملوك المسلمين، وادّعاءهم أن بلادنـا قطعـة من مملكتهـم الواسعـة، اغتصبهـا منهـم الإسلام بسيفه، ثم ما أعدّوه لنا من غوائل الحرب، كالنار اليونانية والدبابات الهائلة، كل هؤلاء مما يوجب الجهاد ويدفع كل مسلم إلى امتشاق الحسـام والمـوت في سبيل دينـه ووطنه شهماً كريماً.

ـ أما أنا فلن أمتشق الحسام، ولن أخـوض غمـار الهيجـاء. فنظـر إليه عمّـار في اشمئزاز، وقال ولسانه يتعثّر من الغيظ:

ـ كنت أظنُّ قبل أن أراك أن اللحَى من خصائص الرجال.

ـ وهي لا تزال من خصائص الرجال، وإن أمامك لرجلاً.

ـ رجل بلا قلب.

ـ رجل لولاه ما امتلأت خياشيمك كبراً، ولا انثنى عطفك تيهاً عنـد ذكر الحـرب والنزال.

ـ من تكون؟

ـ أكون كما أكون.

ـ بالله قل لي من تكون؟ فأجاب الرجل وفوق شفتيه ابتسامة ماكرة:

ـ أنا يا سيدي الشجاع المغوار صانع سيوف، لولا يده هذه ما جرّدت أنت ولا قائدك أبو فراس في الحرب صمْصاماً.

فضحك عمّار طويلاً ومدّ يده إلى صاحبه في سرور، يشعر به من وجد في عدوّ صديقاً جديداً. ثم أخذ يشدُّ على يده ويهزّها هزاً ويقول:

ـ صانع سيوف؟! حقاً لولاك ما حملتنا إلى الجهاد قدم. نعم يا صاحبي، أنت لا تشهد الهيجاء، ولكنّك حقاً نون النصر فيها وصاده وراؤه، ولولاك ما عزّ للمسلمين جانب، ولا خفق على حصونهم عَلَم. أنظر ما أظن أبا فراس إلا ذاهباً إلى قصر الرحبة.

ـ إني لمحت في وجهه كُدرة الغضب، وأخشى أن يكون قد جاء إلى الأمير نذير جديد من قِبَل الروم.

ـ أظنهم سيقضون وقتاً طويلاً يلعقون فيه جراحهم، بعد هزيمتهم في «سَروج». تلك، كانت موقعةً رائعةً حقاً. لقد زحف فيها الروم علينا في عديد الحصى، وقد اشتجرت رماحهم حتى سدّت الأفق، وصال بطاريقهم، ووثبت دباباتهم، وتطايرت نيرانهم التي لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. وقد أعجبتهم في ذلك اليوم قوتهم، وزهاهم ما أجلبوا به من خيل ورَجْل وعُدة وعتاد، وزُلزل المسلمون زلزالاً شديداً، واتجهت عينا سيف الدولة إلى السماء في رجاء المستغيث، حتى إذا اشتد الكرب، وبلغت القلوب الحناجر، سمعنا على الرغم من لَجَب الحرب وزمازمها، صوتاً مجلجلاً يصيح: إليّ إليّ أيها المجاهدون! إن أبا فراس قائدكم المفاخر بشجاعتكم، يدعوكم لتخطفوا ثمر النصر من أيدي هؤلاء العلوج. إن دباباتهم لن تغني عنهم اليوم شيئاً، وإن قلباً يملؤه الإيمان، وذراعاً تشدها العزيمة، أقوى من كل ما جمعوا وعدّوا. إننا أيها الأبطال لم نجاهد لأرض وقلاع، وإنما نجاهد لدين وتاريخ ومجد قديم. إن الروم إذا برعوا في الحرب فهم في الفرار أبرع إذا حَمِي الوطيس، وصدقت الحملة. إليّ إليّ أيها المجاهدون، ثم إلى الجنة إلى الجنة أيها الشهداء! وما كاد يتم نداءه حتى وثب بجواده نحو الحصن ونحن خلفه كالأسود الغاضبة، ريع حماها، وديس عرينها، وتكاثر حوله الروم فكان يطوح برؤوسهم يَمنة ويَسرة، كما ينثر الزارع الحب. حتى إذا وصل إلى القمة خلع راية الروم، وقذف بها في التراب ثم صاح: الله أكبر! الله أكبر! فردّد الجيش صيحته، وتواثب المسلمون على الحصن، حتى أجلوا الروم عنه، فانطلقوا خلف بطاريقهم في سرعة الريح يلتمسون الفرار، وعاد المسلمون بالنصر والأسرى والأسلاب والغنائم.

ـ لقد كان ذلك فتحاً مبيناً.

ـ وسيتلوه فتوح لو اتحد العرب، وكانوا يداً على من سواهم. عم صباحاً يا صاحبي، واعمل في طبع السيوف ليلَ نهار، فإني أخشى أننا لا نزال في بداية صراع طويل الأمد.

بلغ أبو فراس أرض الحلبة، وهي في سفح جبل الجوشن، ووصل بعد قليل إلى قصر سيف الدولة بن حمدان، وكان قصراً سامق البنيان، يُطلُّ على نهر قوَيْق، بذل فيه المهندسون والرسامون كل ما في مكنة البشر من إبداع، وزيِّنت حيطانه وسقوفه بالنقوش البارعة، والتهاويل الرائعة، وكان لقاعته الكبرى، وهي قاعة الرسل خمس قباب تحملها اثنتان وأربعون ومائة سارية من الرخام الأبيض الناصع، المحلى بالذهب. وبها مئات من النوافذ الزجاجية البديعة الألوان، أما الأثاث فكان فوق ما يصف الشعر ويرسم الخيال، وقد أحاطت بالقصر الحدائق والبحيرات يجرىء إليها الماء من تماثيل سمك ضخم، صنع من خالص النضار، وركبت له عيون من ثمين الجواهر.

وما كاد أبو فراس يثب من صهوة جواده، حتى تلقّاه بشارة ونجا، غلاماً سيف الدولة، بما يليق بمنزلته من إجلال وحفاوة، وكان أبو فراس لا يزال عابساً متجهم الوجه، فانحنى نحوه نجا قائلاً:

- سعد صباح الأمير، ما للوجه المشرق البسّام تعلوه اليوم سحابة عابسة؟ فهل في الأمر شيء يا مولاي؟

- لا شيء يا نجا، ولكنها ظنون الشاعر وهواجسه، التي كثيراً ما تطغى على ثبات الفارس وركانته، وتصور له في الحلم ذلاً، وفي الإقدام طيشاً وجهلاً. أتعرف يا نجا لمن هذا البيت:

كلُّ حلمْ أتى بغير اقتدار حجةٌ لاجىء إليها اللئامُ؟

فأسرع نجا وكان من أنصار المتنبي المعجبين به فقال:

- هو يا سيدي لأبي الطيب من قصيدته التي يقول فيها:

إنّ بعضاً من القريض هُذاء ليس شيئاً وبعضَه أحكامُ

فاربدّ وجه أبي فراس وقال: نعم إنه لذلك الـزقّ المنتفخ بالعظمة الحمقاء، والغرور الكاذب، أين ابن عمي يا نجا؟

- في القاعة الكبرى يا سيدي. فسار أبو فراس في دهاليز القصر وأبهائه، وقد انتشر فيها العبيد والمماليك الروم، يروحون ويجيئون في حركة دائبة، ورهبة وإطراق، يعرف

كيف يصطنعهما رجال القصور. فلمّا وصل إلى القاعة تلقّاه سيف الدولة مرحّباً باشاً. وكان سيف الدولة جسيماً قسيماً، واسع العينين تشعُّ منهما عزيمة المجاهدين، وفي وجهه سمرة العرب، وملامح النبل والبطولة.

أخذ أبو فراس يتحدث عن الجيش، وما يبذل في إعداده لمكافحة الروم، وردّهم إلى تخومهم. فتململ سيف الدولة في حزن وأسىً وقال: أخشى يا ابن عمى أن القوم هنا لا يدركون ما يحيط بالدولة من خطر داهم، فانى أرى أكثرهم منصرفاً عن الجهاد ثقة بى، واعتماداً على عظم قوتى، كأن فى سيفى سحراً بابلياً إذا لوّحت به للأعداء انهارت جيوشهم فى طرفة عين. إن بمملكتي أبطالاً، ولكن بطولتهم مخبوءة مغمدة، لأنهم يظنون أنهم يعيشون فى ظلال وارفة من الأمن، وأن أعظم معونة يبذلونها للدولة أن يسيروا فى مواكبها، ويأخذوا زينتهم فى صدور مجالسها.

ـ نحن لا تعوزنا السيوف يا مولاى، ولا تعوزنا السواعد المفتولة، ولا القلوب الضيغمية، وكل عربيّ منا يضع قلبه ورمحه فى أول الصفوف، إذا جدَّ الجدّ، وأذّن مؤذن الجهاد، ولكن الذى نحن فى أشد الحاجة إليّه حقاً أصوات رنانة مجلجلة، تثير الحميّة وتلهب العزائم، وتخلق من اليأس ثقة، ومن التردد إقداماً، وتذكّر بالمجد الغابر، وتوجّه الأمل الحائر، وتوقظ النفوس إلى ما يحيط بها من كوارث تريد أن تنقض. المملكة يا سيدي تتحرّق شوقاً إلى من يذيع مآثرها، وينشر مفاخرها، ويملأ الآذان بوقائعها المظفّرة، وبحسن بلاء أبطالها الميامين.

ـ ألا يقوم المتنبى بهذا، وهو خير شاعر أنبتته أرض العرب؟

ـ إنه لا يقوم بشىء منه يا مولاى، وهو رجل صلف تيّاه، شائك الخلق نافر الطبع، أبغض الناس فأبغضوه فنفرت قلوبهم من شعره.

ـ إن بيتاً واحداً من شعره كفيل بأن يملأ الآفاق، ويشغل الدنيا، ويرفع الدولة التى يغنى بمديحها إلى مسارح النجوم.

ـ إن الشعر يا ابن العم روح قبل أن يكون لفظاً ووزناً، وهو شعاع من نفس قائله، ونور يفيض به قلب صاحبه، فإذا كانت تلك النفس مظلمةً قاتمةً مدنسةً بالحقير من الأغراض، وكان ذلك القلب نهباً للأطماع الدنيئة. جاء منهما الكلام فاتراً خائراً مقطوع النفس، ضعيف المُنّة.

ـ هل ترى من هذا النوع قوله :

بــذا قضــت الأيام ما بين أهلها مصائــب قوم عنــد قوم فـوائدُ؟

ـ وماذا فى هذا البيت يا مولاى؟ إنه لم يبذل فيه جهداً، ولم يعمل رويّة. ويعلم الله أنه استرق معناه سرقة الطرّار البارع فى النهار المبصر. استرقه من شاعر دفنته يا مولاى حيًّا بالانصراف عنه، والاستهانة بشعره. استرقه من شاعر غنى بمجد دولتك، فما ألقيت إليه سمعاً، وأشاد بمآثرك فما حققت له أملاً. ذلك الشاعر يا مولاى هو أبو الحسين الناشىء الأصغر، الذى يقول فيك حينما شغلك عنه انصرافك إلى ذلك المتنبى، واحتفاؤك به، وإسكاتك كل صوت للشعراء دونه :

إذا أنــا عاتبــت الملــوك فإنما أخطُّ بأقلامـى علـى المــاء أحرفاً
وهبه ارعوى بعد العتاب ألـم يكن تودده طبعــاً فصــار تكلُّفاً؟

ـ حقاً كان من حق الناشىء علىَّ أن ينال من إقبالى عليه ما هو حقيق بشعره وأدبه، إني أعذره يا أبا فراس، فقد أبطأ عنه عطائى حيناً من الدهر طويلاً: هل سرق معناه الرائع من هذا الشاعر الذى ظلمناه وبخسناه حقه؟

ـ نعم يا ابن العم سرق المعنى من قصيدة لهذا الشاعر ينوّه فيها بصولة بنى حمدان، ويذمّ بنى العباس، الذين لا يفتئون يدسون لهم الدسـائس غَيرةً وحسـداً، ويغـرون فى الخفاء بعض القبائل الخارجـة علينـا، كبنـى كلاب وبنـى العجـلان، بالانتقـاض علـى مملكتنا، ومصارحتنا بالعصيان فهو يقول :

إليكم بنــى العبـاس عنــى فإننى إلــى الله من ميلــى إليكم لتائبُ
تـركت طريق الرشـد بعـد اتضاحه وأقصــاكم عنـه ظنــونٌ كواذب
أترضــوْن أن تطــوى صحــائف عصبة كرامٍ لهــم فى الســابقين مراتب؟
فــلا تذكروا منهــم مثالــب إنما مثالــبُ قوم عنــد قوم مناقب

ـ حيّا الله أبا الحسين! لقد أحسن الذود عنا، ولكنى لا أرى أن أبا الطيب سرق منه معناه، لأن هذا في ناحية، وبيت أبى الطيب فى ناحية، إلا أن تدعى أنه سرق الأسلوب والأسلوب ملك شائع لجميع الشعراء. لا يا ابن العم إن المتنبى أرفع قدراً، وأبعد منزلة فى الشعر، من أن يتدلّى إلى فتات غيره. إننى شاعر قبل أن أكون ملكاً وفارساً، ومعرفتى

بابتداع الكلام لا تقلّ عن درايتى بامتشاق الحسام.

فاربدّ وجه أبى فراس قليلاً، وأطرق واجماً، ثم رفع رأسه وعلى وجهه ابتسامة الظفر، وقال:

ـ مهلاً يا ابن العم، فما خالجني شك من تمكنك من ناصية الشعر، واستذلالك أوابد المعانى، ولولا ذلك ما أجاد شعراء المملكة فى مديحك، ولا جودوا فى الثناء عليك، لأنهم يعلمون أنهم يعرضون نسيجهم على خير بزّاز، ويقدّمون فنهم إلى أمهر الأدباء فى تصاريف الكلام. ولعمرى إن شاعراً لم يسبق مولاى فى وصف قوس قزح حين يقول:

وساق صبيحٍ للصبوح دعوته ... فقام وفى أجفانه سنةُ الغُمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم ... فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً ... على الجودُ كنا، والحواشى على الأرض
يطرّزها قوسُ الغمام بأصفر ... على أحمر فى أخضر تحت مبيضّ
كأذيالِ خَوْدٍ أقبلت فى غلائل ... مصبّغةٍ، والبعضُ أقصرُ من بعض

وإذا لم يرضى مولاى أن يكون المتنبى قد أغار على بيت الناشىء، فما أظنه يجحد أن شاعره اللص سرق هذا المعنى بعينه من قول الحارث بن حلّزة:

ربما قرت عيونٌ بشجاً ... مُرْمِض قد سخنت منه عيون

وأكبر الظن أن شاعره، وهو أعجز من أن يمتدّ حفظه إلى العهد الجاهلي، وجد الطريق سهلة مذللة إلى حبيب بن أوس الطائى، فاغتصب المعنى من قوله:

ما إن ترى شيئاً لشىء محيياً ... حتى تلاقيه لآخر قاتلاً

ماذا تقول يا سيدى فى هذه السرقة الصارخة، وتلك الإغارة الوقحة، التي لا تقلّ عن إغارات اللصوص، وقطّاع الطريق؟

ـ لقد نظر المتنبى إلى معنى الطائى ما فى ذلك شك.

ـ ثم إن هذا السارق لا ينكس رأسه خزياً، بل ينفخ خياشيمه، ويتحدّى كل شاعر

من شعراء مولاى فى جَبْريّة وعجب، إنه فى هذه القصيدة التى استشهد مولاى ببيت منها يقول:

خليلىّ ما لى لا أرى غير شاعر　　　فلمْ منهم الدعوى ومنى القصائد؟

ويقول فى أول قصيدة أنشدها بين يدى سيدى:

غضبت له لما رأيتُ صفاته　　　بلا واصف، والشعرُ تهذى طماطمه

فيصف جميع شعراء مملكته بأنهم عُجم لا يُبينون، وعلوج لا يفهمون، وأشهد أن الشعراء لم يغضوا عنه عجزاً عن معارضته، فإن لكل منهم لساناً لو ضرب به حجراً لفلقه، وإن فى شاعرك المغرور المتشدق من وضاعة النسب، وسماجة الخلق، ولؤم العنصر، ما يغرى ضوارى الشعراء، وما تتحلب له نهماً أفواه الهجاء، ولكنهم سكتوا مرغمين محزونين، لأنه فى كنف مولاى وحمايته، ولأنهم يظنون أن ثلبه، وتمريغه فى التراب، قد يغضب مولاهم، فتركوه لك يا سيدى ولكنك تركته عليهم يمزّق أعراضهم، ويسخر من فنهم، ويتحداهم فى بذاءة وجبروت، وقد كان من أثر هذا أن انصرف الشعراء عن مدحك، فلا يحييك منهم شاعر بكلمة، وتفرّد بك هذا الشاعر الدخيل فأخذ يتيه عليك، ويخاطبك مخاطبة الند والنظير، ويمر العام فلا يجود عليك إلا بقصيدة أو قصيدتين، بعد أن تلح فى الطلب، وتلحف فى المسألة، وبذلك انقلب الوضع، وعكس الأمر، وأصبح الأمير يستجدى شاعره، وأصبح الشاعر يراوغ ويماطل فى العطاء، ما هذه الحال يا مولاى؟!

ـ لقد قلت حقاً يا ابن العم، ولكنى أخشى إذا انصرفنا عن هذا الشاعر أو صرفناه، أن يلحق بأعدائنا، فيرفع من شأنهم، ويشيد بمجدهم. وقد علمت أن عبد الإخشيد بمصر يبذل الآن فوق ما يستطاع لاستهوائه وأغرائه بالجاه والمال، ليصل إلى أرض مصر، ولست تجهل يا أبا فراس ما بيننا وبين الإخشيد من عداء محتدم، فقد وثبت علينا جيوشه منذ سنوات فاستولت على دِمَشْق زينة العواصم، وغرّة جبين الشام.

فإذا ذهب المتنبى إلى العبد زاد دولته قوة، ومسح عنه عار الرّق ووصل نسبه بمعدّ بن عدنان. ثم إنى أخشى، وهو لدود الخصام علقمىّ اللسان ألا يتعفف عن أن ينالنا بهجائه، وهو نفسه الذى يقول:

ومكايدُ السفهاء واقعةٌ بهم　　　وعداوةُ الشعراء بئس المقتنى

- إنه لن يذهب إلى مصر يا مولاي، كن من ذلك على يقين. إنه يذهب إلى العراق، ليتصل بالخليفة والوزير المهلبي فإن كبره سيزيّن له أنه أحقّ شعراء الأرض بالاتصال بالخليفة، وأن شعره أغلى من أن يبعثر على الأمراء وحكام الأطراف. وإذا بلغ بغداد يا ابن العم فإن مائة دينار من خزانتك هذه، ترسل إلى ابن الحجاج وابن سُكرة، وهما أقذع الشعراء هجاء، وأفحشهم سباباً كفيلة بأن تشغله عن هجاء الناس جميعاً، وتدفعه إلى الانصراف إلى نفسه.

- لا أكذبك أبا فراس أني سئمت كبره وإدلاله وتجنيه، ولن أنسى ما اشترطه عليّ ذلك الأحمق عند أول اتصاله بي من ألاّ يكلف تقبيل الأرض بين يدي، وألا يخلع سيفه في حضرتي، وألا ينشدني شعراً إلا وهو جالس، ولقد قبلت منه كل ذلك على مضض، حين ظننت أن إغداقي عليه، وإحساني إليه يروضان من نفسه الجامحة، فما أجدى ذلك فتيلاً.

- إنك يا مولاي تمنحه كل عام ثلاثة آلاف دينار، غير ما تفيض عليه من الصلات والهبات، ثم إنك لا تظفر منه بعد كل هذا إلا بثلاث قصائد، نصف أبياتها في مدح نفسه، والازدهاء بمواهبه، ولو فرّقت في كل عام مائتي دينار على عشرين شاعراً لأتوا بالمعجز المطرب، ولبذوا ذلك الوقح في كل ما يتبجح به من إجادة وإعجاز، إن شعراء مملكتك، والشعراء الوافدين عليك قد يزيدون على المائة وهم يا ابن العم يرتقبون منك نظرة عطف، ليملئوا الدنيا باسمك دويّاً، ويرسلوا أجنحة الشعر بمديحك خفّاقة في الآفاق.

- صدقت أبا فراس لن يكون لهذا الشاعر الرنيم مكان من رعايتي بعد اليوم! غير أني أرى أن نخرج من هذا الأمر بكياسة ورفق، كما دخلنا فيه بكياسة ورفق.

- هذا ما أشير به يا مولاي، ويكفي أن تصد عنه شهراً حتى يزمع الرحيل.

وحينما انتهى أبو فراس من إحكام مؤامرته، حيّا سيف الدولة وانصرف. وما كاد يعود إلى قصره، وكان بالقرب من برج أبي الحارث، حتى رأى به طائفة من الشعراء ينتظرون عودته، بينهم أبو العباس النامي، وأبو الحسين الناشيء، وأبو القاسم الزاهي، وأبو الفرج السامّري، وكان من ألد أعداء أبي الطيب الحاقدين عليه. فلما رأوه همّوا لاستقباله محتفين، وطفقوا يسألونه في شوق ولهفة عما تم في أمر المتنبي وسيف الدولة. فنفض إليهم جملة الخبر، وحدثهم بصوت الظافر المنتصر، بما عزم عليه سيف الدولة من نبذ المتنبي، وتقريب شعراء مملكته. فطار الفرح بقلوبهم وأخذ كل منهم يفكّر في مطلع

قصيدة يمدح بها سيف الدولة، ليكون من السابقين الأولين.

أخذ سيف الدولة يفكر في أمر المتنبي، بعد أن تركه أبو فراس وقد تراكمت عليه الهموم، وانتابته الظنون، وعبثت به الهواجس. فهو مرة يرى أن أبا الطيب صنّاجة ملكه، وناشر فضله، وأنّه الغاية التي تقطّع دونها أنفاس الملوك، والحلم الذي يتطلّع إلى تحقيقه كل أمير، وأنه أشعر من رددت أصداءه آفاق العرب، وأندى صوت يجلجل بالشعر فيخوض البحار، ويثب الجبال، لا يقف دونه سدّ، ولا يعترضه حائل، وأن شعره جيش أقوى من الجيش، وعتاد يزدري بكل عتاد. من هو سيف الدولة حتى يظفر بدولة الشعر كلها مجتمعة في رجل يمجد أفعاله، ويخلد محامده، ويبث الرعب في قلوب أعدائه؟

يرى سيف الدولة كلّ هذا، فيرفع رأسه باسماً مبتهجاً، وقد كاد يُثلج صدره برد اليقين، ولكنه لا يفتأ حتى تهجم عليه الوساوس من كلّ مكان، صارخةً عاوية وهي تصيح: ما هذا التدلّي إلى الحضيض؟ وما هذا الاستخذاء لشاعر مجنون بالعظمة تيّاه على الملوك؟ أنت يا ابن حمدان ملك من سُلالة ملوك، ولكنك في سبيل أمل كاذب، من نبيّ كاذب، نزلت بنفسك إلى الهاوية حتى صرت له مملوكاً! اذكر إن كنت ناسياً أنه يقبل صلاتك الجزيلة أنفاً، ويتقلب في نعمتك حاقداً. واذكر إن كنت ناسياً أنه لا يجود عليك بقصيدة إلاّ كارهاً متثاقلاً، ثم اذكر أنك كثيراً ما استبطأت مديحه فأفنيت الحيل في استجدائه، فتارةً ترسل إليه أبياتاً لشاعر ليقول على مثالها، وتارةً تزعم أنك أعجبت ببيت قديم لتستثير خاطره الراكد، وخياله الكليل. كلُّ هذا وهو سادر في غروره وكبريائه، يسخَر في خبيئة نفسه من الملوك والممالك، ويردِّد في صدره قولته الحمقاء:

أيَّ محلٍّ أرتقي أيَّ عظيمٍ أتّقي
وكلُّ ما خلق اللـ ـهُ وما لم يخلُقِ
محتقَرٌ في همّتي كشعرةٍ في مفرِقي

إنه وأيمُ الحق رجل ثقيل الظل، مستكرهُ الطبّاع، ولو كان ينطق بالوحي، ويستملي شعره من ملائكة السماء! إن نُفرة الناس منه ذهبت بروعة شعره، فلم يجد بين القلوب منزلاً. ويلٌ له مني؟ لن يعيش هذا الرجل في مملكتي بعد اليوم، ويلٌ له مني! لن يعيش هذا الرجل في مملكتي بعد اليوم، فإنه لا تُؤمن عواقبه. وهو حقود لئيم، يسخط على اليد تمتدُّ إليه بالإحسان، ويأنف من النعمة يسوقها إليه كريم. أليس هو القائل:

مدحتُ قوماً وإن عشنا نظمتُ لهم قصائداً من إناث الخيل والحُصُنِ
تحت العَجاج قوافيها مُضمرَّةٌ إذا تنوشدن لم يدخلن فى أذُن

لا. لا. فليخسأ ذلك المتشدق. أو ليرحل من بلادى إلى أىِّ بلد شاء. لا أريد شعراً، ولا أريد ذلك المجد الموهوم الذى سيخلِّده شعره.

قال سيف الدولة هذا، وهو يحرك ذراعيه فعلَ الغاضب المحموم. ثم قام متجهاً إلى الجناح الذى به أهله بعد أن زالت عنه آلام الشكوك، وسكنت نفسه إلى ما عقد عليه العزم. وبينما هو يسير فى دهليز طويل، إذ سمع أصواتاً فى حجرة، فاقترب وأنصت، فإذا غُلامُه نجا وأبو الحسن بن سعيد راوية المتنبى يتحاوران، فأرهف السمع فإذا نجا يقول:

- إنها من أروع قصائده، وكل شعره رائع خلاَّب. استمع لى يا مولانا وأصلح خطئى إذا أخطأت:

فديناكَ من رَبْعٍ وإن زدتنا كرباً فإنك كنتَ الشرقَ للشمس والغربا
وكيف عرفنا رسمَ من لم يدع لنا فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لُبَّا؟

فصاح ابن سعيد: هذا شعر كان فى صدور الشعراء سراً مكتوماً حتى جاء أبو الطيب فأفشاه، وكان فى كهف الغيب رحيقاً مختوماً حتى ظهر ابن الحسين ففضَّ خِتامه. اقرأ يا بنىّ من مديحه:

هنيئاً لأهل الثغر رأيُك فيهمُ وأنك حِزْبَ الله صرتَ لهم حزبا
وأنَّك رعتَ الدهرَ فيها وَرَيبه فإن شكَّ فليحدثْ بساحتها خطبا
فيوماً بخيل تطرُدُ الرومَ عنهمُ ويوماً بجود تطرُدُ الفقرَ والجدبا
سراياك تترَى والدُّمُسْتُق هاربٌ وأصحابُه قتلى وأموالُه نهبى
أتى مُرْعشاً يستقربُ البعدَ مقبلاً وأدبر إذا أقبلتَ يستبعدُ القربا
كذا يتركُ الأعداء من يكره القنا ويقفُلُ من كانت غنيمتُهُ رعبا
مضى بعدما التفَّ الرماحان ساعةً كما يتلقى الهدبُ فى الرقْدةِ الهدبا
ولكنَّه ولى وللطعن سَوْرة إذا ذكرتها نفسُه لمس الجَنْبا

الله! الله! هذا فيضُ الكريم الفتَّاح، هذا ليس بشعر يا ولدي، إنه يكاد يكون من وحى جبريل. إن شعراء سيف الدولة جميعاً أعجز من أن يقولوا:

ولكنه ولّى وللطعن سورةٌ — إذا ذكرتها نفسُه لمس الجنبا

فصاح نجا قائلاً : أتعرف يا سيدي أنى كتبت نسخاً من هذه القصيدة وبعثت بها إلى مصر وبغداد ودمَشْق وفارس وإفريقية والأندلس؟

كان سيف الدولة يسمع هذا الحوار، ولكنه لم يُطق أن يصبر طويلاً فدخل الحجرة غاضباً وقال :

ما هذا الهذر الذى تخوضان فيه؟ قاتل الله المتنبي وشعره! أكلما ذهبت إلى مكان سمعت الناس يتحدثون فى هذا الوغد أو يدرسون شعره؟ إن بابى سيغلق دونه بعد اليوم. لقد علمت من ابن عمى أبى فراس من شأن هذا الرجل ما كنت أجهل. إنه يتقلّب فى نعمتى ويضمر لى ولمملكتى أسوأ ما ينطوى عليه ضمير. فليذهب إلى حيث يشاء، وليجعل من ملوك الأقطار التي ينزل بها آلهة تعبد، فلست فى حاجة إلى هذره وهُرائه.

ولما انصرف سيف الدولة التفت ابن سعيد إلى نجا وقال هامساً :

- دسيسة جديدة وربِّ الكعبة. لقد أوشك أعداء أبى الطيِّب أن يظفروا به هذه المرّة، ولكنى لن أنيلهم مأرباً. لن أتركهم ينالون من هذا السرّ السماويّ غرضاً. إنه الحسد يا بنيّ الذى قتل النبوغ فى العرب، وذهب بريح العرب. أين نعلاى؟

- إلى أين أيّها الشيخ؟

- إلى أبى الطيب. إلى نادرة عُطارد. إلى الذى يقول :

وما أنا منهُمُ بالعيش فيهم — ولكن معدن الذهب الرَّغامُ

صلح

سار أبو الحسن بن سعيد حزيناً مطرقاً، يخرج من دَرْب إلى درب، ويتخلَّص من زحام ليغرّق في زحام، وكانت حلب في ذلك الحين من أعظم مدن الشام، تشرف على نهر قُويق، ويحيط بها سور شاهق، بنى بالحجر الأبيض الضخم، به ستة أبواب، وإلى جانب السور قلعتها الحصينة الحمراء، التي تطلُّ على المدينة شامخة متحدية كما يربُض الأسد حول العرين. وكانت فسيحة الطرق، كثيرة القصور ذات الطابع البيزنطيّ، كثيرة المساجد والفنادق والمتاجر والحدائق، مزدحمة بالسكان من عرب وترك وأرمن وروم.

سار ابن سعيد حتى بلغ ساحة الناعورة، حيث القصر السامق الذى أهداه سيف الدولة إلى المتنبى، فولج بابه مهرولاً، فتلقّاه العبيد، وأقبل عليه مسعود كبير الخدم فحيّاه فى أدب ولطف. فابتدره الشيخ:

- أين سيدك أبو الطيب؟

- فى حجرة الزوّار يا سيدي.

- من معه الآن يا مسعود؟

- معه الحسين الصنوبريّ وأبو الفرج المخزوميّ.

- فيم يتحدثون؟. فابتسم العبد وأجاب:

- في الشعر يا سيدي. وهل فى حلب اليوم حديث إلاَّ فى الشعر، وغزوات الروم؟

وانفلت ابن سعيد من بين يدي العبد إلى لقاء المتنبى، فدخل حجرة فسيحة، ثمينة

الأثاث، فرشت أرضها بالبسط الفارسية، وغطِّيت نوافذها بسجوف الحرير المصرية، ونضدت حولها الأرائك، وكان أكثر ما يسترعى نظر الناظر فيها كثرة خزائن الكتب، وكثرة المناضد التي ألقيت عليها الكتب أكداساً، وكان المتنبى جالساً أو على الأصح مضطجعاً على كرسيّ ضخم، في صدر المجلس. وهو طويل فاره فى التاسعة والثلاثين من عمره، خفيف اللحم، أسمر اللون، عريض الجبهة، برّاق العينين، شديد سوادهما، مستقيم الأنف، ترتفع أرنبته إلى ما يقرب من الشمم، فى شفتيه رقّة، وفى عنقه صيد، وفى ملامحه ثقة المعتزّ بنفسه، وفى نظراته كبرياء العباقرة، وفى صدره المرتفع ما ينمّ على ما يملأ هذا الصدر من آمال جِسام. وكان يرتدى ثوب فارس كامل العُدة، ويهزّ قدمه بين الحين والحين في إعجاب وزهو، فتصطدم بغمد سيفه الذى طال نجاده.

دخل ابن سعيد فقطع على المتحدثين حديثهم، وحياه المتنبى بنظرة لطيفة، فيها ترحيب لم يذهب بجماله ما فيها من كبرياء. وأخذ المخزومي يصل الحديث ويقول:

ـ فلما رآني... فابتدره ابن سعيد سائلاً:

ـ من الذي رآك؟

ـ أبو الحصين الرَّقى قاضى حلب. كنت أقول: إننى كنت ماراً بالأمس بسوق الورّاقين، وكان الرقى جالساً عند وضاح بن سعيد الوراق، فلما رآنى صاح: إلىّ يا أبا الفرج فإن شيطانى لا يريد أن يفارقني اليوم، لقد تلجلج فى صدرى بيت من الشعر منذ الصباح، وقد عيل صبرى فى رده إلى قائله، فهل لك أن تنقذ أخاك من خيال الشك؟ قلت: هات يا سيدى، لعل الله معقب بعد عسر يسراً. قال: من قائل هذا البيت يا ابن أخى؟

خيرُ أعضائنا الرؤوس ولكن فَضَلتها بقصدك الأقدامُ

وكنت أعلم أن الشيخ حاقد على أبي الطيب، شديد الكراهة له، كثير الإيقاع بينه وبين سيف الدولة. فقلت: قائل هذا هو الذي يقول:

وإذا كانت النفوسُ كباراً تعبتْ في مرادُها الأجسامُ

فقال أحسن والله وأجاد! فمن هو؟ قلت: هو الذي يقول:

عقدت سنابكها عليها عثيراً لو تبتغى عنقاً عليه لأمكنا

فقال: هذا وحي السموات العلا! فمن هو والله ولا تطل؟ قلت: هو أيضاً الذي يقول:

أقبلتُهـا غرَر الجياد كأنما أيدي بنـي عمـران في جبهاتها

فصاح هذا تشبيه عزّ أن يناله خيال، من هذا الشاعر ناشدتك الله؟ قلت هو الذي يكيد له سيدي القاضي، ويصارحه بالعداء، ويدس له عند سيف الدولة! فصاح: هو المتنبي إذاً. آمنت أنه الشاعر! إنه يا ابن أخي يحيينا بشعره، ولكنه يميتنا في اليوم ألف مرة بزهوه وإعجابه.

فضحك القوم، وابتسم المتنبي ابتسامة فاترة، ملؤها السخرية والأنفة. ثم قال في تعاظم:

عجباً لهؤلاء القوم! إن لم انزل إلى الوهدة التي تردوْا فيها، والحمأة التي تمرغوا في دنسها، قالوا: إنني مزهوّ متكبر. إنهم يسمون الفضيلة عُجباً، والإباء كبراً، والتنزه عن الدنايا تيهاً وصلفاً، وماذا أصنع وقد خلق الله لي نفساً عزوفاً عن كل ما يشين، طموحاً إلى ما فوق السماء إن كان للسماء فوق؟ وإني أشهدكم أني ضقت بهم قبل أن يضيقوا بي. إنني طائر يعيش في غير وكره، وأمل حائر لا يجد له مستقراً، ولطالما نفرت نفسي من مجالسهم، واشمأزت من عبثهم ولهوهم. فإنّي إذا لم أعاقر الخمر معهم، قالوا جلف نابي الخلق سيىءُ المعاشرة. وإذا لم أتدل إلى مغازلة النساء المتبذّلات، قالوا: سمج الذوق، غير مصقول الطباع. وإذا لم أتخذ من الغلمان أسراباً وأسراباً كما يفعلون، نبزوني بأسوأ الصفات، وأشنع الألقاب. فماذا أصنع في هؤلاء، والفجور عندهم محمدة، والسموّ إلى معالي الأمور كبر وغرور؟ ولقد يذهب بي الفكر والهمّ أحياناً إلى أن أعتزم الرحيل عنهم، وقطع المفاوز دونهم، فإنه لا يزال في فسيح الأرض مضطرب للكريم الذي يطلب ما يعجز الطيرَ وردُه، ويبتغي ما هو أجلُّ من أن يسمى.

دعاني منذ أيام أحمد بن نصر وزير سيف الدولة، إلى مجلس من مجالس أنسه ولهوه، فأبيت وأبيت، ولكنه أطال في الرجاء والحف، فذهبت إلى داره كأنما أقاد إليها بالسلاسل. وماذا رأيت؟ رأيت طائفة من كبار المملكة، بينهم أبو فراس وأبو الحصين الرقيّ هذا الذي يزعم أن زهوي وإعجابي يميته في اليوم ألف مرّة، ورأيت كثيراً من قواد الجيش، وأدعياء الشعر والأدب في هذه المدينة، رأيتهم وقد لعبت الخمر برءوسهم

جميعاً، فذهب عنهم العقل، وطار منهم الحياء. وكان السقاة يطوفون بالأكواب، فما مروا برجل إلا أفرغ كؤوسهم في بطنه، وشرب شرب الهيم. وكانت الجواري الروميات، وهن في أجمل زينتهن، يرسلن شباكهن لصيد القلوب وإثارة النزوات: بين غمزة ساحرة، وبسمة فاتنة، وانثناء لعطف، واهتزاز لنهد، وقبلات ترسل بالأكف، وإشارات تعبث بالعقول، وهمسات أثيمات، وذعر مصطنع، واستنكار مبتدع، ودلال ينسي الرجل عرضه، وإغراء يوقظ الفتنة النائمة، وقرب في تباعد، وتباعد في قرب، وغضب في طيّه رضاً، ورضاً في غضونه غضب. وقامت بين القوم راقصة تكاد تكون متجرِّدة فذهبت بالبقية من عقولهم، وأخذت ما تركته الخمر فيهم. وزينت، النشوة لهذا الرَقيّ قاضي حلب، الذي يكره مني زهوي وإعجابي أن يقوم ويرقص بين تصفيق القوم، وترديد الألحان، وكان يُنشد أبياتاً عبث السكر بأوزانها، ولعبت بنت الحان بقوافيها. أما أنا فلم أستطع البقاء، فاتخذت من انصراف القوم إلى لهوهم ستراً، وخرجت أتلفت ورائي، وأجمع من هذا الدنس أثوابي.

ذلك هو الذي يريدني هؤلاء المستهترون على أن أفعله، وأن أشاركهم فيه، وإلا كنت ثقيل الظل، شائك الجانب، غليظ القلب فظاً. لا يا صحابي إني خلقت من طينة غير طينتهم، ورميت إلى غاية غير غايتهم، وإذا كان لساني لسان شاعر، فإن قلبي قلب. . . ثم تردد قليلاً، فقال المخزومي: قلب أسد؟ فالتفت إليه المتنبي وقال: لا. كنت أريد كلمة أخرى ندعها الآن يا أبا الفرج. ثم أذِّن العصر، فقام من حضر للصلاة، وبقي المتنبي جالساً في متكئه يقلب في ديوان أبي تمام، وكان على منضدة أمامه، وكان يرسل إليه لمحات خاطفة، فمرة يبتسم احتقاراً، وأخرى يهز رأسه استحساناً، وثالثة يمد شفتيه في استنكار وسخط.

فلما قضيت الصلاة حيَّا القوم أبا الطيب وانصرفوا، وبقي ابن سعيد قلقاً ينفخ من الهم والغضب، فالتفت إليه أبو الطيب سائلاً:

ـ مالي أراك قلقاً يا أبا الحسن؟

ـ لا شيء يا أخي، إلا أني سمعت اليوم حديثاً أطار صوّابي، وضاعف من همّي وحزني. فلقد علمت في هذا الصباح أن القوم يأتمرون بك، وأنهم لم يتركوا في كنانتهم سهماً مسموماً حتى رموك به. فخذ حذرك أبا الطيب، إني لك من الناصحين.

ـ القوم يأتمرون بى؟! حيّاك الله وبياك يا أبا الحسن! ولكن ليس هذا بنبأ جديد. قل لهم ما قلته لغيرهم:

إنــى وإن لمــت حاســديّ فما أنــكر أنــى عقوبــةٌ لهُم
وكيف لا يُحســدُ امــرؤٌ علَم له علــى كلّ هامــةٍ قدمُ

ـ إن الأمر يا سيدى جدٌّ وما هو بالهزل، وإن أبا فراس وشيعته أعظم من أن يستهان بأمرهم، أو يفضّ الحديث عنهم ببيتين من الشعر، إنهم يكيدون لك، وينصبون لك الحبائل، ويمشون لك الضراء، فحاربهم بسيوفهم، واقتلهم بالسمّ الذي أعدوه لك. إن الفلسفة التي تسير بهديها، والتي تستريح إليها نفسك، وتهدأ بها هواجسك، لن تغنى فى هذا الزمان فتيلاً. إننا يا سيدى نعيش فى جوّ قاتم بالدسائس، مختنق بالفتن. ومن خطل الرأى أن يخطو المرء فى أرض تزدحم بالأفاعي وهو لا يحمل ترياقاً، أو يسير فى مَسْبعة وهو لا يستصحب الحذر. لقد أزعج القوم إباؤك وشممك، وتلك المشية المزهوّة التي تكاد تشم فيها عظمة الملك من أعطافك، وتلك النظرات المتسامية التي تعدّ من تَحتها من الناس ذباباً أو نمالاً. إن العظمة يا أبا الطيب لا يراها الناس إلا تحت رداء من التواضع. والنبل معنى تدركه العقول ولا تبصره العيون. خض مع الناس فيما يخوضون، وخذهم كما يكونون؛ واحتّل إذا وجدت الاحتيال مطية لمآربك، وبش فى وجوه قوم وقلبك يلعنهم.

ـ لا. لا. يا أبا الحسن. ذلك عهد ودّعته منذ حين، فإن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً. ولن أفسد خلقي لفساد أخلاق الناس، ولن أضيّع مروءتي بين ملق دنىء، وخداع وَبىء. أنت تريدني على أن أقذف بأخلاقى ورجولتى فى التراب لأرتدى ثوباً من الرياء مخرّقاً. ولماذا؟ لأن طائفة من السادرين الأثمَة الذين أعيش بينهم، تؤلمهم رؤية الفضيلة، ويؤذيهم أن يعتزّ المرء بنفسه. لا يا أبا الحسن عرّج على حديث آخر.

ـ ليس لى اليوم حديث إلاّ هذا، فإن لى فيك اعتقاداً أرسخ من الجبال. أعتقد أنك الشاعر الذى بعث على رأس هذا القرن لينهض بالعرب، وليغنى بمآثر العرب، وليعيد مجد دولة العرب. ولن أجد لك ميداناً بين دويلات الإسلام أوسع من حلب، ولا مَلِكاً يساير رنين شعرك صليل سيوفه إلاّ سيف الدولة. إنه الملكَ الفذُّ الذى يقارع الروم، وهم يتوثبون على أطراف مملكته بعُدَدِهم وعديدهم في صولة وقوة وشهوة للانتقام. والحرب يا

أبا الطيب لن تسير غازية ، فاتحة ، مظفَّرة إلا على ألحان من الشعر الحماسيّ الذي يُلهب الوجدان ، ويقذف الرعب في قلب الجبان . ولن يكون هذا الشعر إلاّ شعرك يا ابن الحسين ، ولن تكون تلك النغمات السماوية إلا من مزْهرك المرنان . أنت لست مِلك نفسك يا رجل . أنت ملك العرب جميعاً ، أنت هبة الزمان الجديد الذى جاء ليصلح بك ما أفسده الزمان القديم . وإذا هجرت حاضرة سيف الدولة فأين تذهب؟ قد يُخيَّل إليك أن تذهب إلى العراق ، ويا ويلى من العراق وتَعْسى ! ! إنه الآن تحت سيطرة طغاة من الديلم ، وخليفتنا المطيع لله ـ فك الله أسره ـ يعيش الآن فى قفص يسمونه عرشاً ، بعد أن خلع الديلم ابن عمه المستكفى بالله وسلموا عينيه . وهو اليوم يجلس على سرير الملك كما يجلس القرد المذعور الذى تذهب عيناه يميناً وشمالاً أينما ذهبت عصا صاحبه . هذه هي بغداد التي كانت زينة الدنيا وبهجة الدهور ، أيام الرشيد والمأمون . وهناك الوزير المهلّبي ، وقد جمع حوله حُثالة الكتّاب ، وشذّاذ الشعراء الذين يرسلهم على أعدائه كما ترسل الكلاب المضرّاة فلا يتركون أديماً صحيحاً ، ولا عرضاً سليماً . هل تستطيع أن تعيش فى هذا الجوّ يا أبا الطيب؟ وفى أى شيء تقول الشعر هناك؟ فى الكأس والطاس والغوانى والغلمان ! نعم ليس هناك مجال إلا هذا المجال القذر الدنس ، فليس هناك غزو ولا فتح ، حتى لقد صدئت سيوفهم فى أغمادها ، إن كان لا يزال فى أغمادهم سيوف . ومن تظنّ سيكون من نظرائك وأندادك؟ سيكون من هؤلاء ابن الحجاج الوقح ، وابن سكرة المفحش ، وابن لنكك السبّاب . لا يا سيدى ، إن رضيت بهذا فلن أرضاه لك . وقد يجول بخاطرك أن تذهب إلى مصر ، وإنى أربأ بك أن تفعل هذا ، وأن تجعل من نفسك عبداً للعبد الأسود . ويا لضَيعة الشعر ، ويا لضَيعة الأدب إذا انحدرا إلى هذه الهاوية ! قد تقول أذهب إلى فارس ، ولكنّ ثقتى بك تأبى علىّ أن أتخيل أن مثلك يذهب هذا المذهب ، ويبيع عروبته وتاريخه بثمن بخس ، دراهم معدودات . أنصت إلىّ يا أبا الطيب ، ليس لنبوغك مجال إلا فى حلب ، وليس لعقود شعرك مكان أجمل ولا أشرف من جيد سيف الدولة . فأقم فى ذُراه ، واعتصم برضاه ، وجامل من حوله ، وكن فسيح الصدر ، واسع الحيلة ، واترك خلق الله فى ملك الله .

ـ إنى أحبّ سيف الدولة يا أبا الحسن ، أحبّ فيه شجاعته وإقدامه وكرم سجيته وصبره على الجهاد ، وأودّ أن أعيش فى كنفه ، وأن أدفن فى الأرض التى طهّرها سيفه من رجس الغزاة المغيرين ، ولكن فى حاشيته عصابة اتخذت من أبي فراس زعيماً ، بغضت

إلىّ حلب وملكها، وحبّبت إلىّ الذهاب ثانية إلى الصحراء، حيث كنت أعيش فى طليعة شبابى مع جفاة الأعراب، فما رأيت منهم إلا نجدة وعزّة وأنفة عن كلّ ما يّشين.

ـ إن أبا فراس هذا هو الذى جئت لأحدثك فى شأنه اليوم. فقد ملأ قلب سيف الدولة غيظاً منك وحقداً عليك، وذكر له من تيهك وجبريّتك وامتهانك لشأنه ما دفع سيف الدولة إلى أن يعقد العزم على سدّ بابه دونك. رآني اليوم مع نجا وهو يقرأ علىّ بائيتك الأخيرة فصاح فينا غاضباً، وأخذ يرميك بكل قارعة، ويصمك بكل قاصمة، وينذر ويتوعّد. لذلك هرولت إليك مسرعاً حتى نرد كيد القوم فى نحرهم، ونظفَر برضا سيف الدولة دونهم.

ـ وكيف نظفَر برضاه وهو على ما وصفت؟

ـ إن سيف الدولة قُلّب دوّار، يكون الصبَا ويكون الدَّبور، فهو فى لحظة سيل هدّار العباب، وفى أخرى صفحة غدير سَجْسج يتعثّر فوقه النسيم. هو الآن غضبان ولكنه إذا سكت عنه الغضب عاد طفلاً غريراً يسهل اجتذابه، ويسلس قياده.

ـ دعني أرحل عنه بسلام يا أبا الحسن، فإن النفوس إذا تنافرت قلّ أن تعود إلى ودادها.

ـ هذا كلامكم معشر الشعراء، ولكن النفوس تتنافر ثم تتعانق، ولا يصفو الود إلا بعد أن يخلص من الكدر.

ـ من الذي يخلّص ودّ سيف الدولة من هذا الكدر؟

ـ أخته خَوْلة. فإنها مفتونة بشعرك، كثيرة الإعجاب بك. وهي ترى أن خروجك من مملكة أخيها لا يقلّ عن دخول الروم فيها. وسيف الدولة مشغوف بها حباً، لا يردّ لها كلمة ولا يخيّب رجاء. فلو ألحّت عليه في أمرك، لأحبطت كيد القوم، وأعادتك إلى ما كنت فيه من المنزلة والكرامة.

ـ افعل ما تشاء يا أبا الحسن. ولو خُيرتُ ما اخترت.

ـ إني سأختار لك. فلا يكن في صدرك حَرج. وسأمرّ على دارك غداً بالخبر اليقين.

فلما جاء الغد أسرع أبو الحسن بن سعيد إلى دار المتنبى، فلم يجده ورأى ابنه مُحسّداً فقال له: قل لأبيك يا محسّد: إنّ الأمير يبلغه تحيته ورضاه، ويودّ أن يقابله فى

قاعة الرسل فى صبيحة غد، ليستمع لإنشاد القصيدة الجديدة. وقل له إنّ الجمع سيكون حاشداً، عم مساءً يا محسد. ثم بلّغه عنى ألا ينسى قوله:

ومِنْ نكد الدنيا على الحرِّ ان يرى ... عدواً له ما من صداقتِه بُدّ

صراع

عاد المتنبي إلى داره حزيناً مثقلاً بالهموم والأوجال، يهزّ رأسه صامتاً مطرقاً. فابتدره محسّد وألقى عليه رسالة أبي الحسن لم يخرم منها حرفاً. فالتفت إليه أبوه في تثاقل وقال:

- إذاً سيكون الموعد غداً؟

- نعم يا أبي وهو يقول إن الجمع سيكون حاشداً.

- إنه يوم الفصل يا محسد، وسيعلمون غداً من السبّاق المبرز.

تمرّستُ بالآفات حتى تركتُها تقولُ أمات الموت، أم ذُعر الذُعر؟

وأقبل مسعود فقال: إن العشاء قد أعدّ يا سيدي.

ليس لي في الطعام من أرب الليلة يا مسعود. أوقد الشموع في حجرة نومي، وأعِدّ بجانبها شموعاً أخرى، فقد يطول بي السهاد في هذه الليلة الليلاء، وأحضر أقلاماً وأوراقاً ودواة بجانب سريري. أسرع يا مسعود، فإن مجد سيدك الليلة في ميزان القدر. فأسرع العبد ينجز ما أمر به، وتخفف المتنبي من بعض أثوابه، وهو يتمتم: غداً سيرون! غداً سيكون لي معهم ومع أميرهم شأن أيُّ شأن! غداً يعلمون أني كالحجاج بن يوسف لا يُقعقع لي بالشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين، وغداً يستيقنون أن الشعر إذا تنفست به نفس جريئة، كان مِلكاً على الملوك، وأميراً على الأمراء. من هؤلاء ليت شعري ومن آباؤهم؟ كان آباؤهم زعماء طائفة من فتّاكي العرب، أغاروا على أطراف الخلافة، وهي

ترنّح للسقوط، فمزّقوا أشلاءها، واقتطعوا لأنفسهم منها طَرفاً، وأصبحوا فى طرفة عين ملوكاً لهم عرش وصولجان، وجند وسلطان. ولم لا أوطد ملكاً كما وطّدوا؟ وأشيِّد مجداً مغتصباً كما شيدوا، ما دام الأمر للقوة، والحكم لأطراف الأسنة؟ ثم أطرق حزيناً وهز رأسه فى ألم وحسرة وقال: ولكن هؤلاء لهم عشيرة وعصبة، ولهم أعوان وأحلاف فى القبائل، ولهم فى الرياسة مجد قديم، أما أنا فقد:

أظمتنى الدنيا فلما جئتُها مستَسقياً مطرت على مصائبنا

ثم زفر وقال: نعم يا أبا الطيب لقد قسى عليك القدر، فأنشاك فى أسرة خاملة النسب، تجاهد بجدع الأنف أن ينساها الناس، وأن ينسوا اتصالك بها. وليس لك غير عزمك وسيفك وشعرك من عشير أو قبيل. فأين أنت من المطالب العظام والمقاصد الجسام؟. نعم. لقد قسا عليك القدر، فخلق لك نفساً شامخاً توّاقةً غلاّبةً طماحةً إلى الملك. ولم يخلق لك من آلات العظمة والملك ما يصل بك إلى أدنى هذه الغايات. هذا هو دأب القدر دائماً، يضع السيف فى يد من لا يستطيع حمله، ويَهب المال لمن لا يحسن تدبيره، ويكيل الحمد والثناء لمن لا يفهم معنى الحمد والثناء!

جلس المتنبى أمام منضدته، ومد يده إلى القلم وأطرق طويلاً يفكر فى ابتداء القصيدة. فجال بخاطره أن يقول:

نقل الواشي حديثاً فكذِّب كن مُجيري منه يا خَيرَ العرب

ولكنه هزّ رأسه هزاً عنيفاً وقال: لا. لا. هذا مطلع يدلّ على ضعف نفسي، واهتمامي بالوشاة. ثم إن تسمية سيف الدولة في أول القصيدة بخير العرب إغراق فاضح، وسرف فى المديح لا يصح أن يعطَى في جُرعة واحدة. وعدل عن هذا المطلع، وأخذ يفكر فى مطلع آخرَ فعرض له أن يقول:

غال بعضَ الحبِّ عذلُ العاذلِ ومضى الباقى بمطل الماطِلِ

غير أنه مدّ شفته السفلى استنكاراً، وقال: لا. لن يصلح هذا مطلعاً فإن فيه إيغالاً فى القطيعة، ومصارحةً بالجفاء. وإذا اغتال العذل بعض الحب، وذهب مطل الحبيب بباقيه، فماذا يبقى منه للرجل؟ وماذا أرجوعنده بعد أن كاشفته بانقطاع حبل الود بيننا؟ ثم فكر قليلاً وصاح فى اهتمام: لقد وجدت المطلع، لقد وجدته. هذا هو:

واحـرَّ قلبـاه ممّـن قلبُـه شَبِمُ　　　ومَن بجسمي وحالي عنـده سَقَمُ

ثم وقف وأخذ يجول في أنحاء الحجرة، وهو يهمهم ويزمجر زمجرة النمر الجريح. وكلما حام حوله طائر الشعر أطرق وزمزم حتى يلتقطه فيسرع إلى أوراقه فيدوّن البيت أو البيتين. وكان من يراه وهو يذرع أرض الحجرة شاخص العينين، يلوّح بذراعيه أحياناً، ويضرب بقدمه الأرض أحياناً، ويتحدث إلى الشموع والحيطان أحياناً، يظنه مجنوناً ذهب عقله وطار لبّه.

فرغ المتنبي من قصيدته قبل أن تظهر خيوط الصباح، فطوى أوراقه وألقى بنفسه على سريره، ولكن هيهات لمثله أن ينام! فلما شاع نور الشمس في الأفق، تناول نزراً من الطعام، ثم ارتدى ملابسه، وأمر مسعوداً بإعداد جواده. ولما هِمّ بالركوب رأى أبا الحسن بن سعيد في انتظاره، فابتدره ابن سعيد:

- هل أتممت القصيدة؟
- نعم أتممت قاصمة الظهر، وقارعة الأبد.
- أرجو ألا تقسو فيها على أعدائك يا أبا الطيب.
- ليكن ما يكون.

ولما بلغا قصر سيف الدولة، نزل أبو الطيب عن جواده فتلقّاه نجا في بشر وترحاب، وهمس في أذنه قائلاً: اليوم يومك يا أبا الطيب. فإن أعداءك هنا جميعاً، وقد جمعوا مكرهم، وألقوا حبالهم وعصيّهم. فهز المتنبي كتفه في تيه وقال:

إن هؤلاء لا يهزون شعرة من مفرقي:

أنـا الـذي بيّن الإلـه به الأقـ　　　ـدارَ والمـرءُ حيثمـا جعله

جوهـرةٌ تفـرح الشـرافُ به　　　وغصّـة لا تُسيغهـا السفله

ودخل المتنبي قاعة الرسل، فرأى سيف الدولة في صدر الإيوان، وحوله الوزراء والفقهاء ورجال العلم والأدب، وكان بالمجلس عدد عديد من أعداء المتنبي بينهم الزاهي والنامي وأبو الفرج السامرّي. وكان على رأس هؤلاء أبو فراس وأبو العشائر، وقد أخذا ينظران ذات اليمين وذات الشمال في قلق واضطراب.

دخل المتنبي فسلّم على الأمير مطأطىء الرأس حزيناً، وردّ سيف الدولة تحيته مدلاً

عابساً، وسكت الجمع، وتحفّز أعداء أبى الطيب للوثوب، فشرع ينشد حتى إذا بلغ قوله:

مالـى أكتـم حبـاً قد برى جسدى ... وتدّعـى حبَّ سيف الدولـة الأمم؟

صاح به أبو الفرج السامرّى: ويلك يا دعّى كِنْده. لقد هجوت الأمير، لأنك تزعم أن الناس جميعاً لا يحبونه إلا ادّعاء، وأنك وحدك الذى يحبه حباً صادقاً، وهل هذا إلا هجو صراح؟ فانصرف عنه أبو الطيب غير مكترث، واستمر فى الإنشاد فلما قال:

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

قال أبو فراس: قد مسخت قول دعبل:

ولست أرجو انتصافاً منك ما ذرفت ... عينى دموعاً، وأنت الخصم والحكم

فقال المتنبى وهو ينظر إلى الأمير ويشير إلى أبى فراس:

أعيذهـا نظـراتٍ منـك صادقةً ... أن تحسَبَ الشحم فيمن شحمُه ورم

فعلم أبو فراس أنه يعنيه، فقال: ومن أنت يا ابن عبدان حتى تأخذ أعراض أهل الأمير فى مجلسه؟ فواصل المتنبى إنشاده ولم يلق إليه أذناً إلى أن قال:

سيعلـم الجمعُ ممـن ضمّ مجلسُنا ... بأننـى خيرُ من تَسعَـى به قدم
أنـا الـذى نظـر الأعمـى إلـى أدبى ... وأسمعـت كلماتـي مَن به صمم

فزاد ذلك فى غيظ أبى فراس وقال: قد سرقت هذا من عمرو بن عروة بن العبد إذ يقول:

أوضحـتُ من طُرُق الآداب ما. ... اشتكلتْ دهراً وأظهرت إغراباً وإبداعاً
حتـى فتحـت بإعجـاز خصصْـتُ به ... للعمـى والصـمِّ أبصـاراً وأسماعاً

ولما انتهى إلى قوله:

الخيلُ والليلُ والبيداء تعرفنى ... والسيفُ والرمحُ والقرطـاسُ والقلمُ

صاح أبو فراس: وماذا أبقيتَ للأمير إذا وصفت نفسك بكل هذا؟ تمدح الأمير وتتبجح بوصف نفسك بما تسرقه من كلام غيرك؟ أما سرقت هذا من الهيثم بن الأسود النخعى؟

أنا ابن الفلا والطعنِ والضرب والسرى وجردِ المذاكى والقنا والقواضب

فقال المتنبى:

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوارُ والظلم

فقال أبو فراس: وهذا أيضاً سرقته من قول العجلى:

إذا لم أميِّز بين نورٍ وظلمة بعينىّ فالعينان زورٌ وباطلُ

ومن قول محمد بن أحمد المكىِّ:

إذا المرء لم يُدرك بعينيه ما يرَى فما الفرقُ بين العمى والبصراء؟

وهنا ضَجر سيف الدولة من كثرة مباهاة المتنبى بنفسه، وكثرة دعاويه، فمد يده إلى دواة كانت أمامه، فضرب بها المتنبى فسال المداد على ثيابه. ولكن المتنبى وقف شامخ الرأس كأن لم يمس بأذى، وشرع يقول:

إن كان سرّكُم ما قال حاسدُنا فما لجرحٍ إذا أرضاكمُ ألم

فاهتز سيف الدولة للبيت، وحسن عنده موقعه، وقام مهرولاً نحو المتنبى يعانقه، ويقبل رأسه، وأخذ يشده من ذراعه حتى أجلسه بجانبه. فلما أتم أبو الطيب القصيدة وهو جالس، أجازه بألف دينار، ثم أردفها بألف أخرى، استعادة لمودته وإعلاء لمنزلته. والناس مع الزمان، والإقبال يجلب الإقبال، فما كاد يرى من بالمجلس فعل سيف الدولة حتى أقبلوا على المتنبى يكيلون له المديح، ويخلعون عليه من الثناء حللاً، ويشيدون بعبقريته، ويحمدون فيه الإباء والشمم والجرأة على ممدوحه، وأنه يرفع فنه إلى قمة دونها منازل الملوك، ويضع نفسه حيث يجب أن تكون. وقال له أبو الحصين الرقى وهو يشد على يده: حياك الله يا أبا الطيب! لقد كنت اليوم الفارس المعلم فلم تدع مصالاً لصائل، ولقد كان نصرك مبيناً مؤزراً، فأحرص على هذا الانتصار يا أبا محسد، فقد يكبو الجواد وقد قارب القصب! فرد عليه المتنبى بكلمات ضاعت معانيها بين صيحات المعجبين. أما أبو فراس وأبو العشائر وأنصارهما من آل حمدان فقد حبست الهزيمة ألسنتهم، وأكل الغيظ قلوبهم فتسللوا من المجلس، وفى أعينهم لمحات الغضب والحقد والعزم على الانتقام، لما نالهم من احتقار المتنبى وتعريضه بهم فى قصيدته.

وما كاد أبو الطيب بعد خروجه من القصر يصل إلى ظاهر المدينة، حتى أحاط به

غلمان أبى العشائر ونفوسهم متعطشة إلى دمه، فرماه أحدهم بسهم وهو يقول: خذه وأنا غلام أبى العشائر! فحاد عنه السهم، ووكز أبو الطيب جواده وهو يقول:

ومنتسبٍ عنـدي إلـى مَن أحبُّه ... وللنبـل حولـى من يديه حفيفُ
فهيّج من شوقـي ومـا من مَذَلةٍ ... حننـت، ولـكن الـكريمَ ألوف
وكلُّ ودادٍ لا يدوم علـى الأذى ... دوامَ ودادى للحسين ضعيف
فإن يكن الفعـل الـذى ساء واحداً ... فأفعالـه اللائـى سررن ألوف
فـإن كان يبغـى قتلهـا يك قاتلاً ... بكفيه، فالقتـل الشـريفُ شريف

وبلغ المتنبى داره وقد نال منه الجهد، واضطرب منه العصب، فارتمى فوق سريره يلهث ويردد أنفاسه. وقد جالت فى نفسه خواطر متباينة، وهجمت عليه ظنون متناقضة. هؤلاء الغلمان الذين طلبوا دمه إنما هم عن قوس ساداتهم رموا، وبأيديهم راشوا السهام. نعم إنه انتصر عليهم عند سيف الدولة اليوم ولـكن هل يدوم هذا النصر، وحوله هؤلاء الذئاب، وهو يخطو فوق أرض كثيرة المزالق والأخاديد؟ إنه انتصر حقاً ولكن هذا النصر قد يكون حافزاً لأعدائه على الإسراع بالكيد له، وإحكام الخطة لدفعه فى الهاوية. إنه انتصار يجر فى ذيله الهزيمة. انتصار المصادفة الذى يعقبه انهزام تنصب شباكه الدسائس المحكمة، والمكر الخبيث، والغلمان الفتاكون الذين يرسلون سهامهم فى غبش الظلام. وهل يستطيع أن يركن إلى سيف الدولة أو يثق بنصرته، وهو كما قال أبو الحسن رجل من هواء لا يدوم على حال. يملكه الغضب حيناً فيرتدُّ شيطاناً رجيماً، ويجتذبه الرضا بخيط من خيوط العنكبوت فيصبح ملـكاً كريمـاً. وكيف يعيش شاعـر غَرِد فى هذا الجـو القلـق المضطرب؟ إنى أوثر أن أعيش فى عرين الأسد، وأرقد بين الحيات السـود، وأنـام فى مجارى السيول، على أن أعيش بين سموم هذه الأحقاد يوماً واحداً. غداً أرحل إلى أى مكان على رغم يقينى من أنى لن أجد لسيف الدولة مثيلاً بين الأمراء، ولكن ماذا أفعـل والجنة تحف دائماً بالمكاره، والورد لا يجنى إلا من الشوك؟ غداً أرحل إلـى دمشـق، ويفعل الله ما يشاء. يا محسد. فأسرع ابنه إلى ندائه، ووقف يتلقى أمره، فطلب منه أن يأمر العبيد بإعداد كل شىء للرحيل فى الغد، ورأى ابو الطيب فى وجه ابنه سمات التردد والعجب فصاح به: أطع ما آمرك به ولا تعوِّق. فقال محسد فى تلعثم:

-إنى فى الحق فى حيرة من هذا الأمر المفاجئ. لقد كان فوزك اليوم على أعدائك

فوزاً حاسماً، وكان إقبال الأمير عليك واعترافه بسمو منزلتك حادثاً فذاً لم يسجل له الدهر مثيلاً فى تاريخ الملوك والشعراء. ثم بعد هذا يخطر لك أن ترحل عن هذا الجاه العريض، والمرتبة التي تتقطع دونها أعناق الشعراء!

- مر العبيد أن يعدوا كل شيء، ولا تخاطبني فى شأن الأمير. اذهب.

فخرج محسد متثاقلاً والدهش يملك عليه لبه، فأمر مسعوداً بالاستعداد للرحيل.

وما كاد يلمع أول شعاع للصباح حتى وصل فارس يلهث جواده إلى دار أبى الطيب، وطلب لقاءه فأدخل عليه. فقال الفارس:

- إنى خادم سيدتي خَوْلة أخت الأمير، وقد بعثتنى برسالة إليك.

- سيدتي خولة؟ تبعث إلى برسالة؟ أين هى؟

- ها هى ذى يا سيدي. ومد يده فى كمه فأخرج منه كيساً من الحرير الأخضر خيطت جوانبه حول الرسالة، ففض المتنبى الكيس وأخرج الرسالة فكان فيها:

من خولة بنت عبدالله بن حمدان إلى أبى الطيب أحمد ابن الحسين. أما بعد، فقد كانت قصيدتك التي أنشدتها اليوم آية بينة من آيات البيان، جديرة بأن تعلق على أستار الزمان، وأن يردد قوافيها الملوان. قرأها على الليلة أبو الحسن بن سعيد وشرح لى ما حدث من مقاطعة أبى فراس لك، وتحديه إياك، وما كان من انتصارك عليه. وما كاد يتم سرورنا حتى فوجئنا بتعرض غلمان أبى العشائر لك فى الطريق، فغضب أخى أشد الغضب وبعث فى طلب أبى العشائر، فلما جاء تلقاه ساخطاً لاعناً، واعتذر أبو العشائر وأطال الاعتذار، وأقسم إن شيئاً من ذلك لم يكن بإشارته ولا بعلمه. ولم يخرج من لدنه حتى كتب أمراً بنفى هؤلاء الغلمان جميعاً إلى الموصل؛ وقد جال بنفسى أن هذا الحادث قد يحفزك إلى الرحيل عنا، بعد أن كنت متردداً. فأستحلفك بالله وبمجد العرب وبما تكنُّ لأخى من مودة ألا تفعل. لا ترحل يا أبا الطيب فإن الدولة فى أشد الحاجة إليك. أنت قلبها النابض، وزندها المفتول، وجيشها الذى لا يصاول. لا ترحل يا أبا الطيب واستمع لرجاء فتاة تقدر أدبك وفضلك. إن الدولة من غير أن يتردد فيها نغم شعرك كنانة بلا سهام، ودوحة بلا بلابل، والسلام عليك فى الخالدين.

قرأ المتنبى الرسالة ثم أطرق واجماً مفكراً ينكت الأرض بعصاً كانت فى يده. ثم رفع

رأسه وكأنما أفاق من غمّة فقال للرسول: قبِّل يد مولاتى وقل لها: إن العبد لا يأبـق ما أحسن به سيده. وإن طائرها سيظل رفّافاً غرداً ما بعد عنه حفيف السهام، وإن الشعر لن يعصى أمراً لسيدة نساء «تغلب» ولا يرد كلمة مرت بأطهر شفتين، ونطق بها أصدق لسان.

وبقى المتنبى فى كنف سيف الدولة بعد ذلك قرابة خمس سنين، بين سخط ورضاً وعتب وإعتاب، وتجن وإدلال. وحضـر بعض مواقـع الـروم مع سيف الدولـة فأجـاد وصفها، وشدا ببطولة رجالها، فملأ الدنيا، وشغل الناس، وطار شعره فى الآفاق ورددته الأفواه فى كل مكان:

فسـار به من لا يسير مشمراً   وغنـى به من لا يغنـى مغرِّداً

ولما طال به المقام كثر حسـاده، وملّ سيف الدولـة تيهـه وكبـرياءه وضنـه عليه بالمديح، فازدادت بينهم الجفوة، ولم يجد أعداء المتنبى باباً للنكاية به إلا ولجوه. وحينما ضاق المتنبى بأمرهم فكر فى الرحيل، وكأنه كان ينظر بعين الغيب حقاً حينما قال فى آخر قصيدة أنشدها بين يدى سيف الدولة:

ولا تبـال بشعـر بعـد شاعره   قد أفسِد القول حتى أحْمِـد الصمم

وبلغ سخطه على سيف الدولة غايته حينما حضر مجلسه مرة، وكان به أبو الطيب اللغوى وأبو عبدالله بن خالوية النحوى فجاء فى عرض الحديث ببيت المتنبى:

لقـد تبصـرتُ حتـى لاتَ مُصطبرٍ   فاليوم أقحَـمُ حتـى لاتَ مقتحَمِ

فقال ابن خالوية: فى هذا البيت لحن شنيع، لأن «لات» لا تجرُّ ما بعدها، إذ ليست هى من حروف الجر. فقال أبو الطيب اللغوى: إن بعض العرب يجر الاسم بعدها، فأنكر عليه ابن خالويه ذلك، فنهره المتنبى فى غضب وقال: اسكت فما أنت إلا أعجمى لا يفهم أساليب اللغة، فإن من العرب من يجر الإسم بعد «لات»، قال شاعرهم:

طلبـوا صلحَنـا ولات أوانٍ   فأجبنـا أنْ ليس حين بقاءِ

فغضب ابن خالويه، وأخرج من كمه مفتاحاً من حديد، فضكَّ به المتنبى فى وجهه، فأسال دمه. فنظر أبو الطيب حوله فلم ير من سيف الدولة استنكاراً ولا أسفاً، فخرج من عنده كالبعير الصائل، وقد عزم ألاّ يكون ثالث الأذَلّين عِيد الحىّ ووتِده، وجعل يردد:

فـلا عبـرتْ بى ساعـةٌ لا تُعزنى   ولا صحبتنى مهجـة تقبـلُ الظلْما

رحيل

لزم المتنبى داره أياماً يفكر ويدبّر، ويبحث عن طريق للفرار من حلب، وهو يعلم أن سيف الدولة سيسدّ دونه المنافذ ويسأل عنه الفلوات، وأنه سيرسل جواسيسه فى كل مكان يتعقبون خطواته، ويترسمون آثاره. فكّر أولاً فى الذهاب إلى حمص ولكنه رأى أنها من أملاك سيف الدولة، وأن الفرار من حلب إليها ليس إلا كما ينتقل الطائر الحبيس فى قفصه من ركن إلى ركن. ثم فكّر فى أن يصارح سيف الدولة بأن ثواءه طال فى حلب وأنه يعتزم الرحيل عنها، وأن ينشىء قصيدة فريدة فى مُدحه وتوديعه، ولكنه رأى بعد طول التفكير وتقليب الرأى أن سيف الدولة لم يصل به البله إلى أن يطلق من يده شاعراً تتنافس فى احتيازه ملوك الأرض. يرسله من يديه ليغنى بمجد منافسيه ويطلق لسانه المرّ بهجائه والإزراء بملكه. إنه إن صارح سيف الدولة بهذا فليس لذلك من عاقبة إلا أن يعتقله وينكل به، ويقضى على آماله الجسام.

فكر المتنبى طويلاً ودبّر طويلاً، حتى هداه التفكير إلى أن يتحيّن غفلة من الأمير ويفرّ إلى دمشق. فأظهر الود لسيف الدولة، وأكثر من زيارته، ثم التمس منه أن يأذن له بالسفر إلى إقطاعه «بمعرّة النعمان» فأذن له. وما كاد يظفر أبو الطيب بهذا الإذن حتى أسرع إلى داره، وكان قد أعدّ عدته للرحيل منذ أيام، فدعا ابنه محسّداً وعبده مسعوداً وأنبأهما بأن يحملا إلى دمشق فى خفية وحذر ما خف من متاعه على ظهور الجياد، وأنه سيلحق بهما إذا خُفِّضت عنه العيون، ونام عنه الرقباء. فامتثلا الأمر، ولم تمض ساعات حتى كانا فى طريق دمشق ينهبان الأرض فى صمت ورعب ووجل.

أما أبو الطيب فانتظر إلى الهزيع الأخير من الليل، ثم خرج متسللاً ينظر في الظلام، فلا يرى إلا أشباح الظلام، ويصغي فلا يسمع إلا دقات قلبه الواجف الحزين. حتى إذا وثق أن عيناً لا تنظر، وأن أذناً لا تسمع، انطلق كما ينطلق السهم، وانقضّ كما ينقضّ القدر المحتومْ. ولفه الليل كأنه طيف نائم، أو خيال شاعر، أو كما يقول:

وكنــت إذا يممــت أرضــاً بعيدة　　　سريتُ فكنــت الســرُّ والليل كاتمُه

ولم يمتّع به النهار حتى جاوز أملاك سيف الدولة، فاطمأنت نفسه قليلاً. ولـكن الفكر عاوده، والأمل الحائر ساوره: إنه قادم إلى دمشق. ماذا يفعل بها؟ هل هي خاتمة المطاف؟ هل انتهى به الطموح إلى أن يلقي بنبوغه في مدينة يحكمها رجل من قبل كافور؟ إنه أسمى منزلة وأعلى كعباً من أن يخص بمدحه خليفة أو ملكا، فهل ينتهي به الأمر إلى أن يكون ذيلاً في حاشية وآل ليس في العير ولا في النفير؟ إنه كان في طليعة أمره يمدح أمثال هذا الوالي ومن هم دونه. ولكن هيهات! هيهات! لقد تغيرت الحال وتبدّل الأمر، وأصبح لا يرجو المال وقد نال منه كثيراً. ولكنه يطلب الآن ما هو أعظم من المال، وما هو أبقى من المال. ماذا يعمل في دمشق؟ سؤال لم يستطع عنه جواباً بعد أن ردده وردده، حتى إذا يئس، ألقى لفرسه العنان، وعوّل على أن يترك الليالي تلد ما تشاء من عجائب.

بلغ المتنبي دمشق، فاتجه بجواده نحو دار أبي الحسن الممشوق الشاعر، وكانت له به صداقة على قلة أصدقاء المتنبي وخلصائه. وكان أبو الحسن يزور حلب كثيراً، وكان مولعاً بشعر المتنبي، كثير الإعجاب به، حتى سماه أدباء عصره بصاحب المتنبي. وكثيراً ما دعاه أن يزوره بدمشق، فلم يفكر المتنبي ـ حينما عزم على الرحيل إلى دمشق ـ إلا في أن يكون ضيفه، حتى يبتّ في مصيره برأي.

نزل المتنبي أمام دار أبي الحسن، وكانت في سفح قاسيون، فتلقاه صاحب الدار مرحباً، وقد كاد الدهش يعقد لسانه، والفرح يطير بصوابه. ثم قال:

ـ أهلاً بأمير الشعر وفارس البيان، ومحيي ما درس من لغة العرب. من كان يظن أن داري هذه، ستظل أكبر شاعر تتزاحم الملوك على عتبات شعره؟!

ـ إن الملوك الآن لا يتزاحمون يا أبا الحسن، ولـكن الشعراء الذين أرخصوا مواهبهم ونزلوا بفنهم إلى الحضيض، هم الذين يتزاحمون على عتبات الملوك.

ـ هؤلاء يا سيدي ليسوا شعراء. وسيف الدولة يعرفهم واحداً واحداً، ولا يقيم لهم وزناً إلى جانب شاعره المحلّق، الذى ينطق بوحى الحكمة، ويرسل الأوابد التى تعيا بأمثالها العقول.

ـ إن سيف الدولة ليس الآن كما تعهد يا أبا الحسن. إنه قد غيّرته علينا الغير.

ـ غيرته الغير؟ سيف الدولة؟ أكرم ملك عربي وأعظم مقدِّر لعقول الرجال؟!

ـ نعم يا أبا الحسن. وأنا الآن حرّ طليق. وكثيراً ما خطر لى أن أهجر الشعر وأستنجد بسيفى ورمحى، لنيل مطلبى.

فوجم الممشوق، وهز رأسه فى أسى وحزن ثم قال: إن مثلك لا يستطيع أن يهجر الشعر. إنه مزاج روحك، وقطرات دمك. إن الطير لا تستطيع إلا أن تغرد، والمزهر لا يستطيع إلا أن يرنم. وإذا تركت الشعر فإنه لا يتركك أو تتركك أنفاس الحياة. حدثني أبا الطيب بما جرى بينك وبين سيف الدولة. فقصّ عليه أبو الطيب قصته، ولوّنها بكثير من وساوس عواطفه، وتهاويل خياله. فقال الممشوق:

ـ وماذا عزمت أن تفعل يا ابن أخى؟

ـ لم أعقد عزماً لأني وجهت كل همي إلى الفرار من سيف الدولة أولاً. أما ما يكون بعد ذلك، فتركته لتصاريف القدر.

ـ طب نفساً أبا الطيب، فلن يكون إلا الخير.

وشاع الأمر فى المدينة، ولغطت الأفواه بقدوم المتنبى إلى دمشق، وأسرع الشعراء والأدباء والعلماء إلى لقائه بدار الممشوق. فكان بين زوّاره من أعاظم الشعراء: أحمد بن محمد الطائى، ومن كبار العلماء: عبد الرازق الأنطاكى مقرىء أهل الشام، وأحمد الغسانى النحوى، وعبدالله المقرى، وكان يحفظ خمسين ألف بيت من أشعار العرب.

وكان المتنبى على جفوته ونفرته يصطنع البشاشة لزواره، ويتسع صدره لهذرهم. فقد عرف أن بقاءه فى دمشق معقود برضا كبار أدبائها عنه، وتقديرهم لأدبه وخلقه.

وسمع ابن ملك اليهودى ـ وكان عاملاً على خراج الشام من قبل كافور ـ بفرار

المتنبى، فأرسل رسالة إلى مصر على جناح طائر، يخبر فيها كافوراً بوصول المتنبى إلى دمشق فلم يمض إلا ثلاثة أيام حتى وصل إليه جواب من كافور، يلح فيه بأن يعمل كل ما فى مكنته لإغراء أبى الطيب بالقدوم إلى مصر، وأن يبذل له ما شاء من رغائب.

وحينما علم عبيدالله بن طغج، والى دمشق من قبل الإخشيد بمقدمه أرسل إليه أحد كبار حاشيته يدعوه إلى قصره، ويلح فى أن ينزل فى ضيافته. فرأى المتنبى أن من الحكمة ومسايرة الأمور، أن يلبى الدعوة شاكراً. فانتقل إلى قصر الوالى الذى بالغ فى إكرامه والحفاوة به. والإغداق عليه.

وكان مجلس الوالى يجمع فى كل ليلة كبار القواد والعلماء والأدباء. وكان المتنبى فارس الحلبة فى هذا المجلس، وملتقى العيون، وموضع الإكبار، فقال الوالى ذات ليلة موجهاً الحديث إلى أبى الطيب: لم أر أبلغ فى تصوير الظفر والإنتصار من قولك فى سيف الدولة:

وكم رجالٍ بلا أرض لكثرتهم تركتَ جمعَهم أرضاً بلا رجل

فاطرق المتنبى شأن من تعزف نفسه عن أن يسمع مديحه بأذنه، وانطلق الأدباء يبينون ما فى البيت من بديع الوصف، وروائع الخيال. وقال الوالى:

- إن الذى يُمدح بهذا خليق بأن يخلّده الزمان.

وانبرى الطائى يقول: ما دام بيننا أبو الطيب، فلن نحرم سماع مثل هذه الكلم البواقى فى رجال دولتنا. وأسرع الوالى فقال فى خبث واحتيال:

- هذا إذا رأى أبو الطيب فى رجالنا ما يثير شعره، ويحفز شيطانه. إنى حضرت كثيراً من الوقائع، وهزمت كثيراً من الجيوش، ولكن كل ذلك ذهب فى الهواء، لأن شاعراً مثل أبى الطيب، لم يقل فىَّ مثل هذا البيت!

وهنا اتجهت أنظار الجمع إلى المتنبى، كأنهم يقولون بلغة العيون: لم يبق إلا أن تسرع إلى إجابة الطلب، فقد نثر الصائد الحب ووقع الطائر فى الشرك، فليس له من مناص. وبُهت المتنبى لهذه المفاجأة، وتمتم بكلمات مبهمة قد يفهم منها الرضا، وقد يفهم منها الإباء. وتقضى بعض الليل وانصرف السامرون إلى دورهم.

وانفرد المتنبى فى مثواه وقد تزاحمت عليه الهموم، وانتابته الحيرة، واستبد به

القلق. هذا الوالى يريد أن يمدح بمثل ما مدح به سيف الدولة سيّد العرب! يا للهول، ويا للداهية الداهمة! إن من سخرية القدر وأضاحيك الزمان أن يفرّ المتنبى من مدح سيف الدولة، العربى المجاهد، المبسوط اليد، الرحب الفناء ـ ليرغم على مدح ذلك الأعجمى الحقير، الذى لا يقاس بشسع نعل ابن حمدان! ماذا جرى لهذا الفلك الدوار، وماذا أصاب أعين الأقدار، حتى تُنزل أبا الطيب هذا المنزل المهين، وتسلكُه فى سلك صغار الشعراء الذين يمدحون كل من شموا فى يديه رائحة درهم؟! لا إنه لن يهوى إلى هذا الدرك، ولن يقذف بنفسه فى تلك الهاوية. لقد أنف من البقاء بحلب ـ وكان فيها رفيع المنزلة معروف المكانة ـ لأن ابن حمدان كان يتعالى عليه أحياناً، وينظر إليه نظرة الأمير للشاعر. فكيف يستطيع أن يبقى بدمشق شاعراً مغموراً لوالٍ مغمور؟! لا. لا. إنه لم يخلق لأمثال هؤلاء. إنه خلق لتصغر فى عينه العظائم، «وليترك فى الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر» وماذا هو فاعل إذاً؟ ليس أمامه إلا أن يرحل، وإلا أن يفر بنفسه من هذا الهوان. وإلى أين؟ قاتل الله هذا السؤال! إنه يفجأه دائماً حين لا يجد له جواباً. يرحل إلى بلاد الله، وينزل حيث يجد العزة والعظمة والكرامة... ليس شىء أيسر من هذا.

وبينما هو فى هذا البحر المضطرب من الأفكار، إذا عبده مسعود يدخل الحجرة فى هدوء ويقول:

ـ إن ابن ملك يطلب مقابلة سيدى.

ـ ابن ملك؟ من ابن ملك؟ نعم نعم. لقد تذكرت. دعه يدخل.

وكان ابن ملك قصير القامة، نحيف الجسم، يلوح لمن يراه أنه فى سن الأربعين أو جاوزها قليلاً. له عينان يسيل دمعهما من علّة ملازمة، وقد احمرَّت جفونهما. وأنف ضخم، ووجه طويل تعلوه صفرة كدرة. ولحية تغزر عند الذقن، وتخف إلى أن تنمحى فى العارضين. وكان قذر الملابس، زرىّ البزة، له عمامة سوداء، أرسل منها ذؤابتين من شعره تسيلان فوق صدغيه. دخل ابن ملك فسلّم على المتنبى ثم قال:

ـ لقد زهيت الشام بزيارتك يا ابن الحسين. إن صوتك الرنّان سوف يسكت أطيار غوطة دمشق، وإن مصر وهى من أقوى دول العرب ستسير من ظفر إلى ظفر، طروباً مهتزة بأنغام شعرك، الذى يبعث فيها القوة والعزيمة وحب الغلب.

ـ لقد حسن ظنك بنا يا ابن ملك، ولكننا قوم لا نقول حتى نرى، ولا نشيد بمكرمة أو نثنى على فضل، حتى يملى علينا فنكتب.

ـ هذا حق، وهذا هو الذى يصل بشعرك إلى قرارة القلوب، وهذا أيضاً هو الذى حفزني إلى زيارتك الليلة. فقد أرسل إليّ سيدي كافور اليوم بريداً خاصاً لأدعوك اليه، لأنه علم بقدومك إلى دمشق، وهو يريد أن يزيِّن ملكه بفرائد شعرك، وأن يسبق ملوك العرب فى أن يكون بين خاصته أشعر شعراء العرب.

وجم المتنبى حينما دهم بهذا الطلب، فأخذ يتلوى فى مقعده كما يتلوى الملسوع. ثم قال وهو يتصبب عرقاً:

ـ أمهلنى يا ابن ملك حتى أفكر، فإن ارتجال الفكرة فى مثل هذه الأمور قد يكون مدعاة للزلل.

ـ ليس هناك زلل يا أبا الطيب فى الإتصال بملك تعد دولته من أعظم دول العرب.

ـ دعنى الآن يا ابن ملك، فإنى لا أحب الرأى الفطير.

ـ إنى أعجب منك. مَن مِن الملوك تقصد بعد أن نبذت سيف الدولة؟ إن كنت تريد بغداد، فخذها نصيحة من يهودى يرى أن مثلك لا يستطيع الإقامة بها يوماً واحداً. وإن كنت تريد بلاد فارس، فإنك لن تكون فيها إلا «غريب الوجه واليد واللسان». فلم يبق إذاً إلا مصر، ولم يبق إذاً إلا كافور، وهو خير من يقدِّر الرجال. وقد يجد فيك سيدى كافور أكثر مما يجده المرء فى الشاعر، قد يجد فيك ـ وهو ناقد بصير ـ صدق الرأى، وحسن التدبير، وعلو الهمة، فيوليك إمارة تظهر فيها فضائلك، ويتجلّى المخبوء من مناقبك. لا تتردد يا سيدى، إن مصر تسعد كل من دخلها: رحل إليها يوسف الصديق غلاماً مملوكاً، بثمن بخس، دراهم معدودة، فأصبح بعد قليل وزير المال، وصاحب الأمر والنهى فى شؤون الدولة، أقبل يا أبا الطيب ولا تتردد، فإنى أعرض عليك ثروة وعزاً وجاهاً، وربما كنت أعرض ولاية، فانفرجت أسارير المتنبى قليلاً بعد انقباضها، وثارت فى نفسه شياطين الجشع والطموح، ونسى العبد الأسود وما فى مدحه من ذلة ومهانة، فى جانب ما فتح له اليهودى من أبواب المجد والسؤدد والعظمة، التى هي حبيبة لنفسه قريبة إلى فؤاده. فرفع رأسه وتنفّس طويلاً، ثم قال:

ـ سأذهب أولاً إلى الرملة لزيارة أميرها الحسن بن طغج، وبعد ذلك سأرى ما يكون.

ـ هذا حسن. اذهب إلى الرملة يا سيدى، فإن أميرها سيقنعك بأن مصر خير مكان يشرق فيه أدبك، ويصدح فيه شعرك. متى ترحل إلى الرملة؟

ـ بعد غد.

ورحل المتنبى إلى الرملة وأقام فى كنف الحسن بن طغج، فأكرم وفادته ووصله فأجزل الصلة. ولم يتصدَّق عليه المتنبى بعد كل هذا الإغداق، إلا ببعض أبيات فى المديح.

وكتب كافور إلى صاحب الرملة يلح فى قدوم المتنبى، ولبث ابن طغج أياماً يزيِّن إلى أبى الطيب الرحيل إلى مصر، وهو يمانع وينفر كما ينفر المهر الجموح. حتى لان قياده فى نهاية الأمر، حينما أغرته الوعود، وحينما رأى أن الإقامة بالشام لا تستطاع. فشدَّ رحاله إلى مصر فى طليعة جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثلاثمائة. سار إليها يبسطه الرجاء، ويقبضه الإباء وهو يمنِّى النفس ويداعب الأمل:

وحيد من الخلاّن فى كل مهمة   إذا عظم المطلوب قلّ المساعدُ

لقاء

إلى أين تذهب يا أبا الطيب؟ سؤال كثر توارده على خاطر المتنبي كلما طالت عليه الطريق، وهاجت به الذكريات. سؤال كان ينفر من أن يجيب عنه، ويود بنزع الروح لو أنه استطاع أن يلوي عنان جواده إلى بلد آخر، ليستريح من هذا السؤال السمج، ومن تلك الوخزات القاتلة، التي تهلع لها نفسه كلما ألحف هذا السؤال، وألحّ. ما هذا البطر الذي أفسد عليه حياته ورنّق عيشه؟ وما هذه الكبرياء البلهاء التي قذفت به إلى الدمار، وما هذه الكرامة الموهومة التي حدت به إلى الذل والصغار؟ يتكبر على سيف الدولة خير أبناء العربية، وأشجع فرسانها، ويأنف من الإقامة في كنفه بين ظلال النعيم، وفي رحاب العز والجاه العريض. ثم يتدلل فيأبى أن يمدحه إلا إذا استجدى مديحه، ونزل عن جبروته صاغراً ذليلاً! ثم يصول في صلف وعربدة على كل من حوله، فيتسامى على أقارب الأمير، وينهال بهجائه كل شاعر في قصره، ويقذف كل عالم في حضرته بكل قاصمة من السباب! ثم ينتهي به هذا الجنون إلى أي شيء؟ إلى ما هو فيه الآن مما يبكي له الشامت، ويجزع الحاسد. إلى أن يفارق الجنة ليضل في مهاوي الجحيم. إلى أن يهدم كل مجد بناه ويقضي على كل أمل داعبه وناغاه. إلى أن يتسلق إلى الحياة من جديد ولكن في شامخ وعر المرتقى، كثير المزالق، قد ينتهي إلى هباء. إلى أن يمدح ذلك العبد الحبشيَّ الضخم المشافر، المنتفخ البطن المتفلفل الشعر، ويترك سادات العرب وصناديدها لا يجدون لمحامدهم ناشراً ولا لوقائعهم واصفاً. إلى أن يضع رأسه تحت قدمي هذا الزنجي الفدم، بعد أن أنف أن يطأطئه لأعاظم الملوك. إلى أن يقول لليل الدامس أنت البدر المنير،

وللعيّى الجاهل أنت نبراس البيان وخليفة سحبان، وللغبىّ المغفل أنت الحكمة صوِّرت فى إنسان. أهكذا تنتهى به الحال؟ أين شهامته العربية وعزيمته العصامية، وأين أشعاره التى كلها علو وشمم، وشهامة وإباء؟ هل أصبح كل ذلك رماداً ليس به بصيص نار؟! وهل أضت كل هذه المناقب سراباً يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً؟!

يمر كل هذا بخاطر أبى الطيب والجواد يقطع به المفاوز بين الرملة ومصر، فيئن أنين المكلوم، ويزفر زفير المحموم، ولكنه يعود فيمنى نفسه بالأوهام، ويهدِّى من ثائرتها بأضغاث الأحلام، ويتجه نحو زاوية أخرى من زوايا التفكير فيقول:

إن الحزن على ما فات من صفات النساء. والرجل الحق من يتخذ من هفواته سُلماً إلى الفوز. والدنيا فيها الخير وفيها الشر. ولكن العاقل الحكيم من يقلب الشر خيراً، ويبسم للأيام لتخضع له الأيام. ولم لا أصل إلى العبد الأسود إذا كانت آمالي في قبضته السوداء؟ ولم لا أمدحه إذا كان فى مدحه ما يحقق الرجاء؟ الولاية! الولاية هى خاتمة آمالي، ونهاية مطافى ولن أبالى فى طريق نيلها ببذل ماء المحيا والحياة، وتعفير الوجه بتراب أدنى الأدنياء. ولو قيل لي: لن تكون ملكاً إلا إذا مدحت الكلب، وغازلت القرد، لفعلت راضياً مغتبطاً. نعم إنى أبغض الأسود وأشمئز من لقياه، وألعن الزمن الأغبر الذى ألجأنى إليه، وأحنّ إلى سيف الدولة، وأبكى على عهده الوارف الظلال. ولكن ما حيلتى؟ وليس إلى مآربى من وسيلة إلا أن أقصد هذا الكافور؟

ومرت بالمتنبى أيام حتى بلغ بلبيس، وهي أول أملاك مصر فى هذا العهد، ولشدّ ما كانت دهشته حينما رأى الزعيم عبد العزيز بن يوسف الخزاعى يترقّب مروره فى طائفة كبيرة من عشيرته. فلما قرب منه المتنبى تقدم فقبض على عنان جواده باشاً مرحباً، وطلب إليه النزول ليستريح عنده فقبل المتنبى، ورأى فى ضيافة عبد العزيز من الكرم ورحابة الصدر ما فرّج عن نفسه، وأزاح بعض أحزانها.

وجرى الحديث فى أثناء الليل عن مصر وأحوالها، وعن كافور ووزرائه وبطانته، ثم مال إلى ذكر حلب وإلى أخبار سيف الدولة، فقال الخزاعى:

ـ أشهد إنه بطل، وأشهد إنه من العار على ملوك العرب جميعاً، أن يدعوه يناضل الروم وحده، مع ما لهم من عدد وعُدة.

ـ الغيرة والحسد يا ابن يوسف هما اللذان أذهبا ريح الإسلام وأضعفا أمراءه، ومن عجائب القدر أن كثيراً ممن يقدرون في هذه الأيام لا يملكون!

ـ ولكن سيف الدولة من القليلين الذين يقدرون ويملكون لقد كنا نتلقّف ما يحمله إلينا البريد من قصائدك في وصف مواقعه، ولقد كانت والله عجباً من العجب، وسحراً من السحر. لم تركته يا أبا الطيب؟

ـ ذلك حديث طويل يا ابن يوسف. ومن الخير أن يترك الجرح حتى يندمل.

ففطن عبد العزيز إلى أن المتنبى يتألم لهذه الذكرى، فانصرف عن هذا الحديث فيها.

وبزغت الشمس، ورحل المتنبى بعد أن توثقت الصداقة بينه وبين عبد العزيز، وعاهده على أن يكثر من زيارته بالفسطاط. ومضى يوم وبعض يوم، بلغ فيه أبو الطيب باب مصر الشرقى المسمى: باب الصفاء.

كانت مدينة الفسطاط فى ذلك الحين مستبحرة العمران، وافرة الثروة، كثيرة السكان، تشرف على النيل رياضها الباسمة، وقصورها العالية التى قد يصل ارتفاع بعضها إلى سبع طباق. حكى بعض المؤرخين: أن ستة عشر ألف دلو كانت تتدلى من طاقات بيوتها المطلة على النيل. وكانت رائجة التجارة، كثيرة الأسواق والحمامات والخانات والمساجد، التي أشهرها الجامع العتيق، الذى بناه عمرو بن العاص بعد الفتح.

وكان أهلها فى بسطة من العيش، ورغد من النعيم لكثرة الأموال واتساع الخصب وقد كثر بها الأدباء والشعراء، ورحل اليها كثير من أقطاب العلم والأدب فى الشرق، فوجدوا فى كنفها الرغد وطيب الحياة. وكان الجامع العتيق يزخر بالعلماء وطلاّب العلم، الذين وفدوا عليها من أقطار الأرض، لتلقى علوم العربية، وفنون الأدب. وكان بها إلى جانب ذلك مجالس أنس ولهو، ومجانة وشراب، تهوى إليها أفئدة الشباب وتختلف إليها جماعات الأدباء ـ لا تقلُّ عما كانت تزهى به بغداد فى ذلك الحين، إسرافاً وجنوناً.

وكان قصر كافور بخطة سوق العسكر، بالقرب من بركة تجرى فيها الزوارق، وتلتف حولها بساتين ناضرة تعرف بجنان بنى مسكين. وكان القصر شامخ البنيان، ضخم

الأركان، كأنه الحصن العظيم. وقد انتثرت حوله الحدائق الخضر. وانهمرت الجداول المتدفقة. أما أبهاؤه ودهاليزه وقاعاته: فقل ما شئت فى جمالها وبهائها، وزينتها، وما أنفق فى بنائها من أموال يكاد يخطِّها العد. وكانت قاعة الملك كأنها قطعة من ذهب: فسقوفها وحيطانها ونقوشها وتصاويرها كلها من الذهب الإبريز، الذى يكاد سنابرقه يذهب بالأبصار.

جلس كافور الإخشيدى فى اليوم السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثلاثمائة ـ على عرش ملكه، ورجال قصره وجيشه وقوف يحيطون بسريره فى رهبة وخشية، كأنهم يحرسون سراً سماوياً مقدّساً. وجلس إلى يمينه نقيب الطالبيين عبدالله بن طباطبا، فالشريف إبراهيم بن محمد العلوى، ثم صالح بن رشدين الكاتب، ثم الذين يلونهم فى المرتبة من العلماء ورجال الدين. وجلس إلى يساره وزيراه: جعفر بن الفرات، وأبو بكر بن صالح. وقائد عسكره سمول الإخشيدى، ثم من يتلوهم فى المرتبة من رجال الدولة.

وكان كافور أسود اللون، فاحم السواد برّاقه، قصير القامة مترهِّل اللحم، طويل الذراعين، منتفخ البطن، ضخم الجمجمة، أفطس الأنف، مثقوب الشفة السفلى، واسع العينين، صافى بياضهما. تنبعث منهما ومضات فيها دهاء وفيها مكر وخداع.

وكان يحمل فوق رأسه عمامة كبيرة من الحرير الأبيض، المطرَّز بالذهب. ويلبس ثوباً من الخزّ التنيسىّ الثمين، فوقه جبّة من الحرير الأخضر فضفاضة واسعة الكمين.

وكان على الرغم من دمامته وخسة منشئه وجهله، ذكياً متوقد الذكاء، شجاعاً حازماً داهية فى ميدان السياسة. فإنه حينما مات سيده الإخشيد اضطربت أحوال مصر وحَجَلت الفتنة، وتطلعت رؤوس كبار القواد إلى الحكم. فخرج كافور بولدى الإخشيد: أنوجور، وعلى، إلى بغداد. فأقرّ الخليفة الراضى أنوجور على ملك أبيه. واهتبل سيف الدولة فرصة موت الإخشيد فوثب على دمشق، واستولى عليها، فسار إليه كافور فى جيش لجب فهزمه وأجلاه عن المدينة.

وقد حال حزم كافور وعمق سياسته دون زحف المعز لدين الله على مصر، حتى كتب إليه بعض شيعته فى مصر. . . إذا زال الحجر الأسود، ملك مولانا المعز الدنيا كلها. . . ولا يريدون بالحجر الأسود إلا كافوراً.

وكان محباً للأدباء والعلماء، يصلهم ويقرّبهم، وكانت تقرأ عنده في كل ليلة سيرَ الأنبياء، وأخبار الأمويين والعباسيين.

هذا إلى كرمه وتواضعه، وشدة تمسكه بالدين. فقد كان أبو جعفر بن طاهر العلوى يقول: ما رأيت أكرم من كافور: كنت أسايره يوماً فى موكب خفيف وهو يريد التنزه، وبين يديه عدة جنائب بسروج من ذهب وفضة، وخلفه بغال يمتطيها الخدم والعبيد، فسقطت مقرعته من يده ولم يرها خدمه فنزلت عن دابتى وأخذتها من الأرض ورفعتها إليه، فذعر لما فعلت وقال: «أعوذ بالله من بلوغ الغاية. ما ظننت أن الزمان يرفعنى حتى تفعل بى أنت هذا؟» وكاد يبكى. فقلت: أنا صنيعة الأستاذ ووليه. فلما بلغ باب داره ودّعنى، فلما سرت التفت فإذا النجائب والبغال كلها خلفى. فقلت: ما هذا؟ قالوا: أمر الأستاذ أن يحمل موكبه كله إليك. فأدخلته دارى، وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار.

اتجه كافور إلى وزيره ابن الفرات وقال فى صوت خافت:

ـ أظن الشاعر الجديد قد وصل إلى المدينة.

ـ نعم يا مولانا، لقد علمت من بعض الجند أنه وصل الآن.

ـ هل أعددت له كل شيء؟

ـ نعم يا مولانا. لقد أعددت له دار أبي بكر القريبة من باب الساحل، فُرشت بأحسن الأثاث، ووُضع بها من يكفى لخدمته.

ـ هذا حسن. لعله لا يفرُّ منا كما فرّ من ابن حمدان!

ـ إن للشعراء يا مولانا ميزاناً للأخلاق غير الميزان الذى تواضع عليه الناس. فقد قال هذا الشاعر لابن حمدان:

وقيَّدتُ نفسى فى ذَراك محبةً ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا

ولكننا رأيناه يفر منه كما يفر الزئبق من البنان.

ـ ماذا يقصد الشاعر يا جعفر من هذا الشعر الذى ذكرته؟

ـ يقول يا مولانا، إنه قيد رجليه عند ابن حمدان، وإنه لا يرحل عنه لأنه يحبه.

ـ ها ها. فهمت فهمت، وبعد أن قيد رجليه فكّ قيدهما وفرّ. لأنه هو الذى قيد نفسه. أما إذا قيّده غيره يا جعفر، فإنه يصعب عليه أن يفرّ.

ـ لا شك فى أنه سينسى عند مولانا كل ملوك الأرض.

وبينما هما فى الحديث، إذ دخل كبير الحجاب وهو يقول: إن الشاعر المتنبى يلتمس أن ينال شرف المثول أمام مولانا. فرفع كافور رأسه وقال: ليدخل.

دخل المتنبى فى ثياب السفر، بعد أن خلع نجاد سيفه بالباب، فقبّل الأرض ثم أطرق قليلاً، فحيّاه كافور قائلاً: أهلاً بشاعر العرب. أهلاً بأبى الطيب. لقد أبطأت علينا كثيراً، والدولة لا تكمل عظمتها إلا بمثلك. إنك ستكون فى ضيافتى، وأرجو أن تطيب لك الإقامة. أقبل علىّ أبا الطيب، ثم مدّ إليه يده فانكبّ عليها كأنه يريد أن يقبلها، فجذبها العبد منه وهو يقول: أستغفر الله! ثم أشار فأحضر كرسى إلى جانبه، وأومأ إلى أبى الطيب بالجلوس. وهنا قال ابن الفرات:

ـ قد قرأنا ما ورد علينا من شعرك فى ابن حمدان فرأينا فناً جديداً، وروحانية قوية تهز المشاعر، وتثير خامد القلوب. ونرجو أن يتفتّح لك النيل وحدائقه الباسمات عن معان لم تخطر ببال شاعر. إن بمصر يا أبا الطيب كثيراً من الشعراء، وأكثرهم مجيد مبرِّز، وقد رحل عنا منذ قليل أبو نصر كشاجم، وهو شاعر مبدع سبّاق. فمصر اليوم تجرى فى ميدان العلم والأدب مع بغداد فى طلَق، وتكاد تجلّى عليها فى شئون الحرب والسياسة.

ـ علمت أن بمصر شعراء، وأرجوا ألا يكون شأنى معهم كما كان مع شعراء حلب! إن الشعر يا سيدى دولة يأبى رعاياها أن يختاروا لهم ملكاً، ولو أراد الحسد أن يبنى له عشاً ما اختار إلا قلب متشاعر. دعنى من هؤلاء لأننى جئت للأستاذ وحده ولن أقول فى غيره.

ـ لن تقول فى غيره؟!

ـ إن من أدب الشاعر أن ينصرف إلى ممدوحه، فلا يلهج إلا باسمه، ولا يشيد إلا بفضله.

فأربدّ وجه ابن الفرات، وتكلف ابتسامة حاولت أن تمحو ما بدا على وجهه من سماء الغضب، وقال:

ـ وأظن أن من أدب الشاعر أيضاً أن ينصرف عن ممدوح ليمجِّد ممدوحاً آخر،

ويدّعى أن الدهر لم يسمح بسواه! فأسرع أبو الطيب قائلاً:

ـ إن القلب قلّب، والشعر كالناس قد يخطىء أحياناً ثم يصيب شاكلة الصواب. فاتجه إليه ابن الفرات فى نظرتى نمِر، وقال:

ـ أرجو ألا يخطىء هذه المرة يا أبا الطيب! وهنا تحرك كافور من مجلسه قليلاً فوقف من بالقاعة، ووجه الحديث إلى المتنبى قائلاً: يوم الثلاثاء إن شاء الله نسمع إنشاد الشاعر، بعد سبعة أيام. فوقف المتنبى وحيّا فى خضوع ثم خرج.

ذهب المتنبى إلى داره الجديدة وفى رفقته صالح بن رشدين، وكان شاعراً مجيداً، أولع بشعر المتنبى قبل أن يراه، فلما رآه زاد به إعجاباً، وله حباً: أحب فيه الرجولة ومخايل الشهامة، ورأى فيه شاعراً لا كالشعراء، وفى شعره شعراً لا كالشعر، كأنّ ما كان سمعه من شعره صورة لنفسه الطموح وخلقه العظيم، فلما بلغا الدار، شدّ على يده وقال:

ـ لقد أحببتك وهفت نفسي إليك منذ رأيتك يا أبا الطيب. فهل أطمع فى أن تقبلنى صديقاً؟ لقد سمعت حديثك مع ابن الفرات، وعرفت أنك أغضبته، وهو رجل له دهاء الثعلب وفتك النمر، يحوك من خيوط الشمس شباكاً، ويخلق من قطرات الغمام نبالاً، وقد كان يريدك على أن تمدحه فجبهته فى غير رفق، ورددته فى غير إحسان، وهو لن يترك لك هذه، ولو اعتصمت بأسباب السماء. فاحذره يا أبا الطيب، واحذر من تخاطب ومن تعاشر فى هذا البلد. إن العيون هنا تنبثّ فى كل مكان، والجواسيس ينفذون إلى ما لا ينفذ إليه الهواء. احذر أبا الطيب، فإن أصحاب الأخبار فى هذاه الدولة هم المصرِّفون للأقدار، ولهم مناهج يعجز إبليس اللعين عن انتهاجها: يأتون إليك مرة فى صورة الناصح، ثم ضحك وقال: وأخشى أن تعدنى منهم ـ ومرة يشتكون إليك جور الحكام، وأخرى يمدحون أمامك من لا يستحق المدح. فاحذرهم يا أبا الطيب، وانصرف عنهم فى هوادة ولطف، وأرجو أن تتخذنى لك أخاً مرشداً، وخليلاً ناصحاً.

فهز المتنبى يده وقال: إنى أشرف بصداقة سيد شعراء مصر، وسأمشى فى نور هدايتك.

ودخل المتنبى الدار جزعاً محسوراً، فوصف لمحسد كافوراً ومجلسه فقال: دخلت يا بنى على أمة حبلى يسجد أمامها صناديد الأبطال، ويخضع لإشارتها دهاة الرجال.

جلس فوق عرشه، فرأيت فى ثياب أمير قرداً، عيناه عينا ثعلب، وإطراقه إطراق ثعبان. أما ابن الفرات: فثقيل متعالم متعاظم، نظر إلىّ فى كبر وجبريه كأنه ينظر إلى شاعرٍ مجتد أفاق. سُحقاً لهم، وسحقاً للزمان الذى قذف بى إليهم: والله لكأنى أشعر أنى جئت لأهجوهم لا لأمدحهم! وكيف تنبسط نفسى لمديحهم، أو يتحرك لى لسان بالثناء عليهم؟ إن مدح الأسود سيخلق فى الشعر فناً جديداً، أسمعت يا محسد؟ سيخلق فن المديح الهجائى.

ـ كيف يا أبى؟

ـ إنى أعتقد أن لحظات ستمر بى وأنا أقرض الشعر فى الأسود، أنسى فيها نفسى فربما طفرت منى أبيات فى مديحه، هى شرّ من الهجاء.

ـ وماذا تصنع إذا فهم؟

ـ إنه لا يفهم يا أغبى الأغبياء. هات عبدنا مسعوداً وأنشده إحدى قصائدى، فإن فهمها، اقتنعت وأخذت الحذر.

ـ إن مسعوداً لا يفهم.

ـ وإن كافوراً لا يفهم، لأن كافوراً مسعود قبل أن يكون كافوراً، ومسعوداً كافور بعد أن كان كافوراً.

ـ والوزراء والشعراء الذين حوله؟ ألا تخشاهم؟!

ـ اسمع يا بنىّ: إن الكلام الموجّه يفهم من ناحيتين، وهؤلاء لجبنهم وجلالة قدر كافور عندهم، لا يفهمون إلا ناحية المديح.

ـ وإذا فهموا الناحية الأخرى؟

ـ لا أبالى ما يفهمون. إن شعرى لن يكون إلا صورة لنفسى رضى الناس أم أبوا. ولو كنت من الذين لا يقولون الحق الذى تجيش به نفوسهم، لكنت اليوم ملكاً، أتندّر بالأسود الزنيم.

ومر أسبوع صاغ فى غضونه أبو الطيب أول قصيدة فى مدح كافور. وحين حان الموعد غصّ القصر بالأدباء والشعراء، والعلماء. وجلس كافور على عرشه، وقد أحاط به

القواد والوزراء، والأشراف والعلماء، وقوفاً. وقدم المتنبى فانحنى فى إجلال وخشوع، وأخذ ينشد قصيدته فى صوت ندّى حلو النبرات، وكان صدى كل بيت إعجاباً واستحساناً. وطلب بعض الشعراء إعادة بعض الأبيات لرصانتها ولما فيها من تجديد رائع، وفن رفيع. وكان كافور يهز رأسه طول مدة الإنشاد، كأنه أرجوحة طفل عنيد، أبى أن ينام. فلما فرغ أبو الطيب أمر له كافور بعشرة آلاف درهم. وأقبل القوم عليه يحيّونه وينثرون فوقه أزاهير الإعجاب والثناء. وخرج مع الشريف إبراهيم العلوى وهو مطرق الرأس، حزين يهمس بمطلع قصيدته:

كفى بك داء أن ترى الموتَ شافياً وحسـبُ المنـايا أن يكنَّ أمانيا

ضجيج

أثارت قصيدة أبي الطيب ضجةً وصخباً في مجامع العلم والأدب، فلو قيل إن العبيديين زحفوا على مصر من المغرب، ما كان شغل الناس بالخبر واهتمامهم به، فوق شغلهم بهذه القصيدة وما فيها من ومضات فنية، لم يكن لهم بها عهد. ففي القصر يزدحم القواد ورجال الدولة، حول ابن الفرات، وهو يردد كثيراً من أبياتها، معجباً تارة وعابساً تارة أخرى. وفي سوق الورّاقين يتكاثر الأدباء على النساخين ليظفروا بنسخ منها، وإن اشتطوا في الأجر، وغالوا في الثمن. وفي الجامع العتيق يتجمع الطلاب، ويشتد بينهم الجدل في معاني القصيدة ومراميها، وبينما هم في لغط وصراخ، إذ أقبل عليهم أبو بكر الكندي، وكان من أدباء مصر وعلمائها، فصيحاً بارعاً في الحديث واللغة والنحو والأدب، حتى لقد لقِّب بسيبويه، لمكانته في النحو وغريب اللغة. وكانت مع هذا به لوثة جنون، فكان يركب حماراً أكثر أوقات النهار ويدور به في الأسواق، ويتكلم وهو راكب، والناس حوله يكتبون ما يقول.

فلما رأى الطلبة أبا بكر تسابقوا إليه متصايحين: إلينا أبا بكر! إلينا يا صاحب الحمار! فقد اشتد جدالنا في بعض أبيات من قصيدة المتنبي، وعندك القول الفصل، وأنت جهيزة التي تقطع قول كل خطيب.

- إن المتنبي يا أبنائي رجل معروف المكانة ولكن له هفوات في اللغة، وانحرافاً عن الأسلوب السليم. فصاح الجمع: كيف يا أبا بكر؟

- لقد زل في بيته المشهور:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بدُّ

لأن الصداقة مشتقة من الصدق في المودة، والحر لا يصدق في مودة عدوه. والصداقة ضد العداوة، ولا موقع لها في هذا الموضع. فابتدره أحد الطلبة قائلاً: وماذا كان يقول يا أخا الحمار؟!.

- كان يقول:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من مداجاته بدُّ

فصفق الطلاب، وعلا صياحهم في إعجاب وسخرية، فأشار إليهم بذراعيه ليسكتهم. ثم قال: أما القصيدة الجديدة فمطلعها وهو:

«كفى بك داء أن ترى الموت شافياً» لا يصح أن يخاطب به ملك وإن كان كافوراً. وفي قوله:

ولكن بالفسطاط بحراً أزرته حياتي ونصحي والهوى والقوافيا

سخف وتطفل وتعد على الوزراء وكبارالدولة. لأن قوله أزرته حياتي معناه جعلت حياتي تزوره، وليس لهذا المعنى قيمة يتجه إليها شاعر. ثم يقول وأزرته نصحي فيدعي أنه وصل في أصالة الرأي وبعد النظر في السياسة إلى القمة، وأنه قدم من الشام لأن الأستاذ كان في حاجة إلى نصحه وثاقب رأيه، على الرغم من كثرة قوّاده ووزرائه.

فغضب أحد الطلاب وقال: هذا تعصب يا مجنون. فأومأ إليه في حلم وهدوء وقال: أما ثالثة الأثافي فقوله في المديح:

فتى ما سرينا في ظهور جدودنا إلى عصره إلا نرجي التلاقيا

فهل سمعتم أقبح من هذا وأسخف! إن آباءكم أيها الطلبة النجباء من لدن آدم كانوا ينقلونكم من ظهر إلى ظهر، لتتمتعوا بطلعة جمال كافور! ثم انظروا إلى التركيب المعوّج وإلى سوء الأدب في حق ممدوحه حين يقول:

ومن قول سام لو رآك لنسله فدى ابن أخي نسلي ونفسي وماليا

ومستقيم الكلام أن يقول: لو رآك سام لقال أفدي ابن أخي بنسلي. واللئيم هنا يقذف سهماً مسموماً فيلحق ملكنا بأبيه سام الأسود في وقاحة سافرة.

هذا أيها الطلبة بعض ما فى القصيدة التي لهجت بها الأفواه، وتناقلها الرواة، وغالى بها أدعياء الشعر والأدب. ولكنكم يا أهل مصر لا تحبون إلا الجديد، وما أشبهكم ببنى إسرائيل الذين سئموا المنّ والسلوى، واشتهوا على الله الفول والبصل!

وهنا انبرى له فريق كبير من الطلبة يتزعمهم شابٌ كان يعرف بينهم بالذكاء وقوة الشكيمة، حتى لقد كان العلماء يدارونه ويصانعونه، ويتجنبون سلاطة لسانه، فقال له:

ـ هذا نقد زائف أيها الشيخ. وهذا دأبكم دائماً أيها الأدباء الجامدون، لا يلتمع أمامكم من الشعر جديد إلا قطعتم أنفاسكم فى إطفائه. تركت القصيدة كلها يا مولانا، وهى آية خالدة من آيات البيان، وجئت تماحك فى أبيات خيّل إليك سوء فهمك أن فيها متنفساً لحقدك، وكل ما قلته هراء، ولن يضر الشمس ألا تراها مقلة عمياء، ولن يبالى السحاب بنباح الكلاب.

فقهقه أبو بكر طويلاً وقال: إننى السحاب، وأنتم الكلاب! ثم انفتل من بينهم كأن أرضاً ابتلعته.

وفى هذا اليوم كانت تجلس عائشة بنت رشدين إلى جانب شرفتها المطلة على النيل ذاهلة واجمة، وكانت المراكب تتهادى فوق أمواجه تحتها، وقد داعب النسيم شُرعها فى رفق ولين، كأنه زفرة عاشق، أو جسة طبيب حاذق. وانطلقت أصوات الملاحين بالغناء مغرِّدة مطربة فى نغمات اعتادوها، وأغنيات ابتدعوها، فيها شوق وفيها شكوى وفيها حنين إلى الأوطان.

وكانت عائشة بارعة الحسن مشرقة الطلعة، لها وجه صباحى تحيّر فيه ماء الشباب، وتزاحمت فيه صنوف الفتنة: فعينان سوداوان فيهما سحر، وفيهما خمر، لهما نظرات ذابلة يخفضها الحياء، ويعترك أمامها اليأس والرجاء. وأنف تأنّقت فى تكوينه يد الجمال، لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً. وفم ياقوتىّ لؤلؤى ضن على الشفاه بالقبلات، وعلى العاشقين بالبسمات.

وخصر تثبت الأبصار فيه ... كأن عليه من حدق نطاقاً

ثم هى إلى ذلك معتدلة القد، رخيصة الجسم، هضيم الكشح.

لها بشر الدر الذى قلدت به ... ولم أر بدراً قبلها قلد الشهبا

وكانت صورة للعفاف، وتمثالاً للطهر، وملكاً سماوياً كوّن من نقاء ونور.

وقد كثر عشاقها، وتسابق إلى اجتذابها أبناء سراة المدينة وكبار حكامها، فكانت تقابل الإقبال بالإعراض، والرجاء بالإباء، لأنها أنفت أن تكون في طاعة رجل، أو أن يكون جمالها ملهاة للعابثين، ونهباً للواغلين. فتن بها أبو بكر بن صالح وزير كافور، وجنّ بها جنوناً، وأغراها بالمال والجاه، ولم يترك أحبولة لاصطيادها إلا نصبها، ولكنها صدفت عنه في كبرياء، ونفرت كما تنفر مروّعة الظباء.

وقد نشأت عائشة في بيت أدب وشعر، فقد كان أخوها أبو علي صالح بن رشدين من أعظم كتاب المملكة وأبرع شعرائها وكانت داره مثابة لأدباء مصر، فنشأت عائشة في هذا الجو الأدبي كما تنشأ الزهرة على شاطىء الغدير. وثقّفها أخوها فأحسن تثقيفها، وتلقّت من كبار العلماء والشعراء دروساً في الشعر والنحو واللغة، وكان من أساتذتها عبدالله بن أبي الجوع الشاعر الأديب اللغوي. وكانت برزة في النساء لا تحتجب عن الرجال إلا بخمار رقيق أسود تلفه حول وجهها فيبرز كالبدر في محتلك الظلام.

وكثيراً ما حضرت في دارها مجالس للشعراء الذين كانوا يكثرون من ازديار أخيها لكرمه وسجاحة خلقه. وكان أبو بكر بن صالح يدأب على شهود هذه المجالس، عله يظفر من فاتنة لبه بكلمة رضاً أو لمحة حنان، ولكنه كان لا يلقى إلا تجاهلاً وإعراضاً.

جلست عائشة إلى جانب شرفتها وفي يدها ورقة كتبت بها قصيدة أبي الطيب، وكانت تقرأها متئدة مفكرة، وكثيراً ما كانت تهتز في طرب وإعجاب. وبينما هي منصرفة إلى القراءة إذ دخل أخوها وهو يصيح: ألا تزالين تكررين أبيات هذه القصيدة؟!

- لقد حفظتها، إنها إلهام صوِّر في كلام.

- حقاً إنها من عيون الشعر.

- إنه شاعر وفيّ. اسمع يا أبا علي حنينه إلى سيف الدولة، وكيف صاغ هذا الحنين في عزّة الأنوف، وإباء العيوف:

حببتك قلبي قبل حبك من نأى ... وقد كان غدّاراً فكن أنت وافيا
وأعلم أن البين يشكيك بعده ... فلست فؤادي إن رأيتك شاكيا
فإن دموع العين غدْرٌ بربها ... إذا كنّ إثر الغادرين جواريا

إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى   فلا الحمد مسكوباً ولا المال باقيا
وللنفس أخلاق تدل على الفتى   أكان سخاء ما أتى أم تساخيا
أقِلَّ اشتياقاً أيها القلب إننى   رأيتك تصفى الود من ليس صافيا
خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا   لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

أرأيت يا أخى كيف يصاغ الكلام، وكيف ينفث السحر، وكيف يثور العاشق المهجور على قلبه لأنه يحب من لا يفى، ويصفى الود للمماذق الغادر. ثم هل رأيت كيف وخز الشاعر سيف الدولة فى رفق لا يكاد يحس، حين قال إن إعطاءه لم يكن سخاء بل كان تساخياً؟ ثم هل مر بك فى حسن التخلص والإبداع فى مدح السواد مثل قوله:

قواصد كافور توارك غيره   ومن وجد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسانَ عين زمانه   وخلت بياضاً خلفها ومآقيا

قل لى يا صالح: هل حضرت حفل الإنشاد؟

ـ حضرته، وواثقت أبا الطيب على المحبة والإخلاص.

ـ نعم ما فعلت يا أخى، إنه غريب الدار، قليل الصديق فى بلد تنبت فيه التمائم كما تنبت الأشواك.

ـ لقد حذرته من كل ذلك يا عائشة، ولم تعجبنى نظرة ابن الفرات إليه، وظفرت من أبى بكر بن صالح فى المجلس كلمات شممت منها رائحة الحقد والضغن.

ـ بئس القوم! إنهم لا يعيشون إلا فى جو مدنس بالمكر والخديعة. صف لى المتنبى يا أبا على.

ـ إنه صورة للعربى السمح الوسيم.

ـ هل شاع فى شعره الشيب كما يقول؟

فضحك صالح، ونظر إليها نظرة مزجت فيها الدعابة بالاستنكار، ثم قال:

وما لنا الآن بشيب شعره، ونحن نتحدث فى رائع شعره؟ لا يا فتاتى إن شعره لم يطرقه الشيب. وهو الآن فى نحو الأربعين لم تفارقه نضارة الشباب. هل من سؤال آخر؟ سؤال مثلاً عن لون عينيه؟ أو تكوين أنفه؟ أو طول قامته؟

ـ إنك رجل ماجن يا صالح، لا تترك المزح ما وجدت إليه سبيلاً. ثم قامت في عجلة وهي تتصنع الإهتمام بإعداد العشاء.

ومرت أيام كان فيها المتنبي يزور كافوراً في كل يوم، ويلقى من بشاشته وكرمه ما يغرس المحبة في القلوب، ولكن هيهات! فإن المتنبي لا يريد مالاً، ولا يريد بشاشة، وإنما يريد من الأيام ما لا توده، ويسعى إلى منهل يعجز الطير ورده وكان يلتقي في أثناء هذه الزيارات بابن الفرات، فيلبس كل منهما لصاحبه غير وجهه، ويتحدث بغير ما في قلبه. وكثيراً ما شهد المتنبي وفود الشعراء وطلاب الحاجات وهم يردون على ساحة كافور. وحدث مرة أن كان في حضرة الأستاذ وإلى جانبه أبو إسحاق النحوي، فدخل الفضل بن العباس على كافور يحييه، وما كاد يقول: أدام الله أيام سيدنا، حتى خفض ميم الأيام، فابتسم من بالمجلس، ولحظ كافور ابتسام القوم فابتسم، ووقف أبو إسحاق يعتذر عن الفضل ويقول:

لا غرو إن لحن الداعي لسيدنا	وغَصٌ من دهش بالريق والبهر
فتلك هيبته حالت جلالتها	بين الأديب وبين القول بالحصر
فإن يكن خفض الأيام عن غلط	في موضع النصب لا عن قلة البصر
فقد تفاءلت في هذا لسيدنا	والفأل نأثره عن سيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصب	وأن أوقاته صفو بلا كدر

ونبتت أول بذرة للشقاق بين المتنبي وبعض أدباء مصر، وطارت أول شرارة للشر بينه وبين طائفة من شعرائها، حينما دُعي مرة إلى مجلس أبي بكر بن صالح وزير كافور، وكان ابن الفرات حاضراً، وقد غصّ المجلس بالشعراء المتعصبين لأبي القاسم الأنصاري، الذي جاء لينشد أبا بكر قصيدة في مديحه، وكثر لغط الشعراء، وكثرت الإشارة إلى المتنبي، وهمس صالح بن مؤنس في أذن من بجانبه قائلاً:

ـ سيكون هذا اليوم فاصلاً في سمعة مصر في الأدب، ومكانتها في الشعر.

ـ إن أمة أنت شاعرها يا ابن مؤنس لن تلقى بلوائها إلى شاعر آفاق. فظهر الغضب على وجه ابن أبي الجوع وكان صديقاً وفياً للمتنبي، فأشار إليهما بيده في عنف وهو يقول:

ـ ليس للشعر وطن أيها الغبيّان، والعربية وطن لكل عربي. وهنا وقف أبو القاسم

الأنصارى وتهيأ للإنشاد بين نظرات الإعجاب من شيعته، وابتسامات الرضا من أبى بكر وابن الفرات. وما كاد يبدأ قصيدته بقوله:

«نظر المحب لدى الحبيب غرام».

حتى انبرى له المتنبى يخطّئه فى خشونة وجفوة صائحاً: قف يا شيخ! إن العرب لا تقول نظر لدى فلان، ولا تقول غرام لدى فلان، وإنما تقول نظر إليه، وغرام له، إلا إذا كنت تريد أن تجعل من لغة الضاد لغة نبطية.

وهنا أربدّ وجه ابن الفرات لأن أجداده كانوا من النبط، ولم تنل الدهشة من الأنصارى، ولكنه قهقه فى سخرية وقال: لا تجزع يا أبا الطيب فقد فسد كل شىء فى هذا الزمان حتى أصبح مثلك يتبجّح بمعرفة لغة لعرب، ويقول: قل كذا، ولا تقل كذا. إن سمّيك الكندى الفاجر الضليل، لا يجرؤ على أن يدّعى أنه أحاط بالعربية، فكيف بك وأنت لست من ذاك! إن العرب أيها الأصمعى الجديد تقول: نظر لديه وله وإليه، وتقول: غرام لديه وله وإليه، والكلمات ينوب بعضها عن بعض، وإلا فأين التضمين وأين المجاز؟ فقال المتنبى فى حدة: تقول أكلت على الإناء؟

ـ أقول أكلت على الإناء وفيه ومنه. وهنا صفّق أشياع الأنصارى، وتصايحوا فى شماتة ونكر. فلما هدءوا قال ابن أبى الجوع: إذا كان بعض الكلمات ينوب عن بعض فإن هذا معقود بشرط لا بد منه هو أن يكون الأسلوب جارياً مع الذوق العربي السليم، سائغاً فى أذن الأديب البصير بمرامى الكلام. وهنا تسارع القوم إليه فأسكتوه، وشرع الأنصارى فى الإنشاد فأخذ أشياعه يبالغون فى الاستحسان وطلب الإعادة. فلما أتم القصيدة خلع عليه أبو بكر وأجزل له العطاء، فانتحى ناحية من الحجرة وأخذ يدوّن أبياتاً حتى إذ أتمها طلب أن ينشدها، فأذن له، فكان منها:

لما تعرض لى بمقت حاسدى	أبدى الملام وكيف يرضى الحاسد؟
فى مجلس أما الوزير فمنكب	فيه يؤيدنى وأنت الساعد
ولى فما أنا شاكر لسؤاله	يوماً ولا هو بالإجابة حامد

وهنا نظر ابن الفرات إلى أبى الطيب وقال: هذا شاعر هجاء سليط اللسان فخذ حذرك منه يا ابن الحسين.

ـ إنه أقل من أن ألقى إليه أذناً، أو أرفع له قدراً بالرد عليه، ولقد قلت فيمن هم أقدر منه وأشعر:

أرى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمد الداء العضالا؟
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

ثم وقف مغضباً، وانصرف مع ابن أبى الجوع، وقد عرف أن سخط الناس عليه وبغضاءهم له لا يفارقان ظله أينما سار، ولو أنصف نفسه لعلم أن نفسه هى مثار السخط، ومصدر هذه البغضاء. ووَدَّ أن يرحل عن مصر، ولكن ماذا يعمل لهذا الأمل الطائر الذى لا يستقر فى وكن، وذاك الخيال السابح الذى لا ينال بالأكف؟ ليصبر إذاً، وليتحمّل فى سبيل غايته كيد الكائدين ودس الحاسدين. ووصل فى هذا اليوم إلى داره وهو ينفخ من الغضب، ويزمجر زمجرة الليث، وينشد:

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روّى رمحه غير راحم

حب

وبنى كافور داراً جديدة بالقطائع بالقرب من الجامع الأعلى، واحتفل بافتتاحها، ودعا أبا الطيب أن ينشد قصيدة فى الحفل، فقضى يومين وهو فى تردد: أيشير إلى مطلبه الأسمى، أم يترك الأمر إلى حذق كافور وفطانته، فقد بدرت منه كلمات أمّل المتنبى منها خيراً؟

ويعقد الحفل، وينشد المتنبى قصيدته فيبهر الناس بما فيها من جرأة وتدلل على الممدوح حين يقول:

إنما التهنئات للأكفاء ... ولمن يدّنى من البُعداء
وأنا منك لا يهنّئ عضوٌ ... بالمسامرات سائر الأعضاء
مستقلٌ لك الديارَ ولو كا ... ن نجوماً آجُرُّ هذا البناء

وتسير القصيدة فى الأندية والمحافل، وتردّدها الأفواه، ويرفعها نصراء المتنبى إلى قمة لم يصل أليها شعر شاعر، وينزل بها أعداؤه إلى وهدة مالها من قرار. ومن العجب أن ما يستهجنه الأعداء هو بعينه ما يستجيده النصراء. وقف صالح بن مؤنس فى جامع عمرو بين حشد من الطلبة وأخذ يصيح: اسمعوا أيها الطلاّب، اسمعوا اسمعوا هذا الحدث الجديد فى الشعر! وهذا الفتح المبين فى عالم السخف! أسمعتم أيها الأنجاب بشمس منيرة سوداء؟ اسمعتم بمثل هذا التناقض، وبمثل هذا الخلف؟ شمس تضىء وهى سوداء، وليل يظلم وهو مضىء. أسمعتم برجل أعمى وهو يبصر؟ إن لم تكونوا قد سمعتم بشىء من هذا فاذهبوا واسألوا هذا الشاعر الدعىّ المتشدّق، فإنه يقول ويخاطب مولانا:

تفضَح الشمسَ كلما ذرَّت الشمـ   سُ بشمس منيرة سوداء

وهنا يقهقه بعض الطلاب ويصيح: هذا ابتداع جديد، لم تخلق له عقول مثل عقولنا!

ودخل صالح بن رشدين على أخته وكانت تنظر فى رسالة من رسائل الغرام التى يبعث بها إليها أبو بكر بن صالح فى كل يوم ملحاً مستعطفاً، فقذفت بها فى تأفف وسخرية، ثم اتجهت إلى أخيها سائلة: ماذا فى يدك يا أخى؟

ـ القصيدة الجديدة. لقد كان هذا اليوم نصراً مؤزراً لأبى الطيب يا عائشة. فقالت فى تطلع وشوق:

ـ كيف؟

ـ قصيدته فى الدار الجديدة.

ـ ليس عندى شك فى أنها ستكون درَّة نادرة.

ـ إن فيها بيتاً لم يخفض جناحه لشاعر من قبل. أسمعت بمثل قوله وهو يخاطب كافوراً:

تفضح الشمس كلما ذرت الشمـ   س بشمس منيرة سوداء

ـ الرنين الرنين!! الرنين يا صالح!!

ـ لا تقولي الرنين يا عائشة. قولى المعنى قولى الخيال الغريب! أليس عجيباً أن يجرؤ شاعر على أن يطرق هذه الناحية الدقيقة المحفوفة بالمخاوف فى مدح أسود؟ ولكن أبا الطيب طرقها غير هيَّاب، وتحدَّى من قبله من الشعراء الذين أكثروا من تشبيه وجوه ممدوحيهم البيض بالشمس. فهو يقول إن كافوراً يفضح الشمس كلما طلعت، بشمس منه من نوع جديد، هى شمس سوداء، ولكنها على سوادها تفوق شمس السماء فى إنارة طريق الحق للضالين، وفى رفعة أوجها وبعد منزلتها. أرأيتِ شاعراً فى القديم قال ما يشبه هذا؟

ـ لا يا أبا علىّ هذا خلْق جديد. ثم اخذت منه الورقة، وجعلت تقرأ حتى بلغت آخرها فقبضت على ذراع أخيها وهى تقول: اسمع يا صالح إن الرجل بعيد المطامع، إنه يطلب من كافور شيئاً عظيماً فليت شعرى ماذا يكون؟ ثم أخذت تقرأ:

يا رجـاء العيون في كل أرض ... لم يكن غير أن أراك رجائي
ولقـد أفنـت المفـاوز خيلي ... قبـل أن نلتقـي وزادي ومائي
فـارم بي ما أردت مني فإني ... أسـدُ القلـب آدمـيُّ الرواء
وفـؤادي من الملـوك وإن كا ... ن لسانـي يرى من الشعراء

ماذا يريد يا صالح؟ فابتسم ثم قال:

ـ إنه يقول إن فؤاده من الملوك، وأخشى أن يجد أعداؤه من مثل هذه البوادر منفذاً للكيد له عند كافور. فتجهّم وجه عائشة وهزّت رأسها وهي تقول:

ـ ما أكثر الدسائس في هذا البلد الخصيب! ثم التفتت إلى أخيها قائلة: علمت بما جرى للمتنبي من تألب الشعراء عليه في مجلس أبي بكر بن صالح، ومن انتصاره لهم. وا أسفاه للشاعر الغريب بين هؤلاء الكلاب السود! هلاّ دعوته غداً أبا عليّ لنشعره بالأنس، ولنخفف عنه بعض ما يلاقي من الوحشة والضيق؟

ـ سأدعوه غداً، وسأدعو معه جملة من الشعراء والأدباء، وستكون ليلة لاهية عابثة، ينسى بها كل ما ينتابه من هموم، وستطربنا «خمر» المغنية، وسننسى عقولنا، ونفرّ من هذا الوقار الملعون الذي أشاب نواصينا قبل الأوان. فضحكت عائشة وقالت: إنني لا أحب هذا الصخب ولا تلك العربدة، ولكنكم معشر الرجال لا تنسون أبداً أنكم كنتم أطفالاً.

وذهب ابن رشدين إلى دار المتنبي فرأى عنده الشريف إبراهيم العلوي وعبد العزيز الخزاعي زعيم العرب ببلبيس ثم بعض المعجبين به من الشعراء كابن أبي الجوع وابن أبي العصام. وكان المتنبي يحدثهم في حروب سيف الدولة، وكيف خاض كثيراً منها، وكيف لاقى الموت في بعضها. فلما فرغ من الحديث اتجه ابن رشدين إلى من بالمجلس وقال: لقد جئت لأدعوكم مع أبي الطيب للعشاء بداري غداً، وترجو السيدة عائشة ـ التي تقدر أدب ابن الحسين وشعره ـ وأرجو معها، أن تنال هذه الدعوة منكم قبولاً. فأجاب الشريف:

ـ إن السيدة عائشة زهرة مصر الناضرة، ونجمها الساطع، ومثلها في طيب عنصرها وعلو منزلتها في الشعر والأدب لا يردّ له دعوة. سمعاً وطاعة يا ابن رشدين. وقال المتنبي:

ـ إنني رجل جد وصرامة خلق، وأخشى أن مثلي لا يجد له نصيباً في مجلس ربات الحجال. فقال الشريف:

- إن أديبتنا تعشق النفوس قبل الوجوه، وترى جمال العبقرية فوق كل جمال. فلتكن خشناً كما تحب أن تكون، فإنها ستخلّص ما فيك من ورد مما اشتبك به من أشواك. وابتسم المتنبى وهزّ رأسه لابن رشدين بالقبول.

وقدم المتنبى إلى دار ابن رشدين بعد الغروب فاستقبله صاحب الدار، وتقدمت إليه عائشة فمدّت إليه يدها مرحبة محيّية، ونظرت فإذا هى أمام صورة للعظمة العربية والرجولة المتوثبة، ورجعت البصر فرأت ملامح بطولة، ومظاهر عزيمة تتحطم دونها آمال النساء.

أخذت عائشة تحادثه وقلبها يخفق، ولسانها يتعثّر، لقد هجم عليها شعور لم تعرف له من قبل مثيلاً، وأصابت جسمها رعدة لم تدر لها تأويلاً، إنها تحسّ بسرور يسرى فى أوصالها ولكنه سرور ممزوج بخوف، مصحوب بما يشبه الألم. وتتخيل كأن ناراً تأججت فى فؤادها فأخذ يضطرم بنوازع مجهولة مبهمة، وتدرك لأول مرة أنها أنثى، وأن عاصفة هوجاء تدفعها إلى التشبث بالرجل الجالس إلى جانبها، لتجد تحت جناحه الدفء والأمن والنعيم. ما هذه النازعة الجامحة التى جرفتها، وعبثت بها كما تعبث الرياح بأوراق الشجر؟ وما هذا الطارىء المفاجىء الذى دخل قلبها بلا استئذان فاستبد بكل ما فيه؟ أهذا هو الحب؟ إن كان إياه كان شديد البطش، سريع الأخذ، جباراً لا يرحم، وغازياً لا يبقى على جريح.

جلست عائشة إلى جانب المتنبى ذاهلة اللب مبددة الفكر، ولكنها بعد حين استطاعت أن تجمع أشتات خواطرها وأن تنفض عنها قطرات الموجة التى غمرتها، ثم اتجهت إلى المتنبى وقالت:

- لعلك رأيت يا سيدى فى مصر ما يسليك عن الشام؟

- لقد كان عيشى بالشام رغيداً، وكنت فى كنف مُلك عربى مجاهد، ولكن آدم ورّث أبناءه السخط على النعيم، وعلمهم مفارقة الجنان.

متى تسمعنا قصيدتك الثالثة؟

- حينما تسنح الفرصة، وتهفو النفس إلى قول الشعر.

- لو كنت أبا الطيب المتنبى، أو لو كان لى بعض تلك الهبة الغالية التى أنعم الله بها عليك، لملأت جنبات الوادى تغريداً، ولزاحمت الطيور فى أوكارها، ولهززت الأغصان

فى أدواحها، ولأسمعت النيل فى كل لحظة ألحاناً تكاد ترقص لها أمواجه ويقف تياره. عجيب شأنكم أيها الشعراء! تضنون بفيض الله على خلق الله. لقد منحتم هبة ما بذلتم فيها جهداً، ولا مددتم لأخذها يداً، وهى نبع لا يغيض، وكنز لا يفنى، وهبها لكم واهب الجود وخالق الوجود. ومع هذا تمر الأيام أو الشهور فلا نسمع لكم إلا بيتاً أو أبياتاً قصاراً! إنى أعذر الشحيح بماله لأنه جمعه ببذل الجهد، وإضناء الجسم والنفس، وإراقة ماء الوجه، ووصل الليل بالنهار، فهو به ضنين، وعليه حريص. أما أنتم فما عذركم فى الضن؟ وما حجتكم على المنع؟ ثم ابتسمت لأبى الطيب واستمرت تقول: دعنى أعاتبك يا أبا الطيب: أقمت بيننا أشهراً فما اهتزت شاعريتك لوصف ما ترى من روائع المشاهد، ولا اجتذب نظرك جمال يوقظ فيك وسنان القريض! أين من شعرك النيل وأمواجه، وسفنه السابحات، وهو يتهادى بين الشاطئين كالملك بين رعيته، يجود على الأرض بمائة تبراً، فتنثر عليه من أزهارها ياقوتاً ودراً؟ وأين من شعرك تلك الأهرام العاتية التى لم ينحن ظهرها لعواصف الدهر وأحداث الزمان، والتى لو تحدثت بأخبار الملوك الذين أقاموا فى ذراها، والجيوش التى مرّت بها، لسمعنا حديثاً عجباً يهدى إلى الرشد؟ أين من شعرك رياض مصر الباسمة ومروجها الفاتنة، ونخيلها الباسقات، وأدواحها الظليلات؟ أحب يا أبا الطيب أن تكون شاعر الدنيا لا شاعرالملوك. أحب أن تصوّر لنا الحياة حلوة لذيذة كما نحب أن تكون. أحب أن يكون فى شعرك أمل اليائس، وعُلالة العاشق، وسلوة الحزين، وهداية الحائر. إن الشعر دنيا جديدة خلقها الله للناس ليفروا إليها كلما ضاقت بهم دنياهم، وجعل مفاتيحها فى أيدى الشعراء، فافتح للناس يا سيدى من أبوابها ما ينقذهم مما هم فيه من بؤس وشقاء! صوّر لهم جمال الحياة يا أبا الطيب تصويراً يحبب إليهم الحياة، واخلق لهم من رائع خيالك كوناً جديداً فقد ضاق بهم على اتساعه هذا الكون اللعين.

كان أبو الطيب مطرقاً معجباً بما يسمع، وكلما رفع بصره رأى جمالاً أعجب مما يسمع وأروع، فثارت فى نفسه ثائرة واهنة القوى من الميل، ولكنها لم تجد السبيل إلى قلبه المملوء بالمطامع والآمال. فاتجه إلى الفتاة وقال: إن فيما قلته كثيراً من الحق يا سيدتى عائشة، غير أنك ظننت أن الشاعر يستطيع أن يقول كلما أراد، ويستطيع أن يجيد كلما أراد، وصوّرت الشعر نبعاً ليس على الشاعر إلا أن يملأ منه الوعاء ثم ينثره على الناس، ومزماراً يكفى أن ينفخ فيه الشاعر فيأتى بأبدع الألحان. لا يا سيدتى إن الشعر صعب المرتقى، بعيد الملتقى. إنه طائر حذر خدّاع، طالما زحفت إليه على ركبتى ليلة

كاملة فى خفوت وتؤدة، ففرّ من يدى، ثم سمعته عند الصباح يغرّد شامتاً مع طيور الصباح. ورب قافية أعالجها فى صبر وجلد كما يعالج الملاح سفينة فى بحر مائج، فلا أكاد أظفر بها إلا بعد أن تكون قد تقطعت حبالى وتكسّر شراعى. ليس الشعر بالسهولة التي تظنينها يا سيدتى عائشة، وإلا هان أمره، وكسدت سوقه، لأن قيمة كل شيء بما يبذل فيه من جهد، وكلما صعب منال الشيء غلا ثمنه وكثر التنافس فيه. أما أنى لم أصف مشاهد مصر، ولم يهزنى نيلكم الفياض، ولا هرمكم الرابض فى ذيل الصحراء، ولا حدائقكم الزاهية الفيحاء، فلو تعلمين ما بى لأقللت من ملامى. أنا فارس يا سيدتى قبل أن أكون شاعراً. ثم نظر إليها طويلاً وقال: أنا رجل جمّ المطامع بعيد المرامى. إن لى فى الحياة مطلباً أسمى، طالما خفت أن يطغى عليه الشعر فيهدىء من عزمته، ويقصر من وثبته، وطالما خشيت أن أقنع عنه بالشعر فأخرج من هذه الدنيا ولم أعمل شيئاً إلا أن يقول الناس: كان أبو الطيب شاعراً مجيداً. أنا لا أريد هذا يا سيدتى. لذلك اقتصرت من الشعر على القدر الذى يكفى لبلوغ ذلك المطلب، ونيل تلك الغاية. هذا سر لم أذعه إلا لك. ثم ابتسم وقال: واعلمى أنى لم أقصد الملوك إلا لأكون كالملوك. فنظرت إليه عائشة نظرة فيها ذهول وفيها حيرة وقالت: أنت بنيل هذه الآمال البعيدة حقيق يا أبا الطيب.

وهنا أقبل الجمع عليهما، ومدت الموائد وفوقها كثير من ألوان الطعام، فأكلوا بين الأفاكيه والطرف النادرة. ثم جىء بأوانى الشراب، ومر السقاة على جماعة الشاربين، فأبى المتنبى أن ينال من الخمر شيئاً، وألح عليه القوم فلج فى الإباء، وطلبوا من عائشة أن ترجوه أن يشرب فأبت، واصطف القوم حول خمر المغنية فأصلحت عودها وغنت بقول ابن رشدين:

قل لمولاى منعما ... لِمْ هجرت المتيما؟
أنت أعطشتنى إليـ ... ـك وأبكيتنى دما!

وكانت لؤلؤية الصوت، حلوة المذهب، فتملك الطرب القوم، وزادت النشوة فى صخبهم. والمتنبى هادىء مطرق، كأنه لا يشعر بما حوله. ثم طلب منها الجمع أن تغنى بشعر لابن أبى الجوع فانطلقت تغرّد:

يا أطهر الناس روحا ... وأطيب الناس راحا
هات اسقنى أو ترانى ... لا أعرف الأقداحا

فماج القوم من الطرب، وقذف بعضهم بالعمائم، وقام سكران يلحّ على أبي الجوع فى أن يشرب حتى لا يعرف الأقداح ثم غمز ابن رشدين لخمر بعينه متجهاً نحو المتنبى فأخذت تصدح :

لبِسْنَ الوشىَ لا متجملاتٍ ولكن كى يصنَّ به الجمالا
وضفرن الغدائر لا لحسنٍ ولكن خفن فى الشعر الضلالا

وكان القوم يتمايلون مع الأنغام، لجمال المعانى وحسن الإيقاع. والتفتت عائشة إلى المتنبى وهمست:

ـ هذا غزل من القلب يا أبا الطيب، وليس تصوير فنان فحسب، لأنى أحسّ فيه حرقة العاشق. فالتفت إليها وقال:

ـ هذا شعر الشباب يا سيدتى فضحكت فى دهش وقالت: عجيب أن تدَّعى مفارقة الشباب وانت لا تزال فى ربيع الشباب الزاهر.

ـ ولكن مطامعى تغرى بى الشيب والهرم، فأسرعت تقول:

ـ دع مطامعك الآن لأننا لم نتبذّل هذه الليلة إلا لنذهب عنك الوحشة والهموم.

ـ جزاك الله خير الجزاء يا سيدتي. وبعد أن طال به المقام طلب الإذن بالإنصراف، فقام الجمع احتفاء به، وأمر ابن رشدين عبيده بالسير فى ركابه، وخرج مشيّعاً بالإجلال.

وتفرّق القوم، وانفض سامر اللهو، وصعدت عائشة إلى حجرتها لتستريح بالمنام إذا ظفرت بالمنام. ولكنها جلست فى سريرها ذاهلة اللب، مروّعة القلب، تتقاذفها الأوهام، وتعبث بها الظنون، ما هذا الهجوم العنيف الذى غزا فؤادها دون أن تعد له العدة أو تأخذ الأهبة؟ لقد كانت طول حياتها تعتز بأن قلبها حصن لا ينال، ونجم لا تمتد إليه أمنيات الخيال، وتفاخر بأنها برئت من غرائز النساء التي تدفعهن إلى الإستجابة إلى إشارات الرجال الآثمة، وأعينهم الخائنة. تلك الغرائز التى تبيع الجمال رخيصاً، وتمزق الحياء كما يمزق البرق حجب الغمام. كانت تخالط الرجال وتجالسهم فى مجلس اللهو حيناً، وفى مجالس الأدب أحياناً، وهي كأنها الملك السماوى الطاهر، الذى خلقه الله من نور، وطهّر قلبه من وساوس الإثم ودنس الشهوات. فكانت العيون تغضى أمام جمالها إجلالاً، والنفوس تسجد عند مشاهدتها خشية وخشوعاً، ولم يخل مجلس من تحدث الناس بطهارتها وعفافها، وصون جمالها البارع من أن تمتدّ إليه يد

طامع. وكانت نساء المدينة وبناتها ـ على رغم الحقد الذى يأكل قلوبهن ـ لا يملكن إلا أن يطأطئن لهذا الجمال المترفع عن أن ينزل فى سوق المساومات، أو تنهشه أعين الخاطبات. وكم حام الشبان حول قدسها فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. وكم بذل أبو بكر بن صالح ـ أعظم رجل فى الدولة بعد ابن الفرات ـ من وسيلة، وكم ساق من رجاء، وكم تساقطت دموعه على قدميها، فلم يجد منها إلا الرفض والجفاء.

طافت هذه الخواطر بعائشة وكانت تودِّع كل موكب من مواكبها بدمعة حزن وزفرة أنين. ثم عادت تقول:

ماذا جرى لعائشة النافرة الشموس؟ كيف ذلت لسلطان هذا الرجل؟ وكيف قذفت بكبريائها لتلاقى من كبريائه صخراً أصمّ، لا تزعزعه عواصف الغرام. إنها فتحت له قلبها هذه الليلة فأغلق فى وجهها كل باب. وبدا من جمالها ما يكفى لإثارة أبى الهول، ولكنه ظلّ بجانبها جامداً كأنه كان ينظر إلى عجوز ورهاء، ويلى من الحب ويلى! لقد صنته عن كل محب معمود يستعذب الموت فى حبى، لأقذف به بين يدى شاعر لا يحسّ! رفضت الجاه والمال والشباب والوسامة لأبيع نفسى رخيصة مزجاة لرجل جوَّاب آفاق جاوز الأربعين! ثم من هذا الرجل؟ إنه ينظر إلىّ كما ينظر إلى لعبة لم يحكم صنعها، ويستمع لى كما يستمع لبعوضة تطنّ، ويستدبر محراب حسنى كافراً جحوداً، لا يؤمن بجمال ولا تهزه عاطفة. ويلى من الحب ويلى! ماذا يقول الناس؟ وبم تتحدث السوامر؟ سأكون سخرية المجامع، ومتندر المحافل، وسيقول النساء إن عفافها كان رياء، وتبتلها كان مينا وزوراً. ثم أطرقت طويلاً ورفعت رأسها كأنها أفاقت من حلم مزعج وقالت:

ومالى أهتم بحديث الرجال وثرثرة النساء؟ إننى أحببت رجلاً عظيماً، وتعشقت فناً رفيعاً، إننى نفرت من جمال المادة المظلمة، إلى جمال الروح الوضاءة. إننى لا أحب العيون الدعج، ولا الحواجب الزُّجّ، ولا الثغر اللؤلؤى، ولا القوام السمهري، ولكنى أحب العبقرية المتلألئة، والنبوغ الفاتن، والرجولة الوثابة، والنفس الطموح. إن أحمد بن الحسين رجل لا كالرجال، فليس بدعاً أن يكون حبى له حباً لا يشبهه حب، ولا يماثله غرام. وإذا كان قلبه اليوم لا يستجيب للحب فإن طول المعاشرة قمين بأن يلين قياده، ويروِّض صعبه، حتى يصبح طيّعاً ذلولاً. إنه بعد الليلة سيكثر من زيارتنا وسيجد من الأنس بنا ما يرسل نفسه على سجيتها، ويطلق عواطفه المكبوتة، والزمان طبيب كل شيء فى هذه الدنيا، وقاهر كل جبّار، حتى لو كان أبا الطيب المتنبى. ثم أغمضت عينيها فسبحت فى عالم فسيح من الأحلام.

ومرّت الأيام وكان أبو الطيب يمر بين الحين والحين بدار ابن رشدين، ويجد من رقة عائشة وأدبها وروعة جمالها ما يملأ قلبه سروراً. وجلس مرة إليها يسمعها قصيدته التى سينشدها كافوراً، فلما بلغ قوله:

كم زورةٍ لك فى الأعراب خافيةٍ أدهى وقد رقدوا من زورة الذيبِ
أزورهم وسوادُ الليل يشفع لى وأنثنى وبياضُ الصبح يغرى بى

نظرت إليه وقالت: متى كانت هذه الزورة يا أبا الطيب؟ فالتفت إليها باسماً وقال: هذه زورة الخيال يا سيدتى. فإن رجلى لم تحملنى مرّة إلى فاحشة، فضحكت وقالت: صدق الله العظيم: «والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون» ثم انطلق يقرأ حتى إذا بلغ قوله:

ما أوجهُ الحضر المستحسناتُ به كأوجه البدويات الرعابيب
حسنُ الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

صاحت عائشة فيما يشبه الهلع وقالت: أنظر أبا الطيب، فهل ترى فى وجهى تزييناً أو تطرية؟ فأطرق قليلاً، وكأنه ظن أن حديث الأدب سينحرف إلى غير وجهه، وقال:

ـ إن حسنك من صنع الله يا سيدتى، وأرجو أن يصونه الله.

ـ إن هذا الحسن يهيم بحسن آخر لا يرى بالعين.

ـ يهيم بحسن لا يرى بالعين؟

ـ نعم يهيم بحسن الروح وجمال العبقرية.

ـ هذا خير أنواع الحب.

ـ ولكن صاحب هذه العبقرية نفور شامس لا يريد أن يلقى عناناً، فأطرق المتنبى ثانية وقال:

ـ يا عائشة إن قلبى نهبته المطامع، وتقسمته الآمال، وأخشى ألا يجد فيه الحب متسعاً للهو والمرح.

ـ إن حبنا حبٌ قدسيٌ ملائكى، ليس فيه إربة للهو والمرح.

ـ قد كنت دائماً أزود عنّى طائر الحب خشية أن يصدّنى عمّا يعتلج فى نفسى من مطامح، وحينما رأيتك أوّل مرّة التمع فى قلبى بصيص من الهوى فأخمدته، وصاح صوت فى أعماق

نفسى فأسكته، ذلك لأنّى رجل وهب حياته للمجد، وألقى بنفسه بين شفار السيوف.

تغـرب لا مستعظمـاً غيرَ نفسه ... ولا قابـلاً إلا لخالقـه حكما
ولا سالـكاً إلا فؤاد عجاجة ... ولا واجـداً إلا لمكرمـة طعما
يقولـون لى ما أنـت فى كل بلدة؟ ... وما تبتغى؟ ما أبتغى جل أن يسمى!

- إنى لا أحبك إلا لهذا ومثله. أحبك حباً عذرياً قدسياً تنزه عن دنس الدنيا، وسما فوق كل مأرب، فهل تعاهدنى على هذا؟

- أعاهدك يا سيدتى، إن مثل هذا الحب هو الذى طلبه أكثر الناس فلم يجدوه فزهدوا فى الدنيا، وزهدوا فى الحياة. وإن مثل هذا الحب هو الذى ينفخ فى المرء روحاً علوية تدفع به إلى عظائم الأمور، وتنير له طريق المجد، الآن أصبحت مصر لى جنة بعد أن كانت جحيماً، والآن أجد ما يعزينى فى هذه النكبة الفادحة، التى قذفت بى إلى مصر لأمدح الأسود.

وبعد قليل خرج وعطفه يهتز تيهاً،ووجهه يفيض بشراً، ولعله كان يقول:

يردُّ يداً عن ثوبهـا وهـو قادر ... ويعصى الهوى فى طيفها وهـو راقد

دسائس

مرت شهور والمتنبى ينعم بحبه ويكثر من ازديار صاحبته، وشاع بين الناس أمر حب عائشة له، وتحدّث بذلك الأدباء فى مجالسهم. ودهم الخبر أبا بكر بن صالح فصعق له، وغلى مرجل غيظه، وكان ذلك حين دخل عليه ابن الفرات يوماً وهو يقول باسماً:

ـ لقد طار عصفورك من القفص يا أبا بكر.

ـ ماذا تقصد يا جعفر؟

ـ أقصد أن نسراً جارحاً طار إلينا من الشام، ثم ما زال يحوّم حول العصفور حتى اختطفه، وأنشب فيه مخالبه.

ـ أفصح بالله يا ابن الفرات.

ـ إن المتنبى سبى قلب عائشة، أو هى التى سبت قلبه، وقد علمت أنهما يلتقيان فى دارها كل مساء، لرواية الشعر والتحدث فى الأدب.

ـ ممن علمت هذا؟

ـ من أهل مصر جميعاً، فإن الأمر لم يعد سراً، وإن الصبيان في الأزقة يتغنون بهذا الحب، ويلفقون له أغانى وأهازيج يترنمون بها. أفق يا أبا بكر فما يوم حليمة بسر.

ـ العابثة الماجنة! لقد قلت حينما ازدرت حبى، وسخرت من دموعى، إنها امرأة شاذة لا إربة لها فى الرجال، فكيف تهفو الآن إلى هذا الأفّاق، وتبذل له أغلى كنوز مصر؟ ويل لهما منى!

ـ رفقاً بالفتاة يا أبا بكر، فإن قلوب النساء من قوارير، وصعب النساء إلى مياسرة، كما يقول أبو نواس الخبيث، وماذا تفعل أية فتاة حيال إغراء شاعر فتّاك يمزق أفئدة النساء كما يمزق رسالة طال عليها العهد؟

ـ لا بد من الانتقام من هذا الوغد اللئيم.

ـ وكيف ننتقم منه؟

ـ الأمر فى غاية اليسر، فإن فى شعره الذى يتبجح بالإجادة فيه حبالاً تكفى لخنقه.

ـ كيف؟

ـ هذا ما ستعرفه يا ابن الفرات. أين مولانا الأستاذ الآن؟

ـ فى قاعة الحكم.

ـ هلم بنا إليه. وانطلقا مسرعين وأبو بكر يتحرّق غيظاً، وابن الفرات يبتسم فى شماتة، لدنو ساعة انتقامه من المتنبى، لأنه تعاظم عليه، وتسامى عن مديحه. ودخلا على العبد فابتسم لهما ابتسامة الأفعى. ثم قال:

ـ أهلاً بالوزيرين! هل من حاجة؟ فانطلق أبو بكر يقول هذا المتنبى الشاعر يا مولانا أخشى أن يثير قدومه علينا شراً مستطيراً.

ـ وأين عيونك وجواسيسك؟ وأين أصحاب الأخبار الذين تباهى بأنهم يعلمون همسات الصدور، وخلجات الخواطر؟

ـ من هؤلاء يا مولانا علمت كل شيء.

ـ ماذا علمت؟

ـ علمت أنه يتصل فى السر بفاتك عدوّك اللدود، وأن الرسل بينهما جائية ذاهبة، وأنه اجتمع به منذ أيام فى الصحراء بين مصر والفيوم، فى جنح الليل البهيم، وأنه جرت بينهما محادثات، وأخشى أن أقول مفاوضات.

ـ فاتك المجنون؟

ـ نعم يا مولانا هو فاتك نفسه الذى حاول أن ينازعك الملك والوصاية على ابن مولانا، فنفيته إلى الفيوم.

ـ وفى أى شىء يفاوضه هذا الشاعر؟

ـ يفاوضه فى الملك. يفاوضه على أن الدولة ستكون بينهما بالسوية: لفاتك قيادة الجيوش، ولهذا الأفاق حكم البلاد وسياستها.

وهنا أكفهر وجه كافور، وأخذته رعشة من الغضب حاول كبتها. ثم قال:

ـ وأين يذهب كافور؟

ـ هذه يا مولانا أوهام لا يمكن أن تحقق، وإن سيوفنا وقلوبنا سور حول عرشك الكريم.

ـ هذا المتنبى لم يفتر منذ قدم علينا من مضايقتنا، والإلحاح علينا فى أن نوليه ولاية، كأنه جاء إلى مصر فاتحاً لا شاعراً مستجدياً. لقد أكرمنا وفادته، وأجزلنا له الصلات، ونثرنا فوقه الذهب والفضة، ولكن شيئاً من هذا لم يقنعه، ولم ينهنه من عزيمته. وإنى أعرف هذا الصنف من المخاطرين إنه ـ فيما يزعمون ـ ادّعى النبوة، وهل يصعب عليه إذا نال ولاية أن يدعى ملك مصر كلها؟!

ـ إن كل قصيدة له فى مدح مولانا ليست إلا إلحاحاً فى طلب هذه الولاية، ولا يقصد اللئيم من هذا إلا أن يصارح الناس بأن مولانا لا يستحق المدح، وأنه إنما دفع إلى مدحه ليتوصل إلى مآربه. ثم إنه يتدرج فى شعره مطالباً بهذه الولاية تدرجاً خبيثاً، وأعتقد أن مرماه البعيد أن يجعل من هذه الولاية ذريعة لالتهام مصر. يقول أولاً:

يأيها الملك الغانى بتسمية ... فى الشرق والغرب عن وصف وتقليب
أنت الحبيب ولكنّى أعوذ به ... من أن أكون محباً غير محبوب

ثم يلحف فى قصيدة أخرى فيقول:

فإن نلتُ ما أملت منك فربما ... شربت بماءٍ يعجز الطير ورده
ووعدك فعل قبل وعد لأنه ... نظير فعال الصادق القول وعده
إذا كنت فى شك من السيف فابلهُ ... فإما تُنفيه وإما تعدُّه
وما الصارمُ الهندىُّ إلا كغيره ... إذا لم يفارقه النجادُ وغمده

ثم تدفعه العجلة وتزجه المطامع إلى أن يقول فى قصيدة أخرى:

ولو كنت أدرى كم حياتى قسمتها ... وصيرتُ ثلثيها انتظارك فاعلم
ولكن ما يمضى من العمر فائتٌ ... فجد لى بخطّ البادر المتغنم

وقد بلغ القمة فى الإلحاح وسوء الأدب فى حق مولانا فى قصيدة عيد الفطر حين يقول:

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله ... فإنى أغنى منذ حين وتشرب؟
وهبت على مقدار كفى زماننا ... ونفسى على مقدار كفيْك تطلب
إذا لم تُنط بى ضيعة أو ولاية ... فجودُك يكسونى وشغلك يسلب

فالتفت كافور إلى ابن الفرات وقال: ما رأيك فى هذا الشعر؟

ـ هذا شعر لا يسمعه سامع إلا اعتقد أن مولانا بخيل على شعرائه وقصّاده، وأن شاعره فى غاية الجرأة عليه والإستهانة بمكانته.

ـ إنه رجل قليل الأدب.

ـ ثم إنى أعتقد يا مولانا أن هذا الرجل يلبس بيننا غير ثوبه، وأنه جاسوس أرسله إلينا ابن حمدان ليطلع على أسرار دولتنا، وينقل إليه مواطن الضعف فيها. وابن حمدان لا ينسى هزيمتكم له فى دمشق، وهو ـ وقد أكل قلبه الحقد ـ يريد أن يثأر لنفسه، وأن يمهِّد لجيشه سبيلاً لفتح مصر.

ـ ذلك أبعد إليه من نجوم السماء.

ـ من غير شك. ولكن ما معنى أن يدّعى هذا الشاعر أنه غاضَبَ سيف الدولة، وناصبه العداء، وفرّ من حلب تحت أستار الليل، ثم لا يكاد ينشد قصيدة أمام مولانا إلا وفيها حنين لسيف الدولة، وأسف على فراقه. إن هذا فى رأيى بدَوَات طفرت من الشاعر بعد أن بالغ فى كتمانها فظهرت على الرغم منه فى فلتات لسانه. ففى أول قصيدة أنشدها أمام مولانا ترك مصر وصاحبها واتجه بتشوقه وهيامه إلى حلب وصاحبها. ثم جرى بعد ذلك فى شعره على هذا النسق فهو يقول:

فراقٌ ومن فارقتُ غير مذمَّم ... وأمٌ ومن يممتُ خير ميمم
رحلتُ فكم باكٍ بأجفان شادن ... علّى وكم باك بأجفانِ ضيغم
وما ربةُ القُرطِ المليح مكانُه ... بأجزعَ من ربٍّ الحسام المصمم
فلو كان ما بى من حبيب مقنع ... عذرتُ، ولكن من حبيب معمم
رمى واتّقى رميى، ومن دون ما اتقى ... هوىً كاسرٌ كفى وقوسى وأسهمى

ثم يرمى بآخرِ قناعٍ فيقول وكأنه يخاطب ابن حمدان:

أغالبُ فيكَ الشوقَ والشوقُ أغلبُ ... وأعجبُ من ذا الهجر والوصل أعجب
أما تغلَط الأيام فيّ بأن أرى ... بغيضاً تُنائى، أو حبيباً تقرب؟
عشيةَ أحفى الناس بى من جفوته ... وأهدَى الطريقين التى أتجنب

أتعرف يا مولانا من أحفى الناس به؟ هو ابن حمدان. وهل يعرف مولانا أهدى طريقيه التى يتجنبها؟ هي طريق حلب.

ـ ويل للمرائى الفاجر؟ لقد كنت أظن أن الإنسان عبد الإحسان، ولكن يظهر أن من الناس من تطغيهم النعمة، وتبطرهم المودة. وكل هذا الشعر لا يساوى عندى هذه الذبابة الحائرة فوق زجاج النافذة، فإنى لا آبه له، ولكن الذى يهمنى حقاً تلك المؤامرة التى ينسج خيوطها مع فاتك. خذ حذرك يا أبا بكر وابعث جواسيسك حول الفيوم، وفى حواشى الصحراء، واجعل على كل عابر عيناً حتى لا يمر طائر بين البلدين إلا عرفته. أما أنا فسأظهر للشاعر كأننى لا أعلم شيئاً، وسأبالغ فى إكرامه حتى تهدأ نفسه ويطمئن، فإننا نخشى أن يفلت من أيدينا. ومن الحكمة أن نعتقله من حيث لا يشعر، وأن نجعل له قيوداً من الذهب لا من الحديد. إنه لو فرّ منا كما فرّ من ابن حمدان الأحمق لملأ الأرض بهجائنا، ولأصبح اسم كافور سبةَ الأبد، وأضحوكة الأجيال. أبسط له وجهك يا ابن الفرات، وأنثر الحب لطائرك حتى يقع فى الفخ.

وما كاد يتم عبارته حتى دخل الحاجب يقول إن المتنبى يطلب مقابلة مولانا. فالتفت كافور إلى وزيريه وهو يغمز بعينه فى ابتسامة ماكرة، وقال. دعه يدخل.

دخل المتنبى فقابله كافور ووزيراه بحفاوة، فلما اطمأن به مجلسه قال:

ـ لقد بعث إلىّ أبو شجاع فاتك يا مولانا منذ قدمت مصر برسائل محبة وترحيب، ثم والى على من هباته وصلاته ما أثقل ظهرى، وأوهن كاهلى، حتى رأيت أن ترك مديح مثله لؤم لا يليق بمثلى. لهذا جئت يا مولانا أستأذنك فى مديحه وأداء هذا الدين، الذى أصبحت لا أستطيع احتماله. فهل يأذن مولانا لشاعره بأن يشدو بمديح أحد رجاله المخلصين؟

فالتفت كافور إلى ابن الفرات، وغمز بعينه بحيث لا يرى، وقال:

ـ ما عليك من بأس يا أبا الطيب. فإنه يسرنى أن يستحق أحد قوادى مديح مثلك. قل فيه يا أبا الطيب ما تشاء، وأجد ما طاولتك الإجادة.

ثم اتجه إلى ابن الفرات وقال: لقد جاءتنى اليوم رسالة من أهل صيداء يشكون فيها من واليهم، ويعددون مظالمه، وأخشى أن يكونوا فى شكايتهم صادقين فقد سمعت من قبل كلاماً كثيراً يدور حول هذا الوالى وأنه يعبث بالحقوق ويأخذ الرُشا. أسمعت بشىء من ذلك يا جعفر؟

ـ نعم يا مولانا. وقد حاولنا إصلاحه بالنصيحة والصبر، فكاد يفسد علينا أمرنا بالتمادى فى ظلمه. وهنا التفت كافور إلى المتنبى وقال: ما رأيك فى ولاية صيداء؟ إنها ولاية واسعة وافرة الخيرات.

فكاد المتنبى يطير من فوق كرسيه فرحاً، ووقف خاضع الرأس أمام كافور كأنه الراهب فى محرابه، وطفق يقول:

ـ إننى سأكون أعدل والٍ لها، وأوفى والٍ لك يا مولانا.

فابتسم كافور وقال: سننظر فى الأمر يا أبا الطيب والأمور مرهونة بأوقاتها. وسيكون كل شىء خيراً إن شاء الله.

وانصرف المتنبى وهو يكاد يخرق الأرض بقدميه تيهاً وكبراً، ويملأ الفضاء بصدره المنتفخ زهواً وعجباً. إن هذه النخيل التى يداعبها الهواء فى طريقه إنما تميل نشوى للنبأ العظيم! وقمم المقطم المطلة عليه إنما تمد آذانها لتتلقف الخبر الخطير! والأهرام ما صمدت لعوادى الزمان طيلة هذه القرون إلا انتظاراً لذلك المجد الباذخ! والنيل لم تتهامس أمواجه إلا بأنباء هذا الحادث الجلل! إنه قدم مصر لأجل هذا. وتدلى إلى مدح الأسود لأجل هذا. ولاقى صنوف الاضطهاد من عظماء مصر وعلمائها لأجل هذا. ولا شك أن العزة لا تنال إلا بشىء من الذل، والعظمة لا تقتنص إلا بخضوع النفس. لقد كان مصيباً حقاً حينما هجر سيف الدولة وقصد كافور. ولطالما ظن أنه ضل السبيل، وتنكب الصواب، وأنه باع نفسه للأبالسة، وأن الأسود إنما احتال لاجتذابه إليه ليجرِّد سيف الدولة من أمضى سلاح هو سلاح الشعر، الذي تعتز به الدول، ثم ليحتبسه فى مصر شاعراً ذليلاً مأجوراً. لطالما ظن هذا، ولطالما عنف نفسه، ولطالما جلس فى فراشه فى الليل البهيم وهو يقلِّب كفيه أسفاً، ويرسل أنفاسه حسرات تلو حسرات، ولطالما صوَّر له الخيال أن الأسود يعبث به ويمنيه الأماني كذباً وزوراً، وأنه يشد رقبته بخيط من الوهم، ويرقصه فى مجلسه على أنغام آمال هى أبعد من مناط الثريا، وأكذب من هذيان الأحلام. لقد ظلم العبد. لقد كان العبد مظلوماً حقاً. إنه رجل وفى صادق أمين. إنه كان يطاوله ليختبره ويبلوه، والولايات شأنهن عظيم. ولا تكفى أشهر لاختيار من يصلحون لها. فالآن وقد

درس نفسي، وألمّ بنواحي عظمتي، أخذ يعلن ما أخفى، ويجهر بما كتم. ثمّ وقف المتنبي عن حديث نفسه ومال برأسه قليلاً، شأن المفكر فى أمر مفاجىء، وقال: ولكن ماذا سيكون أمرى مع فاتك الذى عاهدته فى الصحراء على أن أكون له عوناً فى انتزاع الملك من كافور برأيى وسيفى وشعرى، ووعدنى بأخصب ولايات مصر وأدرها خيراً؟ فى الحق إنى تعجلت المفاوضة مع فاتك، وكان من الحزم أن أصبر قليلاً حتى أيأس تمام اليأس من كافور. ولكن مالى أبيع حاضراً بغائب؟ ومالى أطلق أملاً فى يدى لأنتظر أملاً حائماً؟ ومالى أضيع حقيقة واقعة بوعد موهوم؟ لا لا إنى سأخلص لكافور وسأكون أوفى خلصائه وأصدق أمرائه.

وبينما هو فى الطريق إذ التقى بصديقه عبد العزيز الخزاعى، فحياه تحية المحب المشوق، ثم سأله:

ـ من أين وإلى أين؟

ـ قدمت بالأمس من بلبيس لزيارتك، وعرض لى أن أزور فى الصباح شيخ الشافعية عبدالله الناصح بالجامع العتيق، وقد كنت الآن قاصداً إلى دارك.

ـ وماذا رأيت فى الجامع العتيق؟

ـ يا أبا الطيب يجب أن تتقى علماء هذا الجامع، ويجب أن تتقى منهم خاصة هذا العالم الموسوس أبا بكر الكندى الذى يلقبونه بسيبويه.

ـ وماذا أعمل له؟

ـ تخفض جناحك، وتنهنه من كبريائك قليلاً. إن مصر يا أبا الطيب ليست كحلب. إنها عش العربية، وموطن العلم والأدب. فإذا كنت فى حلب قد أرسلت أشعارك على فطرتها جريئاً غير هيّاب، ففكر هنا ألف مرة فى كل بيت تقوله.

ـ ماذا تريد بهذا يا ابن يوسف؟

أريد يا سيدى أن أكون لك ناصحاً، وإن غلظ عليك نصحى. وأريد أن أقول: إننى حينما دخلت الجامع فى هذا الصباح، رأيت حلقة من الطلاّب غاصة بمن فيها حاشدة، وقد توسطها أبو بكر الكندى وهو يصيح: اسمعوا يا أهل الفهم والمعرفة ما يقوله شاعرنا الجديد! اسمعوا ما ابتكره فى فن المديح هذا المتنبى الكاذب! إنه لا محيد له عن إحدى خلتين: إما أنه يسخر من عقول أدباء هذا البلد، ويرى أنهم أغبى من أن يدركوا ما يقول، وإما أنه سخيف أبله لا يعرف

مرامى الكلام. وهنا ضجّ المجتمعون صائحين: قل أبا بكر ولا تطل علينا. أسرع يا صاحب الحمار. هات ما عندك. فعاد يقول: يمدح هذا المتنبى مولانا بقوله:

ومــا طربــى لمــا رأيتــك بدعةً لقــد كنــتُ أرجــو أن أراك فأطربُ

أرأيتم شاعراً منذ أن قال امرؤ القيس: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» قال لممدوحه: إننى لم أعجب لطربى عند رؤيتك أيها الأمير، لأنني كنت أؤمّل أنى سأملأ الدنيا ضحكاً حين أراك. إن المتنبى أيها الطلاب قدم إلى مصر ليفرّج عن نفسه برؤية أميرنا المضحك! إنه ـ جزاه الله بما يستحق ـ جعل من أميرنا قرداً يتزاحم الناس عليه ليروا ألاعيبه فيطربوا ويضحكوا. وهنا أغرق القوم فى الضحك والجلبة، وارتفع صوت خبيث منهم يصيح: إن الأمير لا يفهم هذا الكلام الموجه وعلى علمائنا أن يفهموه، حتى ينال هذا الرجل مايستحق. وما كاد يسكت حتى مدّ أبو بكر ذراعيه طالباً السكوت؟ وقال: ثم من علّم هذا الشاعر العربية حين يقول:

«لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب؟».

فيرفع الفعل «أطرب» وهو منصوب لا مناص. لأنك إذا جعلت الفاء عاطفة وجب نصبه بالعطف، على أراك، وإن جعلتها للسبب وجب نصبه بأن مضمرة. فكيف ساغ لهذا الرجل رفعه؟ فصاح طالب: قد يكون الفعل معطوفاً على «أرجو» وهو مرفوع. وهنا قهقهة الشيخ حتى سقطت عمامته، وأجاب: هذه حيلة العاجز يا ولدى. لأن الطرب مترتب على الرؤية لا على الرجاء.

ولم أطق يا أبا الطيب أن أصبر على استماع أكثر من هذا، فأسرعت بالخروج من هذا المسجد. تدبر أيها الأخ فى أمر تسكت به هذا المجنون. فإن الناس ينقلون أخباره ونوادره، وإذا وصلت هذه الأخبار إلى القصر ساءت العقبى.

- -

كان عبد العزيز يحادث المتنبى وهو سابح فى بحر من الفكر عميق، وقد اصفرّ لونه، واختلجت عضلات وجهه، لأنه فى الحق كان يخشى أن يفسد عليه هؤلاء السفهاء أمره مع كافور، بعد أن بلغ لديه منزلة الرضا، وأصبحت الولاية منه قاب قوسين ثم اتجه إلى عبد العزيز وقال:

ـ سيكون لى مع هؤلاء شأن آخر. وربما أسكتهم عنى بعد أيام سكوتى عن قول الشعر جملة واحدة.

ـ كيف؟ فابتسم وقال:

ـ ستعلم ذلك قريباً يا ابن يوسف. هلم بنا إلى دار ابن رشدين. وانطلقا حتى بلغا الدار فلقيا بها صالحاً والشريف إبراهيم العلوى. وأقبلت عائشة مسرعة وكأنها البدر المشرق زحزحت عنه حجب الغمام. وكان المتنبى على غير عادته باش الوجه، منبسط النفس. فابتدره الشريف سائلاً: أين كنت هذا الصباح يا أبا الطيب؟

ـ كنت عند كافور أستأذنه فى مدح فاتك. فأطرق الشريف طويلاً ثم قال:

ـ لقد تعجلت فى هذا يا أبا الطيب. إن كافوراً لا يبغض فى مصر إلا رجلين: ابن سيده وفاتكا. وقد نهى أن يذكر أحد فى قصره اسم فاتك إلا أن يأتيه البشير بموته، وحينئذ يسوغ للبشير أن يقول له: مات فاتك. فكيف بحقك قذفت بنفسك فى هذه الهوة، وألقيت بها فى هذا المأزق؟ وبم أجابك؟

فبهت المتنبى وتلعثم، وقال: أذن لى بمدحه.

ـ وهذه هى الطامة الكبرى، وهذا هو الشرّ المستطير، والبرق الذى يسبق الرعد، والسكون المخيف الذى يتقدم العاصفة. إن الهر الخبيث يداعب الفأر قبل أن يثب. والثعبان المكار يهز رأسه لفريسته قبل أن ينقض عليها. فأسرعت عائشة فى وجل وهى تصيح: ماذا تقول يا سيدى؟

ـ إن الرائد لا يكذب أهله يا عائشة. ولقد علمت من دهاء هذا العبد وحيله ما فيه العجب العجاب.

ـ كيف بالله؟

ـ لقد عودنا هذا الكافور أنه لا يضحك إلا إذا نوى الغدر، وعهدناه لا يلقى لصيده الحبل طويلاً إلا ليرتكس فيه. وهنا وثب المتنبى واقفاً وهو يقول:

ـ لقد بالغت فى سوء الظن بكافور يا سيدى: إنه وعدنى اليوم بولاية صيداء. فأسرع عبد العزيز سائلاً:

ـ بعد أن استأذنته فى مدح فاتك؟!

ـ نعم. فقال الشريف:

ـ هذا يؤيد رأيي، ويحقق في الأسود سوء ظني. وكيف جاء ذكر هذه الولاية؟

ـ قال كافور: إنه وصلت إليه رسالة من أهل صيداء يشكون فيها من واليهم، ويصفونه بكل ما يشين. وأيد ابن الفرات شكواهم، وأنه نصح لهذا الوالي كثيراً فلم يرعو عن غوايته. وحينئذٍ التفت إليّ كافور باسماً، وسألني عما أرى في ولاية صيداء، فقبلت وشكرت.

ـ هل أسند الولاية إليك بالفعل؟

ـ كأنه أسندها إليّ لأنه قال إنه سينظر في الأمر. وإن الأمور مرهونة بأوقاتها: فغمغم الشريف في ألم وحسرة وقال.

ـ كل هذا كذب من الأسود وخداع. فلا ظلم الوالي أهل صيداء، ولا شكا أهلها من واليهم، ولا عزم كافور على عزل الوالي وتوليتك مكانه. ولكنه ماهر في ابتكار الكذب وارتجال الأحاديع. ولو كنت لا أعرف هذا الوالي لعلمت مِن أسلوب العبد في تناوله هذه الأمور أنه كاذب مائن، أما وأنا به جد عليم، وأعرف من أخلاقه وسيرته ما يرفعه إلى مرتبة العمرين، فلا يخالجني شك في أن الرجل خدعك بهذه الأخلوقة، والله وحده يعلم ما وراءها من كيد ومحال. وأكبر الظن أن بعض أعدائك دس لك عنده، لأن هذه المجاملة، وهذه الموادعة، لا تفسر عندي إلا بهذا. فخذ حذرك يا أبا الطيب. وكن معه كملاعب النمر، يقرب منه والخنجر لا يفارق يمينه. أما الولاية وأشباهها فأضفها إلى خيال الشعراء، فإن الرجل في هذه الناحية أمهر شاعر. وهنا تململ المتنبي وقال حانقاً:

ـ إن بيني وبينه أياماً إن لم يف بوعده فيها عرفت أنه كاذب أفّاك، وفي شعري علاج ناجع لأمثال هؤلاء.

ـ احترس أبا الطيب، وقدر لرجلك قبل الخطو موضعها، فإن الصل المصري لا تنفع في لدغته الرقية، ولا يجدي الدواء، وجامل الرجل حتى تجد من يديه مخلصاً.

بدا الغم والحزن على وجه المتنبي ووجوه أصحابه، وتنهدت عائشة وقالت في صوت خافت: لعل شدة خوف الشريف على سلامتك يا أبا الطيب هي التي دفعته إلى أن يصوِّر لك الخطب جسيماً، والأمر عظيماً، فأنضح عنك الخوف، فقد يكون الوهم قد لعب بنا فخيل إلينا أن الهرّ أسد ضرغام. فأسرع الشريف قائلاً:

ـ لا يا سيدتي عائشة. إن الأسود ماكر محتال بعيد الوثبة، فمن الخير لنا ولأبي الطيب أن

نكشف له الطريق. ثم خاض القوم فى حديث آخر، والمتنبى ذاهل فى مهامه من الفكر، كلما خرج من فلاة تلاقفته أخرى، ثم استأذن فى الإنصراف، فخرج ومعه عبد العزيز الخزاعى ـ حتى إذا بلغا الدار أخذ المتنبى فى خلع ثيابه وهو يسأل عبد العزيز:

ـ ما رأيك فى حديث الشريف؟

ـ أكبر الظن أنه يقول الحق.

ـ أخشى أن يكون قد طوح الخيال به قليلاً.

ـ إذا كان فى حديثه بعض التهويل فإنى أعتقد أنه لم يعد الحق.

ـ بيننا وبين الأسود أيام إن لم ينجز فيها وعده فويل له منى فى التيقظ والمنام! ثم أخذا فى فنون شتى من الحديث، حتى إذا حانت ساعة النوم انصرف كل إلى سريره.

ومرت أيام، ومر شهر وأكثر من شهر، وكافور لم ينجز وعده ولم يشر إليه، وتحقق المتنبى من أن الرجل خدعه، وأن الشريف كان صادقاً حين وصم الأسود بكل نكراء. ونظر أبو الطيب فرأى ما بناه من الآمال ركاماً، وما صوّره من المجد أحلاماً، وأن الطائر الذهبى الذى طالما ناغاه فرّ من بين يديه فى الهواء، وذهب إلى آفاق غير هذه الآفاق. ولم يعد يشك فى أن العبد أغراه بالقدوم إلى مصر ليحتبسه بمصر، وليجعل منه شاعراً مأجوراً، يسبح بحمده فى البكرة والعشى، فى سبيل لقيمات يقذفها إليه فى الصباح والمساء. ألا خسىء الأسود، وخسىء اليوم الأسود الذى شددت فيه رحالى إليه!

أيملكُ الملكَ والأسيافُ ظامئةٌ ... والطيرُ جائعةٌ لحمٌ على وضَم
من لو رآنى ماءً مات من ظمأ ... ولو عرضت له فى النوم لم ينم

خيبة

أفاق المتنبي من أوهامه، وتيقظ من أحلامه، وعلم أنه أخطأ حين ظن أن الناس يرون فيه ما يرى في نفسه، وأنهم يقدرون منزلته كما يقدرها. أفاق وقد ذهبت أمانيه بدداً، وحالت مطامعه رماداً تذروه الرياح، فلم يبق إلا أن يعلق آماله بفاتك، وأن يتجنب الأسود ويعود إلى ما عوده من كبر وأنفة.

أنشأ أبو الطيب قصيدة رائعة في مدح فاتك تلقفها الناس، وسارت بها الرواة، وفهم منها الأدباء أنه يعرِّض بكافور ويسخر من وعوده حين يقول:

وأجزِ الأمير الذي نعماه فاجئة ... بغير وعد ونُعمى الناس أقوال
فربما جزت الإحسانَ موليه ... خريدة من عذارى الحي مكسال

ودخل أبو بكر بن صالح على كافور وقال: إن الناس لا شغل لهم منذ شهر إلا إنشاد قصيدة المتنبي في فاتك، والترنم بأبياتها، وأخشى يا مولانا أن يترك هذا الشعر أثراً في نفوسهم، فقد خلع عليه الخبيث كل صفات النجدة والكرم، ولم يبق للأمير منها شيئاً. وقد نفى أن يكون له في المملكة مثيل أو نديد حين قال:

لا يُدرك المجد إلا سيدٌ فطن ... لما يشقُّ على السادات فعّال
كفاتك ودخول الكاف منقصة ... كالشمس قلت وما للشمس أمثال

فزفر كافور وقال: هذا الشاعر كاد يضيق به صدري، وكلما أرخيت له العنان زاد عربدة وجنوناً. دعه الآن يا ابن صالح فإن يومه لم يأت بعد. خبِّرني، ألا يزال يذكر

الولايات، ويتغزل فى الإمارات؟

ـ لا يا مولانا إنه عدل عن هذا، وعلم أن الله حق. فقهقه كافور وقال:

ـ إنى أجازى خيال هؤلاء الشعراء بخيال مثله. راقبه يا أبا بكر. فإنى أخشى أن ينتهى أمره إلى شر غاية. وبينما هما فى الحديث إذ ثارت جلبة فى القصر، وتعالت أصوات الهتاف، ودخل الحاجب وهو يقول: إن شبيباً العقيلى مات بدمشق يا مولانا! فوقف كافور اهتماماً بالخبر، ورفع يديه إلى السماء فى تعبد وخشية، وهو يتمتم: الحمدلله! الحمدلله! اللهم إنى عبدك المسكين، فانصر عبدك المسكين على أعدائه الأقوياء. ثم مال إلى أبى بكر وهمس فى أذنه: لقد شرب السم إذاً. الحمد لله! الحمد لله!

من الذى بعثته إليه بالسم؟

ـ بعثت إليه الحارث التميمى، وهو شاب مجازف، وقد وعدته بخمسمائة دينار.

ـ إنه يستحق. كيف توصل هذا الشاب إلى هذا الأسد الهصور يا ترى؟ وكيف استطاع أن يدس له السم؟

ـ لقد أخبرنى قبل رحيله. بما اعتزم فعله، فقد كان ينوى أن ينضم إلى جيش شبيب ويظهر من الحماسة فى الحرب ما يقربه إلى قلب العقيلى، حتى إذا وثق من منزلته عنده، وسنحت له الفرصة، مزج له السم فى الطعام.

ـ هذا توفيق من الله. فكم من دماء حقنتها هذه القطرات القليلة من السم! وكم من أرواح أنقذتها! ونفوس ردت إليها هدوءها وسكينتها! لقد كان العقيلى شجاعاً يا ابن صالح.

ـ أما وقد مات، فقد كان رجلاً لم تلد الأمهات مثله فى الشجاعة والبطّولة والكرم. ولقد كدنا نعيا بأمره، لأننا كلما أرسلنا إليه جيشاً هزمه وفرّق جموعه، حتى حاصر دمشق ودخلها دون أن يستطيع أحد أنْ يقف فى طريقه ولولا تلك الحيلة التي ابتكرها مولانا لذهبت منا الشام، وربما ذهبت بعدها ولايات أخرى.

ـ إنه خارج علينا يا أبا بكر. لقد وليناه أول الأمر عُمان والبلقاء، فلم يكتف بهما، ولم تقف به مطامعه عند حد، فاستهان بقوتنا، وأدلّ علينا بكثرة خيله ورجله. ثم ابتسم، كما يفغر الثعبان فاه، وقال: إن لله جنوداً لم تروها، منها السم الزعاف.

سرت البشرى فى أنحاء المدينة، وعين يوم فى القصر للاحتفاء بهذا النصر المبين، وجاء هذا اليوم فتوافد على القصر الوزراء والعلماء والقواد والأدباء وسراة المدينة، وأعدَّ المتنبى قصيدة لينشدها فى هذا الجمع الحاشد، وكان حاقداً على كافور، بعد أن حطَّم آماله، وقطع أوتاره، فجاءت القصيدة ثورة محموم، وتنفس غيظ مكظوم. وكان أولها:

عـدُوك مذمـومٌ بكل لسان ولـو كان من أعدائـك القمران

ولما أنشدها وانفضَّ الجمع، قابله ابن رشدين وهو يقول: الشعر بديع يا أبا الطيب، ولكنى فى الحق لم أدر، وأنت تنشدها أكنت ترثى شبيباً أم تمدح كافوراً؟

ـ كنت أرثى شبيباً، وأعتقد أن هؤلاء الأوغاد غدروا به ودسوا له السم.

ـ وأنا أعتقـد كما تعتقد، ولكنى إذا طلب إلىَّ كافور أن أقول قصيدة فى ظفره بعدوِّه لا أقول ما قلت.

ـ وماذا كنت تقول.

ـ كنت آتى بأعذب الشعر وأكذبه. ثم جذب منه الورقة وقال إسمع:

برَغْـم شَبيبٍ فارق السيفُ كفَّه وكانـا علـى العـلاَّت يصطحبان
كأن رقـابَ النـاس قالـت لسيفه رفيقُـك قيسـىٌ وأنـت يمانى
فـإن يك إنسانـاً مضـى لسبيله فإن المنـايا غاية الحيوان
ومـا كان إلا النـارَ فى كل موضع تُثير غبـاراً فى مكان دخان
فنـال حياة يشتهيها عدوُّه وموتـا يشهِّـى المـوتَ كلَّ جبان
نفـى وقـعَ أطـراف الرمـاح برمحه ولـم يخش وقـعَ النجـم والدبران
وقـد قتـل الأقـرانَ حتـى قتلته بأضـعف قِرْم فى أذل مكان
أتتـه المنـايا فى طريق خفيَّة علـى كل سمـع حولـه وعيان
ولـو سلـكت طرقَ السـلاح لردَّها بطـول يمين واتسـاع جنان

هذا أبدع رثاء لشبيب، وهذه أكبر تهمة لكافور باغتياله. أين يذهب بك يا أبا الطيب؟ أجننت؟

ـ إن عيبى عندكم أننى أقول ما فى نفسى ولا أتملق تملق الإماء.

ـ قل ما في نفسك لي وللكثير من أصدقائك، ولكن لا تقله في حشد من النقاد ينتظرون الفرصة للإيقاع بك. لقد نصحك الشريف فلم تنصت لنصحه.

ـ إن شعري لا يطاوعني على الكذب الصراح، يا ابن رشدين.

ـ غيِّر من خلقك قليلاً حتى تصرف عنك عين كافور.

ـ أنا لا أبالي بكافور، ولا آبه لجبان يقتل الناس بالسم، وساصون شعري عن هذا الأحمق حتى يصدق في وعده، أو يأذن الله برحيلي عنه. فجذبه ابن رشدين من يده وقال: هلم بنا إلى الدار. وانطلق الإثنان صوب دار ابن رشدين فلاقتهما عائشة مرحة ضحوكاً، وهي تقول: لا أشك في أنك أبدعت اليوم يا أبا الطيب، لأنك تعود اليوم إلى فنك الذي امتزت فيه، وهو وصف الوقائع وتمجيد الظافرين. وقد عشت بيننا عيشة هادئة ليس فيها إلا سلم دائم، واستقرار هنيء، وهذا الجو لم يخلق له شعرك الذي لا يجلجل إلا في قتام الحروب، وصليل السيوف. وكلما قرأت شعرك في وقائع سيف الدولة أسفت لأنك فارقته، ولكني لا ألبث أن أعود إلى الأثرة فأستهين بالشعر كله في جانب الظفر بمودتك. ليس عندنا هنا روم يغيرون على تخومنا، وليس عندنا قبائل متناكرة يخلعون طاعة الأمير كلما صاح بهم صائح. فنحن نعيش في جنة عالية، قطوفها دانية، لا تسمع فيها لاغية. وقد جبلنا على السمع والطاعة لأمرائنا، واجتمعت كلمتنا على أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، لذلك كنت أفكر في شأنك يا أبا الطيب آسفة معتقدة أنك لم تخلق لهذا السكون الشامل، والأمن الوارف، وأتخيل أنك ولدت في ليلة عاصفة كثيرة الأنواء والأعاصير، كان الرعد فيها يصدع أقطار السماء، والصواعق تنقضّ كأنها رؤوس الشياطين! لقد صدئ سيفك في غمده هنا يا أبا الطيب، ومل جوادك من طول الوقوف. إن مثلك لم يخلق ليجلس في شمس الشتاء، أو يقضي أصيل يوم الصيف في زورق يقذف به نسيم النيل الواني من مصر إلى حلوان. وإنما خلقت للصراع والصدام، وأن تدخل من قتام في قتام. لهذا حين علمت أنك ستنشد اليوم قصيدة في تهنئة كافور بالظفر بشبيب، قلت في نفسي لقد جاء أوان صاحبي، وستسمع مصر اليوم شعراً جمعت تفاعيله من أسنة الرماح وشفار السيوف. فماذا قلت يا فارس الهيجاء؟

ـ قلت يا سيدتي قصيدة كان كل ذنبي فيها في رأي أخيك أنني كنت صادقاً.

ـ ما عليك من أخي. هات القصيدة. ثم جذبت الورقة من يده وأخذت تقرأ، فلما

أتمت قراءتها صاحت: إنى لأجد ريح يوسف! وإنى لأرى فى هذا الشعر صاحبى القديم وهو يعود ثانية إلى عترته، فيصف الحرب ومواقع القتال، ولن يستطيع شاعر من شعراء الإنس والجن أن يصوّر قدرة ملك كما يصورها هذا البيت:

لـو الفلك الـدوار أبغضـت سعيه　　لعوّقـه شيءٌ عن الدوران

ماذا تقول فى هذه القصيدة يا صالح؟

- أقول إنها ملأى ببدائع الفن، ولكنها فارغة من السياسة. فقهقهت عائشة طويلاً وقالت:

- أنت يا صالح منذ لحقت بديوان الرسائل وأنت تخشى من كل شيء، وتتهم كل شيء. قاتل الله المناصب، فكم أذلت أعناقاً، وأخرست أفواهاً. ليس فى القصيدة شيء إلا أن يخرج بها المتعنتون إلى غير مخرجها. إن فيها مديحاً رائعاً لكافور لم يظفر الرشيد والمأمون بمثله. فماذا فيها ياصالح مما تراه خارجاً عن سياج السياسة؟

- فيها يا أديبتى البارعة أبيات إلى الذم أقرب منها إلى المديح، ولا يعلم إلا الله ما تكون العاقبة لو تطفل خبيث ففسر لكافور معنى هذا البيت:

ولله سرٌّ فى علاك وإنما　　كلام العـدا ضرب من الهذيان

ثم إن فيها عشرة أبيات كلها ثناء وبكاء على شبيب، وليس فيها من الإشارة إلى الإنتصار شيء. لقد حادثت أبا الطيب فى هذا وحذّرته من الإنسياق وراء سوء عقيدته فى كافور. فإن الرجل غادر ماكر، ونخشى أن يثب وثبة مفاجئة. وأبو الطيب أعز علينا من أنفسنا، فليس من الوفاء له أن نتركه يقذف بنفسه فى هذه الفتن الهوج، وأن يسقط فيما ينصب له من فخاخ. وهنا ظهر الحزن على وجه عائشة وقالت:

- صدقت يا أخى إن الناس جميعاً يداجون، ولا يظفر بحاجاته منهم إلا أبرعهم فى المداجاة، ثم نظرت إلى أبى الطيب وقالت:

- إننا نعيش فى جو كله سموم، حتى إن سمومنا جاوزت مصر ووصلت إلى قدح السويق الذى شربه شبيب بدمشق. إنك لا تستطيع أن تصاول الأسود فى ميدان، لأنه يحارب بأسلحة لا تعرف منها سلاحاً. والخروج اليوم من مملكته محال لأنه لو أراد لجعل

لك من مصر كلها قفصاً قضبانه من الحديد. فلم يبق إلا أن تجامل الرجل وتصانعه حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً. فزفر المتنبى طويلاً وقال: هذا حكم القدر الساخر. وإذا رأيتما أن لا بد من مصانعة الأسود، فلا بدٌ، مما ليس منه بدّ، ولكن ماذا أفعل لأتقى شر هذا الخبيث؟

ـ تترك ذكر فاتك أولاً فلا يمر لك بلسان، ثم تزور القصر فى كل يوم، ثم تركب فى مواكب الأسود أينما ذهب وسار، ثم تجامل ابن الفرات وأبا بكر ابن صالح، ثم ترقب فرصة تنشد فيها كافوراً قصيدة خالصة له واضحة المعالم، ليس فيها التفاف ولا التواء.

فتأوه المتنبى وتململ، وقال: إننى يا سيدتى كدت أيأس من الحياة وأستهين بنعيمها وبؤسها. ثم أنشد وهو يتحفز للقيام:

بـــم التعلل؟ لا أهـــلٌ ولا وطنٌ ... ولا نديمٌ ولا كأس ولا سكن
أريد من زمنـــى ذا أن يبلغنى ... ما ليس يبلغـــه من نفســـه الزمن
لا تلـــق دهـــركَ إلا غير مكترث ... ما دام يصحَب فيه روحـــك البدن

مرض

استمع المتنبى لنداء عائشة فكان يزور القصر فى كل يوم، ويبسط من وجهه لرجاله، ويتحيّن الفرص للقاء ابن الفرات وأبى بكر، ويبذل لهما ما يستطيع من بشر مصنوع. وكانت أبواب كافور أمامه مفتّحة مرفوعة الحجب، فوجد المتنبى من سهولة الوصول إليه مجالاًلاجتذابه، ووسيلة إلى العود إلى مطالبه،مرة بالتصريح ومرات بالتلويح. والأسود لغز مغلق، أو بيت من أبيات الفرزدق تعب فيه المعربون والشارحون، فهو دائماً يبتسم، وهو دائماً مهذّب أنيس متواضع، وهو دائماً إذا أشار المتنبى إلى مطامحه، سريع الإجابة على شرط ألاّ يُفهم من إجابته شيء.

خرج المتنبى من عنده يوماً وهو مهموم بعد أن مزق هذا الزنجى وسائله، وقطع حبائله، وبعد أن عبث بهذا العقل الحكيم المتفلسف كما يعبث الصبى بالأكر. خرج يتعثر فى طريقه وهو يشعر بصداع شديد كاد يمزق جبهته وصدغيه، ويحسّ برداً يسرى في أوصاله اهتزت له ذراعاه، وقضقضت أسنانه، فأسرع إلى داره وهو يمشى كالمختبل، وما كاد يصل إليها حتّى دعا عبده مسعوداً ليساعده على خلع لباسه، فلماّ انتهى رمى بنفسه فى فراشه وهو يصيح: غطنى. زملنى. لا تترك فى الدار غطاء ولا مطرفاً ولا حشيّة إلا وضعته على جسمى! أوقد النار يا مسعود. إن ثلوج الشام جميعاً تتساقط على فراشى، وتنفذ إلى مسارب جسمى. لقد قتلنى ابن سوداء الجبين بالسم، سأموت بهذا البلد النائى طريداً شريداً خائب الأمل مفصوم الرجاء.

وعصفت الحمى بالمتنبى، واجترفه تيارها فتصبب جسمه عرقاً، وراح فى سبات

مضطرب قلق، وأخذ يهذى ويصرخ بألفاظ تقطِّع نياط القلوب. فقد سمعه عبده وابنه وهو يقول: جئتَ مصر يا أبا الطيب؟... إضرب هذا الكلب يا محسِّد قبل أن يثب على... مرحى... مرحى... كنت ترجو أن تنال كل شيء، فلم تظفر بشيء... أبعد الكلب عنى يا مسعود. مسكين مسكين... حلب حلب أين منك حلب... مرحباً بمولاى سيف الدولة!

نهبت من الأرواح مالـو حويته لهنئـت الـدنيا بأنـك خالد

لقد كاد يقتلنى هذا الفرس الجامح... لا تكثر من الكلام يا ابن رشدين... جئت إلى الأسود فعاقبنى الله على يد الأسود... يا للخزى ويا للعار.. ذهب مجد أبى الطيب... كافور! أنت الشمس وأنت القمر... معد بن عدنان فداك ويعرب... ها.. ها... معد بن عدنان فداء هذا الزنجى الحبشى الذى بيع بثمانية عشر ديناراً... ها... ها... ثمانية عشر ديناراً ليس غير... ليس غير... من يشترى؟.. سنبيع العبد أيها السادة...

ثم تشتد به الحمى فيغط فى نوم عميق.

أصيب المتنبى بالحمى الأجمية (الملاريا) وكانت إصابته شديدة، وحينما أفاق فى الصباح زالت عنه آثار الحمى وخمدت نارها، ولكنها خلَّفت وراءها آلاماً فى العظام، وضعفاً فى الجسم شديداً. فقضى النهار فى سريره، وما كادت تختفى الشمس ويرسل الليل على الكون سدوله، حتى عاودته الحمى أشدَّ ما كانت، وسبح فى بحر مضطرب من الهُراء والهذيان.

ومرت ثلاثة أيام لا يزور فيها المتنبى دار ابن رشدين، فقلقت عائشة، ودخلت على أخيها شاحبة مضطربة، وهى تقول:

- هل رأيت أبا الطيب؟

- لم أره منذ ثلاثة أيام. ماذا بك يا عائشة؟

- ليس بى شيء إلاَّ أنه لم يعودنا أن ينقطع عن زيارتنا يوماً واحداً، وأخشى أن يكون قد أصابه مكروه.

- لا تراعى يا حبيبتى، فقد يكون ذهب إلى بعض أصدقائه بالجيزة، وقضى عندهم

أياماً، وسأذهب الآن إلى داره وآتيك بالخبر اليقين.

ـ اذهب يا صالح وعد إليّ بجلية الأمر، فإن الشك يكاد يقتلني.

وخرج صالح مسرعاً حتى بلغ الدار، والشمس مائلة للمغيب، فلما دخل وجد العبيد صامتين واجمين، وأحسّ بسكون الموت يلف الدار، ويرف بجناحه البارد على كل ركن من أركانها. فمرّ حتى بلغ حجرة المتنبى فرأى محسداً ومسعوداً جالسين حول سريره فى حزن وإطراق، ورأي المتنبى مسجىً يتنفس تنفساً قصيراً مضطرباً. فمشى على أطـراف أصابعه كأنه يمشى فوق أرض مقدسة، ثم لمس كتف محسد لمساً خفيفاً، وأشار إليه أن يخرج ليسائله. فلما خرج سأله مذعوراً:

ـ ما الخبر يا محسد؟

ـ لا ندرى يا سيدى. فقد جاء أبى من القصر مساء السبت وهو يشعر ببرد شديد، ثم انتهى هذا البرد إلى سخونة كأنها من لفح الجحيم، ثم حسنت حاله فى الصبـاح ولـكن الحمى لا تزال تراوحه كل مساء.

ـ سيشفى قريباً إن شاء الله. لا تجزع يا محسد، فإننا أعتدنا هذه الأمراض فى مصر حتى ألفناها. سأمر عليكم فى الصباح لأراه، وأرجو أن يكون قد أبلّ.

ويذهب قُدماً إلى عائشة فينفض إليها الخبر، فتطير نفسها شعاعاً، وتسرع إلى ثيابها لترتديها فيصيح بها أخوها: إلى أين يا عائشة؟

ـ إلى أبى الطيب. هلم معى إليه فوالله ما يمنعنى من الذهاب وحدى إلا أنى امرأة، ولن يليق بنا يا أخى أن نترك هذا الرجل الغريب المسكين يموت وحده منكوداً محسوراً. إن مَن اسمه يملأ فم الدنيا، وشعره تتغنى به الآفاق، يرقد الآن مسجىً فى قاعة مظلمة، يطلب العطف فلا يجده إلا فى قسوة الأقدار، والحنان فلا يراه إلا فى مخالب الموت! هلمَّ يا أخى إليه، فلعلنا نستطيع أن نعمل له شيئاً إن بقى هناك شىء يعمل.

ويصلان إلى الدار ويدخلان حجرة المريض وهو يصلى بلهيب الحمى، ويئن أنيناً، وقد عاوده الهذيان فجعل يصيح: حاذر سيف الدولة... إن العلـج وراءك وسيفـه فى يده... لقد قتلت الملعون برمحى... قتلته... قتلته... ما هذه النيران التى ترسلها علينا الروم كأنها قطع الجحيم؟.. أبعدوا هذه القرود عنى... أنا اليوم والى صيداء...

أقبلوا أيها الوفود. . . هل من ظلامة؟ . . . الصل الأسود! . . . أبعدوا. الصل الأسود عني . . . إنه كاد يقتلني . . . مدحته . . . مدحته . . . وماذا في يدي؟ . . . لا شيء . . . لا شيء . . . آمالي؟ . . . أطماعي؟ . . . طموحي؟ . . . هواء . . . هواء . . . هواء .

وغلبته الحمى فحبست لسانه ، وسمعه صالح وعائشة فغلبهما البكاء ، وأخذت عائشة تهز رأسها في حزن ممضّ وتقول : واحسرتاه على البطولة الوثّابة ، والرجولة الغلاّبة! واحسرتاه على الخلق الراسخ ، والمجد الشامخ! على مثلك أبا الطيب تشق الجيوب وتمزق القلوب . أسفي على ذلك اللسان الغضب الذى كان ينثر فرائد الحكم ، كيف أصبح يهذى كما يهذى المحرور! وعلى ذلك العقل القهار ، كيف اضطرب ميزانه والتهمته النيران!

ثم قامت متعثرة متخاذلة ، وهي تقبض على يد أخيها وتقول لمحسد: لا بد له من طبيب . لا يصح أن نترك شاعر الدنيا وحكيمها يموت دون أن نبذل كل شيء في سبيل شفائه . سأذهب أنا وأخي إلى الطبيب .

ثم يخرجان في عجلة حتى يصلا إلى دار بزقاق القناديل ، كان يسكنها «نسطاس بن جريج» أشهر أطباء مصر في هذا العهد ، حتى إذا طرقا الباب وأخبرا الطبيب الخبر ، لبس ثيابه على عجل وخرج معهما حتى بلغوا دار المتنبي ، وبعد أن اختلى الطبيب بمحسد وأخبره بكل شيء ، دخل على المريض فجسَّ يده ، وهز رأسه وقال : إن المرض شائع معروف بمصر . وهو سليم العاقبة إذا عنى بالمريض . ثم التفت إلى عائشة فرأى الدموع تنهمر من عينيها ، فضحك طويلاً ، وربت كتفها وهو يقول : لا تخافي يا سيدتي على شاعرنا ، فإني عالجت آلافاً من أمثاله ، وقد شفوا جميعاً . والذى أوصي به أن تبعدوا عنه اللحم والسمك ، وأن تقصروا غذاءه على اللبن ، وأن تسقوه إذا عطش ماء السكر الممزوج بعصير الليمون . وسأبعث إليكم بقارورة دواء يشرب منها نصف كأس ثلاث مرات في كل يوم . إنه سيجد الدواء مراً . ولكنه دواء شاف سريع الأثر . ثم التفت إليهم وقال في سخرية تُحبّ دائماً من الأطباء : لا تخافوا يا أولادى فإنه سيشفى بعد أيام ، ثم حيّاهم وانصرف ، وقد ملأ نفوسهم آمالاً ، وبدّلهم من بعد خوفهم أمناً . والتفتت عائشة إلى محسد كالمستأذنة المتهيبة وقالت : هل من بأس في أن أبيت أنا وأخي هنا الليلة؟ فأجاب مسرعاً : لا يا سيدتي إن ما تبثينه حول المريض من رحمة وحنان سيكون أشفى له من كل دواء .

واستيقظ المتنبى فى الصباح مضنًى منهوكاً، فلما فتح عينيه ورأى صالحاً وعائشة جالسين إلى سريره كاد ينكر ما أبصر، فحملق فى دهش وقال فى صوت خافت: أنت هنا يا صالح؟! أنت هنا يا سيدتى؟!! الآن لا أحس بأوجاع الداء. جزاكما الله عن الغريب المسكين خيراً! لا تخافا علىّ، فإنى لا أظن أنى مائت فى هذه الرقدة، لأن الله أكرم من أن يقضى علىّ قبل أن أنال من آمالى شيئاً.

وبعث الطبيب بالدواء، ومرت أيام على أبى الطيب كان يشعر فيها بدبيب الشفاء يسرى فى أوصاله، فلما استطاعت يده أن تقبض على القلم طلب من محسد ورقاً، ثم وضع يده على جبهته، وسرى فى بادية من الخيال، وأخذ يكتب. وعاد بعد حين صالح وعائشة إلى زيارته فمد إليهما يده بورقة فاختطفتها عائشة ونظرت فيها ملياً، فإذا قصيدة من أروع ما تنفّس به الشعر العربى! بدأها بالشكوى وضعف الثقة بالناس. ثم ثنى بوصف الحمى التى أصابته، ثم عاد إلى ذكر سوء حاله بمصر، وإلى تمنى الرحيل عنها، فى أسلوب يستنزل العصم، ويذيب الصخور الصم. نظرت عائشة فى القصيدة ثم قرأت بصوت عال:

ولما صار ودُّ الناس خبّاً ... جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه ... لعلمى أنه بعض الأنام
وآنف من أخى لأبى وأمى ... إذا ما لم أجده من الكرام
ولستُ بقانع من كلّ فضل ... بأن أعزَى إلى جد همام
عجبت لمن له قدّ وحد ... وينبو نبوة القَضِم الكهام
ولم أر فى عيوب الناس شيئاً ... كنقص القادرين على التمام
أقمت بأرض مصر فلا ورائى ... تخبّ بى الركاب ولا أمامى
وملنى الفراش وكان جنبى ... يملُّ لقاءه فى كل عام
وزائرتى كأنّ بها حياءً ... فليس تزور إلا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتت فى عظامى
أراقب وقتها من غير شوق ... مراقبة المشوق المستهام
ويصدُق وعدها، والصدْق شر ... إذا ألقاك فى الكرب العظام
أبنت الدهر عندى كل بنت ... فكيف وصلت أنت من الزحام؟
جرحت مجرّحاً لم يبق فيه ... مكان للسيوف ولا السهام

يقـول لي الـطبيب: أكلـت شيئاً   وداؤك في شرابـك والطعام
ومـا في طبـه أنـي جواد   أضـر بجسمـه طول الجمام
تعـود أن يغبِّـر في السرايا   ويدخـل من قتـام في قتام
فإن أمرض فمـا مرض اصطباري   وإن أحمـم فمـا حُمّ اعتزامي
وإن أسلـم فمـا أبقـي ولكن   سلمـت من الحمـام إلـى الحمام

فلما انتهت صاحت: لقد غفرت للحمى كل ذنوبها! وإذا كانت الكوارث تخلق مثل هذا الشعر، فمرحباً مرحباً بالكوارث!

وتسامع الأدباء بالقصيدة، وأقبلوا زرافات على دار المتنبي يستنسخونها، وأجمعوا على أنها خير ألف مرة من رائية عبد الصمد بن المعذل في وصف الحمى. ووصلت نسخ منها إلى القصر، واجتمع رأسان لقراءتها ليُستخرجا منها ما يصلح لدسيسة جديدة، هما رأس ابن الفرات ورأس أبي بكر بن صالح. ولكن روح المتنبي كانت تحوم حولهما وهي تهمس:

ومـرادُ النفـوس أصغـر من أن   نتعـادى فيه وأن نتفانى
غير أنّ الفتـى يلاقـي المنايا   كالحـاتٍ ولا يلاقـي الهوانا

فرار

أبل المتنبى من الحمى، وعادت إليه قوته، وأخذت آماله تطل برءوسها من جديد، وعاد أصدقاؤه وخلصاؤه ينصحون له بمجاملة كافور، واستجلاب مودته، بعد أن أساءته قصيدة الحمى وزادته سخطاً على الشاعر. فعاد المتنبى إلى زيارة القصر، وإلى مجازاة الإبتسام بالابتسام كما يقول، حتى إذا كان شهر شوال سنة ثلاثمائة وتسع وأربعين أوعز كافور إلى أحد ندمائه أن يدعو المتنبى إلى مديحه، وأن يمنيه الأمانى. وكان كافور يريد أن يزيل بالقصيدة الجديدة ما تركته قصيدة الحمى من سوء الأثر فى نفوس المصريين واستجاب المتنبى لما طلب منه، وعاوده الأمل فى أن الأسود سيفى بوعده آخر الأمر، وأنشأ قصيدة كانت آخر سهم فى كنانته. والقصيدة ـ كما عودنا أبو الطيب عند مدح كافور ـ ليس فيها من مدح كافور إلا التافه اليسير، فإنه تحدث فيها عن نفسه فى ثمانية عشر بيتاً، وألح فى إنجاز ما وعد به فى عشرة أبيات، كان منها:

وفى النفس حاجات وفيك فطانة　　　سكوتى بيان عندها وخطاب

ولما أتم المتنبى القصيدة أمام كافور، قال له ابن الفرات فى خبث ودهاء: أجدت أبا الطيب وأحسنت! غير أن قصيدتك فى مدح فاتك كانت أجزل من هذه، وأطول نفساً، ولكن لعلك تريد أن تحقق ما قلته فى قصيدة فاتك:

وقد أطال ثنائى طول لابسه　　　إن الثناء على التنبال تنبال

فوجم المتنبى لهذا السهم النافذ، وعلم أن لا مخلص له من الدسائس ما دام بين

هؤلاء المناكيد.

وانتظر المتنبى وعد كافور فطال انتظاره. وكان الأسود قد أذن لفاتك بدخول الفسطاط للاستشفاء بعد أن ألحت عليه العلة بالفيوم، فجدد أبو الطيب الإتصال به، ورأى بعد أن يئس من كافور أن ينزل حاجاته بواديه الخصيب. وتوثقت المودة بين الصديقين، وهب الجواسيس وقالة السوء ينقلون إلى القصر كل يوم أخبارهما، وربما غالوا فى الأخبار وزوقوا الأحاديث، بما يضيفون إليها من زور وبهتان.

ومر عام وأكثر من عام على هذه الحال فطالت الجفوة بين المتنبى وكافور، واتسعت الهوة، وأصبح المتنبى لا يمشى خطوة إلا ووراءه جاسوس يرقب كل ما يقول ويفعل، ويكاد يعد عليه أنفاسه.

زاره مرة ابن رشيد فاستقبلته عائشة، وعلى وجهها مسحة من كآبة، وهي تقول:

ـ أهلاً بالشاعر الكسل! أتمر سنة لا نسمع فيها منك شيئاً؟!

ـ إن البلابل لا تغنى وسط حفيف السهام. إنى قدمت إليك وورائى جاسوس صحبنى من دارى إلى هنا، وأخشى أنه لا يتحرّج من أن يكون بعد قليل ثالثنا.

ـ كيف ذلك يا أبا الطيب؟

ـ جيرانى أصبحوا على عيوناً، وصاحب الأخبار يطرق دارى كل ليلة ليتحقق من أننى لا أزال بمصر، وأننى لم أفر.

وبينما هما فى الحديث إذ دخل ابن رشدين ومعه الشريف إبراهيم العلوى وعبد العزيز الخزاعى، فلما رأوا المتنبى أقبلوا عليه يحيونه. وقال عبد العزيز:

ـ مالى أراك واجماً يا أبا الطيب؟

ـ إن حبل كافور يضيق حول عنقى قليلاً قليلاً، فلم يبق إلا أيام حتى أختنق. فأسرع الشريف يقول: هذا صحيح. ويجب علينا جميعاً أن نفكر فى هذا الأمر الجلل. فصاحت عائشة فى ذعر: ما الخبر؟

ـ الخبر يا سيدتى أن حاجب الوزير أبى بكر بن صالح شيعى شديد التمسك بمذهبه، وهو لهذا يخلص لى الحب والمودة، ثم هو يعلم صلتى بأبى الطيب. وقد زارنى

اليوم وأكد لى أنه سمع كلاماً دار بين أبى بكر وابن الفرات يدل على أن هناك مؤامرة دنيئة تحاك خيوطها للإيقاع بالمتنبى بعد عيد الأضحى. فقالت عائشة:

ـ بقى على العيد أيام. . .

ـ فى هذه الأيام نستطيع أن نعمل عملاً حاسماً. فقال عبد العزيز:

ـ الرأى عندى أن يستعد أبو الطيب من الآن للفرار. ثم طلب منهم إغلاق الأبواب والنوافذ وعاد إلى الحديث فقال بصوت خافت: يقوم العبيد غداً بدفن الرماح فى الرمل وراء المقطم، وقبل الرحيل بقليل تحمل على الإبل قرب من ماء النيل تكفى لعشر ليال، ويحمل زاد يكفى لعشرين يوماً حتى إذا كانت ليلة عيد الأضحى تسلل أبو الطيب إلى الصحراء بعد أن يتسلل إليها قبله ابنه وعبيده، وسأكون فى رفقة الشاعر، وسنهتبل فرصة اشتغال رجال القصر بالعيد وبما يوزعه عليهم كافور من الهدايا والصلات، فنفر دون أن يشعر بنا أحد، حتى إذا فرغوا من العيد ومن منح الهبات، ولن يكون ذلك إلا بعد يومين نظروا يمنة ويسرة فلم يجدوا لطريدتهم أثراً.

فقال الشريف: هذا حسن. ولكن كافوراً إذا لم يجده بعد يومين من فراره أرسل خلفه شياطين جنده فوق سوابق الخيل فأدركوه ولو كان فوق بساط سليمان. فقال عبد العزيز:

ـ إننا سنغادر الفسطاط قبل فجر يوم الأضحى، وسنمتطى جوادين من سلالة الجواد الذى وصفه أبو الطيب:

رجلاه فى الركض رجلٌ واليدان يدٌ　　　وفعلـه ما تريد الـكف والقدم

فلن يدركنا الظهر إلا ونحن أمام بلبيس، وهناك أرسل مع أبى الطيب بعض عبيدى الذين يعرفون مسالك الصحراء. فقال ابن رشدين فى حدة:

ـ أى طريق يسلكون؟ إن سلطان كافور يمتدّ إلى كل طريق توصل إلى العراق.

ـ إنهم سيسلكون طرقاً غير معروفة، ويطرقون مفاوز مجهولة، وينزلون حول مناهل لم يطرقها طارق، وإن جنود كافور بعد طول البحث والنصب سيتطلعون إلى السماء، ويظنون أن أبا الطيب قد اتخذ إليها سبيلاً. فتنهدت عائشة ونظرت إلى المتنبى، ودموعها

تنهمر انهماراً. ثم عادت تفكر فرأت أن حياته فى ميزان القدر، وأنها يجب أن تنسى نفسها لقاء نجاته من كارثة محققة، فحاولت أن تجفف من دموعها، وتبسط من وجهها وقالت:

ـ ولكن حتى يحين موعد الفرار يجب على أبى الطيب أن يظل متصلاً بالقصر حتى يصرف الأنظار عنه. فقال الشريف:

ـ نعم. وفوق هذا أرى أن يذيع بين رجال القصر أنه سينشد كافوراً قصيدة بعد أيام العيد. فصاح الجمع: هذا حسن هذا حسن...

وقام المتنبى إلى داره ومعه عبد العزيز. وما أشرق عليهما الصباح حتى شرعا فى إنفاذ خطتهما فى دقة وإحكام. وكان المتنبى فى غضون هذه المدة يروح ويجىء مطرقاً حزيناً يتمتم بكلمات، ثم يخرج من كمه ورقة ويدوّن فيها ما تفيض به شاعريته. وتسلل محسد والعبيد متفرقين من الفسطاط إلى بلبيس، فلم يشعر بهم أحد. وانتظر المتنبى وعبد العزيز ليلة العيد حتى إذا هدأت الأصوات، ونامت العيون، وخلت الطرق من السابلة، خرجا من الدار فى إسراع وصمت، كأنهما طيف خيال أو خطرة ببال. وما جاوزا باب الصفاء، حتى طار بهما الجوادان فلم تستبن العين لهما أثراً.

ولاح فجر العيد سنة خمسين وثلاثمائة، وذهب كافور فى موكبه الحافل للصلاة بالجامع العتيق، وشغل رجال القصر بعد الصلاة ببذل العطايا للعلماء وكبار الجنود، ومضى يومان ذهل فيهما القوم عن المتنبى وعن تقصى أخباره. وحدث بعد ذلك أن دخل أبو بكر بن صالح على ابن الفرات وقال:

ـ لم نر المتنبى أيام العيد ولم يزرنا فى خلالها فماذا جرى له؟

ـ لعله مريض. فأرسل بعض الأعوان للسؤال عنه.

فأسرع أبو بكر وأمر طائفة من الجند بالذهاب إلى دار المتنبى والتحقق من أمره، وسار الجند إلى الدار فرأوا بابها مغلقاً ففتحوه ودخلوا فلم يجدوا بالدار ديّاراً. فأخذتهم الدهشة، وأخذوا يبحثون فى كل حجرة. وبلغ أحدهم حجرة نوم المتنبى فرأى سريره وكأن فوقه شيئاً قد التف بغطاء، فصاح فى جذل: هنا الشاعر يا إخوانى! هلم إلىّ! إنه نائم فى فراشه. وجاء الجند، ورفع أحدهم الغطاء فلم يجد تحته إلا ورقة كتبت فيها قصيدة طويلة فأخذها. وبعد أن يئس الجند من العثور على الشاعر ذهبوا إلى أبى بكر وأخبروه الخبر.

فاسرع إلى كافور وهو يرتعد من الغضب ويصيح : لقد فر المتنبي يا مولانا! لقد فر من أيدينا على الرغم من كل ما بذلنا من حيطة وحذر! فصاح كافور في صوت يخنقه الغيظ: أية حيطة وأي حذر؟ ويل لنا منه إن لم نقبض عليه!! سيخلد هجونا على الدهر، وسيجعل من اسمنا سخرية ترددها الأيام! ابعثوا خلفه الجنود. ابعثوهم وراءه في كل مكان يمكن أن ينفذ منه : في الصعيد، وفي طريق الشام، وفي طريق برقة، وفي الماء، وفي الهواء. فر مني الفاجر وضحك مني ولعب بي! وكنت أظن أني ألعب بألف من أمثاله المغرورين! وبينما هو في حدة غضبه يزمجر كما يزمجر النمر الجريح، إذ مد الجندي يده إلى أبي بكر بالورقة التي رآها في فراش المتنبي فأخذها منه ويده ترتعد. ورآه كافور فسأله ما هذه؟ فلمح منها أبياتاً وقال :

يا مولانا هذه قصيدة وجدها الجنود في فراش الشاعر البغيض ولن أستطيع قراءتها. فصاح كافور في غضب مخيف : اقرأ ويلك كل ما فيها، ولا تترك منها حرفاً! فقرأ وهو يتصبب عرقاً :

عيد بأية حال عدت يا عيد؟ — بما مضى؟ أم لأمر فيك تجديد؟
أما الأحبة فالبيداء دونهم — فليت دونك بيداً دونها بيدا!
لولا العلا لم تجب بي ما أجوب بها — وجناء حرف، ولا جرداء قيدود
يا ساقييّ أخمرٌ في كؤوسكما؟ — أم في كؤوسكما همٌ وتسهيد
أصخرة أنا مالي لا تحركني — هذي المدام ولا هذي الأغاريد
إذا أردت كميت اللون صافية — وجدتها وحبيب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيا؟ وأعجبه — أني بما أنا باك منه محسود!
أمسيت أروح مثر خازناً ويداً — أنا الغني، وأموالي المواعيد!
إني نزلت بكذّابين، ضيفهم — عن القرى وعن الترحال مصدود
جود الرجال من الأيدي، وجودهم — من اللسان. فلا كانوا ولا الجود!
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم — إلا وفي يده من نتنها عود
أكلما اغتال عبد السوء سيده — أو خانه فله في مصر تمهيد؟!
نامت نواطير مصر عن ثعالبها — فقد بشمن وما تفنى العناقيد!
لا تشتر العبد إلا والعَصا معه — إن العبيد لأنجاس مناكيد
ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن — يسيء بي فيه عبد، وهو محمود!

ولا توهمـت أن النـاس قد فقدوا وأن مثـل أبـى البيضـاء موجودا
جوعـان يأكل من زادى ويمسكنى لكى يقـال عظيم القـدر مقصود
من علّـم الأسـود المخصـىّ مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصيد؟
أم أذنه في يد النخّاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردود؟

* * *

وعاد الجنود بعد شهر فدخلوا إلى كافور يخبرونه فى دهش، بأنهم لم يتركوا منفذاً إلا سلكوه، ولكنهم لم يقفوا للمتنبى على أثر، كأنه ابتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء. فصعق كافور، وكاد يسقط من كرسيه. ثم حملق مذعوراً كأنه كان ينظر إلى المتنبى وهو يفرقع بإصبعيه فى وجهه ساخراً ويقول:

فربتمـا شفيتُ غليل صدرى بسير أو قنـاة أو حسام
وضاقـت خطـة فخلصـت منها خلاص الخمـر من نسـج الفدام



خاتمة المطاف

سبتمبر ١٩٤٧

خوف

لم تشهد مدينة الفسطاط منذ أن دق عمرو بن العاص بها أطنابه كهذين الفارسين، وقد التفا بعباءتيهما السوداوين فزادا ظلمة الليل البهيم وحشة وإرهاباً، وخطا بهما جواداهما فى حذر وخشية فلم يكن يتردد من أنفاسهما إلا ما يتردد من همسات النسيم الوادع يهز أطراف الغصون. اخترق الفارسان خضم الظلام كأنهما شبحان من أشباح الظلام، لا تكاد تحس لهما حركة أو تسمع ركزاً، أو كأنهما تمثالان من صنع الفراعين الأولين سرت إليهما روح خافتة خامدة فبقيا على ما عهد فيهما من جمود إلا ما كان من يد تقبض على العنان، ورجل تثبت في الركاب. صمت وإطراق مخيفان حقاً، وليل وهدوء مخيفان حقاً، والهدوء في ذاته رفيق بالنفس، حبيب إليها، ولكنه إذا اقترن بالظلام كان مخيفاً، وكان مبعثاً للهواجس ومثاراً للخيال الجامح الذي يخلق ما شاء من صور، ويبتدع ما أراد من تهاويل. وخير لك ألف مرة إذا لفّك الليل في مكان موحش أن تسمع حولك صخباً وضوضاء من أن تسمع هدوءاً وصمتاً، إذا صح أن الهدوء والصمت يسمعان. ذلك لأن الهدوء مظنة المفاجأة والاغتيال، وهل قتل الصيد إلا ذلك الهدوء الذي يتصنعه الصائد لينقض؟ وهل فتك القاتل بفريسته إلا بعد أن خدعها بجو من السكون الشامل؟ وهل يسرت الفطرة للحيوانات الضارية سبيل الفتك إلا بتلك الأقدام اللينة التي لا تحس إذا مست الثرى؟

سار الفارسان فى صمت وإطراق، وظللهما الليل بصمته وإطراقه، فكان لا يرى إلا سراج خافت هنا وهناك يلمع فى نافذة، ولا يسمع إلا طنين بعوضة أتخمتها الدماء فأرسلت

صوتاً ضعيفاً متقطعاً، ولا يحس إلا رفيف خفاش عاد من بعض الحدائق بعد أن نال من ثمارها.

سار الفارسان هكذا صامتين جامدين فمرا بجامع العسكر، وكان أبو هلال السبكي مؤذن المسجد ينام فوق سطحه، واتفق أن أيقظه بعض الهوام، فبدرت منه التفاته، فرأى الفارسين. وكان من بين كبار المخرفين يحتفظ إلى حفظه القرآن الكريم بثروة واسعة من أقاصيص الجن والشياطين، فما كاد يرى الفارسين حتى حملق وتمتم بكل ما وعى صدره من صنوف الاستعاذات والأدعية، فلما جاوزاه تنفس الصعداء، وأخذ يسكن رعدة هزّت أوصاله، ويحدث نفسه فى همس لم تسمعه أذنه: أفارسان هما؟ لا. إنهما لم يكونا فارسين، أنا واثق بذلك ثقتي بوجود هذه المئذنة القائمة. وأنّى لفارسين أن يسيرا فى هذا الليل الداجى، وفى ليلة يسكن فيها كل رجل إلى أهله ويهدأ ليستقبل العيد مرحاً نشيطاً؟ إنهما لم يتحركا ولم يتهامسا فكيف يكونان رجلين؟ لقد رأيت بعينيّ شرراً يتطاير من أعينهما، ورأيت بعيني أنهما كانا يركبان أسدين لا حصانين. نعم لقد كانا أسدين ما فى ذلك شك. لقد سمعت زئيرهما بأذنى. ولقد اتجه أحدهما ببصره إلى الأعلى كأنه أحس بمكانى فأخفيت وجهى خلف شرفات المسجد.

ويلى من هذه الأرواح الشريرة التى لا تدب إلا فى حلك الظلام! وإلى أين كان يسير هذان الشيطانان؟ أغلب الظن أنهما لا ينتهيان إلى خير. أكان علىّ أن أصيح بملء صوتى حتى أوقظ النوام لينقضّوا عليهما؟ لا. لو فعلت وتيقظ الناس لتسربا فى الهواء، ولم يكن جزائى إلا أن أشتم أو أرمى بالجنون. غداً أقص على الناس هذا الخبر الرائع، وسيكون حديث العيد، وسوف ينالنى شيء من الخير كلما قصصته على من لهم ولوع بمثل هذه الأخبار.

ابتعد الفارسان عن جامع العسكر فمال أحدهما على صاحبه وقال هامساً:

ـ كيف نجتاز الباب الشرقي يا أبا الطيب؟

ـ هذا ما كنت أفكر فيه يا ابن يوسف، ومن العجيب أننا دبرنا كل شيء ولم يخطر ببال أحدنا أن الباب سيكون مغلقاً، وأن الحارس قد يكون شريراً عنيفاً.

ـ لو كان الحارس شكساً صخاباً لقضى الأمر وكتبت علينا الخيبة.

ـ خل عنك اليأس يا ابن أخى، فإن من خصائص هذا الخنجر أنه يسكت الأصوات.

ـ لن ألوث يدى بدماء الأبرياء.

ـ إن من يقف فى طريق عزيمتى لا يكون بريئاً. فابتسم صاحبه ابتسامة ضاعت فى الظلام وقال:

ـ أخشى أن أقف فى طريق عزيمتك.

ـ لا تمزح يا خزاعى، فإنما نحن فى جد عابس دميم. بم تشير إذا لم نقتل الرجل؟

ـ لقد اعتدت ألا أفكر فى أمر إلا بعد أن أعرف ما يحيط به من شئون، وبعد أن ألتقى بصعابه وجهاً لوجه، فدعنا الآن من التفكير فلعل اللّه معقب فرجاً.

كان المتكلم عبد العزيز الخزاعى زعيم العرب ببلبيس، وكان يخاطب صديقه وصفيه أحمد بن الحسين المتنبى، وقد عزم فى تلك الليلة على الرحيل عن مصر والفرار من وجه كافور، بعد أن أقام أربع سنوات فى ضيافة الأسود يمدحه بروائع الشعر، ويخلع عليه من صفات الجلال والبطولة ما يندر اجتماعه فى إنسان. ولم يقصد كافوراً إلا بعد أن خدعه عمّاله، أو خدع هو نفسه بأنه سينال عنده الحظوة الكاملة، والمنزلة الرفيعة، وأنه سيوليه إمارة تسكت صائح طموحه، وتشفى غلة نفسه، وترفعه من وهدة الشعراء المجتدين، إلى قمة الملوك الحاكمين. فأقام بمصر يتزلف إلى الأسود ويتملقه، ويضفى عليه حللاً من الثناء لم ينسجها زهير لهرم بن سنان، ويشب بنسبه المجهول دفعة واحدة حتى يبلغ به ذروة معدّ بن عدنان. وقد أنفد الأسود حيله، فكان يستجديه ويسأله إنجاز وعده فى لطف ووداعة، أو فى خشونة وإلحاف. وكثيراً ما كان ييأس فيثور على كافور وعلى نفسه وعلى الناس جميعاً، ويلعن الحظ العاثر الذى ساقه إلى مصر وأوقعه بين براثن هذا الزنجى اللعين، ويبكى على أيام سيف الدولة وعلى سالف عهده بحلب، وما كان يتقلب فيه من نعيم فى ظلال هذا العربى المجاهد الكريم الذى كان يفهم شعره، ويقدّر مكانته، وينزله بين سمعه وبصره، ولكنه بطر وأشر فلاقى جزاء البطر والأشر. سخط على الجنة التى كان ينعم فيها بوارف من العيش هنىء، فخرج منها مذءوماً شريداً، فساقه النحس وقاده نكد الطالع إلى جحيم تأجج فيها الخلف والكذب والمطل والخديعة والرياء. إلى جحيم يرى فيها نفسه وهو العربي العزوف، والشريف الأنوف، الذى تصغر فى عينه العظائم، ويرمى

بعزيمته إلى أبعد مطارح الآمال، مدفوعاً إلى أن يقول للقرد أنت آية الجمال، وللكلب أنت العزة فى تمثال، ولابن آوى أنت صفوة الصحاب، وللثعبان أنت ملح اللمى عذب الرضاب. وأن يقول لكافور:

أنـت شمس أنـت بدر أنـت نور فوق نور

إلى جحيم أحرق فيها آماله ومطامحه وعزته وشممه، وهدم فيها كل مجد بناه، وشرف أثله وأعلاه، وأصبح من سوقة الناس شاعراً مستجدياً بغيضاً، يرمى إليه العبد بفتات موائده، ويلزمه أن يقول بكل لقمة يزدردها بيتاً من الشعر فى وصف آلائه الحسنى، وآيات عظمته الكبرى. إلى جحيم سلط فيها كافور عليه زبانيته ينتقصونه ويزدرونه ويتجسسون عليه، فلا ينطق بكلمة إلا وهي فى كتاب، ولا يخطو خطوة إلا ولها عندهم حساب.

ضاق المتنبى بمصر واختنق بعد أن رأى أنه فقد فيها كل شىء، ولم يحصل على شىء. وبعد أن رأى شبابه يولى قبل أن يبلغ من الدنيا مأرباً، وغصن عوده يذوى وتسقط أوراقه جافة يابسة كما تسقط أوراق الخريف إذا عصفت بها الرياح، وبعد أن رأى الشر يلمع فى عينى كافور، ورأى النمر يستجمع للوثوب، والصل الأسود يقترب منه رويداً رويداً ليقبله قبلة الوداع، وبعد أن تواترت إليه الأخبار بأن كافوراً ووزيريه ابن الفرات وأبا بكر بن صالح يعدون الفخ لاصطياد الطائر الطموح المغرور، وبعد أن جلس الجواسيس والعيون حيال داره لا يفارقونها فى صباح أو مساء.

ضاق المتنبى بمصر واختنق حينما تنكر له أهلها، وناصبه العداء علماؤها، ومشى له الضراء شعراؤها، وأصبح شعره فيها سخرية فى كل مجلس، ومتندراً فى كل سامر. ولو لم يخفف اللهّ عنه هذه البلوى بحب عائشة بنت رشدين وصادق وفائها وحلو حديثها، وبإخلاص أخيها صالح وكريم حفاوته، وبمودة عبد العزيز الخزاعى، ورعاية إبراهيم العلوى، لبخع نفسه الحزن، ولقضى عليه الهم، ولذهبت نفسه فى الهالكين. كان يحب عائشة، وكانت تحبه حباً عذرياً قدسياً شريفاً يناغم عزتها وكرم أرومتها، ويساوق شرفه وأنفته. وكان يزور بيت أخيها بين الحين والحين فيجد فى حنوها الجنة والنعيم، وكثيراً ما كان يضم المجلس الشريف إبراهيم العلوى والشاعر ابن أبى الجوع وشيخ العرب عبد العزيز الخزاعى.

وكان للمتنبى بصيص من أمل فى أبى شجاع فاتك، وهو من كبار قواد دولة

الإخشيد، ولكن الموت عاجله فأطفأ آخر وميض لمطامع الشاعر، وتركه مع كافور يتنازعان البقاء، ويتباريان في فنون الدهاء والرياء.

لم يبق إذاً لأبي الطيب عيش بمصر، ولم يبق له إلا أن يرحل وأن يرحل سريعاً، فقد ينطبق عليه الفخ في أية لحظة، وقد تنقضّ عليه الصاعقة وهو يتأمل في جمال الأفق. ولكن ماذا يصنع وقد نصب له الأسوَد الأرصاد، وبثّ خلفه العيون، وعقد العزم على أن يحتبسه بمصر وألا يدع له إلى الفرار سبيلاً؟ فقد كان العبد يخشى عاقبة فراره. وكان يخاف بعد أن أذاقه عذاب الهون بمصر أن ينطلق لسانه بهجائه إذا استدبر الفسطاط، وأن يجعل من اسمه سبة الأبد، وأضحوكة الأجيال.

ضاقت الدنيا في وجه المتنبي، ورأى أن حبل كافور أخذ يقترب من رقبته رويداً رويداً، فدبّر مع أصدقائه أن يفر من مصر ليلة عيد الأضحى من سنة خمسين وثلاثمائة، وأن يساعده على الفرار صديقه عبد العزيز الخزاعي، وأن يرحل ابنه وعبيده عن مصر قبل فراره بأيام.

وقد تمت المؤامرة ونفذت دون أن يخرم منها حرف، وتسلّل الشاعر في هذه الليلة من داره في صحبة صديقه الخزاعي بعد أن ترك تحت غطاء سريره ورقة كتب بها قصيدة في ذم كافور نفث فيها سمه، وشفى غليل صدره، ولطّخ كافوراً بهجاء مرّ مقذع يمحى جلده الأسود ولا يمحى، وتزول بشاعة وجهه ولا يزول، ورماه بسخرية لاذعة وكلم ممض أصغت إليه الآفاق، وتداولته الأزمان، وتندّرت به الأجيال، وبقى بقاء الشمس، وترك للعبد ذكراً خالداً لو كان يطمع في مثل هذا الخلود. ولا يزال أبناؤنا وبناتنا وشبابنا وشيبنا ينصتون في شغف وشوق إلى:

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟

فيضحكون ويطربون.

خرج المتنبي في هذه الليلة من الفسطاط فاراً من وجه كافور ومعه صاحبه الخزاعي، فلما اقتربا من الباب الشرقي ألفيا عنده رجلاً ضخماً مفرطاً في الطول، قوى العضل، موثق الخلق، كأنه صخرة نحتت على هيئة الرجال. ولم يكن فراج القوصي حارس الباب، ولكنه كان ينوب في هذه الليلة عن زوج أخته علقمة السباعي، الذي أراد

أن يرفه عن نفسه ليلة العيد بالراحة وبعض اللهو، وكان فراج على قوة جسمه ضعيف العقل خامد الإدراك، ساذجاً إلى حد البلاهة، عنيفاً إلى حد الجنون، كأنه الهر المستوحش لا تراه إلا متنمراً متوجساً، نشأ في أعلى الصعيد ببلده قوص نشأة جافية، بين جهل وبداوة وشظف من العيش، وكأن الفطرة رأت أنه نال من قوة الجسم وركانة العضل ما فيه الكفاية وفوق الكفاية، فلم تعطف عليه إلا بقليل من الإدراك لا يخرجه من نطاق الحيوان الأعجم إلا بشق الأنفس وبعد لأى وجهد. كان بقوص يرعى الماشية ويعيش معها: يأكل مما تأكل، ويشرب مما تشرب، ويسبح في النيل كما تسبح، وينام حيث تنام، ويفهم لغتها وتفهم لغته، ولم يكن بينه وبينها من الفروق إلاّ أن هذا قائم يمشى على رجلين. وتلك متطامنة تمشى على أربع. وإن أحداً لا يدرى إلى الآن أمنها أخذ عقله أم منه أخذت عقلها؟ ولكن الناس كانوا يرون قطيع الجاموس وفيه فرّاج فيظنونه مالاً سائباً، وكانوا في أحيان قليلة يرون فراجاً وحده، فيعجبون كيف شرد هذا الحيوان عن القطيع، وكيف تُرك هكذا هملاً؟ وكان شباب القرية ومجّانها كثيراً ما يتندرون به ويهارشونه: جلسوا مساء يوم عند شاطىء النيل، وقد جاء ليسقى قطيعه ويشرب، فسأله خبيث منهم معاجزاً:

ـ كم عدد قطيعك يا فراج؟ فوقف ذاهلاً وقد فتح فاه، ثم بدا على وجهه الجد، وقال في تلعثم:

ـ عدد القطيع؟ وماذا أريد من عدد القطيع؟ إنه يأكل ويشرب وكفى.

ـ لو سرق سارق إحدى هذه الجواميس، أكنت تعرف إذا لم تعرف عددها؟

ـ أعرف كل شيء، والذى أعرفه أكثر وأكثر أن سارقاً لو جرؤ على أن يمد يده إلى جاموسة منها لشربت دمه شرباً. ثم نظر إلى سائله في سخرية وتحدٍ وقال:

ـ على أن عددها من أيسر الأمور وأهونها، فهذه واحدة، وهذه واحدة، وهذه واحدة...

ـ كم واحدة إذاً؟ فأسرع بعض الشبّان ساخراً وقال:

ـ الله سبحانه وتعالى أعلم، فالتقطها فراج في عجلة واغتباط كأنه ظفر بالقول الفصل والرأى القاطع، وصاح في جذل: الله سبحانه وتعالى أعلم.

طلب الخزاعى من فراج في رنة الآمر وعظمة الواثق أن يفتح الباب، فنظر إليه فراج

وأخذ يصعّد فيه بصره ويصوّبه، ثم فتح الله عليه بكلمة فقذف بها فى سرعة حتى لا ينساها وقال:

- إنى لست حارس الباب.

- من أنت إذاً؟

- أنا فراج. فعلم الخزاعى أن فى الرجل بلاهة، وأن عليه أن يسير فى الأمر على نحو لا ينفّر منه ضعاف العقول. فقال:

- أهلاً بفراج! أين المفتاح يا فراج؟

- ماذا تريد من المفتاح؟ إنه فى هذه الكوة، ولكن علقمة أمرنى ألا أفتح لأحد.

- صحيح، إن علقمة رجل أمين ذكى شديد الحذر، وقد عرف كيف يختار رجلاً مثلك أميناً ذكياً شديد الحذر، غير أنه من المحقق أنه أمرك ألا تفتح لأحد يجىء من خارج المدينة ثم يطرق الباب طالباً الدخول إليها، فإن فى ذلك خطراً عظيماً، إنها تكون مصيبة داهمة حقاً أن يدخل المدينة عدو. ولكنه لا يعقل أن يأمرك بألا تفتح الباب لأى رجل يريد الخروج من المدينة، الخروج من المدينة يا فراج غير الدخول إليها، أين تسكن يا فراج؟

- أسكن فى حارة الحمّالين بجانب الجبل.

- هل بحجرتك فيران؟

- كثير جداً.

- عظيم، أإذا أراد فأر فى حجرتك أن يخرج منها إلى الحارة أكنت تأبى عليه أن يخرج؟ فابتسم فراج ابتسامة جعلت فمه يتصل بأذنيه كأنه فهم معضلة من أعقد مسائل الفلسفة وقال:

- لا. يجب أن يخرج، إن الخير فى أن يخرج.

- إنك رجل متوقّد القريحة. وإذا أراد فأر جديد أن يدخل حجرتك فهل تسهّل له سبيل الدخول؟

- لا. أبداً.

- هكذا نحن يا فراج. نحن سنخرج، وليس فى ذلك أى حرج، ولا يمكن أن يكون علقمة نهاك عن أن تخرج أحداً.

ـ إن كلامك صحيح معقول، ولكن يبقى أن علقمة أمرنى ألاّ أفتح الباب، وهو لم يذكر دخولاً ولا خروجاً، ولكنك تجيء الآن فتربك عقلى بمسألة الدخول والخروج، وأظن الأحوط لى أن أثبت على أمر صاحبى، فاذهب عنى بالله عليك فقد أتعبت عقلى بالحجرة والفيران، وبمشكلة الدخول والخروج، إن أمى حينما أرسلتنى إلى الفسطاط لأشتغل بنقل الأحجّار للدار التى بناها مولانا كافور، أمرتنى أن أطيع علقمة وألا أخالف له أمراً، فاذهب إلى شأنك يا رجل، وبعد قليل يؤذن الفجر، وينبسط النهار، ويجيء علقمة، وهو أعلم منى بمعنى الدخول والخروج.

فظهر الألم على وجه الخزاعى، ورمى بنظرة نحو فراج، ثم أرسلها نحو المتنبى، وكان فى هذه النظرة كثير من العجب والدهش والحسرة، وكأنها على سرعة وميضها كانت تقول: أحياة هذه العبقرية الضخمة، وذلك النبوغ الخارق أصبحت معلقة بكلمة يقولها هذا الغرّ الأبله الذى لا يعقل ولا يبين؟ أذلك العقل الهبرزى، والذهن الوقّاد، رمى به نحس الطالع إلى أن يستجدى بسمة رضاً من هذا الحيوان الجاهل المعتوه؟ أليس من أضاحيك القدر ومبكياته، أن يقف المتنبى، وهو الفارس الكرّار، والبطل المغوار، الذى ملأ خياشيمه غبار الوقائع، ذليلاً مستعطفاً أمام ذلك الممرور الأحمق، والرعديد المائق؟ أليس من خرف الزمان، وجنون الأيام، أن يخضع الشعر، وتطاطىء الفلسفة، وتتضاءل الحكمة، ويذل المثل الشرود، لهذا الغبى العيى المأفون؟ أهذه تصاريف القدر التى يسمونها؟ أهذه أحكام الفلك الدوّار التى يجب أن نقتنع بها راضين أم ساخطين؟

وما كادت تعود إليه نظرته حتى همس المتنبى فى أذنه قائلاً:

ـ دعنى أقتله يا ابن يوسف.

ـ اصبر قليلاً فالأمر لا يستحق كل هذا، وليس هو من نوع الشرف الرفيع الذى يجب أن يراق على جوانبه الدم.

وما كاد يتم قولته حتى سمعت خطوات أخذت تقترب قليلاً قليلاً ظهر من ورائها رجل شعشاع يحمل فى يده هرّاوة طويلة غليظة، ويلبس ثياب العسس. فأخذت قلب الخزاعى رعدة، وغاله ارتباك وذعر، ولكنه جمع إليه نفسه وقال:

ـ وهذا أحد العسس يا فراج وهو يستطيع أن يفهم ما نقول. فاهتز العاسّ لهذا الثناء الضمنى على ذكائه وعبقريته، وقال مبتسماً.

ـ ما الأمر؟

ـ الأمر في غاية السهولة واليسر، أنت تعرف يا . . يا . . فأسرع العاس قائلاً:

شماخ الأحول.

ـ أنت تعرف يا شماخ أن مولانا كافوراً أمر بضرب دنانير جديدة، وأمر أن يرسل قدر منها إلى عامله بالرملة ولا بد أنك تعرفه يا شماخ. فابتلع شماخ ريقه، ورأى من واجب العظمة والذكاء وكرامة المنصب أن يكون يعرفه، فقال:

ـ نعم . . . نعم . . . أعرفه.

ـ إنه الحسن بن طغج.

ـ نعم الحسن بن طغج بلا شك، إنه الحسن بن طغج.

ـ وأنت تعرف يا شماخ أمر عصابات اللصوص الذين تمتلىء بهم هذه المدينة. فهزّ شماخ رأسه مزهواً حين رأى انسياق الحديث إلى شأن يستطيع الكلام فيه وقال:

ـ اللصوص يا سيدي؟ إنهم كثيرون منتشرون في أنحاء المدينة، وكبيرهم مسافر بن طلحة، وهم يا سيدي من قبائل القيسية، يضربون خيامهم بأهناس، وهي كورة إلى الجانب الآخر من النيل تقرب من الفسطاط، ولا تخلو ليلة من سرقة أو نهب أو غارة. كنت أمرّ ليلة أمس بزقاق القناديل فرأيت باب إحدى الدور مفتوحاً، فعجبت للأمر، ودخلت الدار فلم أسمع بها حساً، فلما اقتربت من دهليزها رأيت رجلاً مكموماً مكتوفاً ملقىً على الأرض، فتأملته فإذا هو إسحاق الجوهري اليهودي، وهو رجل شحيح جديب الكف جمّاع منّاع، لو عرّف أن فوق مناط الثريا درهما لطار إليه، وهو يعيش وحده في هذه الدار، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولا يؤنسه في وحشته إلا أكداس من المال والجواهر، فأسرعت بحل وثاقه وفك كمامته، وعلمت بعد جهد أن اللصوص سطوا على داره وأخذوا كل ما فيها من جواهر وتركوه جثة خامدة بين الموت والحياة. إن سرقة كهذه يا سيدي لا يجرؤ عليها إلا مسافر ورجاله. وخاف الخزاعي أن يسترسل هذا الثرثار في الانطلاق وفي أقاصيص السرقات التي يكاد يخطئها العد، فقال:

ـ أراد مولانا كافور أن يرسل أكياساً من الدنانير الجديدة إلى صاحب الرملة، ووكل إلينا السفر بها فكتمنا الأمر خوفاً من اللصوص، وعزمنا أن نسير خفية تحت جناح الليل حتى لا يشعر بنا أحد منهم فيتعقبنا في طريق الصحراء مع بعض رجاله، ويغتصب منا ما نحمله.

ـ هذا رأى حازم يا سيدى، ونعم والله ما فعلت. هؤلاء اللصوص يا سيدى. . وخاف الخزاعى أن يندفع الرجل إلى أحاديث اللصوص وأفاعيلهم، فأسرع ومد يده إليه بدينار وقال:

ـ وهذا نوع الدنانير التى أخرجتها دار الضرب حديثاً. فوثب فراج وأخذ الدينار ونظر فيه، وقال هازئاً:

ـ وهذا درهم أصفر! فمد شماخ يده واختطف الدينار وحملق فيه بشره ونهم، وقال:

ـ تباً لك من أبله ممرور. إن الدرهم لا يكون أصفر أيها الجاهل. إن الدرهم من فضة، والفضة بيضاء، أما الدينار فمن ذهب، والذهب أصفر. أعرفت أيها الغبى؟ إنه دينار كافورى جديد، وهو يساوى فى قيمته خمسة دنانير.

وحينما لمح الخزاعى الجشع فى عينى شماخ لمح معه الفرصة المواتية، فقال:

ـ إن هذا الدينار هبة خالصة لمن يسبق منكما إلى فتح الباب. وما كاد يفرغ من قوله حتى وثب شماخ إلى الكوّة، وأسرع فالتقط المفتاح وأدخله بغلق الباب وأداره فانفتح، ثم هزّ يده بالدينار وصاح: اخرجا أيها السيدان.

فأسرعا إلى الباب، وصاح الخزاعى جذلان فرحاً: لقد استحققت الدينار يا شماخ! هكذا الشهامة! وهكذا البطولة!

وبقى فراج ينظر إليهما مذهولاً دهشاً واجماً، وهو لا يعرف ما جرى، ويستنجد عقله ليعرف أول الأمر وآخره فلا ينجده، ولم يبق فى ذهنه من كل هذه المسألة المعقّدة إلا أن الدرهم يجب أن يكون أبيض، وأن الدينار يجب أن يكون أصفر.

وانطلق أبو الطيب والخزاعى كأنما أطلقا من عقال. وجعل المتنبى ينظر من بعيد إلى فراج وشماخ وينشد:

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن ... يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
وإنما نحن فى جيل سواسية ... شر على الحر من سقم على بدن
حولى بكل مكان منهم خلق ... تخطى إذا جئت فى استفهامها بمن
لا أقترى بلدا إلا على غرر ... ولا أمر بخلق غير مضطغن
ولا أعاشر من أملاكهم أحداً ... إلا أحق بضرب الرأس من وثن

حيرة

أخذت تباشير الصباح تبدو فى الشرق كأنها نهر من نور تتهامس أمواجه، ويتلألأ فوقها حبابه، وآذن زنجى الليل بالرحيل فطفق يقتطف أزهار النجوم فلم يترك إلا واحدة بقيت فى الأفق لمّاعة وهاجة خفاقة، كأنها ترتعد فرقاً من أن يغرقها سيل الصباح. وزجر الفارسان جواديهما فانطلقا مع الرياح كأنهما من الرياح، وانجردا كأنهما القضاء المنقضّ ليس له مرد ولا عنه محيد. وصبّا السوط عليهما ظالمين فانصبا كما ينصب السيل هداراً عجاجاً لا يقف فى طريقه شىء، ورميا بطرفيهما إلى البعيد فأصبح قريباً، وكأنما أعدى عدوهما الأشجار والنخيل فعدت معهما إلى حيث يقصدان. وعجبت الطيور فى السماء أن يكون منها طيور ذات قوائم، وعبس وجه الأفق بعد أن كاد غبارهما يسد معاطس الأفق، وشكت الأرض من ضرب سنابكهما المتلاحق وظنت أنها تلاقى جزاء زلتها فى أن ترضى بأن تكون أماً لهذا الإنسان الذى خلق من طين!

أشرقت الشمس على الفارسين كأنها قرص من الذهب النضار، وبعثت إلى الكون نوراً وحياة كعادتها فى كل يوم، وهى لا تعرف ماذا يفعل الناس بالنور والحياة، ولا تعرف أن الحياة التى تمنحها فيها معنى الموت وفيها معنى الفناء، ولكن ما شأنها هى بمن يعيش أو بمن يموت؟ إنها سراج إلهى يستضىء به من أراد أن يستضىء، إنها تضىء للأعمى، وتضىء للبصير، وتشرق على البّار والفاجر، ولكنها على أى حال خير من السحب البله التى تترك الرياض الظمأى وتصب ماءها مدراراً على الأراضى السبخة التى لا تخرج زرعاً ولا تنبت بقلا، وهى خير ألف مرة من الحديد الذى يخدم الإنسان ويقتله.

أشرقت الشمس على الفارسين فكفكفا من عنانى فرسيهما بعد أن جاوزا الفسطاط بأميال، وبدت الزروع والكروم والنخيل يداعبها النسيم فينفض عنها غشية النعاس، واستيقظت القرى والدساكر ودبّ فيها ضجيج الحياة، بين ترنيم الطيور، وصياح الدّيكة، وبين ثغاء وخوار ونباح. وكان كل شىء فى الكون مشرقاً بسّاماً، وكان كل شىء ضحوكاً مرحاً، وكان كل شىء يسطع بفطرته النقية على ما حوله فيزيده تألقاً وابتهاجاً، حب وسلام وجمال، هكذا خلق الكون ليكون، وهكذا يجب أن يكون، ولكن الإنسان المشئوم الشقى بنفسه ومطامعه، يقلّب هذا الحب عداء وشكاسة، وهذا السلام حرباً وصراعاً، وهذا الجمال قبحاً ودمامة. كان كل شىء فى الكون جميلاً مشرقاً إلاّ المتنبى، فإنه كان واجماً عابساً منتفخاً بالشّر مشحوناً بالبغضاء، ناقماً من الكون ومن كل من فى الكون، يشكو ويهمهم:

أما فى هذه الدنيا كريم	تزول به عن القلب الهموم؟
أما فى هذه الدنيا مكان	يسر بأهله الجار المقيم؟
تشابهت البهائم والعبدّى	علينا والموالى والصميم
وما أدرى أذا داء حديث	أصاب الناس أم داء قديم؟
كأن الأسود اللابىّ فيهم	غراب حوله رخم وبوم
أخذت بمدحه فرأيت لهواً	مقالى للأحيمق يا حليم
ولما أن هجوت رأيت عياً	مقالى لابن آوى يا لئيم
فهل من عاذر فى ذا وفى ذا	فمدفوع إلى السقم السقيم؟
إذا أتت الإساءة من وضيع	ولم ألم المسىء فمن ألوم؟

فالتفت إليه الخزاعى فى ألم وحسرة قائلاً: هوّن عليك أبا الطيب، فإن نجاتك من الأسود حياة جديدة، ولا يزال فى العمر مقتبل، ولا يزال لآمالك مسبح فى هذا الكون المضطرب بالآمال، وإن مثلك من اتخذ من الإخفاق سلماً، ومن الهبوط ذريعة إلى الصعود. والتجربة عقل ثان، وإن لك من شعرك ورصين خلقك وبعيد طموحك ما يغزو لك الدنيا ويذل الأمراء. انظر أبا الطيب، إنك لم تفقد شيئاً بل لقد ربحت كثيراً، نزلت على كافور فتغفلته واستوليت على كثير من ماله، ثم فررت منه كما يفر الماء من خلال الأصابع، ثم أرسلت هجاءه فى الآفاق تتناوح به الرياح، وتسير به الركبان، ويتغنّى به

الصبيان، ويتنادر به السمّار، وسيبقى على الزمن أضحوكة الزمن، وأقسم غير حانث إن هجاءك لأشد على الأسود من وقع السهام في غبش الظلام، وإنه ليود بجدع الأنف لو تخلى عن بعض ملكه ولم يفوّق إليه شعرك المسموم قافية. لم تندب يا أبا الطيب؟ لقد ألقيت على أمراء هذا الزمان بهجائك كافوراً درساً لن ينسوه، فإذا خسرت اليوم أميراً فلقد كسبت أمراء، إنهم يعطون إذا رغبوا، ولكنهم إذا رهبوا أعطوا أكثر وأكثر، وهم يحبون المديح ويثيبون عليه، ولكنهم يبغضون الهجاء ويثيبون على دفعه عنهم أضعافاً وأضعافاً، وقد عرف ذلك قبلك اللئيم بشّار فكان يقول: إن الهجاء أجلب للمال وأرفع لقدر الشاعر من المديح. اذهب الآن أبا الطيب حيث شئت تجد كل أمير يسارع إلى لقائك، ويحتفل بمقدمك، ويقبّل الأرض بين يديك، ويفتح لك خزائن ملكه. وأكبر الظن أن سيف الدولة ينتفض منك الآن فرقاً، ومعز الدولة ببغداد يتحرّق لقدومك عليه شوقاً، وعضد الدولة بفارس يود لو يحملك إليه السحاب. أفق أبا الطيب، ما هذا الحزن؟ وما هذا الوجوم؟ إن من يراك يظن أنك فقدت عرشاً أو سُلبت سلطاناً، إنك تملك الكون كلّه بشعرك، إن الأرض كلها لك مغدًى ومراح، وإن من كانت له عبقريتك وعزيمتك يجب أن يسمو فوق الأشخاص ويرتفع فوق الشهوات، ويطلّ على الناس من سماء مجده كوكباً منيراً.

ـ هذا كلام أشبه بالشعر يا ابن يوسف لا يثبت على النظر، ولا يقوى على البحث، فلقد فقدت بقدومي على العبد كل شيء: فقدت شبابي، وفقدت آمالي، وفقدت كرامتي، ودنّست اسمي بين الشعراء. إنني نشأت في أول أمري شاعراً أقرض الشعر فيمن يستحق ومن لا يستحق، وكانت جوائزي لا تتجاوز بضعة دراهم فلما منحت مرّة ديناراً على قصيدة من خير ما تنفّس به الشعر العربي، توهّمت أني لمست السماء، وقطفت عنقود الجوزاء. وكم لاقيت عسراً، وكم لاقيت عنتاً، وكم قاسيت مسغبة وفقراً، وكم أطرقت للذل، وشربت المر، وبليت بقوم هم شر على الحر من سقم على بدن، ولكني كنت أزجر النفس إذا سئمت، وأروّضها إذا نفرت، وأتواضع لجبروت من أمدحهم، وأصلّق أكاذيبهم، وأضحك لنوادرهم الغثّة الباردة، وحينما بلغت بدر بن عمار توهمت أني بلغت القمة، واقتعدت سنام الشرف.

ـ بدر بن عمار الذي تقول فيه؟

لو كان علمك بالإله مقسما ... في الناس ما بعث الإله رسولا

لو كان لفظك فيهم ما أنزل الـ ـفرقان والتوراة والإنجيلا
لو كان ما تعطيهم من قبل أن تعطيهم لم يعرفوا التأميلا

لقد أغرقت أبا الطيب وجاوزت النطاق، وهذا شأنك دائماً إذا رضيت.

ـ وأغرق أيضاً وأجاوز النطاق إذا سخطت. ظننت أني بلغت القمة عند بدر بن عمار هذا، وكان فتى عربيداً سكيراً ماجناً، ولكنه كان جواداً متلافاً، فرضيت بحظى منه، وقنعت بجنته المحفوفة بالمكاره، ولكن حسّادى تيقظوا حين نمت، وثاروا حين سكنت، وأفسدوا بينى وبين الأمير، فلم أجد وسيلة إلا أن افرّ منه وأن أتخذ الليل مركباً، وأترك عنده آمالاً لم تتفتح أزهارها، ولم تزغب أطيارها، وكانت هذه الخيبة الأولى، أما الخيبة الثانية، وهى التى لا أزال أقرع عليها السن، وأعض الأنامل، فهى خصومتى لسيف الدولة وإدلالى عليه أشراً وبطراً، وجفوتى لما كنت فيه من النعيم جنوناً وخرقاً، ومعاداتي لأهله وحاشيته تجبراً وكبراً، حتى ضاق بى وحق له أن يضيق، وتبرم بمقامى وأجدر به أن يتبرم، فنبت بى حلب وخرجت منها ليلاً كما يخرج اللص المطارد. ولطالما نصح لى راويتى أبو الحسن بن سعيد بألا أترك سيف الدولة أو أبغى به بديلاً من ملوك الأرض، وكأنى أسمع الآن نبرات صوته فى أذنى وهو يقول: «إنك الشاعر الذى بعث على رأس هذا القرن لينهض بالعرب، وليغنى بمآثر العرب، وليعيد مجد دولة العرب، ولن أجد لك ميداناً بين دويلات الإسلام أوسع من حلب، ولا ملكاً يساير رنين شعرك صليل سيوفه إلا سيف الدولة، إنه الملك الفذ الذى يقارع الروم، والحرب يا أبا الطيِّب لن تسير غازية فاتحة مظفرّة إلا عن ألحان من الشعر الحماسى، الذى يلهب الوجدان، ويقذف الرعب من قلب الجبان». هكذا كان يقول ابن سعيد فما سمعت له ولا اكترثت بقوله.

ـ حقاً لقد بلغت ذروة مجدك الشعري عند سيف الدولة، وكنت والله جديراً بأن تقول:

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مغرِّداً

وحقيقاً بأن تقول:

وعندى لك الشّرد السائرا ت لا يختصصن من الأرض داراً
قواف إذا سرن من مقولى وثبن الجبال وخضن البحارا

ولقد صدق ابن سعيد فإن شعرك كان جنداً لسيف الدولة أقوى من جنده، وسلاحاً أمضى من سلاحه، فمن غيرك كان يستطيع أن يصف الجيش وصاحبه كما قلت؟

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه   وفي أذن الجوزاء منه زمازم
تجمّع فيه كل لسن وأمة   فما يفهم الحدّاث إلا التراجم
وقفت وما في الموت شك لواقف   كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمةً   ووجهك وضّاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى   إلى قول قوم أنت بالغيب عالم
ضممت جناحيهم على القلب ضمة   تموت الخوافي تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب   وصار إلى اللّبات والنصر قادم

هذا أفق لم يحلّق فيه شاعر، وأوج لم يصدح بجوّه طائر.

ـ لا تثر أشجاني بالله عليك يا ابن يوسف، ودع جرح قلبي يندمل. فإن الذكرى تزيده ألماً ونغلاً. أين أنا من سيف الدولة الآن ومن أيامه النضرات، ولياليه المشرقات؟ تركت هذا الملك الحر الكريم المجاهد يا ابن يوسف ثم قصدت من؟ قصدت كافوراً الزنجي الخبيث النتن الكذّاب الماكر المحتال، فجزاني الله على كفري بالنعمة، وألقى بي في عذاب الجحيم بعد أن بطرت على الجنة، ولقد كان أبو الحسن بن سعيد صادقاً أيضاً حين كان يجذبني من كمي ويقول: «احذر يا أبا الطيب. فإنه قد يجول بخاطرك أن تذهب إلى مصر، وإني أربأ بك أن تفعل هذا، وأن تجعل من نفسك عبداً للعبد الأسود، ويا لضيعة الشعر. ويا لضيعة الأدب. إذا انحدرا إلى هذه الهاوية». ولكني لم أطعه، وساقني الغرور إلى مصر، وعقدت الآمال بالكذاب الفاجر، وها أنذا أفرّ اليوم منه كما يفر الطائر من الفخ مهيض الجناح ممزّق الأوصال. كأن حياتي أصبحت كلها فراراً، وكأنه كتب على ألا ألقى ملكاً إلا فاراً من ملك، وألا أودّع ممدوحاً إلا بمثل ما قلت في كافور.

ـ تقصد «الدالية»؟ إنها قصيدة خالدة على الدهر، ولكن دعك من كافور الآن، ووجه همك إلى ما سيكون من أمرك، وما ستتفتح به تلك الأيام.

ـ لن أترك كافوراً، ولن أكفكف عنه سهام شعري، وستشرق عليه شمس كل صباح بصاعقة جديدة تهز أعواد عرشه. ولعلك لا تصدق يا ابن يوسف أني كنت أقول فيه شعراً حينما كنت تحاور فراجاً حارس الباب.

ـ عجيب أمرك يا أبا الطيب، وويل لمن يبتلى بلسانك المرّ.

ـ كنت أقول:

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا	وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا
أميناً وإخلافاً وغدراً وخسة	وجبناً، أشخصاً لحت لي أم مخازيا؟
تظن ابتساماتي رجاء وغبطة	وما أنا إلا ضاحك من رجائيا
وتعجبني رجلاك في النعل، إنني	رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا
ولولا فضول الناس جئتك مادحا	بما كنت في سرى به لك هاجيا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة	ليضحك ربّات الخدور البواكيا

ـ هذه صفعات بالنعال لمحض المداعبة.

ـ وستليها صفعات وصفعات إن كان في الحياة متسع، لقد أهدر هذا الأسود مجدى الشعرى كما قلت لك آنفاً، وسوف أضطر إلى أن أبدأ بصعود السلم من جديد، فقد كان ملوك العرب يحيطونني بهالة من الهيبة والإجلال، ويظنون أني أحمى أنفا، وأعظم منزلة، وأسمى كرامة، من أن أتدلى إلى مدح العبد، وأن أشد رحالي إليه، وأن أتسلب من المروءة والرجولة فأبيع شعرى بالمال لحبشى دعىّ في نسبه دعى في ملكه، وأن أترك صناديد العرب وأبطالهم يجاهدون فلا يصف وقائعهم واصف، ويبذلون فلا يسجل محامدهم شاعر. فكيف أذهب إليهم الآن يا ابن يوسف؟ إنني إن ذهبت فسوف توصد في وجهي أبوابهم، وأذاد مذءوماً عن حضرتهم، وسيقولون متهانفين ساخرين: شاعر أفّاق مهين، لا نفس له ولا كرامة، لو وجد في عنق كلب طوقاً لمدحه، ولو رأى في جيب بغىّ درهماً لخلع عليها كل صفات الطهر والعفاف. وماذا نبغى من مديح رجل كان يقول للعبد بمصر؟

ويغنيك عما ينسب الناس أنه	إليك تناهى المكرمات وتنسب
وأى قبيل يستحقك قدره	معد بن عدنان فداك ويعرب

ويقول فيه:

عند الهمام أبى المسك الذى غرقت	فى جوده مضر الحمراء واليمن

إننا نريد شاعراً يصدقه الناس ويوقنون أنه لا يقول للمال ولكن للزعامة القومية،

والحمية العربية، والغيرة على الإسلام. هكذا سيقول ملوك العرب يا ابن يوسف ولهم الحق فيما يقولون، وليس الأمر كما تظن من أن هجائي كافوراً سيخيفهم بل إنه سيجرئهم عليّ ويزهدهم فيّ وفي شعري، لأنني أصبحت شاعراً ليس لقوله وزن، ولا لحكمه تقدير، شاعراً لا يمدح للحق ولا يهجو للحق، وإنما يمدح ليسخر من ممدوحيه، ويهجو لأنه يئس منهم، أو لأنه امتص كل ما لديهم وراح يبحث في الأفق عن صيد جديد أسمن منهم وأدسم. خبِّرني بالله يا ابن يوسف، بأي وجه ألقى الآن سيف الدولة بن حمدان، بعد أن خاصمته وناوأته ونافرته؟ إنني رجل أحمق يا ابن يوسف، إذا تملكتني حمى الغضب قذفت الكلام يميناً وشمالاً، وبدرت مني بوادر يحتبسها الحازم الحذر فلا يتحرك بها فوه، إنهم يسمونني الشاعر الحكيم، ولكن يظهر أنني أنثر حكمتي على الناس وأنسى نفسي، وأنني كبائع الجوهر يحلّي صدور الحسان وهو متسلب عاطل، وإلا فما الذي كان دعاني بعد أن بعدت عن سيف الدولة وانقطع ما بيني وبينه، أن أعرّض به عند مديحي للأسود فأقول:

قواصد كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه ... وخلّت بياضاً خلفها ومآقيا

ـ هذا صحيح، فقد جعلت كافوراً بحراً، وجعلت سيف الدولة ساقية، وجعلت الزنجي إنسان عين الزمان، وجعلت سيف الدولة بياض العين الذي لا غناء له ولا خطر.

ـ ثم ما هذا العرق اللئيم الذي دفعني عند مدح كافور إلى أن أقول؟

قالوا هجرت إليه الغيث قلت لهم ... إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذي تهب الدولات راحته ... ولا يمنّ على آثار موهوب

ـ أتظن أن سيف الدولة يدرك هذا التعريض البعيد؟

ـ إن ذهنه في فهم مرامي الشعر ومواقعه أرهف من سيفه. على أن طيشي وهذري لم يحوجاه إلى كد الفهم وإعمال النظر، فقد أرسلت هجاءه وهجاء قومه صريحاً في «نونيتي» الملعونة التي أقول فيها:

رأيتكم لا يصون العرض جاركم ... ولا يدرّ على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل ... وحظ كل محب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفدكم ... حتى يعاقبه التنغيص والمنن

أبعد هذا أستطيع أن أمد يداً إلى سيف الدولة أو أن أنزل له بجوار؟

ـ أنا كفيل بأنّ أكبر أمنية لسيف الدولة أن يراك فى قصره، وأن يعيد بشعرك عظمة ملكه وصولة سلطانه.

ـهذا كلام يا ابن يوسف، وهبنى أطعتك وذهبت صاغراً إلى سيف الدولة، فكيف أصل إليه إذا لم أمرّ ببلاد كافور، وأظنه اليوم قد ملأ كل الطرق عيوناً علىّ وأرصاداً؟

ـ فأين تذهب إذا لم تذهب إلى سيف الدولة؟

ـ واللهّ لا أدرى أين أذهب.

ـ هل خطرت ببالك بغداد؟

ـ بغداد؟ ألا تزال تظنها دار الخلافة، وموئل العربية بعد أن استولى عليها الديلم، واستبدّ بها معز الدولة؟ إنها لا تجمع اليوم إلا شذّاذ الشعراء، وحثالة المسترزقين بالأدب، الذين يغدق عليهم الوزير المهلبى الماجن، ويرسلهم على أعدائه ومنافسيه كما ترسل الكلاب المضرّاة خلف صيد نافر. على أن حمقى الذى سد على طريق العودة إلى سيف الدولة قد أوصد الباب بينى وبين بغداد، لأننى اندفعت حينما كنت بحضرة سيف الدولة إلى أبيات كلها تعريض بصاحب الأمر ببغداد، فقد قلت أخاطب سيف الدولة:

فدتك ملوك لم تسمّ مواضيا ... فإنك ماضى الشفرتين صقيل

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ... ففى الناس بوقات لها وطبول

ـ ليس فى هذا تعريض بمعز الدولة بتاتاً، وقد عهد الناس فى الشعراء وألفوا منهم أنهم إذا مدحوا ملكاً فضّلوه على غيره من الملوك، والناس يعرفون هذا، ويعدونه من خصائص الشعر ومنادحه، ويعتقدون أن الشاعر لا يقصد مما يقول إلا المبالغة والإغراق.

ـ أتظن هذا؟

ـ هذا ما يخطر ببالى كلّما قرأت أبياتاً من هذا القبيل.

ـ وما قولك فى هذين البيتين إذاً وقد قلتهما فى سياق مدح سيف الدولة؟

فواعجبا من دائل أنت سيفه ... أما يتوقى شفرتى ما تقلدا؟

ومن يجعل الضرغام للصيد بازه ... تصيده الضرغام فيما تصيدا

ـ لا يا أبا الطيب، هذا تحد صريح، وتشهير بمعز الدولة، وتصوير مخز لضعفه، كيف ساغ لك أن تقول مثل هذا؟ ومالك وللديلم؟

ـ لا أدرى، وإنما هو لسانى الذى يسوقنى إلى المهالك، أرأيت الآن أنى لا أستطيع الرحيل إلى بغداد؟ وماذا بقى من أقطار العرب بعد مصر والشام والعراق، وقد تركت فى كل منها جريمة شعرية تذودنى عنها؟

ـ بقى الفاطميون بالمغرب.

ـ للفاطميين عقيدة لا أسيغها، ولهم فلسفة لا أفهمها، على أنى لا أستطيع الوصول إليهم إلا إذا اخترقت بلاد كافور، فأسقط هؤلاء من الحساب أيضاً.

ـ لم تبق إلا فارس ولكنى لا أشير بها عليك.

ـ وأنا لا أشير بها على نفسى، وإذاً لم يبق أمامى بعد أن يئست من الملوك، وبعد أن سدوا أبوابهم دونى، إلا أمران لا ثالث لهما: إما أن أنزل من القمة التى صعدت إليها بعد جهد وكد، وأعود إلى ما كنت عليه فى بداية أمرى، فأستجدى بشعرى صغار الناس وطغامهم، أمثال محمد بن زريق الذى وصلنى على قصيدة بعشرة دراهم، فلما عاتبه صديق فى قلة الجائزة مع حسن الشعر وجودته، قال له: «والله ما أدرى أكان شعره حسناً أم قبيحاً؟ ولكنى أزيده لأجل خاطرك عشرة دراهم أخرى». وإما أن أعود إلى الكوفة فأقبع فى دارى، وأهجر الناس جملة، وأقيم بينى وبين الملوك وأشباه الملوك سداً، فقد كفانى ما لقيت منهم، وكفاهم ما لقوا منى، ولى الآن ثروة تكفل الراحة والنعيم وهناءة العيش.

ـ مثلك لا يعمل الأولى ولا يستطيع الثانية، فلن تمد يدك إلى صغار الناس مستجدياً، ولن تقبع فى دارك خاملاً متزهداً، إنك الحركة الدائبة يا أبا الطيب، والطموح الوثّاب، والهمّة الغلاّبة، والعزم الفصّال، إن مثلك لا يقبع فى داره إلا إذا قبع الفلك الدوّار، ووقف الليل وتعب النهار، وسلبت الأسود غرائزها، والسيوف مقاطعها، والسيول تهدارها، والجبال ركانتها وشموخها، وكيف تهدأ وفى نفسك نار لا تهدأ إلا بالتجوّال، وفى صدرك أتون يغلى بمضطرب الآمال؟ وإنك لصادق حقاً حينما تقول:

وفى الناس من يرضى بميسور عيشه ... ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبىّ ماله ... مدى ينتهى بى فى مراد أحده

يرى جسمه يكسى شفوفاً تربّه | فيختار أن يكسى دروعاً تهده
وحينما تقول :

فما لىَ وللدنيا طلابى نجومها | ومسعاى منها فى شدوق الأراقم؟
من الحلم أن تستعمل الجهل دونه | إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم
وأن ترد الماء الذى شطره دم | فتسقى إذا لم يسق من لم يزاحم

وحينما تقول :

إذا غامرت فى شرف مروم | فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير | كطعم الموت فى أمر عظيم

مثلك يا أبا الطيب لا يهدأ فى داره كما تهدأ العجائز يغزلن بأيديهن وينلن بألسنتهن كل عدو وصديق، لا يا أبا الطيب، إنك لو أردت الاستقرار لغلبتك نفسك على الجلبة والصخب والاضطراب والضرب فى كل مكان، إن لسانك لسان شاعر، وقلبك قلب ملك، وعقلك عقل حكيم، وعزمك عزم جبّار، وهذه إذا اجتمعت ضاقت بها الدنيا وغصّت بها الآفاق، فكيف تجمعها دار؟ وكيف تحبسها حيطان؟

ـ هذا هو الذى يؤلمنى يا ابن يوسف، وهذا هو الذى يحز فى نفسى، لقد رحلت إلى مصر طامعاً فى أن أنال من الأسود ولاية ألقى عندها رحال آمالى، وأسكت بها صيحات مطامعى، وأتعلل بها عن مطالبى الضخام، ومقاصدى الجسام، فضاع أملى فى العبد وخاب ظنى فيه. ولقد كنت على اعتزام الرحيل عنه بعد إقامتى سنتين فى كنفه تحقق لى فيهما كذبه ومينه وخداعه، وأنه عبقرى فى بذل الوعود، نابغة النوابغ فى إخلافها. كنت على أهبة الخروج من مصر حينذاك، وكان الخروج منها سهلاً فلم يكن كافور قد تشكك فى أمرى، ولم يكن الأبله يعتقد أنى عرفت طوايا نفسه، وأدركت خبثه ومحاله. ولم يعقنى عن الرحيل فى ذلك الحين إلا أمران : أولهما عائشة بنت رشدين، فلقد كانت ملكاً كريماً فوق هذه الأرض يا ابن يوسف، إنها الطهر المصفّى والعفاف النقى، والأدب الساحر والذكاء النادر، والحنان الذى ينضح الهموم ويبدّد الآلام.

ـ والجمال الذى لم تر الشمس له مثيلاً منذ طلعت الشمس.

ـ والجمال الفاتن يا ابن يوسف، جمال الروح وجمال الجسم وجمال الخلق وجمال

الابتسامة المشرقة وجمال الحديث الذى يختلب العقول. إننى رجل جاف خشن الطبع شائك الملمس يا ابن يوسف، لم تترك آمالى الضخام فى قلبى مكاناً لحب ولا موضعاً لصبابة، ولم تهف نفسى إلى عبث الشباب ومجون الشباب، ولقد استقر فى نفسى أنى سهم صوّبه الله إلى غرض هو المجد فيجب ألا يحيد عن المجد، وصارم بتّار لم يعرف فى يوم من الأيام إلا أن يسّل من غمده ثم يعود إلى غمده. ما استهوانى يوماً جمال ولا اجتذبنى دلال، ولا فهمت معنى للحب إلا فيما يقول الشعراء، وأنت أعلم بأكاذيب الشعراء، ولكنى أحسست نحو عائشة بميل عنيف كفكفت من غربه، وسخرت منه أول الأمر، ولكنه عاودنى أعنف مما كان وأشد حينما التقى بميلها، واتصل حبله بحبلها، ولقد كان حبّنا عذرياً طاهراً منزهاً عن دنس الدنيا، بريئاً من وصمة الشهوات سامياً فوق الحياة ومآرب الحياة، لقد كان حباً يشبه حب الملائكة الأطهار إن كان الملائكة يحبون. فعائشة هى التى حببت إلىّ البقاء بمصر، وهى التى أماطت عنى اليأس وذادت عنى هواجس الهموم، وهى التى كانت تضمد تلك الجراح المسمومة التى تركتها فىّ سهام الأسود بلطف حديثها، وفيض حنانها، وسحر بشاشتها.

ـ إن عائشة بهجة مصر وزينة أترابها، وهى أديبة كاتبة شاعرة، وهى فوق ما وصفت جمالاً وعفافاً وطهراً، ومثلها جدير بحب رجل مثلك يا أبا الطيب، وما الأمر الثانى الذى حملك على إطالة المقام بالفسطاط؟

ـ حملنى على البقاء بالفسطاط تلك الصلة الوثيقة التى عقدتها مع أبى شجاع فاتك، ولعلّى اليوم فى حل من أن أذيع سراً لأصدق أصدقائى، فقد انتهى الأمر، ومات فاتك وماتت معه آمالى ودفنت مطامحى.

ـ دفنت مطامحك؟ ماذا تريد بهذا؟

ـ انتظر يا ابن يوسف، لم تكن الصلة بينى وبين فاتك صلة شاعر بقائد، ولكنها كانت أسمى من ذلك وأعظم شأناً، كان فاتك يبغض كافوراً وكان كافور يبغضه ويخشى بطشه ويخاف منه على ملكه، فأراد فاتك أن يبتعد عن الأسود فأقام بالفيوم، وقد اتصلت به فى الصحراء بالقرب من «كوم أوشيم» مرّات، وكثيراً ما دار الحديث حول كافور وظلمه واغتصابه الملك، وعرف منى فاتك بغضى للأسود وما يضطرب فى نفسى من آمال، ولمح شدة عجبى من أن يحكم مصر عبد حبشى والدنيا تزخر بسادات العرب وصناديدهم، وكان

رجلاً شهماً ذكياً محباً للعرب مفتوناً بعظمة تاريخهم وجلال ماضيهم، فقال: اسمع يا أبا الطيب فإن لى رأياً يسهل تنفيذه إذا حاطته الحكمة وصانه الكتمان. قلت: هات أيها القائد، فقال: إننى عبد رومى ربانى الإخشيد، وليس لى فى الملك مطمع ولا فى عظمة السلطان أرب، ولكنى أبغض الأسود كما تبغضه، وأرى أنه مغتصب ملكاً لا يسمو لمثله مثله، وأن غيره أولى به وأحفظ له وأقوى عليه. وابن سيدنا «على» الذى أمات كافور نفسه، وخنق فيه كل همة، وأطفأ وميض كل فضيلة، أصبح أضعف من ذات خمار، وأوهى من القصبة المرضوضة، لا يصلح أن يكون ملكاً، ولا يصلح أن يكون رجلاً. ورأيى حينما تسنح الفرصة أن أجمع قبائل العرب الضاربة بالفيوم، وأن أكوّن منها جيشاً لهاماً نزحف به على الفسطاط، ونقبض على كافور ونريح الدنيا من اسمه، ثم تكون ولاية مصر شركة بيننا على السواء. ما رأيك يا أبا الطيب؟ فدهشت وبهت وكادت تدركنى غشية، لقد كانت مفاجأة عجيبة يا ابن يوسف. أكون ملكاً لمصر؟ أنا الذى كان يطمع فى ولاية صغيرة من العبد؟ أكون ملكاً لمصر، وأدبرّ الأمر من مصر إلى عدن إلى العراق فأرض الروم فالنوب؟

هذا أشبه بالأحلام، وأدخل فى باب الأوهام. إن مطامحى لم تصل بى إلى هذا، ولكن ماذا أعمل والخطة واضحة، والغاية محققة؟ فبلعت ريقى ثم قلت: ولكن لكافور أيها القائد جيشاً بالفسطاط شديد المراس يدبّره قواد عركتهم المواقع وعجمت عودهم الحروب. فأسرع وقال: إننى سأحتال على الرحيل عن الفيوم بعد أن أكون قد اتفقت مع مشايخ قبائلها، وسوف أقيم بالفسطاط حيناً أستطيع فيه إغراء قواد كافور وجنوده، وأكثرهم ساخط عليه متبرِّم بحكمه. وتم الاتفاق والتعاهد على كل هذا يا ابن يوسف، وبقيت بمصر أنتظر الواقعة التى ليس لوقعتها كاذبة، وقدم فاتك إلى الفسطاط وأخبرنى أن المؤامرة تمت على خير الوجوه وأدقها إحكاماً، وأنه لم يبق إلا أن يشعل النار فى الحطب، ولكن الموت عاجله قبل أن يمد يده إلى الزناد، فخابت آمالى وتمزقت مطامعى وطارت مع الرياح أحلامى. أرأيت يا ابن يوسف كيف كان حزنى على فاتك شديداً؟ أرأيت كيف ضاقت بى الحياة بعده؟ أرأيت كيف اجتويت مصر وأهلها وخرجت منها محطم النفس مهيض الجناح؟

ـ لم أعرف كل هذا، ولكن يظهر أن كافوراً كان عنده كثير منه.

ـ نعم فإن جواسيسه يكادون يقرءون ما فى الصدور.

ـ إذاً كنت تطمع في الملك يا أبا محسد! ولكنى لم أر في التاريخ شاعراً أحسن القيام على الملك، وأول هؤلاء امرؤ القيس ذلك الملك الضليل، ثم الوليد بن يزيد الخليفة الأموى، ثم عبد اللهّ بن المعتز العباسى.

ـ هؤلاء كانوا شعراء ولم تكن لهم نفوس الملوك وعزائمهم.

وما كاد المتنبى يتم قولته حتى شاهد هو وصاحبه غباراً خلفهما، وسمعا وقع سنابك خيل تعدو نحوهما عدواً، فذهل المتنبى وصاح أدركنا الأسود! أدركنا كافور! يا لخيبة الرجاء ويا لضيعة الأمل! إن هؤلاء بعض جنوده يا ابن يوسف. كنا ظننا أننا نجونا من أظفار الأسد فإذا هو يرسل علينا ذئابه! سأثب عليهم وأروّى منهم صارمى. فصاح به الخزاعى:

ـ اهدأ أبا الطيب ولا تسرع إلى الاحتكام إلى السيف. ومضى وقت قصير فقرب منهما ثلاثة فرسان قد أجهدوا خيلهم شداً وعنقاً، وصاح بهما كبيرهم فوقفا ثم قال فى صوت الآمر الظافر:

ـ ارجعا إلى الفسطاط. فأجابه الخزاعى فى رزانة واستخفاف متكلف:
ـ بأمر من نرجع إلى الفسطاط؟ بأمرك أنت؟
ـ بأمر الوالى.
ـ وماذا يريد منا الوالى؟

ـ يريد المال الذى سرقتماه أول من أمس من دار إسحاق الجوهرى، فقد ثبت لنا أن مسافر بن طلحة هو الذى أغار على دار اليهودى واستولى على جميع جواهره وبعث بها مع فارسين ليبيعاها بالشام. وقد جعل اليهودى ثلث الجواهر أجراً لمن يردها إليه. فقهقه الخزاعى حتى كادت تسقط عمامته، وقال:

ـ للهّ دركم أيها الحراس! ما أشد ذكاءكم! وما أبصركم باقتناص اللصوص! هل ترون فى وجوهنا وفى ثيابنا وفى مراكبنا ما يوحى بأننا من اللصوص؟ إنكم أيها السادة الكرام تضيعون وقتكم معنا، فإذا كانت لكم رغبة حافزة للقبض على لصوصكم فابحثوا عنهم فى مكان آخر.

ـ أنتم طلبة الوالى. فصاح المتنبى:

ـ إن الوالى أيها الأبله لا يطلب فارسين وكفى، وإنما يطلب لصين. ثم كشف عباءته

فظهر تحتها منطقة من النضار المرصّع بالجواهر، وبدا سيفه وقد كان مقبضه ونعله من خالص الذهب، وقال:

- أهذه ثياب لص؟ أهذه عدّة لص؟ فهمس أحد الثلاثة فى أذن كبيرهم قائلاً:

- ارجع أبا على ولا تكثر مع السيدين، فإنى أخشى أن يكونا من كبار رجال الدولة. فتراجع أبو على وقال:

- أرجو أن يعذرنى السيدان إذا كنت خشن القول عنيفاً فى البحث، فأنتما تعرفان ما وصلت إليه حال الفسطاط من جرأة اللصوص واستهانتهم بالحكام.

فقال الخزاعى:

- لا تثريب عليك يا رجل، وإنما الذى أغضبنا أننا كنا نظن أننا أكرم عند الناس وعند أنفسنا من أن يخلطنا مثلك بطائفة اللصوص.

- أسألك العفو يا سيدى، وأغلب ظنى أن يكون اللصوص قد سلكوا طريقاً أخرى. ثم أمر صاحبيه أن يلويا عنانى جواديهما، وعاد ثلاثتهم أدراجهم يملئون جنبات الأفق عثيراً وقتاماً. وتنفّس الخزاعى الصعداء، وابتسم المتنبى ابتسامة ساخرة، وكانا قد قاربا بلبيس فزجرا جواديهما حتى بلغاها بعد ساعة أو بعض ساعة، ورأيا أبناء الخزاعى ورجاله ومحسداً وعبيده ينتظرونهم عند ظاهر المدينة، فحيا المتنبى ابنه وخادمه مسعوداً بنظرة عابرة، ثم شكر الخزاعى على حسن بلائه وعظيم ما أسدى فى خدمته من عناء ومخاطرة، فسأله الخزاعى عن الطريق التى سيسلكها فقال:

- سأخترق الصحراء، وسأسلك المفاوز المجاهيل التى لا يصل إليها جواسيس العبد، وسأرد المناهل الأواجن، وأنزل المنازل التى لا يطرقها إلا أهلها.

- إلى بغداد؟

- إلى الكوفة، إلى منبت عظامى ومسرح صباى. منها خلقناكم وفيها نعيدكم.

ومنها نخرجكم تارة أخرى!

ما أظن يا ابن يوسف. ثم التفت فإذا غلام فاره ناضر العود جميل الزىّ وسيم شرق الجبين، يتقدم نحوه ويمد يداً لتحيته، فحقق فيه النظر ثم صاح:

ـ سيدتى عائشة! ماذا جاء بك يا مولاتى؟ وما الذى حملك على اقتحام المخاطر واتخاذ هذا الزى الغريب؟

ـ حملنى على كل ذلك أن أراك وأن أودعك يا أبا الطيب، ثم تناثرت الدموع من عينيها كما يتناثر اللؤلؤ من عقد انفصم سمطه، ومضت تقول: إذا جفتك مصر يا أبا الطيب وضاقت بك رحابها، فإن فتاة مصرية معجبة بك مفتونة بفنك تكنّ لك وداً أصفى من سماء مصر، وتفتح لك قلباً أوسع من فسيحات رحابها. إنها تمنحك حباً لو كان فى عاصفة لعادت نسيماً، ولو مازج الملح الأجاج لصار تسنيما، ولو لمس الهجير لحسده الأصيل، أو خالط الليل ما شكا طوله محب أو عليل. دعنى أحمل أوزار قومى يا أبا الطيب، وأبدلك بعقوقهم إخلاصاً، وبغدرهم وفاء، وبإهمالهم إجلالاً وتقديراً. لقد كان حبنا قدسياً طاهراً كأنه حب الغمام، وكانت نفوسنا صافية كصفاء الملائكة، وكان ودنا روحانياً نقياً كنقاء لآلىء الفردوس. والآن يا أبا الطيب آن أن نفترق، وقد يطوينا الموت قبل أن نلتقى، ولكنى سأراك فى كل لحظة وسأستمع لك فى شعرك كلّما رددت قصائدك الخوالد، وأبياتك الأوابد، وسأناديك فى اليقظة والمنام، وسأهتف باسمك كلما عصفت بى الآلام.
فزفر المتنبى وربت يدها فى حنان ورفق وقال:

ـ إن هذه الحياة يا عائشة أضيق من أن تتسع لمثل حبنا الذى لا تحده نهاية، فإذا ضاقت بنا الأولى فإن لنا فى الأخرى خلوداً ونعيماً وظلاً ظليلاً وعيشاً لا يكدره علينا مكدر.

وما كاد يستمر فى الحديث حتى صاح مسعود: الرحيل يا سيدى الرحيل.

ـ هل أعددتم الزاد والماء؟

ـ نعم يا سيدى. فحبا المتنبى الخزاعى، ثم حيا عائشة حزيناً كاسف البال، وهو يقول:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى ... وللحب ما لم يبق منى وما بقى
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ... ولكن من يبصر جفونك يعشق
ولم أر كالألحاظ يوم رحيلهم ... بعثن بكل القتل من كل مشفق
عشية يعدونا عن النظر البكى ... وعن لذة التوديع خوف التفرق

مخاطرة

كان الوقت أصيلاً، وكان النسيم خائراً ضعيف المنة يمر بأطراف النخيل فيهتزّ له سعفها فى كبر وسخرية، وكانت الشمس ترسل أشعتها صفراً برّاقة فوق الرمال الواهنة المجهودة، بعد أن طال بها النهار واشتد قيظه واشتعل هجيره اللّواح. وسار مع المتنبى عشرون بعيراً لحمل الزاد والماء، وخمسة عشر جواداً يمتطيها خدمه وعبيده وقد اكتملت لهم عدّتهم من السيوف والرماح، وتقدم المتنبى الركب وخلفه محسد ومسعود، وكان ينظر إلى الأفق البعيد حيران ذاهلاً متجهم الوجه حزين النفس، يردد الحسرات، ويرسل الزفرات.

لم يكن حديث عهد بالصحراء وجفوة الصحراء، ولم يكن قليل الخبرة بحياة شذّاذ الأعراب وصعاليكهم الضاربين فى أنحائها ومالهم من أخلاق وعادات، وما يتصفون به من ختل وتلصص واستباحة للأموال، فإن لصعاليك الصحراء قوانين وشرائع غير ما تعارف عليه الناس من قوانين وشرائع، ومن العجيب أن هذه الشرائع كثيراً ما تكون متضاربة متناقضة، فهم يقتتلون لأوهن سبب، ويصفحون لأوهن سبب، ويغتصبون الأموال حراماً ليبعثروها فى الكرم والضيافة حلالاً، وقد يحمون الجراد ولا يحمون بنى الإنسان، فإدراكهم لمعنى الشرف إدراك غريب كثيراً ما يؤدى بهم إلى فعل كل ما يخالف قواعد الشرف.

عرف المتنبى حياة الصحراء وأخلاق الأعراب فى طليعة صباه، حينما كان يتنقّل بين القبائل فى بادية الكوفة ليتلقى اللغة من أفواه رجالها، ثم عرف الصحراء حينما أقام طويلاً

فى بادية السماوة بالشام بين بنى كلاب، لهذا لم يكن على الصحراء دخيلاً، ولم يكن عن عادات الأعراب بعيداً.

سار الركب فى هذا البحر المائج الخضم بالرمال، وذلك التيه الذى يضل فيه الخرّيت ويزوغ البصر، وفى تلك الموماة التى يقول فى مثلها أبو الطيب: «بهماء تكذب فيها العين والأذن». وقد طمست الأعلام، وانمحت الصور، وزالت الآثار، ولم يبق إلا أن يعتمد الضارب فيها على الشمس أو بعض نجوم السماء. فضاء فسيح كأنه أمل الأحمق، وأرض مجدبة كأنها كف الشحيح، وصخر أصم كأنه قلب اللئيم، ورمال صفر كأنها بطون الحيّات. إنها أرض من الأحلام وجو من الأوهام، جفت فيها الحياة وجفتها الحياة، فلا نبات ولا عشب، ولا شوك ولا قتاد، لا يمر بها طير إلا خائفاً عابراً، ولا وحش إلا منطلقاً واجفاً، كأنها نسيت عند خلق الطين والماء فليس بها أثر للطين ولا قطرة من الماء. تبدو الكثبان بها وسنى مكدودة تمد رءوسها إلى السماء كأنها تتضرّع طالبة الفرار، وتبدو الوهاد بها مظلمة مخيفة كأنها أشداق الأسود. جفوة وشقاء ومحول وجمود وقسوة، ثم صمت ورعب وسكون هو سكون الموت، ووحشة القبور.

سار المتنبى يتقدم ركبه فى هذا التيه، ولم يبق فى صدره من الآمال الضخام إلا أمل واحد ضئيل خافت هو أن يعيش، هو أن يستطيع أن يخترق هذه الصحراء وفيه ذماء من حياة، هو أن ينجو بجلده من هذا الخطر الداهم والبلاء الواقع، لم يبق من مطامعه أن يكون أميراً أو ملكاً، ولم يبق من آماله أن يكبت أعداءه ويدوس بقدمه فوق آنافهم، ولم يبق من وساوس نفسه أن يترك فى الدنيا «دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر» طارت كل هذه الأحلام أمام عظمة الصحراء ومخاوفها، لأن الصحراء كالبحر الهائج المضطرب ترتعد لهوله الحياة، ويتوارى عنده الأمل، وتخشع النفوس.

وبدا القمر موشكاً على الاكتمال فلف الصحراء فى غلالة من نور، وكان المتنبى فوق صهوة جواده يرمى طرفه هنا وهناك كما ينظر الصقر من قنته إلى ما حوله من فضاء فسيح، وكان يهمهم بكلمات تقطعها زفرة حيناً، وزمجرة أحياناً، فقرب منه محسد وقال:

ـ ألا نحط الرحال هنا يا أبى فقد انتصف الليل وكلّت الرواحل؟

ـ إن سير الليل أروح للعبيد والدواب، وكلما بعدنا عن الفسطاط زال الحذر وسرنا فى أمن واطمئنان.

ـ إننا نسير في طريق لم تطأها قدم مسافر، فمن أين ليد كافور أن تمتد إلينا؟

ـ إننى أشعر بشيء من الراحة كلما بعدت الشقة بينى وبين الأسود، لأننى أريد أن أنسى أنى رحلت إلى مصر وأنى قصدت الأسود، ويخيل إلى أن بين المسافات والفكر اتصالاً، وأنه كلما شسعت المسافات بينك وبين شيء قل تفكيرك فيه.

ـ اترك كافوراً يا أبى لشأنه، فأنت أعظم وأنبل من أن تحقد على الرجل أو تلقى لمثله بالاً.

ـ لن يفلت من يدى هذا الوغد الذى جعل منى أضحوكة للشعراء والأمراء. إن أباك يا محسد إذا مسّت كبرياؤه فقد مس منه مكان السم فى الأفعى. انقل عنى يا محسد وأذع:

وأسـود أمـا القلـب منـه فضيق نخيب، وأمـا بطنـه فرحيب
إذا ما عدمت الأصل والعقـل والندى فمـا لحياة فى جنابـك طيب

ـ يلوح لى أنك تخفف بهجائه عن نفسك بعض ما تجد.

ـ نعم يا بنى إن هجاءه يروّح عن نفسى، ولا بد للمصدور أن ينفث، وللحزين أن يرسل الدموع.

ـ حقاً لقد أساء إليك، وأغرى بك حثالة الشعراء، ومسترزقة العلماء. كنت منذ شهر أسير بخطة مسجد عبد الله مع الشريف إبراهيم العلوى، فقابلنا الشيخ المعتوه الموسوس محمد بن موسى الذى يلقبونه بسيبويه، وكان على حماره، وهو لا ينزل عنه لأمير أو عظيم، فسلّم عليه الشريف، ولما عرّفه بى صاح: أنت ابن المتنبى! أهلاً أهلاً بابن شاعر الغبراء! لله أبوك فإنه يأتى فى شعره بالعجب العجاب. بالله سل أباك يا بنى عن قوله فى كافور:

يقـلّ له القيام علـى الرءوس وبـذل المكرمـات من النفوس

أكان يريد حقاً أن يقف للأستاذ على رأسه، وأن يطلق رجليه فى الهواء؟ يا له من مبتكر بارع! ويا لها من صورة بديعة! ويا لها من مهارة فائقة لا يستطيع أن يباريه فيها إلا «الأزعر الطمطمانى» أعظم مضحك بالمدينة! واجتمع الناس حوله لارتفاع صوته وكثرة إشاراته، ثم انطلق يقول: كان أبوك بالأمس خيراً منه اليوم حين قال لأبى الحسين المرى:

خير أعضائنا الرءوس ولكن فضلتها بقصدك الأقدام

ثم هلم إليّ يا بنيّ هلم! أللإنس يقول أبوك الشعر أم للجن؟ أيقوله ليفهمه الناس أم ليتمتموا به على رءوس المرضى والمصروعين لطرد المردة والشياطين؟ أشهد أنى حللت الطلاسم، وفككت الألغاز، وتعلمت لغة الجن، وقرأت خطوط الفراعنة، ولكنى لم أفهم قول أبيك:

لا تجزنـي بضنـي بي بعدها بقر تجرى دموعى مسكوباً بمسكوب

لقد كنا نشمئز من أن يتغزّل الشعراء فى الغزلان حتى جاء أبوك فتغزل فى البقر! ثم إنى أتحدى السيد الشريف، وهو ابن أفصح قريش، أن يدلنى على معنى لهذا الكلام الخنفشارى! فخجل الشريف، وزاد فى خجله ازدحام الناس وانتصار بعض طلاّب العلم لشيخهم الموسوس، فقال: إن فى البيت خفاء من غير شك، ولكن الشاعر يسأل اللهّ ألا تجزيه الحسان بالضنى الذى حل به ضنى يحل بهن، كما جزين دمعه المسكوب بدمع سكبنه لفراقه. فصاح المجنون: اللهّ اللهّ! سبحان الفتّاح العليم! سبحان المنعم المتفضّل واهب القوى والقدر! ألا قال كما يقول الناس:

لا قدّر اللهّ أن تضنـى ضنـاى بها كمـا جزتنـى مسكوباً بمسكوب

على أن المعنى بعد كل هذا ضئيل سخيف، لو رأيته ملقى على قارعة الطريق ما مددت يدى لالتقاطه. ثم انحى بعصاه على حماره وهو يصيح: أسرع بنا أيها الحمار قبل أن يفسد ذوقى وذوقك!

وما كاد يتم محسد حديثه حتى زفر المتنبى وقال فى كبر وأنفه: هؤلاء يا بنىّ لا يفهمون معنى الشعر، فإن من أولى خصائصه وأكبر ما يدفع فيه إلى اللّذة والاستمتاع، أن يكون خفياً تضطرب فى إدراكه العقول.

واستمر الركب يقطع البيداء، يقيل وقت الظهيرة، ويعرّس فى أخريات الليل، حتى رأى العبيد نخيلات عن بعد فصاحوا فى جذل وابتهاج: لقد بلغنا منابت العشب! سنرى بعد قليل الزرع والماء! وسنجد بعد قليل نخلاً نلجأ إلى ظلها الظليل! ولقد كانوا فى تفاؤلهم صادقين، فقد بلغوا ماء يعرف «ببنخل» ولكنهم ما كادوا يصلون إليه ويحمدون عاقبة السرى، حتى وجدوا عنده شرذمة من لصوص الأعراب تسقى خيلها، وما إن رأتهم حتى

وثبت عليهم تبغى انتهاب ما معهم من خيل وإبل وغنائم، فقاتلهم المتنبى وعبيده وأثخنوا فيهم، فسقط من سقط منهم، وفر الباقون يلتمسون النجاة. وفرح العبيد بانتصارهم، واندفعوا إلى الماء يشربون ويسقون دوابهم ويغمسون رءوسهم فيه حباً له وشوقاً إليه، ثم أخذوا يرقصون ويغنون على طريقتهم فى الرقص والغناء.

ونزل أبو الطيب بنخل ضيفاً على أبى النجم ملاعب الأسنة، وهو كبير الأعراب فى هذه الحلة، فأحسن ضيافته، وأكرم مثواه. وبعد أيام نال فيها العبيد شيئاً من الراحة أمر المتنبى بالمسير وشد الرحال، فعادت الخيل إلى خبها، والإبل إلى وخيدها، وكان السير مملاً مضنياً، والطريق وعراً موحشاً، لا ترى فيه العيون إلا هياكل بشرية لقوم قتلهم ظمأ الصحراء، أو إبل قضى عليها طول السفار.

ومضت هكذا أيام وأيام نال فيها طول الطريق وقلّة الزاد من العبيد، فضويت أجسامهم، ونفذ صبرهم، وشكست أخلاقهم وبدت فيهم روح السخط والتمرد، وكان يسيطر عليهم ويتزعم جماعتهم عبدان، هما: مجاهد وشعلان، وكانا أقواهم نفساً، وأشدهم عزماً، وأمضاهم ذكاء وتدبيراً، وأمهرهم لعباً بسيف أو تحكماً فى جواد.

وأحس المتنبى بوادر هذا العصيان، فأمر ابنه ومسعوداً أن يراقبا العبيد عند ما يخلون إلى أنفسهم.

واجتمع العبيد فى معرّسهم ذات ليلة، وأخذوا يشكون ويتذمرون، وكان مسعود مختفياً خلف بعير يسمع ولا تراه عين، فقال مجاهد.

- إن هذا المتنبى الأخرق يسوقنا إلى الدمار. فأجابه شعلان.

- لقد ضلّ الطريق ما فى ذلك شك، ولن تكون نهايتنا إلا مثل تلك العظام التى نراها فى الطريق، والتى كان لها لحوم فأكلتها الصحراء، والعجيب أننى كلما نصحت لعبده مسعود أن ننيخ الإبل للراحة، وأن نبحث عن دليل يرشدنا إلى مكان ينقذنا من هذا التيه، ونجد فيه ما تقتات به الدواب، عبس فى وجهى وقال فى تيه وصلف: أتظن أنك أعلم من سيدى بمجاهل الصحراء ومناهلها؟ إنك لو نبست بشىء من هذا الكلام أمامه لجعلك طعاماً لسيفه. فزمجر العبيد فى سخط واستنكار وهمسوا:

- ماذا نفعل إذاً ونحن أمام موت محقق؟ فقال مجاهد:

ـ يجب أن نثور ونحن والحمد لله جمع يبلغ الخمسة والثلاثين، ولا نعجز عن أن نقتله ونقتل ابنه وعبده. فقال أحد العبيد في صوت خافت:

ـ ثم نأخذ جميع ما جمعه من أموال مصر وكنوزها، فقال مجاهد:

ـ وماذا تنفع الكنوز في هذه الصحراء الجرداء الماحلة؟ فأجاب شعلان:

ـ إني أعرف طريق العودة إلى نخل.

ـ إذاً تكون الثورة غداً حينما يأمرنا هذا المخاطر المجنون بالرحيل.

وسكت القوم وهومت رءوسهم للنوم، وانطلق مسعود إلى سيده فنفض إليه جملة الخبر، فأطرق المتنبي طويلاً ثم رفع رأسه وقال: سنذهب معاً حينما يسيطر النوم على هؤلاء الكلاب ونستولي على ما نستطيع من سيوفهم، فإن العقرب لا تلسع إذا قطعت حمتها. اذهب عني الآن يا مسعود وأيقظ محسداً وسأكون معكما بعد قليل.

ومرّ من الليل ساعة، فغادر المتنبي رحله وقابل ابنه ومسعوداً، وانسلّوا تحت ستار الظلام إلى معرس العبيد فرأوهم نياماً، وقد ألقى كل سائف منهم سيفه إلى جنبه، فمشوا بينهم في هدوء لا يسمع له ركز ولا تحس نأمة، وتدلوا سيوفهم واحداً بعد واحد. والعبيد في سبات كاد يجعله السغب والكلال موتاً. وتبلّج ضوء الصباح، وتيقظ العبيد فتفقدوا سيوفهم فلم يجدوها فذعروا أول الأمر، ثم عرفوا أن المتنبي شعر بمكيدتهم فسلبهم سلاحهم وهم رقود، فقال مجاهد:

ـ لقد سرق سيدنا الأحمق أسلحتنا ونحن نيام، ولكن هذا لن ينجيه من أيدينا، إن بضعة رجال منا يكفون للقبض عليه ولو كان متسلحاً بسيوف الهند كلها. هلموا إلى الثورة أيها الشجعان!

فقام العبيد وكان المتنبي قد أخذ لهم الأهبة، فما كادوا يصلون إليه وإلى من معه حتى أركضوا فيهم جيادهم، وأخذوا يضربون بالسيوف يميناً وشمالاً، فبهت العبيد وذعروا وتملكهم الوهل، وفر بعضهم، وقبض أبو الطيب على مجاهد وشعلان وبعض الثوّار، وأمر أن يقيدوا وأن يضربوا بالسياط حتى تتهرأ أجسادهم، وتضرّع له العبيد وتذللوا وأعلنوا التوبة، وشفع فيهم محسد فأطلقهم فانكبوا على يديه يقبلونها خاضعين آسفين.

ولم تمض أيام حتى بلغ المتنبي «جِسْمَى» وهي أرض طيبة كثيرة الماء تحيط بها

الجبال الشامخة، وينبت بها كثير من النبات والفاكهة، فنزل بها القوم بعد أن نهكتهم الصحراء وشفهم طول السفر وبعد الطريق. وكان بنو فزارة يخيمون بحسمى، وكان لأبى الطيب صلة قديمة بأميرهم حسّان بن حكمة، فنزل على جار له حتى لا يجر على صديقه غضب كافور إذا علم بنزوله عنده، وكان هذا الجار يدعى «وردان بن ربيعة الطائى» وكان لئيماً خسيس الطبع جشعاً خائناً، فما كاد يرى حمول المتنبى وذخائره حتى وسوّس إليه الجشع أن ينتهب منها ما يستطيع، وبأى وسيلة يستطيع، فأظهر الحب والمودة لعبيد أبى الطيب، وكان يدعوهم إلى خبائه ويدفع زوجه وكانت ذات ملاحة إلى مجالستهم ومجاملتهم وإغرائهم، وتمكن بهذه الذرائع الخبيثة من دفع العبيد إلى استراق كثير من أموال المتنبى وأمتعته، وكان للمتنبى سيف مقبضه ونعله من الذهب الخالص، فطمع فيه وردان وزين لشعلان سرقته، فتربّص ذات ليلة حتى علم أن القوم أدركهم النعاس، ومشى فى رفق وحذر ثم استرق السيف من الرحل، ودفعه إلى مجاهد وأمره أن يركب ويسرع إلى وردان، ثم همّ بأن يسرق فرس المتنبى ليفر به، ولكن المتنبى رآه وهو يحاول حل رسن الفرس فزجره فلم يزدجر وبدا فى وجهه الغدر والعناد، فضرب وجهه بالسيف فشطره شطرين، وخرّ العبد صريعاً، فقال:

لئن تك طيىء كانت لئاما ... فألأمها ربيعة أو بنوه
مررنا منه فى حسمى بعبد ... يمج اللؤم منخره وفوه
أشذّ بعرسه عنى عبيدى ... فأتلفهم وما لى أتلفوه
فإن شقيت بأيديهم جيادى ... لقد شقيت بمنصلى الوجوه

وأسرع المتنى بالرحيل عن حسمى بعد أن أقام بها شهراً، وزادت وساوسه واضطربت نفسه حينما اطلع على كتاب لكافور يطلب فيه إلى رؤساء القبائل النازلين بالصحراء القبض عليه وإرساله إلى الفسطاط مكبّلاً، بعد أن أغراهم بالعطاء الجم والمال الكثير.

وكانت للمتنبى ثقة بفتى من بنى فزارة يسمى «فليتة بن محمد» فسأله أن يصحبه فى الطريق، وأن ينحرف به عن المسالك التى يطرقها العاوون وراءه المتعقبون لأثره.

وانطلق الركب بين الحذر والوجل، وأرسل المتنبى نظره إلى نواحى الأفق البعيد خائفاً مذعوراً، «إذا رأى غير شىء ظنه رجلاً» كما يقول، وما مر بالقوم يومان حتى صاح

فليتة ذات صباح، وكان مطرح النظر، يرى بعيني زرقاء اليمامة: إني أرى عن بعد سرباً من الخيل يسير إلى جانب الجبل، وأحسب فرسانه من أعوان كافور، فمد المتنبي عنقه، وحدّق بعينيه وقال: صدقت يا ابن محمد. يجب أن نختفي جميعاً وراء هذه الأكمة وهي منا جد قريب. ومال بجواده نحوها فسار خلفه العبيد وهم لا يعلمون من الأمر شيئاً، ووقف هو ومن معه خلف الأكمة ساعتين أو أكثر، ثم أرسل مسعوداً ليكشف له أمر الفرسان فلم يجد لهم أثراً. فقال فليتة: أغلب الظن أنهم عادوا من حيث أتوا بعد أن يئسوا من الطلب. وزفر المتنبي وقال: ألا يزال هذا الأسود يطلبني ويسأل عني كل رملة من رمال الصحراء؟ تعس العبد. والله لن ينال مني ظلاً.

قطعت بسيري كل يهماء مفزع	وجبت بخيلي كل بيداء بلقع
وثلمت سيفي في رءوس وأدرع	وحطمت رمحي في نحور وأضلع
وفارقت مصرا والأسيْود عينه	حذار مسيري تستهل بأدمع
ألم يفهم الأفعى مقالي وأنني	أفارق من أقلي بقلب مشيع؟
ولا أرعوي إلا إلى من يودني	ولا يطبيني منزل غير ممرع
أبا النتن، قد قيدتني بمواعد	مخافة نظم للفؤاد مروع
وقدرت من فرط الجهالة أنني	أقيم على كذب رصيف مصنع
وأترك سيف الدولة الملك الرضا	كريم المحيا أروعا وابن أروع
فتى بحره عذب، ومقصده غنى	ومرتبع مرعى جوده خير مرتع

ورحل القوم بعد أن هدأت أنفاس دوابهم فواصلوا السير حتى وردوا «البويرة» بعد ثلاث ليال، فأقاموا بها يومين ثم رحلوا عنها يغذّون السير ويطوون المراحل إلى أن نزلوا «بسيطة» وهي أرض تقرب من الكوفة، فانزاح الهم قليلاً عن صدر أبي الطيب، وابتهج العبيد بقرب انتهاء الصحراء، وأخذوا يرقصون وينغمون أصواتاً يظنونها غناء وتطريباً، وقد زاغت أبصارهم من وهج الصحراء وشدة قيظها، فرأى بعضهم نعامة فظنها نخلة، ورأى ثوراً فظنه منارة مسجد.

ثم أمر أبو الطيب بشد الرحال فانطلق الركب، وما زال ينتقل من حلة إلى حلة، ومن منهل إلى منهل، حتى بدت له معالم الكوفة بمآذنها وقبابها، فكبّر القوم وهللوا، وصاح محسد: هذه هي الكوفة! هنا ولد أعظم شاعر! هنا ولد شاعر العرب الذي تفتّحت له

سماوات الوحى، وتدانت له قطوف الإلهام! لقد قهرنا الصحراء وأذللنا صعابها وشققنا منها قلباً لم يشقه منسم ولا حافر، وألقينا على كافور درساً لن ينساه، وعلمناه أن أظافره وإن طالت لن تمس للبطل العربى الهمام شسعاً!

ودخل المتنبى الكوفة بعد أن قضى فى الصحراء ثلاثة أشهر، وبعد أن نجا من أهوالها كمن ينجو من ماضغى أسد أو يقذف به اليم إلى الساحل بعد صراع عنيف. دخل الكوفة شامخ الرأس تياهاً وهو يقول:

ألا كل ماشية الخيزلى ... فدى كل ماشية الهيدبى
ضربت بها التيه ضرب القما ... ر إما لهذا وإما لذا
لتعلمَ مصر ومن بالعراق ... ومن بالعواصم أنى الفتى!
وأنى وفيت، وأنى أبيت ... وأنى عتوت على من عتا
وماذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكى؟
بها نبطى من أهل السواد ... يدرّس أنساب أهل العلا
وأسود مشفره نصفه ... يقال له: أنت بدر الدجى
ومن جهلت نفسه قدره ... رأى غيره منه ما لا يرى

ركود

كانت الكوفة فى ذلك الحين لا تزال مستبحرة العمران كثيرة السكان واسعة الرقعة، بها نحو خمسين ألف دار من ربيعة ومضر، ونحو أربع وعشرين ألف دار لبقية القبائل العدنانية، وستة آلاف دار للقبائل اليمنية، وبها كثير من العلويين الذين اتخذوها موئلاً أيام الدولة الأموية لكثرة أنصارهم بالعراق، وللفرار بأنفسهم من موجات الظلم والاضطهاد.

وكان المسجد الذى بناه على بن أبى طالب لا يزال ماثلاً بعد أن جدد بناءه وأقام ما انهار منه يوسف بن عمر عامل هشام ابن عبد الملك على العراق، وكان هذا المسجد روضة العلماء والأدباء والمحدِّثين، ومباءة طلاب العلم والأدب، وهو المسجد الذى تلقى فيه أبو الطيب فى طليعة صباه علوم الأدب واللغة، وفيه كان يجلس إلى الناشىء الأصغر الشاعر ويكتب عنه ما يمليه من شعره على الطلاب.

وكان يحكم الكوفة حين عاد إليها أبو الطيب وال من قبل معز الدولة له ميل إلى الأدب والشعر، وحب للعلم والعلماء، ولكنه كان شديد الحرص على منصبه، كثير الخوف والوساوس من كل ما يؤدى إلى سخط بغداد أو يجر عليه مصيبة العزل التى أصبحت شبحاً مخيفاً يساوره فى اليقظة والمنام.

بلغ أبو الطيب الكوفة بعد رحلته المضنية القاسية الجريئة، فاتجه نحو داره وكانت بمحلة العلويين بالقرب من المسجد الجامع، فمشى فى طرق اشتبهت عليه منافذها، ولقى أناساً ليس له بهم عهد، فقد غاب عن الكوفة وعن أهلها أكثر من ثلاثين عاماً، مات فيها

أقوام وولد أقوام، وتهدّمت معالم وقامت معالم، وليس ببعيد أن يكون قد مرّ بباله وهو يتطلّع يميناً وشمالاً في دهشة وعجب، ذلك الرجل الذي بعثه إخوانه من أهل الكهف بعد أن لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً لينظر لهم أيها أزكى طعاماً وليأتيهم برزق منه.

كان ينظر فإذا الفناء الرحيب الذي كان يلعب فيه مع أترابه أصبح دوراً ومتاجر، وإذا القصر الذي كان آهلاً بسكانه عامراً بأسباب الغنى والسؤدد مائجاً بعبيده وجواريه أصبح طللاً دارساً وربعاً محيلاً، وإذا الشجرة التي كانت لا تتجاوز قامته حينما كان يمر بها وهو ذاهب إلى المكتب، أصبحت دوحة باسقة ممتدة الأفنان. كل شيء تغيّر، وكل مظهر تبدّل، والزمن كفيل بأن يغير كل شيء. «ومن ذا الذي يا عز لا يتغير؟» إنه هو نفسه تغير، فليس هو الآن ذلك الطفل المرح الوثاب الذي يسره كل شيء، ويضحكه كل شيء. أين هو الآن من ذلك الطفل بعد أن فارقه ثلاثين عاماً ثم عاد إليه بنفس جديدة، وخلق جديد؟ إنه الآن لا يقنع بما دون الملك، ولا يرضى بأقل من اقتناص البزاة إذا اصطاد غيره البغاث والرخم، ولا يهدأ إلا إذا حلّق في السماء ورأى الناس تحته كأنهم ذباب أو نمال إنه الآن يقول:

وما تسع الأزمان علمي بأمرها　　　وما تحسن الأيام تكتب ما أملي

إنه الشاعر الطموح، والشارد الجموح، والصخرة النطوح.

إنه هو الذي ازدهى على الأمراء وتحكّم فيهم ثم هجاهم، وهو الذي تزلّف إليه العظماء فازدراهم، وسمت إليه عيون الشعراء فبهرهم وأخرسهم، وحاول علماء الأدب واللغة أن يجروا معه في شوط فبزهم وأخمد أنفاسهم. إنه الفارس المغوار، والبطل الكرّار، الذي تحدى الصحراء وأرغم أنف البيداء، وصارع الموت وأفنى الفناء.

يحاذرني حتفي كأني حتفه　　　وتنكزني الأفعى فيقتلها سمي

هذه هي نفس أبي الطيب حينما عاد إلى الكوفة. وهذه بعض خواطره التي كانت تضطرب في صدره.

بلغ المتنبي داره فطرق ابنه الباب فأسرع «مفلح» إلى فتحه، ودخل أبو الطيب ومحسد وبعض عبيده، فصاح محسد: أين أمي؟ فاطلت من أعلى السلم امرأة في نحو

السابعة والثلاثين، لا تزال تزهى بريان شبابها، وتدل بنضرة عودها، وكان فى وجهها نبل واستسلام وثقة، وفى نظراتها حيرة وذهول ودهشة. وهى من أسرة عريقة بالشام فتن بها المتنبى وفتنت به، وكانت تشبهه فى قوة الجلد وبعد الهمة ومضاء العزيمة.

لم تكد الأم تسمع صوت محسد حتى أسرعت إليه فوثبت فوق درجات السلم وثباً، ثم مدت ذراعيها فى شوق وحنان فطوته إلى صدرها وهى تغمغم:

ـ وهكذا يا ولدى يلتقى الشتيتان وإن طال الزمان. ويعود القارظان بعد قنوط وإياس. ثم ألقت على جبينه قبلة فيها كل معانى الحب والشوق، واتجهت نحو المتنبى فى إجلال وشغف فعانقته عناق المحب الواله المهجور ثم قالت:

ـ الحمد لله على سلامتك يا سيدى. لقد طالت الغيبة وانقطعت الرسائل منذ بعثت بى إلى هنا ورحلت وحدك إلى مصر، ولقد كادت الوساوس تعبث بى لولا ما كان يملأ المدينة من أخبارك بين الحين والحين، فإنك يا سيدى ما كنت تنشد قصيدة بمصر حتى تطير إلينا أبياتها بعد قليل. ما لى أرى سيدى مضنى هزيلاً؟

ـ لقد لوحتنى الصحراء يا فاطمة، وكان القيظ شديداً والسير مجهداً والطريق وعراً كثير المخاطر، ولكن شوقى إليك هوّن علىّ كل شىء. كيف الحال؟ وكيف قضيت هذه السنوات الخمس؟

ـ بخير يا سيدى، ولقد كان لسيدتى زينب زوج الشريف الحسن بن عمر العلوى الفضل الأكبر فى إزالة وحشتى، فإنها كانت تكثر من زيارتى وتنقل لى عن زوجها أخبارك بمصر، ومنذ شهر وصلت قصيدتك التى هجوت بها عبد الإخشيد وكانت سمر الناس وحديث الأدباء، ولقد علمت منذ أيام بقرب قدومك إلى الكوفة، فقد أرسل إلينا الوالى أحد أعوانه ليتحقق من عودتك، فلما أخبره مفلح بأنك لا تزال غائباً أسر إليه بأنك خرجت من مصر منذ أشهر، وأن معز الدولة بعث إلى الوالى طلباً منه استقصاء خبرك. فأطرق المتنبى مفكراً ثم رفع رأسه وقال:

معز الدولة الديلمى الغاشم مقطوع اليد اليسرى يسأل عنى؟ ما هذا النحس الذى يلاحقنى؟ أأفر من الأسود الماكر فى مصر ليطاردنى بأمثال هؤلاء. لن أقول من الآن شعراً، ولن يظفر منى أمثال هؤلاء المناكيد ببيت واحد. ثم لمح على الحائط بيتاً من الشعر كان كتبه بخطه وهو فى العاشرة فقرأ:

وإلا تمت تحت السيوف مكرماً   تمت وتلاق الذل غير مكرم

فأخذته رعدة، وطافت بنفسه ذكريات وأحلام وصاح: نعم، إننى خلقت فارساً قبل أن أخلق شاعراً، وقد ألقيت عنانى للشعر طويلاً فأحلنى دار الهوان وزحزحنى عن قمة المجد، وسأسكت اليوم شعرى ليتكلم سيفى.

من اقتضى بسوى الهندى حاجته   أجاب كل سؤال عن هل بلم

ثم قام فخلع ثيابه واستلقى على فراشه شاخص العينين شارد الفكر مضطرباً، فقد كانت تطوف بذهنه أطياف من الماضى القريب والبعيد، وصور من الحوادث، وتهاويل من الآمال والأحلام التى ذهبت بدداً وآضت حطاماً. مرت به أيام صباه وما كان فيها من أمل مكبوت كالزهرة المنطوية فى كمِّها، والنار المخبوءة تحت رمادها، ومرت به أيام رحلته إلى دمشق فى طلب العلم والأدب وهو بعد غلام لم يطر شاربه، وما قاسى فى تلك الملاوة من فقر وضنك وسغب، ومرت به أيام استجدائه بالشعر ذليلاً متصاغراً ينتقل على قدميه من بلد إلى بلد. ويمدح من هو بالصفع أجدر منه بالمديح، وينثر الدر فوق رءوس الخنازير، ثم مرت به أيام حلب وأيام سيف الدولة حين بلغ القمة ووصل بعد طول الكد إلى الغاية، فاختلج فؤاده وهاجت بلابله، وطافت بوجهه سحابة حزن غائمة، وضرب كفاً على كف، فقد كان ينبغى ألا يفارق سيف الدولة، وكان ينبغى أن يصل حظه بحظه فى ميزان القدر، ثم مرت أيام كافور وما كان فيها من آمال طارت قبل أن ينبت لها جناح، ودفنت قبل أن تلمح نور الحياة، ثم دار فكره دورة سريعة نحو ما يستقبله من أيام وأحوال، وما ينتظره من أحداث وخطوب، هذا معز الدولة يسأل عنى. لقد علم بفرارى من مصر. ماذا يريد منى؟ إنه رجل خبيث ماكر منتقم، ووزيره المهلبى شر منه وأشد نكراً، إننى سأطوى صحائف الشعر، لقد نلت من جرَّائه ما كفانى، سأقيم فى دارى، وسأنكّب على دراسة الأدب واللغة، ولن يدوى لأبى الطيب بعد اليوم فى الآفاق صوت، ولن يشعر أحد بمكانه. لقد نال من الشهرة والمال فوق ما تطمح إليه الشهرة ويصبو إليه جب المال، ولكن تلك النفس النزوع لا تطيعنى، وهذه الروح الوثّابة لا ترضى بالسكون كأنها الطائر القلق لا يستقر فى وكن، إننى خلقت من عصف الرياح وهدير السيول وقعقعة الرعود، فلن أستطيع أن أجلس هادئاً فى عقر دارى ألقن هذا بيتاً من الشعر، وأصحح لهذا كلمة فى اللغة. لم أولد وفى يدى مغزل، ولكنى ولدت وفى يدى سيف بتّار. لست ممن يجلس فى

شمس الشتاء ويستظل من لفحات الهجير بدوحة أو جدار.

طــوال الــردينيات يقصفهــا دمى وبيض الســريجيات يقطعهـا لحمى

لا ـ لا. لن أستطيع القرار، ولن أستطيع أن أثبت وأدع العالم يموج ويتحرك، ولن أستطيع أن أدع الفلك يدور دون أن يتحدث باسمى ويملأ الأسماع بمحامدى، ولن أطيق أن أرى الأرض تقسّم دولها بين منتفخى البطون وأنا واقف أنظر إليهم غرثان ظامئاً. كان لى أمل فى كافور، وكان لى أمل فى فاتك، ولكن هيهات. هيهات. ذهب كل شيء. ولم يبق إلا أن أكتفى من الغاية بما يقرب من الغاية، وإذا فاتنى الملك فلن تفوتنى المنزلة الرفيعة بين ملوك الأرض، ولن يفوتنى أن يعدنى الناس ملكاً من غير صولجان. أما أن أقبع فى دارى فليس إلى ذلك من سبيل. ولكن كيف أتّقى خطر مطامحى؟ وكيف أتجنب ما تجره مصاحبة كبار الساسة من ويلات؟ يجب أن أحذر. ويجب أن أتعلم من تجاربى. ويجب أن أبتعد قليلاً حتى أصون لنفسى كرامتها وعزهـا، وحتى يطلبنـى الملـوك ولا أطلبهم، وحتى أتخلّص من وصمة الشاعر المستجدى الذى يطرق كل باب ويجلس على كل خوان. هذا هو الذى يجب أن يكون، الأمر لله من قبل ومن بعد. ثم أخذته سنة فنام.

وشاع خبر وصول المتنبى إلى الكوفة فتنقّـل فى كل دار، ورف فوق كل سامر، وردده كل لسان، فكانت المرأة تنظر من نافذة دارها وتصيح بجارتها قائلة:

ـ أعلمت أن ابن الحسين قد وصل إلى الكوفة بالأمس؟

ـ لقد أخبرنى بذلك أبو محمد فيا له من خبر غريب. إن زوجه كانت من الصابرات حقاً، ولعلها اليوم أسعد امرأة بالكوفة.

ـ كانت جدته تتمنى هذا اليوم، فقد كانت وهى على فراش الموت تتلهّف للقائه، وتلثم آخر رسالة بعث بها إليها، وكان لسانها يتلعثم بترديد اسمه حتى ماتت.

ودخل طالب مسجد الكوفة فى الصباح وكان يزخر بالعلماء والطلاّب فرفع صوتـه قائلاً:

ـ أيها الطلاب لقد عاد بالأمس أبو الطيب المتنبى إلى وطنه. فصاح أحدهم:

ـ أهلاً أهلاً بشاعر العرب، إن المتنبى مجد الكوفة ومجد العروبة، لقد كنا بالأمس نتذاكر قوله:

وإنـى لنجـم تهتـدى صحبتـى به إذا حال من دون النجـوم سحاب
غنـى عن الأوطـان لا يستفزنى إلـى بلـد سافـرت عنـه إياب

فقال أحد الشيوخ : لقد أنذرنا أبو الطيب بأنه لن يعود إلى الكوفة . ولكن اللهّ كذّب ظنه وعاد المتنبى ليملأ آفاقنا تغريداً .

والتقى فى سوق الورّاقين الحسن العلوى بحماد الوراق فحياه وسأله :

ـ أبلغك وصول أبى الطيب إلى الكوفة بالأمس؟

ـ بلغنى يا سيدى؟ . إن الخبر ملأ المدينة ، إن صبيان المكاتب يترنمون بأهـازيج الترحيب به .

ـ أظنك تعرفه وهو غلام؟

ـ أعرفه يا سيدى! لقد كان يتردد على دكانى كل يوم ، ولكنى لم أكسب منه درهماً ، كان يتناول الكتاب ويجلس على هذه الدكة ، فإذا مرت ساعة أو نحوها أعطانية لأضعه فى مكانه ، فإذا طلبت منه أن يشتريه . أخبرنى بأنه حفظه عن ظهر قلب من الدفّة إلى الدفة .

وأقبل لزيارة المتنبى كبار العلماء والأدباء فى المدينة ، وتوافد عليه الطلاب يسألونه ويقيدون عنه ما يملى ، وكان يجلس على كرسى ضخم فى صدر القاعة وبجانبه محسد ، وقد وقف عند الباب عبده مفلح ، وكان بين زوّاره الشريف الحسن العلوى وابنه الحسين ، وكان فتى فى العشرين وسيم الطلعة حسن الحديث حاضر البديهة ، فقال العلوى :

ـ لقد كانت الكوفة تتشوّف إلى قدومك يا أبا الطيب بعد أن تراجع مجدها وكادت تذوى أفنان الأدب والشعر فيها .

ـ إننا رأينا ما رأينا من ملوك وأمم وممالك ، فعرفنا أن كل شىء فى هذه الدنيا هباء ، وأن آمال المرء فيها هواء .

ـ لقد نلت فى هذه الرحلة ما لم ينله شاعر ، وبلغت منزلة تتقطّع دونها أعناق الآمال .

ـ وماذا حصلت عليه بعد ذلك يا ابن الرسول؟ لا شىء إلا أنى عدت إلى دارى فى الكوفة أحمل فوق كتفى أثقال السنين ، بعد أن خرجت منها يافعاً ريّان الشباب .

ـ خرجت سنة تسع عشرة وثلثمائة فاراً من القرامطة؟

ـ نعم يا سيدى، فلقد كان القرامطة بلاء على الكوفة وعلى العراق كله.

ـ لقد دمروا وأحرقوا كثيراً من الدور والمساجد، وكم نهبوا وسلبوا وفعلوا الأفاعيل.

ـ وكنت فى ذلك الحين شادياً فى الشعر فنظمت قصيدة أهجو فيها زعيمهم أبا طاهر فبلغه خبرها فأهدر دمى، فخرجت فاراً مع أبى فى حماية الليل وستاره حتى بلغنا بغداد فلم أقم بها طويلاً حتى ودّعت أبى واتخذت طريقى إلى شمالى الشام.

ـ وقد مضى منذ ذلك الحين أكثر من ثلاثين عاماً، ولا يزال هؤلاء القرامطة يعيثون بالفساد حول الكوفة، إنهم قوم فجرة يستحلون كل شىء، ولا يخضعون لحاكم، ولا يرجعون إلى شرع، وبينما هما فى الحديث إذ دخل مفلح ينبىء المتنبى بقدوم الوالى، فهنأه بسلامة قدومه ورد المتنبى تحيته بتحية امتزج فيها الإجلال بتواضع الكبراء، وذهب الحديث مذاهب شتى، وجاء ذكر سيف الدولة وكافور فقال الوالى:

ـ لقد كانت تصل إلينا قصائدك فى الأسود فكنا نقرؤها ونطرب لها من وجهة أنها شعر، لا من وجهة أنها قيلت فى كافور. ويعجبنى فيك يا أبا الطيب أنك لا تصرف القصيدة كلها إلى ممدوحك كما تفعل جمهرة الشعراء، ولكنك تتصدق عليه بأبيات قليلة، ثم تتجه فى بقية القصيدة إلى الحكمة العالية وخوالج النفوس وما يجيش به صدرك من همم وعزائم، ولقد أحزننى حقاً أن تقول فى كافور:

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شىء عن الدوران

هذا بيت لم تتفتح عن مثله شفة شاعر منذ عرفت الأوزان وقيلت الأشعار. وكان من مصائب القدر أن يبقى درّه مخزوناً فى أطواء الزمان حتى ينثر على الأسود الحبشى. ما أجل المعنى، وما أروع اللفظ، وما أبعد الخيال. وأبدع ما فى البيت كله كلمة «شىء» هذه. فما أحلى هذا التنكير وهذا التجهيل الذى تضمنته. كان مولانا معز الدولة أحق بهذا البيت وأجدر. فهو زند الخلافة وعضدها، وحامى حمى المسلمين، ومعلى كلمة الدين، والملك الذى له من القوة والسلطان ما يصح أن يقال فيه مثل هذا الكلام. أذاهب أنت إلى بغداد يا أبا الطيب بعد أن تستريح قليلاً بالكوفة؟

ـ إننى سأستريح طويلاً يا سيدى، وسيستريح معى شعرى.

ـ لا. إن شعرك لا يستريح، إن الطائر لا يستطيع إلا أن يغرِّد، والمسك لا يملك إلا

أن يفوح. قل لى بالله متى تذهب إلى بغداد حتى أكتب إلى مولاى معز الدولة؟ لقد كتبت اليوم رسالة إلى الوزير المهلبى اخبره فيها بقدومك، وأكبر الظن أنه لن يدعك تستريح يا أبا الطيب. إن الناس يطمعون فى أدبك وشعرك، لقد رفعت سيف الدولة إلى القمة، وملأت الدنيا بمديح كافور ثم بهجائه، وأظنك لا تبخل على الخلافة ورجالها ببعض ما نثرته على تابعيها من الأمراء.

ـ سأنظر فى هذا يا سيدى، ولكنى الآن أوثر الهدوء والاستقرار بعد أن طوّحت بى الطوائح.

ـ لست ملكاً لنفسك يا أبا محسد، وإنما أنت ملك العرب وملك الخلافة، وكان يجب على ابن العراق ألا يشيد إلا بمجد العراق. خلصنى بالله يا أبا الطيب، فقد ينالنى لوم من دار الخلافة إذا لم تسرع إليها.

ـ لا لوم ولا تثريب يا سيدى، والأمور مرهونة بأوقاتها. وانفضّ المجلس، وتوالت الأيام وتوالت المجالس، وفى كل يوم يزيد أبو الطيب سأماً وتبرماً. إنه لا يستطيع أن يعيش كما يعيش الناس، لقد عاد إلى ديوان شعره فرتبه وكتبه وأسقط منه ما أراد أن يسقط وزاد فيه ما راق له أن يزيد، وانتهى الديوان، وعادت الحياة إلى ركودها. ورأى أن يتخذ الصيد مسلاة فما مرت أيام، حتى ضجر بالصيد وملّ الركوب، ورجاه صديقه الحسن العلوى أن يمدح بنى هاشم بقصيدة فسقط القلم من بين أنامله ولم يستطع أن يخط حرفاً، ماذا جرى له؟ وما هذا الحنين إلى الغربة والانتقال؟ إنه اليوم بين أهله وولده يعيش فى أرغد عيش وأرفه حال، فما هذا الضجر الذى ينتابه فى كل حين؟ وما هذا النزوع إلى القلق والاضطراب فى الأرض؟ إن من الناس من تتعبهم الراحة ويضنيهم طول الجمام، يجب أن يرحل عن الكوفة، ويجب ألا يحصره وطن، إن العباقرة لا وطن لهم أو إن وطنهم الأرض كلها. ولكن أين يذهب؟ لقد رجاه صديقه على بن حمزة فى أن يزوره ببغداد، ولقد توالت كتبه وتتابعت رسائله، وكان فى هذه الرسائل ملحاً ملحفاً، فهو لا يريد إن يدفن أبو الطيب نفسه حياً بين عجائز الكوفة وشيوخها، وهو يضن بهذه الجذوة المتوقدة أن تخمد، وبهذا النبوغ النادر أن ينطفىء، وبهذا الشعر الرائع أن يجبل. ويقول إن بغداد تتشوّف إلى لقائه، وتمد أعناقها لترقبه من الخليفة ومعز الدولة والوزير المهلبى إلى صغار المتأدبين. فلم لا يذهب إلى بغداد؟ ولم لا يعلّم دعاة الشعر فيها أن الشعر شىء غير نظم

الكلام؟ ولم لا يلوح بشعره لمعز الدولة أو للمهلبي حتى يأتيا إليه حبواً؟ ولم لا يضرب من كانوا يتيهون عليه ويخدعونه كسيف الدولة وكافور ضربة قاصمة بما يناله من الحظوة وعظيم المنزلة عند معز الدولة؟ ولم يستبعد أن ينال من معز الدولة ما تصبو إليه نفسه من الولايات إذا أحسن التأتى وأتقن الخداع وعرف الطريق إلى نفسه؟ يجب أن يذهب إلى بغداد غداً. نعم غداً يرحل إلى بغداد. ويفيق المتنبي من هذه الغمرات فيسمع صوته وهو ينادي محسداً، ويقبل محسد فيبتدره قائلاً:

ـ قل لمفلح يعد الخيل والإبل فسنرحل غداً إلى بغداد. وتدخل فاطمة وعلى وجهها مسحة من الحزن لهول ما علمت من وشك رحيله وتقول:

ـ أتطول هذه الرحلة يا سيدى؟

ـ لا أدرى يا فاطمة، ولكنى لن أتركك وحدك هذه المرة، فإذا اطمأن بى المقام ببغداد أرسلت مفلحاً لإحضارك.

وجاء الغد وأعدت الركائب فى الصباح، ووقف المتنبي وفي وجهه لمحات يختلط فيها اليأس بالأمل، فقبّل زوجه ثم صاح فى وديعة اللهّ. وامتطى جواده وهو يردد:

ليس التعلل بالآمال من أربى ... ولا القناعة بالإقلال من شيمى
ولا أظن بنات الدهر تتركنى ... حتى تسد عليها طرقها هممى

استفزاز

بلغ الركب بغداد فى أصيل يوم من ربيع الآخر سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة ، ونزل أبو الطيب وابنه وعبيده فى خان من أفخم خانات المدينة ، وكانت بغداد فى ذلك الحين لا تزال تحتفظ ببقية من عظمة العباسيين وحضارتهم ومجدهم الأثيل مع ما أصابها من ظلم معز الدولة وإقطاع قواده وجنوده القرى جميعها ومصادرته الغاشمة للأموال ، وكانت عش العلماء وموئل الأدباء والشعراء وملتقى أمم الأرض من كل أفق ودين ، وكانت تزخر فى هذا الحين بالجواسيس وأصحاب الأخبار فمنهم جواسيس لمعز الدولة ، وجواسيس لكافور ، وجواسيس لسيف الدولة ، وجواسيس لعضد الدولة ملك فارس ، وآخرون للفاطميين ملوك المغرب .

وصل المتنبى بغداد فتشمّم الجواسيس الخبر ونقله بعضهم إلى معز الدولة ، وأرسله بعضهم إلى ممالكهم على أجنحة الطير ، وما كاد معز الدولة يتلقى الخبر حتى بعث فى طلب وزيره المهلبى . وكان معز الدولة فى التاسعة والأربعين قوى البناء قوى الشكيمة أصلع الرأس شديد احمرار الوجه له عينان كأنهما عينا نمر ، وكان مقطوع اليد اليسرى وبعض أصابع اليمنى ، شرساً سريع الغضب حقوداً شحيحاً ، ولم يكن إلا قائداً ماهراً وشجاعاً واسع الحيلة ، أما الشعر وأما الأدب فكان بينه وبينهما بون بعيد . نشأت به وبأخويه دولة بنى بويه ، وكان فى أول نشأته فقيراً يعيش من جمع الحطب وبيعه ، وحينما استولى على بغداد انتزع الحكم من أيدى الخلفاء واستبد به . فخلع الخليفة المستكفى بالله وسمل عينيه ، وولى مكانه الخليفة المطيع على أن يكون شبحاً من أشباح الماضى لا ينقض ولا يبرم . أما

وزيره المهلبي فكان رجلاً أديباً شاعراً لين الجانب خصيب الجناب، عرف البؤس مُراً أيام شبابه فتمسك بمنصبه حريصاً عليه وعطف على الأدباء البائسين، وكان مجلسه منتدى رحيباً للعلماء والأدباء والشعراء أمثال أبى الفرج الأصفهانى والسرى الرفاء وابن البقال وابن سكرة وابن الحجاج.

دخل المهلبى على معز الدولة فسمعه عن بعد وهو يهدر هدير البعير، فلما رآه صاح:

- لقد قدم المتنبى بغداد الساعة فماذا ترى؟ أليس فى قصرى من شعراء بغداد والمتطفلين عليها من يزيدون على الحاجة؟ لقد أصبحت معدتى لا تستطيع هضم أشعارهم، وهذه الأموال التى تبعثر فى كل عام عليهم أولى بها أن تتدفق على القواد والجنود.

- يا مولاى إن المتنبى شاعر مر اللسان مر العود شائك الجانب، فإذا لم تقبل عليه وتملأ فمه بعطاياك فربما خرج عن جادة الأدب، وشعر هذا الملعون له أجنحة لا تمل الطيران.

- إنه عرَّض بى وكاد يصرِّح بهجائى فى بعض مدائحه لهذا العربى المفتون الذى يدعو نفسه سيف الدولة، فلن يطأ بساطى. ولن ينشد أمامى شعراً. إن له أن يقيم ببغداد كما يشاء ففى بغداد من هم شر منه من حثالات الأقطار ونفايات الأمم.

- إن الرجل يا مولاى ليس ممن يستهان بأمرهم، وليس ممن توصد الأبواب فى وجوههم، فقد بلغ منزلة من المجد الشعرى يجب أن نخضع لها راضين أو كارهين، والذى أشير به ألا نبدأ الرجل بالعدوان، وألا نلقى بأنفسنا عند أقدامه متزلفين متملقين كما فعل الغر سيف الدولة، وكما فعل المأفون الجاهل كافور، فكان جزاؤهما منه الجفاء وشر الهجاء. والذى أنصح به أن ننتظر ونترقب، فإذا جاء إلى القصر مستجدياً متواضعاً كما يجىء غيره من الشعراء والتمس الإذن بمديح مولانا فتحنا له الأبواب مرحبين، وأجزلنا له الصلة مغدقين، أما إذا لم يفعل شيئاً من ذلك فليس له عندنا إلا أن نترك لجواسيسنا مراقبته من بعيد، وأن نجعل إقامته ببغداد جحيماً لا تطاق.

- أليس بين شعراء بغداد وأدبائها من يبلغ منزلة هذا المتنبى، ومن يستطيع أن يحطم صلفه وكبرياءه؟ فإن من العار أن يقال إن دار الخلافة أقفرت من الشعراء فلم يقف فيها شاعر فى وجه هذا المغامر الأفاق.

ـ إن شعراء بغداد يا مولانا كالكلاب المضراة، وهم رهن إشارتى، ولكنى لا أعطى هذه الإشارة إلا فى وقتها، ويجب أن ننتظر كما قلت.

ـ فلننتظر إذاً، وإنى سأترك لك الأمر كله. وانتهى الحديث فخاضا فى شئون أخرى.

وعلم على بن حمزة اللغوى بقدوم المتنبى فاسرع إلى الخان وطلب منه أن ينزل بداره فقبل بعد رجاء وإلحاح. وكانت دار ابن حمزة فى ربض حميد بالجانب الغربى. فأقام بها أبو الطيب مدة ثوائه ببغداد، وكان يتردد عليه كل يوم شعراء المدينة وأدباؤها ورجال اللغة فيها، واتصل به فى هذه الفترة تلميذه أبو الفتح عثمان بن جنى، وكان شاباً لم يجاوز السادسة والعشرين يتوقد ذكاء ويلتهب غيرة على التحصيل والمدارسة، واقتنص على بن حمزة الفرصة فروى عنه ديوانه ووقف منه على ما أشكل عليه من ألفاظه ومعانيه، ومرّت بالمتنى أيام وهو على تلك الحال حتى فاجأه ابن حمزة يوماً سائلاً:

ـ ألا تريد أن تزور الوزير المهلبى؟

ـ إنى أنتظر أن يدعونى إليه.

ـ إن الوزراء والأمراء فى بغداد لا يدعون الشعراء، وقد جرت عادة العظماء مثلك أنهم إذا نزلوا بلد ملك أو أمير أن يبدءوه بالزيارة.

ـ إننى لن أبذل نفسى رخيصة، وكان يجب على المهلبى بعد أن علم بوصولى أن يلح فى أن أكون ضيفه، وأن يفرد لى جناحاً بقصر الخلافة. فنظر إليه ابن حمزة فى عجب ودهشة وقال:

ـ إن وزيرنا المهلبى رجل شاعر أديب سخى الكف، ولكنه إلى كل ذلك مغال فى تقدير كرامته معتز بكبريائه، يرى أن من دون مقامه أن يستجدى شاعراً أو يتملق أديباً، على أنى أعتقد أنه ينتظر زيارتك فى قلق وشغف.

ـ فلينتظر إذاً طويلاً فإنى لا أزور هذا الخليع الماجن.

ـ لا يا أبا الطيب، إنك رجل جم الآمال بعيد المطامح، وقد قضيت الحياة فى كد ووثوب فبلغت من بعد المنزلة مكاناً قصياً، ولكنك لم تصل بعد إلى الغايات التى أقرؤها فى شعرك. لقد سقطت من سلم الطموح مرتين كنت فيهما موشكاً على القمة: مرة عندما غضبت على سيف الدولة ومرة عندما غضب عليك كافور، فإيّاك وأن تسقط الثالثة! إن لنا

أملاً كبيراً فى المهلبى وفى معز الدولة، وإن رجلاً مثلك لو ظفر بمودتهما لظفر بكل شىء. فإذا كنت قد طمعت عند كافور فى ولاية، فهنا مصدر الولايات، وهنا النبع الفيّاض برفيع المناصب، وهنا خلافة المسلمين التى جعلت كافوراً ملكاً، وسيف الدولة أميراً.

ـ كنت أحب أن يبدأ مهلبيكم بدعوتى، والذى أخشاه الآن ألا أقابل بما يليق بمثلى من الكرامة.

ـ هذا وهم يا سيدى. إن شهرتك غرست فى قلوب الناس منك رهبة لم يخل منها قلب أمير أو وزير. اذهب إليه يا أبا الطيب غداً.

ـ سأذهب.

وفى صباح اليوم الثانى ركب أبو الطيب فى عظمة تشبه عظمة الملوك وخلفه العبيد والخدم بين فارس وراجل، وقصد إلى قصر الخلافة فاستقبلته حاشية الوزير فى إكرام وحفاوة، وأسرع المهلبى فأذن له فدخل عليه المتنبى فى تؤدة وجلالة سمت مرتفع الصدر شامخ الأنف، كأنه أسد ابن عمار الذى يقول فيه:

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه ... فكأنه آسٍ يجس عليلا

فحيا الوزير ورد الوزير تحيته فى شىء من الفتور بعد ما رأى من تشامخه وتعاظمه، وتقدّم المتنبى فجلس إلى جنبه حتى التصقت ركبته بركبته، وكان بالمجلس أبو الفرج الأصفهانى وابن البقال الشاعر، واتجه المهلبى إلى أبى الطيب وقال فى تهكم لا يكاد يلمح:

ـ لقد زرت بغداد منذ شهر يا أبا الطيب ولم تزرنا، أتعد هذا تجنباً أم تجنياً؟

ـ الأعذار كثيرة يا سيدى.

ـ الأعذار تقول يا أبا الطيب إنك بخير وعافية، وإنك تقضى وقتاً طويلاً كل يوم فى دراسة شعرك مع ابن حمزة وابن جنى. كيف تركت الأسود بمصر؟

ـ تركته وهو لا يزال أسود.

ـ ألا تزال تهدِّد الناس بشعرك يا أبا الطيب؟

ـ إن شعرى مرآة أخلاق الناس، وليس على المرآة من ذنب إذا كشفت وجهاً دميماً.

ـ أرجو أن تحسن وجوهنا فى مرآة شعرك، فابتسم المتنبى ابتسامة ساخرة ولم تعجبه ملاقاة المهلبى له وقال:

وأحسن وجه فى الورى وجه محسن وأيمن كف فيهم كف منعم

ـ نترك الإحسان والإنعام الآن يا أبا الطيب حتى نسمع. والتفت إلى أبى الفرج وأخذ يطارحه الشعر ونوادر الأدب، والمتنبى يشترك فى الحديث متعاظماً، يخطىء هذا ويجبه ذاك، حتى انفضّ المجلس فخرج مغيظاً ساخطاً، لأن المهلبى لم يحسن لقاءه كما يحب، ولم يستجد مدحه كما كان يؤمّل، واشتد غضب المهلبى على المتنبى لأنه لم يمدحه، ولأنه أظهر من الصلف والتيه ما لا يجمل بمجالس الوزراء، فصمّم العزم على الكيد له وتلقينه درساً لا ينساه فى وجوب التطامن للوزراء والخضوع للعظماء.

وبلغ الشاعر داره فلقيه ابن حمزة وعاجله سائلاً:

ـ كيف الحال يا أبا الطيب؟

ـ شرُّ حال! إن وزيركم يحسبنى من شعرائه المهازيل الذين يقعون حول مائدته لالتقاط فتاتها. ثم قصّ عليه ما دار فى المجلس، فانقبض وجه ابن حمزة وقال فى تحسر:

ـ لقد أضعت الفرصة يا أبا الطيب، وسلطت عليك أكبر مدرب للكلاب.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أنه سيرسل عليك عصابته، وسنسمع غداً فيك شعراً هو قىء أمعاء البديع، وأشلاء جيفة البيان.

ـ لقد قلت فى أمثالهم:

وأتعب من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طبى فيهم غير أننى بغيض إلى الجاهل المتعاقل

ـ لا يا أبا الطيب، إن هؤلاء ليسوا ممن يسهل اتقاء شرهم، أرأيت الأوحال التى كلما حاولت التخلص منها زدت فيها ارتطاماً؟ إن لهم فى بغداد حكماً على الحكام، ،بنفوذاً على ذوى النفوذ، إنهم يهدّدون كل عظيم فى عرضه وشرفه ومزال ماضيه، فيقبل

عليهم خاضعاً مستغيثاً جاثياً على ركبتيه، باذلاً كل ما يضربونه عليه من مال. إن قطّاع الطريق ولصوص الليل أشرف منهم نفساً وأكرم خُلقاً، لأنهم يعفون عن استلاب النساء وقتل الأطفال، أما هؤلاء فلا تسلم منهم حرمة، ولا يتنزهون عن ملامة. إنهم يرسلون البيت من الشعر مسموماً كما يرسل القرمطى سهمه لا يبالى إلى أى قلب نفذ. وهؤلاء جميعاً فى قبضة المهلبى يوسوس لهم بالدنانير فيقبلون، ثم يوجههم إلى الصيد فيتواثبون، وهو يطل عليهم من بعيد جذلان مسروراً. وكلّما زاد أحدهم فى النهش زادت المكافأة وكلما ولغ أحدهم فى الدماء عظم الجزاء. إن هؤلاء الشعراء يحكموننا الآن يا أبا الطيب، فهم يوجبون علينا طاعتهم، ويفرضون علينا من الضرائب والإتاوات ما يشاءون. والويل ثم الويل لمن أظهر العصيان أو حدثته نفسه باستنكار شىء أو التأفف من شىء! لا يا أبا الطيب، اشتر عرضك من هؤلاء، واذهب بعد أيام إلى المهلبى وفى كمك قصيدة فى مديحه. وأنتم أيها الشعراء أجرأ خلق الله على الكذب، وأقدرهم على تصوير ممدوح خيالى تعطونه اسم من ترجون صلته. والذى مدح كافوراً يا أبا محمد لا يعجز عن مدح الجاحظ بالجمال، وهبنقة بالذكاء، والحَجّاج بالرفق والحنان.

ـ لن أمدح المغرور المستهتر، ولن أذهب إليه. ولن أبالى بكلابه المساعير.

ـ ذلك لك يا أبا الطيب، ولكنى أحذّرك من ابن الحجاج وابن سكرة وابن لنكك والحاتمى، احذر هؤلاء يا أبا الطيب وتجنب الاشتباك معهم، وإذا دفعت إلى لقائهم فجاملهم وتلطف.

ـ لو كانت المجاملة من خلقى يا ابن حمزة لكنت فى حال غير هذه الحال.

وبعد مرور يوم أو يومين على هذا الحديث اجتمع بحانة بالكرخ تعرف بحانة أبى نواس ثلاثة رجال جلسوا فى حجرة بعيدة عن الطرّاق، وطلب أحدهم من فتاة الحان خمراً رومية معتقة فأحضرتها، وأخذوا يتساقون ويتهامسون ثم قال أحدهم:

ـ لقد جعل لكل شاعر منا خمسمائة دينار.

ـ هذا ليس بالكثير يا ابن الحجاج.

ـ ما أطمعك يا ابن سكرة. أتستقل خمسمائة دينار فى عشرين بيتاً أو نحوها من أقذر الشعر وأفحشه تقذف بها فى وجه هذا المتنبى، ثم تنال من بعدها شهرة الأبد؟ ما رأيك يا ابن لنكك؟

ـ أرى أن العرض حسن، ولقد أعددت بالأمس أبياتاً وسأزيد عليها لأن الوزير وعدنى بزيادة العطاء إذا فحش الهجاء وتعددت فنونه.

ـ هذا حسن، ولكن أترى أن نأخذ فى هجو الرجل دون أن نستدرجه بشىء من الملاحاة والمهارشة؟

ـ لا. يجب أن نزوره غداً، وقد علمت أنه غاية فى الكبر والأنفة والزهو بنفسه، ومثل هذا يسهل اصطياده واجتذابه إلى المعركة.

ـ عظيم. غداً نلتقى فى الصباح بدارى، ومنها نذهب إلى دار ابن حمزة للتشرف بمقابلة هذا الزق المنتفخ. وانتهى ما فى الإناء من شراب، وانتهى ما فى عقولهم من كيد وتدبير، فخرجوا من الحانة يترنحون ويصخبون. وجاء الغد وأسرعوا إلى دار ابن حمزة فاستقبلهم ببشر مصنوع وترحيب متكلّف، ثم دلف إلى حجرة المتنبى فأخبره بزوّاره وكرر تحذيره والنصح له، ودخل الشعراء على أبى الطيب وكان جالساً فلم يتحرك من مكانه، وأخذ ينظر فى وجوههم كمن ينظر إلى حشرات غريبة الخلقة دنيئة الفصيلة ليس له بمثلها عهد، وكرّر الشعراء التحية فبدرت منه تحية فاترة أردفها فى عجلة بأمرهم بالجلوس، فجلس القوم والغيظ يحتدم فى وجوههم، ثم أخذت ابن الحجاج قهقهة طويلة تصنع أنه لا يستطيع لها كتماً، فنظر إليه المتنبى فى ازدراء وسأل:

ـ مم تضحك يا رجل؟

ـ أضحك يا سيدى لأننى سخرت بالأمس من رجل زعم أنك كنت تطمع فى ملك مصر، وطالما لاحيته وطالما حاججته ولكن ظهر لى أنى كنت مخطئاً.

ـ كيف؟

ـ لأن هذه الجلسة وهذا الصلف وهذه النظرات التعبة الجافية لا تصدر إلا عن ملك.

ـ مالك ولكل هذا يا رجل؟ أجئت لتزورنى أم لتظهر سخفك؟ فأسرع ابن سكرة

إن هذه المقابلة التى صدمتنا بها لا تقابل إلا بالسخف والسخرية، أفق أيها الشيخ
ك فإننا شعراء بغداد. سل كل إنسان تلاقيه ينبئك من هم شعراء بغداد. إن فى

جراب أشعارنا علاجاً ناجعاً لأمثالك المغرورين. إننا خلقنا من الشعر ميسما يشوّه الوجوه الصلفة، ولجاماً يعقد الألسنة البذيئة، وقاراً يلطّخ العرض فلا تغسله أمواه السماء، فقال المتنبى باسماً وكأنه لم يسمع إلا طنين ذباب:

ـ لم تزد على أن جعلت الشعراء عصابة من قطاع الطريق، فسحقاً لك من شاعر! وما أتعس الشعر بمثلك! ثم التفت إلى ابن لنكك وقال: وأنت يا شاعر آخر الزمان، هل فى جراب شعرك شيء غير الذى فى جراب صاحبك؟ فاتجه إليه متحدياً وقال:

ـ أتريد ما فى جرابى؟ إذاً فاسمع:

مـا أوقـح المتنبى فيمـا حكى وادعاه	أبيح مالاً عظيماً لمـا أبـاح قفاه
يا سائلـى عن غناه من ذاك كان غناه	إن كان ذاك نبياً فالجـا ثليق إله

فقهقه المتنبى وضرب الأرض برجليه، وقال:

هدأ اللهّ انفسكم كما هدأتم نفسى، وأسعد بالكم كما أسعدتم بالى، أهذا كل شعركم؟ فى الحق لقد رعبتمونى أول الأمر حتى ظننت أن وراء تهديدكم ناراً وصواعق من الشعر الذى أعرفه، والذى أدخره لأعدائى من الملوك، أما الآن وقد سمعت هذا الشعر الذى عمشت مقلتاه، واختلط فيه قفاه بغناه، فإنى أستطيع أن أمد رجلى جذلان مرحاً، وأن أعتقد أننى سأقضى فى بغداد وقتاً سعيداً أترقّب فيه كل يوم ما يضحكنى ويذهب بهمومى. رحم اللهّ بغداد! ورحم اللهّ شعراء بغداد! هنا كان النواسى، وهنا كان مسلم، وهنا كان ابن الرومى، وأنتم اليوم تلبسون ثيابهم؟ البسوها ما شئتم فربّ ثوب يتبرأ من كتفى لابسه! أبقىّ فى جرابكم شيء من السباب؟ إن كان فهاتوه فإنى مصغ لكم مشغوف بشعركم، وإن لم يكن فاذهبوا لإعداد غيره.

لا تجسـر الفصحـاء تنشدهـا هنا	بيتـاً ولكنـى الهزبـر الباسلُ
مـا نال أهـل الجـاهلية كلهم	شعرى، ولا سمعت بسحرى بابل
وإذا أتتـك مذمتـى من ناقص	فهـى الشهـادة لى بأنـى كامل

ثم وقف فانصرف القوم صاخبين مهددين. وبقى المتنبى باسم الوجه عابس القلب،

إنه استطاع حقاً أن يسخر منهم وأن يستخف بتهديدهم، ولكنه إلى ذلك علم علم اليقين أن أمله في المهلبي ذهب إلى غير رجعة، وأن بقاءه ببغداد أصبح محفوفاً بالمكاره. واتجه إليه ابن حمزة وقال:

ـ لقد كنت داهية واسع الحيلة في مقابلة هؤلاء الأنذال، ولكنني لا أزال أحذرك منهم، فإن الثعبان لا يموت إذا قطع ذنبه، فزفر المتنبي وقال:

ـ لا يزعجني شيء يا ابن حمزة إلا أن أمني في نهاية أيامي بمثل هؤلاء الزعانف.

وفي صباح اليوم التالي أطلق ابن الحجاج من داره كلبة هزيلة بعد أن علق بعنقها ورقة شدها بخيط، ووكل بها ثلاثة من عبيده، وأمرهم أن يمروا بها في جميع أحياء بغداد وأرباعها، وأن يطيلوا الوقوف أمام معاهد العلم ومظان الطلاب، وأن يصونوا الورقة ويحافظوا عليها، حتى إذا جاء المساء أطلقوا الكلبة في حديقة دار ابن حمزة.

وسارت الكلبة خارجة من سوق داخلة في غيرها، واجتمع خلفها خلق عظيم، ومرت بمسجد ابن رغبان حيث يزدحم طلاب العلم، فاستوقفها أحدهم وأخذ يقرأ ما في الورقة بصوت جهير، فكان فيها.

له الويل ابن أمي كيف مالت	به الدنيا إلى خلق اللئام؟
رمى نسب الكلاب وكان زينا	بعار من مثالبه وذام
يبيع الشعر «أحمد» لا يبالي	وأين لمثله خوف الملام؟
غدا عبداً لكافور بمصر	وذل لآل تغلب بالشآم
سأنشده من الأشعار بيتاً	له، إن كان لا يرضى كلامي
(وآنف من أخي لأبي وأمي	إذا ما لم أجده من الكرام)

وما كاد يتم القراءة حتى قهقه الطلاب وصفقوا وساروا خلف الكلبة يدعون كل عالم وكل أديب وكل ملم بالقراءة إلى قراءة الأبيات، واستمرت الحال هكذا طيلة النهار، وصار المتنبي حديث المدينة، وأصبح اسمه متندراً لكل مازح، ومضغة في فم كل بذيء، حتى إذا مالت الشمس للغروب قاد العبيد الكلبة إلى دار ابن حمزة فلمحها أبو الطيب وكان في حديقة الدار، فأمر مفلحاً أن يحضرها بما في عنقها، وحين قرأ الأبيات اكفهر وجهه، وعلم أنه أمام خصوم عاهرين لا تعجزهم دنيئة، ولا تكفهم ذرة من رجولة، فدعا ابن حمزة وألقى إليه الورقة، فلما قرأها قال:

ـ قاتلهم اللهّ ، ما ألدّ خصامهم . وما أسوأ كيدهم . هذه الكلبة مرت طول النهار بكل ناحية من نواحى المدينة ، وهذه الأبيات قرأها آلاف من الناس بين سخرية وقحة ، وسباب مقذع . تعساً لهم . واللهّ ما كنت أظن أنهم يبلغون هذا . أتحب أن أرسل إلى ابن الحجاج يا أبا الطيب؟

ـ لا يا ابن حمزة ، إياك وأن تظهر المبالاة بهم ، فإن الكلب الجبان يشجع إذا أظهرت الخوف منه .

واجتمع الشعراء الثلاثة بالوزير المهلبى ، وكان الحديث يدور حول حادث الكلبة وما أثار فى المدينة من ضحك وسخرية وفكاهة ، وشكرهم الوزير على ما بذلوا من جهد ، ووعدهم بمضاعفة الثواب إذا ثابروا .

ومرت أيام وأيام والمتنبى متحصّن بداره يكاد يخشى الخروج ومقابلة الناس ، واتفق أن دعاه أبو الفتح بن جنى للغداء بداره فأجاب الدعوة ، وركب فى حشد من عبيده يقصد دار صاحبه ، وما كاد يبلغ صينية الكرخ حتى اخترق ابن الحجاج صفوف الناس وعلق بلجام جواده ، فتزاحم الناس حولهما من كل جانب ، وأخذ ابن الحجاج ينشد بصوت عال قصيدة بذيئة فى هجاء أبى الطيب أولها :

يا شيخ أهـل العلـم فينـا ومن　　　يلـزم أهـل العلـم توقيره

وكان المتنبى مطرقاً فى خشوع وجلال فى أثناء الإنشاد ، لم تظهر على وجهه لمحة استنكار ، ولم تبد منه بادرة تدل على أن شعراً ينشد أو هجاء يقال ، وحينما أتم ابن الحجاج إنشادة التفت إليه أبو الطيب وقال : لقد أجهدت نفسك يا صاحبى بالوقوف فى هذه الشمس المحرقة . ثم أرخى عنان فرسه وأطلقه للمسير .

وكلما طالت إقامة المتنبى ببغداد زادت الحملة قوة وتأجج لهيبها . وكانت تجرى كل هذه الأحداث وهو ساكت لا ينبس ، رزين لا يطيش ، ولكن نفسه كانت تتقد غيظاً وقلبه يتفتت كمداً ، جلس مرة مطرقاً حزيناً وقد مرّت بذهنه هذه الصور المخزية ، وهذه الحرب الكريهة التى ألقى فيها سلاحه ليصون كرامته من أن تنزل فى هذا الميدان ، ثم أخذ يحادث نفسه ويقول : إلى متى هذه المطاولة؟ وإلى متى هذا الحلم الذى قد يعده الناس جبناً؟ أين شعرك يا أبا الطيب؟ إن بيتاً واحداً منك كفيل بأن يلقف ما صنعوا وأن يلتهم

حبالهم وعصيّهم . إنهم ذباب قذر يكفى أن تمر بنعلك عليهم فتمحوهم جميعاً . ولكنك إذا هجوتهم كنت لهم قريناً ، والموت خير الف مرة من أن تكون قريناً لهؤلاء . اهج المهلبى إذاً ، اهجه أبا الطيب ، اهج معز الدولة ، نعم اهج هذين أو واحداً منهما ، فإن مثلك لا يهجو إلا الملوك والوزراء ، وأقسم بالشعر ومناته وعزاه إن قصيدة واحدة منك فى هجائهما لن تكون ألفاظاً ، ولن تكون حروفاً ، ولكنها تكون صاعقة تحطّم العروش وتبعثر التيجان . ولكن كيف تهجوهما؟ إنك إن فعلت فلن يكون لك مسكن إلا فى السماء ، نعم إن هجاءهما لا يبقى لك فى الأرض مكاناً ، لقد غاضبت مصر وجفوت الشام ، فإذا فررت من العراق فأين تذهب؟ قد يجول بنفسك أن تذهب إلى بلاد فارس ، وأظن أن ملكها عضد الدولة لا يلاقى من هجا عمه معز الدولة بالقبل والعناق . لا يا أبا الطيب ، اصبر ما استطعت الصبر ، واكظم غيظك المحموم ما قدرت ، فإذا لم تقدر فارحل إلى الكوفة وادفن نفسك بين الكتب فقد أصبحت ميت الأحياء . وجاء ابن حمزة ذات مساء فدخل على المتنبى مهموماً يمسح عرقاً تصبب من وجهه وقال :

ـ لقد قابلت الساعة أبا على الحاتمى فاخبرنى بأنه سيزورك غداً .

ـ من أبو على الحاتمى؟

ـ إنه من أعلام بغداد وكبار أدبائها ، وهو أستاذ كثير من شعرائها وكتّابها .

ـ وماذا يريد منى؟

ـ يريد أن يسعد بلقائك ، وأن يجاذبك الحديث فى الشعر والأدب ، اسمع يا أبا الطيب . إن الحاتمى رجل مهيب رفيع المكانة فى بغداد ، وليس هو ممن يقابل بالإعراض والسخرية كما قابلت ابن الحجاج وصاحبيه ، فرجائى إليك أن تبسط له من نفسك وحديثك ، وأن تقابله بما يليق بمنزلته وكرامته ، فقد كفانا ما لقينا من الفضائح فى دروب بغداد وأزقتها ، وكفانا أننا أصبحنا اليوم حديثاً لأدعياء الأدب وسخفاء المجّان .

ـ اجعل كل هذا دبر أذنك يا ابن حمزة .

ـ اجعله دبر أذنى إن استطعت ، ولكنى لا أضيف إليه كارثة جديدة بإهانة أعظم أدباء بغداد .

ـ لا . لن نهينه ما أحسن الكلام والتزم الأدب .

وجاء الحاتمى فى الغد وقد اعتزم أن يسقط المتنبى من سماء كبريائه، وأن ينكس رأسه فى التراب، وأن يظهر جهله بالشعر والأدب واللغة، ثم ينشر فى طول بغداد وعرضها أنه حطم الصنم، وخرق الطبل الأجوف، وأن هذا المتنبى الذى يظن أن شمس العراق لم تطلع على مثله ليس إلا دعياً مغروراً أفاقاً.

جاء الحاتمى وقد ركب بغلة فارهة وحوله عدة من الغلمان بين مماليك وأحرار، فلما بلغ الدار ولمحه أبو الطيب غادر مجلسه ودخل حجرة أخرى، واستأذن الحاتمى وأذن له فاستقبله ابن حمزة أحسن استقبال وحياه أجمل تحية، وكان بالمجلس أبو الفتح بن جنى والقاضى أبو الحسن المحاملى، ثم دخل أبو الطيب فسلم عليه الحاتمى مبتسماً وقال:

ـ لقد لمحتك يا أبا الطيب فى هذه الحجرة وأنا بباب الدار، فلما علمت بقدومى تركتها، أفعلت ذلك لكى لا تنهض إلى بالسلام؟ فسكت أبو الطيب ولم يجب، ثم جلس على كرسيه معرضاً ينظر إلى السقف والحيطان، ولما فرغ من هذا اتجه إلىّ ابن جنى وقال:

ـ إن البيت هو:

حالفتــه صدورهــا والعوالى لتخوضــن دونــه الأهوالا

والضاد فى «تخوضن» مضمومة لأن الفعل مسند إلى واو المذكرين مؤكد بالنون. فقال ابن جنى: كنت أقرؤه «لتخوضن» بفتح الضاد على أن الفعل مسند إلى ضمير مؤنث يعود على الصدور والعوالى، وكيف يا سيدى يسند الفعل إلى واو المذكرين المحذوفة فى «تخوضن» وهى خاصة بالعقلاء؟

ـ حينما قلنا إن صدور الخيل وعوالى الرماح حالفت الممدوح أجريناها مجرى من يعقل من الذكور.

كان يدور هذا الحديث والحاتمى متفزز متوثب، ينفخ من الغضب، فالتفت إليه المتنبى وقال:

ـ كيف حالك؟ فأجاب الحاتمى وهو يتميّز من الغيظ:

ـ أنا بخير لولا ما جنيته على نفسى من قصدك، وجشّمت دابتى من السعى إلى مثلك، أجبنى باللهّ أيها الرجل! فيم تيهك وخيلاؤك؟ وعجبك وكبرياؤك؟ وهل عدوت أن تكون

شاعراً متكسباً؟ إذا قصدك شريف في نسبه تجاهلت نسبه، أو عظيم فى أدبه صغّرت أدبه، أو متقدم عند سلطانه خفّضت منزلته، فهل المجد تراث لك دون غيرك؟

فاطرق المتنبى وعلم أن الرجل ليس بهين، وأنه يمكنه أن يلين معه بعض اللين، فقال: خفض عليك واكفف من غربك واستأن فإن الأناة من شيم مثلك. فهدأ الحاتمى قليلاً ثم قال:

- إنى جئت أسألك عن أشياء وأراجعك فى أشياء، حدثنى عن قولك:

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ففى الناس بوقات لها وطبول

أهكذا تمدح الملوك؟ فالتفت إليه المتنبى فى زهو وجبرية وقال:

- إن تلاميذى يجيبونك عن كل ما تسأل. فقال ابن جنى:

لا أرى فى البيت إلا روعة وإبداعاً، فإن للجيش عدداً هى السيوف والبوقات والطبول، وإن السيف خير هذه العدد وهو اسم الممدوح «سيف الدولة»، أما البوقات والطبول فلها ضجيج وجلبة، ولكنها لا تعمل شيئاً، لذلك شبه الشاعر بها غير الممدوح من الملوك.

- هل معز الدولة بوق وطبل؟

- لا أدرى، وإنما أنا مفسِّر شعر، ثم غمز بعينه الباقية وقال: هل قرأت يا سيدى ما بعد هذا البيت وهو مما لم يسبقه إليه شاعر؟

أنا السابق الهادى إلى ما أقوله إذ القول قبل القائلين مقول

وما لكلام الناس فيما يريبنى أصول، ولا للقائليه أصول

أعادى على ما يوجب الحب للفتى وأهدأ والأفكار فى تجول

فقال الحاتمى: وكيف لم يخجل المتنبى من سيف الدولة حين قال فى رثاء أمه؟

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

فقال ابن جنى: وماذا فى هذا يا سيدى؟ أتستنكر أن توصف أم ملك بالجمال؟ أتظنه جمالاً كجمال الراقصات والقيان؟ إنه يا سيدى جمال النفس الرضية والخلق النبيل. اقرأ يا سيدى من هذه القصيدة وسبِّح بحمد واهب المواهب:

مشـى الأمـراء حوليها حفاة | كأن المـرو من زف الرئال
وأبـرزت الخـدور مخبآت | يضعـن النقس أمكنـة الغوالى
أتتهـن المصيبـة غافلات | فدمـع الحـزن فى دمـع الدلال
ولـو كان النســاء كمـن فقدنا | لفضلـت النسـاء علـى الرجال
ومـا التأنيث لاسم الشـمس عيب | ولا التـذكير فخـر للهلال

فقال الحاتمى : ويقول المتنبى :

وإذا أشـار محدثـاً فكأنه | قرد يقهقـه أو عجـوز تلطم

أما كان فى أفانين الهجاء مندوحة عن هذا الكلام؟ فأسرع إليه ابن جنـى قائـلاً : رحماك يا مولاى ، فقد جئت بأبلغ بيت تنفس عنه الهجاء فى الشعـر العربـى! ما أغـرب الصورة وما أمهر صناعتها! إنها صورة لو عثر بمثلها حماد عجرد لأغنته عن كل هجائه فى بشّار. وفى هذه القصيدة يا سيدى :

لا يسلم الشـرف الـرفيع من الأذى | حتـى يراق علـى جوانبـه الدم
والظلـم من شيم النفـوس فإن تجد | ذا عفـة فلعلـه لا يظلم
ومـن البلية عذل من لا يرعوى | عن جهلـه وخطـاب من لا يفهم

واستمر الجدال على هذا النحو ساعات ، وكان المتنبى يشترك فيه أحياناً فى رفـق ولين ، وشعر الحاتمى أنه إزاء شاعر لا يدرك ، ورأى من عطف المتنبى ومجاملته فى أثناء الحديث ما خفف من حدته وهدأ من ثائرته ، ولم يجد فى نفسه حرجاً من أن يجامل المتنبى هنا ثم يدّعى للوزير المهلبى أنه انتصر عليه وغلبه ، ونهض فنهض المتنبى مشيعاً له إلى باب الدار حتى ركب .

وزاد يقين أبى الطيب بأن السحاب يتراكم ، وأن الصاعقة توشك أن تنقضّ ، فصبر على دخن ، وطوى نفسه على غيظ دفين .

وكان كافور قد أقام أبا عوف الكنانى بدار الخلافة منـذ سنين لينقـل إليه أخبارهـا وليكون سفيره لدى معز الدولة والخليفة ، وقد أنبأه أبو عوف بقدوم المتنبى بغداد ، وجاءه الجواب بأن يحتال لقتلة غيلة ، فإذا لم يستطع ألزمه طائعاً أو مكرهـاً أن يمـدح كافـوراً بقصيدة تمحو كل ما جره عليه هجاؤه من العار. وبذل أبو عوف كل ما فى مكنته من جهود

لإطاعة أمر كافور فلم يوفّق . وفى ليلة دخل عليه منصور الحلى وكان شريكاً له فى المؤامرة فقال :

ـ لقد اهتديت إلى أحكم الطرق وأسلمها لإنفاذ المؤامرة. فاتجه إليه الكنانـى فى تشوّف قائلاً :

ـ كيف؟

ـ كنت اليوم أزور أبا إسحاق الصابى ودار الحديث حول المتنبى ، فأثنى عليه كثيراً وأخبرنى أنه يود أن يدعوه إلى داره ليؤدى له ما يستحق من كرامة ، وليعتـذر له عما ناله من سلاطة شعراء بغداد وشنيع هجائهم ، فقلت له : إننى أؤدى عنك الرسالة يا سيدى ، فاكتب إليه رقعة لدعوته غداً وأنا كفيل بحملها إليه . فكتب هذه الرسالة ، وأخرج من كمة ورقة بخط الصابىء فقال الكنانى :

ـ وماذا نصنع بهذه الرسالة؟

ـ تسلمها إلى عبيدك غداً فى الصباح ، وتأمرهم أن يذهبوا بها إلى المتنبى بدار ابن حمزة زاعمين أنهم عبيد أبى إسحاق ، وأن سيدهم أمرهم أن يصحبوا المتنبى إلى داره .

ـ ثم؟

ـ ثم يذهبون به إلى قصرك الخالى بالزبيدية ، وهو قصر منعزل بعيد عن الدور ، فإذا بلغوا به القصر وضعوه فى إحدى غرفه وقيّدوه ثم هددوه بأنه إن لم ينظم قصيدة فى مدح كافور قتل شر قتلة .

وجاء الصباح وتمت المؤامرة ، ورأى المتنبى نفسه مقيد الرجلين وحوله زنوج تلتهب عيونهم بالغضب ، وقد وضع كبيرهم على خوان ورقاً وأقلاماً وهو يقول :

هنا تكتب قصيدة فى مدح مولانا كافور ، وإلا ذهبت روحك إلى الشيطان ! وتكلّف المتنبى الرضا وأظهر الرغبة ، فتركوه وذهبوا إلى سرداب القصر فعثروا به على دن ممتلىء بخمر من خمر البلح تغلى وتشتد وتقذف بالزبد ، فتصايحوا تصايح الزنوج ، وقال كبيرهم : لنشرب حتى يتم شاعرنا القصيدة ، فتهافتوا على الشراب وأخذوا يكرعون ويغنون حتى صدعت الخمر رءوسهم .

وجلس المتنبى فى غرفته يائساً ساخطاً، ثم ألقى نظرة على النافذة فلمح من بعيد فتىً ينصب فخه للطيور، فأشار إليه وكرّر الإشارة فلم يلتفت، فبحث فى الغرفة عن حصاة فقذفه بها فرفع الفتى رأسه ورأى أبا الطيب وهو يشير إليه إشارات تدل على الاستغاثة وطلب النجدة، فأسرع إليه وصعد فى السلم حتى وصل إلى غرفته، فأخبره المتنبى بالقصة وطلب إليه أن يفك قيده فقطعه بسكين كانت فى حزامه ثم قال:

- هلم يا شيخ فإنك تستطيع أن تخرج الآن آمناً فلست أسمع بالدار إلا غناء سكارى.

- إذاً لقد سكر المناكيد!

- يظهر ذلك.

- دعنى الآن أكتب شيئاً ثم نخرج معاً وأخذ الورقة وكتب فيها:

ولى همة من رأى همتها النوى	فتركبنى من عزمها المركب الوعرا
تروق بنى الدنيا عجائبها ولى	فؤاد ببيض الهند لا بيضها مغرى
أخو همم رحالة لا تزال فى	نوى تقطع البيداء أو أقطع العمرا
ومن كان عزمى بين جنبيه حثه	وخيل طول الأرض فى عينه شبرا
صحبت ملوك الأرض مغتبطاً بهم	وفارقتهم ملآن من حنق صدرا
ولله آيات وليست كهذه	فإنك يا كافور آيته الكبرى
واكفر يا كافور حين تلوح لى	ففارقت مذ فارقتك الشرك والكفرا

فلما أتم الكتابة تسلل مع الفتى من الدار، ورأى جواده تحت شجرة فامتطاه وطار. وصحا العبيد وذهبوا إلى الغرفة فلم يجدوا للمتنبى أثراً، ورأوا الورقة فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون فى صخب وشكاس، ثم حملوا الورقة إلى الكنانى فقرأها وضرب بكف على كف وصاح فى العبيد:

لقد أفسدتم كل شىء يا عبيد السوء، اكتموا كل ما جرى، وأقنعوا أنفسكم أنه لم يحصل شىء، لو وصل إلى سيدى كافور علم هذه الحادثة لقتلنا جميعاً. وإنى أيضاً سأكتم خبر هذه الورقة. ها هى ذى أنظروا! ثم مزقها قطعة قطعة ونثرها فى الهواء.

وبلغ المتنبى دار ابن حمزة مجهداً مكدوداً مضطرب العصب وهو يصيح: يا محسد:

يا مفلح، فلما أقبلا عليه قال: لن نقيم بهذه المدينة إلا الليلة، أسمعتما؟ أعدا الرواحل والجياد، سنرحل غداً فى الصباح. ثم أخذ يغمغم:

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم　　　بين طعن القنا وخفق البنود
فرءوس الرماح أذهب للغيـ　　　ـظ وأشفى لغل صدر الحقود
لا كما قد حييت غير حميد　　　وإذا مت مت غير فقيد
فاطلب العز فى لظى ودع الذ　　　ل ولو كان فى جنان الخلود

رعونة

غادر المتنبى بغداد والغيظ يمزّق فؤاده ، والغل تغلى فى نفسه مراجله ، لقد كان يظن أن الأدباء والشعراء سيتنافسون فى إجلاله وتكرمته ، ويتسابقون إلى التقاط كل كلمة تخرج من فيه كأنما هى قرآن مبين ، ويقتتلون على نيل الحظوة عنده والتقرب إليه ، ولقد كان يتخيّل أن الخليفة سيسرع إلى ملاقاته مرحباً محيياً ، وأن معز الدولة سيسعى إليه على الأقدام راجياً متملقاً ، وأن الخلافة ستخلى له قصراً على دجلة من قصور العباسيين يطل منه على رعية مخلصة لأدبه تردد حمده فى الغدو والآصال ، ولقد كان يتوهم أنه وقد أصبح العلم الفرد فى دولة البيان ستجد فيه دار الخلافة علماً خفّاقاً يجمع حولها أقطار العربية ، وداعية منقطع النظير يعيد الأوطان المتمردة إلى أحضان بغداد ، كان يحلم بكل هذا وهو رجل بعيد الأحلام ، وكان يقدر كل هذا وهو رجل ما أصاب مرة فى تقدير ، وطالما منى نفسه بعد أن خاب فى أن ينال ضيعة أو يحكم ولاية أنه بعد أن يمد جناحى نفوذه على عرش الخلافة ، سيصبح الآمر فى الولاة الناهى فى الملوك ، فهل حصل من هذه الأوهام على شىء؟ لم يسمع الخليفة السجين أن شخصاً يدعى بالمتنبى زار بغداد ، ولم يقبل معز الدولة أن شاعراً مستجدياً تيّاهاً يطأ بساطه ، وتكبر عليه المهلبى وعزفت نفسه عن أن يطلب منه شعراً ، ثم أغرى به شعراءه فمزقوا عرضه واعتقلوه فى داره فلم يكن يخرج منها إلا خائفاً يترقّب . هذا ما لقيه فى دار الخلافة ، لم ترلمواهبه شبحاً ، ولم تلمح لنبوغه أثراً ، ولم تجد فيه إلا شاعراً طليح أسفار كلّت يداه من طرق الأبواب . جالت هذه الأفكار بنفس المتنبى وهو يقطع الطريق عدواً بين بغداد والكوفة عائداً إلى موطنه سيفاً محطماً ، وأملاً حائراً ، وحطاماً بشرياً ، فزفر فى حزن وأسى وقال :

وقت يضيع وعمر ليت مدته　　في غير أمته من سالف الأمم!
أتى الزمان بنوه في شبيبته　　فسرهم وأتيناه على الهرم

وبعد أيام بلغ الكوفة فألقى بها عصا التسيار، وعزم على أن يعيش بها كما يعيش سُراة المدينة، وخلع ثياب الشاعر ولبس عدّة الفارس وسلاحه، وعاد إلى قضاء وقته بين الصيد ومجالسة الأدباء والأشراف، وحاول أن ينسى طموحه، وأن يسخر من آماله، وأن يرضى من الغنيمة بالإياب، ويقنع بعد طول الجهاد بالطعام والشراب. وبينما كان يوماً عائداً إلى داره إذ رأى ابنه محسداً يسرع إليه ويهمس:

ـ سيدى سعد الدولة هنا.

ـ سعد الدولة؟ ابن سيف الدولة؟

ـ نعم يا أبى، لقد حضر منذ ساعة. فأسرع المتنبى إلى لقائه، وما كاد يراه حتى انكبّ عليه يعانقه ويقبله ويرحب به. وكان أبو المعالى سعد الدولة فى نحو الثالثة عشرة وسيماً قسيماً تظهر عليه مخايل البطولة، وتنطق فى وجهه ملامح العروبة، فاتجه إليه أبو الطيب وقال:

ـ كيف حال مولاى سيف الدولة؟

ـ لقد تركت أبى مريضاً، ولكن المرض لم يمنعه من الخروج إلى لقاء الروم الذين أغاروا على طرسوس. إنهم لا يتركوننا لحظة للراحة وتجفيف العرق يا أبا الطيب! ولقد كاد أبى يضيق بهم ذرعاً. ثم أخرج من كمة رسالة وقال: هذه رسالة أبى إليك. فقرأ المتنبى فإذا فيها: من سيف الدولة أبى الحسن بن حمدان إلى أبى الطيب أحمد ابن الحسين:

أما بعد فإنى أحمد اللهّ إليك وأطلب لك العافية والسلامة. علمت بتركك الأسود، وشكرت اللهّ على نجاتك من هذا الطاغية. وإنى أبعث إليك بابنى وهو أغلى ما فى الحياة عندى، لأرجوك فى العودة إلى حلب، لقد تغيّرت بعدك الأحوال يا أبا الطيب، وقويت شوكة الروم وطمى طغيانهم، وتخاذل الناس حولى وسئموا القتال. والإسلام والعروبة فى أحوج ما يكونان إلى صوتك الرنّان، وشعرك الفيّاض بالقوة والحماسة ليلهب لب ثم ويوقظ الهمم. لقد كان وجودك إلى جانبى بحلب طالع يمن علىّ وعلى المجاهدين

فى الإسلام، ولقد كانت أيامك أيام انتصار وفتوح ملأت الدنيا بوصفها، وخلّدت فى التاريخ ذكرها. أقبل علينا أبا الطيب فإن السيوف تهتز فى أغمادها شوقاً إليك، ومجالس الأدب تكتم أنفاسها انتظاراً لقدومك. أقبل يا شاعر العرب. وإذا كانت فى نفسك منى غضاضة، فإنى أقول لك الآن ما قلته لى من قبل:

وإن كان ذنبى كل ذنب فإنه … محا الذنب كل المحو من جاء تائباً

قرأ المتنبى الرسالة فتقاطرت الدموع من عينيه، ثم قبّلها مرات وقال: إننى لولا العوائق لطرت إلى مولاى سيف الدولة. ثم أطرق طويلاً مفكراً مهموماً وهو يستمع لحديث نفسه وهى تقول: يطلبك الآن سيف الدولة بعد أن نبذك وازدراك وتغاضى عن إساءة أهله وعشيرته لك، وبعد أن ضجر بإقامتك ومل ثواءك؟ يطلبك بعد أن صرف وجهه عنك تيّاهاً، وترك ابن خالويه يقذفك بالمفتاح فى وجهك دون أن يلقى منه نكيرا؟ لا يا أبا الطيب لست ألعوبة فى أيدى هؤلاء الأمراء ينبذونها كلما ملوا اللهو بها. عرّفهم أبا الطيب أن نفسك أقوى من نفوسهم، وأن كرامتك فوق كرامتهم، وأنك إذا انصرفت نفسك عن الشىء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تقبل. على أنك قد لقيت من الشعر ما كفاك، ومن هؤلاء الأمراء المتقلبين ما تئن اليوم تحت أثقاله، لا يا أبا الطيب، لا تذهب إلى حلب، فإن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين!

ثم اتجه إلى سعد الدولة وقال: يقيم مولاى عندنا أياماً ليستريح وربما تبعته إلى حلب. وأقام سعد الدولة بالكوفة حيناً، ولما عزم على الرحيل ودّعه الشاعر وألقى فى رحله قصيدة لأبيه من أروع ما نظمه فى سيف الدولة منها:

ليس إلاك يا على همام … سيفه دون عرضه مسلول
كيف لا تأمن العراق ومصر … وسراياك دونها والخيول؟
أنت طول الحياة للروم غاز … فمتى الوعد أن يكون القفول؟
قعد الناس كلهم عن مساعـ … ـيك وقامت بها القنا والنصول
ما الذى عنده تدار المنايا … كالذى عنده تدار الشمول.
من عبيدى إن عشت لى ألف كا … فور ولى من نداك ريف ونيل

وعاد المتنبى إلى حياة الملّل والفراغ، وكان صديقه الحسن العلوى يكثر من ازدياره ويجتهد فى تسليته والترويح عنه، فبينما كانا فى أحد الأيام بظاهر الكوفة إذ رأيا شاباً فى

نحو العشرين قوى العضل وثيق البناء قصير القامة غليظ الوجه عابس نظرات العينين ، يبدو كأنه ساخط على الوجود ومن في الوجود ، ووراءه طائفة من الأعراب فى أسمال وأخلاق وهم يسيرون خلفه في رهبة ومهابة ، كما تسير العبيد خلف السيد المطاع . ومر الشاب ومن معه بالمتنبى وصاحبه فلم يزد على أن رفع بصره إليهما فى اشمئزاز، ثم ابتسم ابتسامة سخرية وازدراء . فقال المتنبى :

ـ من هذا الوغد الجافى يا سيدى الشريف؟

ـ هذا ضبة بن يزيد ، وهو فتى قرمطى شرير خبيث ، لو أراد الشيطان أن يتخذ لروحه مكاناً ما اختار لها غير جسمه . إن هؤلاء القرامطة يا سيدى لم يتمسكوا بمذهبهم عن رأى وعقيدة ، ولكنهم قوم صعاليك فتّاكون نهّابون ، عز عليهم أن يروا بعض الناس فى نعمة ويسر فأوغروا صدور الفقراء على الأغنياء ، وزينوا لهم نبذ طاعة كل حاكم ، وأحلو لهم السلب والنهب والقتل وكل ما يندى له الجبين من رذائل . وقد وجدت دعوتهم قبولاً عند شذّاذ الأعراب الذين كانوا يقتلون ويسلبون فى خوف وحذر، فأصبحوا الآن يقتلون ويسلبون عن عقيدة ودين . هؤلاء القرامطة كارثة على الإسلام يا أبا الطيب .

ـ بلا شك ، وإنى أعتقد أن هذه الثورات ليست إلا فتناً سياسية ابتدعها أعداء العرب لإضعاف دولة العرب ، وألبسوها ثوب المذاهب الدينية .

ـ هذا صحيح . وضبة هذا يسيطر على فريق من صعاليك بنى كلاب ، وأظن أنهم يدبّرون خطة للهجوم على الكوفة ، وقد أخذ أغنياء المدينة يحتاطون لأموالهم ، ويعدون العدة لصدهم .

ـ سأمحو بسيفى هذا وساوس عقولهم إن كان لهم عقول .

ومرّت شهور ولا حديث للمدينة إلا غارات القرامطة وتخوف الناس من وحشيتهم وقبح أفاعيلهم ، وفى صباح أحد الأيام زار الحسن العلوى دار أبى الطيب وكان مضطرباً مهتاجاً ، فحيّاه المتنبى وقال :

ـ ما الخبر يا سيدى؟ اجلس واهدأ قليلاً .

ـ لن أجلس يا أبا الطيب . فإن الفرصة قد أمكنت من هذا الوغد ضبة ، وقد سيّر إلى بعض رجالى رسولاً يطلب النجدة ويقول ، إنهم قد ضيقوا عليه الخناق ، ولا يحتاجون إلا

إلى بضعة فرسان للتغلب عليه وعلى أنصاره. قم يا أبا الطيب واركب معنا.

- هذا هو اليوم الذى كنت أتمناه على الأيام فقد صدىء سيفى فى غمده.

وركب أبو الطيب والشريف على رأس شرذمة من الفرسان، وما كادوا يصلون إلى ميدان المعركة حتى فر رجال ضبة شماطيط، والتجأ إلى حصن منيع أحكم إغلاق بابه، وأطل من نافذة ضيقة به وأخذ يسب ويلعن ويصيح:

- أين متنبيكم هذا الكاذب المنافق الجبان؟ أين ابن عبدان السّقاء حتى أبصق فى وجهه بصقة تذكره بالماء الذى كان يحمله أبوه؟ أين هذا الدعىّ الفاجر لأعلمه أن امتشاق الحسام غير نظم الكلام؟ فصاح الشريف:

- مرحى بمن يفر من الحراب، ويقاتل بالسباب. إنك فى الحق أجبن من فار. ولكنك فى الشتم أجرأ من أسد.

- إننى أقدم إذا كان الإقدام عزماً، وأحجم إذا كان الإحجام حزماً. فصاح المتنبى:

- على شرط أنك لا ترى الإقدام عزماً فى يوم من الأيام.

- اخسأ يا دعى كنده. والله إن سيفى ليحن إلى رأسك ولكنه يخشى أن يدنس بلمائك.

فمال الشريف على المتنبى وقال: لقد جاوز الكلب الحد وبلغ الغاية فى الإقذاع، اهجه يا أبا الطيب، اهجه من صنف كلامه ونوعه، ومزق عرضه كما تمزق النعل الخلق. فجلس المتنبى هنيهة ثم أخذ ينادى ضبة وهو فى حصنه بأقبح الألقاب، وينشده قصيدة قذرة الألفاظ والمعانى قذفه فيها بكل ما حققه من السباب، ورماه ورمى أمه بما يتعفّف عن ذكره أبذأ الناس لساناً. وعاد جماعة المحاربين ولم يبلغوا من ضبة مأربا، ولم يجرد أبو الطيب سيفه من قرابه. وقال أحدهم:

- لقد كانت قصيدة عجيبة، وأغلب ظنى أنها ستثير ضجيجاً فى بنى كلاب. وقال ثان:

- لعلها تؤدب هؤلاء القرامطة وتصرفهم عن غيِّهم. وقال ثالث:

- إن أخشى ما أخشاه أن تصل هذه القصيدة إلى أذن فاتك الأسدى. فالتفت المتنبى فى انزعاج وقال:

ـ ومن فاتك الأسدى هذا؟

ـ فاتك الأسدى رجل قرمطى، وهو خال ضبة بن يزيد، وهو لص بطّاش مغامر يستحل دم الحجاج فى الحرام، والقصيدة كلها قذف فى أخته وثلم لعرضها، ولا أعتقد أنه يسكت عن هذا أو بعض هذا. فتهاتف المتنبى ساخراً وقال:

إذا صلت لم أترك مصالا «لفاتك» وإن قلت لم أترك مقالاً لعالم

واستمر أهل الكوفة فى خوف وذعر من القرامطة، وعلمت فاطمة زوج المتنبى بخبر ضبة، وتساقط إلى سمعها بعض أبيات من القصيدة فتوجست شراً، ولم تستطع أن تحادث زوجها فى الأمر.

وبعد أشهر تجددت ثورة القرامطة وتجمعوا حول زعمائهم بظاهر الكوفة، وصمموا على الهجوم على المدينة، فالتف كبراؤها حول أبى الطيب وجهزوا فصيلة من الفرسان والرجالة لقتالهم، وقد كانوا أرسلوا إلى بغداد رسولاً لطلب المعونة، وخرج أبو الطيب وعبيدة للقتال وحارب أياماً فأثخن فى أعدائه، وانتهت المعركة، وفر بنو كلاب، وعاد الشاعر الفارس منصوراً مظفراً. وجاء جيش بغداد بعد أيام فخلع قائده «دلير» على المتنبى وأجزل له العطاء، وأنشده أبو الطيب قصيدة فى الميدان وقد كان ممتطياً جواده منها:

ذرينى أنل ما لا ينال من العلا فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل
تريدين إدراك المعالى رخيصة؟ ولا بد دون الشهد من إبر النحل

وسارت القصيدة فى البوادى، وسخط الأعراب على أبى الطيب لمدحه دليد الديلمى، ومرت شهور ضاق فيها الشاعر بالكوفة وتمنى لو وجد إلى سواها منفذاً، وفى يوم طرق بابه فارسان كان أحدهما يحمل رسالة من أبى الفضل بن العميد وزير عضد الدولة «بأرجان» يدعو فيها الشاعر إلى الرحيل إليه، ويبذل له الوعود الحسان، وكان الثانى رسولاً من قبل سيف الدولة يلح عليه فى الذهاب إلى حلب، ويغريه بكل وسائل الإغراء، وقد فكّر المتنبى فى الرسالتين وأطال التفكير، فمرة تدفعه عروبته إلى الرحيل إلى حلب وإلى السخط على الديلم وكل من يتصل بالديلم، ومرة ينفر كما ينفر المهر الشموس ويأبى أن يعود إلى رجل أهين فى حضرته فلم يدفع عنه، وترك أعداءه وحسّاده يثلبون عرضه حتى اضطر إلى قصد الأسود الذى هدم حياته وأهدر كرامته. وانتهى بالمتنبى العزم إلى أن يعتذر إلى سيف

الدولة بأبيات، وأن يقصد ابن العميد. وما كاد يلقى الخبر على زوجته حتى غشيتها غاشية من الحزن والتطير وصاحت:

- لا تذهب يا أبا الطيب. بالله عليك لا تذهب. إن أنفاسى لم تهدأ بعد مما لاقيت من فراقك الطويل، وإن خفقات قلبى لا تزال تأبى أن تظن أنك بجانبى، ولو كنت ممن يتقون المخاطر، ويتوقون المهالك، لكان حزنى لفراقك حزن امرأة غاب عنها زوجها وبقيت تمنى نفسها بلقائه، ولكنك رجل إذا ابتلعتك القفار تحدّيت الموت، وسخرت من الخطوب، ولم تبال بالأسود ولا بالحيات السود.

فربت أبو الطيب ذراعها فى رفق وقال:

- لا تخافى يا فاطمة فالطريق آمنة، ولن أغيب عنك طويلاً.

- إن الوساوس تقتلنى يا سيدى، وإنى أشعر فى هذه المرة - ولا أدرى لم أشعر - بشىء يكاد يقف له قلبى، فبالله عليك لا ترحل يا أبا الطيب.

- هذه وساوس شيطان يا فاطمة فاصرفيها عنك. ثم مدّ إليها ذراعيه فى رفق فعانقته باكية مكلومة الفؤاد، وأخذت تردد الحسرات، وتزوّد بالدعوات، فاجتذب نفسه من ذراعيها وأسرع إلى الباب فرأى عبيده قد أعدوا كل شىء للرحيل. ففصل من الكوفة ومعه ابنه محسد وعبده مفلح فى أول صفر سنة أربع وخمسين وثلاثمائة قاصداً أرجان وهو يقول:

شر البلاد مكان لا صديق به — وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
وشر ما قنصته راحتى قنص — شهب البزاة سواء فيه والرخم

صحوة

بلغ شاعرنا الجوالة الرحالة بغداد بعد أيام، ونزل بدار راويته على بن حمزة وأغراه بالسفر معه إلى أرجان فلم يتردد غير أنه قال:

ـ كنت أتمنى أن تكون هذه الرحلة لأحد ملوك العرب.

ـ وأين هم الآن يا ابن حمزة؟ إن خليفتكم المطيع لله والمطيع للديلم لم يسمع باسمى، ولم يعلم أين مكانى.

ـ كنت أوثر أن ترحل إلى سيف الدولة.

ـ دعنا بالله من هذا الحديث فقد مَجّته نفسى.

واستراح المتنبى ببغداد أياماً ثم سافر منها إلى أرجان فنزل بالأهواز، وأقام يومين فى ضيافة أبى على التنوخى، وكان شاعراً أديباً أخبارياً، وبينما كان يمر بإحدى ساحات الأهواز إذ سمع أعرابياً يهمس لصاحبه:

ـ هذا هو المتنبى الذى هجا ضبة، والذى أقسم فاتك الأسدى أن يقتله ولو تعلق بأستار الكعبة.

ـ وأين منه فاتك الآن؟ إن بينه وبين الأهواز بعد المشرقين.

ـ إن فاتكاً لا يتعجل الأمور ولكنه إذا عزم صمم، وإذا صمم أصمى.

سمع أبو الطيب هذا فاضطربت له نفسه، ثم ابتسم وقال: قاتل الله فاتكاً هذا. لا

يزال الناس يتحدثون فى أمرى وأمره.

ورحل عن الأهواز كاسف البال كثير الوساوس، وما زال يغذ السير حتى أشرف على أرجان فرمى ببصره فرأى مدينة ضيقة الرقعة صغيرة الدور مقفرة، فهز رأسه وقال:

ـ أأترك ملوك الأرض وسادات العرب لأسير شهراً إلى هذه القرية الخاوية على عروشها؟ ولأمدح رجلاً لو أنصف الزمان لسجد لعظمتى؟ ثم زفر وقال: هكذا حكم عليك يا أبا الطيب أن تعيش مشرّداً، وأن تترك دائماً اللباب لتتلهى بالقشور. فأخذ ابن حمزة بذراعيه قائلاً:

ـ اهدأ يا سيدى فإنك محاط بجواسيس يعدون عليك أنفاسك، لقد نصحتك ببغداد أن تلوى عنانك إلى حلب فنهرتنى فى غضب ونكر، ثم تجىء الآن بعد أن قطعنا الطريق فتبكى على العرب وملوك العرب وتسخر من الفرس وبلادهم؟ أين حزمك يا أبا الطيب إن هذه البوادر التى ينطق بها لسانك من غير تحرز هى التى أفسدت عليك كل شىء بحلب، ودفعتك إلى الفرار تحت جناح الليل من مصر. لقد انتهى الأمر، وقدمنا إلى فارس، فيجب أن تعقل لسانك عن أن يبوح بكلمة سوء، حتى إذا عشنا بها عشنا آمنين، وإذا رحلنا عنها رحلنا مكرّمين.

ـ لقد كنت فائل الرأى عازباً عن الحق فى مجيئى إلى فارس وترك العودة إلى حلب، وما لى وللديلم؟ أضاقت بى رحاب الأرض؟ أم سدت فى وجهى بلاد العرب؟ أم عز من أبناء مضر من يفهم العربية فجئت لهؤلاء الأعاجم أنشدهم شعراً عربياً؟ إن قصدى لملوك الديلم عقوق لعروبتى وقومى. لقد قلت أبياتاً قليلة فى مدح دلير فقامت قيامة الأعراب وكادت تكون فتنة، فكيف إذا تحدثت الدنيا بأن أبا الطيب ألقى خلفه ملوك العرب ورحل صاغراً مستجدياً ملوك الفرس يشيد بفضلهم ويسخر من العرب والعروبة؟

ـ هذا واللهّ ما كنت أخشاه، حقاً إنك لرجل تعبث به الأهواء، مرة تسخط على العرب، ومرة تحن إليهم، وهذه النفس الدوّارة القلقة هى التى تجر عليك الشر، وتوردك موارد الهلكة. دعنا باللهّ نقيم بين القوم ما نقيم فى اطمئنان وهدوء بال.

ـ لن أقيم طويلاً بين هؤلاء الأعاجم، إننى أحن يا ابن حمزة إلى الشام ومشاهدها، وأصبو إلى حلب ورحبتها، وأود فى هذه اللحظة لو حملنى بساط سليمان إلى بساط سيف الدولة.

ـ كل شيء ينال بالصبر والحزم.

وبعث المتنبى إلى ابن العميد غلاماً يعلمه بقدومه، وكان ابن العميد مضطجعاً فى دسته وحوله كبار رجاله وقد علم فى الصباح بقرب قدوم المتنبى، فالتفت إلى نديمه العلوى العباسى.

ـ إننا ننتظر من أبى الطيب شعراً أبلغ وأروع مما قاله فى سيف الدولة وكافور.

ـ حقاً إنه كان ينثر درره فوق من لا يميزون الدر من الحصى، أما وقد جاء ينشد «الجاحظ الثانى» الذى امتلك زمام الأدب، ودانت له رقاب البلاغة، فيجب أن يفكر طويلاً قبل أن يقول، وأن يبرز من بدائعه ما لم يمر بخيال شاعر.

ـ أتعرف أن الأديب أحياناً تفوته الإجادة إذا حرص على أن يجيد؟

ـ كيف يا سيدى؟

ـ إنه إذا حاول الإتقان التجأ إلى التعمق والتعمل، وأدركته حال عصبية من التشكك تحول بينه وبين فطرته السليمة، وقد لمح المتنبى الذى لم يفته شيء من خواطر النفوس هذا المعنى إذ يقول:

أبلغ ما يطلب النجاح به الطبـ ـع وعند التعمق الزلل

وبينما هما فى الحديث إذ دخل الحاجب يؤذن بقدوم المتنبى وأنه ينتظر بظاهر المدينة، فوثب ابن العميد من مضجعه وأمر حجّابه وقواده باستقباله، فسار الموكب وعاد بأبى الطيب بين مظاهر الحفاوة والإكرام، ولما مثل بين يدى ابن العميد قام له وقرّب إليه كرسياً عليه وسادة من ديباج وقال: لقد شرفت بك بلاد فارس يا أبا الطيب، ولقد كنا فى شوق إليك وإلى شعرك وأدبك، وكنا نتلقط أخبارك ونتزود بما يطير إلينا من أشعارك بعد أن ملأت شهرتك الدنيا وشغلت الناس، إن شعرك أصبح حديث كل لسان، ومستشهد كل أديب، فلقد ماتت إحدى أخواتى فورد علىّ نيف وستون فى التعزية ما منها إلا وقد صدِّر بقولك.

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر فزعت فيه بآمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

فوقف المتنبى إجلالاً لهذا الثناء وقال: أدبى يا سيدى قطرات من بحرك الفياض،

ولمحات من عبقريتك النادرة. فابتسم ابن العميد واهتزّ للمديح، ثم سأله عما لقيه فى طريقه وما لاقاه فى سفره، فأفاض فى وصف الطريق وما احتمله من عناء ونصب، ثم أسرع فقال: وقد هوّن كل هذا رجاء مولانا والأمل فى لقائه، وبحث فى كمه فأخرج درجاً كتب فيه قصيدة فوقف وأنشدها بين يدى ابن العميد، وكان الجمع حاشداً، وإعجاب السامعين شديداً، والثناء على الشاعر متوالياً، ووصله أبو الفضل بمائتى دينار وبسيف من أثمن السيوف وأغلاها، وأفرد له داراً وخص به خدماً وعبيداً. وكان الشاعر يزوره فى كل يوم ويظهر الابتهاج والسرور، ويحمد الله الذى وفقه إلى قصده. واقتنص ابن العميد الفرصة فقرأ على أبى الطيب كتابه الذى سماه «ديوان اللغة» وكان يعجب لحفظه وغزارة علمه بالأوابد والنوادر. وأراد يوماً أن يتبسط مع أبى الطيب ويداعبه فقال:

ـ إن لى نظرات ومآخذ على قصيدتك التى أنشدتنها. فدهش المتنبى وقال:

ـ ما هى يا سيدى؟

ـ لقد قلت:

بـاد هواك صبـرت أم لم تصبرا   وبكاك ما لم يجر دمعك أو جرى

ثم قلت بعد هذا البيت:

كم غر صبـرك وابتسامـك صاحباً   لمـا رآه وفـى الحشـا ما لا يرى

وهذا تناقض بين، فقد أخبرتنا فى البيت الأول أن حبك وبكاءك ظاهران سواء أصبرت أم لم تصبر، وسواء أجرى دمعك أم لم يجر، ثم عقبت بأن صبرك خدع الناس وأخفى عليهم وجدك وهيامك. فأسرع المتنبى وقال:

ـ تلك حال وهذه حال، غاية الأمر أن البيت الثانى متقدم فى الوجود على البيت الأول، لأن هذا المحب فى أول أمره وقبل أن يضنيه الهوى، ويغيّر حاله الهيام، كان يغر من رآه، ولكنه بعد أن ألحّ عليه السقم لم ينفعه الجلد ولم يُغن عنه الصبر، فبدا هواه لكل ناظر.

ـ هذا طريق ملتو لا تدرج فيه العقول. ثم ماذا تقول فى مخالفتك بين مصراعى البيت الأول؟ فقد أتيت فى المصراع الأول بإيجاب بعده نفى، وفى المصراع الثانى بنفى بعده إيجاب.

ـ إنها مخالفة فى اللّفظ لا فى المعنى يا سيدى، لأن من صبر لم يجر دمعه، ومن لم يصبر جرى دمعه. فقهقه ابن العميد وصاح: لن تُغلب يا أبا الطيب، فإن لك فى كل مضيق منفذاً يخفى على كل عين.

وذهب المتنبى إلى داره وقد آلمه النقد فالتقى با ابن حمزة وقال:

ـ لقد ألقى علىّ سيدك الرئيس اليوم درساً فى الأدب والنقد. ثم أخبره بما دار فى المجلس فهوّن عليه الأمر وقال:

ـ إنها ممازحة أديب. فصاح المتنبى:

ـ لا أحب هذه الممازحات.

ـ لقد أكرمنا الرجل وأحسن مثوانا، فيجب أن نغضى عن بعض ما لا نحب، بل يجب أن نعترف له بالسبق فى ميدان الأدب فى شىء من المجاملة والتواضع.

وجاء عيد النيروز وهو عيد يحتفل فيه الفرس بقدوم الربيع، وينثرون الورود فى كل مكان، وينظمون من الأزهار عقوداً وتيجاناً، فأعد المتنبى قصيدة من أروع الشعر وأبدعه خيالاً وأحلاه رنين نغم، هنأ فيها أبا الفضل بالنيروز واعتذر عن بعض تقصيره فى قصيدته الرائية وقد جاء فى القصيدة الجديدة.

نحن فى أرض فارس فى سرور ... ذا الصباح الذى نرى ميلاده
عظّمته ممالك الفرس حتى ... كل أيام عامه حسّاده
ما لبسنا فيه الأكاليل حتى ... لبستها تلاغه ووهاده
عند من لا يقاس كسرى أبوسا ... سان ملكاً به ولا أولاده
عربى لسانه فلسفى ... رأيه فارسية أعياده

قضى الشاعر شهرين فى ضيافة ابن العميد محفوفاً بصنوف الإكرام والرعاية، ولكن لو ل أبت عليه أن يركد فى مكان كالماء الآسن، فاغتنم لقاء الرئيس واستأذنه فى ولكن ابن العميد فاجأه بأن عضد الدولة ملك شيراز أرسل يلح فى قدومه إليه، ى لقائه، وأنه بعث إليه بهدايا لم تظفر بمثلها الملوك. فاضطرب المتنبى وقال:

يا سيدى دعنى من هؤلاء الديلم. إننى شاعر عربى وما أنزل اللهّ الشعر على ؟كون لسان العرب، وعنوان العرب، ومعيد مجد العرب.

ـ إن عضد الدولة رجل ديلمى النسب حقاً، ولكنه عربى النفس عربى النزعة، وهو أديب شاعر يناصر العلم ويرفع شأن دولة العرب، وسيصل إليك من عطائه وصلاته فوق ما يتوهّم خيال شاعر.

ـ بالله عليك يا سيدى لا تغرنى بهذه الوعود، فإنى ملقى من هؤلاء الملوك، ملدوغ من جحورهم مرات. ولولا مطامحى ما أصغيت إلى أكاذيبهم، ولعشت فى خير حال، أقصد الواحد منهم بعد الآخر، فأتوجه إليه بآيات خالدات من الشعر الذى تحسده لآلىء البحار، فإذا نال منى ما يبتغى تنكّر لى، وصرف عنى وجهه فى صلف وكبرياء.

ـ إن عضد الدولة ليس من هذا الصنف يا أبا الطيب، إنه رجل خُلق ليكون ملكاً، وملك خلق ليكون رجلاً، فلو أقمت عنده ما أقمت لكان فى يوم وداعك أحفى منه بك فى يوم استقبالك.

ـ ولكنى يا سيدى رجل ملول شديد الضجر مولع بالنقلة، وهذا لا يرضى هؤلاء الملوك الذين يلذ لهم احتباسى على الرغم منى، فإذا قبلنى على أن أقيم عنده كما أشاء، وأرحل عنه متى أشاء توجهت إليه.

وكاتب ابن العميد عضد الدولة بشروط المتنبى فقبلها فشد الرحال إلى شيراز كارهاً، وقد زاد به الحنين إلى زوجه، وعادت إليه أطياف للشام وحلب، ومر فى طريقه بشعب «بوان» وهو غيضة كثيرة الأدواح الملتفة المزهرة، والأشجار المثمرة، والمياه المتدفقة، وهو أحد متنزهات الدنيا الأربعة، وقد أوحى هذا الشعب إلى أبى الطيب بروائع المعانى، وهاج فى نفسه ذكريات دمشق والعروبة وما للعرب من كرم ومجد حين يقول:

ولكن الفتى العربى فيها   غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها   سليمان لسار بترجمان
طبت فرساننا والخيل حتى   خشيت وإن كرمن من الحران
غدونا تنفض الأغصان فيها   على أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبن الحر عنى   وجئن من الضياء بما كفانى
وألقى الشرق منها فى ثيابى   دنانيراً تفر من البنان
لها ثمر تشير إليك منه   بأشربة وقفن بلا أوانى
وأمواه تصل بها حصاها   صليل الحلى فى أيدى الغوانى

ولو كانت دمشق ثنى عنانى لبيق الثرد صينى الجفان

ثم عاوده الحنين إلى زوجته وإلى الشام عامة فقال:

شامية طالما خلوت بها تبصر فى ناظرى محياها
فقبلت ناظرى تغالطنى وإنما قبلت به فاها
فليتها لا تزال آوية وليته لا يزال مأواها
كل جريح ترجى سلامته إلا فؤاداً رمته عيناها
ما نفضت فى يدى غدائرها جعلته فى المدام أفواها

ولما كان على نحو أربعة أميال من شيراز أرسل عضد الدولة وجوه دولته لاستقباله، وبلغ القصر فى هذا الموكب الحافل فأحسن عضد الدولة لقاءه، وأنشده أبو الطيب قصيدة نال عليها أجزل الصلات وأنفس الهدايا. وكان من شهود الحفل أبو على الفارسى وعبد العزيز الجرجانى، وهما من كبار رجال اللغة والأدب، وأقام فى ذرا ممدوحه زهاء ثلاثة أشهر كان فيها موضع الإكرام والحفاوة، ولكنه كان ضجراً كثير القلق، يمل النعيم وينزع إلى المخاطر، ولقد كان يعبِّر عن نفسه حقاً حين قال:

أبوكم آدم سن المعاصى وعلمكم مفارقة الجنان

فلما طغت عليه السآمة دخل على عضد الدولة واستأذنه فى السفر والحجّ، ولم يجد الرجل بداً إلا أن يأذن له، وعاد المتنبى إلى داره فأخبر ابن حمزة ومحسداً بعزمه، وأمر مفلحاً أن يستعد بعد ثلاثة أيام، فقال مفلح:

سأعد كل شىء يا سيدى غير أنى أود أن أخبر مولاى بأمر يزعجنى، وقد يكون تافهاً، وقد يكون من وساوس نفسى.

ـ ما هو؟

ـ رأيت قبل أن نرحل من أرجان أعرابياً يطوف حول دارنا ويكثر التلفت والنظر، فلم آبه له ولكنى عدت فرأيته هنا بالأمس فسألته عن شأنه فقال: إنه رجل فقير رحل من العراق إلى فارس طلباً للرزق، ولكنه لم يجد عملاً، ثم سألنى عن موعد عودة سيدى إلى العراق، فلما قلت له إنى لا أعلم، وأظهرت الريبة فى أمره، قال: إنه لا يملك راحلة، وإنه يطمع

فى أن يحمله سيدى معه إلى العراق، وإنه لذلك يسأل عن موعد سفره، فزجرت الرجل وأبعدته عن الدار.

ـ لا أرى من بأس فى أن نحمل الرجل. فقال ابن حمزة:

ـ لا تتسرع يا أبا الطيب، فقد يكون الرجل نذير شر، وقد يكون جاسوساً عليك من أعدائك بعثوا به إلى فارس ليخبرهم بيوم رحيلك إلى العراق.

ـ هراء. إننى أتسلح بشجاعتى لا أبالى بمن علم بمقامى أو رحيلى. على أن المتنبى قد ساوره شىء من الخوف. وطافت بنفسه ذكريات ضبة وخاله فاتك، ولكن هذا الخوف لم يدم طويلاً، فهز كتفيه فى استخفاف، ثم طلب إلى مفلح أن يعد ورقاً وأقلاماً وقام إلى حجرته فكتب قصيدة يودع بها عضد الدولة، وركب إليه فى الصباح وأنشده القصيدة فأجزل عطاءه وأحسن توديعه. وبينما كان المتنبى وصحبه وعبيده يستعدون للرحيل إذ لمحو فارساً على جواد أشهب يسبقهم إلى طريق العراق، فصاح مفلح:

ـ هذا هو الأعرابى الذى كان يحوم حول دارنا بأرجان فقال محسد:

ـ ويل للوغد. حقاً إنه كان يترقّب موعد سفرنا ليعرف الطريق الذى نسلكه. وقال ابن حمزة:

ـ هذا هو الذى ظننته. وامتطى المتنبى جواده وهو يقول:

فـزل يا بعـد عن أيدى ركاب ... لهـا وقـع الأسنـة فى حشاكا
وأنـى شئـت يا طرقـى فكونى ... أذاة أو نجـاة أو هلاكاً

قتل

فى أحد أرباض الكوفة، وفى ليلة حالكة السواد شديدة البرد، اجتمع عدد من الرجال يزيد على العشرة بدار مجاشع الكلابى، وجلسوا حول النار يصطلون. وكان بالحجرة سراج خافت النور كاد يجف زيته فأخذ يخفق كأنه مريض دنف دهمه الفواق قبل أن يسلم الروح. وكان جو الحجرة يوحى بالحزن والفجيعة والدمار، ولو كشف عن البصر الحجاب لرأى فوق رءوس هؤلاء المقعين حول النار أرواح الشياطين تحوم فى مرح، وتصفق بأجنحتها فى جذل وشماتة. وكلما التمع السراج كشف من القوم وجوهاً عابسة شرسة شريرة جرحتها السيوف وخرقتها السهام، وأعيناً يتأجج فيها الغدر، وتضطرم الأحقاد. رفع مجاشع الكلابى رأسه وقال:

ـ لقد مر بنا حين من الدهر لم نجرِّد فيه سيفاً، ولم نركض جواداً، حتى كدنا نفقد صفات البطولة، وننام على الطوى، ونعلل صغارنا بالماء. فقال شمر بن وهب:

ـ كنا نسقط على مدينة الكوفة بين الحين والحين، ولكن أهلها أخذوا لأنفسهم لحيطة وأعدوا جيشاً مرابطاً، واستعانوا ببعض جنود بغداد، فكلما أرسلنا عليهم غارة تتوا شملها وأثخنوا فى رجالها. فقال مجاشع.

ـ وكلما توالت هزائمنا تفرق عنا الطامعون فى الغنائم؛ حتى أصبحنا قلة ضئيلة خائرة الهزائم. فأسرع فهد القيسى قائلاً:

ـ وكانت قاصمة الظهر تلك الهزيمة التى رمانا بها ذلك المتنبى الشاعر الدعى، والله به لشربت دمه.

ـ صدقت يا فهد، ولن تفوتنا حياته ولو كانت فى قمقم سليمان. أتدرون لم أمرنا ضبة بن يزيد بالاجتماع هنا الليلة؟ فقال شمر:

ـ لا أدرى، ولكنى علمت منذ أيام أن خاله فاتكاً قد يزور الكوفة فى طريقه إلى واسط.

ـ فاتك؟ إنه رجل أى رجل. ولعله يهدينا إلى صيد جديد، فقد ظمئنا إلى الدماء، وصفرت أيدينا من المال. ثم سكت القوم هنيهة فسمعوا عن بعد عواء كلبٍ جائع مقرور اخترق صوته سواد الليل حزيناً مؤلماً، كأنه ندب الثواكل، ولم تمر إلا لحظات حتى سمع طرق خافت. فقام مجاشع ففتح الباب وعاد معه فاتك الأسدى وضبة، فقام القوم لتحيتهما فى شيء من الرهبة والمهابة، وكان فاتك فى الثلاثين من عمره، طويل القامة متين العضل متناسق التكوين شديد السمرة عربى الملامح برّاق العينين فى وميض يكاد يصرع من يراه، وكان كثّ اللحية وقد وقف شعرها كأنه شوك قنفذ. حيا فاتك الجماعة فى ابتسامة كأنها كشرة الأسد ثم قال فى لهجة العاتب:

لقد جئت الليلة أيها الإخوان لأمر ذى بال أردت أن أحدثكم فيه، ولو أن واحداً منكم هزّته الأريحية وثارت فى نفسه الغيرة لقبيلته وقومه لأغنانى عن تجشم الطريق واجتياب القفار، كلكم أهل لضبة، وكلكم قبيله وأنصاره، وإذا مس عرض ضبة فقد مست أعراضكم جميعاً، وإذا طعن شرفه فقد أصابتكم الطعنة جميعاً، ولقد ترامت إلى أخبار أقضّت مضجعى، وأنبتت الشوك فى وسادى، وتناقل الرواة أبياتاً قذرة من شعر نجس لطخ به ذلك الشاعر الدعى المنبوز بالمتنبى ابن أختى ضبة، يا للهول. ويا للعار. إنه لشعر تتعفّف البغى عن أن تدنس فمها بكلمة منه، ويأنف مجّان الحانات من أن يلقوا إليه سمعاً، فقد ولغ هذا الكلب الفاجر فى عرض أختى فلم يترك كلمات من مستقذرات اللغة حتى وصمها بها، ولم يدع سهماً مسموماً بالفحش والإقذاع حتى صوّبه إليها، وعجيب أن يقال هذا الكلام الدنس فتتناقله الصبيان، ويتنادر به المجان، وتسير به الرواحل من بلد إلى بلد، وتملأ ريحه المنتنة جو الصحراء، ثم لا تثورون ولا تغضبون. ثم لا تروون سيوفكم من دماء هذا الغوى الأفّاك. ثم لا تمحون هذا العار عن أنفسكم وعن قبيلتكم بضربة فيصل. لقد أصبحتم متندّر القبائل، وسخرية العرب جميعاً، ولقد جئت أيها الإخوان لأغسل العار عن نفسى وعنكم، لقد جئت لأجرد سيفاً وأصون شرفاً، لقد جئت لأقطع لسان

الأفعى وأهشم أنيابها. مرحى. مرحى. يا لضيعة العرب. شرف أختي يمرّغ في التراب في كل مجلس وفي كل سامر، وأخوها فاتك الذى ترتجف لهوله الصحارى، ويخلع اسمه كل قلب، يجلس في عقر داره هانئاً رضياً، لا يأخذ لها بثأر ولا يدفع عنها بيمين؟ شرف أختي يداس بالنعال وأهلها ينظرون واجمين ذاهلين؟ فصاح مجاشع:

ـ غداً نذهب إلى الكوفة ونذبحه ولو كان بين ذراعى أسد. فأجابه فاتك حزيناً:

ـ إنه ليس بالكوفة، إنه رحل منذ شهر أو أكثر إلى بلاد فارس.

ـ نذهب إلى فارس ونقتله ولو كان في حماية كسرى أنو شروان. وهنا وقف شمر بن وهب وقال:

ـ الرأى عندى يا سيدى أن يرحل أحدنا إلى فارس وأن يبحث عنه حتى يصل إلى مكانه، ثم يوجر فيه خنجره. فقال فاتك:

ـ لقد قاربت الصواب فإنى أوافقك على أن يسافر رجل منا إلى فارس ليعرف مكانه، ويرقبه عن كثب، حتى إذا رحل عائداً إلى العراق أسرع إلينا بدير العاقول فأخبرنا بطريق مروره فسرنا نحوه ووثبنا عليه ومزقناه تمزيقاً، فقال ضبة:

ـ ولم لا نقتله بفارس ونستريح من مشقة السفر ومظنة فراره؟

ـ ذلك لأننا لا نريد أن نكتفى بسفك دمه، وإنما نريد فوق ذلك أن ننهب كل ما سيعود به من فارس من أموال ونفائس وذخائر وتحف أغلى من أن تقدر بثمن، وأعز من أن يحوزها قصر ملك. فصاح القوم جميعاً:

ـ نعم الرأى يا فاتك، إنك لرجل ملقن.

واتفق القوم على أن يرحل شمر بن وهب إلى فارس، وأن يضم ضبة إلى جماعتهم نحو عشرين لصاً من فتاك الأعراب، وأن يسيروا جميعاً تحت لواء فاتك إلى دير العاقول لينتظروا فريستهم هناك، وليتربصوا للقتل والغنائم. وتفرق القوم على أن يلتقوا في موعد ضربوه.

وخرج المتنبى من شيراز في نحو العشرة من عبيده ومعه بغار موقرة بكل شىء من الذهب والطيب والثياب والكتب ونفائس الهدايا، وسار الركب في جو باسم الصباح رقيق

النسيم، وكان المتنبى على غير عادته منبسط أسارير الوجه إلى ما يقرب من المرح، حتى إنه كان يمازح ابن حمزة ويصغى فى أناة ورفق إلى حديث محسد، ويداعب مفلحاً ويدعوه بكافور الأمين. وقد تكون هذه النشوة الطارئة لأنه استطاع أن يتخلّص من الديلم من غير اصطدام أو عربدة على خلاف عادته فى مفارقة كل أمير أو ملك، وقد تكون لأنه أنقذ نفسه ولسانه من مدح غير العرب والإشادة بمجد غير مجد العرب، فقد كان شىء من ذلك يؤلم نزعته العربية، ويكدِّر عليه صفو حياته. وقد تكون لأنه عاد إلى وطنه بهذه الأحمال والأموال والكنوز التى لم يظفر بمثلها شاعر منذ هلهل ابن ربيعة الشعر، وقد تكون لأنه وقد طالت عليه الغربة واشتد به الحنين يشعر اليوم بأنه عائد إلى أهله وزوجته التى لا يزال يحس بخفقات قلبها فى صدره ساعة توديعة وبتناثر دموعها فوق خديه. قد تكون هذه النشوة الطارئة لهذا جميعه أو لشىء منه أو لشىء لم نعرفه من نزعات هذه النفس الضخمة المليئة بالأسرار. وحينما لمح ابن حمزة هذه البارقة العابرة التى قليلاً ما لمعت بهذا الوجه الغائم العبوس أراد أن يغتنمها فقال:

ـ ما رأيك يا أبا الطيب فى سيف الدولة؟

ـ عربى قصير الباع طويل الأمل. وعيبه أنه إذا منّ منّ.

ـ وماذا ترى فى كافور؟

ـ غراب حوله رخم وبوم.

ـ وكيف تصف المهلبى؟

ـ هرّ رأى فى مرآة كاذبة أنه أسد.

ـ ومعز الدولة؟

ـ شبح للجهل والبخل والشراسة.

يحسبه الجاهل ما لم يعلما ... شيخاً على كرسيه معمما

ـ وماذا تقول فى ابن العميد؟

ـ رجل ما زال يغرى الشعراء بمدحه بالأدب والكتابة حتى اعتقد آخر الأمر أنه أديب كاتب.

ـ وعضد الدولة؟

ـ تاج من ذهب فوق رأس من خزف.

ـ وما رأيك فى عبد العزيز الجرجانى؟

ـ أراد أن يفلسف الأدب فشوه الأدب وأضعف الفلسفة.

ـ وماذا ترى فى أبى على الفارسى؟

ـ أعجمى حاول أن يطوّع اللغة إلى أصول وهمية هى أبعد فى الخيال من شعرى.

ـ وكيف ترانى؟

ـ فيك ما يجعلك لسان نفسك، ولكنك تأبى إلا أن تكون لسان غيرك.

فضحك ابن حمزة وابتسم المتنبى ولكن هذا الابتسام طار من وجهه بعد قليل وخلفته سحابة مظلمة من الحزن والكآبة، فزفر وقال:

وما الموت إلا سارق دق شخصه ... يصول بلا كف ويسعى بلا رجل

ثم أخذ يردد:

نعد المشرفية والعوالى ... وتقتلنا المنون بلا قتال

وهنا قال ابن حمزة:

ما هذا الشعر القاتم يا أبا الطيب؟ وما لنا ولذكر الموت والمنون؟

ـ الموت يا ابن حمزة راحة الحزين وموئل اليائس. كانت لى آمال ومطامح يا ابن حمزة فأين هى؟ أرأيت هذه الذرات التى تتراقص فى أشعة الشمس والتى يسمونها بالهباء؟ هذه هى آمالى. أرأيت هذه الحفرة هناك؟ إنها كانت بئراً فطمرتها الرمال وغطّتها السوافى، هذه هى آمالى. أرأيت إلى هذا النسيم الذى إذا مددت إليه يدك لتقبض عليه فر من خلال أصابعك؟ إنه يا ابن حمزة آمالى. كانت لى آمال، وكانت لى مطامح، فعبثت بها يد الأيام، وطوّحت بها الطوائح. وكانت لى أحلام ناضرة باسمة فتيقظت بعد نهاية العمر فلم أجد نضرة ولم ألمح ابتساماً، كنت أطمح إلى أن أكون رجل الدنيا فأبت علّى الدنيا، وكنت أطمح إلى أن أكون ملكاً فنبذتنى العروش وسخرت منى التيجان. وكنت أقول:

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ ... كأنهمُ من طول ما التثموا مرد

فلم أجد مشايخ إذا وجدت الحق، ولم أجد الحق إذا وجدت المشايخ، وأنا اليوم

أعود إلى داري بالكوفة شيخاً هماًّ حطمته الأيام وثلمته الحوادث.

- ما هذه الخواطر السود يا أبا الطيب؟ لقد أعطتك الدنيا من الجاه والمال وبعد المنزلة فوق ما تمتد إليه أعناق الشعراء.

وبلغ الركب الأهواز بعد عشرين يوماً فحطّ الرحال ليستريح وأسرع أبو الحسن السوسى عامل الأهواز فاستقبل المتنبى وأضافه أياماً، ثم استأنف الرحيل إلى واسط، وفيها كتب عنه ابن حمزة بعض قصائده فى عضد الدولة واعتذر عن التخلف عنه لمرض نزل به، فسار الركب قاصداً إلى بغداد ثم الكوفة، ومر المتنبى ببلدة تسمى «جَبُّل» فنزل ضيفاً على أبى نصر محمد الجبلى فأحسن الرجل وفادته وأكرم مثواه.

أما عصابة فاتك فقد أحكمت إنفاذ مؤامرتها، ورحلت عن الكوفة على النحو الذى دبرته، وربضت بدير العاقول تنتظر قدوم المتنبى، فاسرع إلى القوم شمر بن وهب جاسوسهم بفارس وأخبرهم برحيل المتنبى وبأنه كان يرقب طريق سيره، وبأنه رآه بالأمس وهو يحط رحاله بجبل، فتواثبوا إلى خيولهم وأخذوا يجوبون الطريق بين دير العاقول وجبل.

وحينما عزم المتنبى على الرحيل جلس إليه أبو نصر وقال:

- على اى شىء أنت مجمع يا أبا الطيب؟

- لقد عزمت على الرحيل مساء اليوم، وسأتخذ الليل مركباً فإن السير فيه يخف علىّ.

- نعم الرأى يا أبا الطيب. ولكنى أرى أن يكون معك جماعة من رجال هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواضع المخيفة. فقطّب المتنبى وجهه وقال:

- لِمَ تقول هذا يا أبا نصر؟

- إنما أردت أن تستأنس بهذه الجماعة فى الطريق فصاح فى غضب:

- أمّا ونجاد السيف فى عنقى فما بى حاجة إلى مؤنس غيره. فأجابه فى مضض.

- الرأى لك يا أبا الطيب، وإنما كنت لك نصيحاً.

- إن تلويحك يا أبا نصر ينبىء بشىء، فعرّفنى جلية الأمر. فزفر الجبلى زفرة طويلة وقال:

ـ جلية الأمر يا سيدى أن فاتكاً الأسدى كان عندى منذ ثلاثة أيام، وهو يتّقد عليك غضباً لأنك هجوت ابن أخته ضبة، وقد بدرت منه بوادر توجب عليك الاحتراز والتيقظ، ومعه نحو ثلاثين من بنى عمه يأكلون النار ويحطمون الحجر الأسود. فالرأى يا سيدى أن تأخذ معك عشرين رجلاً يسيرون بين يديك إلى بغداد. فانتفخت أوداج المتنبى من الغيظ وصاح:

ـ لا والله لا أرضى أن يتحدث عنى الناس بأنى سرت فى خفارة أحد غير سيفى.

فأسرع أبو نصر يقول وقد نفذ صبره:

ـ يا هذا، إنى سأوجه معك قوماً من قبلى يسيرون بسيرك، ويكونون فى خفارتك.

ـ لا والله لا فعلت شيئاً من هذا. أمن عبيد العصا تخاف على؟ والله لو أن مخصرتى هذه ملقاة على شاطىء الفرات وبنو أسد كلهم معطشون بخمس، وقد نظروا إلى الماء كبطون الحيّات، ما جسر لهم خف ولا ظلف أن يرده. معاذ الله أن أشغل فكرى بهم لحظة عين، إنهم كلاب عاوية يا أبا نصر، ولن يمسوا شعرة منى.

ـ قل إن شاء الله يا أبا الطيب.

ـ هى كلمة مقولة لا تدفع مقضياً، ولا تستجلب آتياً.

وركب المتنبى ومعه عبيده وذخائره فى ليلة حالكة الظلام، وأخذ طريقه حتى حاذى النعمانية، ثم أغذ السير حتى قارب الصافية وبينها وبين بغداد ستة عشر فرسخاً. وفى اليوم الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة خرج عليه فى هذا المكان فاتك ورجاله فقاتلهم الشاعر قتال الأبطال، حتى قُتل جميع من كانوا معه وبقى وحيداً يضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال، وقد نال منه الضعف وأخذ منه الوهن، فحمل عليه فاتك وطعنه فى جنبه الأيسر فأسقطه عن جواده فارتمى على الأرض، وأخذ يجود بأنفاس قصار تزاحمها حشرجة الموت ويردد:

ردّى حياض الردى يا نفس واتّركى ... حياض خوف الردى للشاء والغنم
إن لم أذرك على الأرماح سائله ... فلا دعيت ابن أم المجد والكرم

سلسلة الذهب



علي الجارم

قصة العرب في أسبانيا

أكتوبر ١٩٤٤ م

مترجم عن Stanley Lane - Poole

بتصريح خاص من الناشر بلندن

تقديم

شُغف الناس فى القديم والحديث بتاريخ العرب فى الأندلس، ووجدوا فى قراءته والاستماع لأحاديثه للذة روحانية عجيبة لا يجدونها فى سواه. ولعل من أسباب هذا الشغف أنهم يقرءون فيه قصة رائعة للبشرية تتقلب فيها أحداث الزمان، وتصطخب صروف الأيام، ويداول الدهر فيها بين شطريه، فهو مرة صفاء لا يشوبه كدر، وابتسام لا تحوم حوله جهومة، وأمن لا يخالطه حذر، وعز راسخ، وقوة وسلطان ونعيم وملك كبير. وهو في أخرى هم ونصب، وخذلان وبلاء مستطير.

إن قصة الأندلس عجيبة حقاً، مثيرة للنفس حقاً. فيها من أحاديث البطولة والإقدام ما يعجب له العجب، ويهتز له عِطف العربي الكريم. فيها جرأة طارق، وإقدام عبد الرحمن الداخل، وعزيمة الناصر، وعبقرية المنصور. وفيها إلى جانب كل هذا أمثلة رائعة للصبر حين البأس، وللجلد على أشد المكروه، وللتمسك بالعقيدة والسيف مصلت فوق الرءوس، وللثبات في مأزق يفر فيه الشجاع.

وقصة الأندلس، ككل القصص، كما تصور الرجولة تستهوي النفوس وتسحر العيون، ترسم إلى جانبها الفسولة والجبن، والحقد والنفج الكاذب، والشره في حطام الدنيا الزائل، وبيع النفوس للشهوات في أقبح ما يصوره المصورون.

وتاريخ الأندلس كله عراك ونضال وصخب. لا تكاد تقلب صفحة من صفحاته حتى تسمع قعقعة السيوف، وصليل الرماح: صراع بين ملوك المسلمين، وصراع بينهم وبين

نصارى الشمال، وصراع بين الأجناس والقبائل، وصراع بين العقائد والمذاهب، ثم صراع أخير بين الحياة والموت، وبين الأذان والناقوس.

ومن العجب أنك على الرغم من هذا الاضطراب الشامل، تقرأ فى قصة الأندلس صحائف من ذهب، تتجلى فيها مدنيّة العرب معجزة من المعجزات وآية من الآيات. فلقد كانت الأندلس فى العصور الوسطى شعلة النور ومنار الهداية، وكانت جامعاتها بقرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، وغيرها ملتقى طلاب العلم من الشرق والغرب. وكان فيها للأدب والشعر والفنون عامة منزلة لم تكد تصل إليها أمة، وإذا تحدثنا عن فنون العمارة والهندسة والنقش وغيرها طال بنا الكلام، وخرجنا عما قصدنا إليه من الإيجاز.

إن سقوط الأندلس لم يكن إلا سقوط النجم المتلألىء اللامع، وانهيار الجبل الأشم الراسخ. وإن دولة فى الأرض لم تشيع بعبرات العيون، وحسرات القلوب، كما شيعت الأندلس. ولم يبك الشعراء ملكاً طواه الزمان كما بكوا ملك الأندلس. ولم يقف المؤرخون وهم يدونون خاتمة أمة حاسرى الرءوس خاشعين، يرسلون الزفرات ـ كما وقفوا عند قبر دولة العرب بالأندلس.

خفقت الجوانح بحب الأندلسيين على الرغم مما يزعمه التاريخ من أنهم أعطوا ملكاً فلم يحسنوا سياسته، واستناموا إلى الشهوات، واستعان بعضهم على بعض بالأعداء. على أنه يجدر بأهل الرأى ألا يتعجلوا فى الحكم على أهل الأندلس وهم لم يعيشوا فى بيئتهم، ولم يدرسوا أتم الدرس الأحوال التى مرت بهم، ولم يدققوا النظر فى نظام الحكم الذى التزمته الأمم فى هذه الأزمان.

إن المسلمين بالأندلس كانوا فى أرض غير أرضهم، وفى إقليم اجتمعت فيه كل صنوف الفتنة والجمال. وكان أعداؤهم من الأسبان يحيطون بهم من كل جانب، وأعداؤهم فى المشرق ينصبون لهم الحبائل ـ أفبعد هذا نصبّ عليهم اللوم حميماً، ونحملهم وزر تصاريف الزمان، وتحكم البيئة، وسيطرة الأحوال التي وضعتهم فيها يد القدر؟!

إن العرب عاشوا في هذه الفتن الجائحة نحو ثمانمائة عام، قل أن تستطيع أمة سواهم البقاء في مثلها. ليقل الشعوبية ماشاءوا، وليقسُ ابن خلدون وأمثال ابن خلدون على العرب كما أرادوا. أليس من التجني على الحقائق أن يدعى ابن خلدون أن العرب لا

يصلحون لسياسة الأمم، وأنهم أمة جهل وتدمير، وأنهم إذا نزلوا بلداً أسرع إليه الخراب؟! إن سماحة حكم العرب بالأندلس، وجمال مدنيّتهم، واتساع مدى ثقافتهم أسمى من أن يصل إليه إنكار منكر أو جحود جاحد. وإن في آثار قرطبة، وإشبيلية وغرناطة، التي لا تزال ماثلة إلى اليوم من معجزات البناء والهندسة ـ ما يخجل كل من يدعى أن أمة العرب أمة خراب وتدمير، وأنهم يهدمون القصور ليتخذوا من أحجارها أثافى للقدور، ومن خشبها أوتاداً للخيام. أين هذه الأثافى وأين تلك الخيام من جنات الأندلس الباسمات وقصورها الشامخات؟! ثم أين هي من عظمة دمشق أيام الأمويين، وجمال بغداد في حكم العباسيين، وازدهار القاهرة في عهد الفاطميين؟! إن العرب يبنون ولا يهدمون. وإن الهدّامين لآثارهم ومدّنياتهم إنما هم أعداؤهم من البربر، والإفرنج، والتتار وغيرهم. وإذا كانت دول العرب قد منيت بالانحلال السريع فى الشرق والغرب، فإن أكثر السبب فى هذا ـ فيما يغلب على الظن ـ إنما يعود إلى نظام الحكم الذي كان قائماً، لا إلى طبائع العرب أنفسهم. ولو نظرنا فى عهودهم إلى الأمم حولهم فى أقطار الأرض، لرأينا أنها أصيبت بما أصيب به العرب.

والآن نعود إلى قصة الأندلس فنرى أن ما كتبه الأولون فيها لا يشفى نفس القارىء ولا يبل غلته. وهذا كتاب نفح الطيب ـ وهو خير كتاب ألف فى تاريخ الأندلس ـ كله اضطراب، واستطراد وتكرار والتواء وتشتت. لهذا كانت خزائن الكتب العربية فى أشد الحاجة إلى مثل كتاب «إستانلى لين بول» الذى سماه قصة العرب فى أسبانيا والذى قرأته فأحسست بدافع نفسى يلح بوجوب ترجمته إلى لغة العرب، وشعرت بأن النكول عن هذه الرغبة عقوق لحسبى وقومى وتاريخى. وإذا كان هذا القلم الذى جردته أربعين عاماً لا يجيد إلا تنميق قصيدة فى الغزل، أو المديح أو الرثاء، ولا يصول إلا فوق صفحات من الأدب واللغة، حتى إذا جاء كاتب إنجليزي محقق فألف كتاباً بلغته فيه إنصاف للعرب وتاريخهم، وفيه إشادة بحكمهم وعلمهم وأدبهم وحضارتهم ـ أنكمش في دواته وأدركه الحصر، فأجدر بهذا القلم أن يحطم، وأحر ببنانه أن يقصف، وأخلق بصاحبه ألا يباهى مرة أخرى بعروبته!!

إن إستانلي لين بول يحب العرب ويتغنى بمجدهم. ويؤلف لأبناء أمته فى تاريخهم كتاباً، أو قل قصيدة طويلة الذيول كلها ثناء وإطراء، وحب وإعجاب، وعطف وحنان،

ولوعة وبكاء. فهل كان يصح فى حكم البر بالعربية، أن يبقى أبناؤها محجوبين عن هذا الكتاب دهراً طويلاً؟!

ترجمت الكتاب فارتاحت نفسي، لأني في حين واحد أذعت فضل العرب على لسان رجل ليس منهم، ثم أذعت فضل هذا الرجل لأنه جدير بإعجاب العرب.

أما طريقة لين بول في التأليف: فجامعة بين التحقيق العلمي، وربط الحوادث بعضها ببعض، وتأدية قصة الأندلس كاملة متصلة الأواصر، في أسلوب شائق وسياق رائع. فإنه بعد أن قرأ تاريخ الأندلس فى مراجع شتى بين عربية إفرنجية، ولقى ما لاقى فى اجتياز ذلك الخضم المضطرب بالروايات والحوادث - استطاع أن يخرج للأدب والتاريخ قصة بديعة الأسلوب، متماسكة الحلقات، لها - مع صدق حقائقها - كل ما للقصص الخيالية من فتنة وسحر.

وقد يداخلك بعض الريب فى أن المؤلف متعصب للعرب، محتطب فى حبلهم. لأنك تراه يقتنص الفرص أو يخلقها للإشادة بدينهم، وسياستهم للأمم، ثم بآدابهم ومدنيتهم التى يعدها شعلة النور فى أرجاء أوربا بعد أن خمدت مدنية الرومان، وزالت حضارة اليونان، ثم إنه رسم لعبد الرحمن الداخل، والناصر، والمنصور بن أبى عامر صوراً من القوة والحزم، والعدل والدهاء، لم يستطع مؤرخ عربى أن يجمع ألوانها. وإذا غمز بعض المحسنين من الأمراء بنقد، كان خفيف المس رفيقاً. حتى إنه لم يبخل بفضلة من عطفه على ملوك الطوائف، الذين بددوا شمل الدولة، فأحسن رثاء دولتهم، وبكى فيهم الهمة والسخاء، وإنهاض العلوم، وإعلاء شأن الأدب والشعر. أما حديثه عن مملكة غرناطة وأفول شمس العرب بالأندلس، فلم يكن إلا أنات وزفرات ودموعاً. وقف على أطلال الأندلس كما يقف العاشق المحزون. فبكى مدنية زالت، وفنوناً بادت، وعزاً طاح مع الرياح، وملكاً كأن لم يمض عليه إلا ليلة وصباح، ومجالس أنس كانت نغماً فى مسامع الدهور، ودروس علم هرعت إليها الدنيا وتلفتت العصور. نعم إن استانلي لين بول كان يحب العرب حقاً، ولكن هذا الحب لم يجاوز به الحق، ولم يخدعه عن نفسه، ولم يسلبه صفة المؤرخ المحقق. وكل ما فى الأمر أنه كان صريحاً فى نشر الحقائق، فصدع بها حين أنكرها أو شوّه من جمالها كثير ممن يكتمون الحق وهم يعلمون. إن لين بول لم يكن متعصباً للعرب، ولكنه كان لهم منصفاً، وعلى تاريخهم أميناً، ولهم أخاً وصديقاً، حين قل

الأخ وعز الصديق . على أن فى الكتاب عتاباً فى مواطن العتاب ، ولوماً في مواضع اللوم ، وتعنيف المحب المخلص حين يحسن التعنيف .

ومما تجمل الإشارة إليه : أن المؤلف فى حديثه عن الأسبان خاصة وأهل أوربا عامة ـ إنما كان يتحدث عن حياة قوم في العصور الوسطى ، أو في أيام حكم البربون ، قبل أن يتسع نطاق المدنية ، ويتبلج فجر العصر الحديث الذى غير كثيراً من أخلاق الناس وعقولهم ونظرهم إلى الأشياء . فإذا نقد المؤلف رجال العهود الماضية بأوربا وأسبانيا ، فإنه لن يتردد اليوم فى الحكم بأن الزمن دار دورته ، وأن التاريخ لو نظر إلى الخلف لرأى مدنية جديدة وقوماً آخرين .

وقد قصدت في ترجمة هذا الكتاب إلى ترجمة المعاني مع الحرص على الروح التى أملته ، فإن لكل لغة بياناً . وحسب النقل ان يدرك الغاية ، ويصيب اللباب . والله سبحانه المستعان .

جزيرة الروضة

٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤م

على الجارم

عاثَتْ بساحتـك الظُّبَـى يا دارُ ومَحَـا محاسنَـك البِلَـى والنَّارُ
فـإذا تردد في جنابـكِ ناظرٌ طال اعتبـارٌ فيكِ واستعبارُ
أرض تقاذفت النوى بقَطينها وتمخّضـت بخرابهـا الأقدارُ
كتبت يد الحِدْثانِ في عَرَصاتها (لا أنـتِ أنـتِ ولا الـدِّيارُ ديارُ)

ابن خفاجة الأندلسي

آخر أيام القُوط

بقيت بلاد العرب آمنةً مطمئنةً لا يُداس لها عرين، ولا يُباح حِماها، عندما كانت جيوش الإسكندر الأكبر تُغير على الإمبراطوريات الشرقية القديمة؛ فلزم سكان شبه الجزيرة العربية صحراءهم في عُزلة وأنفة، لا يبعثون إلى الفاتح رسلاً، ولا يقدّمون إليه طاعة ولا خضوعاً، وعقد الإسكندر العزيمة على إذلال هؤلاء العرب المستكبرين، وأخَذَ الأهبةَ لغزوهم ووطئهم تحت قدميه، وما كاد يَهُمّ بذلك حتى أدركته المنية[1]، فحالت دون أمنيته، وبقي العرب أعزّاء لا يُغلبون.

كان ذلك قبل مولد السيِّد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة، والعرب من ذلك الحين وقبله أعزّاء مستقلّون بصحرائهم الواسعة، لا يخضعون لسطوة فاتح جبّار. وقد مرّ بهم زُهاء ألف سنة فى هذه العزلة الهادئة التى قلّ أن يكون لها مثيل بين بقاع الأرض، وقامت من حولهم إمبراطوريات جديدة: فأنشأ خلفاء الإسكندر المملكة السورية، وكان بها السلاسدة (The Seleucids) وأبناء الأسرة المصرية من البطالسة. وتُوِّج أغسطوس إمبراطوراً لرومة. وأصبح قسطنطين أولّ إمبراطور مسيحي لبيزنطة، وخضع البربر لامبراطورية القياصرة البعيدة الأطراف واندمجوا فيها. كلُّ ذلك والعرب متحصّنون بشبه جزيرتهم، لا يُزعزع لهم أمن، ولا يطرُقهم طارق، ولا يحاول غزوهم فاتح؛ وإذا دانت بعض مشارف بلادهم وثغورها بشيء من الطاعة أحياناً لأكاسرة الفرس وقياصرة الروم،

(١) مات الإسكندر سنة ٣٢٣ ق. م.

وجاست بعضُ الفرق الرومانية بين الحين والحين خلالَ بعض مفاوزها ـ فإنّ شيئاً من ذلك كان ضئيلاً متقطعاً، لم يمسّ استقلال البلاد ولم ينل من عزّتها.

وهكذا ربض العرب في جزيرتهم لا تزعجهم صائحة، وطفِقوا وقد أحاطت بهم الممالك الضارية الظامئة إلى الغزو والفتوح، وادعين بصحرائهم مستلئمين بشجاعتهم التي لا تقهر. وبقي لذلك تاريخ العرب مغموراً منذ أزمان بعيدة في القدم إلى القرن السابع الميلادي، فلم يعرف عنهم إلاّ أن لهم وجوداً، وإلاّ أن أحداً من الغزاة لم يحاول غزوهم، إلاّ قعدت به الوساوس وساوره خوف الهزيمة. ثم حدث فُجاءة في أخلاق العرب تطوّر جديد، فلم يعودوا يرغبون في العُزلة كما كانوا، بل انطلقوا يجبهون الدنيا، وأخذوا في جد وحزم يحاولون غزو العالم.

نشأ هذا التطوّر من عزيمة رجل واحد هو محمد بن عبد اللهّ، فإن هذا النبيّ العربي شرع في طليعة القرن السابع ينشر الإسلام، فلقيت دعوته آذاناً واعية، وعظم تأثيرها في قلوب العرب، فأثارت في طبائعهم وأخلاقهم ثورةً عنيفة شاملة. وكان ما يدعو إليه محمد سهلاً حنيفاً، قريباً إلى النفوس، يتفق مع شريعة اليهود التي كان لها أحبار بالجزيرة، وقد أبطل كثيراً من الأحكام والعادات، وأضاف أحكاماً جديدة كان العرب في حاجة إليها، ودعا إلى الوحدانية، فكان ذلك فتحاً جديداً بين قوم مردوا على عبادة الأوثان.

ويصعب علينا في هذه الأيام أن نُدرك التأثير الشديد الذي بعثه هذا الدين الهادىء في قلوب العرب؛ ولكننا نعرف أن هذا التطوّر الديني قد تمّ فعلاً، وأن للأنبياء الصادقين دائماً قوةً غريبة في اجتذاب النفوس. ولقد كان محمد حين دعا قومه صادقاً، ولقد بلّغ دينه الذي يراه الدينَ الحق أميناً مثابراً، ولقد كان في الدين من السموّ، وفي النبيّ وأصحابه من الرغبة الحافزة في نشره ـ ما أثار موجة ملكت على العرب شعورهم، وأجّج في نفوسهم جذوة يسميها الناس اليوم بالتعصب الديني.

وكان العرب قبل بَعثة محمد أشتاتاً من شعوب وقبائل متطاحنة، تتنافس في الشجاعة الوحشية، والكرم، والبطولة، وتعيش من الغارات وانتهاب الغنائم، فحوّلهم النبيّ في طرفة عين إلى مسلمين، وملأ قلوبهم بحماسة الشهداء، ووصل حبّهم الفطريّ للدنيا والمغانم، بطموح نبيل هو تبليغ الدين إلى الناس كافة.

خضعت جزيرة العرب كلُّها لمحمد قبل أن يلاقي ربه، وانتشرت القبائل التي وحَّد

كلمتها فى الممالك المجاورة للجزيرة، وألقى أهلها لهم القياد دهشين مشدوهين، ثم اكتسحت جيوش خلفائه بلاد الفرس، ومصر، وشمال إفريقية، حتى بلغوا منه المكان المعروف بأعمدة هرقل، وردَّد المؤذنون أذانهم من وراء نهر جيحون بآسيا الوسطى إلى شواطىء المحيط الإطلنطى.

وصدَّت الهجومَ العربىَّ بآسيا الصغرى قوّات إمبراطور الروم، ولم يُتح للمسلمين أن ينالوا من هذه البلاد حَظّاً إلاّ فى القرن الخامس عشر، حين بلغوا ما طال إليه تشوُّقهم من فتح القسطنطينية، التى دكت حصونَها شجاعةُ الترك العثمانيين وشدة بِراسهم. وفى النهاية المقابلة من بحر الروم، صَدَّ أحد قواد الروم تيار العرب إلى حين، فاتّجه العرب الفاتحون إلى ممالك شمالىّ إفريقية، وكبحوا جماح أمّة البربر الشامسة العنيدة بعد جهاد عنيف، وأخضعوها لسلطانهم، ولم يقف في وجوههم إلاّ قِلاع سَبْتَة وحصونها. وكانت سبتة كغيرها من بلاد جنوبىّ بحر الروم، تحت حكم إمبراطور الروم، غير أنها لبعدها من القسطنطينية كانت تتوجَّه إلى مملكة أسبانيا بطلب المعونة، فهى تابعة للروم من حيثُ الحكم، مضافةٌ فى الحقيقة إلى ملك طُلَيْطِلَة لحمايتها والدفاع عنها. ولم يكن فى حكم الظن أن تكون معاونة أسبانيا لها كافية لصدِّ أمواج العرب الفاتحين، على أنه حدث فوق هذا أنْ كان هناك شقاق بين «يوليان» حاكم «سبتة» و «لذريق» ملك أسبانيا ففتح هذا الشقاق الباب واسعاً لدخول العرب، وذلّل سبيل الفتح للغزاة.

كان يحكم أسبانيا في ذلك الوقت القوط الغربيّون، وهم قبيلة متوحشة كغيرها من القبائل التي اكتسحت ممالك الإمبراطورية الرومانية، إبّان ترنُّحها للسقوط، أما القوط الشرقيون: فقد احتلّوا إيطاليا، وتركوا أبناء عمومتهم من القوط الغربيين يأخذون مكان بعض القبائل الجرمانية الجافية، ويدقون أطناب حكمهم بأسبانيا فى القرن الخامس الميلادىّ.

وكانت أسبانيا عندما دخلها القَوط، منحلّة العُرَا، غارقة في ألوان من الترف الفاجر، والنعيم الذى يسلُب الرّجولة؛ وبمثل هذا العبث وذلك الفجور، ذهبت ريح دولة الرّومان قبلهم: فإن الرومان كغيرهم من رجال الحروب، حينما انتهوا من غزواتهم الكثيرة المتعاقبة بالنصر والغَلَب، ورأوا الدنيا تحت أقدامهم ـ انصرفوا إلى الراحة بعد الجهد الشّاق، والجهاد المضنى، وألقوا بأنفسهم فى أحضان النعيم، وناموا فى ظلّ ظليل من

الغنى الواسع والأمن الشامل، فذهبت أخلاقهم، وماتت فيهم حميّة آبائهم الشجعان البُسْل، الذين كانوا يرضون بالكَفاف، ويتركون آلة الحرث ليجرّدوا السيوف ماضية بتارة، إذا دعاهم أحد القياصرة لحماية بلادهم، أو لغزو قارّة جديدة.

كانت الطبقة الغنية بأسبانيا في عهد الرّومان، قد خلعت العِذار لأنواع الترف والشهوات، حتى لكأنّها لم تُخلق إلاّ للطعام والشراب، واللّهو والقِمار، ولكلّ ما يُثير النفس العابثة ويُرضي نزعاتها: وكانت الطبقة الدنيا تشمل العبيد، وأحلاس الأرض الذين أخلدوا إلى زراعتها، حتى كأنهم قطعة منها لا يفارقونها حياتهم، فإذا انتقلت إلى مالك جديد، انتقلوا إليه معها.

وبين هاتين الطبقتين ـ طبقةِ الأثرياء، وطبقةِ العبيد والأحلاس ـ كانت الطبقة الوسطى من سكّان المدن الأحرار، تُلاقي من سوء الحال وضَنْك العيش ما كان شراً مما يلاقي العبيد وأشدَّ نكرا؛ فعليهم كان يقع عبء الإنفاق على الدولة، فهم الذين يؤدون الضرائب، ويقومون بخدمة الدولة وما تتطلبه المدن من الأعمال؛ وهم الذين يجمعون الأموال للأغنياء ليبعثروها في لذائذهم. وبديهي أنّ دولة تصاب بهذا الفساد وذلك الضعف، لن تكون بها مُنّة على صد فاتح بطّاش شديد الشكيمة.

كان النبلاء والأغنياء ـ وهم في غمرة من النعيم ورفاغة العيش ـ لا يسمعون ما يلغط به الناس من اقتراب الأعداء، وكانت سيوفهم قد صدئت من طول ما مكثت في أغمادها؛ وكان العبيد لا يأبهون لتغلُّب حاكم على حاكم، لأنهم وصلوا إلى حال من الذلّ والبؤس بحيث لا يستطيع حاكم جديد أن يصيبهم بشرّ منها؛ وكانت الطبقة الوسطى ساخطة حانقة وقد بهظها ما كنت تحمل من تكاليف الدولة وما كان يقع عليها من الغُرم من غير أن تنال من الغُنم شيئاً.

وإنّ شعباً هوى إلى هذه الهوة، وتدهور في هذا الدَّرْك لا يستطاع في حكم البديهة أن يؤلّف من رجاله جيش قوي مكافح؛ لذلك دخل القوط أسبانيا واستولوا عليها بدون عناء، وفتحت لهم المدن أبوابها عن طواعية، وخضعت لهم الحضارة الرومانية العليلة دون أن تمدَّ للدفاع كفاً. وفي الحق إنّ طريق القوط إلى الفتح كانت قد مُهِّدت بمن نزل قبلهم بأسبانيا من متوحشي الأللان والوندال والسوابي، فلم يكلفهم الغزو جهداً، أو يحمِّلهم عنتاً، فقد علم الرومانيون من سكان أسبانيا حق العلم، ما يجرُّ وراءه غزو

المتوحشين من نكبات وأوزار، فكم رأوا مدائنهم والنار تلتهمها التهاماً، وكم رأوا زوجاتهم وأولادهم يساقون إلى الذل والأسر، وكم رأوا قوّادهم يقتلون صبراً. رأوا عواقب هذه الحروب ولعناتها، وما يتصل بأذيالها من الطّواعين والمجاعات والقحط وشيوع الفوضى الضارية، وعلّمتهم هذه الكوارث درساً لم ينسوه، فألقوا القياد للقوط خاضعين.

وكان للقوط بأسبانيا أكثر من مائتى سنة، حينما وصل العرب فى أوائل القرن الثامن إلى شواطىء المحيط الإطلنطلى بإفريقية، وعَبَروا بأبصارهم مضيق هرقل، فشاهدوا من بعدٍ ولايات أسبانيا المشرقة.

وكان للقوط منذ أن فتحوا أسبانيا متسع من الوقت لإصلاح ما فسد من شئونها، وبعث روح جديدة فى الشباب، وكان عليهم أن يستفيدوا من مدنية الرّومان، فكثيراً ما استفادت العناصر المتوحشة التى كملت فيها صفات الرجولة، من اندماجها فى المدنيات القديمة الذابلة. وكان هناك أسباب خاصة تدعو القوط إلى إصلاح أحوالهم: فإنهم لم يكونوا شجعاناً أشداء فحسب، بل كانوا ـ فيما يزعمون ـ نصارى مخلصين. والحقيقة أنهم عندما استولوا على أسبانيا لم تكن النصرانية فيها إلا صورة ورسماً، لأن قسطنطين اكتفى بجعل النصرانية دينَ الإمبراطورية الرومانية ولم يُعْن بتقوية دعائمها في الممالك الغربية. وكان في حكم الظن أن يكون هبوط دين جديد على أمة جاهلة كالقوط جديراً بأن يُثير حماستها، ويملأ صدورها بالأمل بعد أن رزحت تحت أثقال الوثنية طويلاً، حتى لقد طمِع قساوسة الكاثوليك فى أن يكون لهم ولكنائسهم فى العهد الجديد شأن مذكور؛ ولكنّ النتائج لم تؤيِّد المقدمات، فإن القوط جعلوا من أعمالهم الدينية ذرائع لغفران ما يجترحون من ذنوب وآثام، وأعدُّوا لكل إثم نوعاً من التوبة، واقترفوا الذنب ليتوبوا منه من جديد، دون أن يجدوا لذلك في صدورهم حرجاً!

وجملة القول أنهم كأشراف الرومان الذين سبقوهم، عادةً وسوءَ خلق، ولم تدفعهم النصرانيةِ إلى شيء من الخير والإصلاح، فكانت حال أحلاس الأرض اللازمين خدمتها، أسوأ مما كانت فى عهد الرومان، لأنهم لم يكتفوا بإلزامهم خدمةَ أرض بذاتها، أو سيِّد بعينه، بل حتموا عليهم ألاّ يتزوجوا إلا برضاء السيد، وأنهم إذا أصهروا من ضيعة مجاورة قُسِمت ذرِّيتهم بين صاحبى الضيعتين. وحملت الطبقة الوسطى ـ كما كانت الحال في

حكم الرومان ـ عبء الضرائب، فجرّ ذلك إلى خراب هذه الطبقة وإفلاسها. وكانت الأراضي في قبضة عدد قليل من الأغنياء، يقوم على خدمتها وزراعتها عدد عديد من العبيد البائسين، الذين يعيشون بلا أمل في الانتعاش من كبوتهم، أو حُلم في الخلاص من بؤسهم، وحسبك أن رجال الدين الذين كانوا يخطبُون ويُشيدون بالأخوّة المسيحية بعد أن أثروا وملكوا الضياع الواسعة، اتّبعوا السياسة الموروثة، وعاملوا عبيدهم وَخَولهم بالعسف والشدة، كما كان يفعل أثرياء الرومان. ثم إن أغنياء القوط غرقوا في صنوف من النعيم أفقدتهم الْحِسّ، ونافسوا الوثنيين في الفجور، ففلجوا عليهم حتى أدركهم ذلك السُّبات الذي أطاح بدولة الرُّومان.

يقول بعض المؤرخين ـ وهو يحاول تمحيص الأسباب التي أدَّت إلى تغلُّب المسلمين على المسيحيين ـ: «إنَّ الملك ويتزا «غيطشة» علّم أسبانيا كيف تقترف الآثام» ولكنّ أسبانيا كانت قد تعلّمت ذلك على أحسن وجوه العلم قبل «غيطشة» بزمن بعيد، وربما لم يكن هذا الملك أسوأ من سابقيه، الذين أغرقوا في الشهوات، وترخصوا في كل ما أصاب الدولة من الفساد والتدهور. ولما كانت آثام القوط المتوحشين قريبة الشبه جداً من مآثم الرومان الداثلين، لم تشعر المملكة عند انتقال الحكم من الرومان إليهم بشيء جديد.

هكذا كانت أسبانيا حينما اقترب المسلمون من حدودها. طبقة فاسدة مفسدة من الأغنياء، قسمت الأرض بينها ليزرعها العبيد وأحلاس الأرض البائسون اليائسون، ثم طبقة من سكان المدن لم يُبق لها الظلم والعسف رطباً ولا يابساً[1].

هكذا كانت أسبانيا حينما كان جنود الإسلام يقيمون على الجانب الآخر من بحر الزُقاق الذي عرف فيما بعد: بمضيق جبل طارق ـ وهم قوم بُسل أشداء، تلتهب نفوسهم حماسةً لدينهم، وتتأجّج شوقاً إلى ما في أرض الكفار الخصيبة من غنائم وخيرات، وقد تدرّبوا على السلاح منذ نعومة أظفارهم، وعاشوا في صحرائهم عيشة خشنة جافية. وإنّ موازنة بين هذين الفريقين، لا تترك مجالاً للشك فيمن سيكون له النصر والغلب، على أن

(١) يزيد صاحب «أخبار مجموعة» وهو أقدم كتاب في تاريخ الأندلس طبع بمجريط: أن البلاد أصيبت بالمجاعة والوباء قبل الفتح، فمات أكثر من نصف سكانها في سنوات: ٨٨ و ٨٩ و ٩٠ هـ.

الخيانة التي جاءت بعد ذلك فساعدت الفاتحين على اقتحام البلاد، أزالت كل أثر للشك في انتصارهم.

خلع لذريق غيطشة من عرشه[1]، وبدأ حكمه بَداعة حسنة، ولكنّه خضع آخرَ الأمر لإغراء الثروة والقوّة، وجمح به النهم في الشهوات الدنيئة حتى نفرت منه القلوب، وأصبح كلٌّ ما حوله مستعداً للاشتعال، لا ينتظر إلا شرارة صغيرة لينفجر ويذهب بمملكته.

وكانت العادة بين أمراء المملكة أن يرسلوا ببناتهم وأبنائهم إلى القصر لتهذيبهم وأخْذهم بكل ما يثّقف النفس ويغرس الخلق الكريم! فأرسل الكونت (يوليان) حاكمُ سبتة، ابنته فلورندا إلى قصر لذريق بطليطلة، لتنال قسطاً من التربية بين وصائف الملكة. وكانت فلورندا غايةً في الجمال فُشغف لذريق بها، ودنّس عفافها، ذاهلاً عما يوجبه عليه الشرف من حمايتها كما يحمى إحدى بناته[2]، وزاد في بشاعة الجريمة، أنّ زوج يوليان كانت بنت غيطشة، فكان في فَعْلة لذريق تلطيخٌ للشرف الملكي بالعار. وقد كتبت الفتاة إلى أبيها حينما شعرت بجسامة الكارثة، ودعت غلاماً تثق به وأوصته أن يسرع بالكتاب، وأن يصل ليله بالنهار حتى يضعه في يد أبيها، ثم منّته الأماني.

ولم يكن يوليان يُحب لذريق، لأنّ صلته بالملك المعزول أو المقتول على الأرجح، صدّته عن الميل إلى الغاصب؛ ثم جاء العبث بشرف ابنته، فزاد نار حقده اشتعالاً، وأغراه بالكيد والانتقام. وقد استطاع أول الأمر أن يقف في وجه غارات العرب، ولكنه عزم الآن على ألا يدفع عن مملكة أثيم ثلب عرض ابنته، وصمم على أن يترك العرب يملكون أسبانيا إذا أرادوا. ثم زاد فقرّر في قرارة نفسه أن يرشدهم إلى الطريق، فأسرع - وحبُّ الانتقام يملأ صدره - إلى لذريق - بعد أن أسكت غضبه وأخفى ما في نفسه - فأحسّ الملك بشيء من الندم، ووثق في نفسه من أنّ فلورندا كتمت سره وسرّها، وأخذ يغمرُ يوليان بصنوف من الإجلال والتكريم، ويستشيره في كلّ ما يتصل بحماية المملكة، ويُصيخ إلى ما يزوّق له من الخديعة والختل، حتى إنه أرسل أكرم خيوله وخير عتاده إلى الجنوب، لتكون تحت إمرة يوليان إذا هجم الفاتحون.

---

(١) عبارة صاحب «أخبار مجموعة»: هلك غيطشة وترك أولاداً لم يرضهم أهل الأندلس، فتراضوا على علج يقال له: لذريق شجاع هجوم، ليس من بيت الملك، ولكنه من قوادهم.

(٢) يقول المؤلف: إنه ينقل هذه الرواية دون أن يتعرض لتأييد صدقها، وإذا كان ما يختص بفلورندا منها خيالياً، فإن ما يختص بيوليان حق لا شك فيه.

وغادر الكونت طليطلة ومعه ابنته، محفوفاً بعطف الملك ورضاه، وطلب لذريق منه عند افتراقهما أن يرسل إليه نوعاً خاصاً من البُزاة المعلّمة، فأجاب يوليان: بأنه سيرسل إليه بُزاة لا عهد له بها؛ وبهذه الإشارة الخفيّة إلى قدوم العرب، عاد أدراجه إلى سبتة.

وما كاد يصل إليها حتى زار موسى بن نصير، الوالى من قبل الخليفة على شمال إفريقية، الذى طالما اشتبكت سيوفه بسيوفه فى حروب مشتعلة الأوار، فأخبره أن الحرب بينهما قد وضعت أوزارها، وأنهما منذ اليوم صديقان حميمان، ثم أخذ يملأ أذني القائد العربيّ بأحسن القَصص عما فى أسبانيا من الجمال والثروة، ويحكى عن أنهارها ومروجها، وأعنابها، وزيتونها، وعظمة مدنها وقصورها، وما فيها للقوط من كنوز، ثم قال: إنها أرض تموج باللبن والشّهد، وليس على موسى إلا أن يخطو فينالها بقبضته، وأخذ يوليان على نفسه أن يرشده إلى الطريق، ويُعد له السفن. وكان القائد العربى داهية شديد الحذر، فخشى أن تكون هذه الدعوة خديعة واستهواء إلى الوقوع في شَرَك أو كمين، لذلك أرسل إلى الخليفة بدمشق رسلاً ليرى رأيه فى الأمر، واكتفى فيما بين ذلك سنة (٧١٠ م) (٩١ هـ) بإرسال خمسمائة رجل بقيادة (طريف) أبحروا فى أربع سفن ليوليان للإغارة على شاطىء الأندلس، ولم يرض موسى أن يُعرّض من رجاله للخطر أكثر من هذا العدد، لأن العرب لم يكونوا قد اعتادوا بعد الإبحارَ فى بحر الروم.

عاد طريف فى شهر يوليه بعد أن نجح فى الغرض الذى أُرسل من أجله، فقد أرسى سفنه فى المكان الذى لا يزال يسمى باسمه، ونزل الجزيرة الخضراء وانتهبها، ورأى بعينه ما كفى لاقتناعه بصدق ما قاله الكونت يوليان، من فِقْدان وسائل الدفاع بأسبانيا، وبأن إخلاصه للفاتحين لا يقبل الشك. ولكن موسى على الرغم من هذا لم تمل نفسه إلى المخاطرة فى سبيل فتح جديد، وجاء كتاب الخليفة بدمشق يأمره بألا يقذف بجيش المسلمين فى أخطار مجهولة العاقبة، وعهد إليه أن يكتفى بإرسال فرق قليلة من آن لآن، للإغارة المفاجئة.

ولكنه بعد أن ملأه نجاح طريف ثقةً بالنصر والتغلب، عزم على أن يوسع نطاق غزوه.

فحين علم فى سنة ٧١١ م (٩٢ هـ) أنّ لذريق مقيم بشمال مملكته لقمع ثورة البَشْكُنْس، أرسل أحد قواده، وهو طارق البربرى، ومعه سبعة آلاف رجل جلّهم من البربر

للإغارة على الأندلس، فنال من هذه الإغارة فوق ما كان يتوقع، فإنه أرسى سفنه عند صخرة الأسد التى حملت اسمه منذ ذلك الحين، فدعيت: جبل طارق، وبعد أن ملك كارتية، توغل فى داخل البلاد، ولم يسر بعيداً حتى رأى جيوش القوط بقيادة لذريق تقترب لنزاله؛ فالتقى الجيشان على شاطىء نهير سماه المسلمون: وادى بَكّة، بالقرب من نهر وادى لَكّة الذى يصبُّ فى المضيق عند رأس الطرف الأغرّ[1].

وتقصّ علينا الأساطير: أنّ الملك لذريق قبل هذه الموقعة، كان جالساً على سرير ملكه بمدينة طليطلة، فدخل عليه رجلان جلّل الشيب رأسيهما، وهما فى ثياب بيض من نسج قديم، وكان حزاماهما مزيَّنين بصور مواقع النجوم وما لها من شأن فى تصاريف القدر، وقد عُلّق بهما كثير من المفاتيح. فلما مثلا بين يدى الملك قالا له: أعلم أيها الملك: أن هرقل منذ الزمن القديم، وحين نصب صنمه عند مضيق البحر، أنشأ حصناً قوياً بالقرب من طليطلة القديمة، وأخفى فيه طلّسماً جعل عليه باباً من الحديد ثقيلاً، له أقفال من الصلب توكيداً لحفظه؛ ثم إنه أمر أن يقوم كل ملك جديد؛ بإضافة قُفل جديد لهذا الباب، وأنذر بالويل والثبور كلّ من يهمّ بكشف هذا الطلّسم. وقد قمنا وقام أسلافنا بحراسة باب الحصن منذ أيام هرقل إلى هذه الساعة، وعلمنا أن بعض الملوك، حاول كشف هذا الطلسم، فكانت عاقبة أمرهم الموت أو الجنون، ولم يصل واحد منهم إلى أبعدَ من عتبة بابه، وقد جئنا الآن أيها الملك، لنرجوك أن تضع قفلك على باب الحصن كما فعل جميع الملوك قبلك. ثم انصرف الشيخان.

وحينما فكّر لذريق فيما قالاه، ثارت فى نفسه الرغبة في دخول هذا الحصن المسحور، على الرغم من تحذير بطارقته ووزرائه الذين قالوا له: إن كنت تظن أن فيه مالاً فقدّره، ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره، ولا تُحدث علينا بفتحه حادثاً لا نعرف عاقبته، وقد علمتَ أن قيصراً الأكبر على جرْءته لم يحاول دخوله . . .

ولن يُفْتح الحصنُ إلا لمن   قضَى اللهّ فى ملكه بالزوال
ممالكُه زال سلطانها   بنشر الفساد وكيد الرجال
فنالت من اللهّ شرَّ انتقام   وآب بنوها بشرِّ المآل

ولكنّ الملك أصرّ وصمم على الرغم من هذه النصيحة، فركب يوماً مع فُرسانه إلى

(١) في «أخبار مجموعة»: أن التقاء الجيشين كان بمكان يقال له البحيرة.

الحصن، وكان فوق صخرة عالية تحيط به مهاوٍ سحيقة، وكانت حيطانه من المرمر الذى إذا واجهته الشمس كاد شعاعه يذهب بالأبصار. وكان مدخله فى طريق منحوت فى الصخر، وقد أُغلق عليه باب عظيم من الحديد، غُطى بالأقفال الصدئة من عهد هرقل إلى أيام غيطشة.

ووقف الحارسان إلى جنبي الباب، وحاول فُرسان الملك وبعض الحراس فتحه، فاستطاعوا بعد لأىٍ فكْ أغلاقه قبيل الغروب، ودخل الملك وحاشيته من الباب، إلى بهو فى نهايته باب آخر، وقف أمامه تمثال من البرنز ضخم هائل المنظر، بيده رمح عظيم أخذ يحرّكه ويضرب به ما حوله من الأرض.

ولما رأى لذريق هذا التمثال، هاله منظره، وأخذه البَهْر، وتملكته الدهشة والعجب، ولكنه حينما قرأ على صدره وهو: «إنى أقوم بواجبى» استردّ شجاعته، وأمر التمثال أن يَفْسح له الطريق، زاعماً أنه لم يأت لاستباحة حرمة المكان، وإنما جاء ليعرف سرّما فيه، فهدأت عندئذ ثائرة التمثال ورفع رمحه، فمرّ الملك ومرت حاشيته من تحته إلى حجرة ثانية، فوجدوا جدرانها مغطاة بكريم الأحجار، ورأوا فى وسطها مائدة عظيمة من ذهب وفضة، مكللة بالجواهر، وعليها تابوت من الفولاذ، به قفل علق به مفتاحه، وقد كتب عليه: «فى هذا التابوت طِلَّسم الحصن، ولن تفتحه إلا يد ملك، ولكنْ ليحذر هذا الملك، فإنّ أشياء عجيبة ستصوَّر له ما يحصل له قبل موته».

وحين فتح الملك التابوت لم يجد به سوى رَقّ به صور فُرسان عابسى الوجوه مسلحين بالقسىّ والخناجر، وقد كتب فوق هذه الصور: «أنظر أيها الطائش الأرعن إلى هؤلاء، فإنهم سيثلّون عرشك ويُخضعون مملكتك». وبينما كان الملك وأصحابه يحدِّقون فى الصور، إذ سمعوا زمازم الحرب ولجبها، ورأوا أنّ الصور طفقت تتحرك كأنها فى غمام، حتى أخذت هيئة حرب فى ميدان[1].

رأى لذريق فى هَول وحزن ... بهذا المنظر السحرىّ حربا
عواقبها تراها العين جهراً ... وإن كانت من القدر المخبا

(١) لم أقرأ خرافة تحرك التمثال وسماع أصوات الحرب ولجبها وتحرك الصور المرسومة فى الرق فيما كتبه العرب عن هذه الأسطورة.

ثم أبصروا ميداناً عظيماً يتفانى فيه المسيحيون والمسلمون فى موقعة طاحنة، وسمعوا أصوات جرى الخيل ووقع حوافرها، وزعق الأبواق والصنوج، وما يصم الآذان من ضرب آلاف من الطبول، بين بريق السيوف والقُضُب وحفيف السهام وصليل الرِّماح؛ ورأوا أنّ النّصارى يتضاءلون أمام أعدائهم الذين تدفقوا عليهم كما يتدفّق السيل، فتبدّد شملهمْ، وسقط إلى الأرض بيرق الصليب، وديس علَم أسبانيا تحت الأقدام، وامتلأ الجوّ بصيحات الانتصار يخالطها صراخ الغضب وأنين المحتضَرين.

ورأى الملك لذريق بين هذه الفرق الفارة من الميدان، فارساً متوجاً، كان ظهره إليه، ولحظ أن سلاح هذا الفارس وعُدته، تشبه سلاحه وعدّته، وأنه كان يركب جواداً أشهب، يشبه جواده «أورليا».

ثم رأى أنّ الفارس بعد قليل سقط عن جواده فى هَرْج الحرب ومرْجها فلم يعد يُرى، وأنّ أورليا أخذ يعدو فى الميدان بغير راكب.

وحينما خرج الملك وحاشيته من الحصن دهشين خائفين، اختفى التمثال من الوجود، وسقط الشيخان الحارسان ميتين عند مدخل الحصن، وكان من إرهاص الطبيعة الغاضبة أن التهمت النار الحصن، فتأجج كل حجر فيه وآض رماداً تذروه الرياح. ويقول القصّاصون: إنه كلما سقط رماد من هذه الأحجار فى مكان، وجد بجانبه نقطة من الدم المسفوك.

أولع مؤرخو العصور الوسطى من النصارى والعرب بالإفاضة فى هذه الحادثة، وإمدادها بكثير من صور الخيال، وضروب الإرهاص كما قيل:

كم من رُؤَى وأساطير مزوَّقةٍ بها وعيدٌ وإرهاصٌ وإنذارُ
فيها تلاقى خيالُ الغرب مازّجةً ما خيلته لأهلِ القوط أشعار

وكم قرأنا أن كلا الفريقين قبيل الموقعة، كان ينشرح صدره أو ينقبض بالفأل والطِّيرة، وزعموا أن النبى نفسه، ظهر لطارق فى المعركة وحثّه على الإقدام، وأمره أن يضرب ويغلب، إلى غير ذلك من أمثال هذه الروايات. وكيفما كانت رُؤَى الجيشين وأحلام رجالهما، فإن نتيجة القتال حين وقف الجيشان بالقرب من وادى لَكّة، كان لا يشوبها شك... نعم إن طارقاً أُمِدّ بخمسة آلاف مقاتل من البربر، فبلغ جيشه الصغير،

اثنى عشر ألفاً، حينما كان جيش لذريق يبلغ ستة أمثاله فى العدد. لكنَّ الفاتحين كانوا شجعاناً مغاوير أشداء، مرنوا على الحروب، وكان قائدهم بطلاً باسلاً، بينما كان الأسبان خليطاً من العبيد المستضعفين فى الأرض. وكان بين قوّادهم بعض الخونة من الأشراف، فإن أقرباء غيطشة ـ وإن أطاعوا لذريق فى ظاهر الأمر وحضروا المعركة ـ كانوا عازمين على الانضمام إلى الأعداء عندما ينكشف لهم وجه القتال، ولم يخطُر لهم ببال أن فى فعلهم هذا خيانةً لأسبانيا؛ فقد ظنوا واهمين أن الغزاة لم يقصدوا إلاّ إلى النهب والغنيمة، وأنهم عند انتهاء الغارة وحصولهم على الأسلاب يذهبون تواً إلى إفريقية، فتعود سلالة غيطشة إلى عرشها القديم المغصوب[1]؛ وبهذا الظن الخاطىء عاونوا من حيث لا يشعرون على وضع أجمل ولايات أسبانيا نحو ثمانية قرون تحت حكم العرب.

وقد سقطت قلوب المسلمين بين جنوبهم ذُعراً، حينما رأوا الجيش اللّهام، الذى أعدّه لذريق لنزالهم، وحينما رأوا الملك فى درعه الفاخرة وفوقه المظلّة الملكية؛ ولكن طارقاً صاح فى رجاله: «أيها الناس: العدوّ أمامكم والبحر وراءكم، وليس لكم والله إلاّ الجلد والصبر»، فاستنجد المسلمون بشجاعتهم وصاحوا: «إنّا وراءك يا طارق» ثم هجموا خلف قائدهم يقذفون بأنفسهم فى وطيس الحرب وأتّونها. واستمرت المعركة أسبوعاً، أظهر فيه الفريقان كثيراً من ضروب الشجاعة والإقدام، وكان لذريق يستحثّ قومه مرّة بعد أخرى، ولكن فرار أتباع غيطشة رجّح كفة الميزان، فصار الميدان صورة محزنة للدمار والهزيمة.

ومُزّق جيشُ لذْريقٍ وخارت ... بمن فيه العزائم والقلوبُ
وحين رأى الهزيمةَ فرَّ يعدو ... وحيداً مستكيناً لا يؤوب
عليه من غبار الحرب ثوب ... ومن لون الدماء به لهيب
وتحمل كفُّه سيفاً خصيباً ... كمنشار أفلّته الحروب
فلامَةُ صدره فيها شقوقٌ ... وخُوذةُ رأسه فيها ثقوب

(١) فى «أخبار مجموعة»: فقال بعضهم لبعض: هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من أهله، وإنما كان من سفالنا، وهؤلاء قوم لا حاجة لهم باستيطان بلدنا، إنما يريدون أن يملئوا أيديهم ثم يخرجوا عنا، فانهزموا بنا إذا لقينا القوم. وكان لذريق قد ولى شيشبيرت ميمنته وأبة ميسرته، وهما ابنا الملك غيطشة.

أطــلّ بقمّــةٍ فرأى دماراً له كادت حُشاشَتُــه تذوب
وأعلامــاً ممزّقــةً تبدّت وكلٌّ بالــدم القانــي خضيب
وجــال بسمعــه للغُــرْب صوت بنصــر اللهّ ردّده السُهوب
رأى قوّاده فرُّوا وأبقَوْا جريحــاً أو قتيلا لا يُجيب
وأنّــى عينُــه لمحــت مكاناً بدا للعين فيه دمٌ صبيب
فقــال وقــد بكى: قد كنــتُ مَلْكا ومــاذا ينفــع الآنَ النحيب؟
ونمــت الأمسَ فوق فراش عز وفرشــي اليومَ تجفــوه الجنُوب
جثا الخدّام أمسِ أمام عرشي وليس اليومَ لى منهــم غَريب
فيومُ ولادتــي يومٌ عبوس ويومٌ ولايتــي يومٌ عصيب
فمــا أشقــى نهــارى حين أرنو لشــمس الأفــق يحجُبهــا المغيب!
فعجــلْ أيهــا المــوتُ المرجّى فمــا لى اليومَ فى الــدنيا حبيب

هكذا تقول الأنشودة الأسبانية، ولكنّ نهاية لذريق بقيت سراً خفياً إلى اليوم، فقد وُجد فرسه وخفّاه عند شاطىء النهر بعد يوم من المعركة ولم يظهر له أثر. ومن المحقّق أنّه غرق، وأن النهر حمل جثته إلى المحيط. ولكنّ الأسبان يأبوْن أن يصدّقوا هذا، فقد البسوا الملك الراحل حللاً قدسية خفية الأسرار، لم يخلعوها عليه فى حياته، وجعلوا منه معيناً فياضاً لكثير من القصص والروايات، وخلعوا عليه صفات المنقذ المخلِّص، كما فعل الإنجليز بالملك آرثر؛ فاعتقدوا أنه سيعود مرّة أخرى من مقرّه فى بعض جزائر المحيط، بريئاً من جراحه ليقود المسيحيين لقتال الملحدين. وجاء فى أساطيرهم أنه قضى بقيّة حياته فى أعمال الخير والإنابة، وأنّ ثعابين أخذت تبتلعه شيئاً فشيئاً، عقاباً لما كان يقترف من إثم، حتى محيت ذنوبه «فإن عقاب البدن ينقذ الروح من الآلام» ثم إنه حُمِل إلى الجزيرة الهادئة المطمئنة، ولا يزال رجاله منذ ذلك الحين ينتظرون أوْبته إليهم، كما يؤوب الظافر المنتصر.

موجة الفتح

«لم يكن هذا فتحاً كغيره من الفتوح يا أمير المؤمنين ، فإن الوقعة كانت أشبهَ باجتماع الحشر يوم القيامة» . .

هكذا كتب موسى بن نصير أمير إفريقية إلى الخليفة الوليد فى وصف انتصاره بموقعة وادى لكّة .

وليس عجيباً أن يدهَش المسلمون لنصرهم المؤزَّر الحاسم ، أو أن يتملّكهم الزّهو بهذا الفتح المبين ، لأننا إذا ألقينا جانباً الأساطيرَ والأوهام التى لفّقها مؤرخو الأسبان حول سقوط لذريق ، ورجعنا إلى التاريخ المتّئد غير المتحيّز ، رأينا أنّ انتصار المسلمين فى وادى لكّة ألقى بأسبانيا كلها فى أيدى العرب . فقد ربح طارق ومن معه من الأثنى عشر ألف بربرىّ الجزيرة جميعها ، ولم يكن فى حاجة إلا إلى قليل من الجهد ، ليقضى على المقاومة الخائرة فى بعض المدن .

ولم يُضِع طارق وقتاً فى متابعة انتصاره ، فقد تقدّم هذا القائد المجدود بلا تردد ، متحدّياً أمر موسى ، الذى كان يتحرّق حسداً لما ناله جنديُّه البربرى من المجد الذى لم يكن يخطر له ببال ؛ وقسم طارق قوته ثلاث فرق أو كتائب ، وبثها جميعاً فى شبه الجزيرة ، فأخضع مدينة إثر مدينة ، بعد مقاومة لا تكاد تذكر .

وأرسل مغيثَ بن الحارث على سبعمائة فارس لامتلاك قُرْطُبَة ، فأخفى جنوده ، حتى إذا جاء الليل تقدم نحو المدينة ، واتفق فى ذلك الحين أن سقط هاطل من البَرَد أخفى وقع

سنابك الخيل، فعدّ المسلمون ذلك عناية من الرحمن، والتقوا براعى غنم أرشدهم إلى ثغرة فى سور المدينة، فعزموا أن يجعلوا منها منفذاً لهجومهم؛ وتسلّق رجل منهم كان أكثرهم نشاطاً وأشدهم حميّة شجرة تين كانت تحت الثغرة؛ ثم وثب منها إلى السور، حتى إذا استقرّ به، خلع عمامته، وأرسل بطرفها إلى بعض أصحابه، ثم جذبهم إليه واحداً واحداً، حتى إذا نزلوا من السور إلى داخل المدينة دهموا حرّاس الأبواب، ففتحوها للفاتحين؛ وتمّ الاستيلاء عليها دون عناء.

وعندما دخل المسلمون قُرْطبةَ، التجأ حاكمها وحرسها إلى دير يعصمهم من العدوّ، ولزموه ثلاثة أشهر محاصَرين. حتى إذا انتهى أمرهم إلى التسليم بقيت المدينة بأيدي اليهود الذين أثبتوا صدق إخلاصهم للمسلمين، فنالوا عطفهم ورعايتهم، ونظر العرب إليهم نظرتهم إلى الصديق، فلم يضطهدوهم كما اضطهدهم قساوسة القوط، إلا فى العهد الأخير، فحيثما اتجه سلاح المسلمين سار اليهود من ورائه متابعين متزاحمين؛ فالعربُ يحاربون واليهودُ يتّجرون، حتى إذا ألقت الحرب سلاحها، رأيت اليهود والعرب والفرس وقد اجتمعوا على إنماء التعليم، والفلسفة، والآداب، والعلوم، إلى غير ذلك، مما ميّز حكم العرب، وأرسل شعاعه فى العصور الوسطى منيراً وهاجاً.

وجرت فتوح طارق شوطاً بعيداً بمعاونة اليهود، وشدة فزع الأسبان، فاستولى على أُرْشُذونة دون أن يلقى مقاومة، وفرّ سكانها إلى التلال، وألقت القيادَ مالَقة، وعصفت الحرب بالبيرة، (بالقرب من مكان غَرْناطة الآن).

ودافع تُدْميرTheodemir حيناً عن شعاب جبل مُرْسية بشجاعة وصبر، ولكنه دُفع إلى تركَ معقِله، والاشتباك مع العرب فى موقعة طاحنة حطِّم فيها جيشه تحطيماً، وفرّ مع خادم له إلى مدينة أوريولة؛ وهناك فكر فى أن يلقَى مطارديه بخديعة بارعة؛ فإنّه حينما رأى أنّ الحرب لم تكد تُبقى على رجل بالمدينة، لسقوط شبّان مرسية فى المعركة جميعاً، جمع النساء وألبسهن ثياب الرجال ووضع الخُوَذ على رءوسهنّ، وسلحهنّ بقصب يشبه الرماح، وأمرهنّ أن يضعن شعورهن فوق الذقون كاللُّحَى، ثم وزّعهن على أسوار المدينة. فلما اقترب المسلمون فى دَغَش الشفق، سُقِط فى أيديهم لما رأوا من قوّة الدفاع عن المدينة؛ وبعدئذ حمل تدمير بيده راية الهدنة، وألبس خادمه عباءة يلبسها السفراء، وذهبا لمفاوضة القائد المسلم الذى لم يعرف الأميرَ الأسباني، فأحسن استقبالهما، ثم قال له تدمير: «لقد

قدمت نائباً عن حاكم المدينة لأفاوض فى شروط تليق بعظيم تسامحك ، وشرف منزلته . فأنت ترى أن المدينة جديرة بأن تثبت أمام حصار طويل ، ولكن الحاكم شديد الرغبة فى الإبقاء على حياة جنوده ، فعِدْنى بأن يغادروا المدينة أحراراً دون أن يمسهم سوء أُسلِّمها إليك غداً بغير حرب ، وإلا فقد وطّدنا العزم على القتال إلى آخر رجل » فقبل القائد ما عرضه عليه .

ثم وضعت شروط التسليم كما أحب . وبعد أن ختمها القائد وأمضاها تدمير ، التفت إلى القائد قائلاً : « أنظر إلىّ فأنا حاكم المدينة » !

وعند الفجر فُتحت أبوابُ المدينة ، واتجه المسلمون ليروا الحامية القويّة خارجة منها ، ولكنهم لم يروا إلا تدمير وخادمه فى درع محطمة ، وخلفهما جمع من الشيوخ والنساء والأطفال ، فسأله القائد العربى : « أين الجنود ورجال الحامية الذين رأيتهم حول الأسوار البارحة ؟» فأجابه : « ليس لدىّ من الجند أحد ، أمّا رجال الحامية فهاهم أولاء أمامك ، فانظر إليهم ، فهؤلاء النسوة حصّنت أسوارى ، أما هذا الخادم فهو سفيرى وحارسى وحاشيتى ! » فأخذ القائد العجبُ من جرأته ، وسرّ من براعة حيلته ، فعينه حاكماً لمقاطعة ماسية التى سماها العرب بعد ذلك باسمه . وتدل هذه القصة على كرم العرب ورقة طباعهم ولا ريب فقد كانوا مثلاً عالية للفروسية الحقة التى طالما ازدانت بها أعمالهم ، وكانوا يمتازون بالعفو عند المقدرة ، وبكثير من صفات البطولة والنجدة ، التى حملت الأسبان بعد تغلبهم عليهم على أن يلقبوهم « بفوارس غرناطة ، وبالغطارفة وإن كانوا عرباً » .

وفى هذه الأثناء ، كان يضغط طارق على طليطلة قصبة القوط ، لأنه كان يجدُّ فى طلب أشراف القوط ، فقد بحث عنهم فى قرطبة ففرّوا قبل جيئته . ولما دخل طليطلة التى أسلمها إليه اليهود ، لم يجد بها للأشراف أثراً ، فقد غادروا المدينة قبل دخوله ، والتجئوا إلى صخرة أشتُورش (أستورياس) ولم يبق بطليطلة إلا الخونة من أسرتى غيطشة ويوليان الذين كوفئوا بمناصب فى الدولة ، أما سراة المملكة فقد هجروها وأسلموها للعرب ، فصارت ولاية تابعة للدولة الأموية ، التى جعلت مقر حكمها بدمشق ووسعت رقعة مملكتها فى جبال الهند إلى أعمدة هرقل .

وترك لموسى بن نصير إخضاع ما بقى من الأندلس ، فإنه حينما سمع بفوز طارق المطرّد ، عبر المضيق على عجل بجيش من العرب فى صيف سنة ٩٣هـ ٧١٢م ، لينال نصيبه كاملاً من

المجد ، وكان عدد رجاله ثمانية عشر ألفاً ، فاتصل بطارق فى طليطلة بعد أن أخضع قرمونة وإشبيلية وماردة . ولم تكن مقابلة القائد الأعلى للفاتح مقابلة وُدّ وصداقة : فإن طارقاً حينما سارع إلى لقاء موسى فى حفاوة وتكرمة ، عاجله هذا بالسوط ، وأخذ يقرّعه ويعنّفه على مجاوزة أوامره ، معلناً أنه لن يستطيع أن يضمن سلامة المسلمين ، فى يد قائد مخاطر مثله ، ثم زجّ به فى غيابة السجن[1] . ولما علم الخليفة الوليد بما وقع لطارق وما أصابه من الظلم ، الذى أثارته الغيرة وصبّه الحسد ـ استدعى موسى إلى دمشق ، وأعاد طارقاً إلى القيادة بأسبانيا .

وقبل أن يعود موسى إلى الشام ، كان قد بلغ جبال البرت (البرانس)[2] وأطلّ منها ، فجالت بخياله صورة لفتح أوربا كلها ، ولكنّ دعوة الخليفة عاقته عن الاستمرار فى تقدمه ، فقام بهذا الأمر غيره[3] .

ذلك أن حاكماً[4] عربياً تملّك فى سنة ٧١٩م (١٠١هـ) القسم الجنوبى من الغال المسمىّ : « سبْتمانيا » بما فيه من مدنية قرْقشونة ، وأرْبونة ... وأخذ من هذين المركزين يغير بجيشه على برغاندى ، وأقيتانية ، غير أن يوديس دوق أقيتانية استطاع قهر العرب عند أسوار طلّوشة (تولوز) سنة ٧٢١م (١٠٣هـ) ، فلم يفتْ هذا الغلب فى عضدهم ، بل حفزهم إلى الاتجاه نحو الغرب ، فنهبوا بونة ، وفرضوا الضرائب والإتاوات على سان ، واستولوا على أفينون سنة ٨٣٠م (١١٢هـ) وتوالت غاراتهم على الولايات المجاورة .

وقد وطّد العزم عبد الرحمن حاكم أربونة الجديد ، على التغلب على كل بلاد الغال ، فإنه بعد أن وقف تقدم يوديس الذى حاول بعد انتصاره فى طلّوشة أن يغزو أرض المسلمين ، هجم على طركونه وفتح أُقيتانية ، وهزم يوديس عند شواطئ الجارون .

واستولى على برديل (بوردو) عنوةً ، عندما سمع بالكنوز المذخورة بدير القديس مارتن ،

---

(١) أعتقد أن هذه الحادثة غير صحيحة وإن تواترت كتب التاريخ على نقلها . وأغلب الظن أنها من وضع العباسيين .

(٢) ويقال لها البرينات أيضا .

(٣) توفى موسى مغضوباً عليه من الخليفة سنة ٩٧هـ .

(٤) هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، استشهد فى سنة ١١٤ هـ سنة ٧٣٢م بموقعة بلاط الشهداء .

وقابل شارل بن يبين الذى كانَ فى الواقع ملك فرنسا الفعلىّ ، لأنَّ ملكها كان ضعيف العزم ، يكاد يكون محجوراً عليه من رئيس القصر.

وتقدم المسلمون إلى الغزو فرحين مستبشرين ، ظانّين أنهم سيلاقون من النصر ما لاقوا فى موقعة وادى لكّة ، وتوقعوا أن يروا فرنسا الجميلة من كاليه إلى مرسيليا ، وقد سقطت فريسة فى أيديهم . وفى الحق إن مصير أوْربّا كان فى الميزان ، حتى لقد عُدت هذه الموقعة من المواقع الخمس عشرة الفاصِلة فى حياة البشر ، وكان السؤال العظيم الذى كان جوابه فى شفار السيوف وأسنة الرماح ، هو : « أتصبح أوربا مسيحية أم مسلمة ؟ ، أتكون نوتردام التى لم تبن بعد كنيسة أم مسجداً ؟ أتردِّد كنيسةُ سنت بول تراتيل المسيحية ، أم تدوى بها أصوات المصلين من المسلمين ؟ » ذلك أنه لم يكن هناك من سبب يدعو مطلقاً إلى وقوف الفاتحين عند ساحل المنش إذا لم تصد جيوشهم عند تور ، ولكن قضت الأقدار بأن مدّ الغزو الإسلامى قد بلغ غايته ، وأنّ الجزر أخذت تبدو مظاهره لِلعيان .

لم يكن شارل والإفرنج من أتباعه من الصنف الخائر العزيمة ، الضعيف المخنّث ، كبقايا الأسبان والرومانيين والقوط ، بل كانوا فى الشجاعة والشدة أكفاء للعرب أنفسهم وأمثالاً ، وكان لهم من بسطة الجسم ، وعنفوان القوة ، ماكان له أكبر الأثر فى أعدائهم .

وقد قضى الجيشان ستة أيام فى المناوشة ، واشتد الالتحام فى السابع وحَمِى الصِدام ، فاخترق شارل صفوف العرب بصولة لاتقاوم ، ثم أخذ يرسل يميناً وشمالاً ضرباته القوية التى سُمِى من أجلها : بشارل مارتل ، أو إن شئت : « شارل المِرْزَبَّة أو المطرقة » وسرت روحه فى جنوده ، فانقضوا على المسلمين بقوة ساحقة ، فتمزق جيشهم ولاذوا بالفرار ، ودُعى بين الحزن والذعر مكان هذه الموقعة ببلاط الشهداء حيناً من الدهر طويلاً .

زال الخطر عن غرب أوربا لأنّ كارثة العرب كانت فادحة ، حتى إنهم لم يفكروا طوال القرون التى حكموا فيها فى الجنوب أن يغزوا فرنسا . نعم إنهم احتفظوا بأربونة وبالجهات المشارفة للسفوح الشمالية لجبال البرت (البرانس) حتى سنة ٧٩٧م (١٨١هـ) ، ثم خاطروا بإرسال غزوات على بروفاس ــ ولكنّ طموحهم لم يصل بهم إلى أبعد من هذا ، فإنّ موقعة « تور » حققت استقلال فرنسا ، ووقفت سداً أمام الفتوح العربية .

لقد غمرت حشودُ العرب الأرضَ كما يغمرها مد البحر . وكانت جيوشهم تملأ كلّ

مكان ، ولكنهم الآن بعد هزيمتهم الساحقة أصبحوا يسمعون صوتاً غريباً يرنُّ فى آذانهم صائحاً : « هنا ستقفون ، وهنا ستستقرّ أمواجكم المزهوّة المغرورة » .

وكان ملوك فرنسا مع كل هذا يثقون بشجاعة جيرانهم العرب ، ويخشوْن بأسهم ، حتى إنهم ـ وإن فرحوا أحياناً بانتصارهم عليهم فى وقائع صغيرة ـ لم يحاولوا إخضاع أسبانيا إلا مرة واحدة . ذلك حينما فقد قارْله (شارلمان) ـ الذى شبّهوه بالإسكندر ـ راحته وأحسّ بقلقه لشدّة مناعة العرب فى الجانب الآخر من جبال البرت ، وظنّ أن من واجب المسيحى ، أن يستأصل شأفة الملحدين ، ورأى أنه وهو الملك العظيم المظفّر ، لا يجمُل به أنْ يحتمل إلى جانبه دولةً مستقلةً بالأندلس . وقد سنحت له الفرصة فى النهاية ، حينما ثار بأسبانيا بعض القبائل لتولية أول أمير أموى ، وقد دأبت القبائل طِيلة أيام العرب بالأندلس على السخط والهياج . فدُعى شارلمان للتدخّل فى الأمر وطرد الأمير الغاصب .

ويزعم مؤرخو الأسبان : أن الفونسو ملك أشتورش (أستورياس) هو الذى استنجد بملك فرنسا ، ولكن الأرجح أن الدعوة جاءت من بعض زعماء المسلمين ، الذى خابت آمالهم ، وانعكست مطامعهم فى عبد الرحمن الداخل الأموى[1] ، حتى أصبحوا يؤثِرون الخضوع لعدوّ الإسلام اللدود على قبول هذا الأمير الجديد .

وكان ما طلبوه من شارلمان محبوباً إلى نفسه ، ملائماً للفرصة التى كان يتوقعها ، وكان الدهرُ فى هذا الحين مبتسماً لشرلمان لأنه أتمّ إخضاع السكسون ونفى زعيمهم « وتكند » وأقبلت الألوف من أصحابه إلى بادربون للدخول فى المسيحية زُمرا . وأصبحت يد الفاتح حرةً طليقة ، تتجه أنى شاءت للغلَب والانتصار .

فتم الاتفاق بين المتآمرين على أن يغزو شرلمان أسبانيا ، بينما يعمل الزعماء الساخطون على توجيه الجيش العربى إلى ثلاث جهات متباعدة . وكان من حسن طالع أمير قرطبة أن هذا الاتفاق الخطر لم يتم منه شىء ، فإن حلفاء شارلمان أخطئوا فى حُسبان الزمن ، ثم تنازعوا وصاحت صائحة الحرب بينهم . فلما اخترق شارلمان البُرت سنة ٧٧٧م (١٦١هـ) لم يجد ناصراً ولامعيناً ، فأخذ يحاصر سَرَقُسطة ، وبينما هو عند أسوارها ، إذ وصلت إليه الأخبار بأن

---

(١) هم : سليمان بن يقظان الأعرابى الكلبى حاكم برشلونة ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، وأبو الأسود بن يوسف .

« وتكند » عاد وأثار السكسون وتقدم بهم حتى وصل إلى كولون ، فلم يجد شارلمان بُداً من أن يعود أدراجه لحماية مملكته ، فاقتحم بجيشه شِعاب الجبال . وفى شِعْب رونْسْفال[1] نزلت بمؤخرته كارثة فادحة قضت عليها ، فإن البْشكنش ـ وقد أحرقت صدورهم العداوة القديمة الدائمة للإفرنج ـ وضعوا لهم كميناً فى أغوار صخور جبال ألبرت ، وانتظروا ، حتى إذا مرت مقدمة الجيش من الشِّعْب انقضوا على المؤخرة ، وكانت بطيئة السير محملة بالأثقال ، فأستأصلوا رجالها حتى لم يكد يفرّ منهم أحد من يد الموت .

ويقصّ علينا المؤرخون المسيحيون ما تقشعر له الأبدان من مذابح هذا اليوم . وذكروا أن المسلمين وفُرسانَ ليون تعاونوا على تحطيم جيش الإفرنج . وتصوِّر لنا أنشودة أسبانية كيف أن البطل برناردو كان يقود فرسان ليون فى مذبحة جيش الإفرنج فتقول :

مشــى بِرْنــاردُ فى جيشٍ خضمّ	يســوق إلــى الفَرنــج به أسودا
ليحمــى أرض أسبــانيا ويُعلى	شعــارَ «بــلاى» والشــرفَ التليدا
وإنّــا سادةُ الأحــرارِ لكن	رضينــا أن نكون له عبيدا
نتابــع ريشَ خُوذتــه ونمضى	قريبــاً كان يقصــد أو بعيداً
وعاهدنــاه أن نفنــى جميعاً	وأنّــا خيرُ من حفِــظ العهودا
أنُلقــى بالبنين لمستبدٍّ	يُطيح بهــم ويرهقهــم صَعودا
وبين ضلوعنــا قلــبٌ جرىء	يَمــدّ إلــى العــدا زنــداً شديداً؟
أيطمــعُ شارل أن يبقــى مليكاً	لعــرش ليون جبــاراً عنيداً؟
لقــد كذبــت أمــانيه فإنّا	سنحصــد جمعــه حتــى يبيدا
ويبقــى شعــب ألفونســو شريفاً	ويبقــى مُلك ألفونســو مجيدا

حارب العرب كتفاً إلى كتف لاستئصال الإفرنج ، مع أبطال ليون الذين أبَوْا أن ينضموا إلى أمير أستورياس فى خضوعه لشرلمان ، ويحدّثنا أبسيدو يُرْبِن فى تاريخه القصصى لشرلمان وأرلاندو «بهجوم ثلاثين ألفاً من العرب على جيشس المسيحيين ، وقد امتلئوا غضباً وحقداً . وكان المسيحيون مجهَدين يترنّحون للسقوط لطول ما قاتلوا من قبل ، فحصد المسلمون رجالهم ، ولم يُبقوا منهم على أحد ، فمنهم من نفَذت الرماح من

(١) يسميه العرب باب الشزرى .

أحشائه ، ومنهم من هشمته القضبان . ومنهم من طاح رأسهُ بالسيف ، ومنهم من سلخ حياً ، ومنهم من شنق فتدلّى من الأشجار» .

كانت المذبحة مفجعة ، ولم تمّح ذكرى هذا اليوم من أخيلة سكان هذه الجهة على طول الدهر ، حتى إن الجيش الإنجليزي حينما تعقب قواد نابليون فى شعب رونسفال سمع الناس يتغنون بالأنشودة القديمة التى قيلت فى هذه المعركة الطاحنة . وأخذ شعراء أسبانيا الُجوّالون يضيفون إليها كثيراً من الحوادث ، إن صدقاً وإن كذباً . ومن أشهر الأناشيد أنشودة أمير البحر جارينو ـ التى سمعها الدون كيشوت ، وشانكويانزا تُغَنّى بتوبوسو ـ وهى :

يا فرنسا قد كان يومُك حقاً	عند رونسيسفال يوماً عصيبا
كان بِرْنارْدُ فيه سيفاً فولّى	وسِناناً لشارلمان صليبا
وجرينو قد كبّلته قيودٌ	فهو يدعو فلا يلاقى مجيبا
حوله سبعة من العُرْب أبطا	لٌ يُرَى بينهم أسيراً غريبا

وهكذا تمضى الأنشودة ، فتقُصُّ علينا قصّة أسر جارينو ، ثم انتقامه بذبح آسره فى المبارزة ، ثم فراره إلى فرنسا .

وكان ممن ذُبحوا فى هذا اليوم الأيوم ، رولَنْد الشجاع : وهو من قوّاد شارلمان الأثنى عشر وقائد حدود بريتانى . وقد صوّره خيال الشعراء بطلاً فى قصة شارلمان ، ونسب إليه من أعمال الفروسيّة والشجاعة ما يتردّد العقل فى قبوله .

فقد قيل : إنه حارب طول اليوم ، وقذف بنفسه فى أشد مواقع المعركة التحاماً ، ضارباً بسيفه «ديور ندا» إلى اليمين وإلى الشمال ، ولكن شجاعته لم تغن عنه شيئاً ، ولم تكسبه المعركة ، فارتمى إلى الأرض جريحاً محاطاً برجاله وأخذ يجود بنفسه . ويقولون : إنه قبل أن يسلم الروح استل سيفه الأمين من قرابة ، وكان به ضنيناً ، يؤثر أن يفقد الذراع التى جردته على أن يفقده وشرع يقول :

«أيها الحسام الذى لم يماثله سيف فى بريقه وصفاء مائه ، وعظمته ولينه ، ثم فى قبضته العاجيّة البيضاء المزينة بصليب ذهبى فاخر ، فوقه تُفّاحة زبرجدية ، حُفِر بها اسم اللهّ الأقدس . لقد مُنحتَ مَضاءً ، واستأثرت بمزايا ليست فى سواك ، من ذا الذى سيشْهرك فى

المعارك بعدي؟! ومن هذا الذى سيكون لك صاحباً؟ فإن مالكك لا يُغلب ولا تُرهبه الأعداء، ولا تخيفه الأوهام. فإذا صحبك وصحبته معونة الله، حطّم المسلمين، وأعلى كلمة المسيح، وبلغ قمة المجد.

«يأيها السيف السعيد، يا أمضى المواضى، لقد عزَّ لك النديد والنظير، فإن القَيْن الذى طبعك لم يطبع لك أخاً، وإذا ضربتَ لم يستطع الفرارَ من ضربتك أحد» ثم ضرب به صخرة قسمته نصفين مخافة أن يسقط فى يد جبان أو مسلم. ثم نفخ بجُمْع قوّته فى بوقه الذى كان صوته يحطِّم الأبواق، حتى انفجرت أوداجه.

وأرســل بوقــه المحــزون صوتاً فردّد فونْتــرابيانُ صداه

ووصل الصوت إلى أذن شارلمان وهو فى معسكره على ثمـانية أميال، غير عالـم بالمصيبة التى حلّت بمؤخرة جيشه، وكاد الملك يهُمّ بنجدة صاحب البوق المستصرخ، لولا أن أحد الخونة أخبره بأن رولند ينفخ فى بوقه للصيد. وهكذا لم يُسعف شارلمان قائده الأمين، الذى فاظ بعد أن رتّل صلاته وأدى اعترافه. ثم أسرع بولْدوين إلى شارلمان ـ وكان من نبلاء فرنسا ـ وأخبره بما حاق بمؤخرة الجيش وبموت رولند وأوليفر. عندئذ حوّل الملك عنان فرسه وعاد بجيشه إلى رونسسفال، فرأى الجثث مبعثرة فى الميدان، ورأى جثة البطل ممددة على هيئة الصليب، وبوقه وسيفه المحطم إلى جانبه، فوقف يندبه فى حزن وأسى، وهو يردد الزفرات، ويُعْوِل إعوال الثُكالى، ويضـرب كفـاً بكف، وينتف لحيته، ويقول:

«يا يدى اليمنى، يا فخر الإفرنج، ويا سيف العدل، ويا رمحـاً لا يلين ودرعـاً لا تحطم، يا تُرْس الطمأنينة والسلام، يا حامى المسيحية وسوط عذاب الإسلام، يا حائط القساوسة، وصديق الأرامل واليتامى، يا أمين الرأى، ويا صادق الحـكم، ويا أشـرف قومك، ويا أشجع قائد لجيش، لِمَ تركتك هنا لتموت؟ كيف أراك ميتاً ولا أموت بعدك؟! لماذا تركتنى حزيناً وحيداً، وخلّفتنى ملكاً بائساً مسكيناً؟ ولكنـك رفعـت إلـى السمـاء، وأصبحت تسعد بصحبة الملائكة والشهداء».

وهكذا ظلّ شرلمان يُبكى رولند ويندبه طيلةً حياته، ثم أقام الجنود فى البقعة التى مات بها، وضمّخوا جسده بالبلسم والطيب، وسهر الجيش على حراسته يرتل الأدعية ويتلو

الأناشيد، ويوقد النيران على قمم الجبال حوله، ثم حمله الجنود معهم، واحتفلوا لدفنه كما يُحتفل للملوك. وهكذا انتهى هذا اليوم الأسود. . . .

حيث رُونْسِيسْفَــالُ كانت ... لِلفَرَنْــجِ الخُمْسِ لَحْدًا
أليفَــرْ لاَقَــى بهــا ... الحَتفَ ورُولنــدُ تَردَّى

ولم يُشِد التاريخُ بعمل قليل الشأن كما أشاد بهذه المعركة، حتى لقد جعلها منبعاً لأساطير البطولة وأناشيد الشعراء، فهي تِرْموبيلى[1] جبال البرت (البرانس) في التغنى بها وطول الحديث عنها، وإن لم يكن لها ذلك المجد، ولا هذا المغزى.

(١) ترموبيلى: شعب ضيق في بلاد اليونان، بين جبل أوتا والبحر، اشتهر بالدفاع اليائس الذى قام به ملك الأسبرطيين ليونيداس، ومعه ثلاثمائة جندى، حينما وثب جيش الفرس على اليونان فى سنة ٤٨٠ ق. م.

الأندلسيون

وضع انتصارُ شارل مارتل سنة ٧٣٣ م (١١٥ هـ) سداً أمام غزو المسلمين لأوربا، فلم يعودوا يفكرون فى دفع فتوحهم إلى الأمام، واتَّجهوا إلى توحيد المملكة التى افتتحوها وجمع أطرافها، وبعد أن وقعت الواقعة بجيش شارلمان، عاشوا فى بلادهم آمنين لا ينازعهم منازع مدة ثلاثمائة سنة. نعم إن أبناء القوط المنهزمين تمسكوا باستقلالهم فى المقاطعات الجبلية الشمالية، وأخذوا من آن لآن يستردون أجزاء من مملكتهم القديمة، ولكن هذه الغارات، وإن ضاقت بها صدور العرب، لم تكن إلى الآن خطراً عليهم، لأنهم كانوا يقطُنون القسم الأعظم من أسبانيا فى رخاء وبلهنية، ولم يتحقق خطر المقاطعات إلا فى القرن الحادى عشر.

وقبل الفاتحون أول الأمر الاعتراف باستقلال هذه المقاطعات، وعدّوا ذلك شراً لا بدّ منه، لأن انتزاعها من أيدى الأسبان كان يكلفهم دماء أغلى مما تستحق؛ فتركوا للمسيحيين جلِّيقيَّة (غاليسية)، وليون، وقَشْتالة، ومقاطعات غَسقونية، وقنعوا بأحسن قسم فى أسبانيا، وأرغموا المسيحيين على التمتع بمفاوز الشمال الموحشة الباردة، وصخوره القاسية الجافية، على ألاّ يطمحوا أو يمُدُّوا اعينهم إلى ما ينعَم به العرب، من الولايات الجنوبية والشرقية الدفيئة الخصيبة.

ومنذ نهاية القرن الثامن ـ حينما وقفت حدود مملكة العرب عند غاية، إلى أن زحف المسيحيون على ممالك الإسلام فى القرن الحادى عشر ـ كان الحدّ بين المسلمين

والمسيحيين على التقريب، عند امتداد شارات وادى الرمل[1]، التى تمتد فى اتجاهٍ شمالىّ شرقىّ من قُلُمْرِيّة فى البرتغال إلى سرقسطة، ويمكن أن يُعدّ نهر إبْرُه حداً تقريبياً. فكان المسلمون ينعمون بالسهول الخصبية لأنهار تاجُه، ووادى يانه، والوادى الكبير، وهو الاسم الذى سمّى به العرب هذا النهر لعظمه، وكانوا يملكون إلى جانب مدن الأندلس الشهيرة مزايا الثروة، ورواج التجارة، واعتدال الجوّ إلى غير ذلك مما اشتهر به هذا القسم من عهود الرومان. وهذا التقسيم طبيعىّ، فقد تميّز القسمان تميّزاً جغرافياً منذ القدم، لاختلاف أجوائهما، فالشمال موحش معرض للرياح الهُوج، والأمطار الهاطلة، والبرد الشديد، وهو على جودة بعض المروج والمراعى به، لا يصلح كثير من أراضيه للزراعة. أما الجنوب، وإن كان مهدداً بالرياح الحارة التى تهُب من إفريقية، فمزدهر، كثير المياه، صالح للزراعة. وبين القسمين مساحة واسعة، كان المسلمون ينتفعون بها على الرغم من أن ملكيتها كانت موضع شكّ وجدال، وأبغض العربُ وهم عشاق الشمس المتألقة هذه المساحة الباردة، فتركوها لقبائل البربر أصحاب طارق، وكان هؤلاء دائماً موضع زراية العرب الخُلّص الذين جنوا ثمرات الفتوح.

ملك المسلمون ثلثى شبه الجزيرة وسمّوها بالأندلس، وأنشئوا بها مملكة قرطبة العظيمة، التى كانت أعجوبة العصور الوسطى، والتى حملت وحدها فى الغرب شعلة الثقافة والمدنية مؤتلقة وهاجة، وقت أن كانت أوربا غارقة فى الجهالة البربرية، فريسة للشقاق والحروب.

ويجب ألاّ يجول ببال أحد أن العرب عاثوا فى البلاد أو خرّبوها بصنوف الإرهاق والظلم، كما فعل قُطعان المتوحشين قبلهم، فإن الأندلس لم تُحكم فى عهدٍ من عهودها بسماحة، وحكمة، كما حكمت فى عهد العرب الفاتحين.

وقد يسأل المرء نفسه دهشاً: من أين جاء لهؤلاء العرب كلُّ هذه المواهب السامية فى الإدارة والحكم؟ فقد جاءوا مباشرة من صحرائهم العربية ولم تترك لهم فتوحهم المتوالية من الزمن إلاّ قليلاً، لدراسة فنون سياسة الأمم المغلوبة. نعم إن بعض رجال دولتهم كانوا من اليونان والأسبان، ولكن هذا لا يُبطل العجب، لأنّ هؤلاء لو تُركوا

---

(١) الشارات: الجبال.

وحدهم، أو عملوا فى ميدان آخر بعيدٍ عن العرب، لعجزوا عن أن يكون لهم أمثال هذه النتائج الباهرة. وكلُّ ما هُيىء للعقول الأسبانية من القدرة الإدارية، لم يكف لجعل الحياة أيام دولة القوط محتملةً هنيئة، ولكن الأمة الأسبانية على النقيض من ذلك كانت فى ظلال حكم العرب راضية هانئة كما يمكن أن يرضى ويهنأ شعب مغلوب يحكمه غاصب، بل إنها كانت أسعد حالاً وأرخَى بالاً، مما كانت عليه حين كان حكامها القوط يدينون بدينها الذى تراءَوْا باسمه دون حقيقته فإن اختلاف الدين كان فى الحق أقلّ المصاعب التى لاقاها العرب فى أول حكمهم، وإن أصبح بعد ذلك مثار عنت واضطراب؛ لأن ميول الأسبانيين للمسيحية كانت لا تقل عن ميولهم للوثنية، فقد فَرَض عليهم قسطنطين المسيحية فرضاً، فبقى الناس متشبثين برومانيتهم، ولم يترك الدين فى نفوسهم إلا أثراً ضئيلاً، وهم فى الواقع لم يكونوا فى حاجة إلى دين جديد، بل كانوا فى أشد الحاجة إلى القدرة على أن يعيشوا حياتهم فى أمن ورغد. وقد منحهم ساداتهم المسلمون هذين.

وفى بُداءة الفتح، مرّ بالأندلس وقت قصير مضطرب، شوّهته حوادث الإحراق والقتل والمصادرة. غير أن حكام العرب أسرعوا إلى وقف كل ذلك، ورأت الرعية بعد أن استقرت الأمور فى نصابها أن حياتها على كل حال لم تكن أسوأ مما كانت عليه من قبل، ثم أخذ الناس بعد قليل يشعرون بأنهم أفادوا من تغيّر الحكم، فقد كان للأسبانيين أن يحتفظوا بشرائعهم وقضاتهم، وعُيّن لهم حكّام من أنفسهم يُديرون المقاطعات ويجمعون الضرائب ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف، وأصبح سكّان المدن لا يُكلّفون إلا الجزية والخراج - إن كانت لهم أرض تزرع - بعد أن كانوا فى عهد القوط يحملون وحدهم عبء الضرائب والأموال التى تُنفق على الدولة، وكانت الجزية متدرّجة على حسب منزلة المطالَبين بها: فكانت تبتدىء من أثنى عشر درهماً إلى ثمانية وأربعين فى العام، أو من نحو ثلاثة جنيهات إلى أثنى عشر، وقد قُسمت أثنى عشر قسطاً، يجبى قسط فى كل شهر للتخفيف عن الرعية، وقُصِرت الجزية على المخالفين فى الدين من النصارى واليهود. أما ضريبة الأراضى التى كانت تتفاوت على حسب قدرة إنتاج الأرض، فإنها فرضت بعدل ومساواة على النصارى واليهود والمسلمين جميعاً، ولم تمتدّ يد المسلمين فى الغالب إلى أملاك المدن والأهلين التى كانت لهم قبل الفتح، نعم إنّ أملاك الكنائس صودرت، وكذلك الأملاك التى فرّ أصحابها إلى جبال الشمال، ولكنّ العرب تركوا عبيد هذه الأراضى يعملون بها، على أن يؤدوا إلى ساداتهم نِسبة من الحاصل تتفاوت بين

الثلث وأربعة الأخماس، وعومل بعض المدن كماردة، وأريولة معاملة خاصة، وفازت من الفاتحين بخير الشروط: فاحتفظ السكان فيها ببضائعهم وأراضيهم، على أن تؤدّى إلى الحاكم إتاوة فى كل عام. ولم يكن المسيحيون على أسوإ الفروض ملزمين دفع ضرائب أكثر مما كان يدفع جيرانهم المسلمون، على أنهم قد ظفِروا بحق لم يكن لهم أيام ملوك القوط، فأصبحوا فى عهد الإسلام قادرين على نقل ملكية أراضيهم لغيرهم. أما التسامح الديني فلم يدع للأسبانيين سبباً للشكوى، فقد تركهم العرب يعبدون كما يشاءون من غير أن يضطهدوهم أو يلزموهم اعتناق عقيدة خاصة، كما كان يفعل القوط باليهود. وكانت الجزية كبيرة الفائدة لخزانة الدولة، حتى إنّ بعض أمراء قرطبة كانوا يميلون لتثبيط عزائم المتحمسين من المسلمين الذين أخذوا يدعون إلى الإسلام، لأنّ هذه الدعوة كانت تحرم الدولة منبعاً غزيراً من موارد جبايتها.

وكان من أثر هذه المعاملة وذلك التسامح، أن رضى المسيحيون بالنظام الجديد، واعترفوا فى صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الإفرنج أو القوط، حتى إن القساوسة أنفسهم لم يكونوا شديدى التألم لحكم العرب كما يدل على ذلك التاريخ المنسوب إلى (إيزيدور) الباجى[1] الذى كُتِب بقرطبة سنة ٧٥٤ م (١٣٧ هـ) فإنّ هذا الراهب الصالح لم يتحرّج من تدوين تلك الصلة غير الجائزة من زواج أرملة لذريق بابن موسى ابن نصير[2]. وأسطعُ الأدلة على رضا المسيحيين عن حكامهم الجُدُد، أن ثورة دينية واحدة لم تحدث فى خلال القرن الثامن.

أمّا فرح العبيد بما طرأ على نظام الحكم من التغيّر فقد كان عظيماً حقاً، بعد أن لاقوا من ضروب العسف والقسوة من القوط والرومان ما تقشعرّ له الأبدان، فإنّ الرّق فى رأى المسلمين الأخيار نظام إنسانى رفيق، حتى إنّ النبىﷺ حينما لم يجد بداً من الإبقاء على هذا النظام العتيق الذى يعارض مبادىء الإسلام بذل كل جهد فى تخفيف ويلاته فى كثير من الوصايا والأحاديث. فهو يقول فى الأرقاء: «إخوانكم خَوَلَكُم، جعلهم الله تحت

---

(١) يقال: إنه من قرطبة، ذكره دوزى فقال: إنه كان قسيساً ولكن كتابته لا تدل على سخط شديد فهو يروى مثلاً: أن امرأة الملك لذريق تزوجت بعبد العزيز ابن موسى بن نصير، ولا يجد فى ذلك إثماً كما كان يفعل غيره من القسيسين، ثم قال دوزى: إن كراهية إيزيدور للعرب إنما كانت لأنهم شعب غريب لا من أجل أعمالهم.

(٢) أغرته زوجة أن يلبس تاجاً فثار عليه العرب وقالوا إنه تنصر فقتلوه سنة ٩٨ هـ.

أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليُطعمه مما يأكل ، وليُلبسه مما يلبَس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإذا كلفتموهم فأعينوهم» وعن أبى مسعود الأنصارىّ قال: «كنتُ أضرب غلاماً لى فسمعت من خلفى صوتاً يقول: أعلم أبا مسعود: اللهُ أقدرُ عليك منك عليه. فالتفتُّ، فإذا هو رسول اللهّ ﷺ ، فقلت: يا رسول اللهّ ، هو حرّ لوجه اللهّ. فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار».

ولم يكن بين القُرَب التى يتقرّب بها المسلمون إلى اللهّ أجلُّ من إعتاق العبيد، وكثيراً ما حضّ النبى على تحريرهم، وقد جعلَ الإسلام إعتاقهم كفارة لبعض ما يُجترح من الذنوب.

سعِد العبيد بدخول العرب، وأصبحوا فى رقّ المسلمين بمنزلة صغار الزّراع، فتركهم ساداتهم أحراراً يزرعون الأرض كما يشاءون، على أن يؤدوا إليهم نصيباً من الغلة، لأنهم كانوا مشتغلين بالحروب، ولأنهم كانوا بطبيعتهم يأنفون من أعمال الفلاحة، أما عبيد المسيحيين الذين ظلّوا يائسين من التخلص من الرّق طول حياتهم: فقد مُهِّد أمامهم اليوم طريق إلى الحرية من أسهل الطرق وأهونها. فليس عليهم إلا أن يذهبوا إلى أقرب محتسِب أو قاض، وينطقوا أمامه بالشهادتين، فيصبحوا فى التوِّ أحراراً، فإن الحرية تتبع الإسلام، فليس عجيباً إذاً أن نجد العبيد الأسبانيين مسرعين إلى إعلان دينهم الجديد، ليتخلصوا من ربقة العبودية، ولم يبذل القساوسة فى الماضى إلا جهداً ضئيلاً لغرس المسيحية فى قلوب هؤلاء الأرقاء، فقد كان لديهم من العمل والإشراف على ضيعاتهم ثم من العناية الدينية بالنبلاء، ما صرفهم عن الاهتمام بهؤلاء الجهلاء، ثم إن الانتقال من مزيج من الوثنية والمسيحية، إلى إدراك ضعيف للإسلام، لم يكن صدمة شديدة للعقل المقلِّد. ولم يكن العبيد وحدهم هم الذين تسابقوا إلى الدين الجديد، فقد أسلم كثير من كبار الملاَّك والسَّراة، إمّا للفِرار من الجزية، وإما للمحافظة على ضياعهم، وإما لأن نفوسهم مالت مخلصة إلى الإسلام، وأحبت ما فى التوحيد من جلال ويسر. وكان هؤلاء الداخلون فى الإسلام أو المتسلمون[1]، سبباً لإثارة القلاقل فى الدولة كما سيتلى عليك بعد، فإن إسلامهم وإن تضمن مساواتهم بالمسلمين، لم يصل بهم إلى

(١) تسلم: دخل فى الإسلام. يقال كان كافراً فتسلم، ومؤلفو تاريخ الأندلس يسمون من دخل فى الإسلام: إسلامياً.

التمتع بحقوق المسلمين وميزاتهم كاملة، فقد حيل بينهم وبين مناصب الدولة، ونُظِر إليهم نظرة اشتباه وحذر كما ينظر إلى من يبيع نفسه رخيصة يريد عرض الحياة الدنيا. وقد زالت هذه الفروق فى النهاية، ولكن بعد أن أحدثت نزاعاً خطيراً، وثورات متعاقبة.

كان فتح العرب للأندلس فى جملته نعمة ورخاء على الأندلسيين المحكومين، لأنه أبطل ما كان يملكه كبار النبلاء ورجال الكنيسة من الضياع الواسعة، وحوّلها ملكيات صغيرة، ثم رفع عبء الضرائب عن الطبقة الوسطى، واقتصر منها على الجزية على غير المسلمين، والخراج على المسلمين وسواهم، ثم حث على تحرير العبيد والرفق بهم، وإصلاح أحوالهم فأصبحوا زراعاً مستقلين فى خدمة ساداتهم المسلمين.

وكان الفتح على النقيض من ذلك شراً وبلاء على الحاكمين، فليس هناك أبعدُ شططاً من أن تتخيّل أن العرب الذين انتشروا بهذه السرعة، فوق نصف العالم المتمدين، كانوا متحدين على أى معنى مقبول من معانى الاتحاد. فإن ذلك لم يكن صحيحاً، وقد بذل محمد جهده، وكدّ بكل ما أوتى من حكمة وحزم وشخصية مهيبة عجيبة، ليحافظ جهد المستطيع على صورة للوحدة العربية. لأن العرب كانوا شعوباً وقبائل، وكان بين هذه القبائل حروب وترات دامية استمرت طويلاً، وكان للنُعَرة القَبَلِيَّة التى لم تنطفىء شعلتها بعد الإسلام، أكبر سلطان على نفوسهم، ولو بقيت دولة الإسلام فى حدود بلاد العرب ولم تتجاوزها، ما بقى شك فى سرعة انتفاضها وزوالها، لكثرة ما كان يقع بين القبائل من التنافس والتحاسد. وقد تبع وفاة النبى ﷺ خروج عام من القبائل. والحقُّ أن الإسلام لم تثبت أركانه، ولم يصبح دين الدنيا، إلا حينما سلّح نفسه وأصبح ديناً محارباً، فنجا من الانتكاس بتوالى انتصاراته، لأن العرب إذ ذاك ألقوا إلى حين تحاسدهم المدمِّر القاتل جانباً، ليتعاونوا فى اقتناص الغنائم. على أنه من المحقق أن تحمّسهم للفتوح كان يوجّجه عنصر قوى من التعصب للدين، والرغبة فى نشره. فقد حاربوا لأنهم يقاتلون أعداء الله ورسوله، وحاربوا لأن مثوبة الشهداء وكئوس السعادة والنعيم، كانت تنتظر من يقتلون فى سبيل الله. غير أننا لا نستطيع أن ننكر أن ثروة القياصرة والأكاسرة، والأراضى الخصبة، والمدن العامرة فى الممالك المجاورة - كانت عاملاً كبيراً فى تحمس المسلمين لنشر الإسلام.

وحينما استقرّ لهم الملك وهدأت موجة الفتوح، عادت إليهم الشحناء، وتحرّكت

فيهم عقارب الحسد والغيرة والتفريق ، التى كانت استلّتها جَلَبة الحروب وغنائم الفاتحين ، فانطلقت بعد احتباسها منذرة بالشرّ والدمار، فإن روح العنصرية القبلية انتشر فى كل جزء من أجزاء المملكة التى أخضعوها، وتأثّر به الخلفاء بدمشق ، فكان تعيين الأمراء فى الولايات يتبع هذه النزعة القبلية ، وكان اختلاف القبائل وتعصبها بالأندلس داعية لكثير من الفوضى واضطراب الأمن والنظام ، فى أثناء الخمسين سنة الأولى من حكم العرب ، حينما كان حاكم إفريقية أو الخليفة نفسه يعيّن أمير الأندلس ، فكان هؤلاء الأمراء يبقون فى مناصبهم أو يعزلون أو يقتلون تبعاً لميول بعض العشائر والقبائل ، الذين كانوا يعارضون مرة فى أن يكون الأمير مَدَنياً ، ومرّة فى أن يكون قيسياً، وثالثة فى أن يكون يمنياً ، واستمرت هذه النُّعَرة تقذف سمومها طول مدة حكم العرب بالأندلس .

يضاف إلى ذلك ، أنّ الأندلس كان بها إلى جانب العشائر العربية المختلفة ، حزب آخر عظيم الخطر يجب أن يحسب له حساب ، فإن طارقاً لم يتمّ له فتح الجزيرة إلا بجيش جمهرتُه من البربر، لذلك أصبح هؤلاء عنصراً عظيم الشأن فى الحياة الجديدة ، ولم تكن أمة البربر ضعيفة خائرة كالأسبان الذين أصطبغوا بصبغة الرومان ، ولكنهم كانوا ممتلئين حياة وعزماً وإقداماً . وحينما غزا العرب بلادهم ، قاومهم عديد من قبائلهم الباسلة فى معاقلهم الجبلية ، وفى السهول الممتدّة من مصر إلى المحيط الأطلنطى ، مقاومة عنيدة كانت أشد عنفاً من مقاومة الفرس وجنود رومة المدربين . وكانوا يشبهون العرب فى كثير من الوجوه : فكان لهم قبائل كما كان لهؤلاء ، وكانت ميولهم السياسية ديمقراطية كالعرب ، غير أنهم كانوا يُجِلّون الأسر الشريفة إجلالاً ذهب بخطر الديمقراطية بين قوم جاهلين ، وكانت صفاتهم الحربية عربية فى أكثر مظاهرها ، واستمرّ القتال بين هذين الفريقين من الرعاة المنتجعين سبعين سنة ، حتى إذا تغلّب عليهم العرب فى النهاية كان هذا الفوز عن رضاً من البربر أكثر من أن يكون هزيمة محققة . فسمح البربر للأمير العربى أن يجعل دار حكمه قريبة من الساحل ، ولكنهم حتموا إبقاء حكومتهم القبلية ، للفصل فى شئونهم كما كانت ، وطلبوا أن يكونوا إخواناً خَوَلاً ولا عبيداً للفاتحين . واستمر هذا النظام الأجوف قائماً مدّة من الزمن ، وتسابق البربر إلى الإسلام ، وتحمّسوا له حماسة تفوق تحمسّ العرب أنفسهم ، وبعد قليل أصبحت بلادهم عُشاً للمذاهب الدينية المبتدعة ، التى بدّلت بالأصول الإسلامية الفطرية عناصرّ وهمية مثيرة للعواطف ، يدسّها أصحاب العقول البعيدة الخيال فى كل دين ، ووجد المبتدِعون بعد أن طُردوا من حظيرة الدين الحقّ ، فى عقول

السذّج من البربر أرضاً خصبة لإنماء مذاهبهم . وقديماً عُرِف البربر بسرعة قبولهم لما يُلقى عليهم من المذاهب الدينية ، وبشدَّة تأثرهم بها وتحمسهم لها ، ذلك التأثّر الذى ذهب بهم أفواجاً إلى اعتناق الإسلام ، والذى مكَّن طارقاً وأثنى عشر ألفاً منهم من فتح الأندلس . وقد استغلّ هذه السذاجة فى حركته السياسية الدينية زعيمُ المرابطين ، الذي قدِم إلى المغرب ليبثّ فى نفوس القوم نفوذاً أقوى من نفوذ رؤساء قبائلهم ، ويُخضعهم بسطوة فوق سطوة حاكمهم ، ولم يكن يحتاج هذا الزعيم إلى أكثر من كرامات زائفة ، ليسوق قطيعاً من المصدِّقين الدهشين إلى حظيرته .

وتحقق أحد حكام العرب من رواج هذا الدَّجْل بين قبائل البربر ، حين رآهم يخضعون لامرأة تَدّعِى الولاية ، وتؤيد دعواها بألاعيب من الشعوذة ، فأخذ يدرّب نفسه على مثل هذه الألاعيب حتى برع فى أساليب الحواة ، فنال من طاعة القوم واستسلامهم فوق ما كان يبتغى . ومثل هؤلاء يتبعون كل صائح ، ويستمعون لكل داع ، ويُسرعون خِفافاً إلى الثورات العنيفة التى يُشعلها زعيمهم بكلمة واحدة . وكان البربر سبباً لكل التطورات التي حدثت فى شمال إفريقية ، فإنهم أقاموا دولة الفاطميين ، ثم لحِقوا بجيوش المرابطين فسارت منتصرة الأعلام حتى ملكت بلاد البربر وأسبانيا ، ثم أسقطوا المرابطين وأحلّوا محلهم الموحدين .

وشرع البربر فى الأندلس منذ حكم العرب يناصبون الحكام العِداء ، وحدث أن أحد هؤلاء بالغ فى إرضاء ميوله بالتمتع والإغراق فى النعيم ، مرهقاً فى سبيل ذلك رعيته ، فأغضب ذلك العلماء والفقهاء ، فأثاروا البربر عليه ، فما كانت إلا لحظةً حتى هبّ للسلاح جميع سكان نصف الساحل الغربي لبحر الروم ، وحتى دُهِى العربُ بالأندلس بهزيمة نكراء ، وأقبل من الشام ثلاثون ألفاً من الجنود لاستعادة الولايات التى احتلّها البربر ، فحيل بين معظم هؤلاء ومن أنضم إليهم من العرب بإفريقية والذهاب إلى الأندلس ، وأعمل فيهم البربر السيف ذبحاً وتقتيلاً ، وفرت فلولهم إلى سبتة بأرواحهم ، فكان يهدّدهم فى كل لحظة عَدوّان من الجوع والقتل .

وتأثر بربر الأندلس بوثيق اتصالهم بإخوانهم فى الساحل الإفريقي بهذه الثورة ، التى قامت بإفريقية سنة ٧٤١ م (١٢٤ هـ) وكان يتغلغل فى نفوسهم حسد قديم للعرب ، لأنهم نالوا نصيب الأسد من غنائم أسبانيا التى لم تدن قطوفها إلا بقسىّ البربر ورماحهم . ورأوا

أن العرب الذين لم يدخلوا البلاد إلا وقت اجتناء ثمرات الفتح اختصوا أنفسهم بكل الولايات الخصبة الباسمة من شبه الجزيرة، وتركوا لهم أبغض الأجزاء إلى النفس: من سهول استرامادور العُفْر، وجبال ليون الثلجية. فأقاموا بها مرغمين في جو قارس لا يحتمله من عاش في حرّ إفريقية، ثم إنهم رأوا أنفسهم في وضع يجعلهم دائماً حامية دفاع بين حلفائهم العرب ونصارى الشمال.

تأثر البربر بكل هذا. وقام مونوساً البربري - أحد قوّاد طارق الذي تزوج بنت يوديس دوق أقيتانية - فأشعل نار الثورة لما أصاب إخوانه بإفريقية من الظلم، وبعد أن فاز بربر إفريقية بمطالبهم، هبّت ثورة عامة في الولايات الشمالية بأسبانيا، وحمل السلاح بربر غاليسية، وماردة، وقُورِيَة، وتقدموا للهجوم على طليطلة، وقرطبة، والجزيرة الخضراء، وصمموا على أن يُبحروا منها إلى إفريقية للاتصال بأبناء وطنهم.

وكان الموقف شديد الخطر عصيباً، وجد فيه عبد الملك بن قَطَن الفهري[1] أمير الأندلس نفسه أمام مشكلة تكاد تستعصي على الحلّ، لأنه كان قد أبى ان يمدّ يد المساعدة لجنود الشام بسبتة، فأصبح الآن أمام أمرين، أحلاهما مرّ وخيرهما شر: إمّا ان يخضع للبربر العصاة، وإمّا أن يستجدي معونة جنود الشام، الذين رفض معاونتهم، والذين قد يكونون إذا أذِن لهم بنزول الأندلس، أشدَّ بلاءً وشراً من هؤلاء الذين جاءوا لطردهم. ولكنه صمم آخر الأمر على إرسال سفن لنقل جنود الشام، بعد ان أخذ عليهم عهداً أن يعودوا من حيث أتوا بعد التغلب على البربر، وبعد أن قوِي جيش العرب بهذا المدد، كرّ على البربر، فاستأصل شأفتهم، ثم تعقبهم في كل مكان وبين معاقلهم الجبلية، كما يتعقب الصائد الوحوش الضارية، حتى شفى نفسه بنيل الثأر منهم.

غير أنّ الخطر الذي أراد عبد الملك أن يتوقاه ظهر وأبدى ناجذيه، فقد أبى جنود الشام أن يستبدلوا بالمروج الخضر والحدائق الفيح بالأندلس، صحراء إفريقية قاحلة، حيث تنوشهم رماح البربر المتغلبين، فتحدّوا عبد الملك وقتلوه، واختاروا للأندلس أميراً منهم[2]، وكان من نتائج ذلك: أن شبّ بين العرب القدماء والجنود الداخلين صراع عنيف

(١) ولي الأندلس سنة ١١٤ هـ ٧٣٢ م. ثم عزل عنها ذميماً وقتل وصلب سنة ١٢٣ هـ ٧٤١ م.
(٢) هو بلج بن بشر الذي قتله عبد الرحمن بن علقمة سنة ١٢٤ هـ ٧٤٢ م بعد أن حكم أحد عشر شهراً.

طويل المدى، كثرت فيه المذابح، وعمّ الدمار، ولم ينته هذا الصراع إلا بعد أن أرسل الخليفة بدمَشْق اميراً[1] قديراً فرّق بين القبائل المتطاحنة بإعطاء كل من الفريقين مدناً تبعد عن مدن الآخر، ثم بنفى أكثر زعماء الفريقين عناداً وشغْباً: فنزل المصريون الذين كانوا بجند الشام مُرسية وسموها مصر، ونزل الفلسطينيون شَذونة، وحلّ أهل الأردُن بمالَقة، وأقام الدمشقيون بغَرناطة، واستقرّ أهل طفنُسْرِين بجيّان. وبهذا الوضع زال سبب من أسباب النزاع الحزبىّ بالأندلس، ولكنّ الروح القبلية لم تضعف سيطرتها بعد، وبقيت الثورات تتغلب على الحكومات، وتستبدّ بها، واستمرت الحال على هذا، حتى نزل الأندلسّ حاكم من طابَع جديد، سلاحُه الجلال والمهابة، يحمل بين جنبيه عزة الخلفاء الأمويين، وتجرى فى عروقه دماؤهم. قدِم إلى الأندلس ليحمل صولجان الحكم فى مملكة مضطربة، منحلّة الأواصر، وليجمع فى حِقبة من الزمن كلّ القبائل والعشائر تحت لواء أمير قرطبة.... هذا الشاب: هو الأمير الجديد الذي جاء شرلمان لقتاله فآب بالخيبة.... هذا الشاب: هو عبد الرحمن الأموى!!

(١) هو: أبو الخطار حسام، قدم الأندلس سنة ١٢٥ هـ ٧٤٣ م من قبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية.

الشاب الداخل

استمرّ الخلفاء يحكمون القسم الأعظم من المملكة الإسلامية ستة قرون، وكان هذا الحكم فى أول الأمر قوياً واسع السلطة، فكان الخليفة يعيّن أمراء الولايات ويعزلهم إن شاء ومتى شاء، من أسبانيا إلى حدود الهند.

ولكن المملكة وقد امتدت رُقعتها كانت أوسع من أن تجتمع أمداً طويلاً حول محور واحد، لذلك أخذ عدد من الأمراء فى الفينة بعد الفينة، يعمل مستقلاً مع إظهار الولاء الأكيد للخليفة، ومنحِه كل ما يجب من تشريف وتبجيل، إلاّ الطاعة. ودار الزمن دوراته، ففقد الخلفاء هذا التشريف وذلك التبجيل، ونبتت سلالات من الأمراء انتحلت مذاهب دينية مبتدعَة، فجحدت سلطة الخليفة الدينية وعدّته وعدت أبناءه من الغاصبين، ثم جاء زمن كانت سلطة الخلفاء الزمنية فيه أشبه بسلطة البابا بروما، فى الضعف والخور، حتى إنّ حرّاسهم المرتزقين الذين استأجروهم لحمايتهم من أعدائهم، كانوا يحبسونهم أحياناً فى قصورهم. وقد وقع شيء من ذلك بعد نحو ثلاثمائة سنة من ابتداء الخلافة. أما فيما بعد ذلك، فكان الخلفاء رمزاً قليل القيمة، يلعب به كبار أمراء المملكة كيف شاءوا، وكانوا لا ينالون شيئاً من الحفاوة إلا يوم توليتهم. ثم محا المغول فى القرن الثالث عشر الخلافة بآسيا، ولم يعد للمسلمين اليوم خليفة بالمعنى الصحيح، على الرغم من تمسك سلطان تركيا بهذا اللقب[1].

---

(١) المؤلف يكتب حوالى سنة ١٨٨٨ م ١٣٠٥ هـ.

وكانت الأندلس أول ولاية نفضت عنها سلطة الخليفة، ولكى نفهم هذا يجب أن نذكر أنّ الخلفاء لم يتبع بعضُهم بعضاً فى سلالة متصلة الوراثة، فبعد الخلفاء الراشدين: «أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلىّ» الذين نالوا الخلافة بقليل أو كثير من رغبة الأمة واختيارها ـ نصب أهل الشام معاويةَ خليفةً بدمَشق، فكان من نسله الخلفاء الأمويون، وكان عددهم: أربعة عشر حكموا من سنة ٦٦١ م (٤١ هـ) إلى سنة ٧٥٠ م (١٣٢ هـ) ثم أسقط السَّفَّاح دولتهم، فكان أولَ العباسيين، المنسوبين إلى جدهم العباس، عمّ النبى ﷺ. ونقل العباسيون مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد، واستمرّت خلافتهم حتى أسقطها المغول سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ).

وكان عبد الرحمن الداخل من الأسرة الأموية المغلوبة، التى طاردها العباسيون واستأصلوا شأفة أبنائها، وتتبعوهم فى كل نواحى الأرض يذبّحونهم بلا رحمة ولا هوادة، ففرّ عبد الرحمن[1] كما فرّ غيره، ولكنه كان سعيد الطالع، إذ وصل إلى شواطىء الفُرات سالماً بعد جهد وأيْن، وبينما كان ذات يوم جالساً فى خيمته يرقُب ابنه الصغير وهو يلعب فى فنائها، جرى إليه الصبىّ خائفاً مذعوراً، فخرج عبد الرحمن ليتعرّف سبب خوفه، فرأى القرية فى اضطراب، ورأى العلم العباسى الأسود يرفرف فى الأفق، فاجتذب ابنه فى عجلة وفرّ من القرية، ووصل إلى النهر فقذف بنفسه ومن معه فيه، واقترب الأعداء إلى شاطىء النهر وصاحوا بهم: أنْ لا بأس عليكم فلن يصيبكم منا أذى، فصدّقهم أخ له صغير كان معه ـ وكان قد أجهدته السباحة ـ فذهب إليهم فاحتزّوا رأسه فى التوّ والحين، ولكنّ عبد الرحمن طفِق يجاهد حاملاً ابنه ووراءه خادمه بدر، حتّى وصل إلى الشاطىء الآخر، فلما وُضعت أقدامهم على اليابسة أخذوا يسيرون ليلاً ونهاراً، حتى بلغوا إفريقية حيث تبعه بقية أهله هناك، وحيث وَجَدَ ذلك الناجى الوحيد من الأمراء الأمويين وقتاً للتفكير فيما يكون فى غده.

كانت سنّه إحدى وعشرين سنة، وكان كبير الأمل طموحاً، وكان يتحلّى إلى سداد الرأى بامتداد القامة، والوسامة، والقوة والشجاعة، ويُضيف بعض مؤرخى العرب إلى هذه الصفات ما لا نحب أن يتصف به بطلنا، كالعَوَر، والخَشَم[2]. وكان قومه يتحينون له

---

(١) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ولد سنة ١١٣ هـ بدير حنا من أعمال دمشق.

(٢) الخشم: فقدان حاسة الشم.

ملكاً بالمغرب، ويرون فيه علامات لذلك[1]، وهو الآن على الرغم مما أصاب قومه من الهلاك، قويّ العزيمة غير مستكين. وقد اتّجه نظره إلى إفريقية أولاً، لأنه رأى أن قوة العباسيين لم تدع له فرصة فى الشرق[2]، فلما بلغها بقى سنين هائماً على سواحل البربر، تحقق فى خلالها أنه لا يستطيع التغلّب على أمير إفريقية[3]، وأن ثوّار البربر فى المغرب لن يتخلّوا عن الاستقلال الجديد الذى نالوه، ليحظوا بالشرف الأجوف بتولية أحد الأمويين عليهم. عند ذلك حول نظره إلى الأندلس؛ حيث كان الصراع الدائم بين القبائل والعشائر المتنافسة جديراً بأن يفتح باباً لعبقريّ مثله، يؤيده النسب الأموى وتزكّيه الهمة العالية، لذلك أرسل خادمه بدراً إلى زعماء حزب الشام بأسبانيا، وكان بينهم كثير من موالى الأمويين الذين يوجب عليهم الشرف العربى نصر من ينتمى إلى ساداتهم الأولين، ورأى بدر من هؤلاء الزعماء رغبة فى استقبال الأمير الشاب، بعد أن فاوضوا القبائل المعادية من اليمن فوعدت بنُصرته، عندئذ عاد إلى إفريقية.

وكان عبد الرحمن يصلى على سيف البحر، حينما رأى السفينة التى تحمل خير الأخبار مقبلة إليه، وكان يميل إلى الأخذ بالفأل كجميع المشارقة الذين طُبعوا على التفاؤل والتطيُّر. واتفق أن أول رسول أندلسى قدم مع بدر كان اسمه أبا غالب تمّاماً. فلما عرف عبد الرحمن اسمه صاح: «تمّ أمرنا وغلبنا بحول الله وقوّته» ثم نزل إلى السفينة فأبحرت به إلى أسبانيا فى سبتمبر سنة ٧٥٥ م (١٣٨ هـ) وكان دخول هذا الناجى الفَذ من بين السلالة الأموية الأندلسَ، أشبهَ بصفحة من قصة عجيبة، وهو يشبه وصول الشاب الذى ادّعى مُلْك انجلترة إلى أسكتلندة سنة ١٧٤٥ م. وانتشر خبر دخوله الأندلس انتشار النار فى الهشيم، فتزاحم عليه المناصرون القدماء للدولة الأموية يقدّمون الطاعة، ووضع أبناء موالى الأمويين أنفسهم تحت أمره، وتأثّرت قبائل اليمن التى لم تكن تشعر بانعطاف

---

(١) فى نفح الطيب: دخل عبد الرحمن يوماً على جده هشام وعنده أخوه مسلمة، وكان عبد الرحمن صبياً فأمر هشام أن ينحى عنه، فقال له مسلمة: دعه يا أمير المؤمنين هذا صاحب بنى أمية ووزرهم عند زوال ملكهم فاستوص به خيراً.

(٢) ولأن أخواله كانوا من برابرة طرابلس.

(٣) هو عبد الرحمن بن حبيب الذى فر من الأندلس بعد دخول ابن الخطار، ووصل إلى المغرب وابتزع لنفسه إمارة به، وهو الذى قتل ابنى الوليد بن يزيد بن عبد الملك لما دخلا إفريقية.

نحو الأمير الشاب، بحماسة أنصاره، فانتقلت إليها العدوى، وعقدت الخناصر على البرّ بوعدها، وتواثقت على نُصرته.

ورأى أمير الأندلس معظم جنوده وقد انصرف عنه، فاضطر إلى انتظار جيش جديد، على أن الأمطار فى هذا الفصل من السنة جعلت القتال مستحيلاً. فترك ذلك لعبد الرحمن متّسعاً من الزمن يجمع فيه جنوده، ويدبّر أمره.

بدأ الصدام شديداً فى ربيع السنة التالية، واستُقْبِل عبدُ الرحمن بحماسة وترحاب، فى أَرْشُذُونة وإشْبِيلية، فأعدّ جيشه للهجوم على قرطبة، وزحف الأمير يوسف بن عبد الرحمن الفهرىّ لوقف تقدمه، ولكن الوادى الكبير كان فيّاضاً بماء المطر، فتسابق الجيشان على كلا شاطئيه، أيهما يكون أسبق وصولاً إلى قرطبة[1]. ولكن عبد الرحمن خدع يوسف بحيلة لا تليق بالأبطال، فطلب منه أن يتركه يجتاز النهر بعد أن هبط ماؤه ليعقد معه صلحاً، فلما وصل إلى الشاطىء الآخر انقضّ على جيش يوسف بعد أن وثق الأمير بوعده، فتغلّب عليه ودخل قرطبة ظافراً. وكان له من الهيبة والشهامة والنخوة، ما منع الجند من النهب والتخريب. وحمل نساءَ الأمير المهزوم وأسرته إلى مأمنها، ولم تمض السنة إلا وهو مسيطر على جميع ما احتازه المسلمون من أرض أسبانيا. وبهذا الإقدام النادر، وبهمّة عبد الرحمن، قُدِّر للدولة الأموية بقرطبة أن تستمرّ فى الحكم نحو ثلاثة قرون.

ولم يثبت أمير قرطبة الجديد فوق عرشه بغير جهاد أو نصب، فإن الذى أجلسه على العرش وذلل سبيله إليه، لم يكن إلا حزباً صغيراً من الأحزاب الكثيرة التى اقتسمت المملكة فيما بينها. غير أن عبد الرحمن كان أكثر استعداداً وأوسع حيلة من سواه، للاحتفاظ بملكه بين هذه العناصر المضطربة الشاغبة، فإنه كان سريعاً عند الخطب، قوى العزيمة غير متحرج إذا صمّم، شديد البطش، لا يرعَى إلاَّ ولاذمة، سياسياً داهية، أعدّ لكل مفاجأة عُدتها، وكثيراً ما دهمته الحوادث فرأت فيه بطلاً هماماً.

ولم يستقر بعرشه طويلاً حتى اجتاز العلاء بن مغيث من إفريقية ليرفع العلم العباسى بأسبانيا، ولم ينزل برجاله فى ولاية باجّة، حتى اتّخذ له مناصرين من بين الساخطين

(١) كان يوسف بالشاطىء الأيمن الذى تقع عليه قرطبة.

المستعدّين دائماً للانضمام إلى من يدعوهم لغُنم جديد، فحاصر عبدَ الرحمن شهرين في قَرْمونة، وكان هذا الحصار شديد الخطر، لأن كل يوم يمرّ فيه كان يحمل إلى الأعداء مدداً جديداً. ولكنّ عبد الرحمن كان عبقرياً، فما كاد يسمع أن الأعداء خففوا بعض التخفيف من مراقبتهم وحَذَرهم، حتى جمع سبعمائةٍ من أشجع أصحابه، ثم أوقد ناراً عظيمة وصاح فيهم: «إننا الآن بين حالين: فإما إلى نصر مؤزر وإمّا إلى موت محقق» ثم ألقى بقراب سيفه في اللهب. وتأثر رجاله، فألقوا بقُرُبهم في النار معه، معلنين أنهم لن يضعوا سيوفهم في أغمادها حتى يُفَكّ حصارهم ويصبحوا أحراراً، ثم انطلقوا خلف قائدهم، وانقضوا على محاصريهم بالأسنان والأظافر، فمُزِّق الجيش العباسي وذهب بدَدًا[1].

وأمر عبد الرحمن في إحدى نوبات قسوته التي شوّهت من سيرته، أن توضع رءوس قوادهم في جُوالق، وأن يُعلّق بكل أذن صك يرقم عليه اسم صاحبه، وأن يبعث بهذا الجُوالق مع أحد الحُجّاج ليوصّله إلى الخليفة المنصور نفسه. وذهب الحاجّ وبلغ حضرة المنصور وسلّم إليه الجُوالَق[2]. فلما رأى الخليفة ما به اشتدّ غضبه، واحتدم وجهه بالغيظ؛ ولكنه لم يستطع إلا أن يقول: «الحمد لله أن كان يفصل بيني وبين هذا الرجل بحر» وعلى الرغم من شدة ألم المنصور لفوز أمير قرطبة، لم يجد بداً من أن يُطري مهارته وشجاعته، حتى إنه سمّى عبد الرحمن: صقر قريش، وكان يقول: «لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مِراسه وقوّة أسبابه، فالشأنُ في أمر فتى قريش الأحْوَذيّ الفذّ في جميع شئونه، وعَدَمه لأهله ونشبه، وتسلّيه عن جميع ذلك ببعد مرقى همّته، ومَضاء عزيمته، حتّى قذف بنفسه في لجج المهالك لابتناء مجده، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع، عصبيّة الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوّة حيلته، واستمال قلوب رعيتها بسياسته، حتى انقاد له عَصيّهم، وذلّ له أبيّهم، فاستولى فيها على أريكته مَلِكاً على قضيته، قاهراً لأعدائه، حامياً لِذماره مانعاً لحَوْزته، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه . . . . . إن ذلك لهو الفتى كلُّ الفتى، لا يكذب مادحه».

وتوالت بعد هزيمة العباسيين انتصارات للأمير الجديد، فإنه أغرى أهل طليطلة

---

(١) لقى عبد الرحمن العلاء بالقرب من إشبلية وهزم جيشه وقبض عليه وقتله.

(٢) في نفح الطيب: وأنفذ بالجوالق تاجراً من ثقاته وأمره أن يضعه بمكة أيام الموسم ففعل، ووافق أن حج أبو جعفر هذا العام فوضعه على باب سرادقه.

الذين امتنعوا عليه طويلاً، بأن يعقدوا معه صلحاً، وأن يبعثوا إليه برؤسائهم. وما كاد يصل إليه هؤلاء الرؤساء، حتى صلبهم جميعاً. وكان رئيس اليمانية شديد الخطر، فمنحه عبد الرحمن الأمان، ثم استهواه إلى قصره، وحاول أن يقتله بنفسه فلم يستطع، لأن الرجل كان قوياً شديد الأسر، فدعا إليه بحرسه فقتلوه[1]. وبعد ذلك بقليل ثار البربر فى الشمال ثورة جامحة، فقضى عبد الرحمن عشر سنين فى كبح جماحهم وتذليل شِماسهم، وكانت نار الغضب لم تخمد بعدُ فى قلوب اليمانية لقتل رئيسهم، فهبّوا للثأر، واغتنموا غيْبة الأمير فى الشمال، وكانوا يجهلون نشاط الرجل ودهاءه ومكره، فإنّه بعد أن أطفأ ثورة البربر فى الشمال وأذلّهم ببثّ الفتنة بينهم، أخذ يعمل للتفريق بين اليانية، فخدع البربر الذين كانوا قِوام جيشهم، ومنّاهم الأمانىّ، فتركوا القتال عند اشتداده، فانقضّ بجيوشه على اليمنيين فاستأصلهم، وقتل منهم ثلاثين ألفاً، دفنوا جميعاً فى قبرٍ عظيم بقى الناس يزورونه مدّة من الزمان. ثمّ تلت هذه المعركةَ المعاهدةُ المنذرة بالخطر، التى عقدها شرلمان مع ثلاثة من زعماء العرب الساخطين، والتى كادت تدمّر الصّرْح الذى بناه عبد الرحمن بعد جَهد وآلام. ولكن هذه المعاهدة لم تتمّ، وانحلّ عَقْدها فى معارك سَرَقُسْطة، ورونْسيسْفال، من غير أن يضرب فيها الرجل الذى اجتمعوا لسحقه ضربة واحدة.

ومنذ ذلك الحين أخذ الأمير ينعم فيما يشبه السلم بثمرات جهاده وانتصاره، فقد أخضع بعزيمته الفولاذية كلَّ العناصر المعادية له بأسبانيا، وأسقط كلَّ زعيم صَلِفٍ أصيدَ جرؤ على أن يستلّ لحربه سيفاً، وقتل وذبح قوّاد البربر، وأثبت غير منازَع أنه سيّد الموقف، ولكنّ ظلماً قاسياً ناكثاً للعهد كظلم عبد الرحمن، لا بدّ أن يجرّ وراءه عقابه وآلامه، فإن الظالم قد يستطيع إخضاع قومه ولكنّه لن يستطيع أن يفوز بإخلاصهم، والمُلْك الذى يُنال بالسيف لا يبقى إلا بالسيف، فقد نفر الناس من الأمير الأموى بعد أن تجرّعوا مرارة حكمه، وأبى الأمناء من رجال الدولة أن يدخلوا فى خدمة رجل خدّاع فتّاك مثله، وانصرف عنه أنصاره الأولون الذين آزروه ورحّبوا بمقدمه، حينما رأوا ظلمه صارخاً، وقسوته

---

(١) هو أبو الصباح اليحصبى وكان قد ولاه إشبيلية، وحقد عليه عبد الرحمن ما بلغه عنه يوم هزيمة يوسف الفهرى أنه قال: يا معشر يمن. هل لكم إلى فتحين في يوم؟ فقد فرغنا من يوسف والصميل فلنقتل هذا الفتى المقدامة ابن معاوية فيصير الأمر لنا. وقتل عبد الرحمن أيضاً الصميل بن حاتم سيد المضرية.

مهتوكة الأستار، ودبّر له المكايدَ مرّة بعد أخرى أهلُه الأقربون، الذين احتموا بقصره من العباسيين، لِما ظهر لهم من عسفه الذى لا يطاق، ففقدوا فى سبيل ذلك رءوسهم[1].

نبذ الناس عبد الرحمن فبقى وحيداً محزوناً. هجره أصدقاؤه، ويئس منه أعداؤه فصبّوا عليه لعناتهم، ونصب له الحبائل أهله وخدامه.

وقد تكون حروبه الطويلة للقبائل قد أفسدت طبيعته العربية السمحة، وقد يكون قد فُطِر هكذا على أخلاق شرسة لا تلين، فهو الآن لا يستطيع أن يندمج كعادته فى زحام شوارع قرطبة، وإذا مرّ بهذه الشوارع فإنما يمرّ راكباً محاطاً بحرّاس أقوياء من الغرباء، مشتبهاً فى كل شىء، ومتّهماً كلَّ إنسان، تنتابه أفكار مظلمة، وتزعجه ذكريات الدماء، فكان له أربعون ألف حارس من مرتزقة البربر، يحمونه من أعدائه الذين سحقهم تحت قدميه، وكان إخلاص هؤلاء الحراس المأجورين لمولاهم يعادل بغضهم لجميع الأهلين، الذين أذلّهم سيّدهم وألصق آنافهم بالتراب.

وقد نظم عبد الرحمن فى وَحْدته هذه قصيدةً يناجى فيها نخلة نقلها من أرض أجداده وغرسها بالأندلس، لأنه كان يقول الشعر، وهو فى أبياته يحنو على النخلة فى منفاها ويقول:

تبـدت لنـا بين الرُّصافـة نخلةٌ ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلتُ: شبيهى فى التغرّب والنوى ... وطولِ ابتعادى عن بَنِىّ وعن أهلى

نشـأتِ بأرضٍ أنـتِ فيهـا غريبةٌ ... فمثُلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى

أدرك الغرض الذى سعى إليه فى ميعة طموحه، فأخضع العرب والبربر، وأعاد إلى الملك عدلاً ونظاماً، ولكنه كسب كل هذا فخسر قلوب رعيته.

فوارحمتا لذلك الفتى الوسيم الذى دخل الأندلس بطلاً مقداماً ففاز بطاعة أهلها وإخلاصهم، ثم وارحمتا له وهو يدلف إلى قبره بعد اثنتين وثلاثين سنة، بغيضاً جبّاراً، يحمى عرشه الملطخ بالدماء بسيوف المرتزقة، الذين يبيعون إخلاصهم بالذهب. لقد حكم أسبانيا بالسّيف، وعلى خلفائه أن يَجْرُوا على هذا السَّنن.

---

(1) قتل عبد الرحمن من أقاربه عبد السلام بن يزيد بن هشام، وابنى أخيه عبيد الله بن أبان بن معاوية والمغيرة بن الوليد بن معاوية، ونفى أخاه الوليد وخادمه بدراً الذى ذلل له الطريق إلى الأندلس.

وقد رأى أكبر مؤرخ للأندلس: «أنه كان من الصعب على عبد الرحمن أن يسلك سبيلاً أخرى لتوطيد الحكم بين مشاغبى العرب والبربر، وأنه لم تكن لديه وسيلة لاجتثاث الفوضى إلا أن يقابل هذه الفوضى بالشدة والعسف، لأن كلا الفريقين لم يعتد الحكم المنظّم».

ومهما يكن من شيء فإن استمرار ظلم كهذا يخلق جواً من الحزن واليأس على الرغم من بهجة الانتصارات التى تُشِعّ فى جوانبه.

وقد أعطانا ابن حيّان ـ وهو مؤرخ قديم للأندلس ـ صورة لأمير قرطبة فقال:

«كان عبد الرحمن راجح الحلم، واسع العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة، لا يخلُد إلى راحة، ولا يسكن إلى دَعة، ولا يكِلِ الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد فى إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً، بعيد الغور، شديد الحدّة، قليل الطمأنينة بليغاً مفوّهاً، شاعراً محسناً، سمحاً سخياً، طلْق اللسان. وكان يلبَس البياض ويعتّم به ويؤثره، وكان قد أُعطِى هيبةً من وليّه وعدوّه؟ وكان يحضُر الجنائز ويصلّى عليها، ويصلّى بالناس إذا كان حاضر الجُمَع والأعياد، ويخطب على المنبر، ويعودِ المرضى، ويكثر مباشرة الناس والمشى بينهم».

هذا هو بلا شك عبد الرحمن الشابُّ، قبل أن تجعله المقاومة والدسائس قاسياً جافياً كثير الفزع والشكوك، وللقوّة دائماً طرق مروّعة فى عقاب أصحابها.

وكلما مات ملك جبار تساءل الناس: من يخلفه؟ والجواب العام فى مثل تلك الحال هو: ثورة وفوضى. إن العرش الذى يثبت على رءوس الحراب لا ينتقل فى سهولة من الأب إلى الولد. ومع هذا لم تسقط دولة عبد الرحمن بموت مؤسسها المستبدّ، وكان من المتوقع أن تثور القبائل المناجزة التى كبح جماحها بمشقة وجهد، بعد أن أُطلقت من عقالها بموته، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، لأن الرعب الذى غرسه فى قلوبهم كان شديداً، فلم يستطيعوا أن يتخلصوا من هوله، أو لأنهم رأوا فى ولىّ عهده أميراً محبوباً يتحلّى بصفات تضادّ صفات أبيه. فقد كان هشام الذى تولّى الملك بعده سنة ٧٨٨ م ـ ١٧٢ هـ، وهو فى الثلاثين من عمره ـ مثالاً لجميع الفضائل. وزاده ميلاً إلى عمل الخير وبذل العناية فى الإصلاح، ما تكهّن له به أحد المنجمين من أن ما بقى من عمره لا يزيد على ثمانى سنوات، لذلك تفرّغ الأمير فى هذه المدة القصيرة للاستعداد للدار الأخرى، وكان

قصره فى أيام نشأته الأولى يموج بالعلماء والشعراء والحكماء، فأثرت فيه هذه النشأة، والولد كما يقولون أبو الوالد. وكان له من أعمال التقوى والصلاح ما لا يُحصر عداً، ورأى فى حماه الغاضبون والمضطهدون معقِلاً وملاذاً، وكان يُرسل من يثق به من الوعّاظ والدُّعاة إلى جميع أجزاء مملكته للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعيَّن بالمدن عَسَساً لمنع الشجار وارتكاب الجرائم، ورأى أن تقسم الغرامات المفروضة على الأشرار بين الأتقياء الذين لا يمنعهم مطر أو برد من غشيان المساجد، وكان يعود المرضى، وكثيراً ما كان يخرج فى الليالى العاصفة وهو يحمل الطعام لمريض من الزهّاد، حتى إذا بلغ داره جلس بجانب فراشه يراعيه ويرعاه، ثم هو مع كل هذا لم يكن جباناً ولا زُمّيْلا، بل كان يقود جيشه بنفسه لمحاربة نصارى الشمال، كما يفعل العربى الصميم. ولَقبه الناس بالشفيق، وبالعادل، لسهولة خليقته، ولكنه كان إذا جدّ الجد، وهددت ملكه مؤامرات أعمامه، ثابت العزم قاسياً لا يلين وزاد فى عدد حرسه من المماليك، فكان يقف منهم على شاطىء النهر ألف فارس لحراسة قصره ليلاً ونهاراً، وكان بارعاً فى الصيد، شديد التحرّج من الشبهات: سمع بعد أن أعاد بناء قنطرة قرطبة الباقية إلى اليوم: أن الناس يهمسون بأنه إنما أقام هذا البناء العظيم ليسهل عليه الوصول إلى الصيد، فأقسم ألا يعبر القنطرة مرة أخرى، وقد برّ فى قسمه. وقبل أن تمر ثماني السنوات، اختاره الله إلى جواره تقياً نقياً(١).

وإذا نبت الشر من الخير، فإن أعمال هذا الملك الخيّرة كانت أكبر حافز على إثارة عامل جديد للثورة والعصيان بالأندلس. ونشأ هذا الخطر الجديد من السلطة التى وضعت فى أيدى الفقهاء والعلماء، وقد سميناهم بقساوسة الإسلام ـ وإن لم يكن هذا الاسم صحيحاً ـ لأن الإسلام لا يعرف هذه الطائفة بالمعنى الدقيق الذى تريده المسيحية الكاثوليكية، فليس المسلمون الذين يؤدون الصلاة فى المساجد، ويخطبون الناس يوم الجمعة إلا قوماً عاديّين، يُؤخذون من متاجرهم أو غيرها من الأعمال، ويُطلب إليهم فى أىّ وقت أن يؤموا المصلين، فالدين الإسلامى لا يفرّق بين رجل الدين وغيره، على أن بالإسلام شيئاً يقرب قليلاً أو كثيراً مما يقصد من معنى الكهنوت، فإن بالممالك الإسلامية دائماً قوماً تجردوا للدين وخصّصوا حياتهم به، قد يكونون دراويش لهم مذهب دينىّ خاص، أو طلاب شريعة وفقه، أو أتباعاً لإمام مشهور يتحمّسون لمذهبه ويذودون دونه،

---

(١) توفى سنة ١٨٠ هـ.

وقد يكونون من حفظة القرآن الكريم أو شيوخاً يلقُنون الناس العلم، نجد هذه الطائفة فى كل أقطار الإسلام، وهى طائفة يخشى جانبها فى كل مملكة، فطالما أظهر شيوخ الأزهر بالقاهرة وطائفة الصوفطة[1] بالقسطنطينية والمولويّة فى كثير من مدن الشرق ـ ما للحماسة الدينيّة من الشأن فى أوقات الاضطراب. واليوم أخذت تظهر هذه الثُّغرة بالأندلس خطيرةً منذرة بالسوء.

وتأجّج أول عصيان بعد موت عبد الرحمن من حيث لا يُرتقب. لم يحدث من المسيحيين، ولم يحدث من قبائل العرب وعشائر البربر، وإنما حدث من أبناء الإسلام المخلصين . . . حدث من فقهاء قرطبة. وكان معظم هؤلاء الفقهاء من المتسلّمين أو أبنائهم، وقد ذكرنا آنفاً أنّ الأسبانيين أسلموا برغبة وحماسة فأصبحوا كشأن كل داخل فى دين جديد أكثر تعصباً من المسلمين أنفسهم، وكان عبد الرحمن أبعد نظراً وأكثر علماً بالحياة من أن يسمح لهؤلاء الفقهاء ـ وبخاصة الأسبانيون منهم، بنفوذ له وزن أو قيمة، ولكن التقىّ هشاماً لم ير الخطر الذى كان يخشاه أبوه، ولو رآه ما عدّه خطراً، فكان يميل إلى وضع ثقته فى رجال الدين المحافظين عليه، المتبعين طريقه، الذين لم ير فى أعمالهم بادرة ميل إلى الدنيا أو حب للظهور، وكان على رأس الفقهاء فى هذا الحين رجل عبقرىّ المواهب وافر العقل، كان تلميذاً محبوباً لأحد أئمة المدينة المنورة[2]، وقد تملّك نفسه من الحماسة الدينية والطموح السياسى مزيج طالما جرّ الممالك إلى الخراب، هذا الشيخ هو يحيى بن يحيى الليثى[3] الذى رأى فى إخلاص هشام وتقواه فرصة لرفع الفقهاء بقرطبة إلى قمّةٍ من القوة والنفوذ، لو علم بها عبد الرحمن الداهية لتفزّز فى قبره. وكانت الأمور تسير سيراً حسناً ما نالت هذه الطائفة رغباتها. غير أنّه فى سنة ٧٩٦ م (١٨٠ هـ) بعد أن انتقل هشام إلى رحمة ربه، طرأ على قصر الخلافة تغيّر عظيم. لم يكن الأمير الجديد «الحكَم» قليل الاهتمام بالدين أو خليعاً مُستهتِراً، ولكنه كان مرحاً يحب الحياة ويتمتع بها كلما أقبلت عليه، ليس به صفة من صفات الزهد والتقشف، وكانت هذه الأخلاق وأشباهها

---

(١) أصل الكلمة بالتركية سوختة ومعناها: المحترق، وتطلق على المتصوف المحترق من وجده وشوقه إلى ثواب الآخرة.

(٢) هو الإمام مالك بن أنس.

(٣) يقال إن أصله من بربر مصمودة، رحل إلى الإمام مالك وأخذ عنه العلم، وانتهت إليه الرياسة فى الفقه والحديث بالأندلس، مات سنة ٢٢٤ هـ.

بغيضة إلى المتزمّتين، فانطلقوا يتحدثون بمثالب الأمير فى ذُعر وإشفاق ويدعون له بالمغفرة والتوبة، ثم تجاوزوا الحدّ فسبوه فى وجهه وصبّوا عليه اللعنات، ولما يئسوا من إصلاحه تآمروا على عزله، وإجلاس آخر من أسرته مكانه، ولكنّ المؤامرة خابت، وكان جزاء المتآمرين أن صُلِب الأمراء الذين اشتركوا فى المؤامرة وبعضُ الفقهاء المتعصبين، وقد كان يكون مثل هذا كافياً، لولا أن الفقهاء عادوا إلى الثورة، فعاد الأمير إلى إطفائها باستئصال مشعليها، ولكن القرطبيين لم يرعووا بعد كل هذا، وبقيت مراجل الثورة تغلى فى قلوبهم، ولم يُرعبهم ما سمعوه ممّا أصاب زعماء طليطلة الذين أظهروا العصيان كعادتهم، والذين استدرجهم ولىُّ العهد بالحيلة والخديعة، حتى إذا قبض عليهم أفناهم ذبحاً وتقتيلا.

بقيت ذكرى يوم الخندق «الذى سميت به مذبحة طليطلة» كابحة جِماح المتعصبين والمشاغبين فى قرطبة سبع سنين، ولما نَصَلَت ذكرى ذلك الخندق المخيف الذى قُذِف فيه بجثث زعماء طليطلة، شرعت الفتنة تُطلُّ برءوسها فى قصبة الأندلس، ولم يزدد بغض الأهلين للأمير لأنه أبَى أن يلبَس الخشن من الثياب، وأبَى أن يتراءى بالزهد والتقوى أمام أمته، بل كان يتّجه هذا البغض أكثرَ ما يتّجه إلى مماليك الأمير الذين كانوا يدعون «بالْخُرس» سُمّوا بذلك لأنهم كانوا من الزنوج وأشباههم الذين كانوا لا يستطيعون التكلم بالعربية، وكان هؤلاء الزنوج لا يجرؤون على السير فى شوارع المدينة إلا جماعات، لشدة كراهية الناس لهم وتحفّزهم لإيذائهم، وإذا خرج جندىّ وحده كان عرضة للضرب أو القتل، وحدث يوماً أن ضرب أحد هؤلاء الجنود بعضَ العامة فثارت ثورتهم جميعاً، وهجموا بقلب رجل واحد على القصر، يقودهم آلاف من الفقهاء الذين كانوا يسكنون الرَّبَض الجنوبى لقرطبة، وصاح الشر بينهم وطاشت عقولهم، وصمّموا على أن يقتحموا القصر على الرغم من حصونه وحرّاسه، فأطلّ الحكم من إحدى النوافذ، فرأى بحراً زاخراً من الوجوه، وأبصر والدهشُ يملأ نفسه شدّة مكافحة العامة لهجمات فُرسانه، ولكنه لم يفقد هدوءه فى هذه الساعة المحفوفة بالمخاطر، وتلك ميزة العظماء، وشِنْشِنة النسب الكريم، فعاد إلى بهوه، وأمر خادمه الخاص أنْ يحضر له قارورة الغالية، وأخذ فى تؤدة وثبات يضمّخ رأسه ولحيته، ولم يستطع فتاه يزنت أن يكتم عجبه من فعل سيده وهو يسمع تهشيم الشّعب المفترس للأبواب، فقال: أهذا وقت الغالية يا مولاى؟! ولكنّ الحكم قاطعه قائلاً: اسكت أيها الغِرّ. كيف تتصوّر أن يتعرّف العصاة رأسى بين بقية الرءوس إذا

لم يتميز بريحه الخطِرة؟! ثم نادى قوّاده وشرع فى اتخاذ الوسائل للدفاع، وكانت هذه الوسائل غاية في السهولة وقوة الأثر: فقد أرسل ابنَ عمّ له مع بعض الفُرسان من طريق خلفيّة إلى الرَّبَض، فأشعل فيه النار، فلما رآها المشاغبون غادروا القصر، وأسرعوا فى ذُعر وفزع لإنقاذ زوجاتهم وأطفالهم من اللهيب، فانقضّ الحكم وحراسه على مؤخرتهم، ووقع العصاة بين قوّتين فحُطِّموا تحطيماً، وجال بينهم «الخرس» يقتلون بالمئات، ولا يستجيبون إلى توسلاتهم وصياحهم المؤلم بطلب الرحمة، وانتهت الثورة بمذبحة عامة، ونجّى الحكم بهذه الضربة القاصمة قصره وسلالته.

وكان الأمير كريماً، فقبض يده عن الإيذاء بعد انتصاره، ولم يجاوز به الحد، واكتفى بهدم دور العصاة بالرَّبض ونفيهم، فرحل بعضهم إلى الاسكندرية وكانوا نحو خمسة عشر ألفاً غير النساء والأطفال، وبعد أن أقاموا بها قليلاً أبحروا منها إلى إقْريطِش (كريت) ورحل ثمانية آلاف إلى (فاس) وكانت جمهرة هؤلاء المنفيين من أبناء الأسبانيين المتسلّمين، الذين كانوا يرحبون بكل فرصة يُظهرون فيها بغضهم لحكم العرب، وتُرك الفقهاء وهم أسّ العصيان والثورة بلا عقاب، إمّا لأن كثيراً منهم من أصل عربي، وإمّا لمنزلتهم الدينية، وقد جُرّ أحد زعمائهم إلى القصر جرّاً، فصارح الحكم فى حدّة غضبه وتعصّبه بأنه ببغضه للأمير إنما يطيع أمر الله. فأجابه الحكم جوابه المأثور إذ قال: إن الذى أمرك - كما تزعم - ببغضى أمرنى بالعفو عنك. إذهب فى رعاية الله.

النَصارى الشُهَدَاء

مات الحكم فى سنة ٨٢٢ م ـ ٢٠٧ هـ. بعد أن قضى فى الحكم ستاً وعشرين سنة، ترك وراءها الملك هادئاً بعض الهدوء لابنه عبد الرحمن الأوسط، فقد أُخضِعَ المتسلّمون فى قرطبة بالسيف ثم نُفوا، وتلقّى المتزمّتون من الفقهاء درساً لا ينسى، ولم يبق إلا إطفاء الإضطراب الدائم على التخوم المسيحية. وورث عبد الرحمن الأوسط ميل أبيه إلى التمتع باللذات والاستنامة إلى النعيم، ولكنه لم يرث منه قوة الخلق التى تحوط هذا التمتع وتلك الاستنامة من أن تكون ضعفاً[1]، فقد أغرق فى اللهو، وحوّل قرطبة إلى بغداد ثانية، وأخذ يحاكى إسراف هارون الرشيد الذى كان قد انتقل من عهد قريب من عالَم الدنيا، ومن مشاهد لهوه ومسرّاته، إلى عالم نأمُل أن يكون خيراً له وأبقى[2].

بنى عبد الرحمن القصور، وغرس الحدائق، وجمّل مدينته بالمساجد والقناطر، وأولع بالشعر كغيره من ملوك الإسلام المثقفين، وكان يرى أن شعره لا يقلّ فى منزلته عن شعر المجيدين، وإن زعم بعض المؤرخين أن كثيراً منه كان من أقلام غيره، وكان الأمير نقىّ الذوق، ليّن الخلق، سهل القياد، ملك زمامَه طول حياته أربعةٌ نالوا عنده الحُظْوة الكاملة، وهم: مغنٍّ، وفقيه، وامرأة، وعبد أسود، وكان أشدَّ هؤلاء تسلُّطاً عليه الفقيهُ يحيى بن الليثى، وهو هو نفسه الذى أثار الفقهاء على أبيه الحكم، ولكنه أصبح اليوم

(١) فى أخبار مجموعة: وكان الأمير الحكم شجاعاً حازماً مظفراً فى حروبه، أطفأ نيران الفتن بالأندلس وكسر قرون النفاق، ثم روى أخباراً تدل على شدته وحزمه فى توطيد دعائم الملك.

(٢) مات الرشيد بطوس سنة ١٩٣ هـ (٨٠٨ م).

صاحب التأثير المطلق والكلمة التى لا تردّ لدى الأمير الجديد، وكانت للأميرة «طروب» وعبده «نصر» سلطة نافذة فى شئون الملك، أمّا «زِرْياب» المغنّى فإنه استغلّ حظْوته عند عبدالرحمن في إنهاض الفنون والثقافة، وأبى أن يزُجّ بنفسه فى أمور الدولة التى قد تكون سيئة المغبّة(١).

كان فارسياً، وكان تلميذاً لإسحاق الموصلى المغنّى المقدَّم ببغداد، فحدث ذات يوم لسوء طالعه، أن فاق أستاذه فى غناء صوت بحضرة الرشيد، فحنِق عليه إسحاق، وخيَّره بين الموت والنفى، فاختار النفى ورحل إلى الأندلس، فأحسن عبد الرحمن استقباله وبالغ فى إكرامه والإغداق عليه وقرّر له راتباً ضخماً، ووهب له الدور، وأدرّ عليه الأرزاق، ومنحه الكثير من الميزات والهدايا، حتى بلغ الذِّرْوة فى الجاه والثروة، وزاد إعجاب الملك بمواهبه، حتى إنه كان يُجلسه إلى جانبه ويؤاكله ويُنصت ساعاتٍ إلى غنائه، وإلى ما يقصّ عليه من أخبار الأولين، ومن الحكم والأمثال التى وعتها حافظته من قراءاته الكثيرة.

وكان يحفظ فى الغناء أكثر من ألف صوت ويقول: إن الجنّ تلقنه إيّاها، وهو الذى أضاف إلى العود وتراً خامساً، وكان فى ضربه العودَ منقطع النظير، يوشك من يستمع لضربه مرّةً، أن يأبى الإنصات إلى سواه، وكانت له طريقة غريبة مع المبتدئين من تلاميذه، فكان يأمر من يريد تعلّم الغناء أن يجلس ويغنّى بأعلى صوته، فإن كان ضعيف الصوت أمره أن يعقد حزاماً حول خصره ليزيد فى قوة صوته، فإذا كان ألصّ الأضراس لا يقدر أن يفتح فاه واسعاً، أو كانت عادته أن يزمّ أسنانه عند النطق، أمره أن يضع فى فمه قطعة خشب عدّة ليال حتى ينفرج فكّاه، فإن استطاع بعد ذلك أن يصيح بكلمة: آه. بأندى ما يكون من الصوت، وأن يستمر صوته بمثابة واحدة فى العلوّ، قَبِل أن يعلّمه ويمرّنه، وإلا أمره أن يذهب إلى حال سبيله. وبذ زرياب الناس جميعاً فى تهذيبه وفُكاهته وحسن محاضرته، فأصبح أشهر رجل بالأندلس، وتحكّم فى الأزياء والعادات كما كان يتحكم فيها «بيترونيس»(٢) و «برومل» الوسيم(٣)؛ من ذلك أنه أبطل عادة إعفاء الشعر وإسداله

---

(١) دخل الأندلس سنة ٢٠٦ هـ.

(٢) كاتب قصصى رومانى اشتهرت كتابته بالتبكيت والسخرية المستورة، وقد أعجب به نيرون ووصله بحاشيته.

(٣) هو جورج براين، إنجليزى اشتهر بابتداع الأزياء، ولد سنة ١٧٧٨ م ومات سنة ١٨٤٠ م.

مفروقاً إلى الحاجبين والصُّدغين، وأدخل بالأندلس بقلة الهِلْيَوْن (أسباراجس) وزاد في الأطعمة لوناً كانوا يسمونه بالنقايا، وهو يُصنع بماء الكزبرة مع السنبوسق والكباب، ولوناً آخر سمَّوه تقليّة زرياب، يطبخ فيه الدجاج أو الأرانب فى ماء كثرت به التوابل والأفاوية، وأبدل بالأكواب المعدنية الأكواب الزجاجية، وابتدع النوم على أسرّة من الجلد، وابتكر أن تكون أسمطة الطعام من جلد كذلك، إلى كثير من وسائل الرفاهية والنعيم، ثمّ إنّه أرشد الناس إلى التأنّق فى تغيير الملابس بحيث ينزل غلظها على التدريج، من أصفق الملابس فى زمهرير الشتاء، إلى أخفّها فى هجير الصيف، وكانوا يغيّرون ملابسهم مرّة عند الشتاء وأخرى عند الصيف. وقصارى القول: إنّ هذا الأبيقورى[1] المرح لم يبتدع شيئاً إلاّ رآه الأندلسيون ضرورياً جميلاً.

وبينما كان القصر ورجاله منهمكين فى تذوّق ألوان جديدة من الطعام، متأنقين فى قصّ شعرهم، كان فريق من أهل قرطبة يفكّر وينهمك فيما هو أعظم وأبعد أثراً، لأن الخطر فى هذا الحين لم يدهم الدولة من خارج حدودها، فإن عبدالرحمن الأوسط ـ على علاته ـ لم تُعوزه الشجاعة التى تدفعه إلى خوض معامع القتال، فكثيراً ما قاد الجيوش إلى نصارى الشمال الذين كانوا بزعامة لويس الجميل الخَلْق والخُلُق لا يفتأون يُغيرون على الحدود، وكثيراً ما حلّق النصر حول رايته[2]، على أن هذه المناوشات لم يكن لها الآن من الشأن والخطر ما يهزّ ركن الدولة الوطيد، فإن الاضطراب فى عهود الدولة الأولى لم يجىء إلا منها نفسها، وقد جاءت الزعازع فى هذه الأونة من عدد قليل من النصارى بقرطبة التهبت نفوسهم غيرة وتعصباً لدينهم، أمّا جمهرة النصارى بالأندلس فلم يصابوا بشىء من هذه الغيرة العنيفة، لأنهم رأوا أنهم يُعامَلون خير معاملة، وأن المسلمين قد تركوهم أحراراً فيما يعبدون، وأن الحكام لا يتدخّلون فى شىء من عقائدهم، وأنهم يتجرّون كما أرادوا، ويجمعون الثروة حيثما وجدوها، وأنهم يعيشون كما يعيش أخوانهم المسلمون، فما الذى بقى لهم من أمانيهم؟ لا شيء. اللهّم إلاّ إذا كانوا يتطلّعون إلى استرجاع ملكهم، وشىء من هذا يعدُّ الآن من المستحيلات، فقنِعوا بالأمور كما هى، واجتهدوا أن

(١) نسبة إلى أبيقور أحد فلاسفة اليونان ومذهبه: أن خير ما فى الحياة التمتع بالحياة.

(٢) فى أخبار مجموعة: أنه غزا ماردة سبعة أعوام ولاء، فلما اشتد عليها الحصار فى العام السابع وسمع صراخ النساء وعويل الأطفال أمر برفع الحصار عنها إبقاء على الولدان ومن لا ذنب له، ولم ينتقل إلا محلة حتى أتته رسلهم بطاعتهم والإلقاء إليه بأيديهم.

يستفيدوا من سماحة حكامهم ولينهم.

كان هذا الميل عاماً بين نصارى الأندلس، وإن ظهر هنا وهناك روحٌ طموح متحمّس أغاظه هذا الخنوع لحكم المسلمين، وطافت بخيال أصحابه أطياف من قوّتهم الماضية وعلوّ شأن الكنيسة، ولم يستطع القساوسة أن يكبحوا جِمَاح بغضهم للمسلمين الذين سلبوهم عزّهم وسلطانهم، وأبدلوا بالنصرانية ديناً جديداً. ومن العجب أنّ تسامح المسلمين كان يزيد فى سخط النفوس المتعصبة، فلقد كان أصحاب هذه النفوس يؤثرون أن يُعذَّبوا وأن يُضطهدوا كما اضطُهد القديسون من قبل، وكانوا يتشوّقون إلى الاستشهاد تشوّق الظمآن إلى الماء الفرات، وينقِمون من المسلمين أنهم «لم يعذّبوهم فى سبيل دعوتهم الحقة» حتى يضمنوا لأنفسهم الفوز فى جنات النعيم. وكان أشدّ ما يكره هؤلاء المتشدّدون المتزمّتون، ما شُغِف به العرب من التمتع بلذائذ الحياة، والإغراق فى اللهو والسرور، والعيش فى ظلال الرَّفه والنعيم، فكان تمتعهم بالحياة وزينتها، وحبّهم للغناء والموسيقى، وولوعهم بالعلوم من أكبر ما يُثير بغض هؤلاء الزهّاد وحقدهم. فإن حياة المؤمن الحق عندهم، يجب أن تكون سوط عذاب، وصوماً متصلاً، وتوبة وبكاء، وتطهيراً بالآلام، وإماتة للجسد فى سبيل إحياء الروح. واكتفى هؤلاء أولَ الأمر بإظهار جانب الزهادة المسيحية والتحرّج بين الأهلين، ولكنّ الأيام دارت دورتها، ونشأ فى المسيحية جيل جديد، فإذا تحمُّس مفاجىء عميق الغور يأخذ مكان التهاون القديم، وإذا حُمَّى حب الموت والاستشهاد فى سبيل المسيحية تظهر فى كل مكان.

وكان من المحزن المستدرّ للرحمة حقاً أن ترى رجالاً يقذفون بأرواحهم وأرواح غيرهم فى سبيل حُلْم كاذب، فإنّ هذا الانتحار الدينى لم يكن أكثر تعقلاً أو أدْخَل فى باب الدين، مما كان يقاسيه قساوسة «بال» الذين كانوا يقطعون أجسامهم بالسكاكين، أو مما كان يفعله زهّاد الهنود، الذين كانوا يدخلون أظفارهم فى راحهم ثم يتركونها لتنمو فيها. وجُنون الشهداء فى سبيل أشرفَ وأعلى من سبيل هؤلاء، لن يجعلهم أقلّ منهم جنوناً... إن المسيحية لا تعلِّم دُعاتها أن يطوّحوا بحياتهم هَدَراً لمحض التمتع بالتعذيب والقتل، على أن نصارى الأندلس لم يُضطَهدوا، ولم يَحُل بينهم وبين شعائر دينهم حائل، ولم يكن المسلمون يجهلون المسيحية أو يحتاجون إلى من يلقنهم تعاليمها، فقد كانوا يعرفون من الكتاب المقدس أكثر مما يعرف نصارى الأندلس أنفسهم، وكانوا لا يذكرون اسم عيسى من غير أن يُتْبعوه بالصلاة والتسليم، لأن قدسية المسيح، وإحاطة اسمه بالإجلال

والتبجيل، من أظهر مبادىء الإسلام. وكلُّ ما فى الأمر أن المسلمين كانوا يُؤثرون دينهم. فلم يكن للنصارى من عذر فى الظهور بمظهر المضطهدين المستذلّين، بعد أن ترك لهم المسلمون دينهم. وفى الحق إننا لا نجد سبباً معقولاً لتهافت النصارى على الموت، ما دام المسلمون قد سمحوا لهم بإقامة شعائرهم، وأجازوا لهم أن يعظوا وأن يعلّموا من غير عائق أو حائل.

ليس هناك من علة مشروعة لبحث هؤلاء عن حتفهم بظِلْفهم، إلا إذا أرادوا أن يتنكّبوا عمداً طريق الإنجيل، وأن ينبذوا جانباً تعاليم المسيح الذى يقول: «أحبّوا أعداءكم. اعملوا الخير لمن يُبغضكم. واستغفروا لمن يظلْمونكم أو يضطهدونكم». إنهم لم يُظْلَمُوا ولم يُضطهدوا، ولم يمسّ المسلمون جمهرة النصارى بسوء. نعم إن بعض العامة كان يسخَر أحياناً من القساوسة، ولكن طبقات المسلمين الأخرى لم تشترك فى شىء من هذا. مع كل هذا التسامح وهذا العطف واللين، أبى هؤلاء النصارى المساكين أن يحبوا أعداءهم، وتجاوزوا جادّة الصواب فى سبّهم ولعنهم، وإثارة غضبهم، لا لشىء إلاَّ لحملهم على قتلهم ليموتوا شهداء فى سبيل الدين.

ومن الأحكام المعروفة فى بلاد المسلمين: أن يُعاقب من يسبُّ النبىّ أو دينه بالقتل... نعم إنه حكم شديد قاس، ولكن الدنيا شهدت من القوانين ما لا يقلّ عنه قسوة وشدّة، فقد كان الناس يُحرقون بين صيحات السرور فى اسمثفيلد وأكسفورد فى عصور تلى هذا العصر الذى نكتب فيه[1].

ليس من المسيحية أن تثير عمداً عراكاً دينياً أو تسب ديناً غير دينك، وليس استشهاداً بل انتحاراً أن تتعدى مختاراً حدود شريعة يجرُّ تعديها إلى الموت. إن الرحمة التي تثير نفوسنا لشهداء قرطبة، هى بعينها الرحمة التي تخالجنا لمن أُصيبوا بالخُبَاط (الهيستريا) لأن من قُتل منهم كان فى الحقيقة شهيداً لمرض نفسى، وحالُ هذا تستدعى من الرحمة ما يستدعيه موتُ المستشهد فى سبيل الدين.

كان يولوجيوس الروحَ المثيرة لهذه الانتحارات: وهو قسيس ينتمى إلى أسرة عريقة بقرطبة، اشتهر بحماسته الدينية، فقد قضى سنوات فى الصوم والصلوات والإنابة وتعذيب

(١) كثر إحراق الأشخاص لمذهبهم الديني بانجلترة بعد دخول البروتستنتية أيام هنري الثامن وابنه إدوارد وابنته ماري.

النفس، حتى وصل إلى حالٍ من الذهول، دفعته في سبيل إخلاصه لدينه إلى الجُرْأة والتهور، وعزف به الزهد عن الميل إلى الحياة الدنيا، فلم يفكّر يوماً في نفسه، ولم يطمح إلى مأرب دنيوى، بل كانت كل أمانيه ومقاصده أن يصبّ اللعناتِ على دين المسلمين، وأن يوقظ روح التضحية السامية بين النصارى. وأعانه على الوصول إلى غايته شاب غنيّ بقرطبة يدعى «الفارو» ثم عدد قليل من متحمسى القساوسة والرهبان والنساء والمسيحيين، وكان بين من أُعْجبوا بهذا القسيس الشاب المخلص، فتاة على غاية من الجمال تدعى «فلورا» كان أبوها مسلماً وأمها نصرانية، فنشأتها سراً على النصرانية، وبقيت فلورا عدة سنين مسلمة فى ظاهر أحوالها، ولكنها فرّت بعد ذلك إلى دار أخيها، وكان أبوها قد فارق الحياة، والتجأت إلى النصارى متأثرة بروح التضحية والتعصب التى أثارها يولوجيوس فى سامعيه، وبما سمعت من بعض فِقْراتٍ فى الكتاب المقدس هاجت شعورها مثل: «إن الذى يجحدنى أمام الناس سأجحَده أمام أبى فى السماء». ولما افتقدها أخوها المسلم، بحث عنها فى كل مكان فلم يُجد بحثه شيئاً فاتهم القساوسة فقُذِف كثير منهم فى السجن لتآمرهم على اختطافها، ولما لم تُرِدْ فلورا أن يؤذى أحد فى سبيلها، عادت إلى دارها وأعلنت نصرانيتها فى صراحة وجُرْأة، وبذل أخوها أشد الوسائل وأعنفها لقسرها على العودة إلى الإسلام فلم يُفْلح، حتى إذا يئس فى النهاية ساقها إلى القاضى متهماً إياها بالردّة، ومن المقرر أن الإسلام يُعدّ ابن المسلم مسلماً وإن كانت أمه نصرانية، ويعاقب على الردة بالقتل، ولا يزال هذا الحكم قائماً إلى اليوم بتركيا، وإن تغافل الحكام عن تنفيذه من أربعين سنة.

ولن يُنتظَر من عرب الأندلس الذين سبقوا عهد الترك بألف سنة أن يكونوا أكثر تسامحاً من الترك نحو المرتدين، ومع هذا أظهر القاضى الذى حضرت أمامه فلورا بعض الشفقة على الفتاة التعِسة، فلم يحكم بقتلها كما يوجب الدين، ولم يحكم بسجنها، ولكنه أمر بها فضربت ضرباً شديداً، وطلب من أخيها أن يأخذها إلى داره، ويلقّنها تعاليم الإسلام، ولكنها فرت ثانية والتجأت إلى بعض أصدقائها، وهناك قابلت أولَ مرةٍ يولوجيوس، الذى أكنّ لهذه الفتاة الجميلة البائسة المخلصة حباً طاهراً حَنّاناً يشبه الملائكة. فإن سمو نفسها وورعها وشجاعتها التي لا تُغلب جعلتها قدّيسة فى عينيه، حتى إنه بعد ست سنوات من هذه المقابلة لم ينس ما تركته فى نفسه من الأثر حينما كتب إليها:

«لقد تفضلتِ أيتها الأخت القديسة أن ترينى عنقك وقد مزقته السياط، وقد قص

الظّلَمةُ من حوله تلك الخُصَل الجميلة، التي كانت تتدلّى فوقه كأسلاك الذهب.٠. . فعلت ذلك لأنك عددتنى أباً روحانياً، واعتقدتِ أن نفسى كنفسك صافية طاهرة، وقد وضعت يدى برفق على هذه الجروح، ووددْت أن أبرئها بشفتىّ لو استطعت. . .

وحينما فارقتُك كنت كمن يمشى فى حُلْم، واستمرت زفراتى وتأوهاتى».

نقلت فلورا مع أخت لها تماثلها فى الرأي والتعصب، إلى مكان خفى أمين، فلم يرها يولوجيوس فترة من الزمن.

وفى هذه الأثناء كان تعصب النصارى بقرطبة قد نضجت ثمرته، فقد أُغْرِم قسيس مختبل هو برفكيوس بسَبّ الإسلام، فأخذ وشنق فى عيد الفطر حينما كان المسلمون رجالاً ونساء يحتفلون بهذا اليوم، وينعمون فيه بكل ما يبعث الابتهاج والسرور، وقد زاد شنقُ هذا القسيس فى مرح الحشود التى زحمت الشوارع أو ركبت القوارب فى النهر، أو لعبت بالسهل الفسيح خارج المدينة.

مات هذا القسيس المسكين شجاعاً، مرسلاً آخر أنفاسه بسبّ النبى ودينه، محاطاً بزحام عظيم من المسلمين الساخرين الشامتين، وجاء أسقف قرطبة ووراءه جيش من القساوسة والمخلصين، فحمل جثته ودفنها مع آثار القديس اسيسكلوس من شهداء ديوكلتيان، وكان برفكيوس واعظاً بكنيسته، ثم خَلَع عليه لقب القديس، وفى مساء ذلك اليوم غرق مسلمان فعُدّ ذلك غضباً من الله لقتل برفكيوس، ومات نصر العبد الأسود فى أثناء السنة وكان مشرفاً على تنفيذ الإعدام، فزعم المسيحيون فى شماتة بأن برفكيوس هو الذى قضى عليه، وأن موته كان انتقاماً آخر. وطلب بعد ذلك بقليل راهب يدعى إسحاق مقابلة القاضى، بحجة أنه يريد الدخول فى الإسلام فأذن له، وما كاد القاضى ينتهى من شرح مبادىء الإسلام وأصوله، حتى انبرى له ذلك الذى جاء ليتسلّم، وأخذ يصبّ على الإسلام أقذر الشتائم والسباب، فلم يكن عجيباً من القاضى ـ وقد أخذته الدهشة ـ أن صفعه على قفاه ثم قال: أتعلم أن ديننا يأمر بقتل كل من يجرؤ على أن يقول ما قلت؟! فأجاب الراهب: نعم أعلم ذلك، فاحكم على بالقتل فإننى أتشوق إليه، لأننى أعلم أن الله يقول: «ما أسعد الذين يُضطهدون فى سبيل الحق، إن لهؤلاء مملكة السماء» حزن القاضى للرجل، وألح على الأمير أن يتجاهل ذنبه فلم يُفْلح، وقُطِع رأس إسحاق فأصبح قديساً. وكان المسيحيون عامة ينسبون إليه كثيراً من الخوارق، ويدّعون أن هذه الخوارق

لم تظهر منذ طفولته فحسب، بل ظهرت من قبل أن يولد! .

ثم ظهر بعد ذلك سانشو (شانجة)، أحد حراس الأمير، وكان تلميذاً ليولوجيوس فسب محمداً وفقد رأسه. وفي يوم الأحد التالي أسرع ستة من الرهبان إلى مجلس القاضي وصاحوا: إنَّ رأينا كرأى أخوينا القديسين إسحاق وسانشو فاقتلنا. ثم أخذوا يسبون محمداً ويصرخون بالقاضي: انتقم لسيدك محمد، وعاملنا بكل ما لديك من وحشية، فقطعت رؤوسهم. وتقدم يوم القصاص من هؤلاء ثلاثة من القساوسة أو الرهبان أصيبوا بحمى الانتحار فقدموا أعناقهم إلى الجلاد مغتبطين، وهكذا قتل أحد عشر رجلاً في أقل من شهرين في صيف سنة ٨٥١ م (٢٣٧ هـ).

أخذت الدهشة جمهور المسيحيين من تعصب إخوانهم الطائش، إذ لم يكن يعرف عن الأسبانيين شيء من هذا التحمس حتى هذا الحين، فقد مسّتهم المسيحية مساً خفيفاً، حتى إن الكثير منهم هُرعوا إلى الاسلام راغبين راضين، فامتزج الدينان وعاش الفريقان في خلطة وصداقة وحسن معاملة، وأخذ النصارى يبغضون لغتهم اللاتينية القديمة ويصدفون عن آدابها، فتعلموا العربية واستطاعوا بعد حين أن يكتبوا بها كما يكتب العرب أنفسهم، وقد ندّد يولوجيوس نفسه بهذه الحال إذ يقول: «إن النصارى يولعون بقصائد الشعر العربي وقصصه، ويهجرون الكتاب المقدس وآثار القديسين، ومما يوجب الحزن والأسى، أن الجيل الناشىء لا يعرف غير العربية، فهو يقرأ كتب المسلمين بشغف، وينشيء لها الخزائن، ويراها جديرة بالإعجاب، في حين أنه يبخل بنظرة إلى كتاب مسيحى» ثم يقول: «لقد نسى النصارى لغتهم، ومن العسير أن نجد واحداً منهم في كل ألف يكتب حرفاً لاتينياً كتابة سائغة، وهم مع هذا يستطيعون أن ينظموا شعراً عربياً رائعاً» وفي الحق إن النصارى وجدوا في قصص العربية وشعرها متعة ألهتهم عما كتبه آباء الكنيسة، وكانوا يتدرجون إلى الإستعراب ويقتربون من العرب شيئاً فشيئاً، حتى أصبحوا أعظم مدنية وأتم صقلاً وأكثر تهاوناً بالفروق الدينية، وكانوا يشكرون للعرب رفقهم بهم وحسن معاملتهم إياهم، إلى أن صدمهم العداء الفجائي الذى أظهره إخوانهم المتعصبون، فحاولوا جهدهم صد تلك العاصفة الهوجاء قبل هبوبها، وأخذوا يصارحون إخوانهم بعقم ما يعملون، ويجادلونهم ويذكّرونهم بسماحة المسلمين ولينهم، وينبهونهم على ما جاء في الكتاب المقدس من الدعوة إلى الرفق والسلام، فإن من آياته: «لا يدخل

الشتّامون العيّابون مملكة السماء» ويحدثونهم بأن المسلمين لا يأبهون لمن يقتل من المسيحيين، لأنهم يرون أن دينهم لو كان حقاً لانتقم الله لشهدائه.

كان هذا رأى جمهور المسيحيين الذين لم تسيطر عليهم وساوس التعصّب، والذين لم يروا فى الدنيا خيراً من أن يحسنوا إلى جيرانهم، وأن يؤدّوا صلواتهم فى هدوء وسلام. وهؤلاء حاولوا جهد المستميت أن يردوا من جماح المتعصبين فلم يفلحوا، وخافوا مغبّة الأمر، لأنهم أدركوا أن استمرار الطعن فى الإسلام وما يتبعه من عقاب متوال، سيؤدى حتماً إلى اضطهاد حقيقى للمسيحيين، ولكن يولوجيوس الذى نصب نفسه للردّ على كل ما اعترضوا به عليه مستدلّين بنصوص الكتاب المقدس، وكتاب حياة القديسين ـ كان يتمنى هذه العاقبة، وكان أمثاله من المتعصبين لا يرغبون فى شىء رغبتهم فى انتشار اضطهاد المسلمين للنصارى وتأجج ناره، غير أن سلطات الكنيسة أبت أن تسمح باستمرار روح العصيان من غير ردع، وكانت فى ذلك متأثرة بالفريق المعتدل وبسماحة الحكم العربى، فاجتمع الأساقفة فى مجلس يرأسه أسقف إشبيلية، وأصدروا قراراً خطيراً، لم يوجهوا فيه نقداً لحوادث الاستشهاد السابقة، لأن الكنيسة دوّنت أسماء أصحابها فى سجلّ الشهداء، ولكنهم أمروا أن يمنع كل شَغْب من هذا القبيل. وذاع هذا القرار بين الناس، وكان من أثره أن أُلقى المتعصبون فى غيابات السجون.

فى هذا الحين، التقى يولوجيوس بفلورا مرة ثانية: ذلك أنها بينما كانت تصلى فى الكنيسة بقنوت وخشية، إذ رأت إلى جانبها زميلة متعصبة: هى مارى أخت إسحاق الراهب، الذى لقى حتفه فى طليعة الشهداء، فأخبرتها مارى بشدة رغبتها فى اللحاق بأخيها بمملكة السماء، وعزمت فلورا أن ترافقها فى هذه الرحلة، فذهبتا إلى القاضى، وبذلتا ما فى وسعهما لإثارة غضبه بالإكثار من سبّ محمد ودينه. وكانتا فتاتين جميلتين، تدينان فى ورع وإخلاص بالدين الذى يدعو إلى «السّلام فى الأرض وبذل الخير والمحبة للناس» وقد وقفتا أمام القاضى وشفاههما تقذف بالحقد والسباب ونعت دينه بأنه من عمل الشيطان، ولكنهما لم تثيرا غضب هذا القاضى الكريم بالسهولة التى ظنتاها، فقد مجّت نفسه هذا الجنون الخُبْاطِىّ، وكثيراً ما تصامم حينما كان الناس يحاولون قذف أنفسهم إلى الموت، فأشفق على هاتين الفتاتين، وتمنّى لو كانتا أقل طيشاً وجنوناً، وحاول أن يقنعهما بالرجوع عن رأيهما، أو أن يتجاهل إقذاعهما، ولكن الفتاتين أصرتا على التمسك بما زعمتاه من بطولة وتضحية، فاضطر إلى إلقائهما فى السجن.

وقد أثّرت مدة السجن الطويلة فى الفتاتين أشد تأثير، فأوشكت أن تخفف من غُلَوائهما وأن تزحزحهما عن حماستهما القاتلة، لولا اتصالهما بيولوجيوس الذى قوّاهما وقضى عليهما.

ولقد كان عمله هذا أشقّ عمل فى الحياة، ذلك أنه كان يستحث إلى خشبة الجلاد المرأة التى أحبّها وسكنت سويداء قلبه، لأنه ـ على الرغم من كل شعور طبيعى أو إنسانى ـ راض نفسه على إثارة التعصب والنفخ فى نار الإستشهاد، وانغمس فى هذا العمل المضنى المؤلم دون أن يهن أو يضعف، لاعتقاده أنه السبيل الحق لنصرة الدين، حتى إنه كتب مقالاً رائعاً لفلورا يُقنعها فيه بجلال الاستشهاد وجماله الروحى، وما كانت فلورا فى حاجة إلى إقناع أو تحريض. واستمر ليلَه ونهاره يقرأ ويكتب، ليطرد من قلبه الشعور بالرحمة والحب اللذين كانا يهددان عزيمته بالتردد والخور، ولكنها كانت أثبت من الجبال.

وثبتت فلورا ومارى على عزمهما فلم تتحولا عنه، على الرغم مما بذله القاضى من جهود لإنقاذهما، فحكم عليهما بالموت، وقبل أن يحكم عليهما قابل يولوجيوس فلورا آخر مرة، وقد كتب عن هذا اللقاء فخوراً بهذا الفوز الروحى: «لقد تصورتها ملكاً كريماً، وقد أحاطت بها هالة قدسيّة وأشع وجهها بالسعادة والفوز، كأنما كانت تحسّ بمباهج جنات النعيم، ولقد حاولت حينما سمعت الكلمات التى تحدرت من فمها العذب، أن أثبّت إيمانها، فأريتها التاج الذى أُعد لاستشهادها. لقد عبدتها وجثوت أمام هذا الملك السماوىّ، ثم رجوتها أن تذكرنى فى صلواتها، وحينما بعث حديثها فى نفسى قوّة واعتزاماً عدت إلى سجنى الموحش».

قتلت فلورا وصاحبتها فى الرابع والعشرين من نوفمبر سنة ٨٥١ م (٢٣٧ هـ) وكتب يولوجيوس بعد موتها قصيدة تفيض بالسرور والبهجة، تمجيداً لهذا الحادث الذى ظنّه انتصاراً عظيماً للكنيسة.

بعد ذلك بقليل أطلق سراح يولوجيوس وغيره من القساوسة، وفى السنة التالية مات عبد الرحمن الأوسط وخلفه ابنه محمد، وكان قاسياً جامد العاطفة موصوفاً بالأثرة، مصادراً لوزرائه، فأبغضه الناس عامة، ونعوا عليه جشعه وفسولته، ولم يحبّه إلاّ الفقهاء لأنهم توسّموا أنه سيبطش بالمسيحيين الذين سخِروا من المسلمين ومن دينهم، وكان هذا

التوسم صادقاً، فقد هُدمت الكنائس، واتُّخذت وسائل عنيفة للاضطهاد، فأسلم كثير من النصارى بعد الأفواج التى دخلت فى الإسلام، حينما قرر مجلس الأساقفة استنكاره حوادث الإنتحار الذى دُعى استشهاداً.

واغتبط يولوجيوس والفارو بهذه الشدّة، وزعما أنها دعت كثيراً من المتسلّمين إلى العودة إلى المسيحية، وتغيرت تلك السياسة الحكيمة الشفيقة، سياسة عبدالرحمن الأوسط ووزرائه، التي كانت تغمض العين عن نزوة المسيحيين وطيشهم، وتلتها سياسة قاسية عسوف، فلم يكن عجيباًأن يفرّ المسيحيون بأنفسهم إلى الإسلام.

ولكنّ كل هذا لم يطفىء جذوة المتعصبين، فقد زادها الإضطهاد اشتعالاً، وامتد شررها إلى خارج قرطبة، ورسمت طليطلة يولوجيوس أسقفاً لها، وحينما أبى الأمير الموافقة على هذا القرار، تُرك مكان الأسقفية خالياً حتى تسنح الفرصة ليولوجيوس بشغله.

وقدِم على قرطبة راهبان فَرَنسيان، ليستجديا شيئاً من آثار الشهداء، ثم عادا بحقيبة مملوءة بعظامهم لتعرض فى باريس. ولكنّ عاصفة أخرى كانت موشكة الهبوب على المعتصبين، فقد هجرت فتاة أخرى أبويها لتلحق بيولوجيوس، فأحضرت هىَ وأستاذها أمام القاضى، وكانت تهمة يولوجيوس: إغواء الفتاة على الارتداد، فعوقب بالجلد بالسِّياط، ولم يكن هذا القسيس الضعيف الناحل ممن يتحملون السِّياط... إنه كان شديد الخشوع لله متقبّلاً فى سبيله كل تضحية، راغباً أن يُلقى فى نُصرة دينه كل ضروب العذاب، ولكنه لم يحتمل أن يسوطه المسلمون، فصاح أمام القاضى: عجِّل بسيفك أيها القاضى، وابعث بروحى إلى ربها، وإياك أن تظن أن أُلقى بجسدى إلى سياطك. ثم أخذ يقذف الإسلام بسيل من الشتائم والسبّاب.

وهنا تحرَّج القاضى وأبَى أن يحمل تبعة قتل زعيم مثله، فأمر بعرضه على مجلس الدولة، وفى هذا المجلس أخذ بعض الأعضاء يحاجّه ويهدِّىء من ثورته، ويعجب كيف أن رجلاً عاقلا مثقّفاً مثله يقذف برأسه طواعية، بين أنياب الموت، ثم قال له: لو فعل هذا رجل أبله أو مجنون ما أثار عجبى، ولكن صدوره من مثل يولوجيوس هو العجب كله، ثم همس فى أذنه قائلاً:

«أنصت إلىَّ... إنى أرجوك أن تخضع مرة للضرورة، وأن ترجع عما قلته أمام القاضى، قُلْها كلمةً واحدةً، تجد نفسك حرّاً طليقاً».

ولكن هذا النصح جاء بعد أوانه، نعم إن يولوجيوس كان يؤثر تخريج الشهداء وإثارتهم على أن يخطّ لهم المثال بنفسه، ولكنه رأى أنه لا يستطيع الآن التقهقر موفور الكرامة، وأنه يجب أن يصابر ويثابر إلى النهاية. وحينما أبى أن يتراجع، حكم بقتله، فمات شجاعاً مخلصاً، فى الحادى والعشرين من مارس سنة ٨٥٩ م (٢٤٤ هـ) وحين فقد المسيحيون زعيمهم، سرى اليأس إلى قلوبهم، ولم نعد نسمع لهم ضجيجاً مرة أخرى.

الخليفةُ العظيم

قد يشعر القارىء بشىء من خيبة الأمل، حين يرى أننا قد بلغنا هذا القدر من الكتاب ولم نسرد له إلا قليلاً من أعمال البطولة وأحاديث الحروب. وأننا بدل أن نقصّ عليه سِيَر الأبطال، طغى بنا القلم إلى الإسهاب فى اضطراب حركات الأجناس، وثورات الأديان. نعم إننا بدأنا بداءة تستثير العاطفة وتحبس الأنفاس، بذكر طارق وجنده من البربر، الذين لم تكن فتوحهم اللاّمعة من أساطير الخيال، ولم تكن فى صحّة حوادثها أقل من تاريخ القرن التاسع عشر. وقفّينا على ذلك بذكر الموقعة الكبرى الفاصلة، موقعة طَلوشة (تولوز) وهى حقاً من الوقائع المؤثرة وإن أعوزها كثير من الإسهاب التاريخى. ثم ألممنا بموقعة العرب مع الإفرنج، وبمعركة رونْسيسفال التى أبعد وصفها فى الخيال، وغشّاها غمام من خطرات الأوهام، ومرّ على هذه المعركة مائة عام، فوصلنا إلى مقتل يولوجيوس، وإلى خمود حركة الاستشهاد الدينية.

ولم نكن فى غضون هذا القرن نقرأ فى تاريخ الأندلس إلا صراعاً عنيفاً، بين العشائر والمذاهب الدينية المختلفة، التى تمثل الشعب الأسبانى. ومهما يكن من شىء، فإن أعمال البطولة نادرة دائماً، وكثيراً ما تكون من خَلْق الشعراء، فإن عقولهم الروحانية كثيراً ما تُلبس بعض حوادث الحرب العادية أثواباً من البطولة لا تدركها الأفهام، فى حين أن الصراع بين قبيل وآخر، أو مذهب وآخر، هو كل ما شهدته الدنيا منذ وجد الإنسان، فمن الحق إذاً ألاّ ننساق مع أنفسنا فى اعتقاد أن تاريخ الحركات العظيمة خال من الروعة، لأنه خال مما يسحَر النفس من أعمال البطولة الفردية، فقد كان لكثير من المغمورين من الرجال

والنساء، فى غضون عصر الاستشهاد الدينى، إخلاص وجهاد وبطولة تفوق أعمال الفُرسان فى ساحة القتال، لأنه من السهل أن تكون شجاعاً فى معركة تغلى فيها الدماء، أما أن تبصر نُذُر الهلاك، وتحتمل السجن الطويل المدى، وتنتظر بشجاعة وجلد يوم الإعدام، وأنت ثابت القلب رابط الجنان ـ فشىء فوق طاقة كثير من الناس.

أخطأ شهداء المسيحيين فى رأيهم جادّة الصواب، وقذفوا بأرواحهم فى غير مَقْذِف، ولكنّ شجاعتهم مع هذا كانت جديرة بالإعجاب، كما كانت عقولهم جديرة بالرحمة.

كانت فلورا بطلة حقاً، كما لو ضحت بحياتها فى سبيل حقيق بالتضحية، وخُلِق يولوجيوس من طينة الأبطال، على الرغم من تعصبه وتزمته، وكم فى كل هذه الثورات السياسية والدينية التى مرت بنا من أعمال تجلّى فيها الإخلاص والثبات والعزم والاحتمال، وهذه ـ وإن فرّت من عين المؤرخ ـ لا تقل عن أعمال البطولة اللأمعة فى ميادين القتال.

إنّ أشقّ واجبات الإنسان لا يظهر غالباً إلا فى صغار حوادث البطولة، وإن فى المعارك والتحام الجيوش فرصاً لا تعد لتكوين الأبطال.

ويسهل جداً أن ترى البطولة واضحة فى شخص، من أن تراها فى شعب أو مدينة، وها نحن أولاء بصدد حياة رجل، يعدّ بين قليل ممن قربُوا من المثل الأعلى فى عظمة الملك وقوة السلطان.

إنّ الملك العظيم أثر الحاجة الملحة والخطب العظيم، فإذا اشتدت آلام الأمة وطال بأسها، وازدحمت أيامها بالكوارث، ورفّ غراب الدمار بجناحيه فى الأفق ـ جاء الملك العظيم لينقذ قومه من بين براثن الخطر، وليعيد إليهم الرفاهية والهدوء والأمن، وليحكم مملكة كتب لها أن تنهض بهمته ومساعيه إلى القوة والسعادة، بعد الضعف والانتكاس. وقد كانت الحاجة بالأندلس إلى مثل هذا الملك شديدة فى طليعة القرن العاشر، فقد تلت ثورة المسيحية التى اشتعلت بقرطبة ثورات، وانتشر العصيان فى ولايات الأندلس، وتناوب عرش المملكة أمراء لا خير فيهم، ولا غناء عندهم[1]، وقُضِى على

---

(١) مات عبدالرحمن الأوسط سنة ٢٣٨ هـ وخلفه ابنه محمد وكان له غزوات موفقة فى شمال أسبانيا، ثم

السياسة النشيطة العاملة التى قام بها المنذر، الذى خلف أباه فى سنة ٨٨٦ م (٢٧٣ هـ) بقتله فى سنة ٨٨٨ م (٢٧٥ هـ) وجاء بعده أخوه عبدالله، الذى دبَّر مقتله، فكان أضعف من أن يقف على قدميه فى وجه الخطر الذى كاد يذهب بملكه، لأنه كان متقلباً مضطرباً، وكان يناوب بين الشدة والاستخذاء فلم ينجح فى كليهما، وكان حقيراً قاسياً شريراً، فأجمع الناس لأول مرة على كراهيته ونبذ طاعته، ولم تمض ثلاث سنوات من حكمه، حتى كان القسم الأعظم من الأندلس مستقلاً: فإن الأحزاب المختلفة التقت على معارضته، واهتبل كل نبيل أو زعيم من العرب، أو البربر، أو الأسبان، فرصة ضعفه وسوء حكمه، وما أصبحت فيه الأندلس من الفوضى الطّخياء الشاملة ـ فاختص نفسه بقسم من المملكة، وقام يتحدى الأمير من وراء حصونه.

وكان عظماء العرب من أبناء الفاتحين قليلى العدد، فلم يمنعهم ضعفهم، ولم تقعد بهم قلتهم، عن أن يقلبوا للأمير ظهر المجن، فاستولوا على بعض إمارات منها إشبيلية، التى أصبحت منافساً مخيفاً لقرطبة، أما فى المدائن الأخرى وحيث كان العرب أضعف من أن يقاوموا الأمير، فإنهم خضعوا له خضوعاً صورياً، واستقل حاكماً لوزقة، وسَرَقُسْطة، استقلالاً حقيقياً، ولم يبق للأمير من يستنصر به إلا الجنود المرتزقة الذين أخضعوا له أهل قرطبة إخضاعاً ظاهرياً، بحيث إذا جاوز المرء قرطبة لم يجد عربياً واحداً يرجى منه أن ينصر الأمير أو يدافع عن الدولة الأموية.

وكان البربر أكثر عدداً من العرب، وأشبه بهم فى السخط والعصيان، فخلعوا رِبْقة الطاعة للأمير، وعادوا إلى نظام القبائل، واستقلوا بالولايات الغربية مثل: استرامادور، وجنوب البرتغال، واحتلوا مراكز عظيمة الشأن فى الأندلس نفسها كمدينة جيَّان. وكانت أسرة ذى النون البربرية تتألف من أبيهم موسى وهو شرير كبير ولص بغيض، ثم من أولاده الثلاثة الذين أشبهوه فى قوته وقسوته[1] فدهمت هذه الأسرة الأندلس كلها بالسيف والنار، وعاثت بالفساد فى جميع نواحيها تحرق وتنهب، وتقتل أينما سارت.

وكان الأسبان المتسلّمون الذين صقلتهم مدنيّة العرب بعض الصقل، أقلَّ وحشية

مات فى سنة ٢٧٣ هـ وخلفه ابنه المنذر ولم تطل مدته، إذ أقام بالملك نحو سنتين ومات سنة ٢٧٥ هـ وولى بعده أخوه عبدالله بن محمد.

(١) هم يحيى وفتح ومطارف.

من البربر وإن لم يقلّوا عنهم فى بغض الحكومة، فاستولوا على ولاية الجَرْف فى الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة، وملكوا عدداً عديداً من المدن والولايات المستقلة بالأندلس، وفى الحق إن معظم المدن العظيمة كانت فى ثورة مقنّعة أو سافرة: فقد اتّحد حكام العرب، وزعماء البربر والأسبان المتسلّمين، على معارضة الأمير والاستهانة بأمره، وكان ابن حفصون أكثر هؤلاء قوة وأشد مراساً، وهو مسيحى[1] أثار سكان الجبال بغرناطة، وأقام فى حصانة معقله ببُشْتُر «بوباسترو» يحكم ويشرّع للبلاد حوله، وطالما جرَّد الأمير عليه جيوشاً فآبت بالخذلان والهزيمة، ثم التجأ الأمير آخر الأمر إلى مصالحته وملاينته، ولكن ابن حفصون كان فى هذه الناحية أوسع منه حيلة وأشد مكراً[2]، وكانت مُرْسية مستقلّة يحكمها أمير متسلّم، حكماً رفيقاً حازماً، فأحبته رعيته، ولم يغفُل مع وَلوعه بالشعر والأدب عن تحصين مملكته بجيش عظيم، عِدّته خمسة آلاف فارس، وكانت طليطلة كعادتها ثائرةً صاخبة، ولم يعْق نصارى الشمال عن الإستيلاء عليها واستردَاد ملكهم المسلوب، إلا ما شجر بينهم من خلاف وانقسام.

هكذا كانت حال الأندلس، وهذا ما آل إليه أمرها، فقد أصبحت ممزقة الأشلاء منبتّة الأواصر، تبعثرت فيها المقاطعات المستقلة التي صارت أشبه بالضياع منها بالولايات التى تكوِّن دولة قوية، وصارت أعجز من أن تقف فى وجه فاتح قوىّ عزوم.

وكانت تلتمع أحياناً أشعة من النور فى ظلام هذه الفوضى القاتمة، فقد ذكرنا آنفاً: أن حاكم مُرْسية كان أديباً مثقفاً، كما كان يشتهر حاكم قَسْطَلونة بإغداقه على الشعراء ورجال الفنون. وكان يعيش فى قصر فوق أعمدة من الرخام، غطِّيت حيطانه بزخارف من المرمر والذهب، واشتمل على كل ما تشتهى النفس من النعيم.

أما ابن حجاج حاكم إشبيلية: فإنه اضطر الأمير إلى مصالحته ومصادقته وحمل أعباء الحكم كريماً نبيلاً، وأخذ رعيته بالرفق، فرفرف فوقها علَم السلام والطمأنينة، وعاقب المجرمين بعدل وصرامة، وأقام مراسم الملك فى جلال وعظمة، وبلغ حرسه خمسمائة

---

(١) يقال إنه كان مسلماً وارتد إلى المسيحية حوالى سنة ٩٠٠ م وسمى نفسه صمويل.

(٢) فى أخبار مجموعة: وهلكت الجبايات باشتداد شوكة الثوار بكل ناحية، وانبسطت خيل ابن حفصون على مرحلة من قرطبة دون أن يدفعها دافع، وبلغ الأمر أن تقدم فارس فاقتحم قنطرة قرطبة ودفع رمحه فأصاب الصورة التي على القنطرة، وتمادى هذا البلاء خمساً وعشرين سنة.

فارس، وكان رداؤه الملكى من الحرير المنسوج بخيوط الذهب والفضة، كتب عليه أسمه وألقابه بالذهب الخالص، وذاعت شهرته فراسله الملوك من وراء البحر وبعثوا إليه بهداياهم، وتوافد عليه العلماء والفقهاء من المدينة المنورة، وازدان قصره بأشهر المغنين من بغداد، وكانت جاريته «قمر» البغدادية شاعرة رائعة الحسن، بديعة الصوت، فصيحة اللسان، مرهفة الحسّ، وهى التى تقول فيه:

ما فى المغـارب من كريم يُرتجَى ... إلاّ حليفُ الجـود إبراهيمُ
انّى حللتُ لديه منـزل نعمة ... كلُّ المنـازلِ ما عداه ذميمُ

وقد اجتذب إلى قصره الشعراء، فأمّه جميعهم، حتى شعراء قرطبة الذين وثقوا من كرمه وتكريمه. وأعرض مرة عن شاعر وأنّبه، لأنه أراد أن يسرّه بهجاء منافسيه من أشراف قرطبة، وكان من قوله له: لقد كذبتك نفسك يا هذا إن ظننت أن رجلاً مثلى يهَشُّ لسماع هذا الهجاء الدنىء.

ولكنّ كل هذه الأشعة اللامعة من الحياة الأدبية والثقافية، لم تخفف إلا قليلاً من اضطراب الفوضى العامة، التى شملت ربوع الأندلس، وصيّرتها فريسة للكوارث التى منها ضعف حكومة قرطبة، وخروج كثير من حكام الأقاليم عن الطاعة، وانتشار عصابات اللصوص وقطّاع الطرق بالبلاد. حتى صارت المملكة إلى حال تستنزف الدمع من الشئون، وأصبحت قرطبة نفسها ـ وقد توالت عليها غارات ابن حفصون ورجال عصابته ـ فى حزن مقعد مقيم، وكانت وإن لم تحاصر بالفعل تقاسى ما هو شر من الغزو وأشد من الحصار. ويقول مؤرخو العرب:

«كانت حال قرطبة تشبه حال ثغر تعرّض لهجمات الأعداء: فكثيراً ما فزع سكانها من نومهم فى جوف الليل لصياح الزرّاع على شاطىء النهر، وقد وثب عليهم لصوص الطرق يُغمِدون سيوفهم فى رقابهم».

وكتب بعض من حضر هذا العهد يقول: «لقد أصيبت المملكة بانحلال شامل، فقد تلت المصائب المصائب فهى لا تنقطع، واستمرّ النهب والسرقات، وجُرّت زوجاتنا وأولادنا قسراً إلى الأسر والعبودية».

وعمّت الشكاية من تهاون الأمير وضعفه وضعته، وتذمر الجنود لمنع أعطياتهم،

وضنّت الولايات بإرسال حاصلاتها، وخلت خزائن الدولة من المال فأصبحت قفراً يباباً، وكل ما استطاع الأمير أن يقترضه من المال رَشَا به بعض العرب الذين كانوا يُراءونه ويصطنعون له الإخلاص، وأظهر خلاء الأسواق من الأقوات ما أصاب التجارة من الضرر الفادح والبوار، وأصبح ثمن الخبز فوق متناول الخيال، وعاد الناس ـ وقد ملكهم اليأس ـ لا يفكرون إلا فى يومهم! أما الفقهاء والمترمّتون: فقد عدّوا ذلك من سخط السماء، وأنّ ابن حفصون لم يكن إلا آلةً لنقمة الله وغضبه، ثم أخذوا ينشرون بين الناس تكهنات مفجعة محزنة، وكم صاحوا يقولون:

«ويلٌ لك يا قرطبة . . . ويل لك يا بؤرة الفساد ونذير الزوال . . . يا موطن الفجائع والاضمحلال، لقد أصبحت بلا صديق أو حليف، ستحلّ مصيبتك حينما يصل إلى أبوابك القائد الكبير الأنف، الدميم الوجه، الذى يحرسه المسلمونَ من أمامه والكافرون من خلفه، فإن فى وصول ابن حفصون إلى أسوارك القضاءَ المبرم والفناء المحتوم!!».

وحينما ازدادت الأمور حُلْكة وظلاماً، سطع شعاع من الأمل لليائسين من سكان قرطبة، فإن الأمير عبدالله الذى تملّكه اليأس كما تملك رعيته، حاول أول مرة أن يعزم على عمل سياسىّ جرىء، وأن يخرج من المأزق الذى وضع فيه نفسه، فنهض بما عزم[1] على الرغم من تثبيط أتباعه له وكثرة عدد الأعداء المحيطين به من كل جانب، ولكنه بعد قليل عمل خيراً من كل هذا، عمل ما كان يجب أن يعمله لأمّته من زمن بعيد . . . ذلك أنه مات فى الخامس عشر من أكتوبر سنة ٩١٢ م (٣٠٠ هـ) بعد أن بلغ الثامنة والستين، وبعد أن قضى فى الحكم أربعة وعشرين عاماً كلها حزن وشقاء، فقد رأى بعينيه من تدهور سلطان الأمويين ـ وكان تدهوراً سريعاً مفاجئاً ـ ما يصعب علاجه على المصلحين، ولكن الله قدّر لحكم خليفته أن يرى أيضاً لهذا السلطان بعثاً سريعاً مفاجئاً، كاملاً شاملاً.

كان الخليفة عبد الرحمن الناصر حفيداً لعبدالله، وقد ولى الحكم فى الحادية والعشرين من عمره، وكان يُظن أن يزاحمه عمّه وأقاربه على الإمارة وهو فى هذه السن، وفى هذا الوقت العصيب، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، واستقبلت الأمة ولايته بصيحات الاستبشار والرضا من كل ناحية.

وكان الخليفة الجديد محبوباً من الشعب ورجال القصر، تضافرت وسامة طلعته،

---

(١) حارب ابن حفصون فى سنة ٨٩١ م (٢٧٨ هـ) بالقرب من قرطبة وانتصر عليه.

وحسن سمته، وكرم أخلاقه، وقوة إدراكه، على أن تجعل منه خليفة تعشقه الجماهير، وأحسّ القرطبيّون ـ وهم البقية الباقية من رعيته ـ بتجدد الأمل فيهم وهم يرقُبون بواكير أعماله.

ولم يحاول عبد الرحمن إخفاء مراميه ومآربه، فقد هجر سياسة جدّه إلى غير عودة، وكان تناوحها بين الضعف والقوة سبباً فى دمار البلاد، وأعلن مكانها فى صراحة: أنه لن يسمح بأيّ عصيان فى أي جزء من أجزاء المملكة الأموية، ثم دعا السّاخطين ورؤساء القبائل إلى الخضوع لسلطانه بعد أن أرسلها كلمة صريحة بأنه لن يترك جزءاً من مملكته يتحكم فيه العصاة، وكان فى برنامجه من الجرأة ما ينعش آمال أكثر المتفائلين، وإن خاف كثير منهم من أن هذا البرنامج قد يؤلّب العصاة فى جميع أنحاء المملكة، ويجمعهم عصبة واحدة لسحق هذا الأمير الشاب العنيد، ولكن عبد الرحمن كان يعرف أخلاق أهل مملكته. فلم يكن في جرأته عابثاً أو متهوراً.

لقد مضى جيل منذ أن رفع ابن حفصون وأشياعه علم الثورة، واعتقد أكثر الناس أنّ فيما نالهم من أوزارها ما يكفى، وفوق الذى يكفى، وبردت تلك النار التى كانت تتأجج فى قلوب الأسبان المتسلّمين والمسيحيين، وتدفعهم إلى الكفاح فى سبيل الاستقلال. وأمثال هذه البدوات لن تعيش إلاّ إذا بلغت غاية الفوز عند أول اشتعالها. لقد كان الزعماء الآن بين ملحود لا يعود[1]، وشيخ لا يرجى، فهدأت الروح الثائرة فى نفوس أتباعهم، وأخذ الناس يسألون أنفسهم عما حصلوا عليه من جرّاء ثوراتهم؟ إنهم لم يطهّروا الأندلس من الكفّار، ولكنهم على النقيض أسلموها إلى أكثر من الكفار شراً: إلى زعماء اللصوص والمجرمين المخاطرين. فقد مُنيت المملكة فى جميع جهاتها بعصابات من اللصوص أتلفت الزرع والكروم، وتركت الأراضى وراءها قفراً يباباً، وأحسّ الناس أن كل شىء كيفما كان، خير من تحكم هذه العصابات، وأن الأمير لن ينقل الأمور إلى أسوأ مما هى عليه، لذلك اتجهوا إليه ينظرون إلى ما يستطيع عمله لإصلاح هذه الحال.

وكان من أثر كل هذا، أنّ الخليفة حينما هبّ يقود جيوشه لمحاربة الولايات خارجة عليه، رأى أن أكثرها أقرب إلى الخضوع من العصيان، وزاد فى حماسة جنوده ؛ رأوا أميرهم الشاب الشجاع فى مقدمتهم، وهو شىء لم يعهدوه من عبدالله جدّه،

ت فى ذلك الوقت سعيد بن جودى وكريب وابن حجاج.

فساروا وراءه معجبين مستميتين. وأخذت المدن بالأندلس تفتح للأمير أبوابها واحدة إثر واحدة: فسلمت الولايات التى فى جنوب قرطبة أولاً، ثم ألقت إشبيلية بقيادها، وأجبر البربر فى الغرب على الطاعة، وأسرع أمير الجرف بإرسال الإتاوة. ثم تقدم الأمير لقتال النصارى بمقاطعة ريّه (ريو) حيث يسكن منذ ثلاثين عاماً رعايا ابن حفصون الشجعان فى معاقلهم الجبلية، وكان عبد الرحمن أعرف الناس بأن مثل هذه المعاقل لن ينال بظفر سريع، لذلك خطا خطوات متئدة، حتى أخضعها لسلطانه، فسلم إليه معقل بعد معقل، بعدما رأى أعداؤه ما بهرهم من عدله وشرفه، وأنّه قد حافظ على معاهدته مع النصارى أكرم محافظة، وأنّه أظهر غاية الحلم والصفح لكل من سلّموا إليه. ولكن ابن حفصون بقى فى معقله متحدياً مغالباً كعادته، غير أنه كان قد شاخ فأدركته المنية، وأصبح استيلاء الخليفة على حصن «بُبَشتر» أمراً هيناً موكولاً إلى الزمان.

وحينما وقف الأمير على مشارف هذا الحصن المنيع بعد استيلائه عليه، ونظر من بُعده الشاهق إلى القمم الشديدة الإنحدار التى تحيط به، ثار وجدانه، وغمرته عواطفه، فسجد لله شكراً على هذا الفتح المبين، وبقى مدة إقامته بالحصن صائماً، وشمل أعداءه بالصفح والغفران.

ثم ألقت مُرْسية بالقياد، وخضعت للخليفة. أما طليطلة فبقيت على تحديها وعصيانها، ورفضت فى كبرياء وغرور ما عرضه عليها عبدالرحمن من الهدنة، وانتظرت الحصار بصبر وجلد. ولم يخطر ببال أهل المدينة أنهم مُنُوا بأمير يخالف طابَعه من عرفوهم من القوّاد الضعفاء، الذين طالما آبوا بالعار والخيبة أمام حصونها المنيعة.

هجم الخليفة على طليطلة، ووقف بجيشه لحصارها ثم أراد أن يفهم من لم يكن يفهم أن هذا الحصار لم يكن محض تهديد، فأمر أن تبنى مدينة صغيرة فوق الجبل المقابل لها سماها: «الفتح» وربض ينتظر عواقب الحصار. فلما اشتدَّ الجوع بالسكان سُلّمت المدينة ودخلها عبد الرحمن، فكانت آخر مدينة دانت له بالطاعة فى المملكة التى ورثها من سميَّه عبد الرحمن الداخل، والتى بلغت الآن فى سنة ٩٣٠ م (٣١٨ هـ) غاية امتدادها. وقد اقتضته إعادة ما ضيعه أسلافه من المملكة ثمانية عشر عاماً، غير أنه فاز بما أراده وأتمه، وعادت سلطته قوية الدعائم بين العرب والبربر والأسبان والمسلمين والمتسلّمين. ومن هذا الحين أبى أن يخص أى حزب من رعيته بميزة أو يرفعه فوق غيره، وشدَّد الضغط

على زعماء العرب ، فابتهج الأسبان بإذلالهم ، وأصبح الملك اليوم خالصاً للخليفة وحده ، فحكم مستقل الرأى مستبداً ، وقابلت الأمة استبداده بسرور وغبطة بعد عدة سنوات قضتها فى الإضطراب والفوضى، وبعد أن استراح الناس من العصابات التى كانت تُغير على زروعهم وكرومهم .

وإذا كان الخليفة مستبد السلطان ، فإنه لم يتجاوز الحدَّ فى استبداده الذى أعاد الناس إلى حياة الأمن والثروة ، وأطلق عقالهم لينالوا من الغنى ورغد العيش ما يشتهون ، على النحو الذى يشتهون .

الحَربُ المقدّسة

كان مذهب عبد الرحمن الناصر فى نظام الحكم أن يحتفظ لنفسه بالسلطة كاملة، وأن يختار لتصريف أمور الدولة رجالاً من صنائعه، الذين رفعهم بعد ضعة، وأعزّهم بعد مهانة[1]، وحَرَصَ قبل كل شىء على أن يجرد زعماء العرب الذين لعبوا بالأمراء قبله من كل قوة، فكان رؤساء دولته من المحدَثين فى النعمة، الذين لم يرفعهم نسب ولم تنهض بهم فى المجد سابقة، فتوثقت عُراهم بسيدهم، كما يتشبث الضعيف بالقوى. إذ لولاه لداستهم الأسر العربية بالأقدام. ثم إنه حاط ملكه بجيش عظيم جرّار، انتقى قواده من خيار رجال حرسه من الصقالبة، وأضاف إليهم رجالاً من الفرنجة، وغاليسية، ولومبارديا، وغير هؤلاء من أجناس شتى، وكان تجار الأغريق والبندقية يجلبون هؤلاء الأرقاء ويبيعونهم صغاراً للخليفة، ليهذبهم وينشّئهم فى الإسلام، وكثير منهم من أصبح كامل الثقافة شديد الإخلاص لمولاه، وهم يشبهون من نواح كثيرة مماليك خلفاء صلاح الدين بمصر، الذين اختاروهم لحراستهم، والذين بلغوا فى النهاية ذِروة المجد، فكانوا سلاطين لمصر والشام، نعم يشبهونهم فيما كان لهم من عبيد ينصرونهم، وفى أن الخليفة أقطعهم ضياعاً يقوم على زراعتها الخَوَل والعبيد، وفى أنهم كانوا دائماً يستجيبون لدعوة سيدهم إذا دعاهم للحرب، فيقبلون مسرعين على رأس أتباعهم وعبيدهم، ثم يشبهونهم فى أنهم

(١) يقول صاحب أخبار مجموعة: وأغاظ الأحرار بإقامة الأنذال كنجدة الحيرى وأصحابه الأوغاد لقلده عسكره وفوض إليه جليل أموره وألجأ أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم إلى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه.

وصلوا بعد حين من الدهر إلى قمة السيطرة والنفوذ، فاغتنموا فرصة ذبول الدولة وتدهورها بعد موت عبدالرحمن الناصر وخليفته، وأسسوا لأنفسهم دولة، فكان لهم بذلك سهم بين السهام، ويد بين الأيدى التى قضت على حكم الإسلام بالأندلس.

استطاع الأمير مستعيناً بالصقالبة أن يطهّر البلاد من عصابات السوء، وأن يسلّ منها روح التمرد، ثم أن يشعل حرباً ضروساً على نصارى الشمال ويعود مظفراً منصوراً. فقد كانت مملكة الإسلام فى أيامه مهددة بخطر أشد من خطر الفوضى والثورات، ذلك أنها كانت محصورة بين مملكتين متحديتين شديدتى المراس، تتطلب كلتاهما شدة اليقظة والحذر: ففى الجنوب ربضت مملكة الفاطميين فى شمال إفريقية متنمرة متوثبة، وكان من الطبيعى أن يذكر حكام الساحل البربرى أن العرب قبلهم جعلوا من إفريقية معبراً إلى أسبانيا، كما أن السياسة المتوارثة بين حكام البربر كانت توسوس إليهم دائماً أن يضموا ـ إذا استطاعوا ـ ولايات أسبانيا المشرقة إلى إفريقية.

ورأى الخليفة أنه لا يستطيع التخلص من الفاطميين أو تجنب شرورهم إلا ببثّ الفتن وإشعال نار الخلاف بين قبائل البربر، فنجح فى ذلك أيّما نجاح، وأخضع بدهائه قسماً كبيراً من ساحل البربر، وتملك قلعة سبتة الحصينة، ثم إنه خصص مقداراً كبيراً من دخل الدولة ببناء أسطول عظيم، نازع به الفاطميين سلطتهم فى بحر الروم.

أما فى الناحية المقابلة نحو الشمال: فكان على المسلمين أن يقابلوا عدواً هو أشد من الفاطميين كيداً، وأبعد خطراً، فقد نبتت نصارى استورياس وتألبت من حفْنة من الرجال زاد عددهم فى هذه الأيام واشتد ساعدهم، فاعتزوا بالكثرة والقوة، ونما فى نفوسهم حافز قوى إلى استرجاع وطنهم المسلوب.

وقصة ذلك: أنهم حينما اصطدموا بالمسلمين عند الفتح، فقدوا صوابهم، وطارت نفوسهم شَعاعاً، وتمزقوا شَذَر مَذَر مذعورين من هؤلاء الشياطين، فالتجئوا إلى جبال أستورياس وأقاموا بها، فكان لهم من قلة عددهم ووعورة الجبال التى نزلوها شفيع ذاد المسلمين عنهم. ولم يجتمع حول زعيمهم «بلاى» فى كهف «دونجا» إلا ثلاثون رجلاً وعشر نساء، فلم ير العرب أن مثل هذه الطغمة القليلة من الفارين تستحق المطاردة والاقتناص، فتركوهم وشأنهم يقيمون فى مغاور هذا الكهف الذى لا ينال إلا من شِعب ضيق لا يُرْقى إليه إلا بسبعين درجة. ودارت الأيام وتعاقبت الأعوام، وهم يتكاثرون

ويتناسلون، حتى استطاعوا بعد حين أن يؤلفوا فى معقلهم الحصين جيشاً تاماً.

ووصف ابن حيان المؤرخ نشأة هذه الدولة المسيحية فى حزن وأسى فقال:

«وفى ولاية عنبسة بن سُحَيم الكلبى[1]، قام بجلِّيقيَّة عِلْج خبيث يُدعى: بلاى فعاب على العلوج طول الفرار، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثأر، ودافع عن أرضه، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس فى مدافعة المسلمين عما بقى من أرضهم؛ والحماية عن حريمهم، وكانوا لا يطمعون فى ذلك. وقيل: إنه لم يبق بأرض جليقية قرية لم تفتح إلا الصخرة التى لاذ بها هذا العلج، ومات أصحابه جوعاً إلى أن بقى فى مقدار ثلاثين رجلاً ونحو عشر نسوة، وما لهم عيش إلا من عسل النحل فى جباح (خلايا) معهم فى خروق الصخرة، وما زالوا ممتنعين إلى أن أعيا المسلمين أمرهم، واحتقروهم، وقالوا: ثلاثون علجاً ما عسى أن يجىء منهم؟! فبلغ أمرهم بعد ذلك فى القوة والكثرة والاستيلاء ما لا خفاء به» ويقول مؤرخ آخر: كم تمنينا على الله لو أن المسلمين أطفئوا، دفعة واحدة، شرارة هذه الجذوة التى قدِّر لها أن تلتهم دولة الإسلام بالأندلس!

تقَوَّتْ هذه العصابة الفارّة شيئاً فشيئاً، وزاد فى بأسها وفود النصارى إليها من أقطار الشمال، وحينما شعرت بالقوة، واطمأنت إلى الثقة بنفسها، خرج رجالها من معقلهم وأخذوا يناوشون البربر النازلين بحدود الأندلس، حتى اضطُر العرب فى النهاية إلى أن يزحفوا على كهف هؤلاء المغيرين البسلاء ليستأصلوهم، ولكنهم لم يظفَروا بطائل، فقد هزمهم المسيحيون فى هذه المحاولة وغنموا منهم مغانم كثيرة. وفى سنة ٧٥١ م (١٣٤ هـ) تزوج ألفونسو (الأذفونش) صاحب كانتابريه (التى لم ينفذ إليها العرب) بابنة بلاى، فوحّد هذا الزواج كلمة المسيحية، وهبّ ألفونسو فأثار الولايات الشمالية على العرب وشنّ بجنود من أهل غاليسية على المسلمين حروباً متعاقبة دفعتهم إلى التقهقر نحو الجنوب، واستردّ من أيديهم مدن براجا، وبورتو (مدينة البرتقال)، واستروجه، وليون، وطلمنكة، وزمُّورة، وليدسمة، وسلادانة، وشَقوبية، وآبلة، وأسوسما، وميراندة. وامتدّ الحدّ المسيحى إلى الجبال الكبرى، وأصبحت حصون الحدّ الإسلامى مدن: قُلُمْرِية، وقُورِيَة، وتالافيرة، وطليطلة، ووادى الحجارة، وتُدلِّة (تيوديلة)، وبنبولنة.

---

(١) ولى الأندلس فى صفر سنة ١٠٣ هـ (٧٢١ م) واستشهد فى شعبان سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ م).

والحقيقة أن ألفونسو استردّ ولايات قشتالة، وليون، وأستورياس، وغاليسية. غير أن هذه العصابة بعد أن ملكت ما ملكت، خلت إلى أنفسها فرأت أيديها صفراً من المال، ورأت أنه لم يكن لها من العبيد والخول من يقومون ببناء القلاع، واستنبات الأرض فى تلك البقاع الواسعة التى استرجعتها، فخطر لها أن تتركها للعرب، على أن تكون حدوداً بينهما غير ثابتة، وارتدّت إلى المقاطعات حول خليج غسقونية حتى يحين الوقت الذى تسوّغ لها فيه كثرة العدد والمال احتلال بقاع أوسع.

وجاء القرن التاسع وأحسّ المسيحيون بما يحفزهم إلى استعادة البقاع التي تغلبوا عليها من قبل، فانتشروا بمقاطعة ليون، وابتنوا لصد أعدائهم قلاع: زمّورة، وسان استيبان، وأوسما، وسيمنقاس، ثم تقدموا فضيقوا فسحة الحدود بينهم وبين العرب، حتى لقد كانت تتلاصق جيوش الفريقين فى بعض المواطن. وحاول العرب فى بُداءة القرن العاشر أشدّ محاولة أن يستردوا أراضيهم بما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل، ولكن المسيحيين هزموهم شر هزيمة، وتواثبوا على حدودهم بعد أن استعانوا برجال من طليطلة، وبعد أن شدّ أزرهم سانشو (شانجة) ملك نافار، (بنارة) الذى أصبح موئل المسيحية فى الشمال.

وكانت حروب المسيحيين نقمة وسوط عذاب على أعدائهم، فقد كانوا جفاة أمّيين، وكانت أخلاقهم على اتساق مع أميّتهم. وما كان يُتوقع من هؤلاء الجفاة المتوحشين إلا التعصب والقسوة، فإنهم لم يؤمّنوا مستجيراً، ولم يتركوا فاراً، ولم يُبقوا على جريح. وهذا يذكرنا، والحزن ملء صدورنا، بما كان للعرب من بطولة ورفق وسماحة خلق، فكثيراً ما عفوا عن أعدائهم نبلاء متكرمين، بينما نرى اليوم رجال ليون وقشتالة العتاة يذبحون جميع رجال الحاميات، ويستأصلون مدناً مليئة بالقُطان، حتى إذا نجا أحد من سيفهم لم ينج من استعبادهم.

لم تمرّ سنتان من حكم عبد الرحمن الناصر، حتى زحف أردون الثالث صاحب ليون بجيوشه على العرب، وأثار حرباً شعواء بلغ بها أسوار ماردة، واشتد هلع أهل بَطَلْيَوسْ مقدَمه، فأسرعوا إلى مصالحته بالمال لاتقاء شره. واشتد الخطر على المسلمين لقرب نين المدينتين من قرطبة، ولم يكن يحول بين جيوش أردون وبينها إلا شارات مورينا ـاهقة، فكان الموقف شديد الحرج على المسلمين، ولو أن الأمير كان جباناً لتلمّس

لنفسه الأعذار فى نكوصه عن القتال، لأن ماردة لم تكن تعترف بعدُ بسلطانه، فأىُّ شأن له إذا وثب النصارى على ولايات خارجة عليه!؟ ولكن شيئاً من هذا لم يكن من نَحيزة عبدالرحمن ولا من خلقه، فوثب فى الحال وجمع جموعه وأرسل بعثاً إلى الشمال، فشن غارات قاسية على مملكة المسيحيين، وأرسل فى السنة التالية سنة ٩١٧ م (٣٠٥ هـ) حملة أخرى لم يكن لها من التوفيق ما كان للأولى، فهزمها أردون أمام أسوار سان استيبان، واستخلص من المسلمين كثيراً من الغنائم.

وحينما رأى القائد العربى المغوار[1] طلائع الهزيمة، قذف بنفسه بين الأعداء ومات وسيفه فى يده، وكان من جبن ملك ليون ووحشيته، أن أمر بحز رأس هذا الجندى الشجاع وتسميره بباب القلعة إلى جانب رأس خنزير. ثم أطغى الانتصار جيوش ليون ونافار. فعاثوا فى السنة التالية فيما حول طليطلة، وتغلّب عليهم جنود قرطبة فى أثناء ذلك فى موقعتين. وفى هذا الحين عزم عبدالرحمن على أن يستكمل عُدته، لأنه رأى أن التغلب على المسيحيين يتطلب جهداً أعظم وأمضى، فقاد فى سنة ٩٢٠ م (٣٠٨ هـ) الجيوش بنفسه، ومضى مسرعاً متسلحاً بمهارته وحسن رأيه، فدهم أوسما وسوّى قلعتها بالأرض، ودمّر سان استيبان بعد أن فرّت حاميتها، ثم اتجه إلى نافار ونازل سانشو (شانجة) ففرّ أمامه من الميدان مرتين، ثم جاءت النجدة من ليون إلى جيوش نافار، وكان المسيحيون فى موقع طبيعى يمكنهم من العرب، ولكن الأمير نازلهم فى وادى القصب واستأصل جموعهم. وأثارت منعةُ حدود المسيحيين غضبَ المسلمين فوضعوا السيف والنار فى حامية ميوز. ومن الحق ان نقرر آسفين أن العرب فى بعض هذه الوقائع حاكوا أعداءهم فى أعمال القسوة والعنف، وبخاصة حينما كانت تضم جيوشهم عدداً من الإفريقيين الذين اشتهروا بالوحشية والشراسة، ولكن عود المسيحيين كان صلباً لا يلين، فلم تستطع الهزائم أن تفلّ من عزمهم، أو تكسر من شوكتهم. ولن يفوق شىء عزم المسيحيين المغلوبين، فقد كانوا على توحشهم يمتازون بشجاعة الرجال، فكم حُطِّمت جيوشهم مرة بعد مرة وهم ينهضون فى إثر كل هزيمة بقلب ثابت جديد. لذلك لم يمض على كارثتهم فى موقعة وادى القصب إلا سنة واحدة، حتى وثب أردون الذى كان يمثل روح المقاومة المسيحية، وشن بجيوشه حرباً ضروساً على الحدود.

---

(١) هو ابن أبى عبدة.

وفى سنة ٩٢٣ م (٣١١ هـ) زحف سانشو ملك نافار واستحوذ على بعض القلاع القوية، فأثار ذلك همة الأمير، فقاد جيوشه مرة أخرى نحو الشمال، وقد تملكه فى هذه المرة عزم عابس، وأدركه غضب الأسود ديس عرينها، فانتهب وأحرق كل ما مرّ به من المدن والقرى، وملأ الرعبُ منه النفوس فأخذ الناس يجلون عن المدنَ كلما شعروا باقترابه، وفتحت له قصبة بنبلونة أبوابها بعد أن فرّ أهلها، ومزق جيش سانشو فتراجع منهزماً مدحوراً، وقام المسلمون إلى كنيسة القصبة فهدموها ودمروا كثيراً من دورها، وأصبحت نافار بمن فيها وما فيها تحت قدمى الأمير.

وفى هذا الوقت مات أردون ملك ليون، وثارت الفتنة بين أبنائه واشتعلت بينهم حرب أهلية أعطت الأمير متنفساً وفسحة للنظر فى شؤون أخرى.

ولما عاد عبد الرحمن الناصر من هذه النصرة، اتخذ لنفسه لقباً جديداً. فقد كانْ حكام الأندلس قبله يُلقَّبون بالأمراء، ولم يدّع أحد من حكام بنى أمية حقاً فى الخلافة ـ على الرغم من إنكارهم خلافة العباسيين الذين ثلّوا عرشهم بالمشرق ـ لأنهم رأوا أن لقب الخليفة لا يستحقه إلا من يحكم الحرمين، فقنعوا على كره منهم بأن يتركوا للعباسيين لقبهم غير منازَعين فيه. غير أنه حينما شاع فى الأندلس أن الخلفاء العباسيين أصبحوا وليس لهم شيء من النفوذ فى خارج حدود بغداد، وأنهم يعيشون بها عيشة السجناء لتشتت أجزاء المملكة، ونشوء الأوطان المستقلة[١] أسرع عبدالرحمن فدعا بنفسه خليفة على المسلمين وسمى نفسه الناصر لدين الله[٢].

انتحل الخليفة هذا اللقب قبل موته بثلاثين سنة، ملئت بالحكمة والعدالة والحزم، وصخِبت بحروب مستمرة كانت تشن كل عام على المسيحيين، فرفعت من قدره وجعلته جديراً بلقبه الناصر لدين الله.

ولكن الحروب الأهلية التى حدّت زمناً من قوة أهل ليون انطفأت الآن وسكن غبارها، وظهر من خلالها ملك مسيحى عَصِيّ بالمنصب، جدير بأن يكون خليفة لأردون

---

(١) يضاف إلى ذلك ما كان من قتل المظفر لمولاه المقتدر سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م).

٢) وأرسل منشوراً بالخلافة إلى الولاة فيه: وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه، وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حقٌ أضعناه، واسم ثابت اسقطناه.

العظيم، فقد ولي المُلْكَ راميرو الثاني (ردمير) في سنة ٩٣١ م (٣١٩ هـ) وبرزت فيه صفات الفروسية بعزمه الصارم على مقاومة جيوش الخليفة، وبعد قليل عقدت في الشمال بين المسيحيين وأمير سرقسطة[١] معاهدة شديدة الخطر سيئة المغبة، فأسرع عبدالرحمن إلى تمزيق هذه المعاهدة، وإخضاع سرقسطة في سنة ٩٣٧ م (٣٢٧ هـ) ثم زحف على نافار، ونشر الرعب والفزع أينما سار، حتى إن الملكة الوصية (طوطة) أسرعت إليه لتقدم خضوع المحكوم للحاكم، ولكن راميرو لم يشترك في شيء من هذا الاستسلام، فلمّ شتات جيشه وتغلب على المسلمين وقهرهم في موقعة الخندق، وكانت كارثة على المسلمين، فسقط منهم خمسون ألفاً في الميدان، ونجا الخليفة بنفسه وما كاد ينجو، وفر بأقل من خمسين فارساً، وبقيت هذه السنة المشئومة عهداً طويلاً بالأندلس تسمى بسنة الخندق[٢].

ولو أن المسيحيين سايروا تغلبهم وجاروا تقدمهم، لجاز أن يُكتب اليوم لأسبانيا تاريخ آخر، ولكنهم كشأنهم: شغلتهم العداوة والبغضاء، ووقع النزاع بين أمرائهم، فحمى ذلك الخليفة من شرهم، واقتنص فرصة تدابرهم للانتعاش من كارثته ولمّ شعث ما تفرق من جيشه، وأخذ الأهبة لهجوم جديد، فقد كانت الفتنة متأججة في قشتالة لمقاومة سيطرة أهل ليون، وكان حاكم قشتالة في هذا الحين فرناندو غونزاليز المشهور[٣] الذي غنّى بمدحه كثير من الشعراء، فإنه كان بطلاً من أبطال أسبانيا، تزوج ببطلة خلّصته مرتين من السجن، بعد أن ألقاه فيه بعض الحسدة من جيرانه أصحاب نافار وليون، وكانت حيلتها في خلاصه في المرة الثانية: أن ارتدت ثياب زوجها وعرّضت نفسها للوقوع في أيدي السجانين، أما خلاصه في المرة الأولى: فكان قبل زواجها به حينما كان في طريقه ليخطبها من أبيها غرسية ملك نافار، الذي قبض عليه أول ما رآه وألقاه في السجن.

---

(١) هو محمد بن هاشم التجيبي خلع الطاعة سنة ٩٣٤ م (٣٢٣ هـ) وانضم إلى راميرو وإلى ملك نافار وأثار جميع أهل الثغر على الخليفة، فزحف الخليفة عليه وأخذ قلعة أيوب وحاصر سرقسطة إلى أن لاذ محمد بن هاشم يطلب العفو فعفا عنه.

(٢) قال المسعودي: كان بعد الرحمن في أكثر من مائة ألف من الجند. ويعلل صاحب أخبار مجموعة هذه الهزيمة بأن وجوه رجال الجيش تواطئوا على الانهزام كراهة في قائدهم غير العربيّ نجدة الصقليّ، وقال إن عبد الرحمن لم يحضر موقعة بعد هذه.

(٣) يسميه صاحب نفح الطيب: فردلند قومس قشتيلة.

وتقص علينا أنشودة أسبانية خبر خلاصه من محبسه فتقول:

«لقد حملوا بعيداً كونت قشتالة العظيم إلى نافار، ثم قيدوا رجليه إلى يديه قيداً مؤلماً، وطار بهم الفرح، وأولموا الولائم لاقتناصه».

«حقاً إن سجن الملك غرسية يضم أشجع بطل بأسبانيا».

ثم يستمر الشاعر فيقصّ علينا أن فارساً نورمانديًا كان ماراً بنافار:

«ثم جاء وهو يرجو أن يقارع العرب بسيفه فى سبيل نُصرة المسيح».

ثم يقول الشاعر: إن هذا الفارس أخبر بنت غرسية بأسر غونزاليز وعدّد لها ما فى أسره من الضرر الذى يلحق بالمسيحيين بأسبانيا:

«إن أسره بهجة ومسرّة لقلوب العرب، ولكنه لنا حزن أليم...» «لقد فقدت فيه أسبانيا حارساً، كما فقدت فيه قشتالة زعيماً».

«إن جيوش العرب تتدفق تدفق السيول فى النهر».

«لعنة الله على الأغلال المسيحية التى تغلّ يدى غونزاليز».

ثم أخذ الفارس النورماندى يرجو الأميرة فى تخليص السجين:

«لم تجب السيدة إلا قليلاً غير أنها فى حنادس الليل».

«وقد نام كل الخدم نهضت، وانسابت من القصر».

«ثم أغرت حارس السجن بحليها وذهبها».

«فباع لها ذلك الحارس الفَسْل سجينه».

وهكذا أخرجت الأميرة الكونت من سجنه وفرّا معاً إلى قشتالة... وتعد هذه القصة فى هذا الوقت الذى تؤرخ حوادثه قديمة، لأن غونزاليز كان قد تزوج بها منذ سنين، وصمم على أن تكون قشتالة مستقلة لا سيطرة عليها لليون.

وفى هذا الحين قبض عليه راميرو ولم ينجح من سجنه إلا بعد أن تبين لراميرو أن القشتاليين لا يقبلون سواه حاكماً، وانهم يؤثرون الخضوع لتمثال زعيمهم على أن يدينوا بالطاعة إلى ملك ليون، لذلك أطلقه بعد أن أخذ عليه المواثيق أن يبقى خاضعاً لمملكة ليون، وأن يزوّج ابنته من أردون أحد أبناء راميرو. وقد فترت همة فرناندو بعد هذا

الإذلال عن أن يقابل العرب فى صفوف ليون، وعزم على أن يترك الليونيين لينالوا نصيبهم من الإذلال والمهانة. غير أن ذلك لم يكن فى عهد راميرو الذى فاز بانتصار على العرب فى سنة ٩٥٠ م (٣٣٩ هـ) بالقرب من طَلَبيرة، ومات فى السنة التى تليها شامخ العز وافر المجد.

وبعد موته اتخذ غونزاليز لنفسه صناعة «عمل الملوك» فأخذ على عاتقه حماية سانشو (شانجة)(١) من أخيه أردون الثالث، وحينما خلف سانشو أخاه فى سنة ٩٥٧ م (٣٤٦ هـ) انقلب عليه غونزاليز وطرده من ليون، ووضع على العرش مكانه أردون الرابع، وكان كسيحاً ينبزه الناس بالأثيم، فالتجأ سانشو إلى جدّته «طوطة» ملكة نافار، ولم يلبثا إلا قليلاً حتى استنجدا بخليفة قرطبة ليأخذ بناصرهما فى هذه الشدة(٢) وكان سانشو عظيم الضخامة والسمّنة، لا يكاد يستطيع المشى خطوات إلا مستنداً إلى شخصين، فعزم على أن يستشير الأطباء البارزين بقرطبة الذين طارت شهرتهم فى جميع الأقطار، وبعثت الملكة «طوطة» برسل إلى عبد الرحمن فى هذا الشأن، فعزم على أن يرسل إليه بحَسْداى وهو طبيب يهودى بارع(٣)، ولكنه اشترط لذلك شروطاً منها: تسليم عدد من القلاع، وحضور سانشو والملكة طوطة إلى قرطبة.

وقد صعب على الملكة أول الأمر أن تسافر إلى حاضرة المسلمين، لأن وجودها سيكون مظهراً من مظاهر قوة الخليفة وعظم سلطانه، ولكنها بعد كل هذا سافرت مع ابنها ملك نافار، وحفيدها المنفى ملك ليون. فاستقبلهم عبد الرحمن باحتفال عظيم لما طبع عليه من الكرم والأدب الجمّ، ولم يتخلص سانشو سريعاً من سمنته فحسب، بل عاد إلى الشمال مؤيداً بجيوش من الخليفة استردّ بها فى النهاية عرش ليون سنة ٩٤٠ م (٣٤٩ هـ).

---

(١) يسميه صاحب نفح الطيب «غرسية بن شانجة»، وهو حفيد طوطة، أما ابنها فاسمه سانشو.

(٢) فى نفح الطيب: وكان غرسية بن شانجة استولى على جليقية بعد أبيه شانجة فرويله ثم انتقض عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومس قشتيله فردلند ومال إلى أردون ابن ردمير، وكان غرسية بن شانجة حافداً لطوطة ملكة البشكنس فامتعضت لحافدها غرسية، ووفدت على الناصر ملقية بنفسها فى عقد السلم لها ولولدها شانجة وإعادة حافدها غرسية على ملكه ونصره من عدوه وجاء الملكان معها فاحتفل الناصر لقدومهم.

(٣) هو ابن إسحاق من أحبار اليهود متقدم فى علم شريعتهم متمكن فى صناعة الطب، اتصل بالحكم بن عبد الرحمن ونال عنده الحظوة فساعده على جلب ما شاء من تآليف اليهود بالشرق.

وفى السنة التالية مات الخليفة العظيم عن سبعين عاماً، بعد أن حكم نحو خمسين سنة أتمّ بها من وجوه الإصلاح وجلائل الأعمال فى الدولة ما يعجز الخيال عن تصوره: فإنه حين تولى الملك شاباً فى الحادية والعشرين كانت المملكة فريسة لزعماء العصابات والمفسدين فى الأرض، فاستقلت الولايات واختارت حكامها، وتحدّت الأحزاب سلطة الأمراء وفرقت الدولة فرقاً. وعاثت الفوضى وعم النهب البلاد.

ففى الجنوب كانت الدولة الفاطمية بإفريقية تهدد بابتلاع أسبانيا وضمها إلى ملكها، وفى الشمال أخذ أمراء النصارى أهبتهم للزحف على مملكة أجدادهم، وطرد العرب من البلاد. فبين هذه الفوضى الجائحة، ومظاهر هذا الدمار الشامل، ظهر عبدالرحمن فبدّل بكل هذا الضعف قوة، وبكل هذا الفساد نظاماً وفوزاً مبيناً، وقبل أن يمر النصف الأول من سنى حكمه أعاد السلم إلى نصابه، وثبّت دعائم حكومة عادلة فى طول المملكة الإسلامية وعرضها، وقضى على سلطة الأحزاب، ونشر نفوذه مهيباً مستبداً بين جميع طبقات رعيته.

وفى النصف الثانى من حكمه حاط مملكته بالقوة والمهابة، فأرهب أعداءه فى الخارج، وأزاح الإفريقيين العتاة عنه بعيداً، وأنشأ حامية بسبتة تقف فى وجوههم، وقاسمهم السيطرة على البحر مقاسمة النظير للنظير. وفى الشمال عصف بالقوة النامية لنصارى ليون وقشتالة ونافار، وكانت له اليد العليا عليهم، حتى إنهم كثيراً ما قدموا عليه لحلّ مشكلاتهم واسترداد حقوقهم[1].

نعم إن عبد الرحمن أنقذ الأندلس من نفسها ومن أعدائها، ولم يكتف بإنقاذها من الدمار، بل خلق منها دولة عزيزة الجانب، ولم تكن قرطبة فى عهد من عهودها أغنى ولا أكثر ازدهاراً مما كانت عليه فى عهد الناصر، ولم تكن الأندلس قبل أيامه فى تلك الحال من الخصب والإمراع والإنتاج وتوالى الخيرات، التى نمّاها ووصل بها إلى الكمال كدّ أهلها ومهارتهم فى الصناعة، «ولم يكن الحكم الأندلسي فى يوم من أيامه أبهر انتصاراً على الفوضى، ولم تكن قوة القانون أكثر نفوذاً إلى القلوب وأعظم هيبة مثلما كانت فى أيام عبد الرحمن، فقد تسابق إلى أبوابه الرسل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا ليقدموا إليه تحية

---

١) يقول ابن حيان، إن ملك الناصر كان فى غاية الضخامة ورفعة الشان، وهادته الملوك وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية.

الإجلال والتمجيد. وكانت قوته وحكمته وثروة مملكته مضرب المثل فى أوروبا وإفريقية، وبلغت شهرته أقصى حدود المملكة الإسلامية بآسيا، وكان مصدر كل هذا الإنقلاب العجيب رجلاً واحداً عانده كل شيء فقهره، ووقف فى طريقه كل شيء فحطّمه. بعث الأندلس من حضيض البؤس إلى قمة القوة والازدهار، ولم تصل البلاد إلى كل هذا، إلا بذكاء الخليفة عبد الرحمن الناصر وصدق عزيمته».

ويلوّن مؤرخو العرب صورة هذا الرجل الهمام بألوان لا تكاد تتفق مع ما كان له من سياسة عنيفة مسيطرة، على أنهم كانوا أمناء فى وصفه «بأنه كان أرحم من حكم مملكة فى الأرض، وأكثر الملوك علماً، وبأن أحاديث حلمه وكرمه وعدله سارت فى الناس مثلاً شروداً، وبأنه لم يَفقُهْ أحد ممن سبقوه فى الشجاعة والغيرة على الدين، وبأنه كان محباً للعلم مكرماً لأهله معاشراً لهم».

ويتناقل الناس قصصاً كثيرة فى صرامته فى الحق وبعده عن المجاملة فيه، ويحدثنا ابن خلدون عن هذا الخليفة العظيم فيقول: «وُجِد بخط الناصر رحمه الله: أن أيام السرور التى صفت له دون تكدير كانت يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا، ويوم كذا من شهر كذا من سنة كذا. وعُدَّت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً. فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها. هذا الخليفة الناصر حِلْف السعود، المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود، ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام، ولم تصفُ له إلا أربعة عشر يوماً! فسبحان ذى العزة القائمة، والمملكة الدائمة، لا إله إلا هو..».

حاضرة الخلافة

يقول أحد مؤرخي العرب : « إن قرطبة عروس الأندلس ، بها من الجمال والزينة مايبهر العين ويسرّ النفس ، فأمراؤها المتعاقبون تاجُ مجدها ، وقلادتُها نظمت من درر استخرجها شعراؤها من بحر اللغة الخضمّ ، وحُلتها أعلام الآداب والعلوم ، وأهداب حُلتها أصحاب الفنون والصناعات » .

وهكذا يصوّر المؤرخ الشرقي مدينته المحبوبة بما شاء من خيال الشرق البعيد .

ولقد كانت قرطبة أيام الخليفة العظيم حاضرة جديرة بالفخر والإعجاب ، وإذا استثنينا بيزنطة فلن نجد فى أوربا مدينة تساميها فى جمال أبنيتها ، أو فى حياتها الرخية المترّفة ، أو فيما تزخر به من أنواع العلوم وفنون الآداب .

إنّ الموجز الذى نحن بصدد نقله عن مؤرخى العرب فى وصف قرطبة ، وما كانت فيه من نهضة وازدهار ومجد ، إنما يعود زمنه إلى القرن العاشر ، وإذا لحظنا أن أسلافنا السكسون فى هذا العهد كانوا يسكنون الأكواخ ويفترشون القصيل ، وأن لغتنا لم تكن تكوّنت بعد ، وأن القراءة والكتابة كانتا محصورتين فى عدد قليل من الرهبان ـ عرفنا ما كان للعرب من مدنية عجيبة ، وحضارة منقطعة النظير . وتظهر المقابلة جلية غريبة بين حاضرة الأندلس وغيرها من المدن ، إذا ذكرنا أن أوربا كلها فى هذا العهد كانت غارقة فى حمأة من الجهل وخشونة الأخلاق ، وأنها لم يكن بها شىء من آثار المدنية إلا ما بقى للامبراطورية الرومانية من أطياف فى القسطنطينية ، وبعض أجزاء ايطاليا . .

ويقول مؤرخ عربى آخر: «إن قرطبة مدينة حصينة ، تحيط بها أسوار من الحجر

ضخمة شاهقة، وهى جميلة الشوارع، وكانت في الزمن القديم مقرّ سلاطين الكفار، وكانت دورهم داخل سورها المحيط بها، ويشتهر سكانها بالرقة والظرف وكرم الخلق وحدّة الذكاء، ولهم الذوق الكامل فى مآكلهم، وملابسهم، وانتقاء خيولهم، وإليها كانت الرحلة فى رواية الشعر، إذ كانت مركز الكرماء وميدان العلماء والشعراء، ولم تزل تُملأ الصدور منها والحقائب، ويبارى فيها أصحابُ الكتب أصحابَ الكتائب، ولم تبرح ساحتُها مجرّ عوالٍ ومجرى سوابق، ومحطّ معالٍ وحمى حقائق، وهى من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، والزوْر من الأسد».

وهذا المديح الشرقي عرضة للمبالغة والإغراق، ولكن قرطبة كانت جديرة بكل ما ينثر عليها من الإطراء والثناء، ولن تستطيع إذا رأيتها الآن، أن تدرك ما كان لها من جمال رائع أيام الخليفة العظيم، فإن شوارعها الضيقة، ودورها المبيضة بالجص، لا ترسمُ إلا صورة ضئيلة لما كان لها من العظمة واستبحار العمران، فقد تهدم «القصر» واتخذ الأسبان أطلاله بعد العز السامق سجناً للمجرمين، ولا تزال القنطرة ماثلة فوق الوادي الكبير إلى اليوم، كما لا يزال المسجد الجامع الذى بناه أول الأمويين عجباً من العجب، ومصدر دهشة للسائحين. ومن المحقق أنه كان أجمل روعةً أيام عبدالرحمن الناصر أو بعدها بقليل، حينما زاد الوزير الأعظم (المنصور ابن أبى عامر) فى بنائه.

واختلف المؤرخون فى مقدار اتساع رقعة المدينة، والأرجح أن طولها لا يقل عن عشرة أميال، وكانت شواطىء الوادى الكبير متلألئةً بالقصور المبنية بالرخام والمرمر، وبالمساجد والحدائق التى عُنِى فيها أشد عناية بالأزهار والأشجار النادرة، المجلوبة من الممالك الأخرى، وأدخل العرب بالأندلس نظامهم فى الري الذى لم يصل الاسبانيون إلى مثله من قبل ولا من بعد[1]، ونقل أول أمراء الأمويين نخلة من الشام لتذكّره بموطنه، ونظم فيها قصيدة محزنة يندب فيها بُعْده عن أهله ودياره، كما بعدت النخلة عن أهلها وديارها، وقد غرسها فى حديقة حاكى بها حديقة جده هشام بدمشق، التى كانت ملعب لهوه فى أيام صباه، وأرسل رسلاً فى كل بقاع الأرض ليجلبوا إليه أندر ما فى البلاد من الشجر.

---

(١) يذكر البتانونى عناية العرب بالرى بمنطقة بلنسية فيقول: فقد شقوا أنهارها وحفروا ترعها، وأجروا خلجانها وسيروا إليها الماء من جبال نيفادا التى هى مقر الثلوج المستديمة، وبنوا على الترع قناطر كثيرة لحجز المياه، ووصولها إلى المنطقة العالية حتى أصبحت هذه المنطقة جنة من الجنان، وكانت دورة الزراعة فيها ثلاثية فى السنة.

والنبات والبذور، وكان بستانيوه غاية فى المهارة والذكاء، فنمت هذه الأنواع الغريبة، واعتادت الإقليم، وانتقلت من حديقة القصر إلى كل بلاد الأندلس، وعُرف الرمّان ونما وكثرَ بالأندلس، بعد أن جاء فى هدية لعبدالرحمن الداخل من دمشق، فأخذت حبوبه واستنبت بحديقته[1]. «وكانت هذه الحديقة تروى بأنابيب من الرصاص، تصب الماء منها تماثيل مختلفة الأشكال، من الذهب الإبريز، والفضة الخالصة، والنحاس المموّه، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة، فترسله إلى البحيرات الهائلة، والبرك البديعة، والصهاريج الغريبة».

ويحدثنا المؤرخون بكثير من أعاجيب قصور الأمير عبدالرحمن، وما كان بها من الأبواب الفاخرة، التى تفتح على الحدائق حولها أو على النهر، أو التى يمر منها الأمير إلى المسجد الجامع، فى طريق فرشت بالبسط الثمينة ليؤدى صلاة الجمعة.

وكان بعض هذه القصور يسمى «بالزاهر»، وبعضها «بالمعشوق»، وبعضها «بالمؤنس»، ورابع «بقصر التاج» وهكذا، بينما احتفظ قصر خامس باسم حاضرة الأمويين بالشرق وهو «دمشق»، وكان يقوم على أعمدة من الرخام، وقد رصفت أرضه بالفُسَيْفِسَاء وبلغ الروعة والجمال حتى ليقول فيه بعض الشعراء[2]:

كل قصر بعد الدّمشق يذمُّ ... فيه طاب الجنَى ولذَّ المَشَمُّ
منظرٌ رائق وماء نمير ... وثَرى عاطِر وقصر أشَمْ
بتُّ فيه والليل والفجر عندى ... عنبر أشهب ومسك أحمّ

ولبعض بساتين قرطبة أسماء مغرية تدعو المرء إلى الاضطجاع بجانب جداولها المتدفقة، والتمتع بشذى أزهارها وأثمارها: «فمنية الناعورة» توحى إليك بإحساس نحو الراحة والنعيم، منصتاً إلى صوت الماء وهو ينصب من الساقية إلى حياض البستان، «ومرج الخز» كان بلا شك بستاناً ساحر المنظر لأهل قرطبة، بأزهاره المختلفة الألوان.

---

(١) فى الحلل السندسية: لما صار معاوية بن صالح إلى عبدالرحمن أدخل إليه تحف أهل الشام، وكان فى هذه التحف رمّان فجعل جلساء الأمير يذكرون الشام ويتأسفون عليها، وكان فيهم رجل يسمى سفراً فأخذ من ذلك الرمان شيئاً لطف به وغرسه حتى علق وتم وأثمر، فهو اليوم بالأندلس الرمان السفرى نسبة إلى هذا الرجل.

(٢) هو ابن عمار.

وكان جريان الوادى الكبير مصدر بهجة وسرور لهم، لأن الشرقيين لا يحبون شيئاً فى الدنيا، أكثر من أن يروا منظراً يسمعون فيه تمتمة الأنهار. وعرب اسبانيا شرقيون فى كل شىء إلا فى موقعهم الجغرافى.

وقد امتدّ بين شاطىء النهر جسر فخم به سبع عشرة قنطرة، وهو لا يزال ماثلاً إلى اليوم يشهد بمهارة العرب فى علوم الهندسة، وكانت المدينة مزدحمة بالدور الفخمة، قيل إنه كان بها أكثر من خمسين ألف قصر للعظماء ورجال الدولة، وأكثر من مائة ألف بيت للعامة، ونحو سبعمائة مسجد، وتسعمائة حمام.

وللحمامات شأن كبير فى المدن الإسلامية، لأن النظافة عند المسلمين ليست من الإيمان فحسب، بل هى شرط لازم لأداء الصلوات والعبادات عامّة، ذلك فى حين أن كان مسيحيو العصور الوسطى ينهون عن النظافة ويعدّونها من عمل الوثنيين، وكان الرهبان والراهبات يفخرون بقذارتهم، حتى إن راهبة دوّنت ببعض مذكراتها فى صلف وعجب: أنها إلى سن الستين لم يمسّ الماء منها إلا أناملها، عندما كانت تغمسها فى ماء الكنيسة المقدس. نقول: بينما كانت القذارة من مميزات القداسة، كان المسلمون شديدى الحرص على النظافة، لا يجرؤون أن يقفوا لعبادة ربهم إلا إذا كانوا متطهرين، وحينما عادت أسبانيا إلى الحكم المسيحى، أمر فيليب الثانى زوج مارى ملكة انجلترا بهدم كل الحمامات العامة، لأنها من آثار المسلمين!

وكان لا يزال للمسجد الجامع المنزلة الأولى بين مبانى قرطبة الضخمة الجميلة، فقد أنشأه عبدالرحمن الداخل فى سنة ٧٨٤م (١٦٨هـ) وأنفق فى بنائه ثمانين ألف دينار، حصل عليها من غنائم القوط، ثم أتم هذا المسجد ابنه التقى هشام فى سنة ٧٩٣م (١٧٧هـ) بما اغتنمه من حروب أربونة، وكان كل أمير بعده يضيف جمالاً جديداً إلى هذا المسجد الذى يعدّ أبدع مثال فى العالم للفن الإسلامى فى أول عهده. فمن الأمراء من صفّح السوارى والحيطان بالذهب، ومنهم من أضاف إليه مئذنة، ومنهم من زاد فى رقعته ليتسع للعدد الضخم من المصلّين، وكان عدد بواكيه[1] تسع عشرة من الشرق إلى الغرب، وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب، وبه واحد وعشرون باباً طليت بالنحاس الأصفر

---

(١) كانوا يسمون الباكية بالبلاطة.

اللماع، وثلاث وتسعون ومائتان وألف سارية، وقد أجريت الفضة[1] فى حيطان محرابه المزين بالفسيفساء، وصُبّ فى سواريه الذهب الإبريز واللاّزَوَرد. أما المنبر فقد صنع من العاج ونفيس الخشب، وهو مؤلف من ستة وثلاثين ألف قطعة منفصلة، رصع أكثرها بالأحجار الكريمة وسمّر بمسامير من الذهب، وكان يصل الماء من الجبال إلى الينابيع التى أعدّت لوضوء المصلين، وكانت هذه الينابيع تقذف بمائها ليلاً ونهاراً. وبنيت دور إلى الجانب الغربى من المسجد لنزول فقراء المسافرين وأبناء السبيل، وبالمسجد مئات من الثريات التى صنعت من نحاس أجراس الكنائس للإضاءة ليلاً، وكان به شموع ضخمة زنة الواحدة منها خمسون رطلاً، كانت تشتعل ليلاً ونهاراً إلى جانبى الخطيب أو الواعظ فى شهر رمضان، وكان بالمسجد ثلاثمائة خادم لإيقاد البخور من العنبر والعود، ولإعداد الزيت العطر لإضاءة عشرة آلاف فتيل للقناديل، وقد بقى كثير من جمال هذا المسجد ماثلاً إلى الآن، فإن السائحين يقفون اليوم دهشين أمام هذه الغابة من السوارى، فيروعهم فيها منظر لا يكاد ينتهى من كل جانب، ولا تزال سوارى الصّوّان اللامع والرخام المجزّع فى مواضعها، ولا يزال الزجاج الفاخر الذى استحضره صناع ماهرون من بيزنطة يلمع لمعان الجواهر، ولا يزال المحراب بقبابه المتلاقية يملأ العيون والقلوب، ولا تزال أشجار البرتقال مورقة بصحن الجامع تساير امتداد السّوارى، فإذا وقف المرء أمام عظمة هذا المسجد وجماله، عادت به الذكرى إلى أيام مجد قرطبة وازدهارها، أيام الخليفة العظيم التى لن تعود.

وأشد بعداً فى باب الغرابة مدينة الزهراء ـ وإن لم تكن أكثر من المسجد حسناً ـ بناها عبدالرحمن الناصر فى أحد أرباض قرطبة لأن إحدى زوجاته ـ وقد كان مشغوفاً بها ـ تمنت عليه أن يبنى لها مدينة باسمها. وكان الخليفة العظيم كغيره من ملوك المسلمين مولعاً بالبناء والتجديد فأجاب طلبتها، وأنشأ مدينة فى سفح الجبل المسمى بجبل العروس على بضعة أميال من قرطبة[2] كان ينفق عليها كل سنة ثلث دخل المملكة[3] مدة خمس وعشرين سنة، ثم استمر ابنه من بعده فى الإنفاق عليها مدة عشر سنين، وكان عدد العمال فى كل يوم عشرة آلاف، وكان جملة ما يبنى منها فى كل يوم من الصّخر المنجور المعدّل ستة آلاف

(١) فى المقرى: الذهب.

(٢) بدىء فى بنائها سنة ٣٢٥هـ (٩٣٦م).

(٣) كان دخل المملكة فى عهد الناصر عشرين مليوناً من الدنانير.

صخرة، ويعمل فى عمارتها فى كل يوم نحو ثلاثة آلاف دابة، وأقيم بها من السوارى أربعة آلاف كان كثير منها هدية من امبراطور القسطنطينية[1] أو من رومة، أو قرطاجنة، أو سفاقس، أو غيرها، إلى جانب ما كان يؤخذ من مقاطع طَرّكونة والمَرِيَّة.

وكان بالزهراء خمسة عشر ألف باب ملبّس بالحديد أو النحاس المموّه، وكان سقف بهو الخليفة بالزهراء وحيطانه من الرّخام والذهب وبفوّارته تمثال عجيب أهداه إليه ملك الروم، وبعث إليه معه بدُرّة نادرة، وفى وسط البهو حوض ملىء بالزئبق الرجراج، إلى كل جانب منه ثمانية أبواب من العاج والآبنوس قد رصّعت بالجواهر، فإذا دخلت أشعة الشمس من هذه الأبواب، ولاقت اهتزاز الزئبق، ملأت البهو ببريق يشبه لمعان البروق، حتى لقد يحجب رجال الدولة عيونهم بأيديهم لشدته[2].

ويجد مؤلفو العرب متعة فى التحدث بعجائب الزهراء فيقول بعضهم: «لقد يمتد بنا الحديث إذا اقتصرنا على عدّ ما بالزهراء من جمال وفن: فهناك الجداول الدافقة، والأمواه المتعرجة، والبساتين الزاهرة، والقصور الفخمة لسكنى رجال الدولة، وهناك صفوف الجند والخدم والعبيد من كل بلد وملة، وهم فى ملابس الحرير بين إقبال وإدبار، فى شوارعها الفسيحة، ثم هناك ازدحام القضاة والفقهاء والشعراء وهم يمشون فى وقار ورهبة فى أبهاء القصر الفخمة وأفنيته الكثيرة».

وقد قُدر عدد الفتيان من خدم القصر بخمسين وسبعمائة وثلاثة عشر ألفاً، يصرف لهم فى كل يوم من اللحم نحو ثلاثة عشر أُلف رطل، حاشا أنواع الطير والحوت، وقدِّر عدد نساء القصر من كل جنس وطبقة بما فى ذلك نساء الخليفة ووصيفاتهن، بأربع عشرة وثلاثمائة وستة آلاف، وكان بالقصر من الخدم الصقالبة والخصيان خمسون وثلثمائة وثلاثة آلاف، خصص بهم من اللحم أو الدجاج أو الطيور ثلاثة عشر ألف رطل، فمنهم من كان يصرف له عشرة أرطال، ومنهم من كان يصرف له أقلّ من ذلك على حسب منازلهم، وكان يقذف لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف رغيف فى اليوم، غير ستة أقفزة من الحِمّص الأسود تنقع لها فى كل يوم.

---

(١) فى نفح الطيب: أن ملك الروم أهدى إليه مائة وأربعين سارية.

(٢) قال ابن حيان: وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أوما إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب، حتى يخيل لكل من فى المجلس أن المحل قد طار بهم.

وعجائب هذا القصر دونت بإسهاب فى كتب مؤرخى هذا العهد، وخطب بها الخطباء ونظمها الشعراء الذين استنفدوا كنوز البلاغة فى أوصافهم «وقد أطبق كل من رأى قصر الزهراء على أنه لم يبن مثله فى الإسلام البتة، وما دخل إليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة، من ملك وارد، أو رسول وافد، أو تاجر، أو جهبذ ـ وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة ـ إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبيهاً، بل لم يسمع، بل لم يكن يتوهم كونَ مثله، ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرّد المشرف على الروضة المباهى بمجلس الذهب، والقبة وعجيب ما تضمنته من إتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف وبراعة الأثاث والفرش والسُجُف، ما بين مرمر مسنون وذهب مصون، وعمد كأنها أفرغت فى القوالب، ونقوش كالرياض، وبرك عظيمة محكمة الصنعة، وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص، لا تهتدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها ـ لكفاه بعض ذلك شرفاً ونبلاً. فسبحان الذى أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلة، لكى يُرى الغافلين عنه من عباده مثالاً لما أعدّه لأهل السعادة فى دار المقامة، التى لا يتسلط عليها الفناء ولا تحتاج إلى الرمّ، لا إله إلا هو المنفرد بالكرم».

وقد استقبل الخليفة بقصر الزهراء ملكة نافار وسانشو (شانجه) فى حفل عظيم، وبه جلس ليحيّى رسل ملك الروم الذين بعث بهم إلى حضرته، وقعد للقائهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٣٣٨هـ (٩٤٩م) فى بهو المجلس الزاهر ـ قعوداً حسناً نبيلاً، وكان قد أمر كبار رجال الدولة وقواد الجيوش، أن يُعدّوا لهذه المقابلة خير إعداد وأفخمه. وكان البهو فى أكمل زينة، والعرش فى وسطه يلمع ذهبه، وتتلألأ نفائس جواهره، ووقف إلى يساره أبناؤه، فالوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً، ثم الحجاب من أهل الخدمة، وأبناء الوزراء والموالى ورجال خاصة القصر وغيرهم.

وقد فرش صحن الدار بعتاق البسط وكرائم الدرانك، وظلّلت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور، فوصل رسل ملك الروم حائرين من بهجة الملك وفخامة السلطان، ثم تقدموا خطوات وقدموا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى، قسطنطين بن ليون، وهو فى ورق سماوى اللون كتب بالذهب بالخط الإغريقى.

ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال، أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ليذكروا جلالة مقعده وعظيم سلطانه، ويصفوا ما تهيأ من توطيد الخلافة فى دولته.

وتقدم إلى الأمير الحكيم ابنه وولى عهده، بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء، وقام خطيب وأخذ يحاول التكلم فهاله وبهره هول المقام وأبهة الخلافة، فلم يهتد إلى لفظة، وغشي عليه وسقط إلى الأرض. ثم قام آخر فحمد الله وأثنى عليه ثم انقطع به القول فوقف ساكتاً مبهوتاً[1]. وقد بذل الخليفة جهده فى بناء الزهراء وإتقان قصورها وزخرفة مصانعها، وانهمك فى ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع ثلاث مرات متواليات، وحينما ذهب إلى المسجد بعد ذلك، أنذره الخطيب بالعذاب الأليم فى نار الجحيم لتعطيل الجمع[2].

ورونق قصور قرطبة وبساتينها - مع استهوائه القلوب - يغرينا بجمال آخر لا يقل عن رونقها الظاهر. فقد كانت عقول أهل قرطبة كقصورها فى الحسن والروعة، فإنّ علماءها وأساتذتها جعلوا منها مركزاً للثقافة الأوربية، فكان الطلبة يفدون إليها من جميع أنحاء أوربا ليتلقوا العلم عن جهابذتها الأعلام، حتى إن الراهبة «هروسويذا» وهى بعيدة فى ديرها السكسونى بجودرشيم - حينما أخبرت بشنق يولوجيوس لم تستطع إلا أن تثنى على قرطبة وتسميها: «ألمع مفخرة للدنيا». وكان يُدرس بقرطبة كل فرع للعلوم البحتة، ونال الطبُّ بكشف أطباء الأندلس وجراحيها من النموّ والازدهار نصيباً أعظم مما ناله قبلهم منذ أيام جالينوس. وكان أبو الطيب خلف جراحاً ذائع الصيت فى القرن الحادى عشر، وبعضُ عملياته الجراحية يطابق اليوم العمليات الحديثة. وجاء ابن زُهْر[3] بعده بقليل، فكشف عن أساليب كثيرة فى العلاج والجراحة. أما ابن البَيْطار[4] العالم النباتى، فإنه

---

(١) يؤخذ من ابن خلدون أن المأمور بالكلام أولا هو أبو على القالى، فلما ارتج عليه قام منذر بن سعيد فارتجل خطاباً ضافياً.

(٢) يروى أن منذر بن سعيد بدأ خطبته بقوله تعالى: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾ (الآيات) ثم وصل ذلك بقوله: فمتاع الدنيا قليل والآخرة خير وأبقى وهى دار القرار ومكان الجزاء.

(٣) هى أسرة اشتهرت بالبراعة فى الطب والأدب، أولها أبو مروان بن زهر، نال حظوة كبيرة عند مجاهد ملك دانية فطار ذكره بالأندلس، ثم ابنه أبو العلاء بن زهر، كانت له منزلة سامية فى عهد المرابطين، ثم عبد الملك ابنه، اشتهر بالطب فى عهد الموحدين، ثم ابنه الحفيد أبو بكر كان طبيباً أديباً، ثم ابنه عبدالله.

(٤) هو أبو محمد عبدالله المالقى النباتى، سافر إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم، ولقى جماعة يعانون هذا الفن وأخذ عنهم معرفة نبات كثير وعاينه فى مواضعه، واجتمع أيضاً فى المغرب وغيره بكثير من الفضلاء فى علم النبات، وكان لا يذكر دواء إلا ويعين فى أي مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس. وجعله الكامل بن أيوب رئيساً على العشابين بدمشق، ثم خدم الملك الصالح أيوب بمصر، ومات فجأة سنة ٦٤٦هـ.

سافر إلى كل بقاع الشرق للبحث عن العقاقير الطبية، وألّف فى ذلك كتاباً جامعاً. وكان الفيلسوف ابن رُشْد[1] الحلقة الأولى فى السلسلة التى وصلت فلسفة قدامى اليونان بفلسفة أوربا فى العصور الوسطى. وكانت علوم الفلك، والجغرافيا، والكيمياء، والتاريخ الطبيعى، تدرس بمثابرة وجدّ بقرطبة. أما الأدب العربىّ فإن أوربا لم تَرَ فى عهد من عهودها حفاوة بالأدب وأهله كما رأت فى الأندلس، حين كان الناس من كل طبقة ينظمون الشعر. ويظن أن هذا الشعر هو الذى أوحى للشعراء المغنين بأسبانيا بأناشيدهم القصصية وأغانيهم، وهو الذى حاكاه شعراء «بروفانس» و «إيطاليا».

ولم تكن تعدّ الخطبة أو الرسالة كاملة إلا إذا تضمنت أبياتاً ترتجل أو تختار من مأثور الشعر الرصين، ويظهر أن العالم الإسلامى اتّجه بروحانيته إلى آلهة الفنون، فمن الخليفة فى عرشه، إلى النوتى فى سفينته، كنت تسمع النظم الفائق فى مشاهد الأندلس وجمال مدنها، ثم فى روعة خرير الأنهار، وسحر الليل الساجى، وقد هدأت فيه النجوم، ثم فى نشوة الحب والخمر، ومجتمع الأنس، وقد اختلس المحب ساعة لقاء بفاتنته التى ترمى بقوس حاجبها القلوب[2].

وقد بلغت الأندلس الغاية فى الفنون فبناء مدينة كالزهراء، أو مسجد كالمسجد الجامع، ما كان ليتم على هذا الوضع الرائع إلاّ إذا بلغ العمال قمة المهارة فى صناعاتهم. وكانت صناعة الحرير من الصناعات الممتازة بالأندلس، فقد قيل إن عدد النسّاجين بلغ فى قرطبة وحدها مائة وثلاثين ألفاً.

واشتهرت المرية بمنسوجاتها الحريرية وبسطها. ووصلت الفِخارة فى الإتقان حدّاً عجيباً، فقد انتهى الفن بالصناع بجزيرة ميورقة إلى أن أبرزوا أوانى فخارية تلمع ببريق معدنىّ. ومنها استعارت إيطاليا اسم أوانيها التى دعتها بالميورقية. وكانت تصنع الأوانى

---

(١) هو أبو الوليد محمدبن أحمدبن رشد، من أعظم مفكرى الإسلام وفلاسفته، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠هـ واتصل بيعقوب بن عبدالمؤمن، وبرع فى الفقه والطب والفلسفة، وتولى قضاء إشبيلية واستمر بها خمسا وعشرين سنة، وكان الطبيب الخاص لأبى يعقوب يوسف ثم لولده المنصور، واتهمه بعض خصومه بالزندقة فنفى من المغرب إلى قرطبة، ثم دعى ثانية إلى مراكش، وأعظم آثار ابن رشد شرحه لفلسفة أرسطو. مات ٥٩٥هـ (١١٩٥م).

(٢) يظهر أن الشعر كان طبيعة أهل الأندلس. قال يا قوت فى الكلام على شلب: وسمعت ممن لا احصى أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً أو يعانى الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر، قرض من ساعته ما اقترحت عليه فى أى معنى طلبت منه.

النحاسية والحديدية والزجاجية المزجّجة والمذهبة بالمريّة، ولا يزال لدينا بعض نماذج من العاج المحفور وقد كتب عليها أسماء عظماء قرطبة.

نعم إن هذه الفنون نقلت من الشرق بغير شك، ولكن صنّاع الأندلس كانوا تلاميذ نجباء لاساتذتهم من البيزنطيين، والفرس، والمصريين. فوصلوا إلى درجة النبوغ فى صناعة الحُليّ، وبقى من ذلك إلى اليوم أثر عجيب من آثار ابن الخليفة العظيم، لا يزال يحفظه الاسبان فوق المذبح الأعلى لكنيسة قرطبة: وهو عُلبة مُلّبسة بالفضة، مرصعة بالدرّ، وقد كتب عليها بالعربية دعاء وتمجيد لأمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله. وهو دعاء يعدُّ غريباً فوق مذبح للمسيحية.

وكانت الحلى ومقابض السيوف دقيقة الصنع بارعة الفن، كما يدل على ذلك سيف الأمير أبى عبدالله آخر أمراء غرناطة. واشتهر المسلمون دائماً بصناعة المعادن حتى إن بعض الأشياء التافهة كالمفاتيح، كانت جميلة الصنعة فائقة الحلية. والثريا البديعة التى صنعت لمسجد أمير غرناطة محمد الثالث والتى لا تزال ماثلة بمجريط (مدريد) خير مثال لتفوق العرب فى نقش البرنز وإتقان زخارفه.

ووصلت الأندلس إلى منزلة فى صناعة المخرمات لم تصلها إلا دمشق والقاهرة. ولا نزال نقرأ فى كثير من أمكنة غرناطة تلك العبارة: «لا غالب إلاّ الله» وهى شعار أمرائها، وقد سبق أن تحدثنا عن الأبواب النحاسية بقصور قرطبة، وبعض هذه لا يزال باقياً إلى اليوم بكنائس أسبانيا.

وطالما سمع الناس عن سيوف طليطلة، ومهارة أهلها فى صناعة الصلب، وهذه الصناعة - وإن كانت فى أسبانيا قبل الفتح الإسلامى - زادت تقدماً فى أيام الخلفاء والأمراء بقرطبة. واشتهرت المرية، وإشبيلية، ومُرْسية، وغرناطة بصنع الدروع وآلات الحرب.

وجاء بوصيّة الدون بدرو: وأوصى أيضاً لابنى بسيفى القشتالى الذى صنع باشبيلية، ورصع مقبضه بالذهب ونفيس الجوهر».

وقصارى القول: إنّ قرطبة كانت بحق «مفخرة للدنيا»، فى الفنون والعلوم وأسباب المدنية جمعاء.

الحاجب العظيم
كبير الوزراء

كان عبدالرحمن الناصر آخر عظماء الأمراء من بنى أمية بالأندلس، وكان ابنه الحكم دودة كتب، ودودُ الكتب من الناس - وإن أفادوا جدّاً فيما اتجهوا إليه - قلما يكونون حكاماً عظماء، فإن منصب الملك لا يهيىء لصاحبه أن يبلغ الذروة فى العلم، فقد يعرف الملك كل شىء تحت الشمس، وقد يصرف فراغه كما كان يفعل ملوك قرطبة فى الشعر والموسيقى، غير أنه يجب ألاّ يدفن نفسه فى خزائن كتبه، أو أن يُعْنى بالمخطوطات أكثر من عنايته بالحروب، أو أن يؤثر تجليد الكتب ورتقها على رَتْق مواطن الألم من رعيته، وكان الحكم فى شدة انصرافه إلى الكتب كذلك.

إنه لم يكن ضعيف القلب أو غافلاً عن تبعاته الجسام، ولكن إنهماكه فى الدرس سلبه الاهتمام بالغزو، والتشوق إلى الظفر فى الحرب، فقد أغرق فى إلقاء العنان لطبيعته الميالة إلى الاطلاع حتى تكونت له أذواق وميول فنية، هى أثر الدراسات العلمية ونتيجتها.

ولم يضرَّ طبعه الهادىء ومزاجه العلمى مملكته كثيراً، فقد كان ابن الخليفة العظيم حقاً حينما كان يقود جيوشه لمحاربة نصارى ليون، إذا نقضوا عهودهم، وكان الرعب الذى غرسه أبوه فى القلوب عظيماً، والشعور بقوة الخلافة شاملاً، حتى إن أمراء نصارى الشمال ألقوا بزمام أمورهم إلى الحكم، وقدِم أحدهم إلى قرطبة يتوسل إليه ويرجّوه فى عادته إلى عرشه.

وتم الصلح بين النصارى والمسلمين، فاتسع الوقت للحكم، فعاد إلى جمع الكتب

لخزائنه. وكان يرسل رسلاً إلى كل بقاع الشرق ليبتاعوا له المخطوطات النادرة، ويعودوا بها إلى قرطبة، وكان رسله ينقبون عن الكتب العزيزة المنال عند ورّاقى القاهرة، ودمشق وبغداد، وإذا لم يستطع الحصول على كتاب بأى ثمن، أمر بنسخه، وكان يسمع أحياناً بكتاب لا يزال فى دماغ مؤلفه، فيرسل إليه بهدية ثمينة ويسأله أن يبعث بالنسخة الأولى إلى قرطبة، وقد جمع بهذه الوسائل ما لا يقل عن أربعمائة ألف كتاب، وذلك فى وقت لم تعرف فيه الطباعة، وحين كان الخطاطون يلاقون عنتاً فى كتابة الكتب بالخط الواضح الجميل.

ولم يكتف الحكم بالحصول على هذه الكتب، ولكنه خالف جميع جماعى الكتب بقراءتها جميعاً والتعليق عليها، وكان واسع العلم، حتى إن تعليقاته كانت تعد عند العلماء من أجل ما يكتب وأنفسه، وكان تدمير البربر لقسم عظيم من هذه الخزائن كارثة على الأدب العربى.

وكان مما يطمئن له الظن، أن يستريح خلف الخليفة العظيم وينعمَ بما جناه له أبوه من ثمار النصر، ويمتع نفسه بالدراسة الهادئة، بينما كان أعداؤه فى الخارج يرقبون غزوه لبلادهم من حين إلى حين. لأن العمل الذى أتمه عبدالرحمن الناصر لم يستطع خليفة واحد أن ينقضه، ولم ينتقض إلا بعد أن تداوله خليفتان بعده. حينذاك هوى ذلك الملك الأثيل إلى الأرض مرة أخرى.

حكم الحكم المستنصر بالله أربع عشرة سنة[1]، وحين مات كان ابنه هشام المؤيد فى الثانية عشرة[2] حينما جلس على العرش، ولا يستطيع حادس أن يقدر ما كان يكون عليه هذا الخليفة الصغير، لو لقى ممن حوله حباً وإخلاصاً. والتاريخ يذكر له بعض المخايل التى كانت تبشر بالذكاء وحسن الرأى، وبأنه باستعداده جدير أن يترسم خطوات جده[3]، ولكن حياة (الحكم) العلمية وتهاونه، سلبت ابنه ووليه أية فرصة لقوة السلطان، فإن الحكم حينما كان فى شغل بجمع الكتب وتجليدها، كان عظماء القواد بمملكته يتدرجون فى النفوذ ورفعة الشأن وغير ذلك من الأمور التى لو حدثت فى أيام عبدالرحمن الناصر

---

(١) تزيد مدة حكم المستنصر عن ذلك، فقد ولى الحكم سنة ٣٥٠هـ ومات سنة ٣٦٦هـ.

(٢) فى نفح الطيب: أنه كان فى التاسعة من عمره.

(٣) كان أبو على القالى مؤدب هشام المؤيد، وقد وصفه بأنه كان فى صباه فى غاية الحذق والذكاء.

لوقف تيارها. وكان من آثار أعمال الحكم أيضاً أن أخذت زوجاته يفرضن نفوذهن على رجال الحكومة.

إن عبدالرحمن بنى مدينة لزوجته الزهراء، ولكنه كان يدهش جداً لو أنها جرؤت على أن تقترح عليه اسم شخص يولّيه رياسة الشرطة. وحينما مات الحكم، كان نفوذ نساء القصر عظيماً، وكانت (صبح) أم الخليفة هشام أعظم من بالمملكة سلطاناً، وكان من صنائعها شاب قدِّر له بعد حين أن يكون أبعد منها نفوذاً وشأناً، ذلك هو ابن أبى عامر الذى سندعوه من الآن بالمنصور، وهو اللقب الذى اتخذه لنفسه بعد أن أحرز انتصارات كثيرة على المسيحيين.

بدأ المنصور حياته طالباً مغموراً بجامعة قرطبة، وكان أبوه بها فقيهاً، ويرجع أصله إلى أسرة طيبة المنبت، وإن لم تكن ذات نفوذ، وقد عزفت نفس الشاب عن أن يحصر مطامحه فى الوصول إلى المنزلة التى رضيها أبوه لنفسه. وكان له وهو طالب آمال وأحلام وطموح، حتى إنه همس فى أذن بعض إخوانه من الطلبة بأنه سيكون فى يوم حاكم الأندلس، ثم جاوز الحد فى أحلامه، فسأل بعض الطلبة عما يختارون من المناصب لو ألقيت إليه أزمة الحكم ووعدهم بتحقيقها، وقد صدق وعوده عندما تحققت آماله[1].

ونشأة المنصور مثال رائع لما يمكن أن يعمله الذكاء والشجاعة والأثرة، فى مملكة إسلامية حيث كانت الطريق إلى المعالى ممهدة للعبقريين كيفما كانت بدايتهم مُوئسة مثبطة. فقد كان المنصور فى أول أمره يعيش من كتابة الرسائل لخدم القصر، وما زال يتدرج بلباقة حتى اتصل بكبير الحجاب، الذى كانت له فى هذا القصر سلطة رئيس الوزراء، فعيِّن فى مناصب قليلة الشأن، اكتسب فيها بسحر أخلاقه ومهارته فى الملق محبة نساء القصر، وبخاصة السيدة «صبح» التى هامت به حبًّا، ثم ما زال يرقى منزلة منزلة بإظهار الخضوع للأميرات، وتقديم الهدايا النفيسة إليهن، وكان يشتريها أحياناً من مال الدولة، حتى وصل إلى المناصب الرفيعة. ولما بلغ الحادية والثلاثين كان يشغل عدة

---

(١) فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى: أن ابن أبى عامر كان جالساً مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم فقال لهم: ليتخير كل واحد منكم خطة أوليه إياها إذا أفضى إلى الأمر. فاختار أحدهم ولاية رية، والثانى حسبة السوق، وطلب الثالث ساخراً أن يطاف به قرطبة على حمار ووجهه إلى الذنب، فلما أفضى الأمر إلى المنصور بلغ كل واحد منهم أمنيته.

مناصب من بينها الإشراف على أملاك وليّ العهد، وقضاء مدينة أو مدينتين، والنظر فى الزكاة والمواريث. وسحر المنصور كل من لقيه برفيع أدبه وتواضعه، وكريم عطائه، ورقة إحساسه، ومساعدته للبائسين. وبذلك تمكن من اجتذاب عدد عظيم من الناس بينهم كثير من كبار الدولة.

وحينما عظم نفوذ السيدة «صبح» بموت الحكم، وأصبحت أمّ الخليفة الصغير، وجد المنصور الفرصة التى كان يترقبها لتوسيع مدى سلطانه، فعمل الاثنان معاً، واستطاعا إجلاس الطفل هشام على العرش بقتل من كان ينازعه فيه[1]، ثم تمكن المنصور من القضاء على مؤامرة رجال القصر الصقالبة الذين كانوا يأبون خلافة هشام.

وكان المصحفى[2] الحاجب فى هذه الفترة رئيس الحكومة، فأعان المنصور على الصعود والترقى فى مناصب الحكم، وعمل المنصور فى جد وإخلاص على إنفاذ سياسته، وزاد فى محبة الأمة لهما ما تجردا له من كسر شوكة الصقالبة وتشتيت كثير منهم. لأنها كانت تبغض الجنود الغرباء. ولكن الوفاق بين الرجلين لم يكن طويل الأمد، فإن المنصور كان ينتظر أن يرى طريقة واضحة للتخلص من الحاجب، ويتحين الفرص للقضاء عليه من غير تردد أو خشية، لأنه كان يريد أن يصل إلى القمة، وأن تذيع شهرته وترتفع مكانته بين الناس.

وقد لاحت له لائحة فاقتنصها فى شجاعة وحزم. ذلك أن نصارى الشمال عادوا إلى الشغب والمغالاة بقوتهم، ولم يكن المصحفى جندياً، فتحير فى اختيار من يصدّ اعتداءهم، والمنصور القاضى لم يكن أمهر منه فى إدارة الحرب، ولكنه نبع من أسرة قوية النبعة، إذ كان أحد أسلافه من العرب الذين صحبوا طارقاً فى غزو أسبانيا، لذلك لم يتردد لحظة ولم يخالجه شك فى كفايته حينما طلب أن يقود الجيش بنفسه. وكانت غارته على ليون موفقة، وكان إغداقه على الجنود عظيماً، حتى إنه حينما عاد إلى قرطبة لم يكن القائد المظفر فحسب، بل كان موضع محبة الجيش وإجلاله.

(١) لما مات الحكم عزم جؤذر وفائق رئيسا صقالبة القصر على صرف البيعة إلى المغيرة أخيه، وأخبرا المصحفى بذلك فوافقهما فى الظاهر، ثم جمع جنده وأرسل ابن أبى عامر لقتل المغيرة فخنقه، وأخذت البيعة لهشام.

(٢) هو جعفر بن عثمان المصحفى.

ثمّ جردت حملة أخرى على نصارى الشمال، وكانت القيادة فى الحقيقة لغالب قائد الجنود الغرباء، وكان شجاعاً باسلاً اجتذبه المنصور إليه معتزاً بصداقته، فأعلن غالب فى صراحة وجرأة أنّهم ما فازوا فى المعارك إلاّ بعبقرية المنصور وذكائه، وبالغ فى مواهبه وأغرق[1] حتّى اعتقد الناس جميعاً أنّ تحت رداء الفقيه القديم نبوغاً عسكرياً. وكان الأمر كذلك من غير شك.

وحينما أحس المنصور بالقوة بعد هذه الانتصارات المتوالية، وبعد معاضدة غالب له واحتطابه فى حبله - أقدم على عزل ابن المصحفى، وكان رئيساً لشرطة قرطبة، وأحل نفسه مكانه، فأحسن القيام على الشرطة حتى إن المدينة لم تر فى عهودها عهداً استتب فيه النظام، وخضع الناس فيه لأمر الحاكم كما رأت فى عهده، لأنه كان شديد العنف فى الحق، حتى إنه ضرب ابنه حتى مات حينما تعدّى حدود الشرع، وما أشبهه بجيونيس بروتس[2] الذى كان لا يتجاوز عن صغيرة فى تنفيذ القانون، وقد أعلت هذه السياسة من شأنه وزادت فى محامده، لأنه بعد أن اكتسب قبل ذلك محبة الجيش والأمة، فاز برضا المتشددين فى أحكام الشريعة.

ونضجت الثمرة وآن له أن يضرب ضربة سياسية جديدة، فأخذ فى مهارة يلعب بغالب والمصحفى ويوقع ما بينهما، حتى اتسعت شقة الخلف بين القائد المحنك والمصحفى رئيس الوزراء، وكانت الضربة القاصمة أن أغرى القائد على العدول عن تزويج ابنته من المصحفى، واتخذها زوجة له وفى سنة ٩٧٨م (٣٦٨هـ) بعد وفاة الحكم بسنين رمى المنصور بآخر سهم فى كنانته، فاتهم المصحفى بالخيانة والسرقة وأثبت عليه ذلك بأدلة كثيرة، وألقاه فى السجن حيث بقى به خمس سنوات فى أسوأ عيش وأذل مكانة، ثم مات أشنع ميتة مسجّى برداء ممزق للسجان، ويقال: إن المنصور دس له السُّم. وهكذا كانت نهاية كل من جرؤ على أن يقف فى طريق مطامح المنصور، فقد آل تَعَس الطالع بالمصحفى الحاجب إلى الفقر والعار، بمكايد هذا الشاب المحدث، الذى لم يقف

---

(١) فى الحلل السندسية للأمير شكيب ارسلان: أن غالب بن عبدالرحمن كان من أشهر قواد بنى أمية، فهو الذى رم حصون مدينة سالم سنة ٣٣٥هـ وهو الذى زحف على قشتالة وأوقع بأهلها سنة ٣٤٢ وفى احدى غزواته ببر العدوة استصحبه القاضى محمد بن أبى عامر وانعقدت بينهما مودة أكيدة.

(٢) رومانىّ انتخب حاكماً للدولة حوالى سنة ٥٠٩ق. م وحين علم أن ولديه اشتركا فى مؤامرة لقلب نظام الحكم، حكم عليهما بالإعدام.

خمول أصله في وجه عبقريته ، بعد أن وصل الحاجب إلى قمة المجد والسلطان ، وجثت الآلاف من الراجين عند قدميه ، وحاول ملك ليون المعزول تقبيل يديه .

وفى اليوم الذى قبض فيه على المصحفى جلس المنصور فى مكانه ، فوصل إلى ذروة القوة ، وأصبح فى الحقيقة حاكماً للمملكة الإسلامية بالأندلس . وكانت تتألف حكومة الأندلس من الخليفة ووزرائه ، ولكن المنصور قصر الخليفة بالقصر ، وطوى الوزراء بآرائهم ومشوراتهم فى شخصيته العاتية ، وكان يحكم المملكة كلها من قصره فى أحد أرباض قرطبة[1] ، وأصدر الكتب والأوامر باسمه ، ودُعى له على المنابر ، وضُربت باسمه السكة ، ولبس الملابس المنسوجة بالذهب ، وقد نقش اسمه عليها شأن الخلفاء . وكيفما استوى له الأمر فإنه لم يكن بنجوة من كيد أعدائه ، فإن المطامع لها خطرها ، ولا بد للمضطهدين الذين ديس عليهم بالأقدام أن يثوروا يوماً للأخذ بثأرهم . وهكذا كانت حال المنصور ، فإن أحد الصقالبة الذين طردهم من القصر حينما رفضوا تولية الخليفة الصغير حاول اغتياله فلم يفلح ، فقُبِض عليه مع كثير من كبار الدولة المتآمرين معه ، وحبسوا ثم حكم عليهم بالموت فصلبوا[2] .

وأصبح المنصور الحاكم الأعلى بقرطبة ، لأن الخليفة الشاب لم يُبْد أى اعتراض على الوصاية التى فرضت عليه ، وكانت أمه «صبح» لا تزال صديقة حميمة للمنصور ، ولم يكن فى المملكة من يزعم أنه يقارع المنصور أو يدانيه فى القوة إلاّ غالب أبو زوجته . . . نعم إن الجيش أعجب بالمنصور وعجب من جرأته على قيادة الجيوش دون أن يكون له سابقة فى الجندية ، ولكنه عشق غالباً وفنى فى محبته ، لأنه كان شجاعاً حقاً وجندياً بفطرته ، وله فى المهارة والتدابير فى الحرب ما لا يُغلب ، لذلك كان غالب منافساً مخيفاً للمنصور ، وكان يجب أن يزول من طريقه ، فاتخذ كبير الوزراء العُدة لذلك بطريقته الناعمة ، وعزيمته الهادئة .

وكلما حاول المنصور عملاً سار فيه بثبات لا يتزعزع ، وإرادة من الحديد ، ومن الأدلة الغريبة على أخلاقه : أنه كان مرة جالساً فى مجلس الوزراء وكان القوم يتحدثون فى بعض الشؤون العامة ، إذا شمّ من بالمجلس رائحة لحم يشوى ، وظهر لهم بعد ذلك أن

---

(١) بنى مدينة الزاهرة بطرف قرطبة على نهرها الأعظم سنة ٣٦٨هـ وانتقل إليها سنة ٣٧٠هـ .
(٢) كان عدد الصقالبة الذين نكبهم فى هذه الحادثة ثمانمائة أو يزيدون .

الرئيس كان أحضر كَوّاء لكيّ ساقه بينما كان يناقش زملاءه فى هدوء وسكينة .

ومثل هذا الرجل لن يصعب عليه القضاء على أية عقبة ، ولو كانت القائد غالباً ، فقد دبر مكايده بعناية فنجحت جميعاً ، وإذا رأى فى وسائله من الشدة ما لا تستسيغه الأمة عمد إلى تدبير آخر فيه رضاؤها واستعادة محبتها . فحينما أطفأ المؤامرة التى قام بها عدد من كبار الدولة لاغتياله على النحو الذى سقناه آنفاً ، وأحسّ أن له أعداءً بين الفقهاء ورجال الدين ، أسرع إلى مهادنتهم ، فدعا إلى عقد اجتماع من زعماء الفقهاء ، وطلب إليهم أن يكتبوا رَقّاً بأسماء كتب الفلسفة التى يرون فيها خطراً على الدين وخروجاً عليه . وشهرة مسلمى الأندلس بشدة التحرج والتشدد فى الدين معروفة ، فطالما لقى الفلاسفة منهم عنتاً . لذلك عجل الفقهاء وقدموا إليه قائمة بالكتب المقضى عليها بالإعدام . فأسرع المنصور إلى إحراقها علناً فى الميادين . والمنصور كان من غير شك واسع الأوفق ، فسيح الصدر للفلسفة ، ولكنه فاز بهذه الوسيلة السهلة بأن يدعى : حامى الإسلام ، وبألاّ يأتمر به الفقهاء مرة أخرى .

إن رجلاً مثله واسع الحيلة لن يعجز عن التخلص من غالب . فعمد أولاً إلى إحداث بعض الاصلاح فى نظام الجيش ، فحدّ من سلطة القواد واختلس هذه السلطة لنفسه ، ووصل إلى هذا باجتلاب جنود كثيرة من إفريقية ونصارى الشمال ، الذين ما كانوا يأنفون من بيع أنفسهم وسيوفهم لأى قائد مسلم ، فأحبّوا المنصور وأخلصوا له حينما رأوا سخاءه ، وتوالت لديهم الأدلة على نبوغه الحربى . وقد كان دائماً قاسياً : أمر مرة أن يقطع رأس جندى بالسيف الذى كان يحمله ، لأنه لمح وميضه وقت أن كان يجب أن يكون مغمداً ، ولكنه كان فى غير أمور النظام والتدريب أباً لجنوده ، ما داموا يحسنون القتال ، ويفعلون ما يؤمرون .

وكان تأثيره فى جنده لا يحدّ : كان مرة فى خيمته فرأى جنوده يفرون فى ذعْر ، والنصارى فى أعقابهم ، فرمى بنفسه من كرسيه وقذف بخوذته بعيداً ، وجلس فوق التراب ، ففهم الجند ما أبداه قائدهم من أمارات اليأس فعادوا أدراجهم ، وهجموا على النصارى فاستأصلوهم ، وتتبعوا الفارين إلى شوارع ليون .

ثم إن الجند لم يجدوا من يسوقهم إلى مغانم كثيرة كالمنصور ، الذى قادهم إلى

النصر فى أكثر من خمسين غزوة[1] شنها على أمراء الشمال، لذلك ازداد تعلق الجيش به، وهوى نجم غالب وأنصاره من المقيمين بالحدود.

ثم مات غالب فى إحدى المواقع، وظهر قائد آخر هو جعفر صاحب المسيلة، الذى أزعج المنصور بشهرته العظيمة بين جنوده، فدعاه إلى بهو الرياسة وسقاه الخمر حتى غلبه السكر، وحينما عاد إلى داره قتل فى الطريق. ولهذه الفعلة الشنيعة التى تدل على غدر المنصور وتلطخ يديه بالدماء أخوات سلبته صفة البطولة، بعد أن كان يستحقها بأعماله اللامعة، وجعلت ميل القلوب إليه مستحيلاً.

على أن صلابته وإقدامه وصلا بالأندلس إلى قمة من العز والصولة تبعد عن أى خيال، حتى عن خيال الخليفة العظيم عبدالرحمن الناصر. فإن هذا الرجل الذى لا ينال منه التعب ولا يمسه اللّغوب، شن على إفريقية حرباً شعواء، فوسع رقعة الدولة على شواطىء البربر، وغزا نصارى ليون وقَشتالة كل عام مرتين، مرة فى الربيع وأخرى فى الخريف[2]، بينما كان يضغط فى قرطبة بيد من حديد على العشائر المتنازعة ويستل شوكتها، وبينما كان يتقرب إلى نفوس الشعب بزيادة المسجد الجامع زيادة فخمة رائعة، حينما شعر بأن الأمة أخذت تغضب للعزلة التى ضربها على خليفتهم الشاب، وتنصت إلى إغراء السيدة «صبح» ورجال القصر الذين سئموا المنصور وحسدوه.

وكان يشرف بعين لا يفر منها شىء على كل قسم من أقسام إدارة الدولة، ويهب كثيراً من وقته لإنماء الأدب وإنهاض الشعر - فقد كان أديباً بطبعه، وكان يأخذ كتبه أينما ذهب بسيفه، ولم تكن كتبه إلاّ الشعراء الذين كانوا يصحبونه فى غزواته. ولم ينل قائد ما ناله المنصور من الانتصار فى كل موقعة، فقد قذف نصارى الشمال بالحديد والنار، مؤيداً بجنوده الغرباء الأشداء، وبكثير من الجنود المسيحيين الذين جذبتهم إليه كثرة ما يصيبون فى ظل قيادته من مغانم.

واستولى على ليون، وأتى على بنيان أسوارها الضخمة وقلاعها من القواعد، وقهر بَرْشِلونة. والأدهى والأمر أنّه خاطر بنفسه وبجيشه فى شعاب غاليسية وجعل كنيسة شنت ياقوب

(١) فى نفح الطيب: أنه غزا ستا وخمسين غزوة.

(٢) فى نفح الطيب: واحدة فى الشتاء وأخرى فى الصيف.

ركاماً، تلك الكنيسة الرائعة التى كانت ملتقى الحجاج، والتى كان لها من المنزلة بأوروبا ما يقرب من منزلة الكعبة عند المسلمين.

ولم يمس بسوء قبر القديس يعقوب الذى ينسب المسيحيون إلى ما فيه من آثار القديسين كثيراً من الخوارق، ويقال إن الفاتح حينما دخل المدينة. بعد أن هجرها أهلها لم يجد بها إلا راهباً جاثياً أمام القبر المقدس، فسأله المنصور: ماذا تعمل هنا؟ فأجاب الراهب الهرم: إنى أصلى[1] فامتنع المنصور عن قتله، ووضع حراساً لحمايته وحماية القبر من غضب الجنود الذين انطلقوا يهدمون كل شىء فى المدينة.

وكان المنصور جديراً بلقبه الذى ناله بحق بعد إحدى هذه المواقع، وبتوالى الغارات على الشمال.

بقى أمراء المسيحية مغلولى الأيدى، وخضعت ليون والممالك المتاخمة لها، وأدّت الإتاوات إلى قرطبة، فقد تكررت هزائم قشتالة، وبرشلونة ونافار، واستولى المنصور على ليون، وبنبلونة، وبرشلونة، وشنت ياقوب. وحمل مرة ملك نافار على أن يجثو أمامه ذليلاً على ركبتيه، لأن الوزير - وهو لا يتجاوز عن شىء - علم أن امرأة مسلمة مأسورة بمملكته، فأطلقت فى الحال مع كثير من ضروب الذلة والاعتذار.

وحدث مرة: أن المنصور كان يحارب فى الشمال، فسد جيش النصارى عليه وعلى جيشه الطريق إلى قرطبة، واحتلوا موقعاً حصيناً لا ينال، فلم يفت ذلك فى عضده، وأمر جنوده أن يعيثوا بأرض الأعداء حولهم، وأن يجمعوا ما يستطيعون لبناء الخيام واستقرار الإقامة، ولم يجرؤ النصارى على منازلتهم، لأنهم وثقوا من أنهم سييأسون ويسلمون، ولكنهم دهشوا حينما رأوهم يقيمون المعسكرات ويحرثون الأرض ويزرعونها. وحينما سألوهم فى عجب واستنكار عما يعملون، كان الجواب الهادىء: «إننا رأينا أن الوقت لا يتسع للعودة إلى قرطبة، لأن موعد الغزوة الثانية أصبح قريباً. لهذا عزمنا على الإقامة هذه الفترة القصيرة» ففزع النصارى وهالهم أن يكون احتلال المسلمين دائماً، ونزلوا من معاقلهم، وفتحوا الطريق لهم ليعودوا إلى قرطبة آمنين محملين بما نالوه من نَفَل، وزاد بهم الخوف فأعطوهم كثيراً من الحقائب والبغال، ليحملوا عليها الغنائم....

---

(١) فى نفح الطيب أنه قال: إنى أونس يعقوب.

إن المنصور الذى لم تغلبه الرجال غلبه الموت!!

فإنه مرض ومات بمدينة سالم[1] «حينما كان فى آخر غزواته المظفرة لقشتالة[2]، وتنفس النصارى الصعداء لموته، ودل على هذا الارتياح عبارة موجزة دونها أحد الرهبان فى تقويمه، وهى: «فى سنة ١٠٠٢ مات المنصور ودفن فى الجحيم».

---

(١) مات سنة ٣٧٤هـ.

(٢) يسمى العرب هذه الغزوة: غزوة قنالش والدير.

عودة البربر إلى الحكم

تتدلّى أحسن الممالك نظاماً وأضبطها حكماً إلى الفوضى والاضطراب، حينما تزولُ العزيمة التى كانت تهديها سواء السبيل، وبهذه الحقيقة وأمثالها تمسك من يرون أن خير أنواع الحكم أن يحكم الشعب نفسه. وقد قيل: إنك إذا قدت الأمة بخيط فَوَهى أو انقطع، فإنك لا تدرى فى أى طريق ستذهب الأمة. وهذه النظرية صادقة على إطلاقها، فمن الشعوب ما هو دائماً فى حاجة إلى خيط يقوده، وليس فى العالم شعب يستغنى تمام الاستغناء عن الاهتداء بعقل مسيطر. على أن هذا الاستغناء ليس فى منفعة الشعوب فى شىء إلا إذا عدّت الركود مثلاً فى الحكم صحيحاً.

والأندلس فى أية حال لم تستطع الاستغناء عمن يقودها، فإذا مات قائدها وحاكمها سقطت معه الدولة، فهى على حد ما قيل: «حينما يسقط سيزار العظيم، فإننى وأنت وجميع الأمة نسقط معه» ولم يكن ذلك فى الأندلس عن محبة للحاكم أو انعطاف نحوه، ولكن كان عن عجْز وخَوَر، فإن كثرة العشائر المتنازعة والقبائل المتنافسة، جعلت الوصول إلى ما يشبه الاستقرار فى حكم الأندلس مستحيلاً، ولن يكبح من جماح هذه العشائر أو يفل من غرب هذه القبائل إلا يد قوية.

واعتبر هذا بما تقرأ فى تاريخ إرلندة عن العداوة المتأصلة بين سكان الشمال وسكان الجنوب ـ تعلم أن العرب ليسوا وحدهم الذين رأوا أن من الاستحالة حكم أمة تختلف فيها العناصر والأديان بالسهولة التى تحكم بها أمة متماثلة الأفراد فى الجنس والدين. وتاريخ الأندلس كما قصصنا عليك كان حوادث متعاقبة فى صعود وهبوط، فقد شهدنا فيه أول الأمر

غارة عنيفة رائعة لجنود موهوبين، انتهت بفتح لم يكن منتظراً ولا مرتقباً. وما كاد يتم فتح الجزيرة، حتى رأينا العشائر المتنافرة التى تجمعت لهذا الفتح المبين تنطلق من عقالها، وتدمر ثمرات الفتح التى جناها السيف واغتصبها الإقدام.

ثم نرى الشّمرىَّ الذى خلق ليكون ملكاً ـ وهو عبد الرحمن الداخل ـ فنرى الأندلس وقد عادت مرة أخرى إلى وحدتها وقوتها.

وكان من عادة الفرس عند البدء بمخاطبة ملوكهم أن يقولوا:

«أيها الملك أبقاك الله» وهذا الدعاء يوحى إلى النفس بأنه لو صح وتحقق لكان حلاً لكثير من المشكلات السياسية، على شريطة أن يكون المدعوّ له بالخلود ملكاً صالحاً. وأول ملك بالأندلس لم يكن بطبيعة الحال خالداً، وكان من أثر موته ما كان يحصل دائماً حينما يزول الضغط القوى الحازم، فارتكست الأمة فى الفوضى والحروب الأهلية، ثم جاء ثانية الملك الملهم لإنقاذ الأمة مما هى فيه، وهو الخليفة العظيم، فألزم الناس القانون والنظام فى جميع أرجاء الأندلس، وهزم الواثبين على المملكة، وداس العصاة بقدميه، وبقيت الأندلس خمسين عاماً فى عهده فردوس سلام وازدهار. ولو قدر لعبد الرحمن الناصر أن يكون خالداً فى هذه الدنيا، لبقى السلام ورفرفت الطمأنينة على ربوع الأندلس إلى اليوم، وما كنا نسمع بشىء مما حاق باليهود والعرب فى ديوان التفتيش من القتل والقسوة الوحشية، ولا بشىء من أخبار الكارلوسيين[1].

ومن المحزن أن هذا الدعاء ببقاء الملوك الصالحين لا يمكن أن يتحقق، ولكن الخليفة العظيم لم يترك المملكة خلواً ممن يصلح لقيادتها، فإن أسبانيا أنقذت بالملوك مرتين، والآن ينقذها ويجمع شتاتها كبير الوزراء وهو المنصور الذى لا يغلب، والذى نفذت سلطته إلى كل زاوية من زوايا الأندلس. ولكن المنصور أيضاً لم يكن خالداً، وحينما مات «ودفن فى الجحيم» كما كان يأمل الراهب المتبتل ـ أصبحت الأندلس التى بلغت فى عهده قمة الثروة والقوة، وعاشت فى كنف السلامة والنظام، فريسة للقوى المتنافرة التى دفنتها عزائمه وسطواته فى جحورها، ففى غضون ثمانين سنة كان يمزق الأندلس تحاسد الزعماء وظلم العتاة من البربر والعرب والصقالبة والأسبان.

---

(١) هم أنصار الدون كارلوس البربونى ولد سنة ١٧٨٨ ومات سنة ١٨٥٥ وهو الابن الثانى لشارل الرابع، وكان يدعى ملك أسبانيا.

نعم إن جذور الحزبية كانت اجتثت من أصولها بمرور السنين ، وذهب عهد التفاخر بالأنساب والقبائل ، لأن الناس نسوا أنسابهم ، ومع ذلك بقى بالأندلس من التنافس الشخصى والجنسى والدينى ما يكفى لجعلها جحيماً أرضياً ، من النوع الذى كان يتمنى الراهب المؤرخ أن يدفن المنصور فيه .

واستطاع ابن المنصور وخليفته ، أن يصون وحدة المملكة فى مدى ست سنوات ، تلاها انهمار سيل جارف من الطامعين المخاطرين ، والخلفاء المتنافسين ، والأدعياء الوقحين . وكان الأسبان الذين يمثلون جمهرة الأمة يؤثرون أن يحكمهم ملك ، ويحبون أن يتعاقب الملوك من أسرة واحدة ، ويذكرون بالإعجاب ما كان للدولة الأموية العظيمة من أثر عظيم ، ولم يكن من رأيهم فى الحكومة أن يكون المسيطر فيها وزيراً كيفما كان عادلاً صالحاً ، لأن الملك فى زعمهم يجب أن يحكم الأمة بنفسه . لذلك رفعوا راية العصيان على ابن ثان للمنصور ، وزاد فى غضبهم أنه أعلن حقه فى وراثة العرش ، فمضوا إلى الخليفة هشام المؤيد وحتموا عليه أن يقبض على أزمة الحكم بيديه الضعيفتين الواهنتين .

وقد صعب على هشام المسكين أن يُنزع فجاءة من عزلته فى القصر ، بعد أن قضى فيها ثلاثين عاماً ، سجيناً مغتبطاً بسجنه ، فتوسل إليهم ألا يطلبوا منه المستحيل ، ولكنهم أصروا على ما يطلبون ، فأطاعهم على الرغم منه . غير أنه حينما ظهر للناس جميعاً أن هذا الرجل الكهل كان أضعف من طفل ، طلبوا إليه أن يعتزل ، وأحلوا مكانه رجلاً من أسرته ، وكان سقوطه فى الحقيقة نهاية الدولة الأموية بالأندلس .

ثم جلس على العرش خليفة بعد خليفة فى مدى عشرين عاماً ، فكان أحدهم لعبة فى أيدى القرطبيين وآخر لعبة فى أيدى الحراس من الصقالبة ، وثالث لعبة فى أيدى البربر ، ورابع كان صورة تخفى وراءها مطامع أمير إشبيلية ، ولكنهم كانوا جميعاً لُعَباً لبعض الأحزاب ، ولم يكن لهم مظهر من النفوذ . وقد شهد بهو القصر قتلاً بعد قتل كلّما تلا خليفةٌ خليفة ، وأخفى مرّة أحد هؤلاء الخلفاء المساكين البائسين نفسه فى فرن حمّامه ، وحينما عُرف مكانه جُرّ وذبح أمام الخليفة الجديد الذى لم يأت بعدُ دوره وإن كان قريباً .

ثم ألزم هشام المؤيد المسكين ـ الذى نشّأه المنصور وأمه «صبح» فى طفولة دائمة ـ أن يُمثل دوره فى صندوق الدنيا ، فوضع على العرش ثم خلع ، فبُدّل بقيده

الحريريّ في عزلته بين الفواتن من نساء القصر، حيطاناً مظلمة لسجن حقيقي، ولا يعرف إلى الآن ما جرى له بعد ذلك، فنساؤه يُعلن أنه جاهد للفرار من سجنه والتجأ إلى آسيا أو مكة. لم يُغْر العرش ذلك الملك البائس بشيء من مغرياته، لأنه كان يعشق العزلة والانقطاع إلى العبادة، ولا بد أن يكون قد عرف أن بقاءه بالأندلس سيشجع مطامع أنصاره، وأن ذلك سيؤدى حتماً إلى النزاع والتفرقة، فمن المعقول إذاً أن يكون قد آثر أن يقضى بقية أيامه بمكة للعبادة والتبتل.

ثم ظهر دعيّ يشبه هشاماً تمام الشبه، وزعم أنه هشام المختفى وادّعى مُلك إشبيلية، فاعترف به حاكمها لأنه رأى فيه لعبة صالحة في يديه[1] ولكن هشاماً الحقيقى اختفى إلى الأبد ولم يسمع إنسان عنه شيئاً بعد اختفائه.

والذى جرى لهشام المعتدّ بالله عند عزله يصوّر لنا ما وصل إليه خلفاء بنى أمية التاعسون من الذلة والمهانة، بعد أن تركوا زمامهم للبربر المتوحشين، أو الصقالبة يلعبون بهم كما يلعب بقطع الشِّطْرنج، فقد أمر رؤساء قرطبة أن يجرّ هذا الخليفة الرفيق الرقيق العاطفة هو وأسرته إلى سجن تحت الأرض مظلم، متصل بجامع قرطبة. فجلس الخليفة فى هذا السجن الدامس الظلمة يرتعد من البرد ويتسمم بهوائه الفاسد من العطن، وقد احتضن ابنته الصغيرة وأحاط به نساؤه يبكين ويولولن ويقضقضن فى زمهرير قارس، وقد اشتد الجوع بالسجناء بعد أن تركهم السجانون القساة ساعات دون أن يفكروا فى إطعامهم، ثم جاء الشيوخ ليبلغوا هشاماً حكم المجلس الذى اجتمع فى عجلة ليفصل فى أمره، ولكن الخليفة المسكين يجهد فى أن يبعث شيئاً من الدفء إلى ابنته التى كان يحملها بين ذراعيه قاطعهم قائلاً:

«نعم. نعم. إنى سأخضع إلى حكمهم كيفما كان، ولكنى أسألكم لله تعالى أن ترسلوا إلىّ شيئاً من الخبز... إن هذه الطفلة الصغيرة ستموت بين يدىّ من الجوع» فتأثر الشيوخ لأنهم لم يريدوا أن يعذب الخليفة هذا التعذيب، وأمروا فأحضر إليه الخبز، ثم استأنفوا الكلام قائلين: «يا مولانا إن المجلس قرر أن تؤخذ عند الفجر لتسجن فى قلعة كذا».

---

(١) المعروف أن محمد بن عباد أمير إشبيلية هو الذى ادعى وجود هشام ثانية كذباً وتمويهاً ليستعين بهذه الحيلة على أمره ويهدد خصومه.

فأجاب الخليفة: «فليكن، وليس لى الآن إلا رجاء واحد، هو أن تأمروا لنا بمصباح، لأن ظلمة هذا المكان الموحش تزعجنا وتخيفنا». . . وارحمتاه!! لقد وصل الذل والشدة بحاكم المسلمين الزمنىّ والدينىّ بالأندلس إلى هذا الحضيض وهو أن يستجدى خبزاً وشمعة»(١).

وأمثال هذه الكوارث كانت كثيرة بقرطبة، فكل ثورة كان لها جناها المرّ من القتل والإرهاب، فإن أهل قرطبة الذين ازداد عددهم كانوا ينزعون إلى الاستقلال وفرض إرادتهم على الحكام، وهذا الاعتداد بالنفس كان نتيجة ثروة الأمة، ونموّ التجارة والصناعة فيها.

فحينما أسقطوا أسرة المنصور من الحكم، ثار العامة كعادتهم وشفوا غليل غضبهم بنهب قصر المنصور البديع الذى بناه فى ربض قرطبة ليكون مقراً له ولرجال حكومته. وبعد أن انتهبوا ما فيه من الكنوز التى لا تقدر بثمن، تركوه طعمة للنيران. واستمرت المذابح والنهب والاغتيال أربعة أيام لا ينهنه من حدّتها أحد، وأصبحت قرطبة مجزراً.

وحينئذ جاء دور البربر، وانتهى حكم الصقالبة الجبارين بحكم البربر القساة، الذين سمنوا ونعموا بانتهاب المدينة، فحيثما سار هؤلاء البربر سار القتل والنهب وسارت النار فى إثرهم، فكم نهبوا من قصر ثم أحرقوه، وقد لاقت منهم مدينة الزهراء الجميلة التى كانت ريحانة الخليفة العظيم شرّ ما يلاقى، فقد استولوا عليها بخيانة، ثم انتهبوها ثم أشعلوا فيها النيران، ولم يبق منها من بدائع الفن الرفيع التى زينها بها الخليفتان إلا كومة من حجارة سُفع، ووضعوا السيف فى حاميتها وفرّ سكانها معتصمين بالمسجد، ولكن البربر الذين خوت قلوبهم من الخشية والرحمة، أحاطوا بهم، وذبحوا فى بيت الله الرجال والنساء والأطفال (سنة ١٠١٠).

وفى هذا الوقت استقلت الولايات التابعة للخلافة، بعد أن حطّم الصقالبة والبربر العاصمة، ووضعوا على العرش خليفة بعد آخر، ونقلوا الخلافة من الأمويين إلى بنى حمّود، أو حاولوا تجربة حكم البلاد بمجلس يؤلف من الزعماء(٢)، فأصبح لكل مدينة أو

---

(١) لحق المعتد بالله بعد خروجه من السجن بابن هود وأقام عنده ومات فى لاردة سنة ٤٢٨ هـ ١٠٣٦ م.
(٢) كما فعل أبو الحزم بن جهور: فإنه حكم مملكة قرطبة حكماً يشبه الحكم الدستورى من سنة ٤٢٢ إلى

مقاطعة أمير مستقل، وذهبت فى الهواء تلك الوحدة التى جمع بها المنصور مختلف الأهواء والأحزاب، ولم يرتح الأسبانيون أنفسهم لهذا الانتقال السريع، وإلى تمزيق الدولة إلى ولايات صغيرة، فرأوا والحزن ملء قلوبهم ما صارت إليه بلادهم، وكيف أصبحت نهباً مقسماً بين الغرباء. فقد نعم البربر بالجنوب، وأخضع الصقالبة الشرق، أما البقية فقد سقطت بأيدى بعض محدثى النعمة والنفوذ، أو بعض الأسر القديمة التى نجت من ضربات عبد الرحمن الناصر أو المنصور القاصمة.

وكانت قرطبة وإشبيلية ـ وهما أعظم مدن الأندلس ـ تحكمان حكماً جمهورياً فى الصورة لا فى الواقع، لأن سلطة رئيس المجلس كانت تشبه سلطة الأمبراطور كل الشبه. وحكم في النصف الأول من القرن الحادى عشر نحو عشرين أسرة مستقلة، فى نحو عشرين مدينة أو مقاطعة، ويسمى هؤلاء بملوك الطوائف، وبينهم: بنو عباد بإشبيلية، وبنو حمُّود بمالَقة والجزيرة، والأدارسة بغرناطة، وبنو هود بسرقسطة. وكان أقوى هؤلاء بنى ذى النون، الذين ملكوا طليطلة، وحكموا بلنسية، ومرسية، والمرية.

وقد أحسن بعض هؤلاء الملوك الحكم وإن كان أكثرهم عتاة جبارين، غير أنه مما يعجب له، أنهم كانوا جميعاً غطارفة مثقفين، يعضدون العلم والأدب، وكانت قصورهم مثابة للشعراء والمغنين، فقد كان المعتضد عالماً أديباً شاعراً، ولكنه نصب ببستانه خُشباً علق فوقها رءوس أعدائه الذين قضى عليهم، وكان يستبشر ويبتهج برؤيتها كل يوم.

وقصارى القول: إن المملكة كانت فى حالة من الفوضى والاضطراب، تشبه ما وصلت إليه عند تولية الخليفة الناصر، نعم إنه لم يقم بها عصيان من المسيحيين كما كان من ابن حفصون أيام الناصر، ولكن الفوضى كانت عامة، والخطر من سقوط الدولة وتحطمها كان بارزاً للعيان. فإن نصارى الشمال استجمعوا للوثوب، ورأوا الفرصة سانحة فهمّوا لاهتبالها، لأن ألفونس السادس (الأذفونش) الذى وحّد تحت إمرته أستورياس، وليون، وقشتالة، كان قد فهم ما يجب أن يفعله تمام الفهم، فقد رأى أنه لم يكن عليه إلا أن يمدّ حبله لملوك الطوائف مداً كافياً، ليشنقوا به أنفسهم، لأن هؤلاء الطغاة الذين لم ينظروا فى العواقب، ولم يعنوا إلا بأنفسهم، ولم يتركوا جهداً إلا بذلوه، فى

سنة ٤٣٥ هـ فكان الذى يقوم بالحكم جماعة من كبار رجال الدولة، ولمّا مات قام ابنه أبو الوليد بالأمر بعده على هذا التدبير إلى أن مات سنة ٤٤٣ هـ.

إضعاف منافسيهم - كانوا يجثون عند قدمي ألفونسو لاستجداء معاونته كلما ضعفوا عن مقاومة إخوانهم المسلمين - لذلك تقربت كل الدويلات الإسلامية إلى ألفونسو بتقديم الإتاوات وكان ألفونسو يزيد فيها كل عام كلما زادت قوته، لأنها ثمن عطفه وحمايته، ولأنه كان يريد أن يرضخ المسلمون من المال، ما يكفي لمحوهم ومحو آثارهم من أسبانيا.

وقد بذل ملوك الطوائف هذه الإتاوات للاستعانة بجيوش الفونسو، أو للخوف من غاراته العنيفة التي كان يشنها في كل مكان، حتى لقد وصلت جنوده إلى قادس.

وكان شمال أسبانيا فقيراً ممحلاً، وكان من أضاحيك القدر، أن يجمع ألفونسو من ملوك المسلمين ما يعدّ به العدة لدمارهم، على أنه مهما اختلف هؤلاء الملوك وتحاسدوا، فقد كان لصبرهم على الفونسو حدّ يقفون عنده، فإنهم تيقظوا من سباتهم، وأحسوا بالخطر المحدق بهم، وعملوا على دفع الكارثة عنهم، حينما علموا أن الفونسو اخترق الأندلس على جواده آمناً مطمئناً، حتى وصل إلى أعمدة هرقل فنزل ليبترد في المحيط، وحينما رأوا أنه وضع حامية تزيد على أثنى عشر ألفاً من الجنود الشجعان في حصن ليط، وهو في وسط بلاد المسلمين، ومنه كانت تخرج جنوده لتعيث وتنهب وتغير، وحينما علموا أن لذريق البيفاريّ أو السيد الكمبيدور[1] احتل بلنسية مع القشتاليين، ونهب ما حولها من الأرض حتى صيرها قفراً يباباً. وحينما ظهر لهم جلياً أن ألفونسو لا يقصد إلا أن يعيد أسبانيا إلى المسيحية، وأن يستأصل شأفة المسلمين.

ولكن ملوك الطوائف كانوا على الرغم من تفاقم الخطب أضعف من ذات خمار، وكانوا في يأس من توحيد كلمتهم وتواثقهم على مكافحة العدو، لكثرة ما بينهم من تحاسد وتنافس وغيرة. لذلك صاروا إلى ما ليس منه بدّ، وهو دعوة الغرباء إلى عونهم.

وقد رأى بعضهم ما في هذه الدعوة من الخطر المحيق، ولكن المعتمد ابن عباد[2] أسكتهم بقوله: «لأن أكون سائق جمال في صحراء إفريقية خير من أن أرعى الخنازير في قشتالة!!» ولم تكن المعونة التي التمسوها بعيدة عنهم، فقد شبت ثورة في شمال إفريقية

---

(١) يسميه صاحب نفح الطيب القنبطور.

(٢) أشهر ملوك الطوائف، شاعر، أديب، شجاع. أسرة ابن تاشفين ومات بالمغرب سنة ٤٨٨ هـ.

انبثق منها مذهب متعصب جديد، سمي أصحابه بالمرابطين، وقد تغلب هؤلاء المرابطون على المملكة جميعها من الجزائر إلى السنغال، وكانوا من طابع طارق وأصحابه، وكانوا على أتم أهبة لاجتياز البحر والتغلب على أسبانيا الخصيبة، وأظهروا للناس أن هذا الغزو مكرمة منهم وجهاد فى سبيل الله، ولم تبدر منهم بادرة تدل على رغبتهم فى الأندلس. غير أنهم نزلوا بأسبانيا، ومن الهين أن ندرك أنهم نزلوها لتكون دار إقامة.

وحينما وصل المرابطون إلى الأندلس كأرجال الجراد، ليلتهموا المملكة التى قدمت نفسها لهم طعاماً، كانت الطريق مذللة أمامهم، وابتهج الأندلسيون حينما رأوا فيهم ساعداً أزلّ مفتولاً، جاء ليمحو الفوضى التى بددت هناءتهم منذ أن مات المنصور العظيم. أما ملوك الطوائف أو صغار الطغاة: فمنهم من دعاهم للإقامة ببلاده، ومنهم من لم يستطع مقاومتهم فصبر على مضض، ولكنهم اغتبطوا جميعاً بكبح القشتاليين، وكسر شوكتهم. وعندما وصل يوسف بن تاشفين ملك المرابطين[1] إلى الأندلس، وتملك مدينة الجزيرة لتكون ميناء له وقاعدة لجنوده، اخترق الولايات بجيوشه حتى التقى بألفونسو عند الزّلاقة بالقرب من بَطَلْيَوْس، فى الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٠٨٦ م (٤٧٩ هـ) وصاح ألفونسو حينما رأى جيشه اللهام: «بمثل هؤلاء أحارب الشياطين والجن والملائكة». على أنه مع هذا التجأ إلى حيلة ليدهم بها أعداءه من البربر والأندلسيين على غرة، ولكن يوسف لم يكن من الهين خداعه، فأحاط فى مهارة وحذق بجيش القشتاليين من الأمام والخلف، ووضعهم بين نارين، فتحطم القشتاليون وهزموا شر هزيمة، على الرغم من المقاومة العنيفة وأساليب الحرب التى برع فيها هؤلاء الجنود المدربون، وفرّ ألفونسو ـ وما كاد يستطيع الفرار ـ بنحو خمسمائة فارس، وترك آلافاً مؤلّفة من خيرة جنوده فى الميدان. وبعد هذا النصر المبين، عاد يوسف بن تاشفين إلى إفريقية، وترك بالأندلس ثلاثة آلاف من جنوده لمعاونة الأندلسيين لأنه وعد ألا يضم الأندلس إلى مملكته، وبرّ بهذا الوعد، إلا فى جزيرة طريف فإنه اختارها لنفسه.

فرح الأندلسيون بمقدّمه وأطروا شجاعته، وابتهجوا بنجاة بلادهم، وأعجبوا بسذاجته وتقواه، إذ رأوا أنه لا يعمل عملاً إلا بعد استشارة الفقهاء، حتى إنه أبطل

(١) خلف ابن عمه على بلاد المغرب فاستقر له ملكه ودانت بلاده، وكان شجاعاً داهية متشدداً فى الدين، توفى سنة ٤٩٣ هـ.

الضرائب بأسبانيا إلا ما أقره عمر بن الخطاب فى عهود الإسلام الأولى. ولكن طبقة المتعلمين بالأندلس كانت تسخر من جهله وجفوة أخلاقه، فلم يكن يحسن العربية، ولم يكن يدرك مرامى الشعراء إذا أنشده شاعر قصيدة فى مدحه. وليس هذا بالنقص اليسير فى رأى الأدباء الأندلسيين، الذين لا يغفلون عن إنشاد الشعر والاستشهاد به ولو كانوا فى بحر من الدماء. فلم يكن يوسف فى أعينهم إلاّ بربرياً، غير أن نقدهم لثقافته لم يكن له وزن ما داموا فى حاجة إلى سيفه، أما جمهرة الأندلسيين: ففكروا فى رفاهيتهم أكثر مما فكروا فى علمه، وكانوا على استعداد لقبوله مسرورين ملكاً على الأندلس. وفى سنة ١٠٩٠ م (٤٨٣ هـ) استجدى ملك إشبيلية عون المرابطين ليصدوا عنه غزوات المسيحيين، الذين استمروا فى عدائهم وطفقوا يرسلون غارات مستمرة من حصن ليط.

أجاب ابن تاشفين الدعوة مظهراً التثاقل وعدم الرغبة، ولكنه فى هذه المرة وجه هجومه إلى ملوك الطوائف، وإلى نصارى قشتالة على السواء، وملأ الملوك الأغبياء أذنيه بشكوى بعضهم من بعض، وخيانة بعضهم لبعض، حتى عرفهم يوسف جميعاً، ولم يثق بهم جميعاً. وكان يعتمد على الأمة وعلى الفقهاء الذين أحلّوه سريعاً من عهده بألاّ يضم إليه الأندلس، وغالوا فأدخلوا عليه: أنّ مما يجب عليه - إرضاء لربه - أن يعيد السلام والرفاهية إلى هذه البلاد المنكوبة.

أطاع ابن تاشفين نصيحة الفقهاء، لما كان يخالجه من الطموح فى ملك أسبانيا الذى كان يكتمه ويخفيه، فشرع فى إخضاع أسبانيا قبل انتهاء سنة ١٠٩٠م فدخل غرناطة فى نوفمبر، ووزع على قواده الكنوز العجيبة التى لم يروا مثلها أو ما يقرب منها فى حياتهم، من الماس والدر والياقوت والجواهر الثمينة، والحلى الذهبية والفضية، والكئوس الزجاجية وعتاق البسط، وغير ذلك مما لم يسمع به من النفائس. ثم سقطت جزيرة طريف فى ديسمبر، وشهدت ألسنة التالية سقوط إشبيلية وغيرها من كبار مدن الأندلس، وجرد ألفونسو جيشاً يقوده البرهانس فهزمه المرابطون، وأصبح القسم الجنوبى فى أيديهم إلا مدينة بلنسية التى لم تفلح فيها محاولة، ما دام السيد الكمبيدور يتولى الدفاع عنها، وفى سنة ١١٠٢ م (٤٩٥ هـ) سقطت بلنسية بعد موته، فغدت الأندلس الإسلامية كلها - حاشا مدينة طليطلة ورُيَّة - تابعة لمملكة المرابطين بإفريقية.

رضى جمهور الأندلسيين إلى حين - ولحاجة فى أنفسهم - عما آلت إليه البلاد بعد

دعوة المرابطين إليها، ولكن قِلّة من عظماء الأندلس والمثقفين، كانوا ساخطين على تلك الحال، فإنهم كانوا يحكمون بطائفة من الدينيين المتزمتين[1] كما كانت تحكم إنجلترا فى أحد عهودها، ولكن إنجلترا ظفرت بملتون[2] شاعر هذا العهد، فخفف من شدته وعبوسه. اشمأز الشعراء من جفوة البربر وخشونتهم وجهلهم، فإنهم لم يفهموا روائع أشعارهم، وإذا حاولوا التشبُّه بملوك الطوائف الأدباء البارعين فى ذوقهم المرهف ونقدهم الدقيق، أتوا بما يستثير الضحك. ولم ير المفكرون فى رجوع السلطة إلى الفقهاء المتعصبين ما يبعث على التفاؤل، فقد كان هؤلاء أصحاب الرأى والشورى عند المرابطين، فحاربوا كل ما يتصل بالفلسفة، وجمدوا على أن يفهموا القرآن من تفسير مفسِّر واحد[3]. أما اليهود والنصارى فإنهم أدركوا سريعاً ما يفهم المرابطون من معنى التسامح، فقد قسوا فى اضطهادهم، وجردوا عليهم سلاحين من القتل والنفى. وأما من بقى من الأسر القديمة ومن فرّ من السيف من ملوك الطوائف، فإنهم كانوا فى يأس قاتل، حينما رأوا هذا الدخيل يعيد إلى أذهانهم أعمال البربر الشنيعة آخر أيام الخلفاء بقرطبة.

ولكن جمهور الأندلسيين كانوا فى غبطة وسرور لاستيلاء المرابطين على الأندلس، فقد أمنوا على أرواحهم وأموالهم، ذلك شىء لم يستطيعوا تخيله أيام كانت المملكة ممزقة إلى ولايات، وكان أقوى الملوك من يستطيع أن يحمى رعيته حول قلعته، وأيام كانت الطرق غاصّة بعصابات اللصوص، وأيام كان النصارى يغيرون على القرى وينهبون البلاد. أما الآن فقد استتب النظام والهدوء ولو إلى حين، وخضع الناس للقانون، وهزم النصارى فعادوا إلى حصونهم، وأخذ الناس مرة أخرى يحلمون بالثروة والرفاهية.

ولكن هذا الحُلْم كان وهماً وخيالاً باطلاً، فإن القدر لم يدخر نجاحاً ولا سعادة لرعية المرابطين: فقد أصاب البربر ما أصاب الرومان والقوط من قبلهم، فإنهم جاءوا إلى أسبانيا غلاظاً شداداً، لم يعتادوا النعيم والرفه، يتفاخرون بالشجاعة والقوة، ولهم قلوب يملؤها تعصب دينى غضوب ساذج، ولكنّهم لم يلبثوا بها إلا قليلاً متمتعين بثمار

(١) يشبههم المؤلف بالبيوريتان أو الأصفياء: وهم صنف من البروتستنت متشدد فى الدين وكان لهم نفوذ أيام حكم كرمويل.

(٢) شاعر إنجليزي من الدرجة الأولى اشتهر بالنقد اللاذع الساخر، ولد سنة ١٦٠٨ م. ومات سنة ١٦٧٤ م.

(٣) فى أخبار المغرب للمراكشى: وكان لا يبت حكومة فى صغير ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، وقرر الفقهاء عنده تقبيح علم الكلام، وأمر بإحراق كتب الغزالى لما دخلت الأندلس.

انتصارهم، حتى أصيبوا بفساد الأخلاق وانحطاط العزائم الذى أصاب جنود (هانيبال) حينما استناموا إلى لذائذ الحياة فى (كابو)[1]. فقد البربر الميل إلى الحرب، والإقدام على الأخطار، واحتمال ويلات القتال. أو قل: إنهم فقدوا رجولتهم فى أقصر ما يُتصور من زمن. فلم يكن لهم بعد عشرين عاماً جيش يعوّل عليه فى صد هجمات القشتاليين، بل كان جيشهم حشداً غير منظم من حطام آدمى، وكسالى بائسين أدمنوا الخمر، وخدعوا فتوّتهم فبددوها، وأصبحوا عبيداً لكل شهوة تجعل الرجل جباناً رعديداً.

وبدل أن يصونوا النظام كانوا هم أول العابثين بالنظام، فقطعوا الطريق على المسافرين وسرقوا كلما لاحت لهم لائحة، ووصل الضعف بحكّامهم أن صاروا تحت سيطرة العواهر من النساء، والطامحين من الفقهاء، فنقضوا اليوم ما أبرموه بالأمس. ومثل هؤلاء لا يطول بهم الحكم: فإن ثورة جامحة قامت بإفريقية للقضاء على المرابطين، وجدد القشتاليون بقيادة ألفونسو «المحارب» غاراتهم على الأندلس. ففى سنة ١١٢٥ م عاثت جنودهم فى الجنوب سنة كاملة. وفى سنة ١١٣٣ م أحرقوا أرباض قرطبة وإشبيلية وقرمونة، وانتهبوا شَريش وأشعلوا فيها النار. وامتدت غزوات النصارى من ليون إلى مضيق جبل طارق. أما الدولة الإسلامية حيال كل هذا فلم تفعل شيئاً، لذلك غضب الأهلون وثارت جموعهم، وطردوا المرابطين من البلاد.

ويقول مؤرخ عربىّ: «وفى النهاية... عندما رأى الأندلسيون تحطُّم دولة المرابطين لم ينتظروا طويلاً، فكشفوا حجاب الرياء وأظهروا العصيان وسمّى نفسه بالمِلك واتخذ شعار السلطان كلُّ حاكم صغير، أو زعيم، أو رجل ذى شأن يستطيع أن يجمع حوله ثُلّة من الأنصار، أو تكون له قلعة يحتمى بها عند الحاجة. وصار الملوك فى الأندلس بعدد ما فيها من مدن: فملك ابن حمدين قرطبة، وابن ميمون قادس، وحكم ابن قسىّ و «ابن وزير سيدراى» بالغرب، واللمتونى بغرناطة، وابن مردنيش ببلنسية. وبعض هؤلاء من الأندلسيين، وبعضهم من البربر.

ثم اختفى جميع هؤلاء حينما ظهر علَم الموحّدين الذين أزاحوهم عن عروشهم،

---

(١) مدينة من أجمل مدن إيطاليا وأمنعها حصانة، حاصرها الرومانيون حتى كاد يهلك أهلها فاضطر هانيبال إلى تسليمها حوالى سنة ٢١٠ ق. م.

وأخضعوا الأندلس جميعاً لحكمهم»[1].

وكان عبد المؤمن قائد الموحّدين، هو الذى أزال ملك المرابطين فى إفريقية وأسبانيا.

(١) كان مبدأ غزو المرابطين لامتلاك الأندلس فى سنة ٤٨٣ هـ، وحكمها منهم يوسف بن تاشفين ثمّ ابنه على بن يوسف ثمّ تولى بعده عمه إسحاق الذى قتله الموحّدون سنة ٥٤١ هـ.

السيِّد المُبَارِز

لقد آن لنا أن نتّجه إلى أعداء العرب فى الشمال، وقد ذكرنا آنفاً ما كان من أمر (بلاى)، وكيف أنه جمع ما بقى من القوط فى كهفه الذى لا ينال، ومعقله بصخرة جبال (استورياس) وكيف أن هذه الفئة القليلة اجتازت بعد قليل حدودها، وشجّعها على التحدى والنضال ما شجر من الخلاف بين قبائل البربر، الذى انتهى بهزيمتهم عند الحدود الشمالية للدولة العربية.

جدد شيء من ذلك الحياة فى هذه الفئة وقوّى من عزمها، فاستعادت بالتدريج أكثر الأراضى التى فى شمال جبال وادى الرمّل، وأسسّت مملكة ليون، ومقاطعة قشتالة. وكانت مملكة نافار تبعد نحو الشرق عند سفح جبال ألبُرت (البرانس). وذكرنا أيضاً كيف أن هذه الممالك المسيحية كانت فى حرب مستمرة مع جيرانها المسلمين، وأنه كان فى باب الظن أن تكون هذه الحروب خطراً على العرب، لولا ذلك الانقسام المستمر والخلف الدائم بين المسيحيين، مما حمل بعض ملوكهم أن يلتزم الحيدة ويتجنب القتال. وكان من السهل اليسير على المسلمين أن يصونوا دولتهم مهيبة عزيزة الجانب، لو بقيت مملكة قرطبة قويّة غير متفرقة الأهواء، ولكن حينما سقطت قرطبة، وأصبحت الأندلس نهباً مقسماً بين ملوك الطوائف، الذين لم يفكروا إلا فى أنفسهم أولاً، ثم - إذا دعت الحال - فى المملكة الإسلامية - تجرّأ النصارى وتمكنوا من أن يستعيدوا من العرب عدداً غير قليل من البلدان. وقد شهدنا كيف أن النصارى زحفوا على أرض المسلمين بجيوشهم المظفرة، وضربوا الإتاوات على أعاظم ملوكهم، حينما ازداد الإضطراب وعمت

الفوضى فى القرن الحادى عشر. وأصبح لكل مدينة دولة ولكل دولة أمير ووزراء. . . فى هذا الوقت جمع فرديناند الأول القسم الأعظم من الشمال تحت رايته، فألّف بين الولايتين المتعاديتين: ليون، وقشتالة، وأضاف إلى ملكه: أستورياس، وغاليسية. وكان فى هذا الحين أقوى ملك بأسبانيا جميعها، وقد ضم إلى مملكته مدن البرتقال: لورميجو، وبازو، وقُلُمْرية، وأخذ الإتاوات من ملوك: سرقسطة، وطليطلة، وبطليموس، وإشبيلية.

نعم إن رأيه السقيم فى تقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة وبنتيه جرّ على الشمال بعد موته ويلات متصلة الحلقات من الحروب الأهلية، ولكن الفونسو السادس «الشجاع» تمكن فى النهاية من ضم أشتات المملكة، فانتعشت القوى المسيحية، وأصبح تغلبها على أعدائها من الحتم المحقق.

ولم يمنع المسيحيين من قهر الأندلس واستردادها فى هذا الحين الذى ضعفت فيه العرب، إلا ما كان يبعث به إليهم ملوك الطوائف من الرُّشا التى تأبى على الحصر، ليشتروا بها كفّهم أو عونهم، وإلا ما كان يظهر فى الأفق البعيد من جيوش المرابطين. وعلى أية حال لم يكن ملوك الطوائف حكاماً مستقلين، لأنهم وقعوا بين شقيّ رحا: من الخوف من الفونسو، ثم من الخوف ممّا هو أعظم خطراً من الفونسو، وهو تغلّب حلفائهم المرابطين، ولكنّهم فى النهاية اضطّروا إلى اللجوء إلى المرابطين.

ويظهر لنا فى هذا الوقت تدخل النصارى فى أكثر شئون المسلمين السياسية، ونرى التحالف بين الفريقين مشتبك العُرا، وأن كثيراً من جنود النصارى المرتزقة كانوا ينضمون إلى جيوش العرب فى حروب مدمرة للولايات المسيحية، وأن كثيراً من العرب كانوا يُعينون جيوش النصارى على إخوانهم المسلمين. . .

وقد نخطىء خطأ بالغاً إذا قدّرنا لجنود ليون وقشتالة منزلة تقرب من المثل الأعلى للبطولة والفروسية، وأكبر فى باب الخطأ أن نتخيلهم رجالاً مهذبين مثقفين. فإن نصارى الشمال كانوا من كل وجه على النقيض من منافسيهم العرب، لأن العرب - وإن قدموا الأندلس فى جفوة طبائع القبائل وخشونتها - رقّت أخلاقهم بالاختلاط بالأندلسيين وبميلهم الطبيعى إلى المرح والترف، فوصلوا إلى قمة المدنية وأغرموا بالشعر والأدب، وتجرّدوا لطلب العلم، وأحبوا فوق ذلك أن يتمتعوا بكل لذائذ الحياة. وقد كان ذوقهم العقلى والأدبى مرهفاً دقيقاً، وكان لهم ذلك الإحساس الذى لا يشعر به إلا من نشأ نشأة سامية فى

العلم والأدب، وقد كانوا واسعى التصوّر خياليّين شعريّين مفكّرين، يمنحون من المال على مقطوعة شعرية رائعة، ما يكفى للإنفاق على فرقة من الجنود. وكانوا ينظرون باحتقار إلى أقوى ملوكهم وأشدهم بطشاً إذا لم يكن شاعراً، أو لم يوهب له ذوق فهم الفكاهة الشعرية والبلاغة العربية. ومُنح هؤلاء القوم البارعون استعداداً طبيعياً فى الموسيقى، والخطابة، ودقائق العلوم، والنقد، وإدراك التوريات البعيدة التى نعدُّها اليوم من ميزات الأمة الفرنسية.

أما نصارى الشمال، فكانوا على الخلاف من ذلك بقدر ما يتصور العقل من خلال: كانوا فى بداوة الأمم الناشئة على الرغم من أنهم أخلاف أمة قديمة، فكانوا جفاة غير مثقفين، وقليل من أمرائهم من كان له حظّ من مبادىء العلم، وكانوا من الفقر وعسر الحال، أعجز من أن يتمتعوا بفنون الرّفه التي يتمتع بها أمراء العرب... غير أنهم كانوا رجال حرب وجلاد، لا يقل نزوعهم إلى القتال عن نزوع أعدائهم المسلمين، وقد يفوقون هؤلاء فى استعدادهم للنضال واحتمالهم الحرب الطويلة الأمد، وجرأتهم اليائسة المستميتة.

لقد كانوا رجال سيف ليس غير، وطالما دفعهم الفقر وحفزتهم الحاجة إلى خدمة أي إنسان كيفما كان. فكانوا يبيعون شجاعتهم لمن يدفع أغلى ثمن، لأنهم يحاربون ليعيشوا. وتاريخ القرن الحادى عشر لأسبانيا مملوء بالوقائع التى حارب فيها أبطال النصارى تحت راية المسلمين، ولكن ليس بين هؤلاء الأبطال من نال شهرة السيد بطل أسبانيا.

هذا السيّد هو لذريق البيڤارىّ؛ وقد سماه أتباعه من العرب بالسيّد، وكان من أسمائه أيضاً: الكَمْبيدور ومعناها: البطل، أو المبارز المتحدّى، لأن شجاعته الفائقة فى الحروف جعلته المبارز المشهود له بالسبق فى المبارزات التى كانت تسبق التحام الجيشين.

ولم يكن أحد أبعد شهرة وأكثر انتصاراً فى المبارزات من لذريق، أو سيدى القنبطور «كما كان يحلو لأحد قدامى المؤرخين أن يدعوه» ومن السهل الهيِّن أن نميز الصحيح مما شاع من الروايات عن ضروب شجاعة السيد وإقدامه، التى امتلأ بها تاريخه العجيب.

وأكثر ما حبّب السيد إلى نفوس القشتاليين، عزوفه عن طاعة الملك ألفونسو وإن عدّ ذلك مدوّن سيرته عيباً يحط من بطولته، فإن صاحب هذه السيرة، أو المعين على جمعها، وهو ألفونسو العالم، لم يستطع أن يتجاوز عن صلف السيد وتحدّيه لسلفه ألفونسو السادس. لذلك نلحظ في ترجمة سَوْذي[1] لسيرة السيّد ـ وهي غنية باستشهادات كثيرة من قصيدة السيد وغيرها ـ وقوفاً مقصوداً عن الاسترسال في الإطراء، وكبحاً فجائياً لجماح الأناشيد، والقصص الموغلة في الملق والمديح. وبهذه السيرة إسهاب كثير فيما لا يشرف السيد، أو يربأ به عن المذمّة، غير أنها تصوّر أخلاق البطولة الحقة بما فيها من خير وشر، وتعرض صورة شائقة عجيبة لهذا العصر المضطرب، ومثالاً رائعاً لهذا الفارس المُعْلم بين الفرسان الأسبانيين.

ولو قصدنا إلى سرد قصة السيد كاملة لملأنا بها مجلداً ضخماً، لذلك نرى من الخير أن نقصر عنان القلم على اقتطاف بعض فقرات من سيرته. ولسنا نعلم شيئاً عن بطلنا في أيام صباه. والذي نعلمه عنه: أنّ أوّل ورودٍ لاسمه في التاريخ كان في سنة ١٠٦٤ م حينما فاز بلقب المبارز، لانتصاره في مبارزة على أحد فرسان نافار، وأنه عيّن إثر ذلك قائداً لجنود قشتالة، وكان فوق العشرين بقليل، ثم نعلم أنه ساعد سانشو أمير قشتالة على قهر أخيه، بمفاجأة فيها كثير من معاني الغدر والخيانة، وإن عُدت من الحيل الحربية في هذا الزمن الجافي الخشن. وبعد أن قتل بليدو سانشو عند أسوار زمّورة، لحق السيد بخدمة خلفه، وهو ألفونسو نفسه، الذي كان السيد سبباً في نفيه بعد انتصار أخيه سانشو عليه. وقد أحسن ألفونسو أول الأمر لقاء فارس قشتالة المظفّر في قصره، وزوّجه بنت عمه ولكن حُسّاد السيد ملئوا صدر ألفونسو بالسخائم والحقد عليه، ولم يكن منه سليم دواعي الصدر، فنفاه من مملكته سنة ١٠٨١ م (٤٧٤ هـ). وتقص علينا سيرته ما أصابه بعد ذلك فتقول:

«وبعث السيد إلى أصحابه وأقاربه وخدمه، وأخبرهم بما آل إليه حاله، وما كان من أمر الملك بنفيه، ثم سأل عمن يريد منهم أن يتبعه في منفاه، وعمن يريد منهم أن يقيم، فاتّجه إليه الڤارڤانز «البرهانس» وهو من أبناء عمومته، قائلاً: «إننا أيها السيد ستتبعك جميعاً حيثما ذهبت، ولن نخفر لك عهداً. . . إننا سنسير معك في البدو وفي الحضر،

(١) روبرت سوذي: شاعر كاتب أديب إنجليزي مات سنة ١٨٤٣ م.

وسنبذل فى خدمتك بغالنا، وخيولنا، وأموالنا، وثيابنا إن شئت، وسنبقى لك أوفياء مخلصين مدى الحياة». وأيّد جميعهم مقالة القارڤانز فشكر لهم السيد عطفهم ومحبتهم ثم قال: إن الفلك يدور، وإن الأيام قد تمكنه من توفية جزائهم.

«وعند رحيله أخذ يلتفت إلى داره، فغلبه الدمع وصاح: هذا من عمل أعدائى، فالحمد لله على السرّاء والضرّاء. وزاد من شجونه أن رأى بهوه قفراً، وصناديقه مبعثرة، وأبوابه مفتحة، ومشاجبه ملقاة على الأرض، ومقاعد فناء الدار وقد رفعت، والصقور التى كانت تعلو قممها وقد طارت. ثم اتّجه إلى الشرق وسجد وهو يتمتم: مريم . . . مريم . . . . أيتها الأم المقدسة . . . ويأيها القديسون جميعاً. توسلوا إلى ربى أن يهب لى القوة لاستئصال الوثنيين، وأن يمنحنى من غنائمهم ما يُقدرنى على مكافأة إخوانى هؤلاء، ومكافأة كل من يتبعنى ويعيننى. ثم دعا القارڤانز وقال له: يا ابن العمّ . . . إنّ الأمة المسكينة لم يكن لها يد فيما رَزَأنا به الملك، فاعمل على ألاّ يصاب أحد منها بسوء فى أثناء الطريق . . . ثم دعا بفرسه، وكانت امرأة عجوز واقفة عند باب دارها، فما رأته أجهشت بالبكاء قالت: ارحل على الطائر الميمون أيها السيد، وانهب من الغنائم ما شئت. وبعد سماع هذه الوصية الغالية، ركب جواده وقال: أيها الأصدقاء. إننا سنعود بمشيئة الله إلى قشتالة متوّجين بالشرف، فائزين بالغنم الكثير. وعند رحيلهم من بيفار[1]، رأوا غراباً سانحاً، فلما وصلوا إلى برغش رأوا غراباً بارحاً.

«ولما دخل برغش كان برفقته ستون رجلاً، فهرُع الرّجالُ والنساء لمشاهدته عن بعد وهم حذرون، وأطل كثير من منافذ دورهم باكين محسورين، وصاحوا بصوت واحد: سبحان الله!! سبحان الله!! يا له من خادم كريم لو ظفر بسيد كريم!! وتمنوا أن يضيّفوه فى دورهم. ولكنهم لم يجرءوا، لأن ألفونسو فى حدّة غضبه أرسل رسائل إلى أهل برغش يحذرهم فيها من إيواء السيد، وينذر من يخالفه بمصادرة أمواله وسمل عينيه. واستولى الحزن والهم على النصارى حينما شاهدوا هذه المرزأة من بعيد، وأخذوا يختفون حينما قرب السيد منهم، لأنهم كانوا يحذرون مشافهته والقرب منه. فذهب السيد إلى «بوسادا» وهو الخان الذى كان ينزل به، فرأى صاحب الخان قد أسرع بإغلاق بابه خوفاً من الملك، وعندما صاح رجاله بأبى المثوى أن يفتح بالباب لم يجبهم أحد، فقرب السيد من

(١) اسم قصر السيد.

الخان، وخلع قدمه من الركاب، وضرب الباب بها فلم يفتح، لأنه كان وثيق الغَلْق، وعندئذٍ خرجت فتاة صغيرة فى التاسعة من إحدى الدور وقالت: أيها السيد. . . لقد نهانا الملك أن نؤويك فلم نستطع أن نفتح أبوابنا لاستقبالك، ولو فعلنا لفقدنا دورنا، وأموالنا، وأعيننا التى فى رءوسنا. . . أيها السيد، إن مصيبتنا بإيوائك لن تساعدك، ولكن الله وجميع القديسين معك.

«وعندما علم السيد بما أمر الملك به، لوى عنان جواده نحو كنيسة سنت مارى، وهناك ترجّل وسجد، وصلى بقلب خافق يفيض رهبة وخشوعاً، ثم ركب ثانية وغادر المدينة. حتى إذا كان غير بعيد من نهر أرلنسون، عرّس ودق أطنابه فوق الرمال، لأن أحداً لم يقبل أن يضيّفه، فأقام بين أنصاره وصحبه كما لو كان مقيماً بين الجبال التى خلت من دبيب الحياة.

«وأذّنت الديكة بأصواتها النديّة، وبدت تباشير الصباح، عندما وصل السيد إلى دير سنت بدرو، وكان إذ ذاك راهب الدير الدون سبيوتو يؤدى صلاة الفجر، ومعه الدونة شيمانة زوج السيد، فى خمس من وصائفها النبيلات، يدعون الله والقديس بطرس أن يعين السيد ويشدّ أزره. فلما سمع الراهب صوت البطل لدى الباب كان سروره عظيماً، فخرج هو ومن معه إليه يحملون المشاعل والشموع، وحمد الراهب الله أن متعه بلقائه، وأخذ السيد يقص عليه كل ما حدث له، وما رماه به الملك من النفى والإضطهاد. ثم منحه لنفسه خمسين ديناراً، وأعطاه مائة دينار لزوجه وبنتيها وقال: أيها الراهب. إنى أكِلُ إلى رعايتك بنتىّ هاتين، بعد أن أتركهما ورائى، فأخفض لهما جناح الرحمة، واعطف على زوجى ووصيفاتها، فإذا نفذ هذا المال فأنفق عليهن سخياً مبسوط اليد، فإن كل دينار يصرف عليهن سيردّ إلى الدير أربعة دنانير. فوعده الراهب بأنه سيفعل ما يؤمر بمشيئة الله. ثم تقدمت شيمانة إلى زوجها وهى تحمل طفلتيها، كل طفلة فوق ذراع، وجثت أمامه على ركبتيها وهى تبكى بكاء شديداً، وتومىء إلى يديه بالتقبيل، ثم قالت: أنظر الآن كيف نبت بك بلادك وشمت بك الأعداء والحاسدون، وأنظر الآن ما صار إليه أمرى وأمر بنتىّ الصغيرتين، وكيف حكم علينا بالفراق ونحن أحياء؟! أقسم عليك بحق مريم إلاّ ما أخبرتنى عما أفعل!! فحمل السيد طفلتيه فوق ذراعيه وضمهما إلى قلبه، وانتحب طويلاً، لأنه كان شديد الحب لهما، وقال: إنى سأحيا بمشيئة الله ومشيئة السيدة مريم، حتى أزوّج

ابنتىَّ هاتين، وحتى أقوم بشرف خدمتك أيتها الزوج النبيلة التى أحببتها كنفسى. وأقاموا فى هذا الدير وليمة للبطل الكريم، وصدحت أجراس الدير برنات البهجة والسرور.

ومضت ستة أيام من المهلة التى منحها ألفونسو إياه لمغادرة البلاد، وبقى منها ثلاثة.

«وكان ألفونسو صُلب العود عنيداً، فلو أنه بقى فى المملكة بعد انتهاء المهلة يوماً واحداً، ما استطاع أن ينقذه من براثنه ذهب ولا فضة. وفى هذا اليوم أَوْلَمَ مع أصحابه، ثم وزع عليهم فى المساء كل ما يملك، فأعطى كل رجل على قدر منزلته، ثم أمرهم أن يتلاقوا بالدير عند صلاة الفجر ليرحلوا معاً. وقبل أن يصيح الديك كانوا قد أخذوا أهبتهم واجتمعوا بالدير، فأدّى بهم الراهب الصلاة حتى إذا انفتلوا منها أعدوا خيلهم للرحيل. وهنا أخذ السيد يعانق شيمانة وبنتيه ويدعو لهنّ، وكان فراقه لهن أشبه بنزع الظفر من لحم الأنامل. وعند مغادرة الدير طفق يبكى ويكثر من التلفت وترديد الزفرات، فقرب منه الفارڤانز وقال: أين شجاعتك أيها السيد؟! لقد ولدت سعيد الطالع مجدوداً!! فكر الآن فى سفرنا، واعلم أن هذه الأحزان ستنقلب فى يوم سعادة وسروراً».

عرض السيد نفسه على أمير سرقسطة(1)، وكان أقوى ملوك المسلمين فى الشمال، فرحب به وبرجاله وضمّهم إلى جيشه.

ومن هناك قاد السيّد أتباعه إلى غارة بأراغون، وكانوا قد شغفوا به ورأوا الغنم فى متابعته، وكان سريع الضربة فى هذه الغارة خفيف الخطا، حتى لقد قطع مسافات بعيدة فى خمسة أيام، وفرّ بغنائمه قبل أن يشعر النصارى بمقدمه. ثم قاد العرب لمحاربة كونت برشلونة ففاز فوزاً مبيناً، حتى اضطر الكونت إلى محالفته.

وأعظم أعمال السيّد تغلُّبه على بلنسية. وقصة ذلك: أنّ أمير سرقسطة ندبه لحماية أمير بلنسية، بعد أن اضطرب بها حبل السياسة، وتفاقمت الأمور، فدخل المدينة أوّل ما دخلها مسالماً: والسيرة تقول:

«فذهب السّيد إلى بلنسية، واستقبله الأمير يحيى بن ذى النون أحسن استقبال،

---

(1) هو أحمد بن سليمان بن هود الملقب بالمقتدر.

وعقد معه ميثاقاً تعهّد فيه : أن يمنحه كل أسبوع أربعة آلاف مرابطى[1] لقاء إخضاع أهل الحصن لطاعته، حتى يؤدوا إليه الإتاوة التى كانوا يؤدونها لأسلافه من أمراء بلنسية، وعلى أن يحميه السيد من العرب والنصارى، وأن يتخذ بلنسية منزلاً له ومُقاماً، وأن يجلب إليها ما يسطو عليه من الغنائم لبيعه بها، وأن يتخذ بها أهراءه. وقد دُوّن هذا الميثاق حتى يكون حجة لكليهما. فأرسل السيد إلى من بالحصن يأمرهم أن يؤدوا الإتاوة إلى أمير بلنسية كما كانوا يفعلون من قبل فقبلوا طائعين وتسابقوا إلى مرضاته».

ومذ ظفر السيد بهذا المنصب، شرع يقود جيوشه المظفّرة إلى الممالك المصاقبة «فحارب دانية، وشاطبة، وقام بها فى أثناء الشتاء مدمراً عاتياً فلم يدع حجراً على حجر من أريولة إلى شاطبة، وكان يبيع غنائمه وأسراه ببلنسية».

وفقد السّيد سيطرته على بلنسية حينا من الدهر، فى أثناء هذه الحروب والغارات: ذلك أن ألفونسو سنة ١٠٨٩م (٤٨٢هـ) عاد فرضى عنه ومنحه حصوناً، وأقرّه على جميع ما استولى عليه فى غزواته، وبهذا الإقرار أصبح السيد أميراً مستقلاً، غير أنه لم يمض من الزمن إلاّ قليل، حتى عاد الملك إلى الشك فى أمره، والأخذ فيه بالشبهة، فاقتنص فرصة غيبته بالشمال، وأسرع فحاصر بلنسية. وحينما علم الكمبيدور بذلك اشتعل غضباً، ووجّه انتقامه إلى مقاطعات ألفونسو، فدمّر بالسيف والنار ناڤار، وقلهرة، وترك حصن لوكرني دكّا. وجاء فى بعض المدوّنات اللاتينية القديمة: «وعاث فى الأرض جباراً نهّاباً ثم غادرها قفراً يباباً، بعد أن احتجن خيراتها» فاضطر ألفونسو إلى رفع الحصار عن بلنسية، وعاد مسرعاً لإنقاذ مملكته، ولكن السيد بعد أن نال مأربه من غزو ممالك ألفونسو، سلك سبيلاً أخرى إلى بلنسية، فوجد أبوابها مغلقة دونه.

ومن ذلك الحين ابتدأ ذلك الحصار التاريخيّ الذى لبث تسعة أشهر، لاقى فيها أهل بلنسية الشدائد والمحن، فاشتد بهم الجوع والظمأ. كل هذا والسيد ورجاله محيطون بأسوارهم بقلوب أشد صلابة من هذه الأسوار، لم تنفذ إليها الرحمة، ولم تعرف فى الحرب ليناً ولا رفقاً، وآض أهل بلنسية فى هذا الحصار القاتل أشباحاً هزيلة، خائرة القوى، أخذ منها السّغب، ونهكتها المخمصة. وكان إذا وثب أحدهم من السّور أو ألقاه

---

(١) أصغر قطعة نحاسية بأسبانيا، وهى أقل من الفارذنج الذى يقرب من المليم. وفى الحلل السندسية: أن أمير بلنسية كان يمنحه عشرة آلاف دينار فى كل شهر.

أهل المدينة لأنه لا غناء فيه، ولا معونة عنده، تلقفته سيوف أتباع السيد، أو أبقت عليه فبيع كما تباع العبيد. ويقول مؤرخو العرب: إن السيد أحرق كثيراً من هؤلاء أحياء. وتوجز سيرته فى وصف هذا الحصار فتقول:

«ولم يبق بالمدينة طعام يباع، وأصبح الناس بها يترنحون بين أمواج الموت، وكثير منهم من سقط فى الطرق ميتاً».

وسلّمت المدينة فى يونيه سنة ١٠٩٤م (٤٨٧هـ) حين يئست من المقاومة، وحين لم يبق لها فى قوس الصبر منزع، ووقف السيد مرة أخرى فوق حصونها وأسوارها مؤزّراً منتصراً، ثم أملى على أهل بلنسية شروطاً قاسية، وطرد كثيراً منهم من المدينة لتخلو أمكنتهم للقشتاليين. وفى الحق إن السيد كان جافياً فى معاملة المغلوبين أشد الجفوة، ناكثاً بعهده[1]. ولكنه لم يدنس انتصاره بحصد الأرواح، وذبح من فى المدينة، كما كان يفعل كثير فى هذا الزمان. نعم إن من السكان من فقدوا ما يملكون، ولكنهم جميعاً نجوْا بحياتهم، ولم يقتل إلاّ قوادهم. وأرسل السيد يستقدم زوجه وبنتيه من الدير، ودعا بنفسه ملكاً على بلنسية، وحامياً للممالك حولها، وضرب إتاوات فادحة على جيرانه، حتى بلغ دخله فى السنة من بلنسية وحدها مائة وعشرين ألف دينار، ووصل إلى عشرة آلاف من ابن رزين صاحب السهلة، ومثلها من أمير البُنْت، وإلى ستة آلاف من أمير مر بيطر، وهكذا...

وخيّلت له الأحلام أن يسترد الأندلس كلها، فقد قال: إن لذريق خسر أسبانيا وسيعيدها لذريق آخر. وحين حاربه المرابطون شتت جموعهم، وبدد شملهم فى معركة حامية.

ولكن الحظوظ تتقلب فى الحروب، وكما تكون الأيام لك تكون عليك، فقد هزم المرابطون جنود السيد فى النهاية، فمات حزناً وغماً فى يوليه سنة ١٠٩٩م (٤٩٣هـ) وحين مات حنّطوا جثته وأقاموا بجانبها حراساً، ثم أنفذوا ما أوصى به ـ كما تقول الأشعار القصصية ـ فأقعدوه على جواده الكريم بابيكا، وأحكموا شدّة السرج، فجلس عليه معتدل القامة، لم يظهر بوجهه أثر الموت، وقد أبرقت عيناه الشهلاوان، وأرسلت لحيته إلى

---

(١) لأنه بعد أن عاهد القاضى أبا أحمد بن جحاف حاكم بلنسية أحرقه بالنار.

صدره، وقبضت يده على سيفه الأمين «تيزونة» فبدا كأنه حي لا يتطرق في ذلك شك لرائيه. ثم أخذوا بلجام فرسه وخرجوا من المدينة، يتقدمهم بيرو برميودز، وهو يحمل علم السيد ومعه خمسمائة فارس لحراسته، وسارت خلفه شيمانة في صويحباتها وحاشيتها، فأخذوا طريقهم بين العرب المحاصرين للمدينة، ويمّموا شطر قشتالة، وتركوا العرب في دهشة وعجب من هذا الرحيل الغريب، لأنه لم يخطر لهم ببال أن السيد ميت لا يُرجى. ولما وصلوا إلى دير سانت بدور، أجلسوا السيد على كرسيّ من العاج إلى جانب المذبح تحت ظُلّة، وضعوا فوقها رنوك قشتالة، وليون، ونافار، وأراغون، ورنك الكمبيدور نفسه. وبقي السيد نفسه جالساً إلى جانب المذبح عشر سنين، كان وجهه في أثنائها هادئاً نبيلاً، حتى إذا تغلبت آثار الموت على الصناعة والتحنيط، دفنوه أمام المذبح، وأبقوه في قبره جالساً كما كان على الكرسي العاجي، مرتدياً ملابسه الملكية وسيفه تيزونة في يده. ولا تزال دَرَقة السيد المحفورة بالزخارف، وَعَلَمُ انتصاره معلقين على قبره، يفيضان أسى وحزناً.

مملكة غرناطة

أصبحت عودة أسبانيا إلى حكم المسيحيين وفيهم من الجنود أمثال السيّد ومن الملوك أشباه فرديناند وألفونسو ـ أمراً متوقعاً بين يدى الزمان.

ومن الجلىّ أن لكل أمة ميقاتاً، وأن لكل دولة عهد نموّ ثم عهد ازدهار، يتبعهما الذّبول والهرم والانحلال. وكما سقطت دولة الإغريق، وكما سقطت رومة، وكما سقطت كل مملكة قديمة شهدت الدنيا نهوضها وقوّتها ـ سقط العرب فى أسبانيا وشالت نعامتهم، بعد أن دنا أجلهم وحان حيْنهم. فقد ذهبت ريحهم، وتفاقم الخلاف وزادت الجفوة بين أمرائهم؛ قبل أن يتملكهم المرابطون، ثم إنهم لم يكونوا أحسن حالاً حينما دالت دولة المرابطين، فما كاد هؤلاء يغادرون الأندلس، حتى ظهر فى الميدان عدوّ جديد: ذلك أن الموحّدين الذين ثلّوا عرش المرابطين بإفريقية، راق لهم أن يحاكوهم فى ضم الأندلس إلى ملكهم، وذلل أمامهم السبيل ما شجر من النزاع بين أمراء هذه المملكة المنكودة، التى طال على تمزقها الأمد، فأخذ الموحدون الجزيرة الخضراء سنة ١١٤٥م (٥٤١هـ) وفى سنة ١١٤٦م (٥٤٢هـ) نزلوا بإشبيلية ومالقة، وبعد أربع سنوات أصبحت قرطبة وبقية القسم الجنوبى من أسبانيا تحت رايتهم، وامتنع عليهم بعض الأمراء أول الأمر، ولكن الموحدين كانوا أعظم قوة وأشد بأساً من أن يقف فى وجوههم أمير أو زعيم.

ولم يفكر الموحدون فى أن يجعلوا من الأندلس قاعدة لملكهم، بل لبثوا بإفريقية، وأرسلوا من حضرتهم نواباً يقومون بالأمر فيها. وكان من أثر ذلك أن ضعفت قبضتهم على الأندلس، وزلزلت أقدامهم فيها. فإن من الصعب العسير أن تضبط ولايات مضطربة

متنازعة كولايات الأندلس، بنواب يرسلون من مراكش، أو ببعوث الجند ترسل بين الحين والحين لصدّ كرات الأعداء. نعم إن الموحدين قويت شوكتهم أول الأمر، حينما قدموا إلى الأندلس بُعدّتهم وعديدهم، فانتصروا انتصاراً مؤزراً فى سنة ١١٩٥م (٥٩١) بموقعة الأرك بالقرب من بطَلْيَوْس، وقتلوا آلافاً من أعدائهم، وظفروا بغنائم يخطئها العد، ولكن الحظ وهو متقلب ملول، لوى عنهم وجهه فى موقعة العُقاب المشئومة سنة ١٢١٢م (٦٠٩هـ) التى قضت على ملكهم بالأندلس. فقد كان جيشهم ستمائة ألف مقاتل، لم ينج منهم إلا عدد قليل فرّ لينبىء بهزيمتهم ودحرهم. وسقطت مدينة إثر مدينة فى أيدى المسيحيين. وضاعف كارثة الموحدين ما كان من الشغب بين قبائل البربر بإفريقية، وما توالى من وثبات المنافسين لهم فيها، فتبددت قوتهم، وطمع فيهم أمراء الأندلس الذين سئموا حكمهم المتزمت العنيف، فأزاحوهم عن الأندلس فى سنة ١٢٣٥م (٦٣٣هـ) وأعلن ابن هود نفسه حاكماً لأكثر بلاد الجنوب، وتملك سبتة بإفريقية. وحين قضى نحبه فى سنة ١٢٣٨م (٦٣٦هـ) تحول حكم الأندلس إلى بنى نصر أمراء غرناطة.

وكانت مملكة غرناطة بقية ما ملك العرب بأسبانيا، بعد أن تمزقت أشلاء مملكتهم، ووقع أكثر المدن بأيدى المسيحيين. فبين سنة ١٢٣٨م (٦٣٦هـ) و ١٢٦٠م (٦٥٨هـ) فتح فرديناند الثالث ملك قشتالة، وجايم الأول ملك أراغون مدن: بلنسية[1]، وقرطبة، وإشبيلية، ومرسية. وأصبح حكم العرب محصوراً فى مقاطعة غرناطة، وهى الرقعة بين جبال نيفادا[2] وساحل البحر، من المريه إلى جبل طارق، وقدِّر للعرب بعد هذه الفتوح أن يستمر حكمهم بغرناطة قرنين ونصف قرن.

وكان للعرب جيش ومنعة فى هذه البقعة، التى أحاط بها أعداؤهم من كل جانب، فإن الجنود الأشداء الذين فرّوا من المدن بعد استيلاء النصارى عليها، هُرعوا إلى الملك الباقى من ملوك المسلمين، ليقدموا سيوفهم وسواعدهم لخدمته، وقد قيل: إن خمسين ألفاً من العرب قدموا على سلطان غرناطة، من بلنسية، وشريش، وقادس. ومع كلّ هذه القوة وهذا السلطان كانت غرناطة تومىء لملك قشتالة بالطاعة، وتؤدى إليه الإتاوة كل عام. وكان منشىء دولة بنى نصر عربياً يدعى ابن الأحمر[3] لشقرة فيه، وكان شديد المراس

(١) سقطت بلنسية وقرطبة ومرسية سنة ٦٣٦هـ وسقطت إشبيلية سنة ٦٤٦هـ.

(٢) معنى «نيفادا» الثلج، ويسمى العرب هذه الجبال بجبل الثلج أوشلير (بصيغة التصغير).

(٣) هو محمد بن يوسف بن نصر.

قويّ الأسر، غير أنه لم يستطع الوقوف فى وجه النصارى، لأن أسبانيا كلها إلا قليلاً اصبحت فى أيديهم، فخضع ابن الأحمر مرغماً لهم، وأدى الإتاوة لفرديناند، ثم لابنه ألفونسو «العالم» وإن حاول مرات أن يخلع نيرهم ويتحدّى قوتهم. وفي غضون هذه الفترة، ترك ملوك المسيحية غرناطة وشأنها، لأنهم شغلوا بتوطيد دعائم الملك فيما فتحوه من البلاد، وبمكافحة كل دعيّ فى الملك دخيل.

وطالما حاول العرب فى حروب متعاقبة أن يتغلبوا على المسيحيين، ويتفلتوا من أيديهم، ولكنهم قنعوا فى النهاية بالمنزلة التى وضعهم فيها القدر. وكانت الإتاوة التى يؤديها محمد العاشر إلى المسيحيين لصيانة مملكته فى سنة ١٤٣٦م (٨٦٨هـ) اثنى عشر ألف دوكات[١].

وكانت لغرناطة منزلة قرطبة فى إنهاض الآداب والعلوم، فى أثناء هذا الهدوء السياسي، فكان لبنّائيها ومهندسيها شهرة ذائعة فى أرجاء أوروبا، فهم الذين بنوا الحمراء التى دعيت بهذا الاسم للون التربة التى أنشئت عليها، وهم الذين موّهوا حيطانها بالزخرف الذهبيّ البديع، وزينوها بالأشكال المصبوبة ذات الهندسة العربية الفائقة التى لا تزال إلى اليوم موضع عجب الفنانين وإعجابهم فى أنحاء العالم[٢]. وتعدُّ غرناطة نفسها ببرجيْها السامقين، لؤلؤة فى جيد الزمان، فقد بنيت عند نهاية المرج الممرع، وفى سفح جبال القمر المتوجة بالثلوج (جبال نيفادا). وإذا أطلّ المرء من إحدى قمم غرناطة أو الحمراء، التى تقف دَيْدُباناً فى نهاية المرج، كما يقف الأكروبول فى أثينا[٣]، وسرَّح نظره فى فضاء المرج الأفيح[٤] وقد تعانقت أشجاره، وتبسمت أزهاره - رأى من الجدول والكروم والبساتين وغياض البرتقال ما يملأ النفس سروراً وبهجة. وفى الحق إن غرناطة تفضل كل مدينة بالأندلس، فى جمال مناظرها، واعتدال جوّها. فإن النسيم الذى يهب عليها من الجبال الثلجية، يجعل أشد أيام القيظ فيها من أجمل الأيام وألطفها. أما تربتها، فمنقطعة النظير فى الخصب وقوّة الإنبات. وقد أنشىء قصر الحمراء فوق شرف من الأرض

(١) نقد ذهبيّ كان يتعامل به فى أوربا قديماً، قيمته: تسعة شلنات، وأربعة بنسات. فهى تقرب من قيمة الدينار.

(٢) بدىء فى بناء الحمراء فى القرن الثالث عشر، وتم فى القرن الرابع عشر.

(٣) حصن قديم على صخرة ارتفاعها خمسون ومائة قدم.

(٤) يسمى هذا المرج أيضاً بالفحص والبطح، وهو يمتد نحو خمسين كيلومتراً إلى الغرب حتى مدينة لوشة.

تحيط به قمم عالية صعبة المنحدر، تتدفق فى سفحها الشمالى أمواه نهر حدرّو[1] (درّو) وقد حُصن القصر بأسوار غطيّت بالمرمر، وشدت عند كل مسافة بحصون تشرف عليه. وتشبه الرقعة التى قامت عليها الحمراء سن رمح دقيقة الطرف، عريضة الجانبين، يبلغ طولها نصف ميل من الشرق إلى الغرب[2].

ويمر الزائر من فناء الحمراء بقبة ضخمة برتقالية اللون، تضرب إلى الحمرة فينتهى إلى باب دار العدل، حيث كان يجلس السّلاطين للفصل بين الناس[3] كما كان يفعل قضاة اليهود. وهناك على قوس من البناء لها شكل حذاء الفرس، ترتفع إلى نحو ثمان وعشرين قدماً ـ صورتان نحتتا فى صخرتين عظيمتين، إحداهما لمفتاح رمزى، والأخرى ليد ضخمة مرفوعة إلى السماء[4] فإذا اجتاز الداخل هذا الباب، وصل إلى فناء مربع، فرأى إلى أحد جوانبه القصر الذى همّ بإنشائه شارل الخامس ولم يتمّه. ثم يمرّ بالطريق الموصّلة إلى الحمراء، فيرى بعض أطلالها، وينتهى إلى ساحة تسمى: ساحة الريحان لكثرة ما بها من هذا النبات، ويخرج من هذه الساحة ممرٌّ ضيق يوصل إلى فناء البركة، وطوله مائة وأربعون قدماً وعرضه نصف ذلك، وبه بركة من الرخام تتألق فوقها الشمس، بها كثير من السمك ذى الألوان. وتزين جوانب هذا الفناء أعمدة ومشارف نادرة الصنعة، ويظهر إلى الشمال منه حصن «قمارش» تيّاهاً مخترقاً الأفق، ويرفرف السكون والهدوء على هذا الفناء، حتى إن المرء لا يكاد يسمع فيه للماء خريراً وهو منطلق إلى البركة. وما أجمل تألق السمك الذهبى الكثير العدد بالبركة إذا واجهته أشعة الشمس!! وما أروح أن يُحسّ المرء فيه بأنه فى عزلة عن الدنيا!! فإن أثراً من آثار الحياة الصاخبة لا يصل إليه، إذ كلّ ما حوله هدوء مطلق لا يبعث فى النفس الملالة، فهو طلل صامت رزين هادىء، يصور الموت والدّمار، ولن يستطيع المرء وهو يراه إلا أن يشعر بالعطف والإكبار والحب لبناة هذا القصر الأوّلين.

فإذا مررنا من فناء البركة، أو القاعة الزّورقية إلى بهو الرسل (السفراء) تخيلنا أيام

---

(١) فى الروض المعطار حدرُه. ويظهر أنهم كانوا يبدلون الهاء واواً عند النطق.

(٢) تسمى الأرض التى بها الحمراء وما حولها بالسبيكة.

(٣) كانوا يجلسون للحكم يومى الاثنين والخميس.

(٤) إشارة إلى أن العدل قوة فى الدنيا والآخرة.

أزهار دولة المسلمين، وكذنا نبصر فى صدرها خليفة الأمويين جالساً على عرشه، فى عظمته وجلاله.

فإذا أشرفنا من النافذة المطلة على سهل حدرّو ذكرنا كيف أن عائشة زوج السلطان أبى الحسن، أدلت منها ابنها أبا عبدالله محمداً فى زنبيل منذ خمسة قرون، وكيف أن شارل الخامس قال مرّة وهو مشرف منها: «ما أشقى من يفقد كل هذا!».

وفى أثناء بحثنا عن التخطيط المشتبك المعقد لهذه الأطلال، نجد أنفسنا فى مخدع الملكة، الذى تطل نوافذه على المرج الفسيح الفيَّاح، فتعود بنا الذكرى إلى العهد القديم وما كان فيه من بُلهنية ونعيم ورفه، لأننا نرى بين صفوف المرمر الذى رصفت به أرض المخدع شقوقاً وفروجاً، بالقرب من مدخله، يحدثنا القصّاصون عنها أن البخور وأنواع الطيب كانت تحرق تحت المخدع، فينفذ إليه شذاها من هذه الشقوق، فتتعطر أرجاؤه. وإذا أطللنا من إحدى نوافذه، رأينا بستان «لينداراجا» ورأينا بالقرب منه حمامات السلاطين المدلّة بنحتها الرائع، ورسومها العبقرية، وزلّيجها الجميل.

وبهذه الحمامات فوّارة كان يسيل منها الماء فى صوت إيقاعىّ، كأنه يحاول الانسجام مع رنّات الموسيقى التى كانت تهبط من المشارف، وقد جلس بها القيان يغنين ويعزفن لسيدات القصر، وهنّ ينعمن بالاستحمام، أو يضطجعن على الأرائك الذهبية. وقد نقر كل مُستَحَم فى صخرة عظيمة من المرمر، ووضع فى غرفة سقفها من الزجاج المزين بالتهاويل، بينها صور من نجوم وورود ينفذ النور من خلالها.

وقد يكون بهو السبّاع أشهر جزء وأبدعه فى هذا القصر، وإن كان أقل اتساعاً من ساحة الريحان. وبهذا البهو مائة وثمانية وعشرون عموداً من المرمر، وضعت أجمل وضع، ونسّقت أبدع تنسيق، باجتماع كلّ ثلاثة ثلاثة، أو أربعة أربعة. وفوق هذه الأعمدة صفف ليست سامقة الارتفاع. والبهو غنىّ بروائع الفنّ، مليء بنوادره.

ومن هذا البهو يصل الزائر من باب أبدعت الصناعة رسمه وزخرفه إلى قاعة بنى سراج بها[1] ولا نزال اليوم نرى على أرضها نقطاً من الدم، يزعم بعض الناس أنها بقية ما سال من دمائهم.

---

(١) كان بنو سراج وزراء سلاطين غرناطة، ويقال: إن أبا عبدالله كان يتهمهم بممالاة الإفرنج.

ولن يتسع لنا الوقت إذا حاولنا مشاهدة جميع قاعات هذا القصر الفخم وأبهائه، وخير لنا أن نتجه الآن إلى قصر آخر، يسمى: بجنة العريف، وهو جوسق القصر الأكبر، يصور ظاهره بساطة الفن الشرقي. وقد أصابه الآن الدمار، وحطمته يد الدهر والإنسان، حتى إن نقوشه العربية الدقيقة شوهت بما لطختها به يد الجهل من طبقات الملاط، واختفت تماثيله المنحوتة، وتولى جماله، وزالت نضارته منذ حين.

لم يكن يتوقع العرب، والمملكة المسيحية القوية على مرمى سهم منهم، أن يعيشوا أكثر من قرنين في رفاعة من العيش وقد همست في آذانهم النذر، وأحسوا قرب زوالهم في الربع الثالث من القرن الخامس عشر، وكان اتحاد أراغون وقشتالة بتزويج فرديناند بإيزابلا، أول ناعق بالفناء. وكان يحكم غرناطة في هذا الحين مولاي على أبو الحسن، وكان من أشجع الشجعان قوة وجرأة، فصمّم على أن يسبق مكايدهما، وأن يناجزهما الحرب. وكانت بداءة الشر أن أبى أن يؤدى إليهما الإتاوة، حتى إذا وصل إلى حضرته رسول فرديناند يلح في طلبها، وينذر ويوعد، أجابه أبو الحسن في صلف وكبرياء: «قل لمولاك: إن سلاطين غرناطة الذين اعتادوا أداء الإتاوات قد ماتوا، وإن دار الضرب بغرناطة لا تطبع الآن غير السيوف» ثم أرسل غارة شعواء على المسيحيين بقلعة الصخرة ليعزز قوله بالعمل.

وقد قص علينا الكاتب الأمريكي الموهوب واشنطون إيرفنج[1]، عنف هذه الغارة في كتابه «آخر حروب العرب بأسبانيا» فقال:

«في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وألف من الميلاد (٨٨٦هـ) دُهم أهل الصخرة بياتاً وهم نائمون، وكان حارس القلعة قد هجر مكانه منها، والتجأ إلى كن يقيه العواصف والأنواء التي اشتد غضبها، وثارت ثورتها منذ ثلاث ليال متعاقبة، وقرّ في نفسه أن أحداً من الأعداء لن يخرج في مثل هذه الليلة الليلاء، وغاب عنه أن أرواح الشر أكثر ما تعمل في ظلام الليالي العاصفة. وفي منتصف الليل، ارتفع الضجيج في المدينة، فكان أشد إرهاباً من صخب الأنواء، وصاح الأسبان مذعورين: العربَ العربَ، وسرت أصواتهم في كل ناحية من المدينة، ممتزجة بصليل السيوف وأنين القتلى، وصيحات الظفر والانتصار. وخيل إلى أهل المدينة وقد شدهم الذعر، أن شياطين الليل طارت إليهم على أجنحة

(١) أقام باسبانيا زمناً طويلاً. مات سنة ١٨٥٩ م.

الريح، وسلبتهم حصونهم ومعاقلهم، وارتفعت صيحات القتال من كل مكان: نداءٌ يرجع نداء، وصوت يردد صوتاً، هذا من فوق، وهذا من تحت، وهذا من معاقل القلعة، وهذا من طرق المدينة. نعم كان العرب فى كل مكان وقد لفهم الظلام وسترتهم الأنواء، غير أنهم مع كل هذا كانوا يعملون متعاونين على نظام دقيق وخطة محكمة. وباغت جنود أبى الحسن حراس الصخرة بعد أن هبوا من نومهم، فطارت نفوسهم شَعاعاً، وأناخ عليهم العرب فاستأصلوهم قبل أن يغادروا ثكناتهم. وبعد فترة قصيرة انتهى الصدام والقتال، والتجأ من نجا من أهل المدينة إلى مخابىء دورهم، أو ذهب إلى الأعداء راضياً بالذل والإسار. وسكنت السيوف فى أغمادها، وسكت صليلها، ولكن العواصف ما زالت تزأر وتصخب، مختلطة بأصوات العرب الذين خرجوا هائمين، يبحثون عن الغنائم والأسلاب. وبينما كان السكان يرتعدون فرقاً مما سيصيبهم، إذا صوت بوق يدوّى فى أرجاء المدينة، داعياً إياهم أن يجتمعوا عُزلاً فى الميدان الكبير، وهنالك أحاط بهم الجند لحراستهم حتى الصباح. وكان مما يثير الحزن والأسى، أن ترى، وقد انبثق الفجر، هذه الجموع الحاشدة التى كانت ته ش فى ترف ونعيم، وقد اختلط حابلهم بنابلهم وشيوخهم بأطفالهم، ونساؤهم برجالهم، وأغنياؤهم بفقرائهم، وليس على اجسامهم ما يقيهم قارس البرد وعاصف الأنواء. وزاد الضجيج وارتفعت أصوات التوسل والرجاء، ولكن مولاى أبا الحسن القاسى سد أذنيه، وأغلق قلبه دون العطف والرحمة، وأمر بهم أن يساقوا جميعاً إلى غرناطة كما يساق العبيد. وأبقى بالمدينة والقلعة حراساً أشداء، وأمرهم أن يتيقظوا لكل طارق، ثم قفل إلى غرناطة والانتصار ينفخ خياشيمه كبراً وزهواً. ودخلها على رأس جنده، ومعهم الغنائم والأسلاب، والبيارق والأعلام. وفى أثناء ما أقيم من الولائم والأفراح لهذا الفتح المبين، قدم أسرى الصخرة من الرجال والنساء والأطفال، وقد نهكهم التعب، وأكل قلوبهم اليأس، فدخلوا المدينة كما يدخلها قطيع من البقر، قد لفه الليل بسواق حطم».

وبهت أهل غرناطة، وذعروا وتألموا لقسوة أبى الحسن، وشعر عقلاؤهم بسوء مغبة هذا التهوّر، وسَمّوه: بداية النهاية، وصاحوا: «ويل لغرناطة! ويل لها! لقد دنت ساعتها، وستقع أنقاض الصخرة فوق رؤوسنا».

ولم يكن الانتقام بعيداً، فقد استولى بعد قليل مركيز قادس على حصن الْحَمَّة غيلة.

وبهذا الاستيلاء تمكن النصارى من وضع حامية قوية فى قلب بلاد المسلمين، وعلى مسافة قصيرة من غرناطة نفسها. وكم حاول أبو الحسن أن يستردّ هذا الحصن فلم يفلح، لأن من به من الجنود أظهروا شجاعة نادرة المثال، وصبروا وصابروا حتى جاءهم المدد، وأدركتهم النجدة. وارتفع الصياح بغرناطة: «ويل للحَمَّة!! لقد سقطت الحمة وأصبح مفتاح غرناطة اليوم فى أيدى الكفار».

ومن ذلك الحين أصبح هذا الحصن شوكة فى جنوب ملوك العرب، فمنه خرج كونت تنديلة وعاث فى المرج، وأكثر فيه الفساد.

حفز الانتصار كلا الفريقين من المسلمين والنصارى إلى شنّ الغارات، التى لم يكن لها من أثر إلا التخريب وإثارة الأحقاد. وصمم النصارى آخر الأمر على أن يذيقوا العرب النكال، ويدهموهم بجيش جرار. فعزموا على غزو ولاية مالقة، وجمعوا كتائبهم بزعامة مركيز قادس وغيره من كبار القواد، ثم زحفوا على العرب بهذا الجيش المشئوم[1]. «وخرج الجيش مزهواً بأبطاله المدججين من أبواب أنتقيرة[2] يوم الأربعاء، فمشى جنوده ليلة بنهارها فى شعاب الجبال، مبالغين فى إخفاء أنفسهم، حتى يأخذوا العرب بغتة.

ولم يصلوا إلى الطريق الذى كانوا يقصدون العيث والإفساد فيه إلا فى اليوم التالى، وكان شعباً ممتداً فى أملاك العرب بالقرب من ساحل بحر الروم، وفى هذا الشعب لاقوا من الأهوال والفوادح ما يعجز عنه الوصف. فساروا فيه يستحثون الخُطا، بين الجبال العابسة السامقة، والأوعار والأخناق. وطالما اعترض طريقهم مهاوٍ عميقة، وأودية صلدة بعيدة الغور قليلة الماء، بين صخور تريد أن تنقضّ، وصخور أسقطتها عواصف الخريف، فعزّ اجتيازها. وقد يمشون ساعات طويلة فى أخاديد، أو فى مجرى جاف حفره السيل بين الجبال، وغمره بالحصا والأحجار. وكانت تغطى هذه المهاوى وتلك الأخاديد قمم عزيزة المرتقى صعبة المنحدر، جعلت من هذا المكان مخبأ صالحاً، كان يكمن فيه الجنود فى أثناء الحروب بين العرب والمسيحيين، ثم أصبح بعد ذلك وكراً للصوص، يثبون منه على المسافرين.

وعند غروب الشمس، بلغ الفرسان قمة بعض الجبال، ونظروا إلى ميامنهم فرأوا

(١) الوصف التالى الذى وضع بين أقواس، مقتبس من كتاب واشنطون إيرفنج.

(٢) يسميها صاحب نفح الطيب: «النقيرة».

عن بعد قسماً من مرج مالقة الوسيم، وقد ظهر من ورائه بحر الروم. فاشتد فرحهم حتى كأنهم بقية من قوم موسى، ظفروا بعد أيْنٍ بنظرة إلى أرض الميعاد، بعد الفرقة والشتات. وحين اعتكر الظلام وصلوا إلى بعض الأودية والدساكر التى أطبقت عليها الجبال. ويسمى العرب هذه البقعة: بشرقية مالقة، وفيها كتب لآمالهم أن تخيب، ولجيشهم أن يتمزق: فإن العرب لما علموا بقربهم، ساقوا بقرهم، وحملوا أمتعتهم، والتجئوا بزوجاتهم وأولادهم إلى قلل الجبال ومعاقلها.

واشتد غضب النصارى، وانصرفوا مسرعين طامعين فى أن يقعوا فى الطريق على غنم أعظم وأوفر. وأرسل الدون ألونزو آل أغيلار وغيره من القواد جنودهم، فعاثوا فيما حولهم من الأرض، ودمروا ما شاء غيظهم أن يدمروا، واستلبوا بعض البقر من زراع العرب فى أثناء فرارهم. وبينما كان هذا الفريق يعيث ويدمر، ويشعل النار فى الدساكر فتنير الجبال، أمر صاحب سنتياغو ـ وكان يقود ساقة الجيش ـ أن يجتمع الفرسان صفوفاً ليكونوا على استعداد إذا صاحت بهم صائحة.

وحاول بعض فرسان هذه الأخوة الدينية أن يهيموا فى الأودية لاقتناص الغنائم، فدعاهم وزجرهم.

ثم قادهم سوء الطالع إلى شعب فى الجبل تقطعه الهوّات والأخاديد البعيدة العمق، وتغطيه القمم، فكان مستحيلاً أن يحتفظ فيه الجيش بنظامه، وضاق مجال الخيل عن المسير فخرجت عن طوع فوارسها. وكانت تتسلق من صخرة إلى صخرة، وتنزل غوراً وتصعد فى نجد، وتنقل سنابكها فى مكان يضيق بِفِرْسِنِ الوعِل. وحينما مروا بإحدى القرى، كشفت لهم أضواؤها ما صاروا إليه من سوء الحال، وتفاقم الخطب، ووعورة الطريق. وهنا بصر بهم العرب الذين كانوا قد سبقوهم إلى معاقلهم الممعنة فى الارتفاع، ورأوا الفخ الذى سقطوا فيه، فصاحوا جذلين مستبشرين ونزلوا من حصونهم، وربضوا فوق قمم الجبال التى تشرف على الهوّات التى ارتطم فيها المسيحيون، وأخذوا يصبون عليهم وابلا من السهام والأحجار.

وأطبق الليل بظلامه الدامس مرة أخرى على المسيحيين، وهم محبوسون فى واد ضيق يخترقه جدول عميق، وتحيط به الجبال الذاهبة فى السحاب وقد اشتعلت فوقها نيران الدعوة إلى الجهاد. وبينما هم فى هذه الحال من اليأس، إذا صيحات مزعجة يتردّد

صداها فى جنبات الوادى: الزغل الزغل!! فسأل صاحب سنتياغو: ما هذه الصيحات؟؟ فأجابه جندى قديم: هذه صيحات الزغل قائد العرب، وهى تدل على قدومه بجيشه من مالقة. فالتفت صاحب سنتياغو إلى فرسانه وقال: فلنمت ممهدين الطريق بقلوبنا، بعد أن عجزنا عن تمهيدها بسيوفنا. ولنخترق الجبال إلى الأعداء. ولأن نبيع أنفسنا هنا غالية، خير من أن نذبح مستسلمين. وما كاد يتم قولته حتى لوى عنانه، وهمز فرسه متسلقاً الجبل يتبعه المشاة والفرسان، وقد وقر فى نفوسهم أنهم إذا لم يستطيعوا الفرار، فلا أقل من أن ينالوا من أعدائهم بعض منال. وبينما هم يتسلقون، إذ دهمهم من العرب سيل من السهام والحجارة. وكثيراً ما كانت الصخرة تهوى على جموعهم كالرعد القاصف فتمزقهم تمزيقاً.

وكان يطمح صاحب سنتياغو أن يجمع شمل مشاته، وأن يهجم بهم على الأعداء. ولكن قومه من حوله ألحوا فى رجائه أن يربأ بنفسه عن التلف. وقالوا له فيما قالوا: إن فى بقائك بين براثن هؤلاء الأعداء موتاً محققاً، لا يُدفع بسيف، ولا ينفع فيه الإقدام. وإن فى فرارك إبقاء على حياة قد تنال فى يوم أمنية الانتقام. فخضع القائد بعد لأى لنصحهم وقال: اللهمّ إنى أفر من غضبك لا من هؤلاء الكفار، فإنهم لم يكونوا إلا آلة فى يدك، أردت أن تطهرنا بها من ذنوبنا. ثم دعا بالأدلاء أن يتقدموه، ونخس جواده فوثب فوق أخاديد الجبل، قبل أن يدركه العرب. ورآه جنوده فتفرقوا أيدى سبأ، واقتفى بعضهم آثاره ولكنهم ضلوا الطريق وأخذتهم الحيرة بين شعاب الجبال المضللة، فذهبوا هنا، ثم ذهبوا هناك. ومات فريق منهم فى الطريق، وذبح العرب فريقاً وأسروا فريقاً»[1].

ولم ينس المسيحيون وشيكاً هذه الويلات، وويلات جبال مالقة، فكانوا يتحرقون للانتقام. وقد ظفروا بأثرهم وشفوا غلتهم، وفازوا بانتصار باهر، حينما شنّ أبو عبدالله على بلادهم غارة شعواء. وكان فى ذلك الحين قد اغتصب ملك غرناطة من أبيه، فزحف بجنوده خفية مدّرعا الليل، ولكن النصارى علموا بهذا الزحف، فأشعلوا النيران فى قمم التلال للاستغاثة، وقد تنبه كونت قبرة لهذه النيران وجمع زعماء قومه وأتباعه فعثروا على العرب بالقرب من لُشانة، وتربصوا لهم فى غابة هناك، ثم سقطوا عليهم فهزموهم شر

---

(١) فى نفح الطيب: وقتل من النصارى فى هذه الوقعة ثلاثة آلاف وأسر نحو ألفين من جملتهم خال السلطان وصاحب إشبيلية، وصاحب شريّش وصاحب النقيرة وغيرهم، وهم نحو الثلاثمائة من الأكابر. وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الأنفس والأموال والعدة والذهب والفضة.

هزيمة . وحينما دخل فلول الفارين أبواب غرناطة ، تعاظم الأمر أهلها فبكى الباكون ، وندب النادبون قائلين : «غرناطة يا أجمل المدن!! أين ذهب جمالك وجلالك؟! . . لقد دفنت زهرات مجدك فى أرض الأعداء ، فلن يتردد فى بطحاء الرملة بعد اليوم صدى سنابك الخيل ، ولا صيحات الأبواق . ولن يزدحم فضاؤها بعد اليوم بشبابك النبلاء ، وهم يستعدون للمبارزة والجلاد .

غرناطة يا أجمل المدن!! . . لن تسرى بعد اليوم نغمات العود الناعمة فى شوارعك المقمرة ، ولن تسمع ألحان العشّاق تحت قصورك العالية . . . وستخرس دقات الصنوج المرحة فوق تلالك الخصيبة . . وستقف رقصات الزَّمْبَرة الجميلة تحت عرائشك الوريفة .

غرناطة يا أجمل المدن؟! . . لم أقفرت الحمراء من أهلها وأصبحت يبابا؟! إن الريحان وأزهار البرتقال لا تزال ترسل أريجها بين غرفها وفراشها الوثير! ! ولا تزال البلابل تصدح فى مروجها الفيح ، ولا تزال أعمدة أبهائها تنتعش برشاش الفوارات يتساقط عليها ، وتنعم بخرير أمواهها كأنه صوت أمٍّ تدلل أطفالها . واحسرتاه! ! لن نشهد بعد اليوم طلعة السلطان مشرقة بين أبهائها ، لأن نور الحمراء أطفىء إلى الأبد» .

قبض على أبى عبدالله فى هذه الموقعة ، وأرسل أسيراً إلى قرطبة . وانقض فرديناند على المرج يعيث فيه فساداً ، بينما كان مولاى أبو الحسن ـ وقد عاد إلى ملكه ـ شيخاً هِماً يحرق الأرّم غيظاً من وراء أسواره .

سقوط غرناطة

كان أسر أبى عبدالله ضربة قاصمة لحكم المسلمين بالأندلس . ولم يكن أبو عبدالله نفسه بالرجل الذى يؤبه له - وإن كان شجاعاً مقداماً - لأنه كان ضعيف الرأى كثير التردد ، شديد الوساوس والتطيّر . وزاده خبالاً أن استقر فى نفسه : أن الدهر يعكس آماله ، وأن القدر يحاربه . فكان يندب دائماً سوء طالعه ونحس نجمه . وعرف الناس فيه ذلك فنبزوه «بالشّقِيتو» أى الشقى ، وبالزُّغَيْبِىّ . وكثيراً ما كان يقول وهو يرى آماله تتيض رماداً : لقد كتب فى لوح القدر أن أكون مشئوم الطالع ، وأن يكون زوال هذه المملكة على يدىّ[1] .

وكان من الهين على النصارى أن يطلقوا سراح أبى عبدالله ، فقد كان فسلاً مسلوب القوة ، ولكنهم رأوا أنه على ضعفه قد يكون أداة شديدة الخطر فى أيدى آخرين . وقد صدّقت الحوادث ظنونهم ، فإن خضوع أبى عبدالله لفرديناند وبقاءه فى قبضته ، كان من أسباب سقوط دولة المسلمين بالأندلس . وحينما وصل إلى قرطبة ، استقبله الملكان الكاثوليكان أحسن استقبال ، وما زالا يأخذانه بضروب الإغراء الخبيثة ، ويشرحان له سوء أمره ، ويُظهران له قوة بطشهما وعظمة ملكهما ، حتى ذل عنقه وأصبح آلة فى أيديهما ، وخادماً لهما أميناً . وبعد أن وثقا منه طلبا إليه أن يعود إلى غرناطة ، حيث يتحصّن أبوه أبو الحسن بقلاع الحمراء . فدخلها أبو عبدالله مؤيداً بأنصاره النازلين منها بربض البيّازين[2] ، وامتلك حصن القصبة ، وشن على أبيه المتحصن قبالته حرباً عواناً .

---

(١) يزعمون أن المنجمين تكهنوا بأن سقوط غرناطة سيكون على يده .

(٢) ربض متسع إلى شمال غرناطة يبلغ نحو ربع المدينة وكان يقيم به معلمو البزاة الصيد .

وبقى أبو عبدالله بحصن القصبة مدة، تؤيده رماح بنى زغبة وسيوفهم. ولكن قوة أبى الحسن كانت فوق قوته، فاضطر إلى أن يلتجىء إلى المرية، ومن ثم أصبح لغرناطة سلطاناً: أحدهما أبو عبدالله المنكود الحظ فى ميدانى السياسة والحروب، البغيض إلى العرب، لأنه أصبح أداة فى أيدى أعدائهم. والثانى أبو الحسن، أو هو على الأصح أخوه الزَّغل «الشجاع»[1] لأن السلطان كان يقضى بقية أيامه حزيناً كئيباً لما أظهره ابنه من العصيان، ففقد بصره ثم مات. وأغلب الظن أنه مات مسموماً.

أما الزغل: فهو آخر ملك عظيم أنبتته الأندلس، فقد كان شجاعاً ثابت الرأي، عدواً لدوداً شديد المراس قوى العزم فى محاربة المسيحيين. ولو لم يفسد عليه ابن أخيه أمره، لبقيت غرناطة فى أيدى المسلمين مدى حياته، وإن لم يكن ثمة مفرٌّ من انتصار المسيحيين فى النهاية. وقد أسرع سلاطين غرناطة بتنازعهم وتكالبهم على الملك بتقريب هذه النهاية. وإن حكمت الأقدار على ملك بالسقوط أخذت تملى له، وتملأ رأسه بالسخف والغرور. وهكذا نرى اليوم سلاطين غرناطة وقد استبد بعقولهم الشغف بالانتحار ـ إن صح أن نسمى تخريبهم بلادهم بأيديهم انتحاراً ـ: ففى الحين الذى كان يجب أن يجتمعوا فيه ويتواثقوا لصد المسيحيين، نراهم يبددون قواهم فى محاربة بعضهم بعضاً. ونرى بعضهم يصد جيش أخيه وهو زاحف على الأسبان، ليكون هو وأخوه آخر الأمر طعمة للأسبان. وتفرق أهل غرناطة شيعاً، فزاد ذلك فى إشعال نار الغيرة والتحاسد بين السلاطين. ولم يكن من شىء أحب إلى الغرناطيين من إسقاط سلطان ونصب آخر مكانه، لأنهم قوم متقلبون لا يصبرون على حال، مولعون بالتغيير، سواء أكان للخير أم للشر. وكانوا يبتهجون بالسلطان ويؤيدونه، ما دام سعيداً موفقاً فى حروبه، تعود جيوشه إليهم بالغنائم والأسلاب. فإذا خاب مرة فى شىء من هذا أغلقوا أبواب المدينة دونه، ونادوا بحياة السلطان الذى أعدوه لساعته. وقد يكون هذا أبا عبدالله أو الزّغل، أو أى رجل أسعده الحظ فى هذه اللحظة بالفوز بحبهم الفَروك.

وبينما كان أبو عبدالله المشئوم يبذل وسعه فى إحباط جهود عمه الزغل الباسل، كان المسيحيون يضيقون الدائرة المحيطة بالمملكة المنكوبة شيئاً فشيئاً. فأخذت تسقط فى أيديهم مدينة بعد أخرى، وتملكوا حصن لورة وغيره من الحصون سنة ١٤٨٤ م (٨٨٩ هـ)

---

(١) الزَّغل فى لغة المغاربة: الفتى الغضّ الشباب.

بنسفها بالمدافع التى ابتكرت حديثاً. وتبع ذلك فى السنة التالية سقوط: ذكوان، وقُرْطُمة، ورندة. وبذل الزغل فى هذه الوقائع ما يستطيع من جهد، ووثب على فرسان قلعة رباح من كمين فأثخن فيهم ضرباً وطعناً. ومع هذا استمر النصارى فى سبيلهم إلى النصر فسقطت لَوْشة فى سنة ١٤٨٦ م (٨٩١ هـ) واشترك فى معركتها من غزاة الإنجليز اللورد إسكلبز، وكان يقود فرقة من النبالة الإنجليز[1]. ثم تملك النصارى: إيلورة، ومكلين، فهال ذلك العرب ورددوا مذعورين: لقد عورت عين غرناطة اليمنى. فأجابهم النصارى: بل قولوا: لقد كسر ملوك الكثلكة جناح النسر العربى الأيمن. وتمّ استيلاء فرديناند ورجاله على القسم الغربى من المملكة، وأصبحت غرناطة تُنقص من أطرافها قليلاً قليلاً. وسخط الغرناطيون على الزغل لأنهم لم يحتملوا كل هذه الهزائم، ودعوا أبا عبدالله مرة ثانية إلى مدينتهم، فصعب عليه أن يثبت وحده أمام عمه فاستعان بالمسيحيين.

وكان فرديناند فى هذا الحين يحاصر بلش بالقرب من مالقة، فوصل الخبر إلى غرناطة فأثار غضب أهلها وسخطهم، فاستنهضوا عزيمة الزغل، وكان دائماً على أهبة لمصافحة سيوف أعدائه ومنازلة الموت لاستبقاء الحياة، فقاد جنوده فى جرأة وإقدام لتخليص بلش. وكان يعلم حق العلم أن ابن أخيه الخائن سيهتبل فرصة غيبته ويوطد ملكه بغرناطة، ولكن الزغل لم يلقب بالشجاع عبثاً، فجعل التفكير فى نفسه دبر أذنه وتقدم لإنقاذ مالقة. وكانت خطّته: أن يثب المحصورون بالمدينة من الداخل، وأن يفجأ هو وجيوشه أعداءه من الخارج. ولكن عدوه كان عظيم المكر شديد المحال، فقد وصلت هذه الخطة إلى يد فرديناند، فاتخذ لها عدتها.

وفى ليلة رأى أهل بلش جنود الزغل مصطفين فوق شرف قريب، فابتهجت نفوسهم، ولكنهم فى الصباح حينما ردّدوا النظر لم يروا من هؤلاء الجنود أحداً، لأنهم دحروا فى أثناء الليل عند أسوار المدينة، وتمزق جيش الإنقاذ شر ممزق، وتبدّد تبدّد الضباب أمام هجمات مركيز قادس العاتية. وحينما أخذت فلول هذا الجيش تدخل فى خزى وعار أبواب غرناطة، اشتد غضب الغرناطيين، فثارت ثورتهم، وأسرعوا بخلع طاعة الزغل ونصب أبى عبدالله سلطاناً مكانه. وبعد قليل اقبل الزغل فى بعض رجاله نحو

---

(١) فى خلاصة تاريخ الأندلس للأمير شكيب ارسلان: وكان معه آلات ومدافع تفوق الإحصاء لإدارة جند المانيين.

الأبواب، فرآها مغلقة فى وجهه. ورفع رأسه فرأى علم أبى عبدالله خفّاقاً فوق حصون الحمراء فارتد حزيناً محسوراً إلى مدينة وادى آش، وجعل بها حضرة ملكه بعد أن أغلقت غرناطة أبوابها وقلوبها دونه، ولفظته فى ساعة بؤسه كما تلفظ النواة.

ثم شرع النصارى يحاصرون مالقة، ولكنها كانت صعبة المنال شديدة المنعة. لم يكن اقتحامها أمراً يسيراً، فقد أحاطت بها الجبال والأسوار الحصينة التى يعلوها الحصن الرابض قبل جبل فارو، حيث تستطيع حاميته أن تصب القذائف على من بالسهول التى تكتنف المدينة. وتطوع بالدفاع عنها فى هذا الحين بطل عنيد، واسع الحيلة، صلب العود، يعرف بحامد الزغبى كان يقود من قبل جيش رُندة، الذى حطمه النصارى تحطيماً، فلم ينس لهم بعدُ تغلبهم عليه، وانتزاع القلاع الصخرية منه عنوة. وهب هذا الجندى الباسل يبث فى أهل المدينة وبين أنصاره من البربر روحاً من الجرأة والصبر والتحدى، حاول ملوك الكثلكة جهد استطاعتهم أن يخمدوها فلم يفلحوا. فاستطاع حينما تمكن من جبل فارو أن يحمى المدينة، على الرغم من انحلال عزيمة بعض أهلها من التجار وأصحاب الأموال. وحاول الملك أن يرشيه، فرد إليه رسوله فى أنفة وكبرياء. وحينما أنذر النصارى المدينة بوجوب التسليم، وألح عليه تجارها أن يغمد السيف، أجابهم فى شمم وإيجاز: لقد جئت هنا للدفاع عن المدينة لا لتسليمها. وحصر فرديناند ضربه فى جبل فارو فغطت مدافعه المعروفة «بأخوات شيمينيس السبع» الحصن برداء من الدخان والنار. واستمرت قذائف اللهيب تضطرم ليلاً ونهاراً، وهمّ النصارى أن يأخذوا الحصن عنوة، فصب عليهم الزغبى وأنصاره الأشداء حمماً من القار والراتنج، وقذفوا فوق رءوسهم الأحجار والصخور وهم يحاولون تسلق سلالمهم، وسددوا نحو صدورهم السهام فاضطروا إلى النكوص مدحورين.

ثم أخذ النصارى فى دسّ الأنفاط (الألغام) تحت الأسوار فنجحوا، ونُسفت بعض المعاقل بالبارود لأول مرة فى تاريخ الأسبان. واجتمع الفرسان المسيحيون حول أسوار مالقة، وحضرت الملكة إيزابلا نفسها فأثار حضورها روح الحماسة فى الفرسان والجنود، ونصبت عرائش من الخشب لحماية الجنود فى أثناء وضعهم الأنفاط تحت الأسوار. كل هذا والزغبى عنيد لا يسلّم، قوىّ لا يغلب. ولكن القدر المحتوم جرّ إليه فى ذيوله ما هو شر من المدافع وأفتك من البارود: فقد اشتدت المجاعة بين سكان المدينة، ففلّت عزائمهم وصيرتهم أكثر ميلاً للإنصات إلى دعوة الصلح التى يبثها التجار، منهم إلى سماع دعوة

الصبر والمثابرة من الجنود المستميتين. ولم يكن هناك أمل فى نجدة تصل لإنقاذهم، فإن الزغل همّ مرة بعد أخرى بإنقاذ المدينة، فجمع ما بقى من جيشه، وزحف من وادى آش للنجدة، ولكن ابن أخيه المشئوم الذى أكّد بأعماله شؤم لقبه، أدركته الغيرة الكاذبة من عمه، فأمر جنده أن يصدوا جيشه ويشتتوه وهو ذاهب إلى مالقة. وانتهت آخر جهود الزغبى بمذابح شنيعة وأضر السغب بالسكان، وقذفت الأمهات بأطفالهن أمام جواد الحاكم باكيات صائحات: بأن لم يبق لديهن فتاتة من طعام يغذيهن بها أطفالهن، وبأنهن لم تعد بهن طاقة لسماع بكائهم.

بعد ذلك سلّمت المدينة وأجبر الجنود قائدهم الزغبى - وكان لا يزال متشبثاً بجبل فارو - أن يفتح أبواب المدينة ففتحت. وكان جزاء هذا البطل الشجاع الباسل، أن يقذف به فى جب فلم يسمع عنه خبر إلى اليوم.

وعندما رفع الحصار عن المدينة، أخذ سكانها المساكين يحارب بعضهم بعضاً لشراء الطعام من النصارى. وأسر الأسبان الحامية الإفريقية للمدينة وكانت لا تزال تحتفظ بشممها على الرغم مما أصابها من الإعياء والنصب. أما بقية السكان: فسمح لهم بأن يفتدوا أنفسهم، على شرط أن يسلموا جميع بضائعهم وأمتعتهم إلى الملك، لتكون أول قسط من أقساط الفدية. وأنهم إذا لم يؤدوا الباقى بعد ثمانية أشهر عُدوا عبيداً. وبعد أن أحصى عددهم وفتشت منازلهم أطلق سراحهم.

«فكنت ترى الشيوخ وقد نال منهم الهرم، والنساء وقد فقدن الحامى والنصير، والفتيات فى غضاضة شبابهن، وكثير من هؤلاء من عاش من باحة العز وبين أكناف النعيم - ترى هؤلاء جميعاً يمشون مشية المتعثر اليائس قاصدين القصبة. وحينما غادروا ديارهم أخذوا يدقون صدورهم حزناً، ويقلّبون أكفهم أسفاً، ويرفعون أعينهم الباكية إلى السماء فى ألم وحسرة. وتحدثنا الروايات أنهم كانوا يقولون وهم يندبون:

«يا مالقة يا أجمل المدن وأبعدهن صيتاً!... أين منعة حصنك؟! وأين عظمة أبراجك؟! وما أفادت أسوارك القوية فى حماية أبنائك!؟.. سيرثى بعض هؤلاء الأبناء لبعض وهم غرباء مشتتون فى أرض غير أرضهم!! ولكن هذا الرثاء لن يلقى من الناس إلا سخرية وهزواً».

أرسل هؤلاء البؤساء إلى إشبيلية ليقوموا بخدمة الأسبان فيها، حتى انقضت ثمانية

الأشهر، وإذا لم يستطيعوا أداء ما بقى عليهم من الفدية، حكم عليهم جميعاً بالعبودية، وكانوا زهاء خمسة عشر ألفاً. وهكذا نالت مكايد فردينانـد أمنيتهـا، وبلـغ مكره السـيء غايته.

أصبح القسم الغربى من مملكة غرناطة الآن فى قبضة النصارى، واحتلت حامياتهم قلاع: رُنْدة، ومالقة الجميلة. وكان أبو عبدالله لا يزال يحكم غرناطة. وقد أسرع بتهنئة سيده وسيدته على انتصارهما بمالقة. أما الزغل فكان فى الشرق يتحدى الفاتحين، وقد جمع حول لوائه كل من بقى فى نفسه شىء من الحمية والتصميم من بين العرب القانطين. وكان يملك غير منازع القسم من جيان إلى المرية، وهى ثغر عظيم الشأن على بحر الروم. ويدخل فى ملكه أيضاً بعض المدن العظيمة: كوادى آش، وبسطة، ثم السفوح الوعرة لجبال البشرات، وهـى مهـد قوم شداد صلاب من الجبليين، تطـل علـى عدد عديد من الأودية، التى تسقى بالماء الخصر المنهمر من جبال نيفادا الثلجية، حيث تكثر المراعى والكروم، وغياض البرتقال والرمان، والأترّج والتوت. ومن هذه الخيرات وغيرها تتكون ثروة هذا الإقليم.

وفى سنة ١٤٨٨ م (٨٩٣ هـ) وجه فرديناند سيفه المنتصر إلى هذا الجز الهادىء من مملكة الإسلام. فجمع جموعه فى مرسية، ثم زحف إلى الغرب فى مملكة الزغل، وهجم على بسطة فصدمه الزغل صدمة عنيفة، لأن يده لم تفقد بعد قوتها، ولأن عقله لم يزل ثاقباً بعيد مدى الحيلة، لم تذهب النكبات بذكائه. فرد النصارى عن أبـواب بسطـة، وزاد فانتقم لنفسه بالهجوم على مملكتهم. ولكن هذه الهزيمة لم تضعف من عزيمة فرديناند، فجدّد هجومه علـى بسطـة فى السنـة التـالية، وبـدل أن يقـذف بجنـوده فى هجمـات خائبة على المدينة، أرسلهم يعيثون ويفسدون فى الأرض الخصيبة حولها، ليدفع الجوع سكانها إلى التسليم. واستمر حصار المدينة ستة أشهر، مات فى خلالها من جنود النصارى نحو عشرين ألفاً من المرض والإقامة بالعراء، ومن هجمات المسلمين[1]. ثم سقطت المدينة

(١) فى أثناء هذا الحصار وصل إلى معسكر الأسبان راهبان: أحدهما كبير دير الفرنسسكان ببيت المقدس، أرسلهما سلطان مصر ليطلبا من فرديناند وإيزابلا رد ما استوليا عليه من أملاك المسـلمين وإلا قتل سلطان مصر النصارى بمملكته وخرب الكنائس. وكان من أثر هذه السفارة أن أرسل الملكان إلـى سلطان مصر بطره ماتير سفيراً فأقنعه بحسن معاملة ملـكى أسبـانيا للمسـلمين فوقف الأمـر عنـد هذا الحد!!.

فى سبتمبر سنة ١٤٨٩ م (٨٩٤ هـ) وبسقوطها تبددت قوة الزغل وأفل نجمه. وتلا ذلك أن خضعت القلاع التى تحصن البُشْرات واحدة بعد واحدة لسيف فرديناند أو ذهبه. وتجلت عند ذلك للزغل الحقيقة المحزنة: وهى أن حكم المسلمين بالأندلس قضى عليه بالزوال. فألقى القياد على كره منه لفرديناند، وسلم إليه المريّة، فأقطعه الملك قطعة من الأرض فى البُشْرات، ومنحه لقب «أمير أَنْدَرَش» ولكنه لم يُقِم طويلاً بهذه البلاد التى ذهب فيها مجده وتولى سلطانه، فباع أرضه، واجتاز البحر إلى إفريقية. وهناك قبض عليه سلطان فاس فعذبه أشد عذاب وسمل عينيه، فقضى بقية أيامه هائماً فى الأرض بائساً طريداً. وما كان أشد حزن الناس على هذا البطل المغوار وهو فى أسماله البالية، وقد قرءوا على رَقّ غزال خيط بردائه «هذا سلطان الأندلس العاثر الجدّ».

لم يبق للمسلمين غير غرناطة التى اغتبط أميرها أبو عبدالله أعظم اغتباط، وتشفّى فى عدوه القديم عمه أبى عبدالله الزغل، حينما سلبه ملوك الكثلكة ملكه، وصاح من الفرح حينما بلّغه الرسول الخبر: لن أقبل من الآن أن يلقبنى أحد بالزغيبىّ، لأن الحظ أقبل على بوجهه.

ولكن الرسول أجابه فى تؤدة: إن الريح التى تهب من أفق قد تهب من آخر، وإنه يجدر بالسلطان أن يكبح من فرحه وسروره حتى يستقر الجو. وكان أبو عبدالله كثيراً ما يسمع سبّه ولعنه بأذنه فى جميع شوارع غرناطة، وكثيراً ما يصل إليه ما يرميه الناس به من خيانة قومه ومحالفة أعدائه. ومع كل هذا كان يعيش مطمئناً هادىء البال، تام الثقة بحلفائه، سعيداً بزوال ملك عمه. وفى أثناء ما كان يحرض الملكين عليه، عاهدهما على أنهما إن أفلحا فى الإستيلاء على ملك الزغل، وأخذا وادى آش والمرية، سلّم إليهما غرناطة راضياً. ولكنه لم يلبث طويلاً حتى أفاق من غفوته، فإن فرديناند كتب إليه ينبئه بأن الشروط التى دونت لتسليم غرناطة قد تمت من ناحية، وأنه يحتم تسليمها على حسب نصوص المعاهدة التى دونت بينهما. وألح أبو عبدالله عبثاً أن يرجىء فرديناند هذا الأمر قليلاً، ولكن الملك لم يتحول عما طلب، وأنذر بأنه إذا لم تسلم إليه المدينة أعاد نكبة مالقة. فارتبك أبو عبدالله ولم يدر ماذا يفعل. غير أن أهل غرناطة بزعامة موسى بن أبى الغسّان الفارس الشجاع، أخذوا الأمر فى أيديهم، وبعثوا إلى فرديناند: بأنه إن أراد أسلحتهم فليأت لأخذها بنفسه.

وحينما وصلت هذه العبارة الجريئة إلى أذن فرديناند، كان مرج غرناطة يزخر بالحب والفاكهة، وقد عاد إليه الخصب والنماء بعد أن عاثت فيه الحروب بين الزغل وأبى عبدالله. وبلغ الزرع أشده، وآن حصاده، وتتطلب المناجل، فاقتنص فرديناند هذه السانحة ولجأ إلى طريقته المعتادة: فرمى المرج بخمسة وعشرين ألفاً من جنوده، غادروه بعد ثلاثين يوماً وهو أقفر من كف اللئيم. واقتنع فرديناند بهذا القدر فى هذا العام. ثم أرسل على المرج فى سنة ١٤٩٠ م (٨٩٥ هـ) غارة مدمرة أخرى. ودفع أبا عبدالله إلى شجاعة يائسة، فلبس لأمة الحرب وهجم على أعدائه مستعيناً برأى موسى الذى كان نادرة من الرجال. وحينما رأى العرب الذين كانوا عاهدوا فرديناند من قبل على الطاعة سلطان غرناطة وهو يقود جيوشه للجهاد، وثبت عزائمهم من جديد، وألقوا بعهودهم فى الهواء وانضموا إلى إخوانهم المحاربين. وكان يخيل إلى المرء أن أيام العز الماضية قد عادت إلى غرناطة، فإن المسلمين استردوا من النصارى بعض الحصون وعاثوا فى تخوم بلادهم، ولكن كل ذلك كان آخر شعاعة للشمس عند المغيب: فإن فرديناند وإيزابلا خرجا فى إبريل سنة ١٤٩١ م (٨٩٦ هـ) للحرب الصليبية التى اعتاداها كل عام، وعزما ألا يعودا إلا وغرناطة فى قبضتيهما. فقاد الملك جيشاً عدّته أربعون ألفاً من المشاة، وعشرة آلاف من الفرسان. وعقد أبو عبدالله مجلس الحرب بالحمراء بينما كانت سحب غبار الجيش الأسبانى ترى من نوافذها. فرأى بعض رجال المجلس أن لا فائدة من المقاومة وأن الخير فى التسليم. ولكن موسى قام واستحثهم أن يكونوا أبناء بررة لآبائهم، وأن يطردوا عنهم اليأس ما دامت فيهم قوة على القتال، وما بقيت لهم جياد سريعة الوثبات. فانتقلت حماسته إلى الناس، وصمموا على الموت. ولم يكن يسمع بغرناطة إلا صليل السلاح وأبواق الجنود.

وكان موسى قائد الدفاع وحارس أبواب المدينة. وكان أهل غرناطة قد احكموا إيصادها عندما ظهر جيش النصارى فأمر بفتحها وقال: سنسد الأبواب بأجسامنا. فأثارت هذه الكلمات وأمثالها عزائم الشباب. وحين قال مرة لجنوده: إننا لا نحارب لشيء إلا لصيانة الأرض التي تحت أقدامنا، فإننا إن فقدناها فقدنا بيوتنا ومملكتنا ـ قذفوا بأنفسهم للموت معه. ومن الحق أن ندون هنا أن فرسان العرب تحت لواء هذا القائد الجرىء قاموا بأروع ضروب الشجاعة والإقدام.

وعوّل فرديناند في النهاية على اتباع أساليبه المعتادة في قهر المدن. فخرج من

معسكره الذي اتفق أن التهمته النيران، وشرع في إفساد ما بقي في المرج من نبات وثمار. وبذل العرب آخر ما في قلوبهم من شجاعة لحماية المزارع والبساتين، وحارب موسى وأبو عبد الله أمام فرسانهما كما يحارب الأبطال البسلاء، ولكن المشاة وقد كانوا ضعاف القلوب هزموا وتقهقروا إلى أبواب المدينة، فتبعهم موسى حزيناً وقد عزم ألا يقذف بنفسه في موقعة حامية، وإلى ظهره أمثال هؤلاء الجبناء. وكانت هذه آخر حروب الغرناطيين، فقد لبثوا عشر سنين يناضلون أعداءهم على كل شبر من الأرض، وكلما وجدت أقدامهم مكاناً تقف عليه حاربوا الأسبان دونه، ثابتين غير مزعزعين. غير أنهم الآن لم يبق لهم غير المدينة، فحبسوا أنفسهم بين أسوارها يائسين جازعين. وعزم فرديناند أن يُسلم المدينة إلى الجوع والسغب، فاتبع طريقة عبد الرحمن الناصر في حصار طليطلة وبني في ثمانين يوماً مدينة أمام غرناطة سماها: شَنْتفي[1] «الإيمان المقدس» ويقوم إلى اليوم بهذه المدينة تذكار أثري لهذا الحصار. وعمل الجوع بأهل المدينة ما تعجز عن مقاومته الشجاعة، فتوسل أهل غرناطة إلى أبي عبد الله أن ينقذهم من هذا العذاب، وأن يعقد شروطاً للتسليم مع الفاتحين. فخضع لهم السلطان الشقى الطالع فى النهاية.

أما موسى: فلم يرض بالتسليم، ولبس شكّته، وامتطى جواده، وخرج من المدينة إلى غير عودة.

وفي الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٤٩١م (٨٩٧هـ) أمضيت شروط التسليم. وكان منها شرط يحدد زمناً للهدنة، لا يجوز بعد انقضائه أن تصل إلى المدينة أية نجدة، وأن تسلّم عند ذلك للملكين. وترقّب العرب عبثاً وصول ما كانوا يؤملون من النجدات من مصر أو من سلاطين تركيا فلم تأت. وأرسل أبو عبد الله في آخر ديسمبر إلى فرديناند يطلب إليه أن يدخل المدينة ويستولى عليها، فتقدم جيش النصارى من مدينة شنتفى صفوفاً، واخترق المرج، وعيون العرب الباكية تنظر إليه في جزع وحسرة. ودخلت مقدمته الحمراء، ونصبت الصليب الفضى الأكبر فوق قمة برج المدينة إلى جانب بيرق الحوارى يعقوب، بين أصوات كانت تملأ الأفق صائحة: سنتياغو! ثم نُصب حولهما علماً قشتالة وأراغون، وجثا فرديناند وإيزابلا على ركبتيهما يحمدان الله على هذا الفتح المبين، وسجد خلفهما الجيش كله، ورتلت فرقة المرتلين الخاصة صلاة الشكر في تبتل وخشوع.

---

(١) هكذا سماها صاحب أخبار العصر.

ووقف أبو عبدالله فى ثلة من فرسانه بسفح جبل الريحان، عند مرور هذا الموكب، فتقدم إلى فرديناند وسلم إليه مفاتيح المدينة، ثم ولى مدينته المحبوبة ظهره منطلقاً إلى الجبال، حتى إذا وصل إلى قرية البذول وهى على مسافة مرحلتين من المدينة فوق مرقب عال من البشرات ـ وقف يودع المملكة التى نُزع منها كما تنزع السنّ القادحة، فرأى المرج النضير وأبراج الحمراء، ومنائرها الضاربة فى السماء، وبساتين جنة العريف، وكل ما بغرناطة من جمال وعظمة. فأجهش بالبكاء وصاح: الله أكبر!! ووقفت أمه عائشة إلى جانبه وهى تقول: حقّ لك يا بنى أن تبكى كما تبكى النساء، لفقد مدينة لم تستطع أن تدافع عنها دفاع الرجال! ولا تزال البقعة التى ودع فيها أبو عبدالله مدينته بدموعه وزفراته تسمى إلى الآن: آخر حسرات العربىّ. ثم اجتاز أبو عبدالله إلى برّ العدوة بإفريقية، حيث كان يعيش بها هو وأبناؤه بالاستجداء وسؤال المحسنين.

ظهور الصليب

لم تكن آخر حسرات أبى عبدالله إلاّ بداية عصر كله حزن وابتلاء وآلام ونكبات، تتوالى على رءوس العرب المساكين. وقد لمع فى أول الأمر بصيص أمل بأن الأسبان سينفذون ما عاهدوا المسلمين عليه عند تسليم غرناطة، وأن العرب ستكون لهم حرية العبادة، وإقامة أحكام الإسلام. وكان هرناندو تالافيرا - أول أسقف بغرناطة بعد نكبتها - رجلاً خيّراً واسع أفق التفكير، يحافظ على حقوق العرب، ويحاول أن يكتسب مودتهم بالقدوة الصالحة والرفق والعدل، ثم بمشاكلتهم فى عاداتهم وأحوالهم بقدر ما يستطيع، فأمر قساوسته أن يتعلموا العربية، وأدى صلاته باللسان العربى المبين. وكان لهذا التسامح أثره فى عقول العرب، حتى إنه فى سنة ١٤٩٩ م (٩٠٥ هـ) حينما قدم الكردينال شيمينيس مرسلاً من قبل الملكة لمعاونة تالافيرا كان يخيل إلى الناس أن مظاهر النصرانية - وهى فى أول نشأتها بأورشليم - تجددت ثانية بغرناطة. فقد تنصر فى يوم واحد ما يبلغ ثلاثة آلاف من العرب، عمّدهم المطارنة ونضحوهم بأغصان الثغام المقدسة. ولم يرض شيمينيس عن سياسة اللين التى كان يصطنعها الأسقف، لأنه كان من دعاة الكنيسة الحربية الذين يظهرون نشاطهم عقب كل انتصار، ولأنه كان يريد فيما يزعم أن ينقذ أرواح هؤلاء الملحدين رضوا أم غضبوا، فأدخل فى عقل إيزابلا - وما كان أسرع تأثرها بكل ما له صلة بالدين - رأياً شديد الخطر، ووسوس إليها أن فى حفظ عهد المسلمين خيانة لعهد الله، فانفذت أمرها فى الحال باضطهاد العرب.

وخابت أول محاولة لإجبار الغرناطيين على التنصر، وأظهر المتشددون من

المسلمين ازدراءهم للمرتدّين، فأخذوا وحبسوا. وبينما كانت امرأة تساق إلى السجن لهذه الجريمة، أخذت تصيح وتستثير عزائم أهل البيّازين، فوثبوا إلى أسلحتهم وأنقذوها. واشتعلت الفتنة بغرناطة وتحفز أهلها للقتال. وكانت حامية غرناطة قليلة العدد لا تستطيع دفع الثائرين، فاشتد غضب شيمينيس وحنقه، ولكن الأسقف خرج هادئاً لا يتبعه من رجاله إلاّ حملة الصليب، ودخل غير خائف ولا وجل ربض البيّازين، حيث أحاط به الناس يقبلون طرف عباءته، ويبثون إليه شكواهم، ويبتغون إليه الرفق وحسن الوساطة، فأزال تلافيرا أسباب الثورة واضطر الكردينال إلى مغادرة المدينة.

ولم يكن شيمينيس بالرجل الذى يسهل صرفه عن أغراضه ومآربه، فأغرى الملكة أن تصدر مرسوماً تخير فيه العرب بين التنصر ومغادرة البلاد. وجاء فى هذا المرسوم: أن أسلافهم كانوا مسيحيين، وأن الكنيسة تعدهم وهم من سلالتهم مسيحيين منذ الولادة، فيجب عليهم أن يظهروا دينهم الموروث. وبعد هذا المرسوم أغلق الكردينال الحانق المساجد، وأحرق المخطوطات والكتب النفيسة التى هي عصارة الفكر العربى فى عدة قرون. وأنذر المسلمون وعذبوا أشد العذاب ليدخلوا فى دين الرفق والرحمة، على الأسلوب الذى ارتضاه الملكان الكاثوليكيان لقسر اليهود على التنصر. وبهذه الوسائل خضعت جمهرة من العرب، لأنهم آثروا أن يتركوا دينهم على الشرود فى بقاع الأرض بلا أهل ولا مأوى. ولكن جذوة من الروح العربية القديمة بقيت متأججة بين سكان جبال البشرات، الذين لبثوا حيناً من الدهر ثائرين ممتنعين على أعدائهم فى معاقلهم الثلجية. وحاول المسيحيون أول الأمر القضاء على هذه الثورة فآبوا بالخيبة والاندحار.

وهذا الفوز الخلّب لم يعمل إلا أن أثار غضب المسيحيين، وحفزهم على أخذ الثأر، فهجم صاحب تنديلة على قوجار. وهدم صاحب سيرين مسجداً على جماعة من النساء والأطفال كانوا التجئوا إلية من ويلات الحرب وكوارثها. وأخذ الملك فرديناند الطرق على العرب بامتلاك قلعا لانجارون، ففرّ من أبقت عليه السيوف إلى مراكش ومصر وتركيا، وعاشوا فى هذه البلاد صناعاً ماهرين. وهكذا انتهت الثورة الأولى بالبشرات.

وتلا ذلك نصف قرن والمسلمون فى غيظ مكتوم، فقد أدوا مكرهين مرائين أقل ما يستطيعون أداءه من أمور الدين الذى فرض عليهم، ولكنهم كانوا إذا خلوا إلى أنفسهم، جهدوا فى غسل الماء المقدس الذى عمّد به أطفالهم فى الكنيسة. وإذا زوجهم قسيس

أسرعوا إلى منازلهم فأعادوا عقد الزواج على سنن شريعة الإسلام. ثم إنهم أعانوا لصوص البحر الذين كانوا ينزلون بثغور الأندلس على اختطاف أطفال المسيحيين. وقد كان في استطاعة حكومة الأندلس أن تتقي هذه الأخطار وتلك الأحقاد الدبينة لو أنها كانت حكومة حازمة أمينة، ترعى عهودها التي واثقت المسلمين عليها عند تسليم غرناطة. ولكن حكام أسبانيا لم يكونوا حازمين، ولم يكونوا أمناء في معاملة العرب. فقد أكرهوهم على أن يخلعوا أزياءهم الوطنية الجميلة ليستبدلوا بها قبعات النصارى وسراويلهم، وعلى أن يهجروا سنة الغسل والاستحمام، اقتداء بغالبيهم في الصبر على تراكم الأقذار، ثم على أن ينبذوا لغتهم وعاداتهم وأسماءهم، وأن يتكلموا بالأسبانية، ويعملوا كما يعمل الأسبان، ويغيروا أسماءهم بأسماء أسبانية.

وكان تجريد العرب من قوميتهم ودينهم دفعة واحدة فوق احتمال أي شعب وقبيل، له سلائلُ عبد الرحمن والمنصور وبني سراج. وحدث يوماً شغب من جراء بعض جباة الضرائب الظلمة، فاشتعلت نار الفتنة الخامدة التي كانت تتحرق إلى الإشتعال، وقتل بعض الزراع بعض جنود الأسبان الذين كانوا يحتلون دورهم، وثار صبّاغ بغرناطة اسمه فرج بن فرج ينتمي إلى بني سراج، وجمع حوله جماعة من الساخطين ذوي الحمية، وفر بهم إلى الجبال قبل أن تدركهم الحامية، ونادت هذه الجماعة بهرناندو آل فالور ملكاً على الأندلس وسمّوه محمد بن أميّة، وهو رجل من نسل خلفاء قرطبة ومن أعيان غرناطة يُزَنّ بإسرافه في الشهوات. وبعد أسبوع عمت الثورة وحمل رجال البشرات كلهم السلاح. وكان هذا بدء الثورة الثانية سنة ١٥٦٨ م (٩٧٦ هـ). وكانت منطقة البشرات من أحسن المناطق لنموّ الثورات، فإن الأرض المرتفعة بين جبال نيفادا والبحر، وطولها نحو تسعة عشر ميلاً، وعرضها نحو أحد عشر ميلاً، ليست إلا وعراً تتقاسمه التلال الصلدة، والأخاديد العميقة، حتى ليصعب أن يجد فيه المرء قطعة مطمئنة إلا في وادي أندرش الصغير، وإلا في نطاق ضيق يتوسط بين البحر والجبال.

واستمرت الثورة مشتعلة بالبشرات سنتين، ولم يطفئها الأسبان إلا بعد جهد عنيف. وتاريخ هذه الثورة ممتلىء بأعمال الجرأة والتعذيب، والقتل والخيانة، والقسوة الوحشية من كلا الفريقين. غير أن هذه الأعمال البشعة كان يتخللها كثير من أعمال البطولة والجلد الجديرة بأن تشرّف أي عصر وأي قبيل. وكان صراع العرب شديداً يائساً، لأن المعركة كانت آخر معركة لهم في آخر مكان يستطيعون الوقوف فيه، فقد أحسوا أنهم يطاردون،

فأخذوا فى هجماتهم الأولى، والغضب ملء خياشيمهم، ينتقمون لما نالهم من ضروب الإهانة والاضطهاد فى مدى مائة عام. فثارت قرية بعد قرية فى وجوه الأسبان، ولطخت الكنائس بالأقذار، وجعلت صورة العذراء غرضاً للرماة، وذبح العرب القساوسة، وكثيراً ما نكلوا بالمسيحيين الذين التجئوا إلى الأبراج والحصون.

وفلّ قائد غرناطة مركيز منديجـار من غرب هذا العصيان قليلاً بهجمـة عنيفـة علـى الجبال، كان فيها على رأس أربعة آلاف من الجنود الأشداء. ثم حاول أن يأخذ الثوار باللين والمسالمة والصفح، وكاد يفلح لولا أن حدثت مذبحة للعرب بجيوبيليس، ولولا أن غدر الأسبان بالعرب ونكثوا بعهودهم فى لارول، فأثار كل ذلك غضب المسلمين، وأعاد نيران الثورة إلى تأججها بعد أن كادت تبوخ. ثم تلا ذلك أن ذبح طائفة من المسجونين الأسبان بسجن البيازين مائة وعشرة من العرب، فجاء ذلك ضغثاً على إبالة، وزاد فى حنق العرب المضطهدين. وكان منديجار بريئاً من تلويث يده بهذه الأعمال الدموية، راغباً فى مسالمة العرب، وقد سار بحرسه إلى السجن ليهدىء ما به من ثورة واضطراب، ولـكن رئيس شرطة المدينة أخبره فى الطريق أن لا داعى للذهابـه، لأن جميع من بالسجـن من العرب قد ماتوا. وبعد هذه الحوادث كان العرب يفوزون كل يوم بانتصار جديد، وأصبح ابن أمية أميراً بالفعل على جميع ولاية البشرات، ولكن هذا الأمير الضعيف المستهتر، لم ينعم بالحكم فترة قصيرة، حتى ذبحـه فى سريره بعض أتباعـه سنـة ١٥٦٩ م (٩٧٧ هـ) لبغضهم إياه، ولما حام حوله من الشبهات. وخلفه فى الملك والزعامة مولاى عبدالله ابن أبيه، وكان صنديداً مخلصاً، وقائداً صادق العزم، يقذف بنفسه بين مخالب الموت فداء لأتباعه وأنصاره. غير أن القدر كتب على ابن أبيه هذا أن يحارب عدواً من صنف جديد، ذلك أن أخا الملك وهو الدون جون الأوسترى، وهو شاب فى الثانية والعشرين، ملأته الأمال، وتكهنت بعظمته المخايل ـ خلف منديجار على قيادة الجيوش، فأقنع فيليب بعد أن تبادلا كثيراً من الرسائل بخطورة الموقف وتفاقم الخطب، وضرورة اتخاذ وسائل عنيفة لحسمه، فوصل إليه فى النهاية أمر من الملك بالهجوم، ولم يتوقع العرب من الأسبان بعد صدور هذا الأمر الخطير إلا أن يمنحوهم وقتاً قصيراً للتوبة والإنابة. ففى غضون الشتاء سنة ١٥٦٩ ـ سنة ١٥٧٠ (٩٨٧ ـ ٩٧٨ هـ) زحف الدون جون على العرب، ولم يجىء مايو إلا وقد كانت شروط التسليم قد أعدت. أما الأشهر التى مرت بين بدء هذه الحرب ونهايتها، فقد لطخت بأنهار من الدماء، لأن شعار الدون جون كان «لا إبقاء ولا هوادة»

فذبحت النساء والأطفال بأمره، وتحت سمعه وبصره، وأصبحت قرى البشرات مجازر بشرية.

وبعد أن ظهر للعيان أن العصيان قد أخمد وبردت جذوته، انطلقت من بين الرماد آخر شرارة للثورة. ذلك أن ابن أبيه بقى مجالداً فلم يخضع للأسبان، ولكن القتل أخضعه فى النهاية، فحز رأسه وعلق على باب المذبح بغرناطة، وبقى معلقاً ثلاثين عاماً.

وجاء بعد الدون جون القائد الأعظم ريكيسِنْس، فقضى على هذه الشرارة الأخيرة للثورة فى الخامس من نوفمبر سنة ١٥٧٠ م (٩٧٨ هـ) بطرق منظمة: فكان يحرق القرى بمن فيها، وكان يرسل الدخان على الملتجئين إلى الكهوف والأغوار حتى يموتوا أو يخرجوا فيموتوا؛ وانتظر النفى والرق كل من نجا من هذه الثورة ـ وكانوا قليلى العدد ـ فقد قتل فى الثورة كما قيل أكثر من عشرين ألف عربى، وبقى منهم نحو خمسين ألفاً. فلما جاء عيد جميع القديسين فى سنة ١٥٧٠ م (٩٧٨ هـ) مجّد الأسبان ذكرى الحواريين والشهداء، واحتفلوا فيه بالقضاء على من عثروا عليه من العرب. وحكم الأسبان على من أسروا فى الثورة بالعبودية، ونفوا الباقين تحت حراسة الجنود، بعد أن راقبوا شعاب الجبال حتّى لا يفروا. ومات كثير من هؤلاء فى الطريق من الجوع والنصب، والعرى، وذهب بعضهم إلى إفريقية فعاشوا بها يستجدون الناس، لأنهم لم يجدوا بها أرضاً تصلح للحرث. وسار بعضهم إلى فرنسا فلم يلاقوا ترحيباً من هنري الرابع، وإن وجد فيهم أداة صالحة للكيد لأسبانيا. ولم ينته استمرار نفى العرب إلا فى سنة ١٦١٠ م (١٠١٩ هـ) حين حكم فى هذا العام على نحو نصف مليون منهم بالنفى. وقد ثبت أن من نفوا من العرب فى المدة بين سقوط غرناطة والعقد الأول من القرن السابع عشر يبلغون ثلاثة ملايين.

والمؤرخ العربى يذكر هذه النكبة حزيناً، ويعدها ضربة من ضربات القدر ويقول: «إن الله لم يشأ أن يهب نصره للأندلسيين، فأخذوا وذبحوا فى كل مكان، ثم أُخرجوا من ديارهم. وقد وقعت هذه النائرة فى أيامنا سنة ١٠١٧ للهجرة (سنة ١٦٠٨ م) والله جل شأنه وعظم سلطانه يقول: إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». ولم يعرف الأسبان عندما نفوا العرب ماذا كانوا يفعلون!! حقاً لقد خربوا بيوتهم بأيديهم، فإنهم ابتهجوا أول الأمر بنفيهم، وشمتوا فيهم، وشفت غليلهم المناظر المؤثرة لهؤلاء العرب، وهم يطردون من فردوسهم.

ولكن الأسبان لم يدركوا أنهم قتلوا الإوزة التي تبيض بيضة من ذهب في كل يوم، فقد بقيت أسبانيا قروناً في حكم العرب وهي مركز المدنيّة، ومنبع الفنون والعلوم، ومثابة العلماء والطلاب، ومصباح الهداية والنور، ولم تصل أية مملكة في أوروبا إلى ما يقرب منها في ثقافتها وحضارتها، ولم يبلغ عصر فرديناند وإيزابلا القصير المتلألئ، ولا إمبراطورية شارل الخامس، الأوج الذي بلغه المسلمون في الأندلس. وقد بقيت حضارة العرب إلى حين بعد خروجهم من أسبانيا وضّاءة لامعة، ولكن ضوءها كان يشبه ضوء القمر الذي يستعير نوره من الشمس. ثم عقب ذلك كسوف بقيت بعده أسبانيا تتعثر في الظلام.

وإنا لنحسّ فضل العرب وعظم آثار مجدهم، حينما نرى بأسبانيا الأراضي المهجورة القاحلة، التي كانت في أيام المسلمين جنات تجري من تحتها الأنهار، تزدهر بما فيها من الكروم، والزيتون، وسنابل القمح الذهبية. وحينما نذكر تلك البلاد التي كانت في عصور العرب تموج بالعلم والعلماء، وحينما نشعر بالركود العام بعد الرفعة والازدهار.



شاعر ملك

قصة المعتمد بن عباد الأندلسي

يونيو ١٩٤٣

ليلة

في ليلة من ليالي ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة للهجرة، كانت مدينة باجة بالأندلس يلفّها ظلام دامس بعد أن ظهر القمر في طليعة الليل قليلاً، يرسل شعاعه في رعدة وضعف، حتى إذا دنا من الغرب، التقمته لجّة الليل، فغاص فيها وترك وراءه المدينة في تجهم وسكون وحداد. وكانت الرياح تعصف من الجنوب والشرق شديدة عاتية، فتسوق السحائب أمامها بسياط من البروق، وتزجرها بهزيم من الرعد غاضب عنيف. وكانت النجوم لا تكاد تطلّ من بين ثنايا هذه السحائب الراجفة المسرعة حتى تختفي، كأنها لمحات الأمل الكاذب يلتمع في سواد الخطوب، أو تلويح الغريق جاءه الموج من كل مكان، فهو يرسب ويطفو، حتى يحول الموج بينه وبين الحياة.

فزع الناس الى بيوتهم في هذه الليلة الليلاء، والتجأ المسافرون إلى فنادقهم، وخلت الدروب من السابلة، فلا يجد المطل من خلال نافذته، إلا العسس والحرّاس يذهبون ويجيئون، وبأيديهم العصيّ الغليظة يضربون بها الأرض في عنف وقوّة، حتى يعلم من لم يكن يعلم من اللصوص وقطّاع الطرق، مقدار صولتهم ومدى فتكهم.

وكان يُسمع بين الحين والحين عواء كلب أضرّ به البرد، وآذاه المطر، فالتجأ إلى حائط يعصمه من الماء، وأخذ يرتعد ارتعاد المقرور، ويرسل صوتاً مستطيلاً حزيناً، زاده سواد الليل وهدوءه همّاً وحزناً.

وسكتت الطيور في عشاشها فوق أشجار الزيّتون والتين، إلا بومة سكنت في جحر

من بيت خرب، راحت ترسل نعيباً مؤلماً، تنقبض له النفس وتضطرب الأعصاب، ويوحي بالموت والفجيعة والدمار.

في تلك اللحظة ـ وكان الليل في منتصفه ـ التقى أحد العسس بزميل له في أثناء دورته، فما كاد يراه حتى سُرّي عنه، وتولى من نفسه عارض الهمّ والخوف، لأنه في الحق كان خائفاً، على أنه يرضى أن يموت بين براثن الأخطار المحدقة، ولا يرضى أن يقول قائل: إن أبا عوف الخزامّي خاف مرة في حياته!

إنه جنديّ قديم خاض غمار الحروب الطاحنة المستمرة بين المسلمين ومغيرة الأسبان، وطالما قذف بنفسه بين الصفوف، والموت جذلان ينظر، فلم يبال بالموت، ولم يأبه للحياة.

كان أبو عوف قوّي العضل، ضخم الجسم شعشاعاً، دبّ الشيب قليلاً في عوارض لحيته، ولكنه كان على قوته الجسمية التي كانت في مقتبل شبابه مضرب الأمثال، ساذجاً بطيء الفهم قليل التفكير، كثير الغفلة، يؤمن بالخرافات إيمان الواثق، ويصدّق أقاصيص الجن والشياطين تصديق العجائز.

وقد عرف مخالطوه فيه هذا الضعف، فأكثروا من تنميته واستغلاله.

أحسّ أبو عوف في هذه الليلة خوفاً ورهبة، زاد فيهما نعيب البومة، وهدوء الليل، وانقطاع الطريق من السابلة، فبدت أمام عينيه أشباح مخيفة غريبة الخلق، مرة تبتسم له، وأخرى تعبس مهددة متوعدة، وهو بين ذلك يحاول أن يغمض عينيه ليفر من هذه المخلوقات المنكرة، فلا يزيده الإغماض إلا نكالاً، لأنه إذا أغمض رأى أصنافاً أشدّ بشاعة، وأعظم نكراً. أخذ يهز رأسه هزّاً شديداً، وحاول أن يرفع صوته بأنشودة فلم يستطع، ثم شرع يضحك ضحك الهاذي المحموم، ليقوّي من نفسه، وليدعو إليه شجاعته، وليظهر عدم مبالاته، فكانت الضحكات خافتة خاوية، أشبه بفحيح الأفاعي أو نقيق الضفادع، منها بضحك المرح والسرور.

كان في تلك الحال حينما التقى بزميله أبي عبدالله الشنتمريّ، فما كاد يراه حتى أخذ يبلّ شفتيه بلسانه، ويمسح بيديه على وجهه مسحاً عنيفاً، كأنه كان يريد أن يمحو منه كل أثر للخوف ثمّ تنحنح قليلاً باحثاً عن صوته الذي كاد يذهب به الفزع، وبعد أن حيّا صاحبه قال:

ـ يا لهذه الليلة!! كأن أرواح الجن جميعاً انطلقت فيها من قماقم سليمان بعد طول احتباسها.

ـ أتصدّق أبا عوف، أن سليمان بن داود كان يحبس الجن فى قماقم؟؟

ـ أأصدّق؟! إن هذا السؤال منك لعجيب. إن سليمان مُنح من الملك والقوة، ما لم يُمنحه أحد فيما كان، أو فيما يكون.

ـ هل كان الجن صغاراً أقزاماً، لا يزيد الواحد منهم على قبضة اليد؟

ـ لا. إن الجن خلق ضخام الأجسام جدّاً، حتى إنهم ليستطيعون أن يصلوا بأيديهم إلى الشمس، ليقتبسوا منها جذوة إذا أرادوا.

ـ وهل تظن أن هؤلاء ـ مع ما ذكرت من ضخامتهم ـ يُستطاع حبسهم في قماقم لا تكاد تتسع لهريرة؟

ـ إن القماقم تتسع، أو هم يصغرون.

ـ إذا اتسعت القماقم لم تكن قماقم، وإذا صغرت الجنّ لم تكن جنّاً.

ـ إن لعقلك أبا عبدالله لفتات ودورات، وفروضاً تدعو إلى الحيرة والارتباك، وإني لا أحب أن يتخذ الحوار هذه الطرق الملتوية، لأنني أفكر فى طريق مستقيم، ولا اريد أن أجهد عقلى بهذا التشعب الذى لا يؤدى إلى شيء. الجن جنّ، والقماقم قماقم، وقد سمعنا من أمهاتنا، ومن شيوخ القصّاصين: أن سليمان كان يحبس الجن فى قماقم، وهذا كاف، فدعنا من هذا بحقك. . . أرأيت فى حياتك مثل هذه الليلة؟

ـ إنها ـ بلا شك ـ ليلة شديدة الأنواء، عاصفة الرياح منهمرة المطر. وقليلاً ما نجد لها مثيلاً فى هذه الولاية من الجزيرة. . . غير أني علمت من أبى: أنه فى شتاء السنة التى حدثت فيها الفتنة بقرطبة، اشتدّت الأنواء، وأنذرت السماء بالصواعق، وكاد المطر يهدم الدور، حتى ظن بعض الناس أن ذلك كان غضباً من السماء، وإنذاراً بالويل والعذاب، لما شاع بين المسلمين ـ وبخاصة الأمراء والوزراء وجماعة المثرين المستهترين ـ من الانغماس فى الشهوات، والاستسلام للنعيم، وإهمال شئون الدولة إهمالاً كاد يذهب بريحها، ويلقى بها فى أيدى أعدائنا الإسبان الذين يتربصون بنا الدوائر، والذين لا ينسون أن لهم عندنا ثأراً. بعد هذه الحادثة السماوية، وقعت الفتنة بقرطبة، بين محمد بن هشام

المهدي وسليمان الملقب بالمستعين، وقد كانت فتنة شعواء ضلّت فيها العقول وانحطّت الدولة، واستعان كلا الأميرين بالأذفونش (الفونسو) على صاحبه، واشتد الحصار على قرطبة ونهبها البربر وعرب زناته والرعاع.

ـ حقّاً إنها لحادثة مفجعة . . . لقد كنت في الخامسة عشرة فى ذلك العهد، وأذكر أن أبى كان كثير الإهتمام بالأمر، يستطلع الأخبار من البريد القادم من قرطبة فى كل يوم. وكان أبى جنديّاً شجاعاً، ولكنه كان مولعاً بقراءة التاريخ، وقد أنفق نصف ماله على الورّاقين الذين كانت لهم أساليب الأبالسة فى اجتذابه إليهم، لشراء كتب عتيقة بالية، يزعمون أنها جاءت من المشرق، حتى لقد ضاقت نفسى بذلك الإسراف يوماً فلم أستطع عليه صبراً، فقلت: يا أبى لقد أضعفت بصرك بقراءة هذه الكتب، وهؤلاء الورّاقون لصوص أدنياء، وقد استلانوا منك مغمزاً فأخذوك بحيلهم الخدّاعة، وكتبهم الكاذبة الزائفة.

فاتجه إلىّ ولمحات الغضب فى عينيه، وقال: أعلم يا بنى أن العقل عقلان: مولود، ومكتسب. فأخذتني الدهشة وقلت: إذا كانت عقبى قراءة الكتب يا أبى، أن تزعم أن العقل عقلان، فهذا فى الحق ما كنت أخشى عليك منه؛ فضحك أبى، وهزّنى من كتفى، وقال: هوّن عليك أبا عوف، أنت ثور وحشى صغير!

ـ وقد أصبحت الآن ثوراً كبيراً.

ـ ذاك مزاح مضى وقته . . . أليس من العجب ألا يفهمني الناس؟، وأننى كلما صدعت برأى، تهامسوا أو ابتسموا كأن الله أنزل عليهم حكمة داود دونى!!. منذ شهرين عزم ابنى محمد على التزوج بفتاة نصرانية شغفته حبّاً، فذهبنا إلى قاضى العقود، فلمّا همّ بعقد الزواج طلب شاهدين، فبصّرته بأنه يجب أن يكون أحدهما نصرانيّاً، ليكون المسلم شاهداً على الزوج، والنصرانى شاهداً على الزوجة. فابتسم وصرف وجهه عنى فى صلف وغرور يعرف هؤلاء الفقهاء كيف يتقنونه، فلما ألححت، مد عينيه فىّ من قمة رأسى إلى جوف أخمصى، وقال: ما لك ولهذا أبا عوف؟! إنما أنت رجل حرب وجلاد، فدع ما لغيرك لغيرك. فغضبت وقلت: لو لم أكن رجل حرب، . ولو لم أدفع عنك وعن أمثالك صولة الإسبان بسيفى وبساعدى، لكنت اليوم من سكّان القبور، وما استطعت أن تنظر إلىّ ـ كما تفعل الآن ـ نظرتك إلى حيوان عجيب الخلق، ولذهب علمك وفقهك اللذان

تتبجح بهما طعمة للسيف والنار. فسكت الرجل على دخل، ومن العجب أنه تمسّك برأيه. وعقد الزواج بشاهدين مسلمين.

ـ دعنا من هؤلاء الفقهاء أبا عوف، فإن بينك وبينهم بعد ما بين باجة وأربونة... أسمعت تلك البومة التي أخذت تولول بصوت مفزع مليء بالأحزان؟!

ـ سمعتها وتشاءمت منها أشد التشاؤم، وأعتقد أنها نذير سوء.

ـ تلك أوهام أبا عوف، فإن ما كان يكون:

وما غراب البين إلا ناقة أو جمل

وبينما هما في حديثهما، إذ سمعا خطوات أشباح في الظلام، يدنو صوتها إلى حيث وقفا، فقال أبو عبدالله: لا بد أن أمراً ذا بال دفع هؤلاء الناس إلى النزول في هذه الليلة القاسية.

وما كاد يأخذ في الحديث، حتى مرّت بهما طائفة من حرس الوالي عبّاد بن أبي القاسم وبينهم امرأة متلفعة بالصوف، مجلّلة بالسواد، وقد حملها الخدم في محفّة غطيت بنسيج من الكتان الغليظ لا يكاد ينفذ منه المطر. فوقفت المحفة قليلاً، وسأل أبو عبدالله عن الخبر، فأجابه جوهر السوداني: بأن امرأة الأمير جاءها المخاض في منتصف الليل وأنهم أحضروا لها نزهة الغرناطية القابلة (وأشار إلى المرأة التي بالمحفة). حينئذٍ ساروا جميعاً إلى قصر الأمير، وكان قصراً فخماً بني على الطراز العربي، وزخرف بعجائب الصنعة وبدائع الفنون، وقد أطلّ النور من جميع نوافذه ومشارفه، وكان الخدم والجواري في شغل شاغل يجيئون ويذهبون.

فدخلت القابلة القصر، وجلس أبو عوف مع الحرّاس في بناء أعدّ لهم، حتى إذا مضت ساعة أو ساعتان، علت الأصوات في القصر، وانبسطت الوجوه، ونزلت جارية تثب فوق درجات السلم وثباً، وهي تصيح في لغة عربية متكسرة تمتزج بالرطانة الإسبانية: البشرى... البشرى... ولدت الأميرة... ولدت بنت مجاهد... إنه غلام... إنه غلام... إنه جميل جداً. حينئذٍ سحب أبو عوف عصاه، وهو يردد: إنه غلام... إنه غلام.

فندق

بزغت شمس اليوم الثانى مشرقة وضّاءة، وانحسرت الغيوم عن السماء وصحا الجو، كأن لم يكن نوء، وكأن لم يكن أمطار، وكأن لم يكن رياح هوج. ومضى الناس فى شوارع باجة مستبشرين بعد ما دهمهم من الغم والرعب فى الليلة الفائتة.

ولم يكن لهم من حديث إلا ما كان حول السقوف وكيف نفذ منها المطر، والشرفات وكيف أطاحت بها العواصف، والبرق وما كان من خوف أولادهم ونسائهم من توهجه، والرعد وما ترك فى النفوس من رعب وفزع... وجلست طائفة من الشبان المثقفين بفندق يتناشدون الشعر ويتطارحون النوادر وطرائف الأحاديث، وكان يقيم بالفندق شيخ جاوز الأربعين هو العالم الزاهد أبو حفص عمر الهوزنى، قدم من إشبيلية لينسخ بعض كتب الحديث التي بخزائن باجة.

جلس الشيخ فى صمت وإطراق، تتحرك شفتاه بما لا يكاد يسمع من أدعية أو تسبيح، وقد كان عرفه أحد الفتيان حينما كان يدرس العلم بإشبيلية، فاتجه إليه سائلاً: كيف كانت ليلة الشيخ أمس؟ فأجاب الشيخ: الحمد لله على كل حال... صدق الله العظيم: «حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها، أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس».

هذا يا بنى إنذار من الله لهذه الأمّة التي نسيت الله فأنساها أنفسها، وانغمست فى النّعيم فغطى على أعينها فهى لا تبصر، وعلى آذانها فهى لا تسمع... ولا تجد أينما سرت إلا مجالس لهو ومحاضر أنس... خمر ونساء... ونساء وخمر... هذا شعار هذه الأمة

المنكودة، كأنما هي في حلم لذيذ لا تريد أن تستيقظ منه، وقد جاءتها المثلات وصاحت في آذانها العبر... ولكنها سادرة عابثة تسير إلى الهوّة التي لا قرار لها وهي لا تشعر.

إن هذه الأمة المسكينة كقطيع من الشاء. لا راعي له ولا حافظ، وقد أحاطت بها الأسود من كل جانب. والأمراء؟؟... أين هم؟!... إنهم في تصارع وتطاحن... بعضهم أعداء بعض، لا تنطفيء نيران الحروب بينهم، يريد كل واحد منهم أن ينفرد بالقوة والسلطان، ويريد أن يمحو ملك أخيه ويستأصل شأفته ولو أدّى ذلك إلى الاستعانة بملوك الإسبان، وهؤلاء يغرون بعضهم ببعض، ويزينون لهم ما هم فيه من حقد وخلاف وحرب، ليضربوا هذا بذاك، حتى يضعفوا جميعاً.

كان على هؤلاء الأمراء أن يلتفّ بعضهم حول بعض، وأن يكوّنوا حلفاً عربيّاً قويّاً أساسه المحبة والتعاضد، وأن يكونوا كالبنيان المرصوص، إذا فجأتهم صيحة، أو حلّت بهم نازلة.

إن الله سبحانه وهب لأحط أنواع الحيوان غريزة تدفعه إلى التجمع والتعاون للدفاع عن النفس والحوزة: فالنمل تعيش أسراباً... والنحل تعيش أسراباً... والطير تصف في جو السماء أسراباً... والظباء تسير أسراباً... فما للإنسان المسكين يميت غريزته، وتتغلب عليه شهوة التملك والقهر، فيحارب من يجب أن يستعين بهم. ويبدد قوته في سبيل أن يعيش منفرداً بعظمة موهومة وسلطان كاذب.

أنظروا كيف أضعف هذه الأمة صبية بني أمية الذين دعوا أنفسهم ملوكاً، ثم خلعوا على أنفسهم ألقاب الخلافة أسوة ببني العباس!! فقد استعان بعضهم على بعض بالبربر والصقالبة وملوك الأسبان، فهلك أربعة منهم في نحو سبع سنين وأضاعوا ملكاً عظيماً، بناه آباؤهم الأولون بآرائهم وسيوفهم.

ثم ماذا حصل لما تفرّقت الكلمة وكثر الأمراء، وانفرد كل أمير بولاية؟؟ المصيبة نفسها... لهو وسرف، وإغراق في الشهوات، ثم تفرق وتخاذل وغدر.

إرجعوا إلى ما حصل في هذه المدينة منذ عهد قريب... ثار فيها البربر واشتد فيها الخلاف، وتأجّجت نار العصبية بين البربر والعرب، فتنازع للتغلب عليها أبو القاسم بن عباد وبنو الأفطس، وأرسل أبو القاسم ابنه عباداً لإخضاعها، فحاصر ابن الأفطس بها وأفنى رجاله، ثم أسره وتملك المدينة.

وكانت هذه الحادثة صائحة الشر بينهم ، ولا يزالون إلى اليوم فى حروب لا تنطفىء نارها ، ولا يخمد أوارها . ومثل هذا من الشر والتنازع ، ترونه فى بقية الأمراء .

نحن يا أبنائي غرباء فى هذه الأرض . . . غرباء فى مملكة قوية ملكناها من أهلها بقوة السلاح ، ولا نستطيع أن نبقى فيها إلا بقوة السلاح . نحن غرباء فاتحون بين قوم أولى قوة وأولى بأس شديد ، لا ينامون على الضيم طويلاً ، ولا يصبرون على ضياع ملكهم . . . غرباء فاتحون نزلنا أرض الأندلس ، وهى جنة وارفة الظلال ، متدفقة الأنهار ، كثيرة النعم ، وافرة الخير ، فكان علينا أن نشكر الله عز شأنه بالحرص على هذا الفردوس الأرضىّ ، وأن نجاهد متواثقين لتنمية خيراته وإعداد العدة للذود عنه ، وأن نستعيذ دائماً من نزعات إبليس الذى أخرج آدم من الجنة وما كان فيها من نعيم مقيم . كان علينا أن نعلم ـ وقد نزلنا أرض الأسبان ، وأخضعنا أهلها ووضعنا الجزية على سادتها وكبرائها ـ أننا قد انعزلنا بديننا وقومنا ـ وهم فئة قليلة ـ فى بلاد نائية ، وفى جزيرة منقطعة عن المشرق . وكان علينا أن ندرك المرمى البعيد الذى ألمع إليه طارق حين أحرق سفنه وقواربه ، وصاح فى قومه : «البحر وراءكم والعدوّ أمامكم ، وليس لكم إلا الجلد والصبر» .

كان الشيخ يتحدث فى تأن وصوت مرتعد ، وكانت آثار الغضب والحزن بادية على وجهه ، وكان الفتيان ينصتون إليه واجمين ، كأن شيئاً مما ذكره وأفاض فيه لم يخطر لهم ببال ، ثم ابتدره أحدهم قائلاً :

«صدقت يا شيخ . إن أخلاقنا العربية ذهبت عنا منذ حين ، وإنى أعتقد أن العرب لا تسود إلا إذا تمسكت بعاداتها ، عادات البداوة والخشونة ، فإذا انصرفت إلى الحضارة أذهلها بريقها فتفككت فى النعيم ، واستنامت إلى الدعة وتجرّدت من الشجاعة والحمية ، وضعفت فيها تلك العقيدة الإسلامية القوية التى هزمت بها الممالك وثلت العروش ، أمام عدد أكبر من عددها ، وقوة أضخم من قوتها ، وأظن هذا معنى قول الله ـ وهو الصادق العليم ـ : ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين﴾ .

وقال ثان من الفتيان : أظن أن الشيخ صوّر داء الأندلس فى كلمتين : التنازع على الملك والشهوات !

إن هؤلاء الأسبانيات وبال على الملك والملة معاً . . . إن فيهنّ لفتنة وسحراً يستلاّن من النفوس كل أخلاق الرجولة ويستعبدان القلوب . . . وفى بيت كل أمير من هؤلاء مئات

يتمتع بهن، ويلهو بين الكاس والطاس، وأعتقد أن كثيراً من هؤلاء الجوارى جاسوسات لملوك قشتالة وغيرها، ينقلن إليهم أخبار كل أمير، وينفذن ما يأمرونهن به من كل ما يضعف الدولة ويذهب بصولتها.

إن جمال هؤلاء الإسبانيات ورقة حديثهن ولطف دلالهن، مما يعجز عنه الوصف ويكبو دونه التعبير، حتى كثرت الأسواق التى يبعن فيها فى كل بلد من الأندلس، وأقبل الشبان على التسرى بهن، وامتنعوا عن التزوج بالحرائر، فكسدت سوق بناتنا وأصبحن يحتلن على الزواج بالتبرج وإظهار الزينة، واتخاذ وسائل الإغراء، واجتذاب الرجال، ففسدن وسقطن فى حمأة من الرذيلة زادت عنهن الرجال.

وهكذا عدن بالخيبة بعد أن حاولن الاستشفاء من داء بداء.

فقال الشيخ: إننا أتينا من ذلك الجنون الذى أصاب أمراءنا. وهو غرامهم بالتشبه بملوك بنى العباس.

سمعوا كثيراً عن إغراق هؤلاء فى اللهو والمجون، واقتناء القيان والغلمان، وتبديد الأموال فى العظمة الكاذبة، فأبوا أن يكونوا دونهم فى شىء من هذا: خمر وقيان وغلمان، ولهو وعبث ومجون، ثم قصور شامخات، وحدائق باسمات... أما الدولة والأمة... فلها رب يحميها.

فانبرى ثالث وقال: إن روح اللهو والمجون هذه سرت إلى كثير من الناس، حتى جازت الحد.

دعانى مرة أبو منصور السلامى للتنزه بمنية الفرج، وهى على بعد فرسخين من المدينة، وكان قد صنع صنيعاً دعا له طائفة من الأدباء والشعراء والتجار وبعض الفقهاء، فلما استقر رنا بالمنية ـ وكان قد سبقنا غلمانه وعبيده إليها ـ مدّت الموائد، فنلنا منها طعاماً شهيّاً، ثم رفع الطعام، وصفّت أوانى الشراب، وأخذت القيان فى الغناء والرقص، ولعبت الخمر برءوس أصحابى، وعلا ضجيجهم، فكانت قهقهة الأباريق تمتزج بقهقهة المرح، ورنّات العيدان والطنابير تختلط بأغاريد طيور الربيع، وخطوات الرقص تساير الألحان فتثير الأعصاب وتهيج الأشجان... بين نكات وطرف، وفرائد من الشعر تتناثر هنا وهناك «كما نثرت فوق العروس الدراهم».

أما القوم: فقد خلعوا عذارهم، وأرسلوا للهو عنانهم، فطاروا إلى اللذات، وأغرقوا عقولهم فى الكاسات، والقيان تمشى بينهم وكلهن فتنة وإغراء، يرسلن الشباك لاصطياد العقول، بين غمزة بالعين، ومدة للشفتين فى دلال يشبه الغضب، وكلام هو السحر او دونه السحر.

وإذا بماجن يستخفه الطرب فيصيح منشداً:

لا تنم واغتنم ملذة يوم   إن تحت التراب نوماً طويلاً!

وثان ينشد:

يقولون: تب والكأس فى يد أغيد   وصوت المثانى والمثالث عالى!

وثالث ذهبت الخمر بصوابه، فأخذ يغنى فى تلعثم:

أفنيت عمريَ شرباً   على وجوه الملاح
أحيى الليالى طروباً   فى نشوة ومزاح
ولست أسمع ماذا   يقول داعى الفلاح

ورابع يغنى ويقول:

سقونى وقالوا لا تغنى ولو سقوا   جبال حنين ما سقونى لغنت

ثم قام شيخ جاوز الستين، وأخذ يرقص وهو متوكىء على عصاه، وقد غلبه السكر، ثم شرع يترنم بأبيات ابن شُهيد، التى أنشدها حينما رقص فى مجلس المنصور ابن أبى عامر:

هاك شيخاً قاده عذر لكا   قام فى رقصته مستهلكا
عاقه عن هزها منفرداً   نقرس أخنى عليه فاتكا
من وزيرٌ فيهم رقاصةٌ   قام للسكر يناغى ملكا؟
أنا لو كنتُ كما تعرفنى   قمت إجلالاً على راسى لكا
قهقه الإبريق منى ضاحكا   ورأى رعشة رجلى فبكى

وبينما نحن على تلك الحال، إذا غلام قروى خبيث يصيح: الأسبان... الأسبان... إنهم قادمون مع جيش من البربر للوثوب على باجة.

فأطار الخوف الخمر من رءوس القوم، وأخذ منهم الذعر والهلع كل مأخذ، واصطدم بعضهم ببعض، وداسوا فوق العيدان والكئوس، واجتذبوا ذيولهم من القيان اللاتى حاولن الاحتماء بهم. . . ثم تبيّن بعد قليل أنها فرية دنيئة، وأن الغلام اللئيم أراد أن يكدّر صفوهم، ويفرّق جمعهم.

فأسرع الشيخ قائلاً: إن إنذار الغلام لم يكن كاذباً، وستأتى إليهم الأسبان حتماً، إن لم يكن اليوم فغدا.

ويحى على الأندلس ويحى!! أين أيام عبد الرحمن الناصر؟، حينما كانت راية الإسلام تخفق على أرجاء الجزيرة فى عزة وشموخ، وحينما كانت الوفود من ملوك الإسبان تأتى إلى الزهراء فتحسر عن رءوسها إجلالاً وهيبة؟!

فهزّ أحد الفتيان رأسه فى تحسر وقال: هذا كلام صحيح. ولكنى أنصح للشيخ أن يكتم السخط على أمراء هذا الزمان فى نفسه، فإن أميرنا عباداً رجل بطّاش ظالم، يسبق السيف كلمته، ويصطاد العصفور من بين براثن النسور. وهو كثير الجواسيس، ينقلون إليه أخبار الناس وأحاديثهم حتى ليقال: إنه يعرف ما يحصل فى كل دار، ويكاد يعرف ما يجول فى كل نفس.

فأجاب الشيخ: هوّن عليك يا فتى. . . إن الله كتب لكل نفس أجلها، وإنما ضيّع الناس الرياء، والنفاق، والسكوت على الداء وهو يدب ويستشرى.

وبينما هم فى الحديث، إذ دخل شاب من طلاب العلم بالمدينة وهو يقول: إن عظماء المدينة وعلماءها وشعراءها يذهبون إلى القصر لتهنئة الأمير بمولود جديد.

فنظر الشيخ فى السماء. . . وأخذ يردد:

بشّر الدّهر بمولود جديدْ   ليت شعرى أشقى أم سعيد؟

تهنئة

أعدّ العبيد كرسيّاً للأمير عبّاد إلى جانب سرير زوجه، طاهرة بنت مجاهد العامريّ أمير دانية، وكانت أحظى زوجاته عنده وأقربهنّ إلى قلبه.

فدخل الأمير باشاً يتلألأ وجهه بشراً على غير عادته التى اعتادها من مظاهر الجد والعبوس، وما نظر إلى طاهرة وهى فى سريرها تهش لمقدمه، وتصوب إليه عينيها الناعستين فى حب وجذل ـ حتى عاجلها بقوله: أتذكرين يا طاهرة يوم قلت فيك:

رعى الله من يُصلى فؤادى بحبه ... سعيراً، وعينى منه فى جنة الخلد
غزاليةُ العينين شمسية السّنا ... كثيبيّةُ الرّدفين غصنّية القدّ
شكوت إليها حبها بمدامعى ... وعلمتها ما قد لقيت من الوجد
فصادف قلبى قلبها وهو عالم ... فأعداه، والشوق المبرّح قد يعدى

فقاطعته: نعم أعداه يا مولاى... والشوق المبرّح قد يعدى!

ولكن عباداً استمر ينشد:

فقلت لها هاتى ثناياك إننى ... أفضل نوار الأقاح على الورد

فجلست طاهرة وقالت: والله يا مولاى ما عذبتك بصد، ولا روّعتك بهجر... ولكنها عادة الشعراء كأنهم لرغبة التمتع بلذة الوصل يقرنون إليها ألم الهجر وذلّ القطيعة، ليشعروا بكل ما فى الوصل من سعادة ونعيم!! أتراني صدقتك يا مولاى ـ وأنت صادق دائماً ـ حين قلت:

تنـــام ومدنفهـــا يسهرُ وتصبـــر عنـــه ولا يصبر
لئـــن دام هذا وهـــذا به سيهلك وجـــداً ولا يشعر

فعبث الأمير بخدها، وقال: أين الغلام؟؟ وكيف الطلى وأمه؟؟

فحملته بين ذراعيها في رفق وحنان، وكشفت عن وجهه غطاء من الحرير الرقيق، وقالت: إنه جميل وسيم يا مولاى. . إن فيه كثيراً منك، وكثيراً منى.

فنظر الأمير إلى وجهه وقال: نعم يا جارية. هذا أنفك بعينه لا يكاد يخطىء الشبه من ينظر إليهما. . أنف أسبانى ورب الكعبة.

فتكلفت طاهرة الغضب فى دلال وفتنة، وقالت: ألا يزال الأمير يعيِّرنى بأبى؟! والله إن إصهارك منه لأكبر دليل على شرف محتده ونبل منزله.

نعم إن أبى كان مولى أسبانياً من موالى المنصور بن أبى عامر، ولكن نسبه يرجع إلى أسرة عريقة من ملوك الشمال، ثم زاده الإسلام شرفاً على شرف، وأضاف إلى مجده التليد مجداً طريفاً.

- أنا أعرف ذلك يا طاهرة، وإنما هى مزحة أردت أن أثير بها غضبك. أرجو أن يكون هذا الغلام سعيداً، كما أرجو السعادة لأخويه: إسماعيل وجابر، فإننى يا طاهرة دائم القلق على ذريتى، وعلى ذلك الملك الذى أثلناه بعزم يدك الجبال، ولاقينا فى توطيده وتوسيع رقعته ما يشيب نواصى الأطفال.

إنك قوىّ الخيال يا مولاى، تجرى وراءه فيصور لك التصاوير المزعجة، ويقض مضجعك كأنه حلم مزعج حتى إذا صحوت منه لم تجده شيئاً.

- لا يا ابنة مجاهد. إن المنجمين يكادون يجمعون على أن زوال ملكنا يكون على أيدى قوم يطرءون على الجزيرة من غير سكانها، وأغلب الظن أن يكون هؤلاء هم البرازلة، الذين طرأوا على الأندلس فى عهد المنصور بن أبى عامر. لذلك صممت - إن تنفس لى العمر، وامتد الأجل - أن أكتسح غرب الجزيرة وألا أبقى من ملوكه ملكاً على عرش.

- زادكَ الله يا مولاى قوة وتمكيناً، وأمتع بحياتك.

عند ذلك تهيأ الأمير للقيام، وقبل زوجه قبلة فى جبينها، ثم مشى نحو الباب وهبط من

السلم والعبيد حوله، والحراس أمامه وخلفه، حتى إذا وصل إلى البهو، قام الناس جميعاً في هيبة وخوف وإجلال، وتقدم إليه رجال الدولة، ورؤساء الجند، وعظماء المدينة، بالتهنئة والدعوات بتمام الإقبال وسعادة المولود. ثم تقدّم الشعراء فأنشد كل منهم ما كان أسرع في إعداده. وكان فارس حلبتهم في هذا اليوم أحمد الأنصاري الشاعر، الذي أنشد قصيدة سينية كانت غاية في الإبداع. منها:

أصاخت الخيل آذاناً لصرخته ... واهتزّ كل هزبر عندما عَطَسَا

وآثر الدرع مذْ شدّت لفائفه ... وأبغض المهدَ لما أبصر الفرسا

وبعد أن انصرف القوم، دعا الأمير بالمنجمين ليروا طالع المولود، فاجتمعوا والرعب يملأ قلوبهم، فقد كانوا يعلمون أنهم دعوا لأمر جد خطير، وكان بينهم أبو مسلم الحضرمي الإشبيلي.

وبعد أن نظروا في أسْطرْ لاباتهم وقلّبوا في كتبهم، أقبل بعضهم على بعض يهمسون: ماذا نقول للأمير؟ فقال أحدهم: إن الطالع سيىء. وهز آخر رأسه في أسف قائلاً: إن ما تقوله حقّ أبا الحسين... ولكننا عاهدنا صناعتنا ألا نقول الحقّ إلا إذا كان ساراً. أو تضمن شرّاً يمكن اتقاؤه.

فقال أبو مسلم: إن رءوسكم لا تكفي لإسكات غضب الأمير لو جبهتموه بسوء طالع ابنه، ثمّ إن قتلكم لن يغيرّ مما كتب في صفحة القدر حرفاً، ولن يقول النّاس أن تغيّبوا في القبور: برّد الله مثواهم، لأنهم كانوا شجعاناً لا يبالون في الحق صولة أمير جبار... وهبوهم قالوا شيئاً من هذا، فماذا يفيدكم قولهم وأنتم ترابٌ؟! رحم الله ذلك الأعرابيّ الذي قيل له حين فرّ من القتال: ألا تخشى العار؟ فقال: لأن يقولوا: فرّ لعنه الله خير عندي من أن يقولوا: مات رحمه الله!

فقال أبو الحسين: وماذا ترى أبا مسلم؟ قال: أرى أننا خوّفنا الأمير منذ سنتين من خطر يدهمه، من قوم يطرءون على الجزيرة من غير سكانها، فيجب أن نستمسك بهذا، وأن نظهر البشر والابتسام وحسن التفاءل، ونبلغه بأن الطالع سعيد، غير أننا لانزال نلح في اتقاء خطر الطارئين.

فخرجوا على هذا الرأي، ولما ألقوا كلمتهم للأمير أطرق مردداً: يفعل الله ما يشاء... الطارئون... الطارئون... دائماً الطارئون!!

ثم دعا بصاحب البريد، وطلب إليه أن يسير توّاً إلى إشبيلية لينقل الخبر إلى أبيه.

وما كاد حمدون اللخمى يتلقى أمر مولاه، حتى أسرع إلى خيل البريد فاختار أكرمهم سلالة، وأسبقها عدْواً، وأقواها جلداً.

ومضى به يسابق الريح بين غياض فيح، وحدائق نضر، وأشجار فينانة مختلفة الثمار، حتى أدركه الصباح عند «لبلة» وظهرت له أسوارها المنيعة القديمة، وما يحيط بها من أشجار الزيتون ومروج القرنفل والعصفر، فاجتاز القنطرة التي فوق النهر، ودخل المدينة تعباً ساغباً منهوك القوى، فأخذ سمته إلى فندق فى سوق التجار. وما كاد الطعام يقدم إليه حتى طفق يلتهمه التهاماً. وكان بالفندق فتاة إسبانية تنظر فى شئون المسافرين، امتزجت فيها الصحة بالجمال، فكونت منها إنسانة حسانة فاتنة عربيدة، تعرض عمن يهيم بها، وتدعو المعرض عنها يهيم بها، حتى إذا اقتنصته أرته الدلال كيف يكون.

فلما رأت حمدوناً لا يرفع عينيه من وعائه، يضع اللقمة فى فمه ويعد أخرى، وينظر إلى الثالثة... قالت له فى رشاقة تتخللها ضحكة خفيفة:

- يظهر أن الطعام صرفك حسن طهوه عن جميع الناس!!

فرفع عينيه إليها فى بله أو تباله وقال:

- ماذا تقولين يا فتاة؟؟

- أقول: إن طعام «لبلة» أو طعام فندقنا خاصة، يستهوى البطون ويحظى بغزلها وصبابتها.

فأعاد فيها حمدون النظر، فرأى ما بهره وأطار صوابه، أو انه كان قد شبع قليلاً فتنبه قلبه بعد طول غفلته. فقال لها:

- انتظرينى يا فتاتى حتى أسكت صياح تلك العصافير التى ملأت بطنى... إن غزل القلوب يأتى بعد غزل البطون.

- هذا أضعف الحبّ.

- أتؤثرين الحب الصائم؟؟

- إن الحبّ الصحيح لا يدعك تحس جوعاً أو عطشاً.

ـ أنا أقبل أن يمسنى هذا الحب، بشرط أن يتساوى فيه الطرفان: أنا، وأنت. فما رأيك فى أن يسد علينا باب حجرة من هذا الفندق مدى الحياة، نستقى من رضاب الشفاه، ونقضم تفاح الخدود . . . ورمان النهود؟؟ فتهانفت الفتاة فى دلال ، وقالت:

ـ انتظر حتى أصاب أولاً بحبك، ثم اقترح ما تشاء.

ـ آه منك يا فتاة . . . إنى أحتاج فى اجتذابك إلى وقت أطول من وقتى، فإن ساعة لا تكفى لاقتناص مثلك.

فأجابت الفتاة، وهى تلقى بسحرها، وتعبث بعيونها:

ـ ساعة لا تكفى!! إنك مغرور عظيم التفاؤل يا فتى . . . ألا قلت: شهراً . . . ألا قلت: سنة . . . ألا قلت: دهراً.

إن لين الكلام ولطفه، وتجاذب النظرات، وتبادل الضحكات شيء، والغرام شيء آخر. إن كل فتاة تحييكم بكلمة طيبة أيها الشبان تظنونها قد تدلهت فى حبكم، ووقعت فى شباككم؟؟

لا يا سيدى، لا . . . أنا لست من هذا الطراز.

ـ من هذا الطراز أو من غيره . . . كلكن بنات حواء. عمى صباحاً أيتها الفتاة. واحتفظى بجمالك حتى أعود.

ثم وثب على جواده وهو لا يصرف عينيه عنها. حتى حال البعد بينهما. وأخذ جواده يمر بجبل الشرف، وهو تل أحمر التربة، دائم الخضرة، يمتد من الشمال إلى الجنوب نحو أربعين ميلاً، به كثير من القرى، لا تكاد تشمس من أرضه قطعة لالتفاف أشجار الزيتون به.

فسار حمدون فى ظل دائم بين هذه الأشجار، حتى انتهى بعد خمس ساعات إلى «طريانة» وهى إلى الشاطىء الأيمن من نهر الوادى الكبير، تقابل من شاطئه الآخر مدينة إشبيلية. وما وصل حمدون إلى «طريانة» حتى سلم قياد جواده إلى أحد رجال البريد هناك، ونزل قارباً اجتاز به إلى إشبيلية، ثم أخذ طريقه إلى القصر. فلما مثل بين يدى أبى القاسم محمد بن عباد ـ وكان رجلاً داهية فى الرجال، قد جلله الشيب وأطفا منه الهرم كل قوة إلا قوة عقله، وقوة إرادته، وقوة نفوذ عينيه وشدة بريقهما ـ ابتدره أبو القاسم قائلاً:

ـ خير ما جاء بك.

ـ خير إن شاء الله يا مولاى. . . ولد غلام لسيدى عباد أمير باجة.

فاستشهد أبو القاسم:

إذا بلـغ الرضيـع لنـا فطاما   تخـرّ له الجبابـر ساجدينا

ـ وهل مررت بطريقك على بطليوس؟ وهل سمعت شيئاً عن المظفر بن الأفطس أميرها؟

ـ لا يا مولاى. إنى اتخذت أقصر طريق.

ثم أراد أن يتملقه فقال:

ولكنى سمعت بباجة: أن المظفر لا يزال عاكفاً على تأليف كتابه، وقد بلغ فيه ـ فيما نقل إلىَّ ـ إلى الجزء الرابع والأربعين.

ـ وَىْ وَىْ. . . دعه يؤلف. . . إننا نؤلف له كتاباً سطوره صفوف الجيوش، ونقطه أسنة الرّماح.

السيف أصـدق أنبـاء من الكتب   فى حده الحـدّ بين الجـدّ واللعب

عزاء

دار الفلك دوراته . . . ومضى نحو سنتين من ولادة محمد بن عباد ، والدنيا مقبلة على دولة بني عباد ، والأيام تضاحك آمالها .

حتى إذا كان يوم من أيام الربيع ، أقبل على قصر باجة فارس يحث جواده وقد تصبب منه العرق وجلّله الغبار ، فلما دخل الفناء تواثب إليه الحرّاس والجنود من كل مكان ، فعرفوا فيه الحارث بن ربيعة ، موضع ثقة الملك أبي القاسم صاحب إشبيلية . فابتدرهم الفارس وهو يلهث : أين مولاى عباد؟ فأشاروا إلى داخل القصر ، فقفز الحارث حتى إذا مثل بين يديّ الأمير ، أدى كريم التحية ، وقال : يا مولاى . إن سيدى أبا القاسم قد اشتد به المرض منذ أيام ، وقد طلب إلىّ أن أسرع إليك لتراه .

فوجم عباد عند إلقاء الخبر إليه ، وبدا على وجهه مزيج من حزن وأمل وخوف وتفكير ، ثم قال : أتراه بارئاً يا ابن ربيعة؟؟ فقال : يا مولاى إن المرض لشديد .

وما كاد يسرى الخبر فى القصر ، حتى سرى النحيب والنشيج بين الجوارى ؛ فغضب عباد وقال : إنهن فاجرات يملكن عيونهن . . . مرْ صاحب بريدى أن يعد «داحساً» فإنه أقوى خيلى على العدو . ثم قام وودّع زوجه ، وتأهب للسفر إلى إشبيلية ، وأمر أن ترحل الأسرة والحاشية بعد يومين .

عدا الفرس بعباد كأنه البرق الخاطف ، حتى لقد عجز الحارث عن مداركته . وما كانت إلا ليلة وبعض نهار ، حتى وصل عباد إلى إشبيلية وكان فى حجرة أبيه . فرأى شبحاً نهكته الأيام وافترسته الأمراض ، يردد أنفاساً قصاراً ، ويرسل أنات خافتة فلما رآه أبو

القاسم ابتسم ابتسامة ترحيب، وأشار إليه بالجلوس ثم قال في عبارات متقطعة:

إننا ملكنا يا عباد بالدهاء والحيلة، ثم ثنينا بعد ذلك بالقوة والبطش والجبروت. . . أملك الجزيرة كلها أبا عمرو، وابدأ بالأدارسة، فإنهم أعداؤك وأعداء أبيك. . . إنك لخميٌّ يا بنى. . . إنك من بنى المنذر بن ماء السماء، فلست بمحدَث في الملك ولا واغل فيه. عند ذاك أقبل يحيى بن إسحاق الطبيب، وفي يده كأس بها دواء، فصرفه عنه أبو القاسم، وقال:

وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع

ثم مال برأسه على وسادته ومات.

دفن أبو القاسم، وأصبح عباد ملك إشبيلية وغرب الأندلس، وسمّى نفسه بالمعتضد، وكان عباد باقعة في السياسة، داهية في اقتناص الفرص، حوّلا قلّبا.

وكان بعيد الهوى والمدى   يكون الصبّا ويكون الدّبورا

أسد يفترس وهوّ رابض، وينصب المكايد وهو بين جواريه وكاساته وندمائه. . . قاس أشد القسوة، وعنيد أشد العناد، ومخيف أشد الإخافة. . . لا يرحم قريباً، ولا تقصر ذراعه عن بعيد. وّطد دولته وقوّى جيشه، ووسّع بغزواته ملكه، ونصب في حديقة قصره خشباً ربط بأعلى كل خشبة رأس ملك، أو أمير، أو قائد ممن ظفر بهم في غزواته. وقد أكثر من الجواسيس حتى خافت الرعية أن تهجس بما في نفوسها، فدانت له الرقاب، وذلّت الصعاب، وقهر ملوك غربيّ الأندلس. وقد صوّر نفسه بنفسه حين يقول:

حميت ذمار المجد بالبيض والسمّر   وقصرت أعمال العداة على قسر
ووسعت طرق المجد طبعاً وصنعة   لأشياء في العلياء ضاق بها صدرى
فلا مجد للإنسان ما كان ضدّه   يشاركه في الدهر بالنهى والأمر

ثم أعطى نفسه صورة أخرى حين قال:

لعمري إنى بالمدامة قوالٌ   وإنى لما يهوى الندامى لفعالٌ
قسمت زمانى بين كدّ وراحة   فللرأى أسحار وللطيب آصال
فأمسى على اللذات واللهو عاكفاً   وأضحى بساحات الرياسة أختال
ولست على الإدمان أغفل بغيتى   من المجد، إنى في المعالى لمحتال

قتل

استقر الملك للمعتضد وتتابع الانتصار، واستمر الزمان يسير والأيام تتوالى، وبلغ محمد بن عباد الحادية عشرة، وكان قد أتقن القراءة والكتابة، وشدا فى مبادىء العلوم، فأحضر له أبوه فى القصر خير الأساتذة بالأندلس لتثقيفه وتلقينه، فكان يعيش ابن دينار يدرس معه فقه الإمام مالك، وبقى ابن مخلد تفسير القرآن، ومحمد بن أيمن الحديث، واسماعيل ابن القاسم الأدب والتاريخ، والخوفى النحو، وأبو القاسم الصفار التنجيم، ووكل إلى رئيس قواده تعليمه الفروسية وعلوم الحرب.

وكان الشاب محمد وسيم الوجه، زكي الفؤاد، صادق الحس، قوى العارضة، فسيح مدى الخيال، فيه كثير من الجرأة والشجاعة، وشىء من التهور والعجلة، وكان مولعاً بقراءةالشعر، وأكثر ما يعجبه فيه شعر الغزل والحماسة.

وقد استمرت دراسته ست سنين، خرج بعدها كامل التثقيف وافر العدة للملك والرياسة.

جلس إلى إسماعيل بن القاسم يوماً بعد أن تمكن فى الأدب، فلما انتهى الشيخ من شرح قصيدة عمر بن أبي ربيعة:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر   غداة غد أم رائح فمهجر

وكان ابن عباد قاسياً فى نقدها، التفت إلى أستاذه وقال: ما يقول الشيخ فى هذين البيتين:

أكثـرت هجـرك غير أنـك ربما   عطفتـك أحيانـاً علـى أمورُ
فكأنمـا زمـن التهاجـر بيننا   ليل، وساعـات الوصـال بدور

فقال الشيخ: هذا شعر حسن. لمن هذان البيتان؟ فقال ابن عباد: وما تظن في هذه الأبيات؟؟

تظـن بنـا أمّ الـربيع سآمة   الا غفـر الرحمـن ذنبـاً تواقعه
أأهجـر ظبياً في فؤادي كناسه   وبدرَ تمـام، في ضلوعـي مطالعه؟
وروضـةَ حسـن أجتنيهـا، وبارداً   من الظلم، لم تُحظر عليّ شرائعه؟
إذاً عدمـت كفـي نوالاً تفيضه   علـى معتفيهـا، أو عدوّاً تقارعه

فطرب الشيخ وصاح: هذا والله الشعر، لمن هذا؟ فقال ابن عباد: للجالس بين يديك، الذي طابت بأدبك أصائله، وغنّت بلابله. فقـال الشيخ: مرحـى يا ابـن مولاي مرحى!! هذا هو شعر الملوك، ومن سواك يقول مثله، وفيكم الرياسة والأدب والشعر منذ عهد ابن المنذر؟

خرج الشاب والعجب يملأ جوانبه، فالتقى بأخيه إسماعيل في أحد دهاليز القصر، فأنشده الأبيات، فبهر إسماعيل وقال:

ـ ويلك يا محمد!! أغزل في هذه السن؟! والله لو علم أبوك ما سلمت من عصاه.
فأجاب محمد:

ـ إن الناس يتناقلون لأبي كثيراً من شعر الغزل.
ـ إن الكلب الغاضب ينبح، فإذا حاكيت نباحه وثب عليك.

ـ هذا تشبيه عجيب يا إسماعيل... أتشبه أبي بالكلب بعد أن قدمك على إخوتك وجعلك ولي عهده؟!

ـ أما تشبيهي إياه بالكلب، فقد سبقني إليه علي بن الجهم في مدح المتوكل العباسي حين قال:

أنـت كالكلـب في حفاظـك للود   وكالتيس في قراع الخطوب

ـ ذلك كان أعرابياً جافياً جاء من البادية، ولم تصقله الحضارة، ولكن الله تعالـى يقول:

﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ فدع المغالطة يا إسماعيل. ثم أين «أما» الثانية؟

ـ وأما ولاية العهد، فهي في يد الرحمن... الرجل كثير التقلب يا محمد لا يثبت على حال، وعيونه حولك وحولي في كل مكان. أتعرف جاريتي «ماريا» التي تضرب الحاشية بهاالمثل في فنائها في حبي وطاعتي؟ أتعرف أنها جاسوسة له علي؟!

ـ جاسوسة؟!

ـ نعم جاسوسة. وقد حذرتني أمي منها بعد أن وعظتني طويلاً، ونصحتني بالابتعاد عن الاتصال بالجنود، وبالتزام الطاعة في كل ما يأمر به أبي. ولقد يحسن بك أن تعلم أن الجارية «فلورا» تتجسس عليك أيضاً، وتنقل أخبار لهوك وعبثك إلى أبي.

ـ ومن أخبرك بهذا؟

ـ أخبرتني الجارية «صباح» لأنها رأتها تختلف إلى حجرة أبي، وهي تعلم أن الغيرة تنهش صدرها عليك، لما تظهر من الصبابة والغرام بالجاريتين: سحر، وجوهرة.

ـ ويل لابنة الأسبان...

ـ هذا ما يجب أن تخشاه يا محمد، أما أنا فما ذنبي؟!

ـ حدة الطبع والتشبث بالرأي، والعجلة التي تدعوك أحياناً إلى جني الفاكهة قبل نضجها، وللفقهاء قاعدة مليحة يرددونها: من استعجل الشيء قبل أوانه، عوقب بحرمانه.

وبينما هما يتحادثان، أقبل «صاعد» خادم المعتضد الخاص يدعو إسماعيل لمقابلة أبيه، فهرول مسرعاً، حتى إذا دخل عليه رآه مطرقاً عابساً، فقال اجلس يا اسماعيل... لمثل هذا اليوم أعددتك... أتعرف قرطبة؟ هي قصبة الأندلس جميعها... هي رقبتها، فإذا حزتها في قبضتي أخفت الملوك جميعاً، وسيطرت عليهم جميعاً... خذ الجيش غداً... وهات لي قرطبة بعد ثلاثة أيام... قم.

فتلكأ إسماعيل وقال: ولكن يا مولاي، جيشنا قليل العدد وإن بقرطبة جيشاً عظيماً تؤيده العامة، وليس ببعيد أن تستنجد قرطبة بحليفها باديس بن حبوس، فيقع رجالي بين شقي الرحا.

فصاح المعتضد: لقد صدق فيك ظني... إنك لجبان رعديد منخوب الفؤاد... بمثلك تضيع الممالك وتهزم الجيوش... أغرب عنى... أغرب... ثم وثب عليه ففرّ من امامه.

فرّ وهو يعتقد أنه مائت لا محالة لو بقى فى عرين هذا الأسد، فاختفى بعيداً عن إشبيلية أياماً، ثم علم أن أباه قد غاب عن القصر، وذهب إلى حصن الزاهر. فعاد إسماعيل إلى إشبيلية، واقتحم القصر وأخذ كثيراً من ذخائره، واستكثر من المال والمتاع ومضى مع بعض الجند الموالين له إلى الجزيرة الخضراء، ومر فى طريقه بقلعة ابن أبى حصاد فاستجار به فأجاره، ولكنه بادر بالكتابة إلى المعتضد سرّاً يخبره بنزول ابنه عنده، فأرسل إليه المعتضد من أعاده إلى إشبيلية، فاعتقله المعتضد، وبقى أياماً يقلّب الرأى فى أمره.

حتى إذا كانت ليلة ـ والمعتضد أرق يتقلب على سريره لما دهمه من الهم والنكد ـ لمح رجلاً يتسوّر عليه القصر، فنظر، فإذا هو ابنه مع طائفة من الجند كانوا يمالئونه، فهمّ المعتضد وهمّ معه حراسه، وقبض على إسماعيل ابنه، وحدثت ضجة فى القصر استيقظ لها النوّام، وجاءت أمّ إسماعيل حاسرة عن رأسها باكية مولولة، فسقطت على قدمى المعتضد صائحة: بحقك يا مولاى إلا ما وهبته لى... فزمجر المعتضد وقال، وقد نحاها عنه: يكفى أن أهب لك نفسك، فقد سئمت الموالسة والمخالسة، ولن أكون كالمتوكل العباسى الغرّ، الذى ما زال يغمض عينيه عن الخطر، ويستجيب للحنان الكاذب ـ حتى صرعه ابنه، والآن فليهنأ برثاء البحترى! لا. لا...

ثم قام إلى إسماعيل فحزّ رأسه بسيفه وهو يقول:

«إن من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم».

ولو أن كفى لم تطعنى قطعتها　　　وألقيتها للكلب يقضمها حولى

عبث

وكرّت الأيام وتوالت الشهور، والقصر فى صمت القبور، والوزراء والأمراء والخدم يمشون فيه واجفين مطرقين، ومحمد بن عباد - بعد أن جعله أبوه ولى عهده ولقبه بالمعتمد - أصبح لا يكاد يؤدى واجب تقبيل يد والده كل صباح، حتى يفرّ إلى أخدانه من أبناء كبار الساسة والأدباء والشعراء، وكان يطيب له اللهو بالزاهى، وهو قصر عند باب العطارين بإشبيلية، فيه كان يخلع عذاره ويرسل لطبعه الشعرى عنانه. ففى يوم دعا جماعته إليه، وطاب المجلس، وغنّت القيان، ودارت الراح. . . وكان بينهم الدانىّ الشاعر، وأبو بكر بن زيدون، وأبو القاسم الهوزنى، ثم شرعت «نشوة» المغنية تغنى بشعر المعتمد:

ولقد شربت الراح يسطع نورها	والليل قد مدّ الظلامَ رداء
حتى تبدّى البدر فى ظلمائه	ملكاً، تناهى بهجة وبهاء
وحكيتهُ فى الأرض بين مواكب	وكواعب جمعت سناً وسناء
إن نشّرت تلك الدروع حنادساً	ملأت لنا هذى الكئوسَ ضياء
وإذا تغنت هذه فى مزهر	لم تأل تلك على التريك غناء

فطرب القوم، وقام بين يديه أحد سقاته فقال:

للّه ساق مهفهفٌ عبقٌ	قام ليسقى فجاء بالعجب
أهدى لنا من لطيف حكمته	فى جامد الماء ذائب الذهب

ثم غنت «نشوة» من قول المعتمد:

يا صفوتي من البشرْ يا كوكبا بل يا قمرْ
يا غصُناً إذا مشى يا رشأ إذا خطر
يا نفسَ الروضة قد هبّ لنا عند السحر
يا ربّة اللحظ الذي شد وَثاقي إذ فتر
متى أداوى يا دوَا ء السمع مني والبصر
ما بفؤادي من جوى بما بفيك من خصَرْ؟

فأبدعت إنشاداً وإيقاعاً.

ثم التفت المعتمد وقال: أين ابن عمار؟ فتهامس القوم، وقال أبو بكر بن زيدون: يا مولاى: إنه دون هذه المنزلة، وهو رجل لا تؤمن مغبته يرتزق بشعره، ويمدح اليوم من يهجوه غداً.

فظهر الغضب فى عينى ابن عباد وقال: والله إنها الغيرة التى تأكل القلوب، وتظهر البغضاء على الأفواه، وليس منكم والله من يستطيع أن يقول كما قال ابن عمار:

علىّ وإلا ما بكاء الغمائم؟ وفىّ وإلا فيم نوح الحمائم؟

يا غلام: اذهب فأحضره، ولو كان بين براثن الأسد.

وبينما هم فى انتظاره إذ أقبل صاعد خادم المعتضد مسرعاً حتى إذا بلغ المعتمد قال: يا سيدى إن مولاى يدعوك إليه لأمر لا أعلمه. فبدا الخوف فى وجه المعتمد، وتمتم لأصدقائه بكلمات يعتذر فيها عن مغادرتهم.

كان المعتضد فى مساء ذلك اليوم منفرداً فى الحجرة التى خصصها بتدبير شئون ملكه، وإذا الباب يقرع خفيفاً، وإذا الجارية «فلورا» تدخل فى اضطراب ورعب.

فيعالجها المعتضد صائحاً: ما وراءك؟؟

فتتلعثم قائلة: يا مولاى قد طلبت إلىّ أن أرصد أحوال سيدى المعتمد، وقد تسللت اليوم إلى غرفة نومه، فرأيت فيها هذه الأوراق التى لا أدرى ما فيها، فقلت: لعل لمولاى فيها رأياً.

فاختطفها منها المعتضد وقرأ، فإذا غزل رائع لابنه المعتمد. فيه :

داوَى ثلاثته بلطف ثلاثة فغدا بذاك رقيبه لم يشعر
أسرارَه بتستر، وأواره بتصبر، وخباله بتوقُّر

وفيه :

أسر الهوى قلبي فعذبني يوم الوداع فلم أطق منعا
فأذاب حرّ صبابتي كبدي وأسالها في وجنتي دمعا

وفيه :

حرّم النومَ علينا ورقدْ وابتلانا بهواه ثم صدْ
يا هلالا حسنَ خدّ، يارشا سحر لحظ، يا قضيباً لين قدّ
بودادي لك، بالشوق الذي في فؤادي، لا تدعني للكمد
لست أرضى عن زماني أو أرى منك حسناً لا أراه من احد

وفيه :

يا ليت مدة بعدكْ رشيقةٌ مثل قدّكْ
كمدّة الورد ورد الـ (م) ربيع، لا ورد خدّك
فعمر ذا عمر صبري وعمر ذا عمر صدّك
رضيت منك - وإن لم تنجز - بلذة وعدك

وفيه :

سرورنا بعدكُم ناقصٌ والطيب لا صاف ولا خالصُ
والسعد إن طالعنا نجمه وغبت، فهو الآفل الناكص
سموّكِ بالجوهر مظلومة مثلُك لا يدركه الغائص

وفيه :

قلت : متى ترحمني؟ قال : ولا طول الأبد
قلت : فقد أيأستني من الحياة، قال : قدْ

وفيه :

يا غرة الشـمس التى قلبـى لهـا أحـد البروج
لـولاك لم أك مؤثراً فرش الحـرير علـى السروج

فبدا الغضب على المعتضد عندما قرأ البيتين الأخيرين وقال : يا ضيعة الملك بمثله ! ! إنه لأجل جارية لا تساوى عقال بعير، يؤثر الحرير على السروج . . . اذهبى يا جارية . . . يا صاعد . . . علىّ بمحمد ، ولعلك تجده فى أحد مجالس أنسه ، بين الأفاقين من ندمائه ، والعواهر من جواريه وقيانه .

وقف المعتمد بين يدى والده يرتعد فرقاً ، فابتدره المعتضد : إنـى لا أحظـر الشعـر ولكنى أحظر الفجور ، وأحظر أن تؤثر فرش الحرير على السروج ، وأبغض أن أراك عبد شهواتك صريع غانية وكأس ، وأكره أن تكون بطانتك من السفلة المخادعين ، الذين لا يبالون أبقيت الدولة أم زالت ما داموا يطعمون ويشربون .

إن السيف الـذى قتلـت به أخـاك لا يزال الـدم عليه جاسـداً . . ويل للدولـة من الخلعاء . . ويل للدولة من الخمر والنساء .

يا محمد : إن أردت أن تكون خليفتى من بعدى ، فاجعـل كلماتـى هذه فى أذنيك أقراطاً . اذهب .

خيبة

أراد المعتضد أن يصرف عن ابنه إخوان السوء، وأن يدرّبه على شئون الملك، فدعاه في غداة يوم، فلما ذهب إليه رآه يقرأ في رسالة، فرفع المعتضد عينيه وقال: هذه يا محمد رسالة من أشياخ «مالقة» يشكون فيها من أميرها باديس بن حبوس عدو دولتنا الألد، ويستحثوننى على أخذ المدينة وأن يكونوا لى عوناً فى قتاله، فاذهب أنت وأخوك جابر بجيوشنا واستأصل جماعة ابن حبوس، وهات لى رأسه. . . غداً ترحل.

لم يجد المعتمد مناصاً من الطاعة أمام رجل لا يعف سيفه عن أبنائه، فقال: السمع لك والطاعة لك يا أبى. . . سأرحل، وسأكون ابن المعتضد والحقيق بنسبه.

رحل المعتمد وأخوه جابر يقودان جيشاً عظيماً، فدان لهم البلد وخضع أهله إلا فلولاً من السودان لاذوا بقلعة مالقة، فأشار أهل المدينة على المعتمد بالاحتراس منهم، وأن يكون جيشه على أهبة الاستعداد والحذر، فلم يلق المعتمد لهذه النصيحة سمعاً، وقضى ليلته فى لهو ومجون، وقضى السودان ليلتهم فى بث الرسل لباديس والاستنجاد به، فجاءهم فى جيوش زاخرة وفتك بجيش المعتمد وانتهب ذخائره وأثقاله، وفرّ المعتمد وأخوه إلى «رندة» يجران ذيل الخزى والعار، ويرهبان صولة أبيهما الجبار.

كان المعتمد فى حيرة فقال لأخيه: ما نصنع يا جابر؟؟

- إنى أؤثر أن أغمد سيفى هذا فى صدرى على أن أرى وجه المعتضد.

وشاعت القالة فى «رندة» أن المعتضد نذر دم ابنه المعتمد، وأعد لمقابلته سيفاً

بتاراً، فقضى المعتمد ليلة فى هم وسهد، يكتب ويمحو، ثم يكتب ويمحو، وبزغ الفجر وقد أتم قصيدة فى استعطاف أبيه، ثم ذهب فأيقظ أخاه وقال: اسمع يا جابر، سأكتب بهذه لأبى، وقرأ:

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكرُ ... ماذا يعيد عليك الهم والحذرُ؟
وازجر جفونك لا ترض البكاء لها ... واصبر، فقد كنت عند الخطب تصطبر
فإن يكن قدرٌ قد عاق عن وطر ... فلا مردّ لما يأتى به القدرُ
وإن تكن خيبةٌ فى الدهر واحدة ... فكم غزوت ومن أشياعك الظفرا
يا ضيغماً يقتل الأقران مفترساً ... لا توهننى، فإنى الناب والظفر
كم وقعة لك فى الأعداء واضحة ... تفنى الليالى ولا يفنى بها الخبر
سارت بها العيس فى الآفاق فانتشرت ... فليس فى كل حىّ غيرَها سمر
قد اخلفتنى ظنون أنت تعلمها ... وغال مورد آمالى بها كَدر
فالنفس جازعة، والعين دامعة ... والصوت منخفض، والطرف منكسر
قد حُلت لوناً، وما بالجسم من سقم ... وشب رأساً، ولم يبلغنى الكبر
ومتّ إلا ذماء فىَّ يمسكه ... أنى عهدتك تعفو حين تقتدر
لم يأت عبدك ذنباً يستحق به ... عتبى، وها هو قد ناداك يعتذر
ما الذنب إلا على قوم ذوى دغل ... وَفى لهم عدلك المألوف إذ غدروا
قوم نصيحتهم غشٌّ، وحبهمُ ... بغض، ونفعهم إن صُدّقوا ضرر
يميّز البغض فى الألفاظ إن نطقوا ... ويُعرف الحقد فى الألحاظ إن نظروا
أجب نداء أخى قلب تملكه ... أسى، وذى مقلة أوهى بها سهر
رضاك راحة نفسى، لا فجعتُ به ... فهو العتاد الذى للدهر أدّخر
وهو المدام التى أسلو بها فإذا ... عدمتها عبثت فى قلبى الفكر
وإنما أنا ساع فى رضاك فإن ... أخفقتُ فيه، فلا يفسحْ لى العمر

فظهر السرور على وجه جابر وصاح: نجوت من صولة الحجاج... إن أبى على قسوته وجبروته أديب أريحىّ يؤثّر فيه سحر الكلام، والله إنها لخير من اعتذار النابغة لجدك النعمان... ابعث بها إليه يا أبا القاسم على جناح طائر.

فبعث بها المعتمد إلى أبيه وبقى أياماً خائفاً يترقب حتى جاء البريد الخاص برسالة من المعتضد، يقبل فيها عذره ويقلده ولاية «شلب»، ويأمر جابراً بالعودة إلى إشبيلية. فطار الأخوان فرحاً وتعانقا كأنهما قاما من جدّثين وأخذ يستقبلان الحياة من جديد.

ولاية

سافر المعتمد إلى شلب متمتعاً برضاء أبيه، وقلبه يكاد يسابق جواده. وشلب هذه مدينة إلى الجنوب من باجة ذات بسائط فسيحة ومروج خضر، وبها جبل منيف بديع المناظر، به كثير من المياه وأشجار التفاح العجيب.

وسكان المدينة عرب من اليمن، وهم مطبوعون على قول الشعر، حتى إن العامى منهم ليقول الشعر فى كل ما يقترح عليه. نزل المعتمد بقصر الشراجيب، وأرسل إلى جواريه وخدامه وحاشيته بموافاته إليها، وأقبل عليه عظماء المدينة يتملقونه، وعلماؤها يصانعونه، وشعراؤها يستجدونه، ووفد عليه ابن عمار صديقه وشاعره ووزيره، الذى كان المعتمد لا يصبر على فراقه، فاتسقت الأمور للأمير، وقضى فى هذه الولاية سنوات سعيدة.

وكان يقضى النهار فى تصريف شئون الدولة وإصدار الأوامر فى حزم وسداد ورفق وتؤدة، ويقضى الليل فى قرض الشعر، أو مجالسة الحسان. وفى ليلة وإلى جانبه ابن عمار وحوله جواريه، وبينهن «سحر» تغمز له بعين، و «وداد» تقدم له الكأس فى دلال ورشاقة، والمغنية «فتنة» تغنى من شعره قوله:

أشرب الكأس فى وداد «ودادك» وتأنس بذكرها فى انفرادك
قمر غاب عن جفونك مرآ ه وسكناه فى سواد فؤادك

إذا سيف رئيس الخدم يدخل ويقول: إن أبا القاسم بن عمر الهوزنى بالباب،

فصاح المعتمد مستبشراً: يدخل. . . إنه لصديق كريم رفيع الحسب.

دخل أبو القاسم فبادره المعتمد قائلاً: لم أبطأت علينا وقد بعثت إليك برسولى إلى إشبيلية مرتين؟ فأجاب أبو القاسم إن الذى عاقنى عن الإسراع إلى الحضرة قدوم أبى من المشرق منذ شهر، بعد أن طالت غيبته، فأحببت أن أكون بجانب الشيخ آنس به ويأنس بى، وأبل من نفسى شوقاً كان يتأجج لرؤيته. فقال المعتمد: لقد سمعت أنه كان شديد الخوف من بطش أبى به، وأنه لذلك اتخذ الذهاب إلى الحج ذريعة للابتعاد عنه، فأقام زمناً طويلاً بمكة ومصر، والآن عاد إلى أشبيلية، فهل اطمأنت نفسه وذهبت مخاوفه؟؟ حرّق أبو القاسم أسنانه، وكتم غيظاً دفيناً فى نفسه وقال:

لا يا مولاى. هذه أكذوبة يذيعها أعداؤه. . . إن الخوف لم يكن مرّة من شيم أبي، وقد اشتهر بأنه جرىء فى الحق لا تأخذه فيه لومة لائم. . . إنه غاب تلك المدة الطويلة لأنه كان يتلقى صحيح البخارى، ليصل روايته بسند رجاله حتى يأخذه عنه أهل الأندلس.

كان أبو القاسم هذا فى نحو الثلاثين، قوىّ البنيان فارهـاً، يدل ضيق عينيه على المكر والخديعة، وتدل رقة شفتيه على القسوة والصرامة، ويدل صيد فى رأسه على اعتزاز بالنفس، وعلى عزيمة لا تترك ثأراً ولا تصفح عن ذنب. قال المعتمد:

- وكيف تركت المعتضد؟؟

- فى أوج عزه. . . فقد دان له غرب الجزيرة كله. وأصبح له الملوك خولاً وأتباعاً، فملأ مديحه كل فم، وجوده كل كف.

فصاح المعتمد: غنى يا فتنة بما قلته فى أبى:

يا ملـكا قد أصبحـت كفه ساخـرة بالعـارض الهاطل
قـد أفحمتنـى منّـه مثلها يضيِّق القـول علـى القائل
وإن أكن قصـرت فى وصفها فحسنهـا عن وصفهـا شاغلى

واستمر اللهو والضحك والمجون ساعات.

ثم التفت المعتمد وقال: أين ابن عمار؟. . . يا سيف. . . اذهـب فانظـر فى أى مكان من القصر هو. فذهب سيف وقال: بحثت فى كل الحجرات يا مولاى فلـم أجـده وسألت حراس الباب فقالوا: إنهم لم يشهدوه خارجاً. فبدا الاختبال على وجه المعتمد

وكأنما فقد نفس الحياة، فقام وقال: هات شمعة يا سيف لأبحث عنه معك.

ثم سارا في أنحاء القصر، والمعتمد زائغ البصر ينظر في كل مكان، حتى إذا بلغا، بعد بحث طويل، أحد دهاليز القصر، رأى المعتمد حصيراً مطوياً فقال: ابسط يا سيف هذا الحصير. فقال سيف: أيظن الأمير أن مثل الوزير يلتف بحصير؟! فبسط المعتمد الحصير بنفسه، فإذا ابن عمار فيه وهو عريان وقد غلبه السكر وذهبت بلبه الخمر، فلما أحس البرد أفاق وقام وهو يستر نفسه بفضلة من الحصير، وقد أفحمه البكاء، ففاضت عينا المعتمد، وأمر طائفة من الخدم بحمله إلى سريره، ثم ذهب إليه بعد أن هدأت نفسه، وقال:

ـ ما هذا يا ابن عمار؟! وما هذه الفعلة؟! أأصابك جنون؟!

ـ هو جنون أو شبه جنون يا مولاى، إننى كلما أخذت منى الخمر فى حضرتك، وأحسست بالنعيم يحيط بى، والنعم التى طوقتنى بها، والمنزلة الرفيعة التي بلغتنى إياها، والشغف بى الذي لا تستطيع كتمانه ـ أسمع هاتفاً فى أذنى يقول: يا ابن عمار لا تغتر، إنه سيقتلك ولو بعد حين. فأستعيذ من الشيطان، فيعيد الهاتف الكرة ثانية وثالثة. وقد حصل ذلك يا مولاى فى هذه الليلة، فدعانى السكر إلى التجرُّد من ثياب الإمارة، والنوم إلى الفجر، حتى إذ ظهر أول بصيص منه، ارتديت ما اعتدته من الثياب قبل الاتصال بك، وخرجت مستخفياً حتى آتى البحر، فاركبه وأقصد برّ العدوة. فضحك المعتمد وقال: هذه آثار الخمر يا أبا بكر. وكيف أقتلك؟! أرأيت أحداً يقتل نفسه؟! وهل أنت عندى إلا كنفسى؟؟

وفى الصباح، ورد صاعد خادم المعتضد ومعه أمران: الأول أن ينفى ابن عمار إلى سرقسطة. والثاني: أن يعود المعتمد إلى إشبيلية.

حزن المعتمد أشد الحزن، وودع صاحبه وخليله ابن عمار، والبكاء يغلب عينيه، ثم أمر بالرحيل إلى إشبيلية.

وبعد أن اجتاز حدود المدينة وبعدت عنه مشاهدها، أخذ يقول:

ألا حيِّ أوطانى بشلبٍ أبا بكرِ ... وسلهنّ هل عهد الوصال كما أدرى؟
وسلِّم على قصر الشراجيب عن فتى ... له أبداً شوق إلى ذلك القصر

منــازل آســاد وبيض نواعم فناهيك من غيل، وناهيك من خدر
فــكم ليلــة قد بت أنعــم جنحها بمخصبة الأرداف مجدبــة الخصر
نضـت بردُهـا عن غصــن بان منعَّم نضير، كما انشق الكمام عن الزهر

فجائع

جلس المعتضد فى الصباح فى حجرة نومه وأطال الجلوس ، ثم دعا صاعداً وأمره أن يحضر ابنته بثينة ، وكان شديد الكلف بها حتى أصبحت متعته الباقية من الحياة .

جاءت بثينة وخلفها جاريتها ، وهى تثب وثبة الجذل وتصيح : أبى ، أبى . ثم ألقت بنفسها بين ساعديه وأخذ يقبّلها فى شغف وحنان ، ثم مرّت بيدها على لحيته تجتذب شعراتها فى رفق ، والمعتضد يعبث بخديها ، ويمرّ بشفتيه حول عنقها وهى تضحك وتقهقه .

كانت بثينة فى السادسة من عمرها بارعة الجمال ، خفيفة الروح ، لا تشبع العين من رؤيتها . وحين فرغ المعتضد من مداعبتها قال :

ـ ماذا كنت تعملين يا بنية ؟

ـ كنت ألعب وأعدو خلف بنات القصر ، وكانت جاريتى تنهانى عن الصياح والوثب ، وتخوفنى غضبك إذا سمعت صياحى .

ـ لا تخافى يا حبيبتى ، والعبى وصيحى كما تشائين . . . آه يا بثينة . . . ليتنى ألعب وأصيح مثلك ! !

ـ لماذا لا تلعب يا أبى ؟ تعال معنا فإننا قد عرفنا لعبة جديدة علّمتنا إياها «جميلة» الأسبانية .

ـ إن لى يا بنيتى لعباً أخرى ، ولكنها لا تضحك ، وكثيراً ما تبكى ! !

ـ آه . . يجب أن تضحك يا أبى ، فإنى أراك دائم العبوس . . ثم لماذا يخافك الناس جميعاً ولا أحس فى نفسى خوفاً منك؟!

ـ لأنك صغيرة .

ـ لا . إن جميع الأطفال فى القصر يخافونك .

ـ لأنهم يتشبّهون بآبائهم وأمهاتهم .

ـ ولم يخافك الآباء والأمهات يا أبى؟

ـ آه يا بنيتى!! لأنهم يخفون عنى ما لو ظهر لطارت رءوسهم ، ولو كان الناس جميعاً فى طهارتك ونقاء قلبك ما خافونى .

وفى تلك اللحظة ، أعلن قدوم المعتمد ، فدخل على أبيه فى ثياب السفر ، فقال له المعتضد : احببت أبا القاسم أن تكون بجانبى وتحت عينى فدعوتك ، أما هذا الشاعر المجتدى العربيد ابن عمار ، فنفيته ، لأنه ليس من أخدانك ، ولا أحب أن أراه معك . . . اذهب إلى أمك فلعلها فى شوق لأن تراك .

قضى المعتمد أيامه فى إشبيلية فى فراغ ولهو ، وعاد إلى مجالس أنسه ، ومخالطة الأدباء والندماء ، ومطارحة الشعر ، ومغازلة الحسان .

ففى يوم طاب أصيله ، ورقّ نسيمه ، خرج للتنزه هو وأبو القاسم الهوزنىّ فى الموضع المعروف بمرج الفضّة ، وكان مرجاً بهيجاً ، كثير الأشجار ، يجتمع فيه الرجال والنساء للفرجة والتمتع بشاطىء نهر الوادى الكبير .

وبينما هو وصاحبه على الشاطىء ، إذ هبّت ريح لطيفة عقدت على سطح النهر حبكاً ، فقال لصاحبه : أجز :

* صنع الرّيح من الماء زَرَدْ *

فتلكأ الهوزنىّ ، فبادرت فتاة كانت بمقربة منهما ، وقالت :

أى درع لقتال لو جمد!

فتعجّب المعتمد ، ونظر إليها ، فإذا وجه يبهر العيون ، وجسم يثير الفتنة النائمة . فقال لخادم كان وراءه : سل عن هذه الفتاة واعرف مكان أهلها ، فإنها سلبت لبى ، فجاء

الخادم بعد يومين وأخبره أنها جارية رُميك بن حجاج، فذهب المعتمد إلى أمه فكاشفها بغرامه بهذه الجارية، وأنها أصابت شغاف قلبه، وأنه لا يستطيع البعد عنها، وسألها أن تستعطف أباه وترجوه فى أن يزوجه منها، فوعدته خيراً.

ثم اغتنمت فى يوم فرصة ابتسامة اختلست طريقها بين شفتى المعتضد، فقالت: يا مولاى. إنى نظرت اليوم من خلال نافذة القصر، فرأيت المعتمد بين قواد الجيش وعليه مهابة وجلال ملأ جوانب نفسى زهواً وإعجاباً. إن كل لمحة من لمحاته يا مولاى، تقول إنه ملك، وقد وقف الرؤساء أمامه خاشعين وهو يشير بأصبعه هنا وهناك، فى حسن سمت، وجلالة موقف.

- إنه ابنى يا طاهرة، وفيه دم ملوك بنى المنذر، وإن أخوف مَا أخافه عليه تلك النزعة الجائعة إلى اللهو والعبث.

- إنه فى ميعة شبابه يا مولاى، ولو نظر كل شيخ نظرة إلى الوراء لأغضى عن هفوات الشباب.

- لكن لا يا طاهرة، إن التمادى فى الشهوات نكبة الملوك، وكارثة العروش.

- لعله لو تزوّج بمن يحب كفّ وارعوى.

- هو كالعصفور المرح لا يثبت على غصن، له نقرة فى كل ثمرة، فإذا فرغ من نقر الثمار، ملأ الجو غناء وشدواً.

- لا يا مولاى. إنه يريد أن يفرغ إلى شئون الملك بالزواج، وقد أحب جارية أديبة مهذبة عاقلة، لرميك بن حجاج، وألحّ فى أن أطلب إليك أن تزوجه منها.

- قد يصبر المرء على مرّ الدواء إذا كان فيه شفاؤه، فليتزوجها لو كان فى ذلك أن يقصر باطله، وترعوى نوازعه.

دُعى فى اليوم الثانى رميك بن حجاج إلى القصر، ونزل عن جاريته للمعتمد فأعتقها وتزوج منها، وكان لها الأثر الكبير في حياته وسياسته، وسمّاها (اعتمادا) ليشتق اسمها من اسمه، وهو يقول فى تطريز اسمها وقد أرسل إليها برسالة شوق وهو بعيد عنها:

أغائبة الشخص عن ناظرى وحاضرة فى صميم الفؤاد

عليك السلام بقدر الشجون ودمع الشئون وطول السهاد
تملكتُ منك شموس الجران وصادفت منى سهل القياد
مراديَ أعياك فى كل حين فيا ليت أنى أعطى مرادى
أقيمى على العهد فى بيننا ولا تستحيلى لطول البعاد
دسست اسمك الحلو فى طيه وألّفت منه حروف اعتماد

مرت شهور على زواج المعتمد وهو سعيد بحبه، يزيد فى كل يوم بالرميكية هياماً، ويفنى فى نظراتها غراماً، فلندعه فى نشوته ولننتقل لنرى المعتضد فى قصره، والقوّاد والرؤساء وقوف في خدمته، وقد قدم لزيارته العالم الحسيب أبو حفص عمر الهوزنىّ، فسلم على المعتضد وجلس، ثم قال:

جئت إليك أبا عمرو، لأسدى إليك نصحاً لم أستطع كتمانه، وكلما سوّفت فيه، اعتقدت أننى خائن لله ولك وللمسلمين.

إن أعداءنا الأسبان لا يتركون فرصة لقص البلاد من أطرافها إلا اهتبلوها، وهم لا ينامون عن غزو البلاد والإيقاع بملوكها، وإثارة بعضهم على بعض ليلة أو بعض نهار، وقد رأيت أن ملوك المسلمين قارت بينهم الأحقاد وخدعهم الأعداء، فأصبح بعضهم عدواً لبعض، ثم إنهم انصرفوا إلى اللهو والخمر والنساء، وتركوا الأسبانيين يفتكون بهم أميراً أميراً، حتى إن بعضهم اليوم يدفعون لهم إتاوات كل سنة، ويتزلّفون إليهم.

صرّح الشرّ فلا يُستقَل إن نهلتم جاءكم بعد عَلّ
انهضوا فالدّاء رزء أجل واكسروا سيفاً عليكم يسلّ

فقال المعتضد: وما شأنك أنت وهذا يا شيخ؟! عجبى منكم أيها الفقهاء!! تريدون أن تدسوا أنفكم فى كل شىء...

تركنا لكم دين الله تعملون به ما تشاءون، فاتركوا لنا دنيانا.

- إن دين الله أثبت أركاناً وأقوى دعائم من أن يعمل المرء فيه ما يشاء، أما الدنيا فليست لك وحدك وإنما هى للمسلمين عامة. وقد قال سيدك وسيدى أبو بكر الصديق: إذا رأيتم فىّ اعوجاجاً فقوموه بسيوفكم. ونحن لا نقومك بسيوفنا ولكن بالنصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين.

ـ وهل أنا معوجّ؟

ـ لقد زاد اعوجاجك وصلب، حتى يئسنا من تقويمك.

ـ خذوا هذا الشيخ عنى، وإلا قتلته بسيفى.

ـ اقتلنى إن شئت. فقد اشترى الله منى نفسى ومالى بالجنة.

وحينئذٍ وثب عليه المعتضد وهو كالأسد الثائر، فحز رأسه، وقال لخدمه: احملوه إلى الجحيم.

فحمله الخدم، والألم على الشيخ يكاد يخرجهم عن حد الطاعة لسيدهم. ثم جاء ابنه أبو القاسم الهوزنىّ، والحزن الشديد يمتزج فى صدره بالغضب الشديد وقد جمدت عيناه، وارتعدت شفتاه، ورفع خدمه الشيخ على الأعناق وأبو القاسم خلفه يحدث نفسه ويتمتم:

والله لآخذن بثأرك يا أبى... والله لن أهدأ حتى أرى دولتهم قفراً يباباً... لن ينعموا طويلاً بعد اليوم... سأثير القلوب عليه ثم على ابنه من بعده حتى أثلّ عرشه... سأثير عليه القشتاليين وسأثير عليه ملوك الأندلس جميعاً، وسأغرى به ملك المغرب، وسأبعث عليه بجانب هؤلاء جيوشاً من مكرى وخديعتى لن يستطيع لها دفعاً... سيذهب ملكه وملك ابنه ولو ذهبت معه الأندلس جميعاً... كل الأندلس فداؤك يا أبى.

كان حزن أهل إشبيلية شديداً على الشيخ، وقد كادت العامة تثور له لولا ما كان يخيفها من بطش المعتضد وجبروته.

وبعد مضىّ أشهر من الحادثة، نرى المعتضد ذات مساء فى قصره، ونسمع ضوضاء بين الجوارى والخدم، ونرى طاهرة تدخل عليه مذعورة وهي ترتعد من الحزن وتقول: إن بثينة مريضة جدّاً... أخذها المرض فجأة وهى تلعب بين أترابها.

فهبّ المعتضد كالمصعوق، وقال: ماذا تقولين؟!... بثينة!!... بثينة مريضة؟! لعلها وعكة تزول!! أين الطبيب؟؟ أين خلف الزهراوى؟؟ أين هو؟؟ وما هى إلا فترة قصيرة حتى جاء الزهراوى، فبادره المعتضد قائلاً: كيف وجدتها؟ فقال الطبيب فى صوت خافت مرتعد: إنها علة الخناق (الدفتريا) يا مولاى، ولا نعرف لها علاجاً إلا تطهير

الحلق، وقد بذلت كل ما فى وسعى وفى وسع الطب، لأخذ الأغشية البيض من حلقها، غير أننى أخشى أن تكون أبعد من متناول يدى.

ـ سأراها معك. آه يا بثينتى... أنت دنياى أو ما بقى من دنياى... أنت سلوتى بعد أن نفر منى الناس ونفرت منهم... خذ أيها الطبيب ملكى واشفها... لا تستطيع شفاء بنية صغيرة؟!... ماذا فى طبك إذاً؟؟ إنه دَجْل. وخرافة... دجل وخرافة.

ولما وقعت عينه على ابنته، رأى وجهها محتقناً بالدم فى زرقة وكمدة، ورآها تعالج الأنفاس فلا تستطيع، ورأى المعتمد ابنه واقفاً بحذاء سريرها والدموع تتساقط من عينيه، وحاول الطبيب أن يعطيها دواء للمضمضة فلم تستطع، ثم جس يدها فرأى البرودة تدب فيها، فهزّ رأسه كاليائس، والمعتضد أمامه ينظر فى وجهه ليرى فيه بارقة من أمل، فلما لم يجد أخذ يبكى كالطفل، واجتذب الفتاة إلى صدره وهو يقول: سأداويك أنا بحبى يا بثينتى إذا عجز الطب... ثاقوى نبضك بنبضى، وأبعث إليك حرارة من جسمى، سأهب لك جزءاً من طول أنفاسى. عيشى يا ريحانتى فإن حياتى جزء من حياتك، وإذا ذهب الكل ذَهب الجزء معه. يا أيها الغصن الرطيب من أين هبّت عليك هذا الزعزع النكباء؟! ويا هذه الوردة الذابلة إن ربيع الحياة لا يزال أمامك ممتد المدى... ويا أيتها اللؤلؤة ما كان ذلك أن تغيبى ثانية فى جوف ذلك البحر المجهول، قبل أن تزيّنى الصدور وتحلّى النحور.

بثينة. هل تسمعين أباك الحيران؟؟.. أجيبى.

وحينئذٍ غطّى الطبيب وجهها، ومس ذراع أبيها فى رفق وهو يقول: أجمل الله عزاءك يا مولاى.

وهنا ارتفع الصراخ بالقصر، ومشى المعتضد وهو ينتحب ويتوكأ على الطبيب وابنه المعتمد.

قضى المعتضد أيام العزاء فى ابنته وهو لا يكاد يفيق من الحزن، وشعر فى أثناء ذلك بزكام ثقيل تصحبه حرارة محرقة، فأحضر طبيبه فأشار عليه بالحجامة، ولكن المعتضد رأى تأخير ذلك إلى غد يومه.

فلما جاء الغد، زاد عليه الداء واشتد، ودعا بابنه المعتمد، فأخرج له من تحت وسادته رسالة يخبره فيها مرسلها بأن الثائرين المدعوين بالمرابطين، قد وصلت طلائعهم

إلى رحبة مراكش ، فلما قرأها المعتمد قال : هوِّن عليك يا أبي وأنت في هذه الحال ، إن بينهم وبين الأندلس اللجج والمهامه. فهز أبوه رأسه وقال وهو يتعثر في كلماته : والله يا بني هذا الذي كنت أتوقعه وأخشاه ، ولئن طالت بك حياة . . . لترين هؤلاء الملثمين هنا . . .

ثم ضعف قليلاً وأخذ يعالج الموت ساعات ، حتى قضى يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وأربعمائة .

وارتفع الضجيج ، ورددت أرجاء القصر:

مات المعتضد . . . مات المعتضد . . .

وكان أبو القاسم الهوزنيّ يمرّ تحت القصر ليلتقط أخبار المعتضد وصدره يغلي حقداً ، فلما سمع الضجيج أخذ يتمتم :

لقد سرني أن النعيَّ موكل   بطاغية قد حم منه حمامُ
تجنّب صوبُ الغيث قبرك جافياً   ومرّت عليه المزن وهي جَهام

دسيسة

حزن المعتمد لموت أبيه وعزم أن يكفى كفايته، وأن يرفع دولة بنى عبّاد إلى أوج العظمة، وأن يزيدها من شجاعته وحسن تدبيره وإحكام سياسته، قوة على قوة. كانت نفسه تجيش بآمال ضخام وأحلام بعيدة، وكانت تصوّر له أن ملكاً لا ينتظم بلاد الأندلس جميعها لا يصح أن يسمى ملكاً. شباب وذكاء وثروة. . . ماذا تريد الدولة لتكون عظيمة سامقة غير هذه الثلاثة؟!

وهذه جميعاً موفورة تامة، حتى لو خلط بعضها ببعض وصنع من المخلوط تمثال لكان المعتمد بن عباد.

كان أول ما صنعه المعتمد، أن دعا خليله ابن عمار من منفاه وقلّده الوزارة، ثم دعا بأبى القاسم الهوزنى، ومنحه لقب المشير فى الدولة، رغبة منه فى استرضائه لما فرط من المعتضد من قتل أبيه ظلماًوعسفاً. وعندما جلس على العرش، أقبل عليه الناس من جميع أقطار الأندلس مهنئين مستبشرين متيامنين بهذا الأمير الشاب، العربي الوسيم.

وجاء الشعراء للإنشاد، وبينهم: أبو الوليد بن زيدون، والدانى، وابن وهبون، وعلىّ الحصرى الكفيف، والنحلى. فشرع ابن زيدون ينشد قصيدة منها:

لك الخير إن الرزء كان غيَابة طلعت لنا فيها كما طلع البدر
فقرّت عيون كان أسخنها البكا وقرّت قلوب كان زلزلها الذعر

وصاح الحصريّ يقول:

مـات عبـاد ولكن بقـى الفـرع الكريم
فـكأن الميت حى غير أن الضـاد ميم

وأنشد الدانى قصيدة منها:

من بنى المنـذرين ـ وهـو انتساب زاد فى فخرهـم ـ بنـو عباد
فتية لم تلـد سواهـا المعالى والمعالـى قليلـة الأولاد

والمعتمد فى هذا الجمع الحاشد يهتزّ للمديح، ويرتـاح للإطـراء، شأن العربى الكريم؛ حتى إذا انفضّ الحفل دعا بصاحب خزائنه أحمد العامرى، وأمـر بمئـات من الدنانير لكل شاعر ثم أمر بقدر واف من المال يوزّع على كل معوز محتاج بإشبيلية.

ثم خلا بنفسه ودعا إليه وزيره ابن عمار ومشيره الهوزنى، ليبحث معهما فى شئون الدولة، فقال ابن عباد:

إن الأدارسة أعداء دولتنا، لا يزالون يتربصون بنا الدوائر وينصبون لنا الشبـاك، وأرى أن نكون أصحاب الضربة الأولى حتى نلقى فى قلوبهم الرعب، فإما أن يلقوا القياد مستسلمين، وإما أن يكونوا طعمة للنسور. فقال ابن عمار وهو يتطلع إلى أن يكون أميراً بإحدى مدن الأدارسة:

يا مولاى: أنت اليوم أعظم ملوك الأنـدلس قوة وبسطـة، وإن جيشـاً إلـى مرسية يحارب بسلاح رأيك، ويقوده صنيعتك ابن عمار ـ كفيل أن يخترق أسـوار المدينـة فى ساعة من نهار. وحينئذٍ اعترض الحديث الهوزنى وقال:

يا مولاى غفراً! إن لى غير هذا الرأى. إن الأندلسيين عامة، وأهل إشبيلية خاصة سئموا الحروب، وقد تيمنوا بطالعك، وقرءوا فى وجهك آيات الخير والسلام، ولم يمض على وفاة المعتضد إلا أيام قليلة، فهب سنتين أو ثلاثـاً يا مولاى لعظمـة الملك وإعـلاء مراسمه، وللإغداق على الرعية وبعث روح السرور والبهجة فيهـم. دعهـم يفهمـوا أن ملكهم أريحى كريم، يطرب للـهو كما يطربون، ويفرح بالملك كما يفرحون، بعـد أن قضوا سنوات كبتت فيها نفوسهم ووجلت قلوبهم. دعهم يا مولاى يعرفوا أن المعتمد جمع صفات الحزم والقوة والـذكاء، التى كان يتحلى بها أبـوه، وأنـه أضـاف إليهـا اللين والسماح، وانبساط النفس، والتمتع بلذائذ الحياة.

فقال ابن عمار: أما إذا دعوت إلى التمتع بلذائذ الحياة، فأنا أول من يستجيب.

ـ لذائذ الحياة التى أريد الأمير أن يتمتّع بها، غير ما تفهم منها أنت.

فقال المعتمد: عزمت على ألا أشرب الخمر. فقال ابن عمار: هذا حسن، وهو يرفع من قدر الأمير فى نظر الرعية.

فقال الهوزنى: إن المعتضد كان يعاقر الخمر ولم يسقط ذلك من هيبته فى نظر الرعية، على أننا سننشر بين الناس جميعاً أن مولاى كسر قوارير الخمر وأراق ما فى دنانها، وإذا دعت الحاجة إلى كأس فى مجلس أنس مستتر، فإن ذلك لا يعمل شيئاً.

أبسط كفيّك للناس، واعف عن هفواتهم، وادخل السرور على قلوبهم، ودعهم يفرحوا بملكهم ويقولوا: إن أيامه كانت بهجة الأيام، وعصره كان زينة العصور.

فقال ابن عمار: أنا أحب هذا الكلام، وأنا أحب البهجة والسرور.

فقال المعتمد: إلى حين. فأسرع الهوزنىّ قائلاً: يا مولاى إلى حين.

ثم انفض المجلس، وخرج ابن عمار مع الهوزنىّ، فمال ابن عمار إليه هامساً:
ـ ماذا تقصد أبا القاسم بهذه النصائح الغالية؟؟

ـ اسمع يا ابن عمار. أنا أعرف أنك رجل طموح، وأن نفسك الكبيرة الوثابة لا ترضى لك أن تكون ذيلاً للمعتمد، وفيك دم الملوك، وفيك عزائمهم... إن شبيهك المتنبى خاب فى المشرق فلم ينل ولاية أو ضيعة، لأنه لم تكن فيه صفات الملوك... أتعاهدنى؟

ـ على أى شىء أعاهدك؟؟

ـ على ألا تقف فى طريقى، ما دمت لا أقف فى طريقك. أنت تريد أن تكون ملكاً بالأندلس ولست بأقل من ملوكه منزلة وقدراً، وساحتطب فى حبلك وأساعدك على ما تبتغى، على شريطة ألا تعترض لى رأياً، أو تفند قولاً، أو تفسد علىّ خطة، ولو أنى علمت أنك فعلت شيئاً من ذلك، لأشعلت الحرب ضروساً بينى وبينك... أتقبل؟؟

ـ أقبل أبا القاسم.

ذهب الهوزنىّ إلى منزله، فرأى فى دهليزه فتاة متلفّفة لا يظهر من جسمها شىء، فلما

رأته كشفت عن وجهها، فإذا هي أرماندا جارية المعتمد الجديدة، التي أهداها إليه الهوزنيّ منذ أشهر، وهي في جمالها ورشاقتها ولطف حديثها وقوة سحرها، فتنة تنتهب القلوب انتهاباً. وقد كلف بها المعتمد كلفاً أنساه أو كاد ينسيه زوجته الرّميكيّة. نظرت أرماندا إلى الهوزنيّ وقالت:

إني فهمت غمزتك حينما لقيتني اليوم بالقصر، وعرفت أنك تريد مقابلتي على انفراد في منزلك.

- ذكية وحق عيسى بن مريم.

- إنك لم تخترني للمعتمد عبثاً، ألست تريد مني أن أفتنه بسحري عن كل شأن من شئون المملكة، حتى يضعف ملكه وتهن قوّته؟؟

- نعم اخترتك لإبادة هذه الدولة الطاغية اللاهية، لتخلفها في الملك إحدى الأسر العريقة من المسلمين بإشبيلية.

- أما من يخلفها، فلسنا الآن بصدده، لأننا اعتدنا في قشتالة، أن نعمل شيئاً واحداً في وقت واحد.

فقال الهوزنيّ متبرماً: هذا يكفي، وقد دعوتك لأحثك على البدء بالعمل، واحذري أن يعرف مخلوق هذه الصلة التي بيننا، ثم احذري أن يراك إنسان خارجة من القصر أو داخلة بيتي.

- إني أخرج دائماً من باب القصر الخلفي، ثم إني ماهرة في أساليب الإختفاء.

غادر المعتمد مجلس ابن عمار والهوزنيّ، وهو يخادع نفسه بالاقتناع بصحة أيهما، حتى إذا تنبه فيه العقل وهمست الحكمة، أسكتتهما صيحات الغرائز والشهوات فأخذ يقول:

أباح لطرفي طيفها الخد والنهدا	فعضّ به تفاحة واجتنى ورداً
ولو قدرت زارت على حال يقظة	ولكن حجاب البين ما بيننا مدا
هي الظبي جيداً، والغزالة مقلة	وروض الربا عرفا، وغصن النّقاقدّا

ثم دخل عليه صاحب خزائنه يقول: يا مولاي. إن سهلون بن إسحاق الجوهريّ،

جاء يطلب خمسين ألف دينار، ثمن عقد من الجوهر اختارته سيدتى اعتماد، وقد كتبتْ له بذلك صكّاً.

- ادفع له، ومره أن يدخل لأرى شيئاً من نفائسه.

فدخل سهلون يحمل خرجاً فوق كتفه، وقال: يا مولاى! عندى فى هذا الخرج ما لم يقتنه ملك، ولم تتحل به خزائن بنى العباس. ثم أخرج تمثالاً من البلّور لجمل له عينان من الياقوت، وقد حلّى جسمه بنفائس الدر والماس. فأعجب به المعتمد، وقال: بكم تبيع هذا يا ابن إسرائيل؟ فقال: بعشرة آلاف دينار، فقال المعتمد: حسن، يا أحمد أعطه ما طلب.

وبينما هما فى الحديث، إذا أبو العرب الصِّقلى الشاعر يستأذن فى المثول، فأذن له، فأنشد قصيدة رائعة فى تهنئة المعتمد، فتألق وجهه وأمر له بعشرين كيساً من الفضة. فنظر أبو العرب إلى تمثال الجمل، وأعجبه حسن صنعه، ونفاسة جواهره. فقال:

لا يحمل هذه الصلّة إلا جمل (وأشار إلى التمثال). فأخذه المعتمد بيده وقال: خذه، فإنه حمّال أثقال.

ثم انفض المجلس وخرج اليهودى يهز رأسه ويضرب بكف على كف ويقول: أنفق الأمير الجديد فى هذا اليوم خراج دولة!!

هكذا هكذا تكون المعالى ... طُرُقُ الجد غير طرق المزاح!!

هزيمة

مرّت سنوات قليلة، والمعتمد هانيء البال مستقيم الأمر، يصرّف شئون الدولة ويقيم مراسيم الملك فى عظمة وجلال، حتى هابته الملوك وأحبته الرعية، وأصبح اسمه يدوّى فى الأندلس مقروناً بالثناء محفوفاً بالإكبار.

أجزل إلى الشّعراء العطاء فانتجعوا ساحته من أقاصى الأندلس يتسابقون إلى مديحه وجوائزه، ويذيعون أينما ساروا فضله ومكارمه، وحاط الرعية بعطف اجتذب إليه النفوس وجمع على حبه القلوب، وعظّم العلماء والفقهاء وأعلى مجالسهم. والعلماء فى الأندلس - وربما كانوا فى غيرها - عقدة الصلة بين الملك وشعبه، غير أنه مع كل هذه الخلال التى أنست الرعية ويلات أبيه، كان مولعاً بمجالس الشراب، مفتوناً بالحسان، كان شيئاً من ذلك جزء من مقوّمات حياته لا يكاد يعيش بدونه. وكان من عيوبه مع هذه الخلال، انقياده لآراء بعض الموالسين المخادعين من بطانته.

قابل الهوزنى يوماً ابن عمار بعد أن أصبحا صديقين، وقال: لم لا تطلب أبا بكر من الملك أن تذهب بجيش لأخذ مرسية، فقد طابت الثمرة وحان قطافها، فإذا أخذتها أصبحت ملكاً عليها. فقال ابن عمار: سأخاطبه الليلة فى مجلس أنسه وأنا واثق من أنه سيجيب طلبى لأنه يتحرّق شوقاً إلى الغزو، فقال الهوزنى: هذا حسن، وسأكون عضدك فى الوصول إلى أمنيتك.

ثم ذهب إلى داره ودعا عبده سهماً وقال: أتعرف الطريق إلى طليطلة؟ فقال: نعم يا مولاى، إنها على مسيرة ثلاثة أيام للمجدّ. فقال: خذ خير أفراسي، واذهب مستخفياً إلى قصر

المأمون بن ذي النون حاكمها، وقلْ له: إن الريح تهبّ على مرسية... لا تقل له غير هذا... اركب الآن.

كان المعتمد بعد أيام من هذه الحادثة، يطل من إحدى شرفات قصره، واعتماد إلى يمينه، وأرماندا إلى يساره، فنظرت الرميكية إلى النساء وهنّ يملأن جرارهن من النهر، ويمشين حافيات فى الطين، وقد بدت سوقهن إلى ما فوق الركب بيضا نواصع، فقالت: وددت يا حبيبى لو مشيت فى الطين حافية كهؤلاء.

فقالت أرماندا: ما أجمل وما أبهى!! إنما الجمال الحق فى الرجوع إلى الطبع، فقال المعتمد: إن هذا أهون ما يكون، فقالت أرماندا: ولكن الأميرة لا تمشى فى الطين، إنما تمشى فى خليط من المسك والكافور، فقالت اعتماد: نعم ما رأيت يا فتاة... أسمعت يا مولاى؟ فقال المعتمد: وأطعت...

ودعا بأحمد العامرى، وأمره ألا يترك بإشبيلية مسكاً أو كافوراً أو أي نوع من الطيب عند عطار، وأن تجمع ورود إشبيلية، ويستخرج ماؤها، وأن تعمل فى الحديقة بركة واسعة، طينها الطيب، وماؤها ماء الورد، لتمشى بها الأميرة حافية بين جواريها، فأطاع أحمد العامرى مطرقاً. وكانت أرماندا تنظر إلى اعتماد مبتسمة، وتقول: آه ما أسعدك؟؟... إنه الحب... إنه الحب.

وبعد أيام عملت البركة.

وكان المعتمد جالساً فى قصره، متكئاً على وسادته، وجاريته جوهرة تهز المروحة فوق رأسه، فى يوم اشتدّ حره، وأرماندا تغمزه فى يده غمزة خفيفة، وهى تناوله الكأس، وحبيبته وزوجه اعتماد، تسلط عليه سحر عينيها الناعستين فتسقيه خمراً من صنف جديد ربما كان أحلى وألذ نشوة من الخمر، والجوارى جاثيات ذاهبات فى خدمته، كأنهن اللؤلؤ المكنون، والمغنية تطلق صوتها فى أرجاء الحديقة فضيا لؤلؤياً فتكاد تردد صداه الأطيار، وكانت تغنى قول المعتمد:

رحلوا وأخفى وجده فأذاعه ... ماء الشئون مصرحاً ومجمجما
سايرتهم والليل غفلٌ ثوبه ... حتى تراءى للنواظر معلماً
فوقفت ثَم مُحيراً وتسلبت ... منى يد الإصباح تلك الأنجما

ثم صاح المعتمد: هلم أيها الفواتن إلى البركة، واكشفن عن سوقكن. فوثبت اعتماد وجواريها إلى البركة حافيات جذلات يقهقهن ويغنين غناء القرويات، ويثرن طين المسك بأيديهن يميناً وشمالاً، وتزلج رجل إحداهن في الطين فيزداد الضحك والصياح، وبينما هن كذلك، أقبل الخادم سيف يقول: يا مولاى إن ابن عمار يطلب المقابلة، فقال المعتمد دهشاً: ابن عمار؟! ولم جاء من مرسية؟! ثم أسرع إليه، فدل مظهر ابن عمار على سوء خبره؛ فقال الأمير: ماذا جرى أبا بكر؟؟

ـ ذهب الجيش يا مولاى إلى مرسية، ولكننا رأينا قوتنا دون قوة ابن ذي النون، فجمعنا عشرة آلاف من الذهب نستأجر بها مدداً من ريموند فجاء بجيشه، ولكن ريموند فر حينما رأى عظم جيش ابن ذى النون، فيئسنا، وهجم جيشنا وحده، فهزم ولاذ جنودنا بالفرار. وقد عدت إليك يا مولاى واجفاً لما أصابنا من الفشل.

فامتقع ابن عباد وقال: لا عليك أبا بكر، سنعد له جيشاً يلتهمه ويلتهم طليطلة معه. أتظن أن جاسوساً أخبر ابن ذي النون بوثوبك على مرسية؟

ـ لا يا مولاى، فقد كان الأمر سرّاً مكتوماً.

ـ لا تيأس أبا بكر، فلن يفلت ابن ذى النون منا.

وحينما خرج ابن عمار رأى الهوزنى عند باب القصر، فقال: هزمنا يا أبا القاسم.

فقال: إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس. اذهب إلى دارك أبا بكر. وكن كما تقول فى شعرك:

وقبل خلع نجاد السيف فاسع إلى ... ذات الوشاح وخد للحب بالثار
ضمّاً ولثماً يغنى الحَلْىُ بينهما ... كما تجاوب أطيار بأسحار

معاهدة

تمرُّ ستُّ سنوات يموت في أثنائها المأمون بن ذي النون، فيتجهز المعتمد للإغارة على قرطبة، وها نحن أولاء نراه يقطع الطريق إليها عدواً، في جيش كثير العدد، وحوله قواده ومشيروه وفيهم ابن عمار والهوزني، ثم يدركهم الليل، فينزل المعتمد وحاشيته في خيمة وهو حزين كاسف البال.

ذكر اغتصاب جيش ابن ذي النون لقرطبة درة ملكه.. وذكر والألم يحز في نفسه هجوم حريز بن عكاشة بثلة من رجاله على قصر ابنه الظافر بقرطبة في جنح الليل، ثم خروج ابنه إليهم في لبسة المفضّل يقاتل دون حوزة القصر فريداً بعد أن فر عسكره. ثم ذكر كيف أن حريزاً قتله وتركه ملقى بالعراء، حتى جاء أحد المارّة في الغلس فرآه، فغطاه بثوبه... فأخذ المعتمد يردد:

ولـم أدر من ألقى عليه رداءه　　　على أنـه قد سُلّ عن ماجد محض

ثم يقبل الجيش على قرطبة وقد خلت من جيوش القادر ابن ذي النون، فينزل بها جيش إشبيلية، ويفر حريز بن عكاشة في فصيلة من جنده، فيتعقبه المعتمد بنفسه حتى إذا ظفر به أغمد سيفه في صدره وصاح: نم هنيئاً يا ولدي فقد أخذ أبوك بثارك!

يدخل المعتمد بحاشيته قصر قرطبة، ويقبل عليه الناس والشعراء يهنئونه ويبتهج أهل قرطبة جميعاً بالمعتمد، بعد أن طال عليهم حكم بني ذي النون، لأن القرطبيين قوم ذوو ملل، لا يصبرون على حكم والٍ طويلاً وحينما وقف النحلي الشاعر، قال له المعتمد مازحاً: يا نحلي، أينا ينشد أولاً؟

فقال النحلي: الملك الشاعر يا مولاي أولى بالتقدم.

فانشد المعتمد:

من للملـوك بشـأو الأصيْدَ البطل	هيهـات جاءتـكم مهـدية الدُّولِ
خطبت قرطبة الحسناء إذ منعت	من جاء يخطبها ـ بالبيض والأسل
وكم غدت عاطلاً حتى عرضـت لها	فأصبحت في سَرِيِّ الحلى والحلل
فراقبـوا عن قريب لا أبـا لكم	هجـوم ليث بدرع البـأس مشتمل

فالتفت الشعراء بعضهم إلى بعض، وقال النحلي ـ وكان أعرقهم في الملق وطرق الاستجداء ـ: «والله لن يستطيع شاعر أن يقول شعراً بعد هذا، أكسدت علينا بضاعتنا يا مولاي. وتشبث الشعراء برأى النحلي، بعد أن وثق كل منهم من الجائزة، ففرّق عليهم المعتمد الجوائز في إغداق وإسراف، وأمر أن تنصب الموائد وتمد الأسمطة لأهل قرطبة ثلاثة أيام.

ثم اجتمع المعتمد بابن عمار والهوزنيّ وقال: إن دولة بني ذي النون ضعفت بموت المأمون والفرصة اليوم سانحة للإغارة على بلاده وضمها إلى ملكنا. فقال الهوزنيّ: نعم يا مولاي. إن القادر ابن المأمون حدث غرّ، ليس فيه شيء من صفات الملوك، غير أن الأذفونش (ألفونسو) يحالفه ويناصره، ويذود عنه، حتى ليقال: إن المأمون قبل موته، أوصى الأذفونش بحماية ابنه. فقال المعتمد: الأذفونش صديقنا، ونحن نمنحه مالاً وهدايا في كل عام. فقال ابن عمار: الأذفونش تاجر، يتجّر بقوته وجنوده وهو يمنحهما من يعطيه أغلى ثمن. وقال الهوزنيّ: ثم إن مولاي وقد أصبح أقوى ملك بالأندلس، يحسن به ألا يقتصر على فتح بلاد بني ذي النون، بل أرى أن تتوجه همة مولاي إلى بني الأفطس ببطليوس، وبني صمادح بالمريّة. فقال ابن عمار: هذه الأماني لا تتحقق إلا بوسيلتين: كثرة عدد الجيوش المقاتلة، وعدد مقاتلينا لا يكفي، ثم باتقاء شر الأذفونش واجتذابه إلى جانبنا. فقال الهوزنيّ: هذا سهل هيِّن... نعقد معه معاهدة على أن يمدنا بجنود من قشتالة وعلى ألا يساعد علينا عدوّاً، ولو كان ابن صديقه المأمون. فقال ابن عمار: إن الأذفونش سيغالي في الثمن. فقال المعتمد: ليغال ما يشاء... لا بد أن أملك الأندلس كلها. فقال الهوزنيّ: هذا يوم يا مولاي سيكون أغرّ محجلاً في التاريخ، وأود أن أعيش لأسمع ما يقول شعراؤنا فيه، وأنت جالس على عرشك تحكم الشرق والغرب. ثم قال

المعتمد: قم أبا بكر واذهب إلى الأذفونش، واستعمل معه أساليب مكرك ومحالك، ولا ترجع إلا والمعاهدة في يدك. فقال ابن عمار: على أن تكون بلنسية فى يدى الأخرى.

ورحل المعتمد مع الهوزنىّ إلى إشبيلية، بعد أن ترك ابنه المأمون أميراً على قرطبة، وبعد أن ودّع ابن عمار ورجا له التوفيق فى سفارته. جدّ ابن عمار فى السير إلى مدينة قورية بعد أن علم أن ألفونسو مقيم بها، حتى إذا وصل إلى القصر، رأى ملك الأسبان فى بهوه الملكىّ، ورأى زوجته أجنيس بنت دوق جويانة، جالسة بجانبه، وكانت رائعة الطلعة فائقة الجمال، وكان العرب يلقبون زوجة ملك الأسبان بالقمجيطة، فسلم عليهما ابن عمار، ثم أخذ مجلسه بعد أن أحسن ألفونسو تحيته وقال:

- أى ريح سعيدة بعثت بك إلينا؟!

- دعنى أولاً يا سيدى أملأ عينى من جمال القمجيطة، فقد بهرنى حسنها، وأذهل عقلى، وأضاع تفكيرى. . . هكذا تكون زوجات عظماء الملوك!!

فقالت أجنيس: ماذا يقول العربىّ؟؟

- يقول: إنه فتن بحسنك وسحر بجمالك، حتى فقد عقله.

فضحكت فى سرور وإدلال وقالت: قل له: أليس عند ابن عباد من هن فى جمالى؟ فلما نقل ألفونسو سؤالها إليه قال:

- فى قصر ابن عباد أمثالها؟، . . . ولا فى جنة الخلد.

ثم التفت إلى صورة للعذراء معلقة بالحائط، وقال:

- فى هذه الصورة الجميلة شبه قليل منها.

سرّ ألفونسو لإطراء زوجته وترجم لها ما قاله ابن عمار، فقالت لزوجها: سله أىّ شىء فى وجهى كان أكثر تأثيراً فى نفسه، فترجم له ألفونسو فقال:

لقد أوقعتنى هذه الدرة الأسبانية المتلألئة فى حيرة أخرى. . . عيناها أجمل ما فى وجهها. . . إنهما مغناطيستان تجتذبان العقول. . . لا. بل خداها ثم ثغرها الفاتن وهو عقيق يغطى عقدين من لآلىء الجنة، نظمتهما يد الرحمن. . . لا يا سيدى، قل لها: إن كل شىء فيها حسن، وإنها فتنة للناظرين.

فلما بلّغها ألفونسو ما قاله، زادت زهواً ودلالاً، وقالت: سله أهو شاعر؟؟

فقال ابن عمار: قل لها يا سيدى: إن محاسنها لا تحتاج إلى شعر شاعر، إنها وحدها قصيدة نظمها الزمان، لتكون آية الزمان.

اهتزّت أجنيس طرباً وقالت: يا ألفونسو، هذا عربىّ لطيف عذب الكلام، فبحقى عليك ألا أحسنت مجاملته وسهّلت له حاجته.

ثم تركت المجلس. فقال ألفونسو: نعود إلى سؤالك عن سبب زيارتنا.

فقال: جئت يا سيدى من قبل المعتمد، وهو يرجو أن يكون لك صديقاً ثابت الود، دائم الإخلاص. فما قولك؟؟

ـ هذا حسن، لولا أن مطامع ابن عباد دائماً تتعارض مع مطامعى، وتقف فى طريقها، ثم إنى لا أحب فيه تلك النزعة الجشعة، التى تدفعه إلى الرغبة فى امتلاك الأندلس واغتصاب صغار الولاة بلادهم.

ـ الأذفونش ملك عظيم، فلم لا يحب أن يكون حليفاً وصديقاً لملك عظيم؟

ـ نحن الملوك لا نحالف إلا من نخاف شرّه. وأنا لا أخاف ابن عباد.

ـ إنك تشكو منه الآن، لأن مطامعه تصطدم بمطامعك، فلم لا تحالفه إذاً حتى يسير كلّ منكما فى طريقه من غير اصطدام. . . يترك لك ما تريد، وتترك له ما يريد.

ـ لا يا ابن عمار، إن الذى يترك الأسد طليقاً يغتاله الأسد.

ـ إننا سنفرض يا سيدى أسدين قويين، وهما فوق ذلك صديقان.

ـ لا يا عربى. إنك ربما تعرف ما فى نفسى، وتحاول أن تخدعنى.

ـ هلمّ إلى المصارحة إذاً. أنت تخشى أنك إذا حالفته قوّيت ملكاً مسلماً، وأنتم لا تريدون أن تعيدوا فى الجزيرة أيام عبد الرحمن الناصر، أو أيام المنصور بن أبى عامر.

ـ ليس كذلك تماماً.

ـ هو كذلك تماماً. . . دعنى أخبرك أن تلك الأيام لن تعود، وأنك إذا حالفت المعتمد كنت الرابح من غير أن يعود عليك خطر.

ـ أنا حليف القادر بن المأمون .

ـ ولكننا سندفع ثمناً أغلى .

ثم انتقل إلى المساومة والمماكسة ، واتفقا على معاهدة من نصوصها : أن يتعهد ملك قشتالة بمعاونة المعتمد بالجند فى حروبه مع جميع أعدائه المسلمين ؛ وأن يتعهد المعتمد بمضاعفة الإتاوة التى يؤديها إلى ملك قشتالة فى كل سنة ، وألا يعترض خطته فى افتتاح طليطلة . وهى معاهدة مشئومة ، ضحّى فيها المعتمد بإسبانيا كلها ، لكى يبسط سيادته على بضع إمارات .

عاد ابن عمار إلى إشبيلية ، وأطلع المعتمد على المعاهدة ، فسر بها ، وبدأ إنفاذها بإرسال ابن عمار على جيش لأخذ مرسية وبلنسية ، على أن يكون أميراً لبلنسية .

وبعد سبع سنوات من هذه المعاهدة ، سقطت طليطلة قاعدة القوط القديمة ومعقل النصرانية فى يد ألفونسو، بعد أن حكمها المسلمون اثنين وسبعين وثلاثمائة عام ، فشمل الحزن عليها جميع بلاد الإسلام ، وذعر ملوك الولايات وأحسوا بالخطر الداهم ، وبغى ألفونسو وتكبر، ولقب نفسه بالإمبراطور حامى الملتين ، ثم أقسم ألا يبقى أحداً من ملوك الأندلس فوق عرشه ، إلا إذا خضع لسلطانه ، وعد نفسه من عماله . ووصل الخبر إلى إشبيلية فى ليلة سوداء ، فهاج الشعب وهدد بثورة جامحة ، واجتمع الناس فى الخانات وعند أفواه الطرق ، يتحدثون فى حزن وسخط على ملوكهم الذى أدّى بهم تخاذلهم وإسرافهم ، والإنهماك فى شهواتهم إلى هذه الفاجعة ، التى تهدد بزوال ملك العرب من الجزيرة .

وجلس المعتمد فى قصره حزيناً ، تتناهبه الأفكار ، وتتقاذفه الأوهام . ودخل عليه الهوزنى ، فسأله المعتمد فى ذهول وشتات فكر: كيف الحال؟؟ فقال الهوزنى : الحال حسنة يا مولاى ، لولا فضول أهل إشبيلية ، فإن المصيبة فيهم أنهم يزجون أنفسهم فيما لا شأن لهم به من سياسة الملك وشئون الدولة .

لقد مررت فى الطريق وأنا قادم ، بسوق القصابين ، وكان أحد الجنود يشترى لحماً ، فابتدره القصّاب قائلاً : حرام أن تأكلوا وتشربوا أيها الجنود المترفون .

وكاد الشر يتفاقم ، لولا تدخل الناس .

ـ إن استيلاء الأذفونش على طليطلة له ما بعده.

ـ وقد بلغنى يا مولاى أنه فتك بأهل المدينة، وسامهم كل أصناف العذاب . . . تعساً لهذه المعاهدة الظالمة، فإنها الجذوة التى طارت منها كل هذه الشرور. فأطرق المعتمد وقال: حقاً يا أبا القاسم، لقد فارق التوفيق ابن عمار عند عقدها.

ـ إن ابن عمار يا مولاى رجل لا يوثق به، وهو أول من يبيع نفسه وذمته لمن يلوّح له بالذهب النضار، فقد سمعت أن الأذفونش أهدى إليه خاتمين من نفيس الجواهر، وأنه خدعه بصنوف من الإطراء، حتى لقد دعاه أذكى رجل بالأندلس، وأنه خُلق ملكاً، وأظهر له أسفه أنه لم يكن فى مكان ابن عباد.

ـ وظن الخائن المفلوك ذلك صحيحاً؟!

ـ إنه أول من يخدع، على الرغم مما يظهر من الحصافة والذكاء، ثم لقد بلغنى أن زوجة الأذفونش ـ وهى من يعلم مولاى قوة سحر جمالها ـ فتنته وأطمعته، حتى وقع فى الشرك فوقّع المعاهدة.

ـ ويل للأبله المخدوع!!

ـ إنه رجل كبير الآمال. . وقد وصل إلى علمى أنه أظهر العصيان ببلنسية، بعد النعم التى واليتها عليه، ثم أن كارثة الكوارث، أنه أرسل شعراً فى هجاء مولاى وزوجه اعتماد، يردده أهل الأندلس جميعها، يقول فيه:

تخيرتها من بنات الهجان رُميكية لا تساوى عقالا
فجاءت بكل قصير العذار لئيم النجارين عمّاً وخالاً

فالتهب المعتمد غضباً، وصاح بعبد الجليل بن وهبون، وأمره أن يكتب إلى أحمد بن عبد العزيز، وزيره ببلنسية: أن يرسل إليه ابن عمار مصفوداً. وبعد أيام وصل ابن عمار، ولم يبق وسيلة من وسائل الاستعطاف إلا بذلها، ولكن الغضب لم يترك فى نفس المعتمد مكاناً لرحمة، فوثب عليه وقتله بيده، وخرج الهوزنىّ وهو يقول فى نفسه: هذه بداية الخاتمة. ومر ابن وهبون بجثّة ابن عمار فقال:

عجباً لمن أرثيه ملء مدامعى وأقول: لا شلّت يمين القاتل!

ثورة

كان القاضي عبدالله بن أدهم من أشد الساخطين على المعتمد، لتهاونه بشئون الدين والملك معاً، ولانغماسه في اللهو، وتحالفه مع الأسبان.

وكان عبدالله شيخاً جليل القدر، وقور السمت، له نفوذ روحي قوي التأثير في العامة، فكان يوجههم بإشارة من يده كيف شاء، ومتى شاء. وقد سمع من القادمين من برّ العدوة ما عليه ابن تاشفين، ملك مراكش، من الزهد والصراحة في الحق، والتمسك بالدين، والتادب بآداب الصحابة، والميل إلى الغزو في سبيل الله، فكان يود لو أن زمام الأندلس أسلم إلى يده بعد أن كبا بها الزمان، واصطلحت عليها النوائب، ليملأها عدلاً بعد أن ملئت جوراً، وليعيد إليها ما كان لها من العزّ الشامخ والملك العظيم.

كان عبدالله جالساً في داره مطرقاً مفكراً، وإذا أبو القاسم الهوزنيّ يطرق بابه، ويسلم في أدب،ويجلس، فيلتفت إليه ابن أدهم ويقول: كيف حال المعتمد اليوم؟ ألا يزال سادراً في لذاته، أم أيقظه قرع الحوادث؟؟

ـ لا يزال سادراً في لذاته، وهو الآن أشبه بالقنديل في آخر الليل، تخفق ذبالته حتى إذا لم تجد زيتاً انطفأت.

ـ ليته كان ينطفىء وحده! إنه ليس قنديلاً أبا القاسم. إنه راع ترك شياهه للسباع . . . إن الأمة لا تصلح إلا بابن خطاب جديد.

ـ وأين نجد عمر بن الخطاب الآن؟؟

ـ هو على مرمى سهم منك . . . هو فى بر العدوة . . . هو فى مراكش . . . هو يوسف بن تاشفين .

ـ فهمت . هذا حسن ، وهو خير من يعيد إلى الأندلس مجدها .

ـ ولكن كيف الوصول إليه؟؟ . . . إن وفداً من رجال الأندلس لا يكفى لدعوته ، لأنه قد يرتاب فى أن البلد ممهد لدخوله ، فيخشى أن يقع بين شقى رحا ، وأن تطبق عليه جيوش المسلمين وجيوش الأسبان .

ـ دع هذا الأمر لى يا سيدى ، ويكفيك أنك أوحيت بالفكرة . . . إنى سأحتال حتى يدعوه المعتمد نفسه .

ثم ينطلق إلى القصر فيلتقى بأحمد العامرى صاحب الخزائن ، فيقول له : عم صباحاً أبا محمد ، من مثلك اليوم يمشى فى إعجاب وزهو ، كمشية بنت المستكفى التى تقول :

أنـا والله أصلـح للمعالى وأمشـى مشيتـى وأتيه تيهاً

ولا عجب ، فإنك حارس خزائن الملك ، تعطى من تشاء وتمنع من تشاء .

ـ لا تمزح أبا القاسم فإن الوقت وقت جد ، إن النفقات الكثيرة تكاد تلتهم ما فى الخزائن : جوائز للشعراء لا تنتهى عند حد فى كل يوم ، وجواهر وحلى وملابس للجوارى ، ولأرماندا ، ولسيدتى الرميكية ـ تزيد أثمانها على ما يتوهمه العقل ، ثم نفقات قصر الملك ، ثم ما ينفق على القصـور الأخـرى : وهـى الزهـراء ، والمبـارك ، والـوحيد ، والزاهـى ، والمؤيد . ثم ما يدفع من الإتاوات للأذفونش . ماذا يبقى يا أبا القاسم؟؟

ـ يبقى ما يدفع للجيش .

ـ أنت لا تزال تمزح . عم صباحاً .

وتركه الهوزنىّ ، فرأى المعتمد جالساً بين حاشيته ، ووجهـه مربّـد ، وهـو يتكلف الكلام والابتسام ، حتى إذا أخذ مجلسه ، جاء سيف الخادم وقال بصوت مرتعد : إن ابن شاليب اليهودى قدم يا مولاى ، وقد ترك بربض إشبيلية نحو ثلاثمائة جندى ، قدموا معه . فالتفت المعتمد إلى من حوله وقال . ليدخل .

ودخل ابن شاليب ، وكان رجلاً فى الستين ، أشيب اللحية ، كبير الأنف ، يسيل ماء

عينيه لرمد ملازم، فهو لا يفتأ يمسح دموعهما بيده بحركة عصبية؛ وكان وسخ الوجه واليدين، له خصلتان طويلتان تتدليان على عارضيه، يلبس فوق صداره وسراويله جبة طويلة ممزقة الذيل وسخته.

سلم ابن شاليب وقال: إن مولاى الأذفونش يصدر إليكم أمرين: الأول: أن تقيم زوجه كونستانس بمدينة الزهراء حتى تلد، وأن تلد بالجانب الغربى من جامع قرطبة، وهو مكان الكنيسة القديمة، والثانى أن تضاعف الإتاوة هذا العام.

فقال المعتمد: اسمع يا رجل. نحن لا نتلقّى من أحد أمراً، وولادة القمجيطة بجامع قرطبة أبعد من المحال، وهو طلب نرده فى وجه مولاك بأنفة وازدراء؛ وأما المال فخذوه إن كان يسد ذلك جشع الأذفونش. ثم أمر أحمد العامرى بإعطائه الإتاوة.

وبعد ساعة عاد ابن شاليب وهو يصيح فى غضب: لا آخذ هذه الدنانير... إنها زائفة... إنها مغشوشة... إن الأذفونش سئم هذه الألاعيب، وإننا فى العام القابل لن نأخذ دنانير بل نأخذ مدناً وحصوناً.

فقال الهوزنىّ: أطبق فمك يا فاجر، إنك أمام الأمير.

فقال ابن شاليب: إن أراد الأمير أن يحترم نفسه فلينقدنى الدنانير صحيحة غير زائفة. وقد كان الغضب قد أطبق على المعتمد فلم يستطع صبراً، وكانت أمامه دواة ضخمة، فقبض على رقبة ابن شاليب، ودق رأسه بالدواة حتى تناثر مخه، ثم أمر سيفاً خادمه - وعيناه تكادان تثبان من محجريهما - أن يرسل جنوداً فى جنح الليل على فرسان الأذفونش ليقتلوهم.

طار خبر مقتل اليهودى فى إشبيلية، وتنقل من لسان إلى لسان، وكان الناس قد سئموا حكم المعتمد، ولكنهم كانوا يكتمون غيظاً تغلى فى نفوسهم مراجله. وأسرع من نجا من فرسان الأذفونش إليه، يقصّون عليه ما كان من المعتمد ويزيدون ويهولون، فأذهله وقع الخبر، وأقسم برأس أبيه أن يرسل عليه جيوشاً لا قبل له بها، وألا يقل عددها عن شعر رأسه، وقد أنجز وعيده فأرسل جيشاً لهاماً لا يبلغ الطرف مدى آخره، كان يقوده بنفسه، حتى وصل إلى شاطىء النهر الكبير، فعسكر قبالة قصر المعتمد بإشبيلية وربض متنمراً كالليث الغاضب.

فلما وقعت الواقعة، ذهب الهوزنيّ إلى دار عبدالله بن أدهم وقال له: لقد نضجت الثمرة اليوم يا سيدى، وأصبح قدوم ابن تاشفين قريباً، بعد أن نزل الأذفونش بطريانة.

ـ كيف ذلك؟

ـ لقد أرسلت فى هذا الصباح حماداً المرينى ليخطب فى العامة، ويثير كوامن غيظهم على المعتمد، وهو شاب ذرب اللسان، يعرف كيف يلهب النفوس، ويلعب بالعقول.

ـ ماذا نفيد من هذه الثورة؟ إنها قد تقوى الأذفونش.

ـ إن الأذفونش ستطول إقامته بطريانة قبل أن يهجم، لأنه سينتظر جيشاً آخر قادماً من طليطلة لم يغادرها بعد، ثم إن هذه الثورة ستدفع المعتمد إلى الاستعانة بابن تاشفين على الرغم منه، لأنه سيصبح بغيضاً إلى العامة فلا يتقدمون لنصرته.

وما كاد يفرغ الهوزنىّ من كلامه، حتى دخل حماد المرينى وآثار الإجهاد والتعب بادية عليه، فقال: إن إشبيلية الآن ثائرة كلها، يستوى فيها الرجل والمرأة، والطفل والشيخ.

فقال الهوزنى: كيف ذلك؟ فقال المرينى: لقد خطبت فى الميدان الكبير وكان الجمع حاشداً يموج كالبحر الزاخر، وما فرغت من خطبتى حتى وقف الناس يخطبون، وصار كل واحد منهم حماداً المرينى.

ـ ماذا قلت لهم؟

ـ عدّدت مثالب ابن عباد: فذكرت إسرافه فى اللهو والمجون، وجنونه بحب النساء والجوارى الأسبانيات، وفتنته بأرماندا وبزوجه الرّميكية التى كانت نكبة على الأندلس جميعها، ثم تبديده أموال الدولة على المتعطلين من الشعراء والمضحكين والمجّان، ومعاقرته الخمر حتى لا يكاد يفيق من سكر، وتبذيره فى بناء القصور، ثم تحقيره الفقهاء والعلماء، وإهمال شهود الجمع ومعاهدته مع الأذفونش التى جرّت الخراب على البلاد، ثم ترك الجيش حتى فقد قوته، والأسطول حتى تعطّن فى الماء، ثم طرح شئون الدولة وراء ظهره وترك زمامها فى يد ابنه الغرّ الجاهل الذى سماه بالرشيد.

ـ مرحى مرحى أبا هاشم!!

ثم ودعهما الهوزنيّ وانصرف إلى القصر، فرأى من فيه يموج بعضهم فى بعض، ورأى المعتمد جالساً مع ابنه الرشيد، ومعهما أبو بكر بن زيدون، فقال له المعتمد: اجلس أبا القاسم . . . إنما تعرف الرجال فى الشدة . . . هل لك فى هذه النازلة رأى؟

فقال الهوزنى: يا مولاى. رأيى أننا نحتاج إلى حليف قوى فى هذه الشدة.

وقال ابن زيدون: يجب أن نكتب إلى جميع ملوك الطوائف ليشاركونا بجيوشهم فى دفع هذا البلاء فإن خطره يشملنا ويشملهم.

عندئذٍ قال الهوزنيّ: إن ملوك الطوائف جميعاً أضعف من الثمام، وهم يخافون الأذفونش ويتقون غضبه، حتى لقد بلغنى أنهم أرسلوا إليها التهنئات والهدايا حينما ملكت جيوشه طليطلة . . . إن ملوك الطوائف لا يصلحون.

فقال المعتمد: من يصلح إذاً؟ فقال الهوزنى: سمعت أن يوسف بن تاشفين رجل ليس له أطماع ألبتة، وأنه مجنون بشىء يسميه الغزو فى سبيل الله، فإذا خدعناه بهذه الفكرة، جاء بجيش من البربر، فتمتع بالغزو الذى يحبه وتتوق إليه نفسه، ثم عاد من حيث أتى، وأعتقد أن ملوك الوطائف إذا وثقوا من انتصاره على الأذفونش ـ وهو أمر محقق ـ تدفقوا على مولاى ملحين فى أن تشترك جيوشهم فى الجهاد.

ثم إنى واثق أن العامة إذا عرفوا أن مولاى يبذل أقصى جهد فى استئصال شأفة الأذفونش ـ تقدموا لنصرته ملبين.

فظهر الاقتناع على وجه المعتمد، وحينئذٍ خرج الرشيد من صمته وقال:

ـ يا مولاى: إن هؤلاء البربر قوم جياع، جاءوا من الصحراء وفيهم الجشع والوحشية، وأخشى أنهم إذا نزلوا بلادنا، ورأوا ما فيها من أسباب الحضارة والنعيم، صعب عليهم مبارحتها فنكون كمن يفر من الذئب، فيقع بين أنياب الأسد.

ورأى أن نصانع الأذفونش وأن نبذل له من الأموال فوق ما يتخيل، حتى يعدل عن عزمه، ويذهب إلى طليطلة، ثم نتخذ من هذه الحادثة عبرة، فنفرغ لتقوية جيوشنا، وننفق كل درهم من أموال الدولة فيما يقوّى أركانها، ويصد عنها أعداءها.

فغضب المعتمد وقال: والله لن أصانع هذا الأذفونش بعد أن أهان أرضى، وأهاننى

رجاله الأدنياء، والله لن يقول قائل بعدى: إن ابن عباد أضاع ملك الأندلس. . . ولأن أرعى الجمال عند ابن تاشفين خير من أن أرعى الخنازير عند الأذفونش.

ثم إنى من أمرى على حالين: حال شك، وحال يقين. ولا بد لى من إحداهما. . . لأننى إذا استندت إلى ابن تاشفين، أو إلى الأذفونش، فمن الجائز أن يفى لى كل منهما بعهده، ومن الجائز ألا يفى. . . فهذه حالة شك.

ولكنى إذا استندت إلى ابن تاشفين، أرضيت الله، وإذا استندت إلى الأذفونش، أسخطت الله، فهذه حالة يقين.

ولأن يغدر بى ابن تاشفين مع رضاء الله، خير من أن يفى لى الأذفونش مع سخطه. أتعلم أبا القاسم أن الطاغية أرسل إلىّ بالأمس رسالة كلها تهكم وسخرية وصلف: أرسل يقول: إنه طال مقامه بشاطىء النهر، فاشتد عليه الحر وكثر الذباب، وطلب الصفيق مراوح تطرد الذباب عنه وعن جنده؟!

فقال الهوزنى: يا للداهية!! بم أجبته يا مولاى؟؟

ـ أجبته بأنى سأرسل إليه مراوح من نوع جديد. . . مراوح من الدرق اللمطية تروِّح منه، ولا تروِّح عليه.

ثم هب واقفاً وقال: أنا ذاهب الآن إلى ابن تاشفين. يا ابن زيدون. . . اكتب إلى ملوك الولايات ليكونوا على استعداد.

ركب المعتمد سفينته، وكان لا يصحبه إلا خادمه سيف، حتى وصل إلى مراكش فطرقها ليلاً، وذهب إلى قصر أمير المسلمين ابن تشافين وطلب مقابلته، فذعر ابن تاشفين وخاف أن يكون قادماً بجيشه. وقد بسط إليه المعتمد ـ ودموعه تتناثر فوق خديه ـ حال الأندلس، وما أصاب الإسلام، وأن الأمر يدعو إلى الجهاد وبذل النفوس فى سبيل الله، وأن الله الذى نصر أمير المسلمين فى جميع غزواته، قد أعد له فى الأندلس النصر المبين، واختاره لحفظ دينه، وإعلاء كلمته.

وافق ابن تاشفين على إرسال جيش للأندلس. وعاد المعتمد إلى إشبيلية فرحاً مسروراً، فاستبشر الناس وهنأ بعضهم بعضاً، وهمس الهوزنىّ فى أذن عبدالله بن أدهم: ألم أنبئك أنى ساعمل على أن يدعو المعتمد ابن تاشفين لدخول الأندلس؟؟

- إن لك سحراً لا تنفع فيه الرقى!! ولكن ابن تاشفين وعد أن يعود إلى بلاده بعد أن يقهر الأذفونش.

- إن وعود السياسة كوعود الحسان. . . قاتل الله المتنبي حين يقول:

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده تصيّده الضرغام فيما تصيدا

الزلاقة

رفرف على شاطىء الأندلس عند الجزيرة الخضراء، مائة شراع يعبث بها النسيم، وتتخايل فوقها الرايات.

وكانت السفن تعج بالمجاهدين من البربر، وعرب زناته، وتزخر بالخيل والجمال، ومعدات القتال: فكان الصهيل فيها يختلط بالهدير، وأصوات المقاتلين تمتزج بصليل السيوف وقعقعة الرماح. والركاب فوقها فى حركة دائبة، وضوضاء صاخبة.

وأبناء الصحراء من البربر يطلون على شاطىء الأندلس فى ذهول وإعجاب، وقد طرزت حواشيه الرياض والمروج وانتثرت فيه الكروم وأشجار التوت والزيتون والتين.

لقد كانوا فى السعير فأقبلوا إلى النعيم، وكانوا فى الجدب المحرق، فأشرفوا على الخصب والعيش الرخيم.

وحينئذٍ التفت سَيرٌ بن أبى بكر ـ أكبر قواد ابن تاشفين ـ إلى القائد داود بن عائشة قائلاً: يا داود. إن هذه البلاد هى الجنة التى كنتم توعدون، وأعجب من فاتح يضع فيها قدمه ثم يستطيع أن يفارقها.

ـ إن الجنة تحف دائماً بالمكاره، ولا تخلو من وسوسة الشياطين. ثم إن ما فى هذه البلاد من الرفه واللهو والجمال، يستلب من الفاتح كل صفات الرجولة والحمية، ويفقده صفات البداوة، حتى يعود أضعف من ذات خمار، ونحن العرب، خلقت أخلاقنا من صخور الصحراء، فلا نعيش إلا فى الصحراء، فإذا خرجنا منها فسدنا، كما يفسد السمك

إذا خرج من الماء . . . أمامك تاريخ العرب كله، فاقرأه ثم أنظر إلى ما هو أمامك من أمر ملوك الأندلس، وتأمل لماذا قدمنا اليوم إلى هنا.

- أنت رجل عميق الغور، ولكنى أخشى أن تكون مخطئاً . . . أتظن أن فاتحاً عظيماً يعزف عن هذا الملك العظيم، وهو فى قبضة يده، لهذه الأوهام والأباطيل؟!

- ليست أوهاماً، وليست أباطيل، وإنما هى الحق . . . خير لنا أن نقيم بصحرائنا أقوياء أشداء، من أن ننغمس فى مدنية كاذبة قصيرة الأمد، تقضى على كل ما فينا من شجاعة ونخوة.

- أتفضل خبز الشعير على الفطائر المغموسة فى الزبد والعسل؟!

- أفضله على الفطائر المسمومة.

وهنا صاح الجند: أمير المسلمين ينزل إلى الشاطىء.

وأقبل ابن تاشفين تحيط به الجنود: وهو رجل فى الثمانين من عمره، ربعة، أميل إلى القصر، نحيف الجسم، أسمر اللون فى وجهه عينان كعينى النسر، وله لحية خفيفة جللها الشيب.

نزل ابن تاشفين إلى الشاطىء فصلى بجميع جيشه، ثم أقبل عليه الرشيد بن المعتمد نائباً عن أبيه، فقبّل يده، ورحب بمقدمه، وقدّم له الهدايا وصنوف المئونة ما يليق بكرم ابن عباد، وفرح أهل الجزيرة الخضراء واستبشروا بقدومه، ورفعوا الرايات، وقدموا للجند من الطعام والتحف ما يستطيعون.

وبعد أيام قدم المعتمد إلى الجزيرة الخضراء فى ثلة من عسكره، فلما قابل ابن تاشفين تعانقا عناق الحبيب للحبيب، وامتزجت دموع السرور منهما بدموع الحب والإشفاق.

وفى هذه الأثناء كانت جيوش ملوك الطوائف تفد على إشبيلية براياتها وقوادها كأنها الأمواج تلتقى على شاطىء المحيط.

ثم تحركت جيوش ابن تاشفين إلى إشبيلية، وأقامت بها قليلاً. ووصل خبر قدوم جيش ابن تاشفين إلى ألفونسو وهو بطليطلة فنادى بالحشد العظيم، وجمع جموعاً كثيفة

العدد من الجلالقة والفرنجة، وعزم على أن يقودها بنفسه.

ولما نظر فرأى جيوشه تسد الأفق، التفت إلى أكبر قواده الكونت الڤيزفانز، وتسميه العرب «البرهانس» وقال: بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء.

وفى صباح اليوم، هب ألفونسو من نومه قلقاً، لأنه رأى رؤيا عجيبة لم يستطع لها تأويلاً، فجمع القساوسة النصارى وأحبار اليهود وقال: رأيت فيما يرى النائم: أنى أركب فيلاً - والفيل ليس فى بلادنا، ولم يخطر ببالى ذكر له قبل نومى - وأن أمامي رجلاً يدق طبلاً. فتحيروا فى تعبير هذه الرؤيا، وقالوا: رأيت خيراً أيها الملك، إن هذه الرؤيا دليل النصر. ولكن ألفونسو لم يثق بهم، وهز رأسه قلقاًمضطرباً. وتسرب أحد اليهود حتى أتى مسجد طليطلة، فقابل الشيخ أبا عبدالله المغامى وقص عليه الرؤيا، ونسبها لنفسه، فقال له الشيخ: كذبت، ما هذه الرؤيا لك، ولن أعبرها إلا إذا صدقتنى.

فقال: إنها رؤيا الأذفونش. فقال الشيخ: الآن صدقت فلن يرى هذه الرؤيا غيره... اذهب بى إليه.

فذهبا إلى ألفونسو، فقال له الشيخ:

أيها الأذفونش! إن هذه الرؤيا تدل على بلاء عظيم، ومصيبة فادحة تقع عليك وعلى عسكرك. وتفسير الفيل من قوله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم فى تضليل﴾، وتفسير الطبل من قوله تعالى: ﴿فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذٍ يومٌ عسير، على الكافرين غير يسير﴾.

فهاج غضب ألفونسو وقال: والله لئن ظهر كذبك يا شيخ لأقطعن جسمك لكلاب الصيد. فابتسم المغامى وقال: وإن صدقت فلن تنالنى يدك! ثم تحركت جيوش ألفونسو، وتحركت جيوش ابن تاشفين حتى وصلت إلى مكان بالقرب من بطليوس يعرف بالزلاقة، وأقام بعسكره بعيداً عن عسكر ابن عباد. وهنا أرسل ابن تاشفين - على عادة الغزاة - كتاباً إلى ألفونسو يدعوه فيه إلى إحدى سبل ثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو القتال. فسخر ألفونسو من الكتاب وبعث يقول لابن تاشفين: إن اليوم يوم الخميس، وغداً الجمعة وهو عيد المسلمين، وبعده السبت وهو عيد اليهود، ثم الأحد وهو عيد النصارى، وأرى أن نلتقى يوم الإثنين.

فقال المعتمد: إنها دسيسة من الطاغية، وأرسل عيونه إلى معسكر الفونسو، فرأوا إسراعاً فى الاستعداد والأهبة، وسمعوا همس الأسبان بأن الهجوم سيتجه أولاً إلى جيش ابن عباد.

وفى هذه الليلة، قام الوعاظ فى الفريقين من المسلمين والقساوسة، يعظون الجنود ويحثونهم على الجهاد والصبر، والاستماتة فى نصرة الحق. وكان ابن عباد يمر بين جيوشه ويقول:

لا بد من فرج قريب   يأتيك بالعجب العجيب
غزو عليك مبارك   سيعود بالفتح القريب
لا بد من يوم يكو   ن له أخاً يوم القليب

وفى صبيحة الجمعة، العاشر من رجب سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، لم يشعر جيش ابن عباد إلا وجموع الفونسو المائجة تطبق عليه، فجالد المسلمون وصبروا عند الصدمة الأولى، ولكن قوة الأسبانيين وكثرة عددهم، كانت فوق طاقة الأندلسيين، ففر كثير من جند ابن عباد، ولكنه كان يقدم إقدام المستبسل المستميت، حتى لقد جرح صدره ويداه، وشدخ رأسه، وعقر تحته ثلاثة أفراس وهو لا يفتأ كارّاً واثباً حتى انكشف بعض أصحابه وفيهم ابنه عبدالله. ثم تحركت فيه عاطفة الأبوة فى هذا المأزق الذى يخب الموت فيه ويضع، فذكر ابناً له صغيراً، تركه عليلاً بإشبيلية، وكان به مغرماً، فقال:

أبا هاشم هشمتنى الشفار   فلله صبرى لذاك الأوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج   فلم تثننى ذكره للفرار

وبينما كان ابن عباد يقاتل جيوش الإسبان، أرسل ابن تاشفين جنوداً إلى معسكر الفونسو، وأمرهم بإحراق كل ما فيه من مئونة وعدة، فملأ لهيبه الجو.

ثم جاءت اللحظة الأخيرة التى وصل فيها ابن عباد إلى اليأس وكاد يلقى السلاح مستسلماً، ولكنه ما كاد يهم بإغماد سيفه، حتى رأى جيوش داود ابن عائشة أحد قواد ابن تاشفين مقبلة عليه، فعاد إليه الأمل، وانضم ببقية من معه إليها.

وأقبل ابن تاشفين بخيله ورجله، وعاد الفارون حينما لمعت لهم بوارق الانتصار وصدق المسلمون الحملة، فشتتوا جيوش الإسبان.

وانكشف ألفونسو، ووثب عليه غلام بربرى يدعى بلاطس، بخنجر، فضربه فقدّ درعه وأصاب فخذه. ففر بنحو خمسمائة من رجاله إلى تل بعيد عن المعركة، بعد أن فنى جيشه، وقتلت أبطاله، ثم رحل إلى طليطلة يجر ذيول الخذلان.

وسجد ابن عباد لله شكراً، وأرسل لابنه الرشيد بأنباء النصر على جناح طائر: وحزّ المنتصرون رءوس القتلى وعملوا من رءوسهم مآذن ينادون من فوقها للصلاة، وقضوا الوقت فى تهليل وتكبير.

ورأى ابن تاشفين جرح ابن عباد فاشتد أسفه، فقال المعتمد:

وقالوا: كفه جرحت. فقلنا: أغاديةٌ تسيل بها الجراح؟!
وما أثر الجراحة ما رأيتم فتوهنها المناصل والرماح
ولكن فاض سيل البأس منها ففيها من مجاريه انسياح

أما الفونسو: فأمضه الحزن، وعضه عار الهزيمة، فلم يمكث بعد الموقعة أياماً حتى مات.

ضيافة

عف ابن تاشفين هو وجيشه عن اقتسام الغنائم، وفاء بعهده للمعتمد، وظهوراً بأنه إنما حارب للجهاد والمثوبة، وأنه لا يريد عرض الحياة الدنيا. ثم دعاه المعتمد إلى الضيافة بإشبيلية، فقبل الدعوة، ورحلا وأعلام النصر تخفق فوق رأسيهما، وكلما مرّا ببلدة أو مدينة، هرع إليهما الناسُ يحيون فيهما البطولة، والعزيمة الصادقة، والصبر عند البأس، حتى إذا بلغا إشبيلية أقبل المهنئون والشعراء وكان ابن وهبون قد أعد للموقف قصيدة طويلة، فلما هم بإلقائها سمع قارئاً فى صدر المجلس يقرأ: «إلا تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين، إذ هما فى الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا»، فلما سمع الآية قال: بعداً لى ولشعرى! والله ما أبقت لى هذه الآية شيئاً.

نزل ابن تاشفين فى ضيافة المعتمد، فرأى من البذخ والترف والنعيم، ومن عظمة القصور وكثرة الحشم والجوارى، وجمال الفراش والأثاث، والإسراف فى الإنفاق - ما أذهله وذهب بلبه.

ثم نظر حول القصر، فرأى نهراً عظيماً تتكسر أمواجه كأنها قطع البلور، والسفن مقبلة فيه مدبرة، تلعب الرياح بشرعها البيض كأنها الحمائم تحوم على مشرع، ورأى إلى ناحية الغرب شرف إشبيلية وقد كثرت فيه الضياع، وحجبت الكروم وأشجار التين والزيتون عن أرضه الشمس.

وكان سير ابن أبى بكر بجانبه، فالتفت إليه وقال:

ـ يا سير! أترى ما نحن فيه من النعيم؟! . . . إن هذه البلاد قطعة من الفردوس، وهذا القصر الذى نحن فيه أحد قصور الجنة. يا سير. . . إن هذه الأموال التى تبعثر بجنون على هذه القصور، وفى هذا الترف الذى تجاوز الحد، لا بد أن تكون مأخوذة من الرعية قسراً واغتصاباً.

ـ إن ابن عباد يا مولاى لا يهتم إلا بنفسه وإشباع شهواته.

ـ أتحبه رعيته يا ابن أبى بكر؟؟

ـ إن الرعيّة تبغضه، وتود لو تستريح من حكمه، وها هى ذى الفرصة سانحة يا مولاى، فمرنى أنقض بجيشى على هذا الخليع، فلن يأخذ منى ثل عرشه المتداعى ساعة من نهار.

ـ ليس الآن يا ابن أبى بكر. . . إن ملوك الأندلس لا يزالون أقوياء بعد هذه النصرة، وبعد أن استراحوا من الأذفنوش. والأمور مرهونة بأوقاتها.

ـ إننى قابلت بالأمس ابن أدهم، قاضى الجماعة بقرطبة، وأبا القاسم الهوزنىّ وهما صديقان وفيان لمولاى أمير المسلمين. فأخذا يحثاننى على الوثوب على ابن عباد، واستئصال ملكه.

ـ نعم إنهما صديقان، ولكن الوقت لم يحن بعد، فاترك ذلك لى يا ابن أبى بكر.

ثم غلبه النوم، فتركه سير يغط غطيطاً.

وكان المعتمد فى هذه اللحظة فى قصره، بين وزرائه وقواده، والسرور يملأ جوانب نفسه، وليس له حديث إلا الفتح والنصر، وما أفاء الله على المسلمين من غنائم. وبينما هو فى الحديث إذ استأذن عليه شيخ مجهول الاسم، رث الهيئة. فلما مثل بين يديه قال: أصلحك الله أيها الملك. . . إن من واجب شكر النعمة لله، إسداء النصح لك: لقد وقع فى أذنى من بعض أصحاب ضيفك ابن تاشفين، خبر يدل على أنهم يرون أنفسهم ويرون ملكهم أحق بهذا الملك منك، أو قد بدا لى رأى، فإن آثرت الإصغاء إليه قلته. فقال المعتمد: قله ولا تخف، فقال الشيخ:

إن هذا الملك الذى أطلته على سر دولتك، طماح مستأثر، وقد حطم ملوك زناته ببرّ

العدوة واغتصب ملكهم، وهو فاعل بك ما فعل بهم، بعدما رأى من عظم الأندلس وخصبها، وبعد أن فتك بجيوش الأذفونش، فأعدمك بإضعافه أقوى ناصر لك عليه، فاتخذ الحذم فيما هو ممكن اليوم.

ـ وما الذى هو ممكن اليوم؟؟

ـ أن تجمع أمرك على القبض على ابن تاشفين واعتقاله، ثم تصارحه بأنك لا تطلقه حتى يأمر كل من بالجزيرة من عسكره أن يرجع من حيث جاء. ثم تتعاهد مع ملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر، والقضاء على كل سفينة له تجرى فيه، ثم تأخذ منه رهائن عزيزة على نفسه، وتستحلفه بأغلظ الأيمان ألا يضمر عوداً إلى هذه الجزيرة. . . حينئذٍ تنظر فى ملكك بعين اليقظة والحزم، ويعظم قدرك وتهابك الملوك. فأطرق المعتمد طويلاً وقد استحسن رأى الرجل، وراق فى نفسه، وحينئذٍ أسرع الهوزنىّ وقال: يا شيخ، ما كان المعتمد على الله ـ وهو الكريم العنصر، والملك الذى اجتمعت فيه كل مكارم العرب ممن يغدر بضيفه. فقال الشيخ: الغدر أن تغتصب حقًّا ليس لك، لا أن تدفع عن نفسك ضرّاً وضيماً.

فقال الهوزنىّ: ضيم مع وفاء، خير من حزم مع جفاء.

ووافق المعتمد على هذه الحكمة الغريبة، التى تأنق الهوزنىّ فى سجعها، فخرج الهوزنىّ وهو يقول:

إحـدى لياليك فهيسـى هيسى   لا تنعمـى الليلـة بالتعريس!

أفول

رحل ابن تاشفين إلى مراكش وترك بالأندلس جنوده وقواده، وعاد المعتمد إلى ما كان فيه من اللهو والعبث، وقضى أكثر من سنتين فى بلهنية عيش وانغماس فى النعيم.

وعادت أرماندا إلى ما كان لها من الحظوة، وعادت الرميكية إلى بذخها وإسرافها. وتمدد ذات صباح على كرسيه فى حديقة قصره، وجاريته لونا (قمر) تحجب عنه الشمس، وهو يقرأ فى شعر ابن أبى ربيعة، والمغنية تنشده من شعره:

قامت لتحجب قرص الشمس قامتها ... عن ناظرى - حجبت عن ناظر الغِيَر -
علماً لعمرك منها أنها قمر ... هل تحجب الشمس إلا غرة القمر؟!

ودخل الهوزنىّ، فملأ الجو أنساً بحسن حديثه، والأمير مغروراً بأساليب ملقه وكثرة إطرائه، وقلبه فى أثناء ذلك يتحرّق سخطاً على المعتمد، ويتلهّب شوقاً إلى زوال دولته.

ثم رأى عنقوداً يتدلى من كرم، فذهب لقطفه، فلحقت به أرماندا لأخذه، متكلفة شدة الرغبة فى اختطافه منه، فهمس فى أذنها: ما هذا يا أرماندا؟ ماذا فعلت بابن عباد؟ فقالت: تركته كما تراه فى حلم دائم من النعيم والنسيان، لا يستطيع أن يدفع عدوّاً، أو يصطنع صديقاً. فقال الهوزنىّ: كيف فعلت هذا؟ قالت: لا أدرى غير أنهم يقولون فى قشتالة: إن المرأة شرك الشيطان.

وعندئذٍ دخل على المعتمد أخوه ذخر الدولة، وهو مكفهر الوجه متشائم، فقال:

- يا مولاى. إنى رأيت فى منامى بالأمس: كأن رجلا صعد فوق منبر قرطبة، واستقبل الناس، وأخذ ينشدهم:

ربّ ركب قد أناخــوا عيسهم   فى ذرا مجدهــم حين بَسَقْ
ســكت الدهــر زمانــاً عنهم   ثم أبكاهــم دمــاً حين نطق

فصاح الهوزنىّ مقهقهاً: أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

ثم استأذن وانصرف، فلقى فى الطريق سير بن أبى بكر، فمال به إلى ناحية، وأخذ يلح عليه، ويحثه على الوثوب على المعتمد، ويذلل له كل صعب، ويسد عليه كل باب. فقال له سير: وماذا أصنع وأمير المسلمين ينصح بالانتظار؟

- اكتب إليه ما أمليه عليك.

- أكتب أنت، فما أنا بكاتب.

فكتب الهوزنىّ كتاباً عن لسانه لابن تاشفين، يشكو منه من ملوك الأندلس جميعـاً ويقول: إنهم منصرفون إلى لذاتهم، وقد تركوه يقاسى الشدائد هو وجنـده من غير أن يمـدوه بمال أو رجال، وإنه يخشى أن ينقلب هؤلاء الملوك عليهم بالإستعانة بالإسبان. بعث سيرٌ الرسالة إلى ابن تاشفين، فأمره ابن تاشفين أن يحارب ملوك الأنـدلس واحـداً واحداً، وأن يجعل آخر غزوه لابن عباد.

فأسرع ابن أبى بكر إلى إنفاذ أمر سيده، واستولى على ولايات ملوك الطوائف. ثم حاصر إشبيلية ووصل خبر حصارهـا إلـى المعتمـد وهـو بين جواريه وندمائـه فذعـر من بالقصر، وولول النساء والجوارى، وخرج المعتمد وعليه غلالة شفّافة، فامتطى صهـوة جواده، واستل سيفه فى يده، وصاح فى حرس قصره: اقتلوا البربر الغادرين.

وكان البربر قد دخلوا المدينة من باب الفرج، فصال فيهم بسيفه فتقهقروا، حتى إذا ذهبوا بعيداً عاد المعتمد، فرأى ابنه ملكاً مقتولاً عند باب الصبّاغين، فحمله بعض الحراس وهو ينتحب خلفه.

وكان الناس قد شملهم الذعر وخامرهم الجزع، فكانوا يثبون فى النهر، ويقذفون بأنفسهم من شرفات الأسوار.

فلما كان العشرون من رجب، سنة أربع وثمانين وأربعمائة، اقتحم جند «سير» القصر، وقبضوا بالأيدي على المعتمد، فطلب الأمان لنفسه وأهله فأمن، وكان يبكى وينشد:

إن يسلب القوم العدا	ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه	لم تسلم القلب الضلوعُ
لم أستلب شرف الطبا	ع. أيسلب الشرف الرفيع؟
شيم الألى أنا منهم	والأصل تتبعه الفروع

ثم قيده أعداؤه بالأغلال، وأعدوا له ولأولاده وأهله السفن للرحيل إلى طنجة.

فاجتازت السفن شاطىء إشبيلية، والجموع المتراكمة عليه من الرجال والنساء والأطفال، تبكى وتنوح.

وكان فى مكان بعيد من الشاطىء رجلان، ينظران إلى السفن فى شماتة وجذل، هما: عبدالله بن ادهم، وأبو القاسم الهوزنىّ.

وكان أبو القاسم يردد:

أين ابن معن وعبّاد ومعتصم	وأين باديس، بل أين ابن ذى النون؟!
كانت لهم فى هضاب العز أبنية	فأصبحوا بين مقبور ومسجون!!

أسر

سارت السفن بابن عباد وأسرته وهم فى غم ونواح : ملك زال كأنه ضحوة من نهار، وعز طار كأنه حلم نائم، وسطوة وسلطان حلّ مكانهم الذل والإسار، فكان المعتمد دائماً مطرقاً مفكراً، وكان ينظر إلى قيده ويقول:

قيدى، أما تعلمنى مسلماً؟ أبيت أن تشفق أو ترحما!
يبصرنى فيك أبو هاشم فينثنى القلب وقد هُشِّما

ولما بلغت السفن طنجة، رأى المعتمد جماعة بالبادية يستسقون لقلة المطر، وشدة الجفاف، فقال:

خرجوا ليستسقوا فقلت لهم : خذوا دمعى ينوب لكم عن الأنواء
قالوا: حقيق فى دموعك مقنع لكنها ممزوجة بدماء!

ثم نقل إلى أغمات، وأودع السجن فقال:

غريب بأرض المغربين أسير سيبكى عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا وينهل دمع بينهن غزير

وكانت بناته يعشن فى السجن من غزل أيديهن فى فقر وكفاف عيش، فحل أول عيد له بالأسر، فدخلن عليه فى أطمار بالية، وقد غيرهن البؤس، وأنحلهن السغب، فلما رآهن قال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً	فساءك العيد فى «أغمات» مأسوراً
ترى بناتك فى الأطمار جائعة	يغزلن للناس، لا يملكن قطميراً
يطأن فى الطين والأقدام حافية	كأنها لم تطأ مسكاً وكافوراً!

ورأى من نافذة السجن، سرباً من القطا، يطير حرّاً طليقاً، فهاج وجده وأنشده:

بكيت إلى سرب القطا أن مررن بى	سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
هنيئاً لها أن لم يفرق جمعها	ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهل
ألا عصم الله القطا فى فراخها	فإن فراخى خانها الماء والظل

وقتل المرابطون ابنه المأمون بقرطبة، وابنه الراضى برندة، فزاد جزعه واشتد حزنه، فقال:

يا غيم عينى أقوى منك تهتانا	أبكى لحزن وما حملت أحزانا
بكيت «فتحا» فإن ناديت سلوته	بدا «يزيد» فزاد القلب نيرانا
يا فلذتى كبد يأبى تقطعها	عن وجدها بكما ما عشت سلوانا

ولم يزل فى أنين وحنين، يرسل الزفرات ويطوى صدره على اليأس، حتى أدركته منيته سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

ومن العجب أن هذا الملك الذى سار فى الخافقين ذكره، وهز أعطاف الزمان شعره، وكان اسمه على كل لسان، والثناء عليه يجلجل فى كل مكان - ينادى للصلاة عليه بعد موته فيقال: الصلاة على الغريب!!

إن من الغريب أن يكون ابن عبّاد غريباً!!

وبعد أيام من موته، قدم إلى «أغمات» شاعره أبو بكر ابن عبد الصمد، وكان اليوم يوم عيد، فوقف على قبره خاشعاً باكياً.

وحشد الناس حول القبر يبكون وينتحبون، ثم سكن الجمع، وأخذ ابن عبد الصمد ينشد:

ملك الملوك أسامع فأنادى	أم قد عدتك عن السماع عوادى؟!

وقرأ قارىء بصوت ندىٍّ، شجىّ النبرات:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.



هاتف من الأندلس

مارس ١٩٤٩

١

في يوم من أيام الربيع رقّت فيه أنفاس النسيم، وجمّلت أفقةَ أضواءُ الأصيل، ظهرت قرطبة عروس المدائن وأم قرى الأندلس، وحولها البساتين والخمائل، تحيط بها أشعة الشمس الذهبية فتبدو كأنها صورة في إطار من ذهب، وقد انحدر تحت قدميها الوادي الكبير نقيّاً صافياً كأنّه خالص اللّجين، وجرت به السفن ترِفّ قلاعها البيض كما ترفّ الحمائم رأت ماء وخضرة فحنّت إلى الورود. وانطلق الملاّحون ينغّمون أهازيج لهم، فيها حب، وفيها أمل، وفيها مجد وبطولة، فسرت ألحانهم مع هبّات النسيم ناعمة مطربة، وتوثّبت كلّ موجة عليها تقتنص منها لحناً. وامتدّ فوق النهر الجسر العظيم الذى أمر ببنائه عمر بن عبد العزيز ضخماً تيّاهاً يباهي بأقواسه السبع عشرة ما بناه الأولون، ويتحدّى أن يكون له مَثَل في الآخرين.

هذه قرطبة في سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة، وفي حكم أبي الحزم ابن جَهْوَر، انطلقت قبابها في السماء شامخة معجبَة على الرغم مما لاقت من الويلات والفتن والحروب وضروب التخريب والتدمير.

هذه قرطبة التي كانت أيام الناصر لدين الله بهجة الدنيا وقبلة الأمم، وملتقى الشرق والغرب، وشعلة النور التي تعشو إلى ضيائها الأبصار، وتفد إليها طلاب العلم من أقاصي الأرض، لعلهم يأتون منها بقبَس أو يجدون على النار هدى، والتي لا تزال إلى اليوم تحتفظ بآثار مجدها القديم، وشرفها الصميم.

هذه قرطبة في سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة، تراها فترى صفحة عجزت الخطوب

عن محو سطورها، ودوحة لم تعبّث الأعاصير إلا ببعض غصونها، وأملاً ضاحكاً لم تبكه عوابسُ الليالي، وصوتاً مجلجلاً لم تُخفته رعود الأحداث الجسام. إنها لا تزال تروعك بجمال باهر وقوة كامنة لم تزعزعها الدهاريرا إنها الحسناء الفاتنة وخطها الشيب فأضاف إلى حسنها وقاراً، والحلية النادرة زادها قِدَم العهد ثمانة وغلاء. تزدان بالقصور السامقة، والمساجد الفسيحة، ومعاهد العلم الزاخرة بالطلاب، والأسواق العامرة والتجارات الرابحة، وحولها من الأرباض ما يجاوز العشرين عدّاً، بكل ربَض ما يقوم بأهله حتى لكأنه مدينة قائمة بذاتها. أما الحدائق والمروج التي تحيط بها فلن تجد لها فيما سجله التاريخ في ألواحه مثيلاً. وكان القرطبيون يسمون هذه الحدائق بالمُنى: فهناك مُنية الرصافة، ومنية الزُّبير، والمنية المصحفية، ومنية عَجَب. وكانت هذه المنى ملاعب لهو الأندلسيين ومسرح صباباتهم، فلقد كانت قرطبة مدينة العلم والزهد والتصوف، كما كانت مدينة اللهو والعبث والمجون. وكان لشبابها جولات أساموا فيها سرح اللهو. واستناموا إلى النعيم، وأطلقوا العنان للذات، حتى ليقول شاعرهم:

لا تنم واغتنم ملـذّةَ يومٍ إنّ تحت التراب نوماً طويلاً

ولقد لُدغوا مرات من جراء هذا العبث والتغالي في حبّ الحياة، فما أغنتهم النذُر، وما حاكت فيهم العبر والمُثلات، إلى أن جرّهم حبّ الحياة إلى الموت الذى لا صحوة بعده!

كانت الشمس على وشك الغروب، وكانت المدينة تتطلعُ لاستقبال الليل وما يحمله إليها من لهو ومرح وبهجة، حينما كان فتى يجلس في إحدى حُجُرات داره، وفي يده قلم يخطُّ به كلمات يُثبتها حيناً، ويشطب فوقها حيناً، ثم يقف مفكراً حيناً، وعيناه ذاهلتان في السقف وفي أرجاء الحجرة، كأنه يتلقف الخيال الطائر، أو يستهوي الوحي الجائر، أو يخشى أن ينزلق قلمه بكلمة تاباها الحيْطة، ولا يرضاها الحذر. ذلك الفتى هو أحمد أبو الوليد بن زيدون أديب الأندلس وشاعرها، وهو شاب مؤتَلِقُ الشباب، ناضر العود، معتدل القامة، وسيم الوجه، عربي الملامح والشمائل. حاجبان إذا اقتربا عرفت فيهما التصميم والعناد وقوة الشكيمة، وعينان فيهما ذهول الشاعريّة وبعد مدَى الخيال، وأنف أشمُّ يدلّ على الكبرياء والثقة بالنفس، وفم مُفوّه خُلق ليكون خطيباً!

وابن زيدون من بيت علم وأدب وثراء ونعمة، كان أبوه من كبار قضاة قرطبة، رفيع

المنزلة عزيز الجانب، فنشأ الفتى كما ينشأ أبناء المترَفين ناعم العيش مدلَّلاً، يتقلب في جنبات النعيم، ولكن ميوله الفطرية، ومواهبة الموروثة، كانت تختطف من فراغه ساعات لدراسة الأدب وفنون اللغة، فاطَّلع على مكنونها، وظفَر بذخائرها، وخرج منها وافر النصيب ضليعاً متمكناً. والعبقرية تكفيها النظرة، وتُجزئها الإلمامة لتحصل في قليل على ما تنفق فيه الأعمار، وتشيب دون نيله النواصي.

كان ابن زيدون ينظم أبياتاً يجيب بها عائشة بنت غالب التي دعته إلى ندوتها مع ثُلَّة من الشعراء والأدباء، وكان كثير التحرّز، يُثبت ويمحو، ويختار كلّ لفظ قبل أن يُجري به قلمه، فكتب بعد تردد:

أجِلْ عينيكَ في أسطار كُتْبي تجد دمعي مِزاجاً للمداد

وبينما كان يهم بكتابة البيت الثاني، إذ دخل خادمه عليّ الباجي يؤذنه بقدوم أبي مروان بن حيان مع شاب في زِيّ المشارقة. وكان ابن حيان مؤرخ الأندلس شيخاً باقعة[1] عنيف النقد سليط اللسان، لا يكاد يترك أديماً صحيحاً، فلم يسلم أحد ترجم له في تاريخه من غمزة تقضي على محْاسنه، وتذهب بمآثره، لا يستثنى من ذلك ملكاً جباراً، ولا ثريًّا عريض الجاه، ولا عالماً بعيد الشهرة، فهابه العظماء، وخافه الأمراء، وتقرّب إليه بالوُد الشعراء والأدباء. وكان يحمل في كمِّه كراسة لا تفارقه في ليله ونهاره، وكلما شاهد حادثة، أو نما إليه خبر، أو وقعت واقعة أسرع فدوّن فيها ما رأى أو سمع مصحوباً برأيه وما توحي به إليه نفسه.

كان صديقاً لابن زيدون حميماً، ولكنه كان شديد النقد له، قاسياً في نصحه، حريصاً على أن يجنبه مزالق الشباب.

دخل ابن حيان على ابن زيدون فلما رأى حوله الأوراق والدواة صاح في دُعابة قاسية:

ـ وهكذا يا أبا الوليد لا تفتأ بين أوراق وأقلام! وأشهد أنك لا تخط فيها إلا ما يُمليه الفراغ والشباب. ويلي من أدباء قرطبة ويلي! كأن الشيطان اشترى أقلامهم فما تكتب إلا عبثاً ومجوناً! فاتجه ابن زيدون إلى الشاب المشرقي وقال في مزح يشبه الجدّ: ألا تعجب

(١) ذكياً.

لهذا الشيخ الذي يقتحم داري، ويتجافى عن تحيتي، ثم يبدأني بالسخرية والتقريع؟

والتفت إلى ابن حيان فقال:

ـ اجلس يا أخي واهدأ فقد كاد يذهب بأنفاسك طول الطريق، ثم عرّفني بهذا السيد حتى أقوم له بحق الكرامة. فقهقه ابن حيان وقال:

ـ على أن نعرف ما كنت تكتب!

ـ قبلت شريطتك.

ـ هذا يا أخي أبو الفضل محمد الدارميّ، قدم إلينا من بغداد تحفزه رغبة بعيدة المنال، ويحدوه أمل في جمع كلمة العرب بعد أن فرّقتهم النوازل والأضغان. فتهلّل وجه ابن زيدون وصاح:

ـ هذه أمنيتي يا سيدي! فإني أعتقد أن العرب لن تعود إليهم قوّتهم إلا إذا اتحدت رايتهم، واتفقت كلمتهم، وكانوا بنياناً مرصوصاً لا مطمع فيه لعدو. فزفر ابن حيان ثم قال:

ـ وأين الثريا من يد المتناول؟ فأسرع ابن زيدون يقول:

ـ لا تيأس يا شيخ من رَوْح الله! وهنا قال الدرامي:

ـ لقد تنقّلت في إفريقية، وحادثت أمراءها، ثم بلغت الأندلس منذ عام، وقابلت ابن عباد صاحب إشبيلية، وابن ذو النون أمير طُلَيْطلة، وابن صمادح زعيم بَطَلْيوَسْ ورأيت منهم ميلاً إلى لمّ الشمل وجمع الكلمة. فهز ابن حيان رأسه في تهكم وسخرية وقال:

ـ بشرط أن يكون كل أمير منهم هو الرئيس الأكبر! فعجل ابن زيدون وقال:

ـ اتق الله يا حُطَيْئة التاريخ!

ـ لو وجدت خيراً ما كتمته.

ـ إن لك عيناً لا ترى إلاّ الشرّ.

ـ لا والله! ولكني لا أكتم الحق ولو طاح فيه رأسي.

ـ ما رأيك فى ابن جهور عميد الجماعة؟ قل وكن شجاعاً. فتردّد أبو مروان قليلاً ثم قال:

ـ إنى أقولها فى وجهه يا فتى، ولو كنت أهاب السيف ما حملتْ كفى قلماً. إن ابن جهور خير من ساس هذه الدولة بعد أن تمزّقت أوصالها، ورثّت حبالها، وهو من أشد الناس تواضعاً وعفة، وأشبههم ظاهراً بباطن، وأولاً بآخر، لولا أنه يحوط ماله بالبخل الشديد، ويُغلق باب خزائنه فى وجوه السائلين. فقهقه ابن زيدون وقال:

ـ لم يسلم الرجل من لدغة الثعبان! وعجِل أبو مروان يقول:

ـ أىُّ ثعبان يا فتى؟ لقد أطريتُ الرجل، وكفى المرء نبلاً أن تَعدّ معايبه. فزفر الدارمى فى أسف قائلاً:

ـ لقد زرته فرأيته على سجاحة[1] خلقه وحرصه على سلامة رعيته، شديد العداء لمن جاوره من الأمراء، كثير الزراية بهم. وهذا هو الداء العُقام الذى أصاب هذه الأمة فهدّ أركانها، وزعزع بنيانها، ولن يعود للعرب مجدهم إلاّ إذا عادت لهم أخلاقهم الأولى، وكانوا ـ كما جاء فى الأثر الشريف ـ في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. فهزّ ابن حيان رأسه وقال:

ـ ما رأيت دستوراً للمسلمين أجمع ولا أوجز من قول النبي الكريم: المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

إن التحاسد والتنافس والاعتصام بالأجنبى والتكالب على الحكم والغلبَ، كل أولئك كان شرّه مستطيراً. فقال الدارمى:

ـ عندنا في المشرق استعان المعتصم بالأتراك، ومكنَّهم من رقاب العرب، فكانوا حرباً عليه وعلى خلفائه من بعده، وأصبحت الخلافة في أيديهم لُعبة لاعب، يولّون من يشاءون، ويعزلون من يشاءون، فقاطعه ابن حيان قائلاً:

ـ أمَّا في الأندلس فالمصيبة أشدُّ وأنكى، فإن الدولة منذ سنة أربعمائة ـ وهي سنة الفتنة الكبرى ـ تتقاسمها ذئاب ضارية: من مضرية ويمنية وصقالبة وبربر وإفرنجة، فما كادت تنتهي الدولة العامرية حتى نعبت غِربان الشرّ من كل جانب، وعاثت شياطين الدمار، واندلعت نيران الفتنةّ فلم تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. ويبدأ عهد

---

(١) سهولة وليونة.

الخذلان ـ والعياذ بالله ـ من ولاية سليمان بن الحكم الذى لقبُّوه بالمستعين بالله، وكانت أيامه شداداً نكدات، صعاباً مشئومات، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى والخاتمة، دولة كفاها ذمّاً أن أنشأها «شانجة» ومزّقتها الإفرنجة!

وكان من نحس رأيه، واختبال عقله، أن اختار عليّ بن حمُّود ليكون أكبر قواده، وأقوى مناصريه. اختار بازياً فاصطاده، وسيفاً فحزّ أوداجه. وإذا أراد الله شيئاً أمضاه!
ثم اتجه إلى ابن زيدون وقال فى تهكم:

ـ لقد كان شاعراً مثلك يا أبا الوليد، فاحذر فإن الشعر كثيراً ما يكون شؤماً على قائليه، وإني أستطيع أن أعُدّ لك مئات ممن قتلتهم أشعارهم. فقال الدارمي:

ـ لست أحفظ له إلا قوله:

عجباً يهاب الليث حدَّ سنانى ... وأهابُ لحظَ فواتر الأجفان!
وتملّكت نفسى ثلاث كالدُّمى ... زُهْرُ الوجوه نواعم الأبدان
هذى الهلال، وتلك بنت المشترى ... حسناً، وهذى أختُ غصن البان

فقال ابن حيان: يزعمون أنه يعارض بهذه الأبيات أبياتاً للرشيد يقول فيها:

ملك الثلاثُ الآنسات عِنانى ... وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البريَّة كلها ... وأطيعهن وهنّ فى عصيانى
ما ذاك إلاّ أن سلطان الهوى ... وبه قَوِين، أعزُّ من سلطانى

فقال ابن زيدون:

ـ هذا من وضع الرواة فإن الرشيد لم يكن شاعراً. فوافق أبو مروان بإشارة برأسه، واتجه إليه الدارمى سائلاً:

ـ وماذا جرى على قرطبة بعد قتل المستعين؟

ـ تولى الحكم أبناءُ حمُّود سبع سنين فكانت كسنى يوسف. ثم تولى المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام، ولم يبق في الملك إلا سبعة وأربعين يوماً لم تنتشر له فيها طاعة، ولا التأمت جماعة. وهنا أسرع ابن زيدون وقال:

ـ هذا كان شاعراً بحق يا أبا مروان.

ـ ما لنا وللشعر يا فتى، إننا أحوج إلى العقل والسياسة منا إلى خيال رائع أو تشبيه نادر، لقد كان ابن المعتز في المشرق أبدع شاعر منذ أن تنفس الشعر بقافية، فهل أغنى عنه شعره شيئاً؟

ـ فانبرى الدارمي يقول:

ـ ولقد وصلتْ إلينا ببغداد قصيدة للمستظهر بالله من أرقّ الشعر وأروعه. قالها بعد أن خطب ابنة عمه فلوته أمُّها وحجبتها عنه، يقول فيها:

وجالبــة عذراً لتصــرف رغبتى	وتأبـى المعالـى أن تُجيزَ لهـا عذراً
يُكلفهــا الأهلــون ردى جهالةً	وهل حَسَنٌ بالشمس أن تمنع البدرا؟
ومـاذا علــى أمِّ الحبيبــة إذ رأت	جلالة قدرى، أن أكون لها صهرا؟
جعلــت لهــا شرطــاً علــىَّ تعبُّدى	وسقت إليها فى الهوى مهجتى مهرا
تعلَّقتُهــا من عبــد شمس غريرة	مُحــدرة من صيد آبائهــا عزّا
حمامــةً عش العبْشــميين رفرفت	فطــرتُ إليهــا من سَراتهـم صقرا
وإنى لأوْلـى النـاس مِنْ قومهـا بها	وأنْبهُــم ذكراً وأرفعُهــم قدراً
جمــالٌ وآداب وخلــق موطأ	ولفظ إذا ما شئتَ أسمعك السحرا

فقال ابن زيدون:

ـ هذا هو الشعر! وددت الله لو كان لى بعضه بنصف شعرى! فقال أبو مروان:

ـ النصف الرديء أم النصف الجيد؟

ـ ليس فى شعرى رديء يا علقمة بن مرة، وخير لك أن تأخذ في تاريخك الأسود الذى لا تتقن سواه. فقهقه ابن حيان وقال:

ـ هؤلاء هم غلمان بنى أمية الأغرار الذين كنت تخطب الناس فى ميدان الجامع الكبير داعياً إليهم، معدِّداً مناقبهم، وكثيراً ما ضحكت منك فى كُـمىَّ، وأنـت تبـكى أو تتباكى على مجدهم التليد، وشرفهم العريق. وإنى أشهد، والله يشهد أنك لا تبتغى من وراء ذلك إلا منصباً وجاهاً. فقال ابن زيدون غاضباً:

ـ كنت أدعو لابن المرتَضَى الأموى.

ـ أعرف، ، واعرف أنه فرّ من قرطبة قبل أن تتم له دعوة، وأنك لم تنل شيئاً إلا أن ملأت الصدور عليك حقداً.

ثم طفق يقول: لا تغضب يا أخى، فإنى أكنّ لك من الحب وصادق الوُد ما أنت به عليم، ولكن ماذا أصنع وقد خلقني الله جافّاً شائكاً لا أضع فوق الحق ستاراً من الباطل. فقال الدارمى:

ـ وهذا خير ما فيك يا أبا مروان. وكيف استقر الأمر بقرطبة بعد قتل المستظهر؟

ـ لم يستقر لها امر، جاء المستكفى بالله ولم يكن من الحكم فى ورْد ولا صدر، وإنما أرسله الله على قرطبة محنة وبليّة، وفي أيامه هدم البربر بقية قصور جدّه الناصر، فطُوى بخرابها بساط الدنيا، وذهبت بهجة الأيام، والله يسلط جنوده على من يشاء، له العزة والجبروت! ولما اشتدّ الكرب بالقرطبيين فرّ المستكفى، وانتهت الرياسة بعد حين إلى أبى الحزم ابن جهور عميد الجماعة. فقال الدارمى:

ـ المستكفى هذا أبو ولادة الأديبة الشاعرة؟

ـ نعم. وهى والحمد لله لم تُرزأ بصفة من صفات ابيها. ثم التفت إلى ابن زيدون سائلاً:

ـ اتحضُر ندوتها يا أبا الوليد؟ فمدّ ابن زيدون شفته السفلى فى اسفر وقال:

ـ أنّى لمثلى أن ينال هذا الشرف؟ إن ندوتها يا سيدى لا تُفتح ابوابها لمثلى. ، اتعرف يا أبا مروان أننى لا أزال كاتباً في الديوان صغير المنزلة أنظر فى شئون أهل الذمة؟!

ـ كيف يا ابن أخى؟ لقد كنت عند ابن جهور منذ أيام، وجاء ذكرك فى المجلس، فأثنى عليك وأشاد بذكائك وعبقريتك.

ـ ولكنه امامى يا سيدى باب مبهم، ولغز مغلق، انظر فى وجهه فارى صفحة خلت من لمحات العواطف، فأنت لا تعرف أراض هو أم ساخط؟ أمستحسن هو ام مستقبح؟ قدّمت إليه بالأمس رسالة أراد أن يبعث بها إلى أمير بطليوس، وبذلت فى كتابتها جهداً، وبلغت قمّة لم يصل إليها كاتب، فلما عرضتها عليه وقرأها، لم يزد على أن قال: لقد أطنبت يا فتى! ثم انصرف عنى يخاطب الوزير محمد بن عباس، كأن إنساناً من بنى ادم لم يكن له وجود بحجرته!

ـ إن الرجل يخافك يا أبا الوليد.

ـ يخافني؟!

ـ نعم فلقد لمحت ذلك من حديثي معه حين شبهك بأبي الطيب المتنبي، والرجل داهية بعيد الغور، فإنه لم يشبهك بهذا الشاعر بعينه إلا لما وصل إلى علمه من طموحك وبعد غايتك، فاحذر يا أبا الوليد وتجنب مواطن الشبهات، واحبس لسانك ما استطعت. فصاح ابن زيدون فيما يشبه الغضب:

ـ يجب أن يكون لمثلي آمال ومطامح، وإلا فلمن خُلقت خطيرات الأمور؟

ـ مرحًى مرحًى؛ إني لأجد ريح الشرّ والفتنة.

ـ لا شرّ ولا فتنة يا أبا مروان، ولكن لا بد للمصدور أن ينفُث(1)، وللأسير أن يتمرد على القيد.

ـ لا تعجَل أبا الويد فالأمور مرهونة بأوقاتها، ولا بد بعد الليلة الليلاء من فجر باسم. كيف حالك مع الوزير ابن عبدوس!

ـ إنه صديق مُداج وعدوّ محاذر.

ـ حقّاً لقد جمعته في كلمة. وهنا تهيأ الدرامي للقيام فصاح به ابن حيَّان: يجب أن نعرف قبل أن نقوم من مقامنا ماذا كان يكتب هذا الفتى العربيد. فقال ابن زيدون:

ـ كنت أكتب أبياتاً لعائشة بنت غالب وقد جئتما قبل أن أتمَّها، وربما مزقتها وعدلت عن إرسالها. فأمال ابن حيَّان رأسه إلى الخلف، ورفع حاجبيه في سهوم وقال:

ـ عائشة بنت غالب؟! إنها فتاة مهذبة، يحضُر ندوتها كبراء المدينة وأدباؤها، ولكنها شؤم على الرجال، فاحذر من براثنها يا أخي، فإنها إذا نَشِبَتْ قتلت. ثم إن بعض قالة السوء يهمسون بأنها جاسوسة لابن الأذفونش، ولكني لا أثق بكل ما يقال، لأن الكلام صدًى لما في النفوس من حب وبغض. ثم مدّ يده إلى ابن زيدون وهو يقول: عم مساء يا صريع الغواني، وابتعد ما استعطت عن شباكهن، وكن كما تقول:

وإنـي لتنهانـي نُهـاي عَن التي أشـاد بهـا الواشـي، ويعقلنـي عقلي

---

(1) معناها أن يرمي بنفاثه وهي ما يلقيه المصدور من فيه.

٢

يمتدّ «طريق الخلفاء» على شاطىء الوادى الكبير بالجهة الجنوبية من قرطبة، وهو طريق طويل عظيم الاتساع، قامت على جانبيه الأشجار، واتّسقت به دور الأمراء والوزراء والعظماء وكبار رجال الدولة، فبدت ضخمة سامقة، وغُرست أمامها الحدائق مبتسمة ناضرة فيّاحة تُزْهَى بما حوت من أزهار غريبة النوع رائعة الألوان.

وكان بين هذه الدور دار يدل مظهرها على مجد قديم كادت تعبّث به يد البلى، وعزّ سالف داعبته عوادى الأيام. دار ينطق كل حجر فيها بأنه شهد عظمة وسلطاناً، وشهد جنداً وأعواناً، وشهد وفود الأرض جاثية على عتبتها بين يأس ورجاء، وفى استخذاء وذلة. ولكن هذا الحجر يكمُن اليوم في جداره باسر[1] الوجه مستكيناً، وقد عبثت به الأنواء، ونالت منه عواصف الرياح. والهَرَم يدرك كل شىء حتى البناء. والدور كالبلاد والعباد يصانعها السعد ويسطو عليها الشقاء. بنى هذه الدار الناصر لدين الله أعظم خلفاء الأندلس، فتوارثها أبناؤه إلى أن انتهت إلى محمد بن عبد الرحمن الملقب بالمستكفى بالله، فلو كانت كتاباً لضمَّت دَفّتاه ما دار على الأندلس فى هذه الفترة من خير وشر، ونعيم وبلاء.

كانت الشمس لا تزال تتثاءب فى خدرها بعد ضجعة ليل طويل، وكانت أشعتها تتكسَّر على صفحة النهر الكبير كأنها كانت تُقبّله قبلة الصباح، وكان الطريق هادئاً خالياً من

---

(١) مقطب الوجه.

السابلة إلا قليلاً، فلم تكن تسمع به إلا أصواتَ الملاحين من بعيد، وهم منحدرون إلى إشبيلية، أو صوت خادم طروب هزَّتها الأريحيَّة وهي تنظف بعض الحُجَر، فانطلقت في نَغم خافت تعيد الأغنية التي سمعتها بالأمس من بعض القيان اللاتى كن يغنين لسيدها فى مجلس أنسه وشرابه. ومجالس الأنس والشراب بقرطبة لا تكاد تخلو منها ليلة فى بيت عظيم أو أمير. إن الأندلسيين خُلقوا للطرب، وعاشوا على الطرب، ولو فجأهم الموت ما لَقِيهم إلا بين زِقّ وعود.

تيقظت ولادة بنت المستكفى فى هذا الصباح كما يتفتح الزهر الوسنان بِلَله الندى، وداعب أوراقه النسيم، فأسرعت إليها وصيفتها مهجة القرطبية تحيِّيها وتدلّلها فى محبة وشغف، كما تدلّل الأم طفلتها اللعوب.

وكانت ولادة فى الثامنة عشرة، رائعة الطلعة، فاتنة مباهر الحسن. وجه لم تُشرق الشمس على أنضر منه ولا أصبح، وقسمات تأنَّق فى صنعها الجمال، وقوام لو أدرك عهده الإغريق لجعلوا منه تمثالاً لكل ما يتخيّلونه من رشاقة ولدانة[1] واتساق خَلْق. وكان أجمل ما فيها تلك النظرات الساحرة التى تنفُذ إلى كل قلب، وذلك الشمم العَبشمى الذى تراه فتحبه وتهابه، والذي يوحى إليك أن الجمال معنى من المعاني التي يعجِز البيان عن وصفها ببيان.

وولادة ـ إلى كل هذا ـ أديبة شاعرة، يغشَى ندوتها كبار الأدباء والشعراء فيرون أجمَل ما يُرى، ويسمعون أحسن ما يُسمع.

قامت ولادة من سريرها فنالت ما تحب من طعام، وبعد لأى همَّت بارتداء ثيابها، فأعدّت لها مهجة ثوباً من الحرير البنفسجي الموشّى بالذهب، أتقن نسجه، وأحكم تفصيله، فوقفت أمام مرآتها، وقد لاح فى وجهها شيء من الدهشّ. كأنها كانت تبحث لها عن مثيلة بقرطبة فوجدتها فى المرآة! وهنا قالت مهجة وهى تنظر إلى صاحبتها فى إعجاب وزهو:

ـ لو علم ابن جهور بأن مناسج الحرير بالمرية ستخرج مثل هذا الثوب فى فتنته وإغرائه، لمنع ورود كل ثوب مثله إلى قرطبة. فتهانفت ولادة وقالت:

---

(١) ليونة.

ـ إن هذا الرجل عبقريّ فى الرياء يا مهجة، وهو لا يُظهر التحرّج والزهد إلا تملّقاً للفقهاء" الذين لو أرادوا لأطاحوه عن عرشه فى لمحة عين.

ـ إنه يا سيدتى أمر بمنع شرب الخمر، وكان الاحتفاء بكسر دنانها عظيماً فى ميدان الجامع الكبير، وقد مدحه شاعر قرطبة أحمد بن زيدون بقصيدة رائعة جاء فيها:

أباح حمَى الخمرِ الخبيثة حائطاً حمَى الدين من أن يُستباحَ له حدُّ
فطوّق باستئصالها المِصرَ مِنَّة يكاد يؤدى شكرَها الحجرُ الصلد
هى الرجسُ إن يذهبه عنه فمحسنٌ شهيرُ الأيادى ما لآلائه جَحد
مَظِنَّةُ آثام، وأمُّ كبائر يقصِّر عن أدنى معايبها العدّ

فرفعت ولادة رأسها كالمفكرة وقالت:

ـ ابن زيدون؟! هذا فتى يزاحم سلّم المجد، ولكنه يلاقى أقداماً أثبت من قدمه، وسواعد أشدَّ من ساعده. وهو يبيع نفسه رخيصة فى سوق الحسان. والمجد وعبث الشباب لا يجتمعان!

ـ إنه يا سيدتى فتنة أهل قرطبة، وبطل أحلام كل فتاة، وقد أصبح شعره أنشودة فى كل فم، وقُرْطاً فى كل أذن. غنى به المغنون، وأنشده المنشدون، ولا يكاد يخلو مجلس فى قرطبة من إنشاد أبيات له تهتزُّ لها الأعطاف، وتطرَب النفوس.

ذهبتُ يوم الثلاثاء الفائت على عادتى إلى دار مريم العَروضية، لأحضُر بعض دروسها، لأنها تعقِد فى دارها مجالس لتهذيب بنات العظماء والأشراف فى اللغة والأدب.

ـ أعرفها وأعرف أن كثيراً من أدباء قرطبة يأخذون عنها، وأنها تحفظ «الكامل» للمبرد و «النوادر» لأبى على القالى.

ـ نعم يا سيدتى. جلسنا فى بهو فسيح فى دارها، وكان هناك بعض الفتيات الجميلات اللاتى تظهر عليهن آثار النعمة، ودلائل الثراء، وأخذت مريم تتحدث عن الشعر فى إشبيلية، وما يبدو من الفروق بينه وبين شعر قرطبة، ثم أنشأت تشيد بشاعر إشبيليّ سمته أبا بكر، زعمت أن له غزلاً رقيقاً، وأسلوباً ناعماً، وخيالاً لطيفاً، وأنشدت له:

يا أبـدع الخلـق بلا مِرْية ... وجهـك فيه فتنـة الناظرين
لا سيّمـا إذ نلتقـى خطرةً ... فيغلـبُ الـورد علـى الياسمينْ

وما كادت تنشد البيتين يا سيدتى حتى انبرت لها فتاة طلقة اللسان، حاضرة الخاطر قويّة العارضة تقول:

إننى لا أريد أن أباهى بمدينتى يا سيدتى، فكل ما يشرّف بقعة من الأندلس يشرفنى، والشعر والأدب ليس لهما وطن، ونحن نعتز بأشعار المشارقة كما نعتز بأشعارنا، ولكن الشاعر الإشبيلىّ الذى أطنبت فى الثناء عليه لا يصل إلى مواطىء أقدام شاعرنا ابن زيدون. أما بيته الأول فهرُاء مكرر لم يُرد به إلا الدخول على البيت الثانى، وكلمة «بلا مرية» حشو سخيف. على أنى لا أرى فى البيت الثانى إلا معنى مبذولاً ملقىً على الطرق، فتشبيه الخد بالورد والياسمين تشبيه قديم، سئم منه الشعر، ومجّه الشعراء. فأسرعت مريم تقول: نعم يا فتاتى. إن تشبيه الخد بالورد والياسمين قديم، ولكن الشاعر كوّن من هذا التشبيه صورة جديدة، هى صورة ما يدرك الحبيب من الخجل عند ملاقاة حبيبه فجأة، فتطغى حمرة خديه على بياضهما.

فهزّت الفتاة رأسها فى عناد وقالت:

وتعجبك «لا سيما» هذه التى جاءت فى أول البيت فكانت أشبه بعبارات الفقاء؟ أين ذلك يا سيدتى من قول ابن زيدون؟

ألـداعيكَ مجيبُ؟ ... أم لشـاكيك طبيبُ؟
يا قريبـاً حين ينأى ... حاضـراً حين يغيب!
كيف يسلـوكَ محبّ ... زانـه منـك حبيب؟
إنمـا أنـتِ نسيمٌ ... تتلقّـاه القلوب

هذا شعر لو نسب إلى ابن المعتز لأنساه نكبته، ولأسلاه عن زوال ملكه.

وهنا صاحت فتاة عصبية المزاج تقول:

- نعم إنه الشعر الذى يُغنى وحدَه بغير موسيقى. والمؤلم أن يشبّه دعاة الأدب شاعرنا بالبحترى، وهل يستطيع البحترى أن يقول؟

ألّـى تضيع عهدك؟ ... أم كيف تخلف وعدَكْ؟

وقد رأتك الأماني رضاً فلم تتعدّك

يا ليت شعرى وعندى ما ليس فى الحب عندك

هل طال ليلك بعدى كطول ليلى بعدك؟

سلنى حياتى أهبها فلست أملك ردّك

الدهر عبدى لما أصبحتُ فى الحب عبدك

فقالت مريم: هذا كرم لا مراء في حسنه، وفضل شاعرنا ابن زيدون لا يجحده جاحد، حتى لقد قال بعض أدبائنا: من لبس البياض، وتختّم بالعقيق، وقرأ لأبى عمرو، وتفقه للشافعى، وروى شعر ابن زيدون فقد استكمل الظُّرف كله.

وهنا تحرّكت ولادة فى مجلسها متأففة وقد بدا على وجهها السأم وقالت:

- أنت متعصّبة لهذا الرجل يا مهجة.

- لست متعصبة، ولكنى أحسُّ لشعره حلاوة لا أجدها فى سواه، ولا أعيب على الرجل إلا شيئاً واحداً!: هو صداقته لعائشة بنت غالب. أتعرفينها يا سيدتى؟

- أعرفها، وأعرف أنها فتاة غيور، تُظهر للناس غير ما تبطن، وأن لها نفس نمِرة فى جسم امرأة وأن صاحبك ابن زيدون صبّ بها مفتون.

- من أخبرك بهذا يا سيدتى؟

- أخبرتنى امرأة تعرف كل شىء فى هذه المدينة، فلو غاب دلو فى الوادى الكبير لعرفت مستقرّه ومستودعه. ولكنها غِرْبال أسرار. تقول لك الخبر فى صوت خافت. وتستحلفك بأغلظ الأيمان ألا تبوحى به لإنسان. فإذا تجاوزتك إلى الباب أخبرت خادمتك نفس الخبر. وكرّرت عليها نفس الأيمان. وهى من الخيِّرات الكريمات. تفنى فى محبة أصدقائها، ولا تأخذها رحمة فى البطش بأعدائها.

- من هذه بالله عليك يا سيدتى؟

- كنت أظنك أذكى من ذلك وأفطن.

- إن اسمها يجرى على لسانى. ولكنى أبغض الرجم بالظنون. أليست هي نائلة الدمشَقّية؟

ـ هي هي يا حبيبتى بعينها تحفة قرطبة . وعجوزها المدللة . وهل يخفى القمر؟

ـ إنها امرأة بارعة أديبة . لها أسلوب عجيب فى اجتذاب الرجال . والتسلط عليهم وإخضاعهم لأمرها ، لا يوصد فى وجهها باب ، ولا تخلو منها ندوة ، ولا تُحجب دونها أسرار القصور . ودارها ملتقىً شباب قرطبة ، حتى لكأنها حينما يئست من بشاشات الشباب ، أرادت أن تراها فى سواها . والغريزة إذا عجزت قنعت بالنظر ، واكتفت بالخيال .

وبينما هى منهمرة فى الحديث ، إذ دخلت عُتبة جارية ولادة تقول : إن سيدتى نائلة الدمشقية حضرت الساعة ، وهى تنتظر فى بهو الورد . فنظرت ولادة إلى مهجة فى ابتسام وعجب وقالت :

ـ لو ذكرنا الشيطان ما جاءنا هكذا وثباً ! ما سبب هذه الزيارة فى تلك الساعة يا تُرَى، فهزّت مهجة كتفيها ، ومطّت فمها تقول :

ـ أغلب الظن أنها جاءت للحديث وإطلاق عنان اللسان ، وذكر أخبار المدينة وما يجرى فيها من خير وشر .

ـ ولكنها مسلية حقاً ، ولها أسلوب فى الحديث يقهرك على الاستماع له ، ويجتذبك إلى الاشتراك فيه ، وهى مزيّة لا يظفر بها ثرثار إلا فى النَّدرىّ[1] . هلمّ إليها يا مهجة .

كانت نائلة الدمشقية وقد خنقت الستين لا تزال تحتفظ بأطياف هزيلة من الجمال الغابر ، فكانت تشبه حديقة أهملها صاحبها سنوات فصوّح[2] فيها ما صوّح ، وذبُل ما ذبُل ، وتهدّلت أغصان لم تمتدّ إليها يد بتشذيب ، وتهدمت أسوار بقيت أنقاضها حولها صرعى حزينة كأنها ملت طول القيام . أو لعلها كانت تشبه بيت شعر أصابه التحريف ، وتوالت عليه أغاليط الرواة ، حتى كاد يفقد وزنه ومعناه . أو مِزْهراً ذهب طِلاؤه ، وتراخت أوتاره فأصبحت رناته طنيناً مائتاً ، وأصواتاً موصولة الأنين . أو رسالة غرام خُطّ على ما فيها من غزل ونسيب ، وأبقى على ما بها من شكوى السهاد وتبريح السقَام .

كانت نائلة طويلة بادنة مترهّلة اللحم ، سطت على وجهها التجاعيد ، وعلى جلدها

(١) النادر القليل الوجود .

(٢) يبس .

آثار السنين، فعجزت التطرية، ولم تُجد الأدهان والأصباغ فى إصلاح ما أفسد الدهر إلا قليلاً، واستبدّت الطبيعة فأبت إلا أن تظهر آثارها، على الرغم مما يبذل فى سبيل إخفائها من صنعة وفنون. كانت شاهداً صادقاً على جريمة السنين، ومثلاً قائماً لمن يترك خلفه أجيالاً ليدخل فى جيل جديد. ومن العجيب أن الدهر مع عبثه بجمالها، لم يستطع أن ينال من سحر عينيها وحسن صوتها، فقد كان للمحاتها بريق ولألاء لا تعتزّ بهما فتاة فى العشرين وكان لصوتها رنين ونغم لم تظفر بمثلهما أفنان الخمائل.

دخلت ولادة البهو فتلقفّتها نائلة بين ذراعيها فى وَلَه وشغف، وأخذت تمطر خديها قبلات كان لها صوت متلاحق كزقزقة العصافير فى الصباح، وبعد أن حيّتها ابنة المستكفى فى سرور وترحيب انطلقت نائلة تقول:

- لا لا يا حبيبتى! لقد أطلت هجرى، وأصررت على قطيعتى على شدة حبى لك، وطول حنينى إلى رؤيتك! هذه هى المرة الثالثة التى أزورك فيها دون أن تسعد دارى بإلمامة منك تشرق بها رحابها، وتشمخ على السماء قبابها. لقد كان أبوك - عليه ألف رحمة - مولعاً بى، مشغوفاً بمجالستى والاستماع إلى حديثى، وكنت أعرض عنه أحياناً، فعاقبنى الله بإعراض ابنته عنى. كان رجلاً يقطُر ظَرْفاً وأدباً. ثم ضحكت وقالت: وكان أعرف بسياسة الحياة منه بسياسة الملك. زرته بعد أن خُلع بيوم واحد، وقد انصرف عنه الناس، وجفاه أقربهم إليه، فأخذت أنضح[1] عنه الهم، وأسرى عن نفسه بعض ما تجد بالفكاهات والأضاحيك، حتى زال عنه الحزن والأسى، وعندما ودّعته شد على يدى وهو يقول باسماً: لو أن الناس كانوا فى وفائك يا نائلة لنسيت مرارة العزل؛ والملك امرأة فَروك[2]، لا تكاد تنعَم النفس بوصلها حتى تعانى صدّها وقطيعتها. فأجبته مسرعة: أنتم يا بنى أمية وُلدتم ملوكاً، وستموتون ملوكاً. وإن لكم من أخلاقكم وقوة نفوسكم تاجاً وصولجاناً، إذا فقدتم التاج والصولجان. هذا كان حديثى مع أبيك، وهذا كان آخر العهد به. والآن أصبحت أقاسى الهجر والملال من فتاته المدلّلة اللعوب ولادة! فابتسمت ولادة ابتسامة مشرقة وقالت:

- إن هذه الفتاة يا سيدتى تُكنُّ لك أخلص الحب وأصدق الوفاء، ولولا وعكة

---

(١) أدفع.

(٢) الفروك هي المرأة التي تبغض زوجها.

أصابتنى ما حجبنى عن زيارتك حاجب.

- إنه البرد يا سيدتى! حاذريه ولا تستهينى به، فإنه كالحب يبدأ خفيف الوقع ضعيف الأثر، ثم يعظم ويستشرى حتى يصبح داء عضالاً. ثم اعتدلت فى جلستها وقالت:

- أتخرجين في المساء يا بنيّتي؟ نزهة مثلاً في قارب في ليالي البدر، أو قضاء ليلة في مُنية الرُّصافة، أو تسلية مع بعض الصديقات في حانة «راميرز» فإن بهذه الحانة فتيات أسبانيات لهن رقص عجيب.

- أحياناً قليلة يا سيدتي.

- أحسنت أحسنت يا بنيتي! فإن هذه الدنيا أقصر من أن تضيع بين همّ وأحزان. ثم رمت ذراعيها إلى جانبيها في ألم وحسرة وقالت:

- آه لو عرف الشباب ما وراء المشيب! زارني بالأمس الشيخ مجاهد الأنصاري خطيب مسجد أم سَلَمَة، وهو رجل متزمِّت متحرّج، يخاف أن يتكلم فيأثم، أو يُرسل نظرة فتهوى به في قعر جهنم. وهو فقيه مُقَلَّص، ولا يلبس «القالص» فوق رأسه بقرطبة إلا من حفظ الموطّأ للإمام مالك. لم يزرني الشيخ إلا لأن له ابناً يريد أن يجعله مسجلاً لأموال الزكاة. بعد أن عرف صلتي بالوزير أبي حفص بن بُرْد. قابلني وهو مطرق مغمَض العينين، يجمع ثيابه في تحرُّز كأنه يخشى أن يمسها طرف ثوبي. فقلت في نفسي ساخرة: أفق أيها الأبله وافتح عينيك، فإنك إن فعلت فلن تصاب بسوء، وأقسم لو زرتني من ثلاثين عاماً لحملقت فيّ كما يحملق النمر الفاتك؛ أخبرني بما شاء من شأن ابنه، ورجاني في أن ألح على الوزير في قبوله، ثم انطلق كأنه السيل الهدّار[1] يصف جهنم وما فيها من ألوان العذاب المقيم. فلما ذكّرته بأن الله واسع الرحمة، وأنه غافر الذنب، وقابل التوب. ذُعر كما يُذعر الصائد حين تجد طريدته منفذاً للفرار، وقال على الفور في حدّة بهذا يا سيدتي يخدع العصاة أنفسهم، وإن الاعتماد على رحمة الله مطيَّة العابثين. وحينئذ أردت أن أعابث الرجل فقلت:

ولِمَ خلق الله لنا النعم يا مولانا في هذه الدنيا؟ فأخذ يغمغم في حيرة ويقول: النعم؟ النعم؟ فقلت نعم النعم. لم خلق لنا الجاه والمال؟ لم أبدع الأزهار الناضرة، والثمار

(١) الساقط المنهمر.

اليانعة، والأطيار المغردة، والأنهار الدافقة؟ لم خلق الصبح السافر، والأصيل الناعم، والبدر الساهر، والليل الساجي؟ كل هذه نعم عظيمة يا مولانا، وفيها يقول جل شأنه: و«إن تعُدُّوا نعمةَ الله لا تحصوها، إن الإنسان لظلوم كفَّار». وكأنه خشي أن أطيل فلبس خُفيَّة على عجل، وانطلق خائفاً مذعوراً.

فتنهدت ولادة وقالت:

ـ عجيب أمر هؤلاء القوم يضيقون من فضل الله ما اتسع وعظُم. فأسرعت نائلة تقول:

ـ ولكنّ منهم من يستمتع بالنعيم المباح، وتهزه طرائف الشعر والأدب من غير أن يضيع لله حقًّا. أخبرني أبو عمرو المالقي: أنه كان يزور الجبَّانة في يوم شديد القيظ فسعت به قدماه إلى مسجد هناك، فلما بلغه التقى بخطيبه وكان رجلاً حسن السَّمت[1]، ظاهر الزهادة، فلما ذهبا في شئون من الحديث، طلب إليه الخطيب أن يُنشده شعراً لبعض الأندلسيين فأنشده:

غصبوا الصباح فقسَّموه خدودا ... واستوعبوا قُضُب الأراك قدودا
ورَأوا حصى الياقوت دون نحورهم ... فتقلدوا شُهُب النجوم عقودا

فصاح الشيخ من الطرب، وصفق بيديه في مرح خرج به عن وقاره، فلما عاد إلى نفسه قال: أعذرني يا بنيّ فشيئان يقهراني ولا أملك نفسي عندهما: الصوت الحسن، والشعر المطبوع الرقيق.

وسمعت أن محمد بن عبدالله قاضي الجماعة في عهد الناصر خرج يوماً لحضور جِنازة، وكان لرجل من إخوانه منزل بالقرب من مقبرة قريش فعزم عليه في الميل إليه فنزل، وأحضر له طعاماً، ودعا جارية له فغنَّت:

طابت بطيب لثاتكَ الأقداحُ ... وزها بحمرة وجهك التفاحُ
وإذا الربيع تنسَّمت أرواحه ... نمَّتْ بعرف نسيمك الأرواح
وإذا الحنادسُ ألبست ظلماءها ... فضياء وجهك في الدجى مصباح

(١) الهيئة وهي صفة تلصق بأهل الخير.

فطرِب القاضي، وكتب الأبيات على يده، ثم خرج للصلاة على الميت فرأى الناس الأبيات على ظهر يده، وهو يكبر على الجنازة. وقد كان هذا القاضي من أزهد الناس وأعدلهم حكماً. والحقيقة يا فتاتي أن الإنسان إذا خشيَ ربه في السر والعلانية، واجتنب كبائر الإثم والعدوان، فله أن ينعم بكل ما خلق الله من متاع حلال. ثم حدَّقت في وجه ولادة كأنها تريد أن تستكشف ما وراءه من أسرار وقالت في دُعابة:

ـ ومن الفائز الأول الآن في خِطبة سيدة الحسن والجمال؟

ـ أيُّ فوز وأي حسن وجمال يا نائلة؟ فتكلفت نائلة العبوس وقالت:

ـ أنت لا تكتمين عني شيئاً يا بنيتي، وما فائدة الكتمان وقد أصبح الأمر حديث الناس، ومدار سمرهم؟ حتى كاد كل غصن في حدائق قرطبة ينادي صاحبه هامساً: ولادة وابن عبدوس، ولادة وابن عبدوس!

ـ إن ابن عبدوس يزور ندوتي كل ليلة، وهو فتى أديب شاعر، عذب الحديث حلو النادرة.

ـ آه من عذوبة الحديث وحلاوة النادرة؛ إنهما يا فتاتي أول ما ينصبه الرجل لنا من حبائل. سليني يا ولادة عن شئون الحياة قبل أن تفقديني. إنني سجلُّها الجامع الذي يجد فيه كل حائر ما يهديه ويسدّد خُطاه. ابن عبدوس رجل عظيم متألّق، ابن عبدوس شاعر مجيد وكاتب فذ. ابن عبدوس وزير له جاه ومكانة، غير أنه ذئب لا يؤمن جانبه، ولا تُرجى عواقبه، وكفاه وصمة اسمه الاسبانيّ الذي يدل على سوء أصله، والذي يجب أن يقصيه عن أن يأمُل في الاتصال ببنات الخلفاء، هذا أسقطه من حسابي، وأحسب أنك تسقطينه من حسابك أيضاً، وبين شباب قرطبة من ذوي الحسب والمجد من يهبون حياتهم ليشرفُوا بالتزوج بك، ولكن الذي آخذه عليك يا بنيتي أنك طير لا يستقر على غصن، ولا يطمئن إلى ركن. أنت شديدة الطموح يا فتاتي، وكلما ظفِرت بشيء هان عندك، لأنك ظفرت به، فطلبت غيره مما يصعب مناله، أنت تائهة في بحر الحياة المائج، والسفن تمرُّ بك، فإذا تشبَّثت بسفينة ظهرت لك في الأفق أخرى، فغادرت الأولى وألقيت بنفسك إلى الثانية. إن مجلسك يحوي أكرم فتيان قرطبة أرومة، وأشرفهم منبتاً، وأنت تُلهين هذا بابتسامة، وهذا بهزّة رأس، وهذا بكلمة طيبة، وذاك بوعد كاذب، لا لأنك لا تحبينهم جميعاً، بل لأنك ترغبين في مهلة حتى يهتدي قلبك الحائر، أو عقلك المملوء بالمطامح إلى من يحسُن

اختياره، ومن تتحقق به الغاية التي ترمين إليها. أنت يا سيدتي كالبخيل الذي حبس ماله فلا يبيع ولا يشتري مخافة أن يُغبن في درهم أو درهمين. أسرعي الاختيار يا فتاتي، فإن للشباب أواناً، وإن الورد إذا ذبل لم يبق منه غير أشواكه! أسرعي الاختيار يا ولادة، وابتعدي عن كل ما يمت إلى أصل قوطيّ أو بربري، فإني لا أحب البربر. إنهم يُدلُّون علينا بطارق بن زياد، وأنا لا أحب طارقهم هذا. وأين هو من موسى بن نصير أو من ابنه عبدالعزيز الذي قتله البربر؟

ـ دعينا بالله يا نائلة من ذكر البربر ومن ذكر الزواج، وخذي في الحديث عن المدينة وما فيها من أخبار وأسرار.

ـ المدينة هادئة، ولكني أظنه هدوءاً لا يدوم، إنه يا سيدتي هدوء الطفل الغضبان، الذي طلب لعبة فلم يظفر بها، فطفِق يبربر ويهمهم، حتى ملّ البربرة والهمهمة فسكت على دخَل، وتربص لفرصة الوثوب. إن القرطبيين يا ولادة لا يرضوْن بغير الخلفاء بديلاً. إنهم يحبون الخلافة، ويعشَقون مظاهرها، ويحنون إلى مراسمها. هاتي لهم خليفة من فَخّار ثم انظري كيف يجلّونه ويبجلّونه، إنهم رضوا حيناً بحكم المنصور أبن أبي عامر الحاجب، لأنه بهرهم بتوالي فتوحه وانتصاره، ولولا ذلك ما صَبروا عليه يوماً أو بعض يوم. وهذا الحكم الذي ابتدعه لنا ابن جهور ـ ثقي يا فتاتي أني أحب الرجل وأكبر فيه الإخلاص والنزاهة ـ هذا الحكم الذي يشترك فيه جماعة لسياسة الدولة وحياطتها لا أستطيع استساغته.

ـ إنهم يقولون إن ابن جهور نقله عن قدماء الإغريق والرومان.

ـ لا إغريق ولا رومان يا ولادة. وإنما الرجل رأى رؤوس من استبدّوا بالحكم قبلة تتدحرج من عروشهم، فاحتاط لحياته، واختبأ وراء جماعة ليحكم من غير أن يكون له اسم الحاكم أو تبعته.

ـ إنك تعرفين كل شيء يا نائلة!

ـ إنني أعرف سرَّ كل رجل وسرَّ كل امرأة في هذه المدينة، ولولا ذلك ما لقيت منهم كل هذا التبجيل. إن الإنسان يخضعه الخوف، ولا يخضعه بذل المعروف.

زارني ابن زيدون منذ أيام فنصحت له أن يبتعد عن تلك المرأة التي يدعونها عائشة

بنت غالب، إنها أسبانية الأصل، لئيمة المنبت، جاسوسة للأسبان وإن بالغت في كتم أسرارها. وهي امرأة مخيفة، تقتنص الرجال، وتُلزمهم التزوج بها، حتى إذا سئمتهم قذفت بهم من حالق[1] كما تقذفين بقشرة البرتقال. نصحت للفتى كثيراً، وحدّثته بجملة من أخبارها، وأخبرته بأنها ألقت شباكها مرّة على أبي القاسم ابن قاضي الجماعة، فسدّت عليه المسالك، واجتذبته بأفانينها، فانقاد إليها مسحوراً مأخوذاً. ثم تزوجها وعاش في جنة حبها كما يعيش الطائر في قفص من ذهب، فلما هدأت نار السحر، وانقشعت عن عينيه الغيابة، أراد أن يخرج من هذه الجنة وأن يلوذ بغيرها من جنات الأندلس العالية، ولكنها ما كادت تلمح في عينيه ما كان يدور في نفسه من طلاقها، حتى ضاعفت من إغرائها ونصبت حوله حبائلها، غير أنّ شيئاً من ذلك لم يُفلح، وتشبّث الفتى بالطلاق، فلما يئست منه، وعلمت أنه مطلقها لا محالة، أرسلت في طلبه فحضر إليها، وكانت قد أعدّت قرصاً وشطرته شطرين، ووضعت في نصفه سمًّا، فلما همَّ بوداعها بكت أشدّ بكاء وهمّت لعناقه وهي تقول والعبرة تخنقها، إن أمها أخبرتها أن الحبيبين إذا تناصفا قرصاً عند الوداع فلا بد أن يعود كل منهما إلى صاحبه، لأن أحد نصفي القرص لا يفتأ الدهرَ يطلب قسيمه، فصدّقها المسكين، وقسمت القرص، وأعطته النصف المشغول فأكله، وانصرف إلى داره، ولم تمرّ به ساعات حتى كان من سكان القبور.

وما كاد ابن زيدون يسمع مني هذا الخبر حتى ذُعر واصفر لونه، وهاله الأمر، وأكثرُ ظني أنه سيفلت منها قبل أن تُحكم انطباق الشبكة. إن ابن زيدون يا ولادة أبرع كاتب، وأصدح شاعر في جزيرة الأندلس جميعها، وسيكون له شأن أي شأن، وأولى بك أن تجتذبيه إلى ندوتك التي تذخر بأدباء قرطبة وعظمائها.

فتململت ولادة في مجلسها قلقة مضطربة، وطاف برأسها أنها لم تسمع منذ الصباح إلا حديثاً عن ابن زيدون، ومواهب ابن زيدون، وفتنة الناس جميعاً بابن زيدون. وهي ترى في الرجل وفي أدبه ما تحنُّ إليه نفسها الطموح، ولكنها كانت تخاف إن هي وصلت به حبالها، واتخذته لها زوجاً، أن يبقى كما هو أديباً شاعراً، دون أن يكون له من صفات الرياسة وعلو المكانة ما يحقّق آمالها.

أذهلتها هذه الأفكار عن جليستها وقتاً قصيراً، ثم سمعت نفسها تقول:

---

(١) مكان مشرف مرتفع.

ـ إن ندوتي يا نائلة لا تتسع لصغار الكتَّاب. وما كادت تتمُّ عبارتها حتى ملأت نائلة فضاء البهو قهقهة، وصاحت في عجب ودهشة:

ـ ابن زيدون من صغار الكتَّاب؟! أتعيشين يا ابنة الخليفة في قرطبة، أم فوق السحاب، أم وراء سدّ يأجوج ومأجوج؟ أسرعي يا سيدتي فقد فاتك الركب، ثم هاتي أذنك أحدِّثك بسرٍّ أقسمت على أن أكتمه وألاّ أبوح به لأحد. ثم قالت في صوت خافت: إن ابن جهور يضع عليه عينه ليوليه منصب الوزارة بعد وقت قصير.

فظهرت الدهشة على وجه ولادة، وأحسَّت نائلة أنها تشك في صلتها بابن جهور، وفي أنه يتخذ منها موضعاً لسرّه، فقالت في هدوء:

ـ إن ابن جهور رجل داهية قناص للفرص، يعرف أين يجد ما يطلبه، ويعرف كيف يستعين لما يطلبه، وقد عرَف صلتي بالوزراء وكبار الدول ورؤوساء الجماعة، وعرَف أن أخبار قرطبة تتزاحم على بابي كما يتزاحم الموج على ساحل البحر الأخضر، فليس بعجيب يا سيدتي أن يزورني بين الحين والحين، وليس بعجيب أن يتحدث إليّ في شؤون الدولة. وقد جرى ذكر ابن زيدون على لساني عندما زارني آخر مرة ورأيت وجهه ينقبض وينبسط هكذا كما تنقبض وتنبسط يدي هذه. فقلت له: ألا يعجبك الرجل؟ فابتسم وقال: يعجبني، ولكن الذي أخشاه أن يجني عليه ذكاؤه، وتتعثر به مطامحه. هذه كانت عبارة الرجل كما قالها. فقلت له: إنه خير ألف مرة من وزرائك المهازيل عبيد الحسان، الذين هم دائماً زينة المحافل، وهزيمة الجحافل، والذين لا يحبون أن يروا كأساً فارغة أو مملوءة: فإن كانت فارغة ملئوها، وإن كانت مملوءة أفرغوها في بطونهم، فابتسم ابن جهور متألماً وقال: وابن زيدون صاحبك اسبقُهم في هذا الميدان، وأخبرهم بقلوب الحسان، وقد سمعت أخيراً بصلته بعائشة بنت غالب، وأنت تعلمين من أمرها أكثر مما أعلم. فاجترأت على الكذب وصحت في وجهه: إنه تركها وقطع صلته بها. فأجاب: هذا حسن، هذا حسن. ثم هزّ كتفي بيده مازحاً وقال: إن ابن زيدون رجل ستطلبه المناصب قبل أن يطلبها، وثقي أنه سيكون وزيراً بعد أيام. فقلت له: إن الدولة في أشد الحاجة إلى رأيه وإلى قلمه وإلى دهائه، وإن حبّ القرطبيين له سيجمع حول دولتك الكلمة، ويحول دون الثورات التي هزّت عروش من سبقوك، فهل أسمع غداً أنك اخترته وزيراً؟

ثم اتجهت إلى ولادة وقالت: أتعجبك هذه الصراحة يا فتاتي؟ فتكلفت ولادة

الابتسام وقالت:

ـ وبم أجابك؟

ـ لم يقل شيئاً، غير أنه حينما همّ بالقيام همس في أذني قائلاً: لقد تبسّطنا الليلة في الحديث فوق ما كنت أريد يا نائلة، فاكتُمي هذا السر واجعليه بيني وبينك، ولا تشركي فيه ثالثاً.

ثم قهقهت وغمزت بعينها وقالت:

ـ أرأيت كيف أني حفظت السر ولم أشرك فيه ثالثاً؟

ـ وعلى هذا سيصل ابن زيدون إلى منصب الوزارة غداً أو بعد غد؟

ـ بعد ثلاثة أيام، ودعيني الآن أذكر لك ما قدمت لأجله، إني سأدعو ابن زيدون وأصحابه من كبار الكتاب والشعراء والوزراء، وسأدعو أجمل فتيات قرطبة وأشرف أسرها، وستكون ليلة مشرقة ضاحكة قلّ أن يجود بمثلها الزمان. وقد جئت لأدعوك، فإن ندوة لا تكون بها ولادة بنت المستكفي تفقد روح المرح والجمال والبهجة والسرور. أرجو يا سيدتي أن تشرّفيني بقبول هذه الدعوة.

ففكرت ولادة قليلاً، ومرّ بخيالها أن القَدَر يريد أن يجمعها بابن زيدون، وأنها كيفما حاولت لا تستطيع الفكاك من أيدي القدر، فأجابت:

ـ إني أقبل هذه الدعوة مسرورة مغتبطة، وأشكرك أجزل الشكر على هذه العناية.

وتحركت نائلة للقيام، وتكررت القُبُلات للوداع، وغادرت البهو بعد أن ملأته حديثاً مختلف الفنون، كثير الشجون.

وما كادت تستوي على محفّتها(١) حتى أمرت حامليها أن يذهبوا بها إلى دار ابن زيدون لتدعوه إلى صنيعها. فلما دخلت عليه رأته حزيناً مهموماً، فسألته عمّا به في ذعر وقلق فقال:

ـ لقد نصحني كل صديق باجتناب عائشة، وكثيراً ما حذّرني من التزوج بها، ولكني أخاف عاقبة مغاضبتها، ولا أجد في نفسي من الجرأة ما يمكنني من قطع حبالها.

(١) مركب النساء كالهودج.

فضحكت نائلة وقالت:

- أهذا ما يقلق بالك، ويكدر صفاء وجهك الوسيم؟ اكتب إليها الآن رسالة موجزة فاصلة تقطع كل ما بينكما من صداقة، ولا تبال ولا تأبه لما تجرّ من عواقب.

- لا أستطيع يا نائلة وأخاف... فقاطعته في حزم:

- اكتب يا أبا الوليد، واترك الأمر لي، فإن الخوف من الثعبان لا يقتل الثعبان. إن جاريتها «غالية» جاسوسة لي عليها منذ زمن بعيد، وسأعمل كل ما أستطيع لأجنّبك شرّها. قم يا بنيّ فإن الوزارة ترفّ بجناحيها فوق بابك، وقد خدعت ابن جهور وأخبرته كذباً أنك هجرتها وسللت ثيابك عن ثيابها. فقام ابن زيدون إلى أوراقه يتعثر، وكتب بعد تردّد:

«هذه آخر رسالة إليك، فلا تطمعي بعدها فى لقاء، وحصنى نفسك باليأس، فإن نفسى إذا انصرفت عن الشيء فلن تعود إليه».

ونادى خادمه عليّاً وأمره أن يسرع بالرسالة إلى دار عائشة. ثم اتجه إلى نائلة يقول:

أسمعت بقصة طارق بن زياد حين أحرق سفنه على شاطىء بحر الزقاق؟ أنا اليوم أحرقت سفنى، ولله الأمر من قبل ومن بعد!

٣

عرضنا على القارىء صورة لنائلة الدمشقية بقدر ما يستطيع القلم أن يصوّر، وتركناه يستشفّ صفاتها وطبائعها وأسلوب حياتها من حديثها الفيّاض الطويل الذيول، الحائر المذاهب، الذى يطرُق كلّ باب، ويسلك كل سبيل. ولا نريد أن نتبرع للقارىء بذكر ما نعلم من حقيقة مِزاجها وفلسفتها فى الحياة، حتى لا نفسد عليه نهج تفكيره. على أنه قد يصل بنفسه وبالقليل مما مّر ويمرّ عليه من أحوالها إلى أكثر مما نعلمه، أو إلى أدقّ مما نزعم أننا نعلمه. وأعظم ما يفسد على المرء تفكيره أو يشوّه خياله، أن تخبره بكل شيء فلا تدع لتفكيره أو خياله مجالاً يجول فيه، ويخلُق من الصور ما تطمئن إليه نفسه.

كانت أسرة نائلة من الأسر الطارئة على الأندلس، استدعى عبد الرحمن الناصر لدين الله جدّها من الشام سنة ثلاثين وثلاثمائة، وكان ذا معرفة بزراعة الأرض وطرق استنبات الفاكهة، فوكل إليه شئون ضياعه الواسعة، فقام عليها أحسن قيام، وأشرف أدق إشراف، وبذل فيها من جهده وفنه خير ما يبذُل العامل القوىّ الأمين، حتى أصبحت بعد سنوات جنات وافرة الثمار، كثيرة الغلةّ، فمنحه الخليفة جزاء إخلاصه أرضاً تقرب من قرطبة تمتدّ على شاطىء الوادي الكبير إلى مسافة بعيدة، فعمل فيها الدمشقى جاداً، ونقل إليها من الشام كثيراً من أشجار الفاكهة مما جعلها مضرِب المثل فى النماء والازدهار، وأخرجت من أنواع الثمار ما يندر أن يكون له مثيل فى المشرق، فزاد دَخْله، وعظمت ثروته وأصبح من كبار أثرياء المدينة، ولما أدركته المنيَّة، ترك ثروته لابنه الذى لم يرزق سواه. وكان ابنه قد تزوج فتاة جميلة لها مجد ومكانة وثروة، فولدت له نائلة. ثم مرت سنون مات فى

غضونها أبو نائلة وترك لها مالاً وجاهاً. وتزوجت بعد وفاته أحد أبناء عمومتها فسعدت بزواجها، غير أن سعادتها لم تدم طويلاً فمات لها ولد فى ريعانه، ثم قُتل زوجها فى أعوام الفتنة، قتله البربر فيمن قتلوا فى ذلك اليوم العصيب حين دخلوا قرطبة عَنوة لإعادة المستعين بالله إلى عرش ملكه. وقد حزنت نائلة لفقد زوجها، غير أن الحزن ككل شىء فى هذا الوجود قلق ملول، لا يلازم أصحابه طويلاً. فما كاد يمرّ عام أو بعض عام حتى عادت إلى مرحها وما فطرت عليه من لهو وإسراف. كان لها مال وجمال وفراغ، وكانت لها ثروة من أدب وتثقيف ولطف حديث ودُعابة حلوة، وكان أظهر ما تمتاز به بين أترابها إجادتها اللغة الأسبانية، شُغفت بها منذ نشأتها، وتلقتها عن أساتذة من اليهود والقساوسة الأسبان. كانت امرأة ضحوكاً تحب الحياة وتعشق كلّ ما فيها من بهجة ونعيم، فأصبحت ندوتها حافلة بوزراء قرطبة وعظمائها وأدبائها.

جلست نائلة فى سريرها وقد ارتفع الضحا، فأقبل عليها جواريها ليقمن بواجب الخدمة على عادتهن فى كل صباح، فهذه تملأ أخاديد الوجه بالمساحيق، وهذه تكحل العينين وتزجج[1] الحاجبين، وهذه تطارد كلّ شعرة بيضاء فى رأسها نصل عنها الخِضاب، فتعيدها سوداء كحالك الليل، وهذه تدلك الساقين الباردتين لتردّ إليهما حرارة الحياة. وجملة القول إنهن كن يُنشئنها إنشاء فى كل صباح، ويصانعن جيش الطبيعة التتارىّ المدمر بألوان من الخداع لا تجوز عليه ولا على الناس.

جلست نائلة فى سريرها تتثاءب فى تكاسل. ثم دعت إليها سُعْدى قَهْرَمانة القصر فاتجهت إليها وقالت:

- أريد أن تبذُلى كل فنونك فى أن تكون حفلة الليلة من أروع ما صُنع بقرطبة من حفلات، لا تدّخرى مالاً، ولا تتحرّجى من لوم المتزمّتين، وقد أعلمتك أمس بضيوفى، ولكل منهم ميل، ولكل منهم نزعة، فأعدّى لكل واحد ما ترتاح إليه نفسه، ثم أعدّى لهم جميعاً ما يبعث المرح ويطلق النفوس المكبوتة، أريد أن تتحدث قرطبة كلها بما يكون فى هذه الليلة من مبتدّعات السرور، أريد أن أعيد بها عظمة الأندلس، ومرح الأندلس، وعبث الأندلس، فماذا تقولين؟

فأطرقت سعدى كالمفكرة، وأخذت تمرّ بسبابتها فوق جبهتها ثم قالت:

(١) تصلحها وتساويها.

ـ أما أنواع الطعام وألوانها فقد دوّنتها فى صحيفة بالأمس ، وهى تجمع كل ما يخطُر وما لا يخطر ببال من لذائذ الطعام، وبقبو القصر كلّ صنوف الشراب، وكل رحيق مختوم مزاجه من تسنيم . أما ضروب اللهو الأخرى فإنى أنتظر أمرك فيها .

ـ أرسلى إلى «غاية المنى» المغنية ، وإلى «جُمانة» الراقصة ، ثم إلى الراقصات الأسبانيات «بحانة راميرز» ، وادعى «الزرافة» المضحك الممخرق، ولا تنسى يا سعدى شيئاً مما يبهج النفس ويثير الطرب . وهذا مفتاح خزانتى فخذى منها من المال ما شئت .

وما كادت سعدى تغادر الغرفة حتى دخلت إحدى جواريها لتنبئها بأن امرأة محجَّبة الوجه تلح فى لقائها، وتأبى أن تبوح باسمها، أو تذكر حاجتها . فأطرقت نائلة طويلاً، ثم رفعت رأسها وقد طافت بوجهها ابتسامة طائرة ، وقالت : دعيها تدخل يا نشوة . فدخلت بعد قليل امرأة ملففة بخمارها، كأنها قطعة من الليل ، فلما جاوزت باب الغرفة ، رفعت قناعها فإذا هي «غالية» جارية عائشة بنت غالب . وبعد أن حيَّت نائلة قالت:

ـ إن الحرب يا سيدتى فى دارنا قد صُفَّت جنودها، وأرهفت سيوفها، ولن تمضى أيام حتى يندلع لهيبها فى أرجاء قرطبة .

ـ أعرف يا غالية أن عائشة ممن يحرق مدينة بأسرها ليقتل فيها عدوّاً واحداً، وأعرف أنها لن تترك لعدوها فرصاً ليُعدّ عدته أو يأخذ حِذْره . ولذلك سبقت للاستعانة بك لتكونى ناقوس الخطر بيننا وبينها حتى نستطيع إحباط كل شرّ تدبّره ، وإخماد كل نار تشعلها . ماذا فعلت حينما وصلت إليها رسالة ابن زيدون؟

ـ أرأيت جبال النار يا سيدتى؟ كانت جبل نار. أرأيت البحر الثائر حينما يشتد النوء، وتعصف الزعازع؟ كانت البحر الثائر. أرأيت. . .

ـ كفى يا غالية! أعرف كل هذا وأكثر من هذا ، ولكنى أريد أن أعرف ما اعتزمته ، أريد أن أعرف السلاح الأول الذى اختارته ، ثم ناحية الهجوم التى تصوّب إليها سهامها .

ـ إن سلاحها الأول مسموم قاتل يا سيدتى ، وهو أحطّ سلاح وأحقره ، وقد تبيَّنت من حديثها أن سيدى ابن زيدون أيام تدلهه فى هواها، لم يحترس ولم يحترز، فكان يبعث إليها برسائل فيها سخرية وتندّر واستخفاف بعميد الجماعة ابن جهور ورجال دولته . وقد حفظت الملعونة هذه الرسائل فى خزانتها لتشهرها فى وجهه إذا حدثته نفسه بالانفلات من

يديها. وأعلنت بالأمس فى صراحة أنها ستضع هذه الرسائل فى يد ابن جهور.

- ويل للفاجرة! إن لها شيطاناً عبقريّاً. أهكذا ونحن على أبواب الوزارة تنقضّ علينا هذه الحية الرقطاء لتفسد كل شيء؟ ثم صمتت طويلاً وقالت:

- سأزورها غداً يا غالية ثم يكون ما يكون. أين تضع هذه الرسائل؟

- فى خزانة بجانب مرآتها بالغرفة الغربية.

- وأين تحفظ مفتاح الخزانة؟

- إنها لا تتركه يا سيدتى فى يقظة أو فى منام، فهو دائماً معلّق بخيط من حرير فى عنقها.

- حسن يا غالية، حسن جدّاً، وهنا عادت إلى وجه نائلة ابتسامته، ومدّت يدها تحت وسادتها، فأخرجت قبضة من دنانير ألقتها فى يد غالية وهى تقول: شكراً يافتاة. إن خبرك هذا يساوى أضعاف هذه الدنانير. ثم سألت كأن خاطراً جديداً عرض لها:

- ألا يزال ذلك الأسبانى الطالب بجامعة قرطبة يزورها؟

- يزورها الآن قليلاً يا سيدتى.

- هل بينها وبينه صلة غرام؟ فابتسمت غالية وقالت:

- لا يا سيدتى، أنه شاب دميم سقيم الجسم، لا يتحدث إلا عن دروسه بالجامعة، وأساتذته بالجامعة.

- لعل وراء الأكمة ما وراءها يا غالية!

- يجوز يا سيدتى، ولكن لا يظهر لى إلى الآن من زيارته شيء إلاّ أن عائشة تعطف عليه لأنه إسبانى، ولأنه طالب علم فقير.

- ما اسمه؟

- أسبيوتو. وهو يدرس الطب على ابن زُهر.

- أسبيوتو! يدرس الطب على ابن زُهر! ثم تنهدت وقالت: ندع هذا الرجل الآن. ولكن افتحى عينيك يا غالية والله معك ومعنا. فشكرتها الفتاة وخرجت مُحجّبة كما دخلت.

وجاء المساء، وتوافد على القصر وزراء قرطبة وعظماؤها وشعراؤها، وأديبات قرطبة وكرائم أسرها. وكان بين الجمع من كبار المدعوّين أبو الوليد محمد بن عميد الجماعة، وأبو حفص بن بُرد، وأبو مروان بن حيان المؤرّخ، وابن زيدون، وابن عبدوس، وابن الحنّاط الكفيف الشاعر الطبيب. وكان بين المدعوات أم العلاء الحجازية الأديبة الشاعرة، ومريم العَروضية مولاة ابن غَلْبون، وقد ازدان الجمع بكثير من الفتيات اللاتى نشأن فى النعيم، ودرجن فى باحة العز والثراء، وصوّرهن الله فتنة لخلق الله فى هذه الأرض. والجمال العربى الأسبانىّ مزيج عجيب من سحر الشرق وقسامة الغرب، وصورة رائعة لما تستطيع أن تُبدعه الصحراء الجافية إذا نعمت بالظل والماء، ونفحها بَرْد الشمال. وإذا أضيف إلى هذا الجمال لطف الحديث وأدب الطبع ونزاهة الخُلق، كان فتنة العيون، وشرك الألباب.

وبعد قليل وصلت محفة ولادة ومهجة القرطبية إلى القصر، فهرعت نائلة للقائهما، وأقبل الضيوف إليهما يحيّونهما فى حفاوة وتكريم. وحينما تقدم ابن زيدون لتحيَّة ولادة، قالت نائلة:

- هذا يا ابنة الخليفة شاعر قرطبة أحمد بنَ زيدون الذى جعل شعره مرايا للحسان، فمدت ولادة يدها إليه فى ابتسامة زهراء وقالت:

- أرجو أن تكون مراياك صادقة يا سيدى، فبُهِر ابن زيدون وتلعثم لسانه، ثم قال:

- إننى يا سيدتى سأحطم مرايا شعرى كلَّها، لأنها أصبحت لا تعجبنى، وسأصطنع مرآة جديدة لأجمل فتاة فى أرجاء الأندلس. فأرسلت ولادة ضحكة هادئة، ثم قالت فى صوت ساحر، ودهشة مصنوعة:

- أجمل فتاة فى أرجاء الأندلس؟ من هى؟ ليتنى كنت أعرفها!

- لو نظرت فى مرآتك لعرفتها لأول نظرة. فاحمرّ وجهها من الخفر[1]، وأسبلت جفنيها على عينين تأتلقان بوميض الشباب ثم قالت:

- إنك لطيف مجامل يا أبا الوليد، وإن لكم أيها الشعراء نمطاً فى التعبير نعرفه

---

(١) الحياء.

ونعرف أنه محض خيال لا يسكن الحق فى بيت من أبياته ، ومع هذا نُلقى إليه بأنفسنا فى غير خوف أو حذر ، ونستمع إلى أنغامه فى شغف ، وندنو منه رويداً مأخوذات ، كأنه رُقْيه ساحر.

ـ قرأت فى بعض أساطير قُدَامى الأسبان يا سيدتى : أن الله حينما خلق الجمال وسوّاه على أبدع صورة وأحسن تقويم ، انطلق مع الناس فى الأرض يضطرب فيما هم فيه يضطربون ويعيش كما يعيشون لا يمتاز عنهم بميزة ، ولا يختص بكرامة .

وبينما كان يشرب من غدير ساكن ، إذ رأى خيال وجهه فى الماء ، فبُهر لما راعه من قسامة وجهه ، ووسامة طلعته ، وإبداع الخالق العظيم فى تكوينه ، وسخط على الناس لأن لهم عيوناً لا ترى ، وقلوباً لا تنبض بعاطفة . ثم أخذ طريقه إلى مأواه حزيناً كاسف البال ، فلما طال حزنه ، هبط عليه مَلك من السماء فبثّه الجمال آلامه ، وشكا إليه إهمال الناس إياه ، وأن الله وهب له نعمة ولم يخلق من يقدُرها ويعرف لها قيمتها . فرقّ الملك لشكواه ، واستجاب الله بعد قليل لدعائه ، وخلق فى الناس الحب ، فتهافتوا على الجمال ، وترامو نحوه ، وأخذوا يصيحون حوله بكلام مختلط مضطرب ، حتى كادوا يُصمون أذنيه . ففر الجمال منهم إلى الغابة فزعاً مكدوداً ، برماً بما سمع من صيحات جافية ، وأصوات نابية ، قد تدل على حبّ ، ولكنه حبٌّ عنيف قاس ، خلا من الحنان ، وأجدب من رقّة العاطفة . عاد الجمال يبكى ، فهبط عليه الملك غاضباً فى هذه المرة وقال : مم تبكى أيها الجمال؟ فأجابه : إننى أبكى لأن الله أنعم علّى بنعمة عادت نقمة وشراً مستطيراً ، حتى أصبحت أوثر عليها الموت ، ليتنى كنت دميماً ، فإنى أرى كل دميم يعيش فى أمن وعافية . أما أنا فمن الصباح إلى المساء يحيط بى قوم غلاظ عابسو الوجوه ، يدقون صدورهم ، ويعوون فى وجهى عُواء الذئاب الجائعة ، إن كان هذا هو الحبّ ، وإن كان هذا الصياح اليابس فى لغة البشر تقديراً للجمال ، فإنى فى غنى عن هذا الحب ، وفى غنى عن هذا التقدير ، وأتمنى لو عدت كأول عهدى بين قوم لا قلوب لهم ، فقد كنت ـ على تَعس ما كنت فيه ـ قرير النفس هادئاً مطمئناً .

فأشفق عليه الملك ، وسأل الله أن يمنح الناس الشعر ، فأجاب الله سؤاله ، وخلق فيهم الشعر ، وخلق معه الغناء والموسيقى ، فاتجهت هذه الفنون إلى الجمال فى أدب المتوسل ، وذلة المستعطف ، وأرسلت أصواتها رخيمة صدّاحة ، تصوّر خوالج النفس

ولواعجها فى نغم تقف له الطيور فى سمائها، وتهتزّ الغصون فى أدواحها. وما كاد الجمال يُلقى نحوها سمعه، حتى أسكرته رنّاتها، وأطربته ألحانها. ومرّ به الملك وهو مضطجع فى ظلّ زيتونة مهدّلة الأفنان، يجرى من تحتها غدير هادىء الخُطا، يتعثر فوقه النسيم، والشعراء ينشدون، وآلات الطرب تعزف، فقرب من الجمال وقال: لم لا تنادينى اليوم؟ فظهرت الحيرة على وجه الجمال وقال: لقد ناديتك يا أخى مرتين، فلم أرد أن أزعجك بعدهما، فاذهب إلى السماء موفّقاً، فالأرض بخير ما لقيت حباً شريفاً، وجمالاً عفيفاً.

- هذا عجيب. وقد رأيت فى إقليم طالّقة، وهو من أقاليم إشبيلية، تمثالاً من المرمر لجارية لم تقع العين على أجمل منها، وعلمت أن الأقدمين كانوا يدعونها إلهة الجمال. امّا أسطورتك هذه فلم أسمع بها، ثم حدقت فيه النظر وقالت: وأخشى يا أبا الوليد أن تكون من أساطير خيالك، فأسرع ابن زيدون قائلاً:

- لا يا سيدتى، إن بيننا من اليهود من يتقنون الأسبانية، وقد عثروا على آثار كثيرة للقوط فى بيت الحكمة بطليطلة بعد هزيمة «لُذريق» ومن هذه الآثار كتب فى العلوم والشعر والأدب ترجمها اليهود وأذاعوا أسرارها. وبينما هم فى الحديث إذ أقبل عليهما الوزير ابن عبدوس، وأخذ بيد ولادة قائلاً: ألا تحب سيدتى أن تخرج إلى الحديقة قليلاً لتتمتع بأنفاس النسيم فى هذه الليلة المقمرة قبل موعد العَشاء؟ أنا واثق أنك لا تملّين حديث شاعرنا أبى الوليد، ولكننا نترك فى الكأس بقية إلى ما بعد العشاء.

وقامت معه ولادة وهى تنظر إلى ابن زيدون نظرة مبهمة، فيها اعتذار، وفيها ألم وإشفاق.

سارت ولادة وابن عبدوس فانطلقا مع الضيوف هنا وهناك فى أفناء الحديقة يتجاذبون أطراف الحديث، ويتناقلون الأفكايه والنوادر فى مرح وابتهاج. وجلس ابن زيدون وحده مطرقاً وقد لعبت به هواجس نفسه، وعصفت به لواعج حبه: أين أنا؟ وأين كنت؟ ومن هذه التى كانت بجانبى حتى أخذها هذا المنحوس الطلعة، الأغمُّ القفا، الوغد المأفون؟ أهذه ولادة؟ ولادة بنت المستكفى التي صوّرها الله للجمال مثالاً، وجعلها للظَّرف عنواناً. ولادة التي تأنقت القدرة الإلهية فى خلقها لتكون نموذجاً لما أعدّ الله للمؤمنين من ثواب فى جنات النعيم، ومعنى مجسّماً لما حاول الشعراء أن يبوحوا ببعضه فوقف بهم الخيال، وضاق النظم، وعجزت القافية؟ وأين أنا منها؟ وأين منها ذلك الشاعر

التائه المضطرب، الذى أضاع رَدَحاً[1] من شبابه فى غزل كاذب، ونعيم موهوم، وأبواب الجنة منه على قيد خُطُوات، وحوراء الفردوس فى دار تكاد تصاقب داره؟ أنى رأيت فى عينيها حبّاً ملائكيّاً طاهراً، كاد يحترق له قلبى، وسمعت فى صوتها رنّة عذبة سحرت لبى. فهل أنا محب محبوب؟ هل أنا بهذا الجمال قمين؟ وهل تُقبل الجنة علىّ هكذا مرة واحدة من غير أن أخوض إليها المكاره؟ وهل يسعى إلىّ هذا الحسن الفاتن طائعاً مرخىّ العنان من غير أن أقضى فيه ليلة سهاد، أو أسفح دمعة عين؟ إننى لا أكاد أصدق. إن قوانين الدنيا ومناهج الأيام لا تأتى على هذا النحو. إن الدنيا لا تجود بنعيم إلا إذا أخذت من الجهد والكدّ والتبريح ما يساوى ثمنه أو يزيد، وهى إذا أعطت لا تعطى مرة واحدة هكذا بالهيْل والهيلمان[2]، ولكنها تبض بقطرة قطرة، حتى تفسد معنى العطاء والإحسان. لا. إننى مخطىء. إننى مخدوع. إنها لا تحبنى. وأنا رجل مغفَّل سريع إلى الحكم، وثَّاب إلى التشبث بالوهم. إنها فتاة مهذبة كريمة النجار، مرهَفة الذوق، رأت رجلاً شاعراً مغروراً، فأرادت أن تجامله وتلاطفه وترفق به، فابتسمت له، وأطالت معه حبل الحديث. هذا كل ما فى الأمر، لا أكثر منه ولا أقل، وهذا هو شأن النفوس النبيلة، تعطف على الغِرّ الجاهل المتبجح من أمثالى. أمّا أن أقول إنها تيمل إلىّ، فأمر مضحك.

ثم أخذ فى الضحك، ولكنه وقف عنه فجأة وقال عابساً: لا. لا. إن نظرتها الأخيرة إلىّ حينما دعاها هذا الغراب المشئوم للخروج إلى الحديقة، كانت كفلق الصبح، ليس فيها شك ولا مِرْية[3]، إن القوة البشرية أعجزُ من أن يصل بها التصنّع إلى هذا الإتقان. إنها كانت نظرة حزينة وامقة[4]. لقد قرأت فى عينيها كلّ شىء، وفهمت كل شىء، ولست من الغرارة والغفلة بحيث لا أفهم مثل هذه النظرات. لأترك الآن هذا، فقد فرغت منه، وبلغت الغاية، ولأنظر فى الدنيا التي بُسطت رحابُها أمامى فيَّاحة ناضرة، ترِفّ على جوانبها الورود والرياحين. سأكون زوج ولادة أجمل فتيات الأندلس وأشرفهن، وسأصعد إلى أسمى المراتب فى الدولة. ثم رفع رأسه هنيهة وقال مسائلاً نفسه: أسمى المراتب فى الدولة؟ من أين لى هذا؟ ابن جهور رجل مغلق ضنين، والوزراء حوله لئام عيّابون، لا

---

(١) مدة طويلة.
(٢) بالمال الكثير.
(٣) جدل.
(٤) فيها حب.

يريدون أن يصل إلى مراتبهم ناشىء طموح مثلى، والشيخان ابنا عمه محمد بن عباس، وعبد العزيز بن حسن، ا يستثقلان ظلّى، وينفران من أدبى وشعرى. ولكن نائلة ألقت فى أذنى بالأمس كلمات كان لها فى نفسى مواقع الماء من ذى الغلة الصادى. قالت: إن الوزارة ترفّ بجناحيها فوق بابى. ونائلة وثيقة الصلة برجال الحكم، وهى تعرف من شئون الدولة ما قد يجهله ابن جهور نفسه. ثم إنها لا تكذب، ولماذا تكذب؟ وهل لها غاية من وراء الكذب؟ إنها امرأة خبيرة طبّة[1] لبقة، وإلا فلماذا أسرعت وقدمتنى إلى ولادة، وفتحت أمامى باباً للرفعة وعظم الشأن لا يدخله إلاّ الوزراء وكبار الدولة؟ إن ولادة لا تجالس كاتباً فى الديوان، ولا تبتسم لصغير من عمّال قرطبة، فأغلب ظنى أن نائلة لم تدفع بى إلى هذه المنزلة إلاّ وهى جدُّ واثقة أنّى منها قاب قوسين أو أدنى. نفرّغ من هذا أيضاً ونحن منه على يقين.

ثم بدا على وجهه العبوس، وطافت بوجهه غمامة همّ ذهبت بنضارته، وأخذ يعضّ سبابته ويقول:

عائشة بنت غالب، هذه المصيبة التي قُذِفت علىّ من الجحيم، ورمانى بها إبليس اللعين ليفسد حياتى، ويبدد شبابى، ويقضى على آمالى. عائشة بنت غالب! إنها شرُّ بنات حواء إنها امرأة فاتكة هبّاشة، إذا ظفرت مخالبها بفتى فعليه الرحمة، وأحسن الله فيه العزاء، إنها العنكبوت ذو الأيدى الطّوال، والمخالب الحِداد. إنها الذئبة الجائعة التى لا تترك فريستّها وفيها دمّاء. ويل لى منها وويل لمقتبل أيامى، وما كنت أرتجيه من هناء وسعادة! ليت شعرى ما الذى شنصبّه علىّ من صواعق بعد أن وصلت إليها رسالتى؟ إنها لن تتركنى بعد هذه الرسالة لأهنأ بزواج ولادة، إنها ستعمل كلّ شىء لتُفسد ما بينى وبينها، إنها ستهجُم عليها فى دارها، وتملأ الدنيا ضجيجاً بثلب عرضها وعرضى، وستنشر فى لمحافل والمجامع من التهم ما يتعفف عن سماعه غلمان الحانات، إنها ستذهب إلى أبى لحزم بن جهور فى دموع البائسة المخدوعة، فتملأ صدره علىّ غلاًّ وغيظاً، ثم؟ ثم إن عندها رسائل منى كنت أبعث بها إليها أيام جهلى وجنونى، وأتندّر فيها بعظماء الدولة، وأتبسّط فيها بالطعن فى ابن جهور ووصفه بالرياء والنفاق وسُخف الرأى والتدبير. رامصيبتاه! إنها ستجمع كل هذه الرسائل فى أمانة وصيانة، وستُطلع كلّ وزير على ما

---

١) حاذقة وماهرة.

يخصّه منها، وهكذا أراني سقطت حينما ارتفعت، وطفوت كما يطفو الغريق ليغطس فى الماء إلى غير رجعة! ما الذى دفعنى إلى هذه الحيّة الرقطاء؟ وما الذى أوقعنى فى حبالها؟ الجهل والشباب العربيد والتظرُّف الممقوت! خسىء أبو الوليد! ولعن الله لحظات مرّت به تحت سقف هذه الهرة الشكسة النهوس! وبينما هو يتعثَّر فى هذه الخواطر السود وتتعثر به، إذ سمع نائلة تصيح بالعبيد والغلمان قائلة:

ادعوا الضيوف إلى العشاء فقد أعدّ الطعام. فأفاق من سبَحاته كما يفيق المحموم من نوم مضطرب كريه، وهزّ رأسه فى عنف، كأنه يريد أن يُميط عنه مخيفات الهواجس، وقال لنفسه أو قالت له نفسه، إن من الخير ألاّ أسبق الأيام، ومن الخير ألاّ افترض الكوارث، وعلىّ أن أتمتع بالساعة التى أنا فيها، وأن أترك ما لغد لغد، ولله أمر هو فاعله، وحكم هو قاضيه، لا راد لقضائه، ولا معقِّب لحكمه. ثم تقدّم إلى نائلة باسماً وهو يقول:

- لقد أحسنت بى يا سيدتى إذ مهدت لى سبيل الوصول إلى ذلك الملك السماوى الذى كانت تعجز عن بلوغه الأسباب، وتتعثر الأوهام. فأجابته نائلة وهى تهزّ كتِفه فى حنّو:

- اصبر يا فتى، فإنك لا تدرى ما تدبره لك نائلة من رفيع الشأن وبعيد المنزلة. ثم تنهدت وقالت: والله ما أدرى سرّ ذلك الحافز العنيف الذى يدفعنى إلى الاهتمام بأمرك، والكدح فى الوصول بك إلى أسمى الغايات، وبذل الجهد فى حياطتك من كل يد تمتد إليك بأذى. لعلى أحببتك يا أبا الوليد لأنى بعد أن فقدت ابنى منذ حين بعيد بقى حنان الأمومة فىّ كميناً حائراً متطلعاً، فلم يجد بين شباب قرطبة إلا إياك، لقد مرّ بحياتى كثير وكثير ممن تزدان بهم المحافل، ولكن قلبى لم يهتف إلا بك، ولم يرفّ جناحاه إلا لك، و«لهوى النفوس سريرة لا تعلم» كما يقول متنبى المشرق. على أنك مع هذا سيد الفتيان وسامة وقسامة وجُرأة وبطولة وأدباً - لست أراك إلا ابناً لى يا أبا الوليد، وسأكون ملَكك الحافظ، ومجنّك الوافى فى جو قرطبة المضطرب بالفتن والدسائس والأحقاد. هلم إلى العشاء يا بنى.

ومُدّت المائدة، ووضعت عليها غرائب الألوان، ونفائس الأطعمة وأحاط الخدم والعبيد بالضيوف فى أدب واحتفاء، يفهمون الإشارة، ويكتفون بالإيماء، وجلست ولادة وإلى يمينها ابن زيدون، وإلى يسارها أبو الوليد محمد بن عميد الجماعة، وأخذ الضيوف

يتنقلون بين الطعام والشراب بطرائف الأحاديث، ومدّ ابن زيدون يده بطبق من الطعام نحو ابن الحناط الكفيف وهو يقول:

أبدَع قصيدتك التي تقول في أولها:

راحــت تذكُّرُ بالنسيم الراحا وطفــاءُ تكســرُ للجُنــوح جَناحا
أخفـى مسالكَهــا الظــلام فأوقدت من برقهــا كى تهتــدى مصباحاً
وكأن صوتَ الرعــد خلفَ سحابها حادٍ، إذا ونــتِ السحائــبُ صاحاً

فقال أبو حفص بن بُرد، وكان يحقد على ابن الحناط:

- شعر حسن، ولكنه يحتاج إلى صقلة الفن.

فرفع الكفيف رأسه فى غضب، وكان شيخاً فى الثمانين. وقال فى سخرية:

- ما الذى يحتاج فيه إلى صقلة الفن يا مولاى الوزير؟!

- يحتاج إلى كثير يا سيدى: إنك تقول «راحت تذكر بالنسيم الراحا» ثم تصف ليلة مظلمة مبُرقة مُرعدة، فأين مكان النسيم هنا؟ إن هذه الليلة يجب أن تكون فيما يقتضى التصور ذات ريح عاصفة. أما كلمة «كى تهتدى» فحشو ثقيل أفسد عليك البيت كلَّه، وكان يجب أن تفتح آخرها، لأن المضارع اليائىّ يظهر عليه النصب، والعجيب أنك تصف سحابة وطفاء من أول بيت فى القصيدة ثم تقول: «وكأن صوت الرعد خلف سحابها» والضمير فى «سحابها» يعود إلى السحابة، فيكون مُحصِّل الكلام: وكأن صوت الرعد خلف سحاب السحابة. وهذا تهافت لا يستطاع الفرار منه، وبعد أن شبّهت الرعد بالحادى قلت: «إذا ونت السحائب صاحا» والشعر يتطلب أن تقول: «إذا ونت الركائب صاحاً» حتى يجىء للحادى ما يلائمه. فاكفهرّ وجه الكفيف، وانتفخت أوداجه من الغضب، وصاح: هذا هُراء! ولكنّ الحق الذى لا مرية فيه أنك أردت أن تسرق منى هذه المقطوعة، فأسأت الصناعة، ولم تتقن السرقة حين تقول:

ويوم تفنّــن فى طيبه وجــاءت مواقيتُــه بالعجبْ
تجلَّــى الصبــاح به عن حياً قد اسقــى، وعــن زهــر قد شرب
ومــا زلــت أحســب فيه السحا ب ونــار بوارقهــا تلتهــب
بخاتــىَّ توضــع فى سيرها وقــد قُرعــت بسياط الذهب

فقولك : «وجاءت مواقيته بالعجب» كلام لم يأت إلا لتكملة البيت، ثم ما هذه البدعة فى «قد اسقى» فإن العرب حقّقوا الهمزة فى «أسقى» وأنت تأبى إلا أن تسهّلها، قد تقول إن هذه ضرورة، فأجيبك بأن الضرورة لا يلتجىء إليها شاعر يتحدّى كبار الشعراء. والبيت الثالث ألفاظ كثيرة متزاحمة ليس فيها إلا أن البرق كالنار. ثم تقول: «وقد قرعت بسياط الذهب» والقرع يكون بالعصا لا بالسوط يا سيدى! أمّا سياط الذهب هذه، فهى أدهى وأشنع من «ماء الملام» التى عابوها على أبى تمام.

وأراد ابن زيدون أن يحول دون الجدل والخلاف، فقهقه وقال: إن الشعر لا يبحث فيه على هذا النحو، ولو تعمّدنا النقد، وتكلّفنا التدقيق، لم يسلم بيت لشاعر من المتقدمين أو المتأخرين. فصاح ابن الحناط قائلاً:

- لا يا سيدى، إن آفة الشعر أن ينقده من لا يفهمه. فأسرع شاب فى العشرين قدم من «المريّة» منذ أيام وقال:

- إذا أذن لناشىء مثلى فى الكلام، فإنى أقول: إن الأندلس جميعها تدين فى الشعر لثلاثة، هم: ابن برد وابن الحنّاط وابن زيدون.

فضحك القوم، ومال ابن الحناط على من بجانبه سائلاً:

- من هذا الفتى؟

- هذا عبد الله بن الحداد شاعر موسيقى مبدع، وله فن فى الغزل عجيب. وقالت نائلة:

- إنه يتغزل فى الأسبانيات يا مولانا الشيخ، يتغزل فى «نورا» الأسبانية التى فتنته. فهمست ولادة فى أذن ابن زيدون ترجوه فى أن يطلب إليه أن ينشدهن شيئاً من هذا الغزل. فصاح ابن زيدون: أنشدنا يا عبد الله بعض نُوريّاتك. فتردد قليلاً ثم أنشد:

متى أحظى بمرآك ويهدأ قلبىَ الشاكى؟
رأيت الحسن قد ولا كِ إحيائى وإهلاكى
ولا أسطيع سلواناً فقد أوثقت أشراكى
فكم أبكى عليك دماً ولا ترثين للباكى
فهل تدرين ما تقضى على عينىَّ عيناك؟

وما يذكيه من نار بقلبي نورُك الذاكي؟
نُوَيرة إن قَلَيت فإنـ ـنـي أهواكِ أهواك

ثم أنشد:

وبين الحسان الغيد لي سامريَّةٌ بعيدٌ على الصبِّ الحنيفيّ أن تدنو
مثلَّثةٌ قد وحَّد الله حسنها فثنَّى في قلبي بها الوجد والحزن

فطربت ولادة وقالت: يعجبني الشعر الواقعيّ. فقال أبو الوليد محمد في شيء من الدعابة: إن شعر صديقنا ابن زيدون كله واقعي، وأبياته الجديدة تُغنَى الآن في كل مكان. ثم انطلق ينشد:

متى أبثكِ ما بي؟ يا راحتي وعذابي
متى ينوب لساني في شرحه عن كتابي؟
يا مُنيةَ المتعزي وحجَّة المتصابي
الشمسُ أنت توارت عن ناظري بالحجاب
ما البدرُ شفَّ سناه على رقيق السحاب
إلا كوجهك لما أضاء تحت النقاب

وهنا صاحت نائلة قائلة: هذا هو الشعر الذي يُذهل الفتاة عن نقابها، ويُبكي العجوز على شبابها. فظهر الكمد[1] في وجه ابن عبدوس، وعمد إلى توجيه الحديث إلى ناحية أخرى، فالتفت نحو ابن حيان وقال:

- عثرت من أيام على نسخة من تاريخك يا مولانا، فأعجبت به، غير أنه عيبة عيواب، فقد ملأته بمثالب الناس، ولم تعفُ لأحد فيه عن زلة.

فاتجه إليه ابن حيان وقال:

- وماذا أعمل يا فتى الأسبان، والدنيا خُلقت هكذا؟ وتاريخي صورة للدنيا التي أعيش فيها، فأحسنوا أعمالكم أحسن كتابتي.

- ألم تقل عن أبي عامر بن شهيْد مفخرة الأندلس جميعها في أدبه وظرفه وحلو

(١) الحزن والغم الشديد.

فكاهته: «كان بقرطبة فى رقته وبراعته وظرفه، خليعَها المنهمكَ فى بطالتـه، وأعجب الناس تفاوتاً بين قوله وفعله، وأحطهم فى هوى نفسه، وأهتكهم لعرضه، وأجراهم على خالقه؟» فأسرع ابن زيدون وقال: وهكذا والله كان أبو عامر ما ظلمه الرجل فتيلاً. وهنا نظرت ولادة إلى ابن حيان وقالت:

ـ لو بدا لك أن تترجم لى فى تاريخك، فبحقى عليك ماذا كنت تقول؟ فابتسم ابن حيان وقال:

ـ كنت أقول: «إنها فى زمانها واحدة أقرانها: حضورَ شاهد، وحرارَة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر» ثم سكت فصاح ابن برد: أتمم يا أبا مروان، فإن الحية لا بد أن تمج لعابها: فقال ابن حيان:

ـ لا. إنى لا أقول فى ابنة المستكفى إلا هذا أو مثله، وإذا أردت أن أمسها مسّاً خفيفاً قلت: «على أنها ـ سمح الله لها، وتغمّد زللها ـ اطَّرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل». فضحك القوم وتصايحوا. قال ابن زيدون: وماذا كنت تقول فىّ؟ فزفر ابن حيان وقال:

ـ كنت أقول: «فتى الآداب، وعمدة الظرف، والشاعر البديع الوصف، ذو الأبوّة النبيهة بقرطبة، والوسامة والدراية وقوة العارضة، غير أنه سليط اللسان، جرىء الجنان، يذهب به طموحه كلّ مذهب، ويهوّن عليه كل مطلب».

وأسرع ابن عبدوس وقدّم له طبقاً من القطائف فى أدب وملقَ، وقال فى صوت المستعطف: وماذا كنت تقول فىّ يا سيدى؟

فاتجه إليه أبو مروان وقال: أعفنى بالله فإنى لا أحب أن أجبهك بما لا تحب! فألحّ ابن عبدوس وألحّ القوم فقال:

ـ أديب بلغ به أدبه أبعد ما يبلغه سواه، وقذفت به حيلته إلى ما فوق مرتقاه، يزاحم العرب بدهائه، ويستر نسبه بجوده وذكائه، دَنُّ شراب، وزير كواعب أتراب، يعادى كل سبَّاق سبَوح، ويحسد كل مجدّ طموح».

فوقف ابن عبدوس غاضباً وقال:

- وهذا سبٌّ صريح، وقذف أملاه حقد كمين، وإنى أرفع مكانةً من أن آبه لمثل هذا الهُراء.

فأسرع ابن برد وقال:

- إن الشيخ لم يكن يريد أن يقول عنك شيئاً، ولكنك الححت والححت. بعد أن ألمح لك برأيه فيك.

وهنا صاحت نائلة: إننا لا نغضب لما يكتبه أبو مروان، والمؤرخ يجب أن يكون حرّاً فما يكتب، وإلاّ فسد التاريخ، وضاعت ثقة الناس بالمؤرخين، ومما يهون الأمر أنه لا يحابى صديقاً لصداقته، ولا يشهّر بعدو لعداوته. أنا أعرف ما كتبه عنى وأستحلفه بالله ورسله وأنبيائه إلاّ يذكر منه الآن حرفاً. هلمّ إلى قاعة الشراب.

فانطلق القوم يتزاحمون، ودار عليهم السقاة، وفاحت روائح النّدّ والعود، وجلست «غاية المنى» المغنية بين جَوْقتها، وأخذت بعد أن أصلحت عودها تغنى بصوت كأنه همسات الأمل فى نفس اليائس الحزين، وكانت تردد من شعر ابن زيدون:

وَضح الحقُّ المبينُ ونفى الشكَّ اليقينُ
ورأى الأعداء ما غرّ (م) تهمٌ منه الظنون
قل لمن دان بهجرى وهواه لىّ دين
يا هلالاً تتراءا ه نفوسس لا عيون
عجباً للقلب يقسو فيك، والقدُّ يلين!
ما الذى ضرّك لو سُرّ (م) بمرآك الحزين؟
وتلطّفت لصبٍّ حينُه فيك الحزين؟
فوجوه اللّفظ شتى والمعاذير فنون

وطار الطرب بالقوم بعد أن طار الشراب برءوسهم. ووقف «الزّرافة» الممخرق[1] على كرسىّ فمدّ رقبته الطويلة، وصاح كما يؤذن الديك ثم قال:

يا أدباء قرطبة، ويا شعراء قرطبة؛ إذا كنتم سمعتم قول أبى نواس:

فاسقنى حتى، ترانى أحسَبُ الديك حِماراً

(١) من مخرق ومعناها كذب وموه واختلق.

فاملئوا عيونكم منى جميعاً وتبينوا فى وجهى : أكان أبو نواس صادقاً؟ ثم نهق حتى لم يشك من يسمعه من بعيد أنه يسمع حماراً ، ووثب وهو يصيح :

لقد كان اللئيم صادقاً فاشربوا واطربوا ! !

وجاء دور الراقصات الأسبانيات فبهرن العقول بفنهن ورنين صُنُوجهن ، وانقضى الليل فى مرح وبهجة ، حتى كاد يبدو عمود الصباح ، فأخذ القوم فى الأنصراف آسفين على ساعات حلوة اختطفوها من يد الزمان .

وعندما هم ابن زيدون بشكر نائلة وتوديعها همس فى أذنها قائلاً : إنى أخشى عاقبة الرسالة التى بعثت بها إلى عائشة يا خالتى ، فخلِّصينى بالله منها ، فإنها المعول الذى سيهدم كلّ ما بنيت . فأجابته باسمة : طب نفساً أبا الوليد فسوف أزورها ، وسوف أستلّ ذنابى العقرب فلا تعود لها صولة .

وأقبلت ولادة عليهما متألقة باسمة ، فودعته وشكرت نائلة على كريم ضيافتها ، وجميل ما أعدّت من أسباب السرور .

٤

مَن عائشة بنت غالب؟ ومن أى أرومة نبتت؟ فقد ترامت حولها تهم وخُلعت عليها صفات تغرى المتطلع إلى تطلب المزيد. فمن عائشة؟ ومن أبوها؟ ومن أمها؟ ومن أىّ عُش درجت، وفى اى الأجواء نشأت؟

كانت «فلورندا» أمٌّ عائشة تقيم بمدينة «شنت ياقب» أو القديس يعقوب، فى أسرة رقيقة الحال، وكان أبوها «جارسيا» يخدُم فى الكنيسة نهاراً، ويرتزق من اللصوصية وقطع الطريق ليلاً، وكانت كنيسة شنت ياقب أعظم كنيسة بأسبانيا، وأكبر مشهد فيها،يحجإليها الناس من بلاد القوط والنوبة، ومن أقصى بلاد رومة وما وراءها، فكان جارسياً ينال بالنهار من بعض صدقات الحجاج، ويسطو بالليل على بعض أمتعتهم.

وفى صبيحة يوم من أيام شعبان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، شمل الذعر مدينة شنت ياقب، واستولى الهلع على أهلها، ودقت أجراس الكنيسة الكبرى، وتصايح الناس فى أصوات مرتعدة واجفة قائلين: لقد قرب جيش المنصور بن أبى عامر من المدينة. !!

إنهم كانوا فى أمن آمن، وكانوا يظنون أن بعد مدينتهم ووعورة المسالك بيْنها وبين قرطبة تجعلهم فى حِرْز من غزوات العرب، ولكن أصحاب الأخبار حملوا إليهم أن المنصور بلغ بجيوشه مدينة «قورية»، ثم قطع المفاوز حتى بلغ مدينة «البرتقال» على نهر «دُوَيْرة» وهناك أنشأ على النهر جسراً من السفن فعبره جنوده، وانطلقوا كأنهم شياطين الجن إلى السهول والقيعان، وما زالوا يقطعون أنهاراً، ويخترقون جبالاً، حتى بلغوا جبلاً

شامخ الذُّرا وعر الشِّعاب، فأمر المنصور الفَعلة بتمهيد طريق فيه يتسع للجيش، فأخذوا يشقونه بالحديد حتى بلغوا أقصاه، وانهمر سيلهم منه إلى أن وصلوا إلى نهر «أبله» ولم يصبح بينهم وبين شنت ياقب إلا أيام قصار.

ذُعر الرجال، وولولت النساء، وبكت الأطفال، ولم يجد أهل المدينة نجاة من هذه الكارثة إلا الهرب، فجمعوا ما خفّ من شملهم، وانسابوا من المدينة كأنهم أسراب نحل ملأ المشتارون بالدخان خلاياها. شيوخ وشبان وأطفال، ونساء يحملن صغارهن، ودموع وحسرات وأنّات. أين يذهبون؟ إنهم يفرون من الموت إلى الموت، ولكنهم يظنون أن موتاً مشكوكاً فيه خير من موت محقق. والناس في ساعات الوهَل[1] يطير صوابهم، فيركبون من الخطر ما هو أشدُّ مما يتوقعون من خطر. إن غريزة المحافظة على الحياة قد تنقلب جنوناً يودى بالحياة، أليست الفراشة تُلْقى بنفسها فى النار لأنها تراها مصدر الحياة؟ ألا تلسع النحلة للدفاع عن بقائها، وفى لسعتها موتها؟ ألا يقتل المنتحر نفسه، لأنه يحب الحياة؟ إن السفينة إذا أدركها الغرق جُنّ ركابها وماج بعضهم فى بعض، فماتوا قبل أن يلتقمهم اليمّ. والدار قد تشب فيها النيران فيقتل الذعر أهلها قبل أن تلتهمهم النيران. والفارُّ من الثعبان الأرقم لو ثبت قليلاً ما عدا عليه الثعبان. والحقُّ أن فى الخوف من الموت موتاً، وأن الذى يبذُل الحياة توهب له الحياة.

خرج جارسيا وزوجه «مارايا» وابنته فلورندا مع الفارّين الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، حذر الموت، وكان الرجل فارع القامة، قوى البناء، موثَّق العضل، فحمل على ظهره ما لا يسعهم تركه من خفيف المتاع وكانت زوجه ناحلة سقيمة الجسم، تنظر فى سهوم واضطراب إلى ما يمتد إليه طرفها من المفاوز والجبال، ثم تهز رأسها فى حسرة ويأس، وتدعو جميع القديسين والقديسات لإنقاذها مما هى مقبلة عليه من موت محتوم. وكانت فلورندا فى نحو الخامسة عشرة من سنيها، وقد خلع عليها الشباب والجمال أغلى ما يخلعه الشباب والجمال على فتاة من حُلىّ وحلل.

سارت الأسرة فى صمت حزين، وكمد دفين، وهى لا تدرى: أىّ مكان تريد؟ ولا أىّ طريق تقصد؟ ولكنها كانت تريد أن تفارق المدينة، تريد أن تفرّ من ذلك السيل العربى

(١) الفزع.

الجارف الذى يوشك أن يبتلعها، تريد أن تحيد عن طريق ذلك الضرغام الذى سمعت زئيره عن بعد يُصمّ آذان السهول والآكام.

وكان الصباح شديد البرد، وكانت الريح زعزعاً. فكانوا كثلاث ريشات ظفرت بها الريح فى يوم عاصف، فقذفتها هنا وهناك فلم تستطع ثباتاً ولا دفعاً. سارت الأسرة أياماً حتى نال منها الأين، وهرأ(١) أطرافها البرد، فلجأت إلى سفح جبل يصدُّ عنها صولة العواصف، وجلست مارايا القُرفصاء وقد دفنت وجهها بين ركبتيها من البرد، وأخذت ترسل أنفاساً متلاحقة مضطربة، ورمت فوقها فلورندا طرفاً من دثارها، وأخذت تبثُّ فى أذنها كلمات الحنان، وتحثها فى رفق على الصبر والتجلد. أمّا جارسيا فكان فظاً صخريَّ الفؤاد، لم ينل منه هذا المشهد المفجع إلا السخرية والتهكم، فزجر زوجته فى غلظة وعنف على ضعفها وانحلال قواها.

ولكنّ ابنته، وقد ضاق به ذرعها، التفتت إليه وقالت: إنها لا تستطيع المشى يا أبى. إن يديها قطعتان من جليد، وقد لمستُ رأسها فإذا هو يتّقد من الحمى. ثم أرسلت دمعتين يائستين وصاحت: إنّ أمى مريضة يا أبى. انظر إلى عينيها، إنك لا تجد بهما بريقاً. ثم احتضنتها إلى صدرها لتُعيرها قليلاً من دفء شبابها، ولكنّ مارايا كانت غى غير حاجة إلى دفء، لأنها خرجت من دنيا العواصف والأنواء، وتركت شعاب أسبانيا الوعرة القاسية، إلى شعاب محجّبة عن العيون!

صرخت فلورندا حينما رأت أمها جثة فارقتها الحياة، ونظر جارسيا فى ذهول وَوهل إلى امرأته وقد أحاطت بها رهبة الموت، ودارت حولها هالة من ذلك الجلال الذى لا يعرفه الأحياء إلا فى لحظات الوداع. ومن العجب أن هذه اللحظات قلبت طبائع الرجل، أو أظهرت الجانب الخفىّ المكبوت من طبائعه على الأصح، فما كاد يستيقن موت زوجة حتى انكب عليها يقبّلها وهو يبكى بكاء الأطفال، ويندب ندبَ الثكالى، ويناجيها فى لوعة وحسرة بأرق ما يناجى به حبيب حبيباً. وكأنه كان يلمح ماضى قسوته وجفائه، وسابق تفريطه فى حبها، فيزيده كلّ ذلك بكاء وألماً وإفراطاً فى الحزن والأسى، وحينما عاد إليه بعض صوابه شقّ لها قبراً تحت شجرة تين، وعمد إلى غصنين فصنع منهما صليباً أقامه عند

(١) اشتد البرد عليها.

رأسها، ثم حمل متاعه، وأخذ بيد ابنته، فسارا مطرقين كأنهما لا يزالان يحسّان رفيف أجنحة الموت. وقالت البنت فى صوت خافت:

- إلى أين يا أبى؟

- لا أدرى وحق العذراء يا فلورندا.

- أرى أن نعود إلى مدينتنا، فإن العرب لن يكونوا أقسى مما نحن فيه من هول وعذاب.

- نعود إلى مدينتنا؟ هذا لن يكون يا فتاة. ثم مدّ شفتيه فى سخرية وألم وقال: ماذا فعلنا أو فعل بنا القدَر؟ أخرجنا لنفقد أعزّ امرأة فى هذا الوجود، ثم نعود أدراجنا كأننا أدّينا واجباً مقدساً؟ لا يا فتاة. لن نعود إلى شنت ياقب بغير أمك. إن كل شىء فيها سيذكرنى بها، وسيهمس فى أذنى بأنى لم أكن لها زوجاً صالحاً، ولكننى كنت كلباً عقوراً. خير لى أن أموت وأن تموت معى هذه الذكريات.

- وأين نذهب يا أبى؟

- إلى قرطبة.

- إلى قرطبة قصبة الإسلام، وعرين الضوارى، ووكر النسور الكواسر، الذين فرّرنا من بطشهم، وخاطرنا بالحياة للنجاة من شرّهم؟ لِمَ لا نذهب إلى الشمال، ونلجأ إلى «ليون» أو «نافار» أو «قشتالة» حيث نجد فى ممالك النصارى الأمن والسلامة، وحيث نعيش مع قوم ديننا دينهم، وبلادنا بلادهم؟

- نعيش بينهم شهراً أو شهرين، ثم تقع الواقعة، فنعود إلى الفِرار واقتحام الأخطار، والتعرض لموت محقق!

- كيف يا أبى؟

- إن هذا الخليفة العربىّ الذي يسمونه المنصور لن يستقرّ له قرار حتى يُخضع جميع بلاد أسبانيا، وحتى يزحف سيله إلى الأرض الكبيرة، على أنه استولى على ليون، وأذلّ نافار، وإذا لم يملك قشتالة اليوم فسيملكها غداً. أتعرفين أن غزوته لشنت ياقب إنما هى الغزوة السادسة والأربعون. وأنها ستتلوها غزوات وغزوات. إن من الخير لنا أن نلجأ

إلى قرطبة عاصمة الإسلام لنأمن شرَّ الغزو إلى الأبد، ونعيش بين المسلمين أنفسهم، لأنهم لا يُؤذون ذِميًا ولا مستأمِناً، وكلُّ ما يطلبونه من مثلي جزية لا تزيد على اثنى عشر درهماً فى العام. هلمّ إلى قرطبة يا بنيَّتى، فإن المثل الأسبانى يقول: إن صديق الأسد لا يخاف وثبته.

إنطلق جارسيا وابنته نحو قرطبة، وقد فرغ زادهما، فكانا إذا نزلا قرية استطعما أهلها، وكانت فلورندا تحسن الرقص والغناء، فكانت تنتقل مع أبيها من باب إلى باب ترقص وتغنى، حتى ينالا من صدقات المحسنين ما يكفيهما، وما زالت هذه حالهما حتى بلغا قرطبة، فنزلا منها بالرَّبَض الجنوبى، حيث يقيم أكثر النصارى والأسبان المتسلمِّين، ولم يجد الرجل من وسيلة للرزق إلا أن يبيع الفاكهة متنقلاً بها طِيلة النهار وطرفاً من الليل بين قرطبة وأزقتها، وأبت فلورندا إلا أن تُعين أباها، فكانت تجمع كل يوم بعض دريهمات من الرقص والغناء، وكانت هذه الدريهمات تزيد فى كل يوم كلما زاد الإعجاب بها والإقبال عليها.

وبينما كانت فى أحد الأيام تُبرز فنونها فى سوق البزّازين[1]، وقد التفّ حولها حشد حاشد من السابلة الذين أخذوا برنّات صنوجها، إذ مرّ «بترو» الذى ما كاد يسمع الرنين والإيقاع، حتى هزّه الطرب، فدنا منها فإذا حسنٌ فتّان، وجسم ريّان، وفنٌ فى الرقص والغِناء لو ثُقِّف لفتن الناس وهزّ الأندلس.

كان بترو الأسبانى صاحب أكبر حانة بالمدينة، وكانت له عين بصيرة بالجمال، وأذن موسيقيَّة تُدرك أدقّ الفروق، وتحسُّ بأخفى درجات النشوز. وكان يجلب إلى حانته أبرع الفاتنات الأسبانيات وأجملهن، وامتدّت تجارته إلى ما وراء الأندلس، فكان سماسرته فى الغرب والشرق يبعثون إليه أجمل بضائعهم من فرنسا ومراكش ومصر والشام وبغداد، وكانت حانته مثابةً لفتيان قرطبة المترفين الذين أطغاهم الفراغ والشباب وأفسدتهم الجدة.

رأى تبرو فلورندا فملكه الدَّهش، وعزّ عليه أن يرى تلك اللؤلؤة اللامعة، وتلك الثروة الفنيَّة الغالية، تتقاذف بها طرقات قرطبة، هذا يرمى لها بدرهم، وهذا يلوى وجهه عنها كلما مدت إليه يدها بدفِّها.

---

(1) باعة الثياب من الكتان والقطن.

دَهِش بترو وعجب، فمد يده إلى جيبه وأخرج ديناراً، فلما مرّت الفتاة تستجدي بدفّها، رمى فيه الدينار. فنظرت إليه مبهورة وقالت:

- هذا دينار يا سيدى! فأظهر بترو الحيرة والتردد وقال:

- أصحيح هو دينار؟ لقد أخطأتُ يا فتاة، فقد أردتُ درهماً وأراد جمالك وفنُّك ديناراً، خذيه باركت العذراء لك فيه، فأخذته. فلورندا وهى لا تكاد تصدّق أنّ أصابعها تطبق على دينار. وطافت برأسها أمانيُّ وأحلام، وأخذت تفكّر فى خير الطرق التي تفجأ بها أباها لتطلعه على ذلك الكنز الثمين. ثم سارت لتعقد حلْقه أخرى بسوق الصيارف، ولكنها رأت بترو يتبع خُطُواتها، فلما دنا منها قال:

- ما اسمك يا فتاة؟

- فلورندا.

ما أجمل الاسم، لولا أنه يُثير فى نفس الأسبانيّ ذكريات لا تطفىء نيرانها الدموع!

- ذكريات؟ أنا لا أفهم ما تقول.

- عجيب. ألا تعرفين شيئاً من تاريخ أسبانيا يا فتاتى؟ ألم تحدثك العجائز بتلك الداهية الدهياء التي حلّت بأسبانيا بنزول العرب فيها؟ فظهرت سذاجة الجهل واضحة على وجه فلورندا الجميل وقالت وهى تهز رأسها:

- لا. لم يحدثنى أحد.

- إن فلورندا بنت يوليان هى التي أضاعت مُلك أسبانيا، ووضعته لقمة سائغة فى فم العرب.

- امرأة فعلت هذا؟!

- امرأة ورجل، وقديماً أخرجت الجنة من ظلالها رجلاً وامرأة. فثارت رغبة فلورندا لمعرفة ما يقصد، لأنها فى الحق لم تفهم إلا قليلاً فقالت: حدثنى بحق «جوليوس» كيف أضاعت فلورندا جنة الأندلس.

- فلورندا يا فتاتى كانت فى بلاط لِذْريق ملك أسبانيا، فوصل إلى علم أبيها عن

الملك ما يمسّ شرفه، فغضب، ودفعه حبُّ الانتقام إلى أن يذهب إلى موسى بن نصير قائد العرب بإفريقيَّة، ويمُدَّه بالسفن، ويُرشده إلى مواطن الضعف فى الدولة، ويذلل له السبيل لفتحها.

ـ لعن الله لذريق، ولعن الله فلورندا هذه؛ لن أتسمَّى بهذا الاسم بعد اليوم. آه يا سيِّدى... فأسرع بترو يلقّنها اسمه:

ـ بترو.

ـ آه يا سيدى بترو لو رأيت ما فعله العرب بولايتنا لرأيت ما تشيب له النواصى، إنهم شياطين مَرَده، ينسفون الجبال، ويثبون فوق الأنهار، كأنهم أسود لها أجنحة النسور. وهنا طفرت الدموع من عينيها فلم تستطع لها دفعاً وقالت: بهؤلاء العرب فقدت أمى يا سيدى بترو، لقد وثبوا على شنت ياقب كأنّهم العاصفة الهوجاء التى لا تبقى ولا تذر، فخرجنا من المدينة ليقتلنا البرد والجوع والكَلال.

ـ أنت من شنت ياقب إذاً؟

ـ نعم.

ـ مع من تعيشين يا فتاتى؟

ـ مع أبى جارسيا.

ـ وأين تسكنين؟

ـ فى قاعة بزقاق الصيادين.

ـ سأزور أباك الليلة، ثم مد إليها يده فحيَّاها وانصرف وهو يحدث نفسه ويغمغم: إنها كنز ثمين. إنها بوق الساحر الذى إذا نفخت فيه ألقى إلىّ فتيان قرطبة ما فى جيوبهم ذاهلين مأخوذين. عجيب أمر هذه المصادفات، تُلقى بين يديك فى سهولة ويسر ما لو ضربت فى الأرض إليه أعواماً لم تجده! وكثيراً ما تضع هذه المصادفات التبر فى الأرض الجرداء، وكثيراً ما تقذف باللآلىء بين القُمامات، والناس يمرون بها، وقد نهكهم الفقر، ونالت منهم البأساء، وهى على قيد نظرة منهم. فلورندا؛ لو بعثتُ إلى أقصى بلاد الروم، وأبعد مطارح التركستان لم أجد لها مثيلاً!

والتقت فلورندا بأبيها فى حجرتهما المظلمة بعد أن أجهدهما كدُّ النهار، فرأته عابساً منهوكاً، فإنه لم يترك بقرطبة وأرباضها سوقاً أو طريقاً إلا سلكه صائحاً مرغباً فى اقتناء فاكهته، واصفاً جمالها ولذة مذاقها، ولكنّ الناس كانوا فى هذا اليوم فى صمم عنه وعن فاكهته، كأنهم أقسموا يميناً مؤكدة ألا يذوقوا للفاكهة طعماً أو كأنهم رأوا فى الفاكهة سمّاً زعافاً فخافوا أن تمسها أيديهم.

قالت فلورندا بعد أن قبّلت أباها:

- كيف الحال يا أبتِ اليوم؟ فابتسم جارسيا ابتسامة اليائس وقال:

- أحسن حال يا حبيبتى؛ حملت الفاكهة فى الصباح، وجئت بها كاملة فى المساء، بعد أن تمتع التفاح بمشاهدة كل ما فى المدينة من أسواق وميادين ثم عاد سالماً إلى مقرّه، ولكنّ الخبيث كان يلحّ علىّ قبل أن تدخلى فى أن أريه المدينة غداً وبعد غد، فقبلت غير أنى اشترطت عليه ألاّ أحمل الميزان، فقد أصبحت فى غير حاجة إليه!

- ما الخبر؟

- لم أبع بدانق. فإذا كان لديك درهم أو درهمان فاذهبى وأتينا بما نتبلّغ به الليلة. فتصنّعت فلورندا الجزع، وأمرت سحابة من اليأس أن تغيّم على وجهها ثم قالت:

- إننى لم أكسب دانقاً[1] اليوم، فماذا نعمل؟

- عظيم! نبيت على الطوى يا حبيبتى، وندعو للمنصور بن أبى عامر بدوام النصر والتأييد؟ أتعرفين لم حُرمنا الرزق هذا اليوم يا فلورندا؟ حرمنا لأنه يوم أحد، وهو يوم الراحة منذ خلق الله السماوات والأرض.

- نعم إنه يوم الأحد. ثم هزّت ثوبها فسقط منه شىء لامع التقى بأشعة المصباح الواهنة، فأرسل شعاعاً وهّاجاً أسر عينى جارسيا فصاح: ما هذا؟ ثم مدّ إليه كفه فالتقطه، وقد انتابه ما يشبه الجنون، وأخذ يتمتم: دينار! دينار! هذا دينار يا فلورندا! أنّى لك هذا؟ وكيف ظفرت به؟

فابتسمت فى وجهه وقالت فى خبث:

- ببركة يوم الأحد.

---

(١) الدانق سدس الدرهم.

ـ قولى بحقّ المسيح كيف حصلت عليه؟ فهزّت كتفه فى حنان وقالت:

ـ اجلس يا أبى فإنها قصة عجيبة حقاً، ثم أخذت تنبئه بمقابلة بترو وبما دار بينهما من حديث، وما كادت تتمّ قصّتها حتى سمعا قرعاً على الباب، فوضعت إصبعها على فمها إشارة لأبيها بالسكوت، ثم أسرعت فقامت تصلح ما فى الحجرة من اضطراب، وتستر منها مواطن الفاقة، وبعد قليل أقبلت نحو الباب ففتحته فإذا صوت خشن أصحل يقول: سعِد مساؤك يا فلورندا. فمدّت يدها وهى تبتسم وتقول: أهلا بسيدى بترو. مساء جميل وضيف كريم لولا أن حجرتنا الحقيرة لا تليق بمثله.

ـ إن أنضر الأزهار ينبثق من الدِمن[1]، وليس فى الفقر من عار يا فلورندا لو جعله المرء سُلّماً إلى الغنى.

ـ الغنى؟ أنت تحلُم يا سيدى! هلمّ إلى أبى، ثم صاحت: يا أبى هذا السيد بترو الذى كنا نتحدث بشأنه.

فوقف جارسيا ومدّ يده إلى الضيف مرحباً وهو يقول: خادمك جارسيا فرانسكوس يا سيدى. ثمّ نشر حصيراً إلى جانب الحائط، وأومأ إليه بالجلوس. وأخذ ثلاثتهم يتداولون الأحاديث حول قرطبة وما فيها من ثروة واستبحار فى العمران، ثمّ ما فيها إزاء ذلك من فقر مدقع ومتْرَبَة، فقال بترو:

ـ إن العاقل من يعرف كيف يقتنص الفرص. وأسرع جارسيا قائلاً:

ـ أىُّ فرص يا سيدى؟ إن لى خمسة أشهر أدور فى شوارع هذه المدينة الملعونة وطرقها، وأتطلّع إلى كل حجر فى أبنيتها فلم أجد يوماً لهذه الفرص ظلاً!

ـ لأنك تبحث عنها وهى فى يديك.

ـ فى يدىّ؟!

ـ نعم فى يديك، وما مثَلك، إلا كمثل من ينام فوق فراش وهو يتضوّر جوعاً، ولو مدّ عينيه إلى ما تحت الفراش لرأى من الذهب ما يغنى دول الأرض. أنت يا سيدى جارسيا وجّهت كل عقلك إلى العنب والتفاح، وإلى أنك قد تكسب من هذا درهماً وقد تكسب من هذا نصف

---

(١) القاذورات.

درهم، ثم نظر إلى فلورندا واستمر يقول: ولو أنك نظرت فى غرفتك الحقيرة الآن لرأيت كنزاً ثميناً.

ـ كنزاً ثميناً؟

ـ نعم. إن أمامك كنزاً ينقُلك من سكنَى القبور، إلى سكنى القصور، ويجعل الذهب يسيل من بين أصابعك كما يسيل الماء من أفواه الأسود فى حدائق الزهراء.

ـ ما هذا يا رجل؟ أنت تعابثنى، وقد جرّأك على هذا فقرى وسوء حالى، ثم قام فى غضب: ولكنى أعلمك يا سيدُ بترو أننى على فاقتى لا أقبل مزاحاً مهيناً ولو جاء من أمير الأندلس. لا يا سيدى، نحن سكانَ الجبال نرضى بالشظف، ولا نرضى بالمهانة.

ـ أىُّ مهانة يا سيدى جارسيا؟ إن كنزكَ الثمين هو فلورندا.

ـ كنزى فلورندا؟

ـ نعم. إن لها من الجمال ما لم تَظفر بمثله قصور الملوك، ومن سحر الصوت ما تحسُدها عليه العنادل، ومن الرشاقة ما تتقطّع دونه رشاقة الغصون. إن هذا الحسن الرائع، وذلك الفنّ الموهوب، لم يُخلقا ليطرحا فى هذه الحجرة المظلمة التى تفرُّ منها الخفافيش.

فأسرعت فلورندا: تقول:

ـ وماذا ترى أن أصنع؟

ـ تأتين عندى. فظهر السخط على وجه فلورندا، ووثبت إلى أبيها تعانقه وتدلله وهى تقول: لا يا سيد بترو. إننى لن أترك أبى ولو وازنت لى الأرض ذهباً. هل أتركك يا أبى؟ إننى إذاً لعقوق. لا تصدّق يا أبى أن ابنتك فلورندا تفارقك لحظة عين. إنها تجد لذة للجوع والفاقة فى جوارك. لقد فررنا من بلدنا معاً، وقاسينا شَظَف العيش معاً، وفقدت أمى بين العواصف والزعازع، ولستُ أريد أن أمنَى بفقد جديد. ففكّ أبوها عنه ذراعيها، ثم أسكتها بقبلة، والتفت إلى بترو وقال:

ـ ماذا تقصد يا سيدى من أخذ فلورندا عندك؟ فتمكّن بترو فى مجلسه، وأخذ يذود عن وجهه بعوضة أكثرت حوله الكرّ والفرّ وقال:

ـ أنا يا سيدى أملك أعظم حانة بالمدينة، وهى على الشاطىء الأيمن من الوادى الكبير،

تحيط بها الحدائق الفيح، والمروج الخضر، وبها أجمل ما خلق الله من قيان، وأمهر من دقّت بدّف، أو عزفت على مزهر، أو صفرت بناى، أو ضربت على جنْك.

ـ عرفتها، وطالما ذهبت إليها ليلاً لأبيع التفاح عند بابها. أنت تملك هذه الحانة؟ إنك لرجل عظيم، فلوى بترو عنه وجهه ليَّةً كان معناها لو تُرجمت: ومن أنت أيها الأحمق حتى تشهد لى بالعظم أو لا تشهد؟ ثم عاد إليه يقول:

ـ إن فلورندا بعد أن تُثَقَّف وتهذب ستكون كوكب هذه الحانة الذى يتهافت الشبان على شُعاعه تهافت الفراش، فإذا وكلت إلىّ أمرها فإنه لا يمضى شهر أو شهران حتى يكون راتبها فى كل شهر خمسمائة دينار. ففغر جارسيا فمه وصاح:

ـ وَىْ وى! ماذا تقول؟ خمسمائة دينار!

ـ وأكثر.

ـ وما شروطك يا سيدى؟

ـ إنى لا أشترط شيئاً، كل ما فى الأمر أن تقبل أن آخذ فلورندا إلى بيتى لأعدّها للمجد العظيم الذى هى مقبلة عليه، ولن يمرّ زمن طويل حتى تكون ماسة لمَّاعة أزيلت عنها قشرتها، وحينئذ تظهر فى الحانة، للغناء والرقص بأجر لا يقلّ عن خمسمائة دينار كل شهر.

فقهقه جارسيا قهقهة طويلة ظهرت فيها أسنانه القارحة كأنها المسامير الصدئة، ثم أتبع ذلك ببكاء وشهيق عصبىّ وقف عنده على قدميه وهو يصيح:

ـ لا ياسيدى. بالله عليك لا تغرينى بالمال، فإننى لا أُفارق ابنتى ولو سففت التراب.

ـ ومن قال إنك ستفارق ابنتك؟

ـ سأكون عندك إلى جانبها؟

ـ نعم. ولن تبيع تفاحاً بعد اليوم، فمدّ إليه جارسيا يده وهو يقول فى لعثمة الفرح:

ـ أسرع بيدك يا سيدى، فإنا كنا نتحدث الآن فى الفرص وكيف تقتنص. فمد إليه بترو يده قائلاً: اتفقنا. ثم نظر إلى فلورندا كالمتسائل فأطرقت ثم قالت: ما دام أبى معى فإنى راضية مسرورة. فقال بترو: هلم إلى دارى من الآن. فقبل جارسيا، وهمَّت فلورندا لتجمع بعض متاعها، وكان قليلاً تافهاً، ولكن بترو جذب ذراعها فى لطف قائلاً: لا حاجة لك ولا لأبيك بشىء

من هذه الغرفة، اتركى كلّ شىء. ثم خرج ثلاثتهم، ومالت فلورندا لتُغلق الباب فصاح بها أبوها: ماذا تفعلين يا ابنتى؟ دعى الباب كما هو، فإن كل ما فى الحجرة من متاع ليس إلا درساً يعلِّم الناس الأمانة. . .

وانطلقوا إلى دار بترو، فذهل جارسيا وذهلت فلورندا لعظمتها وفخامتها وما فيها من فراش ورياش، وما يجولون فى أنحائها من عبيد وخدم. وفى الصباح أحضرت الملابس لفلورندا، وأحاطبها جمع من الخياطات والماشطات والجوارى، فبرز جمالها، وتميزت مواطن الحسن فيها، وأصبحت فتنة المجتلى، وتردّد عليها كبار الموسيقيين والراقصين ليلقنوها دقائق الفن، فبرعت حتى بذت معلميها، ورأى بترو أن الوقت قد حان لظهورها فى الحانة.

وفى إحدى ليالى الربيع بقرطبة، ظهرت فلورندا فى الحانة، فبعثت فيها حياة لم يكن للناس بها عهد، وأرسلت صوتها حلواً ناعماً، كأنه خرير أمواه الجنة، وأطلقت العنان لفنونها فاظهرت من الرشاقة ودقة الأداء والإيقاع ما يسحر الألباب. جمال وفن وابتسامات وروح أخفّ من ريش النعام، فإذا لم تلعب كلّ هذه بالعقول فلا لعب بها لاعب! جُنّ النظارة ونبذوا وقارهم، وخيل إليهم أن أرواحهم تسبح فى بحر كله طرب وألحان، فصاحوا مأخوذين، وكلما كلّت حناجرهم صاحوا ثانية وثالثة، وكان بين الجمع الحاشد شاعر ناشىء ملكته أريحية الطرب فصاح:

وراقصةٍ أما نضارةُ خدها. . .

ثم توقف قليلاً، ففتح عليه شاعر من مكان بعيد يقول:

فوردٌ وأمّا خصرُها فقضيبُ

فقال الأول:

عشِقْتُ بنى الأسبان طرّاً لأجلها. . .

فأسرع الثانى يقول:

وكلُّ حبيب للحبيب حبيبُ

فقال الأول:

لها بين أحناء الضلوع كنيسة. . .

فأجاب الثانى:

وعزمى عل حمل الغرام صليبُ

فضج الناس وصفقوا من الطرب.

وسار ذكر فلورندا فى شرق قرطبة وغربها. وأصبح جمالها وفنها حديث كل دار، وسمر كل مجلس، وانهمر الذهب على بترو انهماراً. أما السيد جارسيا فقد صار من أثرياء قرطبة وظرفائها، يسكن قصراً فخماً، ويلبَس الأقبية والبرانس الحريرية من خير ما تخرجه مناسج المرية، ويعيش عيشة الترف والنعيم، ويتسابق الناس إلى معرفته والتقرب إليه، وأصبح حديثه ظريفاً رائعاً، ونكتته بارعة الخيال، ولكنته فى العربية جميلة رشيقة زادت العربية جمالاً!

وكان يغشَى حانة بترو زمرة من أبناء الوزراء والقضاة وكبار تجار المدينة، منهم غالب بن محمد بن أبى حفص، كان أبوه من وزراء المنصور المقربين عنده، الذين جمع لهم جاههم ومنصبهم ثروة تتحلَّب لمثلها أشداق اليهود.

كان غالب في الثلاثين، وكان ظريفاً أديباً، وفتى مدلَّلاً، ففُتن بفلورندا أول ليلة رآها، ودلَّهه حبها، وأصبح صبّاً بها متبولاً[1]، فكان يذهب مع خاصة أصدقائه فى كل ليلة إلى الحانة، وينثر الذهب على فلورندا، ليحظى منها بنظرة رضا أو ابتسامة حنان.

وطال الأمد على هذا الحب، وغالبٌ مثابر، ينعشه بصيص من أمل، وفلورندا جادة فى التيه المتقطع الذى تذهب به بسمة مشرقة، وتعود به تعبيسة غائمة. فلما ناء صدره بما يحمل، وضاق ذرعه بما يلاقى، ذهب صبيحة يوم إلى جارسيا، وأطلعه على أمره، وأنه لا يُطيق الحياة بغير فلورندا، وأنه يطلبها له زوجاً، وأنه يبذل فيها كل ما أرادت وأراد أبوها من مال. فأطرق الأب وعبث بلحيته طويلاً، وأحبّ العرض، لأنه لم يكن يحلَم يوماً أن تصبح ابنته فى يوم من الأيام زوجاً لابن وزير المنصور، وإذا كان ينعم الآن بالمال الذى يغرقه فيه بترو، فإنه سوف ينعم بالمال الذى يفيض عليه من غالب، والمال الأول يأتى من ابنته وهى راقصة متبذِّلة، والمال الثانى يأتى من ابنته وهى زوج مصونة تعيش فى كنف وزير. ما أبعد البون، وما أعظم الفرق بين الحالين! وهنا رفع رأسه وقال:

ـ ولكن ماذا نفعل ببترو؟ إنه لن يفرِّط فى فلورندا.

---

(١) ذهب الحب بعقله.

ـ هل اشتراها بالمال؟ أهي إحدى جواريه فهو يحوزها بملك اليمين؟

ـ لا. ولكنه هو الذي نشّأها، وهو الذي صنعها، فلو أخذت منه الآن لأصبحت حانته أخلى من شنت ياقب حينما دخلها المنصور.

ـ إنه كسَب من ورائها مالاً كثيراً.

ـ نعم يا سيدى، ولكننى أصر على مقابلته وإرضائه.

ورأى غالب أنه لو عرض على بترو الأمر فى رجاء واستعطاف لفسد كل شيء، لأنه رجل جشع نهم، لا يرضَى بانتزاع فلورندا منه فى سهولة ولين، لذلك اتجه إلى جارسيا وقال:

ـ أواثق أن فلورندا سترضانى زوجاً؟

ـ أنا رضيتك زوجاً لابنتى يا سيدى، وهى لا تعصى لى أمراً.

ـ عظيم! نجتمع هنا الليلة مع بعض أصدقائى لنعقد الزواج.

ـ كيف يا سيدى؟ وماذا نعمل لبترو؟

ـ هذا ما ستعلم نبأه بعد حين، غير أنى أرجوك الا تخبر أحداً بما دار بيننا إلا فلورندا.

وانطلق غالب فجمع بعض جند أبيه وأعوانه، وأمرهم أن يذهبوا جميعاً إلى دار بترو، وأن يحضروه إليه فى عنف وقسوة، كأنه اقترف أشنع الجرائم. وجاء بترو خائفاً مرتعداً، فلما مثل بين يدى غالب صاح فى وجهه:

ـ أنت بترو بن برفكيوس؟

فعجب بترو أن يسأله غالب عن اسمه، وهو من روّاد حانته فى كل ليلة، وأعرف الناس به من أمه وأبيه، ولكنه أطرق خائفاً مستخذياً وقال:

ـ نعم يا سيدى. فنظر غالب فى أوراق أمامه وأخذ يقلبها ثم رفع رأسه وقال:

ـ جاءت هذه الأوراق إلى أبى فى الصباح، وكان على وشك أن يبعث بها إلى عبد الرحمن بن الفطيس صاحب الشرطة.

ـ وماذا فيها يا سيدى؟

ـ فيها المصائب، وفيها ضياع مالك ودمك، فيها يا سيد بترو أنك أفسدت المدينة، وعبثت بأخلاق شبّانها، وأبحت الخمر تجرى أنهاراً فى حانتك بعد أن حرّمها الخليفة المنصور. إن هذه الشكاة لو وَصلت إلى صاحب الشرطة لأغلق حانتك وصادر أموالك ونفاك إلى الشمال.

فاصفر وجه بترو وقال واجفاً:

ـ أشكر لك يا سيدى هذه الصنيعة، ولا بد أن تكون هذه الشكاة من أحد أعدائى.

ـ نعم هى من أحد أعدائك، وأعتقد أن سبب العدواة إنما جاء من ظهور تلك الفتاة المسماة بفلورندا بحانتك: ورأيى أنهم لا يسكتون عنك إلا إذا صرفتها بأية سبيل.

ـ إنها حياة الحانة وجمالها ورونقها.

ـ وكنزها الذى لا يفنى أيضاً. ولكن ما رأيك يا سيد بترو فى أن هذا الكنز الثمين سيجرّ عليك الفقر والوبال والنفى؟ أليس من الخير أن تعيش هادىء النفس كما كنت تعيش، وإلا تتشبث بمطمع فيه هلاكك وذهاب مالك؟

ـ إننى لا أستطيع أن أستغنى عن فلورندا.

ـ حسن جداً. ولكنك سترى حانتك الليلة مغلقة الأبواب إلى الأبد. ثم التفت إلى الأعوان وقال فى صرامة: خذوه عنى. فتوقف بترو قليلاً مستعطفاً وطفق يقول:

ـ وكيف أطرد فتاة يا سيدى بلغت قمة الفن والجمال؟ إننى إن طردتها أسرع إليها غيرى من أصحاب الحانات بقرطبة.

ـ لا. لن ينالها أحد بعدك، ولن تغنى بعد اليوم فى حانة.

ـ كيف يا سيدى؟

ـ لأنها ستعتزل الرقص والغناء بتاتاً.

ـ هذا يخفّف المصيبة قليلاً، هل تنوى أن تعيش مع أبيها؟

ـ لا. فظهرت ابتسامة خبيثة على وجه بترو وقال:

ـ إن أباها مدين لى بألف دينار.

ـ ستنالها منجّزة. ثم التفت إلى أحد الحراس وقال: اذهب معه يا أبا عوف إلى دار جارسيا

وأبلغنى ما سيقوله له، لا تخرم منه حرفاً. إنه سيقول له: إنه نزل عن حقه فى فلورندا، وأصبح لا يد له عليها. ثم نظر إلى بترو نظرة غاضبة وقال: اذهبا.

وفى المساء ذهب غالب بن أبى حفص مع ثُلّة من أصحابه إلى دار جارسيا، فتلقاهم بترحيب وبشاشة، وأقبلت فلورندا فى جمالها الفردوسى فحيّت غالباً تحية فيها أدب، وفيها حب، وفيها أمل خبىء. وكان جارسيا قد صنع صنيعاً احتفل له، وبذل فيه عن سخاء، فأعدت الموائد للطعام والشراب، وعليها أنواع الورود والرياحين وكل ما أخرجت أرض الأندلس الخصيبة من فاكهة ونقْل، وكان بين ضيوف غالب أبو العلاء صاعد اللغوى، وهو أديب أخبارى لغوى شاعر، قدم على المنصور من ديار الموصل فأكرمه وأحسن وفادته، وثابت بن قاسم وهو من أكبر محدّثى الأندلس، وفاتن الصقلبى مملوك المنصور.

وملأ أحد السقاة كأساً فلما ملأها بقيت نقطة فى فم الإبريق، فلحظها فاتن، وكان يميل إلى معابثة صاعد، ويزعم أنه ينقُل الشعر من كتب مجهولة ثم يدّعيه، وأنه يبتدع فى اللغة كلمات ليست منها، ليُظهر لسائله أنه عالم بكل ما غاب عن الناس. فالتفت إليه وقال:

ـ هل لك يا أبا العلاء أن تصف لنا تلك النقطة الحائرة فى فم الإبريق؟ فنظر إليه صاعد فى تحد واستخفاف وقال:

ـ وما الذى أعجبك فيها؟

ـ الذى أعجبنى فيها أن تكون خلت من وصفها كتب المشرق! فقال صاعد فى خبث متعمَّد:

ـ لعلّها وصفت فى كتب الصقالبة! خذ وصفها يا فتى ثم قال:

وقهوة فى فم الإبريق صافية ... كالدمع مفجوعة بالإلف مغيار
كأن إبريقنا والراحُ فى فمه ... طيرٌ تناول ياقوتاً بمنقار

فصاح القوم: لله أبوك يا أبا العلاء! لقد جبهت فتانا وألقمته حجراً!

وبعد أن قضى القوم وقتاً فى الحديث تقدم غالب فى أدب وإكبار نحو القاضى ثابت بن قاسم، وطلب منه أن يعقد له على فلورندا، فعقد له عليها ثم انصرف القوم جذلين يكررون التهنئات للعروسين.

وعاش غالب مع زوجه فى سعادة ورفاهة عيش وحبّ تزيده الأيام تجدّداً، ورُزق منها بنتاً سمّاها عائشة، نشأت فى عز ونعيم. ولما انقضت الدولة العامرية، وولى الخلافة المستعين بالله، كان لغالب عنده مكانة مرموقة، واتفق أن وثب على قرطبة عليّ بن حمّود الحسنى وأخوه قاسم، يعاونهما جيشٌ من البربر، فخرج المستعين لقتالهم، وكان غالب فى أول صفوف المجاهدين، فدارت الدائرة على الخليفة فقتل وقتل معه غالب ابن أبى حفص، وترك زوجه فلورندا وابنته عائشة تقاسيان لوعة الثُّكل، وتنعمان بثروة مؤثلة[1] وعز مقيم.

ونشأت عائشة فى كنف أمها مدللّة لعوباً، تعمل ما تشاء، وتجرى مع شيطان غيّها كما تريد، واندمجت فى المجتمع القرطبى، يذلّل المال لها كل طريق، ويفتح الجمال أمامها كل باب.

كانت عائشة فى بدء قصتنا هذه فى الخامسة والعشرين من عمرها، وكانت ذات جمال وملاحة ووجه نضير مشرق، إذا تأملته جزءاً جزءاً كان أنيقاً جميلاً، وإذا نظرت إليه جملة كان آنق وأجمل. وجه تنافست فيه العروبة السمحة والأسبانية الفاتنة، فجاء كل جنس منهما بأبدع ما فيه وأروع. هكذا كانت عائشة بنت غالب فيما ترى العين، وفيما يبدو منها من جمال باهر. أمّا روحها وأما أخلاقها وأما فلسفتها فى الحياة، فكانت على النقيض المخالف من ذلك المظهر الخلاّب. ولو أنّ هذه الروح صُوِّرت، أو لو أنّ العلم استطاع أن يرسم الصفات والمعانى، لرسم لها مخلوقاً بشعاً لم يصوّر الله أدمّ منه فيما صوّر. وكما خلق الله للأفاعى أوعية تُخفى سمومها، خلق لهذه المرأة خلقاً واحداً يستر كل هذه المثالب وتحجبها عن أعين الناظرين. ذلك هو خلق الرياء، فقد بلغت فيه الذروة، ووصلت إلى القمّة. كان فى مكنتها أن تظهر طيّبة القلب رقيقة العاطفة، تمزج دموعها بدموع البائسين وكان فى مكنتها أن تبدو خجولاً خفرة، تطرق حياء من تطفل الناظرين. وكانت تستطيع أن تستر فى مهارة وحذق كل رذيلة فيها بنقيضها، حتى يعود الجهل علماً، والحقد عطفاً، والبغض حبّاً، والشره زهداً. ولقد رمتها الوراثة بنفس حقود وشغف بالانتقام وكراهة متأصّلة للعرب، ولكنها كانت تخفى كل ذلك وراء ستار كثيف من الدهاء والملق والظهور بالغيرة على العرب، وكلّ ما يتصل بالعرب.

فتُنت بابن زيدون وفتن بها إلى أن أيقظه صائح الرشد فقطع حبالها، وكتب إليها الرسالة التى أملتها عليه نائلة. كتبها خائفاً متردداً، لأنه كان يعلم أن وراءها حرباً حامية الوطيس، ولأنه

---

(١) أصيلة.

كان يعلم أن عائشة ليست من النوع الذى يُصرف بالرسائل، ولا من الصنف الأبىّ الذى يقابل هجراناً بهجران، ولكنها من الطراز الذى لا ينهزم، من الطراز الذى يحب كثيراً، فإذا أبغض أبغَض كثيراً. وهي إذا مُسّت عاطفتها، أو طعنت كبرياؤها، انقلبت وحشاً لا تُرويه الدماء، وأفعواناً لا تنفع فى سمّه رُقية ولا يجدى دواء.

بلغت رسالة ابن زيدون عائشة فأصابها وجوم عجيب، وذهول مُريب، وأخذت تهتز هزّة المذبوح، وتقهقه قهقهة مجنونة خيرٌ منها العويل والنواح، فأسرعت إليها جاريتها غالية فى شماتة مكتومة، ودهِشت أمها فأقبلت نحوها فى ذعر وهى تقول:

- ما الخبر يا عائشة؟ ولكنها دفنت وجهها بين كفيها، وأخذتها نوبة بكاء ونشيج، يقطِّع نياط القلوب، فانكبت فلورندا على رأسها تقبّله فى حنان وتحاول أن تنزع إحدى كفيها عن وجهها فى دُعابة مصنوعة، واستهانة بالأمر متكلفة، وشرعت تقول: إن ابنتى أشجع من أن يدفعها إلى البكاء خطب وإن جلّ، إنها مُصاص الدم الأسبانى الذى لا يعرف الخوف، ولا يأبه للكوارث ، إننى أزهى بك يا عائشة على جميع بنات قرطبة الضعيفات النفوس المنحلاّت العزائم، فيك عزم جدك جارسيا، وفيك مضاؤه وفتكه بالأعداء. لقد رأيته فى أشدّ نوازله فما رأيت دمعة تطفِر من عينيه. وكان يقول حينما يراك وأنت تضربين الصبيان، وتأخذين بشعر نواصيهم: «هذه ابنتى يا فلورندا حقّاً، وقد كنت أخاف أن يطغى عليها الدم العربى» ثم يُطرق مبتسماً ويقول فى صوت خافت: «إنها ستنتقم لنا من العرب». فماذا جرى يا عائشة؟ أضاعت فيك فراسة جدّك أم عاودك عرق من لين أبيك ورخاوة طبعه؟ وماذا فى هذه الورقة؟ ثم جذبتها بعيداً فى إحدى زوايا الغرفة وهمست فى أذنها قائلة:

- أبا لورقة نذير بخطر؟ هل قبض على أسبيوتو؟ لقد كان هنا بالأمس، وكان مرحاً ضحوكاً، فما الذى جرى؟ احذرى يا فتاتى! وإياك أن تدفعك الغريزة إلى ما لا يُدفع من الشرّ! واعلمى أن من الناس من يتصنّع النوم وهو ليس بنائم، ويتغابى وهو ليس بغبىّ، والصيد قد يفجأ من حيث لا يرتقب، والسفينة قد تُدهم بالعاصفة وهى فى ريح سجسج(١) رُخاء. ماذا فى هذه الورقة يا فتاتى؟ إن كانت من أسبيوتو فمزّقيها. فرفعت عائشة كفيها عن وجهها، والكلمات تتعثر فى فيها وقالت:

---

(١) لينة الهواء معتدلة.

ـ إنها من ابن زيدون.

ـ هل قال فيها إنه مات بعد كتابتها؟

ـ لو مات لكان الخطب أهون وأيسر.

ـ ماذا قال في رسالته؟

ـ لطمني لطمة سأترنَّح لها إلى الأبد، وداس على حبي بقدميه، ومرَّغ كبريائي في التراب، وركل برجله عاطفة كنت أعتزّ بها، وصوّرني سائلة مستجدية ممزّقة الثياب تمد يدها إليه للإحسان فيبصقُ على اليد الممتدة إليه ويوسعها زجراً ونهراً.

ـ كانت عقيدتي فيه دائماً أنه شاب ماجن دوّار، كالطائر الذي يغرّد في كل روض، ويأكل من كل ثمر. دعيه يا عائشة فإن ألف شاب في قرطبة يرى من أكبر نعم الحياة أن يكون لك زوجاً.

فعادت نوبة القهقهة إلى عائشة وصاحت في غضب:

ـ أدع ذلك العربي الغادر؟ إنه آذنني بحرب، وسأريه كيف تكون الحروب! سأريه أن في دمي عزيمة الأسبان؛ إنه يتبجّح بشعره، ويُزهى بأدبه، ويطمح إلى أسمى المناصب، ولكنّي سأفضح هذا الخبيث وأكشف لرجال الدولة مكنون أسراره، حتى يُسد في وجهه كلّ باب، ويطفأ في صدره كلّ أمل، ويصبح شبحاً هزيلاً منبوذاً، تهارشه[1] الصبيان، ويرميه كلّ رجل بحجر. سأريه أن المرأة ـ حينما تريد ـ تستطيع أن تعصف بأكبر رجل إذا نفذت إلى أسراره. إنّ لكل إنسان في هذه الدنيا خزانة مخبوءة تجمع أخبار ماضيه وما فيه من مخاز وفضائح، وهو حريص على هذه الخزانة، حفّي بألاّ يرى ما فيها شعاعٌ للشمس، يُحكم إقفالها كلّ يوم، ثمّ يدفنها تحت أطباق الثرى، لا تعرف عنها زوجه شيئاً، ولا يسرى منها إلى أولاده أو أخصّائه خبر. وهو رجل في أعين الناس عظيم المكانة، مرموق المنزلة، لا ترقى الشبهة إلى خلائقه، ولا يمسّ الدنس له ذيلاً. ولكن اختفاء بعض هذه الخزائن لا يدوم، فقد ينسى الغِرّ مفتاحها في جيب ثوب يخلعه، أو يذهَل عنه بحادث مزعج فيتركه في ثقبه، أو يفقده في الطّريق فيعثر عليه لصّ ماهر يسعى للبحث عمّا في هذه الخزائن، أو تزول الكلفة بينه وبين صديق فيفتح

---

(١) تتحرش به.

له بابها، ويقذف أمامه بما فيها من أوساخ وأقذار. وهكذا فعل معى هذا الأحمق ابن زيدون يا أمّاه، فإنّ مفتاح خزانته فى يدى، وسرٌ واحد من أسرارها كاف لأن يهدم حياته، ويقضى على ما بها من آمال.

ـ سُحْقاً للخائن! إنه سيلقى عقابه جزاء وفاقاً. والمثل الأسبانى يقول: إذا قذفت الزجاج بحجر قذفك بشظاياه.

أما غالية فقد جعلت بين قلبها ووجهها حجاباً لا ينفذ منه شعاع، والنساء أقدر خلق الله على إسدال هذا الحجاب. ثم أمرت عينيها أن تصبّا شيئاً من الدمع لإكمال صورة الحزن والأسف وقالت:

ـ إن هذا المأفون لم يكن شيئاً ولم تسمع به قرطبة إلا بعد أن اتصل بسيدتى، فرفعت قدره، وأعلت مكانته، وأرغمت الناس على التحدث بأدبه والتغنّى بشعره. وإنى أعرف من مباذل هذا المائق ما لا تستطيع غسله أمواج البحار. فنظرت إليها عائشة نظرة شكر وارتياح وقالت:

ـ لا يا غالية. دعيه لى. فإنه لُعبة صغيرة سأروّح بها عن نفسى، فإذا فرغت منها فرّجت همومى بتحطيمها، وسيعلم الوغد أن حفيدة جارسيا إذا عزمت صممت، وإذا رمت أصمت.

٥

استيقظ ابن زيدون من نومه بعد أن قضى أول ليله فى وليمة نائلة فى لهو وطرب، وبعد أن قضى آخره فى همّ ونصب وأرق. فإن الماضى الدميم لا يزور أصحابه إلا إذا أوَوْا إلى مضاجعهم، وانفردوا بأنفسهم، وبعدوا عن ضجيج الحياة وصَخبها. فما كاد رأس ابن زيدون يمسّ الوسادة، حتى أطلّت عليه الذكريات برؤوسها بشعة منكَرة، كأنه رؤوس الشياطين. وهذه الذكريات تظهر أول الأمر فى هيئة أشعة ملوّنة مبهمة، ثم تتجمع وتتناسق لتُبْرز صورة واضحة لشخص أو لحادثة، لا يجد المرء عنها محيداً، ولا دونها منصرَفاً. وكلما زاحمها بالتفكير فى شىء يسرُّه ويشرح صدره، ويجذب إليه النوم الهادىء الهنىء، طردته فى عنف وجَبَرية، وأخذت مكانه شامتة ساخرة. وكلما حاول أن يجعل بينه وبين التفكير المطلق سدّاً، وأن يحملق فى الظلام كما يحملق المعتوه، أبى الدماغ أن يبقى فارغاً، وأسرعت إليه الصورة كأول ما كانت قوة وظهوراً. وقد يرى أن يفرّ من الوَحدة بالقراءة، فيوقد المصباح ويختار أجلب كتاب فى خزانته للتسلية والتفريج، ويطلُّ على السطور، فإذا هى تتراقص أمامه مخرجة له لسانها فى تحد وعبث، وإذا الصورة السمجة تزاحم الكلمات وتحجُب عنه السطور.

ألقى ابن زيدون رأسه على وسادته فظهرت له أشباح وصور: هذه صورة عائشة يراها ولأول مرة فى ليلة ساهرة بدار ابن عبدوس. كانت مع أمها، وكانت تجلس حيِيَّة خفرة، يبعث حولها جمالها هالة من نور، كأنها من سكان السماء، وقد عرّفه ابن عبدوس بها، فما زادت على أن ابتسمت ابتسامة خفيفة، كأنها شعاعة الشمس فوق الزهرة

المطلولة، ولقد كان المدعوون فى نشوة ومرح وزياط[1]، ولكنها كانت هادئة وادعة دون أن ينمّ وجهها عن تبرُّم أو استنكار. ثم غابت الصورة، وتجمعت أشعة جديدة، فأظهرت له صورة أخرى: كان فى سفينة بالوادى الكبير فى جمع من إخوانه، وكان الوقت ربيعاً، وكانوا يقذفون بالورود والرياحين ركاب كل سفينة تمرّبهم، وكان ابن زيدون أكثرهم مرحاً، ومرّت بهم سفينة بها عائشة، وكان بها عدد من القيان يعزفن بالمزاهر، وراقصة مُراكشية لصنوجها رنين ساحر. وقذف ابن زيدون وردة دون أن يقصد إلى هدف فسقطت على وجه عائشة، فإذا الابتسامة الخفيفة المشرقة تعود وتصحبها إيماءة رضاً ومجاملة، وإذا ابن زيدون يعتذر فى استخذاء، ولكن السفينة تسير دون أن ينعم بقبول اعتذاره.

وذهبت الصورة بذهاب السفينة فى أمواج النهر، وتجمعت أشعة جديدة: فإذا صباح مشرق، وإذا خادمه علىّ يدخل عليه برسالة ينتظر حاملها الجواب عنها، إنه الآن ينظر إلى نفسه وهو يفتح غِلاف الرسالة، وها هو ذا الآن يقرأ ما فيها:

يا سيدي الشاعر المبدع، سمعتك تقول:

سأقنع منك بلحظ البصرْ وأرضى بتسليمك المختصرْ
ولا أتخطّى التماس المُنى ولا أتعدّى اختلاس النظر
أصونك من لحظات الظنون وأعليك من خطرات الفكر
وأحذرُ من لحظات الرقيب وقد يُستدام الهوى بالحذر

فأحببت غزلك العفيف، وأكبرت أدبك وفنك، فاصدح فى أفق الأندلس بلبلاً غِرِّيداً، وعش للمعجبة بك عائشة بنت غالب».

يذهل ابن زيدون عند قراءة الرسالة، ويخالط نفسه سرور مبهم، ثم يتخيل عائشة التى رآها فى دار ابن عبدوس وفى السفينة، فيراها صورة من النبل وكرم الخلال، ويرى أنها كما يبدو من رسالتها أديبة تقدرُ شعره، وتتابع منه ما يذيع بين الناس، والشاعر أفتن الناس بشعره، والإشادة بما يقول أضعفُ مدخل يلج منه الخبثاء إلى نفسه. سُرّ ابن زيدون بالرسالة فأسرع يشكرها عليها، ويثنى على أدبها وحسن تقديرها.

وتذهب هذه الصورة، وتتجمّع أشعة جديدة: ويرى ابن زيدون نفسه فى ذات

---

(١) صياح.

أصيل أمام مريم العروضية، وقد جاءت تزوره وتذكر له أن عائشة بنت غالب زارتها فى الصباح، وطلبت منها فى إلحاح آخر قصيدة له، ثم تتجه إليه باسمة وهى تقول: إنها معجبّة بك، مولعة بشعرك، فإننى حينما أخبرتها أننى لا أحتفظ بنسخة من القصيدة، ظهر الأسف على وجهها وقالت ذاهلة: وكيف أحصل عليها؟ فقلت لها إن الأمر أهون من أن يسهّم له وجهك الجميل، نذهب إليه يا فتاتى لتستلمى القصيدة، وسيكون أسرّ خلق الله برؤيتك، وأكثرهم زهواً بإعجابك بشعره، ولكنها أطرقت فى استحياء وقالت: إنه ليخجلنى أن أذهب إلى رجل فى داره، فهل من رأى آخر يا خالتى؟ قلت: يذهب هو إلى دارك، فهو رجل سمح الخلق كريم النّجار[1]. فقالت متلهّفة وجِلة: وتكونين معه يا خالتى؟ قلت أكون معه يا فتاتى، ثمّ تنظر إلى ابن زيدون وتقول: فماذا ترى يا أبا الوليد؟ فيسمع نفسه وهو يقول: أزورها معك وسروراً وكرامة.

وتتجمع أشعة جديدة: فيرى داراً رفيعة البناء، يدل مظهرها على العظمة والغنى والجاه العريض، وتُقبل عائشة فى تؤدة وبطء، تتألق البشاشة فى وجهها كما يتألق نور اليقين بين ظلام الشكوك، وتمدّ يدها إليه مُرحبّة مؤهلة فيحييها فى لطف وأدب. ويجلس الثلاثة فى بهو رحْب، ويدور حديث رقيق الحواشى فى الأدب والسياسة، وتزول الهيبة عن عائشة رويداً رويداً، ويتفتّح طبعها كما تتفتح الوردة لأضواء الصباح، وتذهب الكُلفة، ويحل المرح محل الحياء، وتُنثر الفكاهات والملح، ثم تأمر عائشة جاريتها غالية أن تُحضر أقلاماً وأوراقاً، وتجلس جِلْسة التلميذة المطيعة فى تصنُّع محبَّب وتقول: أملِ على يا سيدى رائعتك الأخيرة فى ابن جهور. فيرى نفسه وهو يملى عليها:

أما عَلِمَتْ أن الشفيعَ شبابُ	فيقصُرَ عن لوم المحب عتابُ؟
علام الصبا غضٌ يرفُّ رواؤه	إذا عنّ من وصل الحسان ذهاب؟
وفيم الهوى محض يشف صفاؤه	إذا لم يكن منهن عنه ثواب؟
تظن النوى تعدو الهوى عن مزارها	وداعى الهوى نحو البعيد مجاب

ثم يتخيل نفسه وهو يقرُب منها ليرى أين انتهت فى الكتابة، فيفعَمه من شعرها طيبٌ فردوسى الشذا سماوى النفحات، وتنتهى القصيدة ويحييها وينصرف وهو أشغف الناس بها.

---

(١) الأصل.

ثم تتجمَّع الأشعة وتتكون الصور في سرعة وتعاقب: فيرى أنه أصبح لعائشة عبداً، وأن إرادته سُلبت منه سلباً، وأنه صار شبحاً يروح ويجيء كما تريد هي أن يروح ويجيء، وقد انطفأ في نفسه كل أمل، ومات كل طموح، وخمدت كل عزيمة. ثم تطير كل هذه الصور، وتتجمع أشعة جديدة تُبرز صورة صارخة الألوان، هي صورة الرسائل التي كان يبعث بها إليها أيام جنونه بغرامها، فيئن أنين المجروح، ويُطبق عينيه في ألم مُمضّ قاتل.

استيقظ ابن زيدون من نومه في رائعة الضحا فدخلت إحدى جواريه وهي تقول:

- هذه رسالة يا سيدي جاء بها بلال عبد سيدتي عائشة ولم ينتظر. فيأخذ ابن زيدون الرسالة بيد ترتعد، ثم يفضّ غلافها ويقرأ:

يا سارياً بين الأسنة والقنا إني أشَمُّ عليك رائحة الدم!

فيقذف بها غاضباً، وينهض من سريره كأنه يريد أن يفرّ مما حوله من نُذر الشر والدمار، ولا يمضي قليل حتى تعود الجارية فتقول:

- إن أعوان ابن جهور حضروا الساعة يطلبون من سيدي أن يذهب على الفور معهم لمقابلة عميد الجماعة.

كاد ابن زيدون يسقط على الأرض حينما فجأته الجارية بهذا الخبر، وحاول أن يشدّ من ساقيه فلم يستطع، فألقى نفسه على كرسيّ كان بجانبه وقال وهو يلهث:

- أعوان ابن جهور؟

- نعم يا سيدي

- ما عددهم؟

- أربعة يا سيدي.

- هل يبدو على وجههم العبوس؟

- هم دائماً عابسون يا سيدي!

- حينما تحدّثوا إليك هل كان في كلامهم غلظة وخشونة؟

- كانوا أشدّ غلظة من زبانية الجحيم.

فأطرق ابن زيدون طويلاً، وأخذ يحدث نفسه قائلاً: أربعة من أعوان ابن جهور، يُرسَلون إليّ في الصباح! لن يكون هذا لخير، ولن يكون إلا لشرّ ما حق، وبلاء مُحيق.

لقد أسرعت عائشة بالهجوم، كنت أظن أنها ستقضي بعض الزمن في استرضائي أو تهديدي، ولكنها رأت أن تفجأ عدوها بالوثوب قبل أن تسنح له فرصة الفِرار أو يتفتق له الرأي عن حيلة، إنها محارب مدرّب، يرى أن الضربة الأولى نصف الانتصار. ومما لا يحوم حوله شك أنها ذهبت بالرسائل أمس إلى ابن جهور، وكل سطر بها فيه الموت القُزام[1]، والكوارث الجسام. إن ابن جهور رجل عنيف جبار، لا يُغضي عن شبهة، ولا يتجاوز عن اللمم. لعن الله الحب، ولعن الله الأدب! ولعن الله التظرّف الذي يجرّ إلى التفكّه بأعراض الناس لا لشيء إلا أن يقولوا: إن فلاناً أديب بارع لاذع النكتة صادق الرماية! لقد جرّ إليّ حبى الجنوني، وأدبي المعربد، وطبعي المرح الضحوك أعظم الويلات وأوخم العواقب. الآن أدخل على ابن جهور فأرى ذلك الوجه العبوس الجهم[2]، وأسمع ذلك الصوت الجهوري الحانق، وأشهد من بوادر غضبه ما يهون أمامه كل خطب جلل.

يقوم ابن زيدون فيرتدي ثيابه، ويأمر خادمه أن يعدّ له بغلته، ثم يخرج وهو يتكلف الابتسام، فيرى أعوان ابن جهور فيحييهم بإيماءة العظيم المحسّ بجلال منصبه، ولكنه يلمح من طرف خفي أنهم لم يطأطئوا له رؤوسهم، ولم يُظهروا الخضوع الذي يصطنعونه لكبار الساسة فيغوص قلبه بين جنبيه، ويؤكد له الخوف أنهم لو جاؤوا لخير أو لغير شرّ لتكلّفوا الأدب والملَق.

ويمتطي ابن زيدون بغلته ويحيط به الأعوان فيسألهم:

- مَن عند مولاي أبي الحزم؟ فيجيب أحدهم؟

- إنه منذ باكورة الصباح في مجلس حافل بوزراء الدولة وعظمائها.

- هل سمعته يضحك؟ فيدهَش العوْن ويخالجه شكّ في عقل من يخاطبه ويقول:

- يضحك؟ ماذا يريد سيدي بهذا؟

- يضحك يعني يضحك. الضحك يا شيخ ألا تعرفه؟

---

(1) السريع.
(2) الكريه.

- أعرفه، ولكن مولانا أبا الحزم قليل الابتسام بله الضحك، وهو فى هذا اليوم أشدُّ خلق الله جهُومة.

- هل زارته امرأة بالأمس فى دار الرياسة؟ فتزيد دهشة العون ويقول:

- ماذا يقصد سيدى؟

- امرأة... امرأة... هل جاءت بالأمس امرأة وطلبت مقابلة ابن جهور فى شكاية أو رفع مظلمة؟

- نعم، وهذا يحصل كثيراً يا سيدى.

وبلغ ابن زيدون دار الرياسة، وكان أول من قابله ابن عبدوس فحيَّاه ضاحكاً وهو يقول: إن لهذا اليوم ما بعده يا أبا الوليد! ثم رأى محمد بن عباس يمر به مقطباً لا يخاطبه بكلمة. وقد كان فى هذه اللحظات القليلة هدفاً للهواجس، فكان يؤوِّل الابتسامة بالسخرية والشماتة، والعبوس بالاشمئزاز والإهانة، ويفسر كل كلمة تُلقى إليه بما يملأ نفسه من خوف وإحساس بالخطر، وأخيراً جاءه الإذن بالمثول أمام ابن جهور.

كان ابن جهور فى نحو الثالثة والستين، ضخم الجسم، وسيم الوجه يركُد فوق وجهه عبوس قاتم لا يكاد يفارقه. وكان عظيم اللحية يصبغها بالحِنَّاء، شديد بريق العينين، له نظرات نافذة كأنها تحاول أن تصل إلى ما فى القلوب. وكان جليل المهابة مخوفاً، ليس فيه جانب للهو، ولا مكان للإغضاء عن عيب، وهو رجل قديم الرياسة، شريف البيت، كان آباؤه وزراء فى دولة الحكَم بن الناصر لدين الله، ثم استوزرهم المنصور بن أبى عامر. وهو باقعة[1] بعيد الغور، حصيف العقل، نأى به دهاؤه عن أن يدخل فى الفتن التى اشتعلت نيرانها بالأندلس بعد انقضاء الدولة العامرية، فلما خلا له الجوّ، وأقفر النادى من الرؤساء، وثب إلى الحكم فتولَّى أمره، وقام على رعايته. ذلك أنه فى منتصف ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، بعد خلع هشام ومقتَل وزيره، اجتمع الملأ من أهل قرطبة على تقديمه، وعدَّدوا من خصاله ما لم يختلف فيه أحد، فأبى عليهم ذلك، فألّحوا وألحفوا، فقبِل بعد أن اشترط أن يحكم البلد جماعة فيهم الشيخان محمد بن عباس وعبد

(1) ذكى.

العزيز بن حسن ، وأن يكتفى هو بالإشراف على هذه الجماعة وتوجيهها إلى الخير والسداد.

دخل ابن يزدون فحيا عميد الجماعة وجِلاً مهولاً ، فمدّ إليه ابن جهور يده قائلاً :

ـ كانت ليلتك بالأمس فى دار نائلة الدمشقية ليلة ماجنة ! فانحلّت أوصال ابن زيدون ، وعلم أن الزوبعة تتجمع لتثور ، وأن الصاعقة توشك أن تنقضّ فقال :

ـ إنها جمعت يا سيدى أدباء قرطبة وشعراءها ، وكان السمر فيها عفّاً لا يخدش وجه الأدب .

ـ وكانت الألحان ! وكان الرقص ! وكانت الخمر! فقال ابن زيدون فى نفسه : هذه بداية الشرّ. إنه سيخرج من هذا إلى مسألة الرسائل . فجمع قوة جأشه المبدّدة وقال :

ـ ولكنى كنت أقول يا مولانا كما قال الرسول الكريم : «اللهم حَوَالينا ولا علينا» . فنظر إليه ابن جهور نظرة حائرة وقال :

ـ أخشى أنك، تخدعنى يا فتى .

ـ كيف أخدعك يا سيدى وقد زانني قديم خدمتك ، وزهانى وسيم نعمتك ، وأبليت البلاء الجميل فى سماطك[1] ، وقمت المقام المحمود على بساطك؟ ثم يقوى فيه واهن الأمل بعدما رأى من هدوء ابن جهور فيقول :

فديتُك إنى قائل فمعرِّضٌ	بأوطار نفس منك لم تقضها بَعْدُ
أمثلى غُفلٌ خامل الذكر ضائع	ضياع الحسام العضب أصدأه الغمد
أنا السيف لا ينبو مع الهزّ غربُه	إذا ما نبا السيف الذى تطبّع الهند
بدأت بنُعمى غضّة إن توالها	فحسنُ الألى فى أن يواليها سرد
لعمرك ما للمال أسعى، فإنما	يرى المال أسنى حظّه الطبع الوغد
ولكن لحال إن لبستُ جمالها	كسوتك ثوبَ النصحِ أعلامُه الحمد

فلما أتم الأبيات تحرك ابن جهور فى مجلسه وقال : لقد اجتمع الوزراء فى هذا الصباح وأسندوا إليك منصب الوزارة ، ورأيت إلى ذلك أن تلقب بذى الوزارتين ، لأنك

(١) فى صفك .

ستكون وزيرى وسفيرى إلى أمراء الأندلس. ولن أنسى لك يا أبا الوليد عظيم جهادك وكريم بلائك فى كبح جماح البربر.

أرأيت الغريق ولم يبق منه إلا الذّماء يرى يداً تمتدّ إليه بين الأمواج فتقذف به إلى الشاطىء الأمين؟! أرأيت ميتاً مُسجّى جلس حوله أهله يبكونه، فإذا الغطاء ينكشف، وإذا الميت يثب كأحسن ما يكون صحة وعنفواناً؟ تلك كانت حال ابن زيدون. فإنه ما كاد يسمع كلمات ابن جهور حتى طافت بعينيه غشية، وأخذ لسانه يتلعثم بكلمات كان فيها الخفاء إفصاحاً، والإبهام بياناً. ثمّ عاد فملك زمام نفسه فشكر ابن جهور على عظيم ثقته وجميل رأيه، وخرج من لدنه مزهوّاً كأن مُلك الأرض جُمع له فى منديل، وكأن الشمس توّجته بالأكاليل.

وفى نفس هذا الصباح قبل أن يستيقظ ابن زيدون من نومه، ارتدت نائلة خير ثيابها، وأخذت مقصّاً صغيراً أخفته فى جيبها، ثم قابلت عبيدها الذين أعدوا محفّتها فسألتهم

ـ هل أحضرتم قوارير النفْط وأعواد الثقاب؟ فأجاب كبيرهم:

ـ نعم يا سيدتى. أعددنا خمس قوارير أخفيناها تحت ثيابنا.

ـ حسن. سنذهب الآن إلى دار عائشة بنت غالب، فإذا صعدت إليها فاجلسوا أنتم إلى عبيدها، وخذوا معهم فى الأحاديث، ثم أطلبوا منهم أن يُعدوا لكم شراباً ساخناً، فإذا أوقدوا النار فغافلوهم، وليسكب كل منكم ما فى قارورته على النار، وأحدثوا نوعاً من الهَرْج تتمكنون فيه من إلقاء بعض المتاع على النار لتزيد اشتعالاً، وإياكم أن يراكم من العبيد أحد، أو يدرك حيلتكم أحد، ثم ارفعوا أصواتكم فى هلع وذعر صائحين: النار! النار! هذا ما أريد منكم أن تعملوه فى هذا الصباح، ولا بد من إتقانه على أحسن وجه، كما يجب ألا تحوم حولكم شبهة.

وركبت نائلة المحفّة، وانطلق العبيد حتى بلغوا الدار، فصعدت الدرّج وقابلتها عائشة فى فتور وكبرياء ولكن نائلة الداهية لم تحفِل بما رأت فى سبيل غايتها، ففتحت ذراعيها لعائشة فى شغف ووله، وأخذت تُمطر خديها قُبلا، وتناجيها بأصدق ما يناجى الحب، وألطف ما يُكنُّ الوداد، ثم صاحت: ما هذا يا عائشة؟ فى كل يوم تزيدين نضارة وإشراقاً؟ لقد حبّبت إلىّ الشباب يا ساحرة، ولكن أين الشباب؟ أتعلمين أننى بعد أن حُرمته

أشعر بلذة عجيبة حينما أراه فى فتاة مثلك لم تشرق على مثلها شمس قرطبة؟ فأجابت عائشة:

- هذا إطراء يا سيدتى يزيدنى زهواً وغروراً. أرأيت ابن زيدون منذ قريب؟

- كيف أراه يا حبيبتى، وهو لا يفارق دارك؟ ولكنى فى الحق أعذره وأعذر كل فتى يُفتن بهذا الجمال الرائع. ثم لا أخفى عليك أن من أسباب زيارتى لك فى هذا الصباح أن أراك وأن أراه، فإن هذا الملعون هجر دارى منذ عهد بعيد، حتى كدت أنسى ملامح وجهه. ثم ألقت بنظرة خفيَّة فرأت الغرفة الغربية، ورأت بابها مفتوحاً، ثم أرسلت نظرة أخرى فرأت مفتاح خزانة الرسائل وقد شُدّ بخيط إلى عنق عائشة. وهنا تنهدت عائشة وقالت:

- إنه هجر دارى أيضاً.
- هجر دارك؟! هذا مستحيل.
- هجرنى فعلاً، ولكنه سيندم حين لا يجديه الندم.
- لا تقولى هذا يا بُنية، واتركى الأمر لى، فلن يأتى المساء إلا وخطيبك فى دارك.

وطال الحديث، وامتد حبل الكلام، وإذا صُراخ وضجيج وأصوات منكرة تصيح: النارَ النارَ: ففزعت عائشة، وأدركها الوَهَل، وأسرعت تثب فوق الدرج لتعلم حقيقة الأمر. وبينما هى فى ذهولها إذ مدّت نائلة يدها بالمقص فقطعت خيط المفتاح، وأخفته فى كُمها. وما كاد البهو يخلو من عائشة حتى نهضت إلى الغرفة الغربية، فرأت المرآة وبجانبها الخزانة كما أخبرتها غالية، ففتحتها مسرعة، وندلت[1] منها الرسائل بعد أن حققت النظر فيها، ثم أسرعت فى النزول وكانت النار قد أخمدت، فحمدت الله على زوال الخطر وقبّلت عائشة فى حنوّ، ومحبَّة وهى تودعها، وحينما بلغت الباب التفتت إليها وقالت وهى تغمز بإحدى عينيها: أظن هذا المفتاح سقط منك يا زهرتى الصغيرة، وأنت تسرعين إلى إطفاء النار. فصُعِقت عائشة، وفتحت فاها دهشة مذهولة، وهمَّت بأن تثب على نائلة، ولكنها كانت فوق المحفة يعدو بها عبيدها كما تعدو كرائم الخيل.

وأمرتهم نائلة أن يذهبوا إلى دار ابن زيدون، وما كادوا يصلون إليها حتى أشرف

---

(١) جذبت وخطفت بسرعة.

عليهم فوق بغلته، وحين رأى نائلة نزل ليحيّيها وهو يصيح فى فرح وصوت متقطع : تقلدت الوزارة! جئت الآن من دار الرياسة. قابلت ابن جهور. إنه رجل عظيم. من أين جئت يا خالتى؟

ـ من دار عائشة.

ـ عائشة! عائشة! قاتل الله عائشة! ماذا كنت تصنعين فى دارها؟ فضحكت وقالت:

ـ كنت أطفىء ناراً بنار. ثم ألقت فى يده الرسائل وهى تقول:

ـ خذ رسائلك أيها الوزير العظيم، واحذر أن تكتب غيرها. فصاح ابن زيدون فى فرح يشبه الجنون.

ـ الرسائل! الرسائل! ورمى بنفسه يقبّلها ويعانقها، ويحجل بإحدى قدميه كما يحجل الصبيان، ثم أخذ يهب نحو الباب قائلاً: كيف حصلتِ عليها يا خالة؟ فقصّت عليه الخبر، فقام إليها يكرر عناقها وتقبيلها وهو يغمغم: أنت ملكى الحارس! أنت نبراس حياتى ومنقذ آمالى؛ ثم ودّعته وانصرفت بعد أن كررّت تهنئته بالوزراة.

جلس ابن زيدون وفتح الرسائل، فكان فى إحداها:

«أما ابن جهور فزِقٌّ(١) نفخته الكبرياء، وصورة من نفاق ورياء، يخدع الناس بلحيته الحمراء، ومسْبحته السوداء. مِنْ رجل يثب عند الطمع، ويختفى عند الفزع! لو كان فى الجاهلية لكان هُبل(١)، أو كان كوكباً لكان زحل».

فارتعش وقال: هذه الرسالة وحدها تكفى لإهدار دمى ومحو اسمى من سجل الوجود. ثم نظر فى رسالة أخرى وقرأ:

«رأيت محمد بن عباس بالأمس، فرأيت الجهل فى ثياب، والوقاحة فى جلباب، نظر إلىّ نظرة البطرة الأشِر، كأنّه يظن الشمس تُشرق بأمره، وأن الألسنة تسبح بحمده، غنى المال، فقير العرض، دنِس الذيل هزيل المروءة».

فجمجم وقال: وهذه أشدُّ وأنكى، ثم قرأ فى رسالة ثالثة:

---

(١) الزق عبارة عن جلد يستعمل لحمل الماء.

(١) صنم كان فى الكعبة.

«وهذا عبد العزيز بن حسن ابن عم عميد الجماعة ، سألنى اليوم عن بيت من الشعر، فوالله ما أقام له وزناً، ولا عرف له معنى، يا له من عتل زنيم[٢]، وثعلب لئيم، يقضى ليله بين الكاسات، ونهاره فى ظلم المسلمين والمسلمات».

فاضطرب وقال: وهذه ثالثة الأثافى. ثم صاح: يا علىّ هات موقد النار. فلما حمله إليه قذف فيه بالرسائل، ولم تهدأ له نفس حتى رآها رماداً.

(٢) مسارع إلى الشر لئيم.

٦

ومرّت الأيام تتلو الأيام وابن زيدون فى أطيب عيش وأهدأ بال. أقبلت عليه الدنيا بعد تدلل وشماس[١]، والدنيا إذا أقبلت أقبل معها كل شيء. وكأن الأمور فيها تجذب أمثالها، فالنحس يجتذب النحوس، والسعد يدعو إليه السعود. وقديماً قالوا: المصائب لا تأتى فُرادَى، ولا ندرى لِمَ لم يقولوا أيضاً: إن النعم لا تأتى فرادى!

عاش ابن زيدون فى هناءة وبُلهنية، وأصبح فتى قرطبة المدلَّل، وبطلها المرجىَّ، وشاعرها الذى لا يُجارى، وكاتبها الذى لا يمارى[٢] نال السعادة فى الحب حينما رضيته ولادة خطيباً، فغنى بهذا الحب، وأرسل فيه أشعاراً أرق من النسيم، وأنضر من صفحة الروض الوسيم. ولقد كان حبهما عُذرياً فِردوسياً أطهر من ماء الغمام، وأصفى من بسمات الصباح، ثم نال السعادة فى منصبه، فأعلى ابن جهور مكانه، واصطنعه لنفسه، ونوه بفضله، وأشاد بذكره، وقدمه على نظرائه، وكثيراً ما أنفذه إلى ملوك الطوائف ليسفِر بينه وبينهم، وكثيراً ما استكتبه الرسائل التى تُضرب ببلاغتها الأمثال.

ولما عظم إقبال الدنيا عليه كثر حاسدوه والناقمون منه، فهو يقول لابن جهور فى قصيدة:

فديتك كم ألقى الفواغر من عداً ... قراهم لنيران الفساد ثقاب

---

(١) امتناع.

(٢) لا ينازع.

عفـا عنهُـم قدرى الـرفيعُ فاهجروا   وبـاينهـم خُلقـى الجميلُ فعابوا
إذا راق حســن الـروض أو فاح طيبه   فمـا ضرّه أنْ طن فيه ذباب

وكان أبو عامر بن عبدوس أشد الناس له حسداً، ذلك لأن ابن زيدون كان يزاحمه بجانبين: جانب حبه لولادة وجانب قربه من ابن جهور حتى أصبح لا يكاد يُبرم أمراً دون مشُورته.

كان ابن زيدون يقضى طليعة الليل فى ندوة ولادة بين طرب وإيناس ولهو ومَرح، ولطالما هزّه الوجد وأثار الحب فى نفسه كامن الشعر فقال:

إليك من الأنـام غدا ارتياحى   وأنـت علـى الزمـان مدى اقتراحى
ومـا اعترضـت همـوم النفس إلا   ومـن ذكراك ريْحانـى وراحى
فديتُـك إن صبـرى عنـك صبرى   لدى عطشـى، علـى المـاء القراح
ولـى أمـل لو الواشـون كفُّوا   لأطلـع غرسـه ثمـر النجاح

نعم كانت الحياة فى أعينهما جنة وارفة الظلال، وفى سمعيهما أنشودة رائعة الألحان. كانا عصفورين غردين يتنقلان فى خفّة ومرح من فنن إلى فنن، ومن دوحة إلى دوحة، تبتسم لهما كل روضة، ويصفّق كل غدير، وقد أمنا عواصف الرياح ومكايد الفخاخ. هكذا كان يعيش ابن زيدون فى كنف ولادة، وهكذا كانت تعيش ولادة تحت جناح ابن زيدون، فهما فى ليلة فى قارب فى النهر يتهادَى بين الضفتين، يعبث بشراعه النسيم، وتنبعث منه ألحان القِيان، وضحكات الندامى فى الليل الساجى، فتملؤه حياة ومرحاً. وهما فى ليلة فى دار القاضى ابن ذكوان صديق ابن زيدون وحبيبه؛ بين ضحك ومزاح. وهما فى ليلة فى مرج الخزّ، أو القصر الفارسى أو عين شُهدة يناغيان البدر ويسامران النجوم.

عاش ابن زيدون بعد خطبته لولادة سعيداً، فنسى أيام شدّته، وغفر للزمان زلته ولم يفكر فى عائشة بنت غالب وكاد يغفر لها كل ذنوبها. غير أنه كان يحسُّ بأن شيئاً يلاحقه، ويعترض طريقه، ويكدّر عليه صفوه، ذلك هو حسد الحاسدين، وكيد الكائدين. ولكنه كان كلما مر به هذا الخاطر هزّ له كتفيه، ومطّ شفتيه، وأراد أن يعيش فى الساعة التى هو فيها.

وقد حدث أن بعثه ابن جهور فى شأن من شئون الدولة إلى المظفّر صاحبَ

بَطَلْيوس، فأكرم استقباله، وألح عليه في أن يقيم عنده، وأغراه بالجاه والمال إن قبل منصب الوزارة في دولته. وكان ابن عبدوس قد أرسلَ وراءه أحد جواسيسه ليسجّل عليه كل كلمة، ويدوّن كل لفتة. وكانت مواهب أبي الوليد من أكبر مصائبه، ومناقبه من أسباب كوارثه، ولقد يكون في الذكاء وسلامة الطبع ومرح النفس وذرابة[1] اللسان هلاك محقق، وبلاء ما حق. وفي الأذكياء العباقرة فضلة من نشاط تضطرب دائماً في نفوسهم، وكثيراً ما تسوقهم إلى المكروه. إن الغبيّ يفكر في كل كلمة، ويقدّر لرجله موضعها قبل كل خطوة، لأنه قليل الثقة بنفسه، حذر من أن يكون رميَّة جهله، أما الذكي المتوقد، فمتوثب جوّال، يجري وراء البديهة، ويقتنص فرص الارتجال، ويرمي بالكلمة لا يبالي أين رماها، ويصدَع بالرأي في جُرأة واعتزاز. وابن زيدون شاعر أديب عالم بالأخبار، سريع حركة الفكر، ذرب اللسان، عظيم الزهو بنفسه، لا يرى له في الأندلس نديداً، ثم هو إلى ذلك مرح ضحوك مستهتر، سريع النكتة، جمُّ الفكاهة. فكان يجلس في حضرة المظفَّر ويطلق لنفسه العنان، ويخوض في كل حديث من غير أن يستصحب الحذر، وإذا جاء ذكر مملكة قرطبة، أو جاء ذكر ابن جهور، كان يدفعه الطيش إلى أن ينبز ويهمز، وإلى أن يمزح ويسخر، وقد تجاوز الحد وأبعد في الاستهانة بالخطر، حينما مدح صاحب بطليوس فبالغ، وغفل عن أن ابن جهور قد يغضبه أن يمدح وزيره أميراً سواه، دع عنك ما خلع على الرجل من الصفات التي تُحصر فيه العظمة، وتعرّض بغيره من الأمراء، وكان من قصيدته:

مليكٌ إذا سابقته الملوك ... حوى الخصل أو ساهمته سهَمْ
فأطولهُم بالأيادي يداً ... وأثبتهم في المعالي قدم
وأورع، لا معتفي رفده ... يخيبُ، ولا جاره يُهتضم
ذلولٌ الدماثة صعبُ الإباء ... ثقيف العزيم إذا ما اعتزم

ظفِر جاسوس ابن عبدوس بكل هذا، ودوّن كلماته التي كان ينثرها جزافاً في مجالس المظفر، ولوّنها بما شاء له فنه واقتضته صناعته، وذهب به إلى صاحبه فزاد فيه ابن عبدوس ما أراد - وما آفة الأخبار إلا رُواتها - وملأ به صدر ابن جهور، وكان رجلاً أذُناً يُلقي السمع لكل واش، ويُنصت إلى كل نمَّام. وعاد ابن زيدون بعد شهرين فلحظ في ابن جهور انصرافاً عنه، وفتوراً عند لقائه، ورأى أن الابتسام أصبح جُهومة، والثقة أضحت شكّاً،

---

(١) فصاحة.

والميل صار مللاً. فبعث إليه بقصيدة فيها استعطاف، وفيها تهديد، وفيها شمم وإباء. منها:

مالى وللدنيا؟ غُررتُ من المنى	فيها ببارقة السراب الخادعِ
ما إن أزال أروم شهدة عاسلٍ	حُميت مجاجتها بإبرة لاسع
مَن مبلغ عنى البلاد إذا نبت	أن لستُ للنفس الألوف بباخع
أما الهوان فصنت عنه صفحة	أغشى بها حدّ الزمان الشارع
فليْرغم الحظ المولى أنه	ولى فلم أتبعه خطوة تابع
إن الغنى لهو القناعةُ لا الذى	يشتفُ قطرة ماء وجه القانع

ولكن ابن جهور استمرّ فى تيهه وانحرافه عنه، غير أن ابن زيدون كان قوىّ الصلة بابنه أبى الوليد محمد بن جهور، وكان يظن ألا يناله من الوالد مكروه، ما دام يحظى بمحبة الولد.

ذهب بعد عودته من بطليوس إلى دار ولادة، فقابلته بوجه بشّ، وأشواق كادت تملأ جوانب الدار، ثم قالت فى غضب مصطنع:

- لا يا أحمد! لقد أطلت علىّ الغيبة، وأنساك جاهك وعظيم مكانك بين أمراء الأندلس فتاتك المزهوّة بك. ثم رفعت رأسها فى اعتداد وقالت: لست أنت وحدك الشاعر الذى هزّ أعطاف قرطبة، فإن نفسى تحدّثنى أن أنظم فى تيهك وجفوتك قصيدة يتناقلها الرواة، وتخلُد على الزمان.

- لا لا يا سيدتى. شعر وجمال لا يجتمعان! فأجابت فى دُعابة: يجتمعان يا مولانا الوزير، فليس الشعر إلا جمالاً، وليس الجمال إلا شعراً. ثم جذبته من ذراعه إلى البهو، حتى إذا جلس أخذت تقول:

- ألا من سبيل إلى إنقاذى من ابن عبدوس؟! إنه يا أبا الوليد يلاحقنى كما يطارد الصائد فريسته، إنه يفرض علىّ حبّه فرضاً كما يفرض ابن جهور الجزية على كل ذِمىّ، إنه من الصِّنف الذى لا يرده الإعراض، ولا يكفكف من غربه الملال. إنه وقح مغرور يظن أن قلوب الحسان ملك يمينه، وأن له وحدَه أن يختار منها ما يشاء. والأدهى والأمرّ أنه يرى أنه أجمل شاب بقرطبة، وأن الأندلس لم تحو جنباتها مَن يساويه فى جاهه وأدبه وثروته.

كان ينكبُنى بزيارته كل يوم وأنت غائب، ويصارحنى بحبه فى سماجة وإلحاح، فلما سددت الطريق فى وجهه، وأخبرته أننى أصبحت لك خطيبة، بعث إلى بالأمس امرأة من صويحباته، تُشيد بمحاسنه، وتجتذب مودتى له، فرددتها أقبح ردّ، ورجعتها إليه حُنيناً بلا خفين؛ وهناك رجل آخر أشد منه بلاهة وأكثر جهلاً، ذلك هو أبو عبد الله بن القلاّس البطليوسى. ظن هذا المغرور أن المال الذى جمعه أيام الفتن والكوارث يُنيله كل شىء، فراح يتابعنى بنظراته، ويضايقنى بزياراته. لقد ضقت بهما ذرعاً يا أبا الوليد، والذى أرجوه أن تكتب إلى ابن عبدوس رسالة عنى تردّه إلى صوابه، وتذوده عن بابى.

فتأوّه ابن زيدون واضطرب فى مجلسه وقال:

- إن ابن عبدوس كان فيما يزعم لى صديقاً، ولكنى أقرأ فى عينيه الآن الحقد والبغضاء، وأكبر ظنى أنه يدُسّ لى عند ابن جهور.

- كيف يا أبا الوليد؟

- لا أدرى. ولكنى منذ عودتى من بطليوس لم أجد ابن جهور كعهدى به.

- هذه دسائس الأندلس! فانظر هل عصف بمجدنا، وقطّع مملكتنا أجزاء، وأغرى بنا ملوك الإفرنجية إلاّ التحاسد والتباغض والأثرة؟ لا تبال يا سيدى، إنهم ذباب لا يملك إلا الطنين. ثم أسرعت إلى ورقة كانت فوق خوان وقالت فى إصرار:

- بحقى عليك يا أبا الوليد إلاّ ما كتبت إلى ابن عبدوس حتى تستريح دارى من شؤم طلعته.

فأخذ ابن زيدون القلم، واختلى بنفسه ساعة، ثم عاد يقول:

- استمعى للرسالة يا سيدتى:

«أما بعد. أيها المصاب بعقله، المورَّط بجهله، البيِّن سقطهَ، الفاحش غلطه، العاثر فى ذيل اغتراره، الأعمى فى شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب».

فصاحت ولادة قائلة: لو طلبت من الحطيئة أن يكتب إلى ابن عبدوس ما كتب أقذع من هذا! ثم جذبت منه الورقة وأخذت تقرأ حتى بلغت قوله:

«فوجودك عدم، والاغتباط بك ندم، والخيبة منك ظَفر، والجنة معك سقر. كيف

رأيت لؤمك لكرمى كفاء؟ وضَعتك لشرفى وفاء؟ وأنَّى جهلت أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها؟ والطير إنما تقع على ألأفها؟ وهلا علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعان، وشعرت أن المؤمن والكافر لا يتقاربان».

وهنا قالت ولادة: لقد قتلت الرجل. وإن من السهام كلاماً، ومن البيان موتاً زؤاماً. ثم مالت عليه وقالت: بالله عليك إلاّ قلت فيه شعراً، حتى لا ينبض بعد له عرق، ولا يطَّرد نفس! فجذب ابن زيدون ورقة وأخذ يفكر ساعة، ثم كتب:

أثــرت هزبــرَ الشــرى إذ ربضْ   ونبهتــه إذ هدا فاغتمض
حــذار حذار فإن الكريم   إذا سيم خسفــاً أبــى فامتعض
فــإن سكون الشجــاع النهو   س فليس بمانعــه أن يعض
وإن الــكواكب لا تستزل   وإن المقــادير لا تُعترض
أبــا عامــر، أين ذاك الوفــا   ء إذ الدهر وسنــان والعيش غض؟
أبِــنْ لى، ألــم أضطلــع ناهضاً   بأعبــاء برك فيمــن نهض؟
لعمــرى لفوّقــت سهــم النضا   ل وأرسلته لو أصبــتَ الغرض
وغــرّك من عهــد ولادة   سرابٌ تراءى وبــرقٌ ومض
هــى المــاء يأبــى علــى قابضٍ   ويمنــع زبدتــه من مخض

وما كاد يتم قراءة الأبيات حتى صفقت بيديها طرباً وإعجاباً كما يصفق الأطفال، ثم صاحت فى لهجة الآمر:

ـ لا تضع القلم قبل أن تكتب أبياتاً للفدم(1) الجاهل ابن القلاّس. فأطرق ابن زيدون قليلاً ثم كتب وهى تطل عليه وهو يكتب:

أصــخْ لمقالتــى واسمعْ   وخــذ فيمــا ترى أو دعْ
وأقصــر بعدهــا أو زد   وطــر فى إثرهــا أو قع
ألــم تعلــم بأن الدهــ   ـر يعطــى بعــد ما يمنع؟
وأن السعــى قد يكدى   وأن الظــن قد يخدع؟
وكان رامــت الأيا   م ترويعــى فلــم أرتع

---

(1) العيى عن الكلام فى رخاوة وقلة فهم ـ الأحمق.

أعـد نظـراً فإن البغـ ـى ممـا لم يزل يصرع
ولا تك منـك تلك الدا ر بالمـرأى ولا المسمع
فـإن قُصـارك الدهليـ ـزُ حين سواك فى المضجع

فقهقهت ولادة وقالت:

- حتى والله ولا الدهليز ! قل بالله عليك يا أحمد:

فـإن قصـارك الإصطبـ ـلُ حين سواك فى المضجع

وجمعت الرسائل، ودعت عبدها رابحاً وأمرته أن يسرع بكل رسالة إلى صاحبها.

وبعد قليل أقبل أبو بكر بن ذكوان، وعمَّار الباجىّ، وعبد الله بن المكرى، فاتسع نطاق الحديث وتعددت طوائفه، فقال ابن ذكوان:

- لقد تناثر اليوم فى قرطبة خبر يهمس به الناس فى سخط واستنكار، هو يدور حول المأمون بن ذى النون أمير طليطلة وما تسوّل له نفسه من الهجوم على قرطبة والاستيلاء عليها.

فقال الباجى:

- إن القرطبيين لا يبغضون شيئاً فى الدنيا كما يبغضون البربر، بعد أن شهدوا حكمهم، وولعهم بالتخريب والتدمير. وهذا المأمون ليس إلا عصارة السلالة البربرية، وهو لا يُدل علينا بشىء إلا أنه حبيب الأذفونش.

فتململ ابن زيدون وقال:

- إنه لو خدعته نفسه، وزيّن له الغرور غزو قرطبة، لرأى حولها أسواراً من سيوف وقلوب، فخير له أن يقبع فى داره، وأن يتخلّى عن الهوى ويعمل على جمع الكلمة ونبذ الفرقة. إن عرب الأندلس لن يعود إليهم مجدهم حتى تعود إليهم وحدتهم، وتتالف قلوبهم.. ثم زفر زفرة طويلة وقال:

- لقد ضاعت الأندلس، وتبدّد بها ملك كان بهجة الدنيا، وزينة الدهور، وانفصمت تلك العروة العربية التى جمعت الآراء على رأى، وجعلت من الزنود المفتولة زنداً، ومن السيوف الصارمة سيفاً، فأصبح العرب بعد انحلالهم فى هذه الجزيرة النائية بدداً كالشياه فتك الذئاب برعُاتها، فهامت فى بيداء الخوف والجوع لا تسكن إلى ظل ولا تأوى إلى سياج.

نزلنا هذه الجزيرة فى قلة من العدد والسلاح، ولكنا كنا من عزائمنا وإقدامنا وإيماننا بالحق فى جيش لجب[1]، وقوة تزلزل الجبال. لن أذكر طارقاً، فإن إقدامه ودهاءه أصبحا مضرب الأمثال، ولا تزال الإفرنجة حولنا تروى حديث وثوبه على الأندلس وقلوبهم ترتجف فزعاً. أعرابى فى اثنى عشر ألفاً من البربر والعرب، أقوى سلاح لهم سيف مثلّم، أو رمح محطم، يهجمون على جيش لذريق، وهو كأمواج البحر، ثم لا تنثنى لهم عزيمة، ولا تجيش لهم نفس، حتى يكتب لهم الظفر، وتعود سيوفهم ضاحكة إلى أغمادها! فأين هذه القوة؟ وأين هذه العزائم؟ وأين ذلك الروح الإسلامى العاصف الذى لم تقف أمامه أسوار، ولم تصعب عليه أبراج، ولو كانت تتلفّع بأردية السحاب؟

أين أيام عبد الرحمن الداخل؟ ذلك الفتى الشمَّرى الأحوذى الذى قدم الأندلس وحيداً، فلمْ تمر به سنة حتى كان جميعها فى قبضته. وأين منا عهد الناصر لدين الله، والناس ناس، والزمان زمان، حين كان ملوك الإفرنجة يستجدون رضاه ويتسابقون إلى طاعته؟ بعث إليه صاحب القسطنطينية العظمى سفراءه ومعهم أشرف الهدايا وأنبلها، فتلقتهم قرطبة فى يوم مشهود، وأقبلوا فى خضوع نحو قصر الزهراء يقدمون للناصر إخلاص سيدهم وصادق مودته. ثم أين منا أيام ابنه الحكمَ المستنصر بالله حين اعتزم غزو بلاد الملك أردون؟ ذُعر الملك فسار إلى الحكم فى عشرين رجلاً من أصحابه راجياً منه أماناً واعتصاماً بذمته، فلمّا دخل قرطبة سأل أول ما سأل عن قبر الناصر لدين الله، فلما أرشد إليه وقف أمامه فى صمت وخشوع خالعاً قلنسوته حانياً ظهره، وأمر الحكم بإنزاله بدار الناعورة فأقام بها يومين، ثم استدعاه إليه وكان قد أعد لليوم عُدته من الزينة ومظاهر القوة، وجاء محمد بن القاسم بأردون وأصحابه فدخلوا بين صفوف الجند، والملك ذاهل يقلّب الطرف ويجيل الفكر فى كثرتهم وكمال عدتهم، حتى وصل هو وصحبه إلى أول باب للزهراء فترجّل وترجلوا، فلما بلغوا البهو جاء الإذن للملك بالدخول فتقدم وأصحابه وراءه، حتى قابل مجلس المستنصر بالله، فوقف وكشف رأسه وخلع برنسه وبقى حاسراً إعظاماً، فلما قابل سرير المُلك خرّ ساجداً سويعة ثم استوى قائماً وأهوى على يد الخليفة يقبلها ويبتهل داعياً شاكراً، وقد علاه البُهر من هول ما باشره، وجلالة ما عاينه من فخامة وعظمة ومُلك وسلطان. وكان يوماً حافلاً، وكان للخطباء والشعراء فيه مقامات حسان.

هكذا كانت صولتنا، وهكذا كان سلطاننا، فأين منا ذلك المجد الضائع، وذلك السلطان

---

(١) ذو جلبة وكثرة.

الذى احتسبته أسفار التاريخ حتى لا يظهر للعيان؟

فأسرع ابن المكرى يقول:

ـ ا الله! إن من البيان لسحراً! وقال ابن ذكوان:

ـ حقاً إنك لخطيب يا أبا الوليد؟ فابتسم ابن زيدون ابتسامة حزينة وقال:

ـ وماذا تفيد الخطب يا أبا بكر إذا لم تجد آذاناً وعقولاً؟ يجب أن نستيقظ، ويجب ألا نسدّ أعيننا دون الخطر الداهم. إن ملك الإفرنجة بعد أن وحَّد ولايات أستورياس وليون وقشتالة، اتجه إلى تفريق كلمة العرب، وبثَّ التحاسد بين أمرائهم، وأخذ يُغرى بعضهم ببعض، وينصر فريقاً ويخذل فريقاً، لا يبغى من وراء ذلك إلا إضعافهم جميعاً. فإذا لم نصدمه الصدمة القاصمة، شالت نعامتنا[1]، وذهبت ريحنا. لقد حادثت ابن جهور كثيراً فى هذا الأمر، ولكنه كان يطرق طويلاً، ثم لا يزيد بعد أن يرفع رأسه على أن يقول: أنت طموح يا فتى! فصاح ابن المكرى:

ـ ابن جهور أقدر الناس على حمل هذا العبء العظيم بذكائه ودهائه وبعد رأيه، ولا يقف فى طريقه إلا أنه ليس من سلالة الملوك. والقرطبيون خُلقوا وفى دمائهم حب الملوك، فهم لا يبذلون أرواحهم رخيصة، ولا يجبهون الموت، إلا إذا قادهم ملك أوخليفة. فهز ابن زيدون رأسه فى حزن وقال:

ـ هذا صحيح يا أبا يزيد. فأسرع الخبيث يقول:

ـ لم يبق بقرطبة اليوم أحد يصلح لمقاومة الإفرنجة. وكان الناس منذ حين يلتفون حول فتى من أبناء الناصر لدين الله يسمى ابن المرتضى، ولكنه لا يُعلم له الآن مكان، وأظنه قضى نحبه. فتحرك الباجى فى مجلسه وهو يقول فى صوت خافت:

ـ أخشى يا ابن أخى ألا تكون محيطاً بالخفىِّ من الأمور، فإن بعض الناس يظن أن ابن المرتضى عاد إلى قرطبة منذ شهر، وأنه فى مكان لا يعرفه إلا خاصة أتباعه. فانقبض وجه ابن زيدون، وقال فى صوت مختلج.

ـ من أخبرك بهذا؟

---

(١) متنا.

ـ لم يخبرنى أحد، ولعله ظن يا أخى، وإن بعض الظن إثم.

ـ هذه أباطيل يصطنعها مختلقو الأكاذيب، ويرجف بها المرجفون ثم تحفَّز القوم للقيام فودعوا ولادة وانصرفوا.

ولما بلغ ابن زيدون داره التفت خلفه فرأى رجلاً كان يتبع خطواته، يسرع ثم يختفى وراء جدار، فسهم وجهه وقال متأففاً:

ـ سُحقاً لجواسيس قرطبة؟

٧

كان من عادة ابن جهور أن يجلس كل صباح مع ابنه وخليفته أبي الوليد ليقرأ ما يرد عليه من أخبار المدينة، وما تطالعه به جواسيسه من شئون وحوادث، وكان في هذا اليوم عبوساً مهموماً، يحمل في يده ورقة صغيرة، أطال النظر فيها، ثم ألقى بها إلى أبي الوليد وهو يقول:

ـ لقد كان ما خفت أن يكون، صدقت فراستي في الرجل وكنت أرجو الله ألا تصدق.

ـ من هو يا سيدي؟

ـ الرجل العبقري النابغة الداهية الكاتب الشاعر والسياسي البارع! كانت تبهرني فيه تلك المزايا، وكنت أتحرّق شوقاً إلى أن أراها تتجه دائماً إلى رفع شأن المملكة وإحياء رميم مجدها، وكنت أرى أن مثله خليق بأن يقتعد أشرف المناصب، ويسمو إلى أرفع الرتب، ولكن كان يصرفني عنه كلما هممت بالانتفاع بمواهبه ما فيه من نزق وعُجب، وما تلتهب به نفسه من طموح طائش خفت أن يورده ويورد الدولة معه موارد الهلكة، فكنت أهمل أمره أسفاً، وأقنع بأن يقصر عمله على النظر في شئون أهل الذمة كارهاً، ولكني آخر الأمر عصيت نفسي، وكذبت صادق فراستي، ووليته الوزارة، وأطلقت يده في الدولة سيّداً مطاعاً، فكان منه ما جعلني أسمع كل يوم عنه خبراً، وأتوجس شراً.

ـ يريد سيدي أبا الوليد بن زيدون؟

ـ نعم هو يا ولدي.

ـ إن إبن زيدون يا مولاي من أخلص الناس لك، وأصدقهم في النصح لدولتك. وأطولهم

باعاً فى الذياد عنها، وهو يطلعنا فى كل حين بقصيدة من روائعه كلها ثناء عليك، وإعلاء لك، وإشادة بمجدك. وهو فى مديحه غير متكلف ولا مخادع ،فإن للصدق فى شعره رنيناً يدركه كل أديب، وفيه للإخلاص والوفاء روحاً يطُل من كل بيت. إن ابن زيدون قد يكون شديد الزهو بنفسه، وله العذر، فمثله حقيق بأن يُزهى. وقد يكون طموحاً وثاباً، ولكنه طُموح المعتز بدولته، الناهض بأمته.

ـ ما أظن يا أبا الوليد. إنه يمدحنى بشعره كثيراً كما تقول، ولكنى أخشى أن يكون هذا المديح دريئة يخفى وراءها سيىء مساعيه، وحجاباً يسد به عينىّ من أن تريا ما يعمل فى الظلام. ثم زفر فى ألم وحسرة وقال: أتظن أنه يمدحنى مخلصاً، وهو يمدح صاحب بطليوس ويحصر فيه كل صفات العظمة، ويعرّض بغيره من الأمراء، ويقول له:

أشفُ الورى فى النهى رتبة وأشهرهم فى المعالى مثل
وأحرى الأنام بأمر ونهى وأدرى الملوك بعقد وحل
غمامٌ يظل، وشمس تنير وبحر يفيض، وسيف يُسل
قسيمُ المحيا ضحوك السماح لطيف الحوار أديب الجدل
سواك إذا قُلد الأمر جار وغيرك إن مُلّك الفىء غلّ

فإذا كان المظفر أشفّ الناس رأياً، وأحراهم بالأمر والنهى، فماذا بقى لى؟ ثم من سواه الذى إذا قلّد الأمر جار؟ ومن سواه الذى إذا مُلّك الفىء(1) غل؟ إن كان يقصدنى فلأمه الهبَل!

ـ يا أبى إن الشاعر إذا مدح بالغ وأبعد، والناس جميعاً يعرفون هذا ويتجاوزون عنه، والمبالغة ميزة الشاعر وخاصته منذ أن هلهل ابن ربيعة الشعر، ولو أخذ الشاعر على ما يقول لم يستطع أن يقول شيئاً، والشعر ليس فلسفة ولا منطقاً، ولكنه أوهام تصوّرها أنغام.

ـ صدقت أيها الفتى، إن الشعر أوهام تصورها أنغام. وهكذا كان شعر الرجل فى مديحى. ثم ألقى إليه بالورقة التى كانت فى يده وهو يقول: اقرأ يا أبا الوليد هذه الورقة، واكشف لى وجه الرأى فيها فقد غُمّ(2) علىّ أمرى. فقرأ:

«من ابن عبدوس إلى الرئيس الأكبر عميد الجماعة.

---

(1) الغنيمة.

(2) خفى واستعجم.

أما بعد فقد أخبرنى الرجل الذى طلبت إليه أن يرافق ابن زيدون ويرقبه عن كثب: أنه منذ حضر من بطليوس، والحيرة لا تفارقه، فهو يتنقل من دار إلى دار، ويزور أقواماً لم يكن يزورهم من قبل، وقد تردّد فى الأسبوع الفائت على دار راجح الصنهاجى، وكان يودعه عند الباب فى كل مرة، وسمعته يقول له فى إحدى المرات: سيكون الأمر هيّناً والجو ملائماً. وزاره منذ يومين ثابت الغافقى، وخرج من عنده عابس الوجه يبدو عليه التفكير والقلق. وكان بالأمس مع ابن ذكوان عند ولادة، وخرجا قبيل الفجر، وأخذا يتهامسان فى الطريق فى جدّ واهتمام».

ما كاد أبو الوليد يتم قراءة الرسالة حتى صاح ابن جهور:

ـ أرأيت أن الرجل لا يخالط إلا المتردّدين المزعزعين الذين لا يحجُبهم عن الفتنة إلا العجز أو الخوف من أن يكونوا حطباً لنارها؟

ـ إننى أخاف يا أبى أن يكون أعداء ابن زيدون قد أحكموا دهاءهم، ولاحت لهم فرصة من حسن استماعك لهم فراحوا يصوّرون لك أوهاماً، لو ألقيت عليها نظرة واحدة من نظراتك الثاقبة لطارت فى الهواء. ما هذا يا مولاى؟ كل الذى سمعته وقرأته فى هذا المجلس أن ابن زيدون عبقرى طموح، وليس فى ذلك عيب ولا عار، وأنه مدح بعض الأمراء فأغرق، وهو إذا مدحهم فبلسانك نطق، وإلى إعلاء دولتك قصد، لأنه سفيرك ووزيرك، وقد يرى من حسن الرأى وخُدَع السياسة أن يمدح من يكون لك عدوًّا، ويُحسن إلى من يكون لك مسيئاً. على أن عبيد الله بن قيس الرقيَّات وهو زبيرى المذهب خارج على بنى أمية، كان يمدح مُصْعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان فى آن. وكان الكميت بن على من مدّاحى الأمويين، ومن أشد الشعراء بغضاً لهم. أما كل ما فى هذه الورقة فهراء لا يقام له وزن، ولا يحسب له حساب، فليس فيها إلا أن ابن زيدون قابل فلاناً وفلاناً وفلاناً، وماذا فى هذا يا أبى؟ إنك أنت تقابلهم وتخالطهم وتزورهم فى دورهم. ثم إن هذا كان عابساً، وهذا كان مفكراً، وهذا كان هامساً، هذا كلام لا ينهض بجناحين، ولا يسير على قدمين، فلو أن العبوس أو التفكير أو الهمس كان يدل على العمل لإسقاط الدول ما بقيت دولة في بقاع الأرض يوماً واحداً. مزّق يا مولاى هذه الورقة، وامح ما كان فيها من لوح فكرك، واترك عنك هذا الهاجس الذى ليس من ورائه إلا أن قوماً يتخذون منك سيفاً للقضاء على عدوهم، وازجر هؤلاء الوشاة الدسّاسين، فإنك لن تجد مثل أبى الوليد فى كرم نصابه، وبعد همته، وجلالة قدره.

ـ أرجو أن تكون موفق الرأى صادق الفراسة يا ولدى! فإن أودّ ما أوده أن يبقى ابن

زيدون لهذه الدولة عضداً وزنداً.

ـ لا تأبه لحديث ابن عبدوس يا مولاى فإنه غريم ابن زيدون في الحب والسياسة.

ـ في الحب؟

ـ نعم في حب ولادة. فابتسم ابن جهور وقال:

ـ هكذا رأينا الحب ينبت البغضاء! ثم نظر إلى ابنه نظرة طويلة وقال: اكتم هذا المجلس أبا الوليد ولا تحدث به نفسك في خلوتك، وأرجو الله أن يبعد عنا المكروه، ويوفقنا لما نحب ويحب.

وفي ضحا هذا اليوم ذهبت ولادة لزيارة نائلة فوجدتها لا تزال في سريرها تصلح لها جواريها ما أفسد الليل من زينة المساء، فقابلتها نائلة في شوق وشغف، وأمرت أن يقرّب لها كرسى إلى جانبها، وقالت:

ـ كيف حال أبى الوليد؟ إن هذا الولد العاق لم يزرنى منذ حين.

ـ إن ابن زيدون في هذه الأيام ليس كعهد الناس به، فهو كثير الوجوم، بادى الهموم. وقد فارقه ذلك المرح الذي كان ينشر الأنس فى كل مكان، ويغتصب الضحك من فم الحزين.

ـ تزيد هموم الناس يا بُنية إذا ارتفعت منازلهم وعظمت مناصبهم، وقد كنتِ تبغين أن يكون خطيبك وزيراً، فلما أصبح وزيراً برمت برزانته، وضقت ذرعاً لصرامته وجده.

ـ لا ياخالة. ليست المسألة مسألة رزانة أو صرامة، ولكنى أشك فى أن أمراً عظيماً يشغل باله ويملك عليه نواحى نفسه. فقهقهت نائلة وقالت:

ـ ليس الأمر كما تتوهمين يا ولادة. وإذا كان هناك ما يشغل باله فهو أنه أسير حبك، ينتظر اليوم الذى يصبح فيه بعلا لأجمل فتاة. فابتسمت ولادة ابتسامة زهو وإعجاب وقالت:

ـ أخشى يا نائلة أن أعداءه يكيدون له، وأخشى أن يجدوا من ابن جهور أذناً صاغية.

ـ ما أظن يا حبيبتى أن يجرؤ أعداؤه على منابذته، فإن أيديهم أقصر من أن تنال له

ذيلاً. على أن ابن جهور على تزمّته وجفوته، من أطوع الناس لى عناناً، وهو فى يدى كالعجينة فى يد الخباز؛ وكلمة منى واحدة كفيلة بأن تطرد ما ألقى النمّامون فى أذنه من كلمات.

زارتنى عائشة بنت غالب من أيام، وأظهرت لى تمام الود وصادق المحبة، واتخذت من سرقتى لرسائل ابن زيدون من خزانتها مجالاً للفكاهة والضحك والتندّر، وأقسمت أغلظ الأيمان أنها كانت تريد أن تردّ إليه هذه الرسائل، وأن كل وعيدها وتهديدها كان كاذباً مصطنعاً لم تقصد به إلا أن يعود إلى ظلال حبها، وأن يعيشا كما كانا سعيدين هانئين. ثم تفرّست فى وجهى طويلاً، وتابعت حديثها تقول: ولكنه حين أبى، وحين يئست من عودته، طويت نفسى على آلامها، وتمنيت له خير ما يتمنى محبٌ لحبيب. ولقد سرنى والله قبل كل امرأة بقرطبة أن ينال تلك الحُظوة التى نالها عند ابن جهور، وأن يرقى إلى منصب الوزارة، نبئيه يا خالتى أنى أحفظ الناس لوده، وأبقاهم على عهده، وأزهاهم برفعته وعلو شأنه. لقد رأيته مرة «برحبة مغيث» فوق بغلته الشهباء، والأعوان من حوله، ورجال الديوان من ورائه، فسألت الله أن يصونه ويُعمى عنه أعين الحاسدين، وتمثلت بقوله فى صاحب بطليوس:

ألا هل سبيلٌ إلى العيبِ فيه فكم عين من قبله من كمَل؟

فأسرعت ولادة تقول:

- وهل صدّقت شيئاً من هذا يا نائلة؟ فغمزت العجوز بإحدى عينيها وقالت:

- صدّقت أو لم أصدّق. إنّها هدنة على أيّة حال.

- ولا هدنة!

- وأى ضرر فى أن نتغابى ونأخذ الحذر؟

- من أخبر هذه الرقطاء أن أبا الوليد قال قصيدة فى مدح صاحب بطليوس؟ ومن الذى نقل إليها هذه القصيدة؟

- الجواسيس! الجواسيس! إنهم أكثر من ذباب قرطبة. ثم اتجهت إلى ولادة كأنها تذكرت شيئاً وقالت فيما يشبه العتاب:

ـ ماذا فعلتم بابن عبدوس يا ابنة المستكفي؟ فظهر الضجر على وجه ولادة وقالت :

ـ اسمعي يا نائلة ما رواه القصّاصون ، فقد قالوا : إن الجبال يوم خلقت اشتكت من ثقلها وصلادة صخورها ، ولكنها هدأت حينما علمت أن الله خلق من هو أثقل منها . وقالوا : إن الأفاعي باهت يوماً بسمومها فقيل لها : أطرقي ؛ فإن الله خلق من هو أوحى منك سمّاً . أتعرفين يا خالتي من ذلك الذي هو أثقل من الجبال وأفتك سمّاً من الأفاعي؟ هو ابن عبدوس . لقد كدت أفارق قرطبة لأجله ، جاء بثقلة ودمامته وخبثه يرمي نفسه عليّ رمياً ، ويلزمني حبه إلزاماً ، فلم أجد محيصاً إلا أن أرسل إليه رسالة باسمي بل صفعات متتابعة يدمّي لها قذاله[1] العريض وأرسل إليه أبو الوليد أبياتاً ستقُض مضجعه ، وتؤرق وساده .

ـ جاءني بالأمس يشتكي من الرسالة والأبيات ، ويرجوني أن أصلح ما فسد بينه وبين ابن زيدون ، لأنه يغالي بصداقته ، ويحرص على مودّته ، ثم ألح في أن أكون وسيلته إليك على أن يقنعَ منك بالحديث والمجاملة ، وأن يرضى منك بقبوله في ندوتك صديقاً مخلصاً .

ـ خير ليّ وله أن يبتعد عن ندوتي يا نائلة .

ـ ألا ترين في الأمر شيئاً يدعو إلى التوجس والقلق؟ فإنه ليس من محض المصادفة في رأيي أن تأتي عائشة ثم يليها ابن عبدوس فيعلنا في أسلوب يكاد يكون واحداً حبهما لابن زيدون ، ووفاءهما له ، إني أكاد أرى وراء الأكمة شيئاً . وعلى أبي الوليد أن يحذر وعلى كل أصحابه أن يحذروا ويتربصوا . فظهر الذعر على وجه ولادة وقالت :

ـ ماذا نَصنع يا خالتي؟

ـ نحذر ونتربص!

وكأن الخوف أعجل قيامها فقالت وهي تتحفزّ له :

إنّني أحذّره دائماً ، ولكنّه لا يأبه ولا يبالي ، وهو لك أطوع ، ولكلمتك أسمع ، فهولّي له الأمر يا حبيبتي ، لعلّه يرعوي[2] . ثمّ اسرعت إلى الباب مرتجفة الأوصال .

وفي مساء هذا اليوم كان يجتمع في دار عائشة مربع له أربعة رؤوس ، لو أراد إبليس

---

(١) القذال ما بين الأذنين من مؤخر الرأس .

(١) يلتفت .

وكان أبرع خلق الله فى علم الهندسة أن يؤلف مثله مربعاً للؤم والدهاء والمكيدة والخسة ما استطاع - اجتمع أبو عامر ابن عبدوس، وابن القلاس، وابن المكرى وعائشة وأغلقوا الباب دونهم، واتجهت عائشة نحو ابن المكرى تقول:

- عجيب أن نراك بيننا اليوم يا أبا يزيد، وأنت تعرف. والناس يعرفون أنك أقرب الناس إلى ابن زيدون! وأحرصهم على صداقته، فإذا حدّثتك نفسك يا سيدى بأن تلعب على حبلين، وأن تشهد طعام معاوية وتصلى خلف علىّ، فإنا لسنا من الغفلة بحيث تخفى علينا هذه الأخاديع، أو تلتبس علينا وجوه الحق من ورائها. فأسرع ابن عبدوس يقول:
- على رِسْلك يا عائشة! فإن ابن المكرى من أشدّ أعداء ابن زيدون وأحقدهم عليه، وأبعدهم له كيداً، ولكنه بارع فى الرياء، عبقرىّ فى ألاّ يظهر فوق وجهه شعاع من قلبه، يعانق عدوّه ويقبله فى الصباح، ليطعن أحشاءه آمناً مطمئناً فى المساء، أنت لا تعرفينه يا عائشة. إنه داهية الدواهى، وباقعة البواقع.

فابتسمت عائشة فيما يشبه السخرية وقالت:

- ومن يُدرينى - بعد أن وصفت الرجل بما وصفت - أنه اليوم صادق أمين؟ ألا يجوز أنه الآن يلبس غير ثوبه، ويقتعد غير سرجه، ويدلّس علينا كما يدلس على كل مخلوق؟ فانبرى ابن المكرى يقول:

- اسمعى يا عائشة، إن العداوة والبغضاء يجريان وراء المنفعة، فأعدى أعدائك من يزاحمك فى رزق أو جاه أو منصب. تلك غريزة يا سيدتى، ترينها فى الإنسان كما ترينها فى الحيوان. أسقطى حَفْنة من الحب بين أفراخ الدجاج، ثم انظرى ماذا تعمل، يثب هذا على ذاك، وينقر هذا ذاك، ويضرب هذا بجناحه ذاك. وابن زيدون يزاحمنى الآن فى كل شىء: يزاحمنى فى الأدب والجاه والرزق، حتى أصبحت فى الديوان حشرة ملقاة على كرسىّ لا رأى لها ولا عمل. أصبحت مغموراً فى الظلام لا يرانى الناس، بعد أن بهر أبصارهم ضياؤه المتوهج، وأصبح شعرى هُذاء محموم، وأدبى لا جسم له ولا روح، ومنصبى لا يحتفظ إلاّ باسم أجوف يتندّر به المتندّرون، ويسخر منه الساخرون، فكنت يا عائشة بين أمرين: إمّا أن أناصبه العداء، وأجاهره بالبغضاء، كما فعل صاحبى ابن عبدوس، وإما أن أطوى نفسى على الغل والكمد، وأعمل فى الظلام لدكّ ذلك الجبل الشامخ، واصطياد ذلك الأسد الزائر! فرأيت أن الأولى ستدفعه إلى الحذر، واتخاذ

الحيطة، ثم إلى محاربتى بسيف أصلب من سيفى، وقوّة تنهار أمامها قوتى. ورأيت أن الثانية أقرب من السلامة، وأدنى إلى الحزم، وأكفل ببلوغ الغاية، فزدت له من بسط وجهى، ولطف حديثى، وما أجيد اصطناعه من الملق والدهان والخديعة، حتى سكن إلىّ واطمأنت نفسه لمودتى، فاصبحت له الخل الوفى، والصديق الأمين، ولو فعلت معه كما فعل ابن عبدوس لم أزد على أنى نفرت الصيد من الصائد، وأبعدته عن الشرك، ونطحت برأسى صخرة لأوهنها كما يفعل الوعل الأحمق.

فقال ابن عبدوس:

- مرحى يا أبا بدير! إن للناس وجهاً واحداً ولك ألف وجه ليس فيها وجه صحيح!
فضحك ابن القلاس وقال:

- أخشى كما تخشى عائشة أن يكون اليوم قد لبس أحد هذه الوجوه.

فقالت عائشة:

- لا يا عبد الله. إننى فهمت الرجل وأدركت فلسفته. ثم اتجهت نحو ابن عبدوس وقالت:

- أخبرنى بلال - وهو من أخص عبيدى بعد أن أطلقته خلف ابن زيدون يقتصّ آثاره، ويتلقف أخباره - أنه لا يكثر من زيارة ولادة فى هذه الأيام، وأنه يقضى أكثر الليالى بداره منفرداً. فقال ابن عبدوس:

- ألا يجوز أن يكون الرجل يُخفى بداره شخصاً؟ وأنه يكتم خبره عن أخصّ أصدقائه. فصاح ابن المكرى:

- يجوز جداً. ولقد علمت علماً ليس بالظن أن ابن المرتضى نزل قرطبة خِفْية، وأن ابن زيدون يتصل به، فإذا استطعنا أن نقنع ابن جهور بهذه الصلة فقد قُضي الأمر، وقُضي على الرجل. فقال ابن عبدوس:

- إن الجو جدُّ ملائم، فإن ابن جهور تساوره الوساوس من قِبَل ابن زيدون، ولكنها كالبعوض يطِنّ فى أذنه ثم يطير فلا يستطيع له قبضاً. فصاحت عائشة:

- كيف نقنع ابن جهور بهذا الأمر الخطير، وهو رجل صارم فى الحق، لا يأخذ

بالشبهة، ولا يحكم إلاّ عن بينة؟ فقال ابن القلاس:

ـ هذا هو الذى جئنا لنتشاور فيه.

فالتفتت عائشة إلى ابن المكرى وقالت:

ـ أواثق أنت تمام الوثوق من أن ابن المرتضى يقيم الآن بقرطبة، وأن ابن زيدون يتصل به؟

ـ نعم.

ـ من نبّأك هذا؟

ـ نبأنيه صديق ما كذبنى قط، وقد كان ينادم ابن زيدون على شراب فتعثر لسانه وهو فى نشوته بكلمات فهم منها صاحبى أنه يلتقى بابن المرتضى فى كل ليلة.

فاطرقت عائشة ثم قالت وهى تمدّ ذراعيها كأنها ترحب بمقدم مكيدة جديدة:

ـ لقد وجدت الرأى! لقد وقفت على مفتاح اللغز! الآن أستطيع أن أرى، وأستطيع أن أدبّر. ثم اتجهت إلى ابن المكرى سائلة:

ـ أتستطيع أن تدعو ابن زيدون إلى دارك غداً؟

ـ هذا سهل يسير، وهو الآن يكثر من زيارتى لتوثق الصداقة بيننا.

ـ حسن. ادعُه غداً للعشاء، وادع معه من يحب من خُلانه.

ـ ثم؟

ـ ثم تذهب الآن إلى ابن جهور، وتطلب إليه أن يزورك غداً فى دارك ومستخفياً، ليتحقق من خروج ابن زيدون عليه ونكثه لعهده.

ـ ثم؟ فابتسمت عائشة وقالت:

ـ ثم تتحادثون بعد العشاء، فتسمعون جلبة وضجيجاً بين عبيدك وغلمانك، فتسألون عن جليّة الخبر، فيخبركم أحدهم بأن ابن جهور قبض على ولادة لأنها كانت تخفى فى قصرها ابن المرتضى الأموى.

ـ ثم؟

- ثم إنى أعرِفُ الناس بأخلاق ابن زيدون ، فإن الحزن والغضب سيدفعانه إلى أن يكشف عن ذات نفسه ، وإلى أن يقذف بألفاظ يحبسها فى صدره الخوف والحذر ، فإذا سمعها ابن جهور لم يتردّد فى التنكيل به وإراحتنا منه ومن كبره وغروره .

فقال ابن عبدوس :

- أخشى ألا يكون حسابك مستقيماً .

- إنى إذا فكرت بإمعان وهدوء استطعت أن أقرأ المستقبل كأنه صفحة من الماضى . ليس عندى شك فى أن ابن زيدون سيقع فى الفخ . فقال ابن المكرى :

- حسن . سأذهب الآن إلى ابن جهور . فصاح ابن عبدوس :

- إذهب إليه بالوجه الذى لا يرى فيه أثراً للشك ولا لمحة من الريبة ، وإذا وفّقت فسوف تراه غداً فى دارك .

وأسرع ابن المكرى نحو دار الجماعة ، وقابل ابن جهور ، ولبث فى حضرته طويلاً ، فلمّا انتهى الحديث ، واتّجه نحو الباب صاح ابن جهور:

- إنى لست ألعوبة يا فتى ! فإذا كنت فى شك من أمرك فارجع عما قلته قبل أن تجاوز الباب .

- أنا واثق يا سيدى .

- عظيم . إن سيفى غداً سيطيح أحد رأسين ، فاحذر أن يكون رأسك هذا الأحد . إذهب .

وجاء الغد ، وانطوى نهاره فغشى قرطبة وأهلها ليل حالك الإهاب كأنه حظ الأديب ، أو صحيفة الزنديق ، ليل رآه قوم موطن الصبابة واللهو والطرب والمجون ، ورآه آخرون باعث الأحزان ومثير الأشجان والهموم . شمل الليل قرطبة ، وأخذ الناس يضطربون فيما يضطربون فيه كل ليلة ، واجتمع ابن زيدون وبعض صحبه بدار ابن المكرى ، وقصد إليها ابن جهور ووزراؤه وصاحب شرطته وأعوانه مستخفين متنكرين ، فجلسوا فى حجرة إلى جانب حجرة الضيوف . ومدّت الموائد فنال منها القوم ما اشتهوا ، ثم أخذوا فى الحديث ،

وكان ابن زيدون فى هذه الليلة كثير التفكير كثير الذهول والقلق، يغتصب منه أصحابه الكلمة اغتصاباً، ويغرونه بالنوادر والأفاكيه فلا يظفرون منه إلا بابتسامة فاترة واهنة، وبينما القوم يسمرون إذا ضجيج بين الخدم ولغط وجلبة، فنادى ابن المكرى كبير العبيد وسأله فى استنكار وتأنيب:

ـ ما هذا يا رباح؟ فظهر التردد على وجه العبد وقال:

ـ لقد أخبرنا الآن أحد أعوان صاحب الشرطة بأن مولانا عميد الجماعة قبض على سيدتى ولادة، ووكل بها طائفة من الجند يعذّبونها أشد أنواع العذاب.

فارتعد ابن المكرى وقال بصوت كاد يخنقه الغضب:

ـ يعذبونها؟ لِمَ يعذبونها؟

ـ لأنهم وجدوا مولاى ابن المرتضى بقصرها. فوقف ابن زيدون مذعوراً والغضب ينفخ أوداجه وصاح:

ـ هذا كذب صُراح؛ إن ابن المرتضى لا يختفى بقصر ولادة، أنا أعرف مكان اختفائه. إن ولادة بريئة من كل ما يتصل بابن المرتضى، إنها وشاية نمّامين. إن ابن المرتضى فى دارى، وسأذهب فأخبر ابن جهور بهذا حتى يكفّ زبانية عذابه عن أشرف امرأة، وأطهر امرأة بقرطبة.

وهنا فُتح باب الحجرة، ووقف ابن جهور فى وسْطها كأنما نبع من أرضها، وصاح بصوت يشبه هزيم الرعد:

ـ ولم تُخف ابن المرتضى فى دارك يا منبع الدسائس؟ لم تُخفه إلا لتشعل به فتنة تبّدد الجماعة وتفرّق الكلمة. لقد كنت أرى آخرتك منذ عرفتك، وكنت أتجاوز وأغضى حتى أصل إلى وجه الحق. الآن صرّح[1] الزبد عن اللبن وترك الخداع من كشف القناع، وتبلّج الصبح لذى عينين!

---

(١) معناها أن الأمر قد بان وانكشف.

ثم أشار فى غضب إلى عبيد الله بن يزيد صاحب شرطته وهو يقول:

ـ ابعث أعوانك إلى دار هذا المارق ليبحثوا عن الرجل الذى يخفيه.

وغاب الجند ساعة ثم عادوا يقولون: إنهم لم يجدوا لابن المرتضى ظلاً، فتنفس ابن زيدون الصعداء وطفق يردد: الحمد لله! الحمد لله!

وزاد غضب ابن جهور:

ـ فرّ الطائر من القفص، واختفى ثانية ليعيد الفتنة مرة أخرى. ثم وجه الكلام إلى صاحب الشرطة وقال:

خذ هذا الوغد إلى السجن حتى ننظر فى أمره ونرى حكم الله فيه. صدق الله العظيم:

«إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض».

٨

انتشر في الصباح خبر القبض على ابن زيدون وزجه بالسجن، فابتهج قوم وابتأس آخرون، وطفق كل رجل يتحدث في هذا الحادث مدفوعاً بعاطفته وما يمليه عليه وجدانه، كدأب الناس في الحديث عن الشئون العامة، واجتمع بخان أبي إسحاق اليهودي، وهو خان فخم بسوق اليمانية، جمع من شبان قرطبة الذين يجدون من فراغهم وجدتهم[1] ما يسوّغ لهم الحديث في كل أمر من أمور الدولة، قال أحدهم وكان يدعى عمر البلنسي:

- بلغني في الصباح ممن أثق به ولا تخالجني في أخباره خطرة شك، أن ابن زيدون كان متفقاً مع ابن جهور على القبض عليه، وأن في الأمر مكيدة مدبَّرة يراد بها الاستيلاء على إشبيلية، والقضاء على ملك ابن عبَّاد.

فدهش القوم وقالوا في صوت واحد: هذا غير معقول. أين الصلة بين سجن ابن زيدون والاستيلاء على إشبيلية؟ وأسرع عمر يقول:

- أنتم لا تدركون خفايا السياسة، فإن لها سراديب ملتوية تمرّون بها أعواماً ثم تعودون إلى المكان الذي بدأتم منه. فقال أحدهم في سخرية:

- وهذا يا ابن عبد الله أظلم السراديب وأشدها إبهاماً!

- الأمر في غاية الوضوح للسياسي الداهية، والخُطة لعب أطفال للبصير الحاذق الفطن.

---

(١) الجدة: الغنى.

ـ كيف يا سيدى؟

ـ يُحبس ابن زيدون لخروجه على ابن جهور، ويلاقى صنوف العذاب. ثم يفر إلى إشبيلية موتوراً ساخطاً على ابن جهور، فيتلقّاه ابن عباد بالسرور والغبطة، وينزله أكرم منزل، ويثق به فيطلعه على خفايا مملكته وأسرارها، ويعود ابن زيدون فيفر من إشبيلية وقد أحاط علماً بمواطن الضعف فيها، وفى أسهل طريق وآمنه لغزوها، وتكُرّ جيوش ابن جهور على المدينة، فلا تمضى ساعة من نهار إلا وهى تحت قدميه فقال أحدهم ـ مرحى مرحى وقال ثان يجوز، وقال ثالث الحيلة معقولة جدّاً. وابتسم البلنسى لمخالفيه فى عطف وإشفاق وقال: غداً ستكشف لكم الأيام صدق ما أقول، وتحمس شاب منهم فقال: ليس فى المسألة سياسة، وليس فيها خديعة، والذى أعلمه علم اليقين أن ابن جهور سقط على رسالة بعث بها ابن زيدون إلى ابنته رملة، فكبر عليه الأمر، وخاف إن هو انتقم منه على فعلته أن يشيع الخبر بين الناس، ويكثر فيه اللغط، فاختار أن يختلق له ذنباً بعيداً كل البعد عما يتصل بأهله، فدبّر له هذه الأخلوقة وسجنه.

وتحرك شابٌ هادىء مستكين فى مكانه وقال متردداً: ولم لا يكون اعتقال الرجل صحيحاً، وإنه كان يكيد لعميد الجماعة حقّاً؟ فقال البلنسى:

ـ ما أظن.

وبينما هم فى الحديث إذ دخل أحد أصدقائهم، وحين عرف ما يتمارَوْن فيه صاح:

ـ على رِسْلكم أيها الإخوان. لقد أخطأتم جميعاً، وكل ما شاع عن اعتقال ابن زيدون كذب وهراء، فقد قابلت فى طريقى أبا القاسم ابن رفق، فسألته فأخبرنى أن الخبر غير صحيح، وإنه من إشاعات قرطبة التى تولد فى اليوم ألف مرّة وتموت ألف مرّة، وبعد أن فارقته لمحت من بعيد شخصاً يشبه ابن زيدون على بغلته الشهباء وخلفه الخدم والعبيد.

فاضطرب القوم بين مصدق ومكذب، وكثر الحِوار والجدال حتى ملئوا المكان ضجيجاً.

وطار الخبر ليلاً إلى دار عائشة بنت غالب فاستخفَّها السرور، ووقفت ترقص أمام مرآتها كأنّ بها مسّاً من جنون. ولذّة الانتقام لدى النفوس المريضة أقوى من لذّة الخير والإحسان فى نفوس المحسنين.

وجلس ابن جهور وإلى جانبه ابنه أبو الوليد، فأخذ ينظر فى وجوه وزرائه صامتاً حزيناً ينفخ من الهم، ويتململ من هول الحادثة. لقد كان يعرف ابن زيدون طموحاً، ويعرفه قلقاً متوثباً جريئاً، ولكنه لم يكن يظن أن تطرحه المطامع هذا المطرّح، وأن يصل به الأمر إلى إشعال فتنة طائشة لن يكون لها إلا حطباً. لقد كان يقدِّر نبوغ ابن زيدون ويعلى مواهبه، وكان يردّ كل ما يرد إليه من وشايات به إلى حسد أنداده له وغيظهم من عجزهم عن الوصول إلى مرتبته، ولكنه علم الآن والأسف يملأ جوانحه أنهم كانوا فيما يرمونه به غير مبطلين. والتفتَ إلى ابن عباس وقال:

- ماذا ترى أن نفعل بهذا الرجل؟

- أرى أن نبقيه فى السجن حيناً حتى تتحطم شوكته، وتنطفىء حدته، ثم ننفيه إلى الشمال، وقال الوزير عبد العزيز بن حسن:

الرأى يا سيدى أن نقتله ونستريح منه، وبذلك يُحسم الداء، وتُستأصل شأفة الفتنة. أما بقاؤه فى السجن فمدعاة إلى الخوف الدائم، وإغراء لمن لفّ لفه وسلك مذهبه. وقد يتحين نصراؤه فرصة لفراره فيقتنصونها. وأسرع ابن عبدوس فقال:

- هذا هو الرأى الحاسم الحازم، فإن السجن سيزيد ابن زيدون عنفاً وسخطاً وإصراراً وحبّاً للانتقام، وهو لن يعدَم وسيلة للفرار، وإذا فرّ فذلك هو الشر المستطير، فانتقل أبو الوليد عميد الجماعة إلى جانب ابن برد وهمس فى أذنه كلمات. فوقف ابن برد عابساً وهو يقول:

- مهلاً أبا عامر. إن ابن زيدون ليس من الهوان على الدولة بحيث تستطيع أن تمحو اسمه من سجل الحياة بكلمة هادئة راضية، والدولة التى تقتل أبناءها لزلّة طائشة هى الهرة المضطربة الغريرة التى تأكل صغارها، وهى فى جنونها الوحشى لا تدرى ما تفعل. إن ابن زيدون قليل الأنداد والنظراء، وهو عمود هذه الدولة، وخير لنا إذا مال العمود أن نقوّمه حتى يثبت ما عليه من بناء، ولعله دُفع إلى ما قاله بالأمس دفعاً ولم يكن فيما قال صادقاً.

ودخل الحاجب فى هذه اللحظة يقول:

- إن امرأتين محجبتين بالباب تلحّان فى لقاء سيدى. فالتفت ابن جهور إلى وزرائه كالمتعجب وهو يقول:

ـ من هاتان المرأتان؟ فقال الحاجب:

ـ إنهما تقولان يا مولانا، إنهما جاءتا للنصح للدولة ودرء الخطر عنها.

ـ أيّ خطر ويحك تدرؤه النساء؟ لتدخلا.

وفتح الباب فحسرت المرأتان عن وجهيهما القناع، فإذا نائلة الدمشقية، وولادة بنت المستكفى. فلما رآهما عميد الجماعة ظهر على وجهه الدهش وقال فى عبوس:

ـ شرٌّ ما جاء بكما إلينا. فقالت نائلة:

ـ شرّ وأىّ شرّ؛ إنك يا مولانا جمعت أشتات الفرقة بقرطبة، واستأصلت الفتنة، وكنت فى كل ما تأتى وتذر حكيماً حازماً فدعيت بحق أبا الحزم. ثم إنك لم تقبض على زمام الحكم راغباً فى جاه أو مال أو علوّ منزلة، فإن لك من كريم محتدك، وجلال أبوّتك ما يغنى عن الجاه والمناصب، ولكنك رأيت ملكاً يترنح، وعزّاً يريد أن ينقضّ، فوثبت لإغاثته كريماً مخلصاً صبوراً على اللأواء، واخترت من الرجال من تعتز بهم الدولة، وتفخر بهم الأمة، ولم تستخلصهم لنفسك إلا بعد طول التجربة ودقة الاختبار، ولكنك يا سيدى تركت هؤلاء الوزراء المخلصين لك، الدائبين على خدمتك عرضة للوشاة وغرضاً للحساد، وزدت فساعدتهم عليهم بأذنيك، ومكنتهم منهم بتصديق ما يأفكون. إن ابن زيدون يا سيدى الذى قبضت عليه بالأمس وألقيته فى غيابة السجن جمال دولتك، وسياج حوْزتك، وسيفك الذى تدفع به الأعداء، ورأيك الذى تقارع به الآراء، ولو أنه كان وزيراً بالمشرق لضربت به الأمثال، ولشدّت إليه الرحال، ولكن الأندلس تدفن كنوزها، وتحطم بأيديها سيوفها. ثم من هذا النذل الفسل الدنىء الذى دفعك إلى ما عملت؟ ألم تملأ قصائده فيك أرجاء الأندلس؟ ألم يرحل فى سفارتك إلى الأمراء فيرفع من قدر ملكك، ويشيد بسداد رأيك، ويملأ قلوب الأمراء رعباً من قوتك، ألم يبذل لك النصح أميناً، والولاء مخلصاً؟ عار وأى عار أن يشيع بين الولايات أن أبا الحزم ابن جهور آخذ أعظم وزرائه وخير رجاله بسعاية كذّاب أثيم ـ عار وأى عار أن يكون حديث البيوت والمجالس والسوامر أن أبا الحزم بن جهور يؤذى أوفى الناس له، ويقطع اليد التى لم تخلق إلا للذياد عن ملكه! ثم سكتت قليلاً بعد أن نال منها الجد وانبرت ولادة تقول:

ـ إن ابن زيدون يا سيدى خطيبى وشقيق نفسى، فإذا بدرت منه هفوة كما يزعم

الزاعمون فخذنى به لأننا روح في بدنين، وما يصدر عنه فعنى صدر، وما يتحرك لسانه به جهراً، فإنما هو حديث نفسى سرّاً، إننى يا مولاى بعد تقلص ظل الخلافة عن أهلى وقومى، لم أحزن ولم أبتئس، لأنى رأيت فيك خير من يقوم بأعبائها، ويرفع من ألويتها. وعلم الله لو رأيت فيك نقصاً، أو علمت ضعفاً، لحملت راية الأموية، ولدعوت الناس لمبايعة ابن المرتضى، ولأعدت الفتنة جذعة ماحقة تأكل الرطب واليابس، ولكنك يا مولاى جئت فقوّمت المعوج، وأقمت المائل، ووطدت أركان الدولة، ورفعت ذكر قرطبة في الخافقين، ونشرت العدل بين الرعية، فجزاك الله خير ما يجزى به عباده العاملين. ولن أكتمك يا مولاى أنى لم أعجب بابن زيدون، ولم أمنحه حبى وصداقتى، إلاّ لأنه من المخلصين فى محبتك، المُشيدين بفضلك، المدّاحين لمناقبك. وأقسم أني لو علمت فيه شرّاً لكنت أول من يكشف لك أمره ويفضح لديك سرّه. إنها سعاية يا مولاى، سعاية خبيثة من بعض المنافسين له والحاقدين عليه.

فتململ ابن جهور وقال: أيّة سعاية يا فتاة؟ إننى سمعته بأذنى! ووقفت نائلة تقول:

- أين سمعته يا مولاى؟
- بدار ابن المكرى.
- ومن الذى حملك على الذهاب إليها؟
- هذا سرّ الدولة يا نائلة. فغمغمت تقول بما لا يُسمع: إنها عائشة بنت غالب. ويل للخائنة! لقد سبقتنى هذه المرة، وستكون الحرب بينى وبينها مشتعلة الأوار. ثم اتجهت إليه تقول:

- قد يكون مما دفعه إلى القول بأن ابن المرتضى فى داره شدّة حبّه لولادة حينما أدخل عليه أعداؤه أنك قبضت عليها ووكلت إلى عبيدك تعذيبها. فصرخت ولادة والدموع تتناثر من عينيها:

- أحضره يا سيدى واسأله عمّا قصد إليه من هذا الاعتراف الكاذب، فلعلّ له حجة يُدلى بها، وقد يكون مخطئاً ولو أرشد إلى الحقّ لعاد إليه أقوى تمسكاً به، وأشدّ صلابة فى النفخ دونه، إنّ الدولة يا سيدى أحوج إلى أمثال ابن زيدون من الجيش والسلاح، وليس من الهيّن على كلّ قرطبى أن يراه مُلقى فى السجن دون أن يُسأل عمّا فعل. إنّه ملك الأمّة، فمن حقّ أبناء الأمّة أن يسألوا عما يُبيَّت لبطلهم من المكايد. فصرخ ابن جهور قائلاً:

ـ هذا تهديد يا فتاة! فقالت نائلة:

ـ إنه ليس بتهديد ولكنه الحق الصراح الذى لا مواربة فيه. وهب ابن زيدون مخطئاً، أليس فى ساحة عفوك، ما يتسع للصفح عنه؟ وقديماً قال المتنبى:

ترفق أيها المولى عليهم فإن الرفقَ بالجانى عتابُ

ويقول:

وما قتل الأحرارَ كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا؟

ويقول الله عز شأنه لمن هو خير منك فيمن هم شرٌ منه: «خُذِ العَفْو وأمُر بالعُرف وأعرِض عن الجاهلين».

وماذا صنع ابن زيدون؟ ادعى على نفسه كذباً أن ابن المرتضى فى داره، ليصرف عن ولادة فيما خيلوه له سوء عذابك وتنكيلك، ثم ثبت أن الرجل لم يكن بداره، وأنه لم يظهر له أثر بقرطبة كلها. أيكون جزاؤه بعد ذلك أن يسجن وأن يُطوّق بالأغلال كما يفعل بالأشرار والمجرمين؟ ادعه يا مولاى إليك، وخذه بالمعروف والموعظة الحسنة، فإنك واجد فيه بعد محنته ذهباً نضاراً أخلصته النار، وسيفاً بتاراً صقله الكفاح.

ـ لا يا نائلة إنه مِسْعَر فتنة، ونذير شرّ، ولن تهدأ قرطبة وهو طليق ينفث سمومه. لقد كان يمرّ بخاطرى أن أقتله، ولكنى سأكتفى الآن بسجنه. فتقدمت ولادة إليه متوسلة تقول:

ـ أنفه يا سيدى إلى أية مملكة من ممالك الأندلس وانفنى معه إن كنت لا تزال ملحّاً فى إقصائه.

ـ لا يا سيدتى، إنى لا آمن غوائله إلا إذا كان فى قبضة يدى. وتحت سمعى وبصرى، ويحسن ألا نطيل الحديث فى هذا الشأن فقد جُلْتما فيه بأكثر مما أحبّ. ثم قام من مجلسه فانصرفتا حزينتين باكيتين.

دخل ابن زيدون السجن بائساً كاسف البال بعد أن طارت آماله، وتقطّعت حباله، وبعد أن زلت به القدم، وأخطأ سهمه الهدف. كان يبنى له الخيال عزّاً كبيراً، ويصوّر له الطموح جاهاً عريضاً، ألم يكن من قبيلة بنى مخزوم ذات الشرف الباذخ، والمحتد

الراسخ، التى دخلت الأندلس مع الفاتحين فملكت البلاد، ووطّدت دعائم الإسلام؟ ألم تكن لأبيه غالب الرياسة والمنزلة الرفيعة فى القضاء والعلم والأدب؟ ثم يزفر طويلاً وهو يقول: والآن ماذا أصنع؟ أو ماذا سيُصنع بى؟ إن ابن جهور إذا غضب كانت نار الجحيم برداً وسلاماً، وإذا صمم نكّب عن ذكر العواقب جانباً، وبعد حين يرى نفسه وقد قبض على قلم أمامه فكتب:

قل للوزير وقد قطعتُ بمدحه ... زمناً فكان السجن منه ثوابى
لا تخشَ فى حقى بما أمضيته ... من ذاك فىّ، ولا توقَّ عتابى
لم تُخط فى أمرى الصواب موفقاً ... هذا جزاء الشاعر الكذاب!

ولكنه بعد أن يقرأ الأبيات يمزق الورقة ويصيح:

هذا لن يكون، يجب أن أحتال لاتقاء شره، ويجب أن استعطفه وأستنجد بعفوه، ويجب أن أعتذر له بشعر ينسى الناس قصائد النابغة فى الاعتذار للنعمان بن المنذر. لن أيأس ما دام فى العمر فُسْحة، ولن أقنَط من رَوح الله، ولن أدع وسيلة للخروج من هذا المأزق إلا سلكتها. إن أمامى حياة وآمالاً ومطامح، وإن البطل إذا عثر انتعش، وإذا سقط وثب، وربَّ ضارة نافعة، وربَّ نقمة من ورائها نعمة!

هكذا كانت نفس أبى الوليد، وهكذا كان تشبثه بالحياة وتعلقه بالآمال، فأخذ يبعث فى كل يوم إلى ابن جهور بقصائد فى الرجاء والاعتذار من عيون الشعر. بعث له مرّة بقصيدة منها:

إيه أبا الحزم اهتبل مِنَّةً ... ألسنة الشكر عليها فِصاحْ
لا طار بى حظٌّ إلى غاية ... إن لم أكن منك مريش الجناح
لم يثننى عن أمل ما جرى ... قد يُرقع الخرقُ وتُؤسى الجراح!
وقاك ما تخشى من الدهر من ... تعبت فى تأمينه واستراح

وبعث مرة بأخرى منها:

من يسأل الناس عن حالى فشاهدُها ... محض العيان الذى يغنى عن الخبر
لم تطو بُردَ شبابى كَبْرةٌ وأرى ... برقَ المشيب اعتلى فى عارض الشعر
قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كثبٌ ... وللشبيبة غصنٌ غيرُ مهتَصر
ها إنها لوعة فى الصدر قادحةٌ ... نارَ الأسى ومشيبى طائر الشرر

لا يهنىء الشامت المرتاح خاطرُه ... أنّى معنًّى الأماني ضائعُ الخطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة؟ ... أو الكسوف لغير الشمس والقمر؟
إن طال فى السجن إيداعى فلا عجبٌ ... قد يودع الجفنَ حدُّ الصارم الذكر
وإن يثبط أبا الحزم الرضا قدَرٌ ... عن كشف ضرى فلا عتب على القدر

ولكن ابن جهور لم يُلق إلى شعر أبى الوليد سمعاً، ولم يقبل له عذراً، ولم تعطفه عليه عاطفة، وبقى ابن زيدون يسخط على الحياة، ويبكى الأمل الضائع، والرجاء الخائب. ولم يكن يفرّج عنه بعض همومه وأوجاله إلا زيارة نائلة وولادة، فإنهما لم تنقطعا عن زيارته يوماً واحداً. والحب والوفاء خلتّان لم يخلقهما الله يوم خلق الأحزان والكوارث إلا لتخففّا من شدّتها ويهدئا من عاصفتها. ومن الناس من يتحلّى بقدرة عجيبة على استلال همّ المهمومين، ولباقة نادرة فى الحديث إلى المحزونين بحيث لا يدعهم يشعرون أنه يقصد إلى تسليتهم، أو الترويح عنهم، فإن مما يدعو إلى تمرد النفوس أن تشعر أن هناك حيلة تحاك لتغفلها وصرفها عما هى فيه. وأكثر ما يبدو ذلك فى الأطفال، فإن من أنجع وسائل الإيحاء إليهم بنصح أو إرشاد ألا يدور بخلدهم أن ما يوجه إليهم إنما صنع قصداً للاحتيال لإرشادهم.

كانت نائلة تتحلى بهذه الصفة النادرة، فلم يدر حديثها مع ابن زيدون على السجن والآمال الضائعة، ولكنه كان حديثاً لطيفاً عذباً تتخلله الضحكات، وتمتزج به الفكاهات، كما لو كانت تسامره فى بهو دارها، والدنيا مقبلة، وثغر الزمان بسّام، وكأن تلك الفواجع الجسام من قبض واعتقال وتعذيب، قد خُطّ عليها فى سجل الماضى، كما خط فى القرطاس سطر على سطر. ولكن ولادة كانت من طابعَ آخر، كانت من الصنف الذى يعتقد أن الأحزان لا تنقشع إلا بالحديث فيها، وأن الحزين إنما يخف حزنه إذا كثر ألم الناس له وامتزجت دموعهم بدموعه. لم ترقأ لها عين، ولم يهدأ لها وجيب قلب، وكانت كلما نظرت إلى حبيبها وهو فى تلك الغرفة المظلمة المعفنة الهواء فى سرداب الجامع الكبير، زادت شجونها، وفاضت شئونها(١). فسألت ابن زيدون: من الذى دعا ابن جهور إلى الذهاب إلى دار ابن المكرى؟ فأجاب فى نبرة حزينة: لا أدرى يا سيدتى، إلا أنه فجأنا بغتة فرأيناه فى الدار من حيث لم نكن نحتسب. وأسرعت نائلة تقول:

(١) العرق الذى تجرى منه الدموع.

ـ ما لنا وللحديث فى هذا الآن يا ابنة الخليفة! يجب ألا ننظر إلى الخلف، وأن نتجه دائماً إلى الأمام، فكثيراً ما أضاع الناس حياتهم بالنظر إلى الماضى، والغفلة عن الحاضر والمستقبل، وكم طارت منهم فرص لو رأوها وهى مقبلة عليهم لاقتنصوها. أنا أعرف كيف دُبرت الدسيسة، وكيف دُعى ابن جهور إلى دار ابن المكرى، وسأعرف كيف أنتقم من الدساسين. دعينا بالله يا فتاة من الخوض فى هذا الحديث، وقولى لأبى الوليد خبر العجوز المراكشية.

فانفرجت شفتا ولادة عن ابتسامة حزينة، وقالت:

ـ إن أمر هذه المرأة كان عجباً من العجب، كنت أجلس بالأمس أنا ونائلة فى شرفه القصر، فسمعنا صياحاً وضجيجاً، فنظرنا فإذا عدد عظيم من الصبيان يتبعون عجوزاً تحمل فوق رأسها سَفَطاً[1]، وتجر وراءها كلباً ومعزاة، وكانت ثياب العجوز ممزقة بالية، وكان وجهها يتكلم بما هى فيه من فقر وجَهْد. وتملك الصبيان شيطان الشر، فأخذوا يقذفونها بالحجارة وهى تتقى سهامهم بالإنحراف عنها يمنة ويسرة، حتى إذا أحرجوها لجأت إلى باب القصر فدخلته وأغلقت بابه، ثم سقطت وراءه من الإعياء لا تكاد تتنفس، فأسرعت إليها جاريتى عتبة، وأخذت تسرّى عنها بعض ما هى فيه وأحضرت لها طعاماً وشراباً، فلما سكن ما بها، وأفرخ رَوْعها، نزلنا لمعرفة أمرها فأخبرتنا: أنها من مراكش، وأنها جاءت من إشبيلية ماشية حافية. ثم سألناها عن الكلب والمعزاة فقالت: هذا أخى يجود علىّ بأمانته ووفائه، وهذه أختى تجود علىّ بلبنها وزبدها. ثم سألناها عن مورد رزقها فقالت: إننى عرّافة، وإننى ألمح فى سطور الكف ما حجبه الماضى فى موجاته، وما يخبؤه المستقبل فى طيّاته، وأقرأ ما فى نفس سائلى كأنما أقرأ فى كتاب مفتوح. ثم تناولت كفى فى خشونة وجفوة، فلما نظرت فيها صاحت: هذه كفّ عجيبة! هذا خطّ الملك يا سيدتى، ولكنّه واحسرتاه ينحرف نحو اليسار قليلاً، فسبحان من لا يبيد ملكه! له الملك وله الأمر وهو على كل شىء قدير. تاج هوى، وصولجان تحطم، ثم جذبتها إلى عينيها كأنها تريد أن تصوب النظر إلى خطوطها وقالت: وهذا الخط خط الحب، ماذا به؟ إنه يتدارك ما فات من انحراف خط الملك، هو أعمق خط رأيته فى حياتى. حب يملك القلوب، ويخضع جامحات النفوس، ولكنه كان حائراً مضطرباً مختلج العزيمة، كلما جلس فوق

---

(١) وعاء.

عرش من القلوب قلق به الموضع، فطار يبتغي سواه، ولكنه استقر الآن، نعم إنه استقر في قاعة مظلمة تحت مسجد كبير. إني أسمع شكوى، وأسمع أنيناً في هذه القاعة المظلمة، وأرى فتى كان يملأ الدنيا همّة ونبوغاً يحصره مكان ضيق ليس به إلا نافذة صغيرة في أعلاه. ثم بدأ على وجهها الدهش وصاحت: انظري يا سيدتي، إن النافذة تتسع، انظري بالله عليك إلى قضبانها، إنها تتحطم وتطير في الهواء. ما هذا؟ لقد أصبحت النافذة باباً، والفتى الحزين يهم بالخروج من الباب. ثم قهقهت وصاحت: لقد خرج إلى الهواء والنور! إنه طليق ينفض أثوابه كما يصفق الطائر بجناحيه إذا هم بالطيران. إنه يضحك ويمزح. ويستقبل الحياة كأشهى ما تكون الحياة. سبحانك يا رب! ما أقصر الزمن في هذه الدنيا بين الحزن والسرور! وما أوهى الحدّ بين الأفراح والأتراح؛ ثم عادت إلى عبوسها وقالت: ولكن الحب شحيح ضنين، فهل يجمع في هذه المرّة بين القلبين ويأسو مرهمه الجرحين؟ ثم التفتت إليّ وقالت: اضحكي يا سيدتي واستبشري واغتنمي فرصة الشباب فإن الشباب لن يعود!

فتنهدت نائلة وقالت:

أي والله إن الشباب لن يعود؛ ووددت لو كان بالسجن مرآة لترى في وجهها منه بقية. وابتسم ابن زيدون لولادة وقال: لن يطول سجني يا فتاتي وستزيد مرارة الماضي في حلاوة ما يُقتبل من الأيام.

ويعود ابن زيدون بعد خروج حبيبتيه الوفيتين إلى أشجانه، ويتمرّد على سجنه، وتثور نفسه، ويتذكر أصدقاءه، ويرجو حسن شفاعتهم فيه، فيكتب إلى صديقه أبي الوليد ابن عميد الجماعة متوسلاً:

هل النداء الذي أعلنت مستمعُ	أم في المئات التي قدمت منتفعُ
قل للوزير الذي تأميله وزَري	إن ضاق مضطرب، أو هال مطّلع
أصخ لهمس عتاب تحته مقة	وكلف النفس منه فوق ما تسع
لا تستجز وضع قدري بعد رفعته	فالله لا يرفع القدر الذي تضع

ولكن أبا الوليد على حبه له ورغبته في فك أسره كان يهاب أن يخاطب أباه في شأنه، فذهبت صيحة ابن زيدون في الهواء.

وفى صبيحة يوم يدخل عليه حارس السجن وبيده رسالة من نائلة، فيسرع إلى فضها ويقرأ فيها:

«وإذا ما الدهرُ جرَّ على أناس كلاكلَه أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا: أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

كادت لك عائشة بنت غالب فكدنا لها، وهى اليوم فى طريقها إلى منفاها بقشتالة بعد أن صادر ابن جهور كلّ ما تملكه من صامت وناطق، إنى أرى تباشير الفرج، فاصبر ولا تبتئس».

وما قرأ الرسالة حتى ابتسم للخبر، ثم أخذ يغمغم:

ليس الركون إلى الدنيا دليل حجاً فإنها دولٌ أيامُها متعُ

٩

مرت شهور على سجن ابن زيدون لم تهدأ نائلة فيها لحظة، ولم تسكُن ثورتها للانتقام منذ جال فى ظنها أول وهلة أن عائشة بنت غالب هى ناصبة الشرك، ومدبرة المكيدة، وازدادت يقيناً حينما أخبرها أبو حفص ابن برد بكل ما يتصل بالحادثة جملة وتفصيلاً. كانت تقضى ساعات ذاهلة مفكرة، ترسم الخطط، وتنصب الحبائل، وكلما رسمت خُطة وظهر فيها جانب يضيع فيه الحزم، وينكشف السرّ ألقت بها ضجرة يائسة، وكلما نصبت حبالة وبدا لها فيها فتوق تتسع لفرار الفيل طرحتها آسفة على ذكائها، متهمة نبوغها. وهكذا كانت تقضى أيامها فى غزل ونقض، وبناء وهدم، لا تستقر على شىء، كأن دهاءها القديم فارقها، أو كأن علوها فى السن أضعف مواهبها. لقد كان شيطانها أيام الشباب حاضر البديهة، لا يعجزه شىء فى باب الحيل والمكايد، فما باله الآن أصبح فَدْماً سقيم الرأى بليداً؟ كانت تأكل وهى تفكر، فيما تنكب به عائشة، وتنام وهى تفكر، وتحادث الناس وهى تفكر، ولكنها بعد كل ذلك لم تصل إلى شىء يعجبها، أو يرضى عنه فنها. لقد أكدت العزم على أن تنكب عائشة، وأن تذيقها نكال أمرها، ولكن من أي ناحية تهجم عليها؟ ومن أى ثغرة تثب على هذا الحصن المنيع؟ إن بعض الناس يهمسون بأن لها ضِلعاً مع نصارى الشمال، ولكنها تكمُن فى درقة من الحذر كما تكمن السلحفاة فلا يبدو منها إلا حبّ العرب، والإخلاص للعرب. من أين تصل إلى هذه المرأة المبهمة الخفية؟ إن غريزتها وحاستها السادسة تؤكدان أن لها صلة بالأسبان ولكن أين السبيل إلى إثبات شىء من ذلك؟ أين السبيل إلى فضح المستور، ونبش هذا القبر المزدحم بالأسرار؟ فكرت

طويلاً، وقدرت كثيراً، ثم أفاقت من تفكيرها وتقديرها، وهى تصيح : أسبيوتو! أسبيوتو! إنه مفتاح السرّ، ورُقية هذا الحرز المدفون، لقد نبأتنى غالية فى كل مرة تزورنى فيها أنه يكثر من التردد على عائشة، فلا بد من معرفته، ولا بد من صداقته، ولا بد من اجتذابه بالحيل الخفية حتى يقع فى الشرك فتقع معه عائشة، ولكن كيف أصل إليه من غير أن يحوم بذهنه ظل من شبهة؟ فإن هؤلاء الجواسيس أشد حذراً من الذئب الذى ينام بإحدى مقلتيه ويتقى بأخرى المنايا، فهو يقظان نائم.

لقد علمت من غالية أنه يتلقى الطب على ابن زهر، فلم لا تشكو ولادة وعكة خفيفة فتدعوه إلى قصرها للعشاء وليصف لها دواء وحينئذ أستطيع بما يفتح الله به علىّ أن أصل معه إلى غاية.

ونهضت إلى قصر ولادة، وطلبت إليها أن تدعو ابن زهر فى الغد للعشاء، وأن تتمارض وتشكو له أية علة تمرّ بخاطرها. وعجبت ولادة، وحاولت أن تعرف السبب، ولكن نائلة غادرت القصر وهى تهمس فى أذنها: ستعلمين نبأه بعد حين.

وجاء ابن زهر للعشاء، وشكت إليه ولادة صداعاً شديداً يُلِمُّ بها كل صباح، فوصف لها دواء، ثم سلك الحديث شعاباً شتى، وجاء ذكر ابن زيدون وذكر حُساده وما أوغروا به صدر ابن جهور عليه حتى سجنه. فقال ابن زهر:

- إن سجن ابن زيدون نكبة لقرطبة، وكل ذنب الرجل، إن كان له ذنب، أنه يريد أن يعيد مجد العرب وقوتهم، فقالت ولادة حزينة:

- هذا كلام قد يلقى بك فى السجن غداً يا سيدى. وأسرعت نائلة لتغيِّر مجرى الحديث فقالت:

- هل يُلقى مولانا دروساً فى الطب بجامعة قرطبة؟

- نعم يا سيدتى. وهذه الجامعة مفخرة الأندلس، فيها آلاف من الطلاب يحجون إليها من أقصى بلاد الإفرنجة، ومن جميع أقطار المشرق. وتدرّس بها جميع علوم الدين والعربية والأدب، إلى جانب فلسفة اليونان والطبّ والفلك والأرتماطيقى والجغرافية والكيمياء والطبيعيات. ويُغرم أبناء الإفرنجة بالأدب العربى إغراماً أفزع قساوستهم، حتى لقد أخبرنى أحدهم، وهو يتحرّق غيظاً، بأن طلاب الجامعة الأسبان أصبحوا يبغضون

لغتهم الأسبانية، لشغفهم بالعربية وآدابها، ولقد نسى كثير منهم لغته وأصبح لا يستسيغها، ولكنه إذا نظم شعراً عربياً أتى بالبديع الرائع.

فأسرعت نائلة إلى غرضها وسألت:

- هل بين تلاميذك أسبان وافدون من الشمال؟

- كثير يا سيدتى، وأكثرهم حريص على طلب العلم مشغوف بتفهم دقائقه.

- إنى أشعر - ولا أعرف علة لهذا الشعور - بعطف على هؤلاء الطلبة، قد يكون لأنهم غرباء مقصَوْن عن أهلهم وذويهم، وقد يكون سببه الاعتزاز بأندلسيتى، وأن قرطبة أصبحت مشرق النور والعرفان للعالم أجمع، وأن هؤلاء الطلاب جاؤوا إلينا ملتمسين مستجدين قبساً من هذا النور، وقد يكون سببه معرفتى لغة الأسبان، فإن للغات صلات روحية تؤلف بين من ينطقون بها.

- ربما كانت هذه الأسباب مجتمعة منشأ هذا العطف النبيل يا سيدتى.

- سمعت من أبى إسحاق الطبيب أن بين طلابك شاباً أسبانياً شديد الذكاء لا يحضرنى الآن اسمه، ثم قالت: عجيب أمر هذه الأسماء، تطوف بالذهن حين لا نريدها، وتستعصى إذا طلبناها. أنا أعرف أن فيه سيناً وباء، ولكن صورته تغيب عنى، ثم أسرعت وقالت: لقد وجدته. أسبيوتو! أسبيوتو يا سيدى!

- وهو طالب ذكىّ حقّاً، ومجدّ حقّاً، ولكن يظهر أنّ شئوناً فى بلاده تلجئه إلى السفر مرّتين أو ثلاثاً فى أثناء العام. فبدت لنائلة بارقة أمل فى صدق ظنّها، وأن هذا السفر لم يكن إلاّ لنقل رسائل عائشة إلى ملك الأسبان، فهزّت رأسها وقالت:

- لعله فقير يا سيدى، ولعل أهله لا يُمدونه بالمال إلا إذا ذهب إليهم، وأخذه اقتساراً.

- الظاهر من أمره أنه فقير حقيقة، ولكنه يخفى خصاصته بقناعته.

- هل يتفضل سيدى بإرساله إلى دارى فى مساء غد لعلى أستطيع أن أسدّ خَلّته[1]؟

- نعم وكرامة يا سيدتى.

(١) حاجته.

والتفتت ولادة إلى نائلة كالمتسائلة عن سرّ كل هذا، ولكن نائلة لم تمهلها، فاستأذنت في الخروج وغادرت القصر.

لزمت نائلة دارها في اليوم التالي وهي تفكر وتدبر، فأخذت صحيفة وكتبت فيها بالأسبانية رسالة لملك الأسبان بها بعض أسرار مملكة قرطبة، ثم وضعت الصحيفة بين أوراق كتاب الأدوية ليونس الحراني، ووضعت الكتاب بين الكتب في خزانة كتبها. حتى إذا جاء المساء دخلت جاريتها نشوة تقول: إن شاباً أسبانياً يطلب لقاء سيدتي. فأمرتها بإحضاره.

وكان أسبيوتو في نحو السابعة والعشرين، قصير القامة، نحيل الجسم تدل ملامح وجهه على الشر والقسوة، وإن سترها بغشاء من الذلّة والتواضع. دخل مطرقاً لا تفارق عيناه الأرض، فإذا تحدّث رفعهما قليلاً إلى محدثه ليطمئن إلى معارف وجهه.

حيّته نائلة في حنان ورفق، ثم أمرته بالجلوس، وأخذت تحادثه بالأسبانية عن بلاده وأهله، حتى إذا اطمأنت نفسه، وذهبت وحشته قالت:

- إنّ الطبيب ابن زهر يثني عليك خير ثناء، حتّى لقد أحببت أن أراك. والحقُّ يا ولدي أن بين ما أحبّ شيئين أصبح القرطبيون يتندّرون بهما هما: علم الطبّ واللّغة الأسبانية.

- أنت يا سيدتي تنطقين بالأسبانية كما ينطق بها أهلها.

فضحكت وقالت: لا تخدعني يا ولدي، فإن رطانتي بالأسبانية لا تقلّ عن رطانة الأسبان بالعربية، ولكن الذي يؤلمني في الأمر أن بعض قصار العقول من رجال الدولة، يرمونني بحب الأسبان لأنني أعرف لغتهم. وحب الأسبان أصبح جريمة لا تغتفر في هذا الزمن الأغبر المملوء بالدسائس والفتن. إنني عربية النبعة، هكذا كان يقول لي أبي، ولكني لا أستبعد أن يكون في دمي قطرات من وراثات أسبانية، أبوح بذلك للأصدقاء ليس غير يا أسبيوتو. إن الحال في قرطبة لا تعجبني، أنا أريد حكماً سمحاً لطيفاً لا يحسّ المحكوم فيه بسيف الحاكم يلمع فوق رأسه.

فأصاب أسبيوتو شيء من الدهش لأنه سمع كلاماً جريئاً لم يألف سماعه في قرطبة، فقال:

- إن العرب يا سيدتى من أصلح خلق الله لحكم الأمم، وإن من يقرأ القرآن ويتفهّم ما سن من قوانين لسياسة الحكم، وحسن معاملة الأمم المغلوبة، يملؤه العجب والإكبار معاً.

- صحيح. ولكن من يعمل الآن بكتاب الله وما فيه من هدى ونور؟ أترى هذا التنابذ والتحاسد بين أمراء الأندلس؟ إنه كارثة جائحة. ثم تبسّمت وقالت متهكمة: وربما كنت لا أدرى، وربّ ضارة نافعة. ثم وقفت أمام خزانة كتبها وقالت:

- تجد فى هذه الخزانة كتباً كثيرة فى الشعر والأدب. فوقف أسبيوتو ومدّ يده فى حذر إلى رف كتب الطب، وقال:

- إن لديك كتباً كثيرة فى الطب يا سيدتى.

- أستطيع أن أعيرك بعضها.

- فأخرج كتاباً لابن حَسَداى الطبيب اليهودى فى أيام الناصر لدين الله، وقلب صفحاته، ورأى إلى جانبه كتاب الأدوية ليونس الحرانى.فأسرع بيده وقال: هذا كتاب نادر يا سيدتى.

- إنه بخط مؤلفه.

وبينما هو يقلب صفحاته إذ سقطت الصحيفة التى كتبتها نائلة على الأرض، فانحنى ليأخذها، فرأى فى صدرها اسم ملك الأسبان فبهت وامتدّ بصره إلى السطور الأولى منها، ولمحته نائلة فلبسها الغضب، وانقلبت نمرة شرسة ضارية، ومدّت يديها إلى عنق أسبيوتو وهى تصيح فى ذعر يشبه الجنون: هل قرأت ما فى الصحيفة؟ هل امتدّت عينك إلى كلمة فيها؟ يا للنحس! ويا للشئوم! ويا للداهية الدهياء! إن كلمة واحدة تخرج من هذه الصحيفة كفيلة بضرب عنقى. قل: هل قرأت منها كلمة أو جملة؟ فذعر أسبيوتو وارتجف وقال وهو يتمتم. لم أقرأ منها إلا «إلى ملك الأسبان العظيم» ثم سطراً بعد ذلك. فهمّت نائلة وأغلقت الباب، وقالت وعيناها تتقدان:

- أنت الآن تعرف سرّى، فيجب أن يموت أحدنا، ولست أريد أن أموت. لن تخرج من هذا الدار حيّاً؛ وما كنت أود أن أقتل شاباً أحبّ قومه، ولكن ما حيلتى وتطفُّل الشاب ودسه أنفه فى كل شىء هو الذى قضى على حياته!

فزاد رعب أسبيوتو وقال متلعثماً مضطرباً:

ـ هونى عليك يا سيدتى، فإنه لم يطلع على سرّك إلا جاسوس للأسبان. فتصنعت نائلة الدهشة والسرور وهمست:

ـ أنت جاسوس للأسبان؟!

ـ نعم يا سيدتى. وقد سرّنى أن أرى مثلك معنا.

فتنفست نائلة الصُّعداء شأن من تفتح له أمل بعد يأس، وأحسّ بأمن بعد خوف، وقالت:

ـ مع من تعمل يا أسبيوتو؟

ـ مع واحد أو اثنين، ولكنى أعتقد أن الدنيا بخير، وأرجو ألاّ يمر زمن طويل حتى يدخل ملك الأسبان قرطبة بجيوشه. حينئذ تكون الدولة دولتنا، وحينئذ ينال كل من بذل معونته وإخلاصه أقصى ما يشاء من جاه ومال. ولكن خبرينى أنت يا سيدتى: أتعرفين أحداً يعمل إلى جانبنا؟

فرأت نائلة أن تخترع له أسماء لا وجود لأعيانها، علّه ينزلق إلى ذكر عائشة بنت غالب. فترددت كالمتمنعة ثم قالت:

ـ أعرف عاتكة القوطية، ونزهة الغرناطية، وسلمى بنت حجاج، فهزّ أسبيوتو رأسه ليدل على أنه لا يعرفهن وقال:

ـ أتعرفين عائشة بنت غالب؟ فقالت فى هدوء:

ـ أعرفها. فقال أسبيوتو فى شىء من الزهو:

ـ إنى أعمل معها.

ـ ما خُطّة عملكما؟

ـ تكتب الرسائل وبها كثير من أخبار الدولة وأسرار الجيش والحصون، لأنها على اتصال وثيق بالوزراء وكبار المملكة، فامضى بها إلى الشمال وأضعها فى يد ملك الأسبان. وسأسافر بعد يومين لحمل رسالة جديدة.

ـ حسن جداً. وإذاً تستطيع أن تأخذ رسالتى هذه معك بعد أن أهذبها وأزيد عليها أخباراً.

ـ سأمر عليك يوم الثلاثاء فى الصباح.

ـ عظيم. ولكن اسمع. يجب ألا تبوح بكلمة مما جرى اليوم لعائشة، ولا تذكر لها اسمى، لأن أول قواعد الجاسوسية، التى نقضناها اليوم، أن يكتم الجاسوس سرّ نفسه حتى عن أمثاله الحاطبين[1] فى حبله.

ـ ثقى أنى لا أفوه بكلمة لأحد، عمى يا سيدتى مساء.

ـ عم مساء يا أسبيوتو، وسنلتقى صباح الثلاثاء.

وما كاد يفارق الدار حتى كانت نائلة فى قصر ابن جهور تقص عليه الأمر من أوله إلى آخره، فدهش الرجل وهز إحدى كتفى نائلة بعنف وهو يقول غاضباً:

ـ ثقى يا نائلة أننى لست ممن تلعب بهم النساء، فإن كان ما تقولين كذباً، فقولى إنه كذب أعفك من كل عقاب.

ـ إنه حق صريح يا مولاى، والذى أطلبه منك أن تبعث أعوانك إلى دارى يوم الثلاثاء فى غبش الفجر، وأنا أعرف كيف أجد لهم مخبأ.

وجاء يوم الثلاثاء، وجاء أسبيوتو معه إلى دار نائلة، فقبض عليه الأعوان وعقلوه إلى قصر ابن جهور، وفتشت ثيابه، فإذا هو يخفى الرسالة فى جبّة مبطنة، وأحضر العارفون بالأسبانية فقرؤوها وترجموها، ورأوا فيها إفشاء لسرّ الدولة، وحضّاً على غزوها، فغضب ابن جهور أشدّ الغضب وصاح بالجنود أن يحضروا عائشة. فانطلقوا إلى دارها كأنهم زبانية الجحيم، فلما رأتهم هلعت وطار صوابها، وحين قُذفت بالتهمة جُنّ جنونها، لأنها كانت تبالغ فى الكتمان، وكانت تخفى أسرارها عن كل إنسان، فمن هذا الشيطان المريد الذي استطاع أن ينفُذ إلى حجب الغيب، وأن يستلّ أسرارها المدفونة تحت أطباق الثرى؟ من هذا اللص الخفى الماهر الذى يسترق حديث النفوس، ويسطو على خلجات القلوب؟ من يكون غير نائلة؟ إن ابن زيدون فى سجنه منذ شهور، فهو ليس من أهل الدنيا ولا من

---

(١) الناصرين له.

أهل الآخرة. ليس لي عدو إلا نائلة. عليها لعنة الله ولعنة الشيطان!

أنكرت كل شيء أمام ابن جهور، ثم رجت، ثم استعطفت، ثم بكت بكاء يقطّع نياط القلوب، ولكن ابن جهور كان صخراً صلداً شديداً قاسياً، فحكم بقتل أسبيوتو في ميدان الخلافة، وبأن تُجلد عائشة وتوسم بالنار في كتفها اليسرى، وتصادر أموالها، ثم تنفى إلى قشتالة. فجرها الأعوان من مجلس الحكم، وهي تبكي وتصيح وتضرب الأرض بقدميها، حتى بُحَّ صوتها، وخذلتها قواها. ووكل ابن جهور بها خمسة جنود ليصحبوها في سفرها.

وكانت نائلة على كثب من دار الجماعة تشرف على تنفيذ التدبير الذي أحكمت رسمه، كما يشرف القائد على خُطة هجومه، فلما علمت بالحكم على عائشة أسرعت فبعثت بالبشرى إلى ابن زيدون وولادة، ثم أمرت حَمَلة محفتها أن يتبعوا الجنود الموكلين بعائشة إلى مشارف المدينة، وهناك مدت يدها لتوديعها، وقلبها يفيض شماتة، وعيناها تفيض بدموع الانتصار. فصاحت بها عائشة في غيظ وتهديد: سنلتقي مرة أخرى يا نائلة! فقهقهت وهي تقول: نعم في الأفراح والسرور!!

١٠

بلغت عائشة مدينة «بَرْغَش» بقشتالة بعد جهد وعناء وأين، بلغتها يائسة محطَّمة، عليلة الجسم والنفس: ذهبت أموالها، وانتزعت من عزّها وجاهها كما يُنتزع الظفر من اللحم، وفتحت عينيها فرأت كلّ نعمة تنحل عنها كما تنحل ثلوج جبال نيفادا إذا لفحتها شمس الصيف، وشاهدت كلّ أمل ينفر من حولها كما تنفر الطير وقد ألقيت بينها بحجر.

كانت الطريق وعرة، والبرد شديداً، والسير حَقْحقة[1]، والجنود جفاة، فمن أين لعائشة أن تحتمل إحدى هذه الكوارث، وقد نشأت في مهد الترف، ودرجت في باحة النعيم، وعاشت في ظل ظليل من الغنى ورفاغة العيش؟ لقد كانت تستخشن الحرير، ويؤلمها الفراش الوثير، وتجرح خدّيها خطرات النسيم، فكيف هي الآن وفراشها الجندل[2]، وطعامها الحنظل، والعواصف الثلجية تتناوح فوق رأسها في الليل والنهار؟ كيف تستطيع هذه الفتاة المترَفة الناعمة أن تثبت لهذه النوازل، أو تصبر على هذه المكاره؟ إنها كلما رأت السهول والسهوب والآكام والصخور، ورأت جسمها يهبط ويرتفع فوق سرج بغلتها كأنه شُكَيَّةُ لبن يمخضه ما خض، تذكرت ما حدثتها به أمها حينما خرجت مع جدها وجدّتها من شنت ياقب فراراً من وجه المنصور أبي عامر وما لاقى الركب البائس يوم ذاك من كوارث وويلات.

كانت تفكر في ماضيها وحاضرها، أمّا الماضي فكان يبكيها، وأمّا الحاضر فكان

---

(١) الحقحقة معناها شدة السير.

(٢) الصخر العظيم.

سواداً بهيماً ليس فيه بصيص من ضياء. كانت تفكر في ابن زيدون وكيف انتقمت لنفسها منه، وكانت تفكر في نائلة وكيف تستطيع أن تنتقم لنفسها منها على بعد الشقة، وتنائي الديار. إنها صديقة ابن زيدون التي سرقت رسائله من دارها، فلما حبس لم تجد إلا أن تصبّ الشبهة عليها، وأن تثأر منها، فاتخذت من هذا الأسباني المفلوك الأبله شِصًّا لاصطيادها. ثم ما هذا الصنم الأجوف الذي يسمونه بابن جهور؟ إنه لم يستجب لبكائي، ولم تهزه عاطفة لأنوثتي. ويل لي! وويل من بلاهتي! فلكم أوصتني أمي بأن أحذر، وأن أقدر لرجلي قبل كل خطوة موضعها، وهكذا فعلت، ولكني ألم أحسب حساباً لمن يقرءون ما في الصدور. لقد عرف الأشقياء أنني حليفة الأسبان عدوة العرب! وماذا أفعل في ضِغْن ورثته من أهلي وبغض امتصصته من ثدي أمي؟ إنني أسبانية الدم والأرومة، وإن للوراثة سلطاناً يسخر من وسائل التهذيب، ويهزأ بالبيئة وما يزعمون لها من سيطرة في تنشئة الأخلاق. إن للوارثة ينبوعاً لابد أن ينبثق وإن غطَّته طبقات السنين وحجبه تعاقب الأجيال. لقد كان جدي يبغض العرب وإن أخفى بغضه تحت ستار من المكر والدهاء، وقد يكون من سُلالة ذاقت ويلات الذل من حاكم عربي عنيف، ملأ صدورها حقداً، فتسربت من هذا الحقد رواسب إلى أعقابها. ولكن لن أطيق الحياة بين أهل الشمال، إن هؤلاء العرب يعرفون كيف يعيشون وكيف ينعَمون بملاذ العيش ومتعه، أما أولئك فغلاظ جفاة أميُّون، لم تهذبهم حضارة ولم يصقلهم أدب ولا تأديب. كيف أعيش بين هؤلاء بعد زهو قرطبة، وتلألؤ ندواتها، ورنين ضحكاتها، وقهقهة كاساتها وتغريد عيدانها، وازدحامها برجال الشعر والأدب والفنون؟ لقد خلَّفت ورائي مدينة صبغ السرور ليلها صباحاً، وجعل أيامها السعيدة أفراحاً، مدينة لا تنام إذا نامت الكواكب، ولا يكدر صفو شرابها ذكر العواقب. مدينة كأنها قطعة من الفردوس، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. ثم تنهدت وانهمرت الدموع من عينيها، ولكنها أماطتها عن خديها في كبر وغضب وهي تقول: إن إبنة جارسيا لا تبكي للخطوب!

نزلت عائشة «برغش» وقد أرخى الليل سدوله، وشمل المدينة برد قارس عضوض، كادت تجمُد له أنات البائسين. وكانت برغش فوق شرف عال بعثرت فوقه الأكواخ في أزقّة ملتوية، تكدست بها الأقذار والأوحال، وأرسل كل كوخ من خصَاصه[1] ضوءاً خافتاً

---

(١) فرجه وفتحاته.

مضطرباً، كأنه فُواق المحتضَر. ولم يرتفع بين أبنية المدينة إلا بناءان: أحدهما فى الوسط، وهو قصر ملك قشتالة، وحوله منازل الجند ورجال الدولة، والثاني دير سنت بدرو للراهبات.

وقفت عائشة حزينة باكية فى هذا الظلام الدامس، حيرى لا تدرى أين تقضى ليلتها. إنها لا تستطيع أن تزور الملك فى قصره بعد أن مضى الهزيع الأول من الليل، ولا تستطيع أن تنزل فى خان، لأن بؤسها ورثاثة أثمالها يغلقان فى وجهها كل باب. وبعد تفكير مضطرب رأت أن تقصد إلى الدير، وكان منها على كثب، فطرقت بابه وجلة مترددة، وفتحت لها راهبة عجوز عابسة الوجه ساخطة على الحياة، متمردة على التبتل، فلقد ظنت فى ضحا شبابها أن فى البعد عن الناس سلامة وطهراً، ولكنها رأت فى أصيل العمر أن الحياة لا تكون إلا بين الناس، وأن الطهر وعلاج النفوس لا يكونان إلا حيث تكون الفتن ونَزَغات الشياطين. تجهّمت الراهبة «شيمانة» لعائشة وقالت فى صوت خشن أجش:

ـ ضحية جديدة للشيطان؟ فأجابت عائشة بصوت متردد حزين:

ـ لا يا أختى، إنها فتاة بائسة لا تجد فى هذه الليلة القاسية مأوى ولا طعاماً. وهى لا تريد إلا كنّاً وحسوة من حسَاء، وستغادر الدير فى أول شعاع للصباح، فهل تجد فيه ما يمسك به رمقها؟

ـ أما المأوى فهيّن ميسور، وأما الطعام فلن تجدى منه الليلة إلا لقيمات. ادخلى.

ودخلت عائشة، وقضت ليلتها نهباً للأحزان والبرد والجوع، حتى إذا صاحت الديكة التفّت بإزارها وودّعت صاحبة الدير وخرجت قاصدة قصر الملك. فلما اقتربت منه أسرع خدم القصر يذودونها عنه، لولا أن همست فى أذن كبيرهم بأنها تحمل إلى الملك رسالة من قرطبة، وما كان إلا ذهاب وجيئة، وانتظار وترقب حتى كانت فى حضرة ملك الإفرنجة، فرأت فيه رجلاً كهلا أسمر اللون ضخم الجثة، أميل إلى الطول، جالساً على وسادة عالية، مكشوف الرأس أصلع، لم يغلب عليه الشيب بعد، وكان عليه ثياب من ثياب المسلمين. تقدّمت منه عائشة فقبّلت يده، ثم غلبها البكاء أو اصطنعته وصاحت:

ـ انتقم لى يا سيدى من ابن جهور ومن جماعة المسملين، فابتسم الملك وكان داهية فى الرجال، وقال وهو لا يحوّل عنها نظراته النافذة المخيفة:

ـ خففى عن نفسك يا فتاة، وانفضى إلىّ جليَّة الخبر. ثم من أنت أولاً فإنى لا أحبّ أن أخاطب مجهولاً؟

ـ أنا يا سيدى عائشة بنت غالب، فشُدِه الملك واتسعت حدقتاه وصاح:

ـ صديقتنا عائشة العاملة المخلصة لنصرة الأسبان؟! فكشفت عائشة عن كتفها اليسرى لتظهر أثر الوسم بالنار وقالت:

ـ وهذا يا سيدى عاقبة إخلاصى فى خدمتك، وبلائى فى نصرتك. فوقف الملك بعد أن كان جالساً وقال فى غضب مضطرم:

ـ من فعل هذا؟

ـ ابن جهور بعد أن صادر أموالى، وطردنى من قرطبة بلد آبائى.

فأطرق برأسه كالمفكر وقال:

ـ هل أصابك كل هذا لأجلى؟

ـ لأجلك يا مولاى، ولأجل الغاية التى نسعى إليها معاً.

ـ ومن الذى وشى بك؟

ـ امرأة تنازعنى فى رجل.

ـ آه. كان عليك يا فتاتى أن تعرفى أن الجاسوس لا قلب له، وأنه إذا أحبّ فسد عليه كل أمره، ولكننا نتعلم من هفواتنا. والآن لا عتب عليك ولا تثريب، فالأيام كفيلة بأن ننتقم لك، والضعيف الذى يدرجُ إلى القوة أقوى من القوى الذى يتدلى إلى الضعف. لقد تغلّب علينا العرب بقوة كانت فوق قوتنا، وإيمان كان أعظم من إيماننا، ومدنية لم يكن لنا منها قليل أو كثير، ولكن جذوة خامدة بقيت فى صدورنا، فطفقنا ننفخ فيها حتى تقطّعت أنفاسنا، غير أنها تأججت فى النهاية وأصبحت ناراً صاخبة اللهب فوّارة السعير، يخافها العرب، ويُصم آذانهم حسيسها. ولن ننام عن ثأرنا يا بنية، ولكن الأمور تعالج بالصبر والدهاء، حتى يُسكت قرع النواقيس أصوات الأذان. أتدرين ما كان من أول أمرنا يا فتاة؟ كان بجليقة قسّ قوى الشكيمة شديد المراسِ، يسمى «بلاى» رأى قومه وهم يفرون أمام الفاتحين، فامتلأ قلبه غيظاً، وصاح بينهم يذكى عزائمهم، ويثير هممهم لطلب الثأر،

والاستماتة فى الذود عن بلادهم، ولكن سيل العرب كان جارفاً، فتحصن مع نفر من قومه فى قُنّة صخرة، فمات أكثرهم جوعاً، ولم يبق منهم إلا ثلاثون رجلاً وعشر نسوة، ولم يكن لهم من طعام إلا ما يشتارونه من عسل النحل. وبقى هؤلاء الأبطال ممتنعين بالصخرة، وقد أعيا العرب أمرهم حتى يئسوا فى النهاية من الوصول إليهم، وقالوا: ثلاثون رجلاً ما عسى أن يجىء منهم؟ ولكن هؤلاء الثلاثين ما زالوا يتكاثرون ويقوون ويغيرون على أطراف ممالك العرب، حتى أصبحوا الآن كما ترين، وأصبحت دولتهم عزيزة الجانب، يهابها الملوك، ويتقرّب إليها الأمراء. صبراً يا بنيتى، فإن الخمر والنساء والتبذل فى الشهوات وتفرّق الكلمة، كفيلة بأن تذهب بشوكتهم. ربّما لا ندرك هذا فى أيامنا، ولكن من تحقق من وقوع الشىء فقد رآه.

وهنا قالت عائشة:

- والآن يا سيدى ألا تريد أن تثأر لى منهم؟

- لا يا عائشة.

- يجمل بسيدى أن يدعونى «روزالى» فقد ألقيت باسم عائشة من ورائى منذ غادرت قرطبة.

- روزالى؟ أصبح اسمك الآن روزالى؟

- نعم يا سيدى.

- حسن، اطمئنى يا روزالى، أقيمى بيننا الآن حتى تسكت العاصفة، وسآمر لك بدار تنزلين بها، وأجرى عليك من المال ما يكفل لك حياة رغدة.

وأقامت عائشة أو روزالى ببرغش شهوراً فى سعة من العيش والجاه، وتوثّقت صلتها بالملك، وظفرت منه بالرعاية والثقة. وفى صبيحة يوم دخلت عليه فصاح بها قبل أن تجاوز باب البهو:

- كنت سأبعث فى طلبك يا روزالى. أقبلى بعد أن تغلقى الباب، فإن حديثنا يجب ألا يطرق أذن ثالث.

فسعت إليه بخطوات خافتة كأنها تخشى أن يكون فى صوت أقدامها إذاعة لهذا السر

الخطير وقالت فى همس:

- أجدّ جديد يا سيدى؟

- لا يا روزالى ولكن رسولاً طرق القصر عند منتصف الليل قادماً من قرطبة.

- أثار القرطبيون على أبى جهور؟

- لا، فإن ابن جهور أدهى من أن يدع الزمام يُفلت من يديه، وهو يعرف متى يرخيه، ومتى يجذبه، ولكن الرجل تدب إليه الآن شيخوخة تسرع به إلى القبْر، وما أظن أن الأمر يستقيم لأولاده من بعده. ثم زفر وقال: ولكننا نسبق الأيام، ولن يتم أمرنا بهذه العجلة، ومن يسبق إلى الطعام فى قدرة تحترق يداه. جاء الرسول بالأمس من قبل راميرز بن بترو.

- صاحب أكبر حانة بقرطبة؟

- نعم، وهو زعيم جواسيسنا هناك بعد أن مات أبوه.

- إنه يعيش مع العرب كأنه واحد منهم، ويلتهب غيرة على الإسلام وتعصباً للمسلمين.

- وهذا سرّ نجاحه يا بُنيَّة.

- ما يحمل الرسول يا سيدى من أخبار؟

يقول إن ابن عباد بإشبيلية، يفكر فى الإغارة على قرطبة واستخلاصها من يد ابن جهور، وأنه بعث إلى راميرز رسولاً يرجو ويلح عليه فى أن يحملنى على محالفته ومعاونته بجنودى، لقاء إتاوة دائمة يبعث إلىّ بها فى كل عام.

- وماذا يرى سيدى؟

- أرى أنّ ابن عبّاد أسد رابض، وأنّ ابن جهور ثعلب ماكر، وأنّا لو أعنّا ابن عبّاد لم يكتف بقرطبة، وسمت نفسه الطموح إلى جمع الولايات العربيّة تحت رايته، وبذلك يضّطرب الميزان، وينهار كلّ ما بنيناه. أمّا ابن جهور فرجل حذر شديد المراس، حوّل قلب، يأخذ ولا يعطى، ويتقبّل العون على الاّ يدفع له ثمناً.

- حقّاً إن الأمر لمعضل.

ـ لا يا روزالى إن كل معضل يهون بالتفكير والصبر وحسن التأنى.

ـ وهل فكرت فى الأمر يا مولاى؟

ـ فكرت فيه طويلاً، ذلك أن ابن المرتضى الأموى الذى نفاه ابن جهور إلى شرقى الأندلس منذ شهور، عاد ثانية إلى قرطبة مختفياً، وأنصاره يبثّون له الدعوة فى الخفاء، والقرطبيون يتلهفون شوقاً إلى عهود الخلافة الأموية. فوثبت عائشة قائلة:

ـ أتريد يا سيدى أن تجلسه على عرش قرطبة؟

ـ ولم لا؟ إنه رجل هادىء النفس لين القيادة، فإذا ناصرناه كان حليفاً لنا، ويداً على أعدائنا.

ـ وماذا تريد منى أن أفعل؟

ـ الحق أنى لم أرد أن أزعجك، ولكنى رأيت أن راميرز لا يستطيع أن يقوم بما أريد.

ـ أتريدنى على أن أعود إلى قرطبة؟ إننى لو عدت يا مولاى لقطعونى إرْباً إرْباً.

ـ لا، أنت تحسنين التنكر، وستقيمين بدار راميرز ثم مدّ يده إلى خزانة بجانبه، وأخرج منها رسالة، وأخذ يتابع حديثه ويقول: الذى أريده أن تذهبى بهذه الرسالة إلى ابن المرتضى، وهو مختف فى دار بأحد أرباض قرطبة يدعى «بربض البرج» وراميرز يعرف مكان الدار، وأترك لك يا روزالى اجتذابه، فإن لحديثك سحراً لا تنفع فيه الرقى. فكتمت عائشة ابتسامة وقالت:

ـ وماذا كتبت له فى الرسالة يا سيدى، إذا ساغ لى أن أسأل؟

ـ ذكّرته بمجد آبائه، وأوغرت صدره على ابن جهور، وعرضت عليه معونتى، وإنى لا أطلب من ورائها إلا نُصرة الحق على الظلم الصراح، ولكنى اشترطت قبل أن أبعث جيوشى لنصرته، أن يرسل إلى رسالة يطلب منى فيها المعونة.

ـ إنها صك الاستعباد يكتبه بيده!

ـ لقد فهمت يا روزالى، لو كان لبعض رجالى بعض ذكائك لنمت هادىء البال. ثم

وقف ماداً يده بالرسالة إليها وقال: اذهبى الآن فقد أمرت بأن يعد كل شىء لسفرك، ولن أوصيك بشدة الحذر، فقبّلت يديه وانصرفت.

كانت عائشة قد ألفت حياة الترف والنعيم ببرغش، واستمرأت ما غمرها به ملك الإفرنجة من صنوف البرّ، وما أحاطها به من العطف، حتى أصبحت بالمكان المرموق والخطر المرموق، وحتى بلغت فى الدولة من الجاه والكلمة المطاعة والدالّة على الرؤساء ما تتوق إليه نفس كل متوثب طموح. نسيت عائشة فى ظل هذا النعيم ما لاقت فى ماضيها القريب من ذل ومهانة ونفى وتشريد. نسيت خروجها من قرطبة وحيدة منبوذة تعصف بها الرياح، وتتقاذف بها الطرق فى قسوة وجفاء كأنها لعنة من السماء. نسيت ليلة الدير الذى بنى للرحمة وأقيم للإحسان فلم تجد فيه رحمة ولا إحساناً. نسيت عائشة كل هذا، ولكنها لم تنس أمرين حفرا فى دماغها وأثرين لا يعفى عليهما النسيان هما: ابن زيدون وابن جهور أو ابن جهور وابن زيدون، فإنها لا تستطيع أن تعقد بينهما ترتيباً، فهما عندها سواء فيما تثور به نفسها من كراهية وحقد ورغبة فى الانتقام. ابن زيدون يجب أن يخضع لها خضوع العبد، وأن يتزوجها وأنفه راغم، وأن يهجر ولادة تلك المرأة اللعوب التى تخدع الناس برشاقة مصنوعة، وغرام بالأدب زائف، ونسب إلى الخلفاء حينما هزلت أنساب الخلفاء. وابن جهور الرجل المرائى الماكر، الذى وثب إلى الحكم، بزعم أنه لا يحب الحكم، وأنه يتعفف عن الرياسة. ذلك الرجل الذى جلدها ووصمها بميسم العار ونفاها من الأرض، كأن دولته الزائلة لم يكن بها من أسباب الاختلال إلا أن تكاتب ملك الإفرنجة امرأة مثلها لا حول لها ولا قوة!

لم تنس عائشة هذين. وحينما رأت أن الفرصة مواتية للانتقام، حركت الحية رأسها، ولمعت عيناها بشر ولم يكن إلا أثراً لما يضطرم به فؤادها، وهمست تحدّث نفسها: غداً يعلم ابن جهور أن النار التى أوقدت لوصمى بالعار ستجتاح دولته. وغداً يعلم ابن زيدون أن اليد التى امتدت إليه ضارعة مستعطفة ستنقلب عاصفة تهوى به إلى الجحيم، إلا إذا آثر السلامة وألقى الخطام[1] خاضعاً ذليلاً.

---

(١) حبل يجعل فى عنق البعير ـ الزمام.

١١

لم يكن الصبح قد تبسّم حينما أخذت عائشة تستعدّ لسفرها الطويل. هل يبتسم الصبح حقّاً؟ إن كان كذلك فهو إنما يبتسم لغرور الإنسان وجهله وافتنانه فى الكيد لأخيه الإنسان. إنه يبتسم سخرية من هؤلاء الذين إذا هبُّوا من نومهم، لم يفكروا فى جمال النهار المشرق، والزهر الضاحك، والطير المغرّد، والنسيم الذى يعبّث بالغصون، ولم يصرفوا لحظة فى الاستمتاع بما وهب الله لهم من نعم، وما أجزل من خيرات حسان. الموسيقى عندهم صخب ونقيق، والجمال طلاء كاذب لا يدوم، والفضيلة أسطورة كتبها فلاسفة لا يفهمون. يهبون من نومهم فى الصباح على غِلّ لازم وسادتهم، وحقد اختلطت به أحلامهم، وتدبير شيطانى تفتحت عنه قرائحهم بعد طول الكد وبعد التفكير. إن للحيوان الأعجم سلاحاً يذود به عن نفسه، ويحافظ على بقائه، فله مرة ناب، ومرة حُمَة، ومرة فنون فى الفرار، ومرة درقة تحميه الغوائل. وهو لا يلجأ إلى هذا السلاح إلا مدافعاً أو جائعاً. أما الكثير من بنى الإنسان فقد اتخذوا من ذكائهم سلاحاً هو أوحى سمّاً من لعاب الأفعى، وأمضى فتكاً من ناب الليث، وقد جرّدوا هذا السلاح، وافتنُّوا فيه، ووثبوا به على الناس والحيوان جميعاً فى حمق وجنون، لا يريدون إلا شفاء شهوة تغلى فى الصدور. هؤلاء يقولون: إن الحلم للذلة إذعان، وإن الرحمة خور فى العزيمة، وإن التسامح جبن وخذلان، ويزعمون أن الكذب دهاء وكياسة، وأن الخدع مهارة وسياسة وأن فى نصب الحبائل ذكاء وعبقرية، وفى بثّ الفتن حذقاً ولقانة، وقد يخدعون أنفسهم، أو تخدعهم أنفسهم بأنهم بذلك إنما يذودون عنهم الشرّ، والشرّ بالشرّ يدفع، أو ينالون حقهم، ولا

ينال الحق إلا بشيء من الباطل ، أو يزاحمون فى سباق الحياة ، فيصرعون من يقفون فى وجوههم ، فهم من أجل ذلك دائماً بين صارع ومصروع ، وسالب ومسلوب ، وحاسد ومحسود ، وباك وشامت . لهذا يسخر الصبح منهم ، ولهذا تسخر الطبيعة الفاتنة منهم ، ولهذا صاح المعرى الفيلسوف الساخط يقول :

عوى الذئبُ فاستأنست للذئب إذ عوى وصوّت إنسانٌ فكدت أطير

ولهذا قال المتنبى قبله :

ومن عرف الأيامَ معرفتى بها وبالناس ، روّى رمحَه غيرَ راحم

أتمت عائشة عُدتها للسفر ، وكان ينتظرها لدى الباب ثلاثة فرسان أشداء ، وستة من جياد الخيل ، فحيَّت الجند ، وامتطت فرساً ورداً[1] كأنه قطعة من الشفق ، طغى به نشاطه فسخر من الرياح ، وكاد يسبق الظلال وطار الركب إلى طِيَّتهم فى غبش الفجر كأنهم القضاء المحتوم ، فذعرت منهم الآكام ، وثار من خلفهم الغبارُ ركاماً فوق رُكام ، وما زالوا يصعدون نجاداً ، وينزلون وهاداً ، إلى أن أدركهم الليل ، فأقاموا لعائشة خيمة وربضوا حولها يتوسَّدون أسلحتهم فى حذر واحتراس ، كأنهم يقظى وهم نيام . وهكذا توالت الأيام ، وتعاقب نور وظلام ، حتى بلغوا مشارف قرطبة فى أصيل يوم صائف ، فنزلت عائشة عن جوادها ، وأمرت أن تنصب لها الخيمة ، فما لبثت بها طويلاً حتى ظهرت فى زِيٍّ غريب دهش له الجند ، حتى إن أحدهم دخل الخيمة ليبحث عن السيدة التى كانت معهم منذ حين .

ظهرت عائشة فى زيٍّ امرأة ريفية تحمل فوق رأسها جَرَّة قديمة طال عليها الزّمان ، فلمّا رأت ما بدا على وجوه الجند من حيرة ابتسمت وقالت :

- هكذا يجب أن يتنكر من يخاطر بحياته فى مدينة الأعداء . أترونني أحسنت التخفى حقًّا؟

فصاح كبيرهم وكان داهية فى الملق :

- لقد كدت يا مولاتى أجرد سيفى وأسألك عما صنعت بسيدتنا . فهزّت عائشة رأسها فى حزن وقالت :

---

(١) أحمر اللون إلى صفرة.

ـ لا . إننى لن أموت بسيف أسبانى .

ـ كلنا فداؤك يا سيدتى!

ـ باركتكم العذراء؛ عودوا الآن إلى قشتالة واتركونى، فإنى سأخوض حرباً لا تعرفونها، ولى من الحيل سلاح تكلّ دونه أسلحتكم . إننا جميعاً جنود لنصرة راية الأسبان واستعادة ما كان لها من ملك وسلطان ، ولكن أسلحتنا تختلف . وقد ينال بالدهاء ما لا ينال بالسيف البتار. إننى أيها الأبطال من جنود الطليعة الذين يمهِّدون لكم الطريق، ويثبطون العزائم، ويبثون الفتن، فإذا جئتم بعدنا فحسبكم جولة صادقة لتكون البلاد تحت أقدامكم . اذهبوا وسوف نلتقى جميعاً فى قرطبة لنصلى صلاة الظفر والانتصار.

ثم انطلقت نحو المدينة فى مِشْية متعثرة مكدودة، شأن القرويات اللائى آلمهن طول المشى ووعورة الطريق .

دخلت عائشة قرطبة تحمل جرتها، وما كادت تبلغ «حى المضرية» حيث رأت هرجاً وسمعت صياحاً، وشاهدت الناس يتسابقون نحو ميدان الفتح، كأن حادثاً جللاً هالهم، أو مشهداً رائعاً اجتذبهم، فاقتربت من شيخ أثقلته السنون، يتزيًا بزى العلماء، ويرتسم على وجهه التزمّت والعبوس، وسألته فى لهجة ريفية ساذجة :

ـ ماذا حدث يا مولانا؟ فهز الشيخ رأسه فى حزن الساخط على الحياة وقال :

ـ نحن يا ابنتى فى اضطراب لا ينتهى، وفتن لا تخمُد نارها، ففى كل يوم ثائر، وفى كل يوم جاسوس، وفى كل يوم لصوص يغيرون، أما المنكر والافتتان فى العبث والمجون فقد جاوز الحد، وتحدى ملائكة السماء. ويل لقرطبة من بنيها! ثم ويل لها من أعدائها! إن هذا من غضب الله على الناس . وكذلك أخذ ربكَ إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد .

فتنهدت عائشة وقالت :

ـ الإسلام بخير يا مولانا .

ـ الإسلام بخير يا فتاة، ولكن أهله ليسوا بخير. وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

ـ ولكن ما أسباب هذا الفزع وهذه الضجة يا مولانا؟

ـ هذا ابن المرتضى يا بنية، وهو بقية من ولد الناصر، عاد إلى قرطبة مستخفياً، والتفت حوله دعاة وأشياع يمهّدون له سبيل الخلافة، فعقد ناصيته بالثريا، وأصبح من طماح همته في جهد، وقد اهتدى إلى مكانه جواسيس ابن جهور، فانقض عليه صاحب المدينة بجنده وأعوانه في داره بربض البرج، وهو الآن يقاد إلى عميد الجماعة بالسلاسل، أو يقاد إلى الموت بالسلاسل، فكلاهما عندي وعنده سواء.

ذهلت عائشة لهول الخبر حتى لكان صاعقة انقضت عليها، أو كأن عاصفة اجترفتها وتركتها معلقة بين الأرض والسماء. وقفت ولم تدر أين وقفت. واضطربت ميزانها فسقطت الجرة وتناثر ما بها من ماء فأفاقت من غشيتها، ونظر إليها الشيخ في عجب وقال مترفقاً:

ـ ماذا أصابك يا فتاة؟

ـ آلمني يا سيدي ما نحن فيه دائماً من شَغْب وانقسام.

ـ إن قرطبة لا ترضى عن حاكم ولا يرضى حاكم عنها، وهذا أصل الشر ومنبت البلاء، وإني لا أخشى على المسلمين من عدو مفاجىء بقدر خشيتي عليهم من أنفسهم. اذهبي إلى قريتك يا فتاة، وعيشي آمنة فس سِرْبك، فلن ترى في هذه المدينة إلا صراعاً وخصاماً.

غادرته عائشة وهي حزينة مختبلة، تصوّر مشيتها ما في نفسها من قلق، وما في عقلها من وساوس وهموم، وكانت تهز رأسها واجمة وتقول: هذا أول بيت في القصيدة، كله رثاء وعويل وبكاء. هذه أول خطوة أمدّ بها رجلي في سبيل الانتقام من أعدائي، ليس فيها إلا تعثر وسقوط. ألهذا قضيت شهراً كاملاً في الوصول إلى قرطبة أعاني عذاب السفر وأكابد قسوة الطريق؟ اليوم تلتقي كفا ابن جهور بعنق ابن المرتضى، وينتهي الأمر، ويفسد التدبير كله، ويبقى عدوي على عرشه عظيماً ممَلَّكاً رغم أنفي وأنف ملك قشتالة. يا للخذلان! ويا للخيبة! كأنما القدر انتظر بابن المرتضى، حتى إذا فكرنا في اتخاذه أحبولة اختطفه من أيدينا ليتركنا ساهمين حائرين. لقد كانت الخطة محكمة، وكان التدبير سليماً، وكانت الغاية محققة، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يلمح ما وراء الغيب؟ ومن الذي في

يده أن يكف يد القدر؟ ثم ابتسمت ابتسامة المفجوع وقالت: القدر؟ هذه تكأة العاجزين. أفيقي يا عائشة، إن اللوذعي[1] إذا لم يستطع أن يوقف القدر، فإنه يستطيع أن يتخيل مجرى القدر، وأن يعد لكل شيء عدته.

ثم أخذت سمتها نحو دار راميرز، فأنكرها أول ما رآها، فلما عرّفته بنفسها، وثب نحوها يعانقها في محبة وشوق ويقول في صوت خافت:

- كيف جازفت بنفسك يا سيدتي عائشة؟

- اسمي روزالي.

- روزالي؟ مرحباً بروزالي، وهناء لدولة الأسبان بأمثالها. كيف خاطرت بالمجيء إلى قرطبة يا روزالي، وأعداؤك هنا لا يحصون عدداً؟

- إن روزالي ليس لها أعداء، وقد ذهبت عائشة بنت غالب إلى غير رجعة، ولن تستطيع العين الطُّلَعَة أن تنفذ إلى عائشة بعد أن سترتها روزالي بحجاب من التنكر كثيف. أسمعت بالحادث المحزن الجديد؟ فارتاع راميرز وارتجف وقال في تلعثم.

- أيّ حادث يا سيدتي؟

- قبض ابن جهور على ابن المرتضى.

فقهقه راميرز وصاح:

- لقد رعبتني يا سيدتي روزالي، وأيّ حزن، وأيّ أسىً في هذا الحادث؟ إنني أنا الذي وشى به إلى ابن جهور، وأنا الذي أرشده إلى مكان اختفائه. فصرخت عائشة.

- أنت أيها الجاهل الغرّ الأحمق! ومدت ذراعيها إلى رقبته تريد أن تخنقه لما انتابها من الغيظ، فتراجع خطوات في دهشة وقال:

- ماذا بك يا سيدتي؟ إنني أعد القضاء على ابناء الخلائف من أشرف الغايات التي نعمل لها ونسعى إليها. إن الملك لن يعود إلينا، ولن تخفق راية الأسبان على البلاد مختالة عزيزة، إلا إذا قضينا على هؤلاء النفر واحداً واحداً، مرة بالكيد، ومرة في ميادين القتال.

---

(١) الذكي الذهن - الفصيح اللسان.

لقد سمعت ملك قشتالة يقول : إننا سننقض[1] بنيان هذه الدولة حجراً حجراً. فهل يريد إلا أن يطوى أمراءهم واحداً بعد واحد؟

- سمعته يقول ذلك يا غبى؟

- نعم سمعته، وأنا ألقن الناس بما يريد.

- أجلس. قاتل الله الجهل! وقاتل الله الغرور! أتدرى أيها المفتون بذكائه أنك بفعلتك هذه لم تهدم البناء، ولكنك وطّدت أركانه، وشددت أواسيه، ليبقى أعواماً وأعواماً حصيناً ممنّعاً؟ فبهت راميرز وقال متخاذلاً :

- كيف يا سيدتى؟

- كان تدبير مولاى الملك أن يظاهر ابن المرتضى على ابن جهور، ويجلسه بقوة جنده وسلاحه على عرش قرطبة، ثم يتخذه وسيلة لغزو الولايات الأخرى، ويجعل منه طُعماً لصيد دويلات العرب واحدة تلو واحدة . وكانت رسالتى من قشتالة إلى قرطبة لإنفاذ هذه الخطة. أفهمت أيها العبقرى المأفون؟ أفهمت أنك بذكائك الخارق ولوذعيتك التى لا تُدرك، أضعت على الأسبان جميعاً فرصة سانحة لن يجود الزّمان بمثلها؟

فاصفّر وجه راميرز وأكثر من بلع ريقه فى توسل :

- لم أكن أعرف كل هذا يا سيدتى، وإنما فعلت مجتهداً ما ظننت فيه الخير لدولة الأسبان، وإنى لأخشى أن يصل خبر فعلتى هذه إلى مولاى الملك فأكون من الهالكين.

- لا عليك يا ابن بترو فلن يعرف الخبر إلا أنا وأنت. والمثل الأسبانى يقول: ما أضيع الحزن على زجاج تحطم. أعندك خبر عن ابن زيدون؟

- لا يزال سجيناً يقاسى مرّ العذاب.

- ليتنى أستطيع زيارته.

- هذا ممكن، فكبير السجانين صديقي، وهو يزور حانتى بين الفينة والفينة.

- نترك هذا إلى حين.

---

(١) سنهدم.

١٢

كان ابن زيدون لا يزال فى سجنه يقاسى ألم الوحدة وذل الإسار، ويبكى بُعْدَه عن ولادة، ويندب آماله التى طارت مع الرياح. فقضى فى السجن أكثر من عام يخاطب الجدران، ويناجى القضبان، ويشكو بثّه إلى نفسه، وينتظر الفرج فى كل لحظة، فيخيب أمله فى كل لحظة، ويستقبل النهار المشرق بمثل ما يستقبل به الليل العابس. وإذا أظلمت نفس المرء فماذا يفيد الضياء؟ وسعادة الإنسان وشقاؤه من نفسه التى بين جنبيّه، فقد تريه الأمن خوفاً، وقد تريه البؤس نعيماً.

كان يوالى إرسال قصائد الاعتذار إلى ابن جهور فما أجدى، وكان يكرّر الاستنجاد بابنه أبى الوليد فلا يجد مجيباً، فالتجأ آخر الأمر إلى صديقه الوزير أبى حفص بن بُرد، وكانت له منزلة أثيرة عند ابن جهور فكتب إليه:

ما على ظنى باسُ يجرح الدهر وياسو
ربما أشرف بالمر ء على الآمال ياس
ولقد يُنجيك إغفا ل ويُرديك احتراس
ولكم أجدَى قعود ولكم أكدى التماس
وكذا الدهر إذا ما عزَّ ناس ذلّ ناس
يا أبا حفص! وما سا واك فى فهم إياس
أنا حيران، وللأمـ ـر ظهور والتباس
لا يكن عهدك ورداً إنّ عهدى لك آس

وأدِرْ ذكرى كأساً ما امتطت كفُك كاس
وعسى أن يسمح الدهـ ـر، فقد طال الشمّاس

فما كادت تصل الأبيات إلى ابن برد حتى أسرع إليه يواسيه ويُروّح عنه، ويعده بأن يعيد الكرّه على ابن جهور، وأن يُلحف فى طلب العفو عنه، ثم طلب إليه أن يكتب إلى عميد الجماعة رسالة يصف فيها سوء حاله فى السجن، ويعتذر عن زَلّته، ويذكره بسالف بلائه فى خدمته، وإخلاصه لدولته. فكتب ابن زيدون الرسالة بعد أيام، وبعث بها مع نائلة، وهى من روائع النثر العربى جاء فيها:

«يا مولاى وسيدى الذى ودادى له، واعتمادى عليه، واعتدادى به، وامتدادى منه، ومن أبقاه الله ماضى حدِّ العزم، وارى زند الأمل، ثابت عهد النعمة. إن سلبتنى أعزك الله لباس نعمائك، وعطّلتنى من حُلى إيناسك، وأظمأتنى إلى برود إسعافك، ونفضت بى كفّ حياطتك، وغضضت عنى طرف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك، وسمع الأصمُّ ثنائى عليك، وأحس الجماد باستحمادى إليك، فلا غرو قد يغصُّ بالماء شاربه، ويقتل الدواء المستشفى به، ويؤتى الحِذر من مأمنه، وتكون منيّة المتمنى فى أمنيته، والحين قد يسبق جهد الحريص.

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهونُ غيرَ شماتة الحساد

ثم يقول:

«هذا العتب محمودٌ عواقبه، وهذه النبوة غمرة تنجلى، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشّع، ولن يريبُنى من سيدى أن أبطأ سيبه، أو تأخر غير ضنين غَناؤه، فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها، وأثقل السحائب مشياً أحفلها، وألذ الشراب ما أصاب غليلاً، ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب».

ثم يقول:

«ما هذا الذنب الذى لم يسعه عفوك؟ والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك؟ والتطاول الذى لم يستغرقه تطوّلك؟ والتحامل الذى لم يف به احتمالك؟ ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين العدل؟ أو مسيئاً فأين الفضل؟

ألاّ يكن ذنبٌ فعدلك واسعٌ أو كان لى ذنب ففضلك أوسع

حنانيك قد بلغ السيل الزُّبى، ونالنى ما حسبى به وكفى».

ثم يقول:

«وحسبكُ من حادث بامرىء ترى حاسديه له راحمينا

فكيف ولا ذنب إلا نميمة أهداها كاشح؟ ونبأ جاء به فاسق؟ وهم الهمّازون المشاءون بنميم، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدّعوا العصا، والغُواة الذين لا يتركون أديماً صحيحاً». ويقول: «هل لبس الصباح إلا بُرداً طرّزته بفضائلك؟ وتقلّدت الجوزاء إلا عقداً فصّلته بمآثرك؟ واستملى الربيع إلا ثناء ملأته بمحاسنك؟ وبثّ المسك إلا حديثاً أذعته فى محامدك؟

ثم يقول:

«أعيذك ونفسى من أن أشيم خلبّاً، وأستمطر جَهاما، وأكدِم فى غير مكدَم، وأشكو شكوى الجريح إلى العِقْبان والرخَم».

ويقول:

«لعلى ألقى العصا بذراك، وتستقر بى النوى فى ظلك، وأستأنف التأدب بأدبك، حسبما أنت خليق له وأنا منك حرىٌّ به».

يصوّر ابن زيدون لعميد الجماعة فى هذه الرسالة أشتات نفسه الحائرة، ونوازعه الثائرة، فهو يعتذر حيناً، ويعتب حيناً، ثم يعترف بذنبه فى ذل واستخذاء، ويعود فيغالى بنفسه فيرفعها فى ثقة واعتداد عن دنس الإثم واقتراف الذنوب، ثم يثور ثورة جائحة فيمنّ على العميد سابق فضله عليه، ثم تهزّه عاطفة الشاعر ويرى أن النثر قد يعيا عن التأثير الذى يريد، فيصحَب الرسالة بقصيدة يقول فيها:

الهوى فى طلوع تلك النجوم والمنى فى هبوب ذاك النسيم
سرّنا عيشُنا الرقيق الحواشى لو يدوم السرور للمستديم!
وطرٌ ما انقضى إلى أن تقضّى زمن، ما ذِمامه باللميم
إذ ختام الرضا المسوّغ مسك ومزاج الوصال من تسنيم
أيها المؤذنى بظلم الليالى ليس يومى بواجد من ظلو
قمر الأفق إن تأملت والشمـ ـسُ، هما يكسفان دون النج

وهـو الدهـر ليس ينفـك ينحو بالمصـاب العـظيم نحـو العظيم
بـوأ الله جهـوراً شرف السؤ دد في السّـرْو واللبـاب الصميم
واحـد سلّـم الجيمـع له الأمـ ـر، فكان الخصـوص وَفـقَ العموم
أيهـا ذا الـوزير ها أنـا أشكو والعصـا بدء قرعهـا للحليم
أفصبـرٌ مثين خمسـاً من الأيـ ـام، ناهيك من عذاب أليم
سقـمٌ لا أعـاد فيه وفـى العا ئد أنس يفـى ببـرء السقيم
بأبـى أنـت، إن تشـأ، تك برداً وسلامـاً كنـار إبراهيم

وتصل الرسالة والقصيدة إلى ابن جهور فلا تتركا فى نفسه من الأثر إلا ما يتركه دبيب النمال فى الجبال، أو مناجاة الشعر للأطلال فى الأطلال.

وبقى ابن زيدون كما هو فى أسره وذله حزين النفس، واجف القلب، بعد أن تقطّعت به الأسباب، وجفاه الصحاب. وكانت نائلة تزوره، وكانت ولادة لا تنقطع عنه، فبينما كانتا عنده فى أحد الأيام راعهما ما بدا عليه من شحوب وذبول وقنوط من الحياة، وحنين إلى الموت. وكان يقول ويكرر: أما لهذا الليل من آخر؟ أما آن للطائر السجين أن يرفّ بجناحيه فى الفضاء الطليق؟ ألم يأن للمقبور أن يبعث فيحاسب حساباً يسيراً أو عسيراً؟ فقالت ولادة:

- لا ينطلق الطائر إلا إذا حطم القفص. فنظرت إليها نائلة فى استنكار وقالت:

- ما هذا يا ولادة؟ إن مما يؤلم اليائس أن يُلوِّح له بأمل لا يتحقق

- لماذا لا يتحقق؟

- لأن هذا السجن ليس قفصاً يحطم، لأن حراس الطائر غلاظ شداد.

- إن من الحيلة ما يُعجز القوة. فعجِل ابن زيدون وقال:

- وأين الحيلة يا سيدتى؟

- هيِّنة يسيرة، وطالما فكرت فيها، وأقلقت وسادى فى تصويرها.

وما هى؟

ا نبعث إليك بالطعام فى كل يوم، وسيكون بين ألوانه فى الغد طبق من الفالوذج

خلط به عُقار مخدّر، فإذا حمله إليك السجان فأظهر الرضا عنه، وكافئه بطبق الفالوذج فيلتهمه، وعليك الباقي. فوثب ابن زيدون نحو ولادة يقبّلها من جبينها ويصيح:

ـ أنت ملك كريم يا سيدتي! عجباً كيف غاب عنا مثل هذه الحيلة! فالتفتت إليه نائلة وقالت:

ـ وإذا تم خروجك من السجن سالماً فاذهب إلى دار ابنة خالي، وهي مصاقبة[1] لدار ابن الحناط الكفيف، فاختف عندها حتى ندبر وسيلة للفرار من قرطبة، وسأخبرها الليلة حتى لا تدهش للقائك، ولا تخش عندها شيئاً، فهي تعيش مع خادم عجوز بلهاء، زادتها السن خرفاً وبلاهة. وبعد أن طال الحديث في الفرار وعواقبه، وفي تقصي كل ما يزيل عنه أسباب الخطر، ودعتاه وانصرفتا.

وجاء الغد، وجاء السجان بالعشاء، وكان خبيثاً لئيم الطبع، استعار قلبه صلابته من قضبان السجن وأغلاله، فلما رآه ابن زيدون بسط له وجهه وقال:

ـ ألا تزال كعهدي بك عابساً يا مخلف؟

ـ وما عليك من عبوسي إذا كنت منشرح الصدر مسروراً؟!

ـ لقد وطنّت نفسي على الآلام ورضيت السجن منزلاً، وأنزل الله عليّ سكينة غسلت همومي، وعادت بي إلى الإيمان الحق والخضوع لأحكام القدر.

ـ كلهم عندنا يعودون إلى ما عدت إليه، فهم أول الأمر ينوحون ويصخَبون ويسخطون على الأرض والسماء، حتى إذا عركهم السجن وأذل نفوسهم، عادوا إلى التسليم بأحكام القدر، ورأوا أن لا بد مما ليس منه بد.

ـ إن النقم يا مخلف لا تخلو في أطوائها من نعم. فليس في تصاريف الأيام شرّ محض ولا خير خالص. أليس من محاسن السجن أن نأمن الوشاية، وننام ملء العيون، لا نخاف حديث نمام ولا وقيعة كاشح[2]؟ أليس من محاسن السجن أن نبتعد عن الناس وما يرتكسون فيه من شرور وآثام؟ أليس من محاسن السجن أن ينصرف المرء إلى ربه كما ينقطع الزهاد لعبادته في قمم الجبال؟ أليس . . . فعجل مخلف وقال:

---

(١) قريبة.

(٢) عدو.

- كفى يا سيدى! فقد كدت تجعل من السجون جنات تجرى من تحتها الأنهار. فضحك ابن زيدون ومد يده إلى مائدة الطعام وهو يقول:

- أرنى ما أحضرت إلينا اليوم يا مخلف.

- إن به ألواناً يسيل لها اللعاب.

- هذا ديك مشوى، وهذا لحم متبَّل بالأفاويه، وهذا رقاق محشوّ بالجوز، وهذا تين ما لقىّ، وهذا فالوذج بالفستق. ما أحبه إلى نفسى! ثم ابتسم وقال: ولكننى أراك تكثر من النظر إليه يا مخلف، فخذه بارك الله لك فيه! فليس أشهى إلىّ من أن أشهد رجلاً يأكل ما اشتهى. خذه يا مخلف ومتعنى برؤيتك وأنت تأكله. التهمه يا مخلف فلم يوضع من قبله طعام فى بطن من هو أحقّ به منك.

وما كاد يلمح مخلف فى عين ابن زيدون أنه لا يمزح حتى وضع رأسه فى الطبق ولم يرفعه إلا والطبق أجدب من كف اللئيم. ولم تمض لحظات حتى أخذ يترنحّ ويغمغم بألفاظ لم تستقم حروفها، ثم سقط على الأرض لا يعى. فهب ابن زيدون مسرعاً، وجرّده من ثيابه فارتداها، وخرج من الحجرة فى زى مخلف وفى مثل سمته[1] وعبوسه وهيئة مشيته وحركاته، فما كان يشك شاك فى ظلام السجن وغبش[2] الليل أنه هو، واتجه نحو الباب، فصاح به حارس الباب:

- إلى أين يا مخلف؟ إن موعد خروجك لم يحن بعد. فنتر ابن زيدون ذراعه نحوه كالمغضب، فقهقه الحارس وقال:

- هكذا أنت دائماً ساخط على الدنيا.

وكان ابن زيدون قد جاوزه بعيداً فعاد الاطمئنان إلى نفسه، وسار فى سرعة يخترق دروب قرطبة وأزقتها، حتى بلغ دار حمدانة ابنة خال نائلة فطرق الباب فى وجل ورعب، ففتحت العجوز الباب وصاحت مذعورة:

اللص! اللص! فدفعها ابن يزدون بيده فى رفق، ودخل وأغلق الباب دونه، وقدمت حمدانة ضاحكة من بلاهة خادمتها، ولكنها حينما رأت زى ابن زيدون لعب برأسها

---

(١) هيئة.

(٢) ظلمة.

الشك، ولمح ابن زيدون ذلك فى وجهها، فهمس: أنا يا سيدتى ضيف نائلة، فشدت حمدانه على يده فى بشر وترحيب، ثم جذبته إلى حجرة من الدار منعزلة أعدّت له فيها طعاماً شهيّاً. ودار الحديث طويلاً حول قصة سجنه وما لاقى من عنت وآلام، ثم فى طريقة خلاصه وما فيها من مغامرة وإقدام. وقضى ابن زيدون ليلة قلقاً ينفس عن نفسه بالشعر ويقول:

شحَطنا وما بالدار نأىٌ ولا شحط ... وشط بمن نهوى المزارُ وما شطوا
أأحبابنا ألوتْ بحادث عهدنا ... حوادث لا عقدٌ عليها ولا شرط
لعمرُكم إن الزّمان الذى قضى ... بشت جميع الشمل منا لمشتطّ!
الا هل أتى الفتيان أن فتاهُم ... فريسة من يعدو ونُهزة من يسطو
وأن الجواد الفائت الشأو صافنٌ ... تخوّنه شكل أزرى به ربط
وأن الحسام العضب ثاو بجفنه ... وما ذم من غربيه قدٌّ ولا قطّ
هرمت وما للشيب وخطٌ بمفرقى ... ولكن للشيب الهم فى كبدى وخط
أتدنو قطوف الجنتين لمعشر ... وغايتى السدر القليل أو الخمط؟
بلغتُ المدّى إذ قصروا فقلوبهم ... مكامن أضغان أساودها رقط
يولوننى عرض الكراهة والقلى ... وما دأبهم إلا النفاسة والغمط
وقد وسمونى بالتى لست أهلها ... ولم يمنَ أمثالى بأمثالها قطّ
فررت، فإن قالوا: الفرار إرابةٌ ... فقد فرّ موسى حين هم به القِبْط
وإنى لراج أن تعود كبدئها ... لى الشيمة الزهراء والخلق البسط

وشاع فى الصباح خبر فرار ابن زيدون، وقام له ابن جهور وقعد، واجتمع الوزراء والقواد لهذا الحادث الجلل، وجمع كبير الشرطة أعوانه وأمرهم أن ينبثوا فى المدينة وأرباضها، وأن يطلقوا عيونهم فى كل مكان للوقوف على موضع اختفائه. ولم يكن للناس حديث فى مجالسهم وندواتهم إلا فى فرار ابن زيدون وما صحبه من إحكام الحيلة وإجادة التدبير، وقهقه العامة كعادتهم من غفلة المشرفين على المدينة مع ما يتبجحون به من صرامة وحزم وحذر. وانتقل الخبر من فم إلى فم، وذعر ابن عبدوس وجماعة الناقمين من ابن زيدون للحادث. ووصل النبأ إلى عائشة فتلقته فى حيرة ووجوم. أتحزن أم تسر؟ لا تدرى. تحزن، لأن عدوها الذى عملت على سجنه وتعذيبه أصبح حرّاً طليقاً، وتسر، لأن

املا خائفاً يخدعها بأن فراره قد يمهد لها السبيل إلى لقائه، وأن لقاءه قد يدفعه طوعاً أو كرهاً إلى الرجوع إليها وإضفاء محبته عليها. فقابلت راميرز وقالت له:

- إن ابن زيدون فرّ من سجنه. فأجابها مسرعاً:

- حسناً فعل. وهو سيكون شجاً في حلق ابن جهور، والعرب تقول: الكلاب على البقرا

- أيّ كلاب؟ وأيّ بقر يا راميرز؟

- ماذا تريدين؟

- اريد أن أعرف مكانه دون ان اقبض عليه.

- وهل تطلبين معونتي؟

- لا. ثم ابتسمت وقالت: لا أدري لم أحدثك في هذا؟ ولكنه ضعف النساء الذي ينتابني بين الحين والحين.

ومضت أشهر على اختفاء ابن زيدون كانت فيها عائشة تفكر في وسائل العثور على مخبئه، وما كاد يلتمع لها قبس من الرأى حتى قصدت في إحدى الليالي إلى دار خادمها بلال، فلما رآها ولم يكن متوقعاً أدركه البُهرْ واخذ لسانه يتلجلج بكلمات كان منها: سيدتي عائشة؟... ماذا أرى؟... نعم... أهلا بسيدتي.... كيف بلغت تلك الطريق إلى داري؟ ألا تخافين عيون ابن جهور؟... ما كان أسعد أيامي بك و بأمك يرحمها الله! إنها ماتت حزناً عليك يا سيدتي.

- علمت بموتها يا بلال منذ عدت إلى قرطبة. اسمع - ووضعت في يديه كيساً من الدنانير - أريد أن أعرف مكان اختفاء ابن زيدون.

- ابن زيدون؟ وأين نجده وقد عجز عن العثور به الشرط وجميع جواسيس الدولة؟

اسمع يا بلال، إنه في المدينة من غير شك، ولن يستطيع مغادرتها وإلا قبض عليه حراس التخوم.

- نعم في المدينة. نعم صحيح. ثم جرؤ على الابتسام وقال: ولكن المدينة يا سيّدتي ليست حجراً أو داراً أو زقاقاً أو محلة، وإنّما هي بحر زاخر بأمم من اقطار الشرق والغرب. إنّ

الذى يبحث عن مختف فى هذه المدينة كمن يبحث عن دينار سقط فى الوادى الكبير.

ـ ليس الأمر كما تظن يا بلال. وقد توفق إذا حصرنا البحث عنه فى دائرة أصدقائه.

ـ أصدقاؤه لا يشون بصاحبهم.

ـ يا بلال، تأن قليلاً، وألصق هؤلاء الأصدقاء بابن زيدون امرأتان: ولادة ونائلة الدمشقية.

ـ هذا صحيح يا سيدتى.

ـ ولا بد أن يتردد على داريهما كيفما بالغ فى الاختفاء، وأغلب الظن أن يكثر من زيارة ولادة. فهل تستطيع أن تتحسَّس منه في دارها؟ فصاح بلال قائلاً:

ـ أستطيع وأستطيع! إن جاريتها عتبة لى صديق، وهى تطمع فى أن أكون لها بعلاً.

ـ حسن جدّاً. كرِّر زيارتها وتلطف ولا تشعرنْ بك احداً، حتى تحصل منها على ما تريد دون أن تعرف من الأمر شيئاً، وسأزورك أو ستزورك دنانيرى مضاعفة بعد أيام، ثم مدت إليه يدها واندسَّت فى الظلام كأنها طيف خيال.

وسعى بلال جاهداً ليعرف مخبأ ابن زيدون، فتردد على عتبة وأكثر من التودد إليها، وبذل لها الوعود البراقة الخاتلة، حتى بلغ منها بعض ما يريد، ثم طفق ينتظر وعد عائشة بزيارته، حتى إذا كانت ليلة حالكة السواد، مريضة النجوم، سمع طرقاً على بابه فأسرع للقاء عائشة محتفلاً فرحاً بما سينال من أجر، ولكنه ما كاد يفتح الباب حتى بُهِت وذعر وكاد يسقط على الأرض مما أصابه من الهول، فإنه ما كان يظن أن يرى عبيد الله بن يزيد صاحب المدينة بين جنده وأعوانه، وهؤلاء لا يزورون رجلاً فى جنح الظلام للسؤال عن غالى صحته، أو للتمتع بحسن حديثه.

ووقف بلال مبهوراً، وصاح به صاحب المدينة:

ـ أين كنت بالأمس بعد العشاء الآخرة؟ فتلعثم بلال وأرتج عليه باب الكلام فوقف مشدوهاً.

ـ أين كنت بالأمس يا رجل؟ قل ولا تُخفِ عنى شيئاً، فإن جواسيسى يقرءون ما فى

الصدور ويعرفون ما تخفيه السرائر.

ـ كنت يا سيدى . . عند عتبة . . . عند عتبة .

ـ جارية ولادة بنت المستكفى؟ وماذا كنت تصنع فى دار ولادة؟

ـ أزور عتبة يا سيدى .

ـ تزورها فى كل ليلة؟!

ـ حقاً لقد أخطأت وجاوزت الحدّ. هل شكت سيدتى ولادة من زيارتى لدارها؟ إنى سأتزوج عتبة يا سيدى، وقد تواثقنا على الزواج، وإذا كان أحد لا يحب أن أزورها قبل الزواج فإنى أعاهدك ألا أطرق لها باباً.

ـ ليس هذا ما أقصد يا رجل. ألم تقابل ولادة فى إحدى زياراتك؟

ـ لا يا سيدى، وأنّى لمثلى أن يقابل مثلها؟

ـ ألم تحمل منها رسالة إلى صديق أو تحضر إليها رسالة من صديق؟

ـ أىُّ صديق يا سيدى؟

ـ لا شأن لك بهذا يا رجل، وإياك أن تتباله فإننا لسنا من الغفلة بحيث نصدق ما تقول؟

ـ أقسم بالله يا سيدى أنى لا صلة لى بسيدتى ولادة، وإنى لا أعرف من أمر الرسائل التى تذكرها شيئاً.

ـ أعلم يا رجل أنك إذا خطوت مرة أخرى نحو دار ولادة كان دمك مهدراً.

ـ عهد الله يا سيدى ألا يرانى أحد من رجالك ماراً بدارها!

فأطال إليه صاحب المدينة النظر فى شك وتردد، وبين تصديق وتكذيب، ثم انصرف، وبقى بلال خافق القلب مرتعد الأوصال، يلعن الشرطة ورجالها، واللحظة التى زارته فيها عائشة فنصبته هدفاً للشكوك، وجعلت داره مغدّى ومراحاً لأعوان السلطان كلما حلا لهم أن يخلعوا قلبه من مكانه.

لم تمس يده فى هذه الليلة طعاماً، وأخذ يبسط فراشه فى تكاسل ورعب، وهو على

يقين من أن النوم لن يطرق له جفناً. وبينما هو يتقلب على الفراش، والوهم يرسم له من التهاويل ما يزلزل فؤاد الشجاع، إذا طرق خفيف على الباب فأنصت مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم، ومن شرّ رجال الشرطة، وقام وهو يقول لنفسه: عادوا ثانية للقبض على وإلقائى فى غيابات السجون، لأنى رأيت فى عين كبيرهم كأنه فى شك من أمرى، ولن أملك إلا التسليم، فإن ظلم هؤلاء ليس له من مردّ.

وفتح الباب فإذا عائشة بوجهها المؤتلق، وثغرها الباسم، تحيِّيه، وتمدّ إليه يداً كانت فى يده الجافية السوداء كقطعة من الزبد فى جفْنة من القار. همس بلال قائلاً والرعب لم يفارقه:

- أهلاً بسيدتى عائشة! هل قابلت صاحب المدينة بالطريق؟

- من صاحب المدينة؟ أنت تحلُم يا بلال؟

- لا يا سيدتى. إنى يقظان، هذه يدى أهزّها، وهذا جسمى لا أزال أراه مرتعداً.

- ماذا بك يا بلال؟

- الذى بى يا سيدتى أن صاحب المدينة زارنى منذ ساعة.

- وهل هذا كل ما يهولك؟ إن صاحب المدينة لا يزور الناس دائماً ليقتلهم، وقد يكون من متممات بحثه أن يهتدى بسؤال هذا أو ذاك.

- إن نظراته مخيفة يا سيدتى، وإنى لا أحب مقابلة أحد من هؤلاء ولو سألنى عن الطريق.

- هون عليك يا بلال. عمّ سألك؟

- سألنى عن أسباب ترددى على دار سيدتى ولادة.

- آه فهمت. إنهم يرقبون دارها لعلهم يصلون إلى موطن اختفاء ابن زيدون؛ وهم يسلكون الطريق التى أسلكها، ولكنى سأبلغ الغاية قبلهم. ماذا وراءك من أخبار عتبة؟

ولمح بلال أنها تحمل فى يدها كيسين فأطال النظر إليهما وقال:

- من أخبار عتبة؟

ـ نعم يا بلال من أخبار عتبة . وألقت فى يده الكيسين فسمع لهما وسوسة ورنيناً طار لهما لبه فقال :

ـ علمت من عتبة أن الوزير أبا حفص بن برد يزور ولادة فى كل خميس بعد الهزيع الأول من الليل ومعه رجل ملثم ، وأنهم يختلون فى غرفة بعيدة عن الخدم، وأن الرجلين ينصرفان قبل انبثاق الفجر.

ـ حسن يا بلال، ثم أسرعت وقالت :

ـ وماذا فعلت بعد ذلك يا بلال؟

ـ كمنت وراء جدار، حتى إذا غادر الرجلان الدار تبعتهما من بعيد فى حيطة وحذر، فلما فصل ابن برد ليذهب إلى داره واصل الرجل الملثم السير حتى بلغ خطة جند الشام فدخل داراً تقرب من مسجد الشهداء .

ـ مرحى يا بلال! لقد عثرنا على الدينار الضائع فى الوادى الكبير. إن الرجل الملثم هو ابن زيدون من غير شك، وسينالك منى أضعاف ما نالك من مال عندما أقتنص هذا الطائر النفور. عم مساء يا بلال. ثم انفلتت نحو الباب مرحة جذلى، كأنها سيقت إليها الدنيا بحذافيرها .

وجاء الصباح، وانقضى النهار وأقبل الليل، ومرّت منه زُلف[1]، وكانت عائشة فى هذا الحين تسير وبلال خلفها نحو خطة الشام، بين خوف وتوجس ويأس وأمل، حتى بلغت دار حمدانة مالت نحوه وقالت :

ـ قف خلف هذا الجدار يا بلال، وسأدخل الدار فأمكث بها قليلاً أو كثيراً، فإذا سمعتنى أهتف باسمك فادع رجال الشرطة، وناد بأعلى صوتك بأن ابن زيدون مختف بهذه الدار .

ثم طرقت الباب ففتحت لها العجوز مرتاعة، ووثبت عائشة إلى فناء الدار وقالت :

ـ أريد لقاء السيد الذى يقيم عندكم .

وتنبهت حمدانة من نومها فذهبت لتستجلى الخبر، واستيقظ ابن زيدون على أصوات

---

(١) هى الساعات التى يلتقى بها النهار والليل.

مختلطة فيها غضب، وفيها استنكار وفيها سخرية، ففتح باب حجرته قليلاً، ولمحته عائشة فصاحت به.

ـ قضى الأمر يا أبا الوليد، وبلغ الكتاب أجله، وأخذت الطرق على الفريسة، ووقع البلبل الغرّيد في الفخ، وليس لك إلا أن تلقى السلاح عاجزاً مستنيباً. ثم وثبت نحو حجرته فدخلتها وأغلقت الباب، وقالت في هدوء كأن الموقف وما حوله من أحداث وخطوب لم يترك في أعصابها أثراً:

ـ أجلس يا أبا الوليد، فإننا قد نتحدث طويلاً، وقد تحتاج إلى كل ما منحك الله من عقل وحكمة وصدق أناة، لتخرج من هذا الأمر الجلل كريماً سليماً دون أن يصيبك من أوضاره رشاش، أو يمسك خطر. أنصت إليّ أبا الوليد، فقد كنت منذ أزمان تحن إلى حديثي، وترتاح إلى أنغام صوتي، كنت في ذلك الحين شاباً مكتمل الرجولة، وافر العقل، سديد الرأي، لم تلعب بفؤادك الحسان، ولم يخدعك الطلاء الكاذب، والجمال المصنوع، والكلام المتكسر الممضوغ، ولم تقتنصك الحبائل المدفونة في التراب، ولم تلعب بك الآمال المضللة التي أسخطتك على حياتك الهادئة الناعمة، لتدفعك إلى حياة موهومة فيها مناصب، وفيها جاه وصولة، وفيها عز وسلطان، والتي لم تفتأ أن أردتك في الهاوية، وأوردتك ظلمات السجون.

كنت تحبني يا أبا الوليد، وتريد أن تكون لي بعلاً، وكنت ولا أزال بك مفتونة، وبحبك ضنينة، وعليك غيوراً، وكنا نعيش في دوحة هذا الحب طائرين غردين، تنبسط أمامهما الحياة بحدائقها الغُلْب، ومروجها الخضر، وأزهارها الباسمات، وأنهارها الجاريات، لتصوِّر ما في نفسيهما من قناعة ورضا ولذة ونعيم، ولكن بومة شريرة تزيت بزي الطاووس، وتصنعت صوت العندليب، حامت حول عشنا يوماً، فأفسدت كل شيء، وجرّتك بخيط كاذب من الأمل، ولون خدّاع من الجمال إلى تدمير سعادتك وهلاك نفسك.

أنصت إليّ يا أبا الوليد، إني لن أسلوك إذا سلوتني، ولن أهجرك إذا هجرتني، وسأعمل وأعمل حتى نصبح زوجين سعيدين، فلا تظن أنك تستطيع الخلاص من يدي. إنك لي، وإنني لك وليس في الأرض من قوة تحول بيني وبينك. وإذا حاول الموت أن يفرِّقنا فسأموت معك، وسأرى في الموت هناء وراحة.

أنصت إليّ يا أبا الوليد وكن عاقلاً ، لقد جرّبت الناس والأيام ، فهل رأيت أوفى منى عهداً ، أو أصدق حبّاً؟ نعم إنى كدت لك عند ابن جهور ، وطوّحت بك فى غيابه السجن ، ولكنى أقسم إنى فعلت ما فعلت وأنت أعز الناس علىّ ، وأحبهم إلى نفسى . إن الحب مجنون يا أبا الوليد ، وإذا اشتد لم يعرف ماذا يأتى وماذا يدع ، والغيرة نار مشتعلة الأوار تلتهم كل شىء ألم تسمع بذلك الشاعر المشرقىّ الذى قتل حبيبته لولهه بها وشدة غيرته عليها من أن تنالها عين ناظر ، أو يصل إلى أذنها حديث عاشق .

كنت أحبك يا أبا الوليد حبّاً عاصفاً ، وكنت أغار عليك فى الصباح من الضياء ، وفى المساء من الظلام ، فاعذرنى يا أبا الوليد واغفر لى .

كان الغيظ يحتدم فى صدر ابن زيدون ، والخوف من العودة إلى السجن يزيده ارتباكاً ، وكانت لتلك المفاجأة صرعة بددت نفسه وأطارت صوابه فقال فى صوت أجش حزين :

- أما الغفران فقد غفرت لك ، ولن أحمل لك فى نفسى ضغناً أو حفيظة ، وإذا كان لنا صلة وداد فى الماضى فإنى سأحرص على ذكراها ، ولكن الأحوال تتبدل والقلب يتقلب .

لا يلبث القرناء أن يتفرقوا   ليلٌ يكرُّ عليهمُ ونهار

وخير لنا يا سيدتى وقد طار من بيننا الحب ، أن نضع مكانه صداقة نقية كريمة ، هى بنا أليق ، وبذكرياتنا القديمة أجدر .

- إن حبنا لم يطر يا أحمد .

- قولى ما شئت يا سيدتى .

- لا تقل «يا سيدتى» قل «يا عائشة» .

- قولى ما شئت يا عائشة ، فإن قلبى إذا انصرف عن شىء عجز أهل الأرض عن إكراهه عليه .

- دعه لى يا أحمد وأنا أعرف كيف أروضه ، وكيف أعيده إلى سالف عهده ، دعه لى يا أحمد ، وهلمّ بنا نفرّ من هذا البلد المشئوم لنعيش فى أى بلد آخر زوجين سعيدين .

ـ إن قلبي ليس بين جنبيّ.

ـ آه إنه عند ولادة أيها الأحمق! لقد كنت أريد لك الخير كله، كنت أريد أن أنقذك من ابن جهور، وكنت أريد أن أنقذك من ولادة، ولكنك كالفراشة الخرقاء تسقط على النار فلا تفارقها حتى تحترق. إن صيحة مني الآن تجمع عليك العسس ورجال الشرطة، وتزجّ بك في ظلمات السجون. فقلها كلمة واحدة أتريد أن تكون لي زوجاً؟

ـ لا.

ـ فصاحت عائشة: يا بلال! وما كاد بلال يسمع نداءها حتى صرخ بأعلى صوته: اقبضوا على ابن زيدون! اقبضوا على ابن زيدون! وسمع أعوان الوالي صوته فاندفعوا نحو الدار في لغط وصياح، وأقبلوا ليقفوا على جليّة الأمر، وقال أحد الجنود: أين ابن زيدون؟ فأشار بلال إلى دار حمدانة، وتكاثر الجند على الباب فخلعوه، واندفعوا في فناء الدار كأنهم الأتيّ[1] الجارف، وتسللت عائشة من الباب، واندست بين الجمع المحتشد تبحث عن بلال لتبادر معه الفرار. وما كاد الجند يقبضون على ابن زيدون حتى سمعوا نداء من مئذنة مسجد الشهداء، فتسمّعوا فإذا المؤذن يقول:

سلام على الإسلام بعد ابن جهور! سلام على الحق والعدل بعد ابن جهور! سلام على الجهاد في سبيل الله بعد ابن جهور! أيها المسلمون مات ابن جهور وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها الساعة راضية مرضية. أيها القرطبيون! مات خادم الدين، وحامي المسلمين، فترحموا على تلك النفس الزكية، واضرعوا إلى الله أن يُنزلها عنده في جنات النعيم. أيها القرطبيون! مات ابن جهور وخلفه ابنه أبو الوليد محمد، وهو من تعرفون حزمه وعزمه ودينه وغيرته على الإسلام، فادعوا له بالعز والتوفيق.

وما كاد ابن زيدون يسمع الدعاء حتى صاح بالجند: أدركوا المرأة الأسبانية، أدركوا جاسوسة الإفرنجة. ثم جذب رئيسهم من ذراعه، وأشار بيده إلى المرأة وكانت قد ابتعدت عن الدار، فكرّ نحوها الجنود، وقبضوا عليها، ثم اتجه ابن زيدون إلى رئيس الجند وقال:

ـ والآن تستطيع أن تشد وثاقي إذا أردت.

---

(١) السيل يأتي من حيث لا يدرك.

فقال الجندى متهكماً :

ـ وإذا لم أرد؟

ـ كان ذلك خيراً لك وأدعى إلى مكافأتك .

ـ كيف؟

ـ لأنى كنت طريد ابن جهور، وهو قد لاقى ربه كما سمعت من نداء المؤذن . أما خليفته أبو الوليد فأحبُّ الناس لى ، وأعطفهم علىّ ، وقد بذل جهد طاقته لتخليصى من السجن أيام أبيه فلم يستطع .

ـ عذراً يا سيدى فإنى لا أعرف ذلك ، ولكنى أمام شخص يقال إنه فرّ من سجنه ، ولا أملك إلا أن أذهب به إلى صاحب المدينة ليرى فيه رأيه .

ـ افعل ما شئت أيها الجندى الشجاع ، ولكن حذار من أن تُفلت من يدك هذه المرأة ، فإنها أضرّ على الدولة من جميع الأسبان فى الشمال . ثم انطلقوا جميعاً إلى دار عميد الجماعة الجديد .

وكان ابن زيدون وهو فى الطريق يغمغم بأبيات من الشعر ازدحمت بصدره تطلب متنفساً ، فلما مثل أمام أبى الوليد ابن جهور ، قام له وأخذ يعانقه مداولاً بين الترحيب والاعتذار له عما ناله من ضر أيام أبيه ، ثم شدّ على يديه وهو يقول : لقد عفا عنك أبى قبل موته ، دخلت عليه فى مرضه فأحسنت فيك القول ، وذكرت ما أصابك من ضعف النفس والجسد ، وألححت عليه فى ألا يجعل إهدار حياتك آخر ما يتقدم به إلى ربه . فقال فى صوت خافت : إن ابن زيدون كوكب الأندلس ، والكواكب لا تطفأ بالأفواه ، وقد تمر السحب فتحجب من ضيائها ، ثم تنقشع . فأسرعت أقول : أعفوت عنه يا أبى؟ فهز رأسه فيما يشبه الرضا وقال : ومن أنا يا ولدى حتى أعفو عنه؟ الله يعفو عنه ويعفو عنا جميعاً . ولم أرد أن أثقل عليه بعد أن عرفت حسن رأيه فيك . ورجوت أن يُبلّ من مرضه بعد أيام ، وأن يطلق سراحك بنفسه ، ولكن المنية فاجأتنا فيه يا أبا الوليد .

فاتجه ابن زيدون إلى السماء يستمطر الرحمات على الكريم الراحل ، ويعتذر عنه بأنه لم يعمل إلا ما كان يراه حقّاً وصواباً ، وبأنه أنصت إلى الوشاة فزينوا له الباطل ، وأدخلوا عليه من زخارف القول ما لم يستطع له تكذيباً . ثم هنّأ الحاكم الجديد ودعا له

بالتوفيق والسداد، ومدّ يده فأخرج من كمه رقعة ثم أنشد:

ألم تر أن الشمس قد ضمَّها القبر ... وأن قد كفانا فقدَنا القمر البدرُ
إن الحيا إن كان أقلع صوْبَه ... فقد فاض للآمال فى إثره البحر
إساءة دهرٍ أحسن الفعل بعدها ... وذنب زمان جاء يتبعه العذر
فلا يتهن الكاشحون فما دجّى ... لنا الليل إلا ريثما طلع الفجر
وإن يك ولّى جهور فمحمدٌ ... خليفتُه العدل الرضا وابنُه البر
عزاء فدتك النفس عنه فإن ثوى ... فإنك لا الوانى ولا الضَّرع الغُمرْ
لك الخيرُ إنى واثق بك شاكر ... لمثنَى أياديك التى كفرُها الكفر
فصدق ظنوناً لى وفىّ فإننى ... لأهلُ اليد البيضاء منك ولا فخر
ومن يك للدنيا وللوفر سعيُه ... فتقريبك الدنيا وإقبالك الوفر

فطرب أبو الوليد للمديح، وقام فأجلس الشاعر إلى جانبه، وبذل له من صنوف التكريم ما ملأ نفسه ثقة وسروراً.

وهنا اتجه ابن زيدون نحو عائشة وقال:

ـ هذه ـ يا مولاى ـ عائشة بنت غالب جاسوسة ملك الأسبان التى وصمها أبوك بالنار ونفاها إلى الشمال، وعادت اليوم إلى قرطبة لتتجسس للأسبان، ولتبث الفتنة فى صفوف المسلمين.

فاتجه أبو الوليد إليها وقال غاضباً:

ـ متى وصلت إلى قرطبة أيتها المرأة؟

ـ منذ شهور.

ـ ولم جئت؟

ـ لا أدرى

ـ ومن الذى ينفق عليك؟

ـ أهل الخير والإحسان.

فغضب أبو الوليد ودعا عبيدالله بن يزيد صاحب المدينة وقال:

- اسجن هذه المرأة فى المكان الذى كان يسجن فيه أبو الوليد بن زيدون جزاء وفاقاً لكل ما اقترفت من إثم وخيانة .

وابتسم ابن زيدون لصاحب المدينة وهمس فى أذنه :

- قل لمخلف السجان أن يحذر هذه المرأة فإنها عظيمة الدهاء، لها فى الختل أفانين لم يهتد لمثلها إبليس اللعين، وقل له إن ابن زيدون يقرئك السلام ويوصيك أن تبتعد عن أكل الفالوذج ولو خلط بفستق من الجنة !

١٣

كان لقاء ابن زيدون لولادة فى فضاء الحرية وبعد انقشاع الهموم لقاء الطائر يعود إلى إلفه بعد أن ظلّ طويلاً يتخبّطه الفخ، ويعضّ حديده جناحه. أو لقاء الصبح الباسم بالأمل، لدنفٍ[1] طال به ليل الشكوك، وأقضّت فراشه الآلام. كان لقاء اضطربت فيه العواطف، واختلطت طرائق التعبير، ففيه ضحك، وفيه بكاء، وفيه لذة، وفيه ألم، وفيه رضا، وفيه سخط. والعاطفة إذا قويت جاوزت حدّها، فانقلبت إلى ضدها. وللنفوس لغة مألوفة فى إظهار ما يجيش بها، ولكنها إذا تملكتها عاطفة شديدة عاتية نبذت لغتها زاعمة أنها لا تفى ببثّ ما فيها، ولجأت إلى النقيض، فبكت للسرور، وضحكت عند ازدحام المصائب. وربما كان من أسباب اختلاج العواطف أن النفس تذكر عند السرور ما مرّ بها من أحزان، وعند اللذة ما عانته من ألم، فتهم أن تعبِّر عن العاطفتين فى آن، فتتغلَّب أقواهما أثراً، وأكثرهما عن النفس تفريجاً.

كان لقاء عجيباً لو حاول القلم وصفه لعجز القلم. نعم إنهما كانا يلتقيان، ولم يغلق باب السجن يوماً فى وجه ولادة، ولكن لقاء السجن خير من الافتراق. لقاء أوله أسف، وآخره ألم. لقاء تحيط به القضبان، وتطل عليه أعين الجواسيس. إنه فى الحق لم يكن لقاء ولكنه كان إثارة للأشجان، وتنبيهاً لراقد الهموم.

تكلم الشوق فى هذا اللقاء صامتاً فأطال وأسهب، وطافت الذكريات عزيزة محبوبة رائعة الألوان ذهبية الحواشى، ولمعت الأمال برّاقة فتفتحت لها النفوس، وانبسطت

(١) المريض ثقل مرضه ودنا من الموت.

الوجوه، ثم أخذ ابن زيدون يصف حفاوة أبي الوليد بن جهور به، واحتفاظه بمودته، وإلحاحه عليه فى أن يبقى فى خدمته عزيز الجانب ملحوظ المكانة. فأطرقت ولادة كالمفكرة، وقالت:

كل هذا حسن يا أحمد. ولكن احذره فإن الولد صورة من الوالد. وأبو الوليد ورث أباه فى كل شيء. وزاده عنفوان الشباب غروراً لم يكن بين صفات أبيه. إن أعداءك لم يناموا عنك طرفة عين يا أبا الوليد، وكأنى بابن عبدوس وابن المكرى يجمعان اليوم رأسيهما فى دسيسة تعود بك إلى السجن. أو تلقى بك فى مهاوى الحتوف، فليس من الهين عليهما أن تبعث من القبر المظلم الذى قذفاك فيه سليماً ناشطاً، تنفض عن أثوابك التراب فى مرح وغبطة. وليس من الهين عليهما أن يرياك وقد عدت إلى مكانتك عند الأمير تأمر وتنهى، وتقاد إليك النجائب، وتسير بك المواكب. وليس من الهين عليهما أن تتألق عبقريتك بدار الحكم فيفضح ضوؤها تلك القناديل المريضة، والسرج الخافتة. ثم ابتسمت فى استحياء وقالت: ثم إنه ليس من الهين عليهما أن ينتصر الحبّ على الدسائس، وأن يجمع الله شتيتين لم يكن لهما فى الحياة من مأرب إلا أن يفرّقاهما. لقد انتهينا من عائشة بنت غالب، وطواها السجن كما يطوى الخضم أشلاء الغريق، وكانت خصماً لدوداً، وعدوّاً مثابراً، وكان لها من الدهاء ما لا تنفع معه الرقى، ولا يفيد الحذر، ولكن لا يزال لك بين جنبات قرطبة أعداء وحساد لا يقلون عن عائشة مكراً ومحالاً. ولقد كنت فيما مضى يا أبا الوليد جريئاً غير هيّاب، سريعاً إلى الثقة بمن حولك، قليل الاعتداد بما يكون وراء الكلام من عواقب، فكبا بك الجواد دون الشوط، ووقفت بك العجلة إلى المجد دون الغاية، وهوت بك التمائم إلى هاوية بعيدة القرار، وأريدك اليوم أن تكون أشدّ حذراً، وأكثر صمتاً، وأبعد عن قُرناء السوء، وأقوى على الأيام تجربة ومراساً.

إن الفتن فى قرطبة فى تأجج واضطرام، فدعنا نكن حولها من المشاهدين دون أن نكون لها حطباً، وإذا كان لك رأى فيما يجب أن يكون عليه الحكم فبالله عليك دعه الآن، وهلمّ بنا إلى حياة هادئة حلوة المجتنى، يرفّ فوقها جناحان من أمن وسكينة. فنظر إليها ابن زيدون نظرة ساهمة حزينة وقال:

- ومن الذى يراك يا سيدتى ولا يختطفك ليفرّ بك إلى قمة جبل بعيد عن دسائس البشر ونمائمهم؟ إنّ للعيش فى ظلالك معنى ليس فى جنّات النعيم، ولكن ماذا أفعل يا سيّدتى

فى نفس جموح طموح لا يلين لها زمام، ولا تذلّ لقائد؟ لقد خلقت للمجد ولعظائم الأمور، فإذا ثارت نفسى إلى مطلب ركبت إليه أسنّة الرماح، ولم أبال بما يملأ طريقى من أشراك وحبائل، وسخرت من الكاشحين، وغرّت فى وجوه الحاسدين، وإنّ شيئاً واحداً هو الذى يغضّ من جماحى، ويخفّف من غُلوّائى، أتعرفين ما هو؟ فابتسمت ولادة وقالت:

ـ أعرف. وإنى أستحلفك بحق هذا الحب أن تطامن من نفسك قليلاً، وأن تتركنا نعيش فى سلامة وهدوء بال زوجين سعيدين. اهجر هذه المطامح البعيدة أبا الوليد التى ستوردنا موارد التلف.

ـ إلاّ مطمحى الأسمى، فإنى ساعمل له أو أموت دونه، ولن أستحق أن أكون بعلاً لأكرم نساء قرطبة ألا إذا ظفِرت به يدى.

ـ أى مطمح؟

ـ أن أعيد الدولة العربية بالأندلس إلى سالف مجدها أيام عبد الرحمن الداخل والناصر والمنصور بن أبى عامر. يجب أن يتحد العرب، ويجب أن تجمعهم عروة لا تنفصم، ويجب أن تتجمع دويلات الأندلس فى دولة عربية موحدة يخفق فوقها علم واحد يصور وحدة الكلمة، ووحدة القوة، ووحدة الغاية. فلقد قالوا قديماً، وكان قولهم حقّاً: إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية. أتعرفين يا سيدتى أننا لم ينفعنا إلا تفرّق كلمة ملوك الإفرنجة، وهم ولله الحمد على نعمائه دائماً فى شجار وشقاق وتنافس، ولولا ذلك ما كنت بجانبك اليوم فى مدينة قرطبة، وربما كنا نكون تائهين فى صحراء مراكش، نحسد رعاة الإبل على ما منحهم الله من دار ووطن. ولكن عراك الإفرنجة لن يطول، وسوف يدفعهم حب الغلب، ويحفزهم طلبُ الثأر إلى توحيد الكلمة ونسيان الأحقاد والوثوب على العرب من كل مكان، فإذا لم نأخذ الأهبة للهجمة الكبرى، ونعد العدة للداهية العظمى، ذهب كل شىء من أيدينا. فتنهدت ولادة وقالت: لن تجد اليوم من أبناء الخلائف من أمية من يعيد لك أيام الناصر، ولن تجد بين الأمراء من يعيد لك أيام الناصر، وهذا الأمر لا يصلح إلاّ بما صلح به أوّله، ذلك بأن ينبعَ من أرض الأندلس رجل له عزيمة عبد الرحمن الداخل وصرامته وعبقريته، فيجمع الأواصر، ويوحد الكلمة، ويستميل القلوب، ويردّ الدعاة المتهافتين على الحكم إلى أجحارهم. ولكن أين هذا الرجل الآن يا أبا الوليد بعد أن أقفرت الأندلس من الرجال؟ فأطرق ابن زيدون ثم رفع رأسه وقال:

ـ بعد أن مات ابن المرتضى فليس لى أمل إلا فى رجل واحد، ولكنه أمل ضعيف خائر.

ـ من هو؟

ـ إنى أنظر إلى اشبيلية.

ـ إلى بنى عباد؟

ـ ربما.

ـ إنهم طبل أجوف.

ـ ولكنهم خير الشر.

ـ أفى الشر خيار؟

ـ نعم إذا أجدب الزمان، وقلت الأعوان. وبينما هما فى الحديث إذ دخلت نائلة فقبلت ابن زيدون فى جبينه فعل الأم الرؤوم، وانطلقت على طريقتها فى سيل من الحديث لم يترك كلمة لقائل. ثم صاحت:

ـ أسمعتما بالنبأ العجيب؟ فقالت ولادة:

ـ هاتى يا جهينة الأخبار هاتى.

ـ لقد ولى أبو الوليد بن جهور صفيه وخليله ابن السقاء الإشراف على شئون الدولة، وجمع فى يديه كل أزمّة المملكة، يصرفها كيف شاء.

فصاح ابن زيدون:

ـ هذا أول البلاء ونذير الزوال، إن ابن السقاء رجل واسع مدى العقل، كبير الآمال، ولكن كبار العقول بعيدى الآمال كثيراً ما يكونون خطراً على الدولة. إنه رجل متسلق هجّام بعيد الحيلة، لا يتعفف عن جريمة إذا كان يصل بها إلى غايته. إنه يقطع اليد التى امتدت لمعونته بعد أن ينال منها مأربه. فقالت نائلة:

ـ لا تبالغ يا أبا الوليد.

ـ ستعلمين نبأه بعد حين.

- إنه أرسله اليوم للسفارة بينه وبين ابن عباد.

- ثعلب يلتقى بذئب!

- ومن الفريسة؟

- قرطبة المسكينة.

- لا تكن متطيِّراً، فالدنيا لا تزال بخير. ثم هرولت إلى الباب وهى تتجه نحو ولادة وتقول: الدنيا بخير ما دام فيها حبٌ وأمل.

وعاش ابن زيدون فى كنف أبى الوليد بن جهور أول الأمر هانئاً سعيداً، وعاد إليه ما كان من نفوذ وعلو مكانة، وكان يجمعهما المساء فى ندوة ولادة بين أخدان من الشعراء والأدباء، فيطوون الليل بين سمر وطرب وفكاهة.

وترامت الأيام، وكرّت الليالى، وأخذ شغف ابن جهور بابن زيدون يهدأ قليلاً ويعدو عليه السأم ويصيبه الملال. واستمر أعداء ابن زيدون يرسلون الأخلوقة إثر الأخلوقة، والنمَّة وراء النمَّة، وكانوا من اللباقة فى الكذب والبراعة فى الدّس بحيث ينقلون الخطا فيما هموا به من الفساد وئيدة وئيدة، حتى لا يشعر من يسعون عنده بأنهم يتغفلونه أو يستغلون ثقته.

بعث ابن جهور ابن زيدون للسفارة بينه وبين إدريس الحسنى بمالقة، فأحتفى به الحسنى مقدراً عظيم منزلته ورفيع أدبه، وأنزله خير منزل، وأجزل له الصلات، وأجرى عليه من الخدمة ما لم يجره قبله على عظيم. ثم أنس بمجلسه، وشغف بالاستماع إلى أدبه، وفتن بروائع أخباره وبدائع نوادره، وألحّ فى أن يطيل ثواءه عنده، وتمنى لو جعل مالقة دار إقامته، واختار من مناصبها أعلاها قدراً وأبعدها نفوذاً، فمالت نفس ابن زيدون إليه، وهفت إلى كريم وعوده، وذكر أعداءه بقرطبة، وذكر دالة ابن جهور عليه، وذكر أنه يعيش فى كنفه كما يعيش راكب البحر، لا يفتأ فى خوف وحذر وإن سكنت الريح وصحَت السماء. ولكنه ذكر أيضاً ولادة، وذكر أن العيش بدونها لا يطيب، فنفض عنه الرغبة فى البقاء، ورأى أن قرطبة جنة نعيمة وإن حُفَّت بالنار من كل جانب.

ولما طالت إقامته بمالقة دخل ابن عبدوس وابن المكرى على ابن جهور ذات

صباح، فقال ابن عبدوس:

ـ هل وصل إلى سمع مولاى أنّ ابن زيدون عزم آخر الأمر على الإقامة بمالقة؟

ـ لا. وكيف يتاح لوزير فى دولة أن يكون فى خدمة دولة أخرى تنافسها وتضمر لها العداء؟ فقال ابن المكرى:

ـ إنّه يا مولاى قد يسدى إلى قرطبة من الخدم وهو بمالقة ما لا يستطيعه هنا.

ـ إن القائد الحذِر لا يبتعد عن ميدانه. ولقد سقطت علينا أخبار من مالقة تدل على أن الرجل ألقى زمامه للحسنى يصرفه كيف يشاء. فقال ابن عبدوس:

ـ علمت أنه يعمل معه على إعادة قرطبة لبنى الحسن بن على.

فظهر الغضب على وجه ابن جهور وقال:

ـ لا يا أبا عامر إنّه لن يتدلّى إلى هذا الدرك، ولن يستطيع أعدى أعدائه أن يقول إنّه يفرّط مثقال خردلة فى وطنه الذى يفديه بروحه. إنّ ابن زيدون إذا جُرّد من كلّ صفة من صفات الرجولة والكرامة، فلن يستطيع أحد أن يرميه بخيانة وطنه. ثم إنه لا يجهل ما أصاب قرطبة على أيدى الحسنيين من كوارث وفتن حاطمة، ولن ينسى أهل قرطبة تلك السنين السبع الشداد التى دمر فيها الحسنيون قصور الزهراء، وفتكوا بالناس، ونهبوا كل شىء، وسلطوا البربر فانبسطوا فى قرطبة يقتلون ويأسرون، إلى أن أنقذ أبى البلاد من شرهم، ورد الأمر إلى بنى أمية. لا يا ابن عبدوس، إن أبا الوليد لا يبيع بلاده لأحد، فكيف يبيعها لهؤلاء المردة الطغاة؟

فقال ابن المكرى:

ـ كنت أعتقد كل هذا يا سيدى، ولكن الأخبار التى تحملها إلينا ريح مالقة زلزلت يقينى، ووضعت مكانه حيرة وشكوكاً. وإنى أرى أن يتحصن مولاى بسوء الظن، فإنه أسلم عاقبة وأدنى إلى الحيطة والحذر.

ـ أىُّ حيطة وأىُّ حذر؟ إن الرجل من هذه الناحية فوق مطار الظنون. فأسرع ابن عبدوس وقال مبتسما:

ـ إن القلوب تتقلب يا سيدي، والطموح والآمال الكاذبة قد تعصف بالمرء فتخدعه عن نفسه، وتزعم له أن الخير لا ينال إلا بالشر، وأن الحق لا يمشي إلا على قدمين من الباطل، وإلا فلماذا كلما قابلت ابن ذكوان أو ثابتاً الغافقي أو عماراً الباجي، وهؤلاء حملة رسالته وموطن أسراره، تسللوا لِواذاً[1]، وصرفوا وجوههم عني في خوف الجبان وحذر اللئيم. لماذا كلّما سألت أحدهم عن ابن زيدون وعن طول غيبته بمالقة تردَّد وتلعثم واصفر وجهه وبلع ريقه وأدركه البُهر[2]؟ لا يا مولاي، إن ترك النار تَدِبّ في الهشيم تهاون واستهداف للخطر، وإن السكوت على الجريمة جريمة. وأسرع ابن المكري فقال:

ـ لقد علمت أنه بعث برسالة إلى خادمه عليّ أمره فيها أن يلحق به بمالقة مع عبيده وأهل بيته، ولكني غير واثق بهذا الخبر.

فتحرك ابن جهور في مجلسه، وقد بدا على وجهه القلق، وطلب من رئيس كتّابه أن يبعث رسالة إلى ابن زيدون يستعجل قفوله، ويصرفه عن السفارة.

وقفل ابن زيدون إلى قرطبة حزيناً كاسف البال، لأنه علم أن الحيَّات بقرطبة عادت تهزّ رؤوسها، وأن عناصر الشر التي خمدت حيناً أخذت تتجمّع من جديد لتفعل أفاعيلها، وأنه أصبح بقرطبة بين فكّي أسد لا يبعد أن يحلو له يوماً أن يحرّك ماضغيه.

عاد ابن زيدون إلى قرطبة، وقابل ابن جهور فعتب عليه عتباً خفيف المس خفي الإشارة، تتخلّله الأفاكيه، وتخفف من وقعه البسمات، فخرج من لدنه وهو يعلم أن ابتساماته أشبه بالبروق التي تسبق الصواعق، وأن وراء هذا اللطف أحابيل تنصب، وقضاء يدبر. وقابل ولادة ونائلة ونفض إليهما جلية أمره، وما يجيش بصدره من مخاوف، ثم أخرج من جيبه رسالة بعث بها إليه المعتضد بن عبّاد يدعوه فيها إلى حضرته بإشبيلية، ويعده بأرفع المناصب وأسمى المراتب. فقالت نائلة:

ـ إن ابن عباد داهية ماكر، وأخشى أن يتخذ منك أحبولة لمآربه. فقالت ولادة:

ـ وما مآربه يا ترى؟

ـ أن ينال قرطبة. إنه مجنون بشيء يسمّى قرطبة. أتعلمين أنه قتل بيديه ابنه

---

(١) مراوغة.

(٢) انقطاع النفس من الإعياء.

إسماعيل، لأنه دعاه إلى غزو قرطبة فتردّد واعتذر لقلة الرجال والعتاد؟

ـ إنه قتله حينما قبض عليه وهو يتآمر مع طائفة من الجند على قتله.

ـ ولم تآمر على قتله يا فتاة؟ تآمر على قتله لأنه عرف أنه بعد أن أبى أن يغزو له قرطبة مقتول لا محالة. وقال ابن زيدون:

ـ وما عيب الرجل إذا أراد امتلاك قرطبة؟ إنه أقوى أمراء الأندلس وهو قمين بأن يملك جميع ولاياتها ويجعل منها دولة تهابها الإفرنجة ويخشى بأسها شذّاذ العرب والبربر. إن هذا الرجل لا يبرح من بالى كلما خطرت به فكرة جمع كلمة العرب. فجعلت نائلة تقول:

ـ لا تبثّ هذا السر لأحد، وإلا عدنا إلى مصائب الأغلال والسجون. ثم ضحكت وقالت: ولسنا نستطيع أن نغرى مخلفاً يأكل الفالوذج فى كل مرة!

وانفض المجلس، وأقام ابن زيدون شهراً يهيىء فيه لفراره، وعزمت ولادة ونائلة أن تلحقا به بأشبيلية.

وفى إحدى الليالى انطلق ابن زيدون نحو إشبيلية بجواده فى خوف وتوجس كما ينطلق السهم، ولفه الليل كأنه طيف نائم، أو خيال شاعر.

وأصبحت المدينة ولا حديث لها إلا فرار ابن زيدون، والتقى ابن عبدوس بابن المكرى آسفين فرحين، لأنهما كانا يريدان القضاء عليه والتنكيل به، ولكنهما رضيا آخر الأمر بأن انفسح أمامهما الطريق وخلا لهما الميدان. وأرسل ابن جهور جنوده حول قرطبة للبحث عنه والقبض عليه ولو غاص فى الماء، أو طار فى الهواء، ولكنهم لم يجدوا له أثراً بعد أن سلكوا كل مسلك، وقلبوا للبحث عنه كل حجر.

ومضت أشهر أوشك فيها الناس أن ينسوا فرار ابن زيدون، فأزمعت ولادة ونائلة الرحيل إلى إشبيلية، ولكن جواسيس ابن عبدوس أوصلوا إليه الخبر فنقله إلى ابن جهور وأغراه بمنعهما من السفر، فأرسل إليهما صاحب المدينة ينذرهما بسوء العاقبة إذا غادرتا قرطبة، ووضع حول داريهما الأرصاد والعيون.

١٤

بلغ ابن زيدون إشبيلية بعد أيام، وكانت فى ذلك العهد من أعظم مدن الدنيا بهجة ورُواء وطيب أرض واعتدال جوّ واتساع رُقعة، وهى على الضفة اليسرى من الوادى الكبير الذى يصعد المدّ فيه كل يوم نحو اثنين وسبعين ميلاً، فيسقى الرياض والحدائق، ثم ينحسر[1] عنها كما ينحسر السحاب في الليلة المزهرة عن صفحة السماء. وبها جبل الشرف، وهو أحمر التربة، يمتد من الشمال إلى الجنوب نحو أربعين ميلاً، لا تكاد تسقط أشعة الشمس على بقعة من أرضه، لالتفاف أشجار الزيتون والتين به.

وبإشبيلية أسواق قائمة، وتجارات رابحة، وقصور سامقة، وبساتين ناضرة وبأهلها يضرب المثل فى الخلاعة والترف والمجون حتى قيل: إنه كلما مات عالم بإشبيلية حملت كتبه لتباع بقرطبة، وكلما مات مطرب بقرطبة حملت آلاته لتباع بإشبيلية.

ما بلغ ابن زيدون المدينة حتى قصد لتوّه قصر المعتضد، وهو قصر فخم يطل على النهر، فسيح الأرجاء سامق البناء، كأن لقبابه حديثاً لا ينقطع مع السماء. وخير لنا ألا يجرؤ قلمنا على وصفه، فإنه يكفى أن نقول: إنه قصر بنى عباد، وبنو عباد هؤلاء خُلقوا وفى دمهم الانفراد بالعظمة، والغيرة من أن يسبقهم فى فخامة الملك وجلالة السلطان سابق، ثم إن من طبائعهم السرف والافتنان فى النعيم والتمتع بلذائذ الحياة.

استأذن ابن زيدون على المعتصد، وكان يجلس فى قاعته الكبرى التي يستقبل فيها

---

(١) ينكشف.

الوزراء والسفراء وكبار رجال الدولة، فلم يصل إلى حضرته إلا بعد جهد ولأى، فقد أخذ يتلقفه عبد أسود، ليسلمه إلى خادم صقلبى ليسير به إلى بعض كبار القصر، ثم إلى ذى الوزارتين أبى على بن جبلة، كأنه كرة يقذف بها لاعب للاعب. وحينما رآه ابن جبلة رحب به وعانقه وأظهر له من الود والحفاوة ما يرتاح لها قلب الكريم. ثم دخل به إلى المعتضد وكان جالساً على كرسى عال تحيط به الوسائد، ويقوم إلى جانبيه عن يمين وشمال عبدان لا يكاد الناظر يرى منهما إلا لهيب عينيهما لكثرة ما تدججّا به من سلاح.

وكان المعتضد فى نحو الخامسة والأربعين، مديد القامة جهم الوجه، براق العينين، يكاد سنا برقهما يذهب بالأبصار. وكان على كبريائه وغروره داهية حاد الذكاء، باقعة فى السياسة، شديد البطش جباراً. كان أسداً يفترس وهو رابض، وثعلباً يعرف متى يثب ومتى يفرّ، وكان كثير الأطماع بعيد منال الآمال، لا يكاد يستقرّ له سيف فى غمد، أو يلقى عن جواد له لجام، فهو دائماً مع من حوله من الوزراء فى صدام وعراك وحرب ضروس.

ذخل ابن زيدون فحيّاة الأمير فى عظمة الملوك وسطوة الجبابرة، وتصدّق عليه بابتسامة ذابلة، وكلمات هادئة فى الترحيب بمقدّمه، وكأن ناطق حاله كان يقول: هذا كل ما أستطيع أن أتبسط فيه مع مثلك، فاحمد الله عليه، فإنى لا أجود به على أحد. وأخرج ابن زيدون من كمه قصيدة كان أعدها لمدحه فى الطريق جاء فيها:

للحبِّ فى تلك القباب مرادُ ... لو ساعف الكَلِفَ المشوق مرادُ
من مبلغ عنى الأحبة إذ أبت ... ذكراهُمُ أن يطمئن مهاد؟
إن أغترب، فمواقعَ الكرم الذى ... فى الغرب شمتُ بروقه، أرتاد
أو أنأ عن صيد الملوك بجانبى ... فهم العبيد مليكُهم عباد
المجد عذر فى الفراق لمن نأى ... ليرىَ المصانع منه كيف تشاد
فى آل عباد حططت فأعصمت ... هممى بحيث أنافت الأطواد
أهل المناذرة الذين هم الرُّبا ... فوق الملوك، إذا الملوك وهاد
بيت تود الشهب فى أفلاكها ... لو أنها لبنائه أوتاد
نفسى فداؤك أيها الملك الذى ... زُهرُ النجوم لوجهه حسّاد!
تبدو عليك من الوسامة حلة ... يهفو إليها بالنفوس وداد

لم تشف منك العين أولُ نظرة لولا المهابة راجعت تزداد
فلئن فخرت بما بلغت لقلّ لى الا يكون من النجوم عتاد
مهما امتدحتُ سواك قبل فإنما مدحى إلى مدحى لك استطراد

فاهتز المعتضد للمديح وزاد فى الثناء عليه والترحيب به، وخلع عليه منصب الوزراة، وأمر ابن جبلة أن يهيىء له داراً تليق بمنزلته، وأن يُعد له بها من الخدم والعبيد ما يوائم جلال منصبه.

وعاش ابن زيدون فى كنف المعتضد عظيم الجاه مسموع الكلمة نافذ الرأى، وأخذ إقبال الأمير عليه ورعاؤه له يزداد مع الأيام شيئاً فشيئاً كلما ظهر نبوغه فى حل المعضلات، وبدا مضاؤه فى تصريف الأمور.

وتحدثت حسان المدينة بقدوم ابن زيدون، وودت كل ذات وجه صبيح أن تسعَد بأبيات من غزلة تباهى بها صويحباتها، وتُدِلّ بها على خطابها، فقد سبقه إلى أشبيلية شعره فى ولادة، فرددته جنباتها، وأنشده المنشدون، وغنى به المغنون، ولكن شاعرنا جاوز الآن مرحلة الشباب، وعرّى أفراس الصبا ورواحله، ولم يعد بقلبه متسع لنزيل جديد بعد أن شغله حبّ ولاّدة، ولم يترك فى إحدى زواياه مكاناً خالياً. لم ينس ابن زيدون عهد ولاّدة ولم يزده تنائى الديار إلا شغفاً بها، وهياماً بذكراها وكان إذا طواه الليل وقف بنافذة داره، ولمح البارق المؤتلق فى شمال الأفق وتلَقى الريح السارية من نحو قرطبة بليلة شذية، فهاجت بلابله، وثارت شاعريته فقال:

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ونـاب عن طيب لُقيانا تجافينا
إن الزمان الذى ما زال يضحكنا أنساً بقربهم قد عاد يبكينا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينا
فانحلّ ما كان معقوداً بأنفسنا وانبتّ ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يُخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يُرجَى تلاقينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم رأياً، ولم نتقلّد غيره دينا
بنتم وبنا فما ابتلّت جوانحنا شوقاً إليكم، ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأسّينا
حالت لفقدكمُ أيامنا فغدت سوداً، وكانت بكم بيضاً ليالينا

إذ جانب العيش طَلْقٌ من تآلفنا ... ومرتع اللهو صاف من تصافينا
لِيُسْقَ عهدكم عهدُ السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً ... منكم ، ولا انصرفت عنكم أمانينا
يا ساري البرق غادِ القصرَ واسق به ... من كان صِرْف الهوى والودِّ يسقينا
ربيب مُلك كأن الله أنشأه ... مسكاً، وقدّر إنشاء الورى طينا
يا روضةً طالما أجنت لواحظنا ... ورداً، جلاه الصبا غضّاً ونسْرينا
ويا حياةً تملينا بزهرتها ... فى وشى نُعمَى سحبنا ذيلَه حينا
لسنا نسميك إجلالاً وتكرمة ... فقدرُكِ المعتلى عن ذاك يُغنينا

وأظلّه عيد الأضحى وهو بعيد عن مغانى هواه وملاعب صباه، فتوالت عليه الذكريات، وزاد به الحنين، واستبد به الشوق، فردد فى همهمة الحزين، وترنيم الطائر السجين:

خليليّ لا فطرٌ يسرّ ولا أضحى ... فما حال مَن أمسى مشوقاً كما أضحى؟
ألا هل إلى الزهراء أوْبةُ نازحٍ ... تقضّى تنائيها مدامعه نزحا
محل ارتياحٍ يذكُر الخلد طيبه ... إذا عزّ أن يصدّى الفتى فيه أو يضحى

وحمل إليه البريد خبر موت نائلة فذهبت نفسه عليها حسرات، وتقطعت زفرات، وبكى فيها الوفاء والحنان والحب السماوى النقى الطاهر وأنشد:

لرزئكِ تنهلُّ الدموع فمثله ... إذا حلّ ودّ القلبُ لو كان ملّمعا
لقد أجهش الإخلاص بالأمس باكيا ... عليكِ كما حنّ الوفاء فرجّعا
ودنيا وجدنا العيش فى غفلاتها ... طريقاً إلى ورْد المنية مهيعا
نعللُ فيها بالمنى فتغرُّنا ... بوارق ليس الآنُ فيها بأخدعا

وكانت الرسل بينه وبين ولادة لا ينقطع لها مجىء وذهاب، كأنها وشيعة الحائك لا تكاد تلتقى بيمينه حتى تعود إلى شماله، ولكن ماذا تعمل الرسل، وماذا تجدى الرسائل، وحبيبته حبيسة عند ابن جهور، ربيطة بقرطبة، لا تستطيع منها فكاكاً؟ قاتل الله ابن جهور! ولعن الله الأيام السود التى نصبته عميداً للجماعة وسيداً مطاعاً بين ساداتها وكبرائها! لقد بذل نفسه فى خدمته فما أجدى، وخلع عَليه من المديح أثواباً يبلى الدهر ولا تبلى، ثم يجىء آخر الأمر فيحول بينه وبين ريحانة حياته وخاتمة آماله.

بنـى جهـور أحرقتـمُ بجفائكم   حياتـى ولـكن المدائـح تعبَقُ
تعدُّونـنـى كالعنبـر الـورد إنما   تطيب لكم أنفاسُـه حين يحرق

وطالما همّت ولادة باللحاق به بإشبيلية تحت ستار الليل، فكان ابن عبدوس يفشى سرّ مؤامرتها، ويحول بينها وبين السفر.

عاش ابن زيدون بإشبيلية سنوات قلق النفس مضطرب الخاطر، لم ترتح نفسه للمعتضد وإن أغدق عليه، ولم يطمئن له قلبه وإن توالت مواهبه، لأنه كان من الصنف الذى يعطى من غير أريحية، ويبتسم من غير حبّ، ويسأل عنك من غير شوق، ويجاملك فى غير مودة، صنف تشعر وأنت تجالسه بأنك تحت كابوس مخيف لأنه يراك دونه، ويريد أن يكون لطيفاً، ويريد أن يكون ظريفاً، ولكن شتان بين الخلق والتخلق، وشتان بين الروح الخفيفة المرحة والروح التى تريد أن تكون خفيفة وتريد أن تكون مرحة. ومثل هذا الصنف قد يمدحك وقد يثنى عليك، ولكن مديحه يطِنّ فى أذنك كما يطن مديح السيد لعبده، وقد يطرح معك الكلفة، ويتبسط فى الحديث، ولكنه يحرص دائماً على أن يشعرك فى غضون كل هذا أنه إنما يتصدق عليك بتواضعه، ويتخذ منك وسيلة للاستراحة من عظمته التى ضاق بها صدره.

لكل هذا أبى ابن زيدون أن يعرض على المعتضد أمنيته التى لا قى فى سبيلها عذاب الهون وآلام الحبس والتشريد. أبى أن يدعوه إلى توحيد دويلات العرب بالأندلس لأنه رأى فيه جباراً يضع السيف فى موضع الندى، ومتكبراً صلفاً لا يدين إلا بسياسة العنف والجبروت، لذلك كتم سره فى صدره، ولم يومىء به لأحد لا فى صراحة ولا فى تلويح. ولم يكن له من سلوى فى غربته إلا فى محمد بن عباد ولى عهد المملكة، فقد كان شاباً طموحاً، تزدحم نفسه بالآمال الكبار، وكان إلى بطولته الكامنة مرحاً مولعاً باللهو والشراب، وكانت له مجالس يجتمع بها ابن زيدون وابن عمار وابن مرتين، وكانت هذه المجالس صورة من العبث الأندلسى الذى قضى على دولة العرب، وأمات فى شبانها النخوة والإقدام وصدق العزيمة.

ومرت الأيام، وتعاقبت السنوات، فلحق المعتضد بربه، وشغلت الرهبة منه قلوب الناس عن الحزن عليه، وأكد ابن زيدون قريحته فبضّت له بأبيات سقيمة فى رثائه. وخلف المعتمد أباه، واستوى على عرش إشبيلية، فاستبشر الناس وتمنوا على الله لو صدقت فيه المخايل. وكان أديباً شاعراً فأقبل على ابن زيدون ووالى عليه نعمه، فملأ

قلوب حاسديه عليه حقداً، وتألب عليه نفر كان يحمل لواءهم ابن عمار وابن مرتين، فما برحوا يدسّون له عند المعتمد حتى إنهم زينوا لمغنيته «صبح» أن تغنيه:

يأيها الملك العلى الأعظمُ اقطع وريدَىْ كل باغ يلؤمُ
واحسم بسيفك كلَّ داء منافق يُبدى الجميل وضدّ ذلك يكتم

فبدأ الغضب على وجه المعتمد وصاح بابن عمار:

- ماذا تقصد هذه الجارية؟ فابتسم ابن عمار فى خبث ودهاء وقال:

- لا أدرى يا مولاى من تقصد على التحقيق، ولكنّها تردّد صدًى ما تتحدَّث به المجالس والأندية بإشبيليّة.

- وبأىّ شىء تتحدث هذه الأندية؟

- أعفنى يا مولاى فقد يكون حديثها عن أقرب الناس إليك، وأحظاهم عندك.

- من هو؟ صرح وإلا سبق كلمتى إليك سيفى!

- هو ابن زيدون يا مولاى.

- ابن زيدون؟

- نعم يا مولاى، فإنهم ينسبون إليه بيتين قالهما عندما بلغه نعى مولاى المعتضد.

- ما هما؟

- يقولون إنّه قال:

لقد سرّنى أن النعىَّ موكَّلٌ بطاغية قد حمّ منه حمامُ
تجنب صوبُ الغيث قبرك جافياً ومرت عليه المزن وهي جَهام

فقهقه المعتمد فى سخرية واستخفاف وصاح: الآن عرفت سخف النمائم وما يمكن أن تنفثه سموم الوشايات! هذان البيتان قلتهما أنا حينما علمت بموت ابن ذى النون صاحب طليطلة، وابن زيدون برىء منهما كبراءتى من كل أعدائه ومنافسيه.

وعلم ابن زيدون بالخبر فنظم قصيدة بارعة يمدح بها المعتمد ويندد بحساده منها:

قل للبغاة المنبضين قِسيهم ستروْن من تُصميه تلك الأسهم!
ما كان حلم محمد ليحيله عن عهده دغِلُ الضمير مذممُ

وزادت منزلة ابن زيدون عند المعتمد علاء ورفعة، فاهتبل فرصة خلوته به ليلة، وأخذ يحضّه فى إغراء واستهواء على أن يعيد لدولة العرب مجدها، ويجدد شبابها، ويذكره بما كان لها من الحول والصول، ثم يعدو إلى ذكر ما ارتكست فيه من الضعف بعد أن فصمت عروتها، ثم يصيح فى ألم وحسرة: انظر يا مولاى إلى هؤلاء الذين سموا أنفسهم أمراء، وحدثنى بحقك عمن تراه منهم جديراً بالرياسة. ابن هود ذلك الغادر؟ أم ابن الأفطس الذي يقضى ليله ونهاره فى اللهو والطرب؟ أم ابن ذى النون الذى أصبح سيفاً فى يد ملك الأسبان؟ أم ابن باديس البربرى الجاهل؟ مَنْ مِن هؤلاء يا مولاى يصلح لقيادة العرب وتوحيد الكلمة؟ لم يبق إلا أنت لرأب(١) الصدع وجمع الشمل، فاحمل العبء ثقيلاً لتكتب فى سجل العظماء، وليدوى ذكرك فى أجواء التاريخ كل صباح ومساء. ثم إنك لم تكن دخيلاً فى الملك، ولا لصيقاً فى الرياسة، وإنك لخمى يا مولاى، إنك من بنى المنذر بن ماء السماء ملك العرب وسيد سادتها.

كان المعتمد يصغى وغرائز العظمة تتوثب فى نفسه، فمال على ابن زيدون وقال:

ـ وما الطريق إلى هذه القمة الشامخة وهذا الأمل البعيد؟

ـ الطريق يا مولاى أن تستولى على قرطبة أولاً وأن تجعلها قصبة ملكك، ثم تغير منها على هذه الدويلات واحدة فى إثر واحدة، والنصر يا مولاى يجلب النصر، والرعب إذا استولى على قلوب أعدائك سجن سيوفهم فى أغمادها.

ـ إن قرطبة الآن فى يد هذا الطاغية الفاجر حريز بن عكاشة، فقد استولى عليها بعد أن رحل عنها المأمون بن ذى النون بجنوده، وقد علمت أن عبد الملك بن جهور يقاسى الآن من ابن عكاشة ما هو شرٌّ من الموت وأنكى من الذل والإسار.

ـ نعم يا مولاى والرأى أن يتقدم مولاى بجيشه إلى قرطبة، وأن يذيع قبل مقدمة أنه إنما يزحف لإنقاذها من ابن عكاشة وإعادتها إلى عبد الملك بن جهور، ولا بد أن يكون لمولاى بين وزراء قرطبة وعظمائها من يمهدون لهذه الحيلة حتى لا يجد الجيش من القرطبيين مقاومة أو دفعاً.

ـ إن رجلنا هناك الوزير ابن السقاء، وهو أخلص الناس لنا وأحرصهم على خدمتنا.

---

(١) لإصلاح.

- حسن يا مولاى، فلنبعث إليه رسولاً الليلة، ولنعِدّ الجيش فى أيام لننقضّ به على قرطبة.

واقتنع المعتمد بالرأى، وسار الرسول، وأعدّ الجيش وكان فى مقدمته المعتمد وابن زيدون، وبلغ الجنود أسوار قرطبة فدخلوها وقد فتحت أمامهم الأبواب، وذللت لهم السبل، وقتل المعتمد ابن عكاشة وأباد جيشه، وظن عبد الملك أن الأمر انتهى عند هذا الحد، وأن المعتمد سيعود بجيشه إلى إشبيلية، ولكن المعتمد لم يفعل شيئاً من هذا، بل قبض على عبد الملك وعلى إخوته وسائر أهل بيته وأودعهم غيابات السجون.

وسُرّ ابن زيدون بلقاء ولادة، فبكيا معاً من شدة سرورهما باللقاء، وبكيا معاً لأن نائلة لم تكن معهما بعد أن عادت إليهما الأيام.

التقى ابن زيدون بولادة ولكن بعد أن فات الفوت، وذهبت بشبابه السنون، ولوت قناته كوارث الأيام، ونيّفت سنة على الثامنه والستين. فكان كالمتمنى أن يرى فلقاً من الصباح، فلما أن رآه عمى. عاد ابن زيدون إلى قرطبة، ولكن لم يعد إليه هناء قرطبة وطيب أيام قرطبة، فقد لبث أشهراً يعانى آلام الأمراض وآلام الخيبة، لأنه رأى بعد طول التجربة أن المعتمد لا يصلح لما كان يرجى منه من خطيرات الأمور.

واشتدّ فى إحدى الليالى به المرض، فجلست ولادة حول سريره باكية نادبة، وهو يجود بنفسه، ويلفظ أنفاساً قصاراً كأنها خفقات السراج آخر الليل، ويردد:

ألم يأن أن يبكى الغمامُ على مثلى ... ويطلب ثأرى البرقُ منصلتَ النصل
وهلاّ أقامت أنجم الليل مأتماً ... لتندب فى الآفاق ما ضاع من فضلى

وما زال يكرّر البيتين حتى أدركته غشية أوردته الردَى، ولم تجعل ليومه غداً.



الفارس الملثّم

يوليو ١٩٤٩

نشرت بمجلة الهلال مجلد ٥٧ جزء ٧

هذه دمشق جنة الله في أرضه، تتخايل بمروجها الخضراء، ورياضها الزهر، وبنسيمها الذى اعتل فصحت به الأجسام، ورق فهفت له الأرواح، ومر وئيد الخطى فتشبثت بذيله الأزهار. وهذه جداولها التى تجرى فى خرير عذب يناغم تغريد الطيور، تفترق وتلتقى فتصور الحياة بين يأس ورجاء، وفرقة ولقاء، ثم لا تفتأ تتعثر بين الخمائل، وتنحدر بين الغياض، حتى تلتقى بنهر بردى فيلتقمها زخاره الخضم، ويدور بها كالمذعور الحائر يلج كل دار، ويخرج من كل حائط.

هذه دمشق بقبابها العالية، وقصورها الشامخة، ومآذنها التى امتدت إلى السماء كأنها تطلب شيئاً فى السماء.

هذه دمشق فى سنة ثنتين وتسعين للهجرة، فى أيام خليفتها العظيم الوليد بن عبد الملك.

عظمة وسلطان وملك عريض، وقوة أخضعت الفرس، وجثت أمامها بيزنطة خاشعة تلقى الزمام فى ذل وخضوع، ومشت إليها الرسل من أقاصى أوربا والشرق يطلبون الزلفى، ويستجدون نظرة رضا تضع قلوبهم فى أمكنتها، وسارت كتائبها فى أرجاء الأرض فاتحة غازية لا يفارق النصر رايتها، ولا ينزل الدهر إلا عند كلمتها. ثم سياسة ودهاء ومراس بالحكم ملأت بها دولة أمية القلوب خشية ورعباً، أو إخلاصاً وحباً، وجردت كل سيف من غمده فى الذياد عن حوزتها، وبذل النفس رخيصة فى توسيع رقعتها.

هذه دمشق أيام الوليد بن عبد الملك وقد كانت زينة العواصم، وقرة عين الدنيا، تموج بمن يردون عليها من أقطار الأرض من عرب وترك وروم وبربر. وكانت فى هذا اليوم الذى تبدأ فيه قصتنا شديدة الزحام، انتشر الناس فى أرجائها جماعات جماعات، وأخذ بعضهم يصافح بعضاً فى سرور ونزق، وخرج كثير منهم عما اعتادوه من وقار وتحرج. وكان الشبان يتغنون بأهازيج تترنم أنغامها بمجد العرب، وبسالة العرب، وأقدام العرب. وانتزعت فتاة خمارها وانتطقت به، ثم انطلقت ترقص بين تصفيق المعجبين، وترديد المنشدين. وكان من أراجيزهم:

«لـذريق» قد طارت بك الأوهام　　مالك عند طارق كلام
أبطالنـا غطـارف كرام　　الحق فى يمينهم حسام
وراية يرفعهـا الإسلام　　عزيزة فى الجو لا ترام
المدير «لـذريق» أو الحمام

وكان يقف ناحية شيخ جاوز الثمانين، حطمته الأيام، وحنت ظهره أثقال السنين، فتقدم نحو أحد الشبان وسأل فى كلمات تعثر بها لسانه:

- ما الخبر يا فتى؟

- فتحنا الأندلس، وانتصرت جيوش طارق بن زياد بوادي «لكّة» على علوج «القوطه». وفر صاحب مملكتهم المسمى «لذريق» بجواده فلم يقفوا له على أثر.

- هذا فتح مبين يا بنى! ولو أطاعتنى عصاى، وحملتنى ساقاى، لرقصت مع الراقصين.

ثم لوح الشيخ بعصاه، وصاح بقدر ما يستطيع صوته: «هلم إلى دار الخلافة، هلم إلى الوليد بن عبد الملك، إن هذا اليوم يا أبنائي يوم مشهود يجب أن تسرع فيه الوفود إلى تهنئة أمير المؤمنين».

وكان لهذا الصوت الضعيف من هذا الشيخ الفانى سحر تفتحت له القلوب، وأصغت الأسماع، فتزاحم الناس صائحين. «إلى دار الخلافة! إلى دار الخلافة!».

كانت دار الخلافة بالجانب الشرقى من دمشق تطل على الغوطة التى تعد من أجمل منازه الدنيا، وكانت ترى من بعيد جاثمة فوق ربوتها العالية كأنها الحصن العظيم. وهى

بناء بيزنطى قديم بذل فيه الفن والمال ما جعله صورة ناطقة بالجمال، وأثراً باقياً للعظمة والجلال. جلس الوليد فى أصيل هذا اليوم فى القاعة الكبرى التى يستقبل فيها الوفود وكبار رجال المملكة، وجلس إلى يمينه سليمان بن عبد الملك، وإلى يساره مسلمة بن عبد الملك، الذى لم تترك غزواته للروم بلداً لم يرتفع فيه صوت مؤذن، ثم جلس بعدهما كبار دولته، وكان منهم: عبد اللهّ بن همام السلولى، وقتيبة بن مسلم، وأبو القاسم المخزومى، والمغيث بن الحارث، وحبيب بن عقبة. فبدأ الكلام عبد اللهّ بن همام وكان ذرب اللسان حاضر البديهة، فقال:

ـ إن هذا الفتح ياأمير المؤمنين إلى ما أنعم الله به علينا من فتح الهند والروم وأقصى بلاد خراسان، لدليل على يمن طالع أمير المؤمنين وسعادة جده، وأن المسلمين فى أقطار الأرض ليتجهون نحو دار الخلافة كما يتجهون فى صلاتهم إلى القبلة، ويرون أن أمير المؤمنين ـ أمتعنا الله بحياته ـ عصمة دينهم، ومجد دنياهم، وحامل رايتهم إلى الظفر والانتصار.

فتحرك فى مجلسه قتيبة بن مسلم جبار خراسان، وظهرت على وجهه كدرة من الغيرة المكبوتة وقال فى تردد:

ـ لو كنت فى سرج طارق ما اكتفيت بفتح الأندلس، وما خلعت رجلى من ركابى إلا بعد أن أخترق الأرض الكبيرة، وأطل على البحر المحيط. فصاح به أمير المؤمنين:

ـ مه يا قتيبة، فإن لطارق من الجرأة ما لا تقف أمامه عقبة، وهو فتى أحوذى بعيد الرأى واسع الحيلة، وأخشى ما أخشاه أن يغرر بالمسلمين، ويسلك بهم مسالك تنسد خلفهم منافذها، وبيننا وبينه المهامه الفيح واللجج الخضر.

فقال المخزومى:

ـ ومتى علمت بالفتح يا أمير المؤمنين؟

ـ قدم فى هذا الصباح حبيب ابن عقبة رسولاً من قبل طارق، وما كاد يصل إلى بساطى حتى سقط من الإعياء بعد أن طوى فى السفر إلينا شهراً لا يستقر به جواده فى ليل أو نهار. فلما سكت عنه التعب، وعادت إليه أنفاسه تقدم إلينا برسالة من طارق لم يكتب فيها إلا سطراً واحداً.

ثم أشار إلى كاتبه وأمره أن يقرأ الرسالة فقرأ: «أيد اللهّ أمير المؤمنين وأعز جنده، إنه ليس فتحاً يا أمير المؤمنين وإنما هو الحشر ويومه!».

ثم اتجه حبيب بن عقبة نحو الخليفة فأومأ إليه بيده أن يتكلم فقال:

ـ لقد كانت مغامرة يا أمير المؤمنين باع فيها المسلمون أنفسهم فى سبيل اللهّ والحق، ووثبوا بعزائم كالقضاء المحتوم ليس له من مرد ولا عنه من محيص، ونبذوا الخوف من العواقب وراء ظهورهم ساخرين مستميتين. ولقد كنت إلى جانب طارق حين أبحرت سفننا من «سبتة» فى ظلام الليل الدامس كأنها مردة الجن لا تبطش إلا فى الظلام، وكنت أراه وهو ينظر نحو الأندلس بوجهه العابس، وعينيه المتقدتين، فما كنت أرى إلا أسداً غاضباً يتحفز للوثوب، أو نسراً جارحاً لاحت له الفريسة من بعيد فصفق بجناحيه لاصطيادها. بلغنا بر العدوة فنزلنا فى صمت زاده ظلام الليل روعة وإرهاباً، وكأن الخيل والأبل أرادت ألا تكون دوننا فى الحذر فكتمت ما فى صدورها من صهيل ورغاء. نزلنا يا أمير المؤمني كأننا ملائكة اللهّ نزلت على القوم من السماء، وتقدم جيشنا نحو الأعداء، وقدم لذريق بأجناده مدججين مسلحين فى جيش لا يعرف أوله أين آخره. فلما رأيت يا أمير المؤمنين كثرة عددهم، وقوة عتادهم، جشأت نفسى وجاشت ـ كما يقول قطرى بن الفجاءة ـ وهالنى ما يهول الشجاع إذا رأى الفرار حزماً، فهمست فى أذن طارق قائلاً: (حذار يا طارق! فإنى أرى جيوشاً تسد الأفق، كأنها البحر المضطرب، وماذا نصنع أمام هؤلاء بأثنى عشر ألفاً من العرب لا يحمل أكثرهم إلا هراوة أو رمحاً محطماً؟!) فنظر إلى نظرة ساخت لها نفسى، ثم قال فى غضب: (صدق اللهّ العظيم وكذبت يا حبيب):

(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللهّ، واللهّ مع الصابرين).

«ثم صاح فى وجهى وكأن صوته زمزمة الرعد وقال: (اذهب مع جماعة من جندك وأحرق السفن التى قدمنا عليها).

«فملكتنى الدهشة وقلت: (ماذا بك يا طارق؟ أحرق السفن؟) فصاح: (نعم أحرق السفن وأجعلها رماداً حتى ييأس من لم يثبت الإيمان قلبه من الفرار).

«وأحرقت السفن أمام الجنود يا أمير المؤمنين، ووقف طارق بينهم خطيباً، ولا واللهّ ما طرق أذنى من مخلوق كلام بعد كلام النبوة أنفذ إلى القلب، وادعى إلى الإقدام والاستهانة بالموت!

«وثار الجيش يا أمير المؤمنين، وتقدم كأنه البنيان المرصوص، فذعر القوط، وأدركهم الوهل، ولمح طارق من بعيد كبيرهم لذريق وهو فى سريره، وعليه مظلة مكللة بالدر واليواقيت فصاح: (هذا طاغية القوم! هذا هو بعينه، وإنى والله لقاتله!). ثم خلص إليه فضربه بالسيف فقتله على سريره. فلما رأى القوم مصرع سيدهم طارت نفوسهم شعاعاً، وتفرقوا أيدى سبا كما تطير العصافير قذفت على دوحتها حجراً. وقد تركت طارقاً وهو ينتقل من ظفر إلى ظفر، والحصون تنقض أمامه كأنها كثبان الرمال. أما ما أفاء له به علينا من الكنوز والغنائم فوق إدراك العقل وتصوير الخيال».

ـ فقال مغيث بن الحارث فيما يسبه الدعابة: «يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً!». وزفر الخليفة زفرة طويلة وهو يقول:

ـ هذا كله من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن الخوف لا يزال يساورنى، وأكثر ما أخشى أن يجتمع القوم بعد أن فجأتهم الهزيمة فيلموا شعثهم، ويعيدوا الكرة على المسلمين، وليس أقوى من طالب ثأر، ولا أشد شكيمة من ذائد عن وطن. ونحن هناك فى قلة، وليس وراء جنودنا ما يحميهم. هذه الوساوس تلعب بى منذ الصباح، ولن تقر لى عين، أو يستقر لى وساد، وأنا أرى المسلمين فى خطر محدق وبلاء محيق.

فقال ابن همام:

ـ ليهدأ روعك يا أمير المؤمنين، فإن جنودك إنما يجاهدون فى سبيل الله، وقد وعد الله فى كتابه بنصر المؤمنين.

ـ نعم يا عبد الله، ولكن يجب أن نعد لهم ـ كما أمرنا الله ـ ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل.

ـ وهنا وقف المغيث بن الحارث وقال:

ـ لو أمرنى أمير المؤمنين بالرحيل لرحلت الساعة مع جنودى.

ـ كم عدد جنودك؟

ـ سبعمائة بين فارس وراجل فقال الخليفة فى نبرة حزينة:

ـ يا له من جيش لهام!

ـ إن كل رجل فى جيشى يعدل مائة.

ـ هل أعددت العدة؟

ـ ثلاثة أيام تكفينى.

ـ اذهب على بركة الله منصوراً موفقاً!

ثم تهيأ الخليفة للقيام فانصرف القوم، واتجه أبو القاسم المخزومى إلى المغيث فوضع ذراعه على كتفه فى حنان الأبوة، ثم همس فى أذنه قائلاً:

ـ ما أعجلك يا بنى! لقد كنا نعد العدة لزواجك ببنت أخى عائشة، فماذا أنت قائل اليوم؟ وكيف تنفض إليها الخبر؟ إن نبأ رحيلك سينقض عليها انقضاض الصاعقة، فأجمل لها الحديث يا بنى وتلطف.

فقال المغيث وعلى وجهه سحابة من الحزن والقلق:

ـ لا تبتئس يا سيدى، فإن عائشة أشجع فتاة بدمشق، وهى لا تحب لمن اختارته لنفسها إلا أن يكون شجاعاً مقداماً. هلم بنا إليها.

عائشة المخزومية بنت هشام المخزومى من بيت عريق النسب، كريم الأرومة. كان أبوها من حماة الأموية وصناديدها، وكانت فى ذلك الحين فى العشرين من سنيها صبيحة مليحة رائعة القسمات، مشرقة البسمات، لها عينان يتألق فيهما السحر، وتتوثب الفتنة. ثم هى إلى ما منحها الله من الجمال البارع، والحسن الفاتن، تعتز بنفس عربية كريمة خلقت للشجاعة والإقدام وخطيرات الأمور. جسم تحسده حور الجنة الحسان، ونفس أمضى عزيمة من الصارم الفصال.

خطبها المغيث إلى عمها فرضيته بعلا لما عرفته وعرفه الناس فيه من البطولة والمروءة والطموح إلى العظائم. إلى قسامة وجه، ورجاحة عقل، وحسن أدب، ولطف حديث. وكان يزور دارها بين الحين والحين فكانت كلما زادت به معرفة زادت به كلفاً وحباً، وكلما زالت بينهما الكلفة ونمت الألفة، زاد أكبارها له وافتتانها بأدبه وخلقه العظيم، لذلك أصبح حبه خيال أحلامها بالليل، وسمير وحدتها بالنهار.

دخل أبو القاسم مع المغيث فحيتهما عائشة فى سرور وابتهاج، وصاحت:

ـ أعلمتما الخبر؟ لقد فتحنا الأندلس!

فقال لها المغيث مداعباً:

ـ وعلمنا قبل ذلك أن فتاة تدعى عائشة المخزومية غزت القلوب، وجلست فوق عروشها ملكة مطاعة!

فابتسمت عائشة وقالت:

ـ دع المزاح يا بن الحارث فالأمر جد وما هو بالهزل.

ـ هذا صحيح، وأظن طارقاً الآن فى طريقه إلى طليطلة.

ـ يا له من فتح مبين!

ـ لا يكون فتحاً مبيناً إلا إذا ذهب حبيبك فملك الجزيرة كلها، وعاد إليك بتاج ملكة القوط ليزين به أجمل جبين أشرقت عليه الشمس.

فبسر وجه عائشة كأنها توجست شراً وقالت:

ـ تذهب إلى الأندلس غازياً؟

ـ نعم يا فتاتى أذهب بعد أيام على رأس جيشى بأمر أمير المؤمنين.

فوثبت إليه تعانقه وتمسح بيدها على كتفه فى رفق وتدليل وهى تقول:

ـ خذنى معك يا مغيث، فانى لا أطيق أن يمر يوم واحد دون أن أراك.

فقال المغيث فى استنكار:

ـ كيف أصحب فتاة لم أكن لها بعلاً؟!

ـ نعقد الزواج غداً ونسير على بركة الله.

فقال فى سخرية لاذعة:

ـ وماذا نقول للشاعر الذى يقول:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول؟

ـ نقول إنه مغرور أحمق، جهل الرجال ولم يعرف بعض خلائق النساء. فليس كل رجل شجاعاً، وليست كل غانية خائرة العزم مكسالا. ما هذه الأثرة أيها الرجال؟ كأن الله لم يخلق سواكم للمجد والبطولة. نعمْ إن الله ميزكم علينا ببسطة الجسم، وقوة العضل. ولكن قوة الروح وجرأة العزيمة أقوى من الحديد والنار. والعزيمة إذا تمكنت من المرأة

وتغذت بعواطفها، ونهلت من غرائزها، خاضت الأهوال، وعصفت بكل ما أمامها من عقبات وصعاب. لقد زينت لكم كبرياؤكم أن المرأة لم تخلق إلا ليلهو بها الرجل فى شبابها، ولتلهو هى بالمغزل فى هرمها، فرحتم تتندرون بالنساء وبضعف النساء. لم لا تقود المرأة الصفوف، وتلاقى الحتوف، وتضرب فى سبيل اللهّ كما تضربون؟ إن اللهّ فرض الجهاد على الرجل والمرأة معاً، فدعونا نقاتل فى سبيل اللهّ، ودعونا نقاسمكم ثمرات المجد أو نفز بالشهادة إذا وارتنا القبور.

كان المغيث مطرقاً واجماً، فقد هاله ما سمع من فتاة بنى أمية، وأبت عليه نفسه أن يطفىء هذه الشعلة، أو ينال من هذه الحماسة بسوء، فربت كتف عائشة وقال:

- لم تزيدينى يقيناً ببطولتك يا عائشة، ولن يزال الإسلام بخير ما زاحم النساء الرجال فى ساحات المجد والجهاد.

فتهلل وجه عائشة وصاحت:

- إذن خذنى معك يا مغيث فتلعثم لسانه وقال:

- دعى هذه الغزوة يا عائشة، فإن الخليفة يخشى فيها على الرجال فكيف يرضى أن تخوض غمارها النساء؟

- أيقف الخليفة فى وجه فتاة رأت أبواب الجنة مفتحة فحنت إلى دخولها؟

- إن شؤون المسلمين أمانة فى يده يا بنية، وهو بهم رحيم، وعليهم حريص.

ثم انفلت من بين يديها فى خفة الطائر الحذر، وقامت عائشة لتدركه فلم تجد له أثراً، كأنما ابتلعته الأرض أو تخطفته السماء.

رحل المغيث إلى الأندلس برجاله، والتقى بطارق بمدينة «إشبيلية» فرأى جنوداً يتقدون حماسة، وقائداً لم تلهه الغنائم والكنوز عن مقصده الأسمى، ولم تستهوه غانيات الأندلس بما أفاض الحسن عليهن من سحر وملاحة، فاندمج فى جيش طارق وانقض معه على «أستجة» وكان أهلها فى قوة ومنعة وعدد وعدة.

أما عائشة، فبقيت بعد رحيله أياماً تقاسى ألم الفراق ولوعة الهجر، وتشكو مما أسمته ذل الأنوثة واستخفاف الرجل بالمرأة، لأنها لا تشهد حرباً ولا تصول بسيف. وحينما ضاق بها نطاق الصبر، ألحت على أمها ان تأذن لها فى الرحيل إلى الأندلس، فبهتت المرأة،

وظنت أن مسا من الجنون أصاب فتاتها لفراق من تحب، ولكن عائشة لم تنهزم أمام هذا الاستنكار، فكررت الرجاء، وألحفت في المسألة. وكلما زادت أمها أباء زادت عزيمة وعناداً. وطال الجدل، وطال الحديث، حتى ألقت أمها بالعنان مستنكرة ساخطة. وخضعت لإرادة ابنتها لأنها لم تستطع إلا أن تخضع. وهبت عائشة كأنها النمرة الوثوب، فارتدت ملابس أخيها عبد الله، ولبست درعه، وتسلحت بسلاحه، ثم أعدت حقيبة ملابسها ووضعت بها مائة دينار وصاحت: «يا رباح!». فأقبل عبد زنجي براق السواد كبير الهامة شعشاع، كأنه قطعة من جبل. وحينما وقف بباب الحجرة دهش لما رأى عائشة فى زى الرجال، وهز رأسه فى عنف كأنه يريد أن يستيقظ من حلم مخيف، فابتدرته آمرة:

- خذ الأهبة يا رباح لسفر طويل، فأعد أربعة جياد، وأحمل على اثنين منها ما نحتاج إليه من زاد وسلاح. أسرع!

- إلى أين يا سيدتي؟

- إلى حيث تغرب الشمس فبهر العبد وقال:

- أخشى أن يلتقمها البحر يا سيدتى قبل أن ندركها.

- لا تخش شيئاً يا رباح. اذهب قبل أن يظلنا الليل.

فانطلق رباح وكان يرى لذة فى خدمة سيدته، وسعادة فى أن تأمره فيطيع. وبعد قليل أعدت الخيول، وودعت عائشة أمها بين زفرات الألم، وقطرات الدموع.

انطلقت عائشة من دمشق وخلفها رباح فى أصيل يوم من أيام ذى الحجة سنة ثنتين وتسعين، وأحرى بنا ألاّ نحاول وصف ما لاقت هذه الفتاة المقدام فى طريقها فى الشام ومصر وبلاد المغرب، من أخطار وصعاب، فقد يكون أحياناً من حسن الوصف ألا تصف، ومن حسن الرأى أن تدع الكلام عما يعجز عنه الكلام.

وبلغت عائشة «سبتة» وهى مدينة حصينة بمراكش، تقع قبالة الجزيرة الخضراء بالأندلس، وبينهما بحر الزقاق الذى يبلغ عرضه بضعة أميال. وحينما وقفت على سيف البحر حاولت أن تجد سفينة تمخر بها إلى عدوة الأندلس، ولكنها لم تجد إلا سفينة واحدة ظهر لها مما فيها من العبيد والخدم أنها خاصة ببعض كبراء المدينة، فوقفت حائرة تجيل الطرف هنا وهناك، علها تظفر بسفينة أخرى، ولم يطل بها الوقوف حتى رأت فتاة تدنو منها

في بشاشة ولطف وتقول :

ـ أراك تنظر نظرة الحائر أيها الفتى الشجاع ، فهل من حاجة لك نقضيها؟

فقالت عائشة في نبرة حزينة :

ـ أشكرك يا فتاتي ، لقد كنت أبحث عن مركب أصل به إلى شاطىء الأندلس .

ـ إني ذاهبة الآن إلى الأندلس في سفينتي هذه ، وفيها متسع لعربي كريم مثلك . فهل تسعدني بإجابة طلبتي؟

وكانت عائشة حريصة على السفر ، فلم تأب الكرامة وقالت : «هذه منّة لن أنساها أبد الدهر» . ثم التفتت نحو رباح وكان يقبض على عناني جوادين بقيا لهما بعد سفرهما الطويل ، وقالت : «أنزل يا رباح بما معك إلى السفينة ، فقد تفضلت السيدة بحملنا إلى بر العدوة» .

كانت هذه السيدة ، أو الفتاة إن شئت ، تدعى «فلورندا» وهي ابنة «يوليان» الأسباني الذي كان حاكم «سبتة» من قبل القوط ، وكانت ذاهبة إلى الأندلس للقاء أبيها . وعندما كانت السفينة على وشك الإبحار لمحت فلورندا عائشة أو لمحت ـ فيما رأته عيناها ـ فتى عربياً يتألق فيه ماء الشباب ، فأطالت التأمل ، وأتبعت النظرة النظرة ، فإذا شاب وسيم تظهر عليه سيماء النبل وملامح البطولة ، وجه مشرق كأنه تنفس الصباح وقامة معتدلة كأنها صعدة الرمح ، وشباب ورونق وفتوة . رأت فلورندا كل هذا بعينيها فترجمته غريزتها ، وغريزة الفتاة في هذه السن الناضجة سريعة التأثر ، ماهرة في الانتقال من الاستحسان إلى الرغبة والأمل . وكثيراً ما يطغى بها الخيال فتجعل الأمل حقيقة واقعة . فتنت فلورندا بما رأت ، وتيقظت أنوثتها عاتية جامحة ، فكادت تلتهم الفتى العربي بنظراتها ، وتحرقه بزفراتها ، وميل الفتاة إلى الفتى أو ميل الفتى إلى الفتاة أمر فطري يقوى ويضعف كما تقوى كل الميول والغرائز وتضعف ، ولكن إذا اختلف الجنسان اشتد هذا الميل وعنف ، كالكهرباء فإنها لا تتولد إلا إذا التقى سالب بموجب . وهنا التقى الجنس الآري بالجنس السامي فكانت الشرارة لواحة متأججة اللهب ، هتفت نفس فلورندا بها صاخبة ساغبة : «لم لا تتزوجينه؟ . أنك لن تجدي له بين الفتيان مثيلاً ولو ذهبت إلى أقصى الأرض ، إن له وجهاً لم تطلع الشمس على أصبح منه . إن سمته وزيه ينمان عن أصل كريم ومجد عريق ، إن بسمته في الصباح صباح ، وطلعته في المساء ضياء المساء ، يجب أن تتزوجيه أو أن تعملي

على أن تتزوجيه، فإن من جد وجد، وكل من سار على الدرب وصل».

جالت بنفس فلورندا كل هذه الخواطر وهى جالسة إلى جانب عائشة والسفينة تنشر قلاعها للرحيل، فقالت فى صوت تكلفت أن يكون غير مختلج:

ـ من أين وإلى أين يا أخا العرب؟

ـ من دمشق يا سيدتى إلى جيش طارق.

ـ وهل اجتزت هذه الطريق الموحشة المزدحمة بالأخطار مع هذا العبد لا يصحبك سواه؟

ـ كان يصحبنى سواه.

ـ من هو؟

ـ سيفى.

فابتسمت فلورندا وقالت: «أنتم هكذا أيها العرب لا تفارقكم هذه الثقة بالنفس التى نسميها غروراً؟!».

ـ سمّوها يا سيدتى كما تشاءون.. ولكننا حينما نثق بأنفسنا نثق معها بخالق أنفسنا.

ـ إنى أخاف على هذا الشباب النضر أن تعصف به الحرب فى أسبانيا.

ـ نحن عقدنا صفقة بيع ولن نرجع فيها.

ـ مع من؟

ـ مع الله، فإنه يقول عز شأنه: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون».

فضحكت فلورندا ضحكة ناعمة وقالت:

ـ إذن لا أستطيع أن أرجعك عن عزمك؟

ـ يا سيدتى كانت أمى أقوى منك.

ـ ولكنى قد أكون أقوى من أمك إذا كان لى مكان من قلبك.

قالتها مبتسمة وهى تنظر إلى عائشة بعينين فيهما كل حبائل الشيطان، فأحست عائشة بالخطر، وهالها ما لم تفكر فيه أو تحسب له حساباً. هالها أن الفتاة مفتونة بها مشغوفة، وأن هذا الشغف قد يكشف سرها الذى بالغت فى كتمانه، فرأت من حسن الرأي أن تجامل وتراوغ حتى يفصل بينهما غمار الحرب، فقالت:

- إن لك مكاناً يا فتاتى فى كل قلب، ولو أن بنات الأسبان كن مثلك لانتصرن على طارق وجيشه بسهام عيونهن.

فضحكت فلورندا، ومدت يدها إلى عائشة، وسألت:

- أتعرف من أنا؟

- كيف أعرف يا فتاتى وأنا لم أصل إلى سبتة إلا هذا الصباح؟

- أولاً ما اسمك؟

- أسامة الفهرى.

- أنا فلورندا. فلا تقل «يا سيدتى» أو «يا فتاتى»، ! ولكن ادعنى باسمى هكذا مجرداً كما يدعو الصديق الصديق.

- سمعاً وطاعة يا . . .

- فلورندا

- يا فلورندا.

- إن أبى يوليان كان حاكم سبتة، وهو من عظماء القوط. وكانت العادة أن يرسل أمراء المملكة بناتهم إلى قصر الملك لتدريبهن على آيين القصور، فأرسلنى أبى إلى بلاط لذريق فرأيت من لمحاته وكلماته ما أعجلنى إلى الفرار بعرضى. وعلم أبى بالأمر فاشتد غضبه، وأقسم بدين المسيح أن يكون حرباً عليه موالياً مع العرب، وذهب إلى قائدكم ابن نصير فعاهده على مناصرته وتذليل طريق الفتح لطارق، ولولا أبى ما استطاع جيشكم أن يفوز بهذا النصر المبين.

فابتسمت عائشة وقالت:

- إن لك أن تنسبى الفضل كله فى هذا الفتح إلى أبيك يا فلورندا، فكل فتاة بأبيها

معجبة كما تقول العرب فى أمثالها. ولكننى أعتقد أن سيل العرب الزخار سيلتهم أسبانيا ساعدهم أبوك أم لم يساعدهم.

إن هذه صاعقة من السماء يا فتاتى لا يقف أمامها جيش، ولا تصدها قوة. وهل كان يوليان يعين جيش عمرو بن العاص حينما فتح مصر بأربعة آلاف مقاتل؟ وهل كان يوليان مع سعد بن أبى وقاص حينما سار لفتح الفرس بسبعة آلاف؟ دعى هذا يا فلورندا فإنى أخشى أن أقول أن أباك كان حكيماً المعيا، وأنه رأى أن لا بد مما ليس منه بد.

- أنت تقسو على أبى.

- أنا أصفه بالحكمة والألمعية، وأنت ترمينه بخيانة قومه ووطنه، فأينا أنصف الرجل؟

- هذا جدال على الطريقة العربية يا حبيبي.

- أو على طريقة الحق.

وبلغت السفينة فى المساء جبل الفتح أو جبل طارق. وأرادت عائشة التخلص من الفتاة، فقالت:

- أنت ذاهبة إلى أبيك، أما أنا فسأبقى هنا قليلاً لأستريح.

فقالت فلورندا:

- إن أبى مع طارق وأنت ذاهبة إليه، فلنذهب معاً. فلم تجد عائشة بدأ من مرافقتها فامتطتا جواديهما وخلفهما الخدم والعبيد، وما زالتا تغذان السير حتى بلغتا مدينة «استجة»، وكان طارق قد فتحها وأقام بها أياماً ليستريح جنده.

بلغتا المدينة عند الأصيل وكانت تموج بالفاتحين، وقد ضربوا حولها خيامهم، وأناخوا إبلهم، وربطوا جيادهم. وزادت عائشة فى تنكرها فوضعت على وجهها لثاماً على عادة أشراف العرب، فالتفتت إليها فلورندا ضاحكة وقالت:

- كنت أجتهد فى أن أختار لك وصفاً جميلاً أدعوك به يا أسامة، ولكنك كفيتنى عناء البحث. فهل تحب أن أدعوك بالفارس الملثم؟

- ادعينى يا فاتنة الأسبان بما تشائين.

ثم أمرت رباحاً أن يبحث فى حذر وتلطف عن مكان المغيث، فعاد إليها بعد قليل يقول:

- إنه مع طارق فى فناء قصر أمير المدينة.

وصاحت فلورندا:

- وهل رأيت أبى؟

- لا أعرف أباك، ولكنى رأيت معهما علجاً مديد القامة طويل الشاربين كان الجنود يسمونه يوليان.

- الجنود يسمونه يوليان وأنت تدعوه علجاً يا ليلة المحاق؟ ولولاه..

فأشارت إليها عائشة أن تكف وقالت: «إن رباحاً رجل خشن لا يعرف مواقع الكلام».

وانطلقت الفتاتان نحو جيوش القائدين، والتقت فلورندا بأبيها فطلب إليها أن تنزل معه فهزت رأسها فى امتناع وهمست فى أذنه قائلة: «لقد أسرت فتى عربياً جميلاً»، فدهش يوليان وقال:

- أسرت عربياً ونحن نحارب فى صفوف العرب؟

فضحكت فلورندا وقالت:

- أسرته بشىء آخر غير الأغلال والقيود.

فابتسم يوليان وهو يقول:

- غمزة بعين، وابتسامة مغرية، وينتهى كل شىء؟

فهزت فلورندا رأسها فى عبث الفتاة المتمكنة من فنونها. فقال أبوها:

- حسن، وماذا تريدين، أن طارقاً سيزحف على طليطلة، والمغيث سيذهب لفتح قرطبة غداً. فأى جيش تتبعين؟

- سأتبع الجيش الذى يختاره الفارس الملثم.

ثم شبت على أصابع قدميها وتعلقت بعنق أبيها فأشبعته لثماً وتقبيلاً، وانفلتت منه كما

ينفلت الظبى من الحبالة تبحث عن فتاها، فألفته قد ضرب خيمته إلى جانب قصر المغيث فأظهرت الدهش وصاحت:

ـ أعزمت على النزول هنا يا أسامة؟

ـ نعم.

ـ سأضرب خيمتى إلى جانب خيمتك.

ـ ألم ترى أباك؟

ـ رأيته ولكنى لا أستطيع أن أفارقك يا حبيبى.

فقالت عائشة وقد أدركها ما يشبه الغيظ:

ـ إننى قد أخوض مهالك أخشى أن يصيبك رشاشها، فخير لك يا فلورندا أن تقيمى هنا حتى أعود. إنّى سأكون فى جيش المغيث وسنثب غداً على قرطبة، فرجى الخير وانتظرى إيابى.

ـ لن أنتظر، وسيكون فرسى جنب فرسك.

فهزت عائشة رأسها فى صمت ووجوم.

وتحرك جيش المغيث فى الصباح نحو قرطبة وكان البرد شديداً والريح صرصراً عاتية. وركبت عائشة وفلورندا ووراءهما العبيد، وكانت عائشة تتبع راية المغيث وتمشى فى ظله لا يرتد طرفها عنه لحظة.

سار الجيش يهز جناحيه متصل الأجزاء متماسك البناء، كأنه وحش هائل الجثة من وحوش الأساطير، ومر بالجند يومان حتى إذا كانوا على مقربة من نهر «شقندة» والشمس على وشك المغيب لمحت عائشة فارساً مدججاً بالسلاح من فرسان الأسبان، يخرج فى تلصص وحذر من غيضة أرز، ويدنو نحو المغيث من الخلف، وسيفه فى يده يلمع على صفحته لعاب المنية. وما كاد يرفع به يده حتى انقضت عليه بسيفها انقضاض النسر الغاضب، فأطارت رأسه فى الهواء كأنه كرة لاعب. وتلفت المغيث وأصحابه فإذا الأسبانى الذى حاول الغدر به صريع مجندل، ورأوا الفتى الذى أنقذ حياته يمر من خلفهم مرور البرق فيندس فى الجيش ويغيب فى آذيه المضطرب، ولا يكاد يلمحه المغيث حتى يصيح: «أدركوا الفارس الملثم!».

ويسرع أتباعه يتعقبونه فلا يجدون له أثراً، فيضرب المغيث كفاً بكف، ويهمهم:

«لقد كاد العلج يقتلنى لولا هذا الفارس، فمن يكون يا ترى؟». فيجيبه مالك الجرهمى وكان من أخص أصحابه:

- لقد حيرنى هذا الفتى بفراره، ولو أن غيره فعل فعلته لتبجح بها ولملأ الدنيا صياحاً بأنه أنقذ حياة القائد.

- هذا عجيب! لقد حاولت أن أرى وجهه وهو يطير بجواده فما استطعت لأنه كان ملثماً.

فضحك مالك وقال:

- لعله ملك من السماء.

- إن لم يكن ملكاً فلقد قتل شيطاناً، وإنى لأتحرق شوقاً إلى لقائه لأجزيه أجر ما صنع لنا.

- سنراه بعد المعركة إن تركته شجاعته حياً.

بلغ الجيش نهر قرطبة فعبره، ورفع الجنود أبصارهم فرأوا أسوار المدينة شامخة متحدية، وقد أغلق أهلها أبوابها فلم يتركوا منفذاً لهاجم. ورأى المغيث أن ينتظر حتى يقبل الليل ليباغت الحراس وينقض عليهم انقضاض الباشق، وكان البرد شديداً قارساً، وهطل مطر منهمر أخفى أصوات الجنود، ووقف المغيث بين جنده وهو يقول فى صوت خافت: «ليس من وسيلة إلا أن يتسلق رجل منا السور، حتى إذا بلغ قمته تحين غفلة من الحراس فنزل إلى المدينة فى خفة وحذر، وفتح الباب للجيش». فقال رجل كانت دقات قلبه أعلى من نبرات صوته:

- إن الحراس لا يتركون الأبواب فى هذه الليلة، والذى ينزل إليهم إنما ينزل إلى قبره!

فقال المغيث فى غضب:

- استرح يا أخا الهزيمة، فإنى لم أدع الجبناء لهذا الأمر الجسيم، وإنما دعوت من يرون أن الموت فى سبيل الله حياة باقية.

وهنا التفت بعض الجنود إلى بعض فى ذهول اعترك فيه الجبن والإقدام، ولم تدم

حيرتهم طويلاً حتى رأوا فارساً ملثماً يتسلق شجرة زيتون كانت إلى جانب السور، ثم يتعلق بأحد فروعها العالية ويترك جسمه يترجح ذهاباً وجيئة، وهو فى كل مرة يزيد فى اتساع قوس حركته، حتى إذا قرب من قمة السور قذف بنفسه إليها فى خفة النمر وجرأته، وكان الجنود ينظرون إليه فى دهشة وعجب. ورآه المغيث فصاح: «إنه الفارس الملثم! إنه البطل الذى يحمل روحه فى يده ليصون أرواح المسلمين».

وكانت ساعة رهبة وصمت ويأس وأمل، واستمر المطر هطالاً والبرد قاسياً. ونظرت عائشة من أعلى السور إلى المدينة فإذا الحراس وقد أضناهم التعب والسهر وأضر بهم البرد والمطر، قد اجتمعوا تحت سقيفة والتفوا بأغطيتهم وأسلموا أجسامهم الهامدة إلى نوم مفزع مضطرب، فنزلت من السور فى هدوء كأنها الحرباء، لا تسمع لها نأمة، ولا تحس ركزاً، حتى إذا قربت من الأرض وثبت فى خفة واحتراس، واتجهت نحو الباب فعالجت مزاليجه، وكانت من الحديد الضخم الثقيل. فعجزت أول الأمر، وخانتها قواها، وسعل أحد الحراس تحت غطائه فاهتزت أعصابها وأدركها الخوف وكادت تستسلم لليأس لولا أن استنجدت بما بقى من قواها، واستنفدت كل طاقتها، وأعادت الكرة فخضع لها الحديد، ورفعت المزاليج وكانت تنوء بالعصبة أولى القوة، وما كادت تفتح الباب حتى اندفع إليه المجاهدون كأنهم السيل المنهمر، وهم يصيحون: «الله أكبر! الله أكبر!».

ففرجيش المدينة أمامهم، وألقى السلم خاضعاً مستكيناً، ونظرت عائشة فرأت رباحاً وفلورندا فى طليعة الداخلين، فجذبتهما إليها بإشارة خفيفة، ثم امتطت جوادها وأمرتهما أن يركبا، واهتبلت فرصة اشتغال الجيش بالأسرى والغنائم وخرجت بهما من باب المدينة. فصاحت فلورندا فى دهش:

- إلى أين يا حبيبى.
- إلى الخيام التى ضربناها بعيداً عن المدينة.
- ولم هذا؟ ألمْ تأت لفتح قرطبة!
- فتحتها. .

فضحكت وقالت:

- فتحتها وتفر من شرف فتحها؟
- فر من الشرف يتبعك الشرف!

ـ وحق المسيح أن أمرك لعجيب يا أسامة!

ـ لو عرفت ما أعرف ما تعجبت.

فهزت فلورندا رأسها فى يأس وقالت:

ـ إفعل ما تشاء يا حبيبى، ولكن القائد لن يترك الفتى الذى فتح له المدينة يفر من بين يديه دون أن يجزل له العطاء، أو يرفع منزلته بين القواد.

ـ دعى هذا الحديث يا فلورندا، فإن مما يهين الشجاعة أن تؤجر.

وبعد أن قضى المغيث بعض شؤون القيادة اتجه إلى مالك الجرهمى، وقال:

ـ أين الفتى الملثم الذى فتح الباب للجيش؟

ـ بعثت أطلبه فى كل مكان فلم أجده.

ـ أبحث عنه ثانية.

ـ بحثت عنه ثانية وثالثة.. وأغلب الظن أنه لحق بجيش طارق بطليطلة.

ومرت أيام رأت فيها فلورندا أن من الخير لها أن تخبر المغيث بمكان أسامة، لأنها اقنعت نفسها بأنه سيكون لها بعلاً، وهى تحب أن يكون زوجها رفيع المكانة ملحوظ المنزلة. ورأت أنها لو دلت المغيث على مخبئه لأعلى ذكره وجعله من كبار قواده، فتسللت من خيمتها ذات صباح وقصدت إلى قصر القائد، فلما مثلت أمامه قالت: «إنى أعرف يا سيدى مكان الفارس الملثم». فألقى المغيث قلماً كان فى يده وقال فى دهشة وعجب:

ـ أين هو يا فتاة؟ أخبرينى وأسرعى.

ـ ليركب معى سيدى القائد لأدله على مكانه.

وصاح المغيث بعبيده، فأعدوا جواده، وسار مع الفتاة حتى بلغ الخيمة، فهمست فى أذنه: «إنه هنا فى هذه الخيمة» فأمرها أن تبتعد قليلاً ودخل فى هدوء وسكون. ويا لدهشته، ويا لذهوله، حينما رأى فتاة رائعة الحسن فاتنة الطلعة، ولكنه ما كاد يحقق فيها النظر حتى صاح:

ـ عائشة؟!

فالتفتت عائشة وقد بهرتها المفاجأة وقالت:

ـ نعم عائشة يا مغيث.

ـ من جاء بك هنا؟

ـ جئت بنفسي.

ولم جئت؟

ـ لأراك.

ـ وأين الفارس الملثم؟

فأسرعت تشير إلى ثياب أخيها في شمم مصطنع وتقول متحدية:

ـ هذا هو الفارس الملثم!

ـ كنت تتنكرين بهذه الثياب يا عائشة؟ أنت والله أشجع من حمل سيفاً أو صال برمح. أنت والله الشرف الخالد لنساء العرب جميعاً. أنت التي نزلت إلى الموت بقدميها لتفتح باباً كان فتحه للعرب فتحاً مبيناً.

ثم انكب عليها عناقاً وتقبيلاً. ودخلت فلورندا وهما في نشوة الحب وغشية الغرام فصاحت في رعب:

ـ يا مريم العذراء أدركيني! ماذا أرى؟

فأفاق العاشقان، والتفت إليها المغيث قائلاً:

ـ هذه خطيبتي يا فتاة.

فأسرعت تقول في غضب وخبال:

ـ لا إنه خطيبي أنا!

فقالت عائشة:

ـ لا تجزعي يا فلورندا فلست أول من خابت آماله في الغرام.

وجذب المغيث عائشة إليه ثانية، وهو يردد:

ـ سنتزوج الليلة. سنتزوج الليلة.

فلم تطق فلورندا صبراً، وخرجت باكية تتعثر خطواتها بين الحسرة واليأس، وتضرب كفاً بكف وهي تولول وتصيح:

ـ ضاعت بلادي! وضاع حبي!



مرح الوليد

يناير ١٩٤٨

نصح وعناد

قصر راسخ القواعد، شامخ الذرا، رسا أصله فوق شرف عال من الأرض، وارتفعت قبابه في الجو كأنها تطلب شيئاً في السماء. وقد موهت بالنضار، وسطع عليها الأصيل، فأرسلت شعاعاً كان أجمل من الأصيل، وأبهى من خالص النضار. وامتدت حول القصر البساتين الفيح تجرى بها الجداول بطيئة متعثرة، كأنها تخشى أن تلتقى بنهر بَرَدى فيلتقمها زخاره الخضم، ويدور بها كالمذعور فيقتحم كل دار وينفذ من كل حائط. ورفت بها الأزهار رائعة الألوان، مسكية الشذا، وقد عبث بها النسيم فراحت تختبىء فى أكمامها كأنها الغيد الحسان خافت خائنة الأعين، وفضول العاشقين. وماست أشجار الحور كأنما شجاها تغريب الطير فوقها، فأخذت تسارق الأنغام، وتساير رنين الإيقاع.

ذلك مشهد يجب أن يُرى حتى يُعرف، ويجب أن تراه عين فنان لتدرك بعض ما به من جمال وروعة. أما القلم، وأما اللسان، فاعجز من أن يصلا فيه إلى صورة، أو شبه صورة، تقربها العيون، أو تطمئن لها النفوس. يقولون إن اللغة أداة البيان، ويقولون إن اللغة بريد العقول، فهل هى أداة البيان حقًّا؟ وهل هى بريد صادق يحمل ما فى نفسك إلى نفس غيرك؟ إن من ضروب الأحاسيس ما يدق عن متناول اللسان، ويستعصى على سنان القلم. وإن من الصور الغريبة الألوان الغريبة التركيب، ما يعجز الوصف، ويخرس البيان. ولن يملك المرء إذا رآها إلا أن يصيح: هذا باهر! هذا جميل! هذا فاتن! وكأنه يريد أن يقول شيئاً آخر فلا يستطيع. وستبقى الإنسانية هكذا عجماء حتى توفق إلى وضع كلمات جديدة تترجم عن كل ما تراه العين، ويجيش به الوجدان. ويكفى أن أقول إن هذا

المنظر كان بربوة الوادى بالجانب الغربى من دمشق، وإن هذه الربوة، تزدان بأبدع ما طرزته يد القدرة على هذه الأرض من حلل، وإنها إلى جنة الخلد أشبه بالمطلع إلى القصيدة، أو بالمقدمة إلى الكتاب، وهى التى حينما رآها عمر بن الخطاب عند قدومه إلى الشام قرأ قوله تعالى: ﴿كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾.

هذه هى ربوة دمشق، وهذا هو قصر الوليد بن يزيد، وكان يسمى قصر «حبّابة»، بناه يزيد بن عبد الملك الخليفة الأموى لجاريته «حبابة» وأنفق فيه كثيراً من كنوز الدولة، وقام على بنائه وزخرفه كبار مهندسى الروم، فجاء صورة للفن الرائع ومظهراً لفخامة الملك، وصولة السلطان.

وفى أحد أيام شوال من سنة ثلاث وعشرين ومائة، جلس ببعض أبهاء هذا القصر يزيد بن الوليد، ويزيد بن عنبسة، ومحمد بن شهاب الزهرى، ويزيد السلمى، وقد طال بهم الإطراق، ودلت أسارير وجوههم على ما تنطوى عليه أنفسهم من أمر عظيم، وهمّ دفين. وبعد لأى رفع الزهرى رأسه، وكان من كبارالمحدثين، وأعلام التابعين، عظيم المنزلة فى الدولة لعلمه وورعه، وقال:

ـ لست أدرى لم بعثنا الخليفة هشام إلى هذا الرجل، وهو يعلم أن انتقال جبل «قاسيون» من مكانه أهون وأيسر فى إدراك العقول من هدايته وزحزحته عما هو فيه من عبث؟ لقد حدثته مراراً، وسقت إليه كثيراً من أقوال الرسول الكريم، ووعظته فأطلت الوعظ، فما كان يزيده كل هذا إلا تمادياً، حتى كأننى كنت أغريه بلومى، وأثير فيه شيطان الغرور بمواعظى، ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾. صدق الله العظيم. فرفع إليه يزيد بن الوليد بصره، وقد نمّ وجهه عن ضجر واشمئزاز، وقال:

ـ إن الأمر يا أبا بكر لو اقتصر على فتى سادر لهان وقلّت نوازله، وخفّت أوزاره، ولكنه أمر أسرة كريمة المنبت فى الجاهلية والإسلام، وشأن دولة تحمل أعباء الخلافة، وتحمى صخرة الدين أن تنهار، بعد أن بُذلت جهود وعقول فى إرسائها، وحُطمت سيوف فى توطيد أركانها. والشيخ يرى ما تنهض به دولة بنى أمية كل يوم من أعباء، وما تشهد من عزائم. فجيوشها لا تكاد تقفل من العراق وخرسان، حتى تسير إلى أرمينية وأرض الروم،

فهى أبداً صائلة شاتية. وسيوفها لا تكاد تقر فى أغمادها، حتى تُستّل من جديد، ولا تكاد تجف دماؤها من قهر خارجى، حتى ينبع لها خارجى من أقاصى الأرض، كأن الأرض أجدبت من كل نبات إلا من هؤلاء المناكيد. وإذا أسكتنا زئير أهل خراسان، أطلت علينا ثورة فى المدينة، ومدت رأسها فتنة بالعراق. فإذا لم تكن أزِمّة الدولة فى يد جريئة حازمة، ولم يصرّف شئونها رجل داهية باقعة لم تستعبده الدنيا، ضاعت الدولة بدداً، وكانت حرضاً. وهذا الوليد بن يزيد الذى بعثنا اليوم هشام لنصحه ودعوته إلى الكف عن لهوه، لو كان فتى من فتيان بنى أمية لا يرتبط بالخلافة، ولا يتصل بسياسة الحكم بسبب، لصرفنا عنه وجوهنا آسفين محزونين، ولقلنا شاب أطغاه المال والشباب والحسب، فراح ينتهب لذات الحياة، وإن له لغاية هو مدركها، وأجلاً هو موفّيه، ولحظة ندم يهم أن يعتصم فيها بالتوبة فلا تنفعه التوبة. ولكن يأبى القدر إلا أن يكون الوليد هذا ولى عهد الخلافة، وتأبى الأيام السود إلا أن تعده ليجلس حيث كان يجلس عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز. ويا ويل الخلافة، ويا ويل الإسلام إذا ألقيت مقاليد الحكم فى يد هذا الرجل! وإننا إذا جئنا اليوم لنكفه عن شهواته، أو لنصلح من نفسه ـ إن كان ذلك الإصلاح مستطاعاً ـ فإنما إلى صون الخلافة نقصد، وحماية الملك نريد. فتحرك يزيد بن عنبسة فى قلق المغيظ المحنق، وقد كان قبل ذلك يعتمد برأسه على قائم سيفه حزيناً واجماً، وقال:

ـ إن الله يريد لهذا الملك أمراً هو قاضيه، فإننا ما كدنا نبتهج بموت أبيه يزيد بن عبد الملك، وقيام خلافة هشام بعده، حتى دهمتنا المقادير فحتّمت علينا أن يكون هذا الفتى ولىّ عهد هشام. لقد كان يزيد مسرفاً على نفسه، قسّم أيامه وأمواله بين سلاّمة القس المغنية، وحبابة اللّعوب، وبنى لحبابه هذا القصر الشامخ الذى نجلس فيه اليوم، وأنفق عليه من الأموال ما كان يكفى لغزو الصين، وكل ما وراء البحر الأخضر من ممالك. ولكنا نحمد الله على أن عهده لم يطل، وأن هلاكه كان وشيكاً، وكثيراً ما يكون الموت علاجاً إذا أعضل الداء، وعزّ الدواء. كانت خلافته أربع سنين كادت تهوى فيها الدولة إلى الحضيض، لولا قوة فيها كامنة من عزمات صلاب وطّدت أساسها من عهد قديم. وكأنه أراد أن يصل حباله بحبال ابنه فلم يمت حتى عهد بالخلافة بعده إلى هشام، ثم من بعد هشام إلى هذا الفتى. وإن أخشى ما نخشاه بعد أن أعاد هشام إلى الخلافة عظمتها، وغرس فى القلوب الرهبة منها، وأقام عَمودها، وحرص على جمع الأموال لسد مفاقرها، أن يأتى بعده هذا الوليد فيمحو آثارها، ويبدد قوتها، ويمكّن منها أعداءها القاعدين لها كل

مرصد، والمتربصين لها الدوائر، والمتحرقين إلى فرصة يمزقونها فيها أشلاء، ويأتون على بنيانها من القواعد. وليس لدينا من الرجال اليوم ما كان لنا والدولة فى عنفوانها، والملك فى قوة اكتماله. فليس لنا مثل مسلم بن عقبة، وليس لنا مثل الحجاج بن يوسف، وليس لنا مثل قرة بن شريك. فإذا وقعت الواقعة، وحلّت الفادحة، وتركت الدولة فى أيد خائرة لم تجد بين الدافعين عنها إلا بناناً مخضباً، ومعصماً أدماه السوار. وويل لدولة تحميها النساء! فأسرع الزهرى يقول:

- لقد حاول يزيد بن عبد الملك أن يخلع هشاماً من ولاية العهد، وأن يقدم ابنه عليه لولا أن أدركه الموت من حيث لم يكن يتوقّع. ولو أنه فعل لكان للمسلمين اليوم حال غير تلك الحال. وهنا اتّجه يزيد بن عنبسة إلى السلمى وقال:

- مالك لا تنازعنا الحديث أبا مساحق؟ إن أكبر الظن أن كلامنا يثقل عليك، فلقد رأيت سحابة غيظ تركد على وجهك منذ دخولنا. ولعلك لم تكن تتوقع أن يزور صاحبك اليوم قوم غلاظ شداد يصارحونه القول، ويدعونه فى عنف إلى تقوى الله ومخالفة نفسه. فقال الزهرى:

- إن السلمى كان معلم الوليد ونصيحه، وكان الأجدر به، وقد قضى فى الإشراف على تهذيبه سنوات، أن يقوّم قناته، وأن يصرف عنه شياطين الفتنة، فإنه لو فعل لأغنانا اليوم عن لقاء هذا الفتى وجبهه بما يكره. ووالله لولا أن الح علىّ الحقيقة وألحف فى وجوب القيام بنصحه، ما نقلت إلى داره قدماً. فقال يزيد بن الوليد:

- ومن لهذا الأمر سواك يا ابن شهاب وأنت اليوم مناط هذه الأمة فى أمور دينها؟ ولقد كان عمر بن عبد العزيز ناصحاً للمسلمين حين كتب إلى عمّاله فى الآفاق يدعوهم إلى الأخذ بآرائك فى الدين، ويقول لهم: إنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية من ابن شهاب. فمد الزهرى يده إلى يزيد كالمتوسل إليه أن يكف عن هذا المديح ثم قال:

- أرسل إلىّ الخليفة إبراهيم المخزومى بعد أن انفتلت من صلاة الغداة فقال: إن أميرا لمؤمنين يدعوك إليه الساعة. فذهبت معه على تثاقل وكره، فلما حضرت مجلسه أقبل علىّ كاسف النفس حزيناً، وكان ولداه مسلمة والعباس واقفين فى خدمته، ثم قال: اقرب منى قليلاً أبا بكر. فقربت وسادتى من وسادته، فاتجه إلى وقال: إنى نظرت يا ابن شهاب فى أمرى وأمر هذا الملك الذى أسوسه، والأمة التى أرعاها، فرأيت أنى أسير إلى الفناء

وثباً، وأعدو نحو الموت عدواً، فإن هذه الذبحة ما زالت تعتادني بين الحين والحين، وقد استطعت حتى الساعة أن أنجو منها بذلك الدواء الذي أتجرعه، ولكن نوباتها أخذت تتقارب وتطول، وأخشى أن أكون مائتاً بعد أيام أو أشهر. وقد بذلت كل ما في قدرة رجل مثلي لإنهاض الدولة وتمكين سلطانها، ولو كنت أعلم أن الذي يلي هذا الأمر من بعدي رجل حمّال للأعباء، شديد على اللأواء، كامل الرجولة، طاهر النفس، نقيّ الجيب، يخاف ربه، ويخافه عدوه، لهان عليّ الأمر واستقبلت الموت سعيداً رضيّاً. ولكن الخلافة ستنتقل إلى ابن أخي الوليد، وهو ـ كما علمت وعلم أهل الحضر والمدر ـ قد نسي نفسه، ونسي حسبه، وانصرف إلى جلساء السوء. فماذا يكون من أمر هذه الأمة إذا وليها هذا الفتى؟ وماذا يكون من أمر أطراف الدولة، والثورات فيها لا تنطفىء نيرانها، ولا يركد قتامها؟ وماذا يكون من أمر ملك بقي إلى اليوم أكثر من ثمانين عاماً تؤثّله جبابرة الأمويين بآرائهم وسيوفهم؟ لن يبقى من ذلك شيء وستتمزق فلول بني أمية في البلاد حيارى مطاردين، يحسدون رعاة الإبل في الصحارى الجرد على ما هم فيه من رخاء ونعمة. لقد بذلت كل ما في وسع بشر لإصلاح هذا الرجل، فلم ألق نجحاً. وكان من آخر أمري أن وليته الحج بالناس لأصلح من سيرته وأغريه بتقوى الله إغراء، فكان منه ما علمت وعلم الناس. والآن وقد ضاقت بي الحيلة، أدعوك لتذهب إليه أنت ويزيد بن الوليد وابن عنبسة، لتبصّروه بما يجب عليه إزاء الله، وإزاء الخلافة، وإزاء نفسه، ولتخبروه بأن صلاحه لن يكون له وحده بل لهذه الأمة التي نخشى أن تذهب ضياعاً، وتصبح نهباً مقسماً. هذا يا أبا بكر آخر سهم في كنانتي، فإن أجاب وأطاع هدأت نفسي، وإلا فلّله أمر هو فاعله. اذهب الآن مباركاً موفقاً، وقد أمرت يزيد بن الوليد وابن عنبسة أن ينتظراك لدى الباب.

وكأن طول الحديث قد أجهد الزهري فأخذ يرسل أنفاساً قصاراً متلاحقة، ثم قال وهو ينظر إلى السلمي:

ـ وهكذا جئنا أبا مساحق لنروّض هذا المهر الحرون، حتى يسلس قياده، وإني أرى في ملامحك ما يدل على الاستنكار والمخالفة، فهل لديك من شيء يقال؟

ـ لقد أطلتم الحديث، وسلكتم فيه فنوناً، ولكنكم اتجهتم اتجاهاً واحداً، ونظرتم إلى الرجل من ناحية واحدة، فصوّرتموه كما شاءت نفوسكم لاهياً مرحاً تسلّب من صفات

الرجولة، وقطّع كل صلة بينه وبين الخلق الكريم، وهذا تصوير مائن أيها البررة الأتقياء. إنى خالطت الوليد منذ كان غلاماً فى الحادية عشرة، وهو الآن يجاوز الثلاثين، خالطته خلاط معاشرة واختبار، وسبرت غور نفسه، وعرفت ظاهر أمره وباطنه، فرأيت أنه سر آبائه جميعاً، ففيه دهاء مروان بن الحكم وشغفه بالانتقام، وفيه تيه عبد الملك وكبرياؤه وصدق عزيمته، وفيه عناد أبيه وضعف نفسه. ثم إن به عرقاً من أخواله بنى هاشم أمدّه بالبلاغة وإجادة الشعر، وذلّل له سبيل التمكن من اللغة ومعرفة الأخبار. إنه ابن آبائه حقاً، ورثهم فى الجاه والمال والخلافة، كما ورثهم فى الجبلة والخلق، وفيما يزين وفيما يشين، إنه حقيبة من وراثات مختلفة متباينة: فيها الخير وفيها الشر، وفيها ما يسوء وفيها ما يسر. وأشهد إنى ما رأيته يقرأ القرآن أو يدرس أحاديث النبى الكريم إلا متطهراً متطيباً جالساً على ركبتيه فى خشوع ورهبة. وأشهد أنه طالما حدثنى عن نفسه وما ينساق إليه من هفوات الشباب، والدموع تنهمر من عينيه، والحزن يملأ جوانب نفسه. وكثيراً ما كان يقول وهو فى تلك الحال: وماذا أفعل وقد خلقت ريشة فى مهب الأهواء، وقصبة جوفاء فى بحر مائج بالفتنة والإغراء؟ ثم يرفع رأسه إلى السماء فى رعب وضراعة وهو يردّد: اللهم إنك إنما سُمّيت الغفور لأنك تغفر لمثلى. وسمعته مرة وقد اجتمع بفتية من بنى أمية وهو يقول لهم: يا بنى أمية، إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء، ويزيد فى الشهوة، ويهدم المروءة، ويثور ثورة الخمر، ويفعل ما يفعل السكر، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء، فإن الغناء رقية الشيطان. إنى لأقول ذلك فيه على أنه أحب إلىّ من كل لذة، وأشهى إلىّ من الماء البارد إلى ذى الغلة، ولكن الحق أحق أن يقال.

فأسرع ابن عنبسة يقول:

ـ أخشى يا أبا مساحق إذا طال بنا المجلس أن تزعم أن صاحبك من الملائكة الأطهار.

ـ لا يا ابن أخى إنه ليس من الملائكة الأطهار، إنه قد يكون أحياناً عبد نفسه إذا جمحت به أرخى لها العنان وتركها تسير به إلى حيث تريد. ولكننى أقول إنه رجل له جانبان؛ جانب للخير يظهر فيه نبله وكرم عنصره وطهارة عرقه، وجانب للشر يرحل فيه العقل، وتنحل العزيمة، ويختفى الوليد الشريف الكريم، ويأتى الوليد الظريف المرح. وربما كان فى انقياده إلى وازع نفسه لا يزيد عن أمثاله من الفتيان الذين خلقوا على غرار

فطرته، ولكن الوليد أضاف إلى ما فيه من ضعف العزيمة ما طبع عليه من العناد والتحدى والتباهى بازدراءِ آراء الناس، وعدم المبالاة بلوم اللائمين. فلم يُرَاءِ كما يراءون، ولم يخف الرقباء كما يخافون، بل قال ما يقول فى علانية وسخرية، وكشف ذات نفسه لأعدائه وأصدقائه فى غير خوف أو حذر. ومما أكثر فيه القالة شغف الناس بالأقاصيص وغرائب الأخبار. فهم إذا نقل إليهم كاذب أنه شرب كأساً لم يرقهم أن ينقلوا الخبر كما هو. وأى طرافة فى أن يشرب شاب كأساً محرّمة بعد أن فسد الزمان؟ فراحوا يقولون إنه شرب باطيتين حتى انتفخ بطنه. وهنا ابتدره ابن عنبسة فقال:

ـ إن الناس لا ينقلون إلا ما يسمعون من غلمان القصر وجواريه. وقد بلغنى أنه اصطنع بركة فى هذا القصر، وملأها خمراً، وأنه إذا استخفه الطرب ألقى فيها نفسه وأخذ يكرع، حتى يبين النقص فى أطرافها.

ـ هذا اختلاق مائن، وإفك كاذب. فالوليد أبغض الناس للقذر، أو ما فيه احتمال القذر، وهو لحرصه على النظافة لا يشرب من إناء شرب منه غيره. ثم كيف يستساغ فى العقل أن يشرب من البركة حتى يظهر النقص فيها؟ إنه لو فعل لكان اليوم من الهالكين، واسترحنا من الجدل فى شأنه. وهذه الفرية البلقاء لا تقل فى بشاعة كذبها عمّا يتناقله الناس من أنه أراد يوماً أن يتفاءل، ففتح المصحف، فكانت أول آية تقع تحت عينيه قوله تعالى: ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾. فقد قالوا إنه غضب عند ذلك وعربد ومزّق المصحفَ وقال:

أتوعد كل جبّار عنيد؟ فها أنا ذاك جبّارٌ عنيدُا
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقنى الوليد

ويكفى لتفنيد هذا الهراء أنى أعلم وأنكم تعلمون أن العرب على ولوعها بالتفاؤل، لا تتفاءل بالمصاحف، ولا بما يدوّن فى الكتب، فإن ذلك لم يكن من عاداتها منذ خلق الله الصحراء والجمل.

وأكبر الظن عندى أن هناك ثلاث طوائف تعمل على الكيد لبنى أمية كلهم لا للوليد وحده، وأنها تبذل الجهد ناشطة لإسقاطَ الدولة ومحو آثارها. وهذه الطوائف هى طائفة الناقمين من غير العرب بعد أن أذلّهم بنو أمية، وقضوا على عزمهم ومجدهم، وأنزلوهم

بدار الهوان والاتعاس. وطائفة بنى العباس الذين يدعون «لمحمد بن علي» والذين ربضوا بخراسان متربصين، يتحينون الفرصة للوثبة، وينشرون جواسيسهم وعمالهم فى البلاد ليبثوا فى الناس كراهية الخلافة ورجال الدولة، ويذيعوا عنهم خروجهم على الدين واحتجابهم الأموال وتبديدها فى اللهو والنعيم. وهناك شيعة على بن أبى طالب، الذين يجتذبون الناس بزهدهم، ويستدّرون عطفهم بما أوقع بهم بنو أمية من القتل والتشريد، هؤلاء جميعاً يعملون كادحين لإسقاط عرش الأمويين. وقد وجدوا فى الوليد منبعاً فيّاضاً لإشاعة الأكاذيب، وابتداع الأخاليق، وراحوا يهوّلون فى كل ما يبدو منه من لهو. فإذا لم يصدر عنه شيء رسم خيالهم أبشع الصور، ولفّق لهم أسوأ الأحاديث. وهنا التفت إليه الزهرى وقال:

ـ عجيب أمرك يا ابن مساحق، تعترف بعبث صاحبك ثم تدفع عنه، وحينما ترى أن حجتك لا تنهض بجناح، تحاول أن تنقل الأمر من الوليد إلى بنى أمية عامة، ثم إلى ما يحيط بهم من أحداث وأعداء.

ـ لا يا أبا بكر إننى إنما أنكر على الناس تعصبهم عليه، وتألبهم للكيد له، وأخشى أن يكون من أسباب ذلك أنه ولى العهد، وأنه يسد الطريق على أبناء هشام. ولعله لو تخلى عن هذه الولاية لارتدت عنه سهامهم، ولعاش كما يعيش غيره، ولسكتت عنه ألسن السوء.

وبينما هم فى الحديث إذ بدت لهم من النأفذة، عن بعد، جماعة من الفرسان، تثب الكلاب من حولهم ومن خلفهم، وقد سار فى المقدمة فارس معتدل القامة، كأنه عامل الرمح، وهو يعبث بسوطه فى الهواء. فقال السلمى: هذا هو الوليد ومعه فتيانه، وقد قدموا من الصيد، وسيكونون بيننا بعد قليل.

فتمكن الزهرى فى مجلسه، وتمتم بكلمات ربما كانت تسبيحاً، وربما كانت استنكاراً. وومضت عينا ابن عنبسة بالشر، وتنحنح يزيد بن الوليد وقال فى حزن وأسى:

ـ وهكذا تدور حياة هذا الشاب بين مرح ولهو وغناء وطرب! يا لضيعة بنى أمية!

ويصل الوليد إلى القصر، ومعه من ندمائه كاتبه عياض بن مسلم، وابن سهيل، والمنذر بن أبى عمر، وعبد الصمد بن عبد الأعلى، فيسرع إليه غلامه رستم الفارسى،

وخادمه سبرة، فيخبرانه بكل ما دار بين القوم من أحاديث، فيعبس وجهه قليلاً، ثم ينبسط عن ابتسامة ماكرة، فيها عناد، وفيها تشف، وفيها انتقام وعبث. ثم يقول: أبعثهم إلىّ هشام لينصحونى أم يمهدوا السبيل إلى خلعى من ولاية العهد وتولية ابنه مسلمة؟ والله لن أخلع ما وضعه الله فى عنقى أو أموت دونه! يقولون إنى لاه عابث، سأريهم يا سبرة كيف أعبث بهم، وكيف ألهو بأشياخهم، وسأريهم أنى لا أبالى بما يذيعون عنى من كذب وبهتان. ادع عمر الوادى وأبا كامل، وادع جميع المغنين، فسوف يعرفون اليوم من هو الوليد بن يزيد؟ وانطلق سبرة يطيع أمر مولاه، وما هى إلا لحظات حتى سمع رنين العيدان، ونقر الدفوف، وأقبل المغنون ومشى أمامهم الوليد نحو زوّاره. فلما دخل عليهم كان أبو كامل يغنى:

علّلانــى واسقيانى من شراب أصفهانى
مــن شراب الشيخ كسرى أو شراب الهُرمُزان
إن بالـكاس لمسكا أو بكفّــى من سقانى
إنمــا الـكاس ربيع يُتعاطــى بالبنان

وكانت القيان تدق بالكفوف والدفوف، ويمشين فى خفة ومرح، كأنهن الحمائم ترف رفيفاً. ثم اتجه الوليد إلى عمر الوادى صائحاً: يا جامع لذتى ومحيى طربى، غننى من خفيف الرمل بالبنصر، فانطلق يغنى:

أصــدع نجــىّ الهمــوم بالطرب وانعَم على الدهــر بابنــة العنبِ
واستقبــل العيش فى غضارته لا تقفُ منــه آثار معتقب
مــن قهــوة زانهــا تقادُمها فهى عجــوز تعلــو علــى الحقب
أشهــى إلــى الشــرب يوم جلوتها من الفتــاة الكريمــة النسب
فقــد تجلــت ورقّ جوهرها حتــى تبــدّت فى منظــر عجب
فهــى بغير المــزاج من شرر وهى لدى المــزج سائــل الذهب
فــى فتية من بنــى أمية أهــ ــل المجــد والمأثــرات والحسب
مــا فى الــورى مثلهــم، ولا بهم مثلــى، ولا منتــم لمثــل أبى

وما كاد ينتهى من غنائه حتى هجم عليه الوليد، وأخذ يقبّله ويخلع من عقود الجوهر التى يتحلّى بها ويضعها فى عنقه.

وهنا لم يطق الزهري الصبر، فهمّ بالوقوف ودعا صاحبيه إلى الخروج، ولكن يزيد بن الوليد اجتذبه من كمه وهو يقول: إننا لا نستطيع أن نغادر القصر من غير أن نقضي حاجة هشام، فإنك تعرف ثورة غضبه على من يتهاون في تأدية ما يطلبه منه. ولمح الوليد ما يدور بين القوم فصرف المغنين، ثم أقبل على الزهري في أدب وخشوع وكثير من الوقار، كأن لم يكن شيء، وكأنّ ما ملأ البهو من لهو وطرب منذ لحظة لم يكن منه شيء. أقبل على الزهري فحيّاه ورحّب به، ثم نظر إلى يزيد بن الوليد وإلى ابن عنبسة نظرة صلف، أتبعها بتحية، فيها تيه، وفيها اعتزاز، ثم أخذ يسأل الزهري عن مسائل في الحديث وغريب اللغة والقرآن، والقوم في دهش جارف ملك عليهم ألسنتهم، وأذهل عقولهم. فلما هدأت نفس الزهري قال:

ـ إننا جئنا إليك يا بني من قبل الخليفة لنسدي إليك النصح، وندعوك إلى ترك ما أنت فيه من لهو يقضي على المروءة، ويعبث بالشرف. وقد ضاق الخليفة ذرعاً بما يسمعه عنك، وما ينقل إليه من أمرك. ثم إنه الآن، وقد تقدّمت به السن، يخشى أن يترك الخلافة في يد من لا يصونها أو يستطيع النفح دونها. وهؤلاء المسوّدة ـ كما يسمونهم ـ أو دعاة بني العباس، قد ظهروا بخراسان، وأصبح لهم عديد وعدة، وأشياع وأنصار. فإذا لم يحم الخلافة رأي نافذ، وعزم باطش، ضاع الملك الذي أثلتموه، ولاقى بنو أمية من أعدائهم شر ما يلاقي الذليل المقهور. فالخليفة ينذرك ويدعوك إلى التوبة، ونبذ ما أنت فيه، ويطلب إليك أن تسرّح ندماءك وأصفياءك، وأن تبتدىء حياة جديدة كلها جد وصلاح، وابتعاد عن الدنيا، واهتمام بشئون الدولة حتى تكون أهلاً لولاية العهد.

كان الوليد ينصت عابساً مفكراً يعبث بأصابعه في شعرات لحيته، وما كاد ينتهي الزهري حتى أرسل قهقهة طويلة اهتزت لها جوانح صدره، ثم نظر إلى القوم وقال:

ـ الأجل ذلك جئتم؟ ومن أجل هذا أتعبتم دوّابكم حتى بلغتم قصري؟ لقد سخر منكم هشام وغرّر بكم. إن ما يجري في قصري من اللهو العفيف لا يزيد عما يجري في قصور فتيان بني أمية. ثم التفت إلى ابن عنبسة ويزيد وقال: وعما يجري في دار ابن عنبسة وفي قصر يزيد، وإن أبناء هشام أنفسهم يتمتعون بالحياة طولاً وعرضاً وعمقاً، ولكن هشاماً يريد شيئاً آخر، يريد أن يسخّركم من حيث لا تشعرون في مأرب هو أقصى أمانيه ومنتهى آماله، يريد أن يهدم هذا السد الذي يحول بين ابنه مسلمة والخلافة، يريد أن يخلع عني ولاية العهد بعد أن أقسم عليها أمام أبي أغلظ الأيمان، وأعطى أوثق العهود، ليقدمها إلى «أبي شاكر» هدية غالية ثمينة تبقى في أولاده

وأحفاده أبد الدهر. ولم ير للوصول إلى ذلك من سبيل إلا أن يثلب عرضى، ويكثر فىّ قالة السوء، ويبعث حولى جواسيسه وعيونه ليجعلوا من الفأرة جملاً، ومن بيت النملة قصراً، وليملئوا الدنيا بأخبار زندقتى، حتى لقد أصبحت حديث السمّار، ومثلاً شروداً فى اللهو وحب الطرب. وإنى أسخر منه ومن أعوانه، وأزيد فى نكايته بإصرارى على ما أحب، وتمسكى بما يكره. ثم إنه أراد أن يخطو خطوته الأخيرة فبعثك يا ابن شهاب، وأنت من أنت فى رأى العامة والخاصة علماً وديناً ونسكاً، ليستشهد بك لدى الناس إذا خلعنى، وليقول لهم لقد صبرت عليه كثيراً فلم يزدجر، ونصحت له كثيراً فلم يرعو، وهذا الزهرى على ما أقول شهيد. لقد حرمنى العطاء منذ عدت من الحج، وضيّق علىّ وعلى ندمائى، ولكنى لم أبال به، ولم آبه له، وإن لى من ميراث أبى ومن أموال أخوالى ما يزيد عن حاجتى، وإن فى نفسى يقيناً لا يزعزعه إرهاب هشام، ولا تنقص منه صولة هشام، ذلك أنى سأكون خليفة على رغم أنوف بنى أمية جميعاً، وأن هشاماً سيموت ويزول ملكه، ويذهب معه نهمه، وتدفن مطامعه، وسأكون من بعده الخليفة الأموى الفتى. وسوف أثيب أصدقائى أجزل الثواب، وأذيق أعدائى مرّ العذاب. فلقد أعددت فى سرداب القصر مائة قيد من حديد كتبت على كل قيد اسم صاحبه. ثم التفت إلى ثلاثتهم وقال: وأكبر ظنى أن أسماءكم بين ما كتب من أسماء، وسوف يقول الناس إن الوليد لم يكن غرّاً مائقاً، ولم يكن مغفّلاً ماجناً، لأنه عرف أعداءه فمحقهم، وعرف أحباءه فأجزل عطاءهم.

أنا ابن أبى العاصى وعثمان والدى ... ومروان جدى ذو الفعَال وعامر
أنا ابن عظيم القريتين وعزها ... ثقيف وفهر والعصاة الأكابر
نبىّ الهدى خالى، ومن يك خاله ... نبى الهدى يقهر به من يفاخر

ثم وقف ومد يده إلى الزهرى وهو يقول: إذا لقيت هشاماً فقل له عنى:

كفرت يداً من مُنعم لو شكرتها ... جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن
رأيتك تبنى جاهداً فى قطيعتى ... ولو كنت ذا حزم لهدّمت ما تبنى
أراك على الباقين تجنى ضغينة ... فيا ويحهم إن متّ من شر ما تجنى!
كأنى بهم يوماً وأكثر قولهم ... ألا ليت أنا، حين «يا ليت» لا تغنى

ثم ترك البهو فسار خلفه غلاماه وترك القوم مشدوهين حائرين، فأخذ الزهرى يجمع ثيابه ويتهيأ للخروج، وهو يقول: صدق رسول الله : إن لكل دين خلقاً، وإن خلق الإسلام الحياء.

رشد وغيّ

كان الوليد من أصبح الناس وجهاً، وأشدهم قوة، وأرقهم طبعاً، وأظرفهم حديثاً. وكان فارعاً متين البناء يكاد يتفجّر منه ماء الشباب، وكان أعظم ما يجتذب إليه النظر عيناه السوداوان الواسعتان اللتان يلتمع منهما وميض وهاج، فيه القوة والعزيمة والشراسة، ثم لا يكاد يظهر هذا الوميض حتى يختفى وتأخذ مكانه نظرات ذابلة ناعسة ذاهلة، فيها شعر، وفيها خيال، وفيها ما يشبه الذهول. وكان يلبس حلة خضراء من الحرير الدبيقى فوقها جبة بيضاء طرزت حواشيها بالذهب وتغطى رأسه عمامة من الخز الأحمر حلّيت أطرافها بالدر الثمين، ويتقلّد عقوداً من نفيس الجواهر المتلألئة الباهرة الألوان. وكان يغيّر هذه العقود فى اليوم مراراً كما يغير حلله وأثوابه.

قصد الوليد بعد أن ترك من جاءوا لنصحه إلى حجرة فسيحة كان بها جماعة من ندمائه وإخوانه، وكان بينهم أشعب بن جبير مضحكه ومندره ومسليه. وكان أشعب آية زمانه فى سرعة البديهة، وتوقد الذكاء، وحسن الحيلة، وإجادة النادرة، وإثارة الضحك من غريب ما يقول وعجيب ما يفعل.

وكان لا يحب أن يزاحمه أحد فى فنونه وألاعيبه. فقد زعموا أن رجلاً بالمدينة حاول أن يسلك مسلكه، وأخذ يحاكيه فى مذهبه ونوادره، حتى استطابه الناس وأعجبوا به، وعلم أشعب بخبره فرقبه حتى عرف أنه يختلف إلى مجلس لبعض فتيان قريش يحادثهم ويضحكهم، فسار إليه ثم قال له: بلغنى أنك قد نحوت نحوى، وشغلت عنى من كان يألفنى، فإن كنت مثلى فافعل كما أفعل. ثم غضّن من وجهه وعرّضه وشنّجه حتى صار عرضه أكثر من طوله، وصار فى هيئة لم

يعرفه بها أحد. ثم أرسل وجهه وقال: ثم أفعل هكذا، وطوّل وجهه حتى كاد ذقنه يتجاوز صدره، وصار كأنه وجه الناظر فى سيف لامع. ثم نزع ثيابه وتحادب فصار فى ظهره حدبة كسنام البعير، وأصبح طوله مقدار شبر أو أكثر. ثم قام فتمدد حتى صار أطول ما يكون من الرجال. فضحك القوم حتى أغمى عليهم، وبهت الرجل فما تكلم بنادرة، ولا زاد على أن يقول: يا أبا العلاء على الله عهد ألا أعاود ما تكره، وإنما أنا تلميذك وخريجك.

وكان أشعب فى ذلك الحين قد جاوز التسعين ولكنه بقى مستكملاً قوته، حافظاً لفنّه ودعابته. وكان دقيق الجسم ناحله، أزرق العينين أحولهما، أصلع الرأس حتى كأن رأسه كرة من الشمع اللأّمع وحينما ورد على الوليد حظى عنده فأمر خدمه أن يلبسوه سروالاً من جلد قرد له ذنب طويل. وأن يشدوا فى رجليه أجراساً وفى عنقه جلاجل.

دخل الوليد على ندمائه باشّاً مبتهجاً كأن وفد هشام لم يثر فى نفسه همّاً، ولم يكدر له صفواً، فشرع ابن سهيل يقول:

ـ لقد أحسنت إجابتهم يا مولاى وكشفت خديعتهم، ولكنى أخشى ألا يقف هشام عند هذه الغاية، وأخشى أن يكون ما فعله اليوم إنما هو تحفز لهجوم، وطليعة لمكيدة جديدة. فقال عياض:

ـ إن هشاماً لا يستطيع أن يمس الوليد، ولكنه سيصب غضبه علىّ وعليك يا أبا وهب. فقد بلغنى من مولاه يعقوب ـ وهو جاسوس لى عليه ـ أن حديثاً جرى منذ يومين بشأن الوليد وندمائه، وأن جواسيسه نقلوا إليه بعض شعرك الذى تمدح به الأمير وتذكر ما يرجى منه إذا ولى الخلافة، وترمى فيه هشاماً بأقبح الصفات، فغضب حتى كاد يعود حوله عمى، ثم صاح: والله لأقصّن جناحيه، ولأفرقنّ عنه قرناء السوء الذين يمالئونه علىّ! والرجل بطّاش منتقم، يقتنص العصفور من بين براثن النسور، ولا يترك أعداءه للمقادير. وهنا قال عبد الصمد بن عبد الأعلى:

ـ وكل حقده علىّ أنى لم أخضع لأمره، ولم أقنع الوليد بالتخلى عن ولاية العهد. فأسرع عياض وقال:

ـ إن لى ولك عنده ذنوباً لا يحصيها العد، ولكنا لن نبالى به، ولن نأبه لوعيده، وسنكون ألصق بالوليد من جلده، وأقرب إليه من عقوده، ولو لقينا فى سبيل ذلك الموت.

ولله غيب هو مظهره، ولعلها غمرات ثم ينجلين، وظلمة يتبعها سفور الصباح. إن الرجل مضطرب مصاب بمرض يسمى ولاية العهد ووجوب انتقالها إلى ابنه مسلمة. فصرخ الوليد:

- دون هذا وتسيل الدماء. إن ولاية العهد قد كتبت فى سجل القدر، ولن يستطيع هشام أن يمحو مدادها ولو استعان بأمواج البحار. ثم قام فى اختلاج واضطراب إلى ندمائه فأخذ يقبّلهم واحداً واحداً، والدموع تنهمر من عينيه، وهو يقول: أنا أعلم أن المكروه سيصيبكم من أجلى. ويل لى! وويل لكم منى. أليس مما يمزق القلب أسفاً أنى لا أقدر أن أدفع عن أصدقائى وخلصائى؟ إننى إزاء بطش هذا الرجل أضعف من ذات خمار. ولقد عرف كيف ينتقم منى فيكم، وعرف كيف يحرمنى بفقدكم طيب الحياة. إننى أعلم أن كلمة واحدة من فمى تنقذكم جميعاً، ذلك بأن أذهب إلى هشام وأقول له إنى تخليت راضياً عن ولاية العهد، ولكنى لن أفعل شيئاً من هذا، لأنى أعلم أنى أحب إليكم من أنفسكم، وأنكم تفدوننى بأرواحكم، وأن أكبر آمالكم أن أصبح خليفة وأن أشفى نفسى بدماء أعدائى. ثم ضحك طويلاً حتى كادت تسقط عمامته، وقال: موتوا مطمئنين أيها الأوفياء. ثم التفت إلى ابن سهيل وقال: ما أجملك مصلوباً يا أبا وهب، وقد امتدت ذراعاك فى الهواء كأنك لا تزال تذكر عناق الحسان. لا تجزع يا حبيبى، ومت آمناً فسأقتل بك عشرين فتى من فتيان بنى أمية. أما أنت يا ابن مسلم فمما تطيب له نفسك أن تعلم أن سيفاً منذ طبعت السيوف لم يقطع عنقاً أشرف ولا أكرم من عنقك. فلا تبتئس أيها الصديق، وسر إلى الموت كريماً، فسأقتل بك خمسين فتى من فتيان بنى أمية. وهنا صاح أشعب بصوت يشبه نقيق الضفادع قائلاً: أما أنا أيها الأمير فسوف أموت فرحاً مسروراً، لأنك ستقتل بى مائة عجل من عجول بنى أمية! فأغرق القوم فى الضحك، وقام الوليد يعدو وراءه، ففرّ منه وهو يقفز أحياناً، ويمشى على رأسه أحياناً، ولجلاجله صليل ورنين. ثم صاح به الوليد:

- ماذا كان جواب الرسالة التى بعثتك بها يا قرد السوء؟ ولِمَ لم تخبرنى بما تم فيها بالأمس؟

- انتظرتك حتى تفرغ من مجالسك يا أبا العباس، وكنت أظن أن ذلك لن يكون إلا فى العام المقبل.

- سأكون فى العام المقبل خليفة فلا أحتاج إلى الاستشفاع بك.

ـ ولكنك ستكون بطبائعك الوليدَ بن يزيد الذى نعرفه جميعاً فلا تستغنى عن شفاعتى. فضحك القوم، وقال ابن سهيل: ما تلك الرسالة أيها الأمير؟

فتأوّه الوليد وغشيت وجهه سحابة من الحزن وقال:

ـ رسالة إلى سعدة.

ـ ألا تزال تذكرها؟

ـ دعنى بالله يا ابن سهيل ولا تثر لواعج نفسى، فإننى كلما ذكرت عهدها طار بى الشوق إليها وهزّنى نحوها الحنين. إننى رجل منكود الحظ، شقىّ الطالع، لا أكاد أصل فى سلّم السعادة إلى درجة أشرف منها على الحياة حتى يسقط بى السلم فى هوّة لا ينادى وليدها، ولا يرجى فقيدها. لقد كان حبنا سماوياً لم ينعم بمثله زوجان فوق الأرض الفانية، ولقد مرّت بنا سنوات كأنها بسمات الروض لأشعة الصباح عشنا فيها تظلنا دوحة الحب سعيدين هانئين.

ـ إلى أن رأيت أختها سلمى.

ـ إلى أن رأيت اختها سلمى يا ابن سهيل، ويلاه. ليت هذا اليوم لم يكن. ذلك كان يوم أن ذهبت لأعود أباها سعيد بن خالد، وإنه ليوم بالغ الأثر، شديد الخطر، تبدّلت فيه حياتى، واضطربت من بعده أيامى، لمحت فيه سلمى وقد برزت بوجه لم تشرق الشمس على أجمل منه، وقامت حولها جواريها ليسترنها عنى ففرعتهن طولاً، فاهتز لها قلبى، وخفقت جوانحى، ورحت بها صبّاً متبولاً لا يستقر لى قرار، ولا ينطفىء أوار.

ـ لذلك طلّقت سعدة لتفوز بأختها.

ـ نعم طلقتها فى لحظة جنون، وكنت أظن أن الوصول إلى سلمى بعد ذلك من أهون الأمور، وأنه ليس علىّ إلا أن أخطبها من أبيها فيجيب شاكراً مسروراً.

ـ ولكن هشاماً وقف بينك وبينه، وحال بين الثمرة اليانعة وجانيها.

ـ نعم يا أبا وهب فرجعت صفر اليدين، أندب محبوبتين، وأعانى آلام غرامين، فلا على سعدة حصلت، ولا بسلمى ظفرت.

ـ والآن تريد أن تعود إلى مودة سعدة بعد أن هجرتها وهجرتك وبعد أن أصبحت ذات بعل؟

ـ إن غرامى بها يكاد يصل إلى حد الجنون ، وإن لى أملاً فى أن ينفصم عقدة زواجها فأعود إليها كما كنت زوجاً وافر الحظ سعيداً .

ـ عجيب كل أمرك أيها الأمير، وأعجب ما فيه أنك بعد أن عاودك الهيام بسعدة لا تزال تحب سلمى .

ـ لا أزال أحبها؟ إننى أحبها كما يقول ابن أبى ربيعة : «عدد الرمل والحصى والتراب» إن لى فى الحب يا ابن سهيل مذهباً لا تعرفه .

ثم اتجه إلى أشعب وصاح : ماذا كان جواب الرسالة أيها القرد الأحمق؟ فتقدم منه أشعب وهو يتصنّع الخوف وقال :

ـ ذهبت إليها بالأمس يا سيدى فلما أذن لى عليها، رأيت صورة رائعة الحسن ما وقعت على مثلها عيناى، فملكتنى الدهشة ، وتعثّر بى لسانى ، فلما اطمأنت نفسى ، واستقرّ بى مجلسى ، وقفت أقول وأنا أرتعد رعباً : يا سيدتى هذه رسالة مولاى إليك ، وهو يقول لك فيها :

أسعدة هل إليك لنا سبيل؟ وهل حتى القيامة من تلاقى؟
بلى، ولعل دهراً أن يواتى بموت من حليلك أو طلاق
فأصبح شامتاً وتقر عينى ويجمع شملنا بعد افتراق

وما كدت أتم البيت الثالث حتى صرخت فى وجهى ، وأخذت تصيح بخدمها : خذوا عنى هذا الفاسق الفاجر، جرّوه من رجليه ثم اقتلوه فى بستان القصر ولا تدنسوا بدمه بساطى . فلم أملك نفسى من الرعب والوهل ، وتعلقت بطرف ثوبها فى ذلة وتوسل وأنا أقول : ارحمينى يا مولاتى . ارحمينى بحق جدك عثمان بن عفان . لقد والله كنت أعرف أنى مقدم على مثل هذا، ولكن ماذا أصنع وأنا أشعب ، وقد أغرانى ثمن هذه الرسالة المشئومة؟ إن ثمنها يا مولاتى عشرة آلاف درهم ! عشرة آلاف درهم ! فابتسمت قليلاً وقالت : والله لأقتلنك أو تبلغه كما بلغتنى : فهدأت نفسى وقالت : وماذا تهبين لى من أجر على رسالتك؟ قالت : بساطى الذى تحتى . قلت : قومى عنه إذاً فإنى لا أحب بيع النسيئة .

فقامت عنه وطويته تحت إبطى، ثم قلت: هاتى رسالتك جعلت فداك. قالت: قل له:

أتبكى على لبنى وأنت تركتها؟ فقد ذهبت لبنى، فما أنت صانع؟!

وما كاد ينتهى حتى وثب عليه الوليد كأنه الجمل الصائل، ولكن أشعب استطاع أن يفر منه قبل أن يلثّمه بسوطه فصرخ الوليد: إنها تقول: فما أنت صانع؟ الذى أصنعه يا ابن أم الخلندج أن أدلّيك منكساً فى بئر، أو أن أقذف بك من قمة القصر، أو أن أضرب رأسك بسيفى ضربة أطيح بها رأسك. هذا هو الذى أنا صانع. فوقف أشعب فى ثباتٍ وثقة وقال:

ـ والله ما كنت لتفعل شيئاً من هذا.

ـ ولم يا ابن المجلودة؟

ـ لأنك لم تكن لتعذب عينين نظرتا إلى سعدة. فارتد الوليد عنه وهو يتأوه ويقول: نجوت يا ابن الورهاء. أغرب عنى أيها الأزرق المشئوم.

وأذن مؤذن المغرب فانتفض الوليد كمن يرفع رأسه من لجة غامرة، وتبدلت حاله، ولبسته صورة رائعة من الخشوع والتبتل، ونظر إلى السماء فى ذلة وخشية، وأسرع غلامه سبرة فأحضر إبريقاً وطستاً فتوضأ، وقام القوم فتوضئوا، ثم صاح بصوت هز أرجاء القصر: الصلاة الصلاة. ونهض فأم من بالقصر، فلما فرغ من الصلاة أخذ يجاذب ندماءه طرائف الأحاديث والأخبار، حتى إذا مر طرف من الليل صاح: أين النوار؟ أين سعاد الكوفية؟ أين جامع لذتى ومحيى طربى؟ أين عمر الوادي؟ وكأنهم جميعاً كانوا يترقبون هذا الأمر، فما مرت لحظات حتى أقبل الجوارى والمغنون. فطلب إلى عمر الوادى أن يغنيه بشعره فى سلمى، فعزفت العيدان، وارتفع صوت الناى، ودقت الدفوف، وأخذ عمر يغنى هزجاً بالبنصر.

يا سليمى يا سليمى كنت للقلب عذابا
يا سليمى ابنةَ عمى برد الليل وطابا
أيما واش وشى بى فاملئى فاه ترابا
ريقها فى الصبح مسك باشر العذب الرضابا

فطار عقل الوليد من الطرب، وخلع جبته وقذف بها فى وجه عمر وهو يقول: خذها لا بارك الله لك فيها، ثم زدنى بالله زدنى، فانطلق يغنى رملاً بالبنصر:

يا من لقلب في الهوى متشعب؟ بل من لقلب بالحبيب عميد؟
سلمى هواه ليس يعرف غيرها دون الطريف ودون كل تليد؟
إن القرابة والسعادة ألّفا بين الوليد وبين بنت سعيد

فما أتم غناءه حتى قام الوليد فاختطف الدف من جاريته صدوف غاضباً وقال : أنت لا تحسنين الإيقاع يا جارية! دق عليه أنت يا ابن عائشة، وغننا بالله يا أبا كامل، فأسرع يغني :

ويح سلمى لو تراني لعناها ما عناني
متلفاً في اللهو مالي عاشقاً حور القيان
إنما أحزن قلبي قول سلمى إذ أتاني
ولقد كنت زماناً خالي الدرع لشاني
شاق قلبي وعناني حب سلمى وبراني
ولكم لام نصيح في سليمى ونهاني

فكاد يخرج من ثيابه لشدة الطرب، فلما هدأت نفسه، وثب مسرعاً إلى الجناح الذي تسكنه أمه، وهو يصيح : يا سبرة أطرد المغنين، واصرف الجواري، فقد سئمت هذا العبث. أخرجهم من القصر إن شئت فإنهم جنود إبليس في هذه الأرض.

دخل الوليد على أمه حزيناً مطرقاً يكاد يطفر الدمع من عينيه، وكانت أمه بنت محمد بن يوسف بن الحكم الثقفي أخي الحجاج بن يوسف، في نحو السادسة والأربعين، وهي على تجاوزها ريعان الشباب، لا تزال تزهى بلمحات جمال بارع، لم تذهب بنضارته السنون. وكانت مولعة بالوليد كثيرة التدليل له، والرفق به، والإغضاء عن هفواته.

دخل عليها فرآها جالسة على أريكة نجّدت بالحرير، وطرزت ستائرها بالقصب، وقد لفت رأسها بخمار من الحرير الأسود، فبدا منه وجهها كما يبدو البدر في حلك الظلام. وكانت تقرأ القرآن، وأبو رقية أمامها ممسك بالمصحف يستمع لتلاوتها.

وكان أبو رقية هذا في طليعة شبابه شديد الذكاء متوقد القريحة، تجرد لطلب علوم الدين والقرآن، فأوغل في الدرس، وواصل فيه ليله بنهاره، فغلبت عليه المرة السوداء، فاختلط عقله، وأصابته لوثة، وانتابه البله في أكثر أحواله. ولكنه كان يفيق أحياناً فيثوب

إليه عقله، ويعاوده ذكاؤه، ويصدر عنه من الدهاء والمكر ما يعز على أكثر العقلاء. وقد يرى في أثناء إفاقته أن من الخير له أن يتباله، فلا يكاد يفرق من يراه بين بلاهته المطبوعة، وبلاهته المصنوعة. ومما يؤثر من نوادره في إحدى نوبات جنونه، أنه كان يحمل مرة في طرف ثوبه بيض دجاج، فأحرده الصبيان وهموا برجمه بالحجارة، فخاف على البيض منهم، فوضعه على الأرض وجلس عليه حتى لا يراه منهم أحد.

واتفق عند دخول الوليد أن كانت أمه تقرأ قوله تعالى: ﴿ نبّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾. فانكب على يديها يقبلهما في حزن وخشوع، وهو يجهش بالبكاء ويغمغم: نعم يا أماه، إنه هو الغفور الرحيم، ولكن عذابه هو العذاب الأليم، فأين أكون من هذين؟ وهل تتسع رحمته لمثلي؟ إنه كريم يقبل التوب، ويغفر الذنب، ولكن اين غفرانه مني وأنا أشرد منه شراد البعير؟ اسأليه عني يا أماه أن يرد عني كيد الشيطان، فإني أخجل من دعائه والابتهال إليه. خذيني إليك يا أماه، وضميني إلى صدرك، فلعلي اعود كما كنت طفلاً نقي الذيل طاهر النقيبة، فقد استعبدتني نفسي، وأثقلتني همومي. فأقبلت عليه أمه تمسح على رأسه في حنان ورفق، وتملأ وجهه بقبلاتها، ثم قالت:

ـ خفف عن نفسك يا ولدي، فإن الدموع تغسل الذنوب، والخوف من الله أول مراتب التوبة النصوح. ثم ابتسمت وأخذت تربّت كتفه وتقول: ولكنك يا بني لا تكاد تعري أفراس الصبا حتى تسرجها وتركض بها غير مبال ولا هياب، ولا تكاد تحطب كأساً من اللهو حتى يسبك لك الشيطان كاسات. إن قلبك يا بني قلب مؤمن، إذا تيقظ كشف لك وجه الحق، فدعه دائماً متيقظاً.

ـ ليتني أستطيع يا أماه! إن ابن إبليس تمنى على أبيه لعبة يلهو بها فلم يجد له اللعين سواي. إنني افيق كما يفيق المحموم ثم أعود إلى الخمود. ويلتمع في نفسي نور من الحق كما يلتمع السراج في آخر الليل ثم يخبو. أرأيت هذا المجنون أبا رقية.. ؟ فصاح أبو رقية في استنكار: لست مجنوناً ولكني أشعر بالجنون أحياناً حينما أراني مدفوعاً إلى حب أمثالك يا أبا العباس، وإلى بذل ذات نفسي لدفع الشر عنهم.

ـ أتحبني يا أبا رقية؟

ـ نعم وأركب كل صعب للوصول إلى ما يرضيك.

ـ أتقول حقاً أيها الأبله؟

ـ لست بأبله لأننى لا أشرب إلا إذا ظمئت، أما غيرى فيشرب وهو ريان.

ـ وكثيراً ما صفروا لك لتشرب.

ـ خير لى أن أشرب مع الحمير من أن أشرب مع قرناء السوء.

ـ أما ذقت الخمر يا أبا رقية؟

ـ ذقتها بعينى عندما رأيت عربدة المخمورين.

ـ تباً لك من معتوه، والله ما رأيت لك مثلاً.

ـ إنك ترى كثيراً من أمثالى فى مجالس الشراب.

فابتسمت أم الوليد وأشارت إلى ابنها أن يكف، ثم سألت: ما شأن هؤلاء القوم الذين جاءا اليوم؟ لقد أخبرتنى صدوف بكل شىء.

ـ صدوف؟ إننى لا أحب هذه الجارية يا أمى على جمالها وكمال أدبها. لا أدرى لماذا؟ ولكنها نفرة أشعر بها كلما مددت إليها عيناً.

ـ إن صدوف من خير جواريك خَلقاً وخلقاً. ولقد شكت لى منذ أيام صدودك عنها، وانصرافك إلى غيرها.

ـ إن الحب والبغض شيئان نحسهما ولا نعرف أسبابهما.

ـ هذا حق، ولكن الكريم يجامل إذا لم يحب.

ـ بم أخبرتك صدوف؟

ـ أخبرتنى بكل ما قاله لك رسل هشام، وبكل ما قلته لهم. إنها خدعة الصبى عن اللبن يا بنى، فلا تركن إليهم. إن هشاماً يريد أن يتخلص منك، فإياك أن تمكنه من مأربه، وإن ولاية العهد لأمانة لله فى يديك فمت دونها كريماً، ولا تفرج عنها أصابعك. لقد مات أبوك بين سحرى ونحرى وهو ينظر إليك محزوناً مكموداً ويقول: الله بينى وبين من جعل هشاماً بينى وبين ولدى! فقد كانت ولاية العهد لك بعد أبيك يا بنى ولكن عمك مسلمة أدخل على أبيك الشبهة، وقد كنت صغيراً، فحمله على أن يعهد بها إلى هشام على أن

تكون لك من بعده، والآن وقد استمرأ هشام مرعاها، واستحلى أفاويقها، يهم بأن يخلعك ليخص بها ابنه من بعده. إن ذلك أبعد إليه من السماكين، وأنأى من الفرقدين. إن بقصر هشام أحابيل تنصب لك، ومكايد تدبر لهلاكك، فكن منها على حذر، وامش يا بنى كمن يمشى فى مسبعة لا يرد الطرف عن ناحية حتى يصوبه إلى أخرى، وخير سلاح ترد به كيد أعدائك أن تتخلى عما أنت فيه من لهو، فإنهم يجعلون التشهير بك ذريعة إلى نيل ما يؤملون.

- ليتنى أستطيع أن أتخلى.

- كن قوى العزم يا بنى، وغالب نفسك بالصبر والجلد. ألا تزال تحن إلى سلمى؟

- حنين النيب إلى إفالها. لقد قابلت أباها منذ أيام أمام باب الفراديس فسألته عن سلمى، وتذللت له، وألحفت فى المسألة، فما كان منه إلا أن نأى بجانبه فى أنفة وكبرياء، فأمسكت بذراعيه وقد اشتد بى الغيظ وقلت: سحقاً لك من رجل منخوب الفؤاد. الآن تردنى عنها، وكأنى بك وقد وليتُ الخلافة تتملقنى وتخطبنى لابنتك فلا أجيبك. فما كان منه إلا أن نتر ذراعيه من يدى وقال: إن امرءاً يجعل كريمته عند مثلك لحقيق بأكثر مما قلت. فلم أملك إلا أن أجبهه بما يكره من شتائم، وتركته مغضباً.

- لقد انقلبت الأوضاع يا بنى فى هذه الدولة، واضطربت الموازين. ولقد عشت حتى أرى سعيد بن خالد يأنف من مصاهرة الوليد بن يزيد. كنت أزور اليوم أم عثمان زوج هشام، فسمعت منها أن يزيد بن عنبسة يلح فى خطبة أختها سلمى، وأن هشاماً يميل إلى تزويجه بها. فوثب الوليد كأنما انقضّت عليه صاعقة ثم صاح: ويل للفاجر. يزيد بن عنبسة يخطب سلمى! إنه أقل من أن يشرف بنيل إحدى وصائفها. ألهذا جاء إلىّ اليوم فى صورة الأمين الناصح، وجعل من نفسه صنيعة لهشام ليشهّر بى، ويملأ الآفاق بمذمتى؟

- أخشى أن يكون تزويجه بسلمى جزءاً من المكيدة التى تدبر لك.

- لو نال منها شعرة لروّيت منه سيفى.

وبينما هما فى الحديث إذ سمعت ضجة فى القصر، ودخل سبرة مذعوراً وهو يلهث ويقول: قدم يا مولاى خالد بن القعقاع رئيس شرطة هشام، ومعه كثير من أعوانه، فوثبوا على القصر وقبضوا على ابن سهيل وعياض وعبد الصمد، وكبلوهم بالأغلال، ثم ساقوهم إلى سجن الخلافة. وكان أبو رقية ينصت دهشاً، وقد اتسعت حدقتاه حتى كادتا تملآن

وجهه، وتمتم بكلمات زادها الجنون إبهاماً. وسقط الوليد لهول الخبر، ثم أخذ يئن أنين المجروح ويقول: أصدقائي! أحبابي! ندمائي! اللهم أجرني منه! اللهم أجرني منه!

أنــا النــذير لمســدى نعمــة أبداً ... إلى المقــاريف ما لم يخبــر الدخلا
إن أنــت أكرمتهــم ألفيتهــم بُطراً ... وإن أهنتهــم ألفيتهــم ذللا
أتشمخــون ومنــا رأس نعمتكم؟ ... ستعلمــون إذا أبصرتــم الدولا
أنظــر فإن أنــت لم تقــدر على مثل ... لهم سوى الكلب، فاضربه لهم مثلاً

ثم وثب فجأة، وأمر سبرة أن يدعو المغنين، وانطلق من باب الحجرة كما ينطلق السهم، وهو يصيح: إلى مطلع الفجر! إلى مطلع الفجر!

سجن وإطلاق

كان هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى فى نحو الخمسين من عمره، وسيم الوجه، أبيض البشرة بادناً، عريض الجبهة، حسن اللحية، يخضب بالسواد، فى عينيه حول. وكان حازماً ذا رأى ودهاء، من رآه رأى رجلاً محشوّاً عقلاً. وكان بخيلاً جماعاً للأموال. وكان يجلس فى هذا الصباح بدار الخلافة، وقد وقف أمامه كاتبه سالم أبو العلاء، وجلس إلى يمينه ابناه مسلمة وسعيد، وإلى يساره جمع من رجال بنى أمية، منهم يزيد بن الوليد وإبراهيم المخزومى ويزيد بن عنبسة. وأخذ سالم يقرأ عليه ما حمله البريد من أخبار الأطراف، وما بعث به الولاة والقواد من رسائل، وما ورد من العيون والجواسيس الذين كان يبثهم الأمويون فى أقطار الدولة.

وقرأ سالم أول ما قرأ رسالة من حسان النبطى، يذكر فيها: أن خالد بن عبدالله القسرى، عسف بأهل العراق، وسلب أموالهم بالقهر، حتى لقد بلغت غلته عشرين ألف ألف درهم. فزمجر هشام وصاح: بمثل هؤلاء الولاة تزول الدولة، وتنهار الممالك. والله لأردنّه إلى بغلته وطيلسانه الفيروزى؟ اكتب إلى يوسف بن عمر عامل اليمن بولاية العراق، ومره أن يسجن ابن النصرانية وعماله، وأن يحتجز كل ما لهم من صامت وناطق. لن يشرب ماء الفرات بعد اليوم، وأنا ابن عبد الملك. إن الدولة بولاتها، فإذا فسدوا فسد فيها كل شيء. هل من حدث آخر يا أبا العلاء؟

ـ وهذا يا أمير المؤمنين كتاب منّ خراسان بعث به عذافر بن يزيد يقول فيه: إن خراسان أصبحت عشّاً للفتن، ووكراً لشيعة بنى العباس، ينشرون فيها دعوتهم، ويبعثون

منها رسلهم، ويعدون فيها ما استطاعوا من قوة، ويتلقون بالطاعة ما يأمر به محمد بن علي بن العباس المقيم بالحميمة. وقد كتب عذافر يقول: إن سليمان بن كثير وبكير بن ماهان، يعملان جاهدين في خفية وحذر، لدعوة الناس إلى بني العباس، وصرفهم عن بني أمية. ويقول: إن شاباً نشأ بأصفهان يكنى بأبي مسلم، سيكون له شأن وخطر، وإنه دولة في شخص، وجيش في رجل، وإنه ألد الخصام، واسع الحيلة، وإذا لم يقض عليه في أول نشأته، عظم أمره، وأثارها شعواء لا تبقي ولا تذر.

ـ إن خراسان مكمن الداء في هذه الدولة، وهي حصن أعدائنا الناقمين علينا. وهذا بكير بن ماهان يعمل منذ أن وليت الخلافة على الانتقاض عليها، وإيغار الصدور على ولاتها. أليس في مملكتي رجل كريم العم والخال، عربي الأرومة يوجر رمحه في أحشاء هذا الكلب العقور؟.. ويل للخلافة من نصرائها. إنها تتلهف إلى حجاج ثان يثبّت ما اهتز من أركانها. ثم إني حرت في أمر محمد بن علي هذا، إنك حيثما قلبته لا تجد إلا زهداً وصلاحاً وانصرافاً إلى الله وتبتلاً. إن اليد لترتعد إذا امتدت إليه بسوء، وإن السيف ليتحطم في غمده قبل أن يسل في وجهه. ولكني أخشى أن يكون لابساً غير ثوبه، وأن يكون ساتراً وراء هذا الزهد خبثاً وخديعة وفتكاً. وكلما ذكرت خبر أبي معه تملكني الخوف، واعتصمت بالحذر. ذلك أن محمداً هذا ورد مع أبيه على أبي، وكان بالمجلس قائف يلمح ما غاب عن الناس من أحكام القدر، فلما انصرف التفت أبي إلى القائف وسأله: أتعرف هذا؟ قال: لا، ولكني أعرف من أمره واحدة. قال: وما هي؟ قال: إن كان الفتى الذي معه ابنه فإنه يخرج من عقبه فراعنة يملكون الأرض، ولا يناوئهم مناوىء إلا قتلوه. فالتفت إليه يزيد بن الوليد وقال:

ـ هون عليك يا أمير المؤمنين، فذلك حديث خرافة، والله لا يطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول. وأنصار العباسيين بخراسان حفنة متخاذلة يكفي أن يسوقها أحد عبيدك بالسوط إلى طاعتك.

ـ لا تستهينوا بصغار الأمور يا بني أمية، فإنها إحدى علائم زوال الدولة.

ـ إن الدولة بخير يا أمير المؤمنين، وقد قمت بالأمر فيها ثماني عشرة سنة فثبت دعائمها، وشددت أركانها.

ـ أتستكثر عليّ ثماني عشرة سنة في الخلافة؟ ويل لكم من بعدي! والله ما تشبثت

بأهدابها إلا لأصون ملكاً ضيعه أهله، وعبث به فتيانه، ولقد أعلم أن كثيراً منكم يعيبنى بأنى حفى بالخلافة، أكاد أعض عليها بالنواجذ. نعم إننى عليها حريص، وبها ضنين، ولكنى أرى بعين بصيرتى مجداً يترنح، وعرشاً تكاد تسقط قوائمه، فأود لو امتدت حياتى، وتنفس لى العمر حتى أعيد إلى الخلافة مجدها القديم. عجيب شأن الإنسان، لا يكاد يكتمل حتى يذبل ويدركه الموت، وإن فى الحياة ومطالبها وغاياتها ما يضيق به عمره القصير الأمد. أليس من أعجب العجب أن تعيش السلحفاة، وهى من أحقر المخلوقات، مائتى عام، وأن تضن الحياة على الإنسان المسكين بأكثر من ستين أو سبعين عاماً؟ ولو أنه عاش عمر السلحفاة لصنع العجائب، وأتى بالمعجزات. وماذا نعمل بالحياة إذا كنا نموت كلما أوشكنا أن نفهم حقيقتها؟ ثم زفر زفرة طويلة، واتجه إلى كاتبه سائلاً:

ـ أعندك شىء آخر؟

نعم يا أمير المؤمنين قبض الشرط بالأمس على رجل بالقرب من الباب الشرقى كان بداره قيان وخمر وطرب، وقد أحضرناه ومعه البربط الذى كان يعزف به.

ودخل الرجل فوثب هشام من مجلسه واختطف البربط من يده، وهو يصيح مهدداً: والله لأكسرن هذا الطنبور على رأسك أيها الفاجر؟ فبكى الرجل، وأغرق فى البكاء، فسأله هشام عن سبب بكائه. فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أبكى من خوف الضرب، وإنما الذى أبكانى أنك تهين البربط وتسميه طنبوراً.

ولم ينفع الرجل بكاؤه ولا توسله، فضُرب وكسر بربطه أو طنبوره على رأسه. وبعد انصرافه اتجه هشام إلى كاتبه يسأله عمن قبض عليهم بالأمس من ندماء الوليد، وعما فعل بهم.

ـ قذفنا بهم فى سجن الظلام مكبّلين يا أمير المؤمنين.

ـ إن هؤلاء شياطين الشر وأس البلاء، ولولاهم ما ركب الوليد رأسه، ولا أطاع هوى نفسه. ولقد بعثت الزهرى إليه بالأمس لينصح له فلم يلق منه إلا نكراً، وإن من الخيانة لعهد الله ورسوله أن تترك الخلافة فى يد هذا الفتى. يقولون إننى أريد أن أصرفها إلى ولدى مسلمة، وأقسم إننى لو رأيت فى ابن أخى خيراً ما جال هذا الأمر لى بخاطر. إننى أريد أن أرقد فى قبرى هانئاً مستريحاً، وأن أترك خلق الله فى رعاية من يخاف الله.

ولو حال ابن أخى بينى وبين ما أحب لهذه الأمة ، لرويّت منه سيفى غير مستحقب إثماً.
وبينما هو منساق فى حديثه ، إذ دخل الوليد وهو يمشى فى بخترة وعجب ، شامخ الأنف ، أصيد العنق ، فحيا أمير المؤمنين ثم جلس بجانبه حتى التصقت ركبته بركبته ، وكاد يزحمه فى مجلسه . ونظر إليه هشام نظرة المغيظ المحنق ، ثم أسرع فبسط له وجهه كأنما طافت برأسه فكرة خاطفة صرفته عن نيته . وشرع الوليد يقول:

ـ لقد بعث أمير المؤمنين إلى نفراً من جماعته بالأمس ليثلبوا عرضى ، ويحطوا ما رفع الله من كرامتى ، فى أثواب ناصحين مشفقين ، وما كنت لعمر الله لأصبر على هذا الضيم ، لولا أنهم رسل أمير المؤمنين . إن أبناء عبد شمس وهم سادة الجاهلية وخلفاء الإسلام ، أقوى شكيمة ، وأحمى أنوفاً من أن يطاطئوا رءوسهم لناصحٍ متطفل . ثم ما هذا الذى فعلته يا أمير المؤمنين مما أقض مضجعك ، وجعلك تترك شئون الخلافة لتفرغ لى ولأخدانى؟ أأحدثت فى الدين حدثاً؟ أم هدّمت من الخلافة ركناً؟ أم جرّدت للفتنة جيشاً؟ إننى أعيش فى قصرى بعيداً عنك وعن حاشيتك وبطانتك ، ولكننى لا أسلم من رِقبة جواسيسك وتطلع عيونك ، حتى أصبحت هدفاً لكل رام . ثم لم يكفك هذا فعملت كادحاً على الانتقام منى ، فقطعت عنى عطاءك لأذل لك وأستكين ، وأستجدى جدواك . وأقسم بمن خلق للحق ميزاناً ، وأعد للطاغين نيراناً ، إنى ما سررت بعطائك ، ولا حزنت لانقطاعه . فقد سبب الله لى من العهد ، وكتب لى من العمر ، وقسم لى من الرزق ، ما لا يقدر أحد دون الله على قطع شىء منه دون مدته ، ولا صرف شىء منه عن مواقعه . ولعل من الخير لك يا أمير المؤمنين أن ترعى فى أواصر القربى ، وأن تذكر أبى الذى آثرك بها على ولده .

فإن تك قد مللت القرب منى ... فسوف ترى مجانبتى وبعدى
وسوف تلوم نفسك إن بقينا ... وتبلو الناس والأحوال بعدى

إنى جئت اليوم يا أمير المؤمنين لا لأطلب شيئاً لنفسى ، وإنما جئت لأسألك فى فكاك أصحابى الذين ألقيت بهم فى السجن ، وليس لهم من جرم ، إلا أنهم بى حفيّون ، ولعهدى مخلصون ، وإذا كان لا بد لغضب أمير المؤمنين من متنفس فليصبه علىّ وحدى ، فأنا به أوسع صدراً ، وأكثر احتمالاً .

فاربدّ وجه هشام ، وانتفخت خياشيمه من الغضب ، وصاح فى وجهه :

ـ إنى لن أترك الخلافة بين زق وعود ، ولن أتركها لندمائك يبيعونها للأعداء . أما ما

ذكرت من قطعي ما كنت أجريه فإني أستغفر الله من سبق إجرائه عليك، وأرجو أن يعفو الله عني بعد أن تداركت الأمر، وأسرعت بقطع مال كان ينفق في غير وجهه. وأما ندماؤك فهم عندي جذور الشر ومعاول الفساد، وهل زاد ابن سهيل ـ لله أبوك ـ عن أن يكون مغنياً زفّاناً، قد بلغ في السفه غايته؟ وهو مع ذلك ليس بشر ممن تستصحبهم في الأمور التي أكرم نفسي عن ذكرها. وهل عياض ابن مسلم إلا وسيط سوء بيني وبينك، ومزوّر أخبار يستشيرك بها على أهلك وقومك؟ وهل عبد الصمد إلا رجل احتال للوصول إليك ليكون لك معلماً ومؤدباً، ثم انقلب فاجراً معربداً، وشيطاناً مغوياً؟ إن سجن الظلام منذ أن بناه الروم في عهودهم السحيقة لم تضم جدرانه، ولم يظل سقفه، أكثر إجراماً، ولا أخبث أنفساً، ولا أجرأ على الشر من ندمائك الملاعين. لن يفك لهم إسار، ولن يروا نور الحياة، ما دام فيّ نفس يتردد. وأقسم لولا صلة القربى التي ذكرتها، ولولا أن يشمت الأعداء ببني مروان، لألحقتك بهم. يا حرَسيّ، سر أمامنا إلى السجن لنرى الوليد أحباءه فلعله يرى فيهم عظة ومعتبراً.

ـ لن أذهب معك يا أمير المؤمنين، فإني أخشى أن ينقض علينا غضب من الله ونحن في السجن.

ـ إن غضب الله لا ينقض إلا على الغاوين.

ـ إن كثيراً من الناس لا يعرفون أنفسهم.

ـ ولو عرفوها ما هزوا أعواد الخلافة باستهتارهم، ولكفى الله المؤمنين شرهم.

ـ وأي شر في مجالسة صديق وسماع لحن من الثقيل الأول؟

ـ زوال الإسلام يا فتى، وذهاب ريح المسلمين. هلم إلى السجن لتمتع النظر بأصدقائك المخلصين.

فسار الوليد خلفه في تثاقل واستكراه كأنما يقاد بالسلاسل، ووصل الخليفة والحاشية إلى السجن بعد قليل.

وهو سجن روماني قديم نحت في باطن الأرض، ينزل إليه النازل بدرجات تبلغ الست والثلاثين، وهو متسع الرقعة، لا يزيد ارتفاعه عن قامة الرجل، وقد قسم بالبناء حجرات صغيرة يقيم بها المسجونون، وبه بئر عظيمة، بعيدة الغور تسمى «بئر الموت»

تلقى بها جثث من أنقذهم الموت من ويلات هذه الجحيم. وقد تراكمت به الأقذار، حتى أصبحت أرضاً فوق أرضه، واشتد به الظلام حين حرم ضوء الشمس، وركدت به روائح العفن والقذر حين حرم نسمات الرياح. ولم يكن يفرق بينه وبين القبور إلا أن سكانه أحياء يشعرون فيتألمون، وسكانها أموات لا يشعرون. ظلمة لا تسمع فيها إلا شكاة الشاكين، ولا ترى فيها إلا أشباحاً هزيلة تروح وتجيء فى ضوء خافت من المشاعل تخفق فى اضطراب وضعف، كما يخفق قلب الطائر الجريح أقصدته السهام، وسجانون شداد غلاظ كأنهم زبانية السعير، وأنات وزفرات تتلهف إلى قسوة الموت بعد أن يئست من رفق الحياة.

دخل هشام السجن وقد وضع يده على أنفه كراهية أن تصل إليه ريحه، ومشى أمامه كبير السجن حتى وصل إلى حجرة ابن سهيل فرآه ملقى على الأرض فى مسح خلق، والسوط ينصب عليه من سجان عنيف صخرى القلب مفتول العضل، وهو يئن أنين المحتضر، ويستغيث فلا يجد مغيثاً. فأسرع الوليد وأمسك بيد السجان ثم وكزه بمرفقه فى غضب ونكر، حتى ابتعد عنه، واتجه إلى هشام فقال: يا أمير المؤمنين اجعلنى مكانه، أو مر هذا الجبار الأحمق أن يكف عنه. إن الموت يا أمير المؤمنين أروح له من هذا العذاب. فلوى عنه هشام وجهه، وأشار إلى السجان أن يمضى فى عمله، وجذب الوليد من كمه، وسار وتبعته الحاشية فشهدوا من عذاب عياض وعبد الصمد ما تقشعر له الجلود. وكان الوليد حزيناً مطرقاً يذرف الدمع مدراراً، وترسل أنفاسه حسرات إثر حسرات حتى إذا بلغوا إحدى حجرات السجن رأوا شيخاً فى الثمانين، وقد طال شعره، وامتدت أظفاره، ولم يبق منه السجن إلا عينين ذاهلتين، ونفساً قصيراً متلاحقاً، وجسماً كادت تبرز منه العظام. فسأل هشام كبير السجن عنه فقال:

ـ هذا يا أمير المؤمنين «مجاهد بن حبيب» كان من أصحاب «سعيد بن جبير» الذى خلع «الحجاج بن يوسف» وخرج عليه، فلما تمكن الحجاج من سعيد وقبض على أصحابه كان هذا منهم، فألقى فى هذا السجن ونسى ذكره، فبقى هنا إلى اليوم.

ـ هذا كان فى سنة أربع وتسعين!

ـ نعم يا أمير المؤمنين.

ـ ونحن الآن فى سنة ثلاث وعشرين ومائة ، أبقى الرجل منسيًا فى هذا السجن تسعاً وعشرين سنة؟ .

ـ نعم يا أمير المؤمنين .

وقرب الخليفة من الشيخ وصاح فى أذنه : قم أيها الشيخ . فأجاب فى صوت خافت :

ـ وهل أبقى فىّ السجن والهرم ساقين أقف عليهما؟

ـ خبرنا بحديثك .

ـ نسيته .

ـ من أنت؟

ـ كنت رجلاً فيما مضى ، ولكنى أصبحت اليوم جثة بها نفس يطيل فى عذابها .

ـ أتحب أن نطلق سراحك؟

ـ ماتت فىّ الرغبة والرهبة منذ زمن بعيد، فأصبحت لا أريد ولا أخشى .

ـ أنا هشام بن عبد الملك الخليفة .

ـ «وإذا قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟» صدق الله العظيم .

فاتجه هشام إلى كبير السجن وقال : أطلقوا الرجل . ثم التفت إلى كاتبه وأمره أن يمنحه ما يكفيه فى أيامه الباقية . وما كاد يخرج من السجن حتى رأى خادمه يعقوب يقبل إليه مسرعاً ، وقد تملكه الإضطراب والفزع ، وهو يصيح :

ـ مولاى مسلمة يا أمير المؤمنين ! !

ـ ما شأنه؟

ـ اختطفه اللصوص يا أمير المؤمنين ! فبهت هشام وصرخ :

ـ اللصوص؟ أى لصوص ويلك؟

ـ نعم يا أمير المؤمنين اختطفه اللصوص .

ـ كيف، ثكلتك أمك؟

ـ لقد خرج فى هذا الصباح كعادته على برذونة الطُّخارى، وصحبته إلى الغوطة، حتى إذا عزمنا على الرجوع بدا لنا من بعد رجل يضرب امرأة بسوط، لا تأخذه بها رحمة، وهى تصيح وتستغيث. فاشفق سيدى على المرأة، وجرى نحوها لينقذها وجريت معه، ثم نزل عن برذونه، وتقدم نحو الرجل شاهراً سيفه، وما كاد يفعل حتى خرج علينا كمين من الخلف فانقض علينا رجاله، وقبضوا على أيدينا فلم نستطع دفعاً، ثم شدوا وثاقنا فلم نستطع حراكاً، ثم جاءوا فربطوا على فمى وفم سيدى، وحملوه على جواد لهم، وانطلقوا به فى سرعة الريح العاصفة، وبقيت مكتوفاً مكموماً حتى عثر بى أحد الأعراب فحل وثاقى فأسرعت إليك يا أمير المؤمنين لتجد إلى إنقاذه سبيلاً.

ـ ويل لهم! يختطفون ابنى فى حاضرة ملكى وبين سمع أعوانى وبصرهم! أى طريق سلكوا لا أم لك؟

ـ لا أدرى يا أمير المؤمنين، فقد أثارت خيولهم غباراً حجب عنى طريقهم.

ـ صفهم لى.

ـ كانوا يلبسون ثياب الأعراب ولكنهم لم يكونوا من الأعراب، وقد دس أحدهم هذه الورقة فى يدى وهو يعقد وثاقى.

ـ هاتها ويلك! فناوله يعقوب الورقة، فأسرع إلى قراءتها وكان فيها:

إن لم تطلق عبد الصمد بن عبد الأعلى وابن سهيل وابن مسلم الليلة ذبحنا ابنك كما تذبح الشاة، وقذفنا به فى فناء قصرك. إننا جادون غير هازلين، وبيننا وبينك غروب الشمس فإن أطلقتهم نام ابنك الليلة على فراشه، وإلا فقد أنذرناك.

صعق هشام بعد أن قرأ الورقة، وأخذت يداه ترتعشان، ورمى الوليد بنظرة كادت تسحقه، وصاح بكبير السجن. أطلق الكفرة الفجرة أصحاب الوليد، وسوف يكون لى ولهم شأن، فإن للعذاب ألواناً غير السجون، وسيعلم الأنذال ما ينتظرهم بعد حين.

هجرة ولقاء

ترك الوليد هشاماً وهو يعجب لتصاريف القدر، ويفكر فى أمر الذين جرءوا على ابن الخليفة فاختطفوه فى النهار المبصر، كما تختطف السلع أو كما تطر الجيوب. ثم طاف بخاطره أن هؤلاء القوم إنما كانوا يعملون لأجله، ويحتطبون فى حبله، ويناصرونه على أعدائه، وأنهم ما أنقذوا ندماءه من براثن هشام إلا لحبهم إياه وبغضبهم الخليفة. من يكون هؤلاء يا ترى؟ ومن الذى دفعهم إلى هذه الفعلة الجريئة؟ ومن هو ذاك الذى أمدهم بالمال، ورسم لهم تلك الخطة المحكمة، وذلك التدبير الحاذق؟ أسئلة لم يستطع الإجابة عنها بعد أن فكر طويلاً، وأكدّ ذهنه طويلاً، فسار إلى قصره حتى بلغه فكان أول من قابله أبو رقية المعتوه بوجهه الأبله، وفمه المفتوح الذى لا ينقطع منه سيلان الريال، فقال الوليد:

ـ كيف حال الدنيا اليوم يا أبا رقية.

ـ الدنيا بخير لأنها تجرى على نمط مطرد، وإنما الناس هم الذين يتغيرون، ولو عاش الناس عيشة البهائم لرأوا أن للدنيا صورة واحدة جميلة تتكرر على مر الزمان. وإذا قلنا لهم: عيشوا عيشة البهائم قالوا: إننا مجانين. إن الإنسان هو الذى يشقى نفسه فى هذه الدنيا بمطامعه وبعد مطالبه وضغنه على كل من يزاحمه فى الحياة، أو يسبقه إلى لقيماتها. وكلما نال منها نصيباً زاد طمعه فلوّن الدنيا بألوان نفسه، فهو يرى فيها خوفاً وحقداً وخداعاً وطمعاً واغتصاباً، ولو حقق لعلم أن هذه الألوان البشعة إنما هى مرائى نفسه وصورها.

ـ مرحى أبا رقية. لقد أصبحت حكيماً بصيراً بالحياة بعد أن عمى عنها العقلاء.

فضحك أبو رقية ضحكة أشبه بصراخ الأطفال وقال:

ـ وأين العقلاء أيها الأمير؟ إنى أخشى أن تعدنى منهم، أليس عجيباً أن العقل الذى يعرف الأشياء يعجز عن أن يعرف نفسه. وأن الناس يحصرون المجانين فيمن يرجمهم الصبيان بالأحجار، ولو علموا لرأوا أن الظالم والقاتل والمدمن والمبذر والشحيح والمزهو بنفسه وكثيراً من أنواع الناس، لا يعدّون فى صفوف العقلاء.

ـ هل تكره الظلم يا أبا رقية؟

ـ أكرهه وأدفع شره بنفسى وبغيرى. ثم رفع عينيه الذاهلتين إلى الوليد وقال:

ـ هل زرت الخليفة اليوم؟

ـ نعم، هل ذكرته حينما ذكرت الظلم والشر؟

ـ لا. ولكن نبئنى أوصلت إليه رسالة من أحد؟

فدهش الوليد وقبض بشدة على ذراعى أبى رقية الرخوتين وقال:

ـ من أنبأك بهذا أيها الأحمق؟ فابتسم أبو رقية ابتسامة الاطمئنان واليقين، وقال:

ـ الحمد لله لقد أفلح التدبير. وماذا فعل هشام؟

ـ أطلق سراح المسجونين. ومن أين لك علم كل هذا؟

ـ كان ذلك يسيراً على، فإن الخليفة حينما أرسل أعوانه إلى القصر فقبضوا على أصدقائك وقذفوا بهم فى السجن، علمت أن كل ذلك للنكاية بك والإساءة إليك، فذهبت باكياً إلى أمك فنفضت إليها الخبر، فقالت: وماذا أصنع فى الخليفة؟ فقلت: تعطيننى مائتى دينار. فابتسمت فى حزن وأسى، وقالت: ترشو بهما الخليفة؟ فقلت: لا، بل أعطيهما «خارجة القيسى» شيخ لصوص الشام، فقالت: وما شأنك باللصوص؟ قلت: إذا قسا الحاكم تحكم اللصوص. فتنهدت طويلاً ثم قذفت إلى بثمانية أكياس، فأسرعت إلى خارجة ورسمت له طريق العمل، ودعوت له بالتوفيق.

ـ لقد أجاب الله دعاءك يا أخا «هبنقة». ثم صاح: أين أشعب؟ فجاء إليه يحجل فى

مشيته كما يحجل القرد راعته عصا صاحبه، ثم رفع صوته محاكياً صوت الديك، ووضع رأسه على الأرض ورجليه إلى الأعلى، ثم انقلب فعاد كما كان، وقال:

- هل يريد مولاى الأمير أن يعطينى شيئاً؟

- أعطيك هذا، ثم قنعه بسوط كان فى يده، فأخذ يحاكى صوت الكلب حينما يقذف بحجر، فرمى إليه الوليد ديناراً فتلقفه بفمه فى مهارة بارعة ثم قال:

- الآن نستطيع أن نتحدث، ماذا يريد مولاى؟

- أتعرف ما كان من أمر ابن سهيل وعياض وعبد الصمد، فقد اعتقلهم الخليفة وعذبهم عذاباً شديداً، ثم أجبر مكرهاً على فك عقالهم، وهم الآن فى دورهم فاذهب إليهم أحضرهم إلىّ الساعة.

- أتريد أن أحل محلهم فى سجن الظلام؟ إن كل واحد منهم الآن محاط بجواسيس الخليفة، فهل تظننى أبا رقية حتى تقذف بى فى هذه المهالك؟

- أتريد أن تعيش فى قصرى منعماً مترفاً دون أن تتعرض لمخوف؟ إن الغنم بالغرم يا ابن جبير.

- لقد لقنتنى أمى ألا أحمل غرماً، وألا أتعفف عن غنم.

فأخرج الوليد من كمه كيساً وهزه فسمعت وسوسة الدنانير، وقال: وما تقول فى هذا؟

- الآن اذهب ولعن الله أمى. ثم أخذ يمط وجهه ويطوّله حتى بلغ وسط صدره وأصبح لا يعرفه من كان يعرفه، ثم وثب فاختطف الكيس من يد الوليد وانطلق كما ينطلق السهم عن القوس.

وبعد قليل أقبل ندماء الوليد ضعفَى يتوكئون حتى كأنهم خرجوا من معركة أثخنتهم جراحها، وما كاد يراهم الوليد حتى انقض عليهم معانقاً مقبلاً، ثم صاح: على بالمغنين. على بعمر الوادى وأصحابه. هذه ليلة الليالى وواحدة الدهر؟ وسننسى الآلام، وسننسى هشاماً. فأسرع المغنون إلى البهو ودخل بعدهم نحو الأربعين من الجوارى والقيان، بين روميات وفارسيات وتركيات فى الملابس الزاهية والحلى الباهر. وكان عمر الوادى قد

لقنهن أبياتاً للوليد فى سلمى، فأخذن ينشدن معاً بصوت ساحر بين رنين العيدان ونقر الدفوف:

خبرونى أن سلمى خرجت يوم المصلى
فإذا طير مليح فوق غصن يتفلى
قلت: هل تعرف سلمى؟ قال: ها. ثم تدلى
قلت: هل أبصرت سلمى؟ قال: لا. ثم تولى.

ولعب الطرب بالرءوس، وظفر شره العيون بجمال الوجوه فكان يلتهمها التهاماً.

وصاح رستم: لنرقص رقصة الفرس، لنرقص الفَنزج ولننشد معاً:

نجا عياض وابن وهب قد نجا ونال مولانا الوليد ما رجا
هلم نرقص فى هواه الفنزجا

فأخذ كل رجل بذراع فتاة، وتمايلت الرءوس، وماست الخصور، وسايرت الأقدام دقات الأنغام، واحمرت الوجنات، ولعبت العيون، وانطلقت الضحكات، وطغى المرح فأطلق لنفسه العنان، وطار العقل وغادر المكان، وكان صياح، وكان هرج، وكان نزق. وبينما القوم فى لهوهم إذ علا عند مدخل البهو صوت فيه رصانة، وفيه نبل، فنظر القوم مبهوتين فإذا أم الوليد فى جلال سمتها، واعتدال قوامها، ترسل نظرات ثاقبة ملؤها الغيظ والغضب، فأطرقوا فى خشية وخجل. فقالت:

ـ ما هذا يا بنى إن جواسيس هشام تحيط بقصرى من كل جانب، وقد كنت أرضى كارهة عن الغناء والطرب، أما رقصات العلوج وضجيجهم ففوق احتمالى وأكثر مما تسيغه طاقتى.

وما سمعها القوم حتى تسللوا لواذاً مطرقين وجلين.

وبقى الوليد وأمه وأبو رقية فالتفتت الأم إلى الوليد وقالت: يا بنى إن من يريد عرشاً لا يصل إليه من هذه الطريق، وإن هشاماً يقعد لك كل مرصد، ويسجل كل ما تأتى وما تذر، ليثبت لرجال بنى أمية أنك لا تصلح للخلافة، وأن الحقيق بها ابنه مسلمة. ولقد غشى حبى لك على سمعى وبصرى، فأغضيت عن شىء من اللهو، ولكنى أراك تستمرىء ما أنت فيه، وتجاوز الحد فيما لا يليق بك. فبكى الوليد بكاء الطفل واحتضن أمه، وسرت

العدوى إلى أبى رقية فسالت دموعه مدراراً. وقال الوليد. بين النحيب والنشيج :

ـ صفحك يا أمى. إنى ولد عاق حقاً. ولكن ماذا أعمل وخيال سلمى يعاودنى فى كل لحظة فيؤجج أشجانى، ويثير أحزانى؟ وكلما حاولت نسيانه والانصراف عنه وثب أمامى ساحراً فتاناً، يعبس مرة، ويبسم أخرى، ويغرس فىّ الأمل حيناً، واليأس أحياناً، حتى كاد يسوقنى إلى الجنون. إننى يا أمى أحاول نسيانه بهذا اللهو، وأجهد فى طرده عنى بضرب الدفوف وعزف المزاهر، إننى شقى يا أماه. جاه ومال وسلطان ودولة، ولكن أين السعادة بين كل هؤلاء؟ لا أرى لها أثراً ولا ظلاً من اثر. إن صلاحى فى سلمى، وحياتى ومماتى لها، فلو أنى نلتها أو فزت بكلمة منها لكنت أتقى الأتقياء، وخير الأصفياء.

وهنا تلعثم أبو رقية والدموع لا تزال تنهمر من عينيه وقال:

ـ إذا كان فى قرب سلمى صلاحك فلم لا تتزوجها؟ فابتدره الوليد قائلاً: ألم تعلم بما كان من أبيها أيها المجنون؟ ألم تعلم أنى أطرد دونها كما تطرد غرائب الإبل عن المناهل، وأنها أبعد إلى مناط الثريا وأنأى من آمال الحمقى؟

ـ هون عليك أبا العباس فكل شيء ينال إذا صبرت له حتى آمال الحمقى.

ـ وكيف ذلك يا رضيع «الجرنفش»؟

ـ إنى سأفكر بعقلى وأدبر لك لقاءها.

ـ لقد يئس العقلاء من اجتذابها إلى فلم يبق إلا المجانين!

ـ إن الناس يتقون العقلاء لأنهم يعرفون طرق تفكيرهم فيتحصنون منهم، أما المجانين فلهم أسلوب من الحيل لا يهتدى إليه العقلاء. سأذهب إليها غداً وستراها بعد غد.

فضحك الوليد ضحك اليائس، وأخذ يسخر من أبى رقية ويهزأ به، وأبو رقية مطرق لا ينبس. ثم طلب الوليد المصحف وشرع يقرأ حتى إذا انتصف الليل ذهب إلى فراشه.

وفى الصباح خرج أبو رقية من القصر، ولما ابتعد عنه كثيراً وقرب من قصر سعيد بن خالد، أخذ يهارش الصبيان ويغريهم بإيذائه، حتى إذا وصل إلى القصر شرعوا يرجمونه بالحجارة، وقد كثر عددهم، فطفق يصيح ويستغيث، وقد شج رأسه، فخرج العبيد فذادوا

عنه الصبيان وأدخلوه القصر، ولكنه استمر فى عويله، وأخذ يرفع الصوت بشتم الصبيان والدعاء عليهم. فأطلت عليه سلمى مع بعض جواريها وقالت:

ـ ماذا أصابك يا أبا رقية؟

ـ كل ما أصابنى بسببك يا سيدتى.

ـ بسببى؟ وهل أنا التى أغرت بك هؤلاء الشياطين؟

ـ نعم أنت. رأيت لك رؤيا بالأمس فأعجبتنى، فجئت لأبشرك بها، فقابلنى هؤلاء الأبالسة فشجوا رأسى. ألست أنت السبب فى كل هذا؟ فضحكت سلمى ضحكة فاتنة لو سمعها الوليد لباع بها ملك الشام والعراق، ثم أدركتها شفقة على الرجل، ورثاء لما أصابه، وعطف يحسه العاقل على المجانين، فدعته إلى حجرتها وقالت فى دلال وعجب:

ـ حدثنى بحديث هذه الرؤيا يا أبا رقية.

ـ إنها رؤيا جميلة جداً لم أخبر بها أحداً، وأنا واثق من أنها ستقع، لأنى لم أر شيئاً فى المنام إلا تحقق كما رأيته: رأيت مرة ليزيد بن عبد الملك أن حبيبته «حبابة» ستعود إليه، وقد كان يئس من لقائها، فعادت إليه بعد ثلاثة أيام، ورأيت لمسلمة بن عبد الملك قبل سفره إلى العراق أنه سيقود جيشاً لمحاربة يزيد بن المهلب، وأنه سيقتله، فلم يمض شهر حتى تحققت الرؤيا. نعم يا سيدتى إن العقلاء يرون الأشياء فى النهار حينما تجىء، ونراها نحن فى الليل قبل أن تجىء. فأغرقت سلمى فى الضحك وقالت:

ـ أسرع أبا رقية وخبرنى بهذه الرؤيا.

ـ لا بد أن آخذ البشرى أولاً.

ـ لك عشرة دنانير.

ـ لا يا سيدتى. وماذا أصنع بالدنانير؟ إننى أريد منك شيئاً أعظم من هذا، بشرط أن تقسمى لى بجدك عثمان بن عفان أن تعطينى ما أطلبه منك.

ـ أقسمت بعثمان فماذا تطلب؟

ـ أطلب طبقاً من هريسة.

فأغرقت فى الضحك، وأعجبها ما فى الرجل من بلاهة وظرف، وأشارت إلى الجوارى أن يغادرن الحجرة، واتجهت إليه قائلة:

ـ لك ما تطلب يا أبا رقية فاقصص رؤياك.

ـ رأيت يا سيدتى كأننى فى ميدان قصر الخلافة، وإذا بك أنت نفسك يا سيدتى تجرين فى ذعر ووهل، ووراءك أسد مفترس ما رأيت فى حياتى أشد منه شراسة وأنكر زئيراً، وكنت تصيحين وتستجيرين. فاجتمع الناس وملئوا جوانب الميدان، فأعدت النظر إلى الأسد، فإذا هو يتقلب رجلاً أمرق العينين أحمر الوجه، غزير شعر الحاجبين أصفر شعر اللحية كثّها، عظيم الشفتين، بخده الأيسر أثر ضربة سيف كاد يشوه وجهه.

فنظرت إليه سلمى فى ذهول وقالت:

ـ أنا أعرف هذا الرجل.

ـ أنا لا أعرفه يا مولاتى، ولكنى فى النوم سمعت الناس يصيحون. ابنُ عنبسة، ولا أدرى من هو.

ـ نعم هو ابن عنبسة، يزيد بن عنبسة، إنه خطبنى من أبى.

ـ هذا لم يكن فى منامى، ولا شأن لى بالرجل ولا بخطبته. انقلب الأسد رجلاً فى الوصف الذى ذكرت كأننى أراه أمامى الساعة وكان فى يده خنجر همّ أن يطعنك به، فصحت وحاولت التخلص من يديه، وبينما أنت كذلك إذ أقبل رجل يشق صفوف الناس، وسيفه فى يده، وعلى وجهه الشهامة والبطولة وغضب الكريم لعرضه وشرفه، فصاح الناس: الوليد أمير المؤمنين. الخليفة. فرجعت البصر فإذا هو مولاى الوليد ابن يزيد، فسألت رجلاً بجانبى: أأصبح الوليد خليفة؟ فأجاب نعم أصبح خليفة أيها الأبله، ألم تعلم أن هشاماً مات منذ سنوات، وأنه الآن خليفة المسلمين؟ فسكت وترقبت فإذا الوليد يهجم بسيفه فيشطر الرجل الذى أراد طعنك بخنجره شطرين، ويأخذ بذراعك فى رفق وحنان، ثم يمشى بك حتى يبلغ دار الخلافة بين صياح الصائحين، والدعاء لك ولزوجك أمير المؤمنين.

كانت سلمى ذاهلة واجمة، كأنها تسبح فى حلم آخر، وكانت بفطرتها جمة المطامع بعيدة الآمال طموحاً، وكانت تبغض ابن عنبسة لثقل فيه ودمامة، ولأنه جاوز سن الشباب، فلما تعرض لخطبتها طلبت من أبيها أن يسوّف الرجل ويمهله، لأن قلبها كان يهفو إلى الوليد على الرغم مما عرف عنه، وعلى الرغم من إباء هشام وتحريضه أباها ألا يزوجها

إياه. كانت تحب الوليد وتخاف رعونته، وكان مما يزهدها فيه ويخفف من ثورة حبها له سعي هشام الحثيث لخلعه من ولاية العهد، وإطباق أكثر الناس على أنه لا يصلح للخلافة، بعد أن أرخى لنفسه العنان. وإذا ضاعت الخلافة من الرجل لم يبق منه إلا شبح هزيل من بنى الإنسان لا جاه له ولا غناء فيه. ولكن الرؤيا التى قصها عليها أبو رقية محت من نفسها كل شك، وأججت خامد الآمال. فالتفتت إليه وقالت:

- وبم تعبر هذه الرؤيا؟

- إنها لا تحتاج إلى تعبير، إنها كفلق الصبح.

- وهل أصبح حقًا فى يوم من الأيام زوجة الخليفة؟

- ذلك بعد أن آكل الهريسة. فضحكت سلمى طويلاً ثم قالت:

- ولكنى لا أحب الوليد، وقد خطبنى من أبى فرد طلبه فى عنف وإباء، ! فكيف أتزوجه؟ لا يا أبا رقية إنك واهم، فلعلك رأيت فى منامك فتاة أخرى تشبهنى.

- لم أرك وحدى، إن الناس الذين كانوا في ميدان الخلافة رأوك معى، وقالوا: هذه سلمى بنت سعيد. على أنى أعرف أن الوليد بك صب مفتون، وأنه إنما يعبث ويلهو لينسى حبك بعد أن أيأسه أبوك من قربك، فلو أنه ظفر بك لرأى فى حبك كل ما يحجبه عن اللهو والمرح. ثم إنى لمحت منذ أيام أن جارية «عاتكة» بنت العباس بن الوليد قد أكثرت التردد على قصر حبابة، وأكثرت من الخلوة بالوليد، وعلمت من الجوارى أن عاتكة مفتونة بحب الوليد وأنها تحاول أن تجتذب مودته بعد أن يئس منك. ولست أبالى أتزوج عاتكة أم تزوج غيرها، ولكنى لا أحب عاتكة لأنى ائتمنتها مرة على حجر قذفنى به الصبيان فضيعته.

ثارت الغيرة فى نفس سلمى، وتيقظت فيها غريزة المرأة فقالت:

- وماذا أعمل للوليد وقد رأيت أنه محجوب عنى وعن قصرى؟ ثم ماذا أصنع وقد أقسم أبى ألا يزوجنى إياه؟

- إنه يريد أن يطفىء نار غرامه برؤيتك والحديث إليك، أما زواجه بك فقد كتب فى سجل القدر، ولن تستطيع يمين أبيك أن تمحو ما كتبه القدر.

ـ وكيف أراه وعلى ألف عين من أهلى؟

ـ ذلك هين يسير، إنه سيأتى إلى القصر غداً متنكراً فى هيئة رجل يبيع ثياباً، ومعه حماره وفوقه بضاعته، ولا تثريب عليك فى شراء ثياب من بائع ثياب. فصاحت فى خوف ممتزج بالفرح:

ـ أنت أعقل مجنون رأيته يا أبا رقية.

ـ وأنت أجن عاقلة رأيتها. عمى صباحاً، أرجو ألا ألتقى بالصبيان فى عودتى. ثم انفتل من حولها فكأنما ابتلعته الأرض.

وعاد أبو رقية إلى القصر فالتقى به الوليد وأمه فحدثهما بكل ما حاك من حيلة وتدبير، ودهش الوليد، واستبد به الفرح، وانكب على أبى رقية يقبله. وأرسل فاشترى أثواباً من جميع الأنواع، وما جاء الصباح حتى غير من زيه وهيئته على نحو ما يرتدى باعة الملابس، فلبس عمامة صفراء وسروالاً فضفاضاً وصداراً من الصوف الخشن، ولف حول رأسه شملة من الحرير الأحمر، وخرج من القصر بعد أن وضع الأثواب فوق حمار هزيل، حتى إذا بلغ قصر سعيد نادى بأعلى صوته:

أثواب وألوان، للعذارى الحسان. عندى من الحرير، ما ليس له نظير، حرير صنعانى، وحرير تنّيسى، وخز فارسى. ذهب بذهب، وعجب من عجب. فسمعته سلمى وأمرت إحدى جواريها أن تدعوه، فحمل بعض بضاعته ودخل القصر، فقادته الجارية إلى حجرة سلمى، فبهره حسنها، وكاد يفضحه جمالها، وأخذ يتلعثم ويتمتم، وهم بأن يمد إليها يده، فنظرت إليه عابسة، وأشارت إلى جاريتها بالخروج، فلما خرجت رمى بالأثواب، وانكب على يديها يلتهمهما لثماً وتقبيلاً، وجعل يئن ويقول:

ـ ارحمينى يا حبيبتى. أنت حياة روحى، وريحانة نفسى، أنت الهواء الذى أتنسم، والأمل الذى أناغى، والسعادة التى أرجو وإليها أصبو. نظرة واحدة تكفينى، وبسمة تقنعنى، وكلمة تفتح أمامى باب الرجاء.

ـ قم أبا العباس فبى مثل ما بك، وحبى لك صدًى لخفقات قلبك، ولكن أبى والخليفة يحولان دون هذا الحب.

ـ إن الحب لا يعرف الحوائل، إنه ينفذ إلى ما لا ينفذ إليه الهواء، ويحلق فوق ما لا

يصل إليه جناح ، فإذا أحببتنى فلا الخليفة ولا أبوك ولا الدنيا كلها بمستطيعة أن تقف بيننا .

ـ أحبك . فوثب عليها يقبل وجهها فى شغف وفتون . فابتعدت عنه قليلاً ثم قالت :

ـ اهدأ يا حبيبى فإنى لست لك بزوجة ، وخير لنا أن نصبر حتى يصل الله بين حبلينا ، ويقرب منا ما بعد.

ـ إنى سأكون خليفة ، وسأنعم بزواجك .

ـ هذا لا شك فيه .

ـ ولن تتزوجى ابن عنبسة .

ـ لن أتزوج به .

ـ وكيف أظفر بقربك قبل أن يتم زواجنا؟

ـ نبيع أثواباً كل أسبوع ، وتأتى إلينا بحمارك الناحل الأعجف . ثم قامت كأنها تدعوه إلى الإنصراف ، فوقف يودعها طويلاً ، فلما خرج وضع الأثواب على حماره ، وهو يكاد يطير من الفرح ، وأخذ يضرب الحمار بعصاه ويصيح :

أثواب وألوان ، للعذارى الحسان !

نار ورماد

كانت دولة بنى أمية عربية النزعة، شديدة التعصب لكل ما هو عربى، تنظر إلى الأعاجم فى تيه وتعاظم، وتحول بينهم وبين مناصب الدولة ومراتبها. ثم اشتط بعض الأمويين وغلا فى إحياء نزعات الجاهلية، ونبش ما دفن من أحقاد القبائل التى جهد الإسلام فى إماتتها، واجتثاث أصولها. فكان الخلفاء يؤثرون بعض القبائل بالمودة والعطاء والتجاوز عن عدوانهم، وكان كل وال من ولاتهم يختص قبيلته بالبذل والمحاباة. فمرة تكون المحاباة لليمانية، ومرة تكون للمضرية. وكان الناس يشعرون بكل هذا فيطرقون واجمين، ويسكتون وجلين، حينما كانت الخلافة فى عنفوانها، والدولة فى شبابها، والسيف مصلتاً فوق الرءوس، والولاة كلهم من طينة الحجاج بن يوسف الذى كان يقول: من قال برأسه هكذا، قلنا له بالسيف هكذا! فلما ضعفت الدولة بعد موت الوليد ابن عبد الملك، تطلعت رءوس من الفرس كانت مدفونة تحت أطباق الخوف، ونطقت أفواه من بنى العباس كان يسكتها الذعر والحذر. وامتد الزمان بدولة بنى أمية فزاد ضعفها باستنامة رجالها إلى النعيم، ففقدوا رجولتهم، وتسلبوا من خصائص عروبتهم. فكان ضعفهم قوة لأعدائهم، وتراخى حبلهم شدة وبأساً للخارجين عليهم. لهذا قوى أمر بنى العباس بمعاونة الفرس فى أواخر عهد هشام، وتجمع الناس حول دعاتهم بخراسان، وتكونت فى أكثر أقطار الدولة جماعات من أنصارهم، كانوا جميعاً يعملون سرّاً، ويعدون العدة فى الخفاء، وينتظرون الفرصة للانتقاض على الدولة وثل عرشها.

وكان بدمشق كثير من المحتطبين فى حبل العباسيين بين فرس وعرب، وهؤلاء كانوا

يبعثون بأخبار الخلافة وأسرارها إلى الزعماء بخراسان، ويتلقون أوامرهم وإشارتهم. وكانوا ينبثون بين الناس فيشيعون بينهم مساوىء الخلافة، وهفوات فتيان بنى أمية، بأسلوب شيطانى عجيب لا يلصق بهم تهمة، ولا يدع لسامعيهم شكّاً فى أنهم أمناء مخلصون للدولة، حريصون على بلوغها ما ينبغى لها من عظمة ومجد. يبدأ الرجل منهم فخوراً بمكانة الخلافة وفضل رجالها الأولين، وقوادها السالفين، وأنها رفعت راية الإسلام، ونشرت كلمة التوحيد في كل مكان، ثم يقول فى رنة حزن وبصوت تكاد تخنقه الغيرة، وتقلبه الحمية بكاء: هدى الله خلفاءنا السداد، وألهم فتيانهم التوفيق! أكان يفعل هشام كذا لو كان عمر بن عبد العزيز حيّاً؟ وهل كان يفعل الوليد كذا لو كان عبد الملك بن مروان حيّاً؟ ثم يزفر زفرة طويلة ويرفع عينيه إلى السماء داعياً للإسلام والمسلمين. هكذا كانت تعمل هذه الفئة الثائرة. ومن أخاليق هؤلاء وأكاذيبهم امتلأت كتب الأدب والتاريخ بكثير من مثالب الأمويين. وكان بين هذه الطائفة أشخاص اندسوا فى قصور الأمويين ليكونوا عليهم عيوناً، ولينقلوا أسرارهم إلى أعدائهم.

وفى إحدى ليالى شهر رجب سنة أربع وعشرين ومائة وصل من دمشق إلى الكوفة إسماعيل بن يسار رسولاً من الشام من قبل محمد بن على بن عبدالله بن العباس، فنزل بدار بكير بن ماهان وكان من كبار أنصار العباسيين، وأخبره بما قدم إلى الكوفة بسببه، فسهّل له بكير لقاء سليمان بن كثير الحرانى زعيم جماعتهم ومالك بن الهيثم، واتفقوا على زيارة يونس بن عاصم وعيسى وإدريس ابنى معقل فى السجن، وكان قد اتهمهم يوسف بن عمر عامل هشام على خراسان بالدعاء إلى بنى العباس. فلما ذهبوا إلى السجن قابلهم حارسه وكان رجلاً غليظاً مفرطاً فى الطول، متين البناء، ينطق وجهه بالشراسة والشر. فتعمد ابن كثير أن يسقط من كمه ديناراً، فأخذ يدور فوق الأرض، فانقض عليه الحارس يلتقطه، ثم رفعه إلى ابن كثير قائلاً:

ـ هذا دينار سقط منك يا رجل. فقال ابن كثير:

ـ خذه جزاء أمانتك، فإنما اللقطة لمن وجدها. ثم تعمد إسقاط دينار ثان فانكب عليه الحارس وقال: وهذا دينار آخر. فأطبق عليه ابن كثير كف الحارث وقال:

هو لك أيضاً، فقد أحسنت فى الأولى والثانية، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ فبهت الحارس لهذه الأريحية، ثم اتجه إليه ابن كثير سائلاً:

ـ هل بين ضيوفك فى هذا السجن عيسى بن معقل؟ فإننا قوم من أهله جئنا لنراه ولنحدثه فى أمور أولاده وضياعه.

ـ إن ابن عمر يحظر أن يلقاه أحد، ولكن أوامر الرؤساء دائماً تصدر لتنقض، فلا تثريب عليكم من أن تروه على شرط ألا تطيلوا المكوث، وعلى شرط ألا تتحدثوا فى أمر بنى العباس.

إن لنا من الشغل بأنفسنا ما يذودنا عن الحديث فى شئون غيرنا. وأشار إليهم الحارس بالدخول فوصلوا إلى حجرة المسجونين، وكانت واسعة فسيحة منعزلة فى ناحية من البناء، وما كاد يراهم من بها حتى أسرعوا إليهم فرحين معانقين، وأخذوا يمطرونهم بالأسئلة عن محمد بن على بن عبدالله وعن ابنه وخليفته إبراهيم الإمام، ثم عن الدعوة بخراسان، وعن قوتها ونشاطها وانتشارها. وكان يخدمهم بالسجن شاب قصير فى نحو الرابعة والعشرين، أسمر اللون نقى البشرة أحور العينين عريض الجبهة، كانوا يدعونه أبا مسلم، وهو أبو مسلم الخراسانى الذى كانت تدخر له الأيام عظمة ومجداً، وهو الذى أقام بسيفه ورأيه بعد ثمانى سنوات لبنى العباس دولة شامخة الذرا راسخة البنيان.

جلس الجماعة بعد التحية وتبادل الأشواق، فقال ابن كثير فى صوت خافت:

ـ هذا إسماعيل بن يسار شاعر الطائفة العباسية ومذيع فضلها وناشر مناقبها، قدم بالأمس من الحميمة بعد أن قابل ابن عم رسول الله وزوده بما يجب علينا عمله لإشعال الثورة على الأمويين وبثها فى كل مكان، وهو يستطيع أن يحدثنا بكثير من أخبار فتيان بنى أمية وعبثهم، وسخط الناس عليهم، وقد يهدينا تبادل الرأى وتجاذب التفكير إلى ما يحسم هذا الأمر، وإلى أن نرسم طريقاً نمضى فيه إلى الغاية موفقين. لقد بلغ السيل الزبى، وجاوزت الشدة طاقة الاحتمال، ولا بد من ضربة سيف قاصمة مصممة تفرق بين الحق والباطل، وتعيد الخلافة إلى أهلها. فصاح أبو مسلم والدموع تتناثر من عينيه:

ـ نعم لا بد من ضربة سيف، ولا بد أن يمحى كل أثر لأبناء عبد شمس.

ـ اهدأ يا بنى فإن الرأى لا تنضجه نيران الغضب.

ـ إن الغضب هو الذى يصهر العزائم ويشحذ الهمم، وما حاجتى إلى رأى هزيل تزيده الشكوك ضعفاً وهزالاً؟ فالتفت ابن كثير إلى ابن معقل فى دهشة وقال:

ـ من هذا الشاب؟

ـ هذا أبو مسلم أشدنا حماسة إلى الدعوة، وهو أرهف من سيف، وأنفذ إلى مطالبه من سهم، إن نار الثورة تسرى فى شرايين جسمه، وإننا نسميه صخرة الأرض وداهية الدواهى.

ـ هذا كله حسن، ولكن أحب أن يضم إلى فورة شبابه حكمة الشيوخ ودهاءهم.

ـ إن عنده من ذلك الشيء الكثير فلا يلفتك أمره عما نحن فيه.

ـ أظن أن الكلام فى جبروت الأمويين وحرمانهم إيانا مناصب الدولة قد أصبح كلاماً مكرراً، وحديثاً معاداً. فقال إسماعيل بن يسار:

ـ إنهم يتعالون علينا ويشمخون بأنوفهم حتى كأن الله خلقنا من طين وخلقهم من مسك وكافور. فقال عيسى ابن معقل:

ـ إن دين الله لا يفرق بين عربى وأعجمى، ولا بين مضرى ويمانى، ولكن هؤلاء القوم يكيلون للناس بمكيالين، وينزلونهم منزلين، وينظرون لهؤلاء بعين ولأولئك بعين، ثم يزعمون أنهم نصراء القرآن وحماة الإسلام. وهنا وثب أبو مسلم واقفاً وقال:

ـ لو زرت خراسان اليوم يا صاحبى لرأيت الأعاجيب. فقال ابن يسار:

ـ إن ما نلقاه بالشام أعجب وأغرب يا فتى. أنشد هشاماً مرة قصيدة فدفعنى الاعتزاز بقومى إلى أن أفخر بالفرس وأشيد بمجدهم القديم، فما كان منه إلا أن غضب حتى نفرت أوداجه، وصاح فى جبرية وزهو: أعلى تفخر بقومك أيها الأحمق؟ وإياى تنشد قصيدة تمدح فيها نفسك وأعلاج قومك؟ ثم أمر عبيدة أن يُغطونى فى الماء، فقذفونى فى بركة حتى كدت أغرق، ثم أمر فنفيت إلى الحجاز. فصاح عيسى ابن معقل ماذا كانت قصيدتك لله أبوك؟

ـ قلت فيها يا سيدى:

إنى وجدك ما عودى بذى خور ... عند الحفاظ ولا حوضى بمهدوم
أصلى كريم ومجدى لا يقاس به ... إلى لسان كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب ... من كل قرم بتاج الملك معموم

جحاجح سادة بلج مرازبة جرد عتاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معاً والهرمزان لفخر أو لتعظيم؟

فصاح القوم لا فض فوك يا ابن يسار، بمثلك تنهض الدعوة وتتأجج الثورة، فلما عادوا إلى الحديث قال إسماعيل: أما العبث بين فتيان بنى أمية فقد بلغ الغاية، وقد جهدنا جهدنا فى إذاعة مثالبهم ونشر أخبارهم، ووصمهم بكثير من النقائص بالحق وبالباطل، حتى أصبحوا حديث كل غاد ورائح، وأخذ الناس يشعرون بوجوب زوال دولتهم وانتهاء أمرهم. والوليد بن يزيد سادر فى غلوائه، لا يقف فى طريقه شىء، وإذا نصحه ناصح، أو زجره زاجر زاد عناداً وتحدياً، كأنه يتعجل نهاية أيام بنى أمية. وهو ولى العهد، وإذا ولى الخلافة على تلك الحال قوى ثورتنا، ومكن لدعوتنا، وقدم الخلافة هدية سائغة هنيئة لأمير المؤمنين ابن العباس. لكل هذا تعمل جماعتنا بدمشق على إحباط كل مسعاة لهشام فى خلعه من ولاية العهد، ونقلها إلى ابنه مسلمة. ولأجل هذا نحث دائماً رستم غلامه على أن يوحى إليه بكل شنعاء. وعندكم بخراسان جماعة منظمة تبعث بالجوارى الحسان إلى قصور أمراء بنى أمية لإغرائهم بالتبذل، وليكن جاسوسات عليهم، ينقلن أخبارهم، ويفشين أسرارهم. وقد نجحن كثيراً وأصبحن المتحكمات فى الدولة، المسيطرات على خلفائها وقوادها. ولو طال عمر «حبابة» جارية يزيد بن عبد الملك قليلاً، لانتهى حكم بنى عبد شمس منذ حين، ولكنا اليوم ناعمين هانئين فى ظل خلافة بنى العباس. فصاح أبو مسلم:

ـ لقد طال حكم هشام حتى كاد يدب اليأس إلى نفوس بعض ضعاف العزائم من شيعتنا. فقال ابن يسار:

ـ لقد طال حكمه حقاً، وهو قاس صارم يريد أن يعيد الأموية إلى ما كانت عليه أيام معاوية ومروان وعبد الملك. شحيح بالمال جماع له، كأنه يريد أن يصون كل دينار ودرهم لحماية الخلافة والذود عنها إذا خرج عليها خارج. فلم يعط أحداً من بنى مروان عطاء إلا إذا خرج للغزو بنفسه أو أخرج من ينوب عنه. ورد عليه يوماً محمد بن زيد للعطاء فقال له: «مالك عندى شىء، وإياك أن يغرك أحد فيقول لك: إن أمير المؤمنين لم يعرفك، فوالله لقد عرفتك، أنت محمد بن زيد ابن عبدالله بن عمر بن الخطاب، فلا تقيمن وتنفق ما معك، فليس لك عندى صلة». فعاد الرجل إلى المدينة بخفى حنين.

وبعث إليه أحد عماله بسلة خوخ فكتب إليه: قد أعجب الخوخ أمير المؤمنين، فزدنا منه واستوثق من الوعاء حتى لا يسرق فى الطريق. وأخبرنى غلامه فيروز أن بعض المشرفين على ضياعه بعث إليه خادماً بطائرين ظريفين، فدخل عليه وهو جالس فى سرير فى عرصة الدار، فقال للخادم: أرسل الطائرين لأنظر إليهما، فأرسلهما، ولما أراد الخادم الإنصراف طلب جائزته، فقال له هشام: ويلك وما جائزة طائرين؟ قال: أى شىء تجود به. قال: خذ أحدهما. فعدا فى الدار خلفهما، فقال له هشام: ماذا تصنع؟ قال: أختار خيرهما. قال: أتختار خيرهما وتدع لى شرهما؟ لا والله لا نلت منهما ريشة، لعن الله ناقة حملتك إلينا! وهذا هو الرجل الذى تخضع الدنيا لأمره، وتجبى إليه ثمراتها. ولقد كان مرة فى أحد بساتينه، والزراع يجمعون الزيتون، فرآهم يهزون الأشجار ليتناثر زيتونها، فصاح: القطوه لقطاً، ولا تنفضوه نفضاً فتنفقأ عيونه، وتنكسر غصونه. هذا هو هشام: بخل فكرهه الناس، وقسا فحقد عليه الناس، وطال عهده فضجر منه الناس. فقال ابن كثير:

- إنه الصخرة الصماء التى تتحطم حولها آمالنا، والتى يجب أن تزول من الطريق. فقال ابن يسار:

- إنه مصاب بذبحة الصدر، ولولا دواء مزجه له طبيبه «فرات بن شحناثا» لقضى عليه منذ سنوات، واستراحت الدنيا منه ومن صلفه وشحه. فزفر عيسى بن معقل طويلاً ثم قال: ألا يستطيع فتى أحوذى أن يروى خنجره بدمه؟. فأجاب ابن كثير:

- إن الأمر لا يحتاج إلى كل هذا، فقد يكفى أن نوعز إلى خادمه فيروز أن يريق ما فى زجاجة الدواء، ويضع مكانه ماء بلونه، فإذا أدركته النوبة وأسعف بالدواء لم يغنه الماء شيئاً. فصاح جميعهم هذا رأى صائب. مر فيروز أن يفعل هذا يا ابن يسار. وهنا عاد ابن كثير إلى الحديث فقال: لنوجز الآن ما استقر عليه رأينا ليعمل كل منا على إنفاذه وليبلغه ابن يسار إلى الإمام محمد بن على. فقد رأينا أولاً أن نبث بين الناس بغض بنى أمية والسخط على حكمهم، وأن نبتدع الأقاصيص والأخبار التى تشوه سيرتهم وتثير الضغينة عليهم، ثم أن نغرى الوليد بالاستمرار فيما هو آخذ فيه بكل ما فى مكنتنا من وسائل، وأن نذلل له السبيل إلى الخلافة فإنه لن يمكث بها أياماً حتى تدول، ثم أن نقلل من مدة هشام، وأن نقطع الخيط الذى يصله بالحياة، وعلينا أن نفكر فى كل لحظة فى اليوم الذى تنجلى فيه

هذه الغمة حتى كأنه الغد، وأن نسخر من العقبات التى يضعها أجراء بنى أمية فى طريقنا. هلم الآن فقد طال بنا الجلوس.

ويخرج الزوار فيمرون بالحارس لدى الباب، فيتجه إلى ابن كثير وهو يقـول فى سخرية ودهاء:

- الآن لا تسقط دنانيرك أيها الشيخ!

- كان بثوبى فتق فأصلحته.

- أخشى أنك تعمل أنت ومن معك لفتق لا يرتق.

- قد يكون الهدم إصلاحاً فى كثير من الأحيان.

- إلا أن تهدم داراً على ساكنيها. احذر يا شيخ فإنى أجد فى أعطافك ريح الثورة. والثورة نار مجنونة، تأكل أول ما تأكل مشعليها، اذهبوا فإنى لا أرى فى وجوهكم خيراً.

فسار الثوار حتى بلغوا دار بكير بن ما هان، وأقام معهم إسماعيل بن يسار أياماً ثم عاد إلى دمشق لينهض العزائم ويثير الهمم.

موت وحياة

مرت شهور والوليد بن يزيد لا يزال يزور قصر سلمى فى كل أسبوع لبيع الثياب، حتى بليت الثياب وملّ الحمار. ومرت شهور وهشام ما زال يتحرق غيظاً على الوليد وعلى أنصاره الذين تحدوه واختطفوا ابنه مسلمة، وجعلوا رده ثمناً لفك من اعتقلهم من أصحاب الوليد. ومرت شهور ويزيد بن عنبسة لا يزال يلح على سعيد بن خالد فى أن يزوجه سلمى، وهو يرجئه ويراوغه، ويرده خائباً محسوراً. وفى ذات يوم أعلمته «صدوف» إحدى جوارى الوليد، وكانت جاسوسة له عليه، أن الوليد يزور سلمى فى كل أسبوع فى هيئة بائع ثياب، فيتبادلان الحب والصبابة، فزاد حقده على الوليد، وأخذ يدبر له الغوائل.

وساقته قدماه يوماً إلى دار الخلافة، فلما بلغ قاعة الحكم رأى «يعقوب» حاجب هشام لدى الباب، فسأله عن الخليفة فقال:

ـ إنه بالقاعة مع كثير من رجال بنى أمية، وهم يتحدثون فى أمر ذى بال، وقد حجب الباب، وأرسل رسولاً إلى دارك.

ـ نبه بقدومى يا يعقوب، فإنى أود أن أحدثه أيضاً بأمر ذى بال. ودخل يعقوب وعاد سريعاً بالإذن، فلما مثل ابن عنبسة أمام هشام رآه مطرقاً، وقد أربد وجهه، وانتفض عرق لصدغه الأيسر كان ينتفض كلما غضب، ورأى عنده يزيد بن الوليد والزهرى ومحمد بن هشام المحزومى وأخاه إبراهيم وبنى القعقاع العبسى، ثم العباس بن الوليد ويزيد بن خالد.

سلم ابن عنبسة فرفع هشام رأسه متثاقلاً وقام: وعليك السلام يا ابن عنبسة! هلم إلينا فإننا بصدد أمر خطير سيكون له ما بعده، ونرجو أن نخرج بعد أن نكون قد نصحنا لله ورسوله ولصالح المؤمنين. هذا ابن أخي الوليد قد شرد على الله شراد البعير، وجالس قرناء السوء، وركب رأسه جامحاً. ثم هو لا يزيده النصح إلا إسرافاً في العناد، ولقد عاهدت أخي يزيد بن عبد الملك وحلفت له أوثق الأيمان أن تكون الخلافة له من بعدي، ولم أكن حين أقسمت أعلم أني أقسمت على أن أترك زمام الخلافة وهي معقد آمال المسلمين، ومعقل أمنهم، في يدي مثله، ولكني أقسمت حين أقسمت وأنا أرى غلاماً أزهر الوجه، نبيل السمات، توحي مخايله بصدق الأمل فيه، وتنطق ملامحه بالثقة به، ورب سم كامن في الزهر النضير! وموت راكد في الماء النمير! وأنا الآن يا بني مروان بين خلتين؛ إما أن أترك الأمة بعد موتي تنساق إلى الدمار بولاية الوليد وهنا النازلة الفادحة، والقاصمة القارعة، وتمزيق أوصال الدولة، وفناء بني أمية بالموت أو بالذل والهوان. وإما أن أحمي ما ورائي، وأتخذ الأهبة للقاء ربي، وأصون تراث آبائي، فأخلع الوليد من ولاية العهد، وأختار للمسلمين رجلاً يحمي ذمارهم، وللخلافة من يبعث فيها العظمة والقوة والشباب.

فقال يزيد بن الوليد: لا يصلح لها إلا ابنك مسلمة.

ـ دعك من هذا الآن يا ابن العم، فلن يحسن في هذا الأمر إلا أن ننسى أنفسنا وأبناءنا، والذي نفس هشام بيده لو علمت أن صلاح هذا الأمر في اعتزالي لاعتزلت، ولو علمت أن غير مسلمة أقوى بالخلافة كاهلاً، وأضبط يداً لقدمته عليه. فأسرع إبراهيم المخزومي قائلاً:

ـ لن تصلح الخلافة إلا بك يا أمير المؤمنين. وإذا كان لنا في الله رجاء فهو أن تبقى فيك ثم في ابنك مسلمة من بعدك، فإنه بضعة منك، فيه ما فيك من دين وسياسة وحزم. فصاح أبناء القعقاع: لن نرضى بمسلمة بديلاً، أما الأيمان التي عقدتها لأخيك لتولية ابنه من بعدك فإن الله يحلك منها. وهنا قال الزهري في صوت خافت:

ـ يرى بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾ أن المعنى لا تجعلوا القسم بالله حائلاً بينكم وبين البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فإذا حلف رجل أن يأتي منكراً وجب عليه أن ينقض يمينه

ويكفر عنها. فقال ابن عنبسة: هذا تفسير عظيم. وأسرع هشام فقال:

- إذاً أنا فى حل من هذه الأيمان ولم يبق إلا أن نكتب ميثاقاً ندون فيه مساوىء الوليد ومثالبه، وأنه لا يصلح للخلافة، ونثبت فيه محامد مسلمة ومناقبه، وأنه خير من يقوم بها من بنى أمية، وأن أمير المؤمنين لكل هذا خلع الوليد من ولاية العهد ونقلها إلى مسلمة. أين سالم أبو العلاء؟ فتحرك العباس بن الوليد فى مجلسه قليلاً، وهو يكبت غيظاً دفيناً، وقال:

- قبل أن تدعو كاتبك يا أمير المؤمنين أرى أن نبحث فى الأمر حتى نصل فيه إلى غاية تثلج الصدر، وتبدد الشكوك. فأجاب هشام غاضباً:

- ألم نمحص الأمر بحثاً ودراية؟ ألم يصبح عبث الوليد حديث الناس ومسلاتهم فى أسمارهم؟ أليس ابنى مسلمة دينه وعقله خيراً ألف مرة من الوليد؟ فأجاب العباس:

- إن الأمر يا أمير المؤمنين أعظم خطراً من أن نتقنّع فيه بالحياء، وأجل شأناً من أن نجتذب فيه رضاك، أو نجتنب فيه سخطك. أنا شاك غير مستيقن بكل ما قلتم، فلا الوليد قد وصل إلى تلك الهاوية التى زعمتم، ولا مسلمة قد بلغ تلك القمة من الصيانة والتقوى، ولا تلك الأيمان التى وكدتها لأخيك أصبحت لغواً فصرت فى حل من نقضها. فبهت من بالمجلس، واصفر وجه هشام، واحمرت عيناه من الغيظ، وضرب عرق صدغه، وانتفض وصاح حتى ملأ صوته القاعة:

- هكذا أنتم دائماً يا أولاد الوليد بن عبد الملك! تحقدون على وعلى أولادى، ولقد كاد يسلبكم الضغن عقولكم حين ما ازورّ عنكم وجه الخلافة بعد أن تجاذبتم أطرافها، فأصبحتم تعدون علينا الأيام، وتتمنون أن تتقلص عنا ظلالها. إنكم أعظم كيداً للخلافة، وأكثر عدواناً عليها، من العباسيين والعلويين والترك والديلم، ووالله لولا خشية منه، ولولا أن يقول الناس حارب هشام أهل بيته، لبدأت بكم قبل أن أبدأ بمقاتلة المتألبين على الدولة من الخوارج. أما قولك إنك فى شك من الأمر فباطل يراد به إزهاق الحق، وإطلاق شيطان الفتنة من عقاله، ليعيث معكم فى الدولة كما تعيثون. فوقف يزيد بن خالد وقفة المناضل المتحدى وقال:

- مهلاً أمير المؤمنين، فنقل الخلافة من رجل إلى رجل أمر جلل، لا يكفى فيه أن يكون أمير المؤمنين ساخطاً على هذا أو راضياً عن ذاك. لقد قال العباس حقّاً، وإن رأى

من تجمعهم اليوم من أنصارك لا يكفى لإقناع الأمة وحملها على نبذ العهد الذى عاهدتك عليه . والأمر شديد الخطر على أمير المؤمنين قبل أن يكون شديد الخطر على الوليد. لقد بايعك الناس فى عهد واحد وفى ميثاق واحد على أمرين لا على أمر واحد، بايعوك بالخلافة، وبايعوك على أن تكون الخلافة من بعدك للوليد بن يزيد، فإذا نقضت بعض العهد يا أمير المؤمنين انتقض كله، وتحلل الناس من البيعة لك، وصح لكل خارج عليك أو ضجر من حكمك أن يصيح فى الناس : أيها المسلمون . إن هشاماً نقض العهد الذى بينه وبينكم، فليس له فى رقابكم بيعة . أتريد أن يحصل هذا يا أمير المؤمنين؟ أتريد أن توقظ راقد الفتنة وتعيد أيام صفين حين احتكم المسلمون إلى سيوفهم فى شأن الخلافة؟ إن هؤلاء يا أمير المؤمنين الذين يزينون لك ما تحب، ويقربون لك الأقصى مما تريد، أعداء فى ثياب أصدقاء، أو مخبولون فى مسوك عقلاء . ثم من هم أبناء الوليد الذين يكيدون لك ويدبرون السوء لدولتك؟ أتستطيع أن تشير إلى واحد منهم عن بينة ويقين؟ دعك من كل هذا يا أمير المؤمنين، واترك الأمر كما هو، فلسنا فى حاجة إلى فتن جديدة نشعلها بين الناس، فإن الفتن تنبث فى كل مكان، وإن تحت الرماد للهيباً وضراماً . وما كاد يسكت حتى ابتدره ابن عنبسة قائلاً :

ـ ما هذا التهويل يا ابن خالد، أنا أعرف صلتك بالوليد ومحبتك له وتهاديكما الجوارى الحسان، وأعرف أنك تطمع أنت والعباس فى أن يكون لكما شأن فى خلافته بعد أن انبت بكما الحبل فى هذه الدولة . ثم ما أخلوقة البيعة هذه التى إذا انتقض بعضها انتقض كلها، وهنا تمتم الإمام الزهرى قائلاً :

ـ إن ما قاله ابن خالد حق، لأن الجزأين متلازمان . وقد تفهم البيعة على وجه آخر، هو أن الناس بايعوا هشاماً بالخلافة على شريطة أن يتركها بعده للوليد، فإذا أقصى الوليد عن ولاية العهد فقد نقض شرط ما بايعوه عليه، وبهذا تسقط بيعته من أعناقهم . فوجم هشام، وجف ريقه، وظهرت الحيرة على وجوه أنصاره . وهنا قال العباس :

ـ قلت إن عندى شكّاً، ولم أكن فى هذا القول كاذباً ولا متجنياً، إن أكثر ما يشاع عن الوليد إفك ومين، وهى أكاذيب ولع الناس بها، واختلقها قوم لهم فى اختلاقها مآرب ومغنم . فعجل الزهرى وقال :

ـ لا يا ابن الوليد لقد رأيته بعينى وحوله القيان ينقرن الدفوف، والمغنون يضربون على البرابط والطنابير.

ـ هذا يا مولانا أمر لا يخلو منه قصر من قصور بنى أمية. ثم التفت إلى هشام قائلاً: ثم إنى لا اعرف من رجال بنى أمية من يبغض الوليد إلا القليل ممن يحيطون بهذا القصر، ويتزلفون إلى صاحبه. ولو أنك يا أمير المؤمنين خلعت الوليد لأثرت فتنة شعواء فى حياتك، وفرقت كلمة المسلمين بعد مماتك. فإنى أرى بعين الغضب ـ وأطال الله بقاء أمير المؤمنين ـ أن الناس سيختلفون بعد موتك، وسوف يعد كثير منهم نقضك الولاية للوليد أمراً باطلاً، فينصرفون إليه، ويبقى فريق مع مسلمة، ويتقاتل الفريقان، ويأتى العباسيون فيضربون هذا بذاك ويختطفون الخلافة من أيديهم. يا أمير المؤمنين: دع الأمر كما هو، ودع كلاب الفتنة نائمة، فإنى أخشى أن نكون كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً. والله يعلم أنى لك ناصح وعلى خير المسلمين أمين.

فانتفض هشام واقفاً وقال: اذهبوا عنى الآن، فإن عقلى يكاد يطير من رأسى، اذهبوا فللخلافة رب يحميها، وأين هشام إذا أراد أمراً وأراد الله غيره؟ فانصرف القوم فى وجل ورهبة، وبقى ابن عنبسة متخلفاً، فلما خلت القاعة التفت إليه هشام وقال فى ألم ممض:

ـ طار العصفور من أيدينا، وبقى على دوحته ينظر إلينا مغرداً ساخراً. لقد خاب الأمل فى بنى أمية.

ـ دعه يغرد قليلاً يا أمير المؤمنين، فإننا سنعد له بعد قليل فخاً وسكيناً.

ـ كيف يا ابن عنبسة؟

ـ إذا لم نستطع خلعه من ولاية العهد استطعنا خلعه من الحياة.

ـ معاذ الله أن أمد يدى إلى الوليد بسوء، لا تفكر فى شىء من هذا يا ابن عنبسة، أتريد أن تجعلنى أحدوثة فى الناس وأن يقول القائل إن هشاماً قتل ابن أخيه؟

ـ لن يكون لك يا أمير المؤمنين فى هذا الأمر ورد ولا صدر، وإنما.

هو الموت يعتام الكرام ويصطفى   عقيلة مال الفاحش المتشدد

ـ لا. لا. يا يزيد، وإياك أن تقتل نفساً حرم الله إلا بالحق.

ـ لقد كنت أفكر يا أمير المؤمنين فى التخلص من الوليد، لا لأنه يزاحم مسلمة فى الخلافة فحسب، بل لأنه يزاحمنى فى سلمى بنت سعيد.

ـ لقد حلت بينه وبين هذه الأمنية، وأمرت سعيداً ألا يرضى به زوجاً لبنته.

ـ من يدرى يا أمير المؤمنين؟ فإن الأحوال قد تحول، وقد يصبح سعيداً له راجياً بعد أن كان آبياً.

ـ ماذا تريد أن تقول لا أم لك؟

ـ أطال الله حياة أمير المؤمنين ومد فى عمره.

ـ سمعت هذه الدعوات من آلاف الآلاف من الناس، ولكن الدعاء لا يمنع القدر.

ـ إن لكل نفس أجلاً يا أمير المؤمنين لا تستقدم عنه ساعة ولا تستأخر.

ـ دعك من ذكر الموت، وخض فى حديث آخر.

ـ كانت لى جارية اسمها «صدوف» يا أمير المؤمنين اشتراها منى الوليد من خمس سنوات، وهى لا تزال تهفو إلى، وتحن إلى ذكراى، وتنقل لى أخباره. ولو أنى أمرتها أن تثب فى النار، أو تنام فى خيس الأسد لفعلت مطيعة راضية، وقد كنت أريد إغراءها بقتل الوليد قبل أن يستنكره أمير المؤمنين وينهى عنه، وأمير المؤمنين واجب الطاعة، وقد كان الأمر جد هين، فإن مروان بن الحكم الذى كانت تنتفض منه قلوب الأبطال رعباً، لم يقتله إلا امرأة هى زوجة أم خالد، فقد وضعت على وجهه وسادة وهو نائم، فلم ترفعها عنه حتى مات. فأغمض هشام عينيه وغادر الحجرة غاضباً وهو يقول: احذر يا ابن عنبسة أن تدنس يديك بالدماء! إنى أنهاك... إنى أنهاك!

وخرج ابن عنبسة من عند الخليفة بعد أن خدعه وأظهر له العدول عن الفتك بالوليد، والتقى بعد أيام بصدوف فى داره، لأنها كانت تتغفل أهلها وتختلس زيارته بين الحين والحين، فأحسن لقاءها، وأكثر من الحفاوة بها، وطوقها بهالة من غزله وتشبيبه، وبثها كثيراً من أشواقه فأجج فى قلبها ناراً كاد يطفئها اليأس، وفتح باباً من الرجاء أغلقه القنوط. فمالت عليه مذهولة حيرى بعد أن أثار فيها حبّاً قديماً كان يساورها فى اليقظة والمنام،

وهاج في نفسها وجداً كامناً لم تفل من حدته الأيام، ثم أخذت تتمتم ورأسها على كتفه قائلة :

ـ حبيبي. ماذا جدّ لك؟ لقد كنت ألقاك قبل اليوم فلا أجد فيك تلك النشْوة، ولا أحس لقلبك بهذا الخفقان الذي كأنه صدى وجيب قلبي.

ـ كنت أكظمه يا صدوف، وكنت أربأ بمروءتي أن أمد يدي إلى طعام غيري، ولكن لكل شيء طاقة، وقد عجزت طاقتي، وناء صبري بأن يحتمل أكثر مما احتملت، ولا بد للماء في مرجل أن يفور، وللسيل المحتبس أن يخترق ما أمامه من جنادل. لقد بعتك يا حبيبة قلبي في ساعة جنون، ولم أعرف الهدوء منذ ذلك الحين، ولكني كنت أخاف أن أظهرك على ما في نفسي فأجدد لك شوقاً وحزناً أنت عنهما في غناء. ثم انكب عليها يقبلها في ظمأ ونهم، ويهمس في أذنها بما يلقى من العصابة والهجر. فأحاطت وجهه بيديها الرخصتين وهي تقول: ليتني أعود إليك يا حبيبي. هل من سبيل؟ فأطرق كالمفكر وقال:

ـ ليس من سبيل إلا أن يبيعك لي الوليد.

ـ إنه كثير النفور مني، متجن عسوف، ولكنه شديد البغض لك، وهو يؤثر أن يبيعني لمجوسي ولا يبيعني لك، ولو وازنتني بالذهب.

ـ إذاً لم يبق من سبيل.

ـ إنني لا أستطيع الحياة بعيدة عنك يا حبيبي.

ـ ويل للوليد. إنه سد منيع بين قلبين.

ـ سد من فولاذ.

ـ أنستطيع أن نحطم هذا السد؟

ـ كيف يا حبيبي؟

ـ إنّ الحديد بالحديد يفلح، بهذا الخنجر. ثم قذف بالخنجر فسقط في حجرها، فقامت مذعورة وقد تفتحت عيناها، وارتعشت يداها، وأدركها ما يدرك النساء ساعة الوهل من الذهول وارتجاف العصب. ثم همست والكلمات تتعثر بلسانها:

ـ تريد أنه يقتل؟

ـ نعم يقتل، لأن الحب لا يقف في طريقه شيء.

ـ لا يا حبيبى، دعنى من القتل وذكر الدماء. وخذ فى وسيلة أخرى.

ـ ليس أمامى شىء غير القتل، ولو واتتنى الفرص كما تواتيك ما توانيت لحظة عن قتله.

ـ كما تواتينى؟ أتريد أنى أقتله أنا؟

ـ ولم لا؟

ـ لا، إننى أوثر أن يقتلنى الحب على أن أمد يدى لقتل رجل أعيش تحت سقف داره.

ـ تعيشين تحت سقف داره ذليلة منبوذة. تعيشين تحت سقف داره وتتركينه ينام ملء عينيه هانئاً سعيداً، وحبيبك يتقلب دنفاً حزيناً على فراش من سهاد. تعيشين تحت سقف داره وتتحرجين من قتل رجل يقتل نفسين فى وقت معاً. إننى لن أعيش طويلاً إذا ظلت هذه الحال، ولن تمر أيام حتى تذرفى الدموع على شهيد قتلته حبيبته، لأنها لم تقتل قاتله.

ـ إن القتل أكبر الجرائم إثماً عند الله والناس.

ـ ألا يقتل بعض الناس بعضاً فى الحرب فرحين متفاخرين؟

ـ ذلك فى ميدان الحرب يا حبيبى.

ـ إن الوليد يحاربنى ويحاربك بسلاح مسموم، فيجب أن ندفع عن أنفسنا، وأن نقتل قاتلنا.

ـ ولكننى لا أقتل أحداً.

ـ إذا لم تقتليه فخير لى أن أقتل نفسى، ثم وثب نحو الخنجر فدفعته عنه مذعورة وصاحت: لا تفعل يا حبيبى، وقل ما شئت فإننى لك سمع وطاعة. فارتمى على وسادته كالمجهود ثم قال:

ـ إن الأمر أهون ما يكون، إن الوليد ينام وحده، فإذا هدأت الأصوات، ونامت العيون، ولم يبق من الليل إلا أقله، تسللت إلى حجرته كأنك الطيف الطارق، أو الظل السارى، فأغمدت هذا الخنجر فى صدره وهو نائم، دون أن تسمع لك نأمة، أو تحس حركة، ثم عدت فغسلت يديك، ونمت مطمئنة هادئة. فإذا جاء الصبح وعلم الأمر، سهل

أن يتهم بقتله أحد خدمه، وبينهم رستم الفارسى الذى هو جاسوس عليه من خراسان. ثم ناولها الخنجر فخبأته تحت ثيابها وخرجت من لدنه مضطربة ذاهلة كأن بها مسّاً من جنون.

ولما بلغت القصر لمحها ابن رقية، وقرأ بعينه البلهاء ما على وجهها من خوف وحذر، ورأى فى اضطراب مشيتها، وفى حديثها الذاهل المتعثر ما يريب، لأن المسكينة على ما بذلت من جهد، لم تستطع أن تكبت ما يجيش فى صدرها من أمواج الدسيسة. لمحها أبو رقية فأخذ يغالط نفسه، ويتهم عينيه، ويلوم عقله المختبل على إساءة الظن بفتاة قد يكون عصف بها مطل حبيب، أو فراق خليل. ثم إنه يعرف بصورة مبهمة أن الوليد ينأى عنها بحبه، ويخص بغرامه سعاد الكوفية، فلعل ثورة من الغيرة طافت بها فى هذه اللحظة، والنساء لغز معقد لا يهتدى إلى حله، وتيه مضلل تدور فيه ولا تخرج منه، ولكنه رجع إليها البصر فلمح نتوءاً لا يكاد يرى عند أعلى فخذها اليمنى، فعاوده الشك وتملكته الحيرة: أتخفى صدوف شيئاً تحت ثيابها؟ ولم تخفيه إذا لم تقصد شرّاً؟ وما هو؟ ولعب الشيطان بعقله، وتزاحمت هواجسه، فصمم على أن يتابع حركاتها دون أن تشعر ليرى إلى أى مدى تنتهى، وجاء المساء، وانصرف أهل القصر إلى شىء من اللهو والطرب كعادتهم، وصلى الوليد العشاء لآخرة بعد أن مر هزيع من الليل، وتحين أبو رقية غفلة العيون فدلف إلى حجرة نوم الوليد واختفى تحت سريره، ثم ذهب الوليد لينام، وأوى من بالقصر إلى مضاجعهم، ولما سكتت الأصوات، ولف القصر ضرب من سكون الموت بعد أن كان يضطرب بضجيج الحياة، وأوشك الليل أن يزمع الرحيل، قامت صدوف من مرقدها خائفة مرتعشة، ولكنها استعانت ببقية من ملخور عزيمتها فأسرعت الخطا فى حذر وترقب، حتى بلغت الحجرة فدخلتها، فسمعت تنفس الوليد هادئاً فأدركتها رجفة، ولكنها لم تأبه لها، وتقدمت والخنجر فى يمينها، وسمع أبو رقية خطواتها فتزحزح ليخرج من تحت السرير، فرأى صدوف ويدها تمتد بالخنجر إلى صدر الوليد، فوثب من مكانه وقبض على يدها بقوة ليست فى طوق البشر، وذعرت الفتاة للمفاجأة فصرخت وقذفت بالخنجر، ودهمتها موجة جارفة من البكاء والنحيب واستيقظ الوليد فدهش لما رأى وصاح:

- ما الخبر يا أبا رقية؟

- شىء تافه، فتاة تريد أن تنافسنى فى الجنون.

- قل لى ما الخبر قبل أن أكون مجنوناً ثالثاً.

ـ سلها يا سيدى. وكان من بالقصر قد تيقظ للجلبة والصياح، فهرع الجوارى والخدم إلى حجرة الوليد، وجاءت أمه ترتعد من الخوف، حتى إذا رأته رمت بنفسها بين ذراعيه وهى تجهش بالبكاء، وقبض الوليد على ذراع الجارية وقال:

ـ قولى ماذا كنت تقصدين بهذا الخنجر؟ فأجابت بين الشهيق والعويل:

ـ كنت أقصد أن أقتلك.

ـ ولم تقتلينى يا فتاة؟

ـ ذلك سر أطويه لنفسى.

ـ هل أغراك أحد بقتلى؟

ـ لم يغرنى أحد. فازداد غيظ الوليد ولكنه كبح غضبه وأمر سبرة أن يحبس الفتاة وألا يمسها بسوء، ثم التفت إلى أمه وهو يقول مشيراً إلى أبى رقية:

ـ لقد أنقذنى هذا المجنون.

ـ إنه ليس بمجنون يا بنى. إنه إذا أراد كان أعقل العقلاء. حياك الله أبا رقية! لقد نجيت ولدى.

ـ لعل من أكبر علامات جنونى أنى أهتم دائماً بهذا الوليد الذى لا يساوى جناح بعوضة. فضحك الوليد وقال: الآن عاد إليك الجنون. قل لى بالله: كيف وصلت إلى حجرتى؟

ـ لقد ارتبت فى أمر الفتاة منذ الصباح، وجال فى نفسى أنها تريد بك شرّاً لا أدرى لماذا، فاختبأت تحت سريرك قبل أن تنام، وقد صدق ظنى، وتحققت وساوسى. فقالت أم الوليد: هذه مؤامرة من أعدائك حركت ساعد الفتاة بالخنجر، فاحذر يا بنى فإنك تمشى فوق أرض ملئت بالفخاخ!

وانتهت الحادثة، ومرت أيام وأيام، وعرف ابن عنبسة من اختفاء صدوف أن المؤامرة لم تفلح.

وفى أحد الأيام خرج الوليد للصيد مع فريق من ندمائه، وبينما كان يعدو بفرسه «السندى» خلف غزال ظهر فارس من عبيد بنى أمية كان مختفياً خلف أكمة، فلمحه الوليد وهو

يصوّب إليه سهماً فراغ منه، فرماه بثان وثالث فأخطأه، وعجل الوليد فدار ووثب عليه بالسيف فأطاح رأسه وقال:

ألـم تر أنـي بينمـا أنـا آمن — يخـب بي السنـدي قفـراً فيافيا

تطلعـت من غور فأبصـرت فارساً — فأوجسـت منـه خيفـة أن يرانيا

ولمـا بدا لي أنمـا هو فارس — وقفـت له حتـى أتـى فرمانيا

رمـانـي ثلاثـاً ثم إنـي طعنته — فروّيت منـه صعدتـي وسنانيا

وقد علم الوليد بعد هذه المخاتلات المتكررة أن حياته أصبحت في خطر داهم، وأنه إذا نجا مرة وأخرى فلن ينجو في كل مرة، وتحدث مع أمه وندمائه في الأمر، فعقدوا العزم على أن يفر بنفسه في البوادي، وأن يتنقل بين المنازل والمناهل فلا يعلم مستقرّه إلا أخلص خلصائه، فهجر دمشق مع بعض جواريه وأصحابه، وخلف كاتبه عياض بن مسلم بالرُّصافة ليكون له جاسوساً على هشام ولينبئه بأخباره.

ونزل على ماء يسمى «الأغدف» بعمان بين أرض بلقين وفزارة، ونسي الناس بدمشق الوليد، وأطرقت أفاعي أعدائه إلى حين.

ومرت أيام وشهور على الوليد وهو يعاني الهم والضيق، وينتقل بين أحياء العرب كالطريد المنبوذ، في خشونة لم يتعودها، وجفوة ليس له بها عهد.

وفي ليلة الأربعاء لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة، أحس هشام ضيقاً في صدره واختناقاً، فأخذ يئن أنيناً، ويدلي رأسه من النوافذ ليلتقط بعض النسيم، ويهمس في ضعف ويأس: هذه الذبحة! هذه الذبحة! لقد عاودتني، ليس لي منها نجاة هذه المرة. مروا فيروز يحضر دواء الذبحة فإني ما أراني إلا مائتاً.

وأسرع فيروز فأحضر الزجاجة ولم يكن بها إلا ماء ملون، فجرع هشام منها مرات فلم تفده شيئاً، واشتد به الداء فألقى رأسه على الوسادة، وأخذ يردد أنفاساً قصاراً.

وعلم عياض بن مسلم بمرضه وإشرافه على الموت، فأسرع وختم على خزائن الأموال، وأمر خزّانها أن يحتفظوا بما في أيديهم، وألا يخرجوا من خزائنهم شيئاً، وإلا كان جزاؤهم الموت.

وأفاق هشام من غشيته فطلب مروحة من بيت المال يجتذب بها بعض الهواء إلى

صدره، فقيل له: إن الخزائن مقفلة موصدة، فزفر زفرة قصيرة ثم قال بصوت يزاحمه الموت: «أرانا كنا خزّاناً للوليد» ثم مات. وحينما هم أهله بغسله طلبوا قميقماً ليسخن فيه ماء الغُسل، فقيل لهم: إن الخزائن مقفلة موصدة، فاستعاروا قمقماً من الجيران، ثم طلبوا له كفناً فقيل لهم: إن الخزائن مقفلة موصدة، فكفنه أحد عبيده من حرّ ماله.

وهكذا! يموت من ملك الدنيا، ودانت له الأرض، فلا يجد إناء لماء غُسله، ولا يجد كفناً فيكفنه العبيد. فسبحان من له الملك الدائم والعزة التى لا تبيد!!

ضحك وبكاء

أقام الوليد طويلاً بالصحراء حتى جفاها وجفته، وأسأمها بالشكاية وأسأمته، وبينما كان جالساً ذات يوم إلى ندمائه وهم يتحدثون في دمشق ولیالی دمشق وما فيها من إشراق ومتاع، إذ طاف به خيال سلمى فاستبد به شوقه، واشتد إليها حنينه، وصاح: لقد انقطعت الرسل بيني وبينها، وأصبحت لا أطيق لهذا البين احتمالاً، ولا عليه صبراً. ليت شعرى أين الآن وجهها؟ وماذا تفعل الآن بعدى؟ ألا تزال راعية لعهدى حافظة لودى؟ أخشى أن يكون ابن عنبسة قد وجد إليها الطريق ذلولاً، وأخشى أن يكون أبوها قد تغلب على عنادها ودفعها إلى قبول هذا العتل الزنيم زوجاً. ثم تأوه وزفر وطلب إلى عمر الوادى أن يغنى:

طاف من سلمى خيال بعد ما نمت فهاجا
قلت عد نحوى أسائلـ ـك عن الحب فعاجا
بفلاة ليس ترعى أنبتت شيحاً وحاجا[1]

فغنى الأبيات بصوت حزين بكى له الوليد وبكى له من معه، ثم عاوده الفرح فجأة وطلب إلى أبى كامل أن يغنى:

أصبح اليوم وليد هائماً بالفلوات
ابعثوا خيلاً لخيل ورماة لرماة!

فلما سكت أطرق الوليد طويلاً ثم اتجه إلى عبد الصمد بن عبد الأعلى وقال: أما

(١) الحاج: الشوك.

لهذا الليل من آخر يا ابن عبد الأعلى؟ أما آن لهذه الغمرات أن تنجلى؟ لقد طالت مدة هشام حتى مللت انتظار يومه، وكأنه يريد أن أسبقه إلى الموت.

فقال عبد الصمد: رفقاً بنفسك يا مولاى فإنى أرى فى ظلمات الغيب نوراً يأتلق، وأسمع فى صدرى همساً يبشر بالفرح القريب:

ألم تر للنجم إذ شيّعا ... يبادر فى برجه المرجعا؟
فقلت وأعجبنى شأنه ... وقد لاح إذ لاح لى مطمعا
لعل الوليد دنا ملكه ... فأمسى إليه قد استجمعا
وكنا نؤمل فى ملكه ... كتأميل ذى الجدب أن يمرعا
عقدنا له محكمات الأمو ... ر طوعاً، فكان لها موضعاً

فاهتز الوليد للشعر وقال: حياك الله يا ابن عبد الأعلى! ألا تزال تؤمل فى ملكى كتأميل ذى الجدب أن يمرع؟ إذاً فلتؤمل طويلاً، ولتصبر طويلاً، فإن بينك وبينه سدّاً من صخر وجنادل يسميه الناس هشاماً، ثم وجه الحديث إلى المنذر بن أبى عمْرو فقال: أتعرف يا ابن أبى عمرو أن ليلة لم تأت على منذ عقلت عقلى أطول من ليلة الأمس؟ وأخذت أفكر فى هذا الرجل الذى شردنى وتجرد لإيذائى، فاركب بنا نتنفس فقد كدت أضيق بكل ما حولى. فركبا حتى إذا سارا ميلين وقف الوليد على كثيب، وأعاد الكلام فى هشام، وفى الشكوى من هشام، وبينما هو يعدد أفاعيله، إذا رجلان على البريد مقبلان، أحدهما مولى لأبى محمد السفيانى، والآخر يدعى جردبة، فلما قربا أتيا الوليد يعدوان حتى دنوا منه، فسلما عليه بالخلافة، فدهش الوليد وتملكه ذهول كاد يسقطه على الأرض، فجعل جردبة يكرر السلام عليه بالخلافة، وهو مشدوه يفتح فمه ولا يستطيع الكلام، ثم جاهد حتى ملك نفسه وقال:

ـ ويحك أمات هشام؟

ـ نعم ياأمير المؤمنين. فصاح الوليد: صدق الله العظيم ﴿ **حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون** ﴾. اكتب ياابن أبى عمرو إلى العباس بن الوليد أن يأتى الرُّصافة ويحصى ما فيها من أموال هشام، وأن يسجن أولاده وعماله وخدمه، ثم قال:

طاب يومى ولذ شرب السلافة ... إذ أتانى نعىّ من بالرصافة

وأتانا البريد ينعى هشاما وأتانا بخاتم للخلافة

وأمر من معه بالرحيل إلى دمشق، ودخل المدينة فى موكب حافل وهو فوق فرسه «الرائد»، وقد لبس خلع الخلافة، وقبض على عصاها، ووضع فوق رأسه عمامة بها ياقوتة حمراء بقدر الكف قبّلتها أشعة الشمس، ثم ارتدت عنها فأرسلت بريقاً وألواناً تتخطف العيون. وحف به ندماؤه وكتابه وعماله وكبار أهل الرأى من بنى أمية، واصطف الناس وتزاحموا على الجانبين، ورددوا صيحات الفرح والاستبشار بالخليفة الشاب، ونثر أمامه النثّار الدنانير والدراهم، فانكب عليها الناس فى هرج وشره كما تنقض سباع الطير على فرائسها، ومشى المغنون وهم ينقرون الدفوف ويعزفون بالطنابير، وكان أشعب يرقص أمامهم رقصات عجيبة يتلوى فيها جسمه كما يريد، كأنه خلا من العظام، ويرسل النكات سافرة ومحجبة لا يبالى من يقذف بها.

وبلغ الموكب قصر الخلافة، وجلس الوليد على عرش آبائه بعد أن طال إليه اشتياقه وكاد يدركه اليأس منه، وتقدم صناديد الأمويين وعظماؤهم يبايعونه ويسلمون عليه بالخلافة، وبايع الناس جميعاً، وطارت إليه الرسل من أقصى الأرض بالبيعة والتهنئات، وجال بخاطره وهو فى هذه النشوة الساحرة، وذلك العز الشامخ، بيت من الشعر قالته لسليمان بن عبد الملك إحدى حظاياه:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان!

فغام وجهه وزاغ بصره، فهز رأسه هزّاً عنيفاً، كأنه يريد أن يطرد عنه طائر التطير، ثم أمر ابن عبد الأعلى أن يدعو إليه سعيد بن خالد. وقدم عليه فى هذه الأثناء وفد الشعراء وكان فى مقدمتهم يزيد بن ضبة، وهو شيخ جاوز السبعين، دخل يتوكأ على عصاه فهنأ الوليد بالخلافة، وانكب على رجليه يقبلهما، وكان ابن ضبة فى أول عهده منقطعاً إلى الوليد، فلما أفضت الخلافة إلى هشام فر من وجهه إلى الطائف، وحين رآه الوليد فرح به وهش للقائه وأدناه، وقال لحاشيته: هذا طريد هشام لصحبته إياى وانقطاعه إلىّ! هات يا ابن ضبة ما عندك. فأنشده قصيدة منها:

سخا بالذهب الأحمر وزناً بالقناطير
كرم العود والعنصر غمر غير منزور

فطرب الوليد للشعر، وأمر بأن تعد أبيات القصيدة وأن يعطى بكل بيت ألف درهم، وكانت خمسين بيتاً. ثم أمر كاتبه عياضاً أن يجرى عطاء دائماً على عجزة أهل الشام من الشيوخ والمرضى والعميان والفقراء المعدمين، وأن يخص كل واحد منهم بخادم، وأمره بأن يزيد فى عطاء كل صاحب عطاء عشرة دنانير، وأن يصل بأعطية أهل الشام إلى ضعف ما كانوا يأخذون.

ثم طلب منه أن يكتب إلى نصر بن سيار عامله على خراسان، أن يسير إليه مع وجوه أهل خراسان، وأن يحضر معه برابط وطنابير ودفوفاً وأباريق من ذهب وفضة، وأن يجمع كل صنّاجة يقدر عليها، وكل باز، وكل برذون فاره. ثم أطرق قليلاً وقال:

وعليك أن تحصر علماء الحديث والقرآن بالشام والمدينة، ثم تجرى على كل واحد منهم مائتى دينار فى العام.

والتفت إلى ابن سهيل وقال: وأنت يا ابن سهيل مر كبير شرطتى أن يقبض على يزيد بن عنبسة وسليمان بن عبد الملك وعمر بن الوليد والزهرى وأبناء القعقاع، وأن يزجّ بهم فى سجن الظلام، فقد كنت أحن إلى اليوم الذى أشفى فيه نفسى منهم.

وما كاد ينتهى من أوامره حتى وصل سعيد بن خالد فاستأذن فأذن له، فدخل وهو يرتجف من الخوف، فقبل يد الوليد وهنأه بالخلافة. فقال الوليد:

ـ اقبل على يا ابن خالد، فإن بيننا حساباً عسيراً.

ـ لقد سعدت الدنيا بك يا أمير المؤمنين وسعد الناس. وهذا يوم صفاء يجب ألا يكدر بذكر الماضى.

ـ صدقت يا ابن خالد، ولكنك كنت علىّ إلباً مع هشام، ولو شئت أن أنتقم لفعلت، ولكن شفيعاً لا يرد يأتى دونك ودونى، فيرد عنك يدى، ويغمد سيفى. كيف سلمى؟

ـ هى بخير تقبل يدى أمير المؤمنين وترجو رضاه.

ـ ترجو رضاى؟ ولقد لبثت شهوراً بائع ثياب لألتمس منها كلمة رضا! والآن وقد أصبحت أمير المؤمنين أتقبل أن تزوجنيها؟

ـ هي خادمة لأمير المؤمنين، فوثب الوليد من مجلسه وثبة عصبية، وصاح في أصحابه: أعدّوا كل شيء للعروس.

وكان عرساً لم تر له دمشق مثيلاً، تألقت فيه الأنوار، ومدّت الموائد، ونثرت الدنانير واللآلىء، وتواترت فيه الهدايا من كبار الدولة وعمال الأمصار، ولم يبق عود ولا طنبور ولا دف في المدينة إلا أطلق العنان للألحان، ولم تبق راقصة ولا شادية إلا عرضت من فنونها ما يثير الوجدان ويعجز البيان، ولعبت نشوة الفرح بالرءوس فسالت الأعطاف وجمد اللسان، وعرض أشعب ألاعيبه وفنونه بين ابتسامات الشيوخ وضحكات الحسان، واخترق الوليد الجمع الحاشد وهو يصيح في غير مبالاة:

أولا تخرج العرو س فقد طال حبسها؟!
قد دنا الصبح أو بدا وهي لم يُقض لبسها!

وبعد قليل تحققت أمنيته وابتسم له القدر العابس، وزفت إليه حبيبة قلبه وريحانة حياته، بعد أن ضرب الدهر بينه وبينها، وكاد اليأس يقضي عليه وعليها.

وكانت سلمى في بُرد شبابها زينة شبابها، وزهرة أترابها، جسم رخص ريان ناصع البياض كأنما صيغ من صافي الدر أو سبيك اللجين، وقامة مياسة يربدها المحب حسناً ولدانة، وصدر ممتلىء رجراج كأنه الزئبق يفر من البنان، ووجه تأنقت يد القدرة في تكوينه وتلوينه فجاء صورة للجمال البارع الذي حاول وصفه كل شاعر فقد عن أوزانه، وخطر لكل رسام فأبى على ألواحه وألوانه، جبين يتألق كأنه الصباح الباسم، وعينان فيهما سحر وفيهما خمر وفيهما كل ما يثير الفتنة ويعبث بالعقول، وأنف عربي أموي فيه الشمم وفيه العزة وفيه الجمال، وفم ياقوتي يبسم عن در لم تظفر بمثلها صدفات البحار.

جلست سلمى إلى جانب الوليد فتشاكيا البعد، وتبادلا الوجد، وشربا من رحيق الحياة أكوابه صافية مترعة، ومرت بهما ساعات هنيئات أطلق الدهر الغادر لهما فيها العنان، ومد الحب عليهما الظلال، فمن عناق إلى عناق، ومن قبلات إلى أشواق، ومن ضحك إلى بكاء هو الضحك، ومن مزاح إلى جد هو المزاح، حب وملك ونشوة وشباب وجمال فماذا بقي من صنوف النعيم؟ وماذا تخلف من نضارة الحياة؟ حقاً إن السعادة لو طمعت في أكثر من هذا لكانت بطرة ملولاً!

ومضى سبعة أيام والعاشقان يتساقيان كؤوس الحب، ويتراشفان رضاب الغرام، وترك الوليد شؤون الدولة تسير كما تريد أن تسير، أو تقف كما تريد أن تقف، وانفرد بحبيبته في ناحية من قصره كما ينفرد طائران فى وكن، وجعل بينه وبين صخب الحياة وضجيجها وآلامها ودسائسها حجاباً مستوراً. لم يخطر بباله تألب العلويين، ولا مؤامرات العباسيين، ولا تذمر الأمويين، ولا تلك الثورات التى أخذت تشتعل فى أطراف الدولة. الدنيا عنده سلمى، والحياة سلمى، وكل جميل فى هذا الوجود ليس إلا سلمى. وطالما كان يقول، وطالما كان يردد!

أنا في يمنى يديها	وهى فى يسرى يديّه
إن هذا لقضاء	ليس عدلاً يا أخيّه
ليت من لام محبا	فى الهوى لاقى منيّه
فاستراح الناس منه	ميتة غير سويّه!

بقيا على تلك الحال سبعة أيام، وجاء اليوم الثامن فكان شديد الحر، لوّاح الهجير، متقد أديم الأرض، مات فيه النسيم العليل، وبعثت نيران الجحيم، وصبت الشمس فيه شواظاً على جبل قاسيون فأبى أن يحمله وأشفق منه، فرمى به إلى المدينة شرراً وحمماً. وأغبر الجو فاختنقت الأنفاس، وضاقت الصدور، ولم تطق سلمى ذلك الحر اللافح، فأمرت جواريها أن يضعن لها ثلجاً فى الماء، فلما ذاب فيه قامت لتبترد، فتسلبت من ثيابها، وأخذت تصب الماء على جسمها، وحين شعرت بلذة الماء وبرده والت الصب ثم والته، كأنها كانت تطفىء لهيباً. ثم لبست غلالة رقيقة من الحرير، وخرجت إلى أحد مشارف القصر فوقفت به طويلاً، وما كاد يولى النهار حتى شعرت ببرد شديد يسرى فى أوصالها، ثم أخذتها غشية فسقطت على الأرض لا تحس ولا تبين، فأسرع إليها الوليد فحملها إلى سريرها، وأقبلت أمه مذعورة واجفة، وطفق الجوارى يدلكن جسمها، وينضحن وجهها بماء الورد لتفيق. واضطرب الوليد وأخذه البكاء واستولى عليه الهلع، وجعل يصيح: أين الطبيب؟ أين الطبيب؟ اذهبوا إلى فرات بن شحناثا اليهودى. أحضروه على جناح الريح. على جناح البرق. على جناح الشيطان! حبيبتى! حبيبتى تموت وأنتم هنا أمامى يا أولاد الإماء!

ولم يمض إلا قليل حتى جاء الطبيب وكانت البرودة التى فى جسم سلمى انقلبت

حرارة متأججة، وأخذ تنفسها يتلاحق، وصدرها يرتفع وينخفض كأنه كير حداد. ثم اعترتها نوبة هُذاء وخلاط، فجعلت تثب من سريرها وتصيح: دعونى أذهب إلى زوجى، أنا أعرف أنه بعمان، لقد حال هشام بينى وبينه، حبيبى! أنت لا تصلح بائع ثياب، إن وجهك يشى بك، إن به نبلاً موروثاً، إنه وجه ملك. أثواب وألوان للعذارى الحسان! دعنى يا أبى من ابن عنبسة، عم مساء يا أبى، هاتوا حلى العروس! مشطوا العروس! ما هذه البئر؟ إنها بعيدة الغور مظلمة، لقد زلقت رجلى، أدركونى! أنقذونى! ثم سقطت على السرير مجهودة لاهثة، تطلب نفس النسيم فلا تكاد تجده، وغاصت فى غشية لا قرار لها، وارتفع بكاء الوليد وبكاء من حوله من الجوارى والخدم، وأخذ يلطم وجهه كما تفعل النساء إذا حزبهن الحزن ولا يجدن له متنفساً، ومس الطبيب المريضة وسأل عما يكون سبباً فى المرض، ثم اتجه إلى الخليفة مكفهر الوجه حزيناً وقال: إن هذا المرض فى الرئتين يا أمير المؤمنين، وقد سببه صب الماء البارد، ثم التعرض للجو فى غلالة رقيقة، وهو مرض قوى الحملة، شديد الوطأة، ولكن الله يشفى ما هو أشد منه وأعضل. ودواؤه الدفء والأشربة الساخنة، ويجب ألا تخاطب المريضة وهى تهذى وإلا اختلط عقلها، وإذا احتملت مولاتى هذا المرض خمسة عشر يوماً نجت وزالت أسباب الخوف، وإنى يا أمير المؤمنين مستبشر خيراً، راج فى وجه الله الكريم، وسأعد لمولاتى دواء، وسأتردد فى كل يوم مرات، مسح الله السوء عن مولاتى، ولا أحزن قلب أمير المؤمنين!

وانصرف الطبيب، ومر يوم وثان وثالث والمرض يستشرى، والآمال تتضاءل، حتى إذا كان اليوم السابع هدأت المريضة وسكن صدرها من الخفقان، فاستبشر الوليد وأرسل صيحة فرح دوّت فى جوانب الحجرة، وكادت تهز الكلة التى ضربت فوق سريرها، ثم أخذ يداعبها ويدللها ويقول: لقد شفيت يا حبيبتى وزال عنك الضر، سأذهب بك عندما يتم شفاؤك إلى لبنان، إن هواءه يبرىء السقيم، وماءه من تسنيم، وتفاحه كفمك مسكّى النفحات، سكرى اللثمات، أتحبين تفاح لبنان يا سلمى؟ حدثينى، أتفضلينه على مشمش دمشق؟ قولى يا حبيبتى أيهما تفضلين؟ مالك ساكنة؟ أواجدة أنت علىّ؟ لا لا، إن الوليد لا يغضب ريحانه حياته، بالله أجيبى يا سلمى!

ولكنها لم ترد عليه، ولم تجاذبه الحديث، فرفع الكلة ونظر، فإذا جثة هامدة! وإذا الجمال الباهر الذى كان جمالاً فى جسم وروح أصبح جمالاً فى تمثال. فصرخ وشق ثيابه، وأخذ يدور فى الحجرة كالمجنون، ويضرب الجدران برأسه ويصرخ: ماتت

سلمى! ماتت سلمى! ذهبت حياتى! طويت آمالى! غابت شمسى! جفت زهرتى! صوحت روضتى! أدركونى يا عبيد القصر، خذونى وادفنونى معها، لا شأن لى بالحياة بعدها، إن الحياة ليست نفساً يتردد ولكنها أمل ورجاء وحب. وكان أبو رقية يجلس فى ناحية من الحجرة مشدوه العينين ساهماً، يرتل القرآن ترتيلاً. وقدم رجال الدولة وعم البكاء وارتفع العويل وطوى بساط للسرور وفرش بساط للأحزان.

وفى اليوم التالى دفنت سلمى بعد إباء من الوليد وممانعة، وبعد أن شيعها بأبيات تقطع نياط القلوب، وتستنزف ماء الشؤون:

ألمـا تعلمـا سلمـى أقامت	مضمنَّـة من الصحـراء لحدا؟
لعمـرك يا وليد ولقـد أجنوا	بهـا حسبـاً ومكرمـة ومجدا
ووجهـاً كان يقصـر عن مداه	شعـاع الشـمس، أهــلاً أن يفدى
فلـم أر ميتـاً أبـكى لعين	وأكثـر جازعـاً، وأجـلّ فقدا!

وعكف بعد ذلك الوليد على أحزانه، ولم يجد تسلية لهمومه إلا أن يصب عذابه على من ناصبوه العداء أيام هشام، فأحضر سليمان بن هشام من السجن وأمر بأن يضرب أمامه مائة سوط وأن يحلق رأسه ولحيته ثم ينفى إلى عمان، وطلب يزيد بن عنبسة والزهرى فقيل له إنهما فرّا إلى حيث لايعلم مكانهما، فأرسل خلفهما الجنود ليقبضوا عليهما ولو كانا فى أقصى الأرض، ثم أمر بأن يدفع بنو القعقاع إلى عامل قِنسْرين ليذيقهم مرّ العذاب إلى أن يموتوا، ودعا عياضاً كاتبه وطلب منه أن يكتب إلى يوسف بن عمرو وإلى العراق بقتل خالد بن عبدالله القَسرى، وهكذا كان يقضى الوليد نهاره فى تعذيب وانتقام، وليله فى تطريب وأنغام!

واجتمع أهل الدعوة بخراسان عندما وصلت إليهم أنباء الوليد وأحاديث لهوه وظلمه، ورأوا أن دولة الأمويين تخطو حثيثاً إلى الزوال، وأن من الحكمة أن ينتظروا بإظهار دعوتهم قليلاً حتى تجفّ الثمرة فتسقط وحدها، لأن عبث بنى أمية وحده سيزيد من كراهية الناس وانصرافهم عنهم، وبذلك يسهل ثل عرشهم ومحو سلطانهم، واستبشر الدعاة بالوليد خيراً فزادت قوتهم وتجددت آمالهم، وظهرت منهم بوادر رآها نصر بن سيار عامل خراسان فتوجس الشر، وأحس بسوء المصير، وكتب إلى الوليد:

أرى خلَل الرمــاد وميض نار ويوشــك أن يكون لهـا ضرام!
فــإن النــار بالعــودين تذكى وإن الحــرب أولهـا كلام!
فقلـت من التعجـب: ليت شعرى أأيقــاظ أمية أم نيام؟!

فلما قرأ الوليد كتاب نصر كتب فى أسفله:

بل نيام يا ابن البلهاء! لقد أقطعك أمير المؤمنين خراسان هبة فاعمل بها ما شئت، فإنه مشغول عنك وعن خراسانك!

قتل ودمار

ومرت شهور والوليد يشفى نفسه فى كل يوم بانتقام جديد حتى خافته خاصة الناس وسئمته عامتهم ، ولقد فرح الناس لتوليته أول الأمر لما أغدق من العطايا والنعم ، ولما بذل من المواهب واصطناع المعروف ، بعد أن عانوا أيام هشام عهداً شحيحاً يحاسب فيه الخليفة على الدانق ، ولا يثيب إلا على عمل . ولكن الوليد لم يستطع أن يمد يده بالعطاء فى كل حين ، ولم يكن له من الخلال ما يحمل الناس على حبه وإجلاله ، فتحولت عنه قلوبهم ونالت منه ألسنتهم . ولكل دولة فى أول عهودها بهجة وإشراق ، يستقبلها الناس فرحين مستبشرين ، وهى تستقبل الناس بالوعود وبذل الرغائب ، فإذا ذهبت جدّتها ولم تواصل إحسانها انصرفوا عنها ساخطين شاكين وهم يتحسرون على العهد القديم ، ويتطلعون إلى فجر يوم جديد .

واجتوى الوليد دمشق واجتوته ، وكره لقاء الناس وضجروا به ، فرحل إلى «الأغدف» بعمان وسار فى ركابه كثير من خدمه وندمائه . وكان الوليد خَلقاً عجيباً فقد كانت له نفس واحدة استطاعت أن تتقسم أنفساً ، فكانت له نفس باكية حزينة ، ونفس مرحة ضحوك ، ونفس تقية خيرة ، ونفس عارمة صاخبة ، وكانت كل نفس من هذه الأنفس تظهر فجأة على غير إرادة من صاحبها ، وتطالع الناس متناوبة متعاقبة كما تدور كرة حول محور ، فكثيراً ما اتصل منه الضحك بالبكاء ، والخير بالشر ، والقوة بالضعف ، وكان الناس لذلك منه دائماً فى وجل وخوف ، لا يدرون ماذا تكون اللحظة التالية للحظة الحاضرة .

ذهب إلى الأغدف وأعاد فيه مجالس أنسه ومجالى صبوته، وكأنه لم يعشق مرّة سلمى، ولم ينكب بموت سلمى، ولكن خيالها كان يطوف بنفسه فى لحظات متقطعة فيبكى بين رنين المزاهر ودقّات الصنوج. وتنفست دمشق الصعداء لفراقه، ومد فيها الساخطون رءوسهم إلى الفتنة، وعاد إليها كثير من الفارين كأبن عنبسة وبعض بنى القعقاع وزعماء اليمنية. وفى ذات صباح التقى جمع منهم بدار شبيب بن أبى مالك فتذاكروا فى شأن الوليد، وأنه إذا امتد عهده لم يبق منهم أحداً، ولم يترك لمجد الخلافة أثراً، واستقر رأيهم على مبايعة يزيد بن الوليد لأنه كان يظهر التقوى والورع ويتشبه بعمر بن عبد العزيز، فذهبوا إليه وكان بالرصافة فحدثوه بأمرهم، وألقوا إليه بسرهم، فأخذته الدهشة وتذكر سطوة الوليد وبطشه فطلب منهم أن يمهلوه حتى يستشير عمرو بن يزيد، ثم تركهم وذهب إلى عمرو فى داره وأطلعه على ما اعتزم عليه القوم فوقف عمرو وقد كان جالساً وقال:

هذا يا ابن العم أمر جسيم لن يفصل فيه إلا أخوك العباس فإنه صاحب رأى ومعرفة، أما أنا فرجل كثير الشكوك كثير التقلب، وليس لمتقلب رأى.

وانطلق يزيد إلى العباس يستشيره ويستهديه، فما كاد يكشف له عن طرف مما جاء بشأنه حتى وكزه العباس فى صدره، وصاح فى وجهه غاضباً: حقّاً إنك لأشأم سخلة فى بنى مروان. ووالله لولا ما أخافه عليك من حدة غضب الوليد لشددت وثاقك وحملتك إليه، إن دولة بنى أمية تهتز للسقوط فبالله عليك لا تضرب فيها بمعول جديد! وإن بها من نيران الفتن ما تعدّ جهنم إزاءه جذوة خامدة، فدعها أيها الغرّ ولا تزدها نكالاً! دعها بالله وانصرف إلى شأنك. أتدرى معنى خلع خليفة من بنى مروان؟ إن معناه أيها الأبله ضياع الدولة كلها، إذهب يا عدّو عشيرته ولا تثر جُرحاً لا يريد أن يندمل، وإذا حدّثتك نفسك بشىء مما فى نفسك فاعلم أنه هو الشيطان الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس، وأن غراب الفتنة هو الذى يدفع الأشقياء إلى أن يخرّبوا بيوتهم بأيديهم:

إنى أعيذكمُ بالله من فتن ... مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ملت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا

وخرج يزيد من لدن العباس حزيناً متردّداً، ولكن الرغبة فى الملك أغرته بنبذ وصايا أخيه فنفض عنه ما كان قد أصابه من يأس، وطرح ما كان مسّه من خوف، والتقى بجماعات الساخطين وكان بينهم يزيد بن عنبسة فبايعوه سرّاً، ولما اجتمع له أمره قصد إلى

دمشق متنكراً فى سبعة من أنصاره. فنزل على المِزّة وهى من أرباض دمشق، وقصد قُدُماً إلى دار معاوية بن مصاد زعيم قومه فبايعه وبايعه كثير من أهله ورجاله، ثم رحل إلى دمشق وعزم على إظهار الدعوة، فأرسل إلى أصحابه فكمنوا عند باب الفراديس، ودخلوا المسجد الجامع لصلاة العشاء، فلما أتموا المكتوبة قبضوا على من بالمسجد من الحراس وكبلوهم، ومضى يزيد بن عنبسة إلى يزيد بن الوليد فأخبره الخبر ثم قال: قم يا أمير المؤمنين وأبشر بنصر الله وعونه! فاتجه يزيد إلى السماء وهو يقول: اللهم إن كان هذا لك رضاً فأعنّى عليه وسددنى له، وإن كان غير ذلك فاصرفه عنى! وانطلق مع ابن عنبسة فى دروب دمشق، وكلما سارا خطوات انضم إليهما أعوان وأنصار، وما جاء اليوم الثانى حتى توافدتِ على يزيد الكتائب يقودها مشايخها، وهى تتحرق للقتال وترجو ما وراءه من غنائم.

وطار أحد عبيد الوليد على جواد يسابق الريح إلى سيده، فلما بلغ الأغدف رآه بين ندمائه وعمر الوادى ينشدهم:

أدر الكاس يميناً لا تدرها باليسار
أسق هذا ثم هذا صاحب العود النضار
من كميت عتقوها منذ دهر فى جرار

وما كاد يلقى إليه الخبر حتى ثار وقذف بالحمم، وأمر بضربه مائة سوط ثم بحبسه.

وكان بمجلس الوليد يزيد بن خالد، وعبدالله بن سعيد، والأبرش الكلبى. فقال ابن خالد:

ـ إنى أرى يا أمير المؤمنين أن تنزل حمص فإنها حصينة، وأن توجّه منها الجنود إلى يزيد حتى يظهرك الله عليه. وقال ابن سعيد:

ـ لا ينبغى للخليفة أن يرتحل بجنوده ويدع نساءه فى أيدى أعدائه، والله مؤيد أمير المؤمنين وناصره. فابتدره ابن خالد قائلاً:

ـ وماذا يخاف أمير المؤمنين على نسائه، وقائد جيش عدوه هو ابن عمهن عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك؟ فصاح الوليد فى غضب وسآمة: لن أرحل ولن أترك أهلى ونسائى. وأشار عليه الأبرش أن ينزل بحصن البخراء وأن يقاتل أعداءه حوله، فأخذ

الوليد برأيه، وانتقل إليه. أما دعاة يزيد فانطلقوا ينادون في الناس: من سار للقتال مع يزيد فله ألفان! فهرع إليه كثير من مرتزقة المحاربين. أ

ثم علم عبد العزيز بن الحجاج قائد جيش يزيد أن العباس بـن الوليد قادم لمناصرة الوليد بطائفة من أهله ورجاله، فسقط في يده، وأيقن أن شيئاً من ذلك لو يتم لتفرّق عنه رجاله لشدة ثقتهم بالعباس، وحبهم إياه واعتقادهـم أن الفئـة التي يظاهرهـا هي الفئـة الغالبة، لذلك أسرع فبعث منصور بن جمهور علـى رأس فرقـة من الجنـد لتحـول بين العباس والوصول إلى الوليد.

وسار منصور وهدّد العباس وساقه مع من معه إلى مخيم ابن الحجاج، فلما وصل إليه أمره ابن الحجاج أن يبايع لأخيه يزيد فبايع مكرهاً مغلوباً، ونصب ابن الحجاج راية العباس، وأمر منادياً أن ينادي في الناس: هذه راية العباس وقد بايع لأمير المؤمنين يزيد. وما كاد أصحاب الوليد يسمعون هذا النداء حتى تفرّقوا عنه وانضموا إلى جيوش أعدائه.

ولكن الوليد كان شجاعاً مقداماً بعروبته وطبعه المـوروث، فلـم يأبـه لانصـراف أصحابه عنه، واعتزم أن يلقى القوم بنفسه. ففي أحد أيام جمادى الأولى من سنـة ست وعشرين ومائة ركب فرسه «السندي» وقذف بنفسه في حومة الحرب فقاتل قتـالاً شديداً، ولكن القوم تزاحموا عليه حتى كادت تنوشه سيوفهم. فدخل الحصن وأغلق الباب دونه ثم أخذ المصحف وجلس يرتل آيات القرآن الكريم، وانتحى أبو رقية ناحية من الحجرة وأخذ يفتح عينيه ويغمضهما كأنه كان يصلي بإيماء العينين.

ووثب يزيد بن عنبسة نحو الباب وصاح قائلاً: كلمني يا وليد، فلقد كنت تبحث عني في كل مكان، وها أنذا قد أتيت إليك طائعاً، ولكنـي أظنـك لا تودّ اليوم لقائـي. لقـد حاربتني في سلمى أيها الرجل فانتصر الموت علينا جميعاً واستأثر بها، واليوم تلقى جزاءك بما قدمت! لا تخف يا أبا العباس فإني لن ألقاك ولكن سيفي هو الذي سيلقـاك. فقـال الوليد: لم تقتلونني لا أبا لكم؟ ألم أزد في أعطيات أصحاب العطاء؟ ألم أرفع المؤن عن كثير من الناس؟ ألم أعط الفقراء؟ ألم أعطف على الزمنى؟ فصاح ابن عنبسة: إنا نقتلك لننقذ الخلافة من يديك. فغضب الوليد وقال: حسبك يا ابن عنبسة، إن الخلافة أكرم على الله من أن ينقذها مثلك. ثم عاد إلى التلاوة وهو يردد: يوم كيوم عثمان! فسخر منه ابن عنبسة وجبهه بمقذع السباب وغليظ القول، ثم وثب فوق الحائط وانطلق وراءه نفـر من

أصحابه، ولما قرب من الوليد قبض على يده وكان يريد أن يأسره ويذهب به إلى القوم ليفصلوا فى أمره، ولكن رجلاً عاجله بضربة من سيفه فخر صريعاً مضرجاً بدمائه، وتقدم ثان فاجتز رأسه، وأشرع روح بن مقبل فحمل الرأس وطار إلى يزيد فرحاً بما يحمل. فلما وصل إلى خيمته قذف أمامه به وهو يقول: أبشر يا أمير المؤمنين بقتل الوليد وأسر من كان معه، هذا نصر مبين مؤزرا فسجد يزيد شكراً، ثم التفت إليه باكياً وقال: كنت أرضى منكم بدون هذا، أما القتل فبلاء عظيم!

ودخل ابن عنبسة فأخذ بيد يزيد وقال: قم يا أمير المؤمنين وأبشر بنصر الله لك وإتمام نعمته عليك. فارتعد يزيد وقال: ويلى إذا لم يغفر الله لى! قل لى بالله يا ابن عنبسة، ماذا قال لكم الوليد قبل قتله؟ فأجاب ابن عنبسة: لقد كان يقول: أما فيكم ذو حسب فأكلمه؟ أليس منكم رجل رشيد يستمع لما أقول؟ ولكنا أوسعناه تقريعاً وتواثبنا عليه فروّينا أديم الأرض بدمائه. فصاح يزيد: كفاك يا ابن عنبسة كفاك! لقد لعمرى أكثرت وأغرقت، أما والله لا يرتق بعدها لكم فتق، ولا يلم شعث، ولا تجتمع كلمة! إن الرءوس التى حصدها الحجاج بن يوسف بعد أن أينعت وحان قطافها ستثأر اليوم لنفسها! لقد حق القول على بنى أمية وانهار بناؤها، وخربت - كما يقول العباس - بيوتها بأيديها! وإنما أنا والوليد رجلان المنتصر منهما المهزوم، والقاتل منهما المقتول!

يصاولنى والسيف بينى وبينه ... وأقتله عمداً، وفى قتله قتلى!



سيدة القصور

آخر أيّام الفاطميّين بمصر

مايو ١٩٤٤

- ١ -

كان النهار فى صولة شبابه . وكانت الشمس تبعث بأشعتها وهّاجة ملتهبة تكاد تشوى الوجوه، وكان الجو على حرارته كثير الرطوبة والندى المتصاعد من البحر، وكأنّ النسيم الذى أكثر الشعراء من ادعاء أنه عليل، قد طالت علته فقضى نحبه، فلا تسمع له جرّة ذيل ولا همسة أنين.

وقد أضنى الناس بمدينة عَدَن هذا الوَمَدُ، وهزل أجسامهم القيظ بعد أن توالت عليهم شهور الصيف شديدة لوّاحة، كأنما كانت تتنافس فى مسّهم بشُواظها، فلا يجىء شهر إلا وهو أشد وأنكى من صاحبه.

وظن أهل المدينة أن العُرْى يخفف عنهم بعض ويلات الحر، فتسلّبوا من الملابس إلا أُزُراً قصيرة يشدونها إلى أوساطهم ولو علموا لصانوا أجسامهم من هذا السعير اللافح، الذى كساهم ثوباً لماعاً من العرق، كلما تساقط نسجت لهم الشمس ثوباً جديداً، وكلما مسحوه بأيديهم سال نبعه وتقاطر، حتى كأن كل رجل أصبح إنبيقاً يتحول كل ما فيه ماء بالتصعيد والتقطير.

خلت طرق المدينة من السّابلة إلاّ من دعته شدة الحاجة إلى المسير. وفزع المتعطلون إلى الظل والنّجائر يتقون بها شدّة الهاجرة، أما الأغنياء والموسرون: فلبسوا البيوت وزرّروا الأبواب، والتجأوا إلى سراديب عميقة فى الأرض، ينفذ إليها الهواء من

بناء إسطوانى كالداخنة، يشق طبقات الدار، وتنفذ فوّهته إلى سطحها. وكان علىّ بن مهدىّ - وهو من دعاة الفاطميين وكبار رجالهم - فى داره فى هذا اليوم، ومعه جماعة من الأدباء والعلماء، بينهم أبو كاظم الحرّانىّ، والفقيه أبو الحسن النّيلىّ، وأسامة الحضرمىّ. وكانت الدار على سِيف البحر، فخمة شاهقة البناء، تدل على عظمة صاحبها واتّساع جاهه، وقد أسرع العبيد فبلّوا دهاليز السرداب بالماء، حتى بدت فيها بحيرات صغيرة هنا وهناك.

وجلس ابن مهدىّ وأضيافه فى حجرة كان أثاثها غاية فى الحسن وجمال التنسيق، وقد كسيت فيها الأرائك بالحرير الأرجوانىّ، واختيرت الستور من الخز التّنّيسىّ، وفرشت الأرض بالبسط الهنديّة، ودلّ كل شىء فيها على ذوق سليم وبذَخ وإسراف، وقد وقف فى نهاية الحجرة أربعة عبيد، يُمسكون بحبال مِروحة مستطيلة، عملت من القطيفة الغليظة النسيج، وعُلّقت بسقف الحجرة على طول امتداده. فهم لا يفتأون يجذبون الحبال ويُرخونها، والمِروحة تتحرك إلى الأمام والخلف، أملاً فى أن تجود على من بالحجرة بنفَس من نسيم.

بدأ ابن مهدى فقال: هذا يوم لم ترَ عدن له مثيلاً، وستصبح سنة تسع وأربعين وخمسمائة ذكرى خالدة لأهلها يوقّتون بها ويؤرخون.

فقال الحرّانىّ - وكان فَكِهاً - : سيقولون زار الحرّانى عدن سنة الحرّ. فعاجله النّيلىّ، وقال: وسيقولون سُرق خُرج النّيلىّ سنة الحر. فضحك القوم، والتفت إليه ابن مهدىّ وقال: أسرق منك خرج حقاً؟؟

- لا أدرى... أسرق؟!... أم ابتلعته الأرض؟!.. أم تخطّفته السماء؟!...
وصلت القافلة من زَبيد عند باب المدينة الذى يسمونه هنا (باب الصّدقات)، أو هو باب السرقات على الأرجح، وحُطّ رحلى ووضع ما عليه من متاع وأثقال، وأنا أنظر إليه لا تكاد عينى تذهب عنه. وكان الخرج بين المتاع، وقد ازدحم حول السفّار جماعات من الحمّالين والمجتدين وبينهم امرأة هزيلة شاحبة فى أسمال - أو فيما كانت أسمالا - لا تكاد تستر جسمها. وكان وجهها يحكى وهو صامت، حكاية مؤلمة للسّغب والفاقة ومرارة الحاجة، وقد حملت بين يديها طفلاً أو جُعَلاً، تركه الجوع عظاماً فى جلد، أو جلداً على عظام. وأخذت تمد ذراعيها به فى وجهى، فراعنى سوء حالهما، وبحثت فى جيبى عن

درهم أمسك به رمقهما. وما كدت أمدّ يدى به إليهما وأعود بعينى إلى أمتعتى، حتى وجدت مكان الخرج خالياً!!

فقال الحرّانىّ: هذه هى اللعبة يا سيدى التى لم تدرسها فى الكتب، ولم تجد لها مثيلاً فى كتاب الحيل الفقهية للخصّاف. وكأنما كان أبو نواس اللّئيم يشير إليك بسبابته حين يقول:

فقل لمن يدّعى فى العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

هذه المرأة يا مولانا تعمل مع اللصوص والشُّطّار. وهى آلتهم التى بها يصلون إلى غاياتهم. هى الطعم الذى يقذفون به إلى السمك لاصطياده، هى الحبّ الذى ينثر حول الفخّ ليقع عليه الطائر الغِرّ، هى البؤس المزوّق الذى جاء يستلب مالك اضطراراً لما عجز البؤس المحقّق عن أخذه منك اختياراً. هذه المرأة وأمثالها يرسلها العَيّارون إلى من ينكب بهم، ليثير منظرها المؤلم نفسه، فيصرفه عن النظر إلى ما حوله، وقد يكون مقدار ذهوله لحظة أو دونها، وهذه اللّحيظة كافية لأن يسلبوه ما يشاءون.

فقال النيلىّ ـ وقد ظهرت فى وجهه آلام من يشعر بالتّفريط، أو من يتوقع أنه سيوصم بالغفلة والبلاهة ـ حقاً إنهم شياطين!!

وهنا سأله ابن مهدىّ فى شيء من الاستنكار: ألم تذهب إلى وإلى المدينة وتقصّ عليه قصتك؟ فلعله يجد سبيلاً إلى الوصول إلى ما سرق منك!!

ـ ذهبت إلى داره، وهى تقع فى محلة الحدّادين إلى الجانب الشرقىّ من المدينة، فوصلت إليها بعد لأي وجهد، فلما طرقت الباب خرج لى أحد غلمانه، فلما سألته عنه، قال: إنه مريض منذ يومين، أكل لحم جزور زَهِمة فاصيب بالزُّحار.

فسألته عن وكيله، وأين مكانه؟ فقال: إنه أعرس بالأمس، وإنه نازل عند أصهاره «بذى جِبْلَة» وإن المسافة بين عدن وبينها سبعة عشر فرسخاً. فحوقلت ورجّعت، وقلت لنفسى ضاع خرجك يا أبا الحسن بين معاناة الزُّحار ومناغاة الأبكار!!

فضحك القوم، وأغرقوا فى الضحك، ثم قال ابن مهدىّ فى مواربة ودهاء: خلّ عن المزاح الآن أبا الحسن... كيف حال الدعوة الفاطمية بزبيد؟؟... لقد جاءت رسالة

من الخليفة الفائز إلى محمد بن سبأ، ينعى عليه فيها التهاون فى نشر الدعوة، ويستحثه على أخذ كل من نكل عنها بالبطش وقوة السلطان.

فأجاب الحرّانىّ: إن الدعوة الفاطمية بزبيد على خير ما يُتمنى لها من القوة والانتشار، فإن الملك فاتكاً لا يفتأ ناشراً لها، عاملاً على بثّها فى كل نفس. ونائب داعى الدعاة هناك ونقباءه ونوّابه، لا يتركون شيئاً حتى يضموه إلى حظيرتهم، فقال ابن مهدىّ: ذاك كلام أبا كاظم، فإن ما لدينا من الأخبار يجْبه ما تقول. ولعل حبّك لفاتك هو الذى دفعك إلى الذود عنه!

فأسرع الحرّانىّ قائلاً: لقد صدقتك يا سيدى. وإذا كان لا بد من الحق الصّريح الذى لا يخالطه استثناء، فإننى أؤكد لك واثقاً أن زبيد كلها فاطمية، إلا أسرة زيدان، وأسرة المثيب، وهما أعمام عُمارة بن زيدان وأخواله.

فانبرى له الحضرمى ـ وكان صديق عمارة الوفىّ ـ قائلاً: ما لك أبا كاظم وعُمارة؟! إنك فى النيل منه والكيد له جدُّ متّهم.. وإن كنت لا أعرف أسباب نقمتك منه وحقدك عليه؟!

وهنا صاح ابن مهدىّ ـ وقد رأى الشر يتصاعد شرره:

ـ مه أيها الإخوان... فإننا اجتمعنا للمحادثة والمحاضرة، لا للتنابذ والمهاترة... أعلمتم أن عمارة بن زيدان، قدم منذ أيام وافداً على محمد بن سبأ صاحب عدن؟ أتعرفون سبب هذه الوفادة؟ فأسرع الحرّانىّ قائلاً: إنه قنّاص سديد الرماية، فلعله اشتم هنا رائحة صيد جديد. ثم قال النيلى: إن عُمارة اليوم يا سيدى غيره بالأمس، فقد كنا نعرفه بالمدرسة العصامية بزبيد فقيراً مملقاً، يعيش عيشة طلاّب العلم فى عسر وشقاء. ولكنه بعد أن اتصل بأمير زبيد ومدحه، أغدق عليه، فأصبح صاحب الحول والطول، وصار موضع الشّفاعات وقاضى الحاجات. ثم إنه تاجر فراجت تجارته، وسارت سفنه بين زبيد وعدن وجُدة، لا تكاد تنقطع فى ليل أو نهار. حتى لقد قال له يوماً أبو عبد الله الحفائلى ـ وهو رأس العلم والأدب بزبيد ـ: تِهْ علينا أبا محمد، فقد أصبحت ولا مثل لك فى الجاه والعلم والثراء! وليته بعد أن أسبغ الله عليه هذه النعمة الطارئة، شكر الله عليها بقليل من التواضع، أو أدّى زكاتها بشىء من اللطف والمجاملة! ولكنه صلف متكبر مغرور ـ وإن كره الحضرمى. فأسرع الحضرمى وقال: كفى كفى أبا الحسن. لقد أكلتم لحم أخيكم ميْتاً، ومزقتم من

الرجل وهو غائب ما تخرَس دونه ألسنتكم وهو حاضر. إن عُمارة لم يكن دعِياً فى جاهه. ولم يكن محدَثاً فى نعمته: إنّ عمّه على بن زيدان أكرم من نثر مالاً، وأشجع من جرّد سيفاً. وخاله محمد بن المثيب أشرف قومه، وسيد قبيلته. ولولا الجدب المحرق الذى أصاب «مَرْطان» سنة تسع وعشرين وخمسمائة، فأهلك الحرث والنسل ـ ما احتاج عمارة إلى السعى فى الرزق، والتنقل فى طلب المال، وما سمعنا مثل أبى الحسن النيلىّ يلمزه اليوم بأن نعمته طارئة وثروته محدَثة. فقال ابن مهدىّ: إن عمارة رجل يجمع كلّ صفات الرجولة، وقد حادثته بالأمس فى دار ابن سبأ، فرأيت فيه علماً وأدباً ودهاء. والذى قرأته فى وجهه، واستنبطته من خلال حديثه: أنه رجل عظيم الآمال، كبير النفس، طموح بعيد المدى. وهو يذكرنى بالمتنبى شاعر كافور، وأرجو ألا تكون له مثل خاتمته.

ثم مُدّت مائدة الطعام، وقام الغلمان بالخدمة، وقدمت الألوان الشهية، وأنواع التوابل الهندية. فأكل القوم وشربوا، وهم يتنادرون ويتسامرون. ثم استراح الضيوف بعد الأكل قليلاً، حتى إذا قاربت الشمس المغيب، ودّعوا ربّ المثوى وانصرفوا.

ـ ٢ ـ

خرج الحرّانىّ والنيلىّ والحقد يأكل قلبيهما، لما سمعاه من إطراء ابن مهدىّ صفات عمارة. وهما يعلمان ما لابن مهدىّ من عظيم التأثير والكلمة المسموعة عند محمد بن سبأ، وأنه إذا ظفر عمارة بمودتهما، بعد أن فاز عند أمير زبيد بعظم المكانة لم يأمنا شرّه.

وأسفا عى أن طعناه ونالا منه أمام صديقه الحضرمى، الذى سينقل إليه صورة ما دار بالمجلس كاملة وافية، إن لم يزد عليها كثيراً من ألوان التحسين والتزويق.

بدأ الحرّانىّ الحديث قائلاً: ما العمل أبا الحسن؟! فقد زلق لسانى وتجاوزت حدّ الحزم فى ثلب عمارة، وتمزيق عرضه؟؟

إن عمارة اللئيم الداهية، استطاع أن يحافظ على مذهبه السنّىّ، وأن يجتذب هؤلاء الفاطميّين من ناحية، ورؤساء زبيد من ناحية أخرى. حقاً إن أمر هذا الرجل لعجيب! إن له فى التأثير فى الكبراء ما يشبه السحر، حتى كأنه بقوة روحه أنسى دعاة الفاطميّة التشدد فى إلزامه مذهبهم. وكأنهم يرونه خلقاً عظيماً فوق المذاهب والعقائد؟

إنه يمدح الفاطميين ، ويمدح السّنّيين بشعره ، ولو رأى مجوسياً لمدحه . وإذا خاطبه الناس فى هذا ولاموه قال : إن تجارة السلع علمته التجارة فى الشعر ، وإنه ينسج من قصائده أثواباً مختلفة الأثمان ، متنوعة الطول والقصر ، يبيعها لكل من تقدم لشرائها . وإنه لم ير فى حياته بزّازاً امتنع عن أن يبيع لوثنىّ أو رافضىّ . ويظهر أنه بهذه الطريقة نجا بمذهبه السنّى .

ـ هو فى الحق شديد الحرص عليه ، وهو فى الحق يمتاز علينا فى هذا ، فإننا أظهرنا التمسك بالمذهب الفاطمىّ عند أول تهديد من داعى الدّعاة .

ـ هوّن عليك أبا الحسن ، فإن قليلاً من الرياء فى هذه الدنيا ليس بالأمر الجلل . وهو سلاح خلقه اللهّ فينا نتّقى به الخطر ، كما خلق الدّرقة فى السُّلَحْفاة ، والقدرة على التلون فى الحرباء . ولو أن سائلاً سألنى عن منفعة اللغة ، لأجبته بأن أعظم فوائدها : أنها لا تعبر عمّا فى الضمير ! ! وهؤلاء السادة الذين تراهم ، وهؤلاء العلماء ، وهؤلاء الأثرياء ، لن يستطيعوا العيش بلا رياء .

إنّ الأطفال فى هذا الزمان يراءون ! ولست أدرى أكان أكثم بن صيفىّ يدعو إلى الصدق ، أم كان يدعو إلى الكذب حين قال : إن قول الحقّ لم يدع لى صديقاً .

ـ صدقت ! ! لو أن كل إنسان قال ما يجول بنفسه بشأن من يعرف من الناس ومن لا يعرف ـ لفتك به الناس . . . تخيّل أبا كاظم أننى وثبت اليوم على ابن مهدىّ مضيفنا ، وأخذت بتلابيبه وصحت : إنك ثقيل وربِّ الكعبة ! ! إن كبرك لا يحتمل ! ! إن تعاقلك وزهوك وتكلّمك من أطراف أنفك فوق طاقتى ! ! اغرُب عن وجهى إنك سمج دنىء ! !

تخيّل أنى فعلت هذا ، ثم تخيّل ماذا يكون .

وهذا الشيخ الذى تراه الآن راكباً بغلته ، وخلفه عشرة عبيد يلهثون من التّعب ، وهو ينظر فى الناس يميناً وشمالاً فى بلاهة وعجب كأنه يريد أن يصيح فيهم : «انظرونى أيها العُميان ، وانظروا ما أنا فيه من جاه وثروة» ـ ألا تحب أن تعدو خلفه وتبصق فى وجهه ، وتعرّفه أنه مأفون مُتَبَجِّح نذل؟ !

ـ إن أمثال هذا كثير ، فدعنا الآن نفكر فيما ينجينا من عمارة وويلاته .

ـ علمنا اليوم من ابن مهدىّ الأبله : أن عمارة اجتمع به فى دار ابن سبأ ، وفهمنا من

حديث ابن مهديّ الغِرّ: أنه جاء إليهما ليتحدّثا معه فى أمر جسيم. ألم يقل ابن مهديّ: «إن عمارة رجل عظيم الآمال، كبير النفس، طموح بعيد المدى»؟؟

- هذا صحيح. فماذا ترى كان موضوع الحديث؟؟

- إنه فيما يغلب على ظنى لم يكن حديثاً للمسامرة والتسلية، بل كان مفاوضة ذات شأن.

- فى أى شأن كانت المفاوضة يا أبا الحسن؟

- لا أدرى. ولكن ألا تعرف «مُفلحاً» خادم ابن سبأ الخاص به، والأثير عنده؟

- أعرفه... وهو صديق لى حميم... وهو سنّىّ فى الباطن، وكثيراً ما كان يرد إلى زبيد ليسألنى عن مسائل فى فقه الشافعى، و «مفلح» هذا إذا عرف شيئاً من المفاوضة، ومما دار بين هؤلاء الثلاثة من الحديث - فلن يتوانى عن إخبارى به.
- هلم بنا إليه بحقّك.

فيأخذ الحرّانىّ بيد صاحبه، ويخرجان من دَرب قدر، إلى زقاق كريه الرائحة، حتى يصلا إلى غربىّ المدينة. فيظهر لهما بناء شامخ كأنه الحصن، وحوله الحدائق المزهرة، والرياض الباسمة، فيشير الحرّانىّ إليه ويقول: هذا هو القصر السمّى بالمَنْظر، وهو قصر ابن سبأ صاحب عدن والقائم بدعوة الفاطميين فيها. وخير لنا أن نذهب إلى الباب الخلفى، خوفاً من أن نلتقى بالأمير.

دخل الشيخان من الباب الخلفىّ، فقابلهما غلامُ لمفلح، لا يتجاوز الخامسة عشرة، وسيم الوجه، صبيح الطلعة، امتزج فيه الدم العربى بالهندىّ، فأخرج هذا الامتزاج للناس صورة من الإنسانية بديعة رائعة. فسأل الحرّانىّ عن صديقه «مفلح» فأجلسهما الغلام فى حجرة وذهب لدعاء سيّده، وأقبل «مفلح» وكان رجلاً فى الأربعين، وقور السمت، جميل الوجه، يلبَس من الحرير والديباج ما لا يجد طريقه إلاّ حول أعطاف الملوك. فحيا الحرّانىّ وصاحبه فى تجلّة وإكرام، وانتقل الحديث إلى جوّ عدن وشدّة حرارته، وما سيصيب الناس فى هذه السنة من الجدب، لامتناع المطر وقسوة الجفاف.

وبعد قليل قال له الحرّانىّ: أيتفضل سيدى بأن أستفسر منه فى خلوة عن أمر أراه خطيراً؟!

ـ نعم نعم وكرامة .

ثم يأخذ مفلح بيده إلى حجرة أخرى ، ويغلق بابها ويقول : ماذا تريد أبا كاظم؟؟ إنى لا أنسى لك فضلك فى شرح كثير ممّا التبس علىّ فهمه من مذهب الشافعىّ ، ولم أجد من فقهاء زبيد من هو أكتم للسر ، وأرعى للأمانة منك . فلو عرف ابن سبأ حقيقة مذهبى ، ما أبقى رأسى بين كتفىّ .

ـ يا سيدى . لقد وضعت سرك عند شقيق روحك ، نجىّ نفسك . وكأنك والله ما نقلته إلاّ من ناحية صدرك اليسرى إلى ناحيته اليمنى . . . إننا لا نزال يا سيّدى نأمّل لك عزاً كبيراً ، ولا نزال نرجو أن تتقوى السنّيّة وتظهر ، لنراك زعيمها المرجّى ، والملك الحاكم المسيطر فى هذه البلاد .

ـ تلك آمال أبا كاظم .

ـ آمال وستحقّق إن شاء الله . . . أجاء عمارة بن زيدان لمقابلة ابن سبأ هنا بالأمس؟؟

ـ نعم . وقد كان معه علىّ بن مهدىّ ، فقضوا وقتاً طويلاً فى حديث طويل .

ـ أتعتقد أنهم كانوا فى مفاوضة بشأن أحوال الحكم فى اليمن؟؟

فابتسم «مفلح» وهزّ بلطف كتف الحرّانىّ وقال :

ـ إنّ عمارة شابّ طمّاح ، يريد أن يكون زبيباً قبل أن يكون حِصْرِما .

ـ أسمعت بعض ما قالوا يا سيدى؟

فأطرق «مفلح» ملياً ، ثم رفع رأسه وقال متردداً : الذى فهمته من كلمة تتناثر هنا ، وأخرى تسقط هناك ، وثالثة يرتفع بها الصوت قليلاً : أنهم كانوا يتحدثون فى شأن زبيد .

ـ ماذا سمعت بالله يا مولاى؟ فإن حياتنا وآمالنا معلّقة بما ينقض هؤلاء ويبرمون .

ـ سمعت ما يفهم منه : أن فاتكاً ملك زبيد عدو للفاطمية ، وأنه يجتهد فى إماتة دعوتهم ، وأن ابن سبأ قد يجهّز عسكراً بقيادة علىّ بن مهدىّ ، لمحاربته والاستيلاء على المدينة ، على أن يسبقه عمارة إليها للتمهيد لهذا الغزو ، واجتذاب القبائل إلى ابن مهدىّ ، وأن يُقلَّد ابن مهدىّ حكم زبيد بعد زوال فاتك ، وأن يكون عمارة شريكه ونائبه فى

الحكم. ثم رأيتهم يتعاهدون على الكتمان، حتى تأخذ أهل زَبيد الصّيحة وهم نائمون.

- يا للدّاهية!! ضعنا بين جنون ابن مهدىّ، ودهاء عمارة!

- كل شىء بقضاء وقدر يا شيخ، ولعلهم كانوا يتحدثون، واللوح المحفوظ يسخر ويقهقه!!

- نحن لم نر اللوح المحفوظ يا سيدى، ولكننا نرى بين الرماد وميض نار، سيكون له تأجّج وضرام. وليس لنا فى رفع هذا المكروه عنا إلاّ اللهّ وأنت.

ثم استأذن الشيخان فى الانصراف وخرجا. فقال النيلى.

- أراك عابساً جازعاً أبا كاظم. فماذا قال لك؟؟

- ماذا قال لى؟! إنى لم أسمع كلاماً، إنما سمعت رعداً وعزيفاً وصواعق... إنها مصيبة جارفة... هلم إلى فُندقنا، فإننا لا نستطيع الكلام فى الطريق.

وصلا إلى الفندق واجمين، ودخلا حجرتهما وأغلقا بابها، وحدّث الحرّانىّ النيلىّ بما سمعه من مفلح، فاكفهرّ وجهه وقال:

- ضعنا وضاعت زبيد.

- الرأى عندى: أن أذهب الليلة مستخفياً إلى زبيد، حتى إذا نزلتها، أخذت سَمتى قُدُماً إلى قصر فاتك، وطلبت مقابلته وحده، حتى إذا نفضت إليه جملة الخبر، عدت من ليلتى غير متوان ولا معوّق... سأرحل الآن.

ثم قام وذهب إلى سوق البزّازين، فاشترى إزارا ورداء، حتى إذا لبسهما لم يكن يميّز من أعراب البادية. وودّع النيلىّ وذهب إلى محطّ القوافل ليستأجر جملاً إلى زبيد.

- ٣ -

امتطى الحرّانىّ جملاً شديد الأسر، موثّق الخَلق، مارس الصحراء ومارسته، وتحدته بوعورتها وبعد شُقّتها، فتحداها بصبره وشدة جلده، حتى لقد أصبح الضرب فى الفيافى جزءاً من حياته، لا يكاد يجد له ألماً أو يشكو منه عنتاً! سار الحرّانىّ وقد لفه الظلام برداء حالك السواد، طرز بثواقب النجوم، سار فى صحراء لا يسمع بها إلا عواء ذئب برّح

به السّغب وشفّه الظمأ، ولا يرى فيها إلا تهاويل من الخيال، دميمة الوجوه، فاغرة الأفواه، تتراقص أمامه كأنها تستهويه إلى موت محقق. وكان الحرّانىّ متجهم الوجه، منقبض الصدر، مضطرب الفكر، يخشى أن يكون بغض أسرة زيدان قد جاوز به حد الحزم، ودفع به إلى ما لا يجمُل بالحذِر الحريص، وكلما صوّر الحوادث التى زلقت بها رجله، وزجّه فيها حقده، رأى أنها لم تكن من الإحكام ودقة التدبير، بحيث يرضى عنها دهاؤه، أو يستسيغها ذوقه الفنىّ فى نصب الأشراك وابتداع الجرائم. وقد كان فى متناول ذكائه من ضروب الحيلة وأساليب المكر، ما كان أدقّ صنعاً، وأبعد عن العقول إدراكاً، وأخفى على الباحث المنقب. ماذا فعل؟ وماذا قدّر؟ وماذا دبّر؟ مكيدة مكشوفة مهتوكة الستر، كأنها عبث أطفال. لقد نال من عمارة، وانتقصه أمام الحضرمى، وهو له أصدق صديق وأوفى خليل. فإذا أصاب آل زيدان من فاتك أذًى أو ضَرَر، كان من الهين السهل أن تتجه العيون إلى الحرّانى، وأن تشير إليه بالأكف الأصابع. ثم ماذا فعل بعد هذا؟ ذهب مع النّيلىّ إلى «مفلح». ومن هذا المفلح؟! بائس تركه مِبضَع الجرائحىّ وَسَطاً حائراً بين الرجال والنساء، فلا شهامة الرجل نال، ولا بدهاء المرأة ظَفِر. ثم إن الذى يفرّط فى سر سيده ـ وهو سرُّ دولة ـ أجدر بأن يهب ما فى صدره مسئولاً أو غير مسئول، وأن يبعثر ما فى نفسه فى الأسواق. على أن هذا الغِرّ الأحمق مفتون بشىء اسمه السّنية، عدوّ خفىّ للفاطمية.

وبنو زيدان أقوى قبائل اليمن، وأشدها تمسكاً بالمذهب السنّى، فليس فى مجال الوهم ببعيد، أن يبعث إليهم هذا الجاهل رسولاً، يخبرهم بما كان من زيارتى وزيارة النّيلىّ لداره، ثم إن ما بينى وبين على بن زيدان من الثأر القديم، كفيل بأن يحمله على الاعتقاد بأن لى فى هذه المكيدة يداً، وأنى كنت أول ساع بعمارة عند فاتك، وأول مؤلِّب عليه. حقاً إنها دسيسة لم تُحكم أطرافها، ولم تستر فخاخها. ولكن ماذا أعمل الآن، وقد انطلق السهم الطائش!؟

ألا سُحقاً لعلى بن زيدان، لقد كان ما أوقعه بأبى منذ سنين من شديد العقاب والخزى الدائم، سبباً لهذا الحقد الذى يملأ صدرى على أسرة زيدان وكل من يتصل بها. وماذا كان فعل أبى فى شبابه؟ أحب فتاة من حيّهم وأحبته، فأبوْا أن يزوجوه إيّاها كبراً وصَلَفاً، لأنهم يرون الناس جميعاً دونهم، ولأنهم لا يصاهرون إلا من كان من قبيلتهم،

كأنهم يخشون على هذه السلالة الطاهرة أن تدنس بغير نسبهم . وكان يجدر بأبى ـ سامحه الله ـ أن يقابل كبرهم بمثله ، وأن يُخضع تلك النزوة الطائشة التى يسمونها الحبَّ لسلطان الكرامة والاعتزاز بقومه وقبيلته . ولكنه لم يفعل ، واختطف الفتاة من خبائها فى ليلة سوداء ، فأحس به القوم فأدركوهما ، وقتلوا الفتاة وهمّوا بقتل أبى ، ولكن شريراً لئيماً منهم أشار بأن يستبقوه لحياة هى شر من الموت ، أشار بأن يبقى حياً ، وأن يوصم وصمة اللصوص . فاستطابوا الرأى ، وأوقدوا النار ، ووسموه فوق جبهته وفوق خديه بعلامات يوسم بها السُّرّاق وقُطّاع الطريق ، ثم تركوه بالصحراء يئن من الألم ، ويئن من الخزى والعار . ووالله ما جلست بعد هذا اليوم مجلساً ، ولا سرت فى طريق إلاّ وكأنى أرى جميع الأصابع تشير إلىّ : هذا ابن السارق الموصوم ! لا . . لا . . لا بد من الانتقام من آل زيدان ، كيفما كانت قوتهم ، وكيفما كان عديدهم ، وسأتخذ من ضعفى قوة للكيد لهم والوثوب عليهم . إن البعوضة لا تنال باليد ، ولكنها تطنُّ وتلسع ، فإذا حاول مَنْ لسعته قتلها لطم خديه . وهذا عمارة صيد سهل ، سريع الوقوع فى الشرك ، فإن ما جبل عليه من الصراحة والطموح والتهور فى طلب ما يريد ، كفيل بأن يوقعه فى أهون الدسائس حبكاً .

كان الحرّانى يناجى نفسه وهو حزين مطرق ، تتناهبه الأفكار ويؤلمه طائف الذكريات ، ويقبضه الخوف من الإقدام فيبسُطه الحقد وشهوة الانتقام . وهو بين هذا وذلك يتسمّع أحياناً لصوت ضئيل خافت يهتف به ضميره أو ما بقى له من ضمير ، فيقول : ما هذا الذى أنت فيه أبا كاظم ؟ ! وما هذه العربدة التى ستعود عليك نكالاً ووبالاً ؟ ! أنت تقف أمام أسرة زيدان ! وأنت تكيد لها ! وأنت تنصب لها الحبائل ! لقد جاوزت طورك ، وقذفت بنفسك بين براثن الأسود ! وألقيت بيدك إلى التهلكة ! إن عبداً من عبيد آل زيدان وحده عسِيٌّ بأن يقضى عليك وعلى أولادك وأهلك ، من غير أن يترك لفعلته أثراً . إن أباك مات منذ حين ، ودفن معه عاره ، ونسى الناس تلك العلامات البشعة الدميمة التى كانت تشوِّه وجهه ، وطُوى ذلك السجل المشئوم ، سجل الذل والخزى والشنار . مالك تنبش الماضى ؟ وكلما نبشته ملأتْ جيفته الجوّ خبثاً . أنت تعادى آل زيدان !

هذا إذا عادت النمال الجبال ، وصاولت الكلاب السحاب !

عد إلى صوابك أبا كاظم ، ثم عد من حيث أتيت ، واغسل تلك السخائم التى سوّدت صدرك بماء من التسامح والغفران ، واقتل تلك الحيات التى أكلت قلبك وأقضّت

مضجعك بسلاح من الصفح الجميل، فإن الحاقد ينال من نفسه فوق ما ينال من عدوه. وهو أشبه بالنحلة تلسع وتموت، والسّهم يقتل ويتحطم. لم لا تعود إلى علمك ودروسك أبا كاظم، وإلى الضحك من ذقون الناس، فتنال من عقولهم وأموالهم، وتعيش بين أهلك هانئاً سعيداً؟ دع الدسائس، ودع النمائم، فإن من يكثر من إيقاد النار يوشك أن يحرق كفيه. إن حديث أبيك مضى وانقضى ذكره، ولا يعرف الجيل الجديد عن الحرّانيّ إلا أنه شيخ المتأدبين وزين المحافل. إن في الحياة أموراً كثيرة علاجها النسيان، والجرح إذا أكثرت من حكّه التهب ونَغِل. الْوِ زمام بعيرك أبا كاظم، وعد إلى زبيد، وتجنب فيها مواطن الشبهات حتى تهدأ الفتنة، وتسكن هذه الثائرة. مالك وللنيليّ! ومالك ولابن مهدي! ومالك ولفاتك! . . كل هؤلاء لا يستطيعون أن يدفعوا عنك شرّ بني زيدان. أنت تدّعي الحزم، وهذا هو موطن الحزم. أتسمع؟ . . . ولكن الحرّاني كان في ثورة من الغل غطت على عقله، فصاح: لا أسمع، ولن أسمع. ولن أترك عمارة. ولن أترك آل زيدان. وسأنتقم لأبي. وسأذهب إلى فاتك. وسأكشف إليه سر المؤامرة. ولن يصدّني عما اعتزمت عليه صادّ مما يسميه الناس عقلاً أو حزماً.

ثم رفع الحرّانيّ رأسه كما يرفع الغائص رأسه من الماء بعد طول المكث فيه، وكأنه كان في عراك عنيف بينه وبين نفسه، خرج منه ظافراً منصوراً، فبدد الظنون وقضى على الشكوك، ثم رمى بعينيه أمامه فرأى في ضوء النجوم شبحاً يظهر ويختفي، مرّة تبتلعه الوهاد، وأخرى تلفِظه الآكام، فحدد النظر، واستحث بعيره، فإذا راكب يُجدّ السير! فخاف الحرّاني أن يكون الرجل من عبيد عمارة، سبقه ليفتك به في الصحراء قبل أن يُلقي بنميمته، وظن الرجل حينما رأى الحراني وراءه أنه من رجال ابن مهدي أسرع خلفه من عدن ليقضي عليه قبل أن يبلغ رسالته إلى فاتك. وبعد قليل التقيا على رأس أكمة؛ وكلاهما خائف ومخوف، فبدأ الحراني في خوف وتلعثم:

- السلام عليكم. لقد كنت أظن أنَّ الصحراء لم تحمل في هذه الليلة إلا جنيناً، فإذا هي تحمل توأمين.

- إن الصحراء كالليالي تلد كل عجيبة.

رأى الحراني في صوت صاحبه رجفة، وفي لمحاته ما يشعر بالذعر، فقوى قلبه قليلاً، واطمأنت نفسه، وقال: ولكنها أحياناً كالهرة تقتل بنيها.

ـ إنها لا تقتل من أبنائها إلا الجبناء الرعاديد، وإن مَنْ كان قلبه أمضى من سيفه، وسيفه أثبت من قلبه، لن يموت إلا ميتة الأبطال.

وكأن الرجل لمح في الحرّاني ما يدل على الضعف، فتابع الحديث بقوله: ولقد يكون من أسباب التسلية والقضاء على السآمة في الصحراء، أن يصادف المرء فيها وحشاً يداعبه بسيفه، أو لصاً فاتكاً يلّقنه برمحه درساً في الأمانة وصون الحقوق.

ـ ليس بالصحراء لصوص، ولو كان بها الليلة لص لتاب إلى الله على يدي رحلي، بعد أن يراه أفرغ من فؤاد الجبان.

ـ إن الساري في مثل هذه الليلة يحمل ما يحرص عليه في صدره لا في رحله، ولعل في صدرك من الأسرار ما هو أغلى من الذهب النضار.

ـ من أين لنا أن نصل إلى الأسرار يا ابن أخي، وإن مَنْ ضَاق صدره بهموم الحياة، أجدر بألا يزيده ضيقاً بحفظ الأسرار. من أين الرجل؟ وإلى أين؟

ـ من عدن إلى الحديدة، اتّجر في الإبل بين البلدين. وإلى أين أنت؟

ـ إلى صنعاء، اتّجر في الثياب بين البلدين.

ـ أخشى يا صاحبي أن تكون من ثياب الرياء التي تشِفّ عما تحتها، ولكن ما لنا ولهذا! عم مساء. ثم ألهب بعيره بالسوط فعدا به ينهب الأرض نهباً.

تنفس الحرّاني وأطال التنفس، وكادت تعود إليه وساوسه، لولا أن زجرها بالترنم بشعر البطولة والاعتماد على النفس، والتشفي بأخذ الثأر. وما زال يطوي الصحراء وتطويه أياماً، حتى بلغ زبيد في مساء ليلة، فسار قدماً إلى قصر فاتك، فالتف عليه الحرّاس، وسألوه عن شأنه؟ فقال: إنه قادم من مكة برسالة من أميرها: قاسم بن هاشم إلى الأمير فاتك، وبعد قليل استؤذن له، فتقدم من الأمير وقبّل يده، ثم أخذته الرّعدة، وهاله ما هو مقدم عليه من أمر خطير، فأخذ يتمتم بكلمات متقطعة يفهم منها الإخلاص للأمير والنصح له، والاستهانة بالموت في خدمته. فهدّأ الأمير من نفسه حتى أفرخ رَوْعه وثبت جأشه، ثم قال فاتك: كيف حال أمير مكة؟ فعاد الذعر إلى الحرّاني وطفق يفرك أصابعه في اضطراب عصبي عنيف، ثم قال: لم أجيء من مكة يا سيدي، وإنما جئت من عدن.

ـ لم تجىء من مكة؟! هذه أول أكذوبة للمخلص لنا، المستهين بالموت فى خدمتنا.

ـ إنما دعانى إلى الكذب يا سيدى خوف أعدائى، فقد يكون بقصرك عيون لهم.

ـ إن قصرى أطهر مما تظن، وخدمى أعفّ وأشرف مما تصفهم به. أخشى يا رجل أن تكون من هؤلاء الدساسين، الذين يلبّسون مسوح الزهاد، ويتقدمون بالنصح إلى الأمراء ليجعلوا منهم آلة للبطش بأعدائهم، إن بابى هذا يطرقه كل يوم كثير من أمثال هؤلاء، حتى لقد التبس علىّ الحق بالباطل، وكدت أغفل عن شئون الناس بالنظر فى شئون هؤلاء الخادعين والتحقق من أكاذيبهم، فإن كنت فقيراً أعطيناك، وإن كنت مستجيراً بنا أجرناك، وإن كانت لك ظلامة كشفناها، قل الحق يا رجل صريحاً، ولا تنل من أحد فى حضرتى.

ـ إننى لم أجىء يا سيدى لأطلب مالاً، ولا لأبتغى على نصيحتى للأمير أجراً، ولكنى علمت بمؤامرة دنيئة تدبر لإسقاط الأمير عن عرشه وعرش آبائه، فأسرعت إليه من عدن أطوى الليل بالنهار، وللأمير بعد ذلك ما يشاء، إما أن يصدّق ما أقوله، فيتخذ الأهبة ويُعدّ العدة، ليدفع الشر بالشر، وإما ألا يصدّقه فيعرف بعد طول الندم أننى كنت صادقاً مخلصاً.

ـ وما تلك المؤامرة؟!

ـ المؤامرة: أن يفجأك على بن مهدى، ومعه عمارة بن زيدان بجيش جرار، فيستوليا على زبيد، ويقتلا أميرها، ويبيدا أهله ونصراءه، ثم يجلس ابن مهدى على عرش المدينة، ويجعل عمارة وزيره ومشيره. هذه هى المؤامرة فصدقها أو كذبها. اللهم إنى قد بلّغت ونصحت!!

ـ صدّقتها، وقد جاءنى قبلك رسول من قبل «مفلح» خادم ابن سبأ يبلغنى أمر هذه المؤامرة على النحو الذى شرحته.

ـ إذاً هو ذلك الرجل الذى صادفته فى طريقى. مفلح أرسله؟ هذا المفلح غربال أسرار!

ـ إنه رجل يكتم إيمانه بالمذهب السّنى، ويحارب الفاطمية فى الخفاء بكل ما يستطيع. آه! عمارة فى المؤامرة. .؟! ويل له منى، وويل لقومه بنى زيدان، ثم دعا

خادمه، وأمره بإحضار صرة بها مائتا دينار، فأعطاها الحرّانى وشكر له حسن بلائه.

خرج الحرّانى يتعثر خائفاً من عواقب الشر الذى زج بنفسه فيه، وهو يرجو ألا يراه من يعرفه، ولكنه وهو فى أحد دهاليز القصر، رأى إسماعيل بن محمد جليس فاتك مقبلاً - وكان من أصدقاء عمارة وخلصائه - فعرفه إسماعيل، ودهِش لما رأى من تغير زيه، فقال: خير ما جاء بك إلى القصر أبا كاظم؟ ولم هذا الزى الغريب؟! فبُهت الحرّانىّ وتلعثم وجف ريقه، وقال: جئت فى نصيحة للأمير، وأرجو أن يبقى الأمر بيننا سراً.

- إذا جئت فى نصيحة فأدعو اللهّ أن تكون خالصة لوجهه! أما السر فى زبيد فكالسر فى صدر المرأة، تفشيه لكل من تقابله بعد أن توصيه بكتمانه! عِمْ مساءً أبا كاظم، فإنى لا أرى فى زِيِّك وأسارير وجهك ما يبشر بخير.

انصرف الحرّانىّ وهو يلعن إسماعيل بن محمد، ويلعن المصادفة التى أوقعته فى طريقه، ويلعن نفسه على ما اندفع إليه من أمر لا يستطيع الخروج منه سالماً.

ودخل إسماعيل على فاتك، فرآه يهدر كالبعير الصائل، وقد استأثر به الغضب، فحينما رآه صاح بصوت خشن أجش: أرأيت كيف انتهت بنا الدسائس والمؤامرات؟! أرأيت كيف يعمل هؤلاء الفاطميون أعمالهم فى ظلام من الخبث والرياء، ثم يفجأون بها الوادعين الآمنين؟! أعلمت أن ابن مهدى ذلك الرافضىّ السفّاح، سيدهم زبيد على حين غِرة منّا ليذل رقاب أهلها، ويثلّ عرشنا وعرش آبائنا؟! أعلمت أن عمارة بن زيدان ذلك اللئيم النذل، الذى أغدقنا عليه، وآويناه حتى أصبح من المقربين فى القصر، ومن كبار رجال المال والجاه، هو الذى يمالئه ويغريه ويرشده إلى مواطن الضعف ليكون وزيره فى زبيد!! ويل للخائن المخاتل، دخل القصر فقيراً مملقاً، لا يتشفّع إلا بأبيات واهنة من الشعر، فما زال يخدعنا بمدائحه، ويستهوينا بعذب كلامه وسحر حديثه، حتى رفعناه بعد ذلة. ويل لعمارة... ويل لعمارة...

- هدِّىء من غضبك يا سيدى، فقد يكون ما وصل إليك نميمة أفاك أثيم. وعمارة رجل...

- لا يا إسماعيل. إن الخبر وصل إلىّ من مصدرين، إن شككت فى أحدهما فلن أشك فى الآخر. جاءنى به رسول من «مفلح»، ثم نقله إلىّ الآن أعرابىّ لا أعرفه، وكانت الرسالة واحدة لا تكاد تختلف.

ـ إن الأعرابى الذى يذكره مولاى عالم من زبيد غيّر زيّه ، ولعلّ له مأرباً فى الكيد لعمارة .

ـ له مأرب أو ليس له مأرب ، إن رسالة «مفلح» تكفينى ، ثم نادى خادمه ، وأمره أن يدعو إليه الوالى وقائد جيشه ، فلما حضرا أمر القائد بجمع الجيش ، واستكمال العُدة ، والأخذ فى تحصين مواضع المخافة من المدينة ، ثم أمر الوالى بمصادرة جميع أموال عمارة ، وما له من ناطق وصامت ، والقبض عليه وقتله أينما كان وحيثما وجد .

مرَّ إسماعيل بن محمد فى صباح هذه الليلة بسوق البزازين ، فرأى على بن زيدان يمشى ووراءه عبيده وخدمه ، فدهش لرؤيته ، وتقدم للسلام عليه ، ثم اجتذبه إلى ناحية ، وقال : لقد نقل بعض الجواسيس إلى الأمير فاتك أمس نبأ مؤامرة تدبّر لاغتصاب ملكه وقتله ، وأن لابن أخيك عمارة يداً طويلة فى هذه المؤامرة ، فأمر بمصادرة أمواله ، وأهدر دمه ، وقد حاولت أن أسكت غضب الأمير ، فلم أستطع .

ـ إنها دسيسة على ابن أخى . إن عمارة أشرف وأنبل من أن يدنّس بهذه الأقذار . نحن نقتل فى الضياء ، ولا نقتل فى الظلام . من هذا الجاسوس الذى نقل هذه الفِرْية؟

ـ رجل من زبيد يسمى أبا كاظم الحرّانىّ .

ـ الحرّانى ! الحرّانى ! لعله ابن ذلك الحرّانى لصّ الأعراض الذى وسمنا وجهه بميسم العار منذ أكثر من عشرين عاماً؟!

ـ أظنه قضى كل هذه المدة فى انتظار الفرصة ، حتى إذا لاحت اقتنصها ليشفى صدره بهلاك ابن أخيك . أيعرف عمارة هذه الحادثة؟

ـ لا . لقد أمرت عبيدى الذين اشتركوا فيها يومئذ ، أن يبقوا الأمر سراً دفيناً ، فإن مثل هذه الفضائح يجب ألا تذاع . هل لهذا الحرّانى ولد؟

ـ له ولد فى الخامسة والعشرين من عمره ، يتجر فى الغنم . ولم تسأل عن هذا؟

ـ لا لسبب ، غير أنى كنت أظن أن منْ ذاق حلاوة الأبوة يتردد فى إيذاء الناس فى أبنائهم .

ـ وعلام عولت؟

ـ عولت على السفر إلى مرطان في الغد، ويفعل اللهّ ما يريد.

ولما انصرف إسماعيل، عاد ابن زيدان مع عبيده إلى الفندق الذى نزل به، ثم اختلى بعبده مرداس، وكان أسود فاحم اللون، طويلاً ممعناً فى الطول، قوى العضل، كبير الرأس، أفطس الأنف، يخالط بياض عينيه حمرة قاتمة، فقال له سيده: يا مرداس، سنسافر غداً؛ فمر العبيد بإعداد الرواحل. أما أنت فستبقى هنا، ولن تعود إلى مرطان حتى تقتل رجلين: الشيخ الحرّانىّ، وابنه، ابحث عنهما، واستدرجهما من حيث لا يشعران إلى مكان لا يراك فيه أحد، ثم اقتلهما فإذا قتلتهما فأنت حر. أفهمت؟ اذهب.

وفى صباح الغد يسافر ابن زيدان، ويبقى مرداس بزبيد، يسأل ويبحث حتى يعثر بابن الحرّانىّ، فيدخل عليه بحيلة محكمة، يستهويه بها، حتى إذا خرجا إلى ظاهر المدينة وانفرد به فى مكان موحش، قتله واختفى.

ويبقى الحرانى منتظراً عودة ابنه فلا يعود، ثم يعثر بعض المارة بجثته فى الصحراء، ويصل الخبر إلى أبيه، فيعصف به الحزن ويتملكه الجزع، ويرى والدموع تتساقط من عينيه أن ما أصابه فى ابنه إنما هو جواب رسالته لفاتك، وانتقام سريع من آل زيدان على إيقاعه بابنهم عمارة، وأنهم لن يسكتوا عنه، وأن ذراعهم ستمتد إليه بعد أن امتدت إلى ابنه، وأنه يجب أن يفرّ بنفسه وأهله بعيداً عن اليمن. فيجمع بقية ما لديه من مال، ويركب مع أهله سفينة من زبيد إلى جُدّة، ليأخذ منها سفينة أخرى إلى مدينة القُلزُم (السويس). فقد رأى أن مصر خير مكان ينجيه من آل زيدان، ورأى أن يختفى بها رابضاً حتى تحين له فرصة الوثوب.

ـ ٤ ـ

حينما غادر الحضرمى دار ابن مهدى، سار وحده فى الطريق واتجه نحو دار عمارة، فوجده لا يزال نائماً، حتى إذا استيقظ حدّثه بما دار فى مجلس ابن مهدى من حديث وبما قاله فيه الحرّانىّ والنيلىّ.

فهزّ عمارة كتفيه استخفافاً، وقال:

ـ من الحرّانى هذا؟ فإنى لا أعرفه، وعجيب أن يحقد علىّ من لا أعرف!!

ـ إنه رجل من الفقهاء الجوّالين، لا يعرف صُبْحُه أين يستقر فى مسائه، ولكنه فيما يظهر

من عينيه، شديد البغض لك والحقد عليك. فأجاب عمارة: عجبى من صعلوك ينافس الملوك!

ـ هذا كلام تُشَمّ منه رائحة الإمارة!!

*فابتسم عمارة ابتسامة ألم واستنكار، وقال:

ـ لا يا أسامة.. إنه كلام رجل يحب العدل ويكره الظلم والظالمين... رجل نصب نفسه لُنصرة الحق، فوهب له دمه وأهله وماله، لا يهاب فى سبيله ـ إذا جد الجِد ـ أشفار السيوف ولا أسنّة الرماح... رجل إذا وفىّ لقوم نافح عنهم، وكافح دونهم، حتى يحبس الموت لسانه ويعطّل ساعده.

ـ وقد يحتال أحياناً ويلبّس لكل حالة لَبوسها.

ـ وقد يحتال أحياناً يا أسامة!! وقد يمدح أحياناً مَنْ يصغر عن الهجاء، رجاء الوصول إلى الغاية التى رسمها لنفسه، وقد يصانع أحياناً أناساً أقلُّ ما يستحقون ضرب السياط... متى ترحل إلى زبيد؟

ـ بعد عشرين يوماً، حتى ابيع جميع البنّ الذى جئت هنا لبيعه.

ـ ربّما رحلت بعد عشرة أيام، فإن الحرّ هنا لا يطاق.

وبعد عشرة أيام أو نحوها، قامت القافلة إلى زبيد، وكان بين المسافرين عمارة بن زيدان، وبعد ليال بلغت القافلة أسوار المدينة، وكان وصولها عند الغروب فاتجه عمارة نحو بيته، وبينما هو فى طريقه مرّ به القائد إسماعيل بن محمد جليس الملك فاتك، وكان راكباً فرساً فلما رآه أخذ يقرأ: «يا موسىٰ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، فاخرج إنّى لك من الناصحين».

فأسرع عمارة إليه، وأخذ بعنان فرسه، وقال: بحق مودّتى عليك، إلا ما افصحت يا ابن محمد!! فقال: أحاط فاتك بجميع أموالك وتجاراتك، وجعل لمَنْ يأتيه براسك ألف دينار.

ـ ولم فعل هذا يا ابن محمد؟!

ـ هبط عليه نمّام أثيم من عدن فنقل إليه أنك تتآمر أنت وابن مهدىّ وابن سبأ على قتله، واستلاب ملكه... ارحل أبا محمد... وأسرع، واتخذ الليل مركباً.

فدقّ عمارة بكفّ على كفّ، وقال: لقد أصابتني عين الحفائلي ـ عليه لعنة الله ـ فلطالما قال لي: أنت من كبار التجّار... أنت من أصحاب الوجاهة... أنت في ثروة ونعيم.... فليُهنه اليوم أني أصبحت الفقير إلى الله تعالى لا إليه... عمارة ابن زيدان اليمنيّ الشريد الطريد.

قاتل الله العلم والأدب!! فإن عقارب الحقد لو أرادت أن تتخذ جحراً ما اختارت لها إلا صدور الأدباء.

ثم أسرع عمارة إلى داره، وجمع متاعه وما بقي لديه من مال قليل، وأعدّ لأهله وأولاده أربعة من الإبل، وألحّ على الجمّال أن يسرع في السير، فقال الجمّال: إلى أين؟؟ قال: إلى مكة... إلى أمّ القرى... إلى البيت الحرام الذي من دخله كان آمناً.

وصل عمارة وأهله إلى مكّة فقيراً بائساً، بعد أن كان في بسطة من الرزق وظلّ من السعادة، يعيش عيشة الترف، ويتقلّب في أكناف العز والنعيم. فاكترى داراً بالقرب من البيت المحرّم وأخذ ينفق على أهله في ضيق وشدة مما بقي له من مال، انتشله من يد الزمان، وجلس ذات يوم في المسجد، وبدأ درساً في التفسير، فأقبل الناس إلى الاستماع له، فسحرهم ببيانه وفصاحته، وقوة عارضته، ورنين صوته. فتحدث أهل مكة بالشيخ اليمني، وسار ذكره وتنقل اسمه من لسان إلى لسان، وأقبل عليه عظماء مكة وكبار تجارها، يبذلون له ودّهم، ويتسابقون إلى إكرامه بالهدايا والأموال.

بقي عمارة على تلك الحال أشهراً. وفي أصيل يوم وهو في داره، أقبل عليه رسول أمير الحرمين: قاسم بن هاشم ـ يدعوه إلى لقاء الأمير.

فلبس خير ثيابه وتطيّب، وأخذ يحدّث نفسه ويقول:

ليت شعري لم دعاك ابن هاشم؟؟ لقد جرّبتَ معاشرة الأمراء والملوك فلم تعد منها إلا بصفقة المغبون!!... ولكنك يا عمارة لم تخلق لتلقى درساً في مسجد على أغراز مهازيلَ... إنما خلقت لتكون زعيماً، ولتترك في الدنيا دوياً... ولا بد لهذا من صحبة الأمراء والملوك. سرْ إليه يا عمارة. فلعل الدهر أراد أن يستغفر من زلته!! ولعله ـ وأنت من أبنائه ـ أراد أن يؤدبك تأديب الآباء لأبنائهم!! ثم عاد فأدركه عطف الأبوّة وحنانها.

سار عمارة حتى بلغ دار الأمير، فاستقبله عبيده وخدمه، وأوصلوه إلى حجرة ثمينة

الأثاث، أنيقة الترتيب.

حتى إذا استقر به المجلس، أقبل الأمير بين حاشيته ورجاله، فحيّاه عمارة في أدب وخشوع.

وأمره ابن هاشم بالجلوس، فجلس بعيداً، فدعاه للجلوس إلى جنبه، وأقبل عليه يسأله عن حاله وكثير من شئونه ثم قال: إننا هنا لا نرى الدنيا إلا في موسم الحج، حتى إذا انقضى الموسم عدنا إلى عزلتنا، كأننا في صومعة راهب. فقال عمارة:

ـ هذه يا مولاي نفحة من نفحات البيت الحرام، وبركة من بركاته. ألا ترى أن الدنيا جميعها تسعى إلى أهله وهم لا يسعون إليها؟! . . . هنا يا مولاي نرى جميع أمم الأرض في أحسن أحوالهم. . . نرى هنا: اليمنيَّ، والمصريّ، والمغربيّ، والشّامي، والعراقيّ، والهنديّ، وأبناء كل قطر، ترفّ عليهم راية الإسلام. هنا البحيرة العظمى المقدسة التي تصب فيها أنهار الدّين القيّم الحنيف. . . هذه يا مولاي دعوة إبراهيم، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حين قال:

«ربّنا إني أسكنت من ذرّيتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم، ربّنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدةً من الناس تهوِي إليهم، وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون».

ـ حيّاك اللهّ يا شيخ!! إن لحديثك لسحراً!! ولو أن علماء الإسلام كان لهم هذا البيان الرائع، وتلك القوة النادرة في التفكير، واتجهوا إلى هداية الناس وإرشاد الأمراء ـ لكان للإسلام شأن غير شأنه اليوم. . . أزرت مصر يا مولانا الشيخ؟؟

ـ لم أزرها يا مولاي. وقد عزمت على مجاورة بيت اللهّ الحرام، حتى ألقى اللهّ على عتبته.

ـ لا . . . لا . . . أنت لا تزال في قوّة شبابك. ومثلك ـ فيما أرى ـ من تضيق بآماله الدنيا إذا اتّسع بها صدره.

حدثت في العام الماضي بموسم الحج بعض حوادث صغيرة للحجّاج المصريين، بُلّغت إليّ في حينها فلم آبه لها، ولكن يظهر أن الخلافة الفاطمية بالقاهرة، قد عدّت وقوعها تعدّياً عليها، واستهانة بسلطانها. لذلك منعت في هذا العام الصدقات التي كانت تبحث بها لفقراء مكة، والمنقطعين إلى مجاورة البيت.

ـ ماذا كان نوع هذه الحوادث يا مولاى؟

ـ حوادث تافهة . . . أغار بعض خدمى على التّجار المصريين ، واستلبوا جميع أموالهم .

ـ حقاً إنها حوادث تافهة ! ! . . . وما مقدار ما كان يرسله الخليفة إلى مكّة فى كل سنة من الصدقات ؟ ؟

ـ كان يرسل عشرين ألف جريب من الحنطة ، ومائة ألف دينار .

ـ هذا مقدار عظيم .

ـ نعم هو مقدار عظيم ، أحسّ أهل مكة فقده . وقد جاءنى وكيلى منذ أيام ، يرجونى فى عمل شىء لاسترضاء الخليفة الفاطمىّ ، ووزيره الملك الصالح طلائع بن رُزّيك . وقد توسّمت فيك مما سمعت ورأيت ، أنك خير مَنْ يستعان به فى مثل هذه الأمور .

ـ إننى طوع أمرك لولا . . .

ـ لا تقل «لولا» فإننى أعددت لك خمسمائة دينار ، تعصف بكل ما تجرّه «لولا» من معاذير . ثم إننى أعددت الرواحل لك ولأهلك ، وأمرت أن تصرف لك مئونة السفر بسعة وإغداق . . . أرضيت أبا محمد ؟ ؟

ـ رضيت يا مولاى شاكراً .

ـ تذهب إلى سيّده القصور : عمّة الخليفة الفائز ، وإلى وزيره : طلائع بن رزيك ، وتلقى إليهما بسحرك ، وما وهب لك اللهّ من فصاحة وبيان ، وقوّة حجة وبرهان . وكلما زاد ما يرسلان به إلى البيت الحرام زدناك .

ـ وهل لسيّدة القصور شأن كبير فى إدارة شئون الدولة الفاطمية ؟ ؟

ـ لها كل الشأن : فهى العقل المفكر ، واليد الباطشة . ولها فنون من الحيل والخداع يعجز عن إدراكها أذكياء الرجال . ثم إنها تتخذ من أنوثتها ستاراً لدسائسها ، ومن جمالها البارع شباكاً لاقتناص أعدائها . فقد سمعت من حجيج مصر : أنها فى الحسن والرشاقة واجتذاب العقول ، آية اللهّ فى خلقه ، وأنها فتنة لكل من رآها ، ولا يزال العهد قريباً بما كان من قتل نصر بن عباس لابن أخيها الخليفة الظافر ، وفراره وفرار أبيه عبّاس الصنهاجىّ

إلى الشام. أتدرى ما فعلت سيدة القصور؟ لم تبك كما تبكى النساء، ولم تضرب كفاً بكف كما تفعل العجائز، ولكنها أرسلت رسلها إلى قائد الإفرنج بعسقلان، ومعهم مائة ألف دينار على أن يقضى على عبَّاس وابنه. فقتل القائد عبَّاساً، وأرسل ابنه نصراً إلى سيدة القصور. وأظنه الآن فى طريقه إلى القاهرة.

ـ إنها حقاً امرأة داهية!!

ـ فوق ما تظن!!... والخليفة الفائز الآن فى يدها، وهو صبىٌ لا تزيد سنّه على ستّ سنوات. وهى لذلك تلعب برجال الدولة، هذا مرة، وذاك أخرى... فاحترس منها أبا محمد.

ـ وما حال الوزير طلائع بن رزيك معها؟؟

ـ لا أدرى... ولكنه لا يقل عنها دهاءً وخبثاً. وسنشهد قريباً صراعاً بين ثعبانين.

وهناك رجل آخر، أعيذك بالله منه ومن مكره ومحاله: هو مؤتمَن الخلافة، خادم الخليفة وسيدة القصور، ورئيس الخدم والجنود السودانية. هذا رجل لو أراد إبليس أن يتخذ له خليفة فى الأرض ما اختار غيره... فاحذره أبا محمد!!

ثم قام وفتح خزانة، أخرج منها صرّة بها خمسمائة دينار، فناولها عمارة، وقال: متى الظّعن؟؟

ـ كما تأمر يا سيدى.

ـ بعد ثلاثة أيام... اكتب عن لسانى كتابين: أحدهما للفائز. والآخر لابن رزيك. يمتزج فيهما الاستعطاف بالعتاب، ويلتبس فيهما الاستجداء بالشمم والإباء.

أنت تعرف أبا محمد كيف تكتب مثل هذا... عِم مساءً.

ـ ٥ ـ

وصل الحرّانى إلى القاهرة بعد أن أجهده السفر، ونال منه بعد الشُقة، إلى ما كان ينتابه من أحزان على ابنه، وأحقاد على عمارة وأهله. وهو بين هؤلاء وأولئك مطرق الرأس دامع العين، يدركه الضعف فيرجّع ويحوقل، ويثور به الغضب فيهز قبضته فى

عنف وقوة ويتمتم : لا . . لا . . لن أبكى بكاء النساء، ولن أستكين استكانة الإماء. وهذه اليد التى لم تخلق لهز السيوف ولا للعب بالرماح، أعاضنى الله بها عقلاً يهزم الجحافل ويدك المعاقل. ولأمر مّا يقول المتنبى :

الــرأى قبــل شجاعــة الشجعان

ولأمر مّا يقول :

لــولا العقــول لكان أدنــى ضيغم أدنــى إلــى شرف من الإنسان

إن المستعين بالقوة يحارب بسلاح مكشوف، والمستعين بالعقل يحارب بسلاح خفىّ مستور. وصاحب القوة قد يزل فيهزم، وصاحب الحيلة إن أخطأ استطاع أن يتدارك خطأه بحيلة أخرى. وصاحب القوة يتقيه عدوه فلا ينال منه منالاً، أما صاحب الحيلة فهو صديق عدوّه وموضع أمانته ومكان ثقته.

إن الله خلق الإنسان، ومنحه القدرة على التشكل، فهو يستطيع أن يكون أسداً، ويستطيع أن يكون ثعلباً، ويستطيع ان يكون ثعباناً، ويستطيع أن يكون ذبابة تطنّ وتطير. فلم لا نتشكل؟ ولم لا نقابل كل حالة بحيوان مما فى أنفسنا؟ إن البُلْه هم الذين لا يستطيعون أن يستروا غضبهم بالضحك، وحزنهم بالسرور، وكراهتم بالبشاشة والتسليم. والعاقل هو الذى يستطيع أن يقف أمام المرآة، بعد أن يقطع الحبل بين وجهه وقلبه، ثم يصور ملامحه كما يشاء ويهوى.

تجول هذه الخواطر بصدر الحرّانىّ، فينتعش ويعود إليه نشاطه، ويثوب إليه أمله فى الحياة.

أنزل أهله بدار بحىّ الروم بالقرب من الباب المحروق. وأول شىء أوحى إليه به دهاؤه ان يغيّر اسمه، فسمّى نفسه زين الدين بن نجا، وأن يظهر الزهد والقناعة والتبتل، وأن يدّعى أنه من الطائف بالحجاز، ثم رأى أن خير وسيلة تقرّبه إلى قلوب العامة والخاصة. أن يُظهر غيرته على المذهب الفاطمى، وشدة التمسك به، وإذاعة محاسنه وفضائله. فتنقل فى المساجد والجوامع يخطب فى فضل المذهب ومناقب آل النبى. وكان فصيح اللسان، قوى الحجة، حاضر البديهة، قصاصاً بارعاً، فكِه الحديث جذاباً. فالتفّ عليه الناس. وجاء بعض رجال القصر ليستمعوا له بعد أن طارت إليهم شهرته. وكان أحفل

أهل القصر به وأكثرهم به ولوعاً: إبراهيم بن دُخان رئيس ديوان الرواتب بالدولة الفاطمية. وكان ابن دخان فى نحو الأربعين، معتدل الطول، نحيف الجسم، أسمر اللون، له عينان شديد سوادهما، بيسراهما حوَل خفيف لم يذهب بمالهما من تأثير نافذ وقوة مسيطرة. وكان أنفه كأنوف أكثر المصريين، كاد يكون أفطس، لولا أن تداركه ارتفاع وبعض استواء فى قصبته، وكان بشفته السفلى بعض الغلظ دفعها إلى التدلى قليلاً. وكأنه أحس هذا النقص، فهو لا يفتأ يجمع شفتيه كلما خطر له هذا الخاطر. وكان وجهه فى جملته يدل على الشَّره والشهوانية والختل والأثَرة. وكان ابن دخان عارفاً بتاريخ مصر واسع الاطلاع فيه، وكان يحب مصر أو يحب نفسه، ويحب المذهب الفاطمىّ أو يحب نفسه. فكلما استطاعت مصر أن تدرّ عليه الأموال، وتهيِّىء له عيشة البذْخ والنعيم أحبها. وكلما استطاع المذهب الفاطمىّ أن يمنحه الجاه والنفوذ أحبه ونافح دونه. دعا ابن دخان مرّة الحرّانىّ إلى داره، أوزين الدين بن نجا ـ كما اختار أن يسمى نفسه ـ وبعد أن نالا من طعام العشاء، جلسا فى روشن يطل على خليج أمير المؤمنين، وتنقلا فى ضروب من الحديث، فقال ابن دخان:

ـ كيف رأيت القاهرة يا سيدى الشيخ؟

ـ إنها اليوم زينة العواصم. وموئل الدين، وعش العلماء، وقبلة الشرق.

ـ إن الفاطمية يا سيدى مظهر تلك العظمة، ومبعث ذلك الجمال. إن مصر لم تر منذ عهد ابن العاص عهداً كعهد الفاطميين، فهو عهد رخاء وعدل، وطمأنينة وثروة، وابتهاج وسرور. أتعرف أن خراج الدولة لا يقل عن ألفى ألف ومائتى ألف دينار؟! وأن ما ينفق على القصر ورجال الدولة، وفى الهبات وإظهار عظمة الملك، يزيد على ثمانمائة ألف دينار؟!

ـ إن مصر يا سيدى هى الجنة التى وعد المتقون، أكُلُها دائم وظلّها. وقد يدهَش المرء لما يرى بها من كثرة العلماء والطلاب، وكثرة ما يُؤلف من الكتب فى العلوم على شتى أنواعها.

ـ لقد كثر العلماء الوافدون على مصر، حتى تضاعف ما تنفقه الدولة عليهم. ولو كانوا جميعاً مثلك فى الزهد والتقشف والبعد عن مطامع الدنيا، ما أخذت عليهم مأخذاً. ولكن أكثرهم يفد للاستجداء وانتهاب الغنائم والرواتب!

لم أدعك الليلة للتحدث فى شأن الدولة، ولكنى دعوتك للائتناس بك، والتمتع بمجالستك، ولأخبرك أن المشرف على خزائن الكتب بالقصر الحسينَ بن زيد قد انتقل إلى جوار ربه منذ أيام. وأنى قد رأيتك خير من يصلح لهذا المنصب، لما عرف بين الناس من علمك وفضلك وتعصبك للفاطمية.

ـ إننى أزهد الناس يا سيدى فى هذه المناصب. وإنى أكره أن يكون رزقى محدوداً معيّناً، فأفقد فضيلة التوكل على الله توكلاً مطلقاً خالياً من الشوائب. ولا أحب من رزق ربى إلا ما كان مجهولاً مغيّباً.

ـ إن قاضى القضاة وداعى الدعاة وجميع زهاد الفاطمية، لهم رواتب محدودة معينة، فأقبل هذا الراتب يا مولانا. وتصدّق به إن شئت.

ـ هذا حل معقول.

ـ لقد أخبرت مؤتمن الخلافة بك، واقترحت أن يسند إليك هذا المنصب، فقبل مسروراً، ورأى أن يكون الراتب ثلاثين ديناراً.

ـ أرجو أن نوفق جميعاً إلى الخير.

ثم نهض زين الدين وقال: سبحان الله وبحمده!! اللهم بجاه فاطمة وابنيها الشهيدين، وخلفائك الطاهرين من عِترتها أن تملأ هذا المكان أمناً وإيماناً ونوراً وبركة.

ثم ودعه وانصرف. وفى الصباح ذهب إلى القصر، وعرّفه ابن دخان بكبار الأساتذة والقواد. وبدأ عمله الجديد.

وكانت خزائن الكتب تشغَل بهواً واسعاً وحجراً كثيرة. وقد قسمت رفوفها أقساماً: لكل علم قسم خاص به. وكانت تشتمل على أكثر من مائتى ألف كتاب فى الآداب والعلوم، كتبها بالذهب كبار الخطّاطين. كابن مقلة، وابن البوّاب. وبها أكثر من ألف نسخة من تاريخ الطبرى، منها نسخة بخط الطبرى نفسه. وأكثر من مائة نسخة من الجمهرة لابن دُريد. وأكثر من ثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد، إحداهن بخط الخليل. وجملة القول وقصاراه: أنها كانت أعجوبة الدنيا، بذّت جميع دور الكتب فى بغداد والأندلس.

بقى الحرّانى فى هذا المنصب الجديد وادعاً هانئاً، لا يكدّر عليه عيشه إلا فجيعته فى ابنه، وقصر يده عن أن تنال عمارة أو أحداً من أهله بانتقام.

- ٦ -

غادر عمارة وأهله مكة، ومعه كتاباً الأمير: قاسم بن هاشم، وسارت به النجائب تشقّ أديم الصحراء، كأنها ساريات الأحلام فى الليل البهيم. وقد بدت الكثبان وسْنى يوقظها وخد الإبل، وأراجيز الحُدَاة، فتصحو قليلاً ثم تُغفى.

هدوء وسكون، وصمت، وجلال ورهبة.

هذه هى الصحراء... من صخورها خلقت أخلاق العرب، ومن أطيافها تلقّوا وحى شعرهم، ومن مداها الفسيح المترامى استمدوا خيالهم، وفى جدبها نبت الإباء العربى، والاعتزاز بالنفس، والكرم، والحمية، والصبر على المكاره.

نظر عمارة أمامه، وهو فوق قتب بعيره، فرأى بحراً مائجاً من الكثبان والرمال، ورأى فضاءً لا تبلغ العين غايته، ورأى نجوم ليل الصحراء وقد زدن لألاءً والتماعاً وقرباً، كأنها اللؤلؤ اللمّاح علق بخيوط القدرة بين الأرض والسماء. فتنهد وقال: آه أيتها الصحراء!! أين أبطالك الذين ملأوا الدنيا عمراناً وعلماً، وشرائع وفنوناً؟! أين أبطالك الذين كانوا ملائكة العروش وشياطين الهيجاء؟!

علّمينى يا صحراء تلك الدروس التى تلقاها خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقّاص، وأبو عبيدة بن الجرّاح!! بُوحِى أيتها الصحراء لى بسرّك الدفين... فإنى عليه جدّ أمين!!

إنى يا صحراء أودُّ أن أكون لك ابناً، فأوصينى بما تشائين.. لى آمال أوسع من مداك، ومطالب صعبة المرتقى كجبالك، فهل أنا بالغ آمالى، فائز بمطالبى؟؟ قولى يا صحراء ماذا يجب أن أفعل!! واهمسى فى أذنى كما همست فى آذان أبنائك الأوّلين...

وهكذا ظل عمارة يحدّث نفسه، وظلت الإبل تطوى الفلاة، حتى بلغت جدّة. فنزل الركب، وتقدّم من عمارة نائب الأمير قاسم -وقد سبق إليه خبر قدومه- فأنزله خير منزل، وغمره بصنوف من الحفاوة والإكرام. ثم أعدّ له سفينة تنقله إلى مصر فأبحر بها فى بحر «القلزم» وكان الجو صحواً والريح رُخاءً. فوصل بعد أيام إلى مدينة القلزم «السّويس» ومن ثمّ استأجر إبلاً تحمله وتحمل أهله ومتاعه إلى القاهرة. وكانت القاهرة فى هذا العهد تمتدّ

من ناحية الشمال إلى باب النصر وباب الفتوح. ومن ناحية الجنوب إلى باب زَويلة الجديد. ومن الشرق إلى باب البرقية والباب المحروق. ومن الغرب إلى خليج أمير المؤمنين، وبهذه الجهة باب سعادة، وباب الفرج، وباب القنطرة.

وكانت مزدحمة السكان، واسعة العمران، بها كثير من الجوامع والرُّبُط والدّور العظيمة والمساكن الجليلة، والأسواق المملوءة بأنواع التجارات والخانات والفنادق المكتظة بالمسافرين.

وصل عمارة إلى القاهرة فى ظهر يوم من ربيع الأول، سنة خمسين وخمسمائة. وهو شاب فى الثلاثين، وسيم الطلعة، مشرق الديباجة، رائع القسمات، معتدل الطول، شديد الأسر، قوىّ العضل. فسار بأهله من الريدانية إلى باب الفتوح، ونزل فى دار تشرف على جامع الحاكم بحارة الريحانية، حتى إذا استراح من لغوب السفر أياماً بعث برقعة إلى الوزير ابن رزيك، يطلب فيها شرف المثول أمامه، وأمام الخليفة الفائز، وكتب فى آخرها.

دعوا كل برق شِمتُمُ غيرَ بارق	يلوح على الفُسطاط صادق بشرِه
وزوروا المقام الصالحىّ فكلُّ من	على الأرض يُنسى ذكرُه عند ذكره
ولا تجعلوا مقصودكم طلبَ الغنى	فتجنوا على مجد المقام وفخرِه
ولكن سلوا منه العلا تظفروا بها	فكل امرىء يُرْجَى على قَدْرِ قدره

فأرسل إليه ابن رزيك رسولاً يخبره بأن المقابلة يوم الإثنين بالقصر الكبير. فأعمل عمارة خياله، ودعا إليه شيطان شعره، وكتب قصيدة طويلة أعدّها للإنشاد أمام الخليفة.

فلما جاء الموعد استأجر بغلة أوصلته إلى القصر الكبير، فرأى من عظمته، وضخامة بنائه، وإبداع نقوشه، ما أدهشه وأطار لبه. وقصور الفاطميين وما كان لها من سموق بنيان، وبراعة نقوش، وجمال أثاث، وحسن تنسيق ـ يكِلّ القلم دون وصفها، ويعجز البيان أمام سناها وسنائها. فليس فى طوق الخيال أن يلمّ بما كانت توحى به من عظمة ملك، وقوة سلطان، وضخامة ثروة، وسطوة دولة، وإسراف فى الترف، وإغراق فى النعيم.

لا يستطيع القلم أن ينقش، ولا البيان أن يرسُم، ولا الخيال أن يصوّر. فخيرلنا أن

نلقى القلم، ونُسكت البيان، ونحبس الخيال، ونترك للقارىء أن يتخيل ما يشاء ويرسُم من صور العزّ والملك والسلطان ما يريد.

وصل عمارة إلى القصر الكبير، فاستقبله الأستاذون المحنّكون، وعلى رأسهم مؤتمن الخلافة، يتسلمه أستاذ ليوصله إلى آخر حتى انتهى إلى قاعة الذهب، وكأنها بنيت من الذهب حقاً، لكثرة النقوش الذهبية التى تملأ حيطانها وسقفها. وهى قاعة العرش التى يستقبل فيها الخليفة رجال دولته فى أيام المحافل والأعياد والمواسم.

دخل عمارة خاشعاً مطرقاً، وكلما حاول أن يرفع من طرفه قليلاً، رأى مهابة وجلالة، وملكاً يبهر العيون، ويهول النفوس. رأى الخليفة الفائز على العرش، فى أثواب كلها ذهب وديباج، رآه صغيراً لا يتجاوز السادسة، نحيل الجسم، مصفرّ الوجه، له عينان واسعتان كعينى النمر كلهما بريق والتماع. ورأى الأستاذين المحنكين حوله فى رهبة وخضوع، كأنهم يحرسون سراً سماوياً مقدّساً، ورأى وزيره الصالح بن زريك، واقفاً إلى يمينه فى خشية وقنوت، كأنه فى معبد صلاة وتبتل، وإلى يساره داعى الدعاة، وقاضى القضاة، والأمراء، وكبار الرؤساء والقواد، وفيهم الأوحد بن تميم، وشاوَر بن مجير، وضيرغام اللخمىّ، ومجد الإسلام بن الصالح. ونقباء المعلمين.

أما كبار الكتّاب ورجال القصر، فجلسوا خلف هؤلاء، وكان بينهم: ابن الخلاّل صاحب ديوان الإنشاء، والجليس ابن الحَباب، والمهذّب أبو محمد الأسوانىّ، وزين الدين بن نجا، وإبراهيم بن دخان، رئيس ديوان الرواتب.

وكان الصمت يملأ النفوس هيبة، فتقدم عمارة من الخليفة، فقبّل يديه وقدميه، ثم تقهقر قليلاً، وأنشد بصوت ندىّ ونبرات ساحرة أخّاذة:

الحمد للعِيس بعد العز والهمم	حمداً يقوم بما أولَيْنَ من نِعمِ
قرّبن قربَ مزار العزّ من نظرى	حتى رأيت إمام العصر من أمَمِ
فهل درى البيت أنى بعد فرقته	ما سرت من حَرم إلاّ إلى حَرم
حيث الخلافة مضروب سُرادقها	بين النقيضين: من عفو ومن نقم
وللإمامة أنوار... مقدّسة	تجلو البغيضين: من ظُلْم ومن ظُلَم
وللعلا ألسن تُثْنى محامدها	على الحميدين: من فعل ومن شيم

أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً	فوزَ النجاة وأجرَ البِرّ فى القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما	وزيرُه الصالح الفرّاج للغمم
الّلابس الفخرَ لم تَنسج غلائله	إلا يد الصّانعيْن: السيف والقلم
ليْت الكواكب تدنو لى فأنظمَها	عقود مدح فما أرضى لكم كلمى

وكان الصالح شديد التأثر بالشعر الرائع، يؤديه صوت رائع. فاهتزّ طرباً، وأخذ يطلب الإعادة بين بيت وبيت. وملك حسنُ الشعر على الأستاذين ورجال الدولة وأدبائها شعورهم، فلم يستطيعوا إلا أن يجهروا بالاستحسان والإطراء.

وكان بقاعة الذهب باب عليه ستار من الحرير المطرّز بالذهب، كان ينفرج أحياناً فتطلّ منه عينان ساحرتان، فى وجه يمتزج فيه ماء النعيم بماء الفتنة والجمال، وما كاد عمارة يتم إنشاده، حتى أفيضت عليه الخلع المذهبة من أثواب الخلافة ووصله الملك الصالح بخمسمائة دينار، وجاء بعض الأستاذين إليه يحمل صرة بها خمسمائة دينار، وهو يقول: إن سيدتى سيدة القصور، قد أعجبت بك وبشعرك أعظم الإعجاب، وهى تبعث إليك بصلتها هذه، وقد أمرت أن تخلَى لك «مِنظرة الغزالة» المشرفة على خليج أمير المؤمنين، ثم ابتسم وقال: على شرط أن تعيد أمامها إنشاد قصيدتك الرائعة، لأنها تستمتع خلف الستار بكل ما فيها من جمال.

ثم أقبل عليه المهذّب أبو محمد الأسوانى ـ وكان زعيم الشعراء بمصر وسيّد كتّابها ـ فشدَّ على يديه مهنئاً، وقال: أيها الشاعر اليمنى، هل أطمع فى أن أكون لك صديقاً. فإننى عندما رأيتك أحسست بحبّى لك، وحينما سمعتك أحسست بإكبارى لأدبك. لقد ألح علىَّ مولاى الملك الصالح ألا تنقطع عنه، وألاّ تحرمه زيارتك، وأن تنثر عليه من حين إلى حين فرائد شعرك، فإنه كريم أريحىّ يهتزّ للمديح، ويجزل الثواب عليه، وقد أمر أن يخلع عليك لقب: شاعر القصر، وأن تمنح راتباً كل شهر يقرب من رواتب كبار الدولة.

فما استطاع عمارة إلا أن يشدّ على يدىْ صديقه الجديد، بحماسة وإخلاص صادق، ورجاه أن يبلّغ عظيم ثنائه وجميل شكره للملك الصالح، على جزيل ما وهب، وكريم ما أعطى.

وخرج ابن دخان صاحب ديوان الرواتب، وزين الدين بن نجا، فمال ابن دخان على صاحبه، وقال: ما هذه الشّعوذة التى شهدناها اليوم يا سيدى؟! شاعر مستجد متكسّب

بشعره. . . يُلقي أبياتاً سمجة غثّة، فينال من الجوائز والعطايا ما لم يستطع المؤرخون ادّعاء مثله في عهد الرشيد؟! ماذا قال يا صاحبي بالله عليك. . ؟! ماذا قال. . . ؟! «بين النقيضين: من عفو ومن نقم»؟!. . . «تحلو البغيضين: من ظلم ومن ظلم»؟!. . . ما أسخف!!. . . وأنا أقول له: يا ابن الشقيين: من عاد ومن إرم!!. . . وسارق الهاربين: النوق والغنم. وكان زين الدين مربدّ الوجه حزين النفس، بعد أن رأى عدوه الذي طالما تمنى له الغوائل، يصل إلى هذه المنزلة ويحظى بذلك الإقبال. فتكلف الابتسام وقال: ما كنت أظنك شاعراً أبا الفضائل. يجب ان تحمد الرجل لا أن تذمه، لأنه اول من ألهمك الشعر.

ـ أحمده؟! أنا لا أطيق يا أخي هؤلاء الأفاقين الذين يردون مصر من كل صوب، لامتصاص دمائها، واشتفاف لبنها. كأنها بقرة حلوب خلّفها لهم أبوهم ادم. هذا يأتي ببيت من الشعر فنسميه سيّد الشعراء، وهذا يجيء بحفنة من علم، فنصيح: إنه أعلم العلماء، وهذا متبتل ناسك قطع الفيافي والقفار إلى مصر، ليزور مشهد الحسين ـ رضي اللهّ عنه ـ فنصبُّ عليه العطايا والنّعم حتى ننسيه نسكه وتبتّله. . . ما هذا يا ابن نجا؟! اليس في مصر شاعر يفوق هذا اليمنيّ المحتال؟ اليس بمصر عالم يفوق هؤلاء الذين يسقطون علينا كل يوم من كل نواحي الأرض؟!

وغداً يا سيدي غداً، يجيء هذا الصعلوك ليطالب براتبه الذي رتّبه له الملك الصالح في كل شهر. . وما راتبه؟؟ مائة وخمسون ديناراً، أنت تكدح وتنصب، وتعمل نهاراً وليلاً في خزائن الكتب، ولم يزد راتبك على ثلاثين ديناراً. أنا لا أدري ماذا سيكون من شأن الخزانة إذا استمررنا في هذا الإسراف؟!

فابتلع الحرّاني ريقه من هول ما دهمه من قدوم عمارة والحفاوة به، وقال: هوّن عليك أبا الفضائل. إن مصر كثيرة الخيرات واسعة الثروة، وإن من المحتوم عليها أن تكرم أبناء العربية، وأن تحسن لقاء الوافدين عليها. ثم إني لا أعرف سبباً لبغضك هذا الرجل، وهو وسيم الطلعة، خفيف الروح، وإن كان وجهه يدل على الخبث والدهاء واللؤم؟!

ـ لا ادري لم أبغضه يا ابن نجا؟! لقد سمُج في عيني منذ رأيته، وأحسست ببغض له يملأ قلبي. وهذا وحي الروح يا أخي. . وإذا كان «لهوى النفوس سريرة لا تعلم» فإن لبغضها سريرة لا تعلم كذلك. . . لا أدري واللهّ! ولكنني أشعر انه يجب ان يزول هذا

الرجل من طريقى، حتى لكأن غرائز النّمر تتحرك فى نفسى للوثوب عليه والتهامه.

ـ هذا ما أحسُّ بقليل منه. ولكن ما لنا وللرجل! دعْه إلى الأقدار. . . دعْـه إلـى الأقدار.

- ٧ -

بعد عشرة أيام من إقامة عمارة بالقاهرة، أرسلت سيّدة القصور إليه عبدها «راجحاً» ليدعوه إليها. فركب حصاناً أشهب أهداه إليه الوزير طلائع، وصحبه راجح علـى جواد عربىّ كريم. فسارا من حارة برجوان، وكانت طويلة كثيرة التعاريج والمنحنيات، حتى وصلا إلى طريق باب الفتوح، وبدا لهما الجامع الأقمر إلى اليسار، فانحدرا جنوباً إلى ما بين القصرين. وتقدّم راجح بجواده نحو باب الزّمرّد: وهو أحد أبواب القصر الكبير، فنزل وطلب من صاحبه النزول، ثم اتجه به إلى قصر الزمرد: وهو جزء من القصر الكبير، يمتاز بحسن بنائه، وجمال زخرفه، وكثرة ما به من أعمدة الرخام الضخمة. دهش عمارة لفخامة الأثاث وجماله: فالأبسطة الفارسية تغرق فيها الأرجل، والستائر المذهبة تذهل العين من جمالها، والأرائك والكراسىّ كلها من خشب الصندل والعود المضبّب بالذهب. المرصع بالجواهر الكريمة، وقد فرشت بأنواع الحرير الثمينة، والمخْمَل والخُسْرَوانى، والديباج الملكى.

واتجه عمارة إلى يمينه، فرأى حائطاً مغطّى بنسيج من الحرير الأزرق التسترى، وقد طرز بالذهـب، وعليه صورة أقـاليم الأرض، وجبالهـا وبحارهـا، ومدنهـا وأنهارهـا ومسالكها، وفيه صورة مكة والمدينة ظاهرتين للناظر، وقد كتب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضّة أو الحرير. فاقترب عمارة من هذا المصـوّر العظيم، فرأى أنه كتب فى حافته: «ممّا أمر بعمله المعزّ لدين اللهّ، شوقاً إلى حرم اللهّ، وتنويهاً بمعالم رسول اللهّ. فى سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة، والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار».

أما الستائر فكانت من الحرير الأخضر، وعلى كل ستارة صورة لملك أو خليفة أو قائد لكل بلد من بلاد المسلمين، وقد كتب تحت كل صورة اسمه، ومدّة حياته، ومجمل تاريخه.

بُهت عمارة لهذا الملك العظيم وهذا العزّ السامى، وذلك الترف الذى بلغ الغاية وجاوز حدود الوهم والخيال. فلم يشعر بالجوارى الذاهبات هنا وهناك، من روميّات، وصقلبيّات، وتركيات، وجركسيّات. وقد زادتهنّ الملابس جمالاً، أو زدن الملابس جمالاً.

أصيب عمارة بالذهول أو بما يشبه الجنون، وما شعر إلا براجح يرفع ستارة من الديباج المطرز باللؤلؤ ويقول له: تقدّم.

فتقدم عمارة ورفع بصره قليلاً، فرأى سيدة القصور فى صدر البهو على كرسىّ مرتفع يشبه العروش، وقد كان ما لمحه من جمالها فوق ما يصوره الشعراء ويجسّمه المثّالون. خلقها الله لتكون فتنة للعيون وجوى للقلوب، وحيرة للواصفين. هى جميلة كلها، فإذا أخذتها قطعة قطعة كانت أروع وأجمل.

تقدم عمارة فقبّل يدها، ثم قبّل طِراز ثوبها ووقف مطرقاً خاشعاً. فأعجبت سيدة القصور بجميل طلعته، واعتدال قامته، وبما يبدو فى عينيه من صفات النّبل والرجولة. فمال إليه قلبها وخفق فؤادها، وشعرت بقوة تجذبها إليه، قد تكون ما يسمّيه الناس حباً. ولمّا رأت حيرته وارتباكه، أرادت أن تخفف عنه، وتبسُط ما انقبض من نفسه فقالت: كيف أنت يا يمنىّ؟؟ لعلّك رأيت فى «قاهرتنا» ما يُسليك عن «صنعاء» و«زبيد»!! فقال عمارة: يا مولاتى. إن الذى يعيش فى وارف ظلكم، وعزيز كنفكم، ينسى وطنه وأهله ولو كان فى صحراء قاحلة. فكيف والقاهرة بكم سيدة الحواضر، ومدينة المدائن؟!.. إن مصر يا مولاتى لم تَر منذ أن خفقت فوقها راية الإسلام، دولة كهذه الدولة: قوّة ومنعة، وعدلاً، وجوداً، وإحساناً. وإن النّاس اليوم إذا أرادوا توكيد أيمانهم، لا يقولون إلاّ: «وحقّ سيدة القصور»، فمن غير الفاطميين يا مولاتى نشر فى مصر الأمن، واليسر، والسرور، والثروة!؟ حتى لو كان الفقر رجلاً وسألنى عن صديق يصاحبه لقلت له: لن تجد يا صاحبى لك هنا رفيقاً، ولكن عليك باليَمَن فإنك تجد هنالك إصدقاء بالألوف.

فابتسمت سيدة القصور، وقالت: هذا دأبكم أيها الشعراء، تَلْبسون الحق بالباطل!!

- إن وصف مصر فى أيامكم يا مولاتى يعجز الشعراء. وكلٌّ ما يقال فيها دون ما يجب ن يقال.

- أنت لم تر الفاطمية فى ذروة مجدها، أظنها الآن تسير بقوة من الماضى.

ـ يا مولاتى : الفاطمية بك ، وبمولاى الخليفة دائماً فى ذروة مجدها .

ـ إن آمالى يا عمارة أبعد مما تناله يدى ، ولو استطعت لأعدت أيام «المعزّ» و «الحاكم» ولكني أجد الطريق وعرة والمرمى بعيداً . وأنّى تستطيع امرأة ضعيفة مثلى أن تعمل شيئاً ، ودرعها الخِمار وسيفها البكاء ، وعليها جرّ الذيول لا قيادة الجيوش؟! . . إننى فى الحقّ سررت بمقدّمك ، لأن القصر كان فى حاجة إلى شاعر يذيع مآثره ، وينشر مفاخره ، وينقل صوته من الخاصة إلى العامة ، فيزيدهم بالخلافة تمسّكاً ، ولها نصراً وتأييداً .

ـ إن شعرى يا مولاتى سيكون جيشاً بجانب جيوشكم ، وسأكون لكم كما كان «حسّان» للمسلمين الأوّلين .

ـ حيّاك اللهّ أبا محمد . . هذا ما ترجوه منك الخلافة . إن الخليفة لا يزال صغير السنّ ، وأرى الأعداء يرمقون مصر من كل جانب : فالأفرنج نزلوا الشام وملكوا كثيراً من بلادها وقد أصبح خطبهم شديداً . وهؤلاء الغُزّ الذين ستروا مطامعهم فى اغتصاب الأمم ، بدعوى الغزو والجهاد فى سبيل اللهّ ، والذين يقودهم نور الدين بن زَنكى يتحرّقون شوقاً إلى مصر ، وإلى الارتواء من نيل مصر . وهذه الدّسائس التى تحاك هنا حولى فى سراديب مظلمة فى جنح الليل المظلم ، تنذر بالخراب والدّمار . فماذا تفعل امرأة ضعيفة مثلى يا شيخ فى وسط هذه الزوابع والزعازع؟! كان صوت الأميرة حزيناً متهدّجاً ، وقد فرّت دمعتان من عينيها أسرعت إلى مسحهما بمنديل فى يدها . ثم كأنها أنفت من هذا الضعف النِّسْوِىّ ، فضربت بقدمها الأرض وقالت أريد أن أنقى هذا الجوّ حتى أستطيع أن أتنفّس . . . أريد أن أنام ملء عينىّ فى قصور المعزّ ، من غير أن أشعر أن الكيد والخديعة والأعداء من الخارج ، تنقبها من قواعدها . . .

ـ إن قوّادك ووزراءك يا مولاتى طوع أمرك . والملك الصالح طلائع الذى قدم بجيشه من «مُنية ابن خصيب» لنصرة الخلافة ، لا يزال كما كان للخلافة أميناً مخلصاً .

فظهرت على وجه الأميرة كُدرة خاطفة سريعة ، من الحقد والغضب لم يدركها عمارة ، وابتسمت وقالت : صدقت يا عمارة . ما أعلمك بأخلاق الرجال!! . . إن ابن رزيك قِوام هذه الدولة وهو سيفها القاطع ورأيها النافذ . وإنى أسدّ أذنى عمّا يقول كثير من حسّاده ، يقولون : إنه أرْمَنّى اتخذ الإسلام ذريعة للدنيا لا للآخرة ، واتّخذ المذهب

الفاطميّ ذريعة للملك . . قاتلهم اللهّ فهم كذّابون أفّاكون!! لن تجد مصر رجلاً كابن رزيك، ولو كان للإخلاص والوفاء صورة لكانت ابن رزيك . . أما «شاوَر» و «ضيرغام» فلا أعرف عنهما إلا أنهما كبيرا الآمال . ولعلَّ هذه الآمال تتجه إلى إعزاز كلمة الخلافة!!

ثم ضحكت وقالت: أتعبتك من الحديث في شئون الدولة، وكلّ حديث فيها مملّ ثقيل . ما أجمل قصيدتك التى أنشدتها يوم استقبالك!! وأجملُ ما فيها:

ليت الـكواكب تدنـو لى فأنظمَها   عقـود مدح فمـا أرضـى لكم كَلِمِى

المعنى قديم مطروق يا أبا محمد، ولكنك أحسنت صياغتـه . فإيه باللهّ عليك أبا محمد . . ادْنُ منى قليلاً . . . ما لى أراك مستوحشاً؟! . . . انفُض عنك هذه الرهبة وحدّثنى كما تحدث الناس، فقد سمعت أنك حلو الحـديث، عذب المحاضـرة والمفاكهـة . . . اسمع يا عمارة: أتريد أن نكون أصدقاء؟؟

ـ تلك منزلة لو رأيتها فى المنام يا مولاتى ما صدّقتها . وأين الثريّا من يد المتناول؟!

ـ لا . صدّقها ونحن فى اليقظة لا فى المنام، وأمامك سيّدة القصور بنت الخلائف وملكة مصر .

فأكبّ عمارة على يديها، فتركتهما له، فاستمر طويلاً يغمرهمـا تقبيلاً ولثمـاً، وقـد أحسّ كهرباهما تسرى إلى جسمـه، فتملـؤه نشـوة وانتعاشـاً ثم قال: انـا عبـد مولاتـى وخادمها . وإن قلمى ولسانى، وسيفى ـ إن شاءت ـ ملك يمينها .

ـ لا . . أنت صديقى . ولكننا قبل أن نبنى هذه الصداقة، يجب أن نجعل أساسها ميثاقاً مقدّساً، وعهداً أكيداً .

ـ ألف عهد وألف ميثاق، أبذلها تحت قدميك، وأنثرها أمام هذا الجلال الرائع . . ولولا رهبة الملك لقلت أمام هذا الجمال الفاتن . . . فابتسمت الأميرة وقالت: لم تطق أن تصبر لحظة عن شاعريتك فحننت إلى الغزل، كما يحنّ الطائر إلى التغـريد عنـد سفـور الصّباح!

ـ يا مولاتى أنا شاعر . والشاعر ليس إلا مِرجلاً يغلى بضروب الإحساس والوجدان، فإذا لم يجد متنفساً انفجر وتحطّم . إننا معاشرَ الشعراء نرى الصّور بعيون من الفن لا يبصر

بها سوانا . . نرى الجمال فنذهب بخيالنا فى روضاته ، فيتكشّف لنا عن بدائع لا تراها العيون . . . نحن نعيش فى دنيا غير دنيا الناس ، ونفهم من أسرار الحسن غير ما يفهم الناس . إن الحسن أحياناً قد يتحدّى الشعر، وقد يُعجز الخيال ، وقد يبهر العين كما بهرنى ، ولكنا لا نلقى أمامه السلاح أول مرّة ، ولا نستسلم خاضعين ، بل نأخذ فى إطلاق الشعر حوله رصيناً أو غير رصين ، مبيناً أو غير مبين ، ثم نصيح كما يصيح المحموم ، حتى نخفف من ثورة قلوبنا وإلا قتلنا الحب ، ورحنا شهداء النظرات الفاتكة ، والبسمات الفاتنة .

ـ قصيدة منثورة يا أبا محمد ! ! إن لبيانك سحراً عجيباً ! ! ثم تهانفت وقالت : نسينا العهد والميثاق .

ـ صوغى العهد يا سيدتى كما تشائين ، ولا تُبقى شيئاً من الأيْمان المجرِجة ، فإنى أكرر بعدك كل ما تقولين .

ـ إن عهود الفاطميين ليست هيِّنة يا عمارة ، فهى شديدة قاسية ووراء كل كلمة منها إسماعيلىّ فِدائى ، يغمد سكّينه فى قلب كل مَن نكث بها .

ـ إن دمى لك يا مولاتى . وهل أقول قلبى؟؟

ـ قل ما تشاء .

ـ دمى ، وقلبى ، وحياتى لك يا مولاتى . فهاتى العهد ، وتشدّدى ووثّقى كيف شئت كما يوثّق كتّاب العقود .

ـ ولكنّى قبل العهد أريد أن أتحدّث معك قليلاً . أتعلم أن أهل مصر تحوَّلوا جميعاً إلى المذهب الفاطمى ، وأصبحوا من أشدّ الناس غيرة على نشره ، والمحافظة على تعاليمه ومراسمه . . . إنهم قوم يحبّون البهجة ومظاهر السرور ، وحفلات الأنس والطَّرب ، وضجيج المواسم . وقد أكثرنا من ذلك لهم . . أتعلم أنّ مواسم الفاطميّين تزيد فى السنة على ثلاثين موسماً؟ ! هذا إلى ما يعمل فى رمضان والعيدين من الحفلات الشائقة وضروب البذخ والإسراف . اتعلم أننا جعلنا سيف المعزّ وذهبه شعاراً لدولتنا؟ ! أسمعت بقصّة جدّى المعزّ فى أوّل اجتماع عامّ له بالقاهرة ، حينما طالبه ابن طَباطَبا نقيب الطالبين فى مصر بما يثبت نسبه وحسبه؟ فنثر جدّى الذهب على الناس ، وقال : هذا نسبى ! ! ثم جرّد سيفه من غمده وصاح : وهذا حسبى ! ! ومن ذلك الحين أصبحت دولتنا تقوم على هاتين

الكلمتين : الذهب لمن أطاع وأصلح . والسيف لمن عصى وأفسد.

ـ هذا يا مولاتي هو العز الباذخ، والملك الشامخ، فبأبناء فاطمة تتيه مصر ويسعَد أهلها.

فمالت إليه الأميرة باسمة، وقالت بصوت عذب النبرات :

ـ بعد هذا، وبعدما سمعت منك أبا محمد عن سماحة الفاطميّة وجودها وعدالة حكمها . أحبّ أن تكون فاطمياً .

ـ أنا فاطميّ يا مولاتي . . . أحبّ فاطمة الزهراء، وأحبّ علياً كرّم اللهّ وجهه، وأحب أولادهما، وأعتقد أن حبّهم قُربَى إلى اللهّ وشفاعة .

ـ لا يا عمارة . . . لا تغالطني بحقك . . . أنت تعلم ما أريده ولكنك تروغ روغان الثعلب، ولولا ميل أُحِسّه نحوك ما طاولتك هذه المطاولة . ثم ظهرت في وجهها شراسة النَّمِرة فقالت : إن لمثلك عندنا إحدى خَلتين : إما أن يعتنق مذهبنا، وإما أن تسيل نفسه على سيوفنا . . . أتريدنا الآن يا يمني على أن نعود إلى الانحلال والتجاوز المميت؟! لا . . لا . . لا بد من إحداهما إما أن تكون فاطمياً، وإما ألا توجد.

فارتعدت فرائص عمارة وقال في تلعثم : فهمت من مولاتي أنها لا تريد من الحياة إلا إعلاء المذهب الفاطمي، وتثبيت أركانه . وفهمت أنها لهذه الغاية نفسها، تدعونى إلى اعتناق المذهب . فما رأيك يا مولاتي في أننا متّفقان في الغاية؟! . . متفقان تمام الاتفاق!! . . سأكون خير عُدَّة في نشر المذهب الفاطمي . . . سأكون له لساناً ناطقاً وقلباً خافقاً . . سيكون شعري أغنيّته التي يطرب لها كل سمع ويتفتح لها كل قلب . . . سيحسدني داعي دعاة المذهب على حسن ما أبليت في إنهاض الفاطميّة وإعلاء لوائها . . سيرى النقباء الأثنا عشر أنهم لم يعملوا شيئاً بجانبي . . سيردد الأطفال في الحارات أناشيد الفاطمية، وستغرد النساء في بيوتهن بمجد الفاطمية، وسيرى الأدباء والعلماء في شعري صوراً ساحرة لجمال الفاطمية وسماحتها . . . سأعمل كل هذا لأنني أحبّ مولاتي، ولأنني رأيت من كريم وفادتكم، وجزيل عطائكم، وعميم إحسانكم إلى الناس، ما بهرني وملأ قلبي حباً لكم ولكل ما يتصل بكم . أمَّا عقيدتي أنا . . . التي تنطوي عليها جوانحي، فدعيها لي يا سيِّدتي . . دعيها باللهّ فإنها بقية ما يصلني بأهلي الذين فقدتهم . . دعيها فإنها

إرث الماضي البعيد . . دعيها فإنها جزء من نفسي . ثم وثب قائماً وفي وجهه شهامة العربي الكريم . وقال : لن أغيِّر عقيدتي ، ولو طلبت ذلك أجمل امرأة أظلتها السماء ، وهي سيِّدة القصور .

ـ اهدأ أبا محمد .

ـ يا مولاتي . إني أعتقد أنني لو غيَّرت عقيدتي أوَّلَ ما تطلبين منّي ، لهزئتِ بي وسخِرت مني ، وقلت في نفسك : تَعْساً له من رجل سقيم الإرادة هزيل العزيمة ! ! ثم هبيني كنت رجلاً إمّعاً لا خلق له ولا عزم ولا دين ، أتظنين أن ذلك يقربك من غايتك ؟ ! لا . سيضحك الناس مني في أكمامهم إذا ناديت فيهم بفضل الفاطميَّة ، ويقولون : يا له من شقيّ أفّاق منافق مأجور ! ! اشترت منه الخلافةُ عقيدته بدراهم معدودة ، فجاء يدعونا إلى الحرص على مذهبها ! وربما همس أحدهم في أذني بخبث وشماتة قائلاً : إنّ رجلاً يفرِّط في مذهبه ، أولى به أن يتوارى عن الناس ، وإلاّ يحثهم على التمسك بمذهبهم . ثم إن الوفاء أظهر خلائقي ، وأقوى شيمي . فإذا لم أفِ لعقيدتي فأجدر بي ألاّ أفي لمخلوق . . . سأعيش للوفاء ، وسأموت للوفاء ، ولن يقول إنسان : إن ابن عليّ خان عهداً أو أخفر ذمّة .

فانبسطت أسارير سيِّدة القصور وقالت : أحسنت أبا محمد . إن هذا البيان وهذا الفكر الواسع لا تستغنى عنهما الفاطميَّة .

ـ اطمئني يا مولاتي ، فسأكون لك عوناً ، ولمذهبك سيفاً ودرعاً ، وسأكون فاطمياً بلساني ، سنياً بقلبي فماذا تريدين منّي فوق هذا ؟ ؟

ـ اكتفيت أبا محمد . فإن لروعة منطقك ، إلى وسامة طلعتك ، إلى كريم خلقك وكمال رجولتك ـ سحراً وفتنة . أيُرضيك هذا الإطراء أبا محمد من امرأة كانت تظن أن الأرض أقفرت من الرجال حتى رأتك ؟ ؟

فوثب عمارة على يديها يقبلهما ، ويرتفع بفيه قليلاً قليلاً حتى يصل إلى معصميها . ثم قال : يرضيني يا مولاتي ؟ ! أنا لا أدري : أأنا فوق الأرض ، أم سابح فوق السحاب ؟ !

ـ لا . . . لا تعد إلى شاعريّتك . أنت معي هنا في قصر الزمرُّد . . . هلم إلى العهد . فتنهد عمارة وقال : هاتي يا سيدتي . هاتي . . . فأخرجت سيِّدة القصور ورقة من منديلها ، وأخذت تتلو وهو يُعيد : «أقسم وأحلف باللهّ المنتقم القاهر ، وبرسوله الكريم ، وبوصيّه

ووليّه، وببنته الزهراء سيِّدة نساء أهل الجنة، وبكريم نسلها وشريف عترتهـا. عـلى أن أكون للفاطمية عوناً ولها ناصراً، ولدولتها مؤيّداً. وعلى أن أعاضد أولياءها، وأحـارب أعداءها، وأتّخذ كل وسيلة، وكل أداة، وكل ذريعة لرفع شأنها، وإماطة الضرّ عنهـا. وعلى أن يكون دمى، وشرفى، ومالى، هدراً مباحاً إن خنت لها عهداً، أو نكثت بوعد، أو توانيت عن وفاء».

وبعد حلف اليمين كان جبين عمارة يتصبب عَرَقاً. فرفـع عينيه وقـال: بقيت مسألـة يا سيدتى، وهى أنى شاعر، وقد أمدح قوماً تضمرين لهم سوءاً، فهل ذلك ضائرى عندك؟؟

ـ لا يا عمارة، أيِّد بمدحك من تشاء منا، واخدع بمدحك مَن تشاء من غيرنا، ولا تخش شراً فأنت موضع ثقتى.. هلم إلى الطعام والشراب.

ثم قامت سيِّدة القصور إلى بهو آخر، أعدّت فيه مائدة ملكية يحيِّر وصفها الألباب. وبعد الطعام تقدمته الأميرة إلى بهو الأغانى، وقد كانت الجوارى أعدَدْن آلات الطرب. فجلست الأميرة، وجلس عمارة بعيداً، وجلست إلى جانب الأميرة جاريتها «باسمة» وهى جارية جركسية بارعة الحسن، رائعة الطلعة، تفور فيها الأنوثة، وتصطخـب فى نفسهـا ثورات الشباب. لمحت عمارة، فرأت فيه محياً عربياً، ووجهاً صبيحاً، وقامـة فارعـة. فاضطرب له فؤادها، وأخذت تخالسه النظر، وتتحين الفرصة لمحادثته واجتذابه. واستمر الطرب إلى الهزيع الأخير من الليل. حينئذ وقفت الأميرة وسلّمت على عمارة، وهمست فى أذنه: سأرسل إليك راجحاً فى كلّ ثلاثاء. ثم أمرت «باسمة» أن تسير معه إلى الباب الكبير، وأن تأمر راجحاً أن يصحبه إلى داره.

فسارت «باسمة» معه من سلّم إلى سلّم، ومن بهو إلى بهو، وقد جاذبته الحـديث طويلاً فى هذه الأثناء، ورمت إليه بكثير من شباكها، وألقت إلى قلبه بالمجرَّب النافع من سحرها. ولكن عمارة كان عنها وعن فنونهـا فى شغـل شاغـل، فلـم يقابلهـا إلا بالصـّدّ والعبوس. فحزنت «باسمة» ولكنها لم تيأس، وقالت فى نفسها: ويلٌ لهذا المهر الحرون منى!! سيأتى إلىّ خاضعاً، وسيلقى عنانه بين يدىّ ذلولاً. ثم قابلا راجحـاً فودعتـه «باسمـة» وانصرفت. فركب عمارة وراجح جواديهما، وإذ هما يخرجان إلى الطريق سمع عمارة مؤذن الصبح، من مئذنـة الجامع الأقمـر، وهـو يردد بصـوت رنـان: حىّ علـى خير العمل!!... حىّ على خير العمل!!

أقام عمارة بالقاهرة طويلاً فى عزّ وثروة وهدوء بال، وكان يستدعيه راجح فى كل أسبوع للقاء الأميرة، فزاد هُيامه بها، وبجودها وذكائها، وحرصها على حياطة الدولة. وكانت «باسمة» فى كل زيارة تغازله وتحتال على أن تُصّبيه، فيصرفها عنه فى تعفّف واستنكار.

وبينما كانت تودعه إلى باب القصر فى بعض زوراته، دخلت به إلى إحدى الحجرات، وسألته فى رشاقة تستنزل العُصْمَ، وفى دلال يلين الصخورالصُّم أن يكتب لها بعض أبيات رقيقة قالها فى الغزل. وكانت تحدّثه وهى ترفع خُصلة متهدلة من شعرها الذهبى اللمّاح، وتصوِّب إليه عينيها فى ضعف وفتور، يوقظ الفتنة النائمة، ويثير العاطفة الخامدة. والجمال يستعين دائماً بقوته إذا مَلَك، وبضعفه إذا حاول أن يَمْلِك. والجمال الهادىء المستكين أقوى أنواع الجمال تحكماً فى قلوب الرجال. وهو أحبولة المرأة، وأداة وثوبها، ودرع دفاعها. عرفت المرأة بفطرتها الصادقة، وغريزتها النافذة، ما فى الرجل من غرور وكبرياء، واعتزاز بحوله وَطوْله. فهى دائماً تأتيه من هذه الناحية، فتتوسل بضعفها إلى قوّته، وبأنوثتها إلى رجولته، وبلينها إلى خشونته، وبأنها تريد أن تتخذ من قلبه حصناً تلجأ إليه من عواصف الأيام، ومن عطفه حِمًى تلوذ به من أعاصير الحياة. ثم تبعث بجمالها الوادع الذّليل شفيعاً إليه، فلا يزال به حتى يجتذب عطفه، ويستهوى حَنانه - والحنان أول مراتب الحب، والإشفاق أول مراحل الغرام - حتى إذا فازت بعطفه، أخذت فى إنمائه بالإيحاء، وبأساليب يعرفها النساء وحدهن: أساليب كأنها غير مقصودة، وهى مقصودة. وكأنها من المصادفات، وليست من المصادفات، وكأنها تصدر على الرغم منهن، وليست إلا من قصدهن. وهنا يقع الرجل فى الشرك، وهنا يتغلب الحب، وهنا تتحكم المرأة، وهنا يعود ذلك الضعف المتصنّع قوة وجبروتاً!!

قالت «باسمة»: إنها ليست أبياتاً يا سيدى. إنها همسات الحب فى أذن العاشق المهجور. أتعرف أننى كلما سمعت «طروب» تغنيها لم أملك دموعى!!

إن الشعراء يجتذبون المرأة بمثل هذا الشعر الذى لا يخطىء سبيله إلى القلوب، فإذا اهتزّت مشاعرها له جاء الحياء فكتم ما تحسّ ودفنه بين جوانحها حياً، لا لشىء إلا لأنها امرأة يجب ألا تتكلم، ويجب ألا ينم وجهها إلا عن السخرية بالغزل وأغانى الغرام. أما الرجل فمباح له أن يبوح بما فى نفسه. ومباح له أن يُغرى من يشاء بما شاء. ولقد يكون خدّاعاً،

ولقد يكون ماجناً عربيداً ، يلهو بقلوب الحسان كما يلهو الطفل بلُعَبه ، حتى إذا سئمها داسها بقدميه ، وتركها حُطاماً .

ليس للمرأة المسكينة أن تقول : أحبُّ . وليس لها أن تجيب عن ابتسامة بابتسامة ، ولا عن زفرة بزفرة . وإنما عليها أن تصرف وجهها عن مائدة الحب ، ونفسُها تشتهى كل ما عليها من ألوان ، لأنها صنم من جمال ، وتمثال من حسنٍ ، لا يتكلم ولا يريد . فإذا ضحكت أحياناً ضحكة فيها رنين ، أو انزلق لسانها بكلمة تصور خلجة من خلجات النفس الحائرة ، أو أدلت برأى فى معنى الحسن - سلقتها الألسنة ، وحملقت نحوها العيون ، وترحّم الناس على الحياء والفضيلة ، وهزّت العجائز رؤوسهن فى رعب ودهشة ، وبكين ماضى أيامهن ، حين كانت البنت تُرى ولا تسمع ، ثم ينتقلن بالحديث إلى فساد الزمان ، واضطراب الأوضاع ، وضياع آداب السّلف .

ويا ويل الشّباب من المشيب ! ! فإنه حينما يرى أنه تسلّب من القوة ، وماتت فيه غرائز اللهو ، وقعدت به السن عن الاستمتاع بلذائذ الحياة - يمتلىء صدره على الشباب حقداً ، وتغلى نفسه منه غيظاً ، ويرميه بالجنون والطيش ، وتمزيق ستار الأدب ، وتمريغ الفضيلة فى التراب . ولو أن شيخاً هبّ من نومه ، فأحسّ بالشباب وقد عاد إليه ، والفتوة وقد تمشت فى عروقه الواهنة الذابلة ، ونظر فى المرآة فرأى شيبه وقد ارتدّ سواداً ، ووجهه وقد صقله الصِّبا ونَحَا منه الغضون - لغيّر رأيه فى الفضيلة وكان أوسع أفقاً ، وأكثر تسامحاً ، وأسرع إلى داعى اللهو استجابة ، ولضحك مما كان يراه بالأمس من وجوب التحرُّج والتزمُّت ، والابتعاد عن التمتع بزينة اللهّ التى أخرج لعباده .

- هذا صحيح يا فتاة . ولكن مالك تعذبين نفسك بهذا التفكير الذى لا يجرّ إليك إلا الحزن والبَلبال؟ !

- إننى يا سيدى لم أخلُق نفسى . ولو خيرّت لاستبدلت بهذه النفس التى أشقى بها نفساً جامدة بلهاء ، لا تشعر بالمعانى السامية ، ولا تهتزّ للجمال الروحىّ الذى فيه غذاؤها وريّها وحياتها . أنا يا سيدى فتاة منكوبة ، أعيش حبيسة فى هذا القصر ، بين سادة يسوموننى الذل والخسف ؛ لأننى فى أعينهم أمَة اشترَوْها بمالهم ، واشتروْا معها فى زعمهم كل ما فيها من حسّ وإدراك وشعور . فيجب ألاّ تحِس وألا تدرك وألا تشعر ، وبين خدم يحسدوننى على منزلتى من سيدة القصور ، ويدبِّرون لى المكايد وينصبون الحبائل . أرأيت يا سيِّدى أسوأ من

هذه الحال؟ أَمَة ذليلة محسودة. أمة تضطهد في ضوء النهار، وتحاك لها الدسائس في ظلمة الليل.

أَمَة..؟ وهل أنا أَمَة...؟! ولكنهم أماتوا روحي، وقتلوا ما كان في نفسي من عزّة، فلن أستطيع أن أتكلم!!

- إني أتألم لألمك يا فتاتي. تكلمي... تكلمي... فلن يُزيح عن النفس أحزانها إلا البوْح والبكاء.

- لك يا سيدي أبوح. ولمثلك أشكو، فإن لك قلباً لا يضيق بفتاة بائسة مثلي، تلتجيء إلى ركن فيه لتحتصم من ويلات الزمان.

أنا لست أَمَة أبا محمد. إن لي قصة تستنزف ماء الشئون، وتثير لواعج الشجون. ولكن لساني لم ينبس بها لأحد. وماذا في أن تكشف ذات نفسك لقوم لا يلقَوْنك إلا بالسخرية والتكذيب والمراء! أنا لست أمة، ولكن أبي كان حاكماً ببلاد الجركس، ولم يكن له من ولد غيري. وكنت ريحانة حياته، وفلذة كبده، وحبّة قلبه. وكان بي مشغوفاً، وبحبي كَلفاً. وكان أبي شديداً في مطاردة اللصوص، مستقصياً لهم، صارماً في عقوبتهم. فقبض مرّة على زعيم من زعمائهم فأذاقه صنوف العذاب، ثم وَسَّطَه في ميدان المدينة. ويظهر أن أحد رجاله أراد أن ينتقم له، فرأى أن أشد ما ينتقم به منه أن يختطف ابنته، وأن يذيقه لوعة فقدها - فخُطِفت في السابعة من عمري، ونُقلت إلى الشام في بيت نخّاس، كان يحفُّني بعناية فائقة، ويشملني بعطف سابغ، ويدللني تدليل الأب الشفيق. وقد أحضر لي عجوزاً كانت تختلط بنساء الأكابر، لتلقنني آداب السلوك، وآيين القصور. وكنت وأنا بين هذا الترف الكاذب والنعيم الزائف، أسكب الدمع في خلواتي مدراراً، وأكاد أبخع نفسي على أهلي حزناً.

وقد أقمت عند صاحبي طويلاً حتى بلغت مبلغ الأنوثة الكاملة، وتَفتَّحت فيّ أكمام الشباب الناضج، وأظهرتْ مني الخامسة عشرة مكنون الجمال، ومستور الفتنة. وإذا كان الشّباب جمالاً، فأجمل منه أن يكون جميلاً. وكلما تبلّج حُسني زاد صاحبي بي حفاوة ولي إكراماً. وذاع في دِمَشق أن لدى حسين الدقّانيّ النخّاس فتاة لم تحو قصور الملوك مثلها، فتزاحم على بابه سماسرة العبيد والجواري، يُغرونه ببيعي، ويزيدون له في ثمني بالمئات من الدنانير. وكان الرجل يقابل إسرافهم في العرض بإسراف في الإباء. وكنت في أثناء

هذه الضجة وهذه المغالاة بقدري، لا يفارقني خيال أبي، ولا تنأى عنّي ذكراه. وكان قلبي بالحنين إليه خفاقاً، وبالشوق إليه دائم الوجيب، حتى زارتنا في عصر يوم امرأة من بلاد الجركس، فجاذبتها أطراف الأحاديث، ثم انفلتُّ في حذق ولباقة إلى السؤال عن أحوال البلاد وعادات أهلها، كأني لا أعرف من أمرها شيئاً. فانطلقت المرأة في القول، وأسهبت فيما يصيب البلاد من فوضى، وما فيها من عصابات ضارية، مَردت على اختطاف البنات وبيعهن في أسواق الرقيق. وعلمت منها أنّ أبي بعد أن نُكب في ابنته، برّح به الحزن فمات كمداً. حينئذ يئست من الحياة، وعرفت أني خلقت للذّلّ والمهانة، وأن هذه الحلّى التي تزيّن معصميّ وصدري، والحرائر الثمينة التي أرتديها، إنما هي من عبث القدر وأضاحيكه. وأنها أشبه بزخرف القبور، منها بزينة فتاة تستقبل الحياة.

ثم جاء والي دمشق ذات صباح، وطلب من صاحبي أن يسافر بي إلى مصر؛ ليبيعني لسيِّدة القصور، على أن يتحكّم في الثمن كما يشاء. فسافرنا إلى القاهرة، وعُرضت على سيدة القصور، وكان العرض مؤلماً. . . ثم سئلت عن اسمي، فأطرقت وتبسمت ابتسامة حزينة واجدة، فصاحت سيدة القصور: سميتها «باسمة»، ثم طلبت إلى الخدم والجواري أن يدعوني بهذا الاسم، فبقيت في القصر منذ ذلك الحين أعامل معاملة الدُمى حيناً، ومعاملة الإماء الذليلات أحياناً. ارحمني يا سيدي. . . ارحمني. . . فإنني أتحرّق إلى صدر رفيق يجيب خفقات قلبي، وأشعر في دفئه بالحب والحنان.

- يحزنني يا فتاتي أنك طرقت قلباً مشغولاً، ملأ الحب كل حُجُراته فلم يترك فيه مكاناً لحب جديد.

- لك ألا تسمي ما أدعو إليه حباً، سمِّه عطفاً إن شئت.

- إن العطف أول الحب. وإذا رضيت بالعطف أولَ الأمر، فلن ترضىْ به إذا طال الزمان. إن قلبي يا فتاتي موحِّد لا يؤمن بالشريك.

- لقد حرمتُ يا حبيبي حب الأب، وحبّ الصديق، وأريد أن أعيش إنسانة تجتذب الحبيب ويجتذبها الحبيب، تُصبي الحسن وتصبو إليه. إنني من جيل تعنُف فيه الغرائز وتشتد، وتسيطر فيه نزعات القلب على حكمة العقول. أريد يا حبيبي أن أحيا ساعة واحدة أشعر فيها أنني لست أمَة رقيقة!!

ـ أليس لك فى زوجك يا باسمة ملاذ يسكن إليه قلبك، وتهدأ فى كنفه جوانحك؟

ـ زوجى؟ لا تمزح يا سيدى! باللّه عليك لا تمزح! إنه ناطور الزّواج كما يضعون فى البستان ناطوراً ليذود الطير عن ثمره. زوجى؟ ذلك الذى أرغمتنى سيدتى على التزوج به، لتصوننى من رجال القصر الذين كادوا يفترسوننى بأعينهم، والذين كانوا يلاحقوننى فى كل مكان. ومن هو الذى أُلزمت الزواجَ به؟ قَذِم، جاهل، مغفّل، غبى متعاقل، سريع الغضب، بطىء الهمّة. هذا هو الزوج الذى اختارته لى سيدتى، واختيارُها وحى من الرحمن يجب ألاَّ يردّ، ولا يجادَل فيه، ولا يسائل المرء نفسه عن سرِّه! فهل لى فى أن أطمع فى عطفة منك تضىء ظلام حياتى!؟

ـ لا أكاد أفهمك يا باسمة، ولا أكاد أفهم معنى لهذا التشبّث بعدما أظهرتُ لك من الانصراف عن كل ما يسميه الناس حباً. وقد أكرمتنى سيدة القصور بحفاوة ولم يظفَر بها سواى، وليس من شيمى أن أعبث بهذه الكرامة.

ـ أنت تحبّ سيدة القصور، وتؤثر حبّ السيدة على حبّ الجارية؛ لأنك تظن أن حبّ السيدات سيد الحب!

فظهر الغضب على وجه عمارة. وصاح:

ـ كفى يا جارية. فإن سيدة مصر أقدس من أن تصبح حديثاً للإماء!! ولقد صبرت على ثرثرتك طويلاً، وتركت نار قلبك تأكل حطبها لتنطفىء. ولكن يبدو لى أن الرفق زادها استشراء، وأضاف إلى جذوتها حطباً. اعزُبى عنى فقد طال بنا المقام، وأخشى أن ينالنى من الجلوس إليك أشنع المكروه.

ـ أعزُب عنك بعد أن كشفتُ لك عن ذات نفسى، وفضحت لك خبيئة صدرى؟! بعد أن طرحتُ حبِّى على أقدامك فقذفتَ به كما تقذف النّعل الخَلَق؟! وبعد ان سكبتُ دموعى على قلبك الصّلد فما زاده الماء إلا صلابة ويُبساً؟! اعزب عنك بعد أن اهنتَ أنوثتى، ودست بقدمك على أشرف ما أعتز به وتعتز به كل امرأة من حياء وخفر وإباء؟ ويل لك منى! إن كلّ شىء عندنا ـ معشر النساء ـ أَمَمٌ، إلا ان تُجرح المرأة فى كرامتها، وإلا أن تقدِّم جمالها الفاتن لِجِلْف مثلك، فينحيّه عنه بالأكفّ فى سخط وأنفة، كأنه كأس مسمومة أو طعام وَلَغت فيه الكلاب! ويل لك منى وويل لكل من يناصرك! لن تفلت من حبائلى.

إننا ـ بنات الجركس ـ نقتل الرجال: إما بالحب والاستهواء، وإما بالكيد والدهاء. فخذ حِذرك فإنك لن تنجو منى يا رجل! ثم قامت غاضبة وتركت عمارة فى ذهول وعجب، وهو يتطلع فى أنحاء الحجرة كالمشدوه المأخوذ. ثم ضحك ضحكة جافة مضطربة، وضرب كفاً بكفّ وقال: حقاً إنّ مصر بلد العجائب!! ماذا كان شأنى بهذه الفتاة؟ ومن رمانى بهذه المجنونة؟ إنها ستكون البعوضة التى تُدمى مهجة الأسد، وستعمل على تكدير عيشى وتنغيص حياتى، وربما أشعلت بينى وبين سيدة القصور فتنة لا أستطيع لها إطفاء، وربما نشرت بين رجال القصر أسرار حبٍّ قدسىّ أبالغ فى كتمانه، أكان يجب أن أجاريها وأن أخدعها، وأن أظهر لها كالمحب المفتون بها المدلّه بجمالها؟ لا. إن شيئاً من ذلك أو دونه، لو ظهر لأفسد ما بينى وبين سيدة القصور. ماذا أعمل؟ إنى بالغت فى اتقاء دسائس الرجال، ولم أحسب لدسائس النساء حساباً. إن من ضروب العداوة ما لا يستطاع درؤه، وإن من المصائب أن يكون عدوك ضعيفاً، ولكن سأدّرع بالحذر ثم يكون بعد ذلك ما يكون. وقام وصدره مثقل بالهموم، ثم غادر القصر.

وفى تلك اللحظة التقى ابن دخان بياسمة فى أحد أبهاء القصر وكان لها عاشقاً وبها صباً مفتوناً، وكانت تصدُّ عنه فى إغراء، ثم تجتذبه لتعرض عنه من جديد، وهى فى قرارة نفسها تنفِر منه وتستنكر تصابيه وطرائق غزله. فلما اقترب منها قال:

ـ كيف أنت اليوم يا نور عينى؟ ألا تزالين فى دلالك القديم؟!

ـ كما أنك لا تزال فى ضلالك القديم. دعنى بالله أسير فى طريقى، فإنى كرهت الدنيا ومن فيها!!

ـ الدنيا بخير يا جنّتى، والرواتب تصرف فى كل شهر لجوارى القصر، وفوق كل راتب قُبلة إلا منك، لقد أعيتنى فيك الحِيل!

ـ أنت رجل فارغ القلب، لا تأبه إلاّ للرواتب ودخْل الدولة وخرْجها. أما ما يصيب صديقاً، أو يمسّ شرف فتاة ضعيفة فقدت الحامى والنصير، فليس من شأنك فى قليل أو كثير! إننى سأغادر القصر إلى الأبد. إن هذا اليمنى الأفّاق المسمى بعمارة، أطغته منزلته عند سيدة القصور، فاتخذ عطفها عليه سلاحاً للعربدة والفجور. لقد ضقت بهذا الرجل ذرعاً، إنه يلاحقنى أينما رآنى فى القصر، ويضايقنى بإلحاحه وتغزله السمج، ويريد أن

يفرض عليّ حبه فرضاً، ويظن المغرور أن الله اختصّه برُواء الحسن وكمال الظَرف، وأن امرأة لا تهيم به مدخولة العقل فاسدة الحس. قابلني في هذا الصباح فحاولت الفِرار منه فلم أستطع، وأخذ يصب عليّ شُواظاً من غزله المفضوح. فلما زجرته وسخِرت منه احتدم غضبه وتكشّف لؤمه، وتوّعدني بالشر والإيقاع بي عند سيدة القصور وبطردي من القصر!!

ـ طردك أنت من القصر؟!.. أنت... وماذا يبقى فيه إذا غابت عنه شمسه؟! ماذا يبقى فيه وأنت بهجته وزينته؟! ولكن هذا اليمني الثقيل الوقح، هو الذي يطرد من القصر، ويزجر منه كما يزجر الكلب.

ـ إن سيدتي متعلّقة به...

ـ ومن هذه الناحية ستأتيه النكبة. دعي هذا الأمر لي يا بنيّة، فلن يضايقك اليمنيّ الأحمق بعد اليوم.

ـ وكيف؟

ـ سأفكر، وستكون المؤامرة محكمة لا يجد منها اليمني منفذاً، ولكني أطلب أن تزيدي في التودّد إلى زوجك؛ فإني أعتمد عليه في مثل هذه الأمور. وكيف حالك معه؟

ـ إنه زوج شرعيّ وكفى!

ـ لا يا باسمة... صانعيه واخدعيه، وأظهري له الحبّ والميل حتى يتم كل شيء.

فظهر الابتهاج على وجه باسمة.. ولكن ابن دخان عاجلها قائلاً: ولكني أطلب أجراً على هذا العمل المحفوف بالمخاطر.

ـ ما هو؟

ـ قُبلة واحدة من فمك الحلو.

ـ قبلت على أن يؤجل هذا الأجر إلى أجل غير بعيد. ثم فرّت من بين يديه كالظبي النافر، وذهبت إلى مسكنها الخاص بالقصر. ولمّا رأت زوجها مجاهداً الرمليّ القت بنفسها بين ذراعيه ضاحكة معربدة، عابثة بشاربه ولحيته. فدهش «مجاهد» لهذا التغيّر المفاجىء، وقد كانت منه شديدة النُفار، ممعنة في الدّلال، فما استطاع إلا أن يضمّها

ضمّة العاشق المهجور، ويملأ وجهها بقبلاته، ثم قال: ما هذه النّشوة يا باسمة؟ فقالت: هل على فتاة فى أن تحب زوجها من حرج؟

ـ لا. غير أنه حبٌ مرتجل!

ـ إنه ليس مرتجلاً يا مجاهد. إن العجائز ـ قاتلهن الله ـ علّمتنى أن الرجل لا يحب إلا إذا جفته المرأة وتمنّعت عليه. وقد أخذت أعمل بنصيحتهن، وأظهر لك النفور والبغض؛ لتزيد بى شغفاً، حتى لم أعد أقوى على هذا الرياء، وعزّنى الصبر ووهن الجلَد، وطغى سلطان حبك على قلبي فلم أستطع له كتماناً. فارحمني يا حبيبى؟

ـ أرحمك؟ أرحمك بمائة قُبلة وألف ضمة، وبأن أكون لك عبداً مدى حياتى؟

ـ وأن تدفع عنى شرّ الأشرار وكيد الكائدين!

ـ بروحى...

ـ إننى لم أرد أن أخبرك منذ حين بشأن هذا الشيخ اليمنى نزيل القاهرة، الذى أخذ يتردد على القصر.

ـ ما شأنه؟

ـ شأنه أنه أخذ يضايق زوجتك، ويبالغ فى احتقارها، ويدس لها عند سيدة القصور. وقد اتفقت مع ابن دخان على إبعاده عن القصر، وسيخبرك إذا قابلته بكل شىء. وستكون هناك مكافأة جزيلة لمن يقوم بهذا الأمر.

ـ عظيم، كسبنا مالاً، واسترجعنا رضاء زوجة رائعة الحسن فى صفقة واحدة.

ثم مرّت أيام قضاها ابن دخان فى تدبير المؤامرة واختيار من يشترك فيها وعُقدت عدة مجالس حضرها مجاهد الرملى وبعض الجنود، وأكّد ابن دخان لهم أنهم لن يصيبهم منها ضرر البتة، وأنهم على الضدّ من ذلك سينالون رضاء سيدة القصور، وترتفع عندها منزلتهم. والتقت باسمة به يوماً، فقصّ عليها المؤامرة مفصّلة، ووكل إلى دهائها وحذقها طريق الشروع فيها، والإفضاء بها إلى سيدة القصور، ثم قال: إنها ليس من صنعى يا باسمة، وإنّ عقلى لا يستطيع أن يصل إلى هذه الغَيَابة.

فقالت فى استنكار: مِن صنع مَنْ إذاً؟ وهل كان من الحزم أن يطلّع عليها غير ذلك العدد القليل الذى اشترك فيها؟!

ـ إن الذى وضع المؤامرة أشدّ منى حزماً، وأكثر احتراساً، لأنه لم يرض أن يمدّ فيها إصبعاً إلا بعد أن حلفت له بكل محرجة ألا أبوح باسمه.

فنظرت إليه فى سحر وفتنة وقالت: حتى ولا للمدينة لك بقُبلة؟ فانهزمت فى الرجل كل خصائص الرجولة وقال: أنا حلفت، ولكن القبلة تعدل آلافاً من كفّارة اليمين... تعدل الدنيا وما فيها. اعلمى يا فتاتى (وفقك الله) أن مدبر المؤامرة هو الشيخ زين الدين بن نجا المشرف على خزائن الكتب.

ـ ذلك الشيخ الورع الزاهد، الذى لا يبتسم! والذى كلما رآنى همهم بأدعية واستغاثات، كأنما رؤية الجمال إثم من أشد الآثام!!

ثم انطلقت باسمة إلى القصر، فرأت سيدة القصور تقرأ بعض الصحف التى يرسلها إليها جواسيسها فى كل صباح، فلما رأتها قالت: أين كنت يا باسمة؟ ولم أراك عابسة حزينة؟

ـ إن حبّك يا مولاتى، والخوف من أن تمسك هبّة من نسيم، هما اللذان يشغلان قلبى ويكدران صفوى.

ـ فقهقهت سيدة القصور وقالت: لا تُتعبى رأسك الجميل يا فتاة، ولا تجنى على جمالك الفتّان بالخوف علىَّ، فإنك إن فعلت أذبلت أجمل زهرة بالبستان الكافورىّ. ما الخبر؟

ـ لا شىء. أو هو شىء يكفى فيه التحرز والاحتراس.

ـ أى احتراس؟ ومن أى شىء؟

عند ذلك استنجدت «باسمة» بأدق مواهبها وأروع أفانينها وأخذت فى الحديث فى تحرُّج وتلعثم، وكان صدرها يخفق، وعيناها تتحير فيهما الدموع، وصوتها يرتعد... ثم قصّت على سيدتها ما اتفقت عليه مع ابن دخان من تفصيل المؤامرة المزعومة وأن عمارة، الذى يُبغض المذهبَ الفاطمىّ بقلبه، ويناصره بلسانه ـ إنما استدعاه طلائع بن رزيك من مكة، ليكون آلته فى الكيد للدولة والقضاء على الفاطمية، وأنه قد تآمر مع بعض الجند على

اغتيال الخليفة الفائز، والقضاء على سيدة القصور، وإجلاس ابن رزّيك على عرش مصر.

- من الذى كشف عن هذه المؤامرة؟

- إبراهيم بن دخان.

- هذا غير معقول يا فتاة. إن عمارة عاهدنى ألا يخوننى، ثم إن فى الرجل صفات تأبى عليه أن ينغمس فى هذه الحمأة.

- إنه داهية يا سيدتى، وهو يتخذ من سحر شعره ولطف حديثه، وظهوره بمظهر الرجولة والنخوة، ستاراً يخفى به مكره ومحاله.

- أنا لا أكاد أصدق. عمارة؟!.. يدسّ لى؟! ويعمل على قتلى وتقويض ملكى..؟! لا.. لا.. هذا إذا عاد الصباح ظلاماً، والأسد ثعلباً، والدواء سماً زُعافاً...

- أأنت واثقة يا باسمة؟

- تمام الوثوق. وقد كان من أسباب حزنى خوفى من أن تمارينى وتنفضى عنك الحذر، والقضاء على الجريمة والمجرمين.

- قد يكون، إن هؤلاء الغرباء الذين يفدون على مصر، لا تخلو حقائبهم من دسائس ومؤامرات، إذاً فمبالغته فى التقرب إلىّ والإخلاص لعرشى كانت رياءً فى رياء.

- لو لم يكن الرجل دسّاساً ما لفظته بلاده، وهو يدّعى أن له فيها الأموال والأتباع والجاه العريض.

- هذا صحيح، دعينى وحدى قليلاً يا فتاة، فإنى أريد أن أفكر.

وبعد ساعة أو ساعتين، أمرت راجحاً أن يدعو إليها ابن دخان، فلما دخل انكبّ يقبّل أطراف قدميها، ثم وقف مطرقاً واجماً وهو فى سّمت الخدام المخلصين. فسألته سيدة القصور عن مجمل الخبر، فقال: جاءنى خادمى «عبده» السّودانى يوماً، وعليه آثار الخوف والاضطراب، وفى وجهه لمحات من التردد والحيرة، فسألته عن شأنه؟ فراوغ وتلعثم؛ فلما أثقلت عليه قال: إننا جميعاً عزمنا على أن نلقى إليك جملة الخبر، فانتظرْنى حتى

أعود. ثم عاد ومعه من الجنود: عمران النّهرى، وعكاشة الحدّاد، ومجاهد الرملى، فأخبرونى أن عمارة أغراهم بالمال، ووعدهم بالمناصب، وذهب معهم إلى قصر ابن رزّيك، فزادهم هذا إغراءً، وأقسموا أمامه على قتل سيدى الخليفة ومولاتى. ولكنهم بعد أن وُزعت عليهم الأموال خارت عزائمهم، وعاودهم إخلاصهم المكين للخليفة ولمولاتى، ورأوا ـ كما قالوا ـ أن خزائن الدنيا جميعاً لا تغرى بأن تُمس شعرة من رأس مولاتهم، وألحوا علىَّ فى كتمان الخبر، ولكنى خفت أن تكون خيبة عمارة وصاحبه فى هذه المؤامرة، دافعاً إلى الشروع فى غيرها، فأسرعت إلى جاريتك: باسمة، ورجوتها أن تبلغك أمرها.

ـ لقد أحسنت يا ابن دخان. ثم أشارت بكفها فخرج. وبينما كان ابن دخان يمر بأحد دهاليز القصر، رآه مجاهد الرّملى، فاختفى وراء ستار، لأنه كان مع اشتراكه فى الدّسيسة يكره الكلام فيها، وفى تلك اللحظة مرّت باسمة، فقال لها ابن دخان الآن وجب قضاء الدين يا فتنة العين، وريحانة النفس. ثم وثب عليها فطوّقها بذراعيه، فلم تمانع ولم تعمل على إبعاده، فانكبّ على وجهها بشره يملؤه قُبلاً يزيدها الحب لذة ورنيناً.

رأى مجاهد كل هذا فغلى دمه من الغضب، وظهر فى عينيه السخط والحنق، وتحركت فى صدره أفاعى الانتقام، ولكنه كظم غيظه، وانتظر حتى انصرفا، فخرج من وراء الستار كالمجنون الذى طار عقله وهو يتمتم: ويل لها!.. ويل له!.. ألأجْل مال هذا الدميم كانت تتدلل علىّ وتنفر منى وتزورُّ عنى، وتقابل توسلات حبى بالسخرية والاستهزاء؟ واللهّ لأبطشنّ بهما معاً!!

قضت سيدة القصور أياماً تقلّب الرأى فى أمر عمارة. حتى انتهى بها العزم إلى وجوب البطش به، ورميه فى بئر القصر المعروفة ببئر الصنم، التى كثيراً ما ابتلعت أعداء الفاطميين. فنادت مؤتمن الخلافة، وأمرته بدعوة عمارة إلى قصر الزمرّد.

وفى غد ذلك اليوم جاء عمارة إلى القصر، وهو خائف يرتعد ودخل بهو الأميرة، فرآها جالسة فى الوسط، وإلى جانبها مؤتمن الخلافة وجاريتها «باسمة» ورأى ابن دخان واقفاً ومعه ثلاثة من جنود القصر، فتقدم ليقبّل طراز الأميرة، فزجرته وأمرته بالوقوف بجانب ابن دخان، فوقف مبهوتاً لا يدرى لكلّ ما يرى ويسمع سبباً، ثم التفتت سيدة القصور إلى ابن دخان وقالت: قدِّم دعواك يا ابن دخان. فأخذ يقصُّ ما حاك من دسيسة، وعمارة فى

ذهول، يرى البهو يدور بمَن فيه، ثم ينقلب فيراهم فى سقفه لا فى أرضه. حتى إذا أتمّ ابن دخان دعواه، اتجهَ إلى الجنود وقال: وهؤلاء الجنود المخلصون الذين أرادوا أن يستغووا المتآمرين حتى يوقعوهم فى الشرك، سيقدِّمون إلى مولاتى ما يؤيد وقوع هذه المؤامرة الخسيسة. فقالت سيدة القصور: وأين مجاهد الرملى؟؟.. فإذا صوت يصيح فى دهليز البهو: هأنذا قادم إليك يا مولاتى. ويدخل مجاهد، فينظر مرَّة إلى «باسمة» ومرة إلى ابن دخان، ثم يصيح: هذه دسيسة كاذبة ملفقة يا مولاتى.. إن زوجتى باسمة هذه هى التى نسجت خيوطها الواهية مع ابن دخان، وهؤلاء الجنود الكاذبون وعُد كل واحد منهم بمائة دينار، لقاء كذبه وزوره، وقد وافقتهم على الاشتراك معهم، ولكنِّى رأيت آخِراً أن هذه الوشاية قد تحدث فتنة، وقد تدفع الناس إلى التحدّث عمّا يسمونه: دسائس القصر، فأسرعت إليك يا مولاتى لأعيدها إلى الرمس الذى نُبشت منه، ولأقتلها فى مهدها.

شمِل الصمت والذهول جميع مَن حضر، وأحسّ عمارة أن هاتفاً يهمس فى أذنه: لقد نجوت. واصفرّ ابن دخان وارتعدت أوصاله، وصاحت الأميرة فى غيظ وحنق: وما برهانك يا مجاهد؟!

ـ برهانى: أنك تجدين فى خزانة ديوان الرواتب أربع صرر، بكلٍّ واحدة منها مائة دينار، وقد كتب على كلّ صرّة اسم واحد منا، لأننا لعلمنا بمخاتلة ابن دخان ومخادعته، خفنا أن يماطلنا فى نقد المال بعد إتمام الدسيسة، فحتّمنا أن يكتب بيده اسم كل واحد منا على صرّته.

فاتّجهت الأميرة إلى مؤتمن الخلافة وقالت: اذهب مع هذا الرجل (وأشارتْ إلى ابن دخان) وأحضر الصرر إن وجدتها.

فذهبا وابن دخان يجرّ ساقيه، ثم عادا ومعهما الصرر الأربع وقد كتبت عليها أسماء الجند كما قال مجاهد. فقالت الأميرة: لقد انجلى الحق. وأمرتْ بأن يطرد ابن دخان من رياسة ديوان الرواتب، وأن تطرد باسمة من القصر، وأن تضرب عشرين سوطاً، وأن يضرب الآخرون خمسين سوطاً.

ثم اتّجهت إلى عمارة وقالت: أسأنا بك الظن أبا محمد، وطفقت تعتذر إليه وتستعطفه، وتشكو إليه ما حولها من الدّسائس التى تحاك فى ظلمة الليل وظلمة النفوس. فتقدّم عمارة يقبّل يديها وقدميها وهو يبكى ويقول: واللهً يا مولاتى لو وسوس إلىَّ فؤادى مرَّة

أن أمس شعرة لفاطميّ أو فاطمية، لخلعت فؤادي من صدري. فمسَّت كتفه بلطف وقالت: أعود إلى ما كنت لك.. وتعود إلى ما كنت لى... وننسى هذه العاصفة الكاذبة التى كانت سبباً فى توثُّق ودادنا.

- ٩ -

مرت شهور وأيام، مات فى أثنائها الخليفة الفائز، فقد أصابته حُمّى لم تمهله أياماً حتَّى قضى. وما كادت سيدة القصور تمسح أول دمعة عليه، حتى أشارت بتولية عبد الله ابن أخيها يوسف، لأنه كان صغير السن، وفى ذلك تمكين لسلطتها فى الدولة.

فقد كان فى الحادية عشرة، فلّقبه ابن رزيك: بالخليفة العاضد بالله، وقامت له البيعة بقاعة الذهب فى يوم حافل. ووقف عمارة بين الحشد الجامع من المبايعين ينشد:

لئن قلّ صبر فالمصاب عظيم ... وإن جلّ شكر فالنّوال جَسيم
لئن عرضت للفائز الطُّهر نُقلة ... فأنت أميرَ المؤمنين مقيم
وإن سلبتنا جنّةُ الخلد قُرْبَه ... فقربك منّا جنّةٌ ونعيم

ثمّ عدَّد مآثر الفاطميّة والفاطميّين، فأجاد وحلق.

وبعد أيام ذهب عمارة للقاء سيدة القصور، فرآها فى حزن مُقْعِد مقيم، فأخذ يعزِّيها فى الفائز، ويهدِّىء من ثورة حزنها فقالت: والله ما على الفائز أبكى يا عمارة، وإنما أبكى على دولتنا. لأننى منذ تولية العاضد وأنا أشعر شعوراً غريباً لا أعرف كنهه بأنه سيكون آخر خلفائنا، وقد كنت أبيْت أن ألقبه بالعاضد، ولكنَّ هذا الأرمنىّ ابن رزيك أبى إلا هذا اللّقب... أتدرى أننى لشدّة ضيقى بهذا الأمر، ولخفاء سببه على، ذهبت إلى خزانة الكتب بالقصر، لأبحث فى الأوراق القديمة الخاصّة بدولتنا، فعثرت على ورقة كان طلب جدِّى المعزّ من قاضى مصر إذ ذاك ـ أبى طاهر محمد بن أحمد ـ أن يكتب له فيها ألقاباً يُلقب من يأتى بعده من الخلفاء، فكتب القاضى له ألقاباً كثيرة، وكان لقب العاضد آخر هذه الألقاب؟! فحزنت حينما رأيت الورقة، وعلمت السرّ فى تطيُّرى.. إنّ روح الإنسان يا عمارة تلتقط الغيْب أحياناً، وكثيراً ما يسرّ الإنسان بغير سبب ظاهر، فتفد عليه أسباب السّرور، وكثيراً ما يحزن كذلك، فيلتقى بما يحزنه فى الطريق... قاتل الله هذا الإنسان!!... لقد وضعه الله فى برزخ من الآلام: فلا هو من البهائم فيعيش فى ظلام

الجهل هانئاً، ولا هو من الملائكة فيعيش فى صفاء من النور سعيداً.

ـ هذه أوهام يا مولاتى. وإن الخلافة بك وبالمخلصين من انصارك فى حصن حصين.

ـ أرجو أن يكون الأمر كما تقول!! آه!! ليتنى كنت رجلاً!! . . . إن القدَر أحياناً يضع نفوساً فى غير أجسامها، ويهَب السَّيف لغير حامله. . . علمت أن ابن رزيك فى هذه الأيام يتبجَّح بالعظمة، ويُكثر من الأعوان، ويلوى لحيته إلى أنفه ليشمَّ رائحة الخلافة. وخير له أن يرعوى ويزدجر، فإن دمالج سيِّدة القصور أقوى من رماحه وسيوفه. وإن سيدة القصور لا تحارب بالرجال، وإنما تحارب بجيش من الآراء، يأخذ أعداءها بغتة وهم لا يشعرون. . آه!! أريد أن أكون رجلاً، لأبرز لهؤلاء القوم من وراء السِّتار. . . ثم تضحك وتقول: ما هذا الجنون الذى أصابنى؟! وهل أجد رجلاً كابن رزيك بين رجال دولتى؟!. . إنه الملك الصالح!! . . إنه أبو الغارات!! . . إنه ناصر الفاطميَّة بيده ولسانه وجنده!! . . حقاً إن النساء ناقصات عقل ناقصات دين، ولأمر مَّا حُرمت المرأة النبوة والإمامة والقضاء.

أمَّا عمارة: فإنه يتحيَّر فى أسباب اضطرابها وتناقضها، وتلويحها باسم ابن رزيك مرة بالسخط، ومرَّة بالرِّضاء، فيستأذن وينصرف.

ثم يأتى شهر رمضان سنة ستّ وخمسين وخمسمائة، فتحتفل القاهرة باستقباله، وتظهر المدينة بالليل كأنها شعلة من نور، لكثرة ما يسرج فيها من المصابيح التى تعلق فوق المآذن والدّور والحوانيت، وفى كلّ مكان. ونشاهد فى القصر حركة غريبة، ونجد سيدة القصور فى شغل شاغل، ونرى اجتماعات كثيرة تقام فى سراديب القصر، تحضرها الأميرة ومؤتمن الخلافة، وابن قِوام الدولة صاحب الباب، والأستاذ المحنّك عنبر الرِبْعىّ. وفى أحد هذه الاجتماعات أخذت الأميرة تعدّد سيئات ابن رزيك، وتذكر مطامعه فى الدَّولة، وتهوِّل فيما أصاب الخلافة من الضعف فى أيامه، وأنه يضعفها قصداً ليلتهمها. فقال مؤتمن الخلافة: إن الخلافة ضاعت هيبتها منذ أن سيطر عليها بدر الجمالى الأرمنىّ فى أيام المستنصر. وقد زاد ضعفها بهذا الأرمنى الجديد المتبجِّح، الذى يلقِّب نفسه بالملك الصالح. وقال ابن قِوام الدولة: إن مظالمه عمت مصر جميعها، حتَّى أصبح المصريُّون يتمنّون موته. فقالت سيِّدة القصور: وكيف نستريح من شرّه؟؟

- إنه يزور القصر فى كل ليلة بعد العشاء الآخرة، وهو يدخل من باب العبيد إلى الدهليز الموصل إلى قاعة الفضة، حيث يجلس الخليفة فى رمضان. وإنى سأخلى الدهليز ليلة غدٍ من المارة قرب وصوله، ثم إن بالدهليز خزانة يمكن الأجناد أن يختفوا بها مع رئيسهم ابن الراعى، فإذا مرّ ابن رزيك شغلتُه ببعض الحديث، وأصابتنى نوبة سعال يسمعها الجند فى الخزانة، فينقضُّون عليه بسيوفهم.

فقال عنبر الرَّبعىّ: هذا حسن... ولكن أترَوْن أنَّ أتباعه وجنوده لا يثورون إذا علموا بقتله؟!

فقال مؤتمن الخلافة: دع هذا لى. فإن عندى من جنود السُّودان عدداً يحيل نهار القاهرة ليلاً.

وقالت سيدة القصور: إن من السَّهل أن ندَّعى أننا لا نعرف مَنْ قتله، ويجب لأجل ذلك ألاّ يكون الجنود من السُّود، كما يجب ان يغيِّروا أزياءهم، وأن يلبَسوا ثياب عامَّة المصريين.

فقالوا جميعاً: نِعْمَ الرأى يا مولاتى. وسيطهر أديم مصر من ابن رزيك غداً. ثم نهضوا للقيام، وكرَّرت الأميرة وصيَّتها بالكتمان والتَّدبّر، وإحكام المؤامرة.

وفى الليلة الخامسة من رمضان، جاء طلائع على عادته يصحبه ابنه مجد الإسلام، ودخل من باب القصر، ونُفِّذت المؤامرة كما صوَّرها ابن قِوام الدولة، لم يُخرم منها حرف، وهجم جندىٌّ على مجد الإسلام بسيفه فشطر عضده، ثم وثب ابن الرَّاعى على طلائع فطعنه فى نحره. ولمَّا وصل الخبر إلى سيدة القصور، أمرت الجوارى والغلمان بالولولة والصياح والاستغاثة، وأمرت الجنود بإظهار الألم، وبالجرى هنا وهناك للقبض على المجرمين، وبثّت أعوانها السِّرِّيين بالقاهرة، يُشيعون أن جماعة نقبوا سور القصر واغتالوا ابن رزيك. ثم إنها أرسلت إلى مجد الإسلام ابنه، فجاء إلى القصر، وقابلها فى حشد من الأستاذين، فلاقته باكية نادبة، وأشارت من بعيد بأن شاوَر بن مجير والى قوص، وأكبر منافس للملك الصالح، هو مدبر هذه الجريمة. ودخل عمارة وقد أذهله الحادث، وأبكته المصيبة فأنشد قصيدة طويلة فى رثائه، وكانت الأميرة تبكى بعد كلِّ بيت بكاء الثاكل، وتتلوَّى من الحزن، حتى اضطر الأستاذون إلى إسكات عمارة، وانفضّ المجلس. وبعد أيَّام اختلت الأميرة ببعض الأعوان السِّرِّيين، فأخبروها أن جنود ابن

رزيك وأنصاره يتأهبون لثورة جامحة، فدعت رجالها لمشاورتهم في الأمر، ورأت لدرء الفتنة أن يتولى مجد الإسلام رزيك مكان أبيه، ثم نظرت إلى مؤتمن الخلافة وقالت: اشغَل دائماً عدوك عنك بمحاباته، حتى يدع لك وقتاً تستأصل فيه شأفته، وليس بالثمن الغالي أن يحكم رزيك شهوراً، لكيلا يبقى رزَيكيّ بأرض مصر، ولكي يستقلَّ العاضد بأمور الخلافة غير مزاحَم ولا معارَض. إن الأمر يتطلّب زمناً طويلاً للتفكير، وشرُّ الرأي الفَطير.

- ١٠ -

خرجت «باسمة» من القصر مطرودة مجلودة، فحملها بعض الجند إلى مسكن زوجها، فمكثت به أياماً وزوجها محزون حنِق، يأنف من النظر إليها أو القرب منها. حتى إذا نقِهت أرسل إلى ابن دخان، فلما حضر قال له مجاهد: أنت أيها الشيطان سبب إغواء هذه المرأة وإفسادها، فاحمل خطيئتك على كتفيك، فليس لي بها من حاجة. خذها لا بارك اللهّ لك فيها، فإنها طالقٌ. وإن الكريم لا يشرب من إناء وَلَغتْ فيه الكلاب. فزأرت «باسمة» كما تزأر اللَّبؤة الهائجة وقالت: لقد رميتني بالإفك... وإنني واللهّ ما فرحت بزواجك، ولقد سرّني طلاقك. ولو كان الطلاق من حقِّ المرأة لكنتُ البادئة به منذ حين... عجباً للرَّجل منكم!! يلوي رأسه للمرأة كِبْراً ويقول: أنت طالق. ولو كُشف عنه الغطاء لعلم أن المرأة طلّقته قبل ذلك ألف مرّة... إن الطلاق نعمة من نعم اللهّ إذا تزوَّجت امرأة بمثلك. أما أن يأخذني ابن دخان أو لا يأخذني، فذلك ما لا شأن لك فيه، ولن أريد أن أكشف لك عن طهارتي مع ابن دخان، فإنك عندي دون من تُبسط له حجّة، أو يقدَّم إليه اعتذار... هلمَّ يا ابن دخان، خذني إلى حيث شئت.

خرجت تتعثر هي وابن دخان، فقال لها وهما في الطريق: أنا لا أريد أن أبدأ الحديث يا باسمة فإني أخشى أن أزِلّ، فأنا رجل صناعته جمع الأرقام لا تزويق الكلام، ولكنّي عبدك وطوع يمينك، أمدُّ يدي إليك مدّ الخادم يده لسيِّدته، لا مدَّ الآمل إلى أمنيته، وأين أنا منك يا باسمة؟! أنا كلب باسط ذراعيه بالوصيد ليحرس سراً سماوياً ومَلَكاً أرضياً!! فأرسلت «باسمة» ابتسامة خفيفة، اقتحمت طريقها من بين شفتيها العابستين وقالت: إن الكلاب تعَضّ أحياناً.

- أنا كلب أليف أمين يا أميرتي.

ـ ولكنى أكره نُباح الكلاب كلما رأت شخصاً غريباً.

ـ كلبك تكفيه الغمزة والإشارة، فلو رأى الدنيا كلها حولك وأشرت إليه بإصبع، لربض راضياً مغتبطاً.

ـ أنت لطيف يا إبراهيم!!

ـ أنا لطيف... لطيف جداً... وسعيد... سعيد جداً... لأننى لطيف. أعلمتِ أنّ مؤامرتنا على عمارة اليمنىّ نجحت؟!

ـ نجحت!! إنّ جسمى لا يزال يلتهب من السّياط!!... فكّر كما يفكّر الناس يا إبراهيم لا كما يفكّر الكلاب.

ـ إن كنتُ كاذباً فلا أبقى اللهّ لى رأساً ولا ذنباً... لقد نجحت المؤامرة. أليس من أكبر آثارها أنّى أتحدّثُ الآن إليك، وأن آمالى التى طفِقتُ أكتمها فى صدرى سنين طوالاً أخذت تطلّ برؤوسها؟! هلمّ إلى منزلى لنفكّر فى شئون الزواج.

ـ قبل أن تفكر فى هذا يجب أن أتحدّث معك طويلاً... دخلا منزل ابن دخان، حتّى إذا استقرّا فى حجرة مطلّة على الخليج، التفتت «باسمة» إليه وقالت: أرأيت كيف كان جزاء خدمة هؤلاء الفاطميين؟! انظر كيف بعنا أنفسنا لهم وكيف عادينا الناس لأجلهم، وكيف تجسّسنا، وكيف وقفنا خلف الأبواب نسترق الأحاديث، وكيف عرّضنا أنفسنا للسّمّ والقتل من أعدائهم؟! ثم انظر ماذا كان الجزاء الأوفى على هذه الخِدَم؟!... كان أن نطرد ونجلد! سُحقاً لهم ولدولتهم!! واللهّ لأنتقمنّ منهم.

ـ أنا طوع أمرك، فانظرى ماذا تأمرين.

ـ ثم هذه الصيلفة المنتفخة سيدة القصور، التى تدّعى حكمة سليمان ومكر هامان، وأنّ فيها أسرار المعزّ وسطوة الحاكم، والتى لا تعيش إلاّ لنصب الأشراك ودسّ الدسائس. هؤلاء الفاطميون قتلونى بغرورهم وجنونهم، كأن اللهّ لم ينشىء الكون إلاّ لهم، ولم يخلق الفضائل إلاّ انتظاراً لقدومهم... احتفالات ومهرجانات، وأعياد، وطبل وزمر: هذه هى دولتهم، وهذه هى ألاعيبهم التى يُلهون بها العامّة، ويشغَلونهم عما يحيق بهم من الظلم والعسف واغتصاب الأموال. وإلاّ فمن أين هذه الجواهر المكدّسة فى القصر، وهذه الكُومات من الذهب والفضّة؟؟... ولقد بالغوا فى المظاهر إلى حدّ البَلَهِ،

حتى لقد كدت والله أفضح نفسى، وقد ملكنى الضّحك حين أخذنا نُلبس الخليفة الفائز شعار الخلافة . . . تصوّر غلاماً فى الخامسة يلبَس عمامة أبيه، وجبّته وطيلسانه!! . . لقد ملأنا الغمامة قطناً، حتى إذا وضعناها على رأسه، مال عنق المسكين ولم يُطق لها حملاً، فحملها أستاذ لتنوب يده عن رأس سيِّده. أمَّا الجبَّة: فقد غرق البائس فيها، واختفى بين حليتها وذهبها. لا . . . لا . . . إن دولة الباطل ساعة، وأرجو أن تكون قد دنت نهاية هذه الساعة.

- لقد صوّرتِ ما فى نفسى يا باسمة، فقد أصابنا من الفاطميّة ومن سيدة القصور - بعد طول الخدمة وإخلاص النُّصح - ما لم يُصبْ أحداً. ولكنَّ الوقت لم يحِنْ بعد لتسديد السهم.

- هل رأيت زين الدين بن نجا؟

- لم أره منذ حين، وأظنه فرَّ من مصر بعد أن زَيَّنَ الدِّينَ بمؤامرته على عمارة.

ثم مضت فترة من الزمن بَنَى فيها ابن دخان بباسمة، ومضت فترة أخرى مات فيها الفائز، وقتل طلائع بن رزيك، وتولى ابنه مجد الإسلام. وهنا تيقّظ نائم الأحقاد بصدر «باسمة» فقالت لزوجها: أصدَّقتَ تلك الأكذوبة التى تشيعها العامة؟؟ وهى أنّ أنصار شاور بن مجير نقبوا جدار القصر وقتلوا طلائع؟!

- هذا كلام يقال لغيرى وغيرك، على الرغم من بكاء سيدة القصور عليه وطول عويلها. لأنها كما تقول العامّة «تقتل القتيل وتمشى فى جنازته».

- هذا لا شكّ فيه، وما أظنّ أنّ رزيك بن طلائع صدَّقها، ولكنه جبان جشِع، اكتفى بمكان أبيه من الوزارة ثمناً لرأسه، وسيبقى ألعوبة فى يد سيدة القصور ورجال القصر، لأنه خائر العزم ضعيف النفس، ليس فيه صفة من صفات أبيه، التى كبحت جماح الأميرة وكسرت شوكتها وألزمتها حدّها، وستتركه سيدة القصور قليلاً، حتى تحين الفرصة لاغتياله واغتيال أهله وأنصاره، وحينئذ تستقلّ بالملك والخلافة، وتُعيد - كما كرِّرت على سمعى كثيراً - أيام الحاكم بأمر الله.

- إنِّى أنظر بعينى، فلا أرى بين كبار قوَّادنا من يستطيع ان يكون نِدّاً لهذه المرأة الجبَّارة، فقد قتل طلائع بن رزيك جميع منافسيه ليخلوَ له الجوّ، وكأنما قتلهم ليخليه لها!!

ـ نعم قتلهم جميعاً إلا واحداً، هو شاوَر بن مجير والـي قوص، وقد كنت صديقة له في القصر، أو كما كان يسمِّيني وكيلته، أو كما كان يقول الناس جاسوسة له، وشاور رجلٌ شجاعٌ قاسٍ، طمّاح كثير الأتباع والأنصار، فلماذا لا ندفعه إلى اهتبال الفُرصة، والقدوم بجيشه إلى القاهرة لاستئصال أبناء رزيك، وقتل الخليفة وسيدة القصور، والجلوس على عرش الخلافة؟!

ـ يا حبَّذا لو صحَّت الأحلام!! إذاً سيكون لك ولي المقام الأول في القصر.

استمرَّت هذه الفكرة تدور في رأسيهما أياماً، حتى إذا اختمرت غادرا دارهما بالقاهرة، وخرجا إلى الفُسطاط مع بعض الخدم، واستأجرا سفينة إلى قوص.

صعِدت السَّفينة وكان الوقت خريفاً، والجو إلى البرودة أميل. وكانوا كلما وصلوا إلى قرية أو مدينة رست السفينة، وخرج الخدم فابتاعوا ما يريدون من طعام، وشراب، وفاكهة. وعاش ابن دخان وباسمة في السفينة شهراً أو بعض شهر، في أنس ونعيم وطرب، حتى لقد قال لها ابن دخان يوماً، وقد رأى الشمس غاربة، وقد نفذت أشعتها إلى سحب خفيفة حولها، فأرسلت ألواناً يحار الّلغويّ في تسميتها، والرَّسَّام في تكوينها، ثم رآها تسقط رويداً بين النخيل المتكاثفة، فتظهر من خلالها صافية برَّاقة، كأنها سبيكة من نضار ـ : يا باسمتي. . . حرام أن نقضي حياتنا في هذا الّلغو، وأن نَعْمَى عن التَّمتع بجمال الكون وبهجة الحياة. إنّ عندي من الأموال ما يكفُل لنا العيش الناعم المترَف، فلماذا نكدر هذا العيش بالغمِّ والحزن والكيد لفلان، والحقد على فلان؟! انظري إلى الشمس!!

ـ إنّك أبله!!

ـ صدقتِ يا حبيبتي!! إنني أُصاب بالبَلَه عند كلِّ مغيب شمس.

فابتسمت «باسمة» وقالت: لو وقف جوهر القائد وقْفتك هذه، وتغزّل في الشمس وجمالها كما تتغزَّل، لتفرَّقت جيوشه وما فتح مصر. وإني لم أقرأ في التاريخ عن أمير أديب أو شاعر، إلاَّ جاءته نكبته من أدبه، وإغراقه في حبِّ الجمال. إنّ الله خلق في الإنسان وجداناً وفكراً وإرادة، ولكي يكون الإنسان كاملاً، يجب أن تتوازن فيه هذه وتتعادل، لأن من يتحكم فيه وجدانه كان عبْد شهواته. ومن يتحكّم فيه فكره بقي حزيناً عاجزاً، أما من تتحكم فيه إرادته فمجنون معربد. . . أفهمت يا زوجي المفتون بالجمال؟!

ـ فهمت درساً يعجز عنه كل الشيوخ الذين يدرسون بدار الحكمة .

وصلت السفينة إلى قوص ، وذهبت «باسمة» وابن دخان قاصدين قصر شاور . فما إن دخلا وأخبرت «باسمة» الخدم باسمها ، حتى أرسل إليهما شاور ، وبذل فى تحيتهما وإكرامهما خير ما يبذل العربى الكريم ، ثم سأل «باسمة» عن القاهرة وأحوالها ، وعن مجد الإسلام رزيك ووزارته ، فأجابته بعبارات مبهمة . وكان يظهر على شاور الغيظ من رزيك والألم من بعده عن تقلّب الأمور بالقاهرة ، حتى لكأنه أسد شرس حبيس . وبعد أيام اختلى شاور بباسمة وابن دخان طويلاً ، فقال شاور لباسمة : كنت أظنك لا تزالين بالقصر ! !

ـ سئمت يا سيدى مكايد الفاطميين ودسائسهم ، واستبداد سيِّدة القصور بأمور الدَّولة . وسئمت تحكُّم الأستاذين والجنود السُّودان فى أشراف العرب .

ـ وبم تشيرين علىَّ الآن؟؟

ـ إن رزيك الآن أضعف من ثُمَامةٍ ، وهو لُعبة فى يد سيِّدة القصور . فإذا لم تقتنص الفرصة لدخول القاهرة ، والجلوس على عرش الخلافة ، ضاعت منك إلى الأبد .

ـ أعتقد أنَّ العامّة يحبّون الفاطميين ويحبون أموالهم حباً جماً . وأنهم يدافعون بأرواحهم عن خلافتهم .

ـ إذا نثرت أموالك على جيوشهم ، ألقوا السلاح ليلتقطوا الدراهم . .

ـ ثم هناك الجنود السود ، وهؤلاء وحوش ، إذا سمعوا قعقعة سلاح طارت رؤوسهم ، وقذفوا بأنفسهم كالفراش المتهافت على النَّار . . لا يا باسمة ، إن الأمر ليس بهيِّن ، وإن الوقت لم يحن بعد لهدم الخلافة الفاطميَّة ، ورأيى : أن نصل إلى الغاية فى مرحلتين لا فى مرحلة واحدة : نهجُم على القاهرة أولاً مدَّعين أننا جئنا لنصرة الخلافة واستنقاذها من أيدى الأجانب ، حتى إذا قضينا على آل رزيك وأنصارهم واسترحنا قليلاً ، اختلقنا أسباباً لاستئصال الخلافة ، بعد أن نكون قد أعددنا العُدة .

ـ لا يا سيدى . إن سيدة القصور لن تتركك تستريح ، والثعبان إذا قطع ذنبه زادت ضراوته .

ـ إن نصف التَّوفيق توفيق .

ـ ونصف الكمال نقص .

ـ وما تقولين في أنّ ثلاثة أرباع جيشي الذي سأدخل به القاهـرة، فاطمـيّ النزعـة والعقيدة!! وأنني لا أستطيع بحـال أن أوجّهـه إلـى هدم الخلافـة، ولـو أشـرتُ إليه ما أطاعني. دَعِي لي تدبير هذا الأمر يا باسمة، وستَرَيْنَ أننا بعد شهر أو شهرين من استقرارنا بالقاهرة، سينادَى بخلافتنا. وستؤخذ لنا البيعة في القصر الكبير، وستكونين سيّدة وصائف القصر.

ـ ليكن ما تريد يا سيدي. . ومتى يزحف الجيش من هنا؟

ـ بعد خمسة أيام.

ـ ١١ ـ

زحف شاوَر بجيشه إلى القاهرة ومعه ابناه: «طيّ» و«شجاع». وكان الجيش لُهاماً خِضَمّاً، خطب فيه شاور خطبة ضافية مثيرة، ودعاه إلى إنقاذ الخلافة الفاطمية من أيدي الأرمن الغاصبين، وبعد فترة طويلة أشرف على أرباض القاهرة.

علمت سيدة القصور بتحرك جيش شاور من قوص، ونقل إليها أصحاب الأخبـار مقدار قوته وعدد رجاله، فلم تحرك ساكناً، لأنها رأت أن في اختلاف اللصـوص نجـاة القافلة، ورأت في شاور أنه على الرغم من جفوتـه، ويبس أخلاقـه، وشرهـه في حب المال ـ لا يزال عربياً. وعرضت الأمر على عمارة ـ وكان محباً لرزيك، صديقاً لشاور ـ فروّى في الحكم، وغمَّ عليه وجه الصَّواب. فقالت له سيدة القصور: إني لا أوثر أحدهما على صاحبه، فكلاهما غاصب للدَّولة معتدٍ على سلطتها، وأرى أن في معاضدة أحدهما زوالاً للخلافة، وأن الأمر لا يخلو من إحدى اثنتين: إمَّا أن ينتصر من ساعدناه بجيوشنا، وإما أن ينهزم. فإن انتصر، فلن يصل إلى النصر إلا بعد أن تكون جيوش القصر قد ضعفت وقلَّ عددها، وحينئذ نراه بعد أيام قد انقلبَ علينا واستلب عرشنا، لما يعلم من عجزنا عن مقاومته. وإما أن ينهزم وينتصر خصمه، وتلك الكارثة العظمى، لأن الخصم المنتصر لا يكتفي بهزيمة عدوه بل يدفعه الانتقام إلى استلاب ملك مناصريه. لا يا عمارة. . يجب أن نقف من هذين الخصمين وقفة المشاهد، ولا نميل بجانب إلى واحد منهما، وأن نقول كما يقول العرب: الكِلاَبَ على البقر!! فاقتنع عمارة. وما هي إلا أيام حتى دخل شاور القاهرة، وفرَّ رزيك إلى إطفيح، وتمكّن منه شاور وقتله، ثم أعمل سيفه في آل رزيك واستولى على أموالهم. ودخل على سيدة القصور فقابلته بخير ما يُقابل به الفاتح العظيم، ونثرت فوقه ألقاب الشرف والبطولة

ودعت عمارة إلى مدحه، وولاّه الخليفة العاضد شئون الوزارة، واجتمع حفل عظيم بقاعة الذهب عند توليته أنشد فيه عمارة قصيدة رائعة.

استمر شاور فى الوزارة، وكان جشعاً خبيثاً سفاكاً للدماء، فأغضب العامة والخاصة، وطالما نصحت له «ياسمة» - التى أصبحت ولها أكبر مكانة فى قصره - بالرفق وصرف الناس عن التعلق بالخلافة بما يبذل من مال، وما ينشر من عدل، ولكنه لم يُلق لها سمعاً، لأنه كان بطبعه جافاً شرِّيراً سيىء التدبير. وكان أخوه «نجم» مسيطراً عليه، فزاد حكمَه فساداً على فساد.

ضجَّ أهل القاهرة من ظلم شاور وعسفه، فاجتمعت جموعهم، وتلاقت حشودهم عند باب زَويلة، وكان زعيم الجمع ورئيسه الشيخ عبد الحكم الغفَّارى المدرس بجامع الحاكم، وكان جهير الصوت قوىّ التأثير، فأخذ يرسل فيهم صوته بمخازى شاور، وإرهاقه الأمة بأنواع العسف والقوة الجائرة، حتى هاج كوامن أحقادهم، ثم دعاهم إلى السير إلى القصر الكبير، فساروا كالبحر المائج، وكان صياحهم: يا شاور ظلمت!!... يا شاور طغيت!!... الله الله فينا!!.... بالخليفة نستنجد!! وكانت النساء تطلّ من النوافذ يحيين الجموع بالأغاريد والدعاء. ولما قربوا من القصر، أمرت سيدة القصور عمارة أن يخرج إليهم ويهدّئهم ويكلمهم كلاماً عائماً، ويعدهم ويمّنيهم. وقد تمّ كل هذا، وأظهر عمارة براعة فى اجتذاب الجموع إليه، وفى تسكين غيظهم من غير أن تندّ منه كلمة تغضب صاحب الحكم أو تغضب الثائرين، وما زال بهم حتى تفرّقوا مطمئنين مغتبطين.

وبعد يومين عقدت سيدة القصور مجلساً بالقصر، حضره الأستاذون، ومؤتمن الخلافة، وضرغام بن عامر اللّخمىّ، صاحب الباب، ورئيس الجنود البرقية، وتداول من بالمجلس فيما صارت إليه الأمور فى عهد شاور من الفساد والعفن، ورأوا أنه لا بد من استئصال شأفته، وتطهير البلاد من شره.

وكان ضرغام فارس عصره، شجاعاً جميل الطلعة، أديباً شاعراً. فوقف وقال:

- يا سيدتى إن لدىّ من الجنود البرقية عشرة آلاف، وهى تكفى لمحو هذا الطاغية ومحو عصابته فقالت سيدة القصور: إنى لا أقنع إلا برأس شاور.

خرج ضرغام وقضى أياماً في إعداد جيشه في الخفاء، حتى إذا تمّت أهبته، وثب فجاءة على شاور. فجمع شاور جيشه، ولكنه لم يستطع الوقوف أمام ضرغام، بعد أن ناصره أهل القاهرة، وجمع له الشيخ عبد الحكم جموعاً من أحياء العطوف، وبرجوان، والفرحية، والريحانية. فهُزم شاور، وقَتل ضرغامُ ابنه طيا، وفر بجيشه إلى الشام للاستنجاد بنور الدين محمود بن زنكي.

وعاد ضرغام إلى القاهرة فائزاً تدق أمامه الطبول، وترفع له الرايات، ووصل إلى القصر وقابلته الأميرة مرحِّبة مهنئة، وولاه الخليفة الوزارة.

وكان ابن دخان في ذلك الوقت في داره فالتفت إلى باسمة وقال: لقد أكثرتِ من نصح شاور يا باسمة، ولكنه لم يسمع!!

ـ ما دام شاور حياً فلن أفقد أملاً... إنه صِلٌّ مخادع يعرف متى يدخل جحره ومتى يخرج منه. ويجب علينا أيضاً أن ندخل جحرنا الآن حتى تزول هذه العاصفة.

ـ أتظنين أن لشاور عودة؟؟

ـ إنه لمّا حزبه الأمر، وضايقه جيش ضرغام، دعاني فنصحت له بما يعمل. وقد استجاب لنصحى في هذه المرّة.

ـ حسناً... هلمَّ ندخل جحرنا الآن لنعيش سعيدين متعانقين، فقد شغلتك المؤامرات عني.

- ١٢ -

ترك شاور بعد هزيمته جيشه بالفرما، واتّجه مع أخيه نجم، وابنه شجاع، وبعض خاصته إلى دمشق، فدخلها في أصيل يوم من أيام الصيف، ورأى جنرد ابن زنكي منتشرين بخيامهم وأثقالهم وخيولهم في أرباضها، ولهم ضجيج وعجيج وحركة. وما زال يسأل عن خيمة العادل محمود نور الدين حتى بلغها، وكانت في غوطة دمشق بين أشجار الفاكهة والرياحين. فنزل شاور ومن معه بخيمة الحاشية، وطلب من حاجب نور الدين أن يُعلمه بقدومه، فجاء الإذن بعد ساعة.

ودخل شاور فرأى نور الدين جالساً القرفصاء في صدر الخيمة، وفي يده سُبْحة

تتحرك حبّاتها بحركات لسانه، وقد جلس إلى يمينه العلماء والفقهاء والمحدِّثون، وإلى يساره القواد وكبار الجند. وكان نور الدين طويل القامة، أسمر اللون وسيم الطلعة. فأدّى شاور التحية فحيّاه العادل ورحّب بمقدَمه، وأخذ العلماء يتناقشون فى تفسير آيات فى الجهاد، ونور الدين يشاركهم بعض المشاركة، حتى عجب شاور وكاد يظن أنه فى صومعة زاهد لا فى عرين قائد. حتى إذا انفضّ المجلس؛ التفت نور الدين إلى شاور وقال: كيف حال مصر؟؟

- مصر يا مولاى فى اضطراب مستمر، وأخشى أن ينتهز الإفرنج فرصة ضعفها فينقضّوا عليها من الساحل، فإن ضرغاماً اللّخمىّ - وهو نصير الفاطميين وعدو أهل السُّنة - غدر بى وأخذنى على غِرّة، ففزعت إليك. وقد علمت من أيام وأنا فى الطريق: أنه يراسل الإفرنج ليُمدُّوه بجيش يستعين به على محاربة كل من تحدِّثه نفسه بإنقاذ مصر.

- لا حول ولا قوّة إلاّ باللهّ!! «يأيها الذين آمنوا لا تتَّخذوا بطانةً من دونكم، لا يألونكم خَبالاً». صدق اللهّ العظيم.

- ثم إن الخليفة العاضد ضعيف الرأى، مهزول العزيمة، وعمَّته سيدة القصور تسيطر على الدَّولة، وهى حقود مستأثرة، تنظر إلى انتصارات مولاى هنا على الإفرنج بعين البغض والضغينة، وكأن الإفرنج أبناء عمومتها. أما العقيدة الفاطمية التى أكرهت عليها العامة إكراهاً، فسيدى أعلم بدخائلها وبدَعِها، وإذا كان مولاى العادل قد وقف حياته على الجهاد فى سبيل اللهّ، ومحاربة أهل الزّيغ، فمصر تدعوه لإنقاذها من الظلم والإلحاد، ومصر تدعوه لحمايتها من غزو الإفرنج، الذى أصبح منها قاب قوسين.

- ولكنى فى شغل شاغل بمحاربة الإفرنج، ولو أرسلت معك جيشاً إلى مصر لوثب علينا الإفرنج هنا واستعادوا ما استنقذناه من أيديهم من البلاد. لا يا ابن مجير.. كل إنسان أولى بمداواة جراحه.

- إنى لا أطلب إلا جيشاً صغير العدد، ينضم إلى جيشى المرابط فى مدينة الفرما.

- ولا هذا يا ابن مجير. فقد جئت فى وقت توالت فيه الأمداد على أصحاب الصُّليب وقويت شوكتهم.

- ما كنت أحسب قبلك يا سيدى أن إنساناً يرفض ملك مصر!! لأكنْ معك

صريحاً . . . أتحب أن أكون نائباً عنك في حكم مصر، وأن أبعث إليك بخراجها في كل سنة، وأن يخطب الخطباء باسمك فوق كل منبر؟؟

فحملق نور الدين في وجه شاور، ولكنه رأى وجهاً سمحاً متواضعاً، ليس فيه أثر للكذب ولا للخديعة. فأطرق وقال: يكون خير إن شاء الله!! وفي الصباح دعا نور الدين أسدَ الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين، وأخبرهما بما كان من أمر شاور، وأمرهما بتجهيز جيش للذهاب إلى مصر بعد أربعة أيام. وقد حاول صلاح الدين أن يدعو نور الدين إلى التريّث في الأمر، حتى يظهر صدق شاور، أو إلى أن يطلب من شاور ودائع ثمينة لتكون ضماناً لصدقه. ولكن هيبة ابن زنكي والرهبة منه؛ حبستا لسانه فلم يستطع تكلماً.

سافر الجيش الشّاميّ مع شاور وعلى رأسه أسد الدين، وصلاح الدين، والتقى عند الفرما بجيش مصر، ووثب الجيشان على القاهرة، وجمع ضرغام جموعه ووثب في مقدمة جيشه على جيش شاور. فطالت الحرب بينهما، ودمّر كل منهما كثيراً من مباني المدينة، وأحرق كثيراً من قصورها، وظفِر شاور في النهاية بضرغام فقتله، وشتت جموعه، واستولى على القاهرة.

وقبل أن يدخلها اختلى بأسد الدين وصلاح الدين، وقال لهما: إن من الخير لكما ألا تدخلا القاهرة الآن، لأن القاهريين إذا رأوا جنود الشام ظنوهم غزاة فاتحين، فجمعوا لهم وقتلوهم، وليس لكم من كثرة العدد ما يمكّنكم من المقاومة. والرأى عندى أن تعودا إلى دمشق، وأن تحملا إلى مولاى الملك العادل كريم تحياتي وجزيل شكرى. فقال صلاح الدين:

ـ إن هذا يخالف ما اتفقتَ مع الملك العادل عليه.

ـ هو نفس ما اتفقت عليه معه يا قائدى الصّغير. . . لم تتعدّ المسألة أن تكون مجاملة بين أميرين. . . لقد استنجدت بالعادل ليساعدنى على إطفاء ثورة في مصر فساعدنى، وهذا يحصل بين الملوك كل يوم. فقال أسد الدين: ألم تتعهّد بأن يكون له ملك مصر، وأن تكون نائبه عليها؟؟ فابتسم شاور ابتسامة دهاء وسخرية وقال: ملك مصر الذى باهى به فرعون ملوك الدنيا، يمنح في مقابل خمسة آلاف جندى يسيرون من دمشق إلى باب الفتوح؟! لا يا سيدى. . . إن مصر أغلى من ذلك جداً. . . لم يحصل اتفاق على شيء من هذا. وحينئذ ظهر الغضب على وجه صلاح الدين وقال: إننا سنعسكر في «بلبيس» وسننتظر

أوامر مولانا نور الدين، وربما التقينا قريباً يا شاور، ولذلك نرجىء تحية الوداع إلى تحية القدوم!!

دخل شاور القاهرة فاتحاً منصوراً، ولكن القاهرة لم تستقبله استقبال الفاتح المنصور. وللقاهريين غريزة صادقة في الحكم على الرجال ومقابلة الحوادث.

وأرسلت سيدة القصور تحياتها للقائد العظيم، فمثل شاور بين يديها، وشكت إليه ما لاقت مصر أيام ضرغام من الظلم والعسف والاضطراب، وخلع عليه الخليفة العاضد خلعة النصر، وقلّده سيفاً أثرياً كان لجوهر الصقليّ فاتح مصر. ثم ذهب إلى داره فقابلته «باسمة» وابنه شجاع واحتفيا به فقال شجاع: أين أسد الدين وصلاح الدين؟ فقال شاور: أرسلت بهما إلى الجحيم.

- أين هما حقاً؟؟

- رَجَعَا إلى الشام. فقالت باسمة: يا للعار! أيطرد العربي أضيافه عند باب داره؟! فظهر الغضب على وجه شاور وقال: نعم يا حاتمتي الرعناء، يفعل العربي ذلك إذا رأى أن أضيافه سينقلبون لصوصاً. وقال شجاع: هذا خطأ يا أبي. قد كان يجب، وقد تعجّلت في تعهّدك لنور الدين، أن تكرم قوّاده، وتزوّدهم بالهدايا والأموال، وتعدهم وتمّنيهم، ثم تتخلص من عهودك في لطف لا يحسّ. أما الآن، فأخشى أن يعود إليك القائدان بجيوش لا قِبَل لك بها، فلا نكون قد ضحنا وحدنا، بل ضيّعنا مصر معنا. فقال شاور: إن هذه أوهام يا فتى... فإنّ الإفرنج بالشام لم يتركوا لنور الدين لحظة يفكر فيها في فتح مصر.

وتركهم شاور غاضباً، ودخل حجرة، فرأى أخاه نجماً، فنفض إليه الأمر كله. فقال له نجم -وكان ألأم من شاور وأشد خبثاً-: عملت كل ما يجب أن يعمل، ولو أن هؤلاء الجنود وضعوا أقدامهم في القاهرة، ما استطاعت قوة أن تخرجهم منها.

- ولكن ماذا نعمل يا نجم إذا بعث القائدان رسولاً من بلبيس إلى نور الدين، وبالغا في الشكوى مني ومما قد يسمّيانه خيانتي، فأرسل إليهما جيشاً جرّاراً لا نستطيع له دفعاً؟؟

- هذا صحيح يا شاور... وإن له عندي دواء، ولكنه قد يكون مُراً!!

- ما هو؟؟

- أن نرسل في الخفاء رسولاً إلى القائد مرّي ملك الإفرنج بساحل الشام، لنطلب منه

أن يزحف بجيوشه على مصر لطرد الغُزّ من بلبيس، وأن نغريه بقدر كبير من المال. . . هذا هو الدواء. . . . وهو مرّ حتماً، ولكن ألا تظنّه قاتلاً؟؟

ـ لا. . . إن الإفرنج نستطيع أن نخدعهم. أما هؤلاء الغزُّ: فلا. . . أين ثعلبة الشّماخ؟؟ فدخل فتى قصير القامة، متين العضل تدلّ ملامحه على الشراسة والقسوة. فكتب شاور رسالة طويلة وسلّمها إليه وقال: تسير الليلة مبالغاً في الاختفاء، ولن تستريح حتى تصل إلى عسقلان، فتقدم هذه الرسالة إلى الملك مرّى. ثم نزع خاتمه وقال: وهذا علامة صدقك إن شك الملك في رسالتك. . . خذ أسرعَ خيلي، وعد إليّ بعد عشرة أيام.

وذهب الرسول، وقدم الإفرنج إلى مصر في جيش لهُام، ووثبوا على أسد الدين ببلبيس فصالحهم بمال، وعاد أدراجه إلى دمشق. ولكنهم لم يقفوا عند بلبيس، بل أخذوا طريقهم إلى القاهرة، ودخلها قائدهم بقسم من جيشه، فأكرم شاور وفادتهم، وأعدّ لهم منازل وأسواقاً، وقرر لهم مائة ألف دينار في السنة. فأقاموا إقامة المحتلّ، وطغوا وظلموا، وعاثوا في القاهرة فساداً.

ـ ١٣ ـ

مضت أربع سنوات أو تزيد، والقاهرة في هم ناصب، وكوارث متتابعة، تقاسي من ظلم شاور وعسفه، وولعه بسفك الدماء، واغتصاب الأموال، وتقاسي من تحكُّم الإفرنج واستبدادهم بالناس، وتسلّطهم عليهم بضروب من الأذى والإرهاق.

وكانت «باسمة» حيرى مضطربة النفس. فقد كانت تريد زوال الدولة الفاطمية، ولكنها لم ترد أن تزول بمثل هذا الحكم الأرعن الأحمق، الذى وضع فيه السيف والسوط والنهب، موضع العدل والحق.

وكان شاور إذا اختلى بنفسه، تيقّظ في نفسه رسيس من ضميرَ سهزول، فهمس في أذنه: ماذا فعلت يا ابن مجير؟!. . ما هذه الدماء التي لا تزال تقطر من يديك؟!. . . لقد تثلّم سيفك من قطع الرُّؤوس وخدرت يدك من انتهاب الأموال!!. . طلبت الحكم بالقوة والخديعة فلم تهنأ به، وهزئت بالغزّ فوقعت في يد الإفرنج الذين دخلوا القاهرة ضيوفاً مناصرين، فأقاموا بها حكاماً غاصبين!

وكانت سيدة القصور وعمارة في ذهول يشبه الحمى، لما أصاب مصر والدولة

الفاطمية من نكبات على يد شاور الشرير المعتوه. كانا يريدان حماية الفاطمية من تسلط الوزراء، وكانا يريدان جمع أمورها بيد الخليفة دون غيره. فكانت المصيبة مضاعفة، لأن شاور بن مجير لم يغتصب سلطة الخليفة وحده بل قاسمه الإفرنج فيها. فوقع الشعب المسكين بين براثن قوتين من قوى الشر، تسوقانه إلى الدمار والفناء.

واحسرتاه!! . . . القاهرة المضيئة، الفرحة المرحة، التى ما كانت تنتهى لها أعياد أو مواسم ـ تصبح مظلمة، حزينة، عابسة، مرتعدة، تخشى فى الصباح ما يجىء به المساء، وتترقب مذعورة فى المساء ما يجىء به الصباح. القاهرة المعزِّية التى كانت حاضرة الإسلام، ومعقل المدنية، وأمّ القرى، وسيدة المدائن، والتى كانت جيوشها لا يفارق النصر راياتها ـ تصير نهباً مقسّماً بين الظلم والطغيان، ويصبح أهلها أذل من عَيْر ووتد!!

فجع القاهريون لهذه النوازل، وتكوّنت جماعات سياسية خفيّة، واجتمعت إحدى هذه الجماعات بمنزل عمارة اليمنى، وكان من المجتمعين: المهذّب الأسوانى، ومحمد بن قادوس، وداعى الدعاة ابن عبد القوى، وغيرهم. قال داعى الدعاة: أرأيتم كيف آلت بنا الحال وكيف أصبحت القاهرة مجزراً عاماً تذبح به الناس مرّة لشهوات شاور، وأخرى لنزوات الإفرنج؟! فقال عمارة: والمصيبة يا سيدى أن الخليفة أصبح مغلوباً على أمره، يرى مصر وهى ميراث آبائه الأمجاد تعتصر وتهتضم، ويرى الرعية تسام صنوف العذاب ثم لا يستطيع أن يعمل شيئاً. وسيدة القصور تنظر بحسرات إلى آمالها الكبار، وقد ذهبت مع الهواء، فلا تستطيع إلا أن تردد الزفرات. وقال ثالث: مررت بالأمس بسوق البزّازين، فرأيت الإفرنج وقد انتشروا فيها، وهم سكارى يغتصبون ما فى الدكاكين، ويؤذون كل من مرّ بالطريق، والناس فى كرب وذعر. ثم إن النساء فى بيوتهن يرتجفن ليل نهار خوفاً من هجمات الإفرنج عليهن. فقال داعى الدعاة: وقد سمعت أن مرّى ملك الإفرنج بساحل الشام، وصل منذ أيام إلى أرض مصر بجيش عظيم؛ به أجناس مختلفة من الإفرنج. وأنه نزل على بلبيس وحاصرها، وأخذها عَنوة، وسبى أهلها. وهو الآن قاصد إلى القاهرة، لأنه لم يكتف ببقاء بعض جنوده بها، بل طمع فى امتلاك ديار مصر كلها.

فقال المهذّب: إن الخبر وصل إلى سيدى متأخراً. فإن جيش مرّى نزل فى هذا الصباح ببركة الحبش، بالقرب من الفُسطاط ولا يخفى على سيدك أن بالفسطاط جميع

مخازن الحبوب والغلات، التى تمون القاهرة. وأن بها جميع ذخائر الحرب. فإذا استولى مرّى عليها سقطت القاهرة فى ساعات.

وفى هذه اللحظة، دخل الشيخ عبد الحكم الغفارى وهو يلهث من التعب، وقد تصبب وجهه عرقاً، وأخذ يصيح: ضعنا وضاعت مصر!! .. إنها كارثة الكوارث، وفادحة الفوادح!. هذا شاور المجوسى، أرسل بعض جنوده ينادون بالفسطاط: بأن يرحل عنها جميع سكانها، وألا يقيم فيها رجل ولا امرأة ولا طفل لأنه عزم على إحراق المدينة. وقد أرسل إليها بالأمس عشرين ألف قارورة من النِفط، وعشرة آلاف من مشاعل النار، لتنثر فى جميع أرجائها. وقد رأيت وأنا قادم إليكم ما يفتّت الأكباد: رأيت سكان الفُسطاط وقد هُرعوا إلى القاهرة، بنسائهم وأطفالهم ومرضاهم، معولين صائحين، كأنهم فى يوم الحشر الأكبر، بعد أن تركوا دورهم، ومتاجرهم، وأمتعتهم، وذخائرهم ليحرقها شاور الطاغية بالنار. يا للمصيبة!! ماذا جرى على مصر؟؟ وهل كان ذلك مكتوباً لها فى لوح القدر؟! وإذا احترقت الفُسطاط، واستشرت النار، وسرت إلى القاهرة فالتهمتها فى طرفة عين، أتجلسون هنا صامتين حتى تأخذكم الصيحة؟! أليس فى مصر رجال؟! أليس فيها عقول؟. أليس فيها من يرى رأياً فى هذه الداهية الدهياء؟!. ليس لنا ملجأ إلا القصر، وإلا الخليفة، وإلا سيدة القصور. فإذا خابت آمالنا فى هؤلاء، ذهبنا إلى دورنا، وأغلقنا أبوابها لنكون حطباً للنيران.

فدهش القوم للخبر المفجع. وكاد يعصف الحزن بقلوبهم. وصاح داعى الدعاة: هلّم إلى القصر. دخلوا القصر فى صمت وذهول، فرأوا ظلاماً مخيماً، ورأوا الأستاذين ذاهلين واجمين، يذهبون ويجيئون فى اضطراب وحيرة. فتوجهوا إلى غرفة سيدة القصور، فرأوها جالسة وعلى وجهها آثار الغم المكبوت، فأحسنت استقبالهم، ونقلوا إليها ما عندهم من أخبار السوء، فابتسمت ابتسامة اليائس وقالت: علمت كل هذا فى الصباح فلم أغادر غرفتى، وبقيت كل هذه المدة أفكر فيما يجب أن يعمل. وقد وصلت فى النهاية إلى رأى قد يكون فيه استجارة من الرمضاء بالنار، واستشفاء من الداء بالداء. ولكن تنوع البلاء خير من استمراره، والمصيبة المشكوك فيها خير من المصيبة المحققة.
فقال عمارة: على أىِّ شىء عولت يا مولاتى؟؟

ـ عوّلت على الاستنجاد بنور الدين بن زنكى. فقال داعى الدعاة: هو خير من

شاور، ومن الإفرنج على أى حال. فقال عمارة: هل نضمن بقاء المذهب الفاطمى إذا دخل مصر هذا السُّنىُّ المتعصِّب؟؟ فقال داعى الدعاة: إنه سيأتى إلى مصر ليحارب الإفرنج لا ليفتح مصر. وقالت سيدة القصور: أرجو ومهما يكن من شىء فبعض الشر أهون من بعض.. أتوافقون على الاستنصار بنور الدين.

- نوافق...

دعت سيدة القصور خادمتها «تغريد» وأمرتها بإحضار مقصّ، فلما أحضرته قصّت شعرها، وأمرت أن تُقصّ شعور جميع نساء القصر من شريفات وجوار، وأن ترسل هذه الشعور مع رسالة استغاثة واستصراخ لنور الدين. فكتب عمارة رسالة موجزة مبكية قوّية التأثير، على لسان سيدة القصور، يستثير فيها شهامة نور الدين ورجولته وإسلامه، ويدعوه إلى إنقاذ مصر وإنقاذ المسلمين. ثم سلّمت سيدة القصور الشعور والرسالة إلى أحد رجال البريد، ليستبق الريح فى الوصول إلى نور الدين.

ووقفت سيدة القصور أمام نافذتها تنظر إلى النيران مصعوقة باكية وهى تصعِّد زفرات الغيظ، والحقد، والألم... وتقول:

أيتها النيران ماذا تأكلين؟! إنك تأكلين فؤادى وتتأججين فى صدرى!! أى مسجد تهدمين محرابه وتحطمين جدرانه؟! وأيّة دار كان يضيئها الأنس ويشع فى أنحائها السرور، أصبحت بك اليوم ركاماً؟! ويْحى لما أصاب قومى وأهلى!! كانوا بالأمس فى منازل تسامق السماء وتتحلّى الجوزاء، فأصبحوا الليلة ولا مأوى لهم ولا وَزَرَ. ليت شعرى أين الليلة بناتهم المحجَّبات، وعجائزهم الضعيفات؟؟ وأين ما كان لهم من سعادة وعزٍّ ونعيم؟ أيتها النيران. التهمينى قبل أن تلتهمى رعيتى، وخذينى قبل أن تأخذى ملكى!! أنا فداء لمصر، وفداء لأهلها البررة الأطهار... ما أشدك أيتها النيران وما أقساك!! كأنك من حقد شاور اشتعلت، ومن لؤمه تأججت... أما تكفى لإطفائك دموعى وهن غِزار؟! لا... لا... لن أيأس فى حياتى... إن آمالى وآمال مصر تلتهب فيك، وهى ذهب نضار. وستزيدها النار صفاء وخلوصاً من الأوضار!!

- ١٤ -

طار البريد إلى نور الدين فحزن على مصر وبكى على أهلها وأرسل جيشاً لَجِباً يقوده

أسد الدين شيركوه، وصلاح الدين. وما كادا يلتقيان بجيش الإفرنج، حتى تراجع عن مصر عائداً أدراجه إلى الشام، ودخل أسد الدين القاهرة، فلاقته لقاء الفاتح المنقذ، وتنفّس أهلها الصُّعداء.

ودخل الجيش القاهرة وفى أخرياته شيخ يتوكّأ على عكّازة هو أبو كاظم الحرّانى أو زين الدين بن نجا، فإنه بعد أن خابت آماله فى الإيقاع بعمارة، وكشفت المؤامرة التى دبرها لفتك سيدة القصور به التجأ إلى نور الدين بدمشق وأظهر النسك والعبادة، فعينه نور الدين واعظاً لجنده، وأصبح من المقربين فى دولته، فلمّا عزم الجيش على السفر إلى مصر، تحرّك فيه ذنابى الشر وثارت فيه غريزة الأخذ بالثأر والانتقام من عمارة، وجال بخاطره أنه إذا لم يظفر به مرّة فسوف يظفر به أخرى، لذلك استأذن نور الدين فى أن يلحق بجيش مصر، فأذن له.

وبعد يوم استدعى الخليفة العاضد أسد الدين إلى القصر، وخلع عليه خلعة الوزارة، ولّقبه بالمنصور. فغضب شاور لعزله من الوزارة، والتقى بابنه شجاع وقال: ألا ترى كيف فعل الغزُّ المغتصبون.. جاءوا لينقذوا البلاد من الإفرنج فاستولوا عليها؟!

ـ يا أبى: من الخير لنا أن نتوارى فى دورنا، وألاّ ترى الناس وجوهنا. فإن القاهريين لو تصدقوا علينا بدمائنا لكانوا أكرم الناس.

ـ أكرم الناس!! هؤلاء البُلْه المفاليك الذين يصفّقون لكل غالب!!.. إننى عزمت على مكاتبة جميع ملوك الساحل من الإفرنج، ليهجموا على مصر من طريقين: طريق بلبيس، وطريق دمياط.

فلمع الغضب فى عينى شجاع وقال: والله لئن لم تنته عن هذه الأمور، لأكشفنّ الأمر لأسد الدين.

ـ كفكف من غربك يا شجاع. إنّى إن لم أفعل هذا قتلنا الغزُّ عن آخرنا.

ـ وإذا جاء الإفرنج قتلونا أيضاً. ولأن نقتل والبلاد بيد المسلمين، خير من أن نقتل والبلاد بيد الإفرنج.

ثم دارت الأيام، ولم يستطع صلاح الدين صبراً على بقاء شاور حياً، يحوك

الدسائس ويبث الفتن ، فقتله بيده . وبعد قليل مات أسد الدين ، فولّى الخليفة صلاحَ الدين الوزارة ، ولّقبه بالملك الناصر.

تولّى صلاح الدين الوزارة وهو شديد الحذر من سيدة القصور لا يؤمن ببشاشتها ، ولا بحسن لقائها ، وكأنه رأى بعين بصيرته ما ينطوى عليه قلبها له : من الحقد ، والضغينة ، والكيد . فهِم لُعبتها فعزم على تفاديها بلعبات أخرى : علم أنها لم تؤثره بالوزارة مع وجود كبار الرؤساء والقوّاد بالجيش الشامىّ ، إلا لتوقع الخلاف والفرقة بينه وبين هؤلاء القواد ، حتّى يصبح بأسهم بينهم شديداً وحينئذ تتحكم سيدة القصور فى الموقف ، وترضى عمّن ترضى عنه منهم ، فيكون صنيعة نعمتها ، ومنفّذ أمرها . علم صلاح الدين هذا فتملّق القواد ، وأغدق عليهم واسترضاهم ، وجعل نفسه أداة منفّذة لإرادتهم . ثم اتجه إلى القصر ، فأخذ يجرّده من كل قوة فيه تستطيع أن تقاومه ، أو تقف فى وجه غايته : فأبعد كثيراً من رجاله ، وأخذ يرهق سيدة القصور بطلب الأموال حتى كاد يستنفد ما عندها ، ثم رتّب بهاء الدين قراقوش ـ وهو من أشد رجاله عنفاً وأكثرهم له إخلاصاً ـ حارساً على القصر ، حتى لا يدخل إليه شىء ، أو يخرج منه شىء إلا بإذنه .

ضاقت سيدة القصور بهذه الحال ، وسدت أمامها سبل الحيلة ، ورأت أن ملكها ومذهبها الفاطمىّ يترنّحان تحت ضربات قاسية متتابعة ، وأنه من العار عليها أن تقف صامتة مغلولة اليدين ، والأعداء يقتلون دولتها بسمّ بطىء . فطلبت أن يُدعى إليها عمارة ، فلما حضر قالت : أرأيت أبا محمد ما فعله بنا ذلك الكردى الوضيع ؟ كأن وحياً يهبط عليه بما فى نفسى ، فكلما فكرت له فى مكيدة رأيته قد أعدّ لها ما يحبطها ! !

ـ هذا الرجل كارثة على مصر وعلى الفاطمية ، وقد حاولت أن أجتذبه بشعرى ، وأختدعه بمديحى ، فلم أجد منه إلا جفاء وإغفالاً . ومن مصيبة مصر أن يكون عبد الرحيم البَيْسانىّ ـ الذى يسمونه بالقاضى الفاضل ـ وزيراً لهذا الرجل الجامح ، وهو لا يشير عليه إلا بكل ما يهدم الدولة الفاطمية ويعصف بها .

ولما ضاقت حيلتى مع هذا الكردىّ أرسلت إليه بهذه القصيدة :

أيا أُذُنَ الأيام إن قلتُ فاسْمَعى ... لِنَفْثةِ مصدور وأنّة موجَع
نزلتُ بمصر أطلب الجاه والغنى ... فنلتهما فى ظلّ عيش مُمَتَّع
وفزت بألف من عطية فائز ... مواهبه للصَّنِيع لا للتَّصنُّع

وكم طرقتني من يد عاضديّة ... سرت بين يقظَى من عيون وهجّع
فقل لصلاح الدين - والعدل شأنه - ... مَن الحكَمُ المُصغى إليّ فأدَّعِى؟
أقمت بكم ضيفاً ثلاثة أشهر ... أقول لصدرى كلّما ضاق: وَسِّعِ
أمن حسنات الدهر أم سيئاته ... رضاك عن الدنيا بما فعلت معى؟
ملكتَ عِنان النَّصر ثم خذلتنى ... وحالى بمرأى من علاكَ ومَسْمَع

فلم أتلق منه إلى هذه الساعة جواباً، وقابلنى البيسانى فهزّ رأسه فى خبث وقال: لم أر أعجب من قصيدتك للناصر، لقد غلّبت فيها مدحك للفاطميين على مدحه.

- استمِرّ فى هذه الطريقة أبا محمّد، ولا تيأس من اجتذاب هذا المهر الشموس، فإنما أعددتك يا حبيبى لمثل هذه الكوارث... لقد سمعت أن باسمة اتّصلت بحاشية صلاح الدين، وأنّ هذه الخائنة تخبره بأسرارنا، وبما تعرف من مخابىء القصر وذخائره.

- نعم قابلنى ابن دخان منذ يومين، وفى عينيه نظرات الشامت، وعلمت منه أن زوجه لا تقيم عنده إلاّ قليلاً، وأنها دائبة العمل مع رجال صلاح الدين.

- ويل لها منّى!! اسمع يا عمارة... لم يبق فى كنانتى إلاّ سهم واحد للخلاص من صلاح الدين.

- ما هو؟؟

- ستعرفه الآن... يا «تغريد»... مُرِى مؤتمن الخلافة أن يقابلنى.

فيقبل مؤتمن الخلافة حزيناً، فتقول له سيدة القصور:

- كم عندك من الجنود السُّودانية؟

- عشرون ألفاً يا سيدتى أو يزيدون.

- هل تستطيع أن تهجم بهم مفاجأة على جنود الغزّ، وتطهر البلاد منهم؟؟

- ذلك ممكن يا مولاتى إذا استمرّ الخلاف الذى أراه بين قوّادهم.

- أعِدَّ العدَّة، واهجم عليه متى شئت وأين شئت. والله معنا. فقال عمارة:

- إذا هزمنا هذه المرّة يا مولاتى، ذهب منّا كل شىء!!

ـ ليكن ما يكون، فإن آخر الدواء الكيّ، خلّياني وحدي.

انفضّ المجلس وخرج عمارة من القصر، وبينما هو في الطريق قابله المهذّب الأسواني ومعه شيخ غريب عليه سيما الصلاح والزهد لا يفتأ لسانه متمتماً بالتسبيح والأدعية. فسأله عمارة عنه، فقال إنه زين الدين بن نجا، وهو رجل تقيّ يعظ جنود الغزّ. ثم مال على أذن عمارة وهمس: ويُبغضهم أشد البغض. فحيّاه عمارة ودعاهما إلى داره، ورأى من حديث زين الدين وسوء عقيدته في الغزّ، ما حبّبه إلى نفسه، وقرّبه إلى قلبه، ووثّق عرا الصداقة بينهما، وبعد أيام ثار السُّود على الغزّ، واشتدّ القتال بينهم، وطال أمد المعركة، وكادت صفحة التاريخ تتغيّر لولا أن تآلف قوّاد صلاح الدين، وصدقوا في الحملة. ولولا أن وثب صلاح الدين وأخوه توران شاه على القصر، وقبضا على مؤتمن الخلافة وقتلاه، فَسُقِطَ في أيدي السُّودان وانطفأت حميّتهم.

بعد ذلك زاد تمكن صلاح الدين في مصر، وتحكّمه في الخليفة، فأغار على ذخائر القصر وكنوزه ولها من القيمة فوق ما يقدّره الخيال، واستولى على قصور الخلافة، وأخرج أبناء الخلفاء وبناتهم منها، وأسكن كل فريق في دار على حدة تحت حراسة قراقوش، وتصرّف في العبيد والخدم، ومنع الخليفة من مغادرة القصر، ووهب إقطاعات المصريين إلى أصحابه وجنوده، وعزل قضاة الشيعة واستناب قضاة الشافعية، وأزال شعار الدولة الفاطمية، وأبطل من الأذان «حيّ على خير العمل» ومنع أن يدعى للعاضد على المنابر.

قذف صلاح الدين بهذه السهام دفعة واحدة، فصعقت سيدة القصور لهول هذه المصائب المتتالية، ورأت ملكها ومذهبها يذهبان طُعمة للقوة والدهاء، فبكت كما تبكي النساء وعادت إليها غرائز الضعف والأنوثة. أما العاضد فقد دهمه الغم وأحرقته الحمّى، فألحّ في أن يراه طبيبه عبد الله بن السديد، ولكنّ الطبيب أبى أن يذهب إليه، فمات حزيناً بائساً منبوذاً.

سرى خبر موته في القاهرة، فشاع الحزن عليه في كل مكان وزاد في بكاء القاهريين عليه ما أصاب الخلافة من نكبات، بعد أن عاشوا في ظل جناحها في أمن، ودعة، ومواسم، وأعياد، كانت بهجة الدنيا وزينة الدهور. ومرّ عمارة على القصر فإذا هو طلل دارس، بعد مجد طاول الفرقدين، وعز ملأ الخافقين. فقال:

لِـى بالـدِّيار غداةَ البيْن وَقْفاتُ　　　أبكى رسوماً خلتْ منهنَّ سَاداتُ
يا ربِّ إن كان لى فى وصلهم طمع　　　عجِّـل علَّـى فللتـأخير آفات

فاجتمع حوله الناس فبكى وبكوا، وثارت ثائرته فأنشد:

أيها النـاس والخطـاب إلـى مَنْ　　　هو من حيث عقلُـه إنسانُ
هـذه خُطبـة إلـى غير شخص　　　نظمـت عقـد نثرهـا الأوزان
لـم أخصِّص بهـا فلانـاً لأنّى　　　فى زمـان ما فى بنيه فلان
ذمُّنـا للزمـان ذمٌ لمـن فيـ　　　ـه وحـقٌ ألاّ يذمَّ الزمان

ونظر من خلال دموعه، فرأى زين الدين بن نجا يبكى وينتحب، ورأى «باسمة» تبتسم فى جذل وخبث، فجذبها من عضدها وقال: تعالىْ واسمعى يا فتاة، فإن عمارة اليمنى لا يخاف الجواسيس، بلِّغى سيدك صلاح الدين ما تسمعين:

قَلبُ الزمانِ على الخلافة قاسِى　　　ما للزَّمـان جرى بغير قِياسِ!!
أسفِـى لِمُلْكٍ عاضِـدِىّ عُطِّلتْ　　　حجراتـه بعـد النَّـدى والباسِ
أخـذتْ بَنَـانُ الغـزِّ من أمواله　　　ورجالـه بمخانِـق الأنفاس
أبَنِـى علـىٌّ والبَتـولِ وأحمدٍ　　　وكواكبَ الـدنيا وخير الناس
هذى حصـون الـرُّوم عُطِّـل غزوها　　　وغـزت ديارَكُم بنـو العبَّاس

واشتدَّ بكاء النـاس وعويلهـم، وكادت تكون فتنـة، لولا أن جاء داعـى الدّعـاة، فجذب عمارة من يمينه وانطلق به.

- ١٥ -

أسرعت باسمة إلى قصر الأيُوبيين، وكان قد سبقها إليه زينُ الدين بن نجا، ولمَّا قابلت صلاح الدين، والقاضى الفاضل، نقلت إليهما ما كان من جُرأة عمارة، وما كان من بكائه الفاطميين واستثارة قلوب الناس على من هدم ملكهم، والتلويح أو التصـريح بذمِّ صلاح الدين. ثم أنشدته ما حفظت من أبيات عمارة، وأخرج زين الدين من جيبه ورقة وقال: وهذه قصيدة طويلة لعمارة يتناقلها الناس ويستنسخونها. وشرع يقرأ منها:

رميْتَ يا دهـر كفَّ المجـد بالشللِ　　　وجيدَهُ بعد حسـن الحَلْـى بالعَطَلِ
لهْفِـى ولَهْفَ بنـى الآمـال قاطبةً　　　علـى فجيعتهـا فى أكرم الدُّوَلِ

بالله زُرْ ساحة القصرين وابك معى | عليهما لا على «صفّين» و«الجمل»
وقُـل لأهلهمـا: والله ما التحمتْ | فيكم جراحـى ولا قرحـى بمندمل
مـاذا تُرى كانـت الإفرنـج فاعلةً | فى نسـل آل أمير المـؤمنين على؟

فغضب صلاح الدين، والتفت إلى القاضى الفاضل وقال: ماذا نعمل فى هذا الرجل الذى يسبنا جهراً؟!

- إنه يا مولاى شاعر ثائر، وقد أكثر من مدح آل أيوب فأهملتموه، ولو أن مولاى قتله لهذا الشعر لأغضب العامة، وما زالت الأشراف تهجى وتمدح. وأرى أن ثورة عمارة لن تصل به إلـى سلامة؛ فاصبر عليه حتى يرتكب من الذنوب ما يسوّغ قتله. فقال زين الدين: إن له شعراً صريحاً فى الخروج على الدين وعلى مذهب أهل السنة، ألا يكفى هذا لقتله؟! فقال القاضى الفاضل: دعه يا ابن نجا فإن من مزايا الشاعر أن يغتفر له ما لا يغتفر لغيره.

مرّت أيام وشهور وثورة عمارة لا تنطفىء، وعزمه على محاربة الدولة الصلاحية لا يكلّ. فكوّن جماعة سرية، واستغل سخط بعض قواد صلاح الـدين عليه فضمهـم إلـى جماعته، ومنهم خاله، وكان بين أفراد الجماعة: داعى الدعاة عبد الجبار بن عبد القوى، وقاضى القضاة، وعبد الصمد الكاتب، ونصر الله بن كامل، وزين الدين بن نجا الواعظ، الذى كان عبقرياً فى الجاسوسية نابغة فى النفاق. وكانت هذه الجماعة تجتمع فى داره لأنه كان من المقبولين فى دولة صلاح الدين، لا تحوم عليه أية شبهة.

وفى ليلة بينما كان هؤلاء مجتمعين، إذا طرقٌ خفيف على باب الدار، فذعروا جميعاً وظنوا أنهم أحيط بهم، وفتح أحدهم الباب، فرأى امرأة زريّة الهيئة فى أثواب الخدم، وما إن اجتازت الدهليز وكشفت عن وجهها، حتى عرف القوم فيها سيدة القصور. فظهر عليهم الدهش فابتسمت وقالت: لقد استطعت أن أفرّ من أسر قراقوش السميج بهذه الحيلة، وكان اقصى ما أريد أن أشهد اجتماعـكم، فلعـل أن يكون لى رأى فيه. فحيّاهـا القـوم تحية الإجلال، ثم أخذوا فى الحديث والمناقشة.

وطال الكلام واشتدّ الجدل، وانتهى الأمر إلـى أن تكون المؤامـرة ذات شعبتين: الأولى: أن تكتب رسالة إلـى سنـان بـن سليمـان صاحـب الحشيشـة بالشـام، ورئيس الإسماعيلية، يوصف بها ما حلّ بالدولة الفاطمية، ويبيّن فيها ما بين المذهب الإسماعيلى

والمذهب الفاطمى من الصلة والقرابة ، وأنّ نصر الفاطمية إنما هو نصر للإسماعيلية ، ثم يُلِحّ عليه فى ندب أحد الفدائيين من الاسماعيلية لقتل صلاح الدين . الثانية : أن تكتب رسائل إلى قواد الإفرنج بالشام وصقلية ، يُدعَوْن فيها إلى القاهرة للاستعانة بهم على صلاح الدين ، فإذا جاءوا وخرج صلاح الدين لقتالهم ، أقام المصريون بالقاهرة ثورة ـ فتقسمت قوة صلاح الدين بين الإفرنج والثوّار ، والخارجين عليه من جنده وقوّاده .

ولمّا همّ القوم بكتابة الرسائل ، قال زين الدين : من الخير أن نرجىء الكتابة حتى نروّى فيها ، وحتى تكون قوية مؤثرة .

بعد ذلك قامت سيدة القصور ، وكانت الشمس قد علت فى الأفق ، فالتفت بثيابها المستعارة وقالت : الآن أعود إلى محبِسى الذى سأخرج منه إلى قبرى ، أو إلى قصرى !!

ذهب الحرّانى إلى داره فأقام بها نهاره ، حتى إذا أظلم الليل ، قام ولبس ثيابه ، وخرج متّجهاً إلى دار القاضى الفاضل . وكان يتمتم وهو يتعثّر فى الظلام قائلاً : اليوم أشفى غيظ نفسى منك يا ابن زيدان . . . اليوم أنتقم لابنى وأبى اللذين قتلهما عمك ظلماً وعسفاً . . . لقد كتمت هذا الغلّ فى صدرى عشرين عاماً ، فاليوم يجد صدرى متنفساً . . . لقد كنت أنتهز كل فرصة فتطير من يدى ، أما اليوم فلن تطير أبداً !!

ولما بلغ الدار ، قابل القاضى الفاضل ، وقصّ عليه خبر المؤامرة وأسماء المتآمرين . فأخذه القاضى من يده وذهبا إلى قصر صلاح الدين ، فلما سمع الخبر الخطير ، أمر كبير حرّاسه أن يرسل جماعة للقبض على كل متآمر أينما كان . ولم تتمّ ساعتان حتى قُبض عليهم ، وأودِعوا خزانة البنود ، وكانت سجن الفاطميين .

دخل عمارة السجن مستريح النفس ثابت القلب ، يخالجه شعور بالطمأنينة ، وإحساس بأنه أدّى واجب الوفاء كاملاً للفاطميين ولسيدة القصور .

ونام ليلته هادىء البال ، حتى إذا تنفس الصبح ، دخل عليه الحرانى وجماعة من الجنود . فلما رآه عمارة قال له : أهكذا تُشترى الدنيا وتباع الآخرة بالنفاق والختل يا زين الدين ؟

ـ لست زين الدين . . . أنا أبو كاظم الحرانى الذى باع حياته للشيطان لينتقم منك ومن عمّك . . . اليوم يزول همّى ، وتطمئن نفسى ، حين أراك مصلوباً بين القصرين .

فصاح عمارة: إخسأ أيها الكلب النابح! وسلّم نفسه إلى الجند وأمرهم أن يمروا به على دار القاضي الفاضل، فلمّا رآه القاضي مقبلاً دخل وأغلق بابه. فضحك عمارة ساخراً وقال:

عبد الرحيم قد احتجب　　إن الخلاص من العجب

ثم أُخذ إلى مجلس القضاء، فاعترف غير هيّاب بكل ما صدر منه، فحُكم عليه بالصلب هو وأصحابه. وبينما كان عمارة على خشبة الموت، مرّت جنازة يمشي خلفها فقراء القاهرة وعامتهم باكين معولين، فسأل الجند عن صاحب الجنازة فقيل: هذه سيدة القصور... سُدّت أمامها منافذ الأمل، وتجهّم لها وجه الزمان، فتجرّعت سماً زعافاً ماتت به لساعتها.

فصاح عمارة بالجند: عَجّلوا بي!!... عجلوا بي!!... فسيقول الناس غداً: إن اليوم الثاني عشر من رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة كان يوم الشهداء، ماتت فيه شهيدة العزّة والإباء، ومات فيه شهيد الكرامة والوفاء!!... ثم صاح:

نحن في غَفْلةٍ ونومٍ وللموْ　　تِ عيونٌ يَقْظانةٌ لا تنَامُ
قد فزِعنا من الحِمامِ سِنيناً　　واسترحنا لمَّا أتانا الحِمامُ

تبسَّم دهرُهَا حيناً ولمّا　　تقلَّبَ خانَ «سيّدة القصور»
تبدَّدَ مجدُهَا كالطيْفِ لكن　　أراهُ مُجسَّماً بين السطور

بدر الدين على الجارم



غادة رشيد

يونيو ١٩٤٥

عصفت بك الأطماع والأيام وتبددت عن جفنك الأحلام
وتركت محموداً يصارع قلبه حتى ترفرف فوقك الأعلام
وصببت فوق ضريحه دمع الهوى والحب والأمل البعيد حطام
وبعثت روحك فى ثنايا روحه فعلى شبابكما الرطيب سلام

بدر الدين على الجارم

- ١ -

في اليوم الثانى من شهر يولية سنة ١٧٩٨ م كانت الشمس تدرُج من خدرهـا، فترسـل أشعتها فوق النيل برّاقة وهّاجة كالذهب النضار، وقد تكسرت أمواجه وهبّت عليه نسمـة شمالية وئيدة الخطا، بلل البحرَ الأبيض أذيالها بمائة، ونفحها ببخاره المملوء بعناصر القوة والحياة.

وكانت مدينة رشيد فى هذا الصباح جاثمة فوق الشاطىء الغربىّ، بعظمة منازلهـا وارتفاع مآذنها، تنعم بلذة الهدوء الذى احتواها فى أثناء الليل، إلا ما كان من العَمَلـة الذين اتجهوا أفواجاً إلى مضارب الأرز (الدوائر) وإلاّ ما كان من زُمر الفلاحين الذين قدمـوا من الشمـال والجنوب لبيع حاصلاتهـم من الخُضَر والفاكهـة، واللبـن والبيض والدجاج، وقد أخذ فتى منهم غض الشباب يرسل صوته عذباً مشجياً بأغنيّة يذكر فيها ما يبذله من الجهد لجمع مهر حبيبة فؤاده، ثم يتمّ الأغنيّة بأن كنوز الأرض وثـروة «البـك الكبير» بمصر لا تكفى مهراً لهذا الجمال الرائع والحسن الفتّان. ويسمعه بعض النسـاء والعذارى اللائى بكرن إلى النيل لغسل ثيابهن وملء جرارهن، وقد انتثرن على شاطئه فى ثيابهن الزاهية الألوان كأنهن عقد اختلفت حبّاته حول جيد الحسناء. وقد زاد جمالُ الصبح فى جمـالهن، وأمنّ نظـرات العيون فكشفـن عن سوق خِدال، ومعاصـم رخصـة صافية البياض، لولا ما يحبسها من حجول وأساور لسالت فى الماء، كما يسيل الماء.

ضحكت إحداهن فى دلال وعُجب، وقالت لإحدى صويحباتها.

ـ أتسمعين غناء هذا الفلاح الأبله؟ فأجابت:

ـ لعله يا فاطمة يتغزل فى جاموسة لأحد جيرانه يريد شراءها. فأسرعت فتاة لا تعرف مكر النساء ولا أساليبهن، تقول فى سذاجة :

ـ ولكنه يصفها بأنها سوداء العينين، صغيرة الأذنين! فأرسلت فاطمة ضحكة مغرية الرنين وقالت: إنها الجاموسة بعينها كما قالت سعاد! وهى التى من أجلها يكدر علينا هذا الفلاّح الجافى جمال هذا الصباح بصوته المنكر. من أين يأتى لهؤلاء الفلاحات الجمال؟ ولو قدّر لهن شىء منه لطمسنه ببلاهتهن وقذارتهن، وجهلهن بطبائع الرجال. إن الجمال مهارة قبل أن يكون خلقة وفطرة. والمرأة التى لا تستطيع التعبير بعينيها وابتساماتها، وأسارير وجهها عما تحب وتكره، والتى لم تدرس طبائع الرجل، ولم تعرف مواطن ضعفه وغروره، لن يكون لها حظ عند زوجها، ولو بلغت فى الجمال ما بلغت زبيدة بنت البواب.

ارتفعت الشمس وعاد النساء بجرارهن، واستيقظت المدينة الآهلة بسكانها، الزاخرة بنزلائها من جميع أقطار الشرق، فقد بلغت رشيد فى هذا الحين شأواً بعيداً من الثروة واتساع التجارة واستبحار العمران. وكانت ترد إليها السفن من مصر والشام، وتركيا وأوربا، محمّلة بأصناف البضائع. وكانت تمتد على شاطىء النيل من الشرق، ويحيط بها من الغرب الكثبان الرملية التى ملأها نشاط أهلها بالنخيل والكروم، وأشجار الزيتون والتين. وكان بجهتيها الشمالية والجنوبية حدائق فيح، وبساتين خضر، ازدحمت بأشجار الموز والليمون، والبرتقال والنارنج، وأنواع الزهر والرياحين. فكان النسيم فى غدوه ورواحه يحمل أريجها إلى المدينة، لا يكاد يخلو منه منزل ولا طريق. فحيثما ذهبت شممت عطراً، وأينما أقمت تنفّست طيباً.

وكانت شوارعها ضيقة ملتوية، تقوم على حافيتها منازل بنيت بطوب صغير الحجم أجيد إحراقه، حتى أصبح كالحجر الصلد. وصناعة هذا الطوب خاصة بأهل رشيد ودمياط. وأعظم ما كانت رشيد تزهى به شارعان عظيمان، أحدهما شارع البحر، والثانى شارع موازٍ له يبتدىء من مسجد المحلى، وينتهى جنوباً بالمسجد الجامع المسمى بمسجد زغلول، وهو من المساجد النادرة المثال بمصر، تزيد رقعته على رقعة الجامع الأزهر، به مساكن لطلاّب العلم الغرباء. وكان يلقى الدروس به طائفة من كبار علماء المدينة، أشهرهم الشيخ أحمد الخضرى، والشيخ إبراهيم الجارم، والشيخ محمد صدّيق.

وكان يسكن عظماء المدينة وكبار تجارها بشارع دهليز الملك، وهو يبتدىء من الغرب بمسجد العرابى، وينتهى فى الشرق إلى النيل، ويمتاز بسعته واستقامته، وبالمنازل على جانبيه فقد كانت فخمة البناء شاهقة الارتفاع، تتألف فى أكثرها من أربع طباق، وتكثر بها الزخارف الفنية والشبابيك، والمشربيّات التى أبدعت صناعتها من قطع الخشب الصغيرة المخروطة، ذات الأشكال الهندسية البارعة الدقة، الرائعة الحسن. وكان يسكن بهذا الشارع عثمانُ خجا حاكم رشيد من قِبل مراد بك، وكان رجلاً فاتكاً بطّاشاً، ظالماً جمّاعاً للأموال أين وجدها ومن أي طريق وصل إليها. وكان به منزل محمد بدوى جوربجى سرداد مستحفظان، والسيد محمد البواب، والسيد إبراهيم الجمال، ـ وهما من كبار تجار الأرز بالثغر ـ والحاج عبدالله البربير شاعر المدينة وزجّالها، إلى غير هؤلاء من الأعيان والعلماء والكبراء.

وميناء المدينة أشد أحيائها ازدحاماً وأكثرها جلبة وصخباً، تراصّت به السفن آتية من أقطار الشرق والغرب، وسار ملاحوها في شارع البحر يلغطون، وقد اختلفت أزياؤهم وألسنتهم وألوانهم. واختص شارع البحر بمضارب الأرز فاطلّ عليه منها أكثر من ثلاثين دائرة، يبيّض فيها الأرز بطواحين تدور بالخيل والبقر. وكان بهذا الشارع متجران: أحدهما لفرنسي يدعى مسيو فارسي وهو يتجر فى الحبوب والعقاقير الطبية، والثانى لإنجليزى يتجر فى المنسوجات الحريرية والصوفية، هو مستر أوليفر نيكلسون. وقد كان عند بدء تاريخنا هذا في سن الأربعين، رحب الجسم قوى العضل، يدل تألق عينيه الزرقاوين على قوة العزم، ويوحى انبساط أسارير وجهه بالوداعة واللطف وسلامة دواعى الصدر وكان كامل الثقافة وافر العلم بأحوال الدول والأمم.

فى ضحوة هذا اليوم جلست زبيدة بنت السيد محمد البواب فى غرفة نومها، وكانت تلبس قميصاً من الحرير الأبيض الشفّاف، يتسع كمّاه ويضيقان عند الرسغين، فوق صيدار من القطيفة القرمزية طرّز بالقصب، وكثرت أزراره حتى التصق بعضها ببعض، أما سروالها فكان من الأطلس البنفسجيّ واسعاً فضفاضاً، زُيّن عند نهاية الساقين بطراز من الفضة المموهة بالذهب، وقد انطقت فوقه بحزام حريرىّ، جعلت عقدته إلى الجانب الأيسر من خصرها، واتشحت بوشاح (يُسمّى الشُمار) دمشقىّ الصنعة، بديع الألوان. وكان فوق رأسها قرص من القطيفة رصّع بالماس ونفيس الجواهر. أما شعرها: فقد ضفر

«بالصّفا» وهو خيوط من الحرير وصل بها كثير من القطع الذهبية، وفصل بين كل قطعة بنظم من اللؤلؤ.

جلست زبيدة فى غرفة نومها ثم اتجهت إلى المرآة ذاهلة حالمة : فرأت وجهاً كأنه إشراقة الصبح أو صفحة البدر، أو تبلّج الحقّ بين ظلمات الشكوك. به عينان حوراوان امتزجت بهما صولة السحر بنشوة الخمر، فكانتا شباك الفتنة لصيد القلوب. وأنف أحسن الله تقويمه وأبدع تكوينه فزاد وجهها جمالاً. وثغر درّى ياقوتىّ، تهيم به الشفاه، وتحوم حوله القلوب ظمأى، كما تحوم طيور الصحراء حول مَعين الماء العذب النمير. ثم رأت صدراً صافى البياض ممتلئاً بالأنوثة الناضجة، يعبث بالعقول، كأنه سبيكة من لجين، استعارت من الزئبق لينه فظهرت ناصعة رجراجة.

كانت زبيدة فى الثامنة عشرة من عمرها، وقد تفتّح فيها الشباب كما تتفتح زهرات الربيع، وجالت بنفسها خواطر وثارت بها نزعات لم تعرفها فى عهد الطفولة الغريرة، وأحسّت بما تحسه الفتاة فى هذا السن، من ميول متدفقة يكبتها الحياء وتكظمها بقية من أدب ودين. وللعُرف قانون لم يكتب فى أوراق، وهو أشد القوانين عنفاً، والناس أكثر له طاعة وقبولاً. وللمجتمع آداب، يحكم بها المرء بنفسه على نفسه مستكيناً مستسلماً.

كانت زبيدة فارعة القدّ ممتلئة الجسم، جرى حديث جمالها الفاتن من فم إلى فم، وتنقل من دارٍ إلى دار، حتى أصبحت مضرب المثل بين فتيات المدينة، ومقياس الجمال كلما عَرَض ذكر الجمال. وتهافت أبناء التجار والأعيان والحكام على خطبتها والتقرب من قدس حسنها، ولكنها كانت تردّ كل توسل بالإدلال، وكل إغراء بالرفض والإباء. ولم تكن أمها لتستطيع أن تعمل شيئاً أمام هذه الحسناء الجامحة، ولم يكن أبوها ـ وهى وحيدته ـ ليردّ لها كلمة أو يقف بينها وبين ما تكره أو تحب. كانت الفتاةَ المدللة العابثة المتحكّمة، وقد ملأتها ثقتها بجمالها كبراً وغروراً، وزادتها ثروة أبيها الضخمة ميلاً إلى الإسراف، والتأنق فى الرفَهْ، وإنفاق المال الكثير على الحلىّ والجواهر والملابس، فكانت فى جمالها وأزيائها، ودلالها وإبائها جَنةً محرّمة الثمرات، وأملاً حلواً عزّ على كل شىء حتى على الخيال.

جلست زبيدة أمام مرآتها ورأت ما رأت، فابتسمت ابتسامة لؤلؤية، ثم عبست

وتجهمت أساريرها، ثم رفعت حاجبيها وشخصت بعينيها كالمفكرة المأخوذة، ثم قالت تحدث نفسها:

ولمَ تكذب «رابحة» العرّافة؟ أليس في حسني ما يذل له كل عزيز، ويخضع لسطوته كل ذي نفوذ وسلطان؟ ألم يسر ذكر جمالي مع كل سائر؟ ويطِرْ مع كل ريح؟ نعم إن رشيد مدينة نائية عن القاهرة مقرّ عظماء الحكام وكبار الأمراء، ولكن الملاحين الذين يسافرون إليها في كل يوم لا يزال يحفظون ويتغنّون بتلك الأغنية السائرة، التي نظمها سرّاً الحاج عبدالله البَربير والتي فيها:

الحسنْ كُلّهْ في رشيدْ في بيتْ   وإن كنتْ تنكرْ إسأل البوّابْ

لا. لا. لن تكذب رابحة، وهي لم تتكهن بشيء مستحيل أو بعيد المنال. لقد سمعت من أبي ما أخبره به السيد أحمد المحروقي زوج خالتي من أن السيدة نفيسة زوج مراد بك ليس لها حظ من الجمال، وهي مع ذلك صاحبة الصولة والنفوذ في حكم مصر، فلم لا أكون حاكمة مصر؟! إن كان بها فتاة تشبهني، فأنا أول من يأخذ بيدها إلى كرسي المملكة. ثم ضحكت ضحكة اليأس والاستخفاف وقالت:

الستُ أتشبث بخيوط من الوهم، وتعبث بي عاصفة هوجاء من الخيال الكاذب؟ من أنا حتى أكون حاكمة مصر؟ بنت السيد محمد البواب أحد تجار الأرز برشيد! ها ها. وهذا كل ما أقدمه من الذرائع لأكون أول سيدة بمصر؟! لا يا زبيدة هذا لا يكفي. ثم إنني جميلة فائقة الحسن فاتكة اللحظات، رائعة القسمات، لم تطلّع الشمس على أنضر مني وجهاً ولا أملد عوداً، ولا أشدّ إغراء وفتنة! وهذا أيضاً لا يكفي يا زبيدة، فإن منازل الرفعة لا تنال بالجمال، وحكام مصر وبكواتها يتصاهرون فيما بينهم لحصر الملك فيهم، وجمع السلطة في أسرهم. لا يغريهم سحر العيون ولا اعتدال القدود.

حقاً إنني أتعلّق بأمل خدّاع وغرور مضلل!! وسأسقط من القمة التي أنشبت فيها أظافري مهشّمة العظام، مفككة الأوصال. حينئذٍ سأفيق بعد أن قضيت زهرة شبابي في جنون وأحلام، وحينئذٍ سأنظر حولي وقد بلغت الثلاثين أو نحوها، فأجد الخُطّاب وقد طاروا وتركوا عُش فاتنتهم حُطاماً مبعثراً. ثم أنظر في هذه المرآة التي أمامي فلا أرى فيها تلك الفتاة الناعمة التي أراها اليوم، ولكنني أرى فيها امرأة سواها، دبّت في وجهها الغضون،

وخمد من عينيها ذلك البريق الساحر اللمّاح، وأخذت شعرة بيضاء تُطلّ من طُرتها كأنها راية التسليم البيضاء، يلوّح بها الجندى المنهزم.

لا. لا. لعن الله تلك العرّافة، ولعن الله اليوم الذى قابلتها فيه!

ثم أطالت النظر فى المرآة، فرأت فحصة رائعة الحسن فى خدّها الأيمن، فابتسمت، فزاد الابتسام تلك الفحصة ظهوراً وحسناً، فعاودها الأمل، ورفعت رأسها فى شمم وعزّة، وهمست:

ولكن العرّافة لا تكذب. إننى لم أعرض عليها كفى، وقد كنت جالسة بجانب أمى فجذبتْها ونظرت فيها لحظة، ثم صاحت دهشة حائرة، وكانت الحيرة تبدو فى عينيها حقيقة لا تكلّف فيها، وكان شىء يشبه الذهول يتحكّم فى أسارير وجهها. صاحت: إننى لم أر فى حياتى هذا الخط فى كف غير كفك وكف إبراهيم بك الكبير. إنه خط الملك!! خط العظمة! خط الحكم! ولكن ما هذا يا ربى؟! سبحانك لا رادّ لمشيئتك، ولا معقب لحكمك! تباركت لك الأمر، وبيدك الملك، وأنت على كل شىء قديرا! أنظرى يا زبيدة! ما أنا بمخطئة. أنظرى يا مليكتى! أترين هذا الخط الذى يمرّ بأسفل الإبهام قويّاً بارزاً، ثم لا يقف عند ذلك كأغلب الأكف، بل يمتد إلى نهاية الأصابع الأخرى حتى يصل إلى الخنصر. هذا هو خط الملك!! أنظرى إلى كفى، فهل ترينه؟ ثم إلى كفّ أمك فهل تجدين له أثراً؟! ثم إذا شئت فانظرى إلى أكفّ أهل رشيد جميعاً، وأنا زعيمة بأنك لن تعثرى على مثله.

دهِشْتُ ودهشت أمى، وقهقهتْ قهقهة المذهول وقالت: ما هذا يا رابحة؟ ما هذا الكذب الصُّراح؟ كنا نرضى منك بدون هذا. وأين نحن من الحكم ومن مراتب الحكم؟ إن الحكم فى مصر قسمة بين البشوات والبكوات، ولن يناله مصرىّ أنبتته أرض مصر. إننا نعيش فى بلادنا غرباء نتلقف فُتات ما يتركون. إن ابنة عثمان خُجا تأنف أن تزور بيت رشيدىّ كيفما علا مقامه، وعظم جاهه. إنها لا تسمينا إلا بالفلاحين، كأن الله خلقنا من طين وخلق الترك من مسك وكافور. بنتى تحكم مصر؟! دعيها أولاً تحكم رشيد، أو شارع دهليز الملك، قبل أن تطيرى بها فى جوّ الأحلام والأكاذيب. لعلك تظنين أنه كلما عظمت الأمنيّة عظم الأجر. ولكن الأمانىّ المعقولة شىء، وهذا الجنون الجديد شىء آخر.

قالت أمى هذا، فتطاير الشرر من عينىّ رابحة، ووثبت من مكانها كمن لدغه ثعبان،

ووضعت يدها فى جيبها فى حنق وغضب ، فأخرجت أنصاف الفضة التى كانت أمى أعطتها إياها ، وقذفت بها فى وجه أمى وهى تصيح : جنون جديد! هذه أنصافك يا سيدتى فإنى فى غنى عن مالك بما وهب الله لى من علم ومعرفة . وإذا كنت تظنين أن تكهُّنى دَجلٌ وخرافة ، فلم دعوتنى؟ ولمَ ارسلت خادماً بعد خادم ملحّة فى طلبى؟ لعلّ الذى جرّأك علىّ أنى أتقبّل أجراً لقاء الإفضاء ببعض ما يتكشف لى من ملامح الغيب . والله لولا مسّ الحاجة ما تدليت إلى هذا الحضيض ، ولا سمعت اليوم من سيدتى نفيسة التى تظننى امرأة أفّاقة أفّاكة ، هذا السبب الشنيع . حقّاً إن كل شىء يمتهن إذا بيع بالمال : فالجمال يمتهن إذا بيع بالمال ، والجاه يمتهن إذا بيع بالمال ، والعلم يمتهن إذا بيع بالمال .

قالت كل ذلك وأوصالها ترتعد ، فمها يقذف بالزبد كأنما مسّها شيطان . ثم زايلها الغضب دفعة واحدة والتفتت إلىّ وحنت رأسها فى إجلال وخشية وقالت : والآن تحيتى وخضوعى لمولاتى زبيدة ملكة مصر . ثم انفلتت كما ينفلت الطائر من الشبكة ، فلم نر لها أثراً .

هذا ما جرى من رابحة العرّافة ، أذكره كلمة كلمة كأنما أقرأه فى لوح مكتوب . فهل كان كل ذلك كذباً وزوراً؟ وهل أنا مخاطرة بحياتى وجمالى وشبابى ، فى سبيل كذب وزور؟ إن التردد يكاد يقتلنى! ما هذه الأرجوحة التى أرتفع بها مرة ، وأنحط أخرى؟ يقين يتملكنى فأكاد أرى العرش الذى سأجلس عليه ، ثم يجىء الشك فيمحو كل هذه الآمال كما يمحو النهار آية الليل ، فلا أرى أمامى إلا جنّة أصبح ماؤها غوْراً ، وعاد ريحانها حطاماً . وأنظر فإذا أنا فى صحراء العمر المحرقة ، وقد غدا الشباب النضر الريان فى هذه الصحراء سراباً خدّاعاً مخاتلاً ، إذا جئتهُ لم أجده شيئاً . إن الزهرة إذا تفتحت اليوم ذبلت غداً ، والبدر إذا تمّ كماله درج إلى النقص والمحاق . وهل بعد بلوغ الفتاة الثامنة عشرة غايةٌ للنُّضج وتفتح الأنوثة وتفجر الميول؟ فإذا أهملها الخطّاب فى هذه السن ذوى عودها وخبت نارها ، وذهبت بشاشتها ، كالثمرة إذا لم تجن والزرع إذا لم يحصد . هكذا قضت الطبيعة القاسية المستبدة بكل حىّ ، فقد جعلت لكل شىء أواناً ، فإذا ذهب أوانه تبدّل خلقاً آخر ، فزهدته النفوس وتقحّمته الأعين .

إن ابن خالتى محموداً العسّال فتى يزدهى به الشباب ، وتعتزّ به الفتوة . إنه زينة الأنداد وفخر الأمثال : جمال وجه إلى كرم خلق ، إلى جراءة وإقدام ، إلى كياسة وحزم ، ثم

إلى ثروة وجاه عريضين . وما رأيته مرة إلا اختلج قلبى له ، وهفت روحى إليه ، وأحسست فى شفتىّ بدبيب يكاد يدفعهما إلى تقبيله ، وجرت فى جسمى نشوة عجيبة لا أعرف لها كنهاً ولا أستطيع لها وصفاً. أهذا هو الحب الذى يَتَغَنَّى بأناشيده الرجال والنساء؟ إن كان إياه فإنه حب عنيف تحكّم فى نفسى، وملأ علىّ يقظتى وأحلامى. أما محمود فلم يدع وسيلة يُدلى بها إلىّ إلا اتخذها، ولم يترك كلمة من كلمات الغرام إلا سكبها فى أذنى. يُغرى مرّة ويتذلل أخرى، ثم يصف ما يلاقيه من الهجر وصفاً يستنزل العُصم، ويهزّ الجبال الشمّ. وأنا أنصت إليه فى وجوم وذهول ورعب، وقلب مضطرب خفّاق، فإذا زادت بى ثورة الوجد كدت أثب عليه فألتهمه ضمّاً وتقبيلاً لولا أطياف ذلك الخيال الخداع، والأمل الختال، التى كانت تسرع إلى نفسى فتجتذبنى من السماء إلى الأرض، وتطفىء نار نزواتى، وتهدّىء من خفقات قلبى. ذلك الخيال الذى يصور لى الملك الموهوم، والذى يوسوس إلىّ أن من قُسم لها أن تكون حاكمة مصر لا ينبغى لها أن تصغى إلى كلمات الغرام من أى شخص، ولو كان فى جمال محمود العسال ورجولته. أسمع هذا الوسواس الخنّاس فيعود إلىّ هدوئى، وأردّه عنى بكلمات تقتل الأمل وتجتث الرجاء، ويعلم الله أنى أقولها وكل حرف منها سكين فى فؤادى وغصّة فى حلقى، إنه زهد فى جميع الفتيات لأجلى ولو أنه رفع إصبعاً لأجملهن لطارت إليه شغفاً، واهتزت كالعصفور للقائه شوقاً، ولكنه أبى أن يتزوج إلا بى. ذكرت له أمه بنت الشيخ الجارم «رقيّه» ـ وهى من هى فى جمالها وخفة روحها ومنصب أبيها ـ فأبى. ثم ذكرت له بنت السيد أحمد المحروقى زوج خالتى ـ وهى بنت الشرف والسيادة والجاه ـ فأبى، فهل حكم علىّ وعليه أن نبقى هكذا محرومين من ثمار هذا الحب، ومن تلك الجنة الدانية القطوف، وبيننا وبينها كلمة تقال؟!

وبينما هى فى أحلامها وأحاديث نفسها، إذ سمعت صوت حركة لدى الباب، ففزعت واتجهت إليه، فإذا قطتها تدخل متباطئة، حتى إذا أبصرت سيدتها جرت نحوها وأخذت تتمسح بها فى حب وحنان فأخذتها زبيدة بين يديها وطفقت تقبلها والقطة تزمزم وتقلّب وجهها فوق خديها، ثم وضعتها أمامها وضحكت ضحكة الفتاة العابثة اللعوب، وأخذت تقول:

تعالىْ أيتها القطة الماجنة الخبيثة، واعترفى لى كما اعترفتُ لنفسى، أتحبين غيرى؟ لا؟ تحبيننى أنا وحدى؟ أليس هناك قطٌّ فى خيالك قد يكون ملك القططة؟ أراضية أنت عن حياتك كما هى؟ ألا يكدر عليك صفوك طيف كاذب يطمعك فيما لا يمكن أن يكون؟ لا؟

ما أسعدك يا قطتى، وما أوفر حظك من الحياة! أنت أعقل من سيدتك المفتونة بالأوهام. ولكن ألا تحبين أن تكونى قطة الملكة؟ الخدم أمامك ووراءك! والوصائف تدللك! وأصحاب الحاجات تتملقك! تحبين هذا؟ بلا شك؟ نعم يا قطتى. نعم يا قطتى. إن قلبى يحدثنى أننى لست واهمة، وإن صوتاً يهمس فى نفسى ألا تخافى ولا تحزنى، وأن «رابحة» العرّافة لم تكذب. أكاذبة رابحة؟ لا؟ صدقت. إنها قالت مرة إن أبى سيسافر إلى إستانبول فلم يمض أسبوع حتى دعاه داع للسفر إليها من حيث لا يتوقع. وألحّت مرة على عمتى أن تحذر ابنها من الماء فمات بعد شهر غريقاً. وقالت للورا بنت الخواجه نيكلسون، إن ضيفاً سيزور أباها من بلاد بعيدة فحضر عمها بعد يومين.

لا . لا يا قطتى. إن رابحة لا تكذب، وليس علىّ إلا أن أرتقب وأصطبر.

وما كادت تتم جملتها حتى رأت خادمها الخاص «سروراً» يُقبل نحو غرفتها ويقول: إن سيدى محموداً حضر منذ ساعة، وهو جالس مع سيدتى الكبيرة، وقد أرسلتنى لأدعوك إليهما. فقالت زبيدة:

ـ فيم يتحدثان يا سرور؟

ـ لا أدرى يا سيدتى، إنه حديث طويل، وسيدى محمود هو الذى كان يتكلم، وسيدتى تهز رأسها وتربّت كتفه.

ـ أما فهمت موضوع الحديث؟ فأطرق الخادم فى خبث وقال:

ـ أنا يا سيدتى لا أفهم الكلام السريع، فإن سيدى محموداً كان منطلقاً فى حديثه كما ينطلق النمر فى بلادنا خلف الغزال. وكل ما فهمته كلمات متقطعة مثل: نذهب إلى مصر. السعادة. طال الزمن. هل هذا يجوز. .

ـ فهمت يا سرور. تعالىْ يا قطتى وساعدينى على الثبات والصبر.

وخرجت تميس فى دلال وعُجب، والقطة تدخل بين قدميها وتخرج فى أثناء مشيها، وهى تكاد تعثر بها فى كل خطوة، حتى نزلت إلى أمها فى الطبقة الثانية من المنزل، فلما رأتها أمها قالت:

ـ أهلاً بعروسى الحسناء. تعالىْ بجانبى يا فتاتى وأنصفينى من ابن خالتك هذا، فقد

حطم رأسى بكثرة حديثه هذا الصباح! ولولا حبى له وإعجابى بخلقه وأدبه و رجولته، وضعفى أمام وجهه الوسيم، لكان لى معه شأن آخر.

فحيّت زبيدة ابن خالتها بعينين مطبقتين تصنّعت فيهما الحياء والخفر، ثم جلست إلى جانب أمها ورفعت رأسها قليلاً نحو محمود، وقالت:

ـ كيف حال خالتى زينب اليوم؟

ـ الحمد لله، ولكنها لا تزال عاجزة عن المشى، ولا تزال تقاسى آلاماً مبرحة فى ساقيها، وبخاصة فى الليل.

ـ كانت هنا بالأمس «بدور» الدلألة وقالت: إنها كانت أصيبت بهذا المرض، ولم يشفها منه إلاّ دهن ساقيها بزيت ساخن خلط به دُقاق الفلفل الأسود، والقرفة والمرّ.

ـ عملنا يا زبيدة كل شىء، ولم نترك فى تذكرة داود علاجاً إلا جربناه. واضطررت آخر الأمر إلى استشارة الطبيب الفرنسى «شوفور» فقال لى: إنه مرض فى المفاصل، وإن له مرهماً فى فرنسا، ولكن هذه الحرب بين الدول سدّت سبل البحار، فلم يصل إلى مصر إلاّ قليل جدّاً من البضائع التى كانت تُغرق الأسواق.

ـ صحيح. إن أبى يقول: إن التجارة فى كساد لقلة البضائع التى تسافر من رشيد أو تأتى إليها، لأن ناساً يقفون فى البحر ويغرقون السفن.

كانت نفيسة أم زبيدة جالسة تعبث بسبُحتها، وهى بادية العبوس تكاد تحترق غيظاً من الحديث فى السفن والتجارة، لأنها كانت تود لو أن محموداً قذف بنفسه على قدمى زبيدة يبللهما بدموعه، ويشتكى لها لوعة الحب والغرام. وليس أشهى لدّى المرأة فى سن اليأس من أن تشهد منظراً للحب، أو تسمع عنه حديثاً. لقد حرمتها الطبيعة الحب الذى لم تنس حلاوته، فلا أقل من أن تراه فى غيرهما. ولقد ودّعت راحل الشباب من عهد بعيد، فهل يحال بينها وبين أن تسمع عنه خبراً؟!

وهل يجوز فى شرعة الإنصاف أن تُجحد هذا الحق الضئيل، الذى اكتفى به أبو نواس حينما نهاه المأمون عن الخمر فقال:

جُل قصدى منها إذا هى دارت أن أراها وأن أشَمّ النسيما

وهل عليها من حرج إذا طافت بها ذكريات الماضى، فحنّت إلى رؤية أطيافها فى فتى أو فتاة؟!

ثم إن نزوات القلوب لا تموت، ولكنها تفقد وسائلها من صحة وفتاء. وحسرات الشيخ على الشباب إنما هى حسرات الجائع يرى الطعام عن بعد، فلا يستطيع إليه وصولاً، ولا يجد له سبيلاً، إن ألذّ شىء عند العجائز أن يقضين النهار كله فى أنّ فلانة خُطبت، وفلانة تزوجت. وأن يحضرن الأفراح ويشاهدن العروس ليلة جلائها.

لما رأت أم زبيدة الحديث تافهاً، خطر لها بحق أن وجودها قد يكون سبباً فى كبح جماح عاطفة محمود فقامت مسرعة وهى تقول: يا حسرتى! لقد نسيت أن أنظر فيما تُعده الطاهية لغداء اليوم. ثم ذهبت نحو المطبخ ولقَبْقابها العالى جلبة وقعقعة.

وهنا نظر محمود إلى زبيدة فى ذل واستجداء، وقد أحسَّت فى لمحة خاطر ما وراء هذه النظرة، وهدتها فطرتها النسوية الماكرة إلى السكوت حتى تتفتَّح لها السبيل التى يجب أن تسلكها. فأطرقت إطراق المذنب الخاضع الذى وطّد النفس على تلقى ما يُقذف به من تهم. وهنا قال محمود:

لقد وعدتنى فى آخر لقاء لنا يا زبيدة أنك ستفكرين فى الأمر، وستصارحيننى بما انتهى إليه رأيك، وسألتك الرحمة بى فيما تفكرين، والإشفاق علىّ فيما تُبتين. ووالله ما لقيتك بعدها إلا خفت أن أسألك عما هداك إليه التفكير من الحكم لى أو علّى، لأنى رأيت من الخير لى أن أعيش فى نعمة من الشك، وأن أستمر فى مداعبة أمل واهن أضعف من أنفاس المحتضَر. والذى قال: إن اليأس إحدى الراحتين لم يكن يعرف أن العشاق كالغريق يتوكأ على الثُمامة، وأنه لولا ما يلازم الحب من الرجاء والخوف لكان إحساساً حقيراً كإحساس الجوع والعطش. مضى شهران يا زبيدة وأنا فى هذا الشك، فهل لديك اليوم كلمة أقوّى بها أملى، وأتوسم فيها وجه سعادتى؟ لا تقولى: «لا» يا زبيدة، فإنه لم يبق لى إلاّ وتر واحد ضعيف من أوتار الأمل، أعزف عليه أنشودة غرامى، فإذا قطعته يا زبيدة سكتت أنشودتى، وسكتت معها نبضات قلبى. قولى: «نعم» يا حبيبتى، وإذا عزّ عليك أن تقوليها فلا تقولى «لا».

كانت لواعج الحب تضطرم فى نفس زبيدة، وكانت تحس كأن سكاكين مثلّمة تحز فى قرارها، لأنها كانت تهوى ابن خالتها وتراه المثل الأعلى للزوج والحبيب، وتتمنى لو

ألقت بنفسها بين ذراعيه، ومزجت دموعها بدموعه. ولكن المسكينة كان لنفسها ناحيتان: ناحية يكتم فيها الوجدان وتطغى النزوات، وناحية ألقت بزمامها إلى العقل واستسلمت إلى سلطان الإرادة. وطالما تحكمت الثانية فى الأولى، وأسكتت صيحاتها. فالتفتت إليه وقالت:

ـ أنت لا تشك يا محمود أنى أحبك كما أحب أخى عليّاً، وأنى كلما فكرت فى أمرك ارتفع فى نظرى هذا الحب الأخوى الطاهر الشفّاف على حب الزوجة لزوجها، فأضن به أن يذهب من يدى لأستبدل به حبّاً ماديّاً أرضيّاً، قلقاً مضطرباً، ربما دام وربما لا يدوم.

ـ حبّاً قلقاً مضطرباً؟ إن حبى يا حبيبتى لو تجسم لكان ركانة فى الجبال، وصلابة وبأساً فى الحديد. إنه قطعة من الروح وفلذة من القلب، فإذا زال زالت الروح، وذهب القلب معه. إن الحب الأخوى نفحة وراثية، والحب الغرامى نفحة روحانية، وشتان ما بين النفحتين!! إن الحب الأخوى أثر المعاشرة والإلف، والحب الغرامى أثر الوحى والإلهام. لا تغالطينى يا حبيبتى، وإذا رضيت أن أكون لك أخاً فاطلقى لهذا الحب قليلاً من فضلة العنان، ليكون حبّاً قدسيّاً تتعانق فيه الروحان، وتتلاقى الشفتان.

ـ هل سألت أبى؟

ـ لقد أمللته حتى إنه كاد يفرّ منى. ولما ضاق بى ذرعاً آخر الأمر، التفت إلىّ حزيناً وقال: «إنك تزيد فى آلامى يا بنىّ بكثرة الإلحاح، لقد ذكرتك أمامها مرات، ويعلم الله أنى لم أترك وصفاً مما يرغّب النساء فى الرجال إلا خلعته عليك، ولكنى لم أر منها اتجاهاً إليك ولا رغبة فيك. وقد عاهدت نفسى ألا أجرى إلا على ما أرادت، وألاّ أدفعها إلى أمر لا ترغب فيه، فإذا رضيت بك زوجاً فإننى أكون أسعد خلق الله بهذا الزواج». أما أمك: لقد قضيت معها ساعة اليوم فلم أجد منها إلا موافقة تامة ورضاً كاملاً، غير أنها كانت كأبيك تخشى أن تلزمك إرادة أو تحملك على عزيمة، فالأمر بين يديك يا زبيدة. إن فى فمك كلمة هى الحياة أو الموت، فاشفقى على ابن خالتك المسكين!!

نظرت إليه زبيدة فى شىء من القلق مكتوم وقالت: لم يبق إلا رضاى؟! وهذا شىء هين، ولن يخلو زواج من عقبات، وهذه عقبة صغيرة أسأل الله أن يُقدرنى على تذليلها، فدعنى الآن يا محمود، فإن لكل شىء أواناً، والذى سُطّر فى لوح القدر سيكون، ولا بد أن يكون. وماذا أكون أنا أمام علم الله وقدرته؟وهنا ظهرت عند باب السلم الشيخة

أمينة، وهى امرأة كفيف تحفظ القرآن وتقرأ فى بيوت أغنياء المدينة، وكانت تقودها فتاة صغيرة قذرة الجلباب حافية القدمين، أصاب الرمد عينيها بدموع لا تنقطع، فأوشكت أن تشبه من تقودها. دخلت الشيخة أمينة وهى تقول:

صبّحكم الله بالخير جميعاً وكفاكم شرور هذا الزمان. إن المدينة اليوم فى ثورة جامحة، فإن عثمان خجا لم يكتف بما يفرضه من الضرائب والمكوس والمصادرات فى كل يوم، حتى ابتكر ضريبة جديدة لا تترك للفقير ما يقتات به، ولا تُبقى للغنىّ ما تبقّى له من قليل.

وهنا ظهر الحزن والهمّ على وجه محمود العسال، ونهض واقفاً وهو يقول: لا يمكن أن نعيش يوماً آخر مع هؤلاء المماليك. ثم حيّا زبيدة ومال إلى أذنها وهو يهمس: طال الصبر يا زبيدة فإلى متى؟ ثم أسرع نحو الباب.

وعندئذ قامت زبيدة متثاقلة حزينة، فهرُعت إلى غرفة نومها لتكتم آلامها، وما وصلت إليها حتى رمت بنفسها على السرير وكتمت أنفاسها الحرّى فى وسادة من الحرير، وأخذت تبكى بكاء مكتوماً اهتزت له أضلاعها فى خفقات مضطربة، وهى تقول:

أحبه!!... أحبه!!...

- ٢ -

وصل محمود إلى الشارع فرأى الناس يتسابقون إلى شارع زغلول، وفى كل وجه صورة مخيفة للغضب والحزن وحب الانتقام. وكانت العين لا ترى فيهم إلا أشباحاً للفقر والجوع والذل، لن تستطيع ريشة رسام أن تبوح بوصفها. مشى محمود فى إثرهم حتى إذا وصلوا إلى الشارع رآهم يتجهون نحو مسجد زغلول، فهزّ رأسه حزيناً وقال: مسكين هذا المسجد! أصبح من يلتجىء إليه من المظلومين أكثر ممن يقصده للصلاة والعبادة، والناس لا يجدون غياثاً فى هذه الأيام إلا العلماء والأعيان. وويل لهؤلاء العلماء والأعيان! إنهم أصبحوا أضعف من ذات خِمار أمام ظلم عثمان خجا وظلم أعوانه وعصابته. اذهبوا أيها المساكين اذهبوا، فإن عثمان خجا لن يرضى إلا بامتصاص آخر قطرة من دمائكم، وهو غراب مشئوم لا يستريح إلا بعد أن يرى المدينة قفراً يباباً. اذهبى اذهبى أيتها الضحايا المنكودة، فإن مراد بك إن رضى بقضم اللحوم فإن وكيله خجا لايشبعه إلا التهام الجلود.

ما هذا الحظّ العاثر يا رشيد؟ أإذا اقتسم إبراهيم بك ومراد بك أرض مصر، لا تكونين إلا من نصيب مراد بك الفاتك الجبار، الذى لم يبق بالبلاد قائماً ولا حصيداً، والذى إذا فرّ منه برعوث فى مدينة أحرق المدينة كلها ليقتله؟!.

ثم يأخذ محمود سمته إلى شارع البحر، ويميل إلى متجر أوليفر نيكلسون فيراه جالساً ومذبّته فى يده، يذود بها الذباب عن وجهه، وهو جهم الوجه حزين النفس يظهر عليه القلق والإضطراب. وكانت الصلة وثيقة العُرا بين محمود ونيكلسون لتلائم فى أخلاقهما، وللمعاملة المتصلة بينهما. فقد كان لمحمود متجر للمنسوجات الصوفية بالقاهرة ترك الإشراف عليه لابن عم له، فكان يشترى البضائع من نيكلسون ويبعث بها إلى القاهرة. وكان لنيكلسون اتصال وثيق أيضاً بأسرة البواب، فقد كان له أخ يتجر فى الأرز بدمشقْ فكان يبعث إليه به من مضرب البواب لثقته بأمانته وحسن معاملته. لذلك نمت الصداقة بين الأسرتين، فكانت بنته لورا نيكلسون لا تجد لها فى رشيد صديقة أوفى ولا أكرم صحبةً من زبيدة، فأكثرت من زيارتها والائتناس بها، وأحبت فى زبيدة لطفها وارتفاع مستوى تفكيرها وثقافتها عن مثيلاتها، وأن لها من صفات الأنوثة والبراعة فى إظهار جمالها ما يشبه ما تتحلّى به الأوربيات. ورأت زبيدة فى لورا نضارة الجمال الإنجليزى ورقته وحنانه، وكمال أدبه ودقة إحساسه، ففتنت بها وحاكتها - من حيث لا تدرى - فى كثير من اخلاقها وعاداتها وآدابها. وطالما جلست لورا لتفصّل لها الحلل على الطراز الأوربي.

حيًّا محمود صاحبه، وجلس وهو يلهث من الحرّ والتعب وقال:

- أرأيت الزُمر الحزينة البائسة وهي تهرول مستغيثة مولولة إلى مسجد زغلول؟

- نعم يا محمود رأيتها، وقد زادنى مرآها حزناً على حزن، وألماً على ألم. إن هؤلاء المماليك جزّارون لا يحسنون الذبح. إنهم مصابون بجنون التدمير والتخريب، وكم لاقت منهم مصر وتلاقى إن امتدّ بهم الحكم وطاولهم الزمان. إنى لم أر بلداً - فيما قرأت من تاريخ - فُلِج بمثل هذا الحكم، إن صحّ أن يُسمى ما نحن فيه حكماً. إن الزنوج الذين يسكنون فى وسط إفريقية لا يمكن أن يخطر بعقول رؤسائهم الضعيفة الجاهلة، أن يحكموا أتباعهم بهذه القسوة الطائشة والظلم الجارف. ولقد ضاعت مصر بين ضعف الدولة العثمانية وجهلها، وغباوة المماليك واستبدادهم. إن مصر اليوم تحكمها طائفة من اللصوص الأشقياء، الذين لا يقف شيء أمام جشعهم، ولا يزعهم شرف ولا دين، نهبوا

كل ما فى أيدى المصريين ولم يعطوهم شيئاً، فالوباء المتفشى فى الناس أشدّ من ظلم المماليك، والجهل الذى عطل عقولهم أشدّ من هذين.

ـ هذا بلاء محيق لا كاشف له إلا الله، فالناس يثورون فى كل يوم، ولكنهم لا يلاقون إلا الجَلْد والقتل، والتعذيب وهتك الحرمات، حتى لقد فرّ كثير من الأسر إلى دمياط والقاهرة لعلهم يجدون متنفّساً.

ـ يفرّون من المقلاة إلى النار، كما نقول فى بلادنا. المماليك مماليك فى كل أرض وبلد. اشنقوه، اقتلوه، أحرقوه. كلمات خفّت على ألسنتهم وتكررت كأنها تراتيل القساوسة. أرأيت كيف يسيئون إلى الإفرنج فى كل حين، على الرغم من أن لهم قناصل يحمونهم، فكم صادروا متجر «فارسى» الفرنسى ومتاجر سواه، وحينما كتبنا احتجاجاً إلى دولنا بأوربا لم يزدهم هذا إلا إيغالاً فى العسف وإغراقاً فى النكاية.

ـ إنهم يبغضون الفرنسيين ويجاملون غيرهم أحياناً. ألديك أخبار جديدة عن الحرب بين الدول؟

ـ قرأت أمس فى جريدة إيطالية صدرت منذ شهر، أن العداء شديد مستحكم بين إنجلترا وفرنسا، وأن الحرب قائمة بينهما على أشد ما تكون عنفاً وقسوة، وأن أساطيل إنجلترا تجوب البحار لحماية شواطئها وحصر فرنسا وحليفاتها، ومنع أى مدد يصل إليها، وإن الفرنسيين بعد أن فتحوا إيطاليا والنمسا وخافتهم بقية الدول الضعيفة فى أوربا، وأصبحوا يصيحون فى كل شارع فى زهو وشموخ قائلين: إلى إنجلترا... إلى إنجلترا... وكلما مرّ نابليون بونابرت ذلك القائد الجديد الذى تمخّضت عنه ثورتهم من حيث لا يعلمون، صاحوا: إلى النصر. إلى إنجلترا. إلى العالم!

ـ هل تظن أن مصر ينالها شىء من شرار هذه الحرب؟

ـ لقد أصابها الشرار فعلاً يا بنىّ، ألا ترى الكساد الذى نحن فيه وانقطاع الصادر والوارد؟

ـ إذا هجم هذا البونابرت على بلادك، أتسرع للدفاع عن حوزتها؟ وماذا يكون من أمر لورا؟ أتأخذها معك؟ إنى أرى من الخير أن تدعها عند خالتى أم زبيدة فإنها تكون إذاً بين أهلها.

ـ لن أستطيع أن أسافر يا محمود بعد أن أصبح البحر شعلة من نار، ثم إني واثق أن بلادي لن تُنال، وأن لها من قلوب أهلها وشجاعتهم، سوراً من فولاذ يصدّ عنها كل فاتح. إن غزوها محال، ولكن الذي يُهمني ويقضّ على مضجعي، أن يكون في الأمرُ خدعة. والذي يخيَّل إليّ أن هؤلاء الفرنسيين يُظهرون أنهم يستعدون للهجوم على إنجلترا، ليدفعوها إلى التفكير في حماية ثغورها والتفرغ إلى الاستعداد في بلادها، وليصرفوها عن النظر في أية خُطة أخرى. ثم هم من وراء ذلك يتجهون بجيوشهم وأساطيلهم إلى ناحية لم تخطر للإنجليز ببال. ويغلب على ظني أنهم بعد أن عجزوا عن غزو إنجلترا سيوجهون ضربتهم إلى مصر، ليسدّوا طريق التجارة الهندية في وجه إنجلترا بالسيطرة على البحر الأحمر. وربما خطر لهم، أن يتخذوا من مصر طريقاً لغزو الهند نفسها. لذلك أعددتُ لكل شيء عُدته منذ أشهر، فأسرعت في جمع ما على عملائي من ديون، وعقدت شركة مع عامل متجري «أورلندو» وهو رجل أمين أثق به، حتى إذا صحّ حدسي، ونزل الفرنسيون مصر، فررت من المدينة، وتركت له تجارتي، وهو إيطالي لا يمسه الفرنسيون بسوء. أما أنا والإنجليزية لغتي، وإنجلترا موطني، فلو بقيت بعد دخولهم يوماً واحداً للقيت منهم شرّ ما يلقى المرء من عدوه: من مصادرة واعتقال وإذلال. وربما هان على نفسي كل هذا في جانب ما أخاف على لورا.

ـ أنت رجل قويّ الخيال يا نيكلسون، والذي يستمع لحديثك هذا يظن أن أعلام سفنهم تخفق اليوم على ميناء الإسكندرية.

ـ إن الإنجليز يا محمود قد يصفهم الناس ببطء الفهم، ولكنهم إذا فهموا لم يخطئوا شاكلة الصواب، وهم قوم يجمعون الحوادث والمظاهر ويدرسونها درساً دقيقاً، ليستنبطوا منها نتيجة قلّ أن تخطيء. والحوادث التي درستها من شهر تنبئني بأن أعلام سفنهم ستخفق على ميناء الإسكندرية. وكيفما يكن الأمر فلست أرى في الحذر والحيطة بأساً، فالسفينة التي سأسافر بها راسية الآن أمام المتجر، حتى إذا حانت الساعة نقلت إليها ما أحتاج إليه، وخرجت من المدينة بلورا على حين غفلة من أهلها. أين تسهر هذه الليلة؟

ـ إنني أسهر عادة عند السيد إبراهيم الجمال، حيث نتحدث في التجارة ونتعرّف أخبار المدينة وحوادثها. وكثيراً ما يجرّنا الحديث إلى تعداد مظالم عثمان خجا وافتنانه في ضروب العسف، وهو حديث طويل محزن لولا ما يتخلله من فكاهات الحاج عبدالله البربير، وطرائفه ومضحكاته.

ـ إن اليوم عيد ميلاد لورا وقد أعدّت لنا الليلة وليمة ، وألحّت عليّ أن أدعوك إليها ، فهل تستطيع أن تزورنا بعد الغروب؟

ـ إننى أسرّ لكل ما يسرّ لورا ، وسأكون عندكم فى الموعد الذى ذكرت . وما أتمّ عبارته حتى سمع ضجيجاً وصياحاً وجلبة ، فنظر فإذا جمع حاشد كأنه البحر المائج ، فيه الرجال والنساء والأطفال وهم يصرخون ويولولون ، وأمام هذا الجمع علماء المدينة وقد اتجهوا جميعاً نحو ديوان الحاكم . فوثب محمود واندمج بينهم ، فلما انتهوا إلى الديوان زاد الضجيج وعلا الصياح ، وأخذ الأطفال يصفقون ويرددون عبارات يسجعونها وينغّمونها مثل :

مُوجـه رَايْحـة وجيّة موجّةْ   غرّقنـا ظلمَـك يا خُوجَةْ

ومثل :

مـا فينـا إلا العريان   إيش راح نعمـل يا عثمان

ودخل العلماء الديوان وهم فى حزن وغضب على ما أصاب مدينتهم ، فلما رآهم عثمان خُجا ـ وكان متكئاً على أريكة ـ لم يتحرك للقائهم وبادرهم قائلاً :

ـ لقد سئمت هذا اللعبة ومجّتها نفسى كلما هممت بعمل فى هذه المدينة رأيتكم تتصدّون لمعارضتى ، وتقفون فى طريقى ، حتى لم يبق عليّ إلا أن أستشيركم فى كل خطوة أخطوها . فتقدم إليه الشيخ صدّيق ـ وكانت إليه زعامة البلد ـ وهو عالم تقى زاهد ، ذرب اللسان قوى العارضة ، يجبه الناس بالحق ولا يخاف فى سبيله أحداً ، فقال :

ـ يا حضرة الأغا : كان يجب عليك أولاً أن تقوم إجلالاً للعلماء وتكريماً لهم ، والعلماء ورثة الأنبياء كما جاء فى الأثر الشريف ، فالذى لا يبجّل العلماء لا يبجّل الأنبياء والعياذ بالله ، وإذا رضيت لنفسك بهذا فإننا لا نرضى أن يقيم بمدينتنا من يتصف بهذا الوصف . ثم انفجر صائحاً : قم للعلماء أولاً ، ثم تكلم بما شئت ، فإن لكل كلام كلاماً .

فأحسّ الأغا بما يحيط به من خطر ، ورأى أن الشيخ جاءه من ناحية الدين ، وأن أيّة كلمة يقولها ستنقلب عليه وبالا ، فتلعثم وقال : يا مولانا : إن العلماء سادة الناس جميعاً ، وإنى أول من يتقرّب إلى الله بإرضائهم ، غير أن صياح هؤلاء العوام وما تجرّءوا عليه من

قذف الديوان بالطوب والأحجار، سلبنى صوابى وقلب ميزان تفكيرى. ثم أخذ يصافح العلماء فى أدب ورعب، فابتدره الشيخ قائلاً:

ـ قلت يا حضرة الأغا: إنك سئمت هذه اللُّعبة، فسميت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى فرضه الدين على كل مسلم ومسلمة: لعبة. وهذا تعد على الشرع الشريف، واستهزاء بأحكامه. واعلم يا حضرة الأغا أننا سنستمر فيما تسميه: لُعبة، ما دمت مستمراً فيما نسميه ظلماً وإرهاقاً، ثم قلتَ مستنكراً: إنه لم يبق عليك إلا أن تستشيرنا فى كل خطوة تخطوها، وقد أمر الله أشرفَ الخلق وسيّدهم محمد بن عبدالله، أن يستشير قومه وأين أنت من هذا المقام الأسمى؟ وإذا كنت تأنف أن تتشبه بالنبي الكريم، فتلك مسألة أنت تعرف سوء مغبتها.

إنك لم تدع فى المدينة رطباً ولا يابساً، لقد عصرت كل شيء حتى الأحجار والخشب، ولم يبق فى الناس إلا رمق خافت تريد اليوم أن تأتى عليه. إن العلماء قرروا وقف الدروس فى المسجد وإغلاقه، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. ثم همّ الشيخ والعلماء بالخروج فتشبث بهم عثمان خجا، وهو يقول فى تلعثم الخبيث اللئيم، الذى يريد أن يؤجل الضربة إلى فرصة قريبة: هذا أمر مراد بك الكبير وليس لى فيه يد، وسأرسل إلى القاهرة اليوم رسولاً لأرى رأيه فى الأمر.

فأجابه الشيخ صدّيق: ترسل أو لا ترسل، إننا سنذهب إلى بيوتنا وسنغلق أبوابها، وسنلتجىء إلى الله مستغيثين داعين أن يكشف عنا وعن أهل المدينة تلك الغاشية. وبينما العلماء نازلون من السلم إذ هدأ الجمع المحتشد حول الديوان، وإذا صوت يجلجل فى الفضاء خشناً مرعباً وهو يصيح:

خراب يا بيت خجا خراب. خراب يا بيت خجا خراب!

كان ذلك صوت الشيخ على سُرَيط، وهو شيخ كان أول أمره طالباً ذكياً نابغاً بمسجد زغلول، ثم تجرّد لكتب التصوف وأكثر من قراءتها، فاختلط عقله وأدركته جذبة، فكان يقضى ليله ونهاره ماشياً فى طرق المدينة وهو عارى الجسم، إلا خرقة يلفها حول وسطه، وكان للناس فيه اعتقاد راسخ ينقلون عنه كثيراً من الكرامات، ويرون أنه من أهل الله المقربين، وأن له لمحات يكشف بها ما خلف ستار الغيب، فلما سمع الجمع نداءه انطلق يردد ما يقول كما يقصف الرعد: خراب يا بيت خجا خراب!

كانت لورا تخطو إلى الثالثة والعشرين من سنها، يزينها جمال فاتن وطلعة مشرقة، وهى شقراء أميل إلى الطول منها إلى القصر، معتدلة القدّ خفيفة الروح والحركات، لها شعر ذهبى لمّاع كأنه إكليل من نضار توّجها به الجمال، وعينان زرقاوان فيهما السحر وفيهما الفتنة، وفيهما الوداعة وكرم الخلق وصفاء الضمير، وكان لها جسم بضّ كأنه البلّور المذاب، يكاد لصفائه تنعكس عليه الأشباح والصور؛ ولدت لورا في، مدينة «بليموث» من مقاطعة «ديفنشير» بإنجلترا، حيث كان يقيم أبوها وأمها، وكانت أمها من أسرة ميسورة تشتغل بصناعة السفن، وما مرّ على ولادتها أربعة أعوام حتى مرضت أمها ولم ينجع فى علاجها دواء، فماتت، وحزن عليها نيكلسون حزناً أوشك أن يقضى عليه، وأقسم ألا يتزوج بعدها، وأصابه شيء من الذهول كاد يكون خبلاً، فأشار عليه أبو زوجته أن يرحل من إنجلترا، فغادرها إلى مصر، وأخذ يتجر فى الصوف والحرير، وترك لورا بإنجلترا عند جدتها لأمها، فرأت فيها جدتُها صورة من بنتها فشغفت بها وبذلت أقصى جهودها فى تهذيبها وتعليمها، وبعثت بها إلى المدرسة فى سن السادسة، فبرزت مواهبها وفاقت أترابها، واشتهرت بين التلميذات بالذكاء والأدب الجمّ وحسن المعاشرة. ولما بلغت الخامسة عشرة أتمت الدراسة وألمّت بكل ما يجب أن تعرفه البنت من نظام البيت وشئونه، وسافر أبوها من مصر إلى إنجلترا فى صيف سنة ١٧٩٠ م فوجد ابنته وقد نضجت ثمرتها، وبدت فيها صورة ناطقة من أمها، ورأى أن بعده عنها فى بلاد الغربة قد كدر عليه صفو حياته، وجعله عرضة للسأم والحنين والهواجس، فعاد بها إلى رشيد، وأخذ يلقّنها العربية ويعمل على اتصالها ببنات الأسر العريقة بالمدينة، فالتقطت اللهجة الرشيدية صحيحة واضحة بعد سنة أو أكثر، وأصبحت تتكلم بها فى طلاقة ويسر، وأغرم بها نساء المدينة وبناتها، فكانت قِبلة أنظارهن وسمر مجالسهن، وطابت للورا الحياة فى هذا المجتمع، وطبعت نفسها بكثير من عاداته وآدابه. وكانت إذا خرجت لزيارة صديقاتها تلبس الحبرة السوداء والبرقع الكثيف، الذى ليس به إلا ثقبان صغيران للعينين فلا يكاد يميزها أحد من بنات المدينة.

وكانت تختلط بمحمود العسال لكثرة زياراته لأبيها للمسامرة والحديث فى التجارة، ولأنها كثيراً ما كانت تراه عند زياراتها الكثيرة لأمه أو لزبيدة بنت البواب، وكان محمود

على ما وصفنا من وسامة ورجولة وخلق عظيم، فأحسّت نحوه أول الأمر بشيء من الإكبار، كما يُعجب الأطفال بأبطال القصص التى تروى لهم، ثم زاد هذا الإحساس قليلاً فصار رغبة فى مقابلته ومجالسته والحديث معه، ثم نما فصار شغفاً بالتحدث عنه والإكثار من ذكره، حتى كادت تسئم خادمتها الحاجة مبروكة، ثم انقلب هذا الإحساس وَلوعاً وحباً بالغت فى كتمانه، واستعانت بكل ما تستطيع المرأة من رياء لكبته ودفنه فى صدرها، فلم يره أحد، ولم يشعر به أحد، وبقى سرّاً غامضاً فى سويدائها لا تبوح به إلا لأحلامها، ولا تهمس به إلا لوسادتها، حينما تتقلّب على سريرها قلقة تتمنى الأمانىّ وتتوجس العقبات: لم تسمع أن مسيحية تزوجت بمسلم، وهى لا يمكن أن تفرط فى دينها من أجل حب، وإذا كان قاتلاً، ثم إذا جاز فى الإسلام أن يتزوج المسلم بمسيحية، فمن أين لها أن تعلم أن أباها سيرضى عن هذا الزواج ويباركه؟ وإذا رضى أبوها فهل يحبها محمود كما تحبه؟ وهلى يطغى على المأثور من العادات فى سبيل ضمها بين ذراعيه؟ إنه لم ينظر إليها نظرة مريبة، ولم تطفر منه كلمة فيها أقل تورية أو تلميح، وكل ما فى أمره أنه يختلط بالأسرة اختلاط الصديق الوفىّ الطاهر القلب، الذى يجرى على سجيته ولا يبدو فى كلماته أو لمحاته أو أعماله إلا اللطف والحنان، إنه لم يعرف الحب، ولم تهتزّ له أوتار قلبه، إنه ملك كريم، والملائكة لا يعشقون.

شغفت لورا بمحمود وكتمت غرامها، وأصبحت تعلل نفسها برؤيته بين الحين والحين، فطلبت إلى أبيها أن يدعوه لوليمة عيد ميلادها، واجتهدت فى أن تجعلها حافلة بالألوان متقنة الطهو، فقضت النهار كله مع مبروكة وخادمها عبد الدايم فى إعدادها، وأكثرت من أنواع الكعك، وتأنقت فى عمل «البودنج» حتى إذا جاء وقت العصر تفرغت لزينتها ولبست أجمل ما لديها من الحلل، ونظرت فى مرآتها. فرأت صورة للجمال الإنجليزى الفاتن، ثم نظرت فى مرآة خيالها فبدا لها محمود العسال وهو صورة للجمال المصرى الرائع، فتمنت لو اجتمع الشرق والغرب، وودت لو تدانى البعيدان، وتعانقت الصورتان!

أذّن مؤذّن جامع «الإدفينى» للمغرب، واتجه «نيكلسون» إلى داره حزيناً مفكراً، حتى إذا قابلته لورا أخفى ما فى نفسه وغمرها بالعناق والقُبَل، وقال باسماً:

ـ ماذا صنعتْ لنا سيدة الدار فى هذه الليلة؟ إنى أشم روائح مشهيّة لألوان مختلفة، وأكاد من السرور والجوع ألتهم السيدة الطاهية قبل أن ألتهم ما طهته من أصناف الطعام.

ـ إن السيدة الطاهية تحكمت اليوم فى مال أبيها، وبذّرت فيه تبذيراً.

ـ إن الأبّ والمال لك يا فتاتى الحلوة، فافعلى بهما ما شئت.

ـ نحن هنا يا أبى فى الشرق موطن الكرم وحسن الضيافة، وقد أردت أن أحاكى زبيدة فيما تصنع من ولائم، فأكثرت من الألوان وخاصة بعد أن دعونا محموداً العسال. أوعدك بالحضور يا أبى؟

ـ إنه أجاب مغتبطاً مسروراً. هذا الشاب أحبه كما أحبك يا لورا؛ لم أر فيه منقصة ولم أوقع له على زَلة، وله أخلاق تقرب كثيراً من أخلاقنا: ففيه الشهامة والصراحة، والصدق والغضب للحق، ونصرة الضعيف. إنه شهم يا لورا، وطالما تمنيت لو يكون لى ولد مثله.

ـ لو كان ذلك لفزتُ بأخ كريم! وهنا سُمعت دقات على الباب ودخل محمود فحيّاهما، وهنأ لورا فابتسمت له ابتسامة مشرقة، وصاحت بخادميها أن يُعدّا المائدة. وكان نيكلسون بادى السرور والمرح، كثير النوادر والنكات، مسرفاً فى الضحك. أما محمود: فقداستولى عليه وجوم عجز عن إخفائه، وحاول كثيراً أن يندمج فى الحديث والضحك فظهر تكلفه، وبان تصنُّعه. فمال عليه نيكلسون قائلاً:

ـ ما بال بطلنا الليلة منقبض الأسارير على غير عادته؟

ـ هذه الحوادث التى جرت اليوم أزعجتنى.

ـ حوادث شغب العوام وقذفهم ديوان الوالى بالأحجار؟

هذا يا بنىّ يحدث فى كل يوم حتى اعتادته النفس، ولو حزنا لكل ما نراه لقضينا العمر غمّاً وأسفاً. لا يا بنى! أظن أن شيئاً آخر يحزنك، فإنى ما رأيتك إلا باسماً مستبشراً، وهذه ليلة لورا فكان عليك أن تكون فيها على أحسن ما تكون.

ـ الحق أن هناك مسألة تنغص علىّ حياتى كلها، ولستَ بغريب منى يا نيكلسون، ولا أعدّ لورا إلا أختاً لى لا يُكتم دونها حديث. لقد برّح بى حب بنت خالتى زبيدة، وكثيراً ما كاشفتها بهذا الحب وهى تروغ منى وتلتمس المعاذير، حتى إذا كدت أيأس منها وأيأس من نفسى ذهبت إليها فى هذا الصباح لأظفر منها بوعد أو خيال من وعد، فلم أنل منها إلا المماطلة والتسويف، والإحالة إلى الأقدار.

سمعت لورا ذلك فأحست بقذيفة تنفجر فى قلبها فتذهب به بدداً، فشخصت عيناها فى ذهول، وأوشكت أن يغمى عليها، لولا عزيمة جبارة انتشلتها من يد العواطف الثائرة. ثم نظرت إلى محمود فى شغف وألم وحسرة، وقد طارت امالها مع الرياح، ودكّ ما بنته من الآمال والأحلام دكاً، ورأت أن قلب حبيبها قد شغل عنها بسواها، وأنه لم يبق به زاوية صغيرة يلجأ إليها غرامها العنيف القاتل، وأن من عجائب القدر أن يُشغف محمود بزبيدة أحب صديقاتها إليها، وأقربهن إلى هواها وعطفها وحنانها. إن حبها له يحملها على صرفه عن زبيدة والضنّ به عن أية امرأة كيفما كانت، ثم إن هذا الحب نفسه وما فيه من حنان، يفرض عليها أن تبذل كل ما فى قدرتها لإسعاده وهناءته، ولن يسعده إلا أن ينال يد زبيدة، فهل يدفعها حبها إلى التضحية بآمال حبها؟ وهل يستطيع ذلك الحب أن يبلغ ذروة الشرف فيكتم ناره فى قلبه، ويقضى على الغيرة الطبيعية التى تمزقه، ويقنع بأن يرى حبيبه هانئاً سعيداً؟ إن اجتذاب الحبيب بالإغراء وسيلة رخيصة لا تليق بحبها الطاهر، والحب الذى لا ينال إلا بغمز العيون ومضغ الكلام، قليلاً ما يدوم. وهناك مسألة أخرى: تلك أن تكون زبيدة مرائية ختّالة، وأن فرط حبها له يحملها على فرط الإدلال عليه. فإذا عملت لورا على اجتذابه إليها فرّقت بين عاشقين هما أحب الناس إليها، وأقربهم إلى قلبها.

نظرت لورا إلى محمود وهذه العواطف الجامحة تعتلج فى نفسها، ولكن عزيمتها الإنجليزية أبت أن يظهر منها أى أثر على وجهها، وقالت:

- مسكين يا محمود! لم أعرف أنك متعلق بزبيدة، ولكنى أعرف أنها تهتم بذكرك، وتكيل لك الثناء والمديح كيلاً.

- يظهر أن الثناء غير الحب، ويظهر أن شيطاناً عنيداً يتحكم فى رأس زبيدة، ويحذّرها من التزوج بى.

- هذا عجيب! إن مثلك يا محمود تتمناه وتتشرفُ به أية فتاة رشيدة.

- الذى يهمنى أن أعرف هذا السرّ الذى يحول بينها وبينى.

- مسكين يا محمود! ثم قالت وقلبها يكاد يتقطع حسرة وألماً: سأكون سفيرتك فى هذا الأمر يا محمود، وسأبذل جهد الأخت الشقيقة حتى تفوز بأمنيتك. دع الأمر لى فإننا فى هذا المجال أمهر من الرجال وأشدّ تأثيراً.

ـ جزاك الله خيراً يا لورا، وأرجوا أن توفقي حيث خبتُ وتقطعت حبائلي وأشراكي.

وهنا أطلّ نيكلسون من النافذة، فرأى في الشارع طوائف من الناس يلغطون، فظن أنهم يتحدثون في شأن عثمان خجا، ولكنه سمع أحدهم يقول: «إنه جاء من الإسكندرية، ويقال إن السيد محمد كرّيم هو الذي أرسله» فظهر عليه الإضطراب، وبرقت عيناه واصفرّ وجهه، وقال لمحمود: يظهر أن الواقعة وقعت، وأن شيئاً جللاً حدث بالإسكندرية. هلم يا محمود لنعرف جلية الخبر. في وديعة الله يا لورا، وسأعود بعد ساعة.

ارتبكت لورا وظهر عليها الخوف، وألحّت على أبيها أن يكشف لها عن حقيقة الأمر، ولكنه أسكتها بقبلتين، وأثار شكوكها بدمعتين سقطتا على خديها، وانصرف مع محمود مسرعين.

أخذ محمود يسأل المُجتمعين عن سبب ضجيجهم، فقال له أحدهم: إن صديقاً أكد له أن الإفرنج نزلوا الإسكندرية وامتلكوها، وأن رسولاً أرسله السيد محمد كريم محافظ الإسكندرية إلى عثمان خجا ليخبره بالأمر، وأن الناس يذهبون أفواجاً إلى الديوان.

فأسرع محمود ونيكلسون إلى الديوان ـ وكان الزحام حوله شديداً ـ فاخترقا الصفوف حتى دخلا، فرأيا عثمان خجا ومعه الأعيان والتجار ـ لأن العلماء أبوا أن يستجيبوا لدعوته ـ وقد جلسوا وهم صموت يبدو عليهم الذعر والحيرة، ورأيا رسول السيد محمد كريم واقفاً أمامهم. فاتجه عثمان خجا وقد جفّ ريقه وارتعدت أوصاله وقال للرسول:

نبئنا بخبر هذه الداهية مفصّلاً، فقال:

وصلتْ بالأمس إلى مياه الإسكندرية عمارة فرنسية عند مطلع الفجر، فلما ارتفع النهار رآها أهل الثغر وقد غطت سفنها مياه البحر، ولكنها لم تقف بالميناء بل اتجهت إلى ناحية العجميّ، فأرسل السيد محمد كريم طوائف العربان إلى هذه الجهة، فرأوا أنها أخذت تُنزل الجنود بالزوارق عند المكس بعد منتصف الليل، حتى إذا تجمع الجيش سار في ثلاث فرق نحو الإسكندرية. وحاول بعض عربان الهنادي مناوشة الجنود فلم يفلحوا إلا قليلاً، وجمع السيد محمد كريم كل رجاله وجنوده فانهزموا لقلة عددهم وسلاحهم،

وقدِم مدافعهم وتهدم حصونهم. ودخل الإفرنج المدينة فى صباح اليوم بعد أن قاومهم الأهالى فمزقوهم بقذائفهم. أما رئيسهم: فيدعى: نابليون، وهو شاب صغير السن نحيف الجسم، ولكن جميع قواده يبجلونه ويخضعون له خضوع العبيد للسيد. وهو يدَّعى أنه صديق الدولة العثمانية، وحبيب الإسلام والمسلمين، وأنه لم يأت إلى مصر إلا لإنقاذ أهلها من ظلم المماليك. ويبلغ جيشه نحو الثلاثين ألفاً، ومعهم من آلات الحرب ما لا عهد لنا به. وقد أظهر السيد كريم الخضوع لنابليون وشرع يساعده فى الظاهر فى جمع الخيل والجمال، ودعوه العربان إلى مناصرته، وأرسلنى إليكم سرّاً لتأخذوا حذركم وأسلحتكم وتحصّنوا المدينة، وتجمعوا الجنود والأهلين للقاء هذا الطاغية، فقد يسقط جيشه على رشيد فى أي يوم. فقال عثمان خجا:

ـ لا بد من المقاومة والاستماتة فى الدفاع، وربما استطعنا أن نلقّن هؤلاء الإفرنج درساً لا ينسى.

ـ فقال السيد محمد البواب، وكان شيخاً فى الخمسين فارع الطول متين بناء الجسم، جريئاً شجاعاً: إن حصون المدينة ضعيفة وأسوارها مهدّمة، ومحال أن يستطاع تقويتها فى زمن قصير.

ـ فقال خجا غاضباً: هذا دأبكم دائماً يا أبناء العرب، لا تثبتون على الشدائد.

ـ نحن أثبت على الشدائد من الجبال، ولكنا نحمل الآن أوزار ظلمكم وعبثكم بشئون البلد. أتظن يا أغا أن فى المدينة رجلاً واحداً يرضى أن يشدّ أزرك فى قتال؟ لقد زهدّتهم فى الحياة، وأخمدت فى نفوسهم البطولة وحب الوطن، حتى أصبحوا يؤثرون فى قرارة نفوسهم أن يحكمهم مجوسىّ أو وثنىّ. لقد زرعتم الحنظل واليوم تجنون ثماره، وقتلتم كل نازعة للرجولة فى كل نفس، ثم جئتم تستنهضون الهمم بعد أن ماتت الهمم. إنما يدافع عن وطنه من يشعر أنه ملهى صباه ومصدر مجده، ومقرّ سعادته وموئل حريته، وأن ما فيه من أرض وماء وهواء ملك له ولسلالته من بعده، أما من يعذب في وطنه ويحرم خيراته، ويساق إلى العمل كما تساق البهائم لينعمَ غيره وهو جائع، فلن يعرف معنى للوطن، أو معنى للدفاع عن الوطن.

فبهت عثمان أغا والتفت إلى التجار، وقال: أهذا رأيكم فى رجال مدينتكم؟ فانبرى إليه الحاج أحمد شهاب وقال:

إن هذا ليس عاراً على أهل المدينة، إنما العار على من يطلب من المذبوح أن يدفع عن نفسه. وهنا قام السيد محمد البواب وقام الأعيان منصرفين خلفه، وتركوا عثمان خجا يتحرّق غيظاً. ولو استطاع أن يقبض عليهم ويذيقهم صنوف النكال لفعل، ولكن اضطراب المدينة واقتراب الأعداء لم يدعا له سبيلا لشفاء نفسه. ومال نيكلسون فى الطريق على اذن محمود يقول فى صوت خافت: سأرحل الليلة فقد أعددت كل شيء. ثم أسرعا إلى الدار. وأحضرا من يحمل المتاع إلى السفينة، وغيّر نيكلسون ملابسه وتزيّا بزيّ المغاربة، وحمل فى منطقته مسدّسين وأكياساً بها من الذهب ما يزيد على ألف محبوب. ولبست لورا حبرتها والدموع تتساقط من عينيها، وسارت معهما إلى السفينة. وهناك ودّع نيكلسون صديقه وداع الأب الشفيق للولد البار، وهمس فى أذنه: إذا قدمتَ القاهرة فسل عن الحاج محمد السوسى بسوق المغاربة. وتقدّمت لورا نحو محمود باكية الطرف دامية القلب وهى تقول: إلى اللقاء القريب يا محمود! ثم أقلعت السفينة وهبّت الريح شمالية فدفعتها إلى الجنوب، ووقف محمود حزيناً يقلّب كفيه أسفاً، وقد أحس أنه كان له جناحان فرماه الدهر فيهما. ثم نظر فرأى السفينة وقد التقمها اليمّ وطواها الظلام.

- ٤ -

فى يوم الثلاثاء الثالث من شهر يولية سنة ١٧٩٨ م كانت رشيد كالبحر المائج المضطرب، عصفت رياحه وتواثبت أمواجه. فكنت تسمع جلبة فى كل مكان، وترى أفواجاً من الأهلين تساق بالسياط، وجنوداً من الفرسان تعدو بخيولها هنا وهناك، والبنادق فى أيديهم يهددون بها كل من لاذ بداره أو حاول الفرار. فقد أصدر عثمان خجا أوامر قاسية، بأن يقوم كل رشيديّ بالمعاونة فى تجديد الأسوار وتقوية الأبواب والحصون، وأن يعدّ كل رشيدى سلاحاً كيفما كان نوعه لقتال الغزاة الغاصبين، ولم تستثن أوامره طفلاً ولا شيخاً هِمّاً ولا مريضاً زمناً. وكان سليم بك رئيس العسكر، وعلى جاويش مساعده، يمران على الجند لحثهم على بذل أقصى الجهد فى حشد الناس، واتخاذ كل وسائل الشدة والعسف فى سوقهم إلى العمل. فوثبوا على المنازل واستباحوا حرمتها، وقبضوا على النساء لدفع أزواجهن أو آبائهن إلى الظهور، وقتلوا كثيراً، ونهبوا من مدّخرات البيوت كثيراً. كانت رشيد فى هذا اليوم وما تلاه من أيام جحيماً أجّجها الظلم وأشعلها الغباء،

فكنت لا تسمع فيها إلا رنات السياط على الظهور، وقصف المدافع والبنادق ممتزجاً بصراخ الأطفال، وولولة النساء.

وفي صبيحة يوم الجمعة السادس من شهر يولية، رأى الناس من المآذن ـ وكانوا يصعدون إليها في كل يوم ـ جيشاً يبلغ عدده نحو ألفي مقاتل يزحف على رشيد بعد أن غادر ادكو. وهنا أعدّ عثمان خجا جنوده، وكانوا لا يزيدون على مائة من الإنكشارية وبعض الباشبوزق، وانضم إلى هؤلاء بعض الأهلين كارهين، وقد سُلّحوا بالعصي والسكاكين، وهجم الجنرال «دوجا» بجيوشه وآلاته الحديثة على رشيد عند الظهيرة، وما كان أشد دهشته حين رأى جيش المماليك يفرّ من غير أن يجرد سلاحاً، وحين رأى الأهلين يرحبون بقدومه ويحيّونه تحية الفارس المنقذ الذي أرسله الله لخلاصهم من ظلم المماليك. أما عثمان خجا وسليم بك: فقد كانا في الفرار أسرع من جنودهما، فركبا النيل إلى دمياط.

دخل «دوجا» رشيد دخول الفاتحين، وبقي بها يومين أو ثلاثة حتى قدم الجنرال «جاك فرنسوا مينو» الذي عينه نابليون حاكماً لرشيد، فهرُع الأعيان وعظماء المدينة إلى استقباله، وأظهروا البشر والسرور، وتلقّوه بالزمر والطبول، وأطلّت النساء من النوافذ ومن فوق سطوح الدور، يحيينه بالأغاريد، وسلّم إليه على جاويش مفاتيح المدينة في حفل حافل، وقف فيه مينو فألقى خطبة مسهبة لخصها ترجمانه «إلياس فخر» فقال:

إن جناب الجنرال لن يتدخّل في الحكم الداخلي للمدينة، ويطلب من الأعيان وكبار البلد أن يؤلفوا منهم ديواناً للنظر في شئون الناس. ثم إنه يؤكد أن كل ما يشترى للجيش يصرف ثمنه للتجار ذهباً، ويعلن ميله وميل دولته الشديد للإسلام، وأنه سيكون أول من يذهب إلى المساجد للصلاة، وأن حكم الجمهورية الفرنسية مؤسس على الإخاء والمساواة، وأنه جاء لينشر العدل ويبدّد ظلام الجهل والظلم.

كان مينو في نحو الثامنة والأربعين من عمره، ربعة في الرجال غليظ الوجه ثقيل الملامح، أشقر الشعر دبّ الشيب إلى فوديه قليلاً. وكان سريع التأثر، يفعل ما لا يقول، ويقول ما لا يفعل. سريع الغضب والرضا، معتدّاً بنفسه كثير الزهو بذكائه، يعتقد أن حكمة الدنيا وفلسفتها أنزلت عليه وحياً، وأن محجّبات الغيب دانت لعبقريته طوعاً. وقد أدّى به ذلك الاعتقاد إلى الصلف واحتقار آراء غيره، ودعاه إلى العجلة وسرعة البتّ في الأمور الخطيرة بلا أناة أو تفكير أو مشاورة. فجرّ عليه ذلك بغض زملائه ومرءوسيه،

وسخطهم عليه والسخرية منه . وكان من أسرة نبيلة بفرنسا، وربما زاد هذا النسب فى كبريائه على أنداده من رجال الحملة ، وربما أبطره عطف نابليون عليه عطفاً حار فى تعليله المؤرخون .

اجتمع العلماء والتجار وأعيان المدينة بمنزل السيد محمد البواب ، لينظروا فى هذا الحادث الجلل ، بعد أن صرّح مينو بسياسته ، فقال الحاج أحمد شهاب :

يظهر أن الله أراد الخير لهذا البلد المسكين ، فأرسل هؤلاء الفرنسيين لإنقاذه .

فقال الشيخ الخضرى :

أفتى بعض العلماء تيمور لنك بأن الحاكم الكافر إذا كان عادلاً ، خير من الحاكم المسلم إذا كان ظالماً . وهنا زفر الشيخ صديق ، وقال : صدق الله العظيم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالاً ، ودّوا ما عنتّم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ .

فاتجه إليه الشيخ الخضرى وقال : يا مولانا لقد سمعناه اليوم يقول : إنه سيترك الحكم لأهل البلد ، وإنه يحب الإسلام ، وإنه سيؤدى الصلوات :

فتنحنح الحاج عبدالله البربير وقال :

- قد بُلينا بأمير ظلم الناسَ وسبّحْ
فهو كالجزار فينا يذكر الله ويذبح

وهل يصلى بهذا السروال المقمَّط ، وهذه القبعة التى تشبه زنبيل الأرز !

فوقف محمود العسال وقال : إنى لشديد العجب من أن أرى قوماً يرحّبون بغاز لبلادهم ، مغير على وطنهم كيفما كان جنسه أو دينه أو خلقه . إن الرجل منكم إذا غالطه جاره فى حدّ من حدود أرضه ، أو فتح نافذة على أرض خربة يملكها ، أقام الدنيا وأقعدها ، وراح يثير عليه الحكام ويصب عليه صنوف الانتقام ، ولكنى أراكم وقد ضاع الوطن العزيز واستبيح حماه ، وديس عرينه وتمكن من رقبته عدو جبار ، تسرّون وتفرحون ويهنىء بعضكم بعضاً بهذا الفتح المبين والنصر المؤزّر . إننا نبغض المماليك ونضج من ظلمهم وطغيانهم ، فهل معنى هذا أن نترك الدفاع عن البلد لنستريح منهم بدخول عدو جديد؟ عارٌ

أيها الناس وأىُّ عار أن يقال: إن رشيد لم تدفع عن حوزتها دفاع الأسود، وإنها قابلت فاتحيها بالطبل والزمور! عارٌ وأىّ عار أن يقال: إن شرذمة قليلة من الفرنسيين لا تزيد على الألفين، فتحت مدينة حصينة آهلة بسكانها، وإن هذه المدينة التس سيسخر منها التاريخ قابلت أعداءها بنثر الأزهار والرياحين، كما يقابل الغزاة الفاتحون. نحن نبغض المماليك حقاً، فهل كانت تقصر همتنا ـ ونحن نستطيع أن نجمع عشرين ألفاً من أشداء الرجال ـ عن القضاء على المماليك والفرنسيين معاً، وأن نقتنص هذه الفرصة الطائرة لنغسل عار رشيد بدمائهم جميعاً؟ كان علينا ألا نقبع فى دورنا حتى يصلُوا إلينا، فقد قال ابن أبى طالب: ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلّوا. بل كان يجب أن نقابلهم فى الرمال المحرقة فنبيد جموعهم فى الصحراء بين رشيد والإسكندرية، ولكن لن يفلح قوم لا قائد لهم! والأمم إباء وكبرياء، فإذا مات الإباء وذلت الكبرياء بادت الأمم. قال هذا وخرج مسرعاً وقد عصف به الحزن والغضب، وترك القوم واجمين ذاهلين، وإذا صوت الشيخ على سريط يملأ جوانب الفضاء وهو يصيح: إذا ذهب الذئب وجاء الأسد، فيا ضيعة المال والولد!!

وبعد أيام أنشأ مينو ديواناً للأحكام عين به بعض العلماء والأعيان، والفرنسيين والمترجمين. وأظهر فى أول عهده العدل والتسامح، وبالغ فى الاختلاط بالأهلين، فكان بيته فى كل ليلة مثابة للعظماء والعلماء. وكان يتحدّث فى هذه السهرات فى عظمة فرنسا وقوّتها، وأنها اجتاحت الممالك وقهرت الأمم. وكثيراً ما كان يمازح الشيخ البربير ويبادله النكات. وكان من بين المتزاحمين على مودته والتقرب إليه السيد على الحمامى أخو زبيدة من أمها، فإنه بعد أن عين عضواً فى الديوان أخذ يملأ الدنيا ثناء على الفرنسيين، ويضع «الجوكار» وهو شعار الجمهورية على صدره فخوراً تيّاهاً، حتى سمّاه بعض خبثاء المدينة «الأوفيسيال على». أما محمود العسال: فكان يرأس جماعة الساخطين من شبان المدينة، وكان يجهر برأيه فى حكم الفرنسيين غير هيّاب حتى لقد شكاه الضابط «لوى أوجست» نائب الحاكم العام إلى مينو مرات، فكان يشفع له علىّ الحمامى، والسيد محمد البواب.

وكانت زبيدة فى هذا الحين مريضة طريح فراشها، فإنها منذ رفضت مكرهة خطبة محمود ضاقت نفسها عن احتمال ما هى فيه من حب ورياء، وأمل كاذب، فتوالت عليها الأوهام وتزاحمت الآلام. ومضت الأيام والأسابيع، وهى لا تزيد إلا سقماً، ولا تجد إلى الشفاء من سبيل. وكانت تنتعش قليلاً لزيارة محمود ويعود إلى وجهها شىء من نضارة

الحياة، حتى إن أمها كانت ترجوه أن يزورها فى كل يوم، وما كان فى حاجة إلى رجاء. ولم تُبق أمها دواء ولا بَخوراً ولا حجاباً ولا تميمة، إلا بذلت فيه المال الكثير طامعة راضية، ولكن المرض كان يطغى بزبيدة ويعصف بشبابها. زارها يوماً محمود وقد كاد يبلغ بها الوصب غايته، فأطفأ بريق العيون ومحا نضارة الخدود، ولم يُبْقِ منها إلا هيكلاً من جمال قديم، فنظرت إليه فى شغف ويأس، وقالت:

ـ مسكين يا محمود! إن الزهرة التى سقيتها بدمعك، وأدفأتها بزفراتك، وغرستها فى سويداء قلبك، وكنت تغار من النسيم أن يمسَّها، ومن الطلّ أن يلثِمها، ومن الشمس الضاحكة أن تداعب أوراقها، وكنت تباهى بها الأزهار وتتحدى البساتين ـ قد هبّت عليها عاصفة هوجاء فتركتها هشيماً، واصطلحت عليها الأنواء فغادرتها حُطاماً. أنظر إلىّ يا محمود فهل ترانى كما كنت أكون، أو كما كنت تحب أن أكون! الشباب والصحة جمال الجمال، والشباب والصحة جمال الروح، والشباب والصحة جمال الحياة. إنى أحس وأنا راقدة فى فراشى أن هذا السرير يعدو بى إلى الموت عدواً، وأود أن أملأ عينىّ من كل شىء فى الحياة، قبل أن أفارق الحياة!!

كان محمود حزيناً مطرقاً، يغالب دموع عينيه ويكبت زفرات صدره، فالتفت إليها وقد تكلف الابتسام قائلاً:

ـ أنت تفارقين الحياة؟ هذا مستحيل! إن الله أرحم بعباده من أن يفجعهم بهذه الفجيعة. إن روحك يا زبيدة متصل بكل روح، وقلبك يرسل الحياة والأمل إلى كل قلب، فهل تظنين أن الله سيطفىء روحاً بها حياة الأرواح وأمل القلوب؟ إن زهرتى إن ذبلت اليوم فإن فى جمالها الكامن ما يتحدّى العواصف والأنواء، وسنراها غداً، وهى تتخايل فوق غصنها ناضرة فتّانة، إن الشمس يا زبيدة لا تموت، ولكنها إذا جاء الأصيل درجت إلى سريرها فنامت الليل كما تنامين فوق هذا السرير، ثم بزغت فى الصباح متلألئة باسمة.

وهنا ألقت بيدها النحيلة بين يديه، وقالت: هذا كلام لطيف يا محمود ولكنى أشعر بما لا تشعر به. وكثيراً ما سررت وأنا فى غمرة أحزانى من أنى لم أسرع إلى إجابة خطبتك، حتى لكأنى كنت أقرأ ما دوّنه القدر. فما كان أعظم الكارثة علينا لو دهمنى الموت بعد زواجنا، فشرِقنا بكأس النعيم، وذهبت الحياة ونحن فى أول نشوة من خمر الحياة!

وماذا يكون من أمرك حين تدفن العروس بثوب جلائها، ويسلبك القدر ريحانة لم تنعَم طويلاً بشذاها؟ وحين يكاد يختلط بسمعك لقرب ما بينهما عزف الراقصات بلطم النادبات، وضحكات المغنيات بولولة الناعيات؟!

فقاطعها قائلاً: رفقاً بي يا زبيدة ولا تسترسلي في هذه الناحية المظلمة القاتمة، ارحميني يا حبيبتي، ودعي ذكر الموت والنادبات، أتذكرين حين خرجنا يوم شم النسيم الماضي وقضينا يوماً سعيداً ضاحكاً مع أمك وأخيك عليّ ولورا، إني لن أنسى هذا اليوم، وأشعر واثقاً أننا سنعيد ذكراه معاً وأنت في أنضر ما تكونين صحة ومرحاً وشباباً، فانتعشت زبيدة وقالت:

- ما كان أجمله يا محمود! خرجنا في ذلك اليوم في غبش الفجر، وقد كنا أعددنا كل شيء، وكان أبي نائماً، فكانت أمي تمشي على أطراف أصابعها خشية إيقاظه كما تمشي الناقة العرجاء، ثم طافت بوجهها ابتسامة خفيفة واستمرت تقول: وقد أدرك أمي سعال فكانت تكتمه بيديها، وأخي يلطم خده ويقول: ضعنا والله. لو استيقظ ما سمح بخروج النساء.

- وقد مشينا في هذا اليوم على شاطىء النيل والنسيم يهبّ خفيفاً بليلاً كأنه هبّات الأمل في نفوس اليائسين، حتى إذا اجتزنا دوائر الأرز ذهبنا جنوباً بين تلك الحدائق الزُّهر الباسمة، وأشجار الفاكهة التي أحسّت بالربيع فتفتحت أنوارها لتقبيله، وامتدت غصونها لعناقه.

- وقد نظرت حينئذٍ فلم أجد أحداً، فخلعت ملاءتي أنا ولورا وذهبنا نمرح بين الأغصان كأننا طفلتان صانتهما الطفولة من خائنة الأعين وما تخفي الصدور. أتذكر حين تسلّقت لورا شجرة الجميز ثم قبضت بيديها على أحد فروعها، وأخذت تتأرجح به ضاحكة لاهية، وأمي تحت الشجرة تصرخ وتستحلفها أن تكفّ، وتضرب بيدها على صدرها خوفاً وذعراً؟

لقد كان ذلك منظراً بديعاً حقّاً، حتى إذا جاوزنا الحدائق ظهر لنا (كوم الأفراح).

- ما أجمل هذا التلّ العالي يا زبيدة، وما أنقى رماله، وما أروع أن تشاهدي من فوقه النيل وهو يلتفّ حول الرمال كما يلتف السوار؟!

ـ لقد غاصت رجلى فى الرمل يومئذٍ فحاولت إخراجها فتهوّرتُ من أعلى التل إلى سفحه، وكنت أصرخ وأضحك فى آن، وأعجبت لورا هذه اللعبة فتدحرجت خلفى، ثم وصلنا إلى مسجد «أبى منظور» ونحن أشدّ ما نكون جوعاً فكنا نتخاطف الطعام فى عبث ولهو ومجون.

ـ ثم صعدنا فى المئذنة فرأينا مدينة رشيد تحتنا بمآذنها وقبابها ومنازلها السعيدة الهانئة، والنخيل تحيط بها كأنها حرّاس من جنود الله، يدفعون عنها كل سوء.

ـ أذكر كل هذا يا محمود كأنه ماثل أمامى، ما أجمل الحياة وما أجمل أن يشعر المرء بجمالها! ثم انتقلنا إلى قارب يمخر بنا فى النيل جيئة وذهاباً كأنه الحوت الضخم ضل مكان أليفته، فجال يبحث عنها هائماً مضطرباً، وكان المراكبى شيخاً هرماً فلم يمنعه هرمه من أن يرسل إلىّ وإلى لورا عينين جائعتين كادتا تلتهماننا التهاماً. إن شباب القلوب وضعف الأجسام كارثة الشيوخ يا محمود. وجلست لورا فى القارب وأخذت تصف لنا جمال بلادها وأخلاق أهليها، واطمئنان نفوس الناس لحكّامها، وأن النساء هناك سافرات يخالطن الرجال ويقضين شئونهن بأنفسهن. إنه كان يوماً سعيداً يا محمود، لم نرجع منه إلا بعد أن غابت الشمس. وكان أبى حازماً فلم يسأل سؤالاً واحداً، لأنه رأى من صون كرامته أن يُغضى إغضاء المتجاهل. إن ذكرى ذلك اليوم جددت الحياة فى نفسى وجعلتنى أحس أن كتاب حياتى لم ينفَد بعدُ، وأنه لا يزال به صحف كثيرة من بيض وسود، أين لورا؟ إنها لم تَعُدْنى؟

ـ لقد سافرت مع أبيها منذ دخول الفرنسيين، ولا أعلم أين استقرت بهما النوى.

ـ إنها أجمل فتاة رأيتها خَلقاً وخُلقاً، ولو أنها كانت مسلمة لكانت خير زوجة، إنها الحنان والعقل لُفّاً فى أبدع صورة من صور الجمال، فهل نراها مرة أخرى؟!

ـ إن سفن الحياة تفترق وتلتقى فى بحر العمر المائج، والحب كفيل بألا يطيل الفرقة بين الشتيتين.

وهنا دخلت أمها فرأتها باشة مستبشرة، فانصبت على خدّى محمود تقبلهما كالمجنونة وهى تقول: أنت شفاء ابنتى يا محمود، وكأن فيك سحراً يبعث فى جسمها العافية.

فالتفت إليها محمود قائلاً: تعالى يا خالتى نتحدث فى الأمر حديث جد وصراحة. هذه الأحجبة وهذا البخور لا تفيد شيئاً، إن زبيدة لا تشكو إلا من وعكة تزول إن شاء الله، إذا اتخذت الوسائل الصحيحة لعلاجها، أتمانعين فى أن يراها الطبيب «شوفور» الفَرنسى؟

- أيجوز يا بنى أن يرى الطبيب الإفرنجى بنتى، وأن يكشف عن جسمها كما يفعل بالرجال؟

- كان يقول لنا شيخنا الخضرى: «إن الضرورات تبيح المحظورات» وسلامة زبيدة من أشد ضرورات الدنيا. أنا ذاهب لأدعوه. ثم انطلق كما ينطلق السهم وعاد بعد ساعة ومعه الطبيب «شوفور» وهو رجل قضى برشيد أكثر من عشر سنوات، وعرف أهلها واختلط بأسرها. فلما فحص زبيدة اتجه إلى محمود وقال: إن حال زبيدة لا تقضى الانزعاج بتاتاً. إن كل أجهزتها سليمة طبيعية، ويغلب على ظنى أنها مصابة بمرض الأعصاب، وهى تحتاج إلى الهدوء وإلى كل ما يبعث السرور فى النفس: وسأرسل لها دواء أرجو أن يكون شافياً. ثم ضحك وقال: لا تخافوا شيئاً إنها بخير. وبعد أن أطرق إطراق المفكر قال: أظن أن تغيير الجو الذى هى فيه، والسفر إلى مدينة أخرى سيكون لها أشفى من ألف دواء. فقالت أمها:

- إن خالتها زوج السيد أحمد المحروقى بالقاهرة قد أرسلت منذ يومين رسالة تتشوق فيها إليها وتلحّ فى طلبها.

- هذا خير ما يكون. وبالقاهرة من أشهر أطباء الحملة الطبيب «ديجنت» فلو توصلتم إلى أن يراها لشفاها فى أقرب وقت.

ثم انصرف الطبيب بعد أن ترك وراءه فى الدار روحاً من الأمل والابتهاج، ورأت نفيسة ووافقها محمود وجوب سفر زبيدة إلى القاهرة، وأقنعت الأم السيد محمداً البواب بذلك فاقتنع. وكانت سفينة عظيمة محمّلة بالأرز على وشك السفر، فأعدت بها غرفتان، وسافرت بها زبيدة وأخوها على الحمامى. وبعد سفرها أحسّ محمود بالوحشة والقلق، وضايقه جواسيس الفرنسيين، فوطد العزم على الرحيل إلى القاهرة، فسافر إليها بعد عشرة أيام.

حينما جاوزت السفينة بنيكلسون وابنته لورا معالم رشيد، أحسّت لورا بكثير من الحزن على فراق وطنها الثانى، وموطن حبيبها الأول، وذكرت أيام سرورها ومجالس البهجة والأنس بين صديقاتها، وتفتّت قلبها حسرة على فراق محمود، لأنها رأت فى لحظة أن صروح آمالها قد تهدمت مرتين: مرة بانصراف هواه إلى زبيدة، ومرة بتلك الضربة القاسية التى قضت بتفريقهما وحرمانها أن تتمتع بمشاهدة وجهه الوضاح، وسماع حديثه الساحر. وجلس نيكلسون مهموماً مفكراً كثير القلق، وأخذ يستحث النوتى على الإسراع ونشر جميع القلوع، ويمنّيه الأمانىّ إذا سابق الرياح ولم يعوّق، لأنه كان يريد أن يصل إلى القاهرة قبل وصول الحملة إليها. وصلت السفينة إلى شاطىء بولاق بعد سبعة أيام، فنزل نيكلسون ولورا واستأجرا حميراً لحملهما وحمل أمتعتهما إلى خان بالقرب من مشهد سيدنا الحسين، حتى إذا استقرّا فيه يومين، كان نيكلسون قد اهتدى إلى دكان صغير بسوق المغاربة وضع فيه قليلاً من البضائع، واستأجر داراً صغيرة بالكحكيين فانتقلا إليها. وكانت تخدمهما صاحبة الدار، وهى أرملة عجوز ورهاء غاب وحيدها منذ سنوات ولم تقف له على أثر، فأصابها مسّ من الجنون خيل إليها أن السيدة عديلة بنت إبراهيم بك هامت بحبه، فاختطفته واحتجزته بقصرها. وحينما وضع نيكلسون قدمه بالقاهرة رآها فى هرْج، واضطراب وذعر، فقد وصل إليها الرسل الذين بعث بهم السيد محمد كريم إلى مراد بك، وعقد اجتماع بقصر إبراهيم بك حضره مراد بك وأبو بكر باشا والسى العثمانيين، وقواد المماليك، وكبار العلماء وهم المشايخ: الشيخ عبدالله الشرقاوى، وسليمان الفيومى، ومصطفى الصاوى، ومحمد المهدى، وخليل البكرى، والسيد عمر مكرم وغيرهم. وفى هذا المجلس أظهر المماليك الغرور والاعتداد بالقوة، فقرروا سجن قنصل فرنسا وجميع التجار الفرنسيين بقلعة الجبل، وأن يستعدّ مراد بك للسفر لمقاومة الفرنسيين ودحرهم قبل أن يصلوا إلى القاهرة. وفى اليوم التاسع من شهر يولية زحف مراد بك من الجيزة، وكان بالجيش كثير من المدافع والبارود، وقد بلغ عدد جنوده من فرسان المماليك ومشاة الإنكشارية ما يزيد على ثمانية آلاف، وصحبه فى النيل نحو خمس وعشرين سفينة مسلحة، يقودها على باشا الطرابلسى، ونحو خمس وثلاثين من السفن التى تحمل الجنود والذخائر والمئونة. وبقى إبراهيم بك الكبير معسكراً فى بولاق فى ألفين أو أكثر من المماليك، ينضم إليهم بعض الجنود المرتزقة والعربان والأهلين المتحمسين.

ووصلت الأخبار بعد أيام بهزيمة مراد بك في موقعة شبراخيت، واحتراق ذخائره بقذيفة ألقتها العمارة الفرنسية على إحدى سفنه، وعلم أهل القاهرة أن طلائع التمرّد بدت في جنود نابليون، لطول الشقة وقلة الغذاء، وشدة الحرّ وقحول الأرض، حتى وصلوا بعد جهد إلى قرية أم دينار في اليوم التاسع عشر من يولية، ورأوا الأهرام شامخة متحدية. وفي اليوم التالي رأوا جيش المماليك على ضفة النيل اليسرى. وقد امتدت صفوفهم بين إمبابة وسفح الأهرام، وكانوا في نحو أربعين ألفاً، وكان الفرنسيون في نحو ثلاثين ألفاً. وهنا وقف نابليون يستحث جنوده، ويشير إلى قمم الأهرام وهو يقوله قولته المشهورة: «إن أربعين قرناً من الزمان تنظر إليكم».

ولكن الأهرام التي سمعته أرسلت إليه نظرة ساخرة من مؤخر عينيها، ثم ابتسمت في ازدراء وأنفة، لهذا المخلوق الذي توهّم أنه يستطيع أن يخرق الأرض، وأن يبلغ الجبال طولاً. ولو أن إنساناً استطاع أن يسمع الحديث الصامت لسمعها تقول لنابليون: ومن تكون أيها المعتزّ بقوتك؟ وما هذه الشراذم التي ضللت بها في سبيل غنم كاذب ومجد موهوم؟ وما هذا الذي مسّك فقذفت بخيرة رجالك في شرك لا خلاص لهم منه؟ نعم إن أربعين قرناً مني تنظر إليكم، ولكنها تنظر دهشة مبهوتة لأنها ترى أن حب العظمة والسلطان لا يزال ينقلب في الناس هوساً وجنوناً. إنك لو نظرت في سفحي وكان في استطاعتك أن تميّز الأجناس البشرية من جماجمها، لرأيت جماجم الفرس مبعثرة يعفّرها التراب بين جماجم الهكسوس واليونان، والرومان والعرب، والفاطميين والأيوبيين. ذهبوا جميعاً فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً؟ من أنت إلى جانب هؤلاء؟! وماذا يكون جيشك بين هذه الجيوش! تريد أن تكون خليفة الإسكندر الذي بكى كما يبكي الطفل المدلل لأنه يريد أن يلعب بكرة الأرض فلعبت به، وكان كل نصيبه منها في النهاية حفرة لا تزيد على أربع أذرع في ذراعين! إن مصر يا هذا بلاد الفراعنة والسحر، وموطن الرسل والأنبياء، يردُّ الله عنها كل سهم، ويقصم كل من أرادها بسوء، وهي مقبرة الجبّارين وقاصمة العتاة الطاغين.

خرج نيكلسون صباح اليوم الحادي والعشرين إلى معسكر إبراهيم بك ببولاق مع طائفة من المغاربة، فرأى الطرق وقد ازدحمت بالذاهبين إليها لأن جميع المتاجر والحوانيت بالقاهرة أغلقت في هذا اليوم، ولم يبق منها إلا النساء والأطفال والشيوخ.

وبدأت المعركة بين الفرنسيين وجيش مراد بك عند الظهيرة، وفتك الفرنسيون بالمماليك، وتمّ لهم الغلب عند الغروب، وفرّ مراد بك إلى الجنوب، وتقدم نابليون ببعض قواده حتى وصل إلى قصر مراد بك بالجزيرة، وكان قصراً فخماً رفيع البنيان، ثمين الأثاث والرياش به كثير من مخازن الزاد والذخيرة. ولما وقعت الواقعة رجع نيكلسون مع الراجعين والهموم والأحزان تخيّم على الجموع، والذعر يعصف بالقوم عصفاً، فلا تسمع إلا نادباً أو محوقلاً، أو ساخطاً على المماليك، أو ضارباً بكف على كف، أو مستنجداً بالأنبياء والأولياء وعباد الله الصالحين.

ذهب نيكلسون إلى داره فطرق الباب، فأسرعت لورا ففتحته وهي ترتعد من الخوف، وقد طار الدم من وجهها. فلما رأت أباها رمت بنفسها بين ذراعيه، ولم تستطع أن تحبس عاصفة من البكاء كانت قد كبحتها طول يومها فضمّها أبوها إلى صدره في رفق وحنان وتركها تبكي لتروّح عن نفسها وتخفّف من أعباء أحزانها، ثم أخذت تضحك كالمحموم، وتملأ وجه أبيها قُبلاً، حتى إذا هدأت النوبة التفتت إلى أبيها كالمتفرّسة وقالت:

- أنت بخير يا أبي؟

- بكل خير أيتها الفتاة المحبوبة المعربدة، الباكية الضاحكة.

- إن أفواجاً من الناس مروا منذ لحظة من الحارة وهم يلطمون وجوههم ويصيحون: يا لطيف.. يا لطيف..!

ومن أحوج منهم إلى الإستغاثة بالله يا فتاتي، بعد أن قضى الأمر وامتلك الفرنسيون مصر؟!

- انهزم المماليك؟!

- شر هزيمة! فقد هجم مراد بك بنحو خمسة آلاف من فرسانه على فرقة «دوجا» فصدّته مدافعها، ثم هجم على فرقة «ديزيه» وكان هجومه شديداً، فحصد ديزيه المماليك حصداً، فانقلبوا إلى فرقة «رينييه» فقابلتهم بنار حامية، وهنا ثبت المماليك وزلزل الفرنسيون زلزالاً شديداً، وكانت المدافع تقصف كالرعد، ودخانها يسد الأفق، ولكن

الفرنسيين صبروا وصابروا حتى حصروا المماليك بين فرقتى «ديزيه» و «رينييه» فأخذهم الموت من كل جانب، وقذف كثير منهم بأنفسهم فى النيل واستطاعت شرذمة قليلة أن تفرّ مع مراد بك إلى الجنوب، بعد أن أحرقوا سفنهم، فسقط فى يد الجيش كله، واستولى الفرنسيون على مدافعه وأسلحته ومئونته، وكانت النكبة ماحقة. أما إبراهيم بك ومماليكه بالشاطىء الشرقى: فقد فرّوا بأموالهم وذخائرهم إلى بلبيس ثم إلى الشام، عندما تبيّنت لهم الهزيمة. ولا أدرى لم فرّق المماليك جيوشهم على الشاطئين؟ ولم تهاونوا فلم يدهموا نابليون فى طريقه بين الإسكندرية ودمنهور، حينما كان الجوع والظمأ والقيظ قد فلّ عزائم الجنود وأوهن قواهم؟!

ـ يا للخيبة؟ لقد كان مراد يظن أن ضربةً من سوطه تكفى لسوقهم إلى بلادهم!

ـ إن المماليك متنافرو القلوب مفككو العزائم، وقد استناموا إلى الراحة منذ عهد بعيد وأهملوا الاستعداد لكل مفاجأة. ثم إنهم اعتادوا الحرب على نمط قديم، فلم يستطيعوا الوقوف أمام فنون أوروبا وآلاتها الحديثة.

ـ وأين نابليون الآن؟

ـ نائم يا حبيبتى ملء جفنيه، على سرير مراد بك بعد أن ملأ بطنه من شهىّ طعامه وشرابه. وسيدخل القاهرة غداً فاتحاً منصوراً.

ـ مساكين هؤلاء المصريون! لقد أصبحوا نهبة لكل ناهب. ولم جاء نابليون إلى مصر يا أبى؟

ـ جاء ليسدّ على إنجلترا طريق الهند أو ليفتح الهند كما يزعم. ثم ابتسم ابتسامة حزينة وقال: عجيب شأن هذا الرجل المغامر! كيف يترك أوربا الآن ومراجلها تغلى بالثورات والفتن والحروب، ليطوح بجيشه فى بلادٍ بعيدة، بينها وبين فرنسا بحر يتحكم فيه الإنجليز بأساطيلهم؟ والأدهى والأمرّ أنه ضمن الخلود فى مصر قبل الوصول إليها، فأحضر معه طوائف من العلماء والفنانين فى أكثر شعب العلوم والفنون.

ـ وهل تُغضى عنه إنجلترا، يا أبى، وتترك له الحبل على الغارب، يتحكّم فى بلاد أراد؟

ـ سنرى أيتها السياسية الخطيرة. ثم قرص خدها فى حنان وقال:

ولو كنت فى كرسىّ «وليم بت» فماذا كنت تصنعين؟

ـ لا تسخر منى يا أبت، فلو كنت فى كرسىّ وليم بت لدرست الموضوع من جميع أطرافه، وقررت ما يهدينى إليه رأيى، بعد استشارة رجال الجيش والأسطول.

ـ وإذا هداك رأيك بعد كل ذلك إلى ترك نابليون، أتتركينه؟

ـ أتركه ولا أدع عينى تفارقه حتى يحين حينه، وحتى يفتل لنفسه حبلاً ليشنق به رقبته.

ـ حقاً إنك إنجليزية إلى أطراف بنانك! إن إنجلترا لن تُغضى طويلاً على رجل يريد أن يعبث بسيطرتها على البحار.

ـ والمصريون! أينامون على الضيم؟

ـ إن المصريين سيكونون أشدّ وبلاً على الفاتح من الإنجليز، لأن دخول الفرنسيين فى نظرهم ليس مشكلاً وطنياً فحسب، وإنما هو مشكل دينى قبل كل شىء. وقد ظن نابليون أنه يستطيع أن يضحك من ذقونهم بالمنشورات التى يعلن فيها أنه يحب الإسلام ويُبغض المسيحية، ويدين بالاحترام والطاعة للدولة العثمانية. رأيت اليوم طالباً من الأزهر يقرأ منشوراً من هذه بين جمع حافل من إخوانه، فلما انتهى من قراءته قال ساخراً: ما شاء الله! إن الشيخ الشرقاوى سيجد له منافساً فى مشيخة الأزهر. وقال ثان: ما أحقرها حيلة! إنه يبيع دينه ليلتهم مصر، ثم يظن أننا نصدقه. وقال ثالث: هنيئاً للمسيحية حين نقصت واحداً، ويا ويلتا للإسلام بزيادة هذا الواحد!

هذه يا حبيبتى نفسيّة هذه الأمة الهادئة الوادعة. إن فيها ذكاء مكبوتاً، وفيها بطولة مدفونة، وهى كالنار تحت الرماد تضطرم وتستشرى إذا مستها جائحة فى دين أو عرض أو وطن، فاصبرى قليلاً فترىْ كثيراً.

ـ كيف حال محمود العسال يا تُرى فى وسط هذه العواصف؟

ـ إنى لشديد الخوف عليه، فإنه عظيم الأنفة قوى الشكيمة، مخاطر فو
وقد سبق هذا الشاب أوانه، فظهر فيه كثير من صفات البطولة التى تعزّ فو
ذهنه عن لمحات بعيدة المرمى قلّ أن ترى فى أنداده.

ـ لا تخف عليه يا أبى، فإنه إلى ذلك حازم حذِر، لا يضع قدمه إلاّ حيث ترى عيناه. آه، لقد كانت أيام رشيد هانئة سعيدة، ولقد لقينا فيها أهلاً بأهل، وأوطاناً بأوطان.

ـ إن نظام الكون مؤسس على الإعادة والتكرار، فالشمس تعود، والقمر يعود، وفصول السنة تعود، فهل من البعيد أن نعود كما كنا إلى رشيد؟

ـ وماذا ستعمل الآن يا أبى حيال هذه الكارثة المصرية الإنجليزية؟

ـ سأخدم وطنى، وسأخدم مصر بكل ما فى مُكنتى من فكر وقوة وحيلة، وسأنتظر ما تجىء به الأيام.

قضى نيكلسون وابنته لورا هذه الفترة فى القاهرة، فى درس الحوادث وتتبع ما يجول فى نفوس المصريين من اضطراب وغضب، وفى أثناء هذه المدة دخل نابليون القاهرة واستقبله علماؤها وأعيانها بما يستقبل المغلوب الضعيف غالبه القوى الظافر، ونزل بيت محمد الألفى الكبير، وكان قد تمّ بناؤه وتأثيثه قبل الحملة بأيام، وأظهر البشر والمجاملة والعطف على المصريين، ورأى أن يجتذب إليه العلماء وكبار البلد، فألّف منهم ديواناً للأحكام، وأغدق عليهم، مدعياً أنه يدع للأمة حكم نفسها بنفسها، ثم عيّن من قواده حكاماً لأقاليم الوجه البحري: وترك «دوجا» يتعقب مراد بك بالصعيد. وكان نيكلسون يختلف فى كل يوم إلى قهوة مجاورة للأزهر، ليلتقط الأحاديث، ويتعرّف نفوس الشعب، فكان لا يسمع إلا سخطاً على الفرنسيين، وسخرية من وعودهم، وحنقاً على العلماء وعلى كل من يمدّ يداً لمعونتهم. وفى ذات يوم دخل القهوة حشد من طلاب الأزهر، يتقدمهم الشيخ إسماعيل البرّاوى، وهو عالم أزهرى ضخم الجثة، عرف بالجرأة والسلاطة وبغض الفرنسيين، فما جلس الشيخ حتى صاح: أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة، أسمعتم الأخبار اليوم؟ إنها كارثة الكوارث، وقاصمة الظهر لهؤلاء الفرنسيين! لقد سمع بعض الناس اليوم من أحمد الزرو التاجر بوكالة الصابون، أن عمارة إنجليزية حطمت أسطول الفرنسيين بأبى قير فى الثامن عشر من شهر صفر وقتلت قائده وكثيراً من بحارته، حتى لم يبق منه إلا أربع سفن صغيرة، فشمل الفرح كل مكان، وهبّت رياح الثورة فى كل إقليم، والآن ماذا بقى لهؤلاء الفرنسيين إلا أن نصيدهم كما تصاد الفيران؟

فقال أحد الحاضرين: إننى سمعت أن رئيسهم ذهب مع جيشه لمحاربة إبراهيم بك فى الصالحية:

فقال الشيخ البرّاوى: لا بد أن يسرع إلى القاهرة، وإذا كان بالقاهرة رجال حقّاً يحبون دينهم ووطنهم، فإنه لن يبقى بها يوماً أو بعض يوم.

فتهللت وجوه الحاضرين: وصاحوا: نحن معك يا شيخ إسماعيل، ولا بد من استئصال شأفة هؤلاء الغزاة.

- وهنا أسرع نيكلسون ليبلّغ لورا الخبر السار. وبعد أيام قدم نابليون من الغزو، فبُهت حين ألقى إليه خبر دمار الأسطول، ثم عاد إلى جلده واستخفافه بالشدائد، وأراد أن يهوّن الكارثة على الجنود، فخطب فى قواده خطبة حماسية جاء فيها: «إذا قضى علينا أن نبقى ها هنا بمصر وأن نعمل المعجزات، فلنبق حيث نحن صلاباً غلاّبين، وإذا قضى علينا أن ننشىء مملكة فى الشرق، فلننشئها أشداء فاتحين، وإذا فصلت البحار بيننا وبين بلادنا، فإنه ليس ثمة بحار بيننا وبين إفريقية وآسية. ولا نزال فى عدد وعُدّة، وفى استطاعتنا أن نتخذ من أبناء هذه البلاد جنوداً أقوياء، وفى استطاعة «شامبى» و «كونتيه» أن يُمدانا بما شئنا من ذخائر وعُدّة، فلنكن عظماء، ولنعمل العظائم، ولنرفع رءوسنا، ولنصعد فوق الموجة، ولنهزأ بالزعازع، فقد يكون القدر قد كتب لنا أن نغير صحيفة الشرق، وأن نضم أسماءنا إلى أسماء عظماء الرجال الذين خلد التاريخ ذكراهم». ثم أراد أن يظهر أمام المصريين بمظهر القوى الذى لا تنال منه الخطوب، فاحتفل بفتح الخليج احتفالاً باهراً، ثم بالمولد النبوى، ثم بعيد الجمهورية الفرنسية.

- ٦ -

وصلت السفينة إلى شاطىء بولاق مقلّة زبيدة وأخاها عليّاً الحمامىّ، ولم تمض ساعة حتى بلغا بيت السيد احمد المحروقى، بالقرب من الفحامين وكان المحروقى فى ذلك الحين رئيس التجار، وكان عظيم الثروة والجاه، سخىّ الكف نهّاضاً بالأعباء، عالى الهمة، ذكى الفؤاد واسع الحيلة. ولما دخل الفرنسيون القاهرة فرّ مع إبراهيم بك، ولكنه عاد إليها واستطاع بدهائه وماله أن يجتذب إليه قلوب الفاتحين، وأن يستعبدهم بإحسانه وإغداقه.

مدّت أمينة خالة زبيدة إليها ذراعيها فى شوق وشغف، فطوّقتها بهما وهى تقول: أهلاً بزهرة رشيد الناضرة، التى لم تتحل بمثلها بساتين القاهرة، إن نسيم البحر الأبيض إذا

تزاوج بنسيم النيل الهفّاف، ولّدا ذلك الجمال البارع الذى يتحدّى ريشة كل رسّام.
فضحك السيد أحمد المحروقى وقال عابثاً:

- إنها يا زبيدة إمرأة لعوب فاحذريها، إنها تتخذ منك وسيلة لإطراء نفسها، والمباهاة بحسنها. ألم ترىْ أنها بحركة لولبية سريعة حصرت الجمال كله فى رشيد؟
فابتسمت أمينة ابتسامة خفيفة ونظرت فى المرآة بحركة لا تحسّ، وقالت:

- هذا دأبك دائماً، تسىء التأويل، وتوجه الكلام إلى غير وجهه. وهل لامرأة عجوز مثلى فى السابعة والثلاثين - ثم لمحت المرآة ثانية - أن تتحدث عن جمالها؟ ولكنى أعتقد أن رشيد وهى ميناء أقطار الشرق والغرب، توافد عليها النزلاء من كل صوب: بين تركى وجركسى وشامى ومغربى، وامتزجوا بأهلها وأصهروا فيهم، فأخرجوا نسلاً قوياً جميلاً. إن السلالات البشرية تضعف وتتضاءل إذا لم تختلط بها العناصر والأجناس، وشتّان بين الوردة يتيمة منعزلة، والوردة فى طاقة تجمع فواتن الورود والأزهار!

- دعينا من هذه الفلسفة أيتها العجوز الفاتنة، وحدثينا يا زبيدة عن رشيد وأحوالها.
فقاطعته زوجه متعجلة واتجهت إلى زبيدة:

- لقد هدّت رسالة أمك قواى حين قالت: إنك مريضة، ولكنى لا أرى للمرض عليك أثراً، فما حقيقة الأمر؟

- لقد كنت مريضة أشدّ المرض، ولكن الطبيب «شوفور» وصف لى علاجاً وأشار علىّ بالرحلة إلى القاهرة، فما كدت أقضى بالسفينة أياماً حتى أحسست دبيب العافية.

- حماك الله من كل مكروه يا حبيبتى. وكيف حال أمك وأبيك؟

- أما أمى فبخير، وأما أبى فإنه كثير الوجوم والحزن منذ دخول الفرنسيين.

وهنا قال المحروقى: أظنهم لا يظفرون بحب أهل رشيد.

- لا أدرى. لقد كنت مريضة عند دخولهم، وأظن أنهم لا يبلغون فى الظلم مبلغ المماليك. وهنا دخل ابن خالتها محمد المحروقى، وكان فتى وسيماً فى التاسعة عشرة من عمره، فحيّا زبيدة وجلس وهو يلقى إليها نظرات طويلة، فيها ذهول وفيها إعجاب، وفيها نهم الشباب. والتفتت أمينة إلى الفتى والفتاة، ثم همست فى أذن زوجها فهزّ رأسه وقال:

ـ نعم الفكرة! نرجو الله أن يهيىء لنا الخير. ثم التفت إلى ابنه وقال: هلم يا بنىّ، فقد آن أن نراجع دفاتر حساب اليوم.

وانفردت أمينة ببنت أختها كالمشغوفة الوالهة، لأنها أثارت فى نفسها ذكريات عزيزة عندها، أثيرة لديها. فقد شاهدت فى زبيدة صورة شبابها الغض، الذى كان فتنة العيون، وشرك القلوب. وعادت بخيالها إلى الماضى منذ أكثر من عشرين عاماً، فرأت نفسها فى بيت أبيها بشارع البحر برشيد، وهى تنظر إلى النيل من خلال مشربيةٍ أدقّ الصانع صنعها، وكان النهار قد أخذ يولى، لأن شمس الأصيل ألقت بشعاعها على زجاج المنازل ذهبياً هادىء الوميض، ثم ترى نفسها وهى تتجه بعينيها إلى اليسار فترى أباها فى طلاقته وبشاشته وجميل زيّه، يحادث رجلاً غريباً قد يكون تخطّى الثلاثين، تظهر عليه دلائل النعمة والجاه، وهو إلى ذلك جميل القسمات حلو اللفتات، يصغى إلى الحديث ويبتسم، وربما زاد بين الكلام كلمة أو كلمتين، ليدل على العناية وحسن الإصغاء. ثم تتخيّل نفسها وقد أسرعت دقات قلبها، ودبّت فى جسمها نشوة عجيبة لم تعرف لها كنهاً، ولم تدر لها تأويلاً. وشعرت بحافز عنيف لا تستطيع صدّه، يدفعها إلى إطالة النظر إلى هذا الرجل الغريب وملء عينيها منه، فتنظر ثانية فترى أباها وقد دخل به إلى الدار، وتسمع حركة الخدم والجوارى التى اعتادت أن تسمعها كلما زارهم ضيف عظيم، ثم ترى «زهرة» الجارية وهى تدخل على سيدتها لاهثة، بعد أن قطعت السلم وثباً وهى تقول: لقد بَعث سيدى يخبرك بأن ضيفه الليلة السيد أحمد المحروقى أكبر تجار القاهرة وأعظمهم جاهاً، فيجب ألا يُدخر جهدٌ فى أن يكون العشاء لائقاً بمثله ومثل سيدى. ثم ترى الدار بمن فيها وقد نهضت نهضة واحدة لإعداد العشاء. وتستمرّ أمينة فى هذه الذكريات ساهمة، تقلّب صفحة من كتاب خيالها وتنظر فى أخرى، فتتراءى لها تلك الليلة التى باتت فيها على سريرها، وهى تفكر فى الضيف، وتدهش ـ لِمَ تطيل فيه تفكيرها، وتحاول أن تختار من ماضيها صورة تمحو بها صورته، فإذا بها تعود إليه قوية شديدة، فتمحوا ما جهدت فى تذكره من صور. ثم تنظر فى صفحة ثالثة، فيتجلّى لها ذلك الصباح المشرق الذى زاده انعكاس أشعته على النيل بريقاً ولألاء، وقد دخلت عليها أمها باسمة مشرقة الوجه كالصباح، وهى تقول: مبارك يا أمينة، لا تنسى أن تقرئى لنا الفاتحة فى السيدة زينب. ثم تتخيّل ما أصابها من الوجوم والذهول، وتذكر ما كان يهمس به قلبها وهى تبكى أمام أمها حين قالت لها: لقد عرفتُ كل شىء من النظرة الأولى أيتها الماكرة المتجاهلة، إنه

الحب . . إنه الحب . . إن للحب إلهاماً لا يكذب فلم توارين؟ أبكى كما شئت أمام أمك ، فهذا دأبكن يا بنات حواء ، تتخذن من البكاء لغة مبهمة لكل ما يجول فى نفوسكن حتى لا تُفهمن ، وحتى تَبقين سرّاً فى البشرية غامضاً .

تخيّلت أمينة كل هذه الصور فى ثوان ، ثم اتجهت إلى زبيدة وقالت : علمت من أمك أن محموداً العسال يلحّ فى زواجك وأنك تأبين . إن محموداً شاب تطمح إليه عيون الفتيات ، ولكنّ للقلوب أسراراً لا تدرك ، ولهواها سرائر لا تعلم . ولعل لك آمالاً تسمو بك عن رشيد وأهلها ، ولعلك تودين أن تكوني بالقاهرة كخالتك ، جليسة نساء الأمراء والكبراء وأرباب الدولة ، إننى أرحب بك يا زبيدة فى هذه الدار سيّدة مسيطرة ، وأقصى أمانىّ أن أراك زوجاً لابنى محمد ، وهو شاب كريم الخلق ، رفيع المنزلة ، يمهد له أبوه السبيل من بعده ، ويمدُّ له أسباب الشهرة مدّاً ، ألا تحبين يا زبيدة أن أكون أماً لك ثانية؟! إن شمسك فى رشيد لا يتسع لها الأفق ، أما هنا فستنفذ أشعتها بعيدة وضّاءة ، وسيتحدث كل بيت من بيوت الأمراء والأعيان ، وكبار الفرنسيين أنفسهم عن زبيدة وجمال زبيدة .

أطرقت زبيدة وطال إطراقها ، وجال بخاطرها سريعاً أن العرض مقبول ، وأن زواجها بابن المحروقى سيكون من ورائه الثروة والشهرة ، والجاه العظيم ما فى ذلك شك . ولكن أين هو من محمود العسال كيفما أطنبوا فى وسامته وكريم خلقه؟! لا شىء . إن فى محمود تلك الرجولة الخشنة التى تشتهيها كل فتاة ، لتكمل بها ما فى أنوثتها الناعمة من نقص . لا . . . شتان ما بين الرجلين! ثم ما لها ولمحمود وغير محمود . إن للعرّافة نبوءة يجب أن تتحقق ، وهى واقعة لامحالة إذا أطالت لها عنان الصبر . فرفعت رأسها إلى خالتها وقالت : يجب يا خالتى أن ننسى الحديث فى الزواج الآن ، حتى تزول تلك الغمة التى أطبقت على مصر ، وحتى نرى آخر سفينة وهى تحمل الفرنسيين إلى بلادهم . إن زواجى بابن خالتى شرف لا يناله مثلى ، ولكن الزواج الآن أشبه بالضحك فى المآتم ، والرقص فى بيت يحترق . فنظرت إليها أمينة نظرة الخبيرة الطبّة بالنساء وخداعهن ، ثم تنهدت وقالت : كثيراً ما يرغب الإنسان عن الثمرة الدانية ويأبى إلا أن يتسلق لغيرها! ومن يدرى؟ ثم ضحكت وقالت : تعالى أيتها الفتاة المقدِّرة المدبِّرة فقد أعدَّ الطعام .

مرّت أيام فسافر على الحمامى إلى رشيد ، وبقيت زبيدة فى بيت خالتها ، تلاقى فيه صنوف الكرامة والعطف ، وتزور بها خالتها سيدات القاهرة وكرائم أسرها ، فزارت

السيدة نفيسة المرادية زوج مراد بك ورأت فى قصرها من الفخامة وأبهة الملك ما يقصر دونه البيان، وشاهدت فى السيدة نفسها صورة بارزة للعظمة غير المتكلِّفة، التى لم يستطع زوال الملك أن يغضّ منها. وزارت بيت الشيخ خليل البكرى، وهفت نفسها إلى زينب البكرية، التى كان لها من الجمال والإدلال وحسن الحديث وسحر الأنوثة، ما يفتن ويُغرى، فأحبتها وأكثرت من ازديارها.

وبينما هى جالسة ذات صباح مع خالتها إذا إحدى الخادمات تقول: إن سيدى محموداً العسال قد حضر وهو يصعد فى السلم. فأسرعت زبيدة إلى شعرها تسويه، وإلى ثوبها تصلح من غضونه، وقد دقّ قلبها واحمر وجهها، ولمحتها خالتها فتنهدت. ثم دخل محمود مشرقاً بسّاماً، فحيا زبيدة وقبّل يد خالته أمينة، التى أخذت تصبّ عليه وابلاً من عبارات الترحيب ومختلف الأسئلة، فقصّ عليهما كل ما لديه من أخبار رشيد، وهنأ زبيدة بسلامتها، ثم اتجه إلى السيدة أمينة قائلاً: لقد أدهشنى اليوم أن أرى حوانيت المدينة مقفلة، وأن أرى الناس فى الشوارع جماعات يتهامسون كأنما حزبهم أمر، أو حلّت بهم كارثة.

- لقد توالت عليهم المظالم يا محمود، وكانت قاصمة الظهر تلك الضريبة الأخيرة التى لم تترك فقيراً ولم تُبق على غنّى. فالذى رأيته اليوم مظهر من مظاهر سخطهم، فإنهم إذا فدحهم ظلم أغلقوا متاجرهم والتجئوا إلى الأزهر يستغيثون برجاله.

فهزّ محمود رأسه فى حزن وألم وقال: وبمن يستغيث رجال الأزهر يا تُرى؟

ثم أحسّ أن المجلس طال به، فتحفّز للانصراف، وودعته خالته وذهبت معه زبيدة خطوتين أو ثلاثاً، فنظر إليها نظرة طويلة وقال:

متى يا زبيدة؟ فأسرع إلى نجدتها عذرها التى خدعت به خالتها، فمسّت كتفه فى رفق وقالت: حتى يخرج الفرنسيون يا محمود.

- ٧ -

ذهب محمود إلى سوق المغاربة غاضباً آسفا، يفكر فى هذا العذر الجديد الذى سدت به عليه زبيدة طريق الأمل، وسأل عن الحاج محمد السوسى فأرشد إلى دكانه، فرآه

مغلقاً. ثم سأل عن داره فوصفت له، فطرق بابها ففتحت له العجوز خائفة مرتابة، فقد تكرر فى هذه الأيام تطفل الجند على المنازل. ولما سمعت لوزا صوته كاد يجن جنونها ويضطرب ميزانها، وشعرت بنار مشتعلة تدب فى أوصالها، وودت لو أنها قطعت السلم بوثبة واحدة، لتقع بين ذراعى حبيبها، وتغمر وجهه بالقُبل، ولكنها كبحت جماحها جهد ما تستطيع، واستنجدت بالطبيعة الإنجليزية الرزينة، وقالت دون أن ينمّ صوتها عن شىء: أبى! إنى أسمع صوت محمود العسال بالسلم. فنهض نيكلسون فرحاً وصاح: أهلاً بولدى، أيّة ريح سعيدة طوّحت بك إلينا؟ لن أحسّ بعد اليوم ألم الغربة والنفى. ثم عانقه طويلاً وشدّ على يديه فى محبة وشوق وتقدمت إليه لورا تتكلف الابتسام وتجاهد عينيها ألا تهتكا لها ستراً، وقالت فى تلعثم: مرحباً يا محمود، إنك صورة من رشيد التى أحبها، فاليوم أراها كما هى ولا أشعر بلوعة نحو أهلها. ثم جلسوا إلى القهوة بعد أن أعدتها لورا، وبدأ نيكلسون الحديث فقال: كيف حال الفرنسيين فى رشيد؟ فأجاب محمود وقد زاد سخطه عليهم وعزم على أن يبذل نفسه فى مقاومتهم، بعد أن سمع من زبيدة اليوم أنهم الحائل بينه وبين التزوج بها: لقد أرسلوا إلينا بحاكم مضطرب الرأى، يلين مرة حتى تظنه ماء زلالا، ويقسو أخرى حتى تحسبه نار الجحيم. لم يف بوعد واحد من تلك الوعود التى ملأ بها خطبه وأحاديثه والرشيديون فى جمهرتهم لا يثقون به ولا يلقون إليه بقياد، وهم كتلة مخيفة من العصيان والتمرد، فقد فرض على الأهلين - ولم يكد يستقر فى كرسى الحكم - ضريبة فادحة، قوبلت بثورة صاخبة وعصيان جامح، ولولا هذه المدافع الجديدة ما استقر لهؤلاء الغزاة أمر. وفى مساء يوم رأى أحد العلماء الذين قدموا مع الحملة - ويسمونه دينون - من برج أبى منظور العمارة الانجليزية وهى تهجم على العمارة الفرنسية بأبى قير، وتصليها ناراً حامية، وسمع أهل المدينة الضرب عنيفاً متواصلاً، وطارت إليهم الأخبار بأن الإنجليز دمروا جميع سفن الفرنسيين، فوثبوا من الفرح، وطاشت عقولهم، ومشوا فى جماعات يصيحون ويهللون ويكبرون، ولم يستطع مينو أن يعمل شيئاً فأغضى إغضاء الذئب الضغن الحقود.

- حقّاً إنه كان نصراً مبيناً يا محمود، فإن هذه الموقعة ستسد الطريق بين نابليون وبلاده، وستقضى على آماله فى ضرب إنجلترا وإنشاء دولة شرقية فرنسية. وستشدُّ من عضد الممالك الضعيفة بأوروبا وتدفعها إلى محاربة فرنسا وتحدِّيها.

- لله الحمد والشكر: ثم قام أهل رشيد بثورة عنيفة، حينما وصلت السفينة التى

تحمل السيد محمد كريم مصفَّداً ليشنق بالقاهرة .

ـ إن هذا السيد بطل من أبطال التاريخ يا محمود ، وكل جريمته عند الفرنسيين أنه جاهد فى سبيل وطنه ، وكتب سرّاً إلى مراد بك يدعوه إلى صدِّهم ومحاربتهم . ولقد علمت أنه لقى الموت شهماً كريماً ، وأن الفرنسيين راودوه على أن يفتدى نفسه بثلاثين ألف ريال ، فأبى فى ازدراء وشمم ، وأجاب فانتور كبير تراجمة الحملة وهو يلح عليه فى قبول الفدية ، ويلحف : «إذا كان مقدّراً علىّ أن أموت فلن يعصمنى من الموت مال . وإذا كان فى الكتاب أن أعيش كان بذل المال عبثاً» . ثم ضُرب بالرصاص فى ميدان الرميلة فلقى ربه شهيداً . فلمعت عينا محمود وقال . إن البطولة لن تموت ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ .

ـ هذا صحيح يا محمود . أعندكم هذا فى كتابكم ؟

ـ نعم ، وكم فى القرآن من أدب وتشريع وحكمة وهداية . ثم إن الذى يزيد فى سرورى ويبعث فى نفسى نشوة الأمل ، أن مينو قلِق به مكانه فى رشيد وأحسّ بالحرج ، فقد قبض أحد العربان على رسول له إلى كليبر حاكم الإسكندرية ، فرأى معه رسالة ترجمها لنا أورلندو ، يلحّ فيها على كليبر فى إمداده بالرجال ، لأن حاميته لا تزيد على أربعمائة رجل ، ويخبره فيها أن العرب يزعجونه ليلاً ونهاراً ، وأن الأهلين يثورون عليه لأقل سبب ، وأنهم استخفوا بسلطة الفرنسيين بعد نكبة أسطولهم . ثم يقول : لقد تحرّج مقامى هنا ، فإننى ما جئت من فرنسا لأدفن فى هذه المدينة ، أو لأقوم فيها بجمع الضرائب .

ـ سمعنا أنه أحرق قرية السالمية .

ـ نعم ، فقد قتل بعض رجالها ثمانية من جنده ، فأمر بقتل كل من يحمل السلاح فيها ، وصادر جميع ما بها من الماشية ، ثم أضرم النيران فى القرية .

ـ هذا أمر له ما بعده يا بنى ، وسيف الظلم مفلول دائماً . هلم لنشهد اليوم اجتماع الناس بالأزهر ، فقد أخبرنى الشيخ إسماعيل البراوى أن مرجل الثورة يغلى بالقاهرة ، من أجل هذه الضريبة الجديدة الفادحة ، التى ستأتى على كل ما بقى عند الناس من صامت وناطق .

ثم سارا صوب الجامع الأزهر فسمعا المؤذنين وهم يؤذنون لصلاة الظهر ، ويُتبعون

أذانهم بدعوة ملتهبة إلى الثورة والجهاد، فدخلا المسجد فإذا هو يدوّى بمن فيه من الحشد العظيم، وقد ارتفعت أصوات الغضب، وبسرت الوجوه، وأخذ كل شخص يتكلم ويسمع فى آن، وجلس إلى جانب القبلة الشيخ السادات، والمشايخ: يوسف المصيلحى، وإسماعيل البراوى، وعبد الوهاب الشبراوى، وسليمان الجوسقى، وأحمد الشرقاوى، وهم مساعير الثورة ومؤججوها. ثم وقف الشيخ يوسف المصيلحى، وكان ذرب اللسان ملتهب الوطنية قوى التأثير، فقال:

«يظن الفرنسيون أن مصر أقفرت من الرجال، وانحلت فيها العزائم وكلّت الهمم، وأنها شعب من نساء لا يميز فيه الرجلُ من المراة إلا عمامة ولحية، وأن أهلها قطيع من الغنم نام عنه رعاته، وتركوه نهباً للذئاب. وهم يتندرون فى مجالس مجونهم وعلى كؤوس شرابهم، بجبن المصرى وهلعه من السيف والمدفع، وأنه إذا رأى جندياً فرنسياً فى الطريق أقعى له فى ذلة وخنوع كما يقعى الكلب. فهل هذا صحيح؟».

فهزت أصوات جوانب المسجد صائحة فى غيظ وغضب!

كلا. كلا.

- «نعم. كلا، وكذب ما يظنون، فإننى أرى فى هذه الوجوه غضبة الأسود لعرينها، وحمية الشجاع الباسل لعرضه ودينه. أنتم أبناء الفاتحين، ولأجدادكم سجل من المجد والجهاد لا ينقصه إلا أن تنقشوا تحته أسماءكم بسلاحكم. فهلموا إلى المجد والشرف هلموا، هلموا إلى الجنة والشهادة هلموا. فلا نامت أعين الجبناء، ولا هدأت قلوب المعوّقين والمنافقين! لقد طال بكم أمد الصبر فماذا بقى لكم أن تصبروا عليه؟ لقد ألزموكم حمل شارة الفرنسيس، وافتنُّوا فى فرض الضرائب، وهدموا أبواب الحارات حتى لا يعوقهم عن الهجوم عليكم فى ظلمة الليل عائق. هل نحن أمه محمدية؟ هل نحن أمة جعل الله الجهاد فى مقدمة فروضها؟ أيها الشجعان البسلاء: ثوروا لكرامتكم، ثوروا لوطنكم، ثم ثوروا لتاريخكم»! وهنا انفجرت حماسة محمود العسال ونفدت طاقته العصبية فصاح: كفى كفى بالله عليك يا مولانا، فلن ترى منا مصر بعد اليوم إلا رجالاً أرواحهم فى أسنة رماحهم. ثم اتجه إلى الناس ونادى: هلموا معى إلى الجهاد. فرددت الجموع الزاخرة صوته: إلى الجهاد! إلى الجهاد! وتزاحموا إلى أبواب الجامع يتقدمهم محمود ووراءه

نيكلسون، وما كان يشك من رأى هذه الأمواج المتدفقة من الناس فى أن أيام الفرنسيين بمصر أصبحت تعدّ على أصابع اليدين.

اشتعلت الثورة بالقاهرة وتقدم محمود الثوار، فأخذوا سمتهم إلى مخافر الجنود الفرنسية فقضوا عليهم، وازدحمت بالناس شوارع الموسكى والغورية والنحاسين وغيرها، وجاء الجنرال «ديبوى» حاكم القاهرة ليصدّ الثوار مع طائفة من فرسانه، فأطبقوا عليه، وأصابه أحدهم بطعنة من رمحه فخرّ صريعاً مجدّلاً، فزادت بذلك حميتهم، وتكاثر عددهم بمن انضم إليهم من أرباض القاهرة، واستولوا على المواقع الحصينة: كباب الفتوح، وباب النصر، والبرقية، وباب زويلة، وباب الشعرية، وأخذوا يحفرون الخنادق وينشئون الحصون، ويطلقون منها النار على الفرنسيين.

وأدرك الفرنسيون الخطر المحدق بهم، فجمعوا جموعهم وعزموا على استئصال الثورة بالحديد والنار. وقضى أهل القاهرة الليل فى تأهب وإصرار، وكان محمود يمرّ على من بالخنادق والمتارس حافزاً للعزائم، مثيراً للهمم، حتى إذا بزغت شمس اليوم الثانى كان الفرنسيون قد احتلوا جميع المرتفعات خارج المدينة، ونقلوا إليها مدافعهم وذخيرتهم، فأرسلوا منها القذائف متتالية مرهبة على نواحى الأزهر والصنادقية، والغورية والفحامين، حتى أوشك الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب وأن يسقط على الجماهير الحاشدة به. وصارت الأحياء المجاورة صورة من الخراب والدمار، فتهدمت البيوت، ومات تحت أنقاضها آلاف من السكان البائسين، وطال الهول واشتد، وبددت قذائف المدافع قوة العزائم، ويئست الحماسة الوطنية من أن تقاوم جهنّميات العلم الحديث، وعجز الإيمان الأعزل أن يقف أمام الطغيان المسلّح، فسُقِط فى أيدى المصريين ودارت عليهم الدائرة، واستشفعوا بالمشايخ عند نابليون أن يرفع عنهم سخطه وغضبه، ولكنه بعد أن أسكت عنهم أصوات المدافع أطلق جنوده تعيث فى القاهرة كما تشاء، وتتحكم فى الناس كما تشاء. فدخلوا الأزهر بخيولهم وعبثوا بما فيه من كتب وخزائن.

إن نابليون كسب المعركة وقضى على الثورة، ولكنه قضى معها على كل أمل له فى اجتذاب المصريين، وعلى كل عاطفة تنبض بها قلوبهم.

وخرج محمود من الثورة كالسيف المحطّم: تحطم جسمه، وتحطمت روحه، وتحطمت آماله. فأسرع إلى بيت ابن عمه يائساً حزيناً، وانطلقت شياطين الجواسيس من

عقالها تقبض على كل من كان له ضلع فى الثورة، واعتنقت آلة الإعدام كل من حامت حوله شبهة فقضت عليه، وملّ الفرنسيون تكلفهم المودة للمصريين فصارحوهم العداء ومشوا لهم الضَّراء، وعرف المصريون بعد هذه الكارثة أن الخُطَب والمؤامرات شىء، والسيف والمدفع شىء آخر.

وذهب نيكلسون إلى بيته يحمل لابنته لورا حوادث الثورة، وما رآه من جُرأة محمود وبطولته، وقذفه بنفسه بين براثن الموت، ثم زفر وقال: لقد كان بطلاً حقاً، ولكن ماذا تفعل العصا أمام السيف الحسام؟

- لقد كنت أتوجس خيفة عليكما، وكلما سقطت القذائف من القلعة وقمم المقطم، كنت أدخل تحت السرير فأسجد وأصلى لكما. أهـو بخير يا أبى؟

- بخير وعافية، ولكن شعوره بالهزيمة يكاد يقضى عليه.

- هذه طبيعة الشرقيين، فمتى يعرفون أن الهزيمة دائماً أول حافز إلى الظفر؟ أتصدّق يا أبى أنى مسرورة بنتائج هذه الثورة، إنها لم تنجح فى مرآى العين، ولكننى أعتقد أنها بلغت غاية النجاح، وأن الفرنسيين لن يتم لهم أمر بعدها فى مصر. لأنك إذا وضعت هذه الثورة إلى جانب تحطيم نلسون لأسطولهم، رأيتهم فى مصر كأنهم فى بيت يحترق، وقد حرموا كل وسائل النجاة.

وتوالت الأيام، وخرج محمود من مخبئه، وأكثر من زيارة نيكلسون، ورأى من لورا عطفاً سحرياً شفى مريض نفسه، وبعث فيها أملاً جديداً. فحديثها حلو، وخلقها كريم، ومعدنها ذهب نضار. ثم هو إذا رفع إليها عينيه رأى الجمال الهادىء المطمئن، الذى لم يحاول مرّة أن يكون جميلاً فبزّ كل صنوف الجمال. كان يُنصت إليها فيسمع أدباً وحكمة، ويتعلم كثيراً عن الدنيا وأحوالها، والدول وسياستها. وكانت تنظر إليه نظرة حنّانة حالمة، فتلتقى بها نظرته فيحسُّ بأريحيَّة يكاد ينتفض لها جسمه. سَمّه ميلاً، او سمه حبّاً أخويّاً، أو سمّه ما شئت فإنه شىء لذيذ وكفى. أكثر محمود من زيارة لورا واصطحبها لزيارة زبيدة كثيراً، وكانت زبيدة تسرّ بلورا وتأنس بها، حتى لقد كانت تلزمها البقاء معها ببيت خالتها أياماً.

وفى صبيحة يوم قدم السيد على الحمامى من رشيد، وأخبر زبيدة بأن أمها فى شوق إليها، وأنها مريضة منذ حين، وأنها ألحَّت عليه أن يسافر إلى القاهرة ليعود بها، فلم تجد

زبيدة بدأ من السفر، فنزلت في سفينة إلى رشيد، فودّعها محمود العسال ولورا بين الزفرات والتنهدات، ومال محمود على أذنها، فأجابته فى ضحكة متكلفة : لم يبق إلا القليل!

- ٨ -

جلس مينو فى صدر إيوان بيته فى رشيد تحفّه تلك العظمة الحبيبة إلى نفسه، والأبّهة التى تميل إليها غرائزه، والجنود والدّيْدَبانات الفرنسية تحيط بأسوار الدار شاكى السلاح، فى أزهى ملابسهم وأروع ما به يظهرون، والخدم والأغوات يذهبون ويجيئون فى اهتمام وخشية، يدلان على جلالة شأو المخدوم وشدة صرامته، واحتفاله بصغائر الأمور. جلس مينو فى صدر الإيوان جلسة الأمير المدلل، الذى يشعر أن الدنيا فى يده، والخلائق طوع أمره، والقضاء والقدر من جنده. وقد قوّى عنده هذا الخيال ما كان يراه فى حاشيته من رءوس خاضعة، وظهور منحنية، وتسليم وإعجاب بكل ما يقول، كأنه وحى من السماء. وكان فى مجلسه ذلك اليوم الجنرال «مارمون» و «دينون» الأديب الكاتب الفرنسي، و «دولوميو» الرسام، وهما من أعضاء لجنة العلوم والفنون، والطبيب «شوفور».

بدأ مينو الحديث فى شيء من التضجر والسأم عما يحيط برشيد من الثورات التى لا ينطفيء أوارها، ثم هزّ كتفيه وقال: عجيب أمر هذه الثورات، إنها مع حقارتها وهوان خطرها، تشغل منا وقتاً كان أولى بنا أن نصرفه فى عظائم الأمور.

فهزّ «مارمون» رأسه وقال: إننا نكاد نكون قد أخطأنا الطريق فى سياسة هؤلاء المصريين، وقد كان عدد الجنود الذين فتحنا بهم مصر يمكن أن يكفى، لو أن الطريق بيننا وبين فرنسا بقيت مفتوحة آمنة. أما الآن، فقد اضطررنا إلى تشتيت هذه القوة الصغيرة فى الصعيد لمحاربة مراد بك، ثم فى جميع أنحاء مصر السفلى، لأن الثورات لا تكاد تنقطع فيها، وبذلك تمزّق الجيش وقُتل من الجنود عدد عظيم. وهنا قال دينون:

ـ ومن العجيب أن يترك نابليون هذا الأتُّون الملتهب بالثورة والعصيان، ويقتطع من هذا الجيش الضئيل ثلاثة عشر ألف جندي مع كبار قوادهم، ليذهب لغزو سورية! كأن مصر قد استقرّ بها كل شيء، واستقام بها كل أمر. فنظر مينو إلى دينون نظرة المغضَب وقال:

ـ أنت لا تعرف نابليون. إن سرّ عبقريته إنما هو فى تحدّى الأقدار والسخرية من الكوارث. إنه ليس رجلاً مثلك أيها الفنان الأديب. إن العقول تستطيع أن تعلل الأشياء فى مدى محدود، أما أعمال العباقرة ففوق منال العقول. وهنا أطرق مارمون وقال:

ـ إن المقامر قد يلقى بما بقى له من مال ليكسب الدست، فقال مينو:

ـ لا يا مارمون. إن المقامر ليست له بصيرة نابليون التى تكشف الغيب، ثم إنكم تبالغون فى شأن هذه الثورات، ولو كنت على رأس خمسمائة جندى لأطفأتها جميعاً، ولكن هذه الدنيا تعطى السيف دائماً لصاحب المحراث! ثم زفر وقال: عجيب ألا يختارنى نابليون وكيلاً له بالقاهرة بدل «دوجا» ولكن يظهر أن حماية الثغر أهم وأعظم. فأجاب دولوميو:

ـ من غير شك.

ثم انصرف القوم عدا الطبيب شوفور، وبقى مينو مطرقاً، وطال إطراقه. فقال شوفور:

ـ إن سيدى يكثر التفكير ويبدو عليه القلق، وقد لحظت منذ أيام أن صحته ليست على ما أحب له، فرفع مينو رأسه وقال:

ـ إننى أعيش هنا يا شوفور عيشة الأسير، وهذا الجو المحدود أضيق من أن يتسع لآمالى، وكلما أطلت التفكير فى أمرى بّرح بى الحزن واشتملنى عارض يشبه الخبال، إننى خلقت للعظمة والمرح. أما العظمة: فقد لقيتها هنا فى صورة ضئيلة لا تكاد تتعدى حدود رشيد، ولو أننى ملكت فرنسا كلها ما قنعت بها نفسى. وأما المرح: فقد تركت ورائى منه فى باريس ما لا يمكن أن يعود.

ـ لا بد للنفس الكبيرة والعقل الدائب المفكر من المرح واللهو. ولو لم يغسل عبث الليل ولهوه آلام كدح النهار وكدّه، لتبلد العقل وقتله الإعياء.

ـ وأين منا السبيل إلى اللهو فى مدينة نصفها مساجد، ولأهلها عيشة الرهبان والراهبات فى الصوامع؟

ـ السبيل الزواج يا مولاى.

ـ الزواج؟ وهل لرجل مثلى من أعرق الأسر الشريفة بفرنسا، أن يتزوج بفتاة إفريقية شوهاء، ليس لها قدم فى المجد. ولا لآبائها ذكر فى التاريخ؟!

ـ أما الفتاة الإفريقية الشوهاء فلا وجود لها فى رشيد، إن بهذه الدور التى يمرّ بها مولاى فوق جواده، لآلىء بشرية لم تقذف بمثلها كنوز البحار. وإن فيها من الجمال النادر ما يعجز عن تحدّيه أفخم القصور بباريس وفلورنسا وروما. إن الحسن الرشيدى يا مولاى صورة فى هذه الأرض لجمال الجنة وما فيها من نعيم، وربّ فتاة ملفّفة مختبلة فى ملاءتها، لو أسفرت لفضحت جميع ما تخيله روفائيل من فنون الجمال. أنا طبيب يا سيدى وتقتضينى صناعتى أن أرى الوجوه، وقد رأيت من حسنها هنا ما زهّدنى فيما بالغ فيه الشعراء وأبدع فيه المثّالون. وأما الشرف: فإن فى رشيد منه ما فى فرنسا. إن الشرف هنا لا يكون بالانتماء إلى بطل، وإنما يكون باتصال النسب بالنبى الكريم، وهذا خير ضروب الشرف والنبل.

ـ فى رشيد من الأسر من ينتمى إلى النبى محمد؟

ـ كثير جداً لأن أهلها من قريش نزحوا إلى رشيد بعد فتح العرب بقليل، ولكننا نريد شيئين: الشرف، والجمال. وهذان لا يجتمعان فى رأيى إلا فى أسرتين: أسرة الشيخ الجارم، وأسرة السيد محمد البواب، فاتجه إليه مينو فى شغف وقد أعجبه الحديث وقال: حدثنى عنهما يا شوفور حدثنى. .

ـ أما رقية وآمنة بنتا الشيخ إبراهيم الجارم: فجمالهما فوق وصف الواصف. وأما زبيدة بنت السيد محمد البواب فإنها فى الحق ساحرة فاتنة.

فجحظت عينا مينو وقال: هذا بديع جداً، ولكن ماذا أفعل بخليلاتى اللاتى يخطئهن العد بفرنسا وإيطاليا. إن أظافرهن لن تقنع بتمزيق جلدى!

ـ وأين هن منك اليوم وبينك وبينهن المهامه الفيح والبحار الخضر؟ إن الفرنسيين سيؤسسون بمصر مملكة شرقية واسعة الأطراف، وسيكون لك فيها الشأن الأول والملك العظيم.

ـ هذا ما تحدثنى به نفسى، وإذاً لا بد من الزواج، وبمن أتزوج؟ سأختار بنت الشيخ الجارم، لأنه فوق شرفه النبوى من أكبر علماء المدينة.

ـ غير أن في الأمر عقبة يجب أن تذلل، تلك أن الإسلام يحظر تزوج المسيحي بمسلمة.

ـ ألستُ مسلماً؟ ألم يشهدني أهل رشيد في مسجد المحلي وأنا أقوم وأقعد حتى كدت ألهث من التعب في صلاة التراويح؟

ـ أظن أن هذا لا يكفي، فإن عقد الزواج في مثل هذه الحال يجب أن تسبقه وثيقة مسجّلة بالإسلام، على أننا نستطيع أن نسأل مفتي المدينة في هذا الأمر.

فوثب مينو يصفق بيديه يدعو مملوكه الخاص «إينال» فلما مثل بين يديه، أمره أن يدعو إليه الشيخ أحمد الخضري.

حضر الشيخ الخضري بعد قليل، وهو خائف يرتعد لهذه الدعوة التي فاجأته في جوف الليل، وأخذت شفتاه تتمتمان بالأدعية وضروب الاستغاثة بالأنبياء والصالحين. فسلّم على الجنرال، وجلس بعد أن جمع ثيابه وتكوّر في عباءته كأنه صوان ضخم للثياب، وبعد أن هدأت نفسه قليلاً اتجه إليه مينو سائلاً:

ـ ما قول مولانا المفتي في مسيحي أسلم، أيجوز أن يتزوج بمسلمة؟

ـ نعم يجوز شرعاً إذا ثبت إسلامه لدى مسجل العقود بالطرق الشرعية.

ـ وما الطرق الشرعية؟

الإقرار والبيّنة. وأقوم السبل أن يقدّم هذا الرجل إلى المسجل وثيقة شرعية بإسلامه.

ـ إننا في فرنسا لا نتشدد هذا التشدد، فالناس أحرار في عقائدهم وتصرفاتهم.

ـ إن الإسلام أيها الجنرال يدعو إلى الحرية، ولكنه يحيطها بسياج حتى لا يضرّ بعض الناس بعضاً بتصرفاتهم، والله جل شأنه يقول في كتابه الكريم: ﴿ولولا دفْع الله الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾.

ـ هذه حكمة يجب أن تكون أساساً لجميع القوانين. لقد أفدتنا كثيراً يا مولانا، وقد دعوتك لأن جدلاً قام بيني وبين شوفور فيما سألتك عنه. يا إينال مُر بعض الجند أن يكون في خدمة الشيخ حتى يصل إلى داره.

مضى بعد ذلك يومان قضاهما مينو فى التفكير وتقليب وجوه الرأى، وذهب فى أثنائهما الشيخ الخضرى إلى الشيخ إبراهيم الجارم ليقضى السهرة بداره على عادته، وجاء ذكر الفرنسيين وأعاجيب أفعالهم، كما كان يجىء فى كل ليلة، فقال الشيخ الخضرى:

دعانى الجنرال ليلة أمس بعد أن ذهبت إلى فراشى، فلما كنت عنده سألنى سؤالاً عجيباً، فقال الشيخ الجارم:

ـ عن أى شىء سألك؟

ـ سألنى عن صحة زواج المسيحى الذى أعلن إسلامه بمسلمة.

ـ ما شأنه بهذا؟

ـ لا أدرى يا شيخ إبراهيم.

فأحسّ الشيخ الجارم ـ وكان بعيد النظر نافذ البصيرة ـ أن وراء هذا السؤال داهية دهماء، توشك أن تسقط على المدينة، ودفعته غريزة الحذر أن يكتم عن الشيخ اهتمامه فقال:

ـ إن هذا الرجل أخطأته عمامة الفلاسفة، وقد خرِف القدر فسمّاه جنرالاً، ولعل اهتمامه بسؤالك عن الزواج وغيره خطرات من وساوسه التى لا يفيق منها.

وانقضت السهرة وودّع الشيخ ضيفه، وجلس واجماً وقد حمل رأسه براحتيه، وتواردت عليه الأفكار والهواجس، وأخذ يحدّث نفسه: هذا المينو يريد أن يتزوج ما فى ذلك من شك، ثم هو يريد أن يتزوج بمسلمة، وهذا بديهى أيضاً. وما شأنى أنا بهذا؟ فليتزوج فلن أستطيع دفعه! ولكنها مصيبة ستحلّ بأسرة فى رشيد، وبأى الأسر تنزل؟ بأكبر الأسر وأرفعهن شأناً، لقد قرب الخطر منى، وأخذت النار تمتد إلى ثيابى. إن لى بنتين فيا للكارثة! كيف أدفع هذا العار عنى، إن كلمة «لا» أصبحت فى عرف الفرنسيين لا تفيد النفى، وإذا استطاع شجاع أن يقولها فلن تكون نهايته إلا الذل والدمار. إن هذا الجنرال سيظن أن زواجه بأكرم بنت فى المدينة تنزُّل منه وتواضع، وشرف عظيم وتفضل واسع على من يصاهره. فالويل كل الويل لمن يردّ هذا الشرف المزعوم فى وجهه، أو تبدو منه أية رغبة عن هذا الفضل العظيم! أليس من مفرّ؟ أليس من حيلة؟ ليتنى زوجتهما منذ حين، وليتنى لم أذُد عنهما الخطاب كما يذود حارس البستان الطيور عن ثمره! إننى واثق أن

إسلام الجنرال رياء، ولو كان مسلماً حقّاً، وأخلاقه أخلاقه التى أعرفها، ما رضيته زوجاً لأية فتاة تتصل بى من بعد أو من قرب. لا. لا. لا. إن هذا لن يكون. ثم رفع رأسه وبدا فى عينه بريق الظفر، وهدأت نفسه هدوء من يهتدى إلى حل أمر عسير، فنادى بخادمه وقال:

اذهب الآن مسرعاً وادع إلىّ الشيخ عثمان شبايك، والشيخ حسيناً أبا السعود أتعرفهما؟ إنهما الطالبان اللذان يجيئان هنا فى عصر كل يوم لتلقى الدروس. واذهب بعد أن تدعوهما إلى بيت الشيخ محمد غرا، واطلب منه أن يَعْجُل إلىّ.

وأقبل الطالبان بعد قليل فحياهما الشيخ وقال: إنما دعوتكما فى هذه الساعة لأعرض عليكما زواج بنتىّ، فقد أدركنى الهرم وخشيت إن أنا مت أن يزوجهما أخوهما من غير العلماء. وقد تعجبان من هذا العرض المفاجىء، ولكن لو علمتما ما أحاط بى من الوساوس والهموم لزال عجبكما. فنظر الطالبان إليه فى ذهول. وقال أولهما: هذا شرف كبير يا مولانا يطير اللب ويثير العجب، وإنما نحن خادماك اللذان يتنافسان فى حمل نعليك، فإذا تفضّلت علينا بهذه الكرامة، فليس لنا إلا أن نشعر بأن ما أصبناه من خير إنما هو بركة من بركاتك، ونفحة من نفحاتك. ثم انقضّا على يديه لثماً وتقبيلاً. وهنا دخل الشيخ محمد غرا، فطلب منه الشيخ أن يدوّن عقدى زواج، لأنه زوّج الشيخ شبايك برقية بنته، والشيخ أبا السعود بآمنة. فانزعج الشيخ غرا وشرع يتلعثم، ولكن الشيخ صوّب إليه عينين غاضبتين، فاستلّ قلمه وكتب.

وفى بكرة النهار أقبل أعوان مينو يتواثبون إلى دار الشيخ الجارم حتى ملئوا رحبتها، وهم يتعجلونه إلى مقابلة الجنرال، فخلّل الشيخ لحيته بأصابعه ـ وقد كانت تلك عادته إذا أحسّ بظفر أو كتم شماتة فى عدو ـ ثم وجد نفسه وهو ينشد:

فأصبحتُ من ليلى الغداةَ كقابضٍ   على الماء خانته فروجُ الأصابع!

وركب الشيخ بغلته وسار معهم هو يردد فى همس خافت استغاثته التى أغرم بترديدها:

نحن بالله عزُّنا والحبيبِ المقرَّبِ
بهما عزّ نصرنا لا بجاه ومنصبِ

والــذى رام ذلنا من قريب وأجنبى
سيفُنــا فيه قولنا حسبنــا الله والنبى

حتى إذا كان بحضرة مينو فجاه الجنرال بمحاضرة طويلة الذيول عدّد فيها أجداده الأبطال، وما كان لهم من أثر مجيد فى تاريخ فرنسا. وأطال فى إطراء شرف محتده ونبل أعراقه، والشيخ مطرق يخلل لحيته بأصابعه، ولسانه لا يفتر عن قراءة القرآن. ثم انتقل مينو إلى غايته فقال: وقد أردت ألا أضنّ على هذا البلد بما يصلنى بأهله، فعزمت على إعلان إسلامى والإصهار من أسرة شريفة، يتصل نسبها بالسلالة النبوية. وعلمت أن لك بنتين فلم أجد علىّ من عار إذا تزوجت بكبراهما. إن الناس سيدهشون حقاً لهذه المصاهرة، ولكنهم لو علموا أن التواضع من أول صفات الجنرال مينو ما عجبوا. فرفع الشيخ رأسه وقال:

ـ هذا يا سيدى شرف عظيم. ولو كنت أعلم ذلك الحظ السعيد الذى ينتظرنى ما زوجت ابنتىّ بالأمس.

ـ هذا شىء يؤسف له فقد كنت أرضى أن تكون لى صهراً.

ـ ذلك تقدير العزيز العليم.

وهنا وقف مينو وفى وجهه دلائل الحقد والغضب، فوقف الشيخ وسلم وانصرف.

ولم يستقر مينو فى مجلسه حتى أرسل فى طلب السيد محمد البواب، والسيد على الحمامى، فلما دخلا عليه دهمهما بطلب الزواج بزبيدة، فكاد البواب يصعق لهول ما ألقى عليه، وراعه الموقف وأصماه سهم القضاء. وأخذ الحمامى يسهب فيما سينالهم من الشرف والجاه بهذه المصاهرة، فأفاق البواب وقد سمع نفسه وهو يقول فى خوف وتلعثم: إنى كنت أتمنى أن أنال هذا الشرف لولا . . . ولكن الحمامى أسرع فقال فى صوت مرتفع حجب كل صوت: إننا يا سيدى الجنرال طوع أمرك، وإن نزولك إلى مصاهرتنا واختصاصنا بهذه الكرامة دون غيرنا، فضل دونه كل فضل، وكرامة ليس بعدها كرامة. وهنا هزّ مينو رأسه فى كبر وأنفة وقال: سيكون الزواج بعد أسبوع، فقال الحمامى: إنها الآن بالقاهرة، وسأسرع غداً إليها، وفى يوم حضورها يتم الزواج.

خرج الرجلان من دار مينو، فقال السيد محمد البواب للحمامى فى ذهول:

ـ لقد قتلتنى يا رجل وجلبت علىّ عار الأبد.

ـ إن هذا الزواج سيرفع من شأنك ويجعلك سيد المدينة.

ـ إنى لن أشترى سيادة الدنيا بهذه الوصمة.

ـ هوّن عليك يا عم، فلن يضيرك أن تكون صهر أكبر جنرال فرنسى، ولن تلبث حتى يتزاحم عليك وفود المهنئين من كل مكان.

ـ لن أبقى فى المدينة حتى أرى واحداً منهم!

ـ لن تبقى؟!

ـ نعم.

ـ سألتك بالله أن تتريّث يا عم، فإن الوهم يلعب برأسك، ويصور لك من حادث يتمناه الناس جميعاً خطباً فادحاً.

ـ لن أبقى برشيد لأرى الناس يراءوننى، ولو كشف عنهم الغطاء لبدت قلوبهم وكلها زراية بى واحتقار وسخرية. ماذا تظننى يا رجل؟

إننى لن أعيش فى مدينة كل ما فيها ومن فيها يذكّرنى بأن ابنتى فى عصمة افرنجى مغتصب.

ـ ولكنك ستقتل أمى.

ـ إن الموت قد يكون أحياناً خيراً من الحياة.

ـ يا للمصيبة وماذا نعمل الآن.

ـ ماطِل الرجل إن استطعت ومنّه الأمانىّ، فلعل الله يعقب بعد عسر يسراً.

ـ لن أستطيع يا عمى. إننى إن فعلت فتك بنا جميعاً وصادر أموالنا، فإنه إذا تملّكه الغضب انقلب أسداً هصوراً.

ـ الله أقوى منه. سأرحل الآن حيث لا يعلم أحد مكانى، وقد أعددت العدّة للسفر قبل أن أذهب لمقابلة الرجل، فإنى أوجست منه شراً. ثم انفلت هائماً نحو غرب المدينة، فاكترى بغلاً سار به فى طريق الإسكندرية، منطلقاً فى عجلة كأنه الصيد المذعور.

وسار الحمامى إلى أمه حزيناً، ولكنه ما زال بنفسه فى الطريق حتى مسح عنها الحزن، وصوّر لها ما يستقبله من الثروة والجاه ورفيع المنزلة فاطمأنت، ثم طغى عليه سيل من الأمانى والأحلام فسخر من عمه، وهزىء من تزمّته وتحرجه، واعتقد أنه رجل لا يفهم الحياة ولا يهتبل الفرص. وما دام الزواج شرعياً فأى شىء فيه من العار الذى يتخيله الأغبياء المتحذلقون؟!

دخل على أمه ضاحكاً مرحاً، وألقى إليها الخبر فى جذل وابتهاج، وأخذ يسهب فى وصف الجنرال وكرم أخلاقه وشدة تمسكه بدينه، وأن كرائم الأسر فى رشيد ستحسد أخته على هذا الشرف الباذخ، الذى طالما ترامت على أعتابه فلم تظفر منه بطائل.

ـ وهل قبل أبوها؟

ـ قبل مسروراً، وسافر ليعد لزبيدة جهازاً يليق بالجنرال.

ـ إننى لا أعرف ما يعرفه الرجال، ولكنى غير مسرورة لهذا الزواج، لأنه زواج غير عادى، ولا أظن أنه ينتهى بخير.

ـ دعى الأمر لله.

ـ آمنت بالله لا ربَّ سواه.

وأسرع الحمامى إلى القاهرة فى غد يومه، واحتال لأخذ زبيدة، فادّعى أن أمها مريضة. ثم مضت أيام وصلت بعدها إلى رشيد، وكانت أمها مريضة حقاً، لأن غيبة زوجها أقلقت بالها وأقضّت مضجعها، وجعلتها تظن الظنون. فدخلت عليها زبيدة فقبلتها باكية، وحين سألت عن أبيها أخبرتها بانه سافر منذ حين، وسيعود قريباً. وحينما فجأها أخوها بخبر خطبتها تلقته ذاهلة أول الأمر، وطاف بها خيال محمود وماله فى سويداء قلبها من حب مكين، ثم طاف بها خيال العرّافة رابحة، وتنبهت فيها غرائز الطموح، وقضت الليل كله تحمل ميزاناً من الوهم، تضع مينو فى إحدى كفتيه ومحمود فى الأخرى، فمرّة ترجح هذه، ومرة ترجح تلك، حتى كادت تصاب بالجنون. وكانت تثب من سريرها وتقول: هذه هى الموقعة الفاصلة فى حياتى، فأىّ الرجلين أختار؟ مينو ليس الآن ملك مصر ولكنه قد يكون، ومحمود أحبُّ الناس إلى قلبى وأقربهم إلى نفسى. مينو إفرنجى يقولون: إنه أسلم، ولكنى لا أعرف أخلاقه وصفاته، وهو ليس من جنسى ولا من قبيلى، ومحمود

ترب صباى وشقيق روحى، وفيه صفات الأبطال وخلائق سكان السماء، ولكن ليس لديه ملك وليس لديه عرش، وليس لديه صولجان. مسكين يا محمود، لو كنتَ ملكاً! ولكن مالى وللملك أسلك إليه طريقاً مظلمة موحشة مجهولة؟ أأتزوج بفرنسى لأكون ملكة؟! ومن يضمن لى هذا؟ إنه حاكم رشيد، والثورات تحيط بالفرنسيين من كل مكان، فماذا يكون الأمر إذا جاء الترك وطردوهم، وبقى هذا الفرنسى المسمى مينو معلقاً برقبتى؟ تلك هى الطامة الكبرى، والكارثة العظمى، وهنا يصدق قول خالتى أمينة بأننى أزهد فى الثمرة الدانية لأتعلق بالأشواك. ثم أين أبى؟ أليس فى أكبر الظن أنه فرّ من ذلك العار الذى لطخته به يد القدر العاتية؟ لا. لن أتزوج بهذا الفرنسى ولو انطبقت السماء على الأرض. ولكن من يدرى فقد يكون هذا الرجل مطيتى إلى ما أريد؟ إن العرّافة لم تكذب قط، فلم تكذب فى أمرى وجدى؟ إن الفرنسيين سيبقون بمصر، وإن مينو سيكون حاكم مصر. وهكذا ظلت زبيدة تخلط وتهذى حتى بزغ النهار، وحينما ملأت الشمس الأفق غصت دار البواب بالزوار. وكان بينهم الحاج حسين الميقاتى، والسيد على الحمامى، والسيد أحمد النقرزان، والسيد إبراهيم النقرزان، فطلبوا من زبيدة توكيل الحاج حسين فى تزويجها بمينو، فوكلته أمام الشهود فى تردد ووجل. وكان مينو أشهد على إسلامه قبل ذلك أمام القاضى الشرعى، وسمى نفسه عبدالله جاك مينو، واختار أن يكون الحاج أحمد شهاب وكيله فى الزواج، فاجتمع الوكيلان والشهود والمفتُون بالمحكمة فى اليوم الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف، وعُقد لعبدالله مينو على زبيدة، ولا تزال وثيقة هذا الزواج فى محفوظات محكمة رشيد الشرعية إلى اليوم.

وزفت المسكينة الطَّموح إلى مينو بعد أسبوع، فقذفت بسفينة حياتها فى خضم قاتم مضطرب الأمواج، لا يهديها فيه إلا شعاع من أمل متقطع كاذب، ولو نفذ إلى سمعها صوت من بين هذه الأمواج الصاخبة حولها، لسمعت قهقهة القدر وهى تجلجل فى شماتة وسخرية.

- ٩ -

بقى محمود العسال ونيكلسون بالقاهرة يترقبان الحوادث ويتصلان بجماعات الثوار، ويبتكران الوسائل للانقضاض على الفرنسيين وزعزعة حكمهم فى مصر، وذهب

محمود ذات صباح إلى متجره بخان الخليلى الذى يشرف عليه ابن عمه، وبعد أن جلس قليلاً رأى آثار الحزن والوجوم بادية فى وجه ابن عمه فحاول أن يتغافل عما بدا له لأن عبوس الوجوه وانقباضها ليس بالشىء الغريب فى هذا الزمن الغريب، ولكن حسيناً زاد ارتباكه وانصرافه إلى الأمور التافهة وتجنبه النظر فى وجه محمود، فابتدره قائلاً: هل من جديد يا حسين؟

ـ فتلعثم الفتى وحاول أن يبتسم فلم يستطع، ثم نظر فى وجه محمود نظرة حزن وإشفاق وقال:

ـ إن سعداً الشباسى المراكبى جاء اليوم من رشيد.

ـ وماذا فى هذا؟ أماتت أمى؟

ـ لا قدر الله. إنه يقول إن سيدتى زينب بخير.

ـ هذا شىء يسرُّ، فلم أراك عابساً حزيناً؟

ـ إن ما قصّ علىّ من أعمال الفرنسيين برشيد أثار أحزانى.

ـ هذا شىء لا يقابل بالحزن، وإنما يقابل بالجهاد وجمع الكلمة وتوحيد الرأى.

ـ أخشى ألا نستطيع جمع الكلمة إلا بعد فوات الأوان، وبعد أن تداس كل كرامة، فإن قلبى ليتفتت حينما أرى النساء المتبذلات، وقد مزّقن حجابهن وركبن الحمير مع جنود الفرنسيين يذهبن معهم كل مذهب، ويجلسن معهم فى القهوات دون نكير من أزواجهن أو آبائهن، وإن الحسرة لتمزق فؤادى حينما أرى بعض الناس الذين تأبى الإنسانية أن ينسبوا إليها يساعدون الفرنسيين ويتملقونهم ويذللون لهم السبل.

ـ إنهم ليسوا بأكثر ملقاً واستخذاء من العلماء أعضاء مجلس الديوان الذين يحملهم الفرنسييون كل يوم على كتابة منشور مملوء بالآيات القرآنية لتأييد حكم الغاصب ودعوة الناس إلى طاعته. آه يا حسين، إن مصر كانت مريضة بأهلها، فلما جاء الفاتح لم يجد بها مناعة تصدّ الداء الوبيل الذى رماها به، وماذا برشيد من أفانين مينو؟

ـ علمت أن نزعته الجديدة أن يزجّ بنفسه فى الأسر الكريمة.

ـ كيف؟ يكثر من زياراتها؟

ـ يكثر من زياراتها أو يصهر فيها.

ـ يا للكارثة! يتزوج بمسلمة شريفة؟ إن دون هذا وتسيل الدماء! من يقبل أن يزوجه ابنته؟

ـ ليست المسألة مسألة قبول. إنما هى إلزام وقهر، ومن يستطيع أن يقف فى وجهه؟

ـ أتزوج فعلاً؟

ـ نعم.

ـ بمن؟

فتنهد حسين وغلبه دمعه وقال: بزبيدة.

فوجم محمود وذهل، وألقى برأسه بين راحتيه، وترك عينيه شاخصتين كأنهما عينا المحتضر وقد جمد الدمع فيهما، وتملكه حزن وغضب حبسا لسانه عن الكلام والأنين. بقى أكثر من نصف ساعة على هذه الحال، ثم هبّ واقفاً وقال:

ـ ما أصابكم من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلاّ فى كتاب. ثم قال: كنت أحارب الفرنسيين للوطن، واليوم أحاربهم للوطن والشرف والإنتقام. ثم انطلق مطرق الرأس كمن به جنّة، ولزم داره أياماً ليبث حزنه لنفسه، ويرسل الدمع مدراراً دون أن يخاف رقيباً أو مُليماً.

غاب محمود ولم يزر نيكلسون أياماً، فقلقت لورا ولعبت بظنونها الأوهام، فقالت فى هيئة من عرض له أمر غير خطير غير أنه يريد أن يتحدث، وكانت تملأ فنجانة القهوة لأبيها:

ـ هل سافر محمود إلى رشيد؟

ـ ما أظن يا بنيّتى، فإنه لو عزم على السفر لأخبرنى. إننى لم أره منذ أربعة أيام وقد شغلنى عنه انصرافى إلى استهواء ذلك الضابط الفرنسى حتى أصبحت جميع أخبار القيادة العليا ملك يمينى، وفى متناول كفى.

ـ عجيب أن يبوح ضابط بهذه الأسرار. كيف استملته يا أبى؟

ـ الجنود يا لورا ساخطون على البقاء فى هذه الديار، وبخاصة بعد أن هددتهم

الثورات وحوادث الاغتيال. وهم يعتقدون أن قدومهم إلى مصر لم يكن إلا لإشباع نزوة لنابليون المولع بأن يجلجل اسمه دائماً بين الطبول والزمور، ولو أورد جنوده موارد التلف. ثم إنه ضللهم ودفعهم إلى الاعتقاد بأنهم سيجدون في مصر باريساً أخرى، فلم يجدوا من ذلك شيئاً.

عرفت هذا الضابط أول ما عرفته بحانة للإفرنج بحارة الرويعي، فرأيت فيه فتىً وسيم الطلعة، يدلّ حديثه وملامحه على أنه من الطبقة المتوسطة بفرنسا، وعلمت من خادم الحانة أنه مرافق «ياور» الجنرال دوجا الذي قام مقام نابليون بعد سفره إلى سورية. رأيته جالساً وقد خيّم على وجهه الحزن والسأم، فبدأت الحديث في الجوّ، وكان لي بالفرنسية إلمام حسن فأطلقت سراح كلماتها لتشمّ الهواء وتتمتع بنعمة الظهور، فابتسم نحوي في وداعة وتأفف وقال:

ـ إن جو مصر خدّاع كنسائها، فإنه يصفو لك يوماً ليذيقك عذاب الجحيم أياماً وشهوراً. آه يا شيخ! لو ذقتَ حرارة الجوّ حينما قدمنا مصر واخترقنا هذه الصحراء الملعونة بين الإسكندرية ودمنهور. عند ذلك قربت من خوانه، ومددت يدي إلى كرسيّ فجلست بجانبه، ودعوت الخادم أن يأتي بكوبين من الجعة. وطال بيننا الحديث في جمال باريس وجمال نسائها، وقبح القاهرة وقذارتها وانتشار الأمراض بها، وجدْب بها من مسارح اللهو والتسلية، وبغض سكانها للفرنسيين. وقد أعلمته في غضون الحديث أني مغربيٌ وأني مولع بالفرنسيين أحب فيهم الشهامة والشرف وخفة الروح، وأعتقد أن ثورتهم التي قاموا بها في بلادهم للحرية والإخاء والمساواة ستخلّد أمتهم على الدهر، وستبقى مثلاً عالياً في العالمين. فقبض على يدي وهزّها في جذل ونشوة، واقتنصت الفرصة وأخرجت خاتمي الثمين من إصبعي، وقلت: هذا يا سيدي... فعاجلني وقال: ألبير. ألبير. فقلت: هذا يا سيدي ألبير سيكون رابطة الصداقة والمحبة بينك وبين صديقك السوسي. فالتقطه ألبير مبتهجاً وأخذ ينظر إليه دهشاً وقال: هذا لي؟ قلت: نعم يا صديقي، ولي من الثروة ما لا يعدُّ هذا بجانبه شيئاً. ثم قمت بعد أن واعدني على أن نلتقي عصر كل يوم بالحانة.

ـ وهل أخبرك بشيء يا أبي؟

ـ أخبرني انه بعد أن سافر نابليون إلى سورية ظهر التمرد والانتقاض في أكثر بلاد مصر السفلى، لكثرة ما دهى الناس من عبث الجنود ومصادرتهم لماشيتهم وحاصلاتهم،

فشبّت الثورة بالشرقية، وانضمّ خلق كثير تحت لواء مصطفى بك أمير الحج الذى خرج على الفرنسيين، ثم سرت نيران العصيان متأججة مخيفة إلى ميت غمر، والبلاد التى حولها، ثم اشتد الهياج فى منطقة رشيد، وظهر بالبحيرة رجل ادّعى المهدية ودعا الناس إلى الجهاد، وانضم إليه رجال القبائل وغيرهم، وقد هزم الفرنسيين مرات حتى تكاثروا عليه آخر الأمر فقتلوه. وكان الفرنسيون إذا تغلبوا على مدينة فتكوا بمن فيها ودمروها.

ـ هذا منطق مقلوب يا أبى. إن قلوب الأمم لا تملك بالقسر والقسوة.

ـ إن هؤلاء القوم يظنون يا فتاتى أن السيف هو قانون أمم الشرق، ولم يعلموا أن هذه الأمم هى التى علّمت أوربا فى القرون الوسطى قوانين سياسة الأمم، وأرسلت إليها شعاعاً وهّاجاً من المدنية والعلم، لا يزال ينير لها الطريق إلى اليوم. وبينما هما يتجاذبان الحديث إذا طرق خفيف على الباب، فقام نيكلسون يفتحه فرأى محموداً العسال فلم يملك إلا أن يعانقه مرحّباً، ثم صاح: لورا! ها هو ذا محمود العسال الذى أقلق بالنا بغيابه طول هذه المدة، فأسرعت لورا فرحة بلقاء محمود، ومدّت إليه يديها فى حب أخوى صادق، وقالت:

ـ لا يا محمود... إن مثلّثنا المتماسك إذا غابت منه ضلع عاد خطّاً منكسراً! ثم قالت فى مرح لطيف: وإهمالك زيارتنا ذنب لا يغتفر، فلا بد أن تؤدى لنا حساباً دقيقاً عما كنت تفعل فى هذه الأيام. حيّاها محمود تحية ملؤها الشكر، وجلس واجماً ينكت الأرض بعصاه، وهنا قال نيكلسون: مالى أراك اليوم منقبض الأسارير يا محمود؟

ـ لخبر هائل وصل إلىّ من رشيد منذ أيام. ثم طفرت دمعتان من عينيه لم يستطع لهما حبساً، وأخذ يصل الحديث فقال فى تمتمة المذهول: علمت أن الجنرال مينو تزوج بزبيدة. سمعت لورا الخبر فدارت بها الغرفة كأنما رُكّبت فوق محور، وماجت بنفسها إحساسات عنيفة مبهمة. وعجيب شأن هذه الإحساسات، فإنها تهجم عليك كتلة مجتمعة، ثم تنحلّ إلى عناصر منفردة تترجمها النفس فى سرعة البرق. سمعت لورا الخبر فأحست بشىء من الفرح يمتزج بالحزن الأليم. تزوجت زبيدة حبيبة محمود فأصبح خالصاً لها، لا يزاحمها فى حبه شريك. والأثرة أول صفات الحب، لأنه دائماً غيور حذر. إذا يئس محمود من زبيدة تفتحت أمامه السبيل إلى حب آخر، وقد رأت منه فى الأشهر القليلة الماضية ميلاً كاد يكون حبّاً، وحناناً جاوز حدّ الحنان، وقرأت فى نظراته ما لا تستطيع

ترجمته إلا النساء، ولحظت أنه يكثر من الزيارات ويصغى فى شغف إلى حاديثها. نعم إنها جذوة صغيرة خامدة تحت الرماد ولكن لا يصعب عليها إشعالها. تمرّ هذه الصور سريعة خاطفة بذهن لورا فتسرّ وتبتهج، ولكن صوراً أخرى فى سرعتها ومضائها تدهمها قوية جيّاشة فتبتئس وتحزن. إن محموداً فى ألم شديد فكيف تسرّ وحبيبها يتألم؟ إن بطلها قد خاب أمله، وعبثت بعواطفه فتاة كانت تغذّى حبه بوعود خلاّبة كاذبة. وإلا فلماذا لم تتزوجه، وهو زينة الفتيان وفخر أبناء الزمان؟ ولكن من يدرى؟ فقد تكون زبيدة المسكينة قد رُميت بهذه الداهية على الرغم منها، وقد يكون أهلها قد غُلبوا على أمرهم فزوجوها بهذا الفرنسىّ مكرهين، وهنا يجب أن تحزن لزبيدة أيضاً، فهى صديقتها وأختها، وقد كانت تحب محموداً حبّاً جماً، فيا لنكبة العاشقين! ويا لمصيبة الحبيبين! لا لا. إنها لا تفرح لمصائب الآخرين، فكيف بنكبات أصدقائها المخلصين؟ هكذا كانت الأفكار تتزاحم على لورا. وهكذا كانت عواصف الوجدان تطوّح بها من ناحية إلى أخرى. لذلك اتجهت إلى محمود وقالت: إنها لكارثة حقّاً، مسكين يا محمود! ولكن الرجال لا يكون، ومثلك من يحمل الأرزاء فخوراً باحتمالها وقال نيكلسون وقد برّح به الهم: عجيب أن يصهر الفرنسيون من المصريين، وخناجرهم فى جنوبهم. ولكننى أعتقد أن زبيدة أرغمت على هذا الزواج إرغاماً، وأنه لم يعقده قاضى المدينة إلا بعد أن عقده السيف والمدفع. هوّن عليك يا بنىّ فإن هذه المصيبة سيمحوها ما هو أشدُّ منها ما دمنا فى هذا الزمن الأغبر. ارفع رأسك يا بنىّ وكن رجلاً. فقال محمود: نعم سأكون رجلاً، وسأعمل بوصاتك ووصاة لورا، وسأثور على الفرنسيين لوطنى وشرفى. هلم يا نيكلسون فقد علمت أن نابليون سيعود اليوم من الشام وقد أقاموا له الزينات وأعدوا الطبول والزمور، واعتقادى أنه هزم شر هزيمة على الرغم من منشورات الديوان، ومن تلك الرايات التى رفعوها على مآذن الأزهر، ومن كل ما يذيعه أبواق الفرنسيين. هلم معنا يا لورا فإن النظر إليك ينسينا ما نحن فيه من هموم. فارتدت لورا حبَرتها وغطت وجهها بنقابها، واتجه ثلاثتهم إلى باب النصر ينتظرون قدوم الفاتح العظيم، حتى إذا وقفوا هناك مع الجماهير المتزاحمة ورأوا فرسان الجند يذهبون ويجيئون فى تيه وعظمة، قال أحد القاهريين لمجاوره: أما والله لولا هذه البنادق التى يتسلحون بها، وتلك المدافع التى ينصبونها فوق القلاع لقضينا عليهم فى ساعة من نهار. فأجابه صاحبه حزيناً: آه يا أخى لقد ضيعنا المماليك وفرّوا، إنهم لم يعملوا منا أمة، ولم يحصّنونا من عدوان الأمم. ثم مرّ عليهم جماعات من عظماء المدينة

يركبون البغال المطهمة، فسألت لورا محموداً عنهم، فقال:

أما هذا يا لورا فهو الشيخ عبدالله الشرقاوى رئيس الديوان الخصوصى شيخ العلماء، وهو رجل أذلّه حب المال والجاه، فتعلّق بأذيال الفرنسيين لا يهمه أخربت البلاد أم عمرت، وهذا هو الشيخ محمد المهدى وهو داهية واسع الحيلة، يقتنص العصفور من بين براثن النسور، ويختطف الزبد من فم الثعلب، يتملق الفرنسيين ليجتلب رضاهم، ويصانع المصريين بالدفاع عنهم، والسعى فى تخفيف ويلاتهم. أما هذا الشيخ الأسمر النحيل الجسد فهو رجل عظيم يا لورا، إنه الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ الكبير، علمت أنه يدوّن الحوادث كل ليلة قبل أن يذهب إلى فراشه، وله حكم دقيق عادل على الوقائع والأشخاص. ولو علم الفرنسيون بتاريخه لأحرقوه مع هذا التاريخ. وهذا الشيخ الضئيل هو الشيخ خليل البكرى نقيب الأشراف. أما الشيخ الوقور الراكب إلى يمينه فهو السيد محمد السادات وهو رجل خطير الشأن، يبغض الفرنسيين ويبغضونه، وقد يُرجى أن تكون له يد فى إنقاذ مصر، وهذا الذى ترينه منحنياً على قربوس بغلته، وقد وُشيت جبته بالذهب، هو المعلم جرجس الجوهرى القبطى كبير المباشرين والكتبة، وله فى هذه الدولة نفوذ عظيم. وانظرى يا لورا إلى هذا العتل الزنيم الراكب وراءه، إنه برثلمى الرومى، وهو نكبة مصر فى لأوائها، كان من أسافل جند المماليك فعينه الفرنسيون وكيلاً لحاكم القاهرة فطغى أشدّ الطغيان، وأصبح صورة بشعة للقسوة والنهب وسفك الدماء والتجسس على الناس. ثم مرّ فى الطريق السيد أحمد المحروقى والسيد أحمد محرم والشيخ الصاوى وغيرهم من الكبراء والأعيان فكان محمود يعرّف كلا منهم للورا بكلمة موجزة.

ودخل نابليون فى عظمته وجلاله من باب النصر يتبعه الجيش، فاخترق شوارع الجمالية وبين القصرين والموسكى، حتى وصل إلى ميدان الأزبكية بين قصف المدافع ودق الطبول. وكان سير الموكب بطيئاً، فاجتاز هذه المسافة فى خمس ساعات.

ولما انفرد محمود بنيكلسون ولورا قال: أشهد أن نابليون هُزم فى هذه الموقعة وعاد مدحوراً، أرأيتما كيف كانت عيناه تنطبقان أحياناً لكيلا تؤلمه رؤية هذا الاحتفال الكاذب؟ أرأيتما جيشه خلفه وهو يكاد يسقط من الإعياء؟ إنى أقسم أنه فقد نصف عدده. أرأيتما هذا النفر الضئيل الذى يسميه أسرى؟ هؤلاء يا لورا من باعة الصابون الفلسطينيين الذين

يتجرون فى مصر، وفى ظنى أنه ظفر بهم وهم قادمون فزيّن له عُجبه أن يتخذهم أسرى.
فقالت لورا: أعتقد أن المبالغة فى الاحتفاء به وحدها هى أوضح دليل على خذلانه. وقال نيكلسون. صدقت أيتها الفيلسوفة الصغيرة، ولكنى أقول إن عودته وحدها من سورية برهان نكبته، لأن نابليون كان يرجّى بعد فتح عكا أن يزحف إلى دمشق وحلب، وأن يصل منهما إلى الأناضول فيحتل إستانبول ويقوّض أركان الدولة العثمانية، ثم يمضى بجيوشه نحو النمسا ويصل منها إلى باريس ظافراً منصوراً بعد أن امتلك الشرق والغرب، فعودته بعد أن طاحت هذه الآمال خيبة ليس وراءها خيبة. على أننا سنسمع الخبر اليقين من ألبير غداً، فقال محمود: ومن ألبير هذا؟

ـ ضابط فرنسى ساخط على بقاء الفرنسيين بمصر.

وكانوا بلغوا منزل نيكلسون فودّعهم محمود وانصرف.

قضت لورا ليلتها فى أحلام مضطربة، فمرّة ترى زبيدة غارقة فى نهر ومحمود يحاول إنقاذها فيحول بينهما تيار جارف شديد. ومرة ترى محموداً وهو متعلق بفرع شجرة عالية، وقد كلّت ذراعاه وأشرف على الهلاك، فتسرع إليه بسلم عال فينحدر به إلى الأرض. وهكذا كانت كلما خرجت من حلم دخلت فى غيره حتى أشرق النهار.

وقضى نيكلسون اليوم فى رسم خريطة للقاهرة تبين شوارعها ودروبها وأشهر معالمها، حتى إذا جاء وقت العصر غادر داره متجهاً نحو دكان محمود، فرآه جالساً قلقاً ينتظره. فسارا معاً حتى بلغا الحانة ورأى نيكلسون ألبير جالساً فى إحدى زواياها، وهو يذود الذباب عن وجهه ضجراً مغتاظاً، وقد تواثب عليه من كل ناحية. فلما رآه ألبير صاح مبتهجاً: أدركنى يا صاحبى المغربى! فإنه يظهر لى أن ذباب مصر ملتهب الوطنية، وأنه حينما رأى أن المصريين لم يستطيعوا إخراجنا من مصر، أراد أن يقوم بالأمر عنهم، واعتقادى أنه سيفوز بالتغلب علينا وقذفنا فى البحر. فابتسم نيكلسون وقال:

ـ إن الذباب يسقط على ما يحب لا على ما يكره.

ـ إنه حب من النوع القاتل، فقد نكب هذا الحب جنودنا بالرمد المصرى والزُّحار وأنواع لا تكاد تحصى من الحميات القاتلة.

ـ الشاعر العربى يقول:

ولا بد دون الشهـد من إبـر النحل

والشهد هنا هو النيل، فمن أراد أن يمتلكه ويتمتع بعذب مائه فليصبر على ما بشاطئيه من حشرات وأمراض. ثم التفت إلى محمود وقال: هذا ابن أخى، فنظر إليه ألبير مبتسماً وقال: ولكنه يتزيّا بزى المصريين.

ـ لأنه يريد مجاملتهم لترويج تجارته بينهم، أوصلت إليك السَّجّادات العجمية؟

ـ أنت لم تمهلنى لشكرك، وهذا الذباب قد علّمنى سوء الأدب فلم أسارع منذ رأيتك إلى إظهار ما يملأ نفسى إعجاباً بك وبهديتك الغالية. حقّاً إنها سجادات يزدهى بمثلها قصر الشاه بإيران.

ـ هذا شىء قليل يا صديقى. أشهدت الاحتفال بمقدم نابليون بالأمس؟ لقد كان غاية فى العظمة وجلالة الملك.

ـ نعم لقد كان احتفالاً فخماً، ولم ندخر وسعاً فى أن يكون صورة لقوة فرنسا وضخامة سلطانها.

ـ ولكنى كنت أحب أن يصل نابليون إلى أبعد من عكا.

ـ فابتسم ألبير ابتسامة فاترة حزينة وقال: هذا ما كان يتمناه نابليون ويتمناه كل فرنسى معتقل فى أرض مصر، فإنه بعد أن سُدّ علينا طريق البحر بتدمير أسطولنا حاول قائدنا أن يسخر من العقبات، وأن يشقّ لنا طريقاً بريّة تصلنا بفرنسا، فوقف القدر فى وجهه فلم يجد إلا أن يعود أدراجه إلى مصر.

ـ إنها محاولة جريئة، لن يقوم بها إلا نابليون العبقرىّ.

ـ ولكن الثمن كان غالياً جدّاً، والنكبة فادحة جدّاً. ولمح نيكلسون غلام الحانة فأمره بإحضار كأس من الخمر، وفنجانتين من القهوة ثم قال: إنهم يقولون إن نابليون عاد منتصراً، ولكن ألبير مطّ شفته السفلى فى غيظ وأسف، وقال: إن للسياسة يا صديقى لغة لا يفهمها الناس. وحضر الغلام فاحتسى ألبير كأسه دفعة واحدة، وأمر له نيكلسون بأخرى. وهنا مال ألبير نحوه برأسه وقال هامساً: لقد أصبحت لى يا سوسى أخاً وحبيباً، ولقد رأيت فيك ميلاً للفرنسيين وحباً خالصاً لهم، وليس من حرج أن أكشف لك خبيئة كل أمر. لقد

اطلعت بالأمس على رسالة طويلة كان بعث بها الجنرال «رينييه» إلى دوجا منذ أسبوع يصف فيها هذه الحملة وصفاً دقيقاً فيقول: إنهم تغلّبوا على الجيش العثمانى فى العريش، ثم ملكوا خان يونس وغزّة والرملة واللد، واستولوا على يافا بعد حصار شديد ومعركة عنيفة، وإن الجنود ارتكبوا فى يافا من القتل والنهب ما تقشعر له الأبدان، وفى هذه المدينة انتشر بين الجند وباء ماحق كاد يقضى عليهم جميعاً، وفيها أمر نابليون بإعدام ثلاثة آلاف من الجنود العثمانية دفعة واحدة بعد أن ألقوا السلاح، وبعد أن تعهد لهم بعض ضباطه بسلامة أرواحهم إذا سلّموا. ثم استأنف الجيش سيره فاحتل حيفا، ثم اتجه نحو عكا وهى مدينة محصنة بها جيش قوى من العثمانيين يقوده أحمد باشا الجزار، وهو قائد شديد المراس قاس، ذكى الفؤاد، خبير بشئون الحرب. وأخذ نابليون يحاصر عكا من اليوم التاسع عشر من مارس سنة ١٨٩٩ م إلى اليوم الحادى والعشرين من مايو فضرب أسوارها ومعاقلها، واشتعلت المعارك بينه وبين الجزار طاحنة شديدة الأوار. ولما طال الحصار وضعف جند نابليون وعظمت خسائره، ارتد عنها بالبقية الباقية من جيشه. وزاد فى قوة عكا أن الأسطول الإنجليزى بقيادة سدنى اسمث كان يظاهر جيش الجزار ويحول دون وصول السفن الفرنسية بالذخائر إلى الشاطىء، وقد أسر منها سبعاً كانت قادمة من مصر تحمل مدافع الحصار وكثيراً من الذخيرة، فضمها إلى أسطوله. وهكذا عاد نابليون إلى مصر حزيناً يائساً بعد أن فقد خيرة رجاله، وبعد أن اضطر أن يترك بيافاً جنوده الذين أصيبوا بالطاعون فريسة فى أيدى أعدائه، وأن يتخلّى عن كثير من مدافعه وذخائره فى الطريق لوعورته وضعف جنوده عن جرّها، وقد طغى عليه الغضب فأحرق القرى بين يافا وغزة. هذه يا صديقى حملة سورية التى كنا نريد أن نجعل منها باباً خلفيّاً إلى أوربا.

ـ لقد أحزنتنى يا ألبير، إنها حقّاً لكارثة جانحة تشبه كارثة الأسطول الذى دمّره نلسون، ولكن نابليون رجل خلاّق للفرص يتخذ دائماً من خذلانه ذريعة لفوزه وإنتصاره، وسنسمع عنه بعد حين ما ينسينا نكبة سوريا.

ـ إنه يحارب فى غير ميدانه يا صديقى، ويحاول اغتصاب بيت بعيد عنه، وهو غافل عن بيته الذى كادت تلتهمه النيران، ويضيع جهوده فى صحراء قاحلة بينما يترك جنات أوربا يتواثب عليها الأعداء! هل يعرف الآن ماذا يحصل فى أوربا أو فى فرنسا من الحوادث الجسام بعد أن انقطعت عنه أخبارها شهوراً؟ أنا قد أكون رجلاً غبياً، ولكنى مع غباوتى هذه أستطيع أن أفهم البديهيات التى لا يدركها سادتنا الأذكياء النابغون.

وطال المجلس فوقف نيكلسون ومحمود وودّعا صاحبهما وانصرفا. وأجمل نيكلسون لمحمود ما حدثه به ألبير فاغتبط وقال: هذه ضربة قاصمة ستليها بحول الله ضربات. فقال نيكلسون: أغلب ظنى أن نابليون لن يستطيع البقاء فى مصر طويلاً بعد هذه النازلة، وعلى المصريين أن يهتبلوا الفرصة ويثبوا على الأسد وهو يلعق جراحه.

مضت أيام والمصريون فى ثورة نفسية عنيفة يكتمها الحذر بعد أن شاعت الأخبار بينهم بهزيمة نابليون بسورية وارتداده عن حصون عكا، ثم ملأت الإشاعات جو القاهرة بنزول الجنود العثمانية بأبى قير. وأحسّ نابليون بالحرج وأدرك ما فى الموقف من خطر، وبخاصة بعد أن علم أن أسطول سدنى أسمث يرافق العمارة العثمانية. فأرسل أوامره إلى قواده ووثب بجيشه على العثمانيين واشتد الصراع وطال أمده، حتى انتهى بهزيمة الأتراك والاستيلاء على مدافعهم وذخائرهم.

ما كاد محمود يتنفس الصُعَداء ويستبشر بقدوم العثمانيين، حتى دهمه الخبر بهزيمتهم فلزم داره أياماً، وحين برّحت به آلام الوحدة ذهب إلى نيكلسون بداره يشكو إليه بثّه وحزنه. ولكن نيكلسون لاقاه ضاحكاً مستبشراً وقال: قربت النهاية يا بنىّ فلا تبتئس. ثم أخرج من صندوق أمامه جريدة إنجليزية وقال: بودى لو كنت تستطيع قراءة هذه الجريدة يا محمود. قابلت بالأمس ألبير وبعد أن تحدثنا طويلاً، وهممت بالانصراف أدخل يده فى جيب معطفه وأعطانى هذه الجريدة وقال: اقرأ هذه يا صديقى تعلم أن كل ما تخيلته منذ أيام كان صحيحاً. فسألته من أين له بهذه الجريدة فقال:

ـ إن سدنى اسمث قائد الأسطول الإنجليزى ـ وهو من نوابغ الإنجليز وكبار عباقرتهم ـ اغتنم فرصة ذهاب ضابطين بعث بهما إليه نابليون للتحدث فى تبادل الأسرى، فأحسن لقاءهما، وزوّدهما ببعض الصحف الإنجليزية التى كان منها هذه الجريدة. وما كان يريد سدنى اسمث بهذه الهدية الغالية إلا أن يطلع نابليون على ما أصاب أوربا من الاضطراب وما دهيت به جيوش الفرنسيين فى إيطاليا من الهزائم، وأن البنيان الذى أقام قواعده فى فرنسا بقوة عزيمته وصدق بلائه أخذ ينهار. وأكبر ظنى أن نابليون لن يقيم طويلاً فى مصر بعد أن وصلت إليه أنباء هذه الكوارث.

ثم أخذ يقرأ علىّ فقرات مما جاء بالجريدة فكان منها أن الفتن اشتدت بألمانيا والنمسا وإيطاليا، وأن السخط وبوادر الثورة على حكومة فرنسا عام شامل، وإن إنجلترا لا

تفتأ تشنّ غاراتها على أملاك فرنسا بالبحار، وأنها اجتذبت إليها روسيا وتركيا فصارحتا فرنسا بالعدوان. وهنا قال محمود: إن خروج نابليون من مصر فرار من الميدان، واعتراف صريح بأن السيف والنار لا يستطيعان أن يملكا القلوب أو يُنَهْنِها من عزيمة أمة عزلاء أمضت إرادتها أن تعيش عزيزة لا تلين قناتها لغاصب. هذه الأخبار يجب أن يطلع عليها الشيخ السادات، فهلم بنا إليه.

- ١٠ -

لقيت زبيدة من زوجها مينو أول الأمر شغفاً وهياماً وطرقاً فى الغزل وشكوى الصبابة لا عهد لها بها، فكان يجثو أمامها فى ذلة واستعطاف كما يجثوا الراهب فى محرابه، ويتمتم فى أذنها بأحاديث من الحب والوله تختلط بإشارات وحركات ينتفض لها قلب كل فتاة. وقد أتقن مينو هذا الفن بعد أن تدرب عليه طويلاً فى مجتمعات باريس. وكان كثير من شبّان أوروبا فى هذا الحين الذى كثرت فيه الثورات، وخرجت فيه الأمم على كل قديم، وتغلب فيه المذهب الأبيقورى، يعدّون إغراء المحصنات بأساليب الختل والكذب فنّاً رفيعاً وثقافة عالية، لا يكمل الرجل بغيرها. فالذى لا يغازل أبله. والذى لا يستنزل فضيلة المرأة البتول من قمة قدسها إلى أسفل درك لا يعد رجلاً كامل الذوق واسع العلم بالحياة. وكلما صعب نيل الفريسة زادت مهارة الصائد، وكلما مُزِّقت الحجب كان العمل فتحاً مبيناً. وإذا تنافس فرسان العصور الوسطى فى الشجاعة وإغاثة الملهوف والأخذ بيد الضعيف، فإن فرسان أوروبا فى هذا العصر كانوا يتنافسون فى نصب الحبائل للغيد الفاتنات. ولقد سرى الداء إلى النساء فلم يعد الطهر طهراً، ولا العفاف عفافاً، حتى إن المرأة كانت تباهى بكثرة عشاقها، وتحاول بكل وسائل الإغراء أن تزيد فى عددهم. وفتحت الأبواب فى كل قصر لتلاقى الأخدان واجتماع الخلان فى جهر وعلانية، وأجاد الشبان دروس الغزل، وأعدّوا لكل نوع من النساء نوعاً خاصّاً منه، كأنهم باعة ثياب يبيعون لكل مستام ثوباً على قدّه. وقد قطعوا الصلة بين اللسان والقلب، وبين الوجه والضمير، فهم يتحدثون عن الحب وليس فى قلبهم منه إلا فتكات اللص وشهوات البهيم، ويبكون فى ضراعة ووجد وضميرهم يسخر ويقهقه من غرور المرأة وقرب وقوعها فى الشرك.

ولكن مينو كان زوجاً، عُقد له على زبيدة بكتاب الله وسنة رسوله بعد أن أعلن إسلامه وسجّله بالدفاتر، فلماذا يعصف به الحب ويدلهه الغرام، ومحبوبته بين ذراعيه، وهى له وحده لا يزاحمه فى حبها مزاحم؟ ألأن النشوة الأولى بهرت الرجل ولعب بلبه ما رأى من زوجته من سحر وفتنة، وهو من أخبر الناس بفنون الجمال؟ أم لأن الرجولة كانت عاتية طاغية فلم يملك إلا أن يجد لما يجيش فى نفسه متنفَّساً بالغزل وبثّ الغرام؟ أم لأن العادة جرفته فأخذ يكرر فى بيت الحاكم برشيد تلك الدروس التى حفظها وأجاد إلقاءها فى حفلات فرنسا؟

وكانت زبيدة بعد زفافها فى بحر مائج مضطرب من الأفكار والهواجس. أترضى بما قسمه لها القدر، وتقنع بهذا الزواج الذى سيجلسها على عرش مصر، فتجزى زوجها حباً بحب؟ أم تسخط على صلة دفعها إليها أمل كاذب مغرّر فتنكمش بقدر ما يحسن بها الانكماش، ولا تعطى هذا الفرنسى إلا ما تسمح به الفتاة الملول؟ لم يكن فى الجنرال مينو شىء يغرى المرأة بالرجل قط: وجه غليظ دميم القسمات ثقيل الملمح، وجسم بدين إلى القماءة أقرب، وكرش بارزة كأنها الزق المنتفخ، ثم هو وقد خطا نحو الخمسين لم يبق فيه مأرب للنساء ولو كان فى جمال يوسف الصديق. فكرت زبيدة طويلاً وقدّرت طويلاً، وسار بها الفكر فى شعاب مترامية البعد كثيرة الالتواء، فجال بخاطرها محمود وما أنعم الله به عليه من كمال فى الخَلق والخُلق، وجمال فى النفس والجسم، ورجولة ناضجة تهوى إليها قلوب النساء، وعقل راجح يلعب بألباب الرجال. جال ذلك بخاطرها فثار حبها القديم، وهاجت عواطفها الكامنة، وتأججت بفؤادها نار من الوجد طالما أخمدتها بماء دموعها، لأنها لن تصل بمحمود إلى ما تريد من ملك مصر، ولأن حبه لا يحقق لها تلك الأحلام الذهبية التى منّتها بها رابحة العرافة. وماذا تعمل وقد خلقها الله من آمال وطموح، وسلحها بعزيمة ماضية الحد ترد عنها كل ما يصدها عن هذه الآمال؟ محمود ريحانة قلبها ونور عينيها ومطمح غرائزها، وهى لو أرادت أن تعيش كمثيلاتها لم ترض به بديلاً، ولنعمت فى ظل حنانه بالحب والنشوة الحلوة والسعادة التى تصبو إليها كل فتاة، ولكنها لا تريد أن تكون كمثيلاتها ولو أحرق الوجد فؤادها، وجشّمها إسكاتُ غرائزها النهمة عناء طويلاً. وأين الحب وأين لذته، وأين محمود وأين جهارته، من مُلك سامق البنيان عزيز السلطان تعنو إليه الوجوه وتنحنى الرءوس؟ هكذا مضت أيام زبيدة، وهى تفكر وتثير غبار الماضى، لا يمر بخاطرها ذكر محمود حتى تثور عليه حزينة متألمة،

فإذا نسيته أو شغلها عنه شاغل حنّت إليه وتشبثت بخياله تبثُّه وجداً متأججاً وحباً كميناً. ولكنها أبت فى النهاية على الرغم من طموحها وتضحيتها فى سبيل هذا الطموح بكل غال، أن تمنح قلبها رجلاً جرّ العار إليها وإلى أهلها. فقد فرّ أبوها من المدينة يوم خطبتها، وبخع الحزن نفس أمها أسفاً، وجانبتها عشيرتها فاصبحت أشبه بأسيرة فى جيش الأعداء، وإن أحاطت بها صنوف النعيم. ثم هزت رأسها فى تصميم وقالت: محال أن يظفر هذا الفرنسى بحبى. وفى ذات صباح أطلت من نافذة قصرها فرأت الجنود والحراس وقد التفوا حول امرأة فى ملاءة بالية، وهى تصيح فى وجوههم وتقذفهم بأبلغ ما تضمنته معجمات العامة من شتائم، فأطالت زبيدة النظر فإذا هى رابحة العرّافة، فأرسلت فى عجل إحدى وصائفها لتأمر الجند بإدخالها. وبعد قليل دخلت رابحة وهى تصخب وتلعن، والنساء دائماً أشد جرأة على الجنود الغزاة من الرجال، لأنهن يتسلحن بالضعف، ويملكن من وسائل التشهير والصراخ والولولة ما ليس فى مكنة الرجال. دخلت رابحة على زبيدة مربّدة الوجه، وبعد أن تنهدت طويلاً، قالت:

ـ أسعد الله صباح الملكة.

ـ الملكة؟ هكذا مرة واحدة يا رابحة؟ إن الفرنسيين لم يدعوا فى مصر ملكاً ولا ملكة ولا أميراً ولا أميرة.

ـ نعم، ولكن كل هذا لن يحول دون أن تكونى ملكة، إن علمى لن يكذب أبداً، اللهم إلا إذا محيت خطوط كفك اليمنى.

ـ وهل تمحى خطوط الكف؟ ليتها تمحى!

ـ لن تمحى، لأنها صورة فى كتاب القدر.

ـ ولكن أين أنا الآن من هذا الملك الموهوم؟ وهل زواجىَ هذا الفرنسى يقرّبنى خطوة إليه.

ـ لا أدرى؛ لأننى أعرف الغايات ولا أعرف الوسائل، وكثيراً ما دهشت لأعاجيب القدر، وكثيراً ما كتمت ما أراه من لمحاته حتى لا يسخر الناس منى، وكثيراً ما توقعنى صناعتى فى مشكلات يصعب منها المخرج. أذكر أنى قبل أن يدخل الفرنسيون البلد بسنة واحدة كنت مارة بهذا القصر، وكان به عثمان خجا حاكم المدينة فوسوس إليه شيطانه

وزين له غروره أن يدعونى لأبصر له كفه حتى يتسلّى بالضحك منى والاستخفاف بتكهّناتى، فدخلت عليه وهو متكىء فى صلف وكبرياء على مقعد طويل، والجند حوله شاكو السلاح، والرهبة تُطبق على أنحاء المكان، والشيخ البربير يحتال جهده على أن يستلّ ابتسامة خفيفة من بين شفتيه لكثرة ما يقصّ من نوادره المضحكة ونكاته البارعة. دخلت فلم أسلم عليه، لأن الدماء البريئة التى كان يريقها كل يوم ظلماً، والأموال التى كان يغتصبها اغتصاباً حبست لسانى ودفعتنى إلى ازدرائه واحتقاره، كيفما كانت سطوته وكيفما علا مقامه الزائف. وما أنا والخوف من سطوته، ونحن الضعفاء الفقراء قد حصننا الضعف وصدّ عنا الفقر يد الظالمين؟ دخلت فلم أسلم فجمجم الحراس مستنكرين فى رياء وملق فلم أبال بهم، ثم قلت: ماذا تريد منى يا عثمان؟ أتريد أن أبحث فى كفك عن مدينة أخرى تخربها بعد أن أتممت خراب رشيد؟ فنهرنى سليم بك، وكان فى المجلس، وهمّ بطردى، ولكن الشيخ البربير قال شيئاً من الشعر معناه أن طنين الذباب لا يضير، وأن السحاب لا يضرها نبح الكلاب، وهو فى قرارة نفسه يريد أن يذود عنى هؤلاء الكلاب. فضحك الحاكم كأنه فهم الشعر، ومدّ إلىّ كفه قائلاً: أنظرى يا محتالة لعلك ترين فى كفى أنى سآمر بقتلك. فنظرت فى خطوط كفه وهالنى ما نظرت! رأيت خطّاً فيها لا يظهر إلا فى كف من يموت مصلوباً، فوجمت وتمتمت، وترددت بين الصراحة وفيها الضرب والهوان أو الموت، والمداجاة وفيها الخلاص من براثن هذا الأحمق. ولكنى عاهدت الله وعاهدتنى أمى أن أكون أمينة على علمى، فرفعت رأسى فى اعتزاز وجرأة وقلت: أيها الحاكم إنك ستموت. فضحك من بالمجلس وصاح الشيخ البربير قائلاً فى سخرية مصنوعة: أفادك الله يا رابحة! ما كنا نظن أن أحداً مخلداً فى الأرض و ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ هاتى كفك يا رابحة، إنى أرى فيك أنك ستموتين. ولكنى لويت عنه وجهى وقلت: أيها الحاكم إنك ستموت فى هذا البلد بعد سنتين، وسيكون موتك بين السماء والأرض: فضحك سليم بك، وقال الشيخ البربير ساخراً: أخشى يا سيدى الأغا أن يكون لك جناحان تخفيهما تحت ثيابك. ثم التفت إلىّ وقال: انصرفى يا رابحة، إن شيطانك اليوم ساخط عليك، يأبى أى يطلعك على لمحة من الغيب. فانصرفت بعد أن لمحت فى وجه الحاكم الفزع والغضب فعلمت أنه فهم ما قلت على الرغم من سخرية أصحابه بى واستخفافهم بقولى.

ـ ولكن عثمان خجا فرّ بجنوده يوم دخول الفرنسيين المدينة، وأكبر الظن أنه لن يعود

ما داموا فيها.

- إنه سيعود حتماً، وسيعود بعد أيام، وسيصلب فى رشيد.

- وإننى سأكون ملكة حتماً؟ ومتى؟

- قريباً وإن كنت أعتقد أن حكم الفرنسيين لا يدوم طويلاً.

- لا يدوم طويلاً! إذاً متى أكون ملكة؟

- ستكونين ملكة فلا تخافى.

- وكيف لا أخاف وقد عقد القدر مآلى بمآلهم بعد أن اصبحت زوجة لأحد كبرائهم؟

- هذا ما لست أدريه، لكن الذى أعلمه حقّاً أنك ستكونين ملكة مصر، والله وحده هو الذى يصرّف الأسباب ويقلّب الليل والنهار. لقد زرت أمك منذ أيام فساءنى ما رأيت من ذبولها وشدة حزنها لاختفاءأبيك. أما أعجبُ العجب فابتهاج أخيك على الحمامى وازدهاؤه بصهره الجديد! لقد نسى المسكين كل معنى للرجولة بعد أن أغدق الجنرال عليه وجعله رئيس التجار وموضع الشفاعات، وأجرى عليه النعم. فهو اليوم يركب جواده فى كبر وتيه، وأمامه ثُلّة من الجنود الفرنسيين توسع له الطريق. ولن تذهب سفينة إلى القاهرة أو الإسكندرية إلا بإذن منه، ولن يصدر هذا الإذن إلا بمال يكاد يصل إلى قيمة ما تحمله السفينة. كل هذا ثمن أسرك يا فتاتى فى هذا السجن الجميل المشرف على نهر النيل المبارك. وبينما هى فى الحديث إذا صوت جهير تتردد صيحاته فى الأفق تبينتا فيه صوت الشيخ على سُريط وهو يقول:

«طاطئوا الرءوس، للعروس، وإن ذهب الإسلام، وعبث الذئب بالأغنام».

فتجهمت زبيدة ووجمت رابحة ثم قامت وهى تقول:

سأطأطىء الرأس للملكة، أما الإسلام فله رب يحميه. وانفلتت كأنها الطائر المروع. وبعد خروجها دخل المترجم إلياس فخر ليلقّن زبيدة درساً فى اللغة الفرنسية، وقد عهد إليه مينو فى ذلك. فكان يلقى عليها جملاً بالفرنسية مع بيان معانيها بالعربية ويطلب إليها تكرارها، وكان لهذه الجمل سبيل واحدة، فكلها من أمثال: أحبك، لقد ملأ حبك قلبى، لقد ملكت فؤادى، إن غيابك يؤلمنى، إلى غير ذلك من أمثال هذه الترّهات،

وكانت زبيدة تكرر هذه الجمل ذاهلة حزينة كأنها بريء من العصور الوسطى يحمل على الاعتراف بوسائل التعذيب. وبعد انتهاء الدرس أخذ المترجم كعادته يفيض في عظمة الجنرال وشرف محتده وعلو منزلته، ويصور لها ما ينتظرها من المجد الشامخ والعز السامق، وهي تهزّ رأسها بحركات آلية لا أثر للحياة فيها، وبعد قليل سمعت أصوات الأبواق، وعلا صياح الجند بالتحية لقدوم الجنرال مينو، واصطف الحراس واهتزت أرجاء المكان، ودخل مينو القصر في عظمة وجبريّة، فسار توّاً إلى حجرة زبيدة فانحنى أمامها يقبل يدها، وحيا إلياس فخر بإيماءة من رأسه، وقال: كيف تلميذتك اليوم؟ إنها أدهشتني بالأمس، فقد فهمت كل ما ألقيته في أذنها من الجمل اللطيفة. ثم التفت إلى زبيدة قائلاً: ألم تكن لطيفة يا حبيبتي؟ فأسبلت عينيها في ضجر يشبه الخفر، وقالت بعد أن تنهدت: نعم لطيفة. ثم قامت تتعثر في أذيالها كما يمشي الحالم، وغادرت الغرفة. وهنا التفت مينو إلى إلياس وقال: سيكون يوم الجمعة يوماً تاريخيّاً في رشيد. أتعرف حاكم رشيد التركي عثمان خجا؟

ـ كيف لا أعرفه يا سيدي وفي كل بيت في هذه المدينة من ظلمه دماء ودموع؟

ـ أرسل إليّ نابليون من عشرة أيام كتاباً من أبي قير يخبرني فيه بانتصاره على مصطفى باشا كوسه وأنه أسر من جيشه عدداً عظيماً بينهم عثمان خجا هذا.

ـ ولكن عثمان خجا كان قد فرّ إلى إستانبول عند دخول الفرنسيين.

ـ نعم ولكنه عاد مع جيش مصطفى باشا ليطردنا من مصر، ويقضي على البقية الباقية من رشيد. قاتل الله هؤلاء الترك! نريد أن نصانعهم فيأبون إلا الانضواء تحت راية أعدائنا الإنجليز، أرسل إلى نابليون كتاباً كما قلت يشيد فيه بانتصاره الحاسم، ويطلب مني أن أجمع مجلساً من العلماء والأعيان لإصدار فتوى بقتل عثمان خجا. وقد اجتمع المجلس وأصدر الفتوى وسيصل المسكين إلى رشيد بعد أسبوع. ثم أخرج من جيبه ورقة فقرأها إلياس، وترجم لسيده ما فيها، فكانت هذه عبارتها لم تغير فيها حرفاً.

«وصلتنا مكاتبتكم، بالأمر أننا نستخبر ونكشف عن جميع الأعمال التي حدثت في طرف عثمان خجا كردلي، وننظر إن كان حصل منه الشر أكثر من الخير، وبموجب هذا الأمر بحضور: حضرة سيدنا شيخ الإسلام العالم المتورع الشريف أحمد الحضري المفتي، ونقيب الأشراف المكرم المحترم الشيخ بدوي، وقدوة الأعيان أحمد أغا

السلحدار، والمكرم على شاويش كتخدا، وقدوة التجار إبراهيم الجمال، والشريف على الحمامى، والشيخ مصطفى طاهر، والشريف إبراهيم سعيد وبحضور جماعة المسلمين خلاف المذكورين أعلاه.

ثم حضر رمضان حموده، ومصطفى الجيار، وأحمد شاويش عبدالله، والحاج حسن أبو جوده، وبدوى دياب، وحسن عرب، وثبت من إقرارهم ومن شهاداتهم أن عثمان خجا المذكور كان ظلمهم ظلماً شديداً بالضرب والحبس بدون وجه حق، ونهب أملاكهم، وخلاف ذلك سئل جماعة من المسلمين الحاضرين فى المجلس إن كان حصل من عثمان خجا الشر أكثر من الخير فكلهم قالوا بلسان واحد: إنه حصل من عثمان خجا الشر أكثر من الخير، وبسبب ذلك يقطع رأس عثمان خجا حاكم رشيد سابقاً».

وبعد أن أتمّ إلياس قراءة هذه الفتوى، دخل على الحمامى فحيّا الجنرال كما تحيا الملوك، وانتحى ناحيةً قاصية فى الغرفة حتى إذا أومأ إليه مينو بالجلوس جلس مطرق الرأس يجمع أطراف ثوبه فى أدب وذلة، ويخفى قدميه تحت الكرسى مبالغة فى الخضوع، فلما اطمأن به المجلس سأله مينو.

ـ هل سافرت السفن إلى القاهرة؟

ـ نعم ياسيدى سافر اليوم عشرون سفينة محمَّلة بالأرز الأبيض، فيكون مابعث به إلى القاهرة فى هذا الشهر سبعين سفينة، منها ثلاثون محملة قمحاً.

ـ هل تألّم التجار من إرسال هذا المقدار العظيم؟

إنهم دائماً يتألمون ياسيدى، ولو ترك لهم الأمر ماسمحوا بسفينة واحدة، لأنهم يبيعون أردب القمح خفية بسبعة عشر ريالاً، فى حين أنه يباع للجيش الفرنسىّ بثلاثة ريالات. أما الأرز فكثيراً ما ضُبطت السفن وهى ذاهبة به إلى دسوق ليباع هناك بسعر مرتفع. ثم التفت إلى المترجم ليعينه فى ترجمة ما يصعب على الجنرال فهمه، وقال: هؤلاء التجار يا سيدى لا يملأ عيونهم شىء. هم يعلمون حق العلم أن هذه الحبوب ترسل إلى الجيش الفرنسىّ الذى يدفع عنهم فتك الترك ونهب العرب، ومع هذا لا يخرجون شيئاً من الأرز أو القمح إلا بعد التهديد والتعذيب. ولولا الخوف الذى يملأ نفوسهم ما جادوا

على الجيش بحبة واحدة. ومن الغريب المعجب أنى كنت بالأمس عند الحاج سالم الغزولى، وهو رجل ماكر ختّال واسع الحيلة، عبقرى فى تزويق الكذب وإحاطته بإطار من الأيمان التى تغمس صاحبها فى النار، لذلك أعددت العدة لمكره ومحاله، فبعثت حوله العيون وأصحاب الأخبار حتى علمت أنه يخبأ قدراً عظيماً من الأرز فى مخازن داره. فلما ترادفت عندى الأخبار ذهبت إليه فى دائرته بعد أن أرسلت إلى داره طائفة من العمال والحمالين لينقبوا جدار مخازن الدار ويستخرجوا منها ما يجدونه من أرز وقمح. فلما رآنى تهلل وجهه بشراً، ونثر فوقى من عبارات الترحيب والشوق ما تعجز عنه أمّ عاد إليها وحيدها بعد لوعة وإياس. والعجيب أن لألفاظه رنين الذهب الخالص الذى لم يشُبْه زيف، ولم يخلط به ما يكدر معدنه الكريم. ثم وثب مع التحية إلى امتداح الفرنسيين والإشادة بعدلهم وسماحة حكمهم، وأخذ يوازن بينهم وبين الترك فى ذلاقة لا يستطيعها سواه. ثم التفت إلىّ وقال: كن معهم يا سيّدى الشريف كما أنت ولا تبال ما يقول الناس، فإنهم اعتادوا الظلم فإذا رفع عنهم تشوّقوا إليه، وأسفوا على أيامه الماضية. إن الخفافيش لا تعيش إلا فى الظلام، فإذا سطع عليها النور اضطربت ولاذت منه بالفرار. وهؤلاء العبيد الذين نسومهم الخسف لو أطلقنا سَراحهم فى الصباح لعادوا إلينا فى المساء ولحنُّوا إلى الذلّ الهنىء فى ظلال ساداتهم. ثم انطلق إلى حديث ثان وثالث، وأظنه كان يتوجس أنى جئت لطلب شىء فأخذ يملأ الحجرة حديثاً حتى لا يتسع فيها قول لغيره، وحتى يصرفنى بسحر محاضرته عن أن أنبس بكلام، ولكنى قاطعته وهو ينتقل إلى موضوع فسيح يستطيع أن يتكلم فيه اليوم كله، وطلبت منه مائة إردب أرزاً للجيش الفرنسىّ. فقال: آه يا سيدى هؤلاء الفرنسيون لو أطعمناهم المن والسلوى ما كافأناهم، ولو شوينا لهم فِلَذات أكبادنا ما وفينا ديننا لهم! من يضنّ على هؤلاء المجاهدين بقوته وقوت عياله؟ إنه لن يكون إلا حجراً صلداً لا خلاق له من الرجولة والإحساس الكريم.

ولو أن لقمة كانت فى أذيال السحاب، وكان لى نهوض الطائر لحلّقت حولها واختطفتها لأضعها فى فم فرنسىّ. إن ما نحن فيه من نعمة واطمئنان وثروة لم يكن إلا منحة أيديهم وفضل سماحتهم، دع مسألة الدين بالله عليك يا سيدى، فإن الدين لله، وأنف العمامة راغم، وأنف العلماء راغم، على أن صفات الوفاء والاعتراف بالجميل وشكر المحسن على إحسانه لا تعرف مذهباً ولا جنساً ولا ديناً. من يا سيدى لا يبذل كل ما عنده للفرنسيين؟ ولكنى أقسم بذات الله العلية، وقدرته الصمدانية، وبقبر المصطفى صاحب

المقام المحمود، والشفاعة العظمى فى اليوم المشهود، إنى لا أملك حبة أرز ولا أحوز حبة قمح، وإليك الدائرة يا سيدى الشريف ففتش كل مكان فيها إن شئت. ولقد كنت أتمنى أن تمتلىء هذه المخازن سمناً وعسلاً وحَباً لأهبها جميعاً للفرنسيين! آه ما أشد حزنى حين أريد فلا أقدر، وقد كنت فى أيام الترك أقدر ولا أريد! ليت الأرض تمور بى موراً، وليت الموت ينسفنى نسفاً، بعد أن عجزت عن ان أعمل شيئاً يكون آية إخلاصى للفرنسيين وفنائى فى حبهم. وبينما هو منهمر فى حديثه كالسيل الهدّار إذ أقبل أحد عماله صائحاً فى ذعر وهلع: يا سيدى إن بعض عمال السيد على الحمامى نقبوا جدار المخازن بالدار، وهم الآن يحملون كل ما فيها من أرز وقمح. فبهت الرجل وهو ممن لا يبهتون سريعاً، غير أن المفاجأة خلطت عليه أمره وأذهلته لحظة عن نفسه استطاع بعدها أن يثوب إلى طبعه، فالتفت إلىّ وأخذ يقهقه ويضرب الأرض بقدميه، ويهزّ كتفى هزّاً عنيفاً، ويقول والضحك يفصل كل كلمة من كلماته عن صويحباتها: كنت أختبر ذكاءك يا سيدى! وكنت من الغرور بحيث أظن أن حلاوة منطقى وبريق ألفاظى يذهلانك عن الحق. وأقسم بذات الله العلية، وقدرته الصمدانية، ولو أنك خُدعت لاحتقرتك وازدريتك، وحزنت أشد الحزن أن يكون سليل النبىّ الكريم فَدْماً مغفلاً. أما الآن فالحمد لله ثم الحمد لله على أن لم يضع أملى فيك وأنت صديق ابن صديق، وعزيز ابن عزيز. خذ ما حمله رجالك من مالى حلالاً وإن شئت فادفع ثمنه أو فدع.

فعجبت من حسن انفلات الرجل وسرعة عارضته، ودفعت له الثمن وهو مرح ضحوك. وهنا قال الجنرال:

هذا رجل زكىّ دوّار ولكنى أخشى ألا نكون قد تركنا لأهل البلد من الحبوب ما يكفيهم.

ـ الواقع يا سيدى أنهم فى ضائقة ولكن غلة العام القابل ستكون وافرة.

وفى هذه اللحظة دخل إينال مملوك الجنرال الخاص وقال فى صوت خافت: حان وقت الجمعة يا سيدى الجنرال، والجنود على استعداد لموكب الصلاة التى ستكون فى مسجد زغلول. فظهر على وجه مينو الامتعاض الذى يظهر على وجه مريض تُقدّم إليه جرعة لا تساغ، وقام فى تثاقل وهو يقول: الصلاة، الصلاة، دائماً الصلاة، ولا شىء غير الصلاة! ثم خرج فإذا موكب حافل من فرسان الفرنسيين وجنود المماليك والترك، وقد

حمل كل فارس الراية الفرنسية خفاقة فى الهواء متخايلة فى الفضاء، والموسيقى تعزف النشيد الوطنى الفرنسى. وكان مينو فى وسط الموكب فوق جواد كُميْت يختال فى مشيته كأنما سرى إليه زهو صاحبه، حتى إذا بلغ الركب المسجد دخل مينو حاسراً عن رأسه، فتلقّاه الإمام وفى يده عمامة خاصة به كانت تحفظ فى خزانة بالمسجد، فلما وضعها على رأسه طافت حول شفتيه ابتسامة خفيفة مبهمة، تذكّر عندها باريس، وتذكر ملاهيه فى مرسيليا وبوردو، وعجب من الضرورة التى دفعته إلى دين لا يعرفه بعد أن طلّقت فرنسا كل دين، وتذكر هنرى الرابع الذى اعتنق المذهب الكاثوليكى ليفوز بملك فرنسا وقال: ليس بغال أن يشترى عرش فرنسا بقدّاس. تذكر كل هذا فتملّكه زهو الملوك، وطاف بنفسه أنه فوق طبقة البشر، غير أن صوتاً جهيراً فى هذه اللحظة انطلق من المئذنة فصكّ أذنيه صائحاً: الله أكبر! الله أكبر! فلم يلبث المسكين أن نكس رأسه فى استخذاء، وعلم أنه لا شىء.

- ١١ -

انفردت زبيدة فى حجرتها بعد أن تركت مينو، وقد ساءها كثيراً حديث العرافة وتكهّناتها، وهجم عليها همّ جاثم لا تستطيع له دفعاً، وهالها أن تصطدم آمالها بصخرة من الحقائق لا ترحم حزيناً ولا تواسى بائساً وبينما هى تحملق فى صور ماضيها الجميل وهى تمر بخيالها متتابعة، وتود لو تستطيع أن تطيل وقفة هذه الصور المرحة الضاحكة قليلاً، أو أن تحول دون ظهور أية صورة من ماضيها القريب الذى كله هموم وأحزان، إذا خادمها سرور يدق الباب ويعلن قدوم سيدته نفيسة. ولم يمض إلا قليل حتى دخلت أم زبيدة وقد برّح بها المرض حتى أصبحت لا يكاد يعرفها من رآها، فقد زادت غضون وجهها، وانطفأ بريق عينيها، وانحنى ظهرها تحت ما يحمل من أرزاء وأعباء. دخلت فقبّلت وجنتى بنتها فى شغف واحتراق، ثم حاولت أن تكتم ما يبدو من جزعها بضحكة مصنوعة أو نكتة بارعة فلم تستطع، ولكنها قالت فى النهاية: كيف حالك يا زبيدة؟ فتنهدت زبيدة طويلاً وقالت:

ـ تسألين عن حالى يا أماه؟ أوَ تريدين حقّاً أن تعرفيها؟ إذاً فاسمعى: لقد كنتُ يا أمى فى سفينة بين أهل وأحباب، حديثهم ابتسام، ومناجاتهم غرام، ينعمون فيها بنعيم الروح ولذة الجسد، بين روْح وريحان، وضحك من القلوب لا من الأفواه، وحب تعجز أن تعبر عنه الشفاه، كأن الدنيا لم تخلق إلا لهم، والسعادة لم ترفّ إلا عليهم، ألغوا الزمن فلا

ليل ولا نهار، وألغوا الفكر فلا خوف ولا حذر، وألغوا الغيرة فلا حقد ولا دَخل، وبينما كانت هذه السفينة الفردوسية تمخر العباب يا أماه مزدهية مختالة، تجرى فتداعبها اللجج، وتجر ذيلها فتقبله الأمواج، إذا عاصفة عاتية هوجاء كالجنون، مدمِّرة كالموت، ترفع البحر ثم تقذف به، ثم ترفعه ثم تقذف به، كأنه كرة فى يد مارد جبار. فلم تلبث السفينة يا أماه أن ذهبت بدداً، وتمزقت قطعاً، وهالنى الأمر، وأخذ منى الهلع فنسيت التدبير، ونسيت الرأى، ونسيت الحيلة، وتشبثت بقطعة من السفينة خائرة قذفتنى بها الأمواج إلى جزيرة فيها أشجار، وفيها أنهار، ولكن ثمر أشجارها زقُّوم، وماء أنهارها سموم، وهى قفر من بنى الإنسان إلا مخلوقاً غريب السمة جاء يتودد إلىّ ويتخذنى له زوجاً. أما أهلى، وأما أحبابى، فقد تفرقوا أيدى سبأ، وبقيت وحدى فى هذه الجزيرة الملعونة مع هذا المخلوق الغريب. هذه حالى يا أمى. وكيف حالك أنت؟

ـ أنا كنت فى ركاب هذه السفينة، وقُذفتُ إلى جزيرة أخرى ليس فيها أحد من بنى الإنسان، ولكنها ملأى بوحوش من هموم وآلام. أما أبوك فرماه الموج إلى جزيرة نائية لا نعرف إليها طريقاً.

ـ وابن خالتى محمود فى جزيرة رابعة!! آه يا أماه! هل يلتقى هذا الجمع الشتيت؟ وهل تعود تلك الأيام التى كانت حُلماً هنيئاً؟

ـ تعود عندما تهدأ العاصفة، ويسكن البحر المائج، وتجرى فيه السفن مرة أخرى. حينئذٍ يستطيع كل منا أن يلوِّح لإحدى السفن بطرف ثوبه لتنتشله من جزيرة الأحزان، إلى الدار التى كانت تجمعنا فى ظلال العز والنعيم. لهفى على محمود! لقد وضع بين يديك حبّاً لو فُرِّق على الناس جميعاً ما ترك فى صدرٍ غلاًّ ولا حفيظة، فنبذته فى قسوة وعزوف، فلم ييأس بل ثنى يده على قلبه صابراً وفيّاً وقلبه يقطر دماً، وراح يناجى الطير لما صرفتِ عنه أذنيك، ويضاحك الآمال لما أقصاه عنك العبوس. وقد كنت عنده رضيت أم غضبت، وصلت أم هجرت، القدس الطاهر الذى لا يطلب على حبه ثواباً.

ـ كفى يا أمى إنك لا تعرفين. قاتل الله رابحة العرافة، وقاتل الله الطموح الكاذب، وقاتل الله الخيال الخصيب الذى جعلنى أبيع عزّاً حاضراً، وحبّاً طاهراً، بأمل عقيم وأمنية حمقاء. فقدتُ ما فى يدى لأقبض على برق خلّب يلمع فى أجواز الفضاء!

ـ أكنت تحبين محموداً حقّاً؟

ـ كنت أحبه؟ كنت ولا أزال ولن أزال، وسأموت شهيدة حبه، وسأردد للملكَين عند سؤال القبر أنى أحبه.

ـ ولماذا رضيت بهذا الفرنسى؟

ـ لأن القدر هو الذى رضى به لى. على أننى أظن أنى ساعدت القدر بجنونى وتسويفى وتمسكى بخرافة بعت بها روحى وجسمى للشيطان. بالله دعى الحديث فى هذا يا امى، فإننى أتخيل دائماً أن شبابى ميت مسجّى، وأننى بجانبه أنثر عليه الدموع.

ـ ولكن هذا يقتلك يا بنيّتى، فاطوى الماضى، وأصلحى من شأنك بالطمأنينة لحكم الله. إن حسن الأشياء وقبحها أمران خياليان: فالنفس الجميلة الراضية ترى كل شىء جميلاً، والنفس الساخطة الصاخبة ترى كل شىء قبيحاً. انظرى إلى ما أنت فيه من عز وجاه، وإلى هذا القصر الفخم والرياش الفاخر، ثم إلى هؤلاء الخدم والعبيد وقولى إنى سعيدة، وأقنعى نفسك بأنك سعيدة تكونى سعيدة حقاً.

ـ هيهات يا أماه! هذا كلام لطيف برّاق. إن من الجائز أن يُقنع الإنسان غيره بما يحسّ أنه حق، أما أن يقنع المرء نفسه بعكس ما يحسُّه فهو محال. إن محموداً خُلق ليكون لى زوجاً، وخلقت لأكون له زوجة، ولكن القدر الساخر أراد أن يتحكم فى طبائع الأشياء، وأن يعبث بالغرائز والميول، فاستهوى غرائزى وخدع ميولى، فأغلقت باب سعادتى بيدى، وسننت السكين لقطع كل صلة بينى وبين السعادة والحب والحياة. ويحى عليك يا محمود! إنك تظننى امرأة غادرة فاجرة، ولك الحق فى أن تظن ما تشاء. أفنيت كل أساليب الاستعطاف والغزل والتذلل والاستجداء أمام قلب صخرى كان عنك ذاهلاً تغويه الأحلام، وتصدُّه دونك الأوهام. لِم لا أطير إليه فى القاهرة وأحطم هذه القيود الظالمة التى يسمونها قيود الزوجية؟ وهل كانت الصلة بينى وبين هذا الفرنسى شرعية؟ وهل ينعقد زواج فتاة فرّ أبوها فاقتنصتها طائفة من أصحاب المنافع من أهلها فكتبوا ما كتبوا وسجّلوا ما سجلوا؟ وهل يعدُّ قبول فتاة فى هذيان حمّى الأوهام، وجنون الطموح المأفون قبولاً؟ لا يا أماه. إن الناس جميعاً يعدوننى خليلة لهذا الفرنسى. وإن ائتمار طائفة من العمائم بفتاة مسكينة، وتدوين عقد زواج فى محكمة، لا يغير من وجه المسألة شيئاً. إن الشرع الشريف كما أخبرنى الشيخ صديق يوجب الكفاءة بين الزوجين. وأول ما أفهمه من معنى الكفاءة إنما هو تماثل الأخلاق واتّساق الطبائع. وأين ذلك التماثل بين فتاة مصرية

فى رشيد وشيخ فرنسى من باريس؟ وقد كان محمود العسال يقول لى إن زوج الرجل يجب أن تكون قطعة منه، ويكرر الآية الكريمة: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة﴾. فالقرآن ينص على أن الزوجة من نفس الرجل، ويجعل ذلك سبباً للسكون إليها والسعادة فى كنفها، وتبادل المودة والرحمة والحنان بين الزوجين. وأعتقد أن هذه الآية صوَّرت فى إيجاز ما يريده الفقهاء من معنى الكفاءة الزوجية، لأن المرأة إذا كانت من نفس الرجل وجب أن يتماثلا فى الحسب والعادات والأفكار والميول. وأين أنا من هذا الفرنسى؟ شرق وغرب بينهما أميال وأميال! وتباين كامل فى كل شىء، حتى لنكاد نكون من صنفين مختلفين. فهل بعد هذا أخضع لهذا الزواج؟ وهل بعد هذا أرضى بهذا السجن الموحش ولا أفرُّ إلى محمود؟

ـ بالله عليك يا زبيدة لا تضمى إلى حزننا حزناً جديداً. فقد طفح الكيل، وبلغ السيل الزُّبى.

ـ إن الفرار من العار ليس بعار.

ـ ولكن فرار الزوجة من بيت زوجها إلى بيت رجل آخر عار أىُّ عار. ثم من هو زوجك؟ هو رجل نافذ الأمر قوى السلطان شديد البطش، فلو فررت منه فى أنفاق الأرض، أو أبراج السماء لامتدت إليك يده، ولنكلّ بك وبنا وبابن خالتك محمود. على أن فرارك سيثير الفضيحة من جديد، وينبه العقول إلى أمر أوشكت أن تنساه، ويجرِّىء الأيدى القاسية على العبث بجُرح أخذ يندمل.

ـ ليس لشىء من هذا يا أمى أخشى الفرار، فما أبالى الناس ولا آبه لحديثهم إذا ظفرت بمحمود، واختبأت معه بقرية مجهولة نائية، لا تصل إليها عيون الفرنسيين. ولكنى أخشى الفرار لشىء واحد كلما مرّ بخاطرى وددت أن الأرض ابتلعتنى، أو أن السماء أقلّتنى. ويلاه يا أمى! إنى أخشى ألا يمر بنا هذا الحادث دون أن يضع وصمته.

ـ ماذا تقصدين يا زبيدة؟

ـ أقصد أنّ المرأة إذا عاشت مع رجل شهوراً ففى أغلب الظن أن ينشأ بينهما ثالث.

ـ وهل شعرت بما تشعر به الحامل؟

ـ لا، ولكن من يدرينى؟

ـ صانك الله يا ابنتى من كل سوء، وكشف عنك كل ضرّ.

ـ ليس لنا إلا أن نلجأ إلى الله، فإن فى الالتجاء إلى رحمته راحة للمحزونين. أسمعت شيئاً عن أبى؟

ـ لا يا زبيدة، وقد كتبت إلى أختى أمينة وإلى محمود فكان جوابهما أنهما لم يعثرا له على أثر بالقاهرة بعد طول البحث، وأخشى أن يكون...

ـ لا تقوليها يا أمى! فيكفى ما نحن فيه من مصائب وأحزان.

وهنا دخل سرور فى أدب وتردد، وجثا على قدمى نفيسة باكياً وهو يقول: يا سيدتى لا تحرمى سيدتى الصغيرة من زيارتك فإنى أراها دائماً حزينة كاسفة البال، فإذا جاء الجنرال تكلّفت الجلد والابتسام، وهذا التكلف كما تعلمين أشد عليها من الحزن، وأنكى من البث والبكاء. أراها دائماً ساهمة حزينة فيتقطع قلبى، ويشتد ألمى، لأنها ابنتى، ربيتها على كتفى، وكنت أطعمها فأشبع، وأسقيها فأروَى. إنها تغلق عليها باب الغرفة طيلة النهار لتنفرد بأحزانها وبكائها. وماذا يجدى البكاء؟ وهل ينفع حذر من قدر؟ بالله عليك لا تغيبى عنها يا سيدتى حتى تمسحى عنها بعض آلامها؟ إنها ليست بنتى زبيدة التى أعرفها من حين أن كانت فى مهدها. أين ضحكاتها المجلجلات، وبسماتها الساحرات، وأحاديثها الفاتنات؟ لا تغيبى عنها يا سيدتى!

فقاطعته نفيسة وقد وضعت يدها على كتفه فى حنان، وقالت:

ـ لن أغيب عنها يا سرور، إننى لم يبق لى من الدنيا إلا زبيدة وأنت، فاحرسها لى يا سرور، واسهر عليها وصنها بروحك ودمك. إن أول شىء اشترطته عند زواجها أن تكون معها، فهى وديعتى عند الله وعندك، وهذا هو الذى يهدّىء نفسى، ويخفف من شجونى. ثم أسرعت فقبلت زبيدة، وحيّت سروراً، وخرجت وهى تخفى تحت نقابها سيلاً من الدموع.

ـ ١٢ ـ

كان يوم الجمعة السادس عشر من أغسطس سنة ١٧٩٩ م يوماً مشهوداً فى رشيد. فقد اجتمع له الناس فى الصباح أسراباً، وحُشروا أرسالاً، وانطلقوا إلى ظاهر المدينة ينتظرون

قدوم عثمان خجا من أبى قير. فازدحم الرجال والنساء والأطفال ازدحاماً لم يترك مجالاً لقدم، ولا حركة لذراع، فكانوا كتلة من البشر تلاصقت أجزاؤها، وارتفع ضجيجها، وعلا صياحها. وغَصَّت سطوح الدور بمن فوقها حتى كادت تنقضّ، وامتلأت النوافذ بمن فيها. وكلما تقدم الناس خطوات رأيت بحراً عبّ عُبابه، واضطربت أمواجه، وتذكرت يوم النشور، يوم ينفخ فى الصور، ويبعث من فى القبور.

تقدّم هذا الخضمُّ المائج حتى إذا وصل إلى الكثبان الرملية بالجانب الغربى من المدينة فاض فوقها، وسال بين شعابها، فخفّ التزاحم قليلاً، ووجد الناس متنفّساً، فجلسوا ينتظرون الضيف الكريم الذى قضوا ليلتهم يفكرون فى خير الوسائل لاستقباله. فمنهم من أعدّ نعلاً بالية، ومنهم من تسلح بمكنسة من عراجين النخل، ومنهم من أخذ يتمرن على ملء فمه بُصاقاً لينضح به وجهه الوسيم. والتنافس فى الشر غريزة فى الناس. وللشعب إذا اجتمع نفسيّة خاصة لا تجدها فى الفرد، فهو إذا صال جرىء مخاطر حقود بطّاش، فى حين أن كل فرد من أفراده فَسْل جبان منخوب الفؤاد. وإذا غضب الشعب المجتمع فليس يعلم إلا الله ما ينتهى إليه غضبه من وحشية وجنون. والشعب الثائر طفل كبير، له عقل الطفل وتدلله وعبثه وتدميره. والشعوب تخضع للقوة الغاشمة وتخشاها، ثم تعتادها، وقد تتملقها أحياناً، وقد تستعذب عذابها أحياناً، ولكنها لا تنسى ظلماً، ولا تفرُّ منها إساءة. وكان للشعب المقهور نفسين: نفساً تجامل وتصانع، ونفساً تدوّن وتسجل، حتى إذا ضعفت القوة التى تكبته قامت النفس المدونة المسجلة تعدُّ سيئات الماضى وتشهِّر بمظالمه، ووثبت وثبة الذئاب الضارية تنهَش القوة نهشاً، وتضرِّسها تضريساً. والجماهير مخادعة ختالة، تحمل اليوم على الأعناق من ستضرب به الأرض غداً.

بقى الناس ينتظرون قدوم عثمان خجا، ووقف الجند يستعدون للموكب الحافل، وجلس العلماء والأعيان بعيداً على رصيف مسجد العرابى، حتى إذا مرّ نحو ساعتين ظهرت طلائع القادمين، وذاعت البشرى بين الجمع الحاشد، فترددت صيحات المتجمهرين تهزُّ الأفق، وغلت دماؤهم بالغيظ، وتواثبت قلوبهم للتشفى والانتقام.

وكان عثمان خجا فى حلقة من الفُرسان الفرنسيين والمماليك، وقد شهروا السيوف، وتنكّبوا البنادق، وهو بينهم قميء القامة، طويل الوجه، أشقر اللون، صغير العينين، قليل

شعر العارضين، مطرق الرأس، تذهب حدقتاه يَمنة ويسرة فى حيرة وذهول، كأنه الهرّ المطارد سُدّت دون فراره السبل. وكان يلبس عمامة طويلة عليها شاشة حمراء، وحلّة من الحرير الأخضر واسعة الكمين، وسروالاً أزرق زُينت ساقاه بشريط مطرّز بالذهب.

وقف الفُرسان ونزلوا عن خيولهم، وأقبل رئيسهم فكبّل يدى خجا. وهنا سُمعت ضجة من بعيد فتصايح الناس: أقبل مينو. أقبل مينو. فانفرجت الصفوف، ومشى الجنرال وخلفه العلماء والأعيان. فلما وصلوا إلى عثمان خجا وقف الشيخ أحمد الخضرى وأخذ يتلو حكم المجلس عليه بالقتل، وفى أثناء القراءة طفرت من شفتى عثمان خجا ابتسامة خفيفة مبهمة تصعب ترجمتها، فيها سخرية، وفيها امتعاض، وفيها ذُعر، وفيها استخفاف بالموت.

وما كادت تنتهى القراءة حتى تواثب الناس لتمزيق الأسير المسكين، فحال الجنود بينهم وبينه، لا شفقةً عليه، ولا رحمةً به، ولكن ليُطيلوا تعذيبه، وليشفوا النفوس من السخرية منه. فأركبوه حماراً على وضع مقلوب، وعلّقوا فى عنقه أجراساً (ويسمون ذلك التجريس) وسمحوا للناس بالبصق فى وجهه وتلطيخه بالأقذار. وكان الشيخ بركات منادى المدينة يصيح بصوته الجهير: هذا جزاء الظالمين. هذا يوم الانتقام من المماليك السفاكين. أيتها القبور تحدّثى عمن فيك، وأيتها الأعراض اشتفى اليوم ممن دنسك تدنيساً، ويأيتها الأموال المنهوبة قولى كيف وصلتِ إلى خزائن الناهبين!

ووثب «عطية البحطيطى» وهو قرّاد المدينة ومضحكها إلى عثمان خجا فاتحاً ذراعيه وهو يقول:

أين كنت يا حبيب عينى، وأنيس وحدتى، وباب رزقى؟ لقد حزنا عليك طويلاً حين غبت عنا، واستوحش إخوانك القرود لبعدك الطويل. أين كنت يا جلجل؟ أين كنت يا يدى ورجلى؟ فهمّ الجنود بطرده، ولكنه صاح فى غضب مصنوع: إنه قردى جلجل الذى فرّمنى، فساءت حالى، وكسدت صناعتى. إنه قرد نجيب جداً، يكفيه الإيماء ليقوم بأحسن الألاعيب، الحمد لله على السلامة يا جلجل! ثم جذبه إليه ووضع فى عنقه حبلاً وهوَى فوق رأسه بالسوط وأخذ يحمله بالضرب العنيف على القيام بألعاب القرود.

ثم سار الموكب حتى وصل إلى شارع دهليز الملك، وهناك رأى عثمان خجا أمام بيته مشنقة أعدت للقائه، فجُرّ إليها جرّاً، ووضع الحبل فى رقبته. وكانت رابحة العرافة

قريبة منه، فلما شدّ الجلاد الحبل صاحت: الله أكبر! لقد صدقت كهانتى، ومات اللعين بين الأرض والسماء!.

وفى مساء ذلك اليوم اجتمع فريق من الأعيان والعلماء بمنزل الحاج أحمد شهاب، وتذاكروا حوادث النهار، فقال الشيخ صِدِّيق: كنت أود أن يكون القصاص من عثمان خجا مطابقاً للشرع الشريف. فقال السيد أحمد بدوى: إن المجلس يا سيدى سمع شهادة الشهود وكانوا كلهم إجماعاً على أنه كان سفاكاً غاشماً. على أن رجال المجلس يعرفون من ظلم عثمان خجا، وفتكه بالأموال أكثر مما يعرف الشهود.

- إن الشرع يشترط فى مثل هذه الوقائع أن تقام الدعوى من أولياء المقتول، فهل أقيمت؟ ويشترط أن يكون المدعى عليه حاضراً بمجلس القاضى ليردّ الدعوى إن استطاع، فهل كان عثمان خجا حاضراً؟ أنا لا أقول إنه لا يستحق القتل، فقد كان شيطاناً مريداً، ولكنى أرى أنه لا يصح أن يحكم القاضى على رجل بالقتل لأنه يعلم أنه يستحق القتل، فإن من الأصول الثابتة أن القاضى لا يقضى بعلمه. هذه ناحية الشرع، فإذا اتجهنا إلى ناحية الأخلاق كانت الطامة أعظم، والمصيبة أفدح، أليس هذا الرجل هو عثمان خجا حاكم رشيد الذى كنا نحن العلماء وأعيان البلد نتملّقه، ونزين له أعماله، ونقبِّل يديه، والدماء تقطر منهما؟ أإذا تنكر له الدهر فلوى عنه وجهه، اجتمعنا فى مجلس الشرع الشريف ننبش قبور ماضيه، ونحاسبه على ما كان قد اقترف من سيئات؟ ولو كان اجتماعنا بوازع من أنفسنا، وغَيْرة صادقة على الحق والدين، لكان لنا بعض العذر، فقد يقول الناس إنهم حينما قدروا فعلوا. ولكن المؤلم حقاً، والمثير للشجن حقاً، إننا لم نجتمع إلا بإيعاز من الفرنسيين، وأخشى أن أقول إننا لم نحكم بالقتل إلا لإرضاء الفرنسيين. فقال الحاج أحمد شهاب:

- ليس من شك فى أنه يستحق القتل يا مولانا.

- أنا لا أجادل فى هذا! ولكنى أنظر إلى ناحيتين لو حافظ المسلمون عليهما لبقى الإسلام عزيزاً كما كان. هما: الدين والأخلاق. أليس كذلك يا مولانا الخضرى؟

فبُهت الشيخ، واصفر وجهه، لأنه كان يستمع لكلام الشيخ صِدِّيق واجماً، فقد كان شيخ المجلس الذى أصدر حكم القتل. ولكنه بعد أن تردد قال: القضاء يا سيدى الشيخ

فى هذه الأيام ابتلاء، وإننا نعمل فى هذا العصر الأنكد بمذهب من يُجيز التقية، فنبشّ فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم.

وحينئذٍ رأى الشيخ البربير الشاعر بلباقته أن يوجه الحديث إلى مجرى آخر فقال:

اسمعوا ما قلته اليوم فلعل فيه شيئاً من السلوى. فنشط إليه الجماعة، وكانوا ملّوا الحديث فى الأخلاق والدين وقالوا: قل. فقال:

قالوا هوَى رأسُ عثمانٍ فقلت لهم   نفّسْتُم الكربَ عنا بعضَ تنفيس
مضى بنو الترك فارتاحت سرائرنا   فهل رحيلٌ قريب للفرنسيس؟

فضحك القوم وتسارع بعض الشبان إلى كتابة البيتين، فأشار إليهم بيده وقال: اكتبوا أيضاً:

مضى ابن عفان إلى جنة   وابن خجا عثمانُ للنار
هذا شهيد الدار أكرم به   وذا قتيل الخزى والعار

ثم اتجه السيد إبراهيم الجمال إلى البربير سائلاً:

ـ أرأيت عثمان خجا على الحمار؟

ـ رأيته فلم أدر أيهما الحمار؟

ـ وهل قلت فى ذلك شيئاً؟

ـ لا يا سيدى لقد كان «الموقف» صعباً، والمسألة لا تحتاج إلى «تعليق» فعلا الضحك من كل ناحية، فلما هدأ المجلس التفت السيد بدوى إلى الجمال وقال: أرسلتُ خادمى اليوم إلى ساحة القمح لشراء إردب من القمح فلم يجد بها حبة واحدة! فأسرع البربير قائلاً: إن القمح يا سيدى أندر اليوم من اللؤلؤ، وقد علمت أن النساء يتخذن منه قلائد فى نحورهن. فقال الشيخ صديق لقد أصبحت الحال لا تطاق. ومن العجيب أن يعين الفرنسيين طائفةٌ من أهل البلد. فصاح الشيخ البربير قائلاً: مدد يا حمامى مدد!

صاهرتَ مينو فلم تترك لجائعنا   خبزاً نصون به نفساً من العطب
مُتنا ومات بنونا بين أعيننا!   جوعاً وعُرياً، فرفقاً يا أبا نسب!

فظهر الألم والحزن فى وجوه القوم. وبينما هم سكوت واجمون، إذا صوت يجلجل

فى فناء الدار، هو صوت الشيخ على سريط، وكان يقول: القاتل والمقتول سواء، وقد يتأخر الجزاء، طال الليل، وظهرت تباشير الصباح، ولكل غدوٌ رواح، والرحيل الرحيل، بعد قليل قليل. فنظر بعض القوم إلى بعض، وقال الشيخ البربير إن الشيخ عليّاً شديد التفاؤل هذه الليلة، أرجو أن يحقق الله رجاءه.

ثم أخذوا فى الإنصراف.

- ١٣ -

نعود بالقارىء إلى القاهرة بعد أن قضينا معه وقتاً طويلاً فى رشيد، شهدنا فيه بعض حوادثها الجسام، نعود به إلى القاهرة لنرى أن الخطوب فيها ما زالت تتلاحق وتتعاقب، وسحائب الكوارث ما فتئت تتجمع وتتراكم.

فقد غادر نابليون القاهرة على حين غفلة من جيشه ومن أهلها، فى الثامن عشر من اغسطس سنة ١٧٩٩ م بعد أن رأى آماله ركاماً، وأطماعه أحلاماً، وبعد أن سمع بأذنيه ضحك القدر، وأحسّ بسخرية الأيام. فانطلق به النيل إلى أحد شاطئيه بالقرب من الإسكندرية حزيناً مهموماً، يرى فى كل موضع قدم قبراً، وفى كل لجة من لجج البحر شركاً. انطلق به النيل وطفِق يجرى ويمور كما كان يجرى ويمور منذ القدم، وأخذت أمواجه تقهقه من طموح الإنسان، وتحديه أحكام الزمان. نابليون يعود أدراجه إلى بلاده مخاطراً بنفسه، بعد أن انقطعت به إليها السبل، وربضت له بوارج الإنجليز فى البحر تنتظره، كما ينتظر الأسد الطاوى فريسته! جاء إلى مصر فلم يظفر بشىء، وأضاع كل شىء، فكم وعد وكم صانع، وكم تنمّر وهدد، فلم تفتح له مصر قلبها، ولم تُلق أمام قوته سلاح ضعفها. قامت الثورات فى كل مكان فعجز بطل إيطاليا وقاهر النمسا، والفارس المعلم فى فرنسا، أن يخمد نارها أو يطفىء أوارها. ولم تغن عنه عدده وآلاته الحديثة شيئاً أمام عصىِّ المصريين المخلصين، الذين قذفوا بأنفسهم للموت فى سبيل وطنهم. ثم ذهب إلى الشام فلقنّه الجزّار درساً أطار من نفسه ذلك الزعم، الذى سوّل له أنه رجل الدنيا وواحدها. نظر - وهو يغادر مصر - إلى جنوده المغاوير، فإذا هم حفنة من المهازيل الساخطين، أكلت الحروب والثورات والطواعين خيرة رجالهم، وحصدت نخبة أبطالهم. ثم التفت فرأى الجوع والفقر والسخط فى ظل سياسته، يمزق أوصال مصر

ويهدد كِيانها، وأن قوانينه وفلسفته لم تجعل مصر سعيدة، وأن ما جمعه من الضرائب والمكوس لم يكف لنفقة جنده، وأن إيراد مصر أيام المماليك الجهلة الأغبياء كان أربعة أمثال إيرادها في عهده المتلألىء الزاهر! ثم فكر في فرنسا وفيمن فيها، فإذا هم أعداء ألدّاء قذفوا به في أتّون مصر، ليستريحوا من توثبه وطموحه، وإذا زوجه «جوزفين» التى ألقى بحبه تحت قدميها، تدوس ذلك الحب وتنسى ذكراه، كأنها أضغاث حالم. ذكر كل هذا وهو واقف إلى جانب قصر القياصرة، على شاطىء البحر بالإسكندرية، فبكى ملء عينيه، وأنّ أنين البائسين. ولو أن مصوراً ماهراً رسم صورته عند قدومه مصر، وهو ينزل من قصر مراد بك ليعبر النيل إلى القاهرة، فاتحاً متحدياً مرتفع الصدر أصيد العنق، كأن الأرض لم تنجب غيره، والتاريخ لم يظفر بسواه، ثم رسم صورته وهو ينزل إلى السفينة بالقرب من المكس، فيلقى بنفسه بين أيدى الأقدار، مطرق الرأس مثقلاً بالأحزان لظهرت قدرة الله وعزّته، ولعلمنا أن الحياة سراب. وكأن هاتفاً كان يهمس في أذنه وهو يجرّ رجليه إلى السفينة قائلاً: أنزل أيها الفاتح المغوار، وأنج من البحر كما يشاء لك الله أن تنجو، وأدخل فرنسا مؤزَّر الجانب عزيز السلطان، واقهر الممالك، وأذل الملوك كما يزين لك الطموح، وكن إمبراطوراً لفرنسا، وتطلّع لحيازة الدنيا بحذافيرها، فلن تفلت من مخالب القضاء، واعلم أن في نهاية المحيط جزيرة صغيرة قاحلة تسمى «سنت هيلانة» لا تزال فاغرة فاها لالتقامك.

سافر نابليون إلى فرنسا بعد أن جعل الجنرال كليبر خلفاً له بها. وكان كليبر شديد الإعتداد بنفسه، مولعاً بمظاهر الملك. وقد فدح المصريين في أول عهده بفنون من الضرائب اعتصرتهم اعتصاراً، فزاد سخط الناس، وتأججت الصدور بالغيظ، وكثرت الاجتماعات السرية والمؤامرات. وكان محمود العسال في ذلك الحين لا يزال بالقاهرة، وكان يكثر من زيارة لورا ونيكلسون. وقد آن لنا أن ندوّن هنا أن هذه الزيارات المتكررة، إلى قنوطه من التزوج بزبيدة، إلى ما كان يُحسه من عطف لورا ورقتها وقوة جاذبيتها، جعلته يحنّ إلى بيت نيكلسون ويشعر عند مشاهدة لورا والجلوس إليها بلذة روحانية عجيبة، أبى عليه كبره أن يعللها، لأنه كان يريد أن يقبر حب زبيدة في قلبه، وأن يعتزّ به، ويتسلى بذكرياته، وإن كان حبّاً يائساً عميقاً. وحينما رأى نيكلسون تكرار هذه الزيارات، وقرأ في وجه ابنته ابتهاجاً بها، عرض عليه أن يساكنهما في هذا الزمن المضطرب بالمخاوف والأحداث. فقبل محمود شاكراً، وانتقل من بيت ابن عمه حسين إلى بيت لورا

بالكحكيين. وكان يخرج مع نيكلسون لزيارة المتآمرين على الفرنسيين، أمثال: الشيخ السادات، والسيد عمر مكرم، والسيد المحروقى، وغيرهم. وكانا يسقطان بين الحين والحين على الشيخ عبد الرحمن الجبرتى، ليلتقطا منه أخبار القاهرة والأقاليم. فغشيا داره بالصنادقية ذات ليلة، فوجداه منحنياً على بعض الأوراق وقد وضعها على فخذه، وأخذ يكتب فيها ما دُوِّن فى صحف انتثرت حوله. فلما دخلا ذُعر الشيخ أول الأمر، وانكب على الصحف يجمعها ويخبؤها تحت سجادته، ولكنه حين عرفهما أخذ يقهقه ويقول: لا تؤاخذانى يا سيدىّ، فإننا أصبحنا فى زمان نخاف فيه من خيالنا فى المرآة. أسعد الله مساءك يا سيدى محموداً. ثم اتجه إلى نيكلسون وقال: كيف حال الحاج السوسى؟ هل من أخبار؟

ـ الأخبار عندك أنت يا مولانا.

ـ عندى أخبار سارة، ويا حبذا لو صحت الأحلام؟ فأسرع محمود سائلاً فى لهفة واضطراب: وما هى يا مولانا الشيخ؟

ـ علمت اليوم فقط من المعلم نقولا الترك المترجم، أن كليبر فى أول ولايته كتب إلى الصدر الأعظم للدولة العثمانية رسالة مطولة يطلب فيها الصلح بين الدولتين. وأن تُعقد معاهدة لخروج الفرنسيين من مصر.

فقال نيكلسون: هذا ما ظننته، فإن موقعة أبى قير الأولى التى حطمت سفنهم، لم تترك فى نفوسهم خيالاً من أمل فى البقاء بمصر. ثم قال الشيخ الجبرتى:

ـ وبلغنى أن الأتراك بعد أن قابلوا هذا الطلب بالازدراء، أرسلوا بسفنهم وجنودهم ـ كما تعلمون ـ إلى دمياط، فهزمهم الفرنسيون شرّ هزيمة. فقال محمود: نعم يا سيدى إن كارثتنا بأصدقائنا أنكى من كارثتنا بالفرنسيين. فاستمر الشيخ وقال:

ـ ولكن الفرنسيين ـ على الرغم من انتصارهم ـ ألحّوا فى طلب الصلح من العثمانيين. وقد علمت أن معاهدة وضعت شروطها باتفاق الفرنسيين والترك، والإنجليز والروس. وأن خير ما فى شروطها أن يخرج الفرنسيون من مصر، وأن يؤمّن سفر الجيش الفرنسى الذى يُبحر من مصر بأسلحته وأمتعته إلى فرنسا. فقال محمود:

ـ يا فرج الله! وقال نيكلسون وهو يهز رأسه هزة نفى واستنكار:

ـ يخرج الجيش الفرنسى آمناً بعُدده وآلاته، ليشعل نار الحرب من جديد على إنجلترا؟ ما أظن إنجلترا ترضى بهذا. فقال الشيخ الجبرتى:

ـ إن «سدنى اسميث» أمضى هذه الشروط.

ـ ما أظن. وهنا قال محمود لنيكلسون: يا سيدى إذا أرادت إنجلترا أن تمزّق جيش فرنسا فلتخرجه من مصر أولاً، ثم تمزقه فى أى مكان آخر!

ـ أتمنى يا محمود أن يحقق الله ما تريد، فقد نزل بمصر من الويلات ما يدكُّ الجبال، وإذا لم توافق إنجلترا على هذه المعاهدة، فستكون الكارثة أفدح والبلاء أعظم، ولكنى أعرف سياسة إنجلترا، وقليلاً ما تكذبنى ظنونى.

وصدّقت الأيام ظنون نيكلسون، وأبت إنجلترا أن توافق على المعاهدة فنقضها الفرنسيون وبرز «كليبر» بجيوشه لمحاربة العثمانيين عندما بلغت جيوشهم «عين شمس».

عندئذٍ اجتمع عدد عظيم من المتآمرين بدار السيد عمر مكرم، وكان بين الجمع الشيخ السادات، والسيد أحمد المحروقى، والشيخ الجوهرى، ونيكلسون ومحمود العسال.

وبعد أن طال الاجتماع وزاد اللغط والجدال، دخل الحاج مصطفى البشتيلى زعيم الثوار ببولاق فقال: إن العثمانيين دخلوا القاهرة وانتصروا على الفرنسيين فى موقعة عين شمس. فصاح محمود العسال:

يجب أن نقضى على الحامية الفرنسية الباقية بالقاهرة، وألا نبقى على أحد منهم، فصمم الجميع على الجهاد، وأرسلوا المنادين يدعون الناس إلى إقامة المتارس وحفر الخنادق، وبعثوا البعوث فى شمال مصر وجنوبها لبث روح المقاومة والعصيان فى كل مكان. وزاد فى حماسة المصريين دخول ناصف باشا قائد جيش العثمانيين إلى القاهرة، وحوله عدد من كبار قواد المماليك. وكان من أشد الناس نهوضاً بالأمر وتعصباً له، أعرابىٌّ ملثَّم، أخذ يعدو بجواده بين أحياء القاهرة محرِّضاً مشجعاً داعياً إلى الموت فى سبيل الله والوطن. ومن المحزن أن نقرر هنا: أن هزيمة الفرنسيين كانت أكذوبة خدع الترك والمماليك بها سكان القاهرة، وأن كليبر انتصر على الترك انتصاراً حاسماً ورد جيوشهم إلى الصالحية، وانقلب إلى القاهرة بجنوده ليطفىء ثورة الثائرين.

ذهب نيكلسون ومحمود إلى دارهما بعد أن انفضّ الاجتماع، وقد هالهما ما رأيا وسمعا، وتوجّسا خيفة من عواقب الأمر، وخشياً أن تبوخ الثورة كما باخ غيرها، وتعود مصر إلى الأسر المهين.

قابلتهما لورا مذعورة وقالت: ما هذا يا محمود؟ إنى رأيت من النافذة رجال الحىّ جميعاً يتسلحون للقتال، وشهدت فارساً أعرابياً يدعوهم إلى الجهاد، ويحثهم على قتال الفرنسيين!!

ـ هذه الثورة يا لورا، وهى آخر سهم فى الكنانة، فإذا أخمدت فقدنا كل شىء.

ـ لن تخمد، وليست هى آخر سهم فى الكنانة، إن الشجاع دائماً يخلق من اليأس أملاً، لأن اليأس فيه معنى الموت، ولأن فى الشجاعة معنى الحياة. أدخلا وأخبرانى بكل شىء، فقال نيكلسون.

ـ إن الأمة أجمعت على الجهاد يا فتاتى، وإن الفرصة مواتية، فلم يبق من جنود الفرنسيين عدد يؤبه له، أو يستطيع الصمود أمام الكثرة والتضحية.

ـ هذا صحيح يا أبى. ثم عادت إليها غريزتها النسوية، وما تشعر به المرأة من الخوف والإشفاق على من تحب، فقالت:

ـ وهل تحارب يا محمود؟

ـ سأكون فى أول الصفوف، وإذا بُترت يمينى انتقل السيف إلى شمالى. إننى يا لورا كلما فكرت فى أنك من أمة عزيزة مهيبة الجانب لا يداس لها عرين، ولمحت ما فيك من الاعتزاز بقومك الذين لا يحوم بخيال غاصب أن يقترب من شواطئهم، أدركنى ما يشبه الحسد، وودِدت أن أفخر ببلادى وقومى كما تفخرين.

ـ ستفخر يا محمود ببلادك، وهى خالصة لأمتك لا يتحكّم فيها غاصب، وإذا لم يتنفس لك العمر، فسيفخر التاريخ بك وبأمثالك المجاهدين. وأنت يا أبى ماذا سيكون شأنك؟

ـ سأكون بجانب محمود، وسأجاهد فى سبيل مصر جهاداً يحسدنى عليه أبناؤها.

ثم قامت لتُعد الطعام، وهى فى خوف ووجل وإشفاق، وتمنّت لو ظفرت بمحمود

وبحب محمود فى بلد هادىء أمين! وهل من العسير على القدر أن يحملهما معاً إلى «بليموث» مقر أهلها، ومهد صباها، ليعيشا فى ظلال الحب وادعين؟! وصورت لها الهواجس صوراً مخيفة ملأت نفسها رعباً. إن محموداً مقدام مخاطر، وهو إذا حمى وطيس الحرب أدركه جنونها فقذف بنفسه للموت سمحاً كريماً. ولكن هذا الخلق هو الذى تحبه فيه، وهو الذى تعشقه من أجله، فكيف تذوده عما تحب؟ ولو أنه أطاعها لعاد فى عينيها فسلا مسلوب الرجولة هزيلاً.

وأشرقت شمس اليوم الحادى والعشرين من مارس سنة ١٨٠٠ م على مصر كلها أشأمَ شروق وأنحسه، وكأن حمرتها عند البزوغ دماء الشهداء الذين كتب عليهم أن تحصدهم المدافع وتنوشهم السيوف البواتر، وكأن أشعتها وهى تضطرب فى الأفق، أسباب المنية امتدت فجمعت أبناء مصر المساكين فى شباكها.

خرج نيكلسون ومحمود فى هذا الصباح، وودعتهما لورا والهة حزينة، تظهر الجلد بقدر ما تستطيع، فإذا غلبها الدمع قهقهت لتزعم أن دموع الحزن من دمعات السرور. خرجا فوجدا القاهرة فى هرْج وحركة دائبة، واستعداد للوثوب واستخفاف بالموت، وخلت البيوت من قطّانها، واختلط الحابل بالنابل، وتسلح كل من يستطيع بما يستطيع: فمنهم من كان يحمل سيفاً، ومنهم من كان يحمل بندقية، ومنهم من كان يلوِّح بعصاً غليظة فى الفضاء، ومنهم من تسلح بسكين ماضية. أما الأطفال والنساء: فملئوا حجورهم بالأحجار وساروا خلف الشجعان المجاهدين، يتغنّمون بأناشيد نظمتها الفطرة الساذجة، فأذكت من نار الحماسة ما تعجز عنه بدائع الأشعار. وقد قسموا أنفسهم فرقاً، وأقاموا المتارسَ فى جميع أحياء القاهرة وبولاق، ووثب بعض الثوار وفى مقدمتهم نيكلسون ومحمود على معسكر الفرنسيين فى ميدان الأزبكية كما تثب أمواج البحر الخضم على الشاطىء لتتكسر ثم تعود. وكان الفرنسيون ـ وقد امتلكوا القلاع والتلال حول المدينة ـ يصبُّون عليها وابلاً لا ينقطع من النيران والقذائف، يدكُّ أرجاءها دكاً، وينشر الذعر والموت فى كل مكان. وشمر الترك والمماليك عن سواعدهم وصالوا فى المدينة وجالوا، وأخذوا يرسلون النجدات ويقوّون العزائم. وبينما كان نيكلسون ومحمود عائدين إلى دارهما فى أصيل ذلك اليوم، إذ لمح محمود الأعرابىَّ الملثم، وهو يخوض بفرسه فى جحيم المعامع ويصيح: إنى أرى الجنة وقد فتحت أبوابها للمجاهدين، ولم تبق إلا ساعة من نهار لتنجو مصر وينجو أبناؤها. فهلم إلى الموت! هلم إلى الموت! فالتفت إليه محمود ـ وكانت

حماسته قد حسرت من لثامه ـ فإذا هو زوج خالته السيد محمد البواب! فتملكه الدهش ووثب حتى أخذ بعنان فرسه وصاح: خالى! أنت هنا؟ أنت بالقاهرة؟ إنى لم أدع ركناً فى المدينة إلا بحثت عنك فيه. ثم حبسه البكاء عن الكلام، فوثب السيد البواب إليه وعانقه، وارتفع البكاء والنشيج. ولغة الوجدان دائماً أفصح من لغة اللسان. حتى إذا هدأت نفساهما قليلاً، قال محمود فى صوت خافت حزين:

ـ لم تستطع البقاء فى رشيد يا خالى؟

ـ إن حياة الكريم ليست نفساً يذهب ويجىء، وليست طعاماً وشراباً، وإنما هى شرف وكرامة، فإذا امتهن الشرف وضاعت الكرامة كان الكريم بين إحدى خَلتين: إما أن يموت؛ وإما أن ينتقم. وقد جئت إلى القاهرة لأنتقم، ولأغسل غيظى بدماء أعدائى.

ـ ذلك ما أفعله أنا الآن، وهذا ما سأموت فى سبيله. وكيف جئت يا خالى؟

ـ غادرت رشيد ومعى مقدار من المال، فسافرت إلى بادية البحيرة. وكان لى بين عرب «الهنادى» صديق قديم هو الشيخ عويس معوض، فنزلت بخيامه وأخبرته بفاجعتى، فأظهر لى من حسن المواساة وكرم الضيافة ما هو خليق بالعربىّ الكريم، ثم غيرت زيىّ عنده، ورحلت مع ثلاثة من أتباعه، حتى وصلنا إلى القاهرة فنزلت بخان جعفر بخِطة سيدنا الحسين، وعزمت على إخفاء أمرى والجهاد فى سبيل الله، حتى ألقى الله.

ـ لا يا خالى، لا بدّ أن تنزل عندنا. ثم أشار إلى نيكلسون وقال: هذا صديقى وأخى فى الجهاد الحاج محمد السوسى. أنظر إليه فهل تعرفه؟ فحلّق فيه السيد البواب طويلاً وقال مردِّداً: أعرفه..؟ أعرفه..؟ وكيف لا أعرفه؟ إنه الخواجه نيكلسون تاجر الصوف والحرير برشيد، ثم طوّقه بذراعيه فى شوق وحب صادقين وهو يردِّد: كيف حالك يا خواجة نيكلسون؟ أو إن شئت: كيف حال الحاج محمد السوسى؟ ما كدت أعرفك لولا أن نبهنى محمود، لقد تغيَّرت كثيراً يا نيكلسون فى زمان تغير فيه كل شىء.

ثم ألح عليه محمود أن ينزل معه بدار نيكلسون فقال: دعنى يا بنى فإنى أستأنس بوحشتى، وأرتاح إلى وحدتى، ثم أنساب كما ينساب السهم فلم يريا إلا غبار جواده. وعاد نيكلسون ومحمود إلى دارهما، فأخبرا لورا بحوادث اليوم. وكان نيكلسون حزيناً

شديد التطيُّر، وأخبرها محمود بما كان من لقاء زوج خالته، وبما كان يظهر عليه من الحزن وحب الانتقام، فعجبت لورا وقالت: السيد محمد البواب أصبح فارساً مغواراً؟! هكذا تخلُق الحوادث الرجال!! وهنا قال نيكلسون لمحمود:

ـ أرأيت اليوم كيف يخدع المماليك الشعب المصريّ الأعزل المسكين؟

ـ كيف؟!

ـ زعموا أولاً أن الجيش الفرنسى انهزم بعين شمس، وكان كل ذلك كذباً وزوراً، ثم إن نصوحاً باشا كان يخدع الناس اليوم، حينما أرسل المنادين فى أرجاء البلد يصيحون بأن يوسف باشا الصدر الأعظم للدولة العثمانية، سيصل غداً أو بعد غد بجيشه اللُّهام، ليستأصل شأفة الفرنسيين. والصدر الأعظم ـ كما أعلم علم اليقين ـ فرّ بجيشه إلى الصالحية ولن يعود.

ـ تبّاً لهم من قَتلة سفّاكين!! والآن وقد لَعق الشعب لجامه، وأطارت الثورة عقله، وأصبح من العسير أن يُكبح، ماذا ترى يا نيكلسون؟

ـ أرى أن العاقبة غير واضحة، وأنه يجب علينا ألا نجبن أو نعتزل القتال، فلعل الله يحدث بعد ذلك أمراً! وقالت لورا: لن يصح شعب يقتله طبيبُه. وهؤلاء المماليك يبنون من جثث المصريين جسراً لمآربهم: يفرُّون من الميدان عند أول صيحة، فإذا انتصر المصريون تسارعوا إلى انتهاب الغنائم، وإذا هُزموا أو قُتلوا فليس الأمر عندهم بذى خطر. وما شأنهم بفراشات ضعيفة جاهلة تهافتت على النار فاحترقت؟ وزفر محمود، وهزّ نيكلسون رأسه، وقام كلٌّ إلى سريره لينام إن استطاع النوم.

وهكذا توالت الأيام والثورة مشتعلة الأوار، وفى كل يوم يضعف المجاهدون، ويقوى الفرنسيون، واستمرت المدافع تصب حميمها على المنازل ليلاً ونهاراً، فهجر الناس بيوتهم، وتهدم أكثر من نصف المدينة، وبذل المصريون جهد اليائسين: فأنشئوا معملاً للبارود فى بيت قائد آغا بالخرنفش، ومصنعاً لإصلاح الأسلحة وصب المدافع، وجمعوا كل ما استطاعوا الحصول عليه من حديد ونحاس وخشب، ولكن كل ذلك لم يُغن فتيلاً أمام قوة الفرنسيين الجبارة، ومما زاد الحال سوءاً حصار المدينة وامتناع وصول الأقوات إليها، فجاع الناس، وانتشرت الأمراض، وخرجت النساء مولولات صاخبات باكيات، يصوِّرون الهزيمة والذعر، والمسغبة وضيعة الأمل.

وبينما كان الفرنسيون فى اليوم الثانى عشر من إبريل يحاولـون احتـلال كوم أبـى الريش بالفجالة ، بقيادة الجنرال روبان ، إذ رأى محمود العسال زوج خالته فوق جواده وهو يصول بين الفرنسيين غير هيّاب ، ورصاص بنادقهم يبنى فوقه ظلّة من الموت ، فذُعر محمود وتقدم لإنقاذه ، ولكنه قبل أن يصل إليه رآه يترنح فوق فرسه ، وقد أصابته رصاصة فى العنق ، فأسرع إليه فاختطفه من سرجه ، وحمله فوق كتفيه . وما كاد يسير قليلاً حتى أصابته رصاصة فى فخذه ، فسقط على الأرض بحِمْله . وفى هذه اللحظة وثب نيكلسون فجرّ الرجلين إلى مكان أمين . وكان محمود شديد التألـم من جُرحـه ، أمـا السيد محمـد البواب فكان يجود بأنفاس قصار ، ويردد كلمات أقصر من أنفاسه ويقول : الحمد لله ! قتلت خمسة هذا اليوم ! شفيت نفسى ، وأطفأت غِلّى ، ما أهون الحياة فى سبيل الشـرف ! ثم فاضت روحه شهيداً كريماً ، فاكترى نيكلسون حمارين واتجه بالرجلين نحو داره ، فلقيته لورا مذعورة ، وجاء بعض الجيران فحملوا الجريح والقتيل ، وكانت الشمس قد غابت فى الأفق ، فشمل القاهرة ظلام دامس ، يزعجه قصف المدافـع ، ونـدب الثكالـى ، وأنـات الجرحى ، وصياح الأطفال الخائفين الجائعين .

- ١٤ -

جهِّز الميت الشهيد ودفن فى الصباح ، وأخـذت لورا تبـذل ما يستطـاع فى علاج محمود وتمريضه ، والهمُّ يكاد يعصف بفؤادها . ودهمت محمـوداً الحمّى ثلاثـة أيام لم تغمض فيها جفناً ، ولم تحبس دمع عين . وأراد أبوها أن يتناوب معها السهر عليه ، فأبت وقالت فى سخرية مصنوعة : ما أكثر طمعكم أيها الرجال ! ! لم تكتفـوا بمنـع المـرأة من الجهاد فى ميدان القتال ، حتى جئتم تشاركونها فى نصيبها القليل من العناية بالجرحـى ! دعنى يا أبى فإن للمرأة صِبراً ليس للرجال . ثم ضحكت وقالت : وإن للمرأة قوة روحانية تبعث فى المريض الأمل وحب الحياة .

أفاق محمود من الحمى ضعيفـاً هزيلاً ، ورأى من رعـاية لورا له وحدبهـا عليه ، وتفرُّغها لخدمته ، وافتنانها فى تسليته ، والترويح عنه ـ ما ملأ قلبـه حبّـاً لهـا . وإعجابـاً بخلقها . ثم نظر فرأى جمالاً يأخذ باللب ، ويملأ العين والقلب ، وقد كان إليها قبل ذلك دائم الحنين . ولم يكن يحول بينه وبين مصارحتها بحبه ، إلا كبر موهوم ، وعزيمة كاذبة ،

هى أن يصون قلبه لحب زبيدة، وألا يزحمه بحب جديد.

ولكن أين زبيدة الآن؟ وأين الثريا من يد المتناول؟ إنها زوجة. إنه فقدها إلى الأبد. إنها بعد أن تزوجت بالأجنبى أصبحت لا تصلح له ولا يصلح لها. وإن التشبث بحبها خيال شعرى، لا يستطيع أن يثبت أمام قسوة الحقائق... جالت كل هذه الخواطر بنفس محمود وهو ينظر إلى لورا، وقد كانت تغسل جرحه وتعدُّ له الأربطة واللفائف فقال:

ـ لقد أزعجتك يا لورا وأتعبتك.

ـ أنت دائماً رجل متعب يا محمود، وإذا أردت أن تريحنى فباعد بينك وبين الخطر.

ـ وهل يسوءك أن يدفع المرء عن وطنه؟

ـ لا. وهذا خير ما أحبه فيك، ولكن يسوءنى أن يمسك سوء.

ـ ولماذا؟

ـ هكذا أنت دائماً كالأطفال، تحب أن تعرف كل شىء.

ـ اتخافين علىّ حقاً؟

ـ إننى أخاف دائماً على الأبطال.

ـ وتحبينهم يا لورا؟ فثارت عواطفها، وطفرت من عينيها دمعتان، وأسرعت فقالت: وأحبهم.

ـ وإذا كانوا يحبونك يا لورا ويقدّمون قلوبهم بين يديك، فهل تحبينهم حبّاً آخر؟!

ـ وهل الحب أنواع؟

ـ الحب أنواع وأشكال: حب الرجل للوطن، وحب الأم لولدها، وحب الجندى لقائده، وحب الفتى للفتاة.

فتلعثمت لورا وقالت: وما شأنك بهذا الحب الأخير؟

ـ هو حبى لك يا لورا الذى فيه حياتى وشرفى، وفيه نعيمى وجنتى. ثم مدّ إليها ذراعيه وجلاً مستعطفاً، فسقطت بينهما باكية وهى تتمتم: أحبك يا محمود، وأحبك من

حين أن رأيتك ، وأحبك لأنى أرى فيك كل ما يصوره خيالى للرجل الكامل ، من بطولة وكرم ودين . أحبك ، أحبك .

فقبّلها محمود بين عينيها وقال وهو يلهث : وهل تقبليننى زوجاً؟

ـ ذلك كان أملى فى الحياة .

ثم أخذا فى الحديث والضحك والقُبَل ، وبعد قليل دخل نيكلسون يسأل عن المريض ، فصاحت لورا : إحذر يا أبى أن تزعج زوجى بكثرة الأسئلة! فبهت نيكلسون وأخذ يتأمل فيهما مشدوهاً، وهما يضحكان . فقال محمود : نعم زوجها بكتاب الله وسنة رسوله . ووثب نيكلسون على لورا يقبّلها ويقول : لك تهنئاتى ودعواتى يا لورا . نعم الصهر ونعم الكفء محمود . هذا أسعد يوم فى حياتى . كان هذا الخاطر السعيد يطوف بخيالى فأظنه بعيداً ، وكنت أعتقد أن ابنتى لورا لا تصلح إلا لمحمود .

ثم اتجه نحو كرسى ليجلس عليه ، فصاح به محمود : لا تجلس يا رجل! الآن تجد جارنا الشيخ محمداً الصعيدى فى داره ، وتستطيع أن تتفضل بدعوته ليعقد العقد . فخرج نيكلسون غير متباطىء وأحضر الشيخَ الصعيدى وتمّ العقد ، وأصبح محمود العسال ولورا نيكلسون زوجاً وزوجة .

ومضى على الثورة ثلاثون يوماً ، وهى تحصد الأرواح حصداً ، وتدمر كل شىء تدميراً . ولما اشتد الخطب ، وعظم الهول ، وبلغت القلوب الحناجر ، قام وفد من العلماء وألحّ على ناصف باشا وإبراهيم بك وغيرهما أن يضعا حدّاً لهذه الفاجعة . وتمّ إبرام الاتفاق بين الترك والفرنسيين فى الحادى والعشرين من إبريل سنة ١٨٠٠ م على أن يغادر العثمانيون مصر ، وعلى أن يصدر كليبر عفواً عاماً عن جميع سكان القاهرة . وعاد النفوذ للفرنسيين كما كان وزادهم الظفر تمكُّناً وسلطاناً .

وفى هذه الأثناء تماثل محمود وعادت إليه قوته ، وبينما كان فى منزله فى أحد الأيام ، إذ سمع طرقاً على بابه ، فلما فتح رأى سروراً خادم زبيدة فدهش لرؤيته ، واستقبله استقبال الصديق ، وشدّ على يديه فى شوق وترحيب وقال : أهلاً بسرور . ما كنت أترقب أن أراك بالقاهرة! كيف حال أهل رشيد؟ ثم تردد قليلاً وقال : وكيف حال بنت خالتى زبيدة؟

ـ كلنا بخير يا سيدى والحمد لله على سلامتك . لقد انتقل الجنرال مينو من رشيد وعين

حاكماً للقاهرة، وجئنا منذ عشرة أيام، وجاءت معنا سيدتي نفيسة، وسكنا بالقلعة. وقد أحبت سيدتي زبيدة وسيدتي نفيسة أن تزياك، فسألنا عن منزلك وجئنا، وهما الآن بالحارة تنتظران.

فلما سمع محمود ذلك أسرع إلى الباب وثباً، وحينما وصل إلى الحارة رأى زبيدة وأمها، فحياهما في تكريم وحفاوة وشوق، وقادهما إلى مسكنه. وأقبلت لورا فمدّت ذراعيها لزبيدة وملأت وجهها بالقُبَل، ثم مالت إلى يد السيدة نفيسة فقبلتها وقالت: من كان يظن أن يجمع الله الشتيتين بعد أن حالت بينهما الخطوب والأحداث؟ فالحمد لله على السلامة يا زبيدة، شرّفت يا سيدتى نفيسة. لقد أراد الله بكما خيراً أن كنتما بعيدتين عن القاهرة فى أثناء الثورة. لقد قضينا ثلاثين يوماً كنا نموت فيها ونحيا فى كل يوم ألف مرة. فقالت زبيدة فى ضجر وألم: وهل نجت رشيد من الثورة؟ إن جميع البلاد المصرية كانت شعلة من النيران. فأشارت لورا إلى محمود وقالت: لقد كدنا نفقد فى الثورة هذا الولد المدلّل المخاطر. فنظرت إليه زبيدة، والشوق إليه يكاد يفضحها، وقالت: لقد خُلق محمود جريئاً لا يبالى بالأخطار، ولا بد له من يد حكيمة حازمة تكبح جماحه. فضحك محمود وقال: إنى سأتعب يدك كثيراً يا لورا، لأننى فرس جموح. فهال زبيدة ما تسمع، وراعها أن ترى تلك السهولة فى الحديث بين لورا ومحمود وقالت: أظن أن يجدر بك يا محمود أن تذهب إلى رشيد بعد هذه الغربة الطويلة والجهاد الممض، فإن أمك تتحرّق لرؤيتك.

فأجابت لورا: إنه أقسم ألا نعود إلى رشيد إلا بعد أن يغادر الفرنسيون أرض مصر. فقالت نفيسة: أتنوين العودة إلى رشيد يا لورا؟ فأطرقت لورا فى حياء وقالت: أنا سأكون دائماً حيث يكون محمود. وهنا أسرع محمود فقال: لقد نسيت أن أخبركما أننا أصبحنا زوجين، فقالت نفيسة وقد دهمها الخبر: مبارك. مبارك. . أرجو أن يكون زواجاً سعيداً. ثم تنهدت وبلعت ريقها، واحتالت على ابتسامة خفيفة تخفى بها ما أصابها من ألم وحسرة. أما زبيدة: فقد أخذتها عاصفة من الذهول والحزن والغيرة، فأطرقت واجمة كأنها كانت تسمع صحيفة الحكم عليها بالموت، إنها تحب ابن خالتها حبّاً يقهر كل حب، وتهيم به هياماً يعصف بكل هيام، وهو لها دون غيرها، وهو تمثال غرامها الطاهر، فكيف تمتدّ إليه يد؟ وكيف تجرؤ امرأة أخرى على أن تنعم بحبه؟ ولكنها هى التى نبذت هذا

الحب، وأغلقت بابها دون ذلك الهيام، وحطمت ذلك التمثال بيديها، كل ذلك في سبيل أمل موهوم وأمنية كاذبة. . . إن لورا لم تعمل شيئاً، وإن محموداً لم يعمل شيئاً، وهي وحدها التي نفسها تلوم. هي وحدها التي دمرت سعادتها، وهي وحدها التي انتزعت قلبها من صدرها وقذفت به في التراب.

رفعت زبيدة رأسها بعد لحظات وقالت: مبارك يا محمود. ثم أخذت تخوض في حديث آخر فقالت: إننا جئنا إلى القاهرة وأحببنا أن نراك فأرشدنا ابن عمك حسين إلى منزلك، فقد كنا نود أن نراك يا محمود. وهنا قالت نفيسة: إن زوجها الجنرال لا يقبل زيارة أحد من أقاربها. فقال محمود: إن كل سعادتنا أن نعلم أن زبيدة هانئة سعيدة. فقالت زبيدة: أما السعادة والهناء فبيني وبينهما سدود وأسوار، ولكنني راضية بالقضاء خيره وشره. وقد علّمتني الأيام ألا أجرؤ على تغيير القدر، وألا أفسد حياتي بآرائي وآمالي. وهنا تنهدت نفيسة طويلاً وقالت: هل عثرت يا محمود على مكان خالك؟ فأطرق ملياً وانساب الدمع من عينيه غزيراً وقال: أعظم الله أجرك فيه يا خالتي، فقد نال شرف الشهادة، ومات في ميدان الجهاد شجاعاً كريماً، وانتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً. وما كاد يتم قوله حتى ارتفع البكاء والعويل، وكادت نفيسة يغمى عليها من هول الخبر، وأخذت زبيدة تبكي وتعدد مآثر أبيها ونبله وشرفه، وتصيح كما يصيح الهاذي المحموم: إنه مات من أجلي. . إنه مات من أجلي. لقد قتلته. . . لقد قتلته! ولما هدأت الأصوات قليلاً رفعت نفيسة رأسها وقالت: هلم يا زبيدة. إن المرء لا يستطيع أن يمحو ما كتبه القدر. هلم يا بنتي. إننا لا نملك من أمرنا شيئاً، وليس لنا إلا الصبر، وقد يكون ما نحن فيه اليوم خيراً مما نلاقيه غداً. ثم ودعتا لورا ومحموداً وانصرفتا.

- ١٥ -

في اليوم الثاني والعشرين من إبريل سنة ١٨٠٠ م استيقظت القاهرة على موكب حافل. أراد به كليبر أن يظهر عظمة ملكه وقوة بطشه، وأن يحتفل بالنصر المؤزّر الحاسم.

فخرج من داره بالأزبكية في جمع خضّم من مشاته وفرسانه، وقد انتضوا سيوفهم فكان لها بريق يكاد يذهب بالأبصار، وخفقت فوقهم رايات الجمهورية يداعبها نسيم الربيع، وجرت أمامهم المدافع الثقيلة التي تركت القاهرة ركاماً، وخلّفت قصورها

أطلالاً. وقد سار فى طليعة الموكب نحو خمسمائة قوّاس فى أيديهم العصىّ الغليظة، ينادون بأصوات تكاد تثقب آذان السماء، كلها حمد وتمجيد للقائد العظيم، ويأمرون الناس بالقيام وحنى الرءوس. وموسيقى الجيش تصدح بالأناشيد الفرنسية، وكان الجنرال يمتطى جواداً أشهب عربى السلالة، وقد بدا فى وجهه العبوس والأنفة، وامتلأت خياشيمه عظمةً واعتداداً.

سار الموكب يشق أحياء المدينة وأسواقها، فاختفى الناس - وقد أكمدهم الحزن - فى بيوتهم، وسدّوا أبوابهم دون هذا المشهد الذى عدّوه احتفاء بموتهم، والمصريون بغريزتهم وفى كل أطوار تاريخهم يحبون الطبل والزمر، ويتزاحمون على المواكب كيفما كانت، ولكنهم فى هذه المرة عزفوا فى إباء عن أن ينقلوا فى هذا الموكب قدماً، أو يمدّوا إليه عيناً.

فى هذا اليوم نفسه - والجنرال فى قمة مجده - كان يجلس بفناء المسجد الأقصى بمدينة القدس، شاب فى الرابعة والعشرين، نحيل الجسم شاحب اللون، حائر العينين مستطيل الوجه، أنافىٌّ، رث الثياب، يكثر من هزِّ رأسه فى حزن واضطراب. كان طالب علم، وكان فقير الحال، وكان عصبى المزاج كثير التأمل والتفكير. وكان موغلاً فى دينه، حريصاً على إحياء السنن وإماتة البدع ومحاربة المنكر، وإن لاقى فى سبيل ذلك أشد الجنف. وكثيراً ما كان يدخل الحانات فيحطم زجاجها ويريق خمورها، غير مبال بما يصيبه من أذى، أو يناله من مكروه.

جلس هذا الطالب مفكراً حزيناً، فمرّ بخياله صلاح الدين بن أيوب وجهاده وبلاؤه فى محاربة الصليبيين، وخطر له أنه لولا هذا الكردىٌّ، ولولا عزائمه التى كانت أقوى من جيوشه، ما سُمع للأذان صوت فى هذه النواحى، وما استطاع هو أن يجلس كما يجلس الآن فى فناء هذا المسجد الذى بارك الله حوله، فكان مثابة الرسل ومهبط الرحمات. وبينما كانت هذه الخواطر تتواثب إلى نفسه، رمى ببصره فرأى طائفة من الجنود العثمانية تتجه إلى مسجد الصخرة، وقد نهكهم التعب، وأكلهم السغب، وتمزقت ثيابهم وجللها الغبار، فهاله أن يرى جنود الإسلام على تلك الحال من المسبغة والمهانة، وحزّ فى قلبه أن يئول أمر حماة الدين الذى يقول قرآنه: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ومن رباط الخيل تُرهبون به عدو الله وعدوكم﴾ - إلى ذلك الخور والصغار. رأى تلك الطائفة من

الجنود فقام يسعى إليهم، وما كاد يقترب منهم قليلاً حتى رأى بينهم ضابطاً كان يعرفه بحلب، هو أحمد أغا. فحيّاه فى شوق وحفاوة، ثم قال: يبدو عليك وعلى أصحابك يا سيدى أنكم قدمتم من سفر طويل.

ـ لم يكن السفر طويلاً يا سليمان، ولكن... ثم لوى وجهه فى ألم واستخذاء كأنه يريد أن يحجب ما قد يبدو عليه من دلائل الضعف النفسى.

ـ وماذا وراء (لكن) هذه؟

ـ وراءها الخزى والهزيمة.

فبادره سليمان سائلاً:

ـ كيف؟!

ـ هلم يا صاحبى نجلس إلى جانب هذا الجدار، فقد يطول بنا الحديث، وكان النهار شديد القيظ، مختنق أنفاس النسيم، استظلت فيه بومة بشجرة زيتون، وأخذت تنعّب وتولول، كأنما كانت تبكى ملك سليمان، وبعد أن جلسا قال أحمد أغا:

خبّرنى أولاً عن شأنك أنت، فإن آخر عهدى بك كان بمدينة حلب منذ أربع سنين.

ـ نعم كان ذلك منذ أربع سنين، ولن أنسى كريم عنايتك بأبى وحدَبك عليه، ومنذ ذلك الحين نزعت نفسى إلى أن أكون جنديّاً، وكان الجهاد فى سبيل الله أقصى ما تهفو إليه آمالى، وزادتنى قراءة سير أبطال الإسلام شغفاً بلقاء الموت، وكانت تتناوب خيالى صور رائعة للمجد الذى ينتظرنى، حتى كدت أجن جنوناً. فطالما أيقظتنى من غفوتى أصوات الجماهير، وهى تصيح: الله أكبر! الله أكبر! لقد أنقذ سليمان الحلبى الإسلام من أعدائه، وروّى سيفه من دمائهم! فكنت إذا دهمتنى هذه النوبة، أجلس فى ظلام الليل الدامس حزيناً باكياً، أتلفّت فلا أجد سيفاً ولا رمحاً، وأتسمّع فلا أسمع إلا سكون الليل وهدوءه. والسكون صوت موحش، هو صوت الموت والفناء. ثم أحاول أن أهزّ ذراعىّ لأستأنس بما قد يكون بهما من قوة على الجهاد، فلا أهز إلا ذراعين ناحلتين، لا تقويان على قتل ذبابة، فيزيد بكائى ويطول أنينى، وكثيراً ما كان يستيقظ أبى، وتستيقظ أمى، فيسرعان نحوى مذعورين واجفين، وما كان أشد حنان كفّ أمى، وهى تمسح على رأسى وجبهتى، وتتمتم بآيات من القرآن مبدّلة ملحونة، لتطرد عنى الجن والشياطين، حتى إذا زاد ما بى،

وطال الأمر عليّ، وخفت أن أوصم بالجنون، ذهبت إلى إبراهيم باشا والى حلب.

ـ ويل له من ظالم غاشم!!

ـ دعك من هذا فلسنا الآن بصدد الحديث عن الناس، فإن الناس أضغاث بجانب إنهاض الدين وإعادة الإسلام إلى سابق مجده. ذهبت إليه فى قصره، فسخرت فى نفسى مما رأيت من جنود وأعوان، وخدم وخِصيان، وأبهة كاذبة وعظمة جوفاء، يعرف هؤلاء الأتراك كيف يصطنعونها بإطالة الشوارب وكثرة ما ينتطقون به من خناجر، وينتكبونه من بنادق. وبذلك الصوت الخشن المفزع، الذى يظنون أنه يغنى عن جُرأة القلوب وصدق العزائم، فلما حاولت أن أجاوز الباب تواثب على الحراس والأجناد من كل مكان فى عجب ودهشة، وانطلقت السيوف من أغمادها، وركض الفرسان من مواقفهم، وأقسم لو أنهم دُعوا ليوم كريهة، ما كانت لهم هذه الوثبات ولا تلك الحماسة المتأججة. نظروا إلى مشدوهين، كيف جرؤت؟ وكيف جال بنفس بعوضة مثلى أن تخترق هذا الحصن المنيع والحرم الحرام؟! وكيف يصح لفتى فقير ممزق الثياب من أبناء العرب، أن يتحدّى ذلك لملك الذى لا ينال، ويطأ بقدميه فناء تلك العظمة الشمّاء؟! وقفت أنظر فى وجوههم، فى لمحات وجهى شىء غير قليل من السخرية، فصاح بى كبيرهم قائلاً فى اشمئزاز: ماذا تبغى يا عرّبى؟! قلت: أريد أن أقابل الوالى. فابتسم فى صلف وقال: أنت تقابل الوالى؟! قلت: نعم. قال: ألا تدرى أن ذلك ممنوع؟ قلت: الذى أعرفه أنه الوالى، وأنه يجب عليه أن يقابل من هم فى ولايته. قال: وماذا تريد منه؟ قلت: ذلك ما أوثر أن احدِّثه به بنفسى.

وكان الباشا حينما سمع ضجيج الحراس أطلّ من نافذة غرفته، وسأل عن الخبر، فلما علم بأمرى دعانى إليه، وقابلنى عابساً، ثم قال بصوت يشبه الزجر: ماذا تريد يا فتى؟! قلت: أريد أن ألحق بالجندية لأجاهد فى سبيل الله، فضحك حتى سقطت عمامته، وجلس بعد أن كان قائماً. ولما التقط أنفاسه، قال فى رفق يعتمده الناس عند مخاطبة المجانين: تريد أن تجاهد فى سبيل الله؟! آه.. آه.. قلتَ لى.. هذا شىء عظيم! وأنا يا بنىّ أريد أن أطير الآن إلى زوجتى وأولادى بإستانبول، وأريد أن أضعك فى عُلبة «النشوق» هذه، وأسدّ فتحتها بالرصاص والحديد، حتى لا أسمع منك هذا الهذر! أنت رجل لو نفختُ فيه الآن نفخة لطار إلى الغرفة التى أمامى، من الذى وضع فى رأسك فكرة

الجهاد هذه؟! الجهاد يا بنى منزلة لا ينال شرفها إلا الرجل القوى الضخم ذو المتن الأزلّ والساعد المفتول، ولو فتحنا باب الجهاد لأمثالك لأنشأنا جيشاً جراراً للهزيمة والعار، تتزاحم فيه النساء قبل الرجال. ماذا بك بالله؟! وماذا فيك للجندية؟! ذلك الجسم النحيل الشاحب المتلوى، وهاتان العينان الزائغتان، وذلك الصدر الذى هو أصغر من أفحوص القطاة؟! لعلك تخيلت نفسك وأنت فى زي الجندية رشيقاً فتّاناً تتسابق إليك الفتيات وتجتذب نظراتك الغانيات! لا يا فتى!! لقد كذبتك نفسك. لن تكون فى ثياب الجند إلا مثار ضحك القيان، وسخرية الصبيان.

قال كل ذلك وأنا واجم مفكر، وقد تطلّعت لأجد حولى خنجراً أغمده فى صدره لأستريح من زهوه وعتوّه، فلم أجد. ثم رفعت رأسى إليه فى كبر واعتداد وقلت: هوّن عليك يا سيدى. إن ميدان الجهاد أوسع من ميدان القتال، وسأختار الميدان الأول ولله فى كل ذلك شأن هو مقدّرة.

ـ وماذا فعلت بعد ذلك؟

ـ خرجت من عنده، وعزمت وأنا فى الطريق على أن أتجرّد لدراسة علوم التصوف والتاريخ، لأستبين منها خير سبيل للجهاد. فذهبت إلى أبى، وطلبت منه أن يعيننى على الدراسة بالجامع الأزهر، فزوّدنى بما أردت وذهبت إلى مصر، وقضيت بالأزهر ثلاث سنوات، قرأت فيها على كثير من علمائه. ولما دخل الفرنسيون مصر، ورأيتهم يصبّون على الأزهر حاصباً من قذائفهم، تحركت فى نفسى عوامل الإنتقام وعزمت على أن أقتل كبيرهم «بونابارت» ولكنى جبنت، واجتذب الشيطان السكين من يمينى فلم أجد لى عزماً، وعندئذ غادرت مصر وأقمت بالقدس حيث تجدنى. والآن حدِّثنى عن نفسك، فقد علمتَ طويَّة أمرى.

فزفر أحمد أغا وقال: إن حديثى لن يطول وإن كان ألمى طويلاً: قمنا من غزّة لغزو الفرنسيين بمصر بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضياء، وحاصرنا قلعة (العريش) حتى استولينا عليها بعد جهد، وعندئذ شرع الفرنسيون يفاوضوننا فى الصلح على أن ينزحوا عن البلاد. وسمعت من بعض الضباط أن المعاهدة تمت وأنها وُقّع عليها منّا ومنهم، ولكنى علمت بعد ذلك أن الإنجليز لم يرضوا عن هذه المعاهدة، وأن سارى عسكر كليبر استأنف القتال. فالتقى بجيشنا عند عين شمس، فانهار الجيش أمامه كما ينهار الطلل البالى،

وتقهقرنا إلى بلبيس، ثم إلى الصالحية. وتفرّق جنودنا بَدَداً، وهاموا على وجوههم فى الصحراء أذلاء مهزومين حتى وصلتُ اليوم مع طائفة منهم إلى القدس.

- وانتصر الفرنسيون وعادوا إلى ملك مصر كما كانوا؟!

- نعم واحسرتاه!!

- وكان إبراهيم باشا والى حلب يسخّر منى ومن ضآلة جسمى؟ فماذا يقول اليوم فى جنوده الأشداء؟!

- حقّاً إنه كان مخطئاً. إن النفوس هى التى تحارب لا الأجسام.

- لقد أصبحت أعتقد أن سيوف الترك أضعف من ان تنال من الفرنسيين منالاً، لأننى علمت أنهم يحاربون بأساليب جديدة وبآلات جديدة.

وهنا جلس أحمد آغا على ركبتيه وقال: سليمان! ألا تستطيع أن تعمل عملاً عجز عنه الجيش؟!

- هذه هى آمالى منذ سنوات، ولكن النفس الإنسانية تتبلّد باليأس وتثبط العزائم.

- إن نفسك فوق النفوس، وهى أبعد من أن تنالها يد اليأس. لقد قرأتَ كثيراً فى سير الأبطال، وتشوقت كثيراً إلى كأس الشهداء وما أعد الله لهم من نعيم مقيم. ما هذا يا رجل؟! إن الإسلام يدعوك لنصرته، وإذا ضاعت مصر ضاع الحجاز وانقطع السبيل إلى بيت الله، وضريح رسول الله.

- آه يا أحمد!! إن مما يؤلم حقّاً أن تُريد فلا تقدر. إن نفسى تريد، ويدى لا تقوَى.

وهنا خاف أحمد أن تفلت الفريسة من يديه، فاتخذ منهجاً آخر فى الإغراء وقال: ألعلك تخاف الموت؟! ما كنت أظن أن للخوف عليك سلطاناً، ولكنى أرى اليوم أن الضعف الإنسانى لم يجاوزك. ما هذا؟! أين تلك النفس الوثابة، وأين التهافت على الجهاد، وأين تلك النفحات الربانية؟! لقد عاد الضياء ظلاماً، والعزم أوهاماً، والسيف الصارم كَهاماً!! وأصبحت مخلوقاً أرضياً حقيراً، بعد أن كنت تسبح فى سماء كلها إشراق ونور. وقد كنا نرفع إليك الرءوس لنراك فأصبحنا نطأطئها لنبحث عن مكانك فى الحضيض.

ـ أنا لست فى الحضيض وإن التصق به جسدى الفانى .

ـ جسدك الفانى فيه روحك الباقية ، فإذا رفعته ارتفع . لقد كنتُ أفخر بمثلك ، وكان الدين يستعدّ لشدائده بمثلك ، والناس يدعون فى صلواتهم أن يقيِّض الله لهم رجلاً مثلك لكشف الضرّ عنهم . وحينما قرأتُ فى بعض الكتب أن بعض الأولياء قال للشيخ كمال الدين الدميَرى : إنه سمع قائلاً يقول : إن الله يبعث على رأس كل مائة لهذه الأمة من يجدّد لها دينها ـ لم أشك فى أنك بطل هذه المائة ، وأنك ستعيد الإسلام إلى جِدّته ونضارته .

فتألقت عينا سليمان ، وتجمعت أسارير وجهه وتقبضت شفتاه شأن العازم المصمم وقال : وماذا أعمل يا أحمد؟!

ـ تأخذ هذا الكيس وفيه مائة محبوب ذهباً ، وتذهب اليوم إلى ياسين آغا حاكم غزّة ، ليذلل لك سبيل السفر إلى مصر .

ثم أخرج خنجره من منطقته وقال : وإذا بلغت مصر فأغمد هذا الخنجر فى صدر كليبر قائد الجيش الفرنسي .

فقذف سليمان بالكيس فى وجه صاحبه ، وقال وهو ينتفض : إن المجاهد فى سبيل الله لا يحتاج إلى مال . حسبى هذا الخنجر وسأهزّ به الدنيا هزّاً ، وسأترك فيها دوياً .

سافر سليمان الحلبى إلى غزّة ، وبقى بها أياماً ينتظر قيام قافلة للتجارة تقصد إلى مصر ، حتى إذا قامت صحبها ، فبلغ القاهرة بعد ستة أيام . وكان ذلك فى اليوم الرابع عشر من مايو ، وكان يعرف القاهرة من قبل ، ويعرف طرقها المعوجة وحاراتها الضيقة ، فحمل خُرْجَه واتجه صوب الأزهر ليقيم برواق الشاميِّين ، وقضى وقتاً وهو يحضر الدروس ، ويعيش من نسخ الكتب . وكانت الفكرة تنتابه كما تنتاب الحمَّى صريعها فينتفض انتفاضاً ، ويمس خنجره الذى أخفاه فى طيات ثيابه ، ويهمُّ بإنفاذ خطته ، ولكنه يعود فيقعده الخور ، وتصدّه النفس المطبوعة على حب الحياة .

وهكذا بقى ريشة فى مهبِّ العواصف ، وكرة تتقاذف بها العواطف ، فكان بين إقدام وإحجام ، وثورة وخمود ، وشجاعة وجبن ، «وبعض الحجا داع إلى البخل والجبن» . ولما ضاق بالأمر صدره أفشى بعض سرّه إلى بعض الطلبة من أصدقائه ، وهم : محمد الغزى ، وأحمد الوالى ، وعبدالله الغزى ، وعبد القادر الغزى ـ فسخروا منه ، وهزءوا به ،

ورموه بالجنون. وقال له عبدالله الغزى: إنك يا سيدى البطل المغوار أعجز من أن تقتل ذلك الفأر الذى يزعجنا فى كل ليلة بالوثوب على وجوهنا! فزاد ذلك من غيظه وحفزه على التصميم. فخرج فى صباح اليوم الثالث عشر من شهر يونية إلى الجيزة، يمشى مطرق الرأس مذعوراً، كما يمشى الكلب المسعور، باحثاً عن كليبر فى كل مكان كما يبحث الصائد عن طريدته. فعلم بعد طول التساءل من نواتّى سفينته، أنه يتمشى فى كل مساء فى حديقة قصره بالأزبكية. فرجع إلى القاهرة وكان قد أظله الليل، فحاول أن يصل إلى حديقة القصر فلم يستطع، فقضى ليلته فى مسجد قريب. ولما أصبح تتبع خطوات الجنرال وسار فى إثره إلى «الروضة»، ثم عاد خلفه إلى القاهرة، واستطاع التسلل إلى الحديقة فكمن فيها خلف ساقيه. وكم جال بخياله فى هذه اللحظة من صور: جال بخياله سخرية والى حلب به، وجال بخياله ما فعل الفرنسيون بيافا، وجال بخياله أن الملائكة يستعدون الليلة للقائه فى جنة الخلد بين المجاهدين والشهداء، وجال بخياله أن ذلك الخنجر الذى ترتعش به يده، سينقذ أمةً كاملة من ويلات الذل والاسترقاق، ثم جال بخياله أن اسم سليمان الحلبى المغمور المجهول، سيجلجل فى الآفاق ويدوّنه التاريخ بين أسماء أبطاله الأمجاد. وهنا أغمض عينيه وتشهّد، وأخذ يتلو آيات من القرآن فى الجهاد وفى ثواب المجاهدين، وما كاد يفتح عينيه حتى دخل كليبر ومسيو «بروتان» المهندس ـ الحديقة، فنهض سليمان واقترب من الجنرال فى ذل متصنع، فظنه مستجدياً فلم يأبه له، ولكن سليمان وثب عليه كما يثب النمر الجائع، وطعنه بخنجره طعنة قاتلة فسقط مضرّجاً بدمائه. وهمّ مسيو بروتان أن يتعقب القاتل، فلما أمسك به طعنه سليمان ست طعنات، خرّ بعدها لليدين والفم، ثم عاد إلى كليبر فطعنه ثلاث طعنات ليقضى على آخر مُسْكة من حياته، ولم تحدّثه نفسه بالفرار. ولكن غريزة حب البقاء دفعته إلى جدار فى الحديقة فاختفى عنده، وجاء الحراس فرأوا قائدهم وقد أسلم الروح، فهالهم الأمر وتملكهم الجزع، وأقسموا على الانتقام من مصر وأهلها، وأن يدكوا أركانها دكّاً. ونفخوا فى أبواقهم ليجمعوا شتات الجنود المنتشرين بالقاهرة، واهتزّت أرجاء المدينة وزُلزلت للحادث الجلل.

- ١٦ -

كانت القاهرة يلفُّها غبش الظلام، حينما انطلق جنود الفرنسيين فى أنحائها غاضبين مهدّدين بمحو القاهرة من صحيفة الوجود. وقد تسابقوا إلى القلاع والتلال، وصوّبوا

مدافعهم نحو المدينة المسكينة، واعتزموا أن يجعلوها نسفاً، وألا يبقوا بها نفساً. ووصل الخبر المشئوم إلى السكان المنكوبين فهُرعوا إلى ديارهم ليفرّوا من الموت إلى الموت، وعلا الضجيج، وصاح النساء من نوافذ المنازل مولولات ناعيات، وبكى الأطفال مفزوعين لهذا الهول العظيم، وتذكر الناس ما أصابهم فى الثورة القريبة العهد من فوادح فأخذتهم الرجفة، وانطلقوا فى الطريق يصيحون: يا لطيف... يا لطيف!!

وكان نيكلسون ومحمود بقهوة بخطة سيدنا الحسين، فلما وصل إليهما الخبر بهتا وأخذهما أول الأمر ما يشبه الذهول، ثم قال نيكلسون:

ـ من يكون القاتل يا تُرى؟

ـ يكون من يكون، فلن تُفلت مصر من أكبر نكبة فى تاريخها. وتكون النازلة أعظم إذا لم يعثروا على القاتل.

ـ ويل للقاهرة ثم ويل لها! لقد أصبحت منذ دخل الفرنسيون غرضاً لا تخطئه السهام. هلم بنا إلى الدار فقد تركنا بها لورا وحيدة، وأخاف أن يمسها سوء.

وبينما هما فى الطريق قابلهما السيد أحمد المحروقى، وصاح بهما: لقد وجدوا القاتل. فعالجه نيكلسون قائلاً: وأين وجدوه؟

ـ الحق أنه هو الذى أوجد نفسه، فإنه ـ كما يبدو لى ـ لم يحاول الفرار، ولم يغادر حديقة القصر. وقد علمت أنه طالب علم حلبيّ، والفرنسيون يعتقدون أن وراء الأكمة ما وراءها.

فقال محمود: غداً يتبلج الصبح لذى عينين، إن القاهرة فى هذه الليلة لن تنام، وكيف تنام من تنصب له أشراك الحمام؟!

ثم انطلقا حتى بلغا دارهما، فوجدا لورا لدى الباب والهة حزينة، حتى إذا رأت محموداً سقطت بين ذراعيه، وأخذت تبكى وتضحك فى آن. ثم اتجهت إلى أبيها وقالت: لقد قتلنى طول انتظاركما فى هذه الليلة الليلاء، وقد أصمّت صفّارات الفرنسيين أذنىّ وهم يجوسون خلال الطرق فى شبه جنون محموم. هل قتل كليبر حقاً؟

فقال محمود: نعم قتل حقاً، وهو فيما أعتقد آخر ركن للفرنسيين بمصر. قتله شاب حلبى فدائى فيما يظهر، وإنى أمقت الوسيلة وإن ارتحت إلى الغاية.

ـ حسناً يا محمود، وإن كان بعض الناس يرى أن الغاية تبرّىء الوسيلة.

فقال نيكلسون: هذا رأى قائل شديد الخطر، لو أخذ به لهدمت الأخلاق جميعاً، ولتحول الناس إلى ذئاب وثعالب، إن الغدر ليس من الشجاعة فى شىء، وإن من الرجولة أن يجبه الرجل خصمه فى نزال شريف، لا أن يكمن له كما تكمن الصلال.

فقالت لورا: هذا صحيح يا أبى، ولكنى أظن أن الأمر يختلف إذا اختلف الخصمان فى القوة، تصوّر يا أبى عدواً يسلّط عليك السيف وأنت أعزل حتى تخضع له مرغماً مقهوراً، ثم يأخذك بأساليب الإذلال والقسوة، أليس من حقك فى هذا الحين أن تكيد له، وأن تثب عليه فى الظلام؟ هؤلاء الفرنسيون غزوا بنى مصر بسلاح جديد، وأذلوهم بالمدافع الحديثة الابتكار. وقد كان قصارى ما يعرفه المصريون من الحرب، أن يجول الفارس من المماليك بفرسه مزهواً متحدياً، ثم يثب على خصومه ليجالدهم بالسيف، فهل من العدل أن نصمهم بالخيانة والغدر، إذا هبّ أحدهم من وراء جدار فاغمد خنجره فى ظهر خصمه العنيف الجبار؟ ليس للأخلاق يا أبى ميزان واحد، لأنها تختلف باختلاف الأحوال والأزمان والحوادث. فالعمل الشريف فى حال، قد يكون دنيئاً فى أخرى، وإنما هو العقل الحكيم الذى يقدر الأمور ويحكم على الأحوال.

فقال نيكلسون: لم نتمتع بسماع فلسفتك منذ عهد بعيد يا لورا، ولكنى أعتقد أن القتل الشريف لا يكون إلا فى القصاص، وفى ميدان القتال.

ـ إن مصر لم تكن منذ دخلها الفرنسيون إلا ميدان قتال، وهذا الشاب الحلبى قتل كليبر فى ميدان القتال. فقال محمود:

إنه قتله غدراً. فقالت لورا: وأكثر القتل فى الميدان لا يكون إلاّ غدراً. إن الفارس يتحيّن غفلة من صاحبه فيفجؤه بالطعنة. أسمعت فارساً يقول لخصمه: خذ حِذرك يا صاحبى فإنى ساضربك فى جنبك الأيسر؟ ما هذا الكلام يا محمود؟ إن الحدود بين الأخلاق مائعة متموّجة. فقال أبوها: أنت تحكّمين العقل يا لورا، ونحن نحكّم الضمير.

ـ ما الضمير؟ كلمة جديدة أخرى من الكلمات التى ابتدعوها، لو طلبتَ من «سقراط» تحديدها ما استطاع. هذا ضميره يؤنبه لأنه قبض على قاتل وساقه إلى القضاء، وهذا ضميره يؤنبه لأنه لم يقبض عليه، وهذا ضميره يخزه لأنه ضرب ابنه وعنف عليه، وهذا ضميره

يخزه لأنه لم يضربه. ما هذه الفوضى وما هذا الارتباك الخلقى؟ وأظن أننى سمعت منك يا أبى، أن القضاء الإنجليزى لا يُصدر أحكامه عن قانون مدوّن، وإنما يحكم القاضى فى كل مسألة على حسب الأحوال المحيطة بها، ذلك لأن لكل حال حكماً. فقال نيكلسون: هوّنى عليك يا بنيتى، ودعينا - كما يقول الإنجليز - نتفق على أن نختلف، أتظنين أن الفرنسيين سيصبُّون نقمتهم على البلد؟

- ما أظن بعد أن قبض على القاتل وتبين أنه حلبى.

وقال محمود: أخشى أن يجرّهم البحث إلى تتبع المتآمرين الذين كانوا يَغشَوْن بيت الشيخ السادات، وحينئذٍ فعلّى وعلى نيكلسون وعلى السيد عمر مكرم، والسيد المحروقى - السلام. فقال نيكلسون: لا يا محمود إننا كنا نتآمر على إخراجهم من البلد لا على قتلهم غيلة. الذى أظنه أن موجة العذاب سترحف على الأزهر، لأن القاتل كان أحد طلابه. ثم دلفوا إلى مضاجعهم، والقاهرة ساهدة ناصبة. ومرّ يومان تم فيهما تحقيق الحادث الجلل، وحُكم على سليمان الحلبى بقطع يمينه التى صوّبت الخنجر إلى صدر القائد العظيم، وبصلبه فوق مِخْزَق وترك جسمه لجوارح الطير تتخطّفه، وبقتل الطلبة الأربعة الذين أفضى إليهم بسره. ثم احتفل الفرنسيون بجنازة المقتول احتفالاً ضخماً، ودفنوه بحديقة قصر العينى.

وحينما قُتِل كليبر، أطلّ الجنرال مينو برأسه من الغمرة التى كان فيها ووثب إلى قيادة الجيوش الفرنسية، وأصبح حاكم مصر المطلق، لا لموهبة ممتازة أو لعبقرية نادرة أو لنبوغ فى ميدان الحرب أو ميدان السياسة، ولكنه وصل إلى هذه القمة قضاء وقدراً، كما وصل من قبل إلى المراتب السامية فى الجيش، دون أن يفتح فتحاً، أو يحرز انتصاراً. وصل إليها كما نقول اليوم: بالأقدمية لا بالكفاية، لأنه كان أقدم قواد الفرق فى الخدمة. وانتقل من القلعة إلى قصر القائد العام بالأزبكية، وأظهر من العظمة والبذخ والتباهى ما لا يستطيعه غير «مينو».

أما زبيدة: فإنها حينما وصل إليها الخبر، وعلمت أن زوجها أصبح حاكم البلاد، وأنها أصبحت ملكة مصر كما زيّنت لها «رابحة» العرافة منذ سنتين - أخذتها نوبة مبهمة مختلطة، يمتزج فيها السرور بالحزن، والرضا بالسخط، والتصديق بالسخرية والازدراء. وفتحت عينيها كأنها تستيقظ من حلم مخيف مفزع، وأخذت تناجى نفسها فى أسىً ممضٍ قاتل:

أهذه غاية المطاف؟! وتلك هى الأمنية الخدّاعة التى أطفأت بها سراج حياتى؟! ولهذه الصفقة الخاسرة بعت جسمى ونفسى؟! ولـذلك الأسـم الأجـوف ضحّيت بحـب محمود الطاهر النقى؟! ذلك الحب الملائكى الذى لو مس الهاجرة لعـادت نسيمـاً، أو امتـزج بالمـاء لكان تنسيمـاً؟! كيف صدّقـت هذه الخرافـة؟ وكيف أغوانـى الشيطــان بتصديقها؟! أنا ملكة مصر؟! ثم أخذت تضحك كما يضحك الأبله المأفـون. أنـا ثانية شجرة الدر بمصر؟! مرحى!! مرحى!! مرحى!! أين عرشى، وأين وزرائى، وأين جيشى وأين أمرى ونهيى؟؟ ملكة من أوهام، وعرش من أحلام، وجيوش من حطام. ثم أين مصر التى أنا ملكتها؟ رسوم وأطلال، وأخلاق بالية وأسمال، وأشباح كالظلال. أنا ملكة مصر؟ ولن أستطيع أن أخرج من دارى، أو أجرِّد حملة على طاهى مطبخى الفرنسى!! يا لضَحك القدر ويا للسخرية ويا للعار!! كيف صدّقتُ أن أكون ملكة مصر؟ حقّاً إن بين من يدّعون العقل كثيراً من المجانين، وإن شر الجنون ما كان خفيّاً مستوراً. وهذه العرافة «رابحة» - قطع الله لسانها - هى التى خدعتنى، ورأت فى عقلى مسلكاً إلى الجنون فسلكته. هؤلاء العرافون قد تكون لهم لمحات من الغيب، ولكنهم لا يحسنون تفسيرها. يقولون لرجل: أبشر ستكون لك شهرة ولاسمك ذيوع، فيذيع اسمه فى جريمة! ويقولون لآخـر: إنـك ستنزل فى بيت الحاكم، فيسجن! قالت لى رابحة: إنك ستكونين ملكة مصر، ولم تقل: إنك ستعتقلين فى بيت حاكم مصر الأجنبىّ. ويحـى علـى شبابـى، وويلـى من خيالـى وأوهامى!! لقد فقدت كل شىء، ونكبت بكل شىء، وحصلت وأنا ملكة على غير شىء.

ودخل «سرور» فرآها باكية حزينـة فقـال لهـا: ما هـذا البـكاء يا سيدتـى؟ نحـن مؤمنون، وإن الله لا يغيِّر فى لوح القدر ما كتب فيه.

- أعلم ذلك يا سرور، ولذلك أبكى.

- هوّنى عليك يا سيدتى، إن الله مع الصابرين.

هكذا كانت حال زبيدة عندما أصبحت سيدة نساء مصر، وقد روّح عنهـا قليلاً أن زوجها انصرف عنها إلى شئون الدولة، وترك لها وقتاً غير قصير تنعم فيه بالبعد عنه.

وتوالت الأيام، وأظهر كل يوم منها تعثّر «مينو» فى سياسته، وأبان كل حادث «خلقاً من أبى سعيد عجيباً»: فقد عبث بقواد الجيش كما شاء حقده، فعزل منهم من عزل لسخائم فى نفسه، ورفع من رفع من غير حق. فذعر القواد لهذه الفوضى وسخط الجنود، وتبددت

وحدة الجيش ، وألّف ديواناً جديداً للأحكام ، جعل بين أعضائه صهره العزيز السيد عليّاً الحمامى ، ثم اتجه إلى أهل مصر فأرهقهم بالضرائب الفادحة ، وأكثر من المصادرة وسجن الأبرياء وهدم الدور ، حتى محيت أحياء بأكملها ، وأصبح معظم القاهرة قفراً يباباً ، وبلغت القلوب الحناجر ، وضاق بالناس الخناق ، فأخذوا يهجرون القاهرة أفواجاً ، وزاد فى سخط الجيش أن زبيدة وضعت له غلاماً فسمّاه : سليمان ، شماتة فى كليبر ، وتنويهاً باسم قاتله .

وفى مارس سنة ١٨٠١ م ذاعت بين الناس ذائعة تلقفتها الأفواه ورددتها المجامع ، وتنفّس الناس لها الصُعداء ، وكان نيكلسون ومحمود العسال يزوران السيد المحروقى فى داره ، فوجدا عنده الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، فسأله نيكلسون : ما هذا الخبر الغريب يا مولانا؟

ـ لم يصبح الخبر غريباً يا سيدى السوسى ، فقد وصلت عمارة إنجليزية إلى أبى قير ، فهزمت الفرنسيين ونزلت إلى البر ، ودارت معركة بالإسكندرية بالمكان الذى يدعونه بقصر القياصرة ، كانت الغلبة فيها للإنجليز أيضاً ، وسافر «مينو» إلى الإسكندرية ، لتتمّ الهزيمة .

ـ أواثق أنت من هزيمة الفرنسيين .

ـ كما أثق بالعدل الإلهى . إن الفرنسيين ليسوا كما كانوا أيام بونابرت ، وقد قضى مينو على البقية الباقية من حماستهم واجتماع كلمتهم ، وراح يبدد جيشه فى كل أنحاء مصر . فكيف يستطيع بفئة قليلة أن تلاقى جيشاً عظيماً؟!

ـ ما رأى سيدنا الشيخ فى الإنجليز؟

ـ أخاف أن تكون لهم نيّة فى مصر ، وأنهم يركبون الترك مطيّة لأغراضهم .

ـ إن الإنجليز قوم شرفاء .

ـ وما شأن هذا بالشرف؟ إن للكون نظاماً ، والفوز دائماً للقوّى يا سيدى .

ـ هذا الذى يسميه أهل أوربا : نظام بقاء الأصلح .

ـ سبقهم إلى ذلك القرآن الكريم : ﴿فأما الزبد فيذهب جُفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض﴾ وقال عز شأنه : ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ .

وانفضّ المجلس وتوالت الإشاعات فى كل يوم، ورقص عوام القاهرة وطربوا لكل خبر جديد، وأنشد الصبيان الأناشيد فى المكاتب والطرق، وخرج شذّاذ «الحسينية» و «العطوف» و «الرميلة» فى جموعهم يتحدّون الفرنسيين، ولم تمض أيام حتى وثب جيش من الترك والإنجليز على أرباض القاهرة، فذعر الجنرال «بليار» نائب «مينو» وعقد مع المغيرين معاهدة من شروطها أن يغادر الجيش الفرنسى بلاد مصر فى أقرب ما يكفى من الزمان لرحيله.

أما مينو فاضطرب أمره بالإسكندرية وركب رأسه، وقذف بجنوده فى غير حزم إلى موت محتوم حتى إذا سُقط فى يده، ورأى أنه ضلّ الجادة وتقطعت به وسائل الدفاع، سلّم سيفه مهزوماً، وعاهد الترك والإنجليز فى السادس والعشرين من أغسطس سنة ١٨٠١ م على مغادرة مصر، فأقيمت معالم الأفراح فى كل مكان. وأشرقت الشمس بنور ربها فبددت غياهب الأحزان، ونظر الفرنسيون إلى الجنوب وهم مبحرون من الإسكندرية، بعد أن تمزقت آمالهم، فإذا أبو الهول لا يزال يبتسم!!

- ١٧ -

كانت زبيدة ذات صباح فى غرفتها، وهى فى همّ ناصب وحيرة قاتلة. أتفرح لجلاء الغاصبين عن بلادها، أم تحزن لجلائها عن بلادها؟ ولماذا تفارق أهلها وديارها إلى قوم هم عنها غرباء وهى فيهم دخيلة؟ ألهذا الزواج الذى عبث بنسبتها فأصبحت لا شرقية ولا غربية، وبتر ما كان لها من صلات محبوبة من الحب والسعادة والشباب، ونقلها من بيئتها التى فيها نشأت، وفى جوّها نمت، وفى ظلال آمالها تفيّأت - إلى بيئة أعجمية أصبحت فيها غريبة الوجه واليد واللسان، كما ينقل النبات من مصر الدفيئة الضاحكة إلى مثالج سيبريا الباكية الحزينة؟ لماذا تفارق أرضها وديارها؟ إن زواجها كان خطرة من وسواس مينو ذى الخيال الخصيب والعقل العجيب، ولبانة أراد قضاءها فى مصر، حتى إذا نبت به مصر، وأزمع عنها الرحيل، تركها وراءه كما يقذف الطفل بلعبته الأثيرة عنده إذا رأى غيرها.

وهنا تنهدت وقالت: كنت لُعبة مصرية، وسيجد القائد العظيم بفرنسا لُعباً كثيرة تحسن القفز والرقص، وتعرف كيف تستهوى الرجال الذين لهم عقول الأطفال، وبينما هى تغوص وتطفو فى هذا الخضم المائج من الأخيلة والأفكار، إذ صاح ابنها سليمان وكان

نائماً، فهرعت إليه حدبة مشفقة مدللة، وأخذت تناغيه وتناجيه بألفاظ عذبة، تعرف الأمومة العطوف كيف تصوغها، ثم شرعت تحدثه كأنما تحدث فتى يافعاً وتقول:

ستبقى معى هنا يا فتاى العزيز إذا ذهب أبوك إلى فرنسا، سنعيش هنا يا سليمان سعيدين، وستنال من حبى أضعاف أضعاف ما كنت تناله من حب أبيك. إن فى قلبى حباً قديماً مكظوماً كتمته وأحكمت سدّه، وقد كنت فى أول يوم من الأيام أريد أن أسعد به كما تسعد الفتيات، فجاء أبوك فى طريقى فسددته عنه وعن الناس جميعاً، فخذه كله يا سليمان، فإنه حب نقى كماء الغمام، طاهر كصحائف الأبرار، عظيم كموج البحر. إنك إن تذوقته أغناك عن حب أبيك، إنه حب فتاة والهة ضاع أملها، وأم رءوم تحيا مرة أخرى فى وحيدها.

وهنا ضحك الطفل ـ وكان فى شهره السابع ـ وحرّك يديه، فقبّلته وقالت: أتضحك من أمك يا سليمان؟! اضحك منها كما تشاء فقد ضحك منها أبوك، وضحك منها الناس جميعاً، ولكنك ستبقى لى على كل حال، ريحانة حياتى وقرّة عينى. وإذا طلبك أبوك فقل له فى رجولة وشهامة: سأبقى مع أمى فاذهب أنت حيث شئت. إن أبناء النيل لا يبغون بمائه الطاهر بديلاً! أنت مصرى يا سليمان. أنت مصرى بلا شك لأنى مصرية، وأنت فِلذة منى، فدع أباك الفرنسى يذهب إلى بلاده كما يريد، وتعال نعد إلى دارنا فى رشيد ونجمع حطام تلك الذكريات الحلوة، التى عبثت بها العواصف وبدّدتها الخطوب.

ثم طافت بوجهها جهومة قاتمة وقالت: وإذا حتم أبوك أن تذهب معه إلى فرنسا فماذا تفعل؟ أتذهب معه؟ إنك إن فعلت قتلت أمك يا سليمان. إنى أوثر أن تُنزع روحى من جسمى على أن تنزع أنت من يدى. وهنا طرق الباب خادمها «سرور» وكان معه «روفائيل» المترجم جاء يحمل رسالة من مينو قدم بها جندى من الإسكندرية، فأذنت لهما بالدخول. وأخذ روفائيل يترجم الرسالة وكانت موجزة جافّة يأمر فيها زبيدة بالرحيل العاجل إلى رشيد، لتدرك السفن التى ستقلّ جيش الجنرال «بليار» إلى فرنسا، ويهددها فى آخر رسالته بأنها إن أبت الرحيل، فعليها أن تُسلم ولدها إلى مسيو «إستيف» مدير الشئون المالية، ليحمله إلى أبيه بالإسكندرية.

وما كادت زبيدة تسمع الرسالة، حتى جُن جنونها، وصاحت فى وجه روفائيل:

إذهب وقل لسيدك: إن مخلوقاً فى الأرض لن يستطيع أن يأخذ منى ولدى، ثم قل

لسيدك : إنه لم يعد حاكماً على مصر حتى يتّبع معى أساليبه التى قضت عليه وعلى ملكه . ثم قل له مرة ثالثة : إن زبيدة مصرية ، وإن ابنها مصرى ، رغم أنف القوانين التى تأنّقتم فى وضعها .

وحينما سمعت أمها صياحها أقبلت مذعورة ، وكانت فى غرفة بعيدة مع ابنها على الحمامى ، فلما علمت الخبر انفجرت بالبكاء ، ووقف إلى جانبها «سرور» وهو يدافع الدمع فلا يستطيع . وأخذت زبيدة تذكر تاريخها الأسود ، وتعدد ما أصابها من النكبات بين بكاء يمزق الصخر ، ونشيج يذيب الحديد . وكان المترجم «روفائيل» قد خرج بعد أداء رسالته مسرعاً ، فلحق بالمسيو «إستيف» فى دار ديوان الأحكام وأخبره الخبر ، فأسرع إستيف إلى قصر مينو وطلب مقابلة زبيدة ، وكان ينتفض من الغضب ، فلما قابلها قال لها فى حزم وتصميم : إن زواجها بالجنرال لم يكن لعبة لاعب أو سخرية ساخر ، وإنما هو زواج شرعى له كل مطالب الزواج الشرعى ونتائجه . أما أن الجنرال لم يعد حاكماً لمصر ، فتلك مسألة ليس للنساء أن يخضن فيها ، ولكن الذى يعلمه ، والذى يجب على السيدة أن تعلمه ، أن من مطالب الجنرال مينو الأولى عند الاتفاق على نزوح الفرنسيين عن مصر ـ أن تُتخذ الوسائل الأمينة لسفر زوجه وابنه إلى فرنسا . فإذا كان مينو حاكم مصر أو لم يكن ، فإن الترك والإنجليز سينفذون هذا المطلب ، رضيت السيدة أم أبت ، وإذا بلغت بالسيدة رقة العاطفة بحيث لا تستطيع أن تغادر وطنها ، فإننا لن نجرؤ على مسّ تلك العاطفة النبيلة ، ولكننا نكتفى بحمل ابن الجنرال إليه لأنه فرنسى السلالة ، بمقتضى المادة الحادية عشرة من عقد الاتفاق المسجل بمحكمة رشيد .

سمعت زبيدة هذا الحديث أو هذا التهديد فصُعقت ، وتطلعت إلى مسيو استيف فى استعطاف يفتّت الصخر ، فلم تجد فى وجهه إلا عبوساً ويبساً ، ثم تنهدت وقالت : ألا ينتظر الجنرال سنة حتى ينمو الطفل قليلاً ويتحمل مشاق السفر؟ فقال إستيف فى إيجاز : السفر غداً .

وهنا هزت زبيدة رأسها وقالت فى شمم اليائس : سأسافر بالطفل غداً ، ويفعل الله ما يشاء . ثم كفكفت دموعها وقالت لسرور : أعدّ كل شىء يا سرور . وهمّت أمها بالبكاء فصاحت بها : ليس هذا وقت البكاء يا أماه ، إنما هو وقت الصبر والتسليم لأحكام القدر .

فأعدّ سرور كل شىء للرحيل وحتّمت والدة زبيدة عليه أن يسافر مع سيدته إلى

فرنسا، لأنها لا تطمئن على سلامتها إلا وهى في حياطته وحراسته. وذاع خبر سفر زبيدة بين أهلها بالقاهرة، فاجتمع فى الصباح بالقصر: السيد المحروقى، وزوجته أمينة، وابنته وابنه، ومحمود العسال ونيكلسون، ولورا. وكانت قترة من الحزن تعلو وجوههم كأنهم جاءوا لتشييع جنازة، ونزلت زبيدة من السلم وحولها أمها وأخوها وسرور، وخادمة تحمل ابنها سليمان، فسلّمت على مودعيها واحداً واحداً فى صمت وتجلد. ولما جاءت للسلام على ابن خالتها محمود لم تملك إلا أن تعانقه، وتطبع على جبينه قبلة صامتة، ثم ترسل زفرة حزينة فيها كل ما في معجمات اللغة من حب وحنان. ولما همّت لتركب المحفّة إلى ساحل بولاق، اتجهت نفيسة إلى سرور وهى تحمل فى يدها كيساً ثقيلاً وقالت هذا الكيس يا سرور به ألف محبوب، فاحفظه معك ولا تنفق منه شيئاً، فإذا وقعت سيدتك زبيدة فى ضائقة فانفق منه ما تشاء لتخليصها. نحن لا ندرى يا سرور ما يكون، ولكن إياك أن يمسها سوء وأنت معها. أنت خير أمين عليها يا سرور، أبذل روحك ومالك في أن تنجيها لوالدتها الحزينة. فى وديعة الله. . . فى وديعة الله!

وركبت زبيدة المحفة بين بكاء الباكين وعويل المعولين، واختفت عن الأنظار كما يختفى حجر صغير يقذف به فى بحر خضّم.

وسار محمود ولورا مع خالته نفيسة حتى بلغا دارهما، وحينئذٍ قالت لورا: لم يعد لنا بقاء بالقاهرة يا محمود.

- إن سرورنا بخروج الفرنسيين ضيّع نشوته حزننا على زبيدة، وقد أقمنا بالقاهرة لمناجزة الغاصبين، لذلك أرى ما ترين.

فأسرع نيكلسون قائلاً: لنسافر غداً إذاً مع السيدة نفيسة. ولما عُقد الاتفاق على السفر، خرج محمود إلى ابن عمه حسين فأخبره بما عزم عليه، ووجد عنده سعداً الشباسى المراكبى، فعلم منه أنه سيسافر إلى رشيد بعد يومين. فتركهما محمود وأخذ فى الاستعداد للسفر، حتى إذا جاء اليوم الموعود ركبوا فى السفينة إلى رشيد.

- ١٨ -

وصلت السفينة إلى رشيد بعد ستة أيام، والتقى محمود بأمه بعد طول الغيبة، فرآها

لا تزال ملازمة فراشها، ولكنها انتعشت لرؤيته ودبّ فيها دبيب الحياة. ثم قدّم إليها لورا، فقبّلت يدها في أدب وحياء، وأخذت السيدة زينب تحدّق النظر إليها وتصوّبه ثم صاحت: هذه ابنتنا لورا؟ أين كنت يا بنيّتي كل هذه المدة، أيجمل بك أن تتركي خالتك المريضة دون أن تروّحي عنها بزيارة قصيرة؟ حقاً إن البعيد عن العين بعيد عن القلب.

فقال محمود: إنها كانت في القاهرة يا أمي منذ دخول الفرنسيين مصر وقد كانت ترعى ابنك محموداً بعطفها، وتمرّضه وهو جريح، حتى عاد إليك رجلاً قوياً يحملك هكذا، ويقبّلك هكذا، ثم حملها وأخذ يغمر وجهها ويديها بالقُبل، وهي جذلى فرحة تتصنع الصياح والعربدة. ثم قالت وقد التقطت أنفاسها: إنك لا تزال غلاماً شقيّاً كعهدي بك. وأين أبو لورا؟

ـ ذهب إلى منزله الذي كان يسكنه «إلياس فخر» المترجم، لأنه رحل مع الفرنسيين... وعادت إليه خادمته مبروكة، وخادمه عبد الدايم. فاتجهت إلى لورا وقالت: لقد كان منزلك جميلاً يا لورا، كنت كلما زرت مقام سيدي الإدفيني عرّجت عليه لأجلس بجانب إحدى نوافذه الشمالية، لأتمتع بشميم أزهار الحدائق حوله. فأسرع محمود وقال: إنه لم يعد منزل لورا يا أمي.

ـ ألم تقل: إن المترجم رحل عنه، وإن الخواجة نيكلسون عاد إليه!...

ـ نعم. ولكن لورا يحول الآن بينها وبين سكناه حائل عظيم.

ـ حائل عظيم!! ما هو؟

فابتسم نحو لورا وقال:

ـ الشرع الشريف والحب الشريف.

فقالت أمه: أنا لا أفهم هذه الألغاز!.

ـ وهذا بعض ما تستحقين، فطالما ربكت عقلي بالأحاجيّ (الفوازير) وأنا صغير لا قِبل لعقلي بها.

ـ دع هذا يا محمود وخبرني جلية الخبر.

ـ إن لورا تزوجت.

ـ ألف مبارك يا لورا. بمن؟ فقال محمود:

ـ بمن لا يحب في الدنيا إلا امرأتين: هي.. وامرأة أخرى تجلس الآن في سريرها.

ـ رجعنا إلى الألغاز.. بمن بحقك؟!

ـ بابنك محمود.

فاتجهت زينب إلى لورا ومدت إليها ذراعيها، وأخذت تقبِّلها بين الضحك وانهمار الدموع، ثم قالت وهي تداعبها: عرفت سر تكرار زياراتك لخالتك المريضة حينما كنت برشيد. ثم ضحكت وقالت: هؤلاء البنات لا يغلبهن غالب حينما يُردن، وقد خلّفت لهن أمهن حواء تلك الشبكة المحكمة الأطراف التي تصيدت بها أباهن آدم. ألف مبارك. ألف مبارك يا لورا. من مثلي الآن في رشيد؟ لي ولد وبنت صوّرهما الله من جمال وحسب وخلق كريم! الآن لا أحب أن أموت!

ثم أمرت الخدم أن يُعدّوا لهما غرفاً خاصة بهما، وبعد قليل هجس بنفسها هاجس أليم انقبض له وجهها فقالت: لقد علمت بخاتمة نكبة بنت خالتك يا محمود، إنها لمصيبة أخفُّ منها الموت. وكيف حال أختي نفيسة؟

ـ جاءت معنا من القاهرة وذهبت إلى دارها.

ـ مسكينة!! لن تجد بدارها أنيساً إلا إذا اثتنس البائس بما يؤلم من الذكريات!! مسكينة!! مات زوجها الشهم الذي لم تشرق شمس رشيد على مثله، وضاعت بنتها غنيمة للفرنسيين، حتى كأنهم لم ينزلوا مصر إلا لاختطافها، وبقي لها.. ماذا بقي لها؟! الثكل والجزع، وابنها عليّ الحمامي.

ـ آه يا أماه!! إن رزيئتنا في زبيدة فوق الاحتمال.

فأرسلت أمه نظرة خاطفة إلى لورا وقالت: ذلك قضاء الله يا بنيّ. من كان يظن أن الشرقي يتزوج غربية، والغربي يتزوج شرقية!! آمنت بالله، وآمنت بالقدر خيره وشره!!

وفي هذا اليوم غيّر نيكلسون زيه فارتدى ملابسه الإفرنجية، وطلّق اسم الحاج محمد السوسي إلى غير عودة، وقابل شريكه «أورلندو» فضبط معه حسابه مدة غيبته، وعاد إلى متجره بشارع البحر كما كان، مغتبطاً مسروراً برحيل الفرنسيين، مزهوّاً فخوراً بأن قومه هم الذين أجلوهم عن البلاد.

واستبشر أهل رشيد بعودة محمود العسال ونيكلسون صديقهم القديم وتوافد عليهما المهنئون. وكان حديث بطولتهما ملء المسامع والأفواه، وزواج محمود بلورا موضع جدل ونقاش بين الفتيات والأمهات.

ومرت سنوات ستٌ على محمود حتى أظلته سنة ١٨٠٧ م وهو هانىء سعيد بزوجته، وقد زاد بها تعلّقاً وزادت به حبّاً. وفى خلال هذه السنوات اضطربت الأحوال بمصر، واشتد الصراع بين الترك والمماليك، وشايع زعماء المصريين محمد على باشا، فاختارته الأمة والياً على مصر، وتجرّد لمحاربة المماليك واستئصال شأفتهم.

وفى ذات ليلة بينما كان محمود ولورا يزوران نيكلسون، دخل حسين العسال ابن عم محمود، وقال وهو يلهث من التعب: لقد بحثت عنك يا محمود فى كلّ مكان. جئت اليوم من الإسكندرية وهى فى أشد أحوال الكرب والاضطراب، فقد نزل بها بالأمس جيش إنجليزى واحتل المدينة، والناس فى حال يرثى لها، لأنهم لم يكادوا يفيقون من صدمات الفرنسيين، حتى سقطوا فى أيدى الإنجليز. وقد علمت من الشيخ المسيرى أن قائد هذه الحملة يدعى: فريزر. فبُهت محمود وقال فى ذهول: جيش إنجليزى؟

- نعم. فإنى أعرف الراية الإنجليزية، وأميِّز ملامح الإنجليز من أى جنس آخر. فقال محمود: ولماذا قدموا يا تُرى؟ فأجاب نيكلسون وقد أدرك حرج موقفه: إنهم لا يجيئوا لامتلاك البلاد، والذى أعلمه أن الدولة العثمانية حالفت نابليون، وقطعت صلاتها بإنجلترا، فخاف الإنجليز أن يستغل الفرنسيون صداقتهم الجديدة للترك فيعودوا إلى احتلال مصر، فجاءوا لدرء الخطر الفرنسى عن مصر. وربما كان مجيئهم استجابة لدعوة من المماليك. فقال محمود ساهماً:

هذا كلام حسن يا صاحبى، وأرجو أن يكون الأمر كما تقول.

فقال نيكلسون: هذا هو الذى أظن.

وبعد أيام كانت رشيد فى قلق واضطراب، فقد شهد الناس من مئذنة مسجد زغلول جيشاً مقبلاً على المدينة. ولم يكن برشيد من العُدة وآلات القتال ما تستطيع أن تدرأ به جيشاً غازياً، ولم يكن لها من الأسوار إلا أطلال عصفت بها الرياح والأنواء. وما كانت إلا ساعة من نهار، حتى دخل الإنجليز المدينة بغير قتال، فثار السكان وغضبوا، وقام

الخطباء يستحثون العامة على الدفاع ، وكان محمود العسال فى حيرة بين واجبه وحبه ، فما كان يصح فى عقله أن يقتحم المغيرون مدينته وهو واقف مكتوف اليدين . ولكن لورا؟ أيحارب قومها؟ لقد كاد قلبه لشدة شغفه بها يتسع لحب الإنجليز جميعهم .

جلس حزيناً مفكراً ، وأصوات الناس وعجيجهم تملأ أذنيه ، وهم مسرعون للقتال . فدخلت عليه لورا وقالت :

ـ فى أى شىء تفكر يا محمود؟

ـ أنا فى حيرة يا حبيبتى .

ـ وفيم الحيرة؟

ـ أنا فى حيرة بينك وبين وطنى .

ـ بينى وبين وطنك؟ إن قومى بخير يا محمود ، وإن قومى يمجّدون الشهامة كيفما كانت ، حتى إنهم يمجدونها فى أعدائهم . وإننى لم أحبك إلا لبطولتك وإقدامك ، وغيرتك على بلادك ، فإذا تخليت عن هذه الصفات لأجلى فقد تخليت عن حبى . إن زوجى محموداً الذى أحببته فوق كل حب ، وملأت به قلبى غراماً ، وفمى إعجاباً وفخراً ، لن يجلس فى داره كما تجلس العجائز وطلقات رصاص الفاتحين تصمُّ المسامع . إنه إن رضى بهذا فإن زوجته لورا لن ترضى . وماذا يقول الناس ، وبم يهمسون؟ سيقولون : لقد كان محمود محموداً قبل أن يتزوج ، لقد كان بطلاً يلاقى الموت جريئاً بساماً ، فلما فتنته الإنجليزية سلبته كل صفات الرجولة ، فأصبح فسلاً رِعديداً خائر العزم قليل الغناء . أتحب أن يقول الناس هذا عنى وعنك؟ ثم قهقهت وقالت : لا يا زوجى الباسل أنا أعرف أن شيئاً فى الأرض أو فى السماء لن يحول بينك وبين الذود عن وطنك ، ولو كان ذلك الشىء حبى ، ولكنك تجاملنى يا محمود ، تجامل زوجتك التى ليس لها سواك ، والتى تحب فيك الهمة ومضاء العزيمة .

ـ نعم أجاملك يا لورا ، ولكنى لو لم أنل رضاك لسرت إلى القتال مشتّت القلب مثقلاً بالهموم .

ـ لا يا حبيبى سر على بركة الله مجمّع القلب باسم الوجه ، وعد إلى زوجتك الوالهة مظفَراً منصوراً .

فوثب إليها يقبّلها وتقبّله فى شغف وحنان، وقد امتزجت الدموع بالدموع، وتلاقت الزفرات بالزفرات، ثم اختطف بندقيته وقفز إلى باب الدار ليلحق بالجموع الزاخرة التى شمَّرت للدفاع عن المدينة.

وكان الحشد عجيباً حقاً: اجتمع فيه الرجال والنساء والشيوخ والأطفال وكانت العصىُّ والحجارة أكثر ما يُزهى به هذا الجيش من عُدد القتال. فتقدم محمود الجمع، ودعا إلى الهجوم بين تهليل المهللين وتكبير المكبرين، وكان القتال فى الحارات والبيوت، واستمرت المعركة ساعات سقط فيها عدد غير قليل من الجانبين. ولما احتدم القتال ولاح النصر فى جانب أهل المدينة، ورأى محمود رابية لا تزال تتحصن بها ثُلة من الجنود، فدعا بعض الفتيان إلى محاصرتهم، ولكنه لم يكد يتقدم منهم قليلاً حتى رماه أحدهم برصاصة اخترقت صدره فسقط على الأرض صريعاً.

وهنا ثار السكان ووثبوا وثبة رجل واحد، فتراجع الغزاة وغادروا المدينة، وعاد الجموع يحملون جثة محمود بين البكاء والعويل، حتى وصلوا إلى بيته، فهُرعت لورا المسكينة إلى زوجها المقتول نادبة باكية، ورمت بنفسها عليه تعانقه وتقبّله، وتخاطبه كأنما هو حىٌّ مدرك؛ بألفاظ تقطِّع نياط القلوب، وعبارات تستنزف ماء العيون، حتى إذا حاول أبوها وحسين العسال أن يواريا عنها الجثة، صاحت بهما غاضبة صاخبة: اذهبا إلى شأنكما، ودعانى أقبِّله فإن الحب لا يعرفه إلا من يكابده، ودعانى أحدِّثه فإنه يأنس لحديثى ويطرب لنبرات صوتى، ثم انكبت عليه ثانية، وهى تقول: محمود يا حبيبى: أحقاً عدت منصوراً وجئت إلى زوجتك الحبيبة تطلب أجر بطولتك؟ هذه قبلة، وهذه قبلة أخرى، أهذا يكفيك يا نور عينى؟ لا يكفى؟! أنت ولد طماع جشع! خبِّرنى بالله ماذا فعلت؟ تقدمت الصفوف كمياً شجاعاً، وسخرت من الموت جريئاً تيّاهاً، وذكرت زوجتك الغالية فوثبت غير هيّاب لتحظى بحبها وإعجابها؟ لم يبق لى حب أدخره يا محمود، لقد أخذته كله، ولم أترك فى نفسى إعجاباً إلا توّجت رأسك به. إنك لم تمت يا محمود. قل إنك لم تمت!! هؤلاء المساكين الذين حملوك إلىّ، يظنون أنك ميت لا ترجى!! كذّبهم يا محمود، وقل لهم إنك حىٌّ، وإن مثلك لن يموت.

ثم حُمل البطل إلى الدار، وبقيت لورا طول الليل إلى جانبه تحادثه وتقبّله، حتى خاف أبوها عليها الجنون، فأخذ يهدِّىء من نفسها، ويُذكِّرها بما يجب من التسليم

لأحكام الله، ويدعوها إلى الجلد والصبر، فسكنت بعض السكون، واستسلمت إلى البكاء، وفي البكاء شفاء المحزونين.

وفي الصباح هُرع الناس للاحتفال للجنازة، وأخذ المؤذنون فوق المآذن يُشيدون ببطولة الراحل ويمجدونه، ويستمطرون عليه الرحمات، وازدحم مسجد المحلي بالجموع التي أقبلت للصلاة عليه واجمة حزينة، ووقف الحاج عبدالله البربير، فأنشد قصيدة في رثائه، بكى فيها وأبكى الناس. كان من أبياتها:

محمودُ إن حُمِدَ العزاءُ فإنه | في يوم خطبك ليس بالمحمود
لم يبق فيَّ سوى الدموع فهاكها | دفاقةً. والجودُ بالموجود

ثم حمل أعيان المدينة النعش على أعناقهم إلى مدفن شهاب، وعاد المشيعون يرددون الدعوات ويرسلون الزفرات.

أما لورا: فقد أصابها طائف من الذهول، فكانت تخرج في كل صباح مع خادمتها مبروكة ذاهلة مأخوذة كأنها تمشي في حُلم مزعج مخيف، فتذهب إلى الحدائق لتجمع أنضر أزهارها، ثم تتجه إلى قبر زوجها فتنثرها فوقه، وتجلس مطرقة صامتة حتى يظلها الليل، فتعود مع الخادمة. وقد اعتاد الناس هذا المنظر، فكانوا إذا مرّت بهم أطرقوا في خشوع، واتجهوا إلى السماء يسألون لها الصبر، ولبطلهم الرحمة. وكان الأطفال يسمونها: بالسيدة الحزينة. ولقد طالما تسابقوا إلى جمع الأزهار لها، ليظفروا منها بتلك النظرة الباكية الحنون.

وفي إحدى الليالي الممطرة المظلمة، سمعت السيدة نفيسة طرقاً على باب دارها، فأيقظت خادمتها لتفتح الباب. وما هي إلا لحظة حتى صعد سرور ومعه سيدته زبيدة، فلما رأت زبيدة أمها سقطت بين ذراعيها باكية، وطفقت تقبّلها وتهتف بكلمات متقطعة. أما أمها: فقد أدهشتها المفاجأة، فأخذت تهذي وتبكي، ثم تفتح عينيها واسعتين لترى أفي يقظة هي أم في منام. فلما سُرّي عنها قليلاً تأملت فتاتها المحبوبة، فرأت هزلاً وسقماً، ووجهها شاحباً شاعت فيه الغضون، وبحثت عن جمالها الرائع فلم تجد منه إلا بقية من آثار جالدت المصائب فلم تستطع أن تعصف بها فهزت رأسها في شجن وأسى واتجهت إلى سرور فقالت: قل لي كل شيء يا سرور. فزفر سرور زفرة طويلة ثم قال: سافرنا من رشيد إلى فرنسا ثم لحق بنا الجنرال مينو بعد شهر، وأقمنا بباريس، وفي هذه المدينة تبدّلت

أخلاق الجنرال، فكان خشناً، كثير الصخب سريع الغضب، وقد انصرف إلى سهرات الليل وغشيان الحانات. وكنت دائماً أوصى سيدتى بالصبر، وادعوها إلى مقابلة هذه الجفوة بالازدراء. ثم رحلنا إلى إيطاليا فى مدينة يسمونها «تورينو» فزادت حدّته، وتضاعف احتقاره لسيدتى بما لا يُحتمل. ثم هجر المنزل، وترك سيدتى تقاسى غصة الفقر وألم المهانة. ولم نصبر هذه المدة الطويلة على هذا الأذى، إلا من أجل ابن سيدتى سليمان، ولكن الجنرال شمّر أخيراً على ساعديه، وضرب الضربة القاصمة فأرسل ابنه إلى فرنسا ليضعه فى إحدى الأسر الشريفة لتثقيفه وتعليمه. وعندئذٍ لم يبقَ فى قوس الصبر منزع، ولم تجد سيدتى فى البقاء بإيطاليا - بعد أن انتُزع ابنها منها - إلا موتاً بطيئاً تحيط به الهموم والأحزان، فعزمنا على الفرار، وأخرجت كيس المال الذى أودعته عندى يوم رحيلنا، فسافرنا خفية فى ظلام الليل إلى مدينة تسمى «نابلى» ومنها ركبنا سفينة إلى الإسكندرية، فوصلنا إليها أمس، ثم اكترينا بغلين إلى رشيد. فتنهدت نفيسة وقالت: نعم ما صنعت يا زبيدة!!

- إن عودتى يا أمى لن تصلح شيئاً مما تهدم من حياتى.

- ستعيشين بجانب أمك هانئة سعيدة، وستمحو الأيام تلك الذكريات القاسية، فإن كل شىء ينسى يا بنيَّتى فى هذه الحياة.

- إلا الشباب الضائع.

- كونى سلوى لأمك يا فتاتى، ولا تزيدى بالله فى أشجانها.

- كما تشائين يا أمى. كيف حال ابن خالتى محمود؟

فوجمت نفيسة وسُقِط فى يدها، لأنها ما كادت تظفر بتهدئة بنتها حتى اصطدمت بسؤال يثير الآلام. ولكنها جمعت شجاعتها وقالت: إن هذه الدنيا لا يُركن إليها يا زبيدة.

- ما معنى هذا؟

- لقد قامت حرب بالمدينة منذ شهر، كان محمود بطلها المغوار.

- أجُرِح؟

- نعم جرح جرحاً بالغاً.

ـ وكيف حاله الآن؟

ـ إنه الآن لا يتألم يا زبيدة. إنه فى جنات النعيم!!

فشهقت زبيدة شهقة كادت تُودى بها، ثم اشتدت بها نوبة بكاء، وأخذت تهرف وتهذى وتقول: إنه كان حياتى يا أمى. لقد وهبت له حبى وقلبى على الرغم من قسوة الأقدار، ووقوف الدهر بينه وبينى. لا أمل فى الحياة بعد محمود، ولا طعم للحياة بعد محمود!!

فعادت أمها إلى تهدئتها وتسكين ثورتها، وانقضى الليل كله فى بث وبكاء، ومحاولة للتصبر والعزاء.

وعندما بزغت الشمس سألت زبيدة أمها عن مكان قبر محمود، وأخذت معها سروراً، فانطلقت إلى القبر هالعة جازعة، حتى إذا بلغته رأت امرأة جاثية عنده، مطرقة ذاهلة، فلم تتبين وجهها. فجثت قُبالتها فى صمت وخشوع، ثم غلبتها الزفرات فتنبهت المرأة ورفعت رأسها، وحين نظرت زبيدة إليها من خلال الدموع صاحت:

لورا؟ أنت لورا؟ ونظرت إليها لورا نظرة المذهول وقالت:

زبيدة؟ أحقاً أنت زبيدة؟ ثم غلبهما البكاء فأطرقتا، وطال هذا الإطراق، حتى إذا قلق سرور لطول صمتهما قام فرأى لهوله أنهما فارقتا الحياة، فأسرع إلى سيدته فأخبرها الخبر الأليم.

وشاع الأمر فى المدينة، فجاء السيد على الحمامى وجاء نيكلسون، وتزاحم الناس فحملوا الجثتين. وبعد صلاة الظهر احتفل أهل رشيد لجنازتهما، ووضعوهما فى نعش واحد، ودفنوهما فى قبر واحد.

وإذا ذهبت إلى رشيد اليوم وقصدت إلى مدفن شهاب، رأيت قاعة طال القدم على جدرانها، بها قبر نُثرت عليه الأزهار، ورأيت رخامة كتب عليها بخط الثلث الجميل:

(هذا قبر الشهيدتين)

أمامك قصةٌ عن مجد قومٍ تقشّع عن سمائهمُ السحابُ
مناصلُ إن دُعوا للحرب لَبُّوْا وإن نودوا لمكرمةٍ أجابوا
نجومٌ ما بدت إلاّ لتخفى كما يعلو على الماء الحبَاب
سلوا التاريخَ عنها إن أردتم ففى صفحاته خُطَّ الجواب

بدر الدين على الجارم

الفهـرس

رقم الإيداع : ٥٢٦٨/١٩٨٨
الترقيم الدولي : ٦ ـ ٢٥٥ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٢١ - ٨١٧٢١٣ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

الغلاف للفنان حلمي التوني

سلاسل الذهب



علي الجارم

الأعمال النثرية الكاملة

عرفنا المرحوم علي الجارم شاعراً كبيراً، وعرفناه لغوياً متمكناً ثم اختياره عضواً بمجمع اللغة العربية منذ نشأته، وانتشرت كتبه في النحو والبلاغة في جميع البلاد الناطقة بالعربية هادياً وأستاذاً للمتعلمين. ثم عرفناه ناثراً قصاصاً عندما كتب رواياته الأدبية. هذه الروايات التاريخية التي كتبها بأسلوب شاعر فجاءت نموذجاً للأدب الرفيع واللغة الأصيلة التي عرفنا بها الجارم من خلال كل إنتاجه.

وتقدم المكتبة العربية هذا العمل الذي يضم القصص الأدبية كاملة وهي: فارس بني حمدان، الشاعر الطموح، خاتمة المطاف، قصة العرب في إسبانيا، شاعر ملك، هاتف من الأندلس، الفارس الملثم، مرح الوليد، سيدة القصور، غادة رشيد.

إن الأدب [illegible] الذي لا يعتمد على [illegible] على [illegible] هذه المجموعة القصصية الرائعة التاريخية الرائعة.